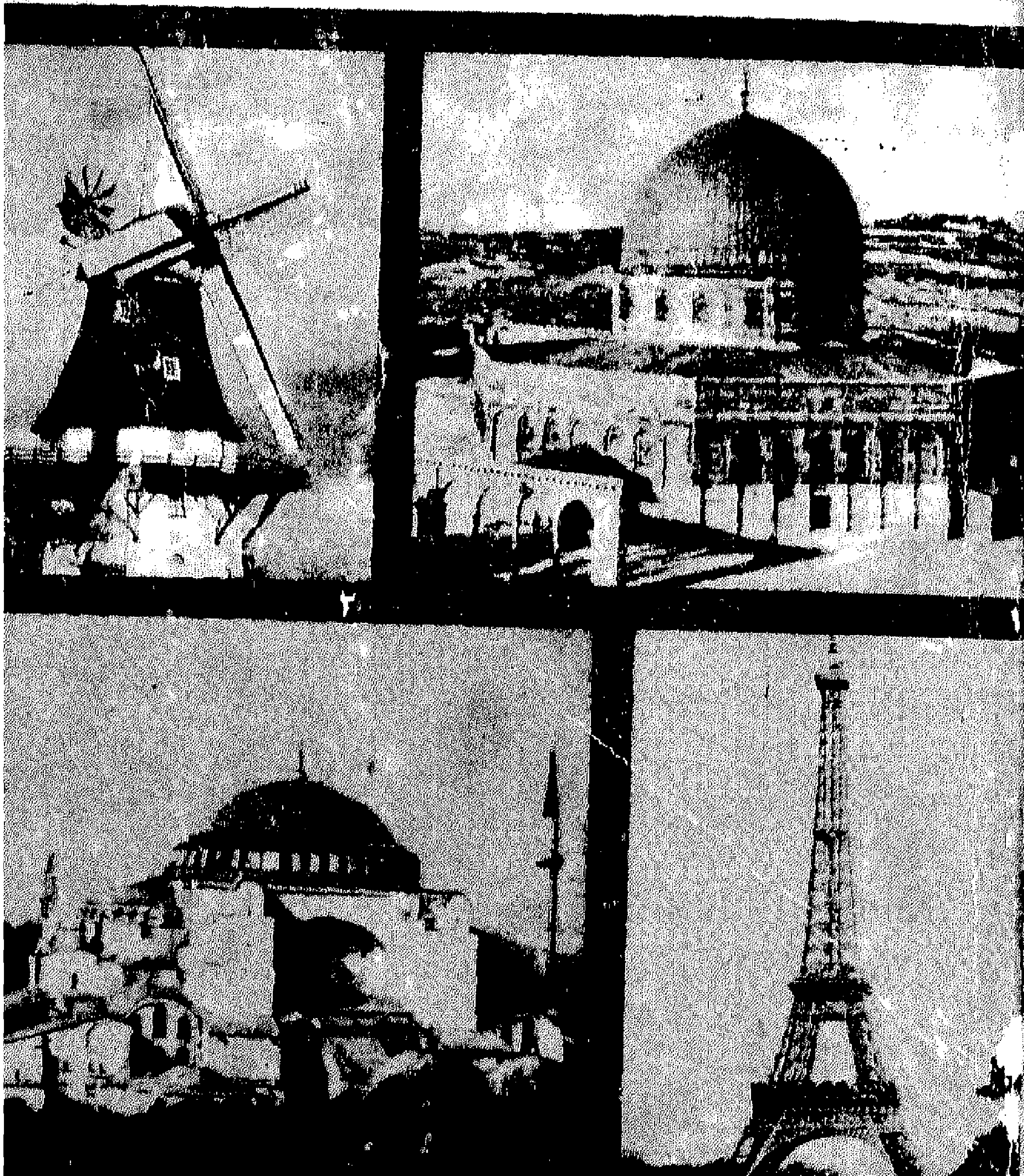


اقرأ

أحمد عبد المجيد

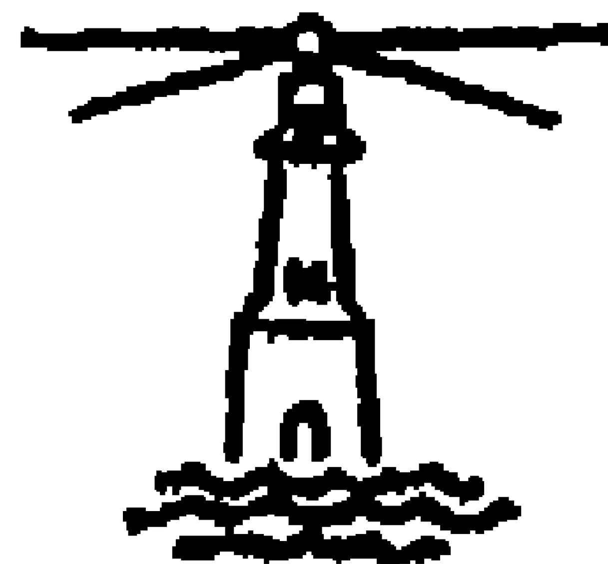
# سندباد دبلوماسى





تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر

خذ المعارف من دار المعارف

أحمد عبد المجيد

# سندباد دبلوماسي

اقرأ ٣٧٦

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٧٦ — ديسمبر سنة ١٩٧٣

١ — المسجد الأقصى ببيت المقدس
٢ — طواحين الهواء بهولندة
٣ — برج إيفل بباريس
٤ — مسجد السلطان أحمد بإستنبول
٥ — كوبرى جولدن جيت بسان فرنسسكو
٦ — معبد جوبتر ببعلبك
٧ — الكولوزيوم بروما
٨ — آثار معبد البارثينون ببلاد اليونان

الناشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج. م. ع

# الإهـــداء

إلى شريكة حياتى ، التى قاسمتنى هذه الحياة ،
فى يسرها وعسرها ، وفى حلوها ومُرِّها .

**أحمد عبد المجيد**

## تمهيد

لست أدعي أنني أضيف جديداً ، أو أرد مفقوداً ، أو أعمر خراباً ، أو أشفي غلة ، أو أرتق فتقاً بهذا الكتاب ، إلا بقدر ما يزجيه من تسلية فى وقت الفراغ ، ومن دفع الملل عن النفس المكدودة بعد عنت أو مشقة ، ومن معارف من هنا وهناك .

فالنفوس إذا كلت عميت ، كما يقول الرسول الكريم . والكتاب عند الجاحظ ، لابد فيه « أن يكون نزهة تبهج النفس ، وأنساً يشرح الصدر ، ولابد فى تأليفه من حشد النوادر التى تعين على جلب راحة الفكر ، ومن سَوْق الغرائب والعجائب التى تبعث الدهش والعجب » .

ولقد جبل الناس على الميل إلى العلم بأحوال الغير ، ما ظهر منها وما بطن . وإنك لتنظر إلى حجرة جارك من خلال نافذة مفتوحة ، إذا أمنت عين الرقيب ، اندفاعاً وراء ما انطوت عليه النفس من حب معرفة ما هو ملك الغير ، والتطلع إلى ما يملكه الآخرون فى معاشهم ، بل إننا نتمنى السعادة التى نرى الغير ينعمون بها ، ونود لو كنا مكانهم نستمتع بما يستمتعون . ولو أن هذه السعادة حلت بنا ، لما أحسسنا بها كما شاهدناها وهى بين أيدى الآخرين ، بحكم رغبة التغلغل فى حياة هؤلاء الآخرين .

والرواية السينمائية التى تعرض حياة أسرة أو تطور مجتمع تلقى رواجاً وإقبالا على مشاهدتها ، والصحف والمجلات التى درجت على تخصيص مكان بها لأخبار المجتمع ، تكون أكثر ذيوعاً وتداولا بين الناس .

وأنا إذا تناولت موضوع هذا الكتاب بحسب أهمية الرحلات

وذكرياتها ، أو أسبقها إلى الذاكرة ، فربما تبعثرت منى هذه الذكريات وانتثرت ، واختلط القريب منها بالبعيد ، والقاصى بالدانى . ولكنى رأيت أن أكون فى سردها كالمسلك بالمسبحة التى تتداعى حباتها ، الواحدة فى إثر جارتها ، فى انتظام لا سبيل معه إلى تقديم أو تأخير .

وجدير بالإشارة ، أن الذكريات شيء يختلف كل الاختلاف عن المذكرات . فالذكريات إنما هى أحداث مرت براويها ، وهو يسردها بدون تنميق أو تجميل ، وبدون أن يستعين فى نقلها بأوراق مدونة ، أو وثائق مخطوطة . بل إن كاتبها يعتمد على ما تعيه ذاكرته من أحداث ، وعلى شذرات قصيرة مدونة ، تعتبر مفاتيح لقصص طويلة . وهذا العون من الذاكرة مع بعض رءوس مواضيع ، هو أساس كتب الرحلات .

أما المذكرات فهى التى تستند أولا وأخيراً على ما سبق لكاتبها أن جمعه ودونه وحفظه مرتباً مبوباً ، منسقاً منمقاً ، فى دقة وعناية ، لا تترك تاريخاً إلا ذكرت ساعته ، ولا حادثاً إلا ذكرت أصحابه وما أحاط بهم وقت وقوعه من ظروف وملابسات .

من ذلك يتبين ، أن ما قصدته من كتابة هذه الرحلات ، وما حوته من ذكريات ، إنما هو الرواية والقصة والسرد لما وقعت عيناى عليه من أحداث ، وصداها فى نفسى ، و وصف ما أعيش فيه من بلدان وظروفها وعلاقتها ببلدى ، وما أستخلصه من كل ذلك من نفع ، أو أتأسى به من عبرة ، أو يفيد به غيرى من تجربة .

ولست أدعى أننى بذلت الكثير من الجهد ، وأنفقت الغزير من عصارة الفكر الذى يعكس مطالعاتى وما صادفنى فى ارتحالى من معارف ، يضمها هذا الكتاب على الصورة التى يراها القارىء بين يديه مبرأة من التكلف والاصطناع . ولكن فى استطاعتى أن أزعم ، أننى بذلت من ذات نفسى ومن صحتى ومن عقلى وفكرى وجهدى وأعصابى وشئونى فى

حلى وارتحالى ، ما سوف يلمسه القارئ من مطالعته هذه الذكريات ، وما انطوت عليه ، وطوته من أحداث ، كلفتنى المشقة والضنى والضيق بكثرة الناس من حولى حيناً ، ومن معاناة الوحدة والانطواء على نفسى أحياناً ، وإن كنت أطلب للوحدة والكلف بها ، خلافاً لما درج عليه الناس وما تتطلبه طبيعة البشر من الارتباط والألفة ، وطبيعة وظيفتى من الاجتماع والاختلاط .

والذكريات أصداء لماض بعيد أو قريب ، أو هى أصوات تعلو وتخفت ، تبعاً لبعدها أو قربها من ذاكرة راويها . أو قل إنها كموجات الراديو ومحطات الإرسال ، وما تكون عليه من وضوح أو غموض تبعاً لمدى الإرسال ومكانه .

وإذا كانت الوظيفة الدبلوماسية تقتضى من شاغلها أن يكون على حذر من الكشف عن خوافيها ، وما تحويه فى باطنها من أسرار ، فإن تناولى للجانب الشخصى والاجتماعى والاستقرائى الخاص بى وبرحلاتى وبنظرتى لما يحيط بى كفرد كتب عليه القدر أن يعانى ترف هذه الوظيفة ، وأن يعايش قيودها ، أقول إن تناولى لهذه الجوانب ، هو المباح لى سرده للذكرى إن لم يكن لنفع عام ، ما دمت لا أمس من قريب أو بعيد ، ما يعد مما لا يجوز الكشف عنه ، أو الخوض فيه .

أفمن الحتم على بعد أن وضح ما وضح من أمر ما أنا مقدم عليه من كتابة هذا الكتاب ، بوصفى أحد الذين شغلوا مناصب متعددة فى السلك الدبلوماسى ، أن أكتم فى صدرى أموراً لا ضير منها إذا تحقق العلم بها والانتفاع بما تناولته !

وإنه لمن الجناية فى يقينى ، ومن الجحود بأنعم الله على من فكر ونظر وبصيرة وتعليل وتحليل ، أن أتقاعس عن الكتابة فى هذه الشئون ، لتبقى فى أستار وغياهب ، لا ينفذ إليها ضوء ، أو يتسرب إليها هواء ، بحكم بهرج وظيفتى ، وما تنطوى عليه من أسرار .

وأنا فى سردى لما صادفنى فى هذه الوظيفة من ارتحال بين العديد من عواصم العالم ومدنه، وما خبرته من طباع الناس وأحوالهم السياسية والاجتماعية، لا أجاوز وظيفة آلة التصوير التى تنقل عدستها ما يواجهها من مناظر، أو مهمة جهاز تسجيل يلتقط شريطه كل ما يدور من قول أو لفظ أو نفس أو نبرة أو همسة. وفضلى فى ذلك لا يتعدى فضل من يثبت الفيلم فى آلة التصوير، أو من يعد شريط التسجيل الذى ينطبع عليه كل ما يدور حوله مهما خفتت الأصوات، فى أمانة ودقة وتماثل لا اختلاف فيه أو شبهة فى عدم صحته.

ولا أزعم أنى أتميز بأى فضل عن زملائى أعضاء السلك الدبلوماسى الذين لهم مثل ما لى من ذكريات وارتحال، ولديهم فوق ما لدى من تجارب، ومر بهم أثرى وأندر مما مر بى من أحداث، بل ربما كانت حصيلتهم من الذكريات والرحلات والتجارب والأحداث، أحق بالذكر وأدعى إلى التدوين، ولكن جرأتى على التعرض للكتابة عن ذكرياتى من خلال رحلاتى الدبلوماسية، مردها إلى اشتغالى بنواح متباينة من الفنون، لم تقف عند حد التأليف والترجمة، بل إنها جاوزته إلى جوانب من النظم والموسيقى والغناء والتمثيل، وهى شئون تدعو إلى الألفة والتهوين من شأن الكتابة فى مجال الذكريات والرحلات، كما تدعو إلى التخفف مما للتأليف من هيبة ورهبة. فإن رؤيتك الأسد كل يوم يقلل من الذعر منه والرعب من جواره. وكذلك الحال بالنسبة للمجاورين للأماكن المقدسة، الذين تلمس فيهم التخفف من هيبتهم لهذه الأماكن، على عكس ما تدخله على قلبك من الروع والهيبة وأنت مقبل عليها لأول وهلة.

ولقد أتيح لى أن أطلع على بعض ما صدر ونشر من كتب ضمت ذكريات لبعض رجال السلك الدبلوماسى فى أوربا، أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: كتاب Les Ambassades (السفارات) لمؤلفه

، Roger Peyrefitte وكتاب : The Laughing Diplomat لمؤلفه ، Daniel Varré ، وكتاب Le Diplomate لمؤلفه Iules Cambon[1] .

كما أسعدنى أن أطلع على ما دونه الأستاذ أحمد فراج طايع وزير الخارجية الأسبق فى كتابه « حديث دبلوماسى عن الأمم المتحدة » وماسرده فيه عن دوره خلال تمثيله لمصر فى اللجنة الخاصة ببحث البيانات التى ترسلها الدول الاستعمارية عن الأقاليم التى لا تتمتع بالحكم الذاتى فى سنتى ١٩٤٩ ، ١٩٥٠ . وكذلك دوره فى اللجنة الرابعة للجمعية العامة فى هاتين السنتين . ثم عندما تولى رياسة وفد مصر للجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٥٢ بوصفه وزيراً للخارجية .

وكان من حسن الطالع أن تضم مكتبتى مؤلفات السفير السابق الأستاذ أحمد رمزى : « من وحى فلسطين » وكتاب « منادمة الحروب » وكتاب « منادمة الماضى » وهى كتب تقوم بالتعريف بأحوال وسياسة الدول العربية التى عاش فيها وعايش أحداثها السياسية الكبرى وأودع فيها انطباعاته ونظراته واستشهاده بالتاريخ البعيد والقريب ، مستمداً موادها من عواطف وطنية وقومية مشبوبة ، ومستخلصاً من الأحداث الدروس والعبر والنصح الصريح ، حتى تجمعت له هذه الذكريات التى ضمنها كتبه المذكورة التى ألم فيها بالكثير والدقيق والحرى بالاطلاع ، والتأسى بما فيها من عبر .

وجدير بالذكر أن أسترعى النظر إلى أن مكتبتنا العربية ، تفتقر إلى أدب المذكرات وأدب الذكريات ، وأدب الرحلات ، وأدب التراجم . وأنت إذا وجدت شيئاً مما أسلفت ذكره ، فإنك لن تجد إلا اليسير المحدود . وأنت إذا وجدت المؤلفين لهذه الفنون من الأدب ، فإنك لن تجد

---

( ١ ) كان جول كامبون حاكماً للجزائر وكان سفيرا لفرنسا فى واشنجتون ١٩٠٧ – ١٩١٤ ثم سكرتيرا عاما لوزارة الخارجية ١٩١٥ ثم سفيرا فى برلين ١٩٢٠ وأصدر كتابه ( الدبلوماسى ) عام ١٩٢٥ طبعة ثانية .

القارىء الذى يقبل عليها ، الأمر الذى يصرف من يشاء أن يطرق هذه الأبواب ، عن أن يكتب ما لا يُقرأ ، وأن ينشر ما لا يُباع ، وأن يسرد ما لا يجد له سميعاً .

ولست أزعم أننى بما ذكرت من افتقار مكتبتنا إلى ما سردته من أبواب ، أجيء لأعدل المائل ، وأسد خروقاً فى ثوب أو حائط ، ولكن دعانى إلى ذلك أن أوفر على القارىء الاطلاع على كل ما ذكرته من فنون ، إذا شاء تسلية أو دفعاً للملل ، فى كتاب تناول أدب الرحلات وأدب الذكريات ، وقصص الشعوب وسراديب السياسة ومعالم البلدان ومعارف عنها دانية وقاصية ، وترجمة ذاتية من خلال الارتحال وترجمة عامة لمن مررت بهم أومروا بحياتى من شخصيات عملاقة أو متهافتة تبعاً للملابسات والمناسبات .

وهذا الكتاب الذى أضعه بين يدى القارىء ، يفصح عن محتواه ومضمونه من عنوانه . وإذا أردت أن أضيف شيئاً إلى كل ما سردت ، قلت إن الكتاب يُعد بلغة مقررى الميزانيات ، حساباً ختامياً لرحلة طوت أغنى فترات العمر بالشباب والأمل والفتوة وحب المعرفة ، والتطلع إلى تحليل المرئيات والتغلغل فى أعماق النفوس ، إلى جانب ما يسرده من أحداث سياسية عالمية وما لها من صدى ، على مدى ثلاثين عاماً من الخدمة فى السلك الدبلوماسى المصرى ، كانت حافلة بما يغلى فى العالم من تطورات سياسية واقتصادية ، وما تقلب عليه من أحداث وحروب ، أبدلت أوضاع مناطق فيه وأزالت قديماً وجلبت حديثاً ، إتباعاً لسنن التاريخ وحتمية التطور ، وطبيعة البشر ، ونزولا على قول الله عز شأنه : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

أحمد عبد المجيد

# الفصل الأول

## عملى فى اليونان :

كنت قبل أن ألتحق بوظائف السلك الدبلوماسى عام ١٩٣٠ ، قد اشتغلت بالمحاماة ووظائف النيابة العامة ، فترة كانت مع قصرها ، كافية لأن أقدس هاتين المهنتين تقديساً حملنى على أن أزهد فيما عداهما من مهن ومناصب . ولولا حالة صحية لم يكن من المستطاع إغفالها ، كانت تقضى بسفرى خارج القطر لفترة طويلة ، لتغير مسارى ، ولكن للقدر مشيئة فوق كل مشيئة .

لقد علمت من طبيبى المعالج أن وزارة الخارجية سوف تعقد امتحاناً شاملا لاختيار ملاحق من المتقدمين . وكان أن قُبلت بعد نجاحى فى الامتحان ، وكشف الهيئة وكانت لجنة الامتحان تراعى طريقة المتقدم للامتحان فى حديثه وصوته وإيماءاته . ثم تطلب منه أن يسير فى الحجرة المتسعة جيئة وذهاباً ، كما يفعلون بخيول السباق فى « البادوك » قبل أن تجرى فى الأشواط التى تشترك فيها .

بقى أن نتقدم بمسوغات التعيين أو نقلها من الأماكن التى كنا نشغلها لمن كان منا فى وظيفة سابقة . على أن وزارة الخارجية ، كانت تنفرد آنذاك ( عام ١٩٣٠ ) بطلب شهادة مدعمة بالأسانيد ، يتبين منها ما يملكه ولى أمر الموظف من عقار يستطيع أن يمد من ريعه ابنه الموظف ، بقدر من المال يعادل مرتبه من الوزارة بسبب ضآلة المرتبات آنئذ .

وبعد أن تم تقديم المسوغات المطلوبة ، تم تحويلنا إلى إدارات الوزارة المختلفة ابتداء من إدارة المحفوظات فالحسابات فالعهد ، إلى الإدارات الفنية والسياسية ، حتى نلم فى بضعة شهور بكافة الأعمال المفروض أننا

سنمارسها في البعثات الدبلوماسية والقنصلية المنتشرة فى أرجاء المعمورة .

وبعد أن أتممنا فترة التمرين ، لم يكن باقياً إلا انتظار حركة تنقلات تضع كلا منا فى البلد الموعود . وكانت اليونان من نصيبى ، حيث تم تعيينى سكرتيراً للقنصلية المصرية العامة فى بيريه .

لقد تلقيت النبأ بنشوة بالغة . لقد كنت مغرماً بقراءة تاريخ اليونان القديم ، وقراءة أدبها وما كتبه كتابها من قصص الميثولوجيا ، وما نظمه هوميروس فى الإلياذة والأوديسة وحروب طروادة . كما كنت أقرأ ترجمات قصيرة من شعر الشاعرة ( سافو ) ، التى كانت تمجد الحب والطبيعة ، وتعبر عن العاطفة الجياشة بأسلوب أنيق رشيق .

إن حضارة مصر القديمة ، قد ربطتها بحضارة اليونان القديمة ، وشائج وصلات لم تفتر ، بل زادتها الأيام فهماً وقرباً حتى عصرنا الحالى .

لقد رحت أستعرض مما قرأت عن اليونان ، مدنيات وحضارات راسخة القدم ، متينة البنيان ، كشف عنها الدارسون ، وأظهروها للعالم شاهداً على تقدم هؤلاء الإغريق .

ظهرت الحضارة اليونانية بعد الحضارة المصرية بآلاف السنين ، وبعد أن اتصل الإغريق القدامى بمصر وبآسيا الصغرى وبفينيقية ( سوريا ) ، اتصالا وثيقاً ، ويقول البروفيسور ( جورج سارتون ) فى مقدمة كتابه ( تاريخ العلوم ) : « إنه من السذاجة أن نفترض أن العلم بدأ فى بلاد الإغريق . ذلك أن المعجزة اليونانية ، سبقتها إلى الظهور ، آلاف الجهود العلمية فى مصر وبلاد ما بين النهرين . أما العلم اليونانى ، فيمكن أن يُعد إحياء ، أكثر مما يُعد اختراعاً » .

وقد أشار البروفيسور ( ألبرت فور ) فيما يتعلق باتصال اليونان وتأثرها بالحضارة المصرية القديمة ، إلى التشابه الكبير بين التماثيل الأولى لليونان والتماثيل المصرية ، وبخاصة التماثيل الجالسة فى البلدين منذ أقدم العصور .

وفى القرن السادس قبل الميلاد ، بدأت تظهر بواكير الفلسفة الطبيعية اليونانية . ويبدو من العسير ، تحديد الوقت الذى وصلت فيه المعارف الفلسفية المصرية والبابلية إلى اليونان .

ومن الثابت أن (طاليس) أول فلاسفة اليونان ، ومؤسس العلم اليونانى ، وأحد الحكماء السبعة ، أقام فى مصر سنوات طويلة ، تعلم فيها الرياضيات والفلك المصرى ، وأسس عند عودته ، الهندسة النظرية ، على أساس المعارف التجريبية المصرية .

أما ( فيثاغورس ) فقد هبط مصر ، وتلقى عن كهنتها العلوم الرياضية . كما أن أفلاطون ، بعد أن حكم بالإعدام بالسم على سقراط ، امتلأت نفسه اشمئزازاً من كل ما يتصل بالسياسة ، فاعتزل أولا فى ( ميجارا ) ثم شخص إلى مصر ، حيث تعلم الرياضيات ، وهو ما رواه البروفيسور ( ج. أردمان ) فى كتابه « تاريخ الفلسفة » .

* * *

واليونان التى تعد مهد الفلسفة فى العالم ، مدينة بهذه السمعة العلمية الرفيعة ، لفلاسفتها الثلاثة : سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو .

أما ( سقراط ) ، فرغم أنه لم يترك من بعده أى مؤلفات مكتوبة ، إلا أنه يُعد أحد كبار مفكرى العالم . ولقد كانت كتابات ( أفلاطون ) من بعده ، تعد الأداة الرئيسية التى نقلت إلى العالم تأثير سقراط الفكرى .

وكان مولد سقراط فى أثينا عام ٤٦٩ ق . م . وقد اشتغل فى مطلع حياته بالنحت كأبيه . ولم يكن يبالى جمع المال أو يُعنى بتكوين ثروة ، مما أورثه كره زوجته ودوام شجارها معه . وهو وإن اعترف بوجود الآلهة التقليدية فى عصره ، فإنه كان يعتقد فى قرارة نفسه بوجود مدبر واحد للكون ، بالغ السمو والعلو والقدرة .

وعلى وفرة علمه وحكمته ، كان يردد قوله : « أنا أعرف شيئاً واحداً وهو أنى لا أعرف شيئاً » . وكان يقول إنه ليس بحكيم ، ولكنه طالب

حكمة . وكانت طريقته فى التعليم والإقناع تستند إلى قدرته فى فن الحوار . وكانت محاوراته فى محاكمته . وما زالت ، دروساً تشع الحكمة والفلسفة .

وجاء أفلاطون بعد سقراط ليكمل رسالته . وقد رأى النور فى أثينا عام ٤٢٧ ق . م. وكان ثراء أسرته قد أفسح له مجال الاشتغال بالفلسفة ، بدون الحاجة إلى الكد فى سبيل الرزق . وقد ترك مؤلفات بلغ عددها ستة وخمسين كتاباً . ومن أشهر مؤلفاته كتاب « فيدو » الذى أبرز فيه تعاليم سقراط حول خلود الروح . وكتاب « الجمهورية » الذى اشتهر فيما بعد باسم « المدينة الفاضلة » .

وجاء من بعدهما — أرسطو — الذى كان يلقب بالمعلم الأول ، كما كان يعد من أعظم مفكرى العالم . وقد ولد فى مقدونيا عام ٣٨٣ ق . م . ، وتلقى العلم على يد — أفلاطون — مدى عشرين عاماً . وكان قد تلقى بعد وفاة أفلاطون دعوة من الملك فيليب المقدونى ليكون معلم ابنه الذى أصبح فيما بعد الإسكندر الأكبر . وكان يعد معلماً ومستشاراً وصديقاً للإسكندر وعندما انشغل الإسكندر بفتوحاته شرقاً وغرباً ، افتتح أرسطو مدرسته ( لوكيون ) . وقد عرف أتباعه وتلاميذه بالمشائين ، لأنه كان من عادته أن يمشى بينهم وهو يلقى عليهم الدروس .

ومن أشهر مؤلفاته : «أورجانون والأخلاق» (الذى ترجمه أحمد لطفى السيد) ، وفن الشعر ، والمنطق وتاريخ الحيوانات وعلم الفلك .

هذا البلد الغنى بهذه الكنوز من المعرفة الثرى بالنادر من الفلسفة والمنطق والفلك والنحت والشعر ، كان حرياً منى بكل تقدير ، كما أننى كنت ولم أزل حفياً به فى كل آن .

كان ( الفريد دى موسيه ) يصف اليونان بقوله : إنها أم الفنون وأرض الهيام » . أما أنها أم الفنون ، فهذه هى آثارها * التى تغالب الأيام ،

* ومن أشهر هذه الآثار معبد « الأكروبول » ومعبد « بركليس » صاحب العهد الزاهر الذى اشتهر بالعهد الذهبى . ومعابد كثيرة أخرى لم يبق منها إلا أعمدتها . وقد انتشرت آثار الإغريق فى جزر البحر الأبيض وفى أزمير بتركيا .

تشهد بحضارتها وفنونها ، وهذه هى مخطوطاتها من ملاحم وشعر وتمثيليات وفلسفة وفكر ومنطق ، تترجم عما بلغته من رفعة . وأما أنها أرض الهيام ، فهذه هى قصصها وأشعارها وملاحمها تروى قصص الحب والوفاء الذى تحكيه قصة ( بينيلوب ) زوجة ( أجا ممنون ) التى راوغت القواد من زملاء زوجها عندما طالت غيبته ، ولاحقوها بطلب زواجهم منها ، وما كانت تدعيه من أنها سوف تختار من بينهم زوجها عندما تنتهى من نسج ثوب لها من الصوف . وعندما كان يأتى المساء ، تلجأ إلى حل النسيج لتبدأ من غدها فى نسجه من جديد هذا إلى جانب قصة هيلانة التى قامت بسببها حروب طروادة .

لقد شاء القدر لى أن أبدأ أول صفحة فى كتاب عملى الوظيفى ، الدبلوماسى ، فى بلد كله فن وشعر وحب وجمال . ولم أنس الموسيقى ولكنى أستبقيها إلى موضعها القريب من هذا الفصل ، ولأتحدث عنها حديث هائم بما تلم وتحويه من عزف بارع أوصوت ساحر .

وَدعت صحبى فى ليلة نابغية استمرت حتى الفجر ، أحياها الأستاذ الموسيقار محمد عبد الوهاب ، فى دار أحد أصدقائه وأصدقائى . وقد امتلأت الدار على سعتها بالمودّعين من الصحاب . وطال استمتاعنا بغناء عبد الوهاب . وأنْسنا به ، وكأنما كنت أتزوّد من صوت عبد الوهاب قبل أن أنأى إلى مكان لايصل إلىّ فيه صوته .

وبعد يوم من هذه الليلة ، سافرت إلى الإسكندرية بقطار الظهر . وكان كثير من الأهل والصحاب فى وداعى . وقبل تحرك القطار بخمس دقائق شاهدت عبد الوهاب . قادماً لتوديعى . ولم أكن أظن أن فى استطاعته أن يستيقظ فى مثل هذا الوقت . . . من الظهر . . . ولكنه كان يدّخر لى مفاجأة . فقد ناولنى (ألبوم) يضم عدداً وافراً من اسطواناته ، كان من بينها الكثير من نظمى .

لكم أسعدنى أن أحمل معى ما كنت أشفق من حرمانى من سماعه .

فلم تكن آنذاك قد اخترعت آلات التسجيل ، كما أنه لم تكن محطة إذاعة مصر قد أنشئت ، حتى أستطيع أن أستمع إليها وأنا فى أوربا . من أجل ذلك كانت هذه الهدية الفريدة ، بالغة القيمة بين ما أحمله من متاع . وكان موقفى من هذا الألبوم أشبه بموقف ( شوبان ) من قبضة التراب التى حملها معه فى زجاجة ، عندما كان يهم بالرحيل عن وطنه بولونيا إلى باريس ، وظل يحتفظ بها أينما حل أو ارتحل ، فهى قطعة من وطنه وعطره وشذاه .

أبحرت من الإسكندرية على ظهر باخرة تركية اسمها ( إيجيه ) . وكم تمنيت أن تكون لنا بواخر تمخر عباب بحرنا المتوسط ، وترفع علمنا خفاقاً عالياً مع أعلام الدول الأخرى . وكأنما أراد الله أن يكرمنى ، فأحيانى لأرى بعد سنوات معدودة من رجائى ، بوارج لنا وبواخر ، تحمى أولاها شواطئنا ، وتبحر الأخرى إلى مختلف الموانى . ولقد كان الفضل الأول فى إنشاء بحرية تجارية لمصر ، يرجع إلى المغفور له محمد طلعت حرب ، الاقتصادى الكبير الذى حقق لمصر استقلالها الاقتصادى ، بمشروعاته المصرفية والصناعية والبحرية فى مختلف المدن والقطاعات .

كنت فى حاجة إلى الجلوس وحدى على سطح الباخرة قبيل الغروب . وكنت أحمل كتيباً يحتوى على معلومات عن اليونان ، رحت أقرأ فيه :

تسمى اليونان ( هيلاس ) باللغة اليونانية . وهى إحدى دول شبه جزيرة البلقان . وتحد اليونان شرقاً ببحر إيجيه ، وجنوبياً بالبحر المتوسط ، وغرباً بالبحر الإيونى ، وشمالا ببلغاريا ويوجوسلافيا وألبانيا . وتبلغ مساحتها ١٣٣٠٠٠ كيلومتر مربع . وعدد سكانها ٧,٦٠٣,٦٠٠ نسمة ( عام ١٩٣٠ ) . وعاصمتها أثينا . ومدنها الكبرى هى بيريه وسالونيك وباتراس . وتعد اليونان من أضيق دول العالم مساحة بالنسبة لسكانها . كما تعد من أكثرها جبالا . ولشواطئها خلجان عديدة أشهرها خليج كورينثيا . ومناخ اليونان هو مناخ دول حوض البحر المتوسط . وصيفها طويل وجاف ، وشتاؤها قصير وممطر أحياناً ، وجميل ومشرق فى

أغلب أيامه . وتعتبر اليونان دولة زراعية . وهى تزرع الحبوب والكروم والتين والدخان والزيتون . وتصدر اليونان الأنبذة والتين والدخان وزيت الزيتون وبعض المعادن وكذلك الرخام . وبأرضها معادن أشهرها الحديد والزنك والمنجنيز والنحاس . أما صناعاتها فمتوسطة الجودة . وهى تتركز فى سالونيك وبيريه، حيث يصنعون المنسوجات والمنتجات الكيماوية والجلود . وتستورد اليونان البترول والصوف والقطن والمنسوجات والملابس الجاهزة .

وكان الحكم فى اليونان ملكياً منذ عام ١٨٣٠ . ثم أصبحت جمهورية فى عام ١٩٢٤ . ثم عادت إلى الملكية عام ١٩٣٥ . وتتكون السلطة التشريعية من مجلسى النواب والشيوخ .

* * *

كان الليل قد زحف على فلول النهار ، بعد أن مالت الشمس إلى المغيب وراء الأفق، فى موكب كله جلال ورونق وبهاء . وكانت حمرة الشفق فوق خد السماء ، تسعد النفس وتستأثر باهتمام العين وتدغدغ الحواس والمشاعر .

هنا نامت الأشباح بين أجفان بنات الماء ، وامتزج النور بالظلام ، وغلب السكون على الأصوات ، وتلاشت من النفوس أشجان وأشجان . هنا لثمات النسيم شوق وهيام ، ومداعبة الموجة للموجة حديث عبقرى اللسان . وليس ثمة ما يعين على احتمال مشاق الحياة ويخفف من وحشتها مثل جمال الطبيعة وهى تتزين وتتجمل ، وقت الفجر ، وحين الضحى ، وساعة الغروب وعند المساء ، فهى لعوب تعرف مكامن فتنتها فتجلوها بهجة للناظرين .

وسط هذا الجلال البهيج ، أطلقت لفكرى العنان ، ليحملنى على محفته الأثيرية نحو آفاق من التأمل فى سر الوجود وحكمة الخالق .

كانت النجوم قد انتشرت فى السماء بعد أن غابت واختفت

( ڤينوس )* التى تسبق النجوم فى الظهور ، وتسبقها فى الرواح ، شأنها فى ذلك شأن رجال الإكليروس ورجال الدين من كل عقيدة ، فى بكورهم عند الصباح ، ورواحهم بعد غياب الشمس ، حيث لاتقع العين على أحد منهم فى الطرقات ، بعد أن يرخى الليل سدوله ، انتشالاً لأرواحهم المتعبدة من غمرة مايضطرب فيه الناس . وكنت أولى وجهى شطر ما أنا مقبل عليه من بلد رأيت بعض أهله بيننا فى مصر والإسكندرية ، وإن لم أكن رأيت من أرضه شيئًا . وعدت بالذاكرة إلى ما مضى من تاريخى القصير فى الوظائف العامة . ورأيت أنى كنت فى المحاماة ( القضاء المترافع ) أدافع عن المتهم ، إما لتبرئته أو لتخفيف الحكم عليه . ورأيت أنى كنت فى وظائف النيابة العامة ( القضاء الواقف ) أقوم بالدفاع عن المجتمع الذى يعيث فى مختلف قطاعاته المنحرفون ، حتى يقعوا ويقفوا أمام النيابة التى تكشف النقاب عن جرائمهم وتطالب بتطبيق العقوبات التى تتناسب مع جرائمهم . ورأيت أنى فى وظيفتى الدبلوماسية الجديدة ، سوف أتعرض للدفاع عن حق وطنى فى أى مكان أرى فيه انتقاصًا من قدره ، أوتجريحه ، أوالتجنى عليه . ولاعجب فى أن القدر كان يرسم لى خطاى ومسارى ودورى فى الحياة منذ البداية ، ولكن مثار العجب ، أن يكون سيرى فى طرق متحدة الغاية ، ومتباينة المسالك والدروب .

وهكذا تكون مصائرنا كالسحب الشاردة فى سماء الحياة ، أمام دفع رياح القدر والمصير ، التى تذهب بها نحو النهاية المحتومة ، والغاية التى مابعدها غاية ، مهما اختلفت المسالك .

* * *

بعد ليلتين اثنتين ، وأقل من نهارين فى عرض البحر ، وصلنا بيريه ثغر اليونان . كانت المنازل مقامة فوق مرتفع بدت معه كأنها

* ( ڤينوس ) هى كوكب الزهرة ثانى الكواكب قربًا من الشمس . ويسبقها فى ذلك ( ميركورى ) وهو الكوكب عطارد . أما الأرض فهى ثالث الكواكب قربًا من الشمس .

( انفتياتر) يعلو بعضها بعضاً . وبعد أن ودعت من كنت عرفتهم من يونانيي مصر على ظهر الباخرة، أتممت إجراءات الجوازات والجمرك ، وغادرت الميناء فى تاكسى حمل حقائبي إلى دار القنصلية . لم أجد صعوبة فى كل هذه المرحلة بسبب سهولة التفاهم باللغة العربية التى يعرفها فى الميناء كثيرون من الأهالى .

بودى أن أنجح فى أن أستل من فكر القارئ ، مايمكن أن يساوره من الظن بأنى أقوم بعملية (مونتاج ) ، لاأستبقى من الذكريات إلا كل ماهو جميل ، كما يفعل (المونتير) بالفيلم ولكننى ، كما سبق أن ذكرت ، فيلم فوتوغرافى ، أو شريط تسجيل ، أدون ذكرياتى كما وقعت ، وأستدنيها بعد أن بعدت أحداثها ، مستعيناً برءوس مواضيع ، هى كل عدتى فيما أدون ، مع القصد فى السرد

أعود بعد هذا الاستدراك لأقول ، إننى وصلت إلى دار القنصلية العامة ، الساعة التاسعة صباحاً، وهو موعد يعد مبكراً بالنسبة لعمل البعثات التمثيلية ، بسبب ماهو ملقى عليهم من واجبات اجتماعية هى النصف الثانى ، إن لم تكن اكثر قليلا ، من واجباتهم المكتبية .

ولما فتح لى المستخدم اليونانى دار االقنصلية ، أدخلنى إلى غرفة الاستقبال ، حيث وافانى كهل مهذب ، أظهر لى كثيراً من الاحترام الذى رددته بأحسن منه . وراح يتحدث عن اليونان، بالفرنسية ، حديثاً حملنى على أن أقول بينى وبين نفسى : لقد صدق ظنى ، وهذا برهان حذلقة أعضاء السلك الدبلوماسى من الزملاء ، وهذا فيما يبدو ، كبيرهم هنا . وإلا فما معنى امتناعه عن الحديث بالعربى . . . . »

ولم يطل بى الوقت حتى وصل أحد الزملاء الذى أظهر للكهل المهذب كثيراً من التعالى ، حمل الرجل على الانصراف . فقد كان الرجل المهذب ، هو مترجم القنصلية ، وكان قد تلقى من الزميل أمراً بإنجاز عمل عاجل ، لم يكن أتمه ، فترك الحجرة مهرولا . . .

بعد ليلة عصيبة فى حر ورطوبة بيريه ، انتقلت إلى بنسيون حجز لى فيه الزملاء حجرة تطل على البحر ذات مدخل واسع فسيح ، كان يصلح صالونا للاستقبال . وراقت لى هذه الضاحية التى عرفت أنها تُدعى « فيوفاليرن » . وكان البنسيون يواجه البحر وعلى كورنيش جميل هادئ نظيف . استبشرت خيراً بهذا القرب من البحر . ولم يحدث فى حياتى أن سكنت بعيداً من نهر أو بحر . وليس أحب إلى من أن أرى أول ماأرى صفحة الماء ولاأكثر وحشة لنفسى من أن أحرم من مجرى للماء يوماً أو بعض يوم . فإن سكنت بعيدا عنه سعيت إليه مشتاقاً .

كان علىّ فى ثانى يوم لوصولى ، أن أقصد المفوضية فى أثينا . والمسافة يقطعها مترو سريع فى ربع الساعة . ولم يكن لمصر سفارات قبل عام ١٩٣٦ عندما تم عقد معاهدة مع بريطانيا ، وتبادل البلدان التمثيل الدبلوماسى على مستوى السفارات . وفى ذلك العام أنشأت مصر فى الأربع العواصم الكبرى فى العالم سفارات لها هى فيما عدا لندن : روما وواشنطون وباريس .

كنت قد وقفت على علم وفضل الوزير المفوض لمصر فى أثينا ، الأستاذ الكبير إسماعيل كامل قبل أن أراه . ولكنى بعد أن حادثنى وألفته وجدت أن مايخفيه من واسع معارفه ، مردّه ، إلى تواضعه الكبير . لقد تعلمت منه فى الفترة الوجيزة التى قضاها قبل أن ينتقل إلى طهران ، أثمن مايحرص المرء على أن يمتلكه : شجاعة الرأى ، وتحمل المسئولية ، وقوة الإيمان . وقد كان صوفياً ، واسع النظرة إلى كنه الحياة وزخارف الدنيا . وكان عطوفاً رحيماً ، كأنما صيغ قلبه من محبة وحنان . كان إذا مرض أحدنا ، عاده فى مسكنه ، وأغدق على من يقوم بخدمته مبلغاً يصيب الخادم بالدوران . ثم لايلبث أن يبعث للمريض بالمجلات والزهور والسجاير والحلوى ، ثم يواليه بالسؤال حتى يشفى مما ألم به .

تعتبر أثينا من المدن الأوربية القليلة التى تبلغ الحرارة فيها حداً

يدفع بمن لايقدر من الأهالى على الذهاب إلى المتنزهات أو إلى البحر ، تدفع بهم إلى الجلوس أمام منازلهم مثلما كان الحال فى قاهرتنا القديمة وكان يزيد من حرارة الجو فى أثينا ، انتشار تكسية جدران الدور الأول من العمارات ومداخلها بالرخام الذى يختزن حرارة الشمس نهاراً ويشعها سعيراً فى الليل .

وكان من عادة الوزير المفوض ، فى الليالى التى لايكون فيها داعياً أو مدعواً ، أن يجمع أعضاء المفوضية وأعضاء القنصلية العامة إلى عشاء يقيمه فى سطح المفوضية الذى أمر بإعداده لهذا الغرض ، فكان متنفساً ومتعة يزيد من التلذذ بها ، أحاديث المغفور له الوزير المفوض والأستاذ الكبير القنصل العام حسين رمزى ، حول التصوف والصوفية . وكان القنصل العام قد تخصص فى علم النفس الجنائى . وكان كثير الحديث عن البروفيسور « لمبروزو » أستاذ هذه المادة التى أحبَّها واختارها عندما كان يطلب العلم فى روما دارساً للقانون ولعلم النفس الجنائى ، وكان هذا العلم قد أحال حياة القنصل العام تعلقاً بتطبيق نظريات أستاذه « لمبروزو » على كل من يقع نظره عليه . فهذا مجرم بالوراثة ، وهذا يحمل وجهه ملامح المغامرين ، وهذا يميل إلى الخيانة إذا استثير . وكنا إذا ذهبنا إلى حفل كوكتيل ، يروح يتفحص وجوه المدعوين ليقع على فرائس تطبيق نظرياته . وكان كثيراً مايسر فى أذنى بما يكون قد وقع عليه من اكتشاف . وقد ألف ثلاثة كتب قيمة فى هذا الفن ، ياحبذا لو عمل أنجاله على إصدارها تكريماً لذكراه .

وكنا نمضى الليل على مائدة الوزير المفوض حول أحاديث شجية يثيرها حيناً القنصل العام وحيناً الوزير المفوض ، ثم نعرج على آخر أخبار المدينة وأنباء المفوضيات والحوادث المحلية ذات الدلالات السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية والتعليق على مايصلنا من أنباء مصر .

فى هذا الجو الأنيق كنا نتعلم كيف يمكن بحديث رشيق أن يكسب

الممثل الدبلوماسى محبة من حوله ومن يتعامل معهم . وكيف أنه عن هذا الطريق ،، يصل إلى طلبه فى يسر ، يتعذر على غيره لاستحالة ذلك بما يقيمه حول نفسه من حواجز التعالى ، والتشبث بتوافه الأمور . وكان وزيرنا المفوض مدار أحاديث الإعجاب من أرقى المجتمعات وأعلى الطبقات ومن كبار رجال الدولة . وكان عند نقله موضع أسف الرسميين والدبلوماسيين وشخصيات المجتمع الرفيع .

كان عملى فى القنصلية يشتمل على جوانب متعددة . فقد كنت أقوم بأعمال إحصائية وإدارية وحسابية وبعض الأعمال المتعلقة بجوازات السفر بعد أن تمر على نائب القنصل العام لمنحها تأشيرة الدخول أو المرور . وقد سكت على مضض . ولكنى قلت لنفسى : وماذا كنت تنتظر ! هل حضرت للمفاوضة أو لعقد اتفاقية ثقافية أو تجارية ! إن التدرج سنة الوظيفة الحكومية . ورضيت قانعاً بهذه الفلسفة الحكيمة . وحمدت الله على أن جو اليونان قد أشاع فى نفسى فلسفة الأمور .

لاحظت أن تأشيرات الدخول والمرور قد قل طلابها . ثم تبين لنا أعجب مايمكن أن يخطر على البال . لقد توصل بعض الأشقياء من المهاجرين إلى تزوير أختام القنصلية التى توضع على جوازات السفر ، وتزوير طوابع القيمة التى يدفعها حامل الجواز . ثم فتحوا مكتباً بالقرب من القنصلية يتولى سراً هذه العملية المربحة لهم والخاسرة بالنسبة للدولة المصرية إذن فقد ظهر لنا منافس فى الحى نفسه ولم يكن من المستطاع أن نضع يدنا على هذا المكتب ، لولا أن مراقبة الجوازات فى الإسكندرية شكت فى أختام تأشيرة ونوع الطوابع القنصلية . وبهذا تحرك الموضوع حتى وضعت السلطات اليونانية يدها على هذه العصابة الجريئة . وقد كان من نتائج ذلك ، الحرص على وضع خاتم نحاسى لاسبيل إلى تزويره ، كما حدث على يد البارعين من الأرمن المهاجرين إلى اليونان من تركيا .

انتدبت للعمل بالمفوضية بدلا من زميل قام بإجازة طويلة . وقد

أفسح لى هذا الانتداب المجال للاطلاع على اقتصاديات اليونان من خلال الاطلاع على التقارير الاقتصادية والنشرات الاقتصادية التى كانت ترد للمفوضية . كانت اليونان توازن ميزانها التجارى بكل مشقة . وكانت عند العجز تؤجل الديون سنة بعد أخرى متحملة فوائد التأخير . وكانت الشركات الأجنبية من بريطانية وبلجيكية وإيطالية وفرنسية تحتكر المرافق العامة من طرق إلى ترام إلى أوتوبيس إلى مياه إلى كهرباء إلى فتح الشوارع الجديدة هذا إلى جانب تلغراف ماركونى والتليفون وكذلك السكة الحديد .

وقد لاحظت أن أحد الشوارع الكبرى الذى يربط العاصمة أثينا بضاحية ( نيو فاليرون ) ثم بيريه ، قد أقيم عند بدايته ونهايته كشك لتحصيل أجرة المرور من السيارات مع اختلاف الأجرة تبعاً لنوع السيارة إن كانت نقلا أو للركاب . ثم علمت أن شركة بلجيكية تحملت شق الطريق ، ولم يكن لدى الحكومة اليونانية فائض للصرف على هذا المشروع من الميزانية فتكفلت الشركة بالقيام بهذه العملية فى التحصيل ، حتى إذا استوفت أموالها تركت الأمر للحكومة اليونانية .

وكان مما أضر باقتصاد اليونان ، وصول أفواج اليونانيين الذين كانوا يقيمون فى تركيا ، بعد تبادلهم مع الأتراك الذين كانوا يقيمون فى اليونان . وقد بلغ عدد العائدين من تركيا فيما عدا استانبول ، مليوناً من الأنفس تنفيذاً للمعاهدات والاتفاقيات المبرمة فى لوزان منذ عام ١٩٢٣ بين تركيا واليونان بعد انتهاء الأعمال الحربية بين البلدين .

كان وصول هذه الأفواج يتطلب وظائف لهم ومساكن ومرافق . وقد رأيتهم وهم يقيمون فى منازل مؤقتة من الصفيح . كان عبؤهم مما ينوء به كاهل أية دولة تفاجأ به أو يفرض عليها .

واضطرت الحكومة إلى فرض ضرائب جديدة . واضطر التجار إلى استنباط طرق للكسب ، كانت فى نظرهم مشروعة ، لأنها توازن بين دخلهم ومصروفهم ، بدون مراعاة لما يتخلف عنها من ضرر بالغير .

فلقد لجأت المطاعم على سبيل المثال إلى استعمال مسْلى مغشوش ، كان أثره يظهر بأسرع مما يظهر به أثر الخمر على شاربها . وكانت أشهر المطاعم فى أثينا ، مطعم البانثيون ومطعم أفيروف . وقد كتبت إحدى المجلات الهزلية إعلاناً بارعاً حاذقاً ، انتقاداً لهذه الظاهرة التى تضر بسمعة اليونان لدى السائحين ، الذين لم يكونوا بالكثرة التى تدر الآن على اليونان ملايين ومئات الملايين من الدولارات . كان الإعلان يقول :

« يعلن مطعم أفيروف أن مايستعمله من المسلى لاتزيد نسبة الغش فيه عن سبعين فى المائة » .

وجاء تصرف شركة النور الكهربائى ضغثاً على إبالة . وكانت الشركة بلجيكية . قد رأت أن ترفع فى هذه الأزمة الخانقة سعر استهلاك الكيلوات بنسبة ثلث السعر القائم .

كان يرأس الوزارة فى ذلك الحين من عام ١٩٣٢ ، مسيو « إليثير يوس فينيزيلوس » وهو من مواليد جزيرة كريت ١٨٦٤ — ١٩٣٦ . وقد تولى رياسة الوزارة ثلاث مرات . وهو سياسى صلب العود صعب المراس لايسهل الإيقاع به أو توريطه . وكان إذا تمكن من خصمه كال له الصاع صاعين أو يزيد وعندما علم بأمر إقدام شركة النور على رفع سعر الاستهلاك ، أصدر تعليماته بتقديم الوقت ساعتين فى الصيف ، حتى يفوت على الشركة أكبر قدر من الاستغلال . وما إن رأت الشركة تدهور الإيرادات حتى لجأ مديرها إلى رئيس الوزراء لينهى إليه قرار الشركة بالعودة إلى سعر الاستهلاك السابق ، غير أن رئيس الوزراء طلب إنزال السعر ، مقابل تقديم الوقت ساعة واحدة . وقد قبل المدير صاغراً .

انتهت مدة انتدابى بالمفوضية وعدت إلى القنصلية العامة . كانت العطلة للقنصلية تتمشى مع عطلة الحكومة والقنصليات الأخرى وتقع يوم الأحد . وذات أحد من هذه الآحاد ، ذهبت مع بعض زملاء العمل إلى ميدان السباق (إيبودروم) . وأيبو باللغة اليونانية تعنى الخيل ،

ودروم تعنى الأرض أوالميدان وكان المطار على هذا النسق يسمى ( أيرودروم ) أى أرض الطيران . وكان هذا الأحد يوافق آخر أسبوع لموسم السباق قبل حلول الصيف . وقد استرعوا أنظارنا عند الدخول من باب السباق للاحتفاظ بكعب تذكرة الدخول ، التى سوف يُجرى على كل تذاكر الدخول ، سحب لجائزة سيعلن عنها عند نهاية السباق. وكان الشوط الأخير فى هذا اليوم هو الذى سيجرى عليه السحب . وقد أبلغنا خبير ببواطن الخيل من موظفى الإدارة ، أن هذا الشوط سوف تتسابق فيه كل الخيول التى لم تنجح مطلقاً فى الوصول لا إلى مُجلى ولا إلى مُصلىً . بل كانت هى الخيول ( المازيت ) أى خائبة الرجاء وكان

الحصان الذى سيفوز فى هذا السباق سيكون من نصيب الرقم الذى سيجرى عليه السحب . وجرت الخيول ، وكان لابد من أن يتقدم واحد منها على الآخرين . وسمعنا نداءات بالميكروفون تنادى بالرقم الفائز . ورحنا نتفحص كعوب تذاكرنا وإذا برقم تذكرتى يطابق الرقم المسحوب ولما تم علم الإدارة بذلك ، جاءنى (سايس) يقود الحصان الفائز ليسلمه لى يداً بيد ، ويخلى ذمته وذمة مجلس الإدارة . وذهبنا إلى مدير السباق وشرحت له أمرى وأفهمته أنى أنزل فى بنسيون ، وبحسب ما أعلم ليس فيه موضع لقدم إنسان لا لرجل حصان . وكلمة من هنا وكلمة من هناك ، انتهى الأمر ببيع الحصان أمامنا بطريق المزايدة ، ورسا المزاد على أحد الحاضرين الذى كان يبدو فحلاً فى صورة معلمى العربات وكان المبلغ يعادل عشرين جنيها إسترلينياً فى ذلك الأوان . وهكذا تتبدل حظوظ الناس وحظوظ الخيول . فمن بعد سايس إلى مدرب إلى جوكى إلى دكتور إلى وجبات فى مواعيدها ينزل قدر الحصان إلى جر عربة ، وتحمل شطط (عربجى) لا يفتر كرباجه عن الضرب ، ولا صوته عن الصياح ، ومن أين له أن يعلم أن هذا الحصان هو ابن جليمو ابن ماليتيس ابن أوليمب ابن هيلين .وأنه كان فى سابق العصر والأوان

محط أنظار المتراهنين وآمالهم ، وجامع مطامعهم ومبدد أموالهم :
وقديمًا قال المتنبي :

« أنف العزيز بقطع العز يُجتَدَعُ »

* * *

كانت الحياة السياسية لليونان فى تلك الفترة من التاريخ ، أى فى الثلاثينات ، حياة هادئة ، بعد حروبها مع الأتراك فى عهد الغازى مصطفى كمال ، وخروجها منهزمة، وبعد أن تكبدت خسائر جسيمة من جراء هزيمتها فى ( اينونو ) برغم مظاهرة بريطانيا لها وانسحاب فرنسا وإيطاليا من الأراضى التى كانوا احتلوها فى تركيا ، مقابل منحهما امتيازات اقتصادية من تركيا . وفى نهاية يناير من عام ١٩٢٣ توصل عصمت إينونو مع الحلفاء إلى اتفاق حول الحدود فى تراقيا وحول ملكية كثير من جزر بحر إيجه ، وحول إجراء تبادل إجبارى بين الأقليات اليونانية والتركية ، وقد تم الاتفاق على كل هذه الشئون فى معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ . وكان هذا التبادل ، قد كبد اليونان — كما سبق وأشرنا إلى ذلك — التزامات اقتصادية ناءت بحملها ، وذلك عند إتمام التبادل الذى تأخر تنفيذه حتى أواخر العشرينات ، وأصابها بنزيف مالى خطير أضر بميزانيتها العامة وميزان مدفوعاتها .

وكانت علاقة اليونان بجاراتها ، علاقة صداقة ، فيما عدا بعض مناوشات مع بلغاريا حول حق الصيد فى نهر ماريتزا الذى يجرى فى أراضى البلدين .

أما علاقة اليونان بمصر فقد كانت فى أوج مراتبها . وكنا نعتبر من رعايا الدولة الأكثر رعاية . وكان رعايا اليونان فى مصر ينعمون فى ظلال وارفة من الدعة والمال الوفير بحكم النظم التى كانت بريطانيا تساعد على إبقائها للأجانب . ولم أجد بلداً كان يرحب ترحيباً بدويًا برعايا بلد آخر مثلما كان يفعل أهل اليونان بمن يحل من المصريين ببلادهم .

فقد كانت اليونان تستقبل الكثيرين من رعايا مصر فى مصايفها فى ( جليفادد ) و ( فوليا غمينى ) وفى (كيفيسيا ) وفى الجزر المنتشرة التى كانت أكثرها شهرة جزيرة ( لوتراكى ) بسبب فاكهتها ومياهها المعدنية ورخص أسعارها نظراً لقوة عملتنا الشرائية بالنسبة لعملة اليونان (الدراخمة ) أى الدرهم فى ذلك الحين .

* * *

كانت الحياة العامة للشعب اليونانى تجذبنى وتسترعى اهتمامى . فالشعب اليونانى شعب كادح وقت عمله ، مرح وقت فراغه . ولم يحدث أن رأيت تشييع جنازة ، مدى عامين من إقامتى ، حتى كاد يستقر فى ذهنى أن اليونانى لا يموت . وكأنما يعيش الشعب وفقاً لمذهب إيليا أبو ماضى :

وتمتع بالصبح ما دمت فيه
لا تخف أن يزول حتى يزولا

وهو شعب طروب لا يمل من عزف الموسيقى أو الاستماع إليها ، والرقص أينما اتسع المجال له ، فإن لم يتسع ، خلقوا مناسبته .

ولقد وزع كبير الآلهة ( زيوس ) الأعمال فيما بينها . فهناك آلهة للجمال ، وآلهة للحب وآلهة للحكمة وآلهة للشعر وآلهة للصيد وآلهة للخصب وآلهة للخمر . ولقد قام رئيسهم رب الأرباب « زيوس » بهذا التوزيع منعاً لتنازع الاختصاص الذى كثيراً ما يقع بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية والسلطة القضائية فى عالم الناس ، والذى كان ( مونتسكيو ) . أول المفكرين فيه .

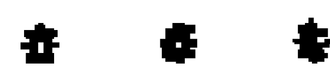
ومن حسن الطالع أن البنسيون الذى نزلت به فى ضاحية ، «فيوفاليرون» كان يملكه رجل يونانى ممن هاجروا إلى أمريكا وعاد بعد أن أصاب قدراً من الثروة رأى أن يستثمرها فى أرض الوطن . وكان هو دليلى إلى كل مكان أحتاج فيه إلى فهم ما يدور حولى . وفيما عدا ذلك ، فقد كان

يكفيني ، وأنا وحدي ، عددٌ من الكلمات اليونانية أستعملها فى المطعم والمواصلات والسينما وقص الشعر . أما المشتريات فلم تكن تزيد عن شراء علبة سجاير عندما كنت أدخن . وكان النوع الذى أدخنه طويل الاسم ، يصعب علىّ نطقه من الذاكرة .

فكنت أدون الاسم فى نوتة معى ، وأشفع الطلب بكلمة ( من فضلك ) . فتكون الجملة المفيدة . . . « إينا بابا ستراتوس نوميرو إيكوسى سس باراكا لو كيرى » . ومعناها : « اعطنى من فضلك يا مسيو ، علبة سجاير بابا ستراتوس رقم ٦ » . وظللت حتى آخر يوم لى فى اليونان أقوم بالدور الآتى : أقف أمام كشك أو دكان سجاير ، وأخرج النوتة من جيبى وأمضى فى تلاوة الموشح أو النشيد الصباحى أمام البائع الذى كان يستحثنى على المزيد من الحديث — وهم أهل حوار — ولكنه يفهم من البلاهة التى ترتسم على وجهى ، أن ما قلته هو كل ما عندى من لغة الإغريق .

أما الطلبات فى المقاهى فأمرها هين . وكنت أجلس فى مقهى قريب من مسكنى . وقد عرف أمرى بائع فستق يتردد على المقهى . وذات يوم فاجأنى بقوله بلغة قاهرية سليمة : تلعب فرد وجوز . . . وفى يوم آخر قصدنى وأنا بالمقهى ، الذى علم من صاحبه أنى مصرى ، شيخ مهدم فى ثياب رثة بالية ، يتوكأ على عصا . ورأيته يقول لى همساً بلغة قاهرية سليمة : لله يا بيه . فقلت له وأنا ذاهل من المفاجأة : سائل وشحاذ وقادم من مصر ؟ فقال لى الرجل فى توجع وندم : الله يلعن البورصة وكونتراتات القطن .

وكانت المقاهى تغص بروادها ليلا ونهاراً . وهى كثيرة كثرة حملتنى على أن أرد على صديق سألنى عند عودتى عما لفت نظرى قبل كل شىء فى اليونان ، بقولى : كثرة المقاهى ، حتى لتستطيع أن تعد بين القهوة والقهوة ، عشرين قهوة . . .



كانت الموسيقى ، منذ أن بدأت أميز بين الأصوات ، شاغلى وصبابة نفسي ومهوى خاطرى . واليونان تعزف موسيقاها المحلية وتعزف معها الموسيقى الغربية بمجرد طبعها على أسطوانات تصل إليها كبشاير الفاكهة . وهى من حيث الموسيقى ، تنفتح على كافة البلدان الأوربية أو الأمريكية ، وبخاصة ما تعلق منها بموسيقى الرقص ، التى يترجمون كلماتها الأجنبية إلى كلمات يونانية بدقة لا تحس أنها كانت من قبل بأى لغة سوى هذه اللغة اليونانية التى تستمع إليها .

ولست أنكر فضل اليونان ، ويدها عندى فى متابعتى للموسيقى الغربية وتأصيلها فى نفسي وتعميقها فى مشاعرى وإحساسي ومذاقى . وكنت أقصد القاعات التى تقدم الموسيقى الكلاسيكية أو الخفيفة كلما استطعت إلى ذلك سبيلا . ولكننى أردت برغبة ملحة ، أن أستمع إلى موسيقى اليونان الشعبية . فهذه هى الصورة التى أراها ناطقة بحقيقة مشاعر الشعب ومعاناته وآماله . وهى اللسان المعبر عما فى مكنون النفوس وخفايا المشاعر .

عرضت هذه الرغبة على صديقى ودليلى ( ليو ) صاحب البنسيون وسقراط مشاكلى وجالينوس متاعبى . ولقد أشفق من أن أترك الفنادق الكبرى مثل فندق ( جراند بريطانى ) وقاعات الموسيقى وحفلات موسيقى الحجرات وسوليست البيانو أو الفايلون أو التشيللو ، ومطاعم ( البانثيون ) ( وأفيروف ) ، وصالات الشاى بشارع الأكاديمى وباتيسيرى ( ياناكى ) ، لأذهب إلى مطعم شعبى لأستمع إلى موسيقى اليونان الشعبية . إلا أن إصرارى كان أقوى من منطقه .

وذات مساء صحبنى إلى ( تافيرنا ) ، يعكس كل سنتيمتر فيها حقيقة حياة الشعب الكادح المكدود . لقد كان يؤمها كل من أناله نصب أو رهق ، ليغرق همه فى جوها الصاخب المرح وفى كاسات من الأوزو

( الزبيب ) أو نبيذ الرتسينا الذى يستخرجونه من أشجار ( اليوكاليبتوس ) ، وفى تناول شواء الأوازى السمينة التى يخترقها سيخ يلف بها فوق نار فحم ، بمقدار وبفن وبطريقة خاصة يكتم سرها كل محل عن الآخر كجزئيات الدواء أو مقادير البارفان ، أو سر ( طعمية ) الحلوجى ونيفة الدهان .

وقد كان الإغريق القدامى ، أحذق أهل الأرض وأكثرهم علماً بالفلسفة والنحت والتمثيل والشواء . ولن تخفق فى أن تجد فى كل ميثولوجيا وصفاً لحفل يصنعون فيه هذا اللون من شواء الأوازى ، فى الهواء الطلق ، على جرعات وفيرة من النبيذ الأحمر ، الذى يثير كوامن نفوسهم ويدفعهم إلى الرقص الشعبى النابض بالحركة البارعة ، على إيقاع تصفيق جماعى متقن محكم ، كأنما قد رسمت إيقاعاته نوتة موسيقية .

وكنت منذ وصولى ، أستمع إلى أغنية تمسك بتلابيب أذنى ولا تدعها إلى أن أنام . وكنت أسمعها مذاعة من جرامافونات أو راديو أو بيانو أو كمان يمر عازفه على الأماكن العامة أو البيانولا التى تذرع الطرقات أو فى فترات الاستراحة بالسينما أو فى صالات الرقص والمنتديات والحدائق العامة . ولم أكن أعرف لها اسماً لأسأل عن خطبها وأصلها وفصلها ، إلا إذا (( دندنت ) بمقطع منها لمن أريد سؤاله ، وهو أمر غير مستساغ ولا مستطاع . وشاء الله أن يكشف لى عن سر هذه الأغنية التى لم ينقص إلا أن تتدفق إذا فتحت صنبور الماء ، مع الماء .

ذلك أنى عندما صحبنى دليلى الحكيم « ليو » إلى ( التافرنا ) الشعبية[1] ، رأيت سيدة شابة تعتلى مسرحاً متواضعاً ، وأصوات الحاضرين تطالبها بأغنية بالذات . وبعد مقدمة من عزف الآلات لموسيقى يونانية شعبية ، انطلقت حنجرة المغنية بالأغنية التى بلبلت

---

( ١ ) هذه المحلات يطلقون عليها اسم (البزوكيا) والاسم مشتق من آلة ( البزق ) التى تعزف أحياناً مع التخت الشرقى . وقد اشتهر السوريون والترك بعزفها .

أفكارى ردحاً من الزمن ، بدون أن أعرف السبيل إلى قصتها . كانت السيدة المغنية تذيع المقطوعة بتأثر بالغ ، يكاد ينتزع الدمع من المآقى قبل أن ينتزع تصفيق المشاهدين .

ولم ألبث أن سألت « ليو » بلهفة أفلتت منى ، عن قصة هذه الأغنية ، وسر انتشارها كل هذا الانتشار والذيوع .

أجابنى بأن الأغنية تحكى قصة واقعية حدثت منذ عهد قريب . فقد حدث أن أحبت أرملة متوسطة العمر ، شاباً غضاً بضاً ، وسيم الوجه ، ممتشق القوام ، حلو الحديث واللفتة والابتسام . وقد اتخذته الأرمل صديقاً ورفيقاً . وراح الفتى يرفل فيما كانت تغدقه عليه من نعم ومال وفير وعيش رغيد . ولم يلبث الربيع النضير أن مل الخريف الذابل ، وراح الفتى الريان يتطلع إلى ربيع فى مثل ربيع عمره ، تاركاً جفاف الغصون وذبول الأوراق لقدرها .

وأحست الأرملة بغدر رفيقها . وحاولت أن تثنيه باللين تارة ، وبإغرائه بمزيد من المال أخرى ، وبالتهديد أخيراً ، والفتى سادر فى غيه . فقد كان حبه لفتاته أقوى من أى إغراء أو تهديد ، كما أن حب الأرملة للفتى كان هو كل ما تعيش من أجله . وفى ليلة اشتجر فيها الخلاف بينهما ، وفى لحظة غاب فيها الوعى وسيطر جنون الغيرة ، راحت الأرملة تخرج من حقيبتها مسدساً ، لتصوب نحو رفيقها رصاصة استقرت فى قلبه ، ومات لتوه . وراحت تبكيه فى جنون حتى فقدت عقلها ولم تصدق أنه مات بل هو فى غفوة لا يلبث بعدها أن يفيق . وكان مآلها مصحة أمراض عقلية حيث قضت فيها نحبها بعد قليل . وسرعان ما التقط خيط القصة شاعر شعبى ومؤلف موسيقى ، تعاونا على إخراجها فى صورة درامية ، وموسيقى عاطفية نابضة الإيقاع ، لم تلبث أن استحوذت على مشاعر الجماهير ، طول مدة إقامتى فى اليونان التى امتدت نحو عامين .

وكانت كلمات الأغنية تجرى على الوجه التالى ، مع تصرف تقتضيه الترجمة من لغة إلى لغة .

اصْحَ يا حبيبى ، ألم تسمع ندائى !
لطالما كنت تُجيبُ ، كما يُجيب الحبيب
ألم تسمع ندائى ، يا حبيبى يا حبيبى !
أما زلت نائماً ، كالبدر فى المغيب .
ولكن . يا إلهى ! لقد مات حبيبى !
أنا قتلته بيدى ! نعم قتلت حبيبى .
وكيف يصحو قتيلٌ ، يناديه قاتلُه .
لقد قتلت حبيبى ، بيدى قتلت حبيبى .

* * *

لا بد لكل حلم جميل ، من أن يصحو صاحبه على واقع الحياة . فذات صباح ، ورد مع بريد القنصلية الذى يفضه القنصل العام ، كتابٌ يتضمن أمر نقلى إلى القنصلية العامة بسان فرنسسكو ، بمثل وظيفتى ، وبمرتبى نفسه وبدلاته من تمثيل وغلاء واغتراب . وكان الغلاء فى أمريكا وأنباؤه التى كانت تصلنا من الزملاء المارين ، قد أطاح بكل فرحة لهذا النقل .

ولقد بادر القنصل العام ذو القلب الكبير والعلم الفياض ، بإبلاغى النبأ فى مكتبى الذى انتقل إليه تدفعه عاطفة رحيمة حانية ، كان يُخفيها ، إشفاقاً علىّ من ذلك الغلاء الذى سوف أراه يدب على الأرض فى أى شق فى أمريكا ، ليزرى بمرتباتنا الضئيلة . ولم تكن الوزارة تعترف فى تلك الحقبة من التاريخ عام ١٩٣٢ بالغلاء إلا فى لندن والقدس . أما أمريكا فهى سواء بسواء كبيروت واليونان وإزمير ومارسيليا وحلب . ولم يكن وضع المرتبات يخضع لدراسات اقتصادية ومالية على يد أصحاب اختصاص ، ولكنه كان نتاج دراسة مبتسرة ، وعلى هدى تقارير

قديمة وحالات اقتصادية شملها التغير والتطور والتقدير ، إلى جانب نظرة الجهات الرسمية المسئولة تجاه الوظائف الدبلوماسية ، كما سيأتى بيانه فى موضعه من هذا الكتاب ، وموقف المجالس النيابية من هذه الوظائف التى لم تكن تعترف بفائدتها وجدواها ، بل تسكت على مضض لبقائها .

وكان القنصل العام يقول لى وهو فى موقف العزاء ، مواساة لى فى هذا الرزء والمصاب ، إننى سوف أرى مناطق لن يتسنى لأى ثرى أن يزورها إلا بإنفاق مبالغ طائلة . وإننى ما أزال فى مستهل حياتى ومقتبل عمرى ، والمشقة يقل وزنها لدى الشباب . ثم أردف قائلا بأسلوب آخر من العزاء ، إننى فى اعتقاده ، لن أستبدل أسلوب حياتى فى أى بلد أحل فيه ، بل سأبقى على طابعى ، كمصرنا الفرعونية القديمة ، التى كانت تفرض ، حتى على غزاتها ، ديانتها ولغتها وعاداتها وتقاليدها .

وقال إنه سيذكرنى بعدم تسرب أى تغيير إلى نفسى ، إذا كتب الله لنا اللقاء . ولم أشأ أن يستمر الموقف دراميا ، فقلت له متبسطاً ، ربما يتغير وزنى . . . فى أمريكا . . . بالنقص طبعاً .

* * *

بعد أيام معدودات ، كنت قد أنجزت إجراءات سفرى على باخرة يونانية من ثغر بيريه . وعندما كنت ألوح لزملائى من أعضاء المفوضية والقنصلية مودعاً من فوق ظهر الباخرة ، كانت تقف إلى جانبى سيدة أمريكية فى طريقها إلى مصر . وكانت تسألنى عندما تأثرت كثيراً بمنظر هذا الوداع بين زملاء فى وظائف متناثرة فى أنحاء العالم : ترى كم من السنين تمضى حتى يتلاقى بعضكم ببعض بعد هذا الوداع ! فأجبتها بقولى ، ربما لا يلتقى بعضنا ببعض إذا قضى بعضنا نحبه . وربما تمضى عشرات السنين ليلتقى بعدها من يبقى على قيد الحياة بزملائه .

جعلت مصر فى طريقى . وكان الانتقال على أيامنا بالبواخر ليس إلا . وبالقطار فوق الأرض . أما الطيران فلم يكن مستعملا إلا فى أضيق

الحدود ، وفى المهرجانات ، وفى أمريكا للانتقال المحلى بين ولايات وولايات . أما فى أوربا فلم يكن قد شب عن الطوق . ولكنه كان موضع تجارب ، كتلك التجربة التى قامت بها فرنسا عام ١٩١٤ بتنظيم قدوم ( فدرين ) و ( بونيه ) طائرين من باريس إلى القاهرة ، وما تلاها بعد الحرب من تجارب عديدة حتى استوى هذا الاختراع على ساقه ، وأصبح الرابط بين قارات ومدن العالم ، الذى بز الصوت فى انطلاقه وسرعته ، والذى يمكنه القضاء على ما فى العالم من حيوات فى دقائق !

كان ركاب هذه الباخرة اليونانية « سالونيك » يعلمون أنها ستعرج وهى فى طريقها إلى الإسكندرية ، على قبرص لإنزال ركاب وبضائع بالجزيرة . وكانت مدة التفريغ كافية لأن نتجول ساعات فى جزيرة أنجبت كثيراً من أبنائها المنتشرين فى الإسكندرية والقاهرة وغيرهما من مدن القطر . كما كنا نعتمد عليها فى استيراد بغال مصلحة التنظيم لأعمال النظافة من كنس ورش ، قبل ميكنة هذا المرفق . هذا إذا تركنا الجانب التاريخى الذى نجلوه مع جانبه الجغرافى فيما يلى من سطور :

كانت قبرص من أملاك تركيا التى انسلخت عنها مع ما انسلخ من أملاك الإمبراطورية العثمانية بعد هزيمتها هى وألمانيا وبلغاريا والنمسا فى الحرب الأولى ١٩١٤—١٩١٨ . وقد احتلتها بريطانيا منذ ذلك التاريخ .

رست الباخرة بميناء ليماسول ، وبدت الميناء نظيفة ومرتبة . وكانت الإدارة فى كل مرافق الجزيرة ذات صبغة بريطانية عسكرية . ذلك أن بريطانيا العريقة بمعرفة المراكز الاستراتيجية فى العالم ، كجبل طارق ومالطة والسويس وعدن ، اتخذت من قبرص قاعدة عسكرية لها ، واعتبرتها كما لو كانت حاملة طائرات وقوات ، تربض وسط البحر المتوسط ، كما تستخدمها للتزود منها بالوقود والتموين لبوارجها وبواخرها وهى فى طريقها إلى الشرق الأقصى . أما عاصمة الجزيرة فهى نيقوسيا ، مقر الحاكم العام فى ذلك الحين . وأكبر مدنها ليماسول ولارنوسيا

وفوماجوستا وبافوسى وكيرينا . وقد رتبت لنا إدارة الباخرة رحلة إلى نيقوسيا وفوماجوستا . ومما تتميز به مدن الجزيرة ، النظافة ، وحسن استقبال الأهالى لزوار جزيرتهم . وهى إلى جانب ذلك تتميز بفاكهتها ومياهها ونبيذها . ومن أشهر معالم ( فوماجوستا ) قلعة ( عطيل ) الذى اتخذ ( شيكسبير ) من قصة قتله لزوجته ( ديدمونة ) دراما من دراماته التى تتلخص فى الشك والغيرة الذى بذر بذورها ( ياجو ) صديق ( عطيل ) فى صدره بسبب ما كان يبتغيه منها وصدها له ، وذلك بإيهامه بأنها تعشق أحداً غيره ، وأن منديل هذا الآخر قد وُجد فى حجرتها ، فلم يطق ( عطيل ) الصبر على ما سمع وسارع إليها حيث كتم أنفاسها خنقاً .

وقد أبلغنا الدليل أن عطيل عاش فى هذه المدينة من ١٥٠٥ إلى ١٥٠٨ . حيث بنى قلعته فيها التى اشتهرت باسمه وأصبحت مزاراً للهابطين إلى الجزيرة .

وتنقسم الجزيرة إلى قسم يونانى يمثل سكانه ٨٢٪ من عدد السكان الذى كان يبلغ آنذاك ٤٥٠ ألف نسمة ، وإلى قسم تركى ، يمثل سكانه ١٢٪ من مجموع سكان الجزيرة . وكانت المناوشات بين القسمين تثور وتهدأ شأن البراكين . وما زال هذا شأنها حتى اليوم .

ولقد جاهدت قبرص فى سبيل التخلص من الحكم البريطانى وظلت مدى أعوام طويلة تقاوم وتحارب قوات الاحتلال فى حروب عصابات فى الجبال ، إلى أن أعلنت بريطانيا استقلال الجزيرة عام ١٩٦٠ ، محتفظة بجزء من أرضها ذى سيادة بريطانية تستخدمه بريطانيا تعاقدياً فى أغراضها الدفاعية فقط ، وهو ما تشبث به الأب مكاريوس حاكم ورئيس الجزيرة الحالى : وما أراد أن يجنب به توريط بلاده فى مشاكل بريطانيا . على أن هذه الأرض المتفق عليها ، تعتبر من حيث الملكية أرضاً قبرصية سوف يأتى اليوم الذى تتمتع فيه بسيادة الوطن .

* * *

وما تزال قبرص مسرحاً للاشتباكات بين سكان قسميها اليونانى والتركى ، وهى من أجل موقعها الاستراتيجى فى البحر المتوسط ، تشترك فى بحث مشاكلها الناجمة عن هذين القسمين ، أكبر دول حلف الأطلسى ، توسلا إلى حل ، لا يزال توقعه بعيد المدى ، كما تساهم قوات دولية ، للحيلولة دون اشتباك العنصرين المتصارعين .

* * *

## الفصل الثانى

### فى سان فرنسسكو :

أبحرت من الإسكندرية بالباخرة فى ٢٥ سبتمبر عام ١٩٣٢ ، فى طريقى إلى مارسيليا . وكنت قد ودعت أهلى وأصدقائى . وقد حرصت على أن أودع المغفور له أمير الشعراء أحمد شوقى فى كازينو سان ستيفانو بالرمل . ولم أكن أعلم أن هذا الوداع هو آخر عهدى برؤيته ، حيث قد وافاه الأجل المحتوم فى الشهر التالى ، أكتوبر ١٩٣٢ .

وقد بادرنى بقوله ، إنه علم بنقلى إلى أمريكا من محمد عبدالوهاب . وقد أشفق على من الغلاء الطاحن فى أمريكا وتأثيره على كل ما يتصل بالحياة العامة ومتطلباتها . ثم راح يتعجب من أمر هذه البلاد التى تحرم تعاطى المشروبات الروحية على أبنائها وعلى من يكون من الأجانب على أرضها . وماذا يكون العمل لو أن بعضهم لا تحتمل صحته الانقطاع عن تناول هذه المشروبات ! فأجبته بأننى بسؤالى عن ذلك ، علمت أن هناك بعض صيدليات ، تصرف ( روشتات ) ، موصى بها من أطباء بصرف مقادير

من المشروبات الروحية لمن لا يطيقون التحريم .

وهنا ضحك رحمه الله بكل جوارحه وهو يقول « تبقى فرجت » .

وكان رحمه الله يشير إلى قانون تحريم المشروبات الروحية فى كافة الولايات المتحدة الأمريكية منذ عام ١٩١٩ حتى عام ١٩٣٣ أى فى نهاية عهد الرئيس هربرت هوفر ( ١٩٢٩ — ١٩٣٣ ) وبداية عهد تولى فرانكلين روزفلت رياسة الجمهورية عام ١٩٣٣ ، الذى كانت الإباحة من بين برنامج انتخابه ، بعد أن تفاقمت الحوادث الجنائية المترتبة على التحريم ، وأضيفت إلى قائمة الجرائم القائمة . وهى على التوالى : تهريب الخمور Boot-Legging ، وخطف الأطفال للحصول على فدية Kidnapping وإدارة أماكن تقدم لروادها خموراً مغشوشة كانت تسمى Speak Easy وقد شاهدت الليلة الأولى التى أبيح فيها الشراب ، الذى لم يكن تتجاوز نسبة الكحول فيه ١/٢ ١ ٪ للبيرة ، و ٢ ٪ للنبيذ ، وسريان هذا التحديد مدة ثلاثة أشهر ثم الإباحة المطلقة . وقد سهر الأهالى فى تلك الليلة إلى منتصف ليلة الإباحة الذى يبدأ التصريح فيه عند الدقيقة الأولى بعد الساعة ١٢ مساء لينطلقوا بعدها إلى محال الشراب فى فرحة عارمة وابتهاج يتعذر وصفه .

كان من المصادفات السعيدة ، أن الباخرة التى أبحرت عليها ، تحمل اسم الكاتب الفرنسى الكبير « بيير لوتى » ، الذى كان ضابطاً فى البحرية الفرنسية ، وعاش فى المدة من ١٨٥٠ إلى ١٩٢٣ . وهو من الروائيين الذين اتخذوا من حياة الريف وأهله مادة غنية بالأضواء والألوان التى تغمر النفوس بالبشر والصفاء والبساطة والحكمة .

وقد اشتهر عنه اهتمامه بدراسة مدنيات الشرق وحضاراته القديمة . وكان من بين الأماكن التى استرعت انتباهه وأعارها تفكيره ، تركيا وما كان لها من دور فى التاريخ . وقد شخص إلى إستانبول ، وأقام بها فترة من الوقت فى حى « فندكلى » الذى ما يزال الناس هناك يعرفون

المنزل الذى شغله فى ذلك الحى . ومن أعماله الأدبية ( زواج لوتى ) ، ( أخى إيف ) ، ( مدام كريزانتيم ) وغيرها . وقد انتخب عضواً فى ( الأكاديمى فرانسيز ) ، مجمع الخالدين .

كانت الرحلة بالباخرة إلى مارسيليا تستغرق خمسة أيام . وكنت أعددت نفسى لهذا القدر من الفراغ الذى أستطيع أن أقرأ فيه الكثير عن الولايات المتحدة ، وإذا أضفت إليها أياماً خمسة أخرى بالباخرة من ميناء ( شيربورج ) الفرنسى على الشاطئ الأطلسى إلى ميناء نيويورك ، وأياماً أربعة أخرى بالسكة الحديدية إلى ( أوكلند ) ثم بالانتقال على Ferry Boat إلى ( سان فرنسيسكو ) ، أمكن أن تتصور معى مبلغ الوقت الذى يتوفر لى إنفاقه فى الاطلاع على ما أحضرته من كتب وكتيبات تاريخية وسياسية .

اخترت لنفسى مكاناً قصياً فوق ظهر المركب ، ووضعت بطاقتى على كرسى طويل مما يستأجره الركاب طوال الرحلة ، ورحت أقرأ نبذة من هنا ونبذة من هناك ، تتناول مواضيع جغرافية وتاريخية وسياسية عن الولايات المتحدة ، خرجت منها بأن جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية تحد من الشمال والجنوب والشرق والغرب ، بكندا والمكسيك والمحيط الأطلسى والمحيط الباسفيكى على التوالى . وهى تتكون من ٤٨ ولاية تضاف إليها ولاية كولومبيا ومناطق ألاسكا وهاواى وبورتوريكو والجزر العذراء وساموس وجوام ومنطقة قناة بناما . وتبلغ مساحتها ٧,٨٢٧,٦٨٠ كيلومتراً مربعاً . كما أن سكانها كانوا عند رحلتى إليها يقرب تعدادهم من ١٦٠ مليون نسمة. وقد سميت عاصمتها باسم محررها ( واشنجتون ) الذى قاوم الاحتلال البريطانى ، حتى تحققت للبلاد السيادة. ومن أهم مدنها نيويورك وشيكاجو وفيلاديلفيا ولوس أنجلوس وديترويت . وهى تزرع فى هذا المدى الشاسع الوسيع من الأراضى ، كافة المزروعات ، بسبب تباين الأجواء فيها . وهى تعد نظراً لزراعتها الآلية وتقدمها العلمى فى مختلف المجالات ، من أولى دول العالم فى إنتاج القطن والقمح والذرة والدخان . كما أن منتجات

الألبان بها تفوق أى بلد آخر فى العالم . ويوجد بها معظم أنواع المعادن . وهى من أجل ذلك تعتبر الدولة الصناعية الأولى فى العالم ، كما أنها الأولى فى مجال الإنتاج الحيوانى والثروة الحيوانية ، كما أنها الأولى فى مجال العلوم .

ولقد توالى على حكم أجزاء منها الفرنسيون والأسبان والإنجليز، الذين حكموا أغلب ولاياتها فى القرن السابع عشر . وقام الأهالى بسبب فداحة الضرائب التى فرضتها عليهم بريطانيا بثورتهم عام ١٧٧٥ ، التى استمرت ثمانية أعوام من ١٧٧٥ — ١٧٨٣ . وفى ٤ يولية من عام ١٧٨٦ أعلنت ثلاث عشرة ولاية الاستقلال بزعامة الجنرال « جورج واشنجتون » الذى كان يعاونه جنرال ( لافاييت ) الفرنسى و ( روشامبو ) وغيرهما ، الأمر الذى حمل بريطانيا على إصدار قرارها بالاعتراف بسيادة الولايات المتحدة التى تولى رياستها ( جورج واشنجتون ) فى ظل دستور فيديرالى . وتتابعت الولايات الأخرى فى الانضمام لهذه الولايات الثلاثة عشر . وقد اشتركت أمريكا فى الحرب العالمية الأولى عندما دخلتها عام ١٩١٧ بعد تردد كان مرده إلى تمسكها بمذهب العزلة والحياد الذى أعلنه ( مونرو ) ، مما سيأتى شرحه فى موضعه من هذا الفصل . وكان لمساهمة أمريكا الفضل الأكبر فى كسب الحلفاء الحرب ضد ألمانيا والنمسا وتركيا وبلغاريا ) .

عندما مررت بالوزارة ، قبل قيامى بهذه الرحلة تنفيذاً لأمر نقلى ، علمت أن اثنين من الزملاء الذين رشحوا قبلى لسان فرنسيسكو قد اعتذرا ، برغم أنهما كانا من الموسرين . وكانا يعلمان — كما كنت أعلم — تأزم الحالة الاقتصادية فى الولايات المتحدة ، التى ينعكس أثرها ويكابدها من يعمل هناك فى ظل تلك الظروف ، وبمثل مرتباتنا الهزيلة .

كانت أمريكا منذ عام ١٩٢٩ تعانى تضخماً هز موازينها هزًّا عنيفاً . فقد اختلت ميزانيتها العامة وميزان مدفوعاتها مما أدى إلى هذا التضخم الذى ينشأ نتيجة لارتفاع أسعار الحاجيات نظراً لكثرة المال المتداول عن الحد المألوف ، ووجوده فى يد طبقة محدودة من الناس ، لديها القدرة على

الشراء . وقلته في يد طبقة كبيرة العدد ، هي أكثر حاجة وأطلب لمستلزمات المعيشة الضرورية . وقد ترتب على هذا التضخم إفلاس الكثير من البيوت المالية والبنوك والفنادق الكبرى والمشروعات الضخمة ، وتدهورت أسعار الأسهم والسندات . وبإيجاز كانت الولايات المتحدة في المدة من عام ١٩٢٩ — ١٩٣٤ تمر بأعصب أوقاتها المالية . أما مرتباتنا من ماهية وبدل تمثيل وبدل غلاء وبدل اغتراب ، فقد كانت في مجموعها لا تزيد عن الثلاثين جنيهاً ترتفع إلى خمسين أو ستين جنيهاً للقنصل العام ، وهي مرتبات كانت لا تكاد تفي بأجر السكن ، أما باقي متطلبات المعيشة فكان علينا أن نغطيه من أموالنا الخاصة ، وفقاً لما انتهى إليه التعهد المأخوذ بذلك عند التحاقنا بالخدمة .

من أجل ذلك ، زهد الزملاء في السفر إلى أمريكا ، وكفى الله الموسرين شر الإنفاق . ولم أستطع أنا أن أتخلف .

خبرني بحق السماء وناطحاتها ، ماذا أفعل وأصنع برؤيتي نجوم هوليود ومليونيرات لوس أنجيلوس ومنتديات ونوادي شارع برودوي وماركت ستريت وفيفث أفينيو ومغاني شاطئ الباسفيك وحمامات سالادا بيتش وبالم بيتش وبالم سبرنجز وأكابولكو ولاس فيجاس ، إذا كان خواء الجيب يحول دون مجرد التمتع بترتيل هذه الأسماء !

ومثل ما ذكرت من أماكن لم تكن مطمعاً منا للتطلع إليها من بعيد ، ولكنها كانت كالأحلام التي ينعم برؤيتها النائم من فرط ما تمناها وهو يقظان . فقد كنا نعمل حساب القوت ، الذي لم يكن يزيد عن القوت الذي تمناه حافظ إبراهيم عندما قال :

نحن نرضى بالقوت من هذه الدنيا    وإن بات دون قوت النعام *

لو وقعت على من قال : ( جنة بلاناس ، لا تنداس ) ، لعركت أذنه ،

---

* من المشهور عن النعام أنه إذا لم يجد ما يقتات به ، ابتلع الحصى والزلط .

حتى يقر بقوله : ( وجنة بلا أموال ، كثيرة الأهوال ) .

رجعت بأفكارى القهقرى ، أو بلغة السينمائيين ، أعدت شريطاً بطريقة ( Flash Back ) لعشرات السنين ، كان تذكرى لهاعزاء لما أحاط بى من وساوس ، وتنفيساً عما أحسست به من مرارة .

فقد كان لوزارة الخارجية فى عهد الحماية البريطانية ١٩١٤–١٩٢٢ ، وجود داخلى . بمعنى أنها لم تكن تمارس أى نشاط خارجى كالمفاوضة أو تبادل التمثيل الدبلوماسى مع مختلف الدول . بل كان بها قسمان ، قسم إفرنجى وقسم عربى . وكان القسم الإفرنجى يتلقى مذكرات المعتمدين الأجانب بمصر الذين كانوا يعرفون باسم ( القناصل الجنرال ) ، ثم يحيلها للقسم العربى الذى يقوم بترجمتها لعرضها على المسئولين . وكان القسمان يتبعان مجلس الوزراء .

وبعد إعلان استقلال مصر ، وصدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، أخذت حكومة السلطان فؤاد الذى أصبح ملكاً بموجب ذلك التصريح ، فى وضع أساس لوزارة الخارجية ونظامها ، تمهيداً لإنشاء بعثات دبلوماسية وقنصلية فى مختلف الدول ، كمظهر من مظاهر الدولة المستقلة . وقد بدأت هذه البعثات التمثيلية تمارس أعمالها ابتداء من عام ١٩٢٤ بعد أن عاد من كانت الحكومة قد أوفدتهم (١) من خيرة الشباب ، إلى باريس ولندن للتخصص فى العلوم السياسية والاقتصادية .

وكانت البعثات التمثيلية تنشأ بحسب الحاجة إليها . ولم تكن تزيد درجة الممثل عن درجة الوزير المفوض أو القائم بالأعمال إلى أن تم توقيع معاهدة عام ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا وتبادل البلدان التمثيل على مستوى

---

( ١ ) تألفت البعثات الأولى لوزارة الخارجية من الأساتذة : عبد الخالق حسونة ، ومحمد كامل عبد الرحيم ، وأحمد ممدوح مرسى ، حسين راضى ، عبد الكريم صفوت ، محمد وجيه رستم ، أحمد جلال عبد الرازق ، أحمد فتحى العقاد ، أحمد حقى .

السفراء ، وعند ذلك أنشأت مصر إلى جانب سفارتها فى لندن سفارات فى فرنسا وروما وواشنجتون .

وقبل بداية العهد بإنشاء وزارة الخارجية ، تولاها بطرس غالى باشا وزيراً ، ثم تولاها بعد ذلك ، بالإضافة إلى رياسته للوزارة. ثم تولاها أحمد حشمت باشا الذى تركها إلى وزارة المعارف . وعند صدور التصريح المذكور أشرف فؤاد سليم الحجازى باشا بتكليف من الملك فؤاد على تنظيم هذه الوزارة وفقاً للنظم المعمول بها فى الدول التى سبقتنا فى هذا المضمار .

وقد عكف على وضع النظم المطلوبة ، ولكنه لم يستطع أن يستمر فى مهمته بالنظر للحواجز والمنحنيات الخطيرة التى كان يضعها فى طريقه أصحاب الميل والهوى .

فى ذلك العهد الذى حضرنا جانباً منه فى الثلاثينات ، كانت تتحكم فى الوظائف الدبلوماسية نزعة طبقية. وكانت بعض العواصم تعتبر وقفاً على أسام خاصة ، لا يصح لغيرها مجرد التفكير فى شغل وظيفة بها .

كما كانت رغبات أصحاب هذه الأسامى تدرس بعناية لتحقيقها .

وكما أن الحال فى الهند ، كان يجرى على أن كل إنسان يخضع لنموذج وقالب يتأثر بالمولد والسلالة والطبقة ، لا حق له فى سواه ، كذلك كان الحال فى أول عهد الوزارة بالعمل . ونذكر لوجه الحق ، أن هذا الأسلوب قد واجهته معظم وزارات الخارجية فى العالم ، إن لم تكن كلها ، لاعتبارات مختلفة . وكان أى تفكير عن المساواة يعتبر شيئاً لا معنى له ، ولا يجوز التفكير فيه ، وكان يثار فى برلمانات هذه الدول بدون جدوى .

ونود أن نذكر أن هذا الحال دام إلى أن سقطت الحواجز بين الطبقات فى الأربعينات ، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، وبعد أن طرأ على الأوضاع الدستورية ما طرأ من تطور ، وبعد أن تقوضت أركان الحكم المطلق فى عدة بلدان ، وبعد أن بزغ فجر النظم الديموقراطية ، وانطلق التطور الصناعى الجارف ، الذى بدل وعدل ، وأقام جديداً من

الأفكار على أنقاض تقاليد بالية لم تقو على مقاومة هذا التيار العارم .

ورحت أغرق همى فيما كان بين يدى من كتب وكتيبات . وفى فصل من فصول كتاب يبحث عن موقف أمريكا من دول أوربا ، وحكمة عزلتها وحيادها ، وعزوفها عن المشاركة فى الأوضاع العالمية وتطورها ، وجدت المؤلف المتحرر يقول : لقد استقر فى الأذهان ، ورسب فى العقول ، أن الوصف الذى ينطبق على علاقة أوربا بالدول التى كانت تسيطر عليها فى آسيا أو أفريقيا ، هو الذى يسمى بالاستعمار . وهى كلمة يبغضها الآسيوى أو الأفريقى من كل قلبه ، نظراً لما تسبغه من معانى التحكم والسيطرة على مصائر ملايين من البشر . أما إذا تحكمت دولة آسيوية فى دولة آسيوية أخرى ( اليابان فى منشوريا ) أو ( الحبشة فى إريتريا والصومال ) فإن ذلك لا يعتبر استعماراً ، بل يسمى غزواً أو ضماً .

وكان مجرد ذكر اسم الغرب ، يكفى لإلقاء تبعة الاستعمار فى العالم كله عليه . وهو لذلك كان موضع كراهية الشعوب المغلوبة على أمرها .

ولم تكن أمريكا فى تلك الفترة التى تميزت باستعمار الغرب لمعظم دول قارتى آسيا وأفريقيا ، موضع نفور تلك الشعوب المقهورة . فقد تبرأت من الاستعمار ، وازداد موقفها وضوحاً بالتزامها مذهب العزلة والحياد . وقد كان الخالق هذه السياسة هو الرئيس ( جيمس مونرو ) الرئيس الخامس للولايات المتحدة وكانت رياسته من ١٨١٧ — ١٨٢٥ . وقد أوضح سياسة الولايات المتحدة فى رسالة أعلنها فى ٢ ديسمبر ١٨٢٣ . وكانت الرسالة تنادى بأن أمريكا للأمريكيين ، وأن أوربا للأوربيين ، بدون السماح لتدخل قارة فى شئون القارة الأخرى . وبهذا المنطق أصبحت الأمريكتان كائناً واحداً ، وكياناً مستقلا تنظمه هذه السياسة المعلنة التى تضع حداً لأى تدخل . وكان مما دعا ( الرئيس مونرو ) إلى وضع هذه السياسة والمناداة بها وإعلانها على الملأ ، ما حدث من تدخل بروسيا والنمسا وروسيا فى شئون بعض جمهوريات أمريكا الجنوبية ، على أثر إخماد الثورة الأسبانية .

وتبلغ مساحة أمريكا الجنوبية ١٧,٨٠٠,٠٠٠ كيلومتر مربع ، كما يبلغ عدد سكانها ١٢٠ مليون نسمة . وهى تتكون من جمهوريات : كولومبيا والإكواتور وبوليفيا وبيرو ، وشيلى ، وفينزويلا ، وغيانا ، والبرازيل ، وباراجواى وأوروجواى ، والأرجنتين . كانت هذه الجمهوريات الغنية بمواردها الطبيعية* ، وثرواتها الزراعية والحيوانية والمعدنية والبترولية ، مثار اهتمام الولايات المتحدة بإبعاد كل طامح ودخيل عنها .

وكانت الولايات المتحدة بأموالها ونفوذها وطموح قادتها ، قد رأت استغلال تلك المناطق وجعلها منطقة نفوذ وأسواق لتجارتها . وراحت البعثات الأمريكية تدرس أحوال هذه المستعمرات للارتباط بها باتفاقيات ومعاهدات تترك المظهر الخارجى للاستقلال بدون أن تمسه بسوء ، ثم تستولى بطرقها المشروعة حيناً وغير المشروعة أحياناً كثيرة ، على خيراتها وثرواتها بحكم الامتيازات التى كانت تمنحها حكومات هذه الجمهوريات للشركات الأمريكية الاحتكارية .

وجدير بالذكر فى هذا الموضع ، أن عامل الزمن وتطور النزعات الوطنية فى السياسة والاقتصاد ، والتطلع إلى الاستئثار بخيرات هذه الجمهوريات قد سرت شرارته فى أكثرها ، برغم ما تتعرض له الجمهورية التى تحمل لواء التمرد من ضغط وعنف وأساليب سلوكية لا يقرها عرف أو قانون** .

---

* من الطبيعى أن تكون جمهوريات أمريكا الوسطى : جواتيمالا وسالفادور ، ونيكاراجوا وهندوراس وكوستاريكا وبناما مما يشملها (مذهب مونرو) .

** رسم (جون بلانك) الأستاذ بمعهد (بروكنجز) صورة كاريكاتورية فى إحدى محاضراته ، أوضح فيها : أن علاقة الولايات المتحدة بأمريكا الجنوبية تمثل رجلا ثرياً عثر على قريب له من الفقراء ، أسكنه فى بدروم منزله وكلفه بأعمال شاقة يعود نفعها على الثرى ولا يترك لقريبه إلا الفتات .

إذن فقد كان حيادها وعزلتها مقصوداً بهما تفرغها لما بين يديها من وليمة دسمة ، متعددة الأصناف ، لا تحب أن يشاركها فيها شريك . من أجل ذلك زهدت أمريكا فى الاهتمام بشئون أوربا التى لم تجن من ورائها إلا الخسارة . فقد رأت أنها عندما خرجت من عزلتها واشتركت مع الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ – ١٩١٩ وكان دخولها عام ١٩١٧ ، بعد أن أقنعها الغرب واليهود بمنطقهما وبلاغتهما بما سوف يترتب من نتائج فى حال انتصار ألمانيا ، وما سوف تتعرض هى له بطريق غير مباشر ، نقول ، رأت أمريكا فداحة ماخسرته من رجالها وأموالها وعتادها فى سبيل نصرة قضية الحلفاء وكانت الأموال التى تصل إلى الغرب تعتبر ديون حرب واجبة الأداء بعد انتصار الغرب فى تلك الحرب . إلا أنه برغم كل جهود أمريكا وبعثاتها ووفودها وما عقدته من مؤتمرات لبحث دفع هذه الديون من جانب دول الغرب ، فقد ذهب سعيها عبثاً . بل إن التعويضات التى كانت فرضتها معاهدة ( فرساى ) على ألمانيا ، ربما كانت تساعد دول أوربا على دفع ما عليها من ديون لأمريكا ، إلا أن هذه التعويضات أيضاً ، كان مصيرها عدم الوفاء من جانب ألمانيا ، لأسباب دولية يضيق هذا المجال عن ذكرها .

* * *

وإذا أضفنا إلى هذا العزوف من جانب أمريكا عن التدخل فى شئون أوربا ، عدم ظهور البترول فى منطقة الشرق الأوسط ، فيما عدا إيران والعراق وحقول الموصل ، إلى أن دفعها دفعاً قوياً إلى التدخل فى شئون هذه المنطقة ، ظهوره بكمياته الوفيرة الضخمة فى السعودية والبحرين وعمان وقطر وغيرها ، لتحمى شركاتها وامتيازاتها ، فإن الأمر يصبح فى غير حاجة لمزيد من الشرح ، لهذا الزهد والعزوف .

ولست فى موقف تقويم سلوكى دولى لتصرفات أوربا أو أمريكا ، ولكننى أستعرض من خلال قراءاتى عن الأحداث الدولية ، موقف كل

من الجانبين فى تلك الحقبة من الزمن فى أوائل الثلاثينات .

وعندما كانت سياسة الهند تقرر فى لندن ، وسياسة إندونيسيا تقرر فى لاهاى ، وسياسة الكونجو تقرر فى بروكسل ، وسياسة شمال أفريقيا فى باريس ، وسياسة ليبيا تقرر فى روما ، كانت الولايات المتحدة فى شغل عن كل ذلك بمشاكلها داخل قارتها . وكانت إذا وصلت إلى آذانها صرخات أهالى فلسطين ، الذين تجبرهم سياسة الانتداب البريطانى على قبول أفواج اليهود المهاجرين إلى فلسطين بأعداد تفوق المتفق عليه فى صك الانتداب ، تعميقاً جذرياً لسياسة الاستعمار الاستيطانى ، لم تكن أمريكا تعير ذلك أى اهتمام ، متسترة وراء سياسة العزلة تارة ، أو بالاحتجاج تارة أخرى بانشغالها بمشاكلها الاقتصادية التى داهمتها . وإن كان الواقع يكمن فى أن النفوذ الصهيونى فى الولايات المتحدة ، كان يحمل المسئولين على السكوت عما يجرى فى فلسطين ، استناداً إلى مذهب مونرو .

ومهما يكن من أمر ما يحدث فى الأقطار الأخرى فى العالم ، فإن الساسة الأمريكيين كانوا يكافحون فى سبيل أن تبقى أمريكا بعيدة عن مواطن النزاع ، حفاظاً على اقتصادها وعلى تقاليدها ونظمها الديموقراطية. وكان عام ١٩٣٢ قد أخذ يكشف عن أطماع الفاشية فى إيطاليا ، وقرب تولى هتلر للحكم فى ألمانيا كرئيس للدولة. وكان مذهب (مونرو) يفرض على أمريكا جوانب نظرية ، وأخرى عملية . فمن الجوانب النظرية ، أن وزارة الخارجية فى واشنجتون كانت تحدد مجالات المسئولية ، وترسم السياسة الخارجية ، وتخطط الدور الرئيسى الذى يجب ألا يتجاوزه رئيس البعثة الدبلوماسية .

ومن الجوانب العملية للعزلة أمران : أولهما انتظار ورود تقارير عن مشاكل أوربا من بعثاتها التمثيلية فى الخارج ، لتقف الوزارة على ما يدور فى العالم من مشاكل ، بدون الإقدام على التدخل . ولم يحدث أن اتخذ

قرار عملى إزاء مشكل عالمى فى تلك الآونة ، بل إن التفكير حتى فى المصالح الأمريكية ، كانت تمليه أحداث خارجية .

وكان التصرف حيال أى موقف ، وتحديد أى دور ، وتخطيط أى عمل يبدو من الأمور المستحيلة ، طالما أن السياسة الخارجية لأمريكا تبدو مع تقيدها بمذهب العزلة ، بمثابة مناطيد كشف اتجاه الريح التى تثبت فى المطارات لمعرفة الأحوال الجوية لا غير .

أما ثانى الأمرين ، فهو يتلخص فى أنه ، طالما كان عمل الدبلوماسى الأمريكى ، فى ظل العزلة ، هو كتابة تقارير وتقييم مواقف ، فإن الصعوبة التى تواجهه ، هى فقدان الضابط والقياس الذى يحدد على ضوئه ما يجب إبلاغه وما يجوز إغفاله وما يترجح بين هذا وذاك .

* * *

ورحت أقرأ فى كتاب آخر فصلا كتبه ( أرنولد توينبى ) جاء فيه : «مهما اختلف غير الغربيين من الناس فى العالم فيما بينهم ، من حيث الجنس أو اللغة أو المدنية أو العقيدة الدينية ، إلا أنه ، إذا سألهم أى غربى عن رأيهم فى الغرب أو فى أمريكا ، فسوف يسمعهم يجمعون على إجابة واحدة لا تتغير ، يستوى فى ذلك الروس والعرب والهندوس والصينيون واليابانيون وباقى الأجناس . لقد أصبح الغرب زعيم العدوان فى الأزمنة الحديثة ، ولكل من هذه الأجناس سالفة الذكر ، معاناته الشخصية من العدوان الغربى . فسوف يذكر الروس أن بلادهم غزاها الغرب خمس مرات ابتداء من عام ١٦١٠ حتى عام ١٨١٢ ، على عهد نابليون بونابرت . وسوف يذكر الأفريقيون أنهم استعبدوا ودفع بهم عبر الأطلسى من أجل خدمة الأوربيين المستعمرين للأمريكتين ، واستخدامهم كآلات لتحقيق جشع سادتهم الغربيين فى جمع الثروة . وسوف يذكر من بقى من السلف من السكان الأصليين لشمال أمريكا « الهنود الحمر » ، أن أجدادهم قد أزيحوا على مراحل وأبيدوا فى معارك ،

ليفسحوا الطريق أمام الدخلاء من أوربى الغرب إلى جانب عبيدهم من الأفريقيين » .

* * *

بعد خمسة أيام من الإبحار من الإسكندرية ، وصلت الباخرة إلى ميناء مارسيليا ، الذى لم أستطع أن ألتقى فيه إلا بضوضاء شارعه الرئيسى ( كانا بييرى ) الذى يحرمك ضوضاؤه من التحدث إلى نفسك .

وغادرت مارسيليا بقطار المساء إلى باريس التى علمت من وكلاء شركة كوك أن ظهر اليوم التالى قد تحدد لمغادرتها بقطار خاص بركاب الباخرة الألمانية ( بريمن ) ينقلهم إلى ميناء ( شيربورج ) على المحيط الأطلسى للإبحار منه إلى نيويورك . ولم أقم فى باريس إلا بزيارة متحف اللوفر ، الذى تقول النشرة التى اشتريتها مع صور تذكارية للمتحف ، بأنه كان قصراً ملكياً بدأ إنشاءه ( فرنسوا الأول ) وراح كل من جاء بعده من الملوك يضيف شيئاً ويقيم جناحاً ويتم واجهة ، إلى أن انتهى العمل فيه ، فى عهد نابليون الثالث عام ١٨٤٨ . وقد تقلب على بناء القصر عشرات من المهندسين ابتداء من ( ليسكوأندرو) حتى ، ( جان جوجون ) الذى تولى عند نهاية البناء ، عملية الديكور التى بدا بعدها القصر شيئاً يفوق كل تصور أوخيال .

وقد تحول هذا القصر العظيم ، بعد الثورة الفرنسية ١٧٨٩ إلى متحف أو قصر للفنون . وتضم جدرانه وأبهاؤه وأجنحته مجموعات من الرسم والنحت والتحف من إنتاج أكبر فنانى العالم ، والتى تعد من أغنى وأثمن مقتنيات فى العالم . ومن بينها لوحة ( موناليزا ) الشهيرة التى رسمها ( ليونارد دافنشى ) و ( فينوس ) ، و ( آلهة الحرب المجنحة ) « نيكى » إلى جانب آلاف غيرها من التماثيل والصور .

ويعد متحف اللوفر من أكثر المتاحف ارتياداً من الجماهير من

الزائرين أو الدارسين أو الباحثين . ولا يكفى أسبوع للزائر المحقق لرؤية أهم محتويات القصر .

لم تنقع هذه الزيارة غلّى وظمئى إلى باريس . بل لعلها زادتنى شوقاً إليها . كالحبيب الهائم الذى إذا هبّ عليه نسيم من أحب ، زاد هيامه اشتعالا . كما لم أستمتع بمشارف مارسيليا وضواحيها الرائعة .

إن أكثر ما يجذب السائحين فى فرنسا ، بعد القصور والمتاحف ، جو المرح والاسترواح والاستمتاع الحر بالحياة ، الذى يسود كل أنحاء فرنسا ، حيث السعادة ترفرف أينما كنت فوق أرضها ، وحيث الشعور بأنك مدعو بتحمس وترحاب لمشاركة أهلها مرحهم وسعادتهم . ولقد منيت النفس وأنا راحل عنها ، كطفل أبعدوه عمن أحب ، بزيارة تشفى الغليل وتملأ العين .

قام بعد الظهر القطار الخاص بركاب الباخرة ( بريمن ) إلى ( شير بورج ) ، حيث ترسو الباخرة ( بريمن ) على مبعدة من الميناء الذى لم يكن يسمح عمق مياهه بدخولها . وقد كانت فى ذلك الحين من عام ١٩٣٢ تعد أضخم باخرة فى العالم . وتبلغ حمولتها خمسين ألف طن ، بنيت خصيصاً لعبور الأطلسى . وكانت من عجائب الصناعة البحرية الألمانية قبل الحرب وقبل بناء إنجلترا لباخرتيها ( كوين مارى وكوين إليزابيث ) وبناء فرنسا باخرتها الجميلة ( إيل دى فرانس ) . وكانت حمولة هذه البواخر تبلغ ثمانين ألف طن للواحدة ، بعد سنوات من بناء ( بريمن ) .

وكأنما كانت دول العالم تتبارى لإنتاج مدن عائمة عبر الأطلسى بين موانى أوربا ونيويورك ، تجمع إلى جانب السرعة متعة الحياة للقادرين فوق ظهرها ، وملء أيام السفر باهتمامات مختلفة وحفلات متنوعة واستعراضات متعددة . وقد حصلت الباخرة ( بريمن ) فى هذه الرحلة على الشريط الأزرق لقطعها المسافة من ( شير بورج ) إلى ( نيويورك ) فى أربعة أيام وثمانى ساعات . وكان بالباخرة مصاعد تحمل الركاب إلى السطح

نظراً لتعدد الأدوار التى كانت تزيد عن ثمانية أدوار ، من القاع حتى السطح الأعلى . وبها صالونات وسينما وتياترو وصالات رقص وجمنازيوم ومشارب للبيرة الألمانية ( بير جارتن ) وبارات وملاعب تنس طاولة وصالون للبليارد و اليابانى ، وأحواض سباحة ومكتبات وصالونات حلاقة ، ودور مخصص لبيع ما يخطر على بال المسافرين ، من ملابس إلى أدوات زينة إلى تحف تذكارية إلى محلات زهور فى استطاعتك أن تكلفها بإرسال ما تود إرساله من الزهور إلى صديق فى مناسبة من المناسبات توافق أيام الرحلة ، أينما كانت إقامته فى أى عاصمة من العواصم .

وللباخرة صحيفة تطبع محليًّا وتتلقى الإدارة المشرفة أنباءها من البرقيات التى تصلها باللاسلكى ، فيجد كل راكب صحيفته على مائدة الفطور .

وأرجو ملاحظة أننى أكتب عن هذا الحدث عام ١٩٣٢ ، لا فى عصر الفضاء والصواريخ والأقمار ، الذى جب كل عجيبة ، حتى لم يبق فى العالم ما ندهش له .

وصلنا ميناء نيويورك فى الزمن المحدد تماماً ، حيث طالعنا أول ماطالعنا ، تمثال الحرية وجزيرة مانهاتن ونهر هدسون والعمارات الناطحة للسحاب .

وكان يقف بيننا شابٌّ أمريكى متحمس لبلده يصف لنا ما نراه من معالم ، فخوراً بما يرتسم على وجوهنا من دهشة . وقد سأله شابٌّ إنجليزى كان يقف فى الحلقة التى كانت تتابع الوصف ، عن أمر يتعلق بمبنى روكفلر ، وبعد أن أجابه أردف هو يسأل الإنجليزى عن هذه الطلاقة فى اللغة الإنجليزية ، فأجابه مبتسماً ، بأنه يبدو أن إخواننا الأمريكيين قد نسوا أن على الجانب الآخر من الأطلسى توجد جزر بريطانية يتحدث أهلها الإنجليزية .

* * *

هبطت الميناء الكبير مع الهابطين . وتمت إجراءات الخروج من الميناء فى مثل لمح البصر . وأصبحت وجهاً لوجه أمام هذه المدينة

العملاقة ، التى لا يكفى أن نقول إنها ضخمة فخمة ، أو مكتظة مكتنزة ، ولندع التفكير فى الاسم المناسب لضخامتها ، ولنمض فيما نحن بسبيله . تعتبر نيويورك أكبر ميناء للولايات المتحدة . وهى تقوم فوق جزيرة مانهاتن التى يطوقها ذراعا نهر هدسون عن يمين وعن شمال . وعندما بلغتها كان عدد سكانها يقترب من الثمانية ملايين نسمة . وبفضل موقعها على ساحل المحيط الأطلسى ومرور نهر هدسون تحت قدميها ، وما يتبع ذلك من سهولة النقل البحرى ، وسرعة تسلم البضائع وتوزيعها ، أصبحت نيويورك من أكبر مراكز التجارة والصناعة والاقتصاد والمال فى العالم أجمع .

كان اختيارى قد وقع على فندق قرأت اسمه فى صحيفة الباخرة ، فقصدته بالتاكسى الذى كان يعرض على شاشة صغيرة أمام الراكب ، شريطاً يحتوى على إعلانات مصورة وبرامج للسينما والتياترو وصالات الاستعراض وقاعات الموسيقى والفنادق والمطاعم ودور الأزياء ، مما يهم السائح الوقوف عليه لإزجاء وقت فراغه أو لشراء ما يريد . ولم أعرها اهتماماً إلا بقدر ما تثير الموسيقى اهتمام الأصم . وتطور الشريط إلى عرض صور متاحف ومكتبات وكنائس وناطحات ورحلات نهرية إلى آخر ما يهتم به السائح المحدود .

ورحت أفكر وأنا أمام هذا الشريط : ماذا آخذ وماذا أدع من هذه المدينة التى يلزم لرؤيتها الجهد والصحة والوقت واحتمال الضوضاء والمال الذى قال عنه ( سومرست موم ) إنه الحاسة السادسة التى بدونها لا يكون استمتاعنا بالحواس الخمس المعروفة مستكملا . وانتهى تفكيرى إلى أننى ما دمت فى نيويورك فلابد من اقتحام ما أطيقه منها بوسائل لا ترهق ولا تزهق . وتذكرت ما قاله ( جورج . لى . مالورى ) ، المستكشف البريطانى الشهير ، عندما سأله سائل عما حمله على أن يقهر قمة جبل ( إفرست ) بين الهند والتبت الذى يبلغ ارتفاعه (٨٨٨٢) متراً ،

وكانت إجابته ببساطة : « لأنها موجودة » .

فهذه المدينة التي يبدو التجول فيها ، قريباً من تساق جبل ( إفرست ) ، أصبحت أمامي ، وأنا أمامها ، ولا مناص من أن أقهر منها ما أستطيع . والله المستعان .

علمت من الأوتيل الذي نزلت به ، أنهم يعدون زيارة لمعالم نيويورك ، بسيارة خاصة لمن يرغب الاشتراك من النزلاء . وقد قيدت اسمي لرحلة الغد ، من الصباح حتى الغروب ، وهذا أضعف الإيمان .

وكان على أن أمر من فوري على قنصليتنا العامة في الشارع الخامس لتسلم رسالة خاصة للقنصل العام . وكانت الساعة الحادية عشرة صباحاً . فقمت وأنا محرج لأداء هذه المهمة . وكفى ما فيه الزملاء من ضيق .

كان القنصل [1] العام من الأعلام النابهين من أبناء مصر . وقد كان أستاذاً بكلية التجارة قبل التحاقه بالسلك الدبلوماسي . وكان حجة في المسائل المالية والاقتصادية العالمية . وله عقلية حسابية رياضية تضارع الآلات الحاسبة . ففي استطاعته أن يخبرك باسم اليوم الذي يوافق ٧ يولية بعد مائة عام أو قبل مائة عام . وكانت نبوءاته من واقع دراسته للصحف المالية في أمريكا ، يمكن الاعتماد عليها في شراء أو بيع أسهم بعض الشركات الصناعية . ولم يكن يقدم على ذلك ، ولكنه كان يتبرع بهذه النبوءات لأصدقائه الأمريكيين الذين كانوا يستشيرونه . وكان لا يقنع إلا بالقمة في أي عمل يقوم به . بل حتى في هواياته . فقد كان حجة في لعبة ( البريدج ) . وكان طهي الطعام من هواياته . وقد حصل على دبلوم ومدالية بالامتياز في فن الطهي من باريس بعد أن أدى امتحاناً في ذلك . وقديماً كان الطهاة والسقاة في بلاط ملوك فرنسا يحملون ألقاباً نبيلة .

وكانت تقاريره الاقتصادية واتصالاته بالمسئولين ومجادلاته مع

---

( ١ ) هو السفير فيما بعد الأستاذ أنيس عازر .

زملائه تتسم بطابع خاص يفرض عليك الاهتمام بما يكتب عنه ، والاستماع إلى ما يتحدث فيه : والاقتناع بما ينصح به .

وبعد أن تحدثنا عن أنباء مصر والوزارة ، سألني إن كنت علمت شيئاً عن اقتراح تقدم به للاقتصار على نائب قنصل واحد بدلا من اثنين عنده ، وتوزيع مرتب النائب المنقول على من سيقومون بعمله من أعضاء القنصلية . فقلت له وأنا مشفق عليه من الإجابة ، إن الوزارة أخذت بالشق الأول من الاقتراح ، وشرعت فعلا فى نقل أحد نائبي القنصل العام — وذكرت له اسمه — ورفضت الشق الثانى الخاص بأيلولة مرتبه . وما إن انتهيت من حديثي حتى راح الرجل يمشي فى الحجرة جيئة وذهاباً كالأسد الحبيس . ثم استدار ليقول لى : ليس المهم أمر نقل أحد النائبين ، ولكن هل تعلم الوزارة مقدار ما يؤديه النائب المنقول لزملائه من خدمات لا تعوض ! إنه خير من يفلفل الأرز ، ويسبك الطعام ويهيئ اللحم ويحشو ورق العنب وغيره مما يحتاج إلى حشو . وكل ما ذكرته نقطة من بحر معارفه فى الطهى . وأى موظف دبلوماسى فى الوزارة يستطيع أن يكون نائب قنصل ناجح ، ولكن لا يستطيع أى نائب قنصل أن يكون طاهياً ماهراً موهوباً مرغوباً . لابد أن يكون أحد الزملاء من القناصل حط عينه عليه لضمه إلى قنصليته . ولكن لنيويورك وضعاً خاصاً بها بسبب غلائها يتطلب وجوده . ومثل هذه الظروف تختفى فى مدن أخرى . وماذا يفعل بموهبته فى مثل هذه المدن !

ورحنا نهدئ من ثائرته ، حتى استسلم لعوادى القدر كما قال .

ولما أردت أن أستأذن قال لى إننا سنتناول الطعام جميعاً . ولما اعتذرت وشكرته قال : أنت مكلف ولست مدعواً . فنحن نشكو قلة الأيدى فى العمل وفى المنزل . وقد أرسلك الله عوناً لنا اليوم . فليس معى سوى زميلين لا أعتمد عليهما كثيراً فى تجهيز الطعام . أما الآخران ، فأحدهما

من حدثتك عن طهيه ، والآخر فى إجازة . ولما أنبأته بأنى لا أجيد حتى سلق البيض ، قال لا بأس نبقى نتركك لغسل الأوانى .

كانت مواعيد العمل فى قنصلياتنا فى أمريكا تبدأ الساعة التاسعة صباحاً وتنتهى فى الساعة الرابعة . وعندما أزفت ساعة الانصراف ، وهبطنا الشارع ، راح القنصل العام يصدر أوامره لزميلين لشراء مستلزمات العشاء وفقاً لاختصاص كل زميل . على أن نلتقى فى ( المأوى ) على حد تسميته ، أى المسكن . وكانوا يعيشون جميعاً ــ خمسة أعضاء ــ فى شقة واحدة . وكانت حجرة المعيشة ، هى حجرة الأكل ولعب البريدج والطاولة والدومينو والشطرنج وسماع الموسيقى والأخبار من الراديو ، وقراءة الصحف والمجلات ولم يكن التليفزيون قد ظهر إلى الوجود . وباختصار كانت هذه الحجرة هى المرجع والمآل والملجأ والمأوى فى أيام الضنك وما أكثرها .

عندما اكتمل عددنا راح يرشد كل زميل إلى عمله ، كقائد الأوركسترا الماهر ، فواحد يقشر البطاطس وآخر يجهز اللحم وثالث يقوم بإعداد الأرز ورابع يقوم بتحضير السلطة والفاكهة . وجلسنا حول المائده المستديرة ، عندما كانت الساعة قد بلغت الثامنة . وراح القنصل العام يعتذر عن سكنهم جميعاً معاً بسبب عجز المرتبات والمساعدات العائلية عن الوفاء بمتطلبات المعيشة . وعلى المرء أن يتنازل عن قدر من الحرية فى سبيل تخطى أزمة توشك أن تكون إفلاساً . وعلى ذكر الإفلاس راح فى طلاقة يتحدث عن التضخم Inflation الذى كانت تعانيه أمريكا آنذاك . كما راح يتحدث عن ميزان المدفوعات وزيادة الوارد عن الصادر وخروج الكثيرمن رءوس الأموال الأمريكية لاستثمارها فى أمريكا الجنوبية أوفى أوربا نظراً لزيادة الفائدة، الأمرالذى يحرم الخزينة من الضرائب المقررة عليها ، كما يمنع من تداول فوائدها فى أمريكا . ولما رأى أن الحديث أصبح تراجيدياً ، تحول فى لباقة للتحدث فى مجالات السينما والمسرح

والموسيقى والتصوير ، حديث محيط ملم بكل هذه الشئون ، متابع لها عن علم وإدراك .

وبعد أن قمت بنصيبي من غسل الأواني ، استأذنت فى الانصراف وخرجت مودعاً هؤلاء الزملاء الذين يكدحون ويجدون بين عمل دقيق وحرمان مضن ، ويدفعون من تضحياتهم ضريبة لوطنهم ، مهما عانوا من قسوة الحياة ، ومن عمل يشحنهم بالتجارب لمستقبلهم القريب .

فى اليوم التالى قمت بالسيارة المعدة للسائحين لمشاهدة معالم ، أو النزر اليسير من معالم المدينة الكبرى . وقد شاهدنا متاحف ومعارض ومكتبات وكنائس قديمة ، وحدائق نموذجية ، برعت يد الإنسان فى تنسيقها استجلاباً للمتعة ، بالنظر إليها والعناية بها . وكان كل ما يقع عليه نظرى ، جديداً لامعاً براقاً لا يثير مشاعر قادم مثلى من مصر واليونان ، مهبط الفنون القديمة الموغلة فى أغوار التاريخ . فكل ما فى أمريكا من آثار ، لم يتعرض بعد لعدوان الزمن ، ولم تنل منها الأيام شيئاً ، فظلت زاهية بهيجة فى أعين المشاهدين المشدوهين من أثر روعة البناء ، وبراعة المعمار ، وأثر الغنى والإنفاق على كل ما يقع تحت العين من مرئيات . وانتهت الجولة وقد ارتحت نفساً من أننى وإن لم أستطع أن أقهر قمة الإفرست ، إلا أننى تسلقت أقدامه ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

فى صباح اليوم التالى كنت فى مقعدى بالقطار الذى ينهب الولايات نهباً فى طريقه إلى أوكلند بولاية كاليفورنيا ، من الشاطئ الأطلسى إلى الشاطئ الباسيفيكى ، مخترقاً القارة ، وقاطعاً ما يقرب من أربعة آلاف كيلو متر ، وطاوياً أكثر من عشر ولايات . وكان القطار مزوداً بعربة فى نهايته مخصصة لتناول المرطبات والقراءة ومشاهدة المناظر ، كانت مقصدى ومرادى معظم أوقات السفر . وكانت مقاعدنا تنقلب بطريقة أوتوماتيكية إلى أسرة فى الليل . وبعد أربع ليال وخمسة أيام تقريباً ، بلغنا أوكلند التى سبق ذكرها وهى نهاية الرحلة . وكان لا بد لى من أن أستقل

باخرة صغيرة تقطع بنا خليج سان فرنسسكو إلى مدينة سان فرنسسكو فى الجانب المقابل . أما اليوم ، فقد أصبح الكوبرى الجديد الذى يزيد طوله عن ثمانية كيلو مترات ، يربط بين أوكلند وسان فرنسسكو مخترقاً هذا الخليج الذى تتوسطه جزيرة ( الكازار ) التى يقع فيها سجن ( سان كوانتن ) الذى اشتهر بنزول ( آل كابونى ) به فترة من الوقت . كان مدخل الكوبرى قبل إنشائه يدعى ( جولدن جيت ) أى البوابة الذهبية وقد تكون هذه التسمية مستمدة ومستلهمة من منظر الشفق عند الغروب الذهبى فى هذا المكان .

أحببت سان فرنسسكو* من أول نظرة . فهى فاتنة لعوب ، تزدان عند المساء بثريات منازلها المنتثرة فوق تلالها السبعة . وتتيه بأنوار خليجها ليلا بما يمخر فيه من بواخر . وتتأنق بما تضع على وجهها من غلالات الضباب عند الصباح وحينما يأتى الغروب ، حتى لا تكشف عن مفاتنها إلا بقدر ، وكان عدد سكانها يبلغ ٨٠٠ ألف نسمة عام ١٩٣٢ . وهى أكبر موانئ أمريكا على المحيط الباسيفيكى . وتعد من أكثر الموانئ حركة . وتقع على الخليج المسمى باسمها ، كما أنها تعد مركزاً صناعياً هاماً فى ولاية كاليفورنيا. وقد اشتهرت فيما بعد بأنها كانت مركزاً للاجتماعات التى وضعت أسس ميثاق الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ .

بعد شهور قليلة وصل القنصل العام . وكانت السيدة زوجته قد أصرت على أن تصحب معها طاهية ( وسفرجى ) من أهالى النوبة. ولا أدرى . كيف غاب عنهما ما هو شائع عن قيام التمييز العنصرى بأمريكا . فقد أمضينا نهاراً بطوله فى البحث عن فندق يقبل نزول النوبيين ، بدون

---

* من معالم سان فرنسيسكو الفاتنة : ضاحيتها (مونتريه ) وغاباتها ذات الشجر الأحمر ، وخليجها الذى يقوم عليه كوبرى ( الباب الذهبى ) وتلالها السبعة ومدينة الملاهى وحديقتها النباتية التى تضم أكبر وأكمل مجموعة من أحواض الأسماك فى العالم . ثم ترامها المتسلق .

جدوى ، إلى أن أشار علينا صديق بأن نذهب بالخادمين إلى فندق صينى فى الحى الصينى المفترى عليه فى الأفلام الأمريكية لكثرة ما يجرى فيه من حوادث . فقد كنت أخترقه ليلا ولا ألحظ فيه إلا الهدوء الشامل . وقد رحب مستخدمو الفندق بنا وأكرموا الخادمين اللذين أفهمناهما أننا كنا نبحث عن أماكن خالية لهما حتى لا نجرح شعورهما .

وقد يمكن الاحتجاج بأن الفندق يضم طوائف من مختلف الاتجاهات ، وقد يؤذى بعضها وجود ملونين فى الفندق . ولكن بماذا يمكن الاحتجاج به ، عندما عثرنا على ڤيلا صغيرة مستقلة للقنصل العام ، كانت على مبعدة من القنصلية بما يعادل المسافة بين القاهرة وشبين الكوم : التماساً لإيجارها المعتدل ، حيث أخفينا الخادمين إلى أن تم توقيع العقد طول مدة عمل القنصل العام ، إلا إذا أبدى من جانبه رغبة فى الانتقال إلى مسكن آخر . فقد حدث أن رأى صاحب الدار فى اليوم التالى الخادمين فى المنزل فكاد أن يصعق ، وعقد الإيجار قيد فى يديه .

كان القنصل العام * من أبلغ المصريين حديثاً وكتابة باللغة الإنجليزية . وقد وقفت على ذلك من اطلاعى على كتابه القيم الذى أصدرته دار نشر كبرى فى لندن . كان هذا الكتاب هو : ( سيلان . أرض الجمال الخالد ) Ceylon, Land of eternal beauty . وقد علمت من القنصل العام أن والده كان من كبار رجال الثورة العرابية التى قادها أحمد عرابى لمحاربة الإنجليز فى عهد الخديو توفيق ، هو طلبه باشا .

وكان نفى عرابى وصحبه إلى جزيرة سيلان هو العقوبة التى أصدرها الخديو آنذاك . وقد ولد القنصل العام بالجزيرة وظل مع والده إلى أن صدر أمر الإفراج عن المنفيين بعد أن أمضوا عشر سنوات . كانت بلاغته

---

* كان القنصل العام هو الأستاذ على فؤاد طلبة ابن اللواء طلبة باشا أحد أعوان أحمد عرابى باشا .

مثار عجب الأمريكيين المثقفين . وكانت كتاباته إلى الدوائر التى كنا نتعامل معها موضع إعجاب وتقدير . وقد توالت عليه الدعوات لإلقاء محاضرات فى الجامعات والنوادى والهيئات ، حيث كان يلبيها عن طيب خاطر .

ويقضى البروتوكول الموضوع والمعمول به ، أن يقوم القنصل العام بتسليم براءة تعيينه إلى محافظ المدينة . وكان المحافظ يقيم فى مدينة ( ساكرامنتو ) مقر المحافظة . وقد صحبته فى زيارته . وكانت المدينة تقع على نهر سميت باسمه . وكان عدد سكانها آنذاك ١٣٧ ألف نسمة . وتبعد عن سان فرنسسكو بنحو مائتى ميل . وهى عاصمة الولاية .

لم يكن يعكر صفو إقامتنا فى سان فرنسسكو سوى ما وصلت إليه مرتباتنا من انخفاض ، برغم غلاء كان يأخذ بالخناق . فقد أخطرنا البنك الذى كنا نتعامل معه ، بالتغيير الذى طرأ على مرتباتنا . فبعد أن تلقى البنك أوامر من الجهات الرئيسية المختصة ، بأن إنجلترا قررت الخروج عن قاعدة الذهب فى نهاية شهر سبتمبر ١٩٣٢ فإن الجنيه الإنجليزى أصبحت قيمته ٣,٨٨٦ دولارات . وكان هدف إنجلترا من هذا الخفض وخروجها عن قاعدة الذهب ، تصريف بضائعها بزيادة صادراتها .

ومعنى هذا بالأرقام ، وبسبب ارتباط عملتنا المصرية آنذاك بالجنيه الإسترلينى ، أن مرتباتنا تفقد أكثر من خمسيها ، كما يسرى هذا على ما كان مفتوحاً لى من حساب إضافى من أسرتى شهرياً .

قمنا بإخطار الوزارة برقياً بذلك ، فأجابت الوزارة بكتاب جاء فيه ، إنها تقوم بدراسة الموضوع وستخطرنا فى الوقت المناسب ، وأن الموضوع قيد عنايتها . ولم يكن الأمر يتطلب أى بحث أو عناية . وكان لا يزيد عن فتح اعتماد إضافى لتغطية ما لحق مرتباتنا من خسارة . ولكن الدراسة والعناية استمرت إلى أن انتقلت من سان فرنسسكو بعد ذلك التاريخ بما يقرب من عامين ، بدون الوصول إلى حل موفق . ولم يكن من اللائق أن

نلجأ إلى أهلنا فى مثل هذا الأمر . ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . وكان ما يصلنى من أهلى يفوق ما يصلنى من مرتب من الوزارة. وكنت من أجل ذلك أسارع إلى الرد على خطابات أهلى قبل ردى على خطابات الوزارة ، والذمة والعدل يقضيان بذلك .

وقد حدث أن أرسلت الإدارة المالية ما يسمى فى عرفها ( بمناقضة ) تعترض فيها على تصرف مالى أتيته بدون وجه حق . وتعجلت منى الرد أكثر من مرة إلى أن أجبت بالتعليل المطلوب . وكان ما أتيته من إثم ومعصية يتلخص فى أنى جاوزت حقى بأخذى سرير نوم فى سفرى بالقطار إلى سان فرنسسكو برغم أن درجتى المالية لاتسمح إلا بالمبيت فوق مقعدى ، ولأن الأسرة لا يمسسها إلا أصحاب الدرجات الرابعة فما فوق .

ولقد قلت فى ردى على هذه المناقضة العجيبة إن مدة السفر تبلغ أربع ليال . وأن ما تطلبه الوزارة لا يقوى عليه سوى ( فقير هندى ) ممن يشهرون أرواحهم فى وجه ماديتهم ليقهروها ويتم لهم الانتصار عليها . وفى استطاعة أحدهم أن يقف على ساق واحدة أسبوعاً أو ما شابه . وكنت أود أن أستطيع ذلك ولكنه فوق طاقتى . وقد جاءنى الرد بإعفائى من توريد الفرق المطلوب دفعه إلى خزينة القنصلية مع التنبيه بعدم العودة إلى استعمال هذه اللهجة فى مخاطبة الإدارة .

انتظرنا طويلا نتيجة دراسة الوزارة لوضعنا المالى الذى لا يحتمل التأخير . وذات يوم سألنى القنصل العام عما يمكن تدبيره ، فقلت له إن لدينا متوفراً من بعض اعتمادات القنصلية من الإيجار والتدفئة والمشتروات والاعتمادات العامة . فإذا استعملنا هذا المتوفر من الاعتمادات فى علاج ما طرأ على مرتباتنا من نقص ، خرجنا من الأزمة بستر وسلام ، إلى أن ننتقل من سان فرنسسكو إلى بلد آخر يكون أقل حدة فى غلائه ، لندفع فيه ما يكون قد تراكم علينا من ديون قبل الوزارة . وأذكر أننى ظللت أدفع هذه الديون بعد انتقالى من سان فرنسسكو ، ولمدة عامين . أما

فى أيامنا هذه ، فإن الوزارة عند تغيير قيمة العملة فى بلد من البلاد ، تبادر بإخطار بعثاتها الدبلوماسية التى تتأثر بهذا التغيير ، ليصرف موظفوها ما كانوا يصرفونه قبل ما طرأ من تغيير لا يد لهم فيه ولا حيلة لهم فى دفعه .

* * *

كانت علاقة مصر بأمريكا فى ذلك الحين علاقة عادية. فلم تكن مشكلة فلسطين قد برزت إلى السطح ، وليس بيننا وبين أمريكا من مشاكل سوى هذه المسألة . ولم تكن قد ورثت ملكوت وسلطان بريطانيا فى الشرق الأوسط حتى يقع معها احتكاك ، مرده إلى اقترابها من منطقتنا. ولعلها فوق هذا وذاك ، كانت مرتاحة لما يجرى فى فلسطين على يد سلطة الانتداب البريطانية ، ورعايتها لليهود . كذلك كانت الحالة الاقتصادية والميزان التجارى بين البلدين يجريان بصورة طبيعية . وكانت أعمالنا فى القنصلية لا تقتطع من وقتنا إلا أقله .

وكنت أشرف على بعثة الطلبة المصريين فى جامعة ( بيركلى ) * التى كان من طلبتها خبير السدود العالمى المرحوم محمد أحمد سليم ، والدكتور حسين عارف الذى أصبح وكيلا لجامعة القاهرة ، والمهندسان الزراعيان الكبيران يوسف وفا وعادل حجازى . وكانوا جميعاً من النابهين الذين كفونى الكلام عند التحدى ، كما كفونى مؤونة مراجعة أساتذتهم بالجامعة ، منذ أن كانت تقارير هؤلاء الأساتذة ، ( تطيل الرقبة ) .

وفيما عدا ذلك ، لم يكن أمامى ما أعمله إلى جانب عملى القنصلى المحدود .

وكان على أن أقوم بدراسة موضوعين ، كنت قد تلقيت وأنا بالوزارة

* ( بيركلى ) مدينة جامعية صغيرة تحتل الجامعة ثلاثة أرباع مساحتها . وكان الوصول إليها يتم بواسطة بواخر صغيرة من سان فرنسسكو عبر خليج سان فرنسسكو . وكنت ألاحظ فتيات من اليابان والصين والفيليبيين يعملن فى المطاعم والمقاهى والنوادى ليحصلن فى أوقات فراغهن على مصاريف الجامعة .

تعليمات من أكبر المسئولين فيها بزيارتهما وكتابة تقارير عنهما. وكان الموضع الأول، مصنعاً يقع غير بعيد من سان فرنسسكو، ويقوم بتصنيع وتعليب السردين. فلنا شواطئ تبلغ أربعة آلاف كيلو يمتلئ الكثير منها بالسردين الذى يبقى مهملا حتى يدب إليه الفساد. وكان الموضع الثانى يقع فى بلدة قريبة من سان فرنسسكو تدعى (سالوما) تمتلئ بمزارع لتربية الدواجن وتفريخها Hatchery على ضوء العلم الحديث للانتفاع بها فى تنمية وإكثار الدجاج والدواجن الأخرى والبيض. كما زرت بها معامل ومختبرات للبحث والتحليل. وقد قمت بمهمتى وبعثت بتقارير عن مشاهداتى أرفقت بها كتيبات وصوراً تشرح العمل فى الموضعين. وقد شاء الله بعد أكثر من ربع قرن أن أرى المشروعين فى رعاية مؤسسة الثروة المائية والهيئة العليا للثروة الحيوانية، اللتين حققتا نجاحاً يتزايد عاماً بعد عام.

ولم يكن أمامى من عمل أعمله بعد ذلك إلا الواجبات المكتبية الروتينية، والمهام القنصلية المحدودة فى بلد ناء مثل سان فرنسسكو، رعايانا المصريون فيه أربعة.

من أجل ذلك انصرف اهتمامى إلى بعض دراسات أدبية. وكنت قد تعرفت إلى سيدة أمريكية متزوجة من عالم يابانى كان أستاذاً لأدب اللغة اليابانية فى جامعة بيركلى، إلى جانب تخصصه فى دراسة عمر الخيام. وكان رامى قد حبب إلى عمر الخيام الذى ترجمه إلى العربية من الفارسية التى درسها فى باريس. وقد حببنى رامى فى عمر الخيام كشاعر غنى بالمعانى الطريفة البعيدة المرامى. أما صديقى اليابانى فقد حببه إلى من ناحية فلسفته وعمق تفكيره وانصراف ألفاظه إلى غير ما هو ظاهر من معانيها. وقد أشار على بالاطلاع على ترجمة فيتز جيرالد Fitzgerald للخيام بالإنجليزية، لأنها فى اعتقاده خير الترجمات لرباعياته وأقربها إلى روحه.

وكنا نمضى ساعات هانئة فى داره الصغيرة الأنيقة الرشيقة التى تكاد الزهور فيها من فرط الانسجام بين ألوانها تؤلف قصيدة حلوة الوزن والقافية

والنغم . وذات يوم قال لى : ألم يدهشك زواجى من أمريكية ؟ . فأجبته ، بأننى لم أدهش لأننى أعلم أن زوجته من مريدى عمر الخيام ، وقد تفوق الوشائج فى الأدب ، وشائج الرحم . ولكننى كنت أقول لنفسى ، إنه ربما جاء لينتقم ( لمدام بترفلاى ) بطلة أوبرا ( بوتشينى ) الشهيرة .

وراح الرجل يضحك وراحت السيدة زوجته تصفق ، وكان الفضل فى هذا المرح المهذب ، لانسجام الرفقة ، ولمشروب يابانى يصنعونه من الشعير ، ويتناولونه فى جرعات صغيرة كالدواء .

ثم وقعت فى يدى مجموعة باللغة الإنجليزية لأعمال (فردريك شيللر ) الشاعر الألمانى ، فاخترت منها للترجمة مسرحية ( دون كارلوس ) . أو ( فيليب الثانى ) وقمت بترجمتها ، وملأت بها فراغاً كنت أفرق منه.

ومن حسن طالعى أن تعرفت ذات مساء وأنا فى بهو الفندق الذى كنت أنزل به ، بأديب أمريكى وصاحب دار نشر ومجلة أدبية يدعى ( هار واجنر ) . وما إن لمس من حديثى أنى أميل إلى فنون الكتابة والشعر والموسيقى والرسم ، حتى اهتم بأمرى وصحبنى إلى داره حيث قدمنى إلى أسرته وأحفاده . وكانت إحدى حفيداته رسامة . وكانت تعمل سكرتيرة له ، وهى التى كانت همزة الوصل بيننا للانتقال بى إلى مكتبه أو إلى داره بسيارتها الصغيرة . وكان الرجل مولعاً بجمع أمثال مختلف الشعوب وطبعها ونشرها. وذات يوم طلب منى أن أجمع له ما أتذكره من أمثلة عربية ومصرية شعبية . وكانت حصيلتى منها كبيرة ، أضفت إليها الكثير من الشعر الذى يذهب مذهب المثل أو الحكمة ، بما كان فى حوزتى من دواوين الشعر .

وقد فرح الرجل الأديب بهذه المجموعة عندما اكتملت ، وصاغها بالطريقة التى تضمن الإقبال عليها من القراء ، وأصدرها باسمه وباسمى . وبفضل هذا الكتاب ضمنى إلى ناد يدعى Bohemian Club يعد من أرقى النوادى وأغلاها من حيث قيمة الاشتراك . وكان هذا النادى

لا يضم إلا كتاب غرب أمريكا Western Writers ، أو من يكون له عمل أدبى منشور من المقيمين فى سان فرنسسكو أو المارين بها لفترة من الوقت . وكان الانضمام لهذا النادى بمثابة ورقة اعتماد لدى أرقى الطبقات بالمدينة .

ثم ضمنى الصديق الأديب إلى ناد آخر يدعى ( سيكوايا كلوب ) أى الشجرة الضخمة. وكان من أهم أنشطة هذا النادى القيام بالرحلات القريبة والبعيدة . وجدير بالذكر أنى كنت عضو شرف ، لا أدفع رسوماً الناديين. ومن فضل هذا النادى الأخير على أنني استطعت أن أرى مدينة فى كندا ومدينة فى المكسيك ، بالقرب من الحدود .

ففى الرحلة الأولى التى خطط لها بعض أعضاء النادى الذين اشتاقوا إلى دفيق من خمر يتناولونه فى غير فزع أو رعب ، كما يفعل العصفور وهو يحسو الماء من جدول ، وعينه لا تنفك جائلة فيما حولها ، خوفاً من قدر خبىء ؛ رأوا أن يذهبوا إلى مدينة ( سياتل ) فى أقصى شمال كاليفورنيا ، ومنها نخترق الحدود الكندية إلى بلدة تسمى ( نلسون ) .

وقد تم لهم ما أرادوا ، وأمضينا أياماً معدودات ، وعدنا وبعضنا على حال وصفه حافظ إبراهيم بقوله:

واسقنا يا نديم حتى ترانا    لا نطيق الكلام إلا بهمس

كانت مدينة ( نلسون ) الكندية من المدن التى تزدحم بالعمليات التجارية والمبادلات مع الولايات المتحدة . وقد رأيت بها بعض الهنود الحمر من أهل البلاد الأصليين الذين ما زالوا يتمسكون بغطاء رأسهم التقليدى مع قميص وسروال . وقد رأيتهم مسالمين ، على قدر كبير من الأدب المشوب بالحذر ، من فرط ما لحقهم من أذى المدنية الحديثة على يد الرجل الأبيض ، وكانوا يقيمون فى أطراف المدينة ولا يهبطون إلا لمشترى ضرورياتهم . وهم يقومون فى قراهم بصناعات يدوية صغيرة يشتريها السائح كتذكار لجنس يوشك أن ينقرض . كما يقومون بصناعات نسجية

لقطع من الصوف تلمح فيها الدقة والصبر الطويل . ومنهم من يقوم بالزراعة وتربية الماشية ورعايتها ، كما أن من بينهم من يقوم بتعليم رمى السهام كرياضة عرفت طريقها إلى النوادى الأمريكية .

وفى رحلة أخرى قطعت مع أعضاء النادى المشتركين فيها ، ما يقرب من الألف كيلو . ففى كاليفورنيا طريق يدعى ( ١٠٠١ ) ، وهو يرمز إلى المسافة التى تقع بين سان فرنسسكو ومدينة مكسيكو . ومما وقفت عليه بالنسبة لهذه الطرق التى لم يكن يوازيها ، بل ولعلها لم تزل لا يدانيها أى طرق أخرى فى أى بلد آخر فى العالم ، أن هذه الطرق التى يطلقون عليها اسم ( هاى واى ) ، لها ميزانية خاصة ، تتألف حصيلتها من رسم يضاف على كل جالون بنزين تستهلكه السيارات من كافة الأنواع . فكان يضاف مبلغ اثنين من السنتات ( أربعة مليمات ) فوق ثمن كل جالون يصرف من محطات البنزين . وهذه الحصيلة ، تخصص بكاملها لإنشاء وصيانة الطرق فى ولاية كاليفورنيا .

لقد سرنا فى طريق (١٠٠١) إلى أن وصلنا بعد استراحات فى الطريق إلى مدينة سان دييجو فى كاليفورنيا ثم هبطنا جنوباً مخترقين الحدود المكسيكية إلى بلدة ( جواريه ) التى سميت باسم البطل المكسيكى ( بنيتو جواريه )الذى عاش بين ١٨٠٦ — ١٨٧٢ ، وهو الذى حارب الملك جوزيف ماكسميليان والحملة الفرنسية التى عاونها الخديو إسماعيل بحملة مصرية ، لم أكن أرتاح لأن يعلم أحد ممن حولى شيئاً من ذلك . وفى هذه الموقعة انتصر البطل المكسيكى وتم على يديه استقلال المكسيك .

وقد شاهدت فى البرارى المحيطة بهذه المدينة قطعان الماشية والخيول التى لا يحصيها العد ، وهى التى نراها فى أفلام رعاة البقر ، وكنت أرى فارساً واحداً على حصانه ومعه كلبه ومساعد له ، وهو يسير بها ويحركها كما لو كانت سلسلة بين أصابعه .

* * *

تيسر لى بمحض الصدفة أن أرى لوس أنجيلوس وهوليود ، فى زيارة لأداء مهمة لصديق كريم ، لبحث إمكان تصدير أفلام العرض الثانى Second Run الأمريكية من الدرجة المتوسطة لدار سينما من الدرجة الأولى فى القاهرة ، استأجرها موظف مصرى كبير ، يهم أمره صديق ، بعد أن استقال من وظيفته الحكومية ليتفرغ للأعمال الحرة . لبيت واجب الأخوة ، وشددت رحلى إلى عاصمة السينما العالمية ( لوس أنجيلوس ) لمقابلة المدير المختص فى شركة فوكس بشئون تصدير الأفلام والتعاقد عليها . وقد رحب محدثى بالعرض وطلب أن أترك له فرصة للبحث ومراجعة مجلس الإدارة ولتقدير مبلغ التأمين الواجب دفعه قبل تنفيذ مثل هذه الصفقة . ثم أشار على بالاتصال بأصدقائى فى مصر لإبلاغهم بقبول طلبهم من ناحية الشكل ، وأن ما يتبقى يخضع لقبول شروط الاتفاق التى تتم بموجب مكاتبات بين الطرفين حيث يتولى فى نهايتها وكيل الشركة فى الشرق الأوسط إبرام العقد الذى تم فيما بعد على أحسن وجه . وقد صاحب التوفيق ، ذلك الموظف الكبير ، فى عمله الحر الذى اختاره .

ودارت الأيام ، وعاد الموظف الكبير للعمل بالحكومة ، فى منصب يستطيع منه أن يرفعنى — وما كان ذلك ليدور بخلدى أو أسعى إليه — أو ( يسخطنى ) وهو ما آثر أن يصنعه . ولم يسعنى عندها ، إلا أن أردد قول فضيلة الشيخ مصطفى عبد الرازق ، الفيلسوف الحكيم ، فى مثل هذا الموقف : « ما رأيت خيراً أثمر أذى ، مثل يدى عنده . وأعوذ بالله أن آسف على معروف ، وإن وضعته عند من لم يحفظه » .

على أنى قد استمتعت برحلتى إلى لوس أنجيلوس التى تزدحم بأعمال تفوق عدد سكانها البالغ ستة ملايين نسمة . فهى مركز صناعى وتجارى هام وخصوصاً لشئون السينما والاستعراض . كما أنها تعتبر مركزاً هاماً لتجارة الصادر والوارد ، وواسطة للتبادل التجارى بين الولايات الأمريكية فى الشرق والجنوب .

وبعد أن جلت فيها جولة بالسيارات السياحية ( Sightseeing ) اتجهنا إلى هوليود التي تستغل ( الاستوديوهات ) أرضها تقريباً ، فيما عدا بعض مطاعم ومحال تجارية مبعثرة . وكانت السيارة تحمل رخصة بالمرور داخل استوديو خاص بشركة ( باراموننت ) التي رأينا على جانبي طريق السيارة مدناً تقام وأخرى تزال والممثلين والممثلات ينتقلون من مكان إلى آخر في ملابس أدوارهم ، وذلك في فترة الراحة من التصوير . وعلى مشارف هوليوود تقع ضاحية بيفرلي هيلز التي تنتثر فوقها قصور ملوك السينما ، حيث التباين في الذوق المعماري وفي الزخرفة وفي الإنارة وفي الأثاث وفي تنظيم الحدائق المحيطة بهذه القصور ، وهي الشيء الوحيد الذي استطعنا أن نراه ، إلى جانب المنظر الخارجي للمباني الرشيقة المتعالية.

وكان المرشد في السيارة يشير إلى تلك القصور ويذكر أسماء أصحابها ، مصحوبة بأشهر رواياتهم ، كأنهم قواد معارك اشتهروا بمعاركهم التي خاضوها في حياتهم .

وقد لاحظت في لوس أنجيلوس كثرة من فاتنات الفتيات اللواتي يجذب جمالهن الأنظار ، يقمن بالخدمة في المطاعم والملاهي والمقاهي ومشارب اللبن . وعلمت أنهن الفراشات اللواتي جذبتهن أضواء السينما ، ولم ينجحن في الالتحاق بالسينما ، لعلة صوتية أو تشويهات خفية في أجسادهن ، لا تراها سوى عين ( الكاميرامان ) بعدساته المكبرة التي تكشف ما يخفى وما يستجن .

* * *

قرأت كتاباً أهدانيه صديقي الناشر ( هار واجنر ) من تأليفه ، عن حياة شاعر كان كثيراً ما يتلو لي شعره . وأمدني بدواوينه الشعرية الفلسفية ذات العمق والصفاء والنقاء ، التي تلمسها وأنت تراها ، من خلال قراءتك ، تتهادى شفافة هفافة بروحانية تسمو على ما يضطرب فيه البشر من معاص وآثام . اسم هذا الشاعر ، ( جواكيم ميللر ) . وهو يعد من

أعظم شعراء غرب أمريكا . وقد أقطعته ولاية كاليفورنيا أرضاً فوق ربوة فى إحدى ضواحى سان فرنسسكو ، تشرف على المدينة وعلى الخليج . وراح يبنى فيها بنفسه أكواخاً متناثرة ، ويؤثثها ليدعو إليها أدباء من أمريكا ومن فرنسا ومن إنجلترا ومن ألمانيا ، لينزلوا بها ضيوفاً عليه .

لم يكن يتقاضى الشاعر من نشر شعره فى الكتب والمجلات سنتاً واحداً . بل كان يرصد أثمان ما يباع منها ، وكانت طبعاتها تنفد بعد قليل ، لمؤسسات الخير . وكانت له فى هذا التصرف فلسفة تنم عن شفافية روحه وتجرده من مغريات الحياة . فكان يقول إن الشعر موهبة يستنزل وحيها من السماء التى تستجيب إليه ، فينظم ما ينظم بدون أن يلقى فى سبيل ذلك أى عنت أو عناء ، فإنما النظم من فيض الله ، يستوجب من قائله أن ينفق أجره فى سبيل الله . أما ما كان يكتبه فى الصحف والمجلات والدوريات من سياسة إلى أدب إلى نقد مسرح أو كتب ، إلى الحديث عن الجديد من الفنون التعبيرية أو التشكيلية ، فهذا وحده الذى يرى أنه يستحق عليه أجراً يعيش منه مقابل ما بذله فى إنتاجه من كد وبحث .

لقد عاش الشاعر ( جواكيم ميللر ) فى الفترة من ١٨٦٠ - ١٩٢٥ . ولم يترك سوى ابنة واحدة . وكان قد تزوج فى شبابه من فتاة من إحدى قبائل الهنود الحمر ، أسبغ عليها من محبته وعطفه وحدبه ما كان يعتبره تعويضاً لما ناله قومها من قومه .

فلما توفيت بدون عقب ، رثاها فى قصائد عديدة رثاء ينم عن مدى لوعته وأساه فى فقدها . وبعد عشر سنوات من وحدة مضنية وهم مقيم ، تزوج من سيدة أمريكية ، أنجب منها ابنة هى التى زرتها فى دار الأسرة التى سبقت الإشارة إليها. وكانت الدار وهى رابضة فوق هضبة متوسطة الارتفاع ، تحكى شمم صاحبها وأنفته ونقاءه وصفاءه . رأيت من حولها الشجر والزروع والكروم تنمو فوق تلال وفى وديان ترتع فيها الماشية من أبقار وأغنام ومن دواب ومن أفراس وخيول ، كانت تبدو للعين من بعيد

بألوانها المختلفة كما لو كانت أزهاراً ووروداً تماوج مع النسيم .

زرت الابنة العانس التى كانت تبلغ الخمسين من عمرها ، وقد استقبلتنى مع والدتها الطاعنة فى السن ببشاشة وترحاب . ولم تكن تعلم من أمرى شيئاً إلا ما يشى به لون بشرتى ، وهى وشاية لا تحدد جنساً بعينه أو مكاناً بذاته . قادتنى إلى متحف صغير لمخلفات أبيها . ثم أشارت إلى الأكواخ التى كان يبنيها بنفسه الشاعر ( ميللر ) ليستقبل فيها ضيوفه وزائريه من كبار كتاب الغرب أمثال ويلز وشو وأناتول فرانس .

راحت الابنة تتحدث عن أبيها وآثاره الأدبية ، بطلاقة وانشراح . وكنت أنصت ، وأنا مأخوذ بما أرى من نورانية شفافة تحيط بوجهها وما أشاهد من هالة من الحب والتقديس لذكرى أبيها . وكانت تتميز بابتسامة أعظم فرحاً من الفجر ، وأكثر صفاء من نداه وما لبثت أن أمسكت بكفى بين يديها ، وألقت عليهما نظرة عجلى ، ثم أطلقتهما فى اتئاد ، ورمت بعينيها إلى بعيد غير منظور . ومضت تتحدث بدون أن تغير اتجاه نظرها ، حديثاً كأنه سيمفونية ذات بداية ووقفات وبطء وسرعة ، وأنا مصغ كأحسن ما يكون الإصغاء . قالت : إننى من الشرق ، ثم أردفت تقول ، وهذا أمر طبيعى ، فلون بشرتك يشى بذلك . ولكنى أقول إنك قادم من بلد ذى حضارة موغلة فى القدم يزيد عمرها عن الخمسة آلاف عام . وأنت راحل إلى بلد تقدسه كل الأديان . وسوف تقلع عن التدخين ، بعد فترة من الوقت . وسوف تتزوج بعد وقت قريب . وسوف تنصرف فى وقت متأخر من عمرك إلى إصدار كتب عن مهنتك وعن هواياتك ، لن تصيب منها إلا الذكر الطيب .

عندما عدت إلى سان فرنسسكو بعد هذه الجلسة الوامضة بما وراء الغيب ، كنت مشغولا بما استمعت إليه بعض الوقت ، لم ألبث بعده حتى أغرقتنى الحياة المحيطة ، فى بحرها الطامى ، ولم أعد أعى مما سمعت شيئاً أو ألقى إليه بالا .

وعزيز على ألا أتحدث عن الموسيقى فى أمريكا وأنا بسبيل استعراضى لذكرياتى خلال فترة إقامتى بها . إن سان فرنسسكو كانت تتميز بكثرة قاعات الموسيقى بها و بمسارح الاستعراض التى كانت تغص بمن لم يواتهم الحظ من الذكور أو الإناث ، أو ممن ارتفعت بهم السن من رجال وإناث ، عن دخول الأولين جنة السينما ، وبقاء الآخرين فى رياضها الفيحاء . وكانت بها أوبرا أنيقة أقيمت على أحدث طرق البناء الحديث المزود بكل ما هيأه العلم لهذا اللون من فنون الغناء . كانت هذه الأوبرا تسمى ( War Memorial Theatre ) أى مسرح ذكرى الحرب . وكانت تعزف بها فرق أوروبية زائرة إلى جانب فرقتها الفيلهارمونيك ، إلى جانب مسرحيات موسيقية عالمية وأمريكية . ولم يكن الجاز يعزف بها قبل أن ينتصر على هذه التقاليد كما سيأتى تفصيله . وهى لذلك كانت ملجئ من غارات الجاز وصراخ آلاته ؛ ودق طبوله الداعية إلى الرقص أو النزال .

وللموسيقى فى الولايات المتحدة قصة . فقبل عام ١٩٠٠ ، كان أغلب الموسيقيين وقائدو الفرق والمؤلفون الأمريكيون ، من مواليد أوربا من المهاجرين . وطبيعى أن تكون أغلب موسيقاهم ، كلاسيكية كانت أو شعبية ، متأثرة إلى حد بعيد بالموسيقى الأوربية ، فى القالب والأسلوب . غير أنه كان من الغريب فى تلك الأيام أيضاً ، أن يعتقد كثير من الأمريكيين ، بعدم صلاحية الموسيقيين والمغنين والمغنيات ، إذا لم يكونوا نازحين من أوربا . فكان يتحتم أن تتأثر الأغانى بالطابع الألمانى ، وأن تتأثر موسيقى الرقص بإيقاعات الفالس القادم من فيينا ، وأن يشيع طابع المازوركا والبولكا النازح من أوربا الوسطى ، بين موسيقاهم ، وإلا انصرف القوم عن الاستماع إلى ما يعزف خارجاً عما تقدم ذكره . كذلك كان الحال بالنسبة لمؤلفى موسيقى المسرح . فلقد نزح أغلبهم من إيرلندا ومن المجر ومن تشيكوسلوفاكيا ومن ألمانيا ومن روسيا . وكانوا يكتبون موسيقاهم

بحيث تميز الأذن مدى سيطرة الطابع الأوربى وأثره على ما يعزفون وما يؤلفون وما يغنون .

ثم ظهر الجاز ، الذى كان الفضل الأول فى ظهوره وانتشاره ، يعود إلى ( لويس أرمسترونج ) الذى أصبح يلقب ( أبو الجاز ) . وتعتبر مدينة ( نيواورليانز ) التى ولد بها ، عاصمة الجاز . ومن أشهر الآلات التى اشتهر ( أرمسترونج ) بالعزف عليها ، آلة الكلارنيت ، التى كان يعزف عليها وهو يقود فرقه الموسيقية التى غزا بها العالم .

وقد وصف ( والتر دمروش ) أحد مشاهير قادة الفرق الموسيقية الأمريكية الحديثة ، الجاز بقوله : ( إنه سيدة تتحلى بإيقاعات مغرية ، شقت طريقها راقصة حول العالم ، من بلاد الإسكيمو فى النصف الشمالى ، إلى أقصى جزر بحار الجنوب ) .

واليوم تقام حفلات ( الجاز ) فى قاعة ( كرنيجى ) التى لم يكن يعزف فيها سوى السيمفونيات . وهكذا نرى الطبل الإفريقى الذى انتقل من أدغال الكونغو ، عندما دفع بالأفريقيين إلى أمريكا ، يسود فرق الجاز ويعزف فى أرقى المسارح فى أمريكا وأوربا ، وأشهر قاعات الموسيقى فى طوكيو باليابان ، وفى مسرح ( البلاديوم ) فى لندن .

* * *

بعد أسابيع من الجلسة الروحية التى أجرتها الآنسة ( هيلين ميللر ) ابنة الشاعر ( جواكيم ميللر ) ، تلقت القنصلية العامة من الوزارة قراراً بنقلى إلى القدس ، وكان ذلك فى شهر فبراير عام ١٩٣٤ . وقد استعدت ما دار من حديث الآنسة ( هيلين ) عن ارتحالى إلى بلد تقدسه كل الأديان . إذن فهاهى إحدى نبوءاتها تتحقق . ولم أدرك آنئذ كنه هذه القوة الخفية على الاستشفاف أو رؤية الحوادث غير المنظورة .

على أن ذلك قد تهيأ لى معرفته بعد أعوام طويلة . ففى صيف عام ١٩٦٩ أسعدنى الحظ بلقاء الأستاذ العالم الكبير دكتور رءوف عبيد مؤلف

كتاب « الإنسان روح لا جسد » . الذى اطلعت فيه على مصدر هذه الظاهرة التى صادفتنى فى سان فرنسسكو ، وعما يملكه الإنسان من قوى خفية للاستشفاف بالسمع والبصر . وكتابه هذا القيم ، بجزأيه ، حجة ومرجع ثبت فى هذه الشئون ، التى ما إن فهمتها حتى استبان لى كل ما كان يغمض على من ظواهر خارقة . ثم اطلعت من بعد ذلك على كتاب للأستاذ عبدالعزيز جادو بعنوان « خلود الروح » . وخرجت من اطلاعى على الكتابين بمفهوم لهذا الاستشفاف الذى يتمتع به قلة من الناس ، آمل أن أوفق فى وصفه فى هذه النبذة القصيرة التالية :

تبرز خطورة دور العلم الروحى الحديث فى الكشف عن مجاهل الإنسان ، فى أنه علم يقوم بتقديم أجل الخدمات للحقائق العلمية وللمجتمع المتحضر وللعصر الذى نحياه . فهو علم لا يقل فى خطورة دوره عن أى علم من العلوم التى تتبوأ مقاماً سامقاً فى دور العلم والجامعات . بل لعله يعد من أخطرها شأناً ، لفرط اتصاله بالتنقيب فى أعماق الإنسان ، بل فى أعماق الظواهر الحيوية بوجه عام .

ولدى كل إنسان ، فوق حواسه الخمس المعروفة ، حاستان أخريان مختلفتان تماماً . ولكل منهما أهمية جلى . فهما ذات قيمة كبيرة لا تقدر ، فى زيادة مقدرة الفرد على فهم الحياة ، كالبصر بالنسبة إلى أية حاسة من الحواس الأخرى . كما أنهما تمدان الإنسان بقوى قادرة قاهرة . إن هاتين القوتين القديرتين ، هما ، الجلاء البصرى ، (Clairvoyance) والجلاء السمعى (Clairaudiance) . وتعتبر الأولى امتداداً لحاسة بصرنا ، ويطلق عليها الاستشفاف ، وهى قوة رؤية الأشياء أو الحوادث غير المنظورة . كما تعتبر الثانية امتداداً لحاسة سمعنا وإدراكنا وفهمنا . وعن طريق الجلاء البصرى أو المكاشفة ، نرى الأشياء عن بعد حتى ولو كانت على مسافة آلاف الأميال أو السنين .

وكذلك الإدراك عن غير طريق الحواس ، يعتبر من القدرات التى

يختص بها بعض الناس ، وهم الذين يمكن استخدامهم كوسطاء. إذن لقد كانت الآنسة ( هيلين ميللر ) تتمتع بالكشف البصرى ، فقالت ما قالت ، على ضوء مرئيات عينية بدت لها وهى فى شبه إغفاءة أو تحليق روحى .

وكان على أن أنفذ أمر النقل من فورى . فكلما طال البقاء فى أحضان هذا الغلاء ، ارتفع رقم الدين الذى علينا دفعه للوزارة حين ميسرة.

ولم يكن من شىء يعكر صفو هذه الحياة الناعمة الباسمة الحالمة ، سوى غلاء لا نستطيع دفعه أو قهره . على أنه لم يستطع برغم جبروته أن يحرمنا مناعم سان فرنسسكو الجميلة الفاتنة ، التى لم تقع العين على أجمل من مناظرها فى شرق أو فى غرب . ولا وجدت آنس منها للمقيم والعابر ، كأنما قد اجتمع فيها الأمن والحنان ، شأنها فى ذلك شأن باريس وروما من بين كل عواصم العالم ومدنها ، حيث لا إحساس بغربة أو حنين .

وتذكرت قولا لأبى الفرج الأصفهانى فى كتابه «الأغانى» جاء فيه : « فى طباع البشر محبة الانتقال من شىء إلى شىء ، والاستراحة من معهود إلى مستجد . وكل منتقل إليه ، أشهى إلى النفس من المتقل عنه ، والمنتظر أغلى على القلب من الموجود » .

ولست أدرى ، أين أدارى وجهى ، فى حيائه وخجله ، من الأصدقاء الذين رأوا أمريكا فى هذه السنوات الأخيرة ١٩٦٠ – ١٩٧١ ، إذا ما قرأوا هذه الذكريات ، التى ضمت أنباء عن أمريكا فى عهد من الصعب قياسه بما وصلت إليه الآن من طفرات يعجز العقل عن اللحاق بها . ولعلى إذا قارنت عهدى بأمريكا ، بعهد هؤلاء الأصدقاء بها فى سنواتها الأخيرة ، بما بين الطائرة التى تسبق الصوت ، وسفن الفضاء ( سايوز وأبوللو ) ، أكون قد توخيت العدل فى المقارنة ، والحق فى التبيين ، أو أكون فى هذا الشأن ، قد وصفت أمريكا مثلما وصف الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى ، باريس ، فى كتابه : « تخليص

الإبريز فى تلخيص باريز » .

أخذت فى الإعداد لسفرى . وودعت أصدقائى ، وكان أكثرهم تأثراً ( هار واجنر ) الذى قال لى مداعباً : « إذا شئت أن أحدث فى أمرك الرئيس روزفلت ، فعلت ! » . . .

حملتنى طائرة من مطار سان فرنسسكو إلى مطار نيويورك فى رحلة تقطع فيها حول أربعة آلاف كيلو فى ٢٤ ساعة متواصلة ، مع هبوط فى عدة محطات فى الطريق . فى ذلك الزمن ، ١٩٣٤ ، كان السفر الطويل بالطائرة يعد غزواً للفضاء . فقد بقيت الراكب الوحيد بعد أن غادر الطائرة فى الطريق باقى الركاب . وكنت فى نظر المضيفات بالطائرة ، ( لندبرج ) الشرق ، وكان العهد برحلته قريباً . وانهالت على فى مطار نيويورك ( أوتوجرافات ) المضيفات لكتابة كلمة هنا وكلمة هناك عن الأمان فى الرحلة والراحة فى الخدمة والاستعداد الذى يغطى كل الطلبات ولو رآنى من بعيد أحد الناس ، لخالنى نجماً سينمائيا حاز جائزة الأوسكار أو أديباً من الشرق حاز جائزة ( البولتزر ) .

ومن نيويورك أبحرت على الباخرة ( أكسكاليبور ) التى تقطع المسافة بين نيويورك والإسكندرية فى ٢٢ يوماً . وكان خط سيرها كالآتى :

نيويورك ــ جبل طارق ــ جزر الباليار ــ ( ماجوركا ومايوركا ) ــ مارسيليا ــ جنوا ــ نابولى ــ مضيق ميسينا ــ الإسكندرية .

ولقد مررنا ببوغاز جبل طارق ، ورأينا الصخرة التى تتشبث بها بريطانيا ، ، عندما كانت عظمى ، رغبة منها فى الاحتفاظ بمداخل ومخارج البحر المتوسط وقواعد فى جزر وموانئ تحت احتلالها ، مثل مالطة وقبرص وقناة السويس وميناء عدن وبوغاز باب المندب ، ثم مسقط وعمان ، ليبقى طريقها إلى الهند ، قبل استقلالها ، مفتوحاً أمام بوارجها الحربية وقوافل بواخرها التجارية ، فى أى وقت .

ولم يبق لها من بعد عظمتها القديمة وهذا التحكم الفريد فى بابه ،

سوى هذه الصخرة التى راحت تتشبث بها تشبث الشحيح الذى يوشك أن يفقد آخر دراهمه .

طالعتنا بعد صخرة جبل طارق ، جزيرة ( ماجوركا ) أكبر جزر الباليار التى تقع بالقرب من شاطئ أسبانيا الشرقى . وهى جزيرة يقطنها ٢٧٠ ألف نسمة . وهى وما جاورها من جزر مقصد السياح من كل صوب وبخاصة من أمريكا وإنجلترا وفرنسا ، وتدر ملايين الدولارات على أسبانياسنويا. ويقصدها زائروهاللمتعة والاستشفاءواللهوفى جو مرح معتدل رخيص . وأمضينا بهذه الجزيرة يوماً من أسعد أيام الرحلة من صباحه الباكر حتى غروب الشمس ، أتيح لنا فيه أن نرى حياة أسبانيا مصغرة فى هذه الجزيرة . وكانت الأسواق تغص بالباعة والمشترين . وكان الشراء فى حد ذاته متعة والانتقال من سوق إلى سوق ومن حى إلى حى يملأ النفس بالسعادة . وكانت الجزيرة عندما ترسو بمينائها باخرة كبيرة — كالعهد ببور سعيد — تدب فيها الحياة ، أو لعلنا نقول ، تفور إذ أن الحياة فيها على الدوام زاهية نابضة . وتنقلب ساحاتها وطرقها إلى مسارح للغناء والرقص الأسبانى الذى تدب فى أوصاله الدماء العربية الدافقة بالحيوية والحركة والتحرر والانطلاق . وفى غنائهم نبرة أسى لعلها رسبت فى حناجرهم العربية أصلا ، لتنعى ملكاً فى الأندلس أضاعه أهله .

وانقضت أيام الرحلة الاثنان والعشرون التى أمضيناها فى هذا الجو المرح الذى زاده انشراحاً ، فوج كبير من المدرسات والمدرسين الأمريكيين من ركاب الباخرة ، فى رحلة مدرسية طويلة ، فى طريقهم إلى الشرق الأدنى والأقصى ، يرون فيها العالم ، ويدفعون أجرها أقساطاً مريحة على مدى سنتين . وتمنيت وما أكثر ما تمنيت ، إلى أن تحقق بعد ربع قرن ، ربع الذى تمنيت .

لم أمل يوماً واحداً من أيام هذه الرحلة الطويلة . فرفقة الطريق يؤنسون من لا أنيس له ، وما معى من كتب ونشرات وكتيبات عما أنا راحل إليه

من بلد ، كانت جميعها عوناً على فوات الأيام سراعاً ، كأنما كانت تجرى من مطارد ، أو فاتها عزيز تتعقبه وهى تلهث كيما تلحق به ، لتطيب نفساً وتقر عيناً . ومضت هذه الرحلة كالنسمة ، وكان يزيدها بهاء ما كنا فيه من شباب ، ينطلق فى أجواء المتعة ، مستهيناً بكل صعب ، مستريحاً إلى كل نغمة ، مستهاماً بكل جمال ، مستزيداً من كل معرفة . وفى ذلك قال بعض المتصوفة : « إن الصبا يمضى كالنسمة ، والشباب كالماء المنحدر ، والشيخوخة أشبه بالسقف الذى يوشك أن ينقض » .

## الفصل الثالث

### فى فلسطين :

كان من بين استعدادى لرحلتى إلى مقر عملى الجديد بالقنصلية المصرية العامة بالقدس ، التزود بما يمكن أن أقرأه خلال رحلتى الطويلة عن فلسطين ، التى كانت تحت الانتداب البريطانى عندما كنت أقصدها عام ١٩٣٤ .

وقد عاوننى فى ذلك صديقى ( هار واجنر ) الناشر الأمريكى . فقد أخذنى ذات يوم إلى مكتبه فى مجلته الأدبية Echo of the Valley التى كانت تعنى عناية خاصة بالسياسة الخارجية وبأنباء العالم التى تهم الأمريكيين . وزودنى الصديق من مكتبة « المجلة » بكتيبات وكتب ونشرات ومجلات تحتوى على مقالات وأبحاث عن فلسطين ، بأقلام كانت تبدو حيناً حرة وحيناً مذعورة . وكانت الجوانب السياسية والتاريخية لفلسطين ، ودورها خلال الحكم العثمانى ثم من بعده فى عهد الانتداب البريطانى بموجب قرار عصبة الأمم ، كانت هذه الجوانب هى همى وشاغلى طوال مدة رحلتى .

وكان الصديق الناشر وهو يناولني هذه الذخيرة من المعارف ، يقول لى إنه يغبطنى على أنى سأرى جبل الزيتون ومزارات الأنبياء من كافة الأديان ، وكنيسة المهد وكنيسة القيامة ، وإن كان التفاتى عبر التاريخ إلى تلك العصور الماضية ، وما جرى خلالها فوق أرض فلسطين من غدر وخيانات ومعارك برغم قدسيتها وطهارة أرضها ، سيكشف لى عن أن أطماع البشر لا تبقى على مقدس ولا تقف فى سبيل نيل أغراضها قداسة أو طهارة . ثم راح يشفق علىّ وعلى زملائى مما سوف نلقاه من صعوبات أخذت تحتشد فى الجو ، وتهدد الدول العربية بما ينتظرها من جحافل اليهود الذين يمهد لهم الانتداب البريطانى عن طريق الهجرة ، بالاستيطان وبالسيطرة وبالتملك وبالتوسع ، بفضل أموال أثرياء اليهود فى أوربا وأمريكا وما تدبره المنظمات الصهيونية من وراء ستار ، بفرض الأمر الواقع ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ومهما كلفهم ذلك من تضحيات .

عندما بلغت الإسكندرية بعد رحلة استغرقت اثنين وعشرين يوماً ، كنت قد أتيت على ما كان معي من أوراق ، كان حتما علىّ أن أقرأها ، وأن أستوعب ما تضمنته ، حتى أكون عند وصولى ، ملما بأوضاع فلسطين ، عندما أتحدث مع من سوف أقابلهم من العرب أو الأجانب . ولم أكن أعلم أنى كنت بعيداً عن لب الموضوع إلى هذا الحد من المعارف السطحية التى كانت تطالعنى فى صحف أو مجلات مما يقع تحت يدى لم يكن علمى يزيد . على أن فلسطين هى أرض كنعان أو أرض الإسراء أو الأرض المقدسة . وكنت أراها على الخريطة تحد من الشمال بلبنان ومن الجنوب بالبحر الميت ومن الغرب بالبحر المتوسط ، ومن الشرق بصحراء سوريا . كما كنت أراها تتوسط الدول العربية وتشطرها إلى شرق وغرب ، وتتحكم بفضل هذا الموقع فى العالم العربى . وكنت أعلم من الناحية الدينية أنها تضم القدس التى ورد ذكر مسجدها

فى القرآن الكريم ، والذى يعد أولى القبلتين وثالث الحرمين : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » . كما تضم مهد المسيح عليه السلام فى بيت لحم . إلى جانب مقام الخليل إبراهيم أبى الأنبياء ، وكنيسة القيامة التى هى مزار كافة المذاهب المسيحية .

كان مما وقفت عليه ، أن الصهيونية انبثقت وانتشرت فى شرق أوربا فى القرن التاسع عشر . وكانت قد وضعت موضع التقدير : من بين مبادئ حركة ( الهاسكالا ) أو التنوير ، التى ظهرت فى شرق أوربا ، وهى الشبيهة بحركة الفلسفة الفكرية التى تغلغلت فى غرب أوربا ، مبدأين هامين لها ، هما : الولاء المطلق لرجال الحكم والكنيسة ، والعداء للحركات الشعبية الثورية . وحصرت اهتمامها وهدفها فى مشروع قيام الدولة اليهودية ، الذى يرمى إلى جمع شتات الشعب اليهودى وإحياء لغته ، وتاريخه ليستوطن مكاناً ملائماً وصالحاً : وإنشاء دولة تقوم على قواعد من النظم العصرية . وكانت تستند فى التوصل لتحقيق ذلك ، إلى نشر الدعوة بأن اليهود أمة واحدة ، مستمرة منذ آلاف السنين ، وأنها برغم تشردها ، لا ينقصها إلا أرض الوطن ، ثم العمل على إشاعة روح التشاؤم من المستقبل ، فى أى مكان يحل به اليهود خارج فلسطين ، ليسهل إقناعهم بالهجرة إليها .

على أن انبثاق الصهيونية فى شرق أوربا ، وفى هذا الوقت بالذات مرده إلى ظروف مالية ، تتلخص فى أن القرن التاسع عشر ، كان يعد مرحلة من مراحل التحول من النظام الرأسمالى الحر ، إلى النظام الرأسمالى الاستعمارى . وقد أثار هذا التحول ، قلق الطبقات الوسطى ، التى راحت تبحث فى جنون عن مخرج من مأزقها ، فوجدته فى مواكبة اتجاهات وأهداف الرأسمالية الاستعمارية ، وهو أمر فرح له كبار الماليين الاستعماريين . وكان دعاة الصهيونية فى ذلك الحين إمعاناً منهم

فى إخفاء أهدافهم ، يلبسونها ثوب الدين والعنصرية والدعاية والخداع ، وإشاعة ما يهدفون إليه بالحق أو بالباطل ، بين بنى دينهم ، وبين ساسة الدول الذين يسيطرون على مصائر السياسة العالمية ، سواء بسواء.
وقد وجدت هذه الحركة الصهيونية السياسية ، تأييداً وتشجيعاً من جانب معظم كبار الماليين اليهود الغربيين الذين رأوا فيها فرصة لزيادة أرباحهم ، باستغلالهم الطبقات الشعبية العاملة من يهود شرق أوربا أو غربها ، ممن تغريهم هذه الدعايات.

ولقد تعاونت الطبقة البورجوازية اليهودية ، مع كبار الماليين اليهود فى السير سراعاً بالصهيونية كحركة سياسية تدر عليهم المكاسب فكان البورجوازيون يصدرون العمال اليهود من شرق أوربا بعد أن تكون الدعاية قد سلبت ألبابهم وصورت لهم الهجرة إلى فلسطين كما لو كانت الحلم الذهبي المنشود ، الذى يحقق لهم المال والاستقرار. وكان الماليون مقابل ذلك ، يصدرون رأس المال إلى فلسطين ، ليقوم هؤلاء العمال المجندون للهجرة باستثماره ، ثم العمل من خلال ذلك على تثبيت أقدامهم فوق أرض فلسطين ، ليكونوا أداة فى يد الاستعمار ، الذى كان يخطط لهذه الغاية قبل وعد بلفور ، وليتخذ من تكتلهم عوناً وسوطاً وسلاحاً لإسكات الحركات الوطنية العربية فى المنطقة.

وكانت الصهيونية تعتمد فى دعايتها إلى دعامتين فى نشر مبادئها بين اليهود وجذبهم إلى اعتناقها كمذهب دينى : الأولى ، استغلال العقيدة الدينية التى تدعو إلى العودة لأرض الميعاد ، والثانية ، استغلال صيحة اليأس التى كانت تنبعث من الشعب اليهودى ، راجفة واجفة ، كلما مسته موجة اضطهاد وتنكيل ، لينقذه الله من البلاء ، بالعودة إلى أرض الميعاد ، حيث كان له ذات يوم وطن يحميه. وانطلقت أبواق الصهيونية وكتابها يطالبون ويمنون اليهود بالعودة ، إلى فلسطين.

ولم تقف الدعاية الصهيونية عند الدعوة إلى الهجرة ، وإشاعة اليأس

من المستقبل ، بل ادعت أيضاً أن اليهود برغم تشردهم فى مختلف الأقطار ، أمة واحدة مستمرة منذ آلاف السنين ، وقد آن لها أن تعود إلى أرض الميعاد. ونتيجة لهذه السياسة الواعية ، اجتمع المؤتمر الصهيونى الأول فى ٢٩ أغسطس عام ١٨٩٧ بمدينة ( بال ) بسويسرا ، وبذلك تحقق أول نصر سياسى للصهيونية ، حيث تمكنت من أن تجمع مندوبى اليهود فى كل أنحاء العالم فى مؤتمر سياسى لأول مرة منذ عام ٧٠ ميلادية ، أى منذ أن زالت شخصية اليهود السياسية من عالم الوجود .

ولقد وصف هرتزل الذى رأس المؤتمر ، هذا الاجتماع بقوله :

« إننا اجتمعنا هنا لكى نضع الحجر الأساسى للمأوى الذى سيلجأ إليه الشعب اليهودى . وعلينا أن ننشئ مسرعين ، هيئة منظمة تصبح دائمة ، يفتقر إليها الآن الشعب اليهودى ، وذلك عن طريق إحياء روح الشعب وإحياء الحماس بالعون المادى والأدبى » .

ثم أصدر المؤتمر قراره بالموافقة على فكرة تنظيم جهود الصهيونية ويتلخص القرار فى : « أن أمانى الصهيونية تتركز فى إنشاء وطن للشعب اليهودى ، يعترف به من الناحيتين الرسمية والقانونية ، ويصبح الشعب بإنشائه فى مأمن من الاضطهاد ، على أن يكون هذا الوطن هو فلسطين » .

على أن حكومات الدول الكبرى وقفت من الحركة الصهيونية موقف الحذر والمعارضة عند أول قيامها . وكان أول وأهم المعارضين ، تركيا ، التى كانت فلسطين تقع داخل إمبراطوريتها . فقد وقف السلطان عبد الحميد ، موقفاً حازماً منها ، برغم محاولة إثنائه عن معارضته بدفع ملايين الجنيهات الذهبية ، بل إنه نجح فى أن يضم إليه فى معارضته لهذه الحركة ، اليهود التابعين للإمبراطورية .

وكان السلطان قد أصدر منذ عام ١٨٩٢ أمراً بحظر هجرة اليهود إلى فلسطين ، أو إعطائهم أى أرض بها . ولم تجد محاولات هرتزل فيما بعد ذلك ، وأصر السلطان على موقفه .

وقد اتصل عند ذلك ، زعماء الصهيونية الآخرون بألمانيا بوصفها حليفة الأتراك ، لإقناعها بإنشاء دولة يهودية فى فلسطين ، تكون بمثابة قاعدة سياسية وتجارية ، وقوة تسند ظهور الترك والألمان فى هذه المنطقة . ولكنهم باءوا بالإخفاق كذلك فى هذا المسعى . وكان من الطبيعى أن يتصل الصهيونيون أولا بالجانب الذى يحكم فلسطين آنذاك وهو الأتراك ثم بحلفائهم الألمان ، فلما فشلوا فى المحاولتين ، وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام بريطانيا ، ورأوا أن معسكرها هو معسكرهم وأن اتجاهها هو خط اتجاههم نفسه فانجذبوا إليها .

وليس من الغريب أن تجاهد الصهيونية فى سبيل التآخى مع السياسة البريطانية الاستعمارية . التى كانت هذه الصهيونية تعلم عن يقين أنها تسعى إلى فلسطين . فقد وجدوا أن أهدافها تتحقق بالاعتماد على قوة أجنبية ذات شأن ، تتوافق غاياتها مع غاية هذه القوة .

وما إن انفصلت فلسطين عن الإمبراطورية العثمانية بحكم انتصار جيوش اللنبى ، وما اتخذ من قرارات الانتداب فيما بعد الحرب العالمية الأولى ، حتى سارع الصهيونيون إلى إعلان ولائهم لبريطانيا .

وقرب نهاية الحرب العالمية الأولى ، جندت الصهيونية عملاءها فى أنحاء العالم ، وعبأت إمكانياتها فى كافة المجالات ، حتى تم النصر للحلفاء . وكان وعد بلفور المشهور الصادر يوم ٢-١١-١٩١٧ هو المكافأة على هذا العون . وبذلك حققت الصهيونية خطوة ثانية من خطوات سياستها فى سبيل تحقيق أغراضها بالارتباط والتعاون مع أكبر قوة استعمارية آنذاك .

وعند عقد مؤتمر الصلح فى باريس ، انطلقت الدعاية الصهيونية ذات التنظيم والنفوذ العظيمين ، لكى تمثل فى ذلك المؤتمر . وقد تم لها ماسعت إليه ، ومثل أعضاء المنظمة الصهيونية العالمية ، يهود العالم ، كمندوبين ينطقون باسمهم ويطالبون بحقوقهم .

ويذكر التاريخ أنه خلال فترة الحرب العظمى ، كان دكتور

( وايزمان ) يشغل منصبُ أستاذ الكيمياء فى جامعة مانشستر . وكان معروفاً عنه دفاعه القوى عن قومه من اليهود ؛ وحقهم . فى الحياة ، وعدالة مطالبهم . وقد تيسر له أن يجتمع باثنين من أوسع أعضاء الحكومة البريطانية نفوذاً ، هما ( لويد جورج ) و( هربرت صموئيل ) وقد استمعا إلى دفاعه وعطفا على المطالب اليهودية .

كانت هذه المقابلة قد تمت فى فترة كانت إنجلترا تعانى فيها نقصاً فى مادة ( الأسيتون ) اللازمة لصناعة المتفجرات . وكان لويد جورج رئيساً للجنة الذخائر ، فأوعز إلى ( وايزمان ) أن يجرى تجارب خاصة لاستنباط وإنتاج ( الأسيتون ) على أوسع نطاق . ولم تنقض بضعة شهور حتى كان قد وُفق فى تحقيق ما طلب منه تنفيذه .

فى عام ١٩١٦ عين ( وايزمان ) رئيساً لمعامل الأميرالية البحرية فى لندن ، الأمر الذى أتاح له فرصة الاتصال بلورد ( بلفور ) وزير البحرية آنذاك . وقد نجح فى إثارة اهتمامه بشئون اليهود ، لا لمجرد قضيتهم الخاصة ، ولكن بعد أن أصبحت مشكلتهم تدخل فى نطاق وحسابات السياسة العملية لبريطانيا . وكان اهتمام بريطانيا بقضية اليهود ، يزداد تبعاً لاطراد تطورات الحرب لمصلحة الحلفاء . ذلك أن مستقبل فلسطين يرتبط ارتباطاً مباشراً بمصالح بريطانيا التى يجىء فى مقدمتها سلامة مصر وقناة السويس ، تأميناً لممتلكاتها فى آسيا ؛ وتوسيعاً لنطاق أطماعها الاستعمارية فى المنطقة ، وتأكيداً لبقائها فى العالم العربى .

ولما اقتضت ظروف الحرب عام ١٩١٧ ، ضرورة دخول أمريكا هذه الحرب إلى جانب الحلفاء ، أصدرت بريطانيا فى ذلك العام وعد ( بلفور ) الذى كان يشغل آنئذ منصب وزير الخارجية البريطانية . فكان لصدور هذا الوعد فى ١٩١٧/١١/٢ ، صدى ورضى بين الشعب اليهودى فى العالم أجمع ، وفى أمريكا بوجه خاص . وكان أن بذل اليهود — عرفاناً منهم بفضل هذا الوعد — جهوداً مضنية تكللت بدخول

أمريكا الحرب إلى جانب الحلفاء ، بفضل ما لهم من نفوذ فى دوائر المال والأعمال فى أمريكا .

وواضح أن وعد بلفور لم يكن من وحى الساعة عام ١٩١٧ ، ولكنه كان وليد سياسة استعمارية مرسومة من كلا الطرفين ، جاءت الحرب العالمية الأولى . نقطة انطلاق لها ، وفرصة لتحقيق أطماعهما معاً .

تقرر نظام الانتداب فى المادة ( ٢٢ ) من ميثاق عصبة الأمم ، كوسيلة للتمويه به على استعمار الدول المنتصرة للدول التى كانت تخضع للدول المغلوبة وتجرى فى فلكها . من ذلك ما ورد فى تلك المادة من أن الانتداب إنما هو وسيلة : « لتدريب الشعوب التى خرجت من سيادة الدول المغلوبة ، على الحكم الذاتى ، وهى أمانة فى عنق المدنية » .

وبحكم هذا النص دخلت فلسطين فى نظام الانتداب ، باعتبارها قطراً كان يتبع الإمبراطورية العثمانية . وأصبح من حقها ، ترتيباً على هذا الوضع ، أن يكون لرغباتها الاعتبار الأول فى اختيار الدولة المنتدبة . ولكن هل كان فى استطاعة عرب فلسطين أن يقفوا برغباتهم فى مواجهة الاستعمار البريطانى والصهيونى ، اللذين يوجهان عصبة الأمم ، لاتخاذ ما يشاءان من قرارات ! .

وقد كان من أثر تدخل المنظمة الصهيونية لدى مجلس الحلفاء الأعلى عام ١٩١٩ ، لاختيار بريطانيا العظمى دولة منتدبة على فلسطين ، والإيحاء لعصبة الأمم لتعمل على هذا الاختيار ، أن تحققت رغبات اليهود ، ووافق المجلس الأعلى للحلفاء فى ٢٥ أبريل ١٩٢٠ على منح بريطانيا ، الانتداب على فلسطين .

وكان من الطبيعى أن يوافق مجلس الحلفاء على ذلك المسعى ، فى وقت كانت قوات الجنرال اللنبى معسكرة فى فلسطين بعد هزيمة الأتراك ، الذين خذلهم الشريف حسين ، شريف مكة ، بعد تضليله بوعود زائفة براقة من قبل بريطانيا بمنح الدول العربية التى كانت

تخضع لتركيا ، الاستقلال والحرية بعد الانتصار.

وقد أقر مجلس عصبة الأمم مشروع صك الانتداب على فلسطين فى ٢٤ يولية ١٩٢٤ الذى احتوى على ٢٨ مادة ، أشارت المادة الأولى منه ، إلى وعد بلفور ، والصلة التاريخية التى تربط الشعب اليهودى بفلسطين ، والأسباب التى تبعث على إنشاء وطن قومى لهم.

وكانت مواد صك الانتداب ، تدور حول تخويل الدولة المنتدبة الحق والسلطة لوضع البلاد فى أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تضمن إنشاء الوطن القومى اليهودى ، واعتبار اللغة العبرية لغة رسمية فى البلاد.

من ذلك على سبيل المثال ، نص المادة الرابعة التى تشير بإنشاء وكالة يهودية تتعاون مع الدولة المنتدبة على إدارة البلاد . وكان يهود فلسطين الذين منحوا هذه الامتيازات ، يبلغ عددهم ٨٠ ألف نسمة فى فلسطين ، فى الوقت الذى صدر فيه صك الانتداب . أما العرب ، فكانوا يؤلفون ٩٢ ٪ من سكان البلاد ، الذين ورد ذكرهم فى الصك باعتبارهم من الطوائف غير اليهودية.

وفيما يلى نص صك الانتداب ، فى صورة خطاب أبلغه بلفور إلى لورد روتشيلد ، ليقوم الأخير بإبلاغه للمنظمة الصهيونية.

« يسرنى جداً أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك ، التصريح التالى ، الذى ينطوى على العطف على الأمانى الصهيونية . وقد عرض على الوزارة وأقرته :

« إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين ، وستبذل أقصى جهودها لتسهيل تحقيق هذه الغاية.

« على أن يفهم جليا ، أنه لن يعمل أى شىء يغير الحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن فى فلسطين ، ولا الحقوق أو الوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلاد الأخرى.

« وأكون شاكراً لو أنكم أبلغتم هذا التصريح إلى المنظمة الصهيونية »

* * *

برزت أمام الصهيونية فى فلسطين ، عقبتان خطيرتان تحولان دون إنشاء الوطن القومى اليهودى . وكانت العقبة الأولى تتمثل فى أن السكان العرب يمثلون ٩٢ ٪ من المجموع الكلى لسكان فلسطين . كما كانت العقبة الثانية تتمثل فى أن اليهود لا يملكون من الأراضى أكثر من ٤٠ ألف دونم ( الفدان أربعة دونمات ) . وهذه الملكية تمثل واحداً من سبعين من مجموع مساحة الأراضى فى فلسطين . وكان لابد ، لإقامة دولة ، من توفر عاملى الشعب والأرض . وقد رأت الصهيونية أن تخلق الشعب بتهجير النساء والرجال إلى فلسطين . وكان عامل الهجرة أوفر حظا وأدنى إلى التحقيق من عامل الأرض . فقد امتنع العرب ، فيما عدا قلة محدودة لا تقدر العواقب ، عن بيع الأرض . ولم تستطع كل وسائل الإغراء أن تشترى أكثر من ٦ ٪ من أرض فلسطين ، كان أغلبها مملوكاً لغير فلسطينيين . ولم يستطع العرب أمام أفواج الهجرة ، دفع هذه الغارة الصهيونية المدبرة بإحكام ، ساعد على تنفيذها وجود الحدود والموانى والمطارات والمواصلات ، تحت يد سلطة الانتداب التى تملك التشريع والحكم المطلق كيفما أرادت .

ولم يكن يملك العرب سوى الاحتجاج تلو الاحتجاج لدى الحكومة البريطانية المنتدبة ، ولدى عصبة الأمم . وعندما فشلت كل هذه المساعى السلمية ، هب العرب فى فلسطين للدفاع عن حقوقهم بغير الوسائل السلمية . فقامت الثورات من أجل هذه الحقوق أعوام ١٩٢٠ ، ١٩٢١ ، ١٩٢٩ ، ١٩٣٢ .

وقد كان هم الصهيونية منصرفاً منذ البداية إلى تأمين وسائل الهجرة ، فسعوا إلى إدراج موضوع الهجرة فى صك الانتداب على فلسطين .

فقد فرضت المادة السادسة من الصك ، على الإدارة البريطانية ،

واجب تسهيل الهجرة اليهودية فى أحوال ملائمة .

* * *

ولعل المنظمة الصهيونية ، وقد ارتاحت إلى نجاح مساعيها لإنشاء وطن قومى ، والعمل على تهجير شعب إليه ، وشراء أرض فيه ، رأت أن تقف هنيهة عند هذا الحد ، الذى لم يكن إلا فصلا من فصول ، يتحدد رفع الستار عما يليه ، فى موعد موقوت .

ذلك أن الصهيونيين تراودهم على الدوام أحلام يتشبثون بتحقيقها ، لا كمستعمرين فقط ، ولكن كمؤمنين — عند الضرورة والفائدة — بما ورد فى الإصحاح الخامس عشر من سفر التكوين الذى جاء فيه : « فى ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ( إبراهيم ) ميثاقاً قائلا : « لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير ، الفرات » .

على أنهم لا يعترفون عند المجادلة بأن نسل إبراهيم يشمل سلالة يعقوب وإسماعيل معاً ، ولكنهم يدعون ويزعمون أن المقصود هو نسل يعقوب وحده دون سند أو منطق .

انصرف هم رجال الوكالة اليهودية إلى العمل على نزع ما رسب فى أذهان قدماء اليهود عبر العصور السالفة ، عندما كانت النظرة إلى فلسطين لا تتحول عن غرضها الدينى ، وأن السفر إليها إنما هو حج مبرور ، ورحلة لمن يبحث عن الراحة الأبدية فى ظلال صهيون ، وفوق جبل الزيتون وانتقال الروح إلى السماوات العلى بعد موت أصحابها فوق أرض أورشليم .

وكان على الوكالة أن تقنع ثراة اليهود بالبذل والعون لإنشاء الوطن القومى ، لا بعقلية الإحسان والعطاء فى سبيل الدين ، توسلا للمثوبة والجزاء فى الدار الآخرة . ذلك أن إنشاء هذا الوطن هو محور جهود كل اليهود فى العالم ، لإقامته ، رضى العالم عن وجوده أو لم يرض ، وسواء اتفق مع تعاليم الدين أم خالفها .

وكان عليهم أن يقيموا دولة إسرائيل على أسس ثابتة وبسواعد قوية ، تعمر وتبنى وتناضل وتحمل السلاح للهجوم وللدفاع ، وتتزود بالعلوم العصرية الحديثة التى تعوضهم عن الكثرة العددية التى يتمتع بها العرب ، لا لتتمرغ فوق تراب أرض الميعاد ، انتظاراً لصعود أرواحهم راضية مرضية فى عقائد الأولين المتخاذلين فى نظر الصهيونيين الجدد . وكم من فوارق بين اليهود الاشكيناز المهاجرين من أوربا وأمريكا واليهود السفرديم من فلسطين ومن المهاجرين من الشرق * .

وكان عليهم أن يقيموا دعائم هذا الوطن دون ما اعتماد على ما ورد فى التوراة مخالفاً لأطماعهم التوسعية الاستعمارية ، ودون إنصات للأقدمين الذين عشيت أبصارهم عن رؤية المستقبل الجديد الذى ينتظر النشء الحديث ، والعمل على تحريف ما ورد فى التوراة بحيث يواكب أهدافهم وما يسعون إليه .

* * *

مررت بالقاهرة فى طريقى إلى فلسطين . وقد غادرتها بعد أسابيع إلى القدس ، مستقلا قطار القنطرة غرب ثم القنطرة شرق إلى العريش فرفح ، آخر الحدود المصرية ، ومنها دخلنا الأراضى الفلسطينية حتى وصل القطار فى الصباح الباكر ، بعد ليل طويل ، إلى اللد فالقدس .

كان هذا الخط الحديدى من صنع العمال المصريين الذين جندتهم السلطة العسكرية البريطانية خلال الاحتلال والحرب عام ١٩١٤–١٩١٨ ، لتستعين به على نقل الجنود والمؤن إلى فلسطين ، التى كانت جيوش اللنبى

---

* كان من المشاهد المألوفة رؤية يهودى ثرى من أمريكا يقف عند حائط المبكى مع يهودى شرقى (سفرديم) ليبكى عنه مقابل أجر معلوم . فليس فى حياة الثرى الأمريكى ما يدعو إلى البكاء . فإذا ما توقف الباكى المأجور عن البكاء ، نهره مستأجره ما دام قد أجزل العطاء مقابل القيام بهذه المراسم عن الحاج الثرى الأمريكى .

قد بلغتها عام ١٩١٧ لمحاربة قوات الترك والألمان .

وكنت من باب الاقتصاد أسكن مع زميل رحب بهذه المشاركة وهو الذى أصبح فيما بعد وكيلا دائماً لوزارة الخارجية . وكان الغلاء ، وإن قلت حدته عن أمريكا ، إلا أنه كان ما يزال أمامنا وبيننا ومعنا ، ولا ينفك يلاحقنا فى المسكن والمأكل والملبس . وكنا أعزبين وأعزلين من كل علم بالتدبير المنزلى .

ولعل القارئ يدهشه ترديد القول عن الغلاء وقصور مرتبات رجال السلك الدبلوماسى آنذاك ، عن تغطية نفقاتهم ، والاستعانة بما لديهم من دخول شخصية ، وتعارض هذا القول مع ما هو قائم اليوم من كفاية مرتبات وبدلات رجال السلك الدبلوماسى ، كفاية هى فى القليل لا تدفع بهم إلى الاستعانة بما يملك أهلهم . وإن كانت الشكوى قد أخذت ترتفع مع ارتفاع نفقات المعيشة فى معظم عواصم العالم فى الوقت الحالى.

فقد ظل السلك الدبلوماسى منذ إنشائه عام ١٩٢٤ حتى عام ١٩٤٧ يعانى رجاله ضعف المرتبات والبدلات ، حيث كانت مختلف السلطات الرسمية فى مصر تنظر إلى هذه الوظائف ، على أنها ترف ، وترفض أن تبحث كل ما يتعلق بأمور مرتباتهم . وكانت الحكومات المختلفة خلال هذه الفترة ١٩٢٤ — ١٩٤٧ لا تجسر على طلب زيادة الاعتمادات المفتوحة للصرف منها على وزارة الخارجية ، حتى لا تفتح على نفسها باباً يجيء لها منه الريح والنقد والتجريح . فكانت تسكت وهى تعلم علم اليقين : قلة حيلة هذه المرتبات الهزيلة . وكان مجلس النواب فى تلك السنوات ، عندما ينظر ميزانيات الوزارات ، يمر بميزانية وزارة الخارجية مر الكرام.

ولما بدت للعيون ، وأدركت الأذهان ما يقوم به هذا النوع من الخدمة الدبلوماسية فى المجالات السياسية ، وفى الأزمات الدولية ، تغيرت النظرة نحو وزارة الخارجية ، ونحو الموظفين الدبلوماسيين ، وأصبحت الحكومات أكثر جرأة فى مناقشة موضوع الاعتمادات المطلوب فتحها

لوزارة الخارجية ، لتحسين مرتبات موظفيها في مختلف البعثات الدبلوماسية . كما أصبحت الأحزاب ، المؤيد منها والمعارض ، أكثر استجابة للحديث في تعديل ميزانية وزارة الخارجية . هذا الوعى والإدراك ، ران على الأذهان واقتنعت به السلطات التنفيذية والتشريعية ، فى عام ١٩٤٧ وما أتى بعدها من سنوات .

والمعنى المستخلص من هذا ، أننا ظللنا منذ عام ١٩٢٤ حتى عام ١٩٤٧ نعتمد على دخول خاصة ، تعهد أولياء أمورنا فى بداية عهدنا بالخدمة ، بمدنا منها بما يماثل المرتب ، تغطية للنفقات الضرورية ، كما سبق بيانه فى مطلع هذه الذكريات . وكانت وزارات الخارجية فى العواصم الأوربية الكبرى تعانى هذه العقلية فى مطلع عملها وعهدها بالسلك الدبلوماسى ، الذى لم تكن تقبل فى صفوفه إلا الموسرين ، إلى أن تدخلت البرلمانات بلسان نواب حملوا على حرمان طبقات غير قادرة ماليا ، وإن كانت كفاءاتها كسباً لا يصح تنحيته أو إغفاله ، حتى نجحت حملتهم .

وكنت وزميلى نائب القنصل العام ، نغادر المنزل مشياً على الأقدام فى طريقنا إلى دار القنصلية . ثم نعود سيراً كذلك بعد انتهاء العمل . ويتكرر هذا (الطابور) بعد الظهر . وكان الشارع الذى نقطعه يكاد يكون واقفاً لا مستويا ، وهو منظر مألوف فى القدس التى تنتشر بها هضاب أقيمت فوقها المبانى والطرق . وكان أكثر ما يضايق زميلى — وهو ممن يلبسون النظارات — سقوط رذاذ فى بعض فصول السنة فى القدس على زجاج نظارته ، بحيث يتعذر معه أن يسير دون أن يستند إلى ذراعى . وكنت أقول له ترفيهاً عما نحن فيه من عنت وعناء ، إننا مادمنا لانملك سيارة ، والرذاذ يحول دون رؤيتك الطريق عندما يسقط على زجاج نظارتك ، فماذا لو أننا سجلنا اختراعاً لنظارة تعمل وقت المطر بإضافة ماسح الزجاج الذى نراه فى السيارات ، عند سقوط

الرذاذ ، ثم يتم فصله بعد صفاء الجو ، وذلك بالاستعانة ببطارية توضع فى الجيب العلوى للجاكيت . .

وكان يمضى علينا الشهر تلو الشهر دون أن نركب شيئاً غير أقدامنا . فلم يكن يوجد بالقدس من التاكسات سوى محلات خدمة ثلاثة يملك أصحابها بضعة سيارات ، يبعثون بها لمن يريد بالطلب التليفونى . ولا وجود لعربات الخيل . ولم يكن مما يليق بمراكزنا أن نتسلق الأوتوبيسات . ومضينا نمشى صبحاً ومساء وبكرة وعشيا ، سنة بعد أخرى ، حتى إننى قلت لزميلى الكريم فى العمل والسكن والطابور ، إننا إذا طال بنا العهد هنا على هذه الصورة ، فسوف نصبح دبلوماشيين ، لا دبلوماسيين .

وكنا إذا ضاقت بنا الموارد ، نفكر فى إيجاد مخرج ، ثم نعود مغلوبين على أمرنا . وفجأة قال لى زميلى ، ماذا لو أننا تحدثنا مع الصديق أحمد حلمى باشا مدير بنك الأمة العربية (أصبح فيما بعد رئيساً لحكومة فلسطين) فى أمر منحك قرضاً بضمانة مرتبك المحول على البنك ، وبضمانتى ، ثم نقتسم مبلغ القرض الذى يمثل ثلاثة أشهر من مرتبك ، حتى إذا انتهت الأقساط ، تقدمت بعدك فى طلب قرض لى بضمانة مرتبى وضمانك الشخصى ، وهكذا دواليك ، حتى يقضى الله أمراً أو يرث الأرض وما عليها من ديون . وفى الحال قمنا بهذه العملية الناجحة التى كللها مدير البنك بموافقته . وعندما تكررت المسألة فهم المدير هذه اللعبة ، وإذا به يبادرنا ذات يوم من أيام القروض بقوله ضاحكاً : « خذونى بالله معكم فى ها الشركة » .

بعد شهور قمت بإجازة إلى القاهرة ، وعدت منها متزوجاً بدون مقدمات أو ترصد أو سبق إصرار . وقد عدنا بطريق البحر ، وهبطنا ميناء يافا . . ولم يكن آنذاك معداً لاستقبال البواخر الكبيرة كالباخرة حلوان التى أبحرنا عليها . ومن يافا قطعنا المسافة إلى القدس

بين بساتين البرتقال على مدى ما يقرب من ثلاث ساعات بالسيارة . وكان الأرج الذى ينبعث من البرتقال عند تفتح أزهاره طيب الشذى ، ينعش عبيره الروح ويدغدغ الحواس .

تركت سكن زميلى ونزلت مع زوجتى بفندق ألمانى ، لحين العثور على مسكن. وقد تم ذلك وشيكا وانتقلنا إلى سكننا الجديد لأبدأ حياة جديدة ، خالية من فوضى حياة العازب واستخفافه بالشئون المالية وتواكله فى أى أمر ، حيث لا يحس أنه مسئول عن أى أحد سواه . إلا أن بعض ذيول وجيوب ديون من حياتى الأولى ، كان لا بد أن يمضى بعض الوقت لقطعها أو سدها . من ذلك أننى كنت ما أزال مديناً ببعض أقساط للترزى والبقال ولمحل جرامافونات وأسطوانات ومكتب تأجير السيارات وترزى القمصان ، والبيجامات ومكتبة . وكنت إذا خرجت مع زوجتى — ولم يكن فى القدس سوى شارع رئيسى واحد ، تقع فيه على الجانبين محلات كل هؤلاء الدائنين — أقول إذا ماخرجنا للذهاب إلى السينما ، كنت أسير فى خط لولبى أرسمه بمهارة لا تخيب لأتجنب وقوع نظر الدائن على شخصى . فكنت أنثنى تارة إلى الرصيف الأيمن وتارة إلى الأيسر . ويتكرر هذا المشهد مرات بعدد من ذكرت وكانت هذه المحلات ، كالشعب المرجانية التى يتجنب الربان الماهر الاصطدام بها . وقد احتارت زوجتى فى تفسير هذا السير اللولبى الذى كانت تسايرنى فيه . وما زالت بى حتى اعترفت لها بالحقيقة . ولم يمض على ذلك سوى بضعة شهور ، وبفضل النظام المنزلى الدقيق ، حتى اعتدل ميزان المدفوعات ، وتيسر لى أن أسير فى خط مستقيم ، بعد حياة حافلة بالأزمات ، شعارها : ولك الساعة التى أنت فيها .

* * *

صدرت حركة دبلوماسية شملت نائب القنصل العام وزميلى السابق فى العمل والديون ، بالنقل إلى القاهرة للعمل بالديوان العام بالوزارة

كذلك تناولت الحركة نقل القنصل العام ، وتعيين قنصل جديد تفاءلت خيراً بوصوله إلى القدس في وقت كانت الحالة السياسية في فلسطين تفور وتمور . كان ذلك يوافق نهاية عام ١٩٣٥ . وكنت أعلم مدى تعلق القنصل الجديد بالعمل السياسي وبالقضية العربية ، مما كان ينشره في مجلات كنت مشتركاً فيها آنذاك .

تفاءلت خيراً لأن الحالة كانت تقتضي من مصر مراقبة الأحوال في فلسطين قبل أن تستفحل إلى ما وصلت إليه فيما بعد ذلك . وكان يتحتم أن يكون هناك رئيس للهيئة القنصلية ، مدرك للأوضاع القائمة ، ومتنبه لما يمكن أن تنقلب إليه ، ليوالي الوزارة بانطباعاته عن الموقف في تقارير وافية ، ترى فيها الوزارة الحالة كما يصورها ، لا الاقتصار على منح جوازات سفر مصرية أو تجديدها ومنح تأشيرات دخول أو مرور ومحاضر ترحيل المصريين المعوزين وإصدار شهادات مواليد ووفيات وزواج وطلاق وحصر تركات المتوفين ، إلى آخر هذه الأعمال الإدارية .

لقد تحوّل العمل بالقنصلية . عند وصوله إلى شقين : شق إداري ترك لنا تنفيذه تحت إشرافه ، بعد أن اطمأن إلى قدرتنا وتمرسنا به ، وشق سياسي أمسك بخيوطه بين يديه بوعي واقتدار .

لقد كتب عام ١٩٣٥ عقب وصوله بفترة وجيزة يقول : « إن الحركة الصهيونية التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى ( ١٩١٤ — ١٩١٨ ) ، بقصد إنشاء وطن قومي لليهود ، لا يقصد منها ، كما يفهم سليمو النية من أهل مصر ، أن هدفها هو رفع الحيف عن شعب مظلوم ، وجمع شتات اليهود المشردين لينعموا في فلسطين بما حرموه في غيرها من البلاد ، إنما هي حركة أعمق وأبعد أثراً مما نظن ونعتقد ، وأن أخطارها لن تقف عند فلسطين بل ستغمر بلاداً أخرى ، وستؤثر في حياة هذا الشرق العربي ومستقبله تأثيراً هائلا محاطاً بالأخطار والمتاعب

لنا ، نشر ذلك عام ١٩٣٥* .

وكتب فى موضع آخر يقول : « إن الشرق العربى الذى عاش مدة من الزمن تتجاذبه السياسات والأهواء المختلفة نتيجة لتنازع الدول الكبرى . والذى استمر أهله قانعين بالسير على خطوات الحضارات الزراعية البطيئة . والاكتفاء بالقليل : قد ووجه بحقيقة جديدة ، هى ظهور الصناعة الآلية المعتمدة على العلم والمال ، والتى تدعمها هجرة مستمرة من العمال المتفوقين فى كافة الصناعات . إن مجىء الصهيونية لتستعمر بلاد العرب ، كان بمثابة هزة عنيفة لهذا الشرق النائم ، فهل هى تكفى لإيقاظه من سباته ، حتى يقف ويستعد لمواجهة هذا الخطر الجديد ليدفعه بالقوة التى تتفق مع تاريخه القديم ، وأثره فى قيادة هذا العالم ! ، وقد نشر هذا عام ١٩٣٦ .

على أن هذه الصرخات لم تكن كافية للتنبيه إلى ما أشار إليه لأسباب داخلية . ففى فلسطين كان النظام الحزبى فيها يقوم على أساس إقطاعى أسرى . وكان بها عام ١٩٣٥ خمسة أحزاب فى بلد صغير مثل فلسطين : هى : الحزب العربى وتمثله أسرة الحسينى ، وحزب الدفاع وتمثله أسرة النشاشيبى وطوقان ، وحزب الإصلاح وتمثله أسرة الخالدى ، وحزب الاستقلال وتمثله أسرة عبد الهادى وحزب آخر تتزعمه أسرة التميمى .

ونشطت الصهيونية فى ذلك الحين نشاطاً ساعد على رسوخ أقدامه ، مارًان على الدوائر العربية من سبات ، مقابل يقظة الوكالة اليهودية ، حتى لقد حضرت شخصيات عربية ممثلة عن بلادها حفل افتتاح الجامعة العبرية فى القدس عام ١٩٢١ ، كما كانت المنظمة الصهيونية

---

* صاحب هذه الكتابات هو الأستاذ أحمد رمزى المؤرخ المحقق والسفير السابق لمصر فى روما وأنقرة وبلجيكا عندما كان قنصلا فى فلسطين وشرق الأردن عامى ١٩٣٥–١٩٣٦ .

تنشئ لها مكاتب فى عواصم مختلفة من بينها القاهرة عام ١٩٢٠ ، دون أن يفطن أحد إلى خطورة أهدافها وعواقبها الجسيمة البعيدة المدى .

على أن عرب فلسطين قاموا بثوراتهم ابتداء من عام ١٩٢٠ احتجاجاً على تنفيذ وعد بلفور وعواقب هذا التنفيذ على كيانهم . ثم عام ١٩٢١ ، ثم عام ١٩٢٩ عندما رأوا اليهود يرفعون علمهم عند حائط المبكى ، كما قامت فى البلاد العربية مظاهرات تأييداً لمطالب عرب فلسطين . وكان هذا العام ١٩٢٩ هو بدء الجهاد الفلسطينى المنظم .

وقد أرسلت بريطانيا لجنة لتحقيق أسباب اضطرابات عام ١٩٢٩ برياسة مستر شو . فاستمعت للعرب وللبهود ، ووضعت تقريراً ضمنته تحقيقها الذى أسفر عن أن أسباب ثوارت العرب ناجمة عن خوفهم على حقوقهم ومطالبهم السياسية والقومية وعلى وضعهم الاقتصادى الذى يهدده ذلك الشراء المجنون للأراضى الفلسطينية المملوكة لغير الفلسطينيين أو لفلسطينيين بمختلف وسائل الإغراء ومساعدة حكومة الانتداب على إتمام هذه الصفقات . واقترحت على الحكومة البريطانية أن تصدر بياناً واضحاً عن سياستها فى فلسطين ، يراعى بدقة ما ورد فى صك الانتداب عن حقوق غير اليهود فى فلسطين ، كما أشار التقرير إلى ضرورة مراقبة موضوعى الأراضى والهجرة بيقظة وانتباه .

على أن تلك التوصيات لم يكتب لها أى نجاح ، الأمر الذى حمل العرب على الاتحاد وتكوين اللجنة العربية العليا بعد أن كانوا أحزاباً كما قدمنا ، وقاموا بثورتهم الكبرى عام ١٩٣٦ ، وقرروا الإضراب العام الذى استمر ما يقرب من العام إلى أن تدخل الساسة العرب . وعملا بما أشارت به حكومات العراق والعربية السعودية والأردن ، توقف الإضراب الذى قيل إنه جاوز فى مدته إضرابات إيرلندا على عهد ديفاليرا للمطالبة بالانفصال عن بريطانيا حتى تم لها الاعتراف من إنجلترا باستقلالها عام ١٩٢١ .

وقد طلبت القنصلية من الدائرة المختصة في حكومة الانتداب ، مد أعضائها ببنادق للدفاع عن أنفسنا ضد الإسرائيليين ، باعتبارنا من أكثر الفئات موالاة للثورة وتأييداً لها وقد نكون عرضة للاعتداء علينا . وقد أمدتنا سلطة الانتداب بالبنادق المطلوبة ، وكان القنصل الصديق يقوم بعمل تدريبات صباحية لنا على استعمال البنادق لسبق إلمامه بهذه الشئون التي مارسها في مستهل حياته في زيوريخ . وعندما عاين القنصل ذخيرة البنادق تبين أنها فاسدة ، وقد تم تغييرها كطلبه .

وعاصرنا كذلك محاكمات العرب الذين كان يضبط معهم سلاح ، بعد أن صدر أمر سلطة الانتداب بتسليمه . كانت الأحكام تصدر وبعضها بالإعدام وكنت أسكن في مواجهة إحدى هذه المحاكم . ولم تستطع الأيام أن تستل من ذاكرتي منظر هؤلاء المجاهدين الذين كانوا يتلقون الحكم بشجاعة وإيمان بحسن ما صنعوه في الدنيا وما ينتظرهم من ثواب الآخرة . ولم أسمع أو أشاهد محاكمة واحدة ليهودي ضبط معه سلاح . بل كانت كل المحاكمات تجرى ضد العرب لكسر شوكة حركتهم — رغم ضعف إمكانياتهم — التي كانت تستهدف القضاء على مؤامرة استيطان اليهود بالسماح لأفواجهم بالدخول بلا رابط أو عهد أو قانون . فلم يكن يزيد تعداد اليهود قبل الانتداب عن ثمانين ألف نسمة ، ارتفع بفضل معاونة سلطة الانتداب لاستيطان اليهود القادمين من أوربا وأمريكا والشرق ، إلى ١,٢٠٠,٠٠٠ نسمة عام ١٩٣٦ .

وفي نهاية هذا العام أرسلت بريطانيا لجنة أخرى للتحقيق برياسة بيل . وكان تقريرها الذي نشرته في ٧ — ٧ — ١٩٣٧ ، يشير إلى أن العرب في كل ثوراتهم منذ عام ١٩٢٠ كانوا مدفوعين بخوفهم من قيام الوطن القومي اليهودي الذي أشار به وعد بلفور ، وريبتهم في تصرفات سلطة الانتداب ، ورغبة العرب في الاستقلال . واعترفت اللجنة بوجود تعارض بين الوعود التي بذلت لليهود وأجيبت بسخاء ، والتي بذلت

للعرب بدون تحقيق شيء منها . وانطلاقاً من هذه الأبحاث التى قامت بها اللجنة ، والتحقيقات التى كشفت لها عن أسباب الثورات أوصت اللجنة بانتهاء الانتداب وتقسيم فلسطين .

وقد رفض العرب التقرير وتوصياته والتقسيم الذى لم يكن عادلا ، بل تعمد إعطاء إسرائيل الأرض المنزرعة والساحل وترك العرب فى الصحراء مع بعض أراض زراعية لا تكفى السكان . وطالبوا بالاستقلال التام . أما الصهيونيون وباقى اليهود من السكان فقد انقسموا شيعاً . فقد طالب غير الصهيونيين بعقد مؤتمر عربى يهودى لإنشاء دولة موحدة على أساس تصريح بلفور .

وأصدرت الحكومة البريطانية بلاغاً عن هذا التقرير ، مؤداه أنه بالنظر إلى الصعوبات الإدارية والسياسية والمالية التى يمكن أن تظهر نتيجة للتقسيم ، ترى الحكومة أن يجتمع العرب واليهود بها فى لندن فى المؤتمر الذى عرف بمؤتمر المائدة المستديرة فى ٧ — ٢ — ١٩٣٩ ، حيث طالت فيه المناقشات بدون نتيجة وانتهى بالإخفاق ، عندما توقفت أعمال المؤتمر بسبب قيام الحرب العالمية الثانية .

وقد وقع ما كان يحذر منه عام ١٩٤٨ التى ما تزال أحداثها عالقة بالأذهان ، غنية عن التذكير بها .

والأمر الذى لا شك فيه ، أن مصر قبل قيام ثورة يولية ١٩٥٢ ، لم تكن لها سياسة عربية .أو آسيوية أو أفريقية ، منذ أن كانت يدها مغلولة بحكم الاستعمار حتى عام ١٩٣٦ ، ثم بحكم السياسة الحزبية التى قيدت خطواتها وحصرت جهودها فى السعى وراء كرسى الحكم فيما جاء بعد ذلك من سنوات حتى قيام الثورة ، وانطلاق مصر بعدها إلى الآفاق العربية التى تربطها بها أشد الأواصر ، وهى عليمة بأن الأمر لا يقتصر على فلسطين بل إن البلاد العربية كلها تقع فى دائرة أطماع الصهيونية .كما انطلقت إلى أفريقيا التى دبت فى

أوصالها شرارة ثورة مصر ، فقامت تطالب باستقلالها الذى حصلت عليه دولة بعد دولة . وقد صدق ( شاتو بريان ) عندما قال إن الثورات كالأنهر ، دائماً ما تفيض على جانبيها . ولم يبق من دول أفريقيا إلا قلة هى فى طريقها إلى الاستقلال .

ورمت مصر بعد عام ١٩٥٢ ببصرها إلى قارة آسيا ، فرأت أنها تمثل قطعة منها فى جناحها الشرقى ، ورأت أن ارتباطها بدول مثل الهند وإيران والأفغان والباكستان والصين وإندونيسيا ، وبحضارة هذه الدول العريقة مثلها فى المدنية ، أجدى على الطرفين وأجلب للنفع لهما فى المجالات الدولية وفى المجالات الاقتصادية التى دعمتها بعد اتصالها بها بالاتفاقيات الاقتصادية والثقافية التى أثمرت وطاب جناها .

برغم أننى كنت فى هذه الفترة مثقلا بالعمل وبالقلق وبتوقع الاغتيال فى الطريق فى أى لحظة ، إلا أننى أطلقت الهواية القراءة التى تجذبنى إليها العنان لأدفع عنى الملل والقلق والاضطراب النفسى والمصير الحائر ، والإشفاق على نهاية شعب تبدت للعين بداية مآله المظلم على يد الاستعمار الغربى الإمبريالى والخطر الصهيونى الذى يدب كأخطر الأمراض ضراوة فى جسم الأمة العربية . وكانت فترة إقامتى فى فلسطين مدرسة تلقيت فيها تجارب ودروساً عديدة ، جنيت ثمرها بعد حين .

ثم تظهر حركة دبلوماسية تشمل هذا القنصل الصديق بالنقل إلى منصب فى أوربا لم يكن راغباً فيه . ويعين مكانه القنصل العام الذى كان قبله فى العمل والذى عملت معه فترة من الوقت ، بعد أن طالت إقامتى وامتدت حتى بلغت من السنوات خمساً .

وفى إحدى المرات التى كنت فيها بالقاهرة فى إجازة ، قصدت الوزارة لترى رأياً فى نقلى بعد هذه المدة الطويلة التى عانيت فيها كل هذه الإضرابات والاضطرابات والقلق وسوء المصير . وفى معرض حديثى —

قلت لمحدثى ، وكان ثانى كبيرين من المسئولين فى الوزارة ، إنه لم يحدث لأى موظف دبلوماسى فى أى جهة من الجهات أن يعمل مع رئيس بعثة ، ثم ينتقل ليحل محله رئيس آخر ثم ينتقل هذا الثانى ليحل الأول محله إلا أن يكون هذا الموظف ساعيا أو حاجباً أو بواباً . وقد طمأننى ووعدنى خيراً فى حركة قادمة .

وبعد شهور من عودتى إلى مقر عملى بالقدس ، صدرت حركة دبلوماسية شملتنى بالنقل إلى ميلانو نائباً للقنصل العام بها . وكنت عندما تلقيت النبأ ألهج مع من قال :

اشتدى أزمة تنفرجى قد آذن ليلك بالبلج .

* * *

## الفصل الرابع

### فى ميلانو :

أبحرنا من الإسكندرية على الباخرة الأنيقة ( اسبيريا ) يوم ٢٩ من أكتوبر عام ١٩٣٨ . وكانت زوجتى قد تزودت بدروس فى اللغة الإيطالية ، فى إحدى المدارس بالقدس ( ساليزيان ) ، ولحقت بها بدورى عندما استقر بنا المقام فى ميلانو . ففى يقينى أن الغريب الذى يهبط بلداً لا يعرف لغة قومه ، يعيش كالمزكوم الذى لا يهنأ بطعام أو شراب أو شميم أو نعيم مما يراه ، ولا يكاد يبين له منه إلا ظاهره ، وهيهات أن يغنى الوتر عن الصوت الرخيم .

كانت الرحلة بالبحر تستغرق خمسة أيام إلى جنوا . وكان الشوق للعيش فى إيطاليا زمناً ، يستبد بى بعد أن رأيت منها ثغريها ، جنوا ونابولى عند عودتى من أمريكا .

كانت إيطاليا فى الوقت الذى قصدتها فيه ، سنة ١٩٣٨ ، ملكية وحكومتها فاشستية ، تدين بهذا المذهب الذى نظمه وتزعمه صحفى وجندى قديم ، هو ( بنيتو موسولينى ) ، وهو ابن حداد من قرية من قرى إقليم ( فورلى ) . وقد تلقى تربية ابتدائية متواضعة ، واشتغل فترة حداداً فى حانوت أبيه ، ثم معلماً وعاملا وصحفياً فى جريدة ( بوبولو ديتاليا ) التى تصدر فى ميلانو . كان قد ورث عن أبيه حب المبادئ الثورية الاشتراكية . ففى عام ١٩١٠ أنشأ فى ( فورلى ) صحيفة أسبوعية اشتراكية باسم ( نضال الطبقات ) .وسجن مراراً من أجل كتاباته المتطرفة فى صحيفته . ولما انتهت الحرب العالمية الأولى وبدأت الاضطرابات الاشتراكية تغمر إيطاليا ، عكف على تنظيم حركة لمقاومة الثورة ، وساعدته الظروف القائمة يومئذ على حشد جماعات كبيرة من الأنصار . وفى مارس عام ١٩١٩ أنشأ الهيئة الفاشستية وفى أواخر عام ١٩٢٢ عقد الفاشستيون اجتماعاً كبيراً فى نابولى ، وسارت بهم جموع كبيرة مسلحة إلى روما ، وأحاطت بها وهو ماسمى بالزحف إلى روما La marcia su Roma . وعندئذ بادر الملك ( فكتور إيمانويل ) بإقالة وزارة سنيور ( فاكتا ) ، التى كانت قائمة ، واستدعى موسولينى وكلفه بتأليف الوزارة الفاشستية ، وكان ذلك فى ١٠ أكتوبر عام ١٩٢٢ .

وترى الفاشستية أن الحرية ليست حقاً مطلقاً للفرد ، ليعمل ويتصرف وفق مشيئته . وكان لموسولينى فى ذلك قول معروف ، يتلخص فى أنه يوجد نوع من الحرية لأوقات الحرب ، ونوع آخر لأوقات السلم ، وثالث لأوقات الثورة ، ورابع للأوقات العادية ، ونوع من الحريات لأوقات الرخاء ، وآخر لأوقات الشدة والأزمات .

ولم تنل إيطاليا قبل قيام الفاشستية ، ومنذ القرن الثامن عشر ، مركزاً مرموقاً بين الدول ، وهيبة تجبر الكثيرين على احترام وزنها والطمع فى

صداقتها ، كمركزها آنذاك . فلقد تميزت فترة الحكم الفاشستي بكثرة عدد المعاهدات والاتفاقيات السياسية وغيرها ، التي أبرمت مع مختلف الدول حتى لقد بلغت في إحصاء بعض المراقبين ، تسعاً وعشرين معاهدة واتفاقية .

وقد يكون أهمها من حيث الأثر والقدر ، معاهدة (لاتران) التي غلبت عليها تسمية (كونكورداتو) ، وهو ما يبرم مع الفاتيكان من اتفاقيات ومعاهدات . وقد أتيح لحكومة موسوليني عقد هذه المعاهدة عام ١٩٢٩ . وبها تحددت سلطة البابا الزمنية ، كما تحددت ممتلكات الفاتيكان في روما التي منها بعض الكنائس ، ومصيف البابا ومقره الصيفي بالقرب من روما (كاستل جوند ولفو) . وكان لهذه المعاهدة أثر امتد إلى النواحي المدنية فيما يختص بممتلكات الفاتيكان في روما ودفع تعويضات عنها ، كما امتد أثرها إلى الأحوال الشخصية ، عند تناولها عدم جواز توقيع الطلاق بين الكاثوليك من الإيطاليين في كل الأراضي الإيطالية .

وتعتبر ميلانو مركزاً للصناعات الكيمائية والدوائية (كارلو إربا) كما تضم مصانع للكاوتشوك أشهرها (بيريللي) ومصانع لنسيج الحرير ، وسيارات (إيزوتافراسكيني) .

وقمت بعمل القنصل العام .

وتعاقب على القنصلية العامة من بعد ذلك قنصلان عامان ، سعدت بالفترة الوجيزة التي أمضاها كل منهما في ميلانو . فقد كانا من الرعيل الأول من الدبلوماسيين الذين بعثت بهم وزارة الخارجية المصرية عند إنشائها إلى باريس ، لتحصيل العلوم السياسية والاقتصادية . فكانت رقعة الفهم تتسع أمام ما يرون ، ويمتد مدى الاستنتاج لما يشاهدون ، وتزيد قدرتهم على البصر في ظلام الأحداث ، بدون أن ينبهم عليهم أمر أو يفوتهم الحس بما حولهم من غوامض المسائل .

لقد كانت إقامة كل منهما وجيزة إلى حد أنهما لم يتركا من الأثر إلا ما تتركه الفراشة على براعم الأزهار . وقد رؤى الانتفاع بهما فى مواقع أهم ، فى السفارات ، فى عام ١٩٣٩ ، الذى كانت أوربا تغلى فيه وتمور ، بفورات الحماس النازى المتقد ، والصراخ الفاشستى المدوى ، وبتنازع الإيديولوجيات وتفكك الروابط فى المجتمع الدولى .

وهكذا أتيح لى أن أبقى للقيام بعمل القنصل العام فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخ أوربا ، حيث كانت خطابات الدوتشى فى روما حيناً وفى ميلانو أحياناً تهدد أمن أوربا وتعرض العالم لنكبات حرب عالمية ثانية . أما خطوات هتلر ، لا خطبه ، فقد كانت أسرع إلى إنذار العالم بعواقب يوم عصيب .

* * *

ماذا أذكر وماذا أدع ، وماذا أقول وماذا أترك ، من هذه الكنوز الفنية والأثرية والمعمارية والجمالية والموسيقية ، فى البناء والمعمار القديم والحديث والطرق والحدائق والبحيرات والمسارح والملاهى ، مما تضمه ميلانو وما حولها من بحيرات ومدن مصايف وضواحى للرياضة مثل ضاحية ( مونزا ) التى اشتهرت عالميًّا بسباق الدراجات وسباق الخيل وسباق السيارات .

أما التحف الفنية من تماثيل وصور إلى نحت إلى مطروقات ، فإنك تجدها بوفرة فى المتاحف والجاليرى القديم والحديث .

أما الكنوز الموسيقية فإنك تنعم بما تقدمه الأوبرا (سكالا ) والمسارح العديدة التراجيدية والكوميدية والاستعراضية ، وقاعات الموسيقى التى تقدم القديم والحديث من الغناء والموسيقى . أما ( أوبرا سكالا ) فإنها تقف على رأس هذه المسارح جميعاً . بما تقدمه من روائع أوبرات : فيردى وبوتشينى ، وروسينى وجواردانو ، ودوتيزيتى ، وبيتهوفن ، وفاجنر ، وباخ وشوبان ، وموتزار ، وليست ، وموديست مسورجسكى ، واسكندر بورودين

صاحب أوبرا ( الأمير إيجور ) وبيزيه صاحب أوبرا حلاّق اشبيلية .

ولموسمها بداية ونهاية ، يحرص كثير من ذواقى الأوبرات الميلودى الإيطالية من مختلف دول أوربا ، على حضور هذا المرسم ، كما لو كان حجاً له مراسمه ووقته المعلوم وأيامه المعدودات .

أما الكنوز المعمارية فإنك تراها فى القديم والحديث من المبانى على حد سواء . فمن القديم ، تمتع عينيك برؤية كاتدرائية ميلانو التى تراها فى ضباب ميلانو الذى تشتهر به فتظنها قطعة من الدانتيل الرقيق الدقيق ، من فرط ما روعى من إتقان فى البناء والتماثيل والزجاج والأعمدة والفناء والأبراج والصور التى قام برسمها كبار الفنانين . وتضم الكاتدرائية ألفى تمثال من المرمر النادر .

كما تمتع العين بمرأى مبنى جاليرى الدومو ، ومبنى البلدية والأوبرا ومحطة سكة حديد ميلانو والفنادق القديمة والحديثة ومبانى العمارات وفيلات الضواحى فى الريف وحول البحيرات وحدائقها الرحبة التى تمتلىء بأروع التماثيل .

ولمطاعمها شهرة عالمية ، سواء ما كان منها داخل المدينة أو فى ضواحيها أو على شطآن بحيراتها المرحة اللعوب .

كما أن لبحيراتها شهرة تجذب إليها السائحين من أمريكا وأوربا . ومن أشهرها ( لا جو ماجورى ) ، ( لا جو دى جاردا ) ، ( لا جو دى كومو ) التى تقع على شاطئها قرية ( شرنوبى ) حيث كان يجتمع فى فندقها الكبير خلال عام ١٩٣٩ سفراء اليابان وألمانيا ووكيل وزارة الخارجية الإيطالية عند بحث انضمام اليابان للمحور . وتقع بحيرة ( ماجورى ) بين إيطاليا وسويسرا . وتبلغ مساحتها ٢١٢ كيلو متراً مربعاً وفى وسطها تقوم جزيرة ( بورومى ) بقصرها الذى نزل به نابليون بونابرت فى إحدى زياراته لشمال إيطاليا .

كذلك تقع على شاطئها السويسرى ، مدينة ( لوجانو ) السياحية الشهيرة التى يتحدثون فيها اللغة الإيطالية . وكنا نزور هذه المدينة الفاتنة فى الحين بعد الحين لنقضى بها أمتع ما يطمع المرء فى بلوغه . فهى مما لا يشبع منها أو يكتفى بقضاء العمر فيها . وهى برغم صغرها من حيث المساحة والسكان ، إلا أنها كانت تعتبر ( مينياتير ) ، أو مصغراً لأكبر المدن . فهى تحوى كل ما تحويه أى مدينة من مرافق وطرق ومسارح وملاه ومنتديات وحدائق ومحلات تجارية أنيقة ومطاعم ومقاه وشواطئ للرياضة البحرية ، ومواصلات تبدو جميعها فى حال من النظافة والنظام ، حتى لتظن أنها ستدخل مسابقة للجمال راحت تتهيأ لها بكل هذا الحسن ، وبلمسات رائعة من الفتنة والرواء .

كل هذه الجنات ، كان الوصول إليها فى ساعات لا تتجاوز الثلاث ، لأبعدها عن ميلانو . كما كان ما بها من أماكن للإقامة يصلح لكل الجيوب . أما النظافة والنظام والانتقال وجمال الطرق والأسعار المحددة ، فقد كانت عنواناً وشاهداً على مبلغ ما حققه النظام الفاشستى لإيطاليا فى هذه النواحى السياحية والدعائية لإيطاليا فى الخارج وهو أمر كان يحرص عليه هذا النظام حرصاً لا يتهاون فيه .

لم نترك ناحية من هذه النواحى دون أن نقضى بها عند زيارتها ساعات أو أياماً حسبما تسمح الظروف والوقت . ولكننا كنا عند حلولنا بها ، ننعم بها نعيم الطائر الوجل ، الذى يحسو الماء من غدير رقراق أو جدول لعوب ، وعينه يشدها الحذر فلا تنفك تتلفت ذات اليمين وذات الشمال ، حرصاً على حياتها من رصاص صياد من بنى البشر يترقب صيدها . فلقد كان العالم من حولنا فى تلك الفترة يرقص على فوهة بركان .

لم تكن الأحداث الدولية التى كانت ظروف أوربا قد هيأتها وأقامت مسرحها ، بهينة أو عادية فلقد كان التوازن المزعزع

الأساس ، الذى تم التوصل إليه فى فرساى بصورة عرضية ، يتأرجح على حافة الهاوية . وكأنما لم يكن كافياً استعادة ألمانيا لقدر كبير من قوتها المسلحة ، حتى تكسب إلى جانبه ، بالاستفتاء ، منطقة السار كما نجحت فى إعادة حوض الراين بضربة بارعة اهتزت لها دول أوربا التى عانت العسكرية الجرمانية . وكانت النمسا قد سقطت وتشيكوسلوفاكيا توشك أن تتداعى تحت وطأة القوة العسكرية لألمانيا فى ضغطها المستمر ، مبتدئة بحقوق الأقلية الألمانية فى السوديت .

وبدت فرنسا التى كانت تتظاهر بقوة غير واقعية ، بعد أن كانت تعد الحارس الأول لآخر صورة من صور النظام فى أوربا ، بدت وكأنها تنحدر نحو أفول وشيك الوقوع .

أما بريطانيا التى كانت هى الأخرى ، لا تملك من القوة ماتدعيه فقد رضيت لنفسها أن تقوم بدور المراقب غير المنحاز .

ولم تعد أوربا بالصورة التى تصورها الخيال فى فرساى ، كمجتمع دولى ينشد أناشيد الهناء ويسبح بآيات الرضى ، فى كتلة متراصة متعاونة من الدول الديموقراطية . ولكن العكس هو الذى وقع ، عندما دب الخلاف وأصبحت أوربا قبل أن يمضى على الحرب العالمية الأولى عشرون عاماً ، معسكراً لدول متنافسة ، لا تجتمع على رأى ولا تصل إلى اتفاق .

وكان تفوق ألمانيا العسكرى ومسعاها فى الحصول على المركز الأقوى فى أوربا ، مما أيقظ مشاعر دول أوربا ، وحملها على أن تتخير الوسائل التى يمكن بمقتضاها الوقوف فى وجه ألمانيا النامية .

لقد شقى الغرب نتيجة تهاونه فى كبح جماح النازية والفاشستية قبل أن يستفحل أمرهما . فبرغم إدراكه لدعوتيهما الاشتراكية والفاشية فقد أغمض العين عن زلاتهما فى حقه وحق مبادئه ، حتى كبرا واستعصى على الغرب وقفهما عند حدهما ، منذ أن وجد فيهما سياجاً

طبيعياً يقف فى وجه الشيوعية . على أن وزير خارجية إيطاليا ( شيانو ) زوج ابنة موسولينى ، كان قاصراً فى قدرته على تصوره للسياسة الخارجية لإيطاليا ككل متكامل ومتماسك فى مجموعه . فقد أبدى ذات مرة ملحوظة وشت بما كانت عليه إيطاليا آنذاك من موقف مزعزع ، وذلك عندما ذكر أن إحدى النتائج المرغوب فى التوصل إليها من وراء قيام نفوذ إيطالى فى شبه جزيرة البلقان ، هو تحقيق توازن من شأنه أن يقف فى وجه النفوذ الألمانى فى تلك المنطقة . على أن هذا الرأى لم يلبث أن ذاب فى حرارة أطماع زعماء الفاشستية ، كما تملكهم الخوف من نمو ألمانيا المخيف الذى قد يقضى عليها هى ذاتها إذا لم تواكبه فى مسيرته واندفاعه ، وبهذا وجدت إيطاليا نفسها فى معسكر هتلر ، رضى هتلر بذلك أو أبى ، فقد كان هذا ما انتهت إليه ، وما رسمه لها قدرها .

* * *

صرفت همى إلى المسائل الاقتصادية التى هى من صميم عمل القنصليات مكتفياً فى الناحية السياسية بمراقبة سير الأمور التى كانت البوادر والنذر تقطع بأن التلاحم بين المعسكرين المتصارعين ، وشيك الوقوع . وكنت إذا كتبت للوزارة شيئاً من ذلك ، مع يقينى بأن ما أكتبه إنما هو تعبير وانعكاس لمشاعر رجال الأعمال والممولين للمصانع فى ميلانو وما يرونه فى سياسة إيطاليا المندفعة نحو الدمار أقول إن مثل هذه الكتابة لم يكن يرتاح إليها سفيرنا فى روما ، معقباً بأن اختصاصى لايتجاوز المسائل الاقتصادية والقنصلية ، برغم قربى من مواطن الأحداث فى ميلانو ورحت أوالى الوزارة بتقارير اقتصادية دورية . وكنت أهتم بمراقبة عدم بيع إيطاليا لأقطاننا المصرية لطرف ثالث ، وبخاصة إذا كان هذا الطرف ألمانيا أو اليابان . كما كنت أراقب الميزان التجارى بين البلدين وأكتب ملاحظاتى من واقع

ما تنشره الجهات الرسمية الإيطالية عن تجارتها الخارجية . ولم يكن فى بعثاتنا الدبلوماسية فى ذلك الحين ملاحق تجاريون ، فكانت القنصليات هى التى تقوم بأعمالهم آنذاك .

وكنت أحضر فى شهر إبريل من كل عام سوق ميلانو الدولى نائباً عن الحكومة المصرية ، للكتابة عن انطباعاتى وموافاة الوزارة بتقرير شامل عما أشاهده من تطور للصناعة والزراعة ومختلف المرافق الهامة .

وذات صباح تلقيت دعوة من مكتبة ( الأمبروزيانا ) التى تعد بين أولى المكتبات الوثائقية والمخطوطية فى العالم ، وقد تكون ثانى المكتبات فيما تضمه من كنوز العلم والمعرفة من كتب ومخطوطات ووثائق وخرائط ، أقول تلقيت دعوة المكتبة لمقابلة مديرها ، الذى يراعى دائماً فى اختياره أن يكون كاردينالا من المشهود لهم بسعة العلم والمعرفة وتعدد اللغات ، وكلهم على هذا المستوى ، مع تفاوت نسبى — للمباحثة فى مشروع تقوم به المكتبة تخليداً للفكر الإنسانى لمختلف الشعوب .

وفى حديثى مع نيافة الكاردينال ، الذى رشح فيما بعد للكرسى البابوى — وقد كان البابا بيو الثانى عشر ( ماركيزياتشيللى ) أحد الكاردينالات الذين تولوا رياسة هذه المكتبة — علمت أن الرأى استقر على إنشاء حديقة واسعة تقع وراء المكتبة ومبانيها ، وأن النية متجهة لإقامة تماثيل حول الحديقة لكبار المفكرين فى مختلف شعوب العالم ، الذين يمكن أن يمثلوا شعوبهم بدون اختلاف على أسمائهم . وضرب لى مثلا على ذلك ، بإشارته إلى أن اليونان فى استطاعتها أن تتقدم باسم سقراط أو أفلاطون ، وإنجلترا باسم فرانسيس بايكون أو تشارلز ديكنز ، وألمانيا باسم جيته أو هيجل ، وفرنسا باسم فولتير أو جان جاك روسو ، وأسبانيا باسم سرفانتيس ، وروسيا باسم

تورجنيف وتولستوى وديستويفسكى ، وإيطاليا تتقدم باسم شاعرها ( دانتى ) .

وبعد الحديث صحبنى إلى ممرات وقاعات وحجرات المكتبة لمشاهدة تحفها التى تجل عن الوصف ، والتى تعتبر سجلا لثمرات العقول على مر الدهور والسنين ، ونبراساً يهتدى به الذين ينشدون الوثوق مما يكتبون ويسطرون .

وقد وعدته بالكتابة للجهات المختصة بالقاهرة ، وموافاته بردها عند وصوله . قمت من فورى بالكتابة إلى الوزارة ، التى أحالت الأمر إلى وزارة المعارف ، والتى أجابت بسرعة غير معهودة ، بأن الاختيار وقع على الشاعر أبى العلاء المعرى الذى انعقد عليه الإجماع ليكون ممثلا للفكر العربى فى مختلف مراحله .

وعندما أبلغت هذا الرأى كتابة إلى نيافة الكاردينال مدير المكتبة ، طلب ملاقاتى ، فلبيت طلبه بسعادة غامرة ، لأحظى بهذا الفيض من العلم والإدراك والمعرفة العميقة . بادرنى بقوله إنه مع احترامه لرغبة مصر والدول العربية فيما تقدمت به من اقتراح إقامة تمثال لأبى العلاء المعرى ممثلا للفكر العربى ، إلا أن العالم العربى يزخر ويفيض بأسماء وشخصيات ، كان لها فى مضمار المعرفة والعلم الواسع شأن ودوى فى سمع الزمان ، وتركت على صفحات التاريخ بصمات لا تنمحى . ولا اعتراض لديه على أبى العلاء المعرى كفيلسوف وشاعر ومفكر . ولكنه ينظر إلى العالم – بسبب تشاؤمه – من زاوية واحدة ، حيث حجب عنه تشاؤمه جوانب فى الحياة لم يكن ليستطيع أن يحسها ، أو أنه إذا أدركها بحسه فإنه يحاول ألا يأبه بها ولا يحتفل لها . فقد ظل يئن طيلة ما عاش من سنين ، من عجزه عن قهر مافى نفسه من حب الدنيا ، والتماس راحة اليأس منها والسلو عنها .

وراح محدثى يتدفق بغزارة علمه فى ذكر من يستطيعون فى رأيه

أن يمثلوا الفكر العربى فى أوج رقيه وسموقه وإشراقه .

هناك الفارابى الذى عالج الفلسفة والفلك والمنطق والهندسة والرياضيات والموسيقى ووضع كتباً فى كل هذه العلوم والفنون . وهو أول من وضع القواعد لدائرة المعارف ( انسايكلو بيديا ) ثم تبعته أوربا بموسوعاتها من بعده .

وهناك ابن رشد الذى قال عنه لورد بايكون بأنه فيلسوف متعمق متمكن ، صحح كثيراً من أغلاط الفكر الإنسانى وأضاف إلى ثمرات العقول ثروة قيمة لايستغنى عنها .

وهناك ابن خلدون الذى قال عنه المؤرخ البريطانى المعاصر ( أرنولد توينبى ) « إن ابن خلدون فى — مقدمته — قد أدرك وتصور وأنشأ فلسفة التاريخ . وهو فى رأى كثير من الباحثين الأجلاء يتفوق على ميكيافيللى صاحب كتاب الأمير فى التفكير ونوع الإقناع ، وفى نظريات الأجناس وأعمار الدول وخواصها » وهو الذى قال عنه ( روبرت فلنت ) ، إنه لا العالم الكلاسيكى فى القرون القديمة ، ولا العالم المسيحى فى القرون الوسطى يستطيعان أن يقدما اسماً يضاهى فى لمعانه ابن خلدون .

لم أسعد فى حياتى بلقاء شخصية عالمة متزنة متواضعة مبرأة من الهوى ، تضاهى شخصية محدثى الجليل ، الذى ودّعنى وكأنه كان يرى من وراء الغيب ، مصير اقتراحه ، الذى قامت الحرب الثانية لتطوى مثل هذه الومضات اللامعة ، وتوسدها النسيان .

لم أتلق على كتابى للوزارة رداً ، إذ أن الاستعدادات لما كانت تنذر به الأنباء ، قد غطت على كل شىء .

كانت سحب الحرب تتجمع فى سماء أوربا . وكان المسرح معداً للعمليات الحربية . وكانت إيطاليا فى حال من القلق لايخفف منه ماتبديه ألمانيا نحوها من صداقة لتبعدها عن بريطانيا . ففى ٦ مايو عام ١٩٣٩ ،

بعد مقابلة بين شيانو وربنتروب فى ميلانو ، صدر تصريح بتوقيع المحالفة الألمانية الإيطالية . وبرغم ذلك فقد كان كل من الطرفين لايطلع الآخر على نواياه .

كنا فى هذا الجو المشحون بالتوتر نعيش يوماً بيوم . وكانت الاستعدادات الحربية لإيطاليا تؤثر على المواد المتصلة بصناعة الحرب ، وفى مقدمتها بالنسبة للمدنيين الفحم . فقد غدونا نقاسى وطأة البرد فى شتاء عام ١٩٤٠ بسبب الاقتصاد فى استعمال الفحم فى التدفئة المركزية فى المنازل والمكاتب . وكانت أوربا تعانى شتاء قارص البرد فى ذلك العام ، لم تشهد أوربا مثيلا له منذ عشرين عاماً . وكانت ميلانو تغطيها ملاءة بيضاء من الثلوج الهاطلة ليل نهار ، حتى بلغت درجة البرودة عشرين تحت الصفر وكانت ألمانيا تمد إيطاليا بالفحم عن طريق ممر برونر بعد أن ضرب الحلفاء حصاراً بحرياً على مايصل إيطاليا من مواد تتعلق بصناعة الحرب . وكانت بوارج الحلفاء تسيطر على الملاحة فى البحر الأبيض المتوسط سيطرة كاملة . وكانت إنجلترا وفرنسا وبلجيكا قد انقطعت منذ مدة عن بيع الفحم لإيطاليا التى كانت تعتبرها الطرف الآخر من محرر برلين — روما .

وحل شهر رمضان من هذا العام فى الشتاء ولم أستطع أن أصوم هذا الشهر الكريم . إلا أن زوجتى أصرت على الصيام .

وكنت أتناول فى الصباح طعام الإفطار وحدى . ثم أتناول الغذاء وحدى . ثم تتناول زوجتى عند الغروب إفطارها وحدها . ثم أتناول أنا طعام العشاء وحدى . ثم تتناول هى طعام السحور وحدها .

وكانت الخادمة الإيطالية تلاحظ هذا الأمر وهى ذاهلة . ويوماً بعد يوم ، عسى أن تعود الحالة إلى مجراها ، كانت تنتظر على مضض بدون جدوى . وذات يوم ، وقد أقلقها ما نحن فيه ، حتى حديثنا باللغة العربية كانت تظنه عراكاً مهذباً ، ذهبت إلى السيدة زوجتى وقالت لها أراك غاضبة

من السنيور ، ومن أجل ذلك لاتتناولان الطعام معاً . وأنا لا أود لكما إلا الخير . وكلاكما حميد الخصال لاشدة فيه ولا اندفاع . أرجوك يا سيدتى أن تراجعي نفسك ، فالسنيور يبدو رجلا طيباً ووديعاً. ولما رأتنا نضحك من حديثها ونياتها الطيبة ، انزاح عن صدرها هم كبير ، وابتسمت راضية .

* * *

كل هذه النذر حملت وزارة خارجيتنا على أن تطلب إلى المتزوجين من أعضاء بعثاتها الدبلوماسية فى روما وخمس قنصليات فى مدن إيطالية ، إرسال زوجاتهم إلى القاهرة إلى أن تنجلى الأمور . وقمنا بالفعل بإرسال زوجاتنا إلى القاهرة وعلى ربان المركب الجديد بهذا الشرف ألا يتركها حتى يعمل على إنقاذ كل ركابها ، ثم يترلى بعد ذلك أمر نفسه ، نجاة أو غرقاً .

ومضت فترة والحالة تتأرجح بين حرب لا شك فيها ، وسلام مشكوك فى أمره . وظلت إيطاليا لا تدرك من تصرفات حليفتها شيئاً . وقد آثرت لذلك أن تتمهل وألا تندفع فى شطط ، وأن تتحرك فى عناية وحذر ، فلا منجاة لها من دخول الحرب ، ولكن الحكمة فى أن تدخلها وهى تلعب على الحصان الرابح .

أما ألمانيا فإنها بعد أن عقدت ميثاقاً مع موسكو فى ٢٩ أغسطس ١٩٣٩ ، وأمنت ظهرها ، قامت فى أول سبتمبر بالهجوم على بولونيا واجتاحتها فى أيام معدودة . وفى ٤ سبتمبر دخل الحلفاء الحرب ، التزاماً بمعاهدة بين فرنسا وبولونيا ، ولو قف الهجوم الألمانى ، إذا كان فى الإمكان وقف النار عن سريانها فى الهشيم .

وظلت إيطاليا على موقفها من الانتظار . ولم تعلن الحرب ، كما لم تعلن الحياد . ولم يعد ما يوجب بقاء زوجاتنا بمصر . وقد عدن فى ٤ نوفمبر عام ١٩٣٩ ، بعد أن اطمأن المسئولون فى مصر على أن إيطاليا قد لا تدخل الحرب ، ما دامت البداية كما رأت من انهيار جبهة الحلفاء . وليكن موقفها المؤيد بدون اشتراك فى العمليات الحربية . وكان هذا الموقف ، ترتاح إليه

ألمانيا ، حتى لا تحمل عبء الدفاع عن إيطاليا .

وكان هذا الموقف من إيطاليا ، يحظى بتأييد رجال المال والأعمال وأصحاب المصانع والشركات ، وطوائف عديدة من الشعب ، من غير الفاشست ، الذين يدركون مدى تعرض إيطاليا بدخولها الحرب ، للنكبات والأهوال . وبدأ الرأى العام ينقسم على نفسه ، ولولا خشية الحكم الفاشستى العاتى ، لما دخلت إيطاليا الحرب فيما بعد .

على أن الدوتشى الذى رأى انتصارات حليفته ألمانيا تجرى كما تجرى السكين فى الزبد ، خشى أن يفوته القطار ، وتفوته مغانم الحرب عند الانتصار الوشيك . وكان الفرقاء الثلاثة ، ألمانيا وإيطاليا واليابان قد وزعوا مقدماً أسلاب الحرب فيما بينهم . وقد رؤى أن تترك أوربا لألمانيا وأن تحتل إيطاليا الشمال الأفريقى كله ، بالإضافة إلى إمبراطوريتها التى ستتسع باحتلال مستعمرات فرنسا وإنجلترا فى إفريقيا . أما اليابان فإنها كانت ترى — وإن لم يكن ذلك من رأى ألمانيا — أنها الوريثة الطبيعية لأملاك بريطانيا فى الشرق الأقصى . وكان هذا التصور والأمل المنشود لليابان ، عند الانتصار ، هو الوازع والدافع الحقيقى لدخول الولايات المتحدة الحرب عام ١٩٤٢ الذى جاء حادث بيرل هاربور ذريعة مواتية .

فى شهر يونيه من عام ١٩٤٠ ، كانت جيوش الرايش الثالث قد اجتاحت أوربا ، فيما عدا الجزر البريطانية . ولم يكن بد من أن يدخل موسولينى الحرب ، رضى هتلر بذلك أو أبى . وكانت اليونان هى هدفه ، وقد ظنها لقمة سائغة ، ولكنها قاومت مقاومة الأبطال إلى أن دخلتها جيوش هتلر .

وعلى ذلك قرر الدوتشى الدخول فى الحرب ، وأعلن ذلك بعد خطاب حماسى طويل يوم ١٠ يونية عام ١٩٤٠ . وكانت فرنسا قد

سلمت يوم ١٨ يونية وأعلنت باريس مدينة مفتوحة . وكانت مصر لارتباطها بمعاهدة عام ١٩٣٦ مع بريطانيا قد انضمت إلى الحلفاء برغم أنها لا ناقة لها فى الحرب ولا جمل ، وقطعت علاقاتها الدبلوماسية بدول المحور .

عشنا أسبوعاً تحت وابل قنابل الحلفاء على ميلانو لتدمير مصانعها ولم ينس الإيطاليون المرح حتى فى هذه الشدة البالغة . وكنا إذا نزلنا إلى مخابئ العمارة التى نسكن إحدى شققها ، رأينا بعض اللاجئين الماجنين يصحب معه آلة موسيقية للترفيه عن الخائفين .

ولقد سارعت محلات الأزياء لبيع أزياء جميلة خاصة بالمخابئ للسيدات والأولاد والبنات ، وحقائب صغيرة للضروريات خلال الغارات .

* * *

كانت التعليمات التى تلقيتها من سفارتنا فى روما فى الشهر الأخير من هذه الأحداث ، بعد أن تبلورت الأمور ووضحت نيات إيطاليا ، تقضى بالتنبيه على المصريين المقيمين بدائرة عمل القنصلية للتجمع يوم السفر الذى حددت موعده للعودة بهم من روما إلى مصر بطريق قطار إكسبريس الشرق ، وأخذ تعهد على من لا يوافق على السفر بالبقاء على مسئوليته . كذلك كانت تقضى التعليمات بتسليم محتويات القنصلية العامة ، ومتعلقاتنا إلى قنصل أمريكا العام فى ميلانو ، إذ أن بلاده لم تكن قد دخلت الحرب حتى هذا التاريخ . وقد قام هو بتسليمها إلى قنصل سويسرا العام ، عندما دخلت أمريكا الحرب عام ١٩٤٢ . وقد علمنا بعد نهاية الحرب ، أن قنصل سويسرا ، بعد أن استلم هذه المتعلقات نقلها إلى مخازن خارج المدينة ، كانت قريبة من مصانع سيارات ( إيزوتا فراسكينى ) التى كانت تقوم بصنع محركات الطائرات الحربية ، والتى كانت هدفاً لطائرات الحلفاء . وقد احترقت كل

متعلقات القنصلية ومتعلقاتنا عن آخرها . وضاع لى فى هذا الحريق أثاث ثلاث حجرات ، ومدخل ومطبخ بأدواته ، وكل ملابس زوجتى وملابسى ، فيما عدا ملء حقيبة واحدة لكل منا ، تنفيذاً لتعليمات السفارة ، لكثرة عدد الراحلين منا وضيق الأماكن فى القطار .

وعندما انتهت الحرب العالمية الثانية تألفت لجنة مصرية لمباحثة المسئولين فى إيطاليا عن تعويضنا عن خسائرنا فى الحرب ، وكان ذلك ، عام ١٩٥٣ ، حيث تم هذا التعويض فى صورة التعويض الشرفى الذى يطالب به المدعى فى المحكمة بما يتمثل فى قرش صاغ واحد .

لم يحضر معى من المصريين المقيمين فى دائرة عمل القنصلية أحد فقمت مع أعضاء القنصلية وأسرنا بالسفر إلى روما ، حيث اجتمع بها طبقاً لتعليمات السفارة ، كل بعثاتنا القنصلية فى إيطاليا التى كانت تضم أعضاء قنصلياتنا فى روما وتريستا وميلانو وجنوا ونابولى ، بالإضافة إلى أعضاء سفارتنا فى روما ، وطالبين اثنين كانا يدرسان الموسيقى فى روما .

بقينا فى روما أسبوعين لحين إجراء الترتيبات الخاصة بالسفر وبالإذن بالرحلة وبتزويدنا بتراخيص السفر وتوصيات للحدود والجمارك .

برغم كل ظلام الحرب وقتامة ظلها كانت روما الخالدة تعلو على كل الفزع الذى ران على النفوس . كانت تزدان بأقدم وأثمن آثارها ، وتتزين بتاريخها الباقى برغم معاول الزمن ، وتمنحنا فى تلك الأيام ابتسامتها الحلوة التى كانت تستمدها من الأمان الذى يظللها به بابا روما ، وقداستها لدى المسيحيين من المتصارعين ، إن كان للحرب دين .

تفرقنا بين فنادق وبنسيونات روما ، لحين إخطارنا بيوم الرحيل ، وكان البنسيون الذى نزلنا به يقع فى شارع ( فيا فينيتو ) الذى توجد به أوتيل اكسلسيور وفلورا والسفارة الأمريكية ومقهى الدونيه وكلها من معالم روما . وكان هذا الشارع يصب فى حديقة ( فيلا بورجيزى ) التى تضم متحف بورجيزى الذى يحتوى على أعمال لمثال روما الخالد ( برنينى )

١٦٦٧ وهو صاحب التمثالين الفاتنين على جسر سانت أنجلو ونافورته في الميدان المسمى باسمه . وفى هذه الحديقة أقام الإيطاليون الأوفياء للفنون وأربابها من كل جنس ولون ، منذ عهد قريب ، تمثالا جميلاً فاتناً لشاعر العرب فى قديم عهدهم وحديثه ، أمير الشعراء أحمد شوقى ، حيث حل تمثال شاعر الإبداع فى أبدع مكان .

بين مفاتن روما ، مضينا ننهل ونعب ، فلاتدرى نفس ماذا تكسب غداً .

وكنا نمرح مرح العصافير التى تغرد برغم ما يترقبها من خطر . وكان موسم الكريز الذى يشتهر به جنوب إيطاليا ، مثمراً ثمراً فاض حتى غمر الأسواق والبيوت والمنافذ والنوافذ . وكانوا يقدمون لنا الكريز فى البنسيون مع الإفطار صباحاً ومع الغداء ظهراً، ومع الشاى عصراً ، ومع العشاء مساء ، كأنه فرض لا نافلة . وذات صباح طلبت من خادمة الحجرة ، ماء ساخناً للحلاقة ثم أردفت مستدركا ، . . . . بدون كريز . . . . .

غادرنا روما فى قطار إكسبريس الشرق ، الذى ألحقوا به عربة خاصة وضعتها الحكومة الإيطالية تحت تصرف بعثاتنا . وقد وافق رحيلنا يوم ٢٨ يونية عام ١٩٤٠ . وقد ودعنا مسئول كبير من وزارة الخارجية يحمل لقب أمير .

وكان مستشار سفارتنا فى روما ، ( السفير فيما بعد ) ، الأستاذ حسن مظهر هو الذى رأس بعثة العودة بعد قطع العلاقات بين مصر وإيطاليا ، غداة إعلان الحرب من الحلفاء . أما السفير فقد آثر البقاء فى سويسرا حتى نهاية الحرب .

وكنت أنا وزميل آخر فى الرحلة ، نجتمع بالمستشار الأديب الذى يعد من خيرة من يكتب الفرنسية بأسلوب متميز شهد به كتاب هذه اللغة ، أقول كنا نجتمع به ليلاً ، بعد أن يكون قد أشرف على راحة أعضاء البعثات ، فى مقصورته بالقطار ، التى اتخذ منها مقراً لقيادته

وأركان حربه . وكان يمثل القائد البارع فى تحمل كل المسئولية ، مع إشراك كبار زملائه فى طرف منها . فقد قام بالعدل والقسطاط ، بتوزيع هذا القدر من المسئولية على كبار العائدين منا ، بحيث يتولى البعض شئون الجوازات ، والبعض شئون الحقائب ، والبعض تزويد أعضاء الرحلة بما يحتاجون إليه من إدارة القطار ، والبعض لشئون الحدود والجمارك ، إذ أن القطار كان سيمر من حدود خمس دول . وهكذا كانت الرحلة تمضى فوق بساط من حرير بفضل دقة القيادة ، وفى مرح يصاحب الشباب الغرير فى العمر النضير .

وعندما كنا نخلو ثلاثتنا ، قائد الرحلة وزميلى وأنا ، فى مقصورة المستشار الأديب ، كنا نستمع تارة إلى موسيقى غربية ناعمة من جراما فون لم يكن يفارقه ، وتارة نستمع إلى إنشاده لقصائد من شعر لامارتين ، وألفريد دى موسيه ، وبودلير . وأشهد أن ما كنت أسمعه من إنشاد المستشار الأديب . السفير اللاحق حسن مظهر ، كان يطربنى كما لو كان شدواً من أرخم الأصوات . وذات ليلة ، ونحن فى هذه الصومعة الفنية ، قلت للقائد الدبلوماسى : إن الأوان قد حان ليكون لوزارة الخارجية نادٍ ، يلم شمل أعضاء السلك الدبلوماسى المقيمين والمارين بالقاهرة ، كما يتيح للطرفين دعوة من يعرفونهم من الدبلوماسيين الأجانب ، المقيمين أو المارين . وقد استحسن الفكرة وآلى على نفسه أن يحملها إلى المسئولين بموجب مذكرة كلفنى بتحريرها .

وعندما سألته عن مصير الاقتراح ، بعد وصولنا بشهور ، ابتسم وهو يقول فى سخرية محببة : لقد قال لى محدثى الكبير الذى عرضت عليه الاقتراح : « عايزين نادى يا أستاذ ، إن فى تفرقكم رحمة . . . . »

وها هو نادى التحرير ، بعد أن رؤى تخصيصه لهذا الغرض ، يسد فراغاً كان لابد من ملئه ، ويؤدى خدمات لابد من أن تضطلع بها الدوائر

المهيمنة على المهنة الدبلوماسية ، ولقد نجح فى رسالته نجاحًا واضحًا للعيان .

من أعجب عجائب القدر وتصاريفه فى هذه الرحلة ، أننا مررنا بخمس عواصم لم أكن أعلم أنى سأعمل بها بعد فترة من الزمان ، هى على الترتيب التالى :

بيروت — إستانبول — أنقرة — روما — صوفيا . وسيأتى الحديث عنها تفصيلا فى موضعها من هذا الكتاب .

صادفنى فى إستانبول ، حادث طريف اهتز له كيانى . كنت أتحدث مع قنصلنا العام فى إستانبول ، الأديب الكبير والقاضى السابق الأستاذ حافظ عامر ، عن مغنية تركية كنت أتابع أغانيها من خلال أسطواناتها أيام أن كنت أعمل فى اليونان . وكنت من عشاق صوتها الذى يستنزل رقته من رقة السماء ورحمتها ، ويبعث فى النفوس الوالهة الأسوانة ، برد الراحة والسلوى . ولما سألنى عن اسمها ، وذكرت له أنه ، صفية هانم ، رأيته يتهلل بشراً وهو يقول : سأقدمك إليها فى غد . ولما علم أنى لم أرها أو أرى صورة لها ، ابتسم ابتسامة راضية . وفى حديثنا عنها قلت له ، إننى لا أعرف حرفًا واحداً من اللغة التركية ، ولكنى عندما استمعت إلى إسطوانة لها بعنوان : ( فريات ) ، كانت تقطر أسى ، قلت إن اللفظة لابد أن تكون مشتقة من كلمة : ( افتراء ) . وتصورت خلافًا دب بين حبيبين ، وانتهى إلى قطيعة ، كانت الحبيبة هى التى عانت عواقبها وراحت تحكى بغناء شجى وصوت رخيم ، قصتها ومشاعرها وأحاسيسها ، التى أحسستها فى سمعى نابضة بكلام قمت من فورى بترجمته ، بدون معرفة بما كانت تقول ، إلى شعر يقول :

| | | |
|---|---|---|
| ياظالمى عمداً | أمعنت فى هجرى | تشقى به ألمَكْ |
| وشغلتنى وجداً | وتركتنى أشقى | بجزاء من ظلَمَكْ |
| سوف تذكرنى | يوم تلقى الصد من غيرى | |
| وترى شجنى | وتلاقى المثل من هجرى | |

لا أرانى الله أرعى عهدكم ... أو أرانى الله منكم نَصَبَا
لم يعد لى ما أعانى شوقه ... كان لى قلبٌ هوى والتهبا

* * *

إنما الحب لظًى نَصْلى به ... لا نَمَلْ
فإذا ما مسه الغدرُ خبا

كيف أخشى اليوم من تشبيبه ... فى الأمَلْ
فاضت الكأس وصبرى انسكبا

لا أبالى ... إن جرت بعضُ شئونى
فالليالى ... مرُّها يطوى شجونى

* * *

بعد ظهر اليوم التالى قصدت دار القنصل العام الذى صحبنى كوعده إلى منزل السيدة صفية خانوم . ولا أنكر أننى كنت فى الطريق واجماً ، كأننى أذهب للمثول بين يدى القضاء ، للحكم لى أو علىَّ . وكان القنصل العام يسرّى عنى حتى أفيق من خيالات يعلم بحسه الفنى ، كيف أحاطت بى ، وملكت على مسالك القول والحديث . سألقى التى ملأت روحى شجواً وطرباً بذلك الصوت الساحر الحنون ، الذى يصعد طاهراً كأنه الدعاء والشكر لله . سألقى التى كانت تذوب وجداً وترق حتى لايكاد يدانيها فى الرقة شبيه . ولم يكن يدور بخلدى نحوها إلا كل عفة ، هى باعثتها . إنها زهرة قد تذبل إن مستها حتى اليد الحانية . وكأنما كان حالى قد دلف إلى ما وصفه الشاعر العربى عندما قال :

وإنى لأستحييك أن تعرض المنى ... ببالى أو أن تعرضى فى المنى ليا

أفقت على نداء القنصل الصديق ، لينبهنى إلى أننا وصلنا . ولجنا باب العمارة ، ثم وقفنا أمام باب شقة . وما إن ضغط الصديق على جرس الباب حتى انشق وظهرت وراءه سيدة سمراء رقيقة ، انحنت وهى تصافحنا بأدب جم ، مشهود للأتراك . وتقدمتنا إلى صالون الدار . قلت فى بالى ،

إذا كانت هذه هي الوصيفة ، فكيف بسيدة الدار . ثم ما لبثت السيدة نفسها بعد غيبة قصيرة داخل الدار ، أن عادت ، حيث قدمني إليها الصديق الأديب فانجابت عن عيني غشاوة ، وحل محلها يقين مصحوب باحترام وإجلال وتقدير ، لهذه السيدة التي عشقت صوتها ، وأنا لا أدرك حرفاً مما تشدو .

إنها كانت من المولدات . من أب تركي وأم أفريقية ، لا تدرى هي نفسها من أى بلد أفريقى تنحدر .

ودار الحديث بيننا فى خليط من الفرنسية والتركية التى يعرف القنصل العام طرفاً منها كان يكفى لمثل هذا الموقف . وقد أبلغتها قصتى ، فهشت السيدة ، حتى لأشهد بأنى ما رأيت بعد فرحة الفجر شيئاً فى مثل فرحتها . فها هو غريب لا يعرف ماذا تغنى ، ويطرب لما تشدو ويطير به أنساً وطرباً . ومن بلد غريب إلى بلد غريب ويسعى ليلاقيها على أكرم سعى وأطهر مقصد . وهو يقتنى أغانيها ، ثم يعمد إلى ترجمة ما يشجيه من غنائها وموسيقاها ، إن هذا فوق ما كانت تطمع ، وأجل من كل ما رأته حولها من تقدير وإعجاب .

كنت أراها بعين إعجابى وضاءة تتلألأ ، وكانت تملأ إنسان عينى حتى لا يبين لى فى الحجرة سواها . لم يشأ زميلى فى هذه الرحلة الروحية أن يوقظنى مما أنا فيه من نشوة ، حتى التقت عينى بعينه ، وعلمت ساعتها أن هناك ثالثاً معنا يترقب .

لقد دعتنا إلى سماعها تلك الليلة ، فى أحد الملاهى الراقية ، التى تنتثر على ضفاف البوسفور . وانتهت الزيارة ، وغادرنا دارها الأنيقة الرفيعة الذوق ، التى تحس لمسة الفن فى كل ركن من أركانها .

لقد كان اللقاء صفحة من صفحات كتاب حياتى ، أعود لأتصفحها بين الحين والحين ، وهى لا تبلى ولا يخفت لها ضوء أو يذبل لها ورق ، أو يعتريها على طول المدى نسيان .

* * *

غادرنا إستانبول بعد إقامة سعيدة مدى عشرة أيام ، كانت كافية لنجلو محاسن كانت تحرص على أن تسدل عليها ، إلى حين ، نقاباً شفافاً ، لا تلبث أن ترفعه فى حياء الغادة الشرقية العذراء بعيداً عن أعين الغرباء ، وبعد أن تطمئن إلى المقاصد والنوايا ، ممن ينظر بإعجاب لا بانتهاب .

مر بنا القطار على العاصمة أنقرة ليلا ، ثم واصل سيره إلى حلب ومنها إلى طرابلس التى ينتهى عندها سير هذا الإكسبريس المتئد الرزين . ومن طرابلس ركبنا سيارات إلى بيروت حيث توقفنا فترة ، غادرناها بعدها إلى حيفا وفى حيفا أمضينا ساعات الليل فى أوتيل غادرناه فى الصباح الباكر إلى محطة السكة الحديدية لنستقل القطار الذاهب إلى القنطرة ومنها إلى القاهرة التى بلغناها مغرباً ، بعد غيبة سنوات . لقد كانت أوامر الإظلام قد سرت ، ولكننا كنا نرى بقلوبنا المشتاقة ما تعجز العين عن رؤيته فى الظلام .

لا أرانى الله وجهك مظلماً يا بلدى الحبيب : فأنت فى حرب لا ناقة لك فيها ولا جمل ، ولكن الحيطة أجدى والحذر واجب الاتباع .

كانت أزمة المساكن عندما وصلنا فى يولية من عام ١٩٤٠ على أشدها . وكنا نعرف عائلة تمتلك ذهبية مفروشة ، ترسو على شاطئ الجزيرة بجوار كبرى الجلاء . وقد لبت العائلة رجاءنا واستأجرنا الذهبية بعد أيام من الإقامة فى فندق ، كنت أنزل به كلما هبطت مصر من سفر .

فرحت بسكنى ( الذهبية ) التى سوف تيتح لى رؤية النيل من أى اتجاه يرنو إليه بصرى . وكنت فى حاجة إلى هذا السكون الغامر الذى يعم هذا الرفرف الأخضر النضير وها هو النيل الذى أنا عاشقه يعزف فى جريانه نشيد الوجود ويضم بين أعطافه أسرار الخلود . لقد كنت أحادثه كلما خلوت إليه ، لأبثه ما لا أقوله لسواه . ومن عجائب

الفوارق بين العالم والفنان ، أن العالم ينظر إلى الإنسان أو الكائن الحى ليحوله إلى صوديوم وفوسفور وكالسيوم وحديد وجلوكوز إلى آخر ما يضمه الكائن الحى من مواد وجزئيات ، فى حين أن الفنان ، شاعراً كان أو كاتباً أو مثالا ينظر إلى الجماد ليحوله إلى كائن حى يتحدث إليه ، ويبثه نجواه ، ويستلهمه ، ويرده بخلقه وتصوره إلى دنيا الأحياء وكأنه يدب بينهم وينبض بالحياة والحس والشعور .

وكما كانت أزمة المساكن على أشدها ، كانت أزمة المكاتب فى وزارة الخارجية على أشدها هى الأخرى . فقد عاد إليها أعضاء سفاراتنا وقنصلياتنا فى إيطاليا وألمانيا والنمسا ثم اليابان . وامتلأت الوزارة بالعائدين . ولم يكن بد من أن يبعثوا بنا إلى وزارات ومصالح اقتضت إنشاءها ظروف الحرب ، مثل وزارة التموين والوقاية المدنية وإدارات جديدة لرقابة الأنباء العسكرية وما له علاقة بالحرب أو بما يهدد الأمن . وكذلك إدارات لرقابة المجلات والمسارح والسينمات بوزارة الداخلية . وكان نصيبى رقابة الصحف والمجلات ومنها انتقلت إلى رقابة السينما والمسرح .

وكان العمل فيما قدر لى أن قوم به ، مكتبياً وروتينياً فى ظاهره ، ولكنه يتعلق بأمور ذات مسئولية كبرى . وكانت إجازة خبر عن تغيير مواعيد قطار المناشى وأبوقرقاص ، وخاصة إذا كان إلى جوار هذه الأماكن معسكرات ، يعرّض الرقيب الذى أجاز الخبر ، لأوخم العواقب .

وكانت تعليمات الرقابة تتعارض كثيراً مع ما تود الصحافة أن تنشره ببراءة فى ظاهره وبشقاوة فى آثاره . وكان يؤسفنى — وكنت ذات يوم للصحافة هاوياً وبالصحافة هائماً — أن أضطر إلى حذف ما يريدون تفويته . . .

بعد ثلاثة أعوام من إقامتى فى مصر ، صدر قرار بنقلى نائباً أول للقنصل العام فى بيروت ، مع منحى أسبوعاً للاستعداد .

هأنذا أعود للعمل فى إحدى العواصم التى مررنا بها فى قطار إكسبريس

الشرق المتئد الرزين ، وإن لم تكن على طريقه ، ولكنه أوصلنى إليها بكل شهامة عند عودتنا من إيطاليا بعد قيام الحرب .

وليس أحب إلى من لبنان ، التى سبق أن اصطفت بها عام ١٩٢٧ وتعلقت بما حوته من طيب زهر وسحر وماء وثمر . ولكن عام ١٩٢٧ شيء وعام ١٩٤٣ شيء آخر . وفرق بين سلم وحرب وبين رخص وغلاء . إننا فى حرب . وفى الحرب كلفة فى الرزق ورخص فى الأرواح .

وبرغم كل هذا التوجس ، رأيتنى أردد من شعر أمير الشعراء قوله :

لبنان والخلد اختراع الله لم ... يوسم بأزين منهما ملكوتُه

هو ذروة فى الحسن غير مرومة ... وذرا البراعة والحجى بيروته

## الفصل الخامس

### فى لبنان :

إن العثور على الخل الوفى ، والكبريت الأحمر ، ولبن العصفور ، أيسر سبيلا من العثور على شقة خالية أو مفروشة فى بيروت فى عام ١٩٤٣ وما تلاه . فإذا كانت مفروشة تضاعف الجهد أو تعذر الفوز بالمطلوب .

لم يكن أمامى فى هذا الأمر من حل وسط . وكان على أن أسافر وحدى كطليعة من طلائع الجيوش للاستكشاف والبحث عن مسكن ، ثم دعوة الأسرة للحاق بى .

قضيت الليل بالقطار . ومن قنطرة غرب إلى قنطرة شرق إلى الساحل . ومررنا بالعريش ورفح والمجدل ، حتى هبطت حيفا ، ميناء فلسطين الكبير ، الذى يحتضنه جبل الكرمل . وكانت لنا فى حيفا نيابة قنصلية ، تربطنى برئيسها وزملائه صداقة وزمالة ، رأيت أن أقصدها ليدبروا لى سيارة تنقلنى إلى بيروت . وبعد ساعات معدودة ، غادرت حيفا بالسيارة فى طريقى إلى بيروت التى بلغتها بعد ثلاث أو أربع ساعات ،

أمضيت الليل فى أوتيل ببيروت ، يملك ناصية البحر من كل الجوانب . وفى الصباح يممت وجهى شطر قنصليتنا العامة ، التى كانت تستعد آنذاك لتصبح مفوضية ، بعد عملية سياسية ، هى استقلال لبنان الذى كان تحت الانتداب ، حتى يمكن تبادل التمثيل معه على مستوى مفوضية أو سفارة .

ومن عجائب القدر ، أن تلف الأيام ، وتمضى سبع سنوات لألتقى من جديد فى العمل مع القنصل العام الصديق ، الذى سبق أن عملت معه فى فلسطين ، وحضرنا معاً أعنف أيام ثورتها الكبرى عام ١٩٣٦ . فهل اجتماعنا سيؤذن باحتشاد الأحداث لنقف من جديد على مسرحها لنؤدى دورنا ؟ علم ذلك عند علام الغيوب .

احتفل بوصولى الصديق القنصل العام ( السفير فيما بعد ) الأستاذ الكبير أحمد رمزى ، احتفال القائد بأحد أركان حربه الذى كان قد انتقل إلى لواء آخر ، ثم عاد إلى لوائه .

وكانت معلوماتى عن لبنان ، تضم أشتاتاً مما كان ينشر فى صحف مصر ومجلاتها عن لبنان ، والقضايا العربية بصورة مبتسرة لا تنقع غلة الصادى .

وكنت أستكمل ما ينقصنى من المعارف عن لبنان وما يحيط به من مطامع أجنبية من صديق لبنانى أديب ، مصرى المولد ، كان يشتغل بالصحافة وبالأدب ، وبفنون الموسيقى والمسرح . وكان يطلعنى على ما يرد إليه من صحف ومجلات لبنانية ، وقفت منها على صورة مهتزة ، لاختلاف مذاهب كتاب تلك الصحف وآرائهم السياسية ودعاواهم فيما يكتبون .

ومن جلسات مع الصديق القنصل العام ، بعد وصولى ، تبينت لى الصورة بأوضاعها وأبعادها وتشابك ظلالها وألوانها . وأضاء لى الصديق جوانب من سياسة لبنان ، لم أكن أتصورها على تلك الصورة من التداخل والتطاحن وتضارب المطامع والمطامح حتى بين رفقاء السلاح .

انغمست بكليتى فى البحث عن شقة مفروشة لأستدعى أسرتى من

مصر ، حتى أستقر وأنصرف إلى عملى الذى كان يحتاج إلى كل لحظة من وقتى لجسامته وتنوعه .

وأمضيت شهرين فى بحث متواصل ووساطات من شخصيات كبيرة ، إلى أن أتاح الله لى تحقيق أملى على يد وزير الداخلية ، الذى اكتشف أن قريبة له سوف تترك شقتها المفروشة فترة ، تنزح فيها إلى ضيعة لها فى الجبل ، لتخلو إلى أحزانها بعد وفاة ابنتها الوحيدة . وقد تدخل مشكوراً فى هذا الأمر ، بصفة ودية بحكم القرابة ، وبصفة رسمية بوصفه وزيراً للداخلية من حقه إصدار الأمر للمحافظ للاستيلاء على بعض شقق لظروف خاصة . وانتهى مسعاه بالنجاح ، وزف إلى البشرى . وتركت الأوتيل إلى المنزل لأبدأ عهداً من الاستقرار .

كانت السحب تحتشد فى سماء لبنان . وكانت السحب سياسية من ذات اللون القاتم . ولعلى أجتزئ برءوس المسائل فى وصف المقدمات ، وما أدت إليه من نتائج ، فى الفترة التى تقع بين نهاية أكتوبر عام ١٩٤٣ ونهاية نوفمبر من العام نفسه . ذلك أن الصديق القنصل العام ، الذى عايش هذه الظروف ، ولعب دوراً وطنيا عربيًّا قوميًّا لاينكره عليه إلا كل جاحد أو حاقد ، هو الأجدر بكتابة تاريخ هذه الحقبة بتفاصيلها ومكاتباتها ، وهو بسبيل نشر كتاب يتناول حياته السياسية خلال تلك الفترة ، تحت عنوان : ( خمس سنوات فى سوريا ولبنان ) .

فى عشرة الأيام الأولى من شهر يونية عام ١٩٤١ ، دار قتال بين الجيوش الفرنسية التابعة لحكومة فيشى التى كانت تعسكر فى لبنان بموجب الانتداب ، وبين الجيوش البريطانية بقيادة الجنرال ويلسون ( قائد الجيش التاسع ) البريطانى ، حماية للجيوش الحليفة فى سوريا ولبنان ، واستتباباً للأمن فى هذه المنطقة الحساسة من الشرق الأوسط ، بعد أن أصبح انتصار الحلفاء يعتمد على صمودهم إلى أن تنقلب الكفة .

لم يطل أمد المعارك بين الجيشين المتقاتلين ، بل آثرت الجيوش

الفرنسية أن تنسحب ، بعد أن تحققت من إخفاق المحاولة . وقد حل محلها جيش فرنسا الحرة المحاربة . وكان كاترو هو وكيل جنرال ديجول فى هذه المنطقة من سوريا ولبنان ، من قبل لجنة الجزائر الفرنسية المقيمة فى الجزائر . وجرت انتخابات وتألفت وزارة لبنانية وطنية برياسة رياض الصلح بعد اعتراف بريطانيا باستقلال لبنان واعتراف فرنسا بهذا الاستقلال الذى استبقت فى يديها بعد منحه ، كل ما يذهب بحقيقة استقلال البلاد ، بدعوى حماية المصالح المشتركة ، كما أبقت على الدستور الذى كان معمولا به على عهد الانتداب .

وقد حدث أن بعثت الحكومة فى الأسبوع الأول من نوفمبر عام ١٩٤٣ إلى مجلس النواب ، بمشروع قانون بتعديل بعض نصوص الدستور التى تتعارض مع استقلال البلاد ، تضمنت المسائل التالية :

١ ـ رفع علم جديد خاص بلبنان لا علاقة له بشارات وألوان العلم الفرنسى .

٢ ـ النص فى الدستور على أن تكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية الوحيدة للبلاد .

٣ ـ إطلاق يد الحكومة فى عقدة معاهدات مع الدول التى تريد أن ترتبط معها بمعاهدة .

وكانت هذه الشئون منزعة على لبنان ولا حق له فى مزاولتها .

وبعد أن بحث مجلس النواب مشروع الحكومة ، أقره بأغلبية الأصوات ، أقام هذا القرار وأقعد ( جان هللو ) سفير فرنسا والمندوب العام المفوض لفرنسا المحاربة فى الشرق . وقد دبّر بينه وبين نفسه أمراً ، وأسره حتى يفاجئ به ، ولا يعيقه عن تنفيذه عائق .

وأراد أن يجد مسوغاً لعمله ، بإحراج الحكومة لحملها على ا لاستقالة . وقد وجد فى يوم ١١ نوفمبر ضالته . فى هذا اليوم من كل عام منذ ١٩١٨ ، تحتفل بعيد الهدنة ، دول حلفاء الحرب العالمية الأولى ، فى عواصمها وفى الدول المشمولة بانتدابها فى عرض عسكرى كبير . وقد تعمد (هللو) أن يغفل دعوة

رئيس الحكومة ، والوزراء ورئيس مجلس النواب وأعضائه الموالين للحكومة ، عند توزيع تذاكر الدعوة إلى هذا العرض قبل هذا اليوم بأيام ، مع دعوة زعماء المعارضة من السياسيين والنواب لحضور هذا الحفل العسكري الكبير .

أوجس رئيس الوزراء شراً من هذا التحدى .

فى هذه الفترة ، كان جنرال سبيرز ، رئيس البعثة البريطانية فى سوريا ولبنان ، هو الذى يشرف على مصالح الحلفاء فى المنطقة ، التى كانت تتناول مسائل اقتصادية وتجارية وثقافية وما يتعلق بالتعليم والصحة والطرق والتعمير .

وحدث أن سافر القنصل العام إلى القاهرة فى أول نوفمبر ١٩٤٣ ، فى رفقة الوفد السورى الذى أقيمت له فى قصر الزعفران بالقاهرة حفلة تكريم ، على أثر الانتهاء من مباحثاته فى وضع أسس جامعة الدول العربية ، وإقامة أساس لمباحثات تتناول موضوع الوحدة العربية الشاملة .

وفى ظهر يوم ١٠ نوفمبر ١٩٤٣ ، تلقيت دعوة من مدير مكتب جنرال سبيرز بالحضور لتناول الشاى فى تمام الساعة الرابعة مع الجنرال فى مكتبه .

وقد شخصت إلى مقر بعثة الجنرال فى الساعة المحددة ، حيث وجدت قنصل عام المملكة العراقية ، السيد تحسين قدرى بك ، إذ لم يكن لغير مصر والعراق من تمثيل قنصلى فى بيروت ودمشق .

دار الحديث حول ما يتوقع حدوثه الجنرال سبيرز ، من جراء تحدى المفوض الفرنسى ( هللو ) للحكومة الوطنية اللبنانية . وأعرب عن عدم ارتياحه لما قام به .

قال إن غداً ( ١١ نوفمبر) يوافق يوم الاحتفال بالهدنة . وإن المفوضية الفرنسية حجبت الدعوة عن الحكومة الوطنية وعن أعضائها ، وبعثت بدعوات إلى معارضيها . وخوفاً من أن تتسع رقعة الخلاف بين المفوض الفرنسى والحكومة ، بادر جنرال سبيرز بمباحثة ( هللو ) ، حيث طلب إليه مراعاة دقة الأحداث الجارية ، راجياً ألا يأتى من الأعمال ما يثير النفوس . وقد

حصل على وعد منه أعطاه وهو كاره ، بالامتثال لذلك .

ثم انتقل ، بعد أن أظهر تشككه فى هذا الوعد المقطوع ، إلى موضوع حفل الغد . وسألنا عن موقفنا منه . ولم يكن لدينا من الوقت متسع للرجوع إلى حكومتينا . وقد أبلغه قنصل العراق العام ، كما أبلغته أنا بدورى ، بعزمنا المسبق على الامتناع عن حضور الحفل المذكور ، تأييداً للحكومة الوطنية فى موقفها .

أما هو فقد قال ، إننى بوصفى ممثلاً لدولة حليفة لفرنسا ، وكذلك بلجيكا التى كان لها ممثل فى لبنان آنذاك ، فسوف أبعث بضابط كبير يمثلنى فى هذا الحفل ، وسوف يحضر ممثل بلجيكا بنفسه . وتمنى فى نهاية الجلسة أن يفى (هللو) بوعده ، حتى لا يتأزم الموقف فى مثل هذا الوقت الحساس.

وانصرفنا إلى مكاتبنا حيث حررت مذكرة بهذا اللقاء ، لأرفعها إلى الوزارة فى اليوم التالى .

عندما استيقظنا صباحاً ، هالنا صدور الصحف وعلى صدرها فى صفحاتها الأولى نبأ القبض على الشيخ الجليل بشارة الخورى رئيس الجمهورية وعلى رياض الصلح رئيس الحكومة ، كما تضمنت هذه الصحف الصباحية نبأ تعطيل الدستور ، وحل مجلس النواب ، وتعيين رئيس دولة يتولى إلى جانب الرياسة مهام رئيس الحكومة .

وقد شرحت الصحف القبض على الرئيسين . فى الساعات الأولى من صباح يوم ١١ نوفمبر عام ١٩٤٣ ، ذهبت فرقة فرنسية أفرادها من السنغاليين ، إلى مقر رئيس الجمهورية ، ومقر رئيس الوزراء ، وألقت عليهما القبض ، واقتادتهما إلى قلعة مهجورة بقرية ( راشيا ) بالجبل . أما من بقى من أعضاء الحكومة وأعضاء المجلس النيابى الموالين للحكومة ، فقد هرع أكثرهم إلى قرية ( بشامون ) فى أعلى الجبل ، حيث ألفوا حكومة مؤقتة ، تمارس سلطات رئيس الجمهورية وسلطات رئيس الحكومة المعتقلين .

قمت من فورى لأبلغ الحكومة برقياً بما وقع . ولما تبين لى أن المفوضية

الفرنسية منعت خروج البرقيات ، وأقامت رقابة على التليفونات ، وشددت الحراسة على الحدود ، قمت بفحص جوازات السفر الدبلوماسية لزملائى الخمسة بالقنصلية العامة ، لأرى من بينها ما يسمح لحامله بالخروج من لبنان إلى حيفا . وقد لقيت لحسن الحظ جوازاً لأحد الزملاء يحمل تأشيرة خروج صالحة لم تكن مدتها قد انتهت . وقد عهدت للزميل حمل رسالة سلمتها إليه عند سفره إلى حيفا لتبليغها إلى الزميل قنصلنا فى حيفا ليتولى بدوره تبليغها إلى القاهرة بالأحداث الجارية ، حتى تكون الصورة لديها مستكملة فى يوم وقوعها ومن أصدق المظان .

وكان من نتيجة رسالتى المبلغة إلى المسئولين فى مصر ، أن سارعت الحكومة المصرية بدعوة القنصل العام الموجود بالقاهرة للعودة سريعاً إلى مقر عمله .

وكان أن قامت مصر بأسرها ، وارتجت لهذه الحوادث ، وعبرت بلسان حكومتها وشعبها لن بأنها تقف موقفاً سلبيًّا من هذا الأمر ، مؤازرة للشعب اللبنانى ورئيسيه المعتقلين . بل لقد صرح رئيس الحكومة المصرية آنذاك ، المغفور له مصطفى النحاس ، بأنه سيعيد النظر فى علاقات مصر مع فرنسا ، إذا لم تحل هذه الأزمة بما يتفق وكرامة الشعب اللبنانى واستقلاله الكامل .

أما المندوب الأمريكى فكان يقول : إن كل السلطات مهما كانت لبنانية أو فرنسية أو بريطانية ، تتضاءل أمام سلطان القيادة العسكرية للحلفاء وضرورات الحرب القائمة . وقد كان يرى أن يتمتع كل من لبنان وسوريا باستقلال تعترف به أمريكا وفرنسا وبريطانيا وباقى الدول الديموقراطية ، بحيث لا يبقى فى يد فرنسا من السلطات ما يهدد هذا الاستقلال ، بدعوى صيانة المصالح المشتركة . وقد أثنى على موقف مصر من هذه الأزمة ، وعلى مؤازرتها للقضية اللبنانية .

وصممت مصر ، والدول العربية على تأييد لبنان فى مطالبته بعودة

الأمور إلى ما كانت عليه قبل يوم ١٠ نوفمبر عام ١٩٤٣ .

وكان دور القنصل فى مسعاه لدى جنرال كاترو وجنرال سبيرز وأطراف النزاع من لبنانيين وفرنسيين من المسئولين ، من الأدوار السياسية والدبلوماسية الكريمة الوجه والغاية .

وفى مساء يوم ١٦ نوفمبر من عام ١٩٤٣ ، وصل جنرال كاترو قادماً من الجزائر ليبدأ مهمته العسيرة .

وبعد اتصالات عديدة مع العسكريين الإنجليز والأمريكيين والفرنسيين ، ثم مع رجال السياسة اللبنانيين ، لتقريب وجهات النظر ، وللوصول إلى حل يلتقى عنده كافة الأطراف المعنية ، انتهت الأزمة الحادة التى كادت تعيد الاشتباك المسلح بين الحليفتين ، بإعادة الأوضاع السياسية إلى ما كانت عليه قبل يوم ١٠ نوفمبر ١٩٤٣ ، وتم الإفراج عن رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة الوطنية ، بين أفراح الشعب الذى انتصر بصموده وإيمانه ، وبالتجاوب الذى لقيه من الدول العربية المحيطة بالأزمة .

وعند حلول يوم ٢٢ نوفمبر كان كل شيء قد عاد إلى أصله ، وفى مقدمة ما تم تنفيذه ، نقل المندوب الفرنسى ( جان هللو ) ، منعاً لأى حرج .

وقد اعتبر هذا اليوم من كل عام عيداً لاستقلال لبنان ، الذى اعترفت به وأعلنته فرنسا وبريطانيا وأمريكا ، واعترفت به الدول الديموقراطية وكان اعتراف فرنسا بهذا الاستقلال فى هذه المرة صادقاً وخالياً من القيود السابقة .

لقد سقطت ضحايا فى الاشتباكات التى كانت تقوم فى صيدا وطرابلس وبيروت من الأهالى وأفراد الفرقة الأجنبية الفرنسية .

وسرعان ما عادت الحياة الطبيعية إلى مجراها ، وعدنا نحن إلى عملنا الطبيعى . أفحتم على أن تلاحقنى الأزمات السياسية والمالية والعسكرية أينما توجهت أو حللت أو رحلت ؟

ففى اليونان شاهدت الأزمة المالية الخانقة التى تخلفت من وصول مليون مهاجر يونانى من تركيا تنفيذاً لاتفاقية لوزان عام ١٩٢٣ . وفى أمريكا

حضرت معركة الدولار والإسترليني عندما خرجت إنجلترا عن قاعدة الذهب في سبتمبر عام ١٩٣٢ وعند انتقالي إلى فلسطين ، عايشت ثورتها الكبرى عام ١٩٣٦ . ومن بعد كل أولئك ، عشت جانباً من الوقت في إيطاليا عند قيام الحرب العالمية الثانية واشتراك إيطاليا فيها مع ألمانيا في يونية كما سلفت الإشارة في فصل سابق . وها هي ذي أحداث لبنان في في نوفمبر عام ١٩٤٣ أراها في أعقابي بعد ستة أشهر فقط ، من حلولي بها .

وأعود لأتساءل ، في حدود النظرية القائلة بأن العضو يتبع الوظيفة ، أو ما يعارضها من القول بأن الوظيفة تتبع العضو ، لأقف على من يكون التابع ومن يكون المتبوع ؟ فإما أن أكون أنا الذي يلاحق الأزمة ويذهب إلى مطارحها ، أو أن تكون هي التي تتعقبني وتلاحقني ، أينما حللت ؟

* * *

ولا أحسبني سهوت عن الحديث عن لبنان ، أرضه وجوه وناسه . ولكن شغلني ما كان يشغل كل إنسان في لبنان في ذلك الحين من أحداث وحجب عن عيني لفترة لا أغفرها للأيام ، كل هذا الحسن أينما اتجهت أو جلست أو تجولت ، حتى لقيتني ذات يوم أقول :

لبنان من بين المغاني جنة ... ما إن لها بين الرياض مثال
أين انتقلت لقيت حسناً ماثلا ... فإذا مكثت أتى إليك جمال

والسكان في لبنان خليط من مختلف الأديان . وهم يختلفون حتى في المذهب الواحد . فمنهم من المسلمين ، السني والشيعي ، والدرزي . ومنهم من المسيحيين : الماروني والأرثوذوكس والكاتوليك والبروتستانت والأرمن الكاتوليك والأرمن الأرثوذوكس . أما اليهود فإن عددهم لم يكن يتجاوز الألفين . وبلبنان عدد كبير من الأجانب من مختلف الجنسيات يبلغ مائتي ألف نسمة . وتوزع الوظائف الكبرى في البلاد طبقاً للمذاهب ، كعرف التزموا به . فرئيس الجمهورية ماروني ، ورئيس الوزراء سني ، ورئيس مجلس النواب شيعي ووكيل مجلس النواب أرثوذوكسي ووزير

الخارجية مارونى نظراً لتبعية إدارة الهجرة لوزارة الخارجية ولوجود مهاجرين للبنان من المارونيين فى الأمريكتين وفى أفريقيا ، حتى قيل إن المهاجرين من لبنان المنتشرين فى قارات العالم يفوقون عدد المقيمين فوق أرضه . ويمثل المسلمون نصف السكان .

وأهل لبنان أهل سياسة وكياسة . والطفل يولد وبين جنبيه الكياسة والطموح وحسن الحديث والميل للأدب . والجمال فيهم يستقى من جمال الطبيعة فى السهل والجبل والشاطئ . والقوام السوى مستمد من استقامة أشجارهم ونباتاتهم ، والأصوات الشجية بينهم مستلهمة من صفاء الجو ونقائه فى الوديان والجبال وخلوه من الشوائب والقذى .

وربما ينفرد لبنان ، بل إنه الوحيد بالفعل من بين الدول السياحية الذى يستطيع المصطاف فى الشتاء أن يسبح فى مياهه على شواطئ بيروت أو خليج جونيه ويمارس رياضة الانزلاق على الماء ، ثم يصعد الجبل حتى يصل إلى صوفر أو ضهر البيدر ليمارس رياضة الزحلقة على الجليد ، فيما لا يجاوز ثلاث ساعات ، بين الشاطئ وهذه المطارح .

ولقد كان شوقى أمير الشعراء يؤثر زحلة على باقى مصايف الجبل ، لاعتدال جوها وروعة مناظرها التى جمعت بين السهل والماء والجبل ، وهضبتيها اللتين يحوطانها بحنان ويدفعان عنها كل سوء شأن الأم مع وليدها : صنين والحرمون . ولقد تغنى فيها بأرق ما نظمه شاعر عربى منذ أن وجد شعر عربى فى الوجود . بل لقد وهبها الخلود بقصيدته ( يا جارة الوادى ) التى ذاعت وشاعت وملأت سمع الزمان ، وأكمل عبد الوهاب بلحنه وغنائه لهذه القصيدة ، ما شاءه لها أمير الشعراء من خلود ، تتيه به على الزمان . وقد شدا بها عبد الوهاب فى ليلة من ليالى شهر يولية عام ١٩٢٧ ، فى فندق قدرى المطل على نهر البردونى الفنان اللعوب . ويقول شوقى فى ختام قصيدته :

إن تكرمى يا زحل شعرى إننى     أنكرت كل قصيدة إلاك
أنت الخيال بديعه وغريبه     الله صاغك والزمان رداك

* * *

فى الدول التى تكثر فيها الأحزاب والتكتلات السياسية ، مثل فرنسا وإيطاليا وبعض البلاد العربية مثل سوريا ولبنان وكثير من جمهوريات أمريكا الجنوبية ، لاحظت أن التغييرات الوزارية تتعاقب بحيث يصعب على المراقب السياسى متابعة تاريخ أعضاء الحكومات المتعاقبة ، بسبب الفترات المحدودة التى يقضونها فى الحكم قبل أن تتبلور شخصياتهم واتجاهاتهم .

وقد أفضى بى التفكير فى ذلك إلى اقتراح رفعته للوزارة ، يعنى بضرورة احتفاظ كل بعثة دبلوماسية بكارتات تتضمن ترجمة مركزة لحياة البارزين فى البلد الذى تعمل فيه البعثة ، وتضم المشتغلين بالسياسة من رجال الأحزاب ورجال الصناعة والمال والأعمال والاجتماع والأدب والفن بأنواعه ، ويكون لدى الوزارة صورة من هذه الكارتات التى توافيها بها البعثة الدبلوماسية ، مع العناية التامة بجمع البيانات التى بها ، من أصدق المظان ، لإمكان الرجوع إليها فى شتى المناسبات والظروف ، وللاستئناس بها عند حدوث أى تغيير وزارى ، أو القيام بزيارات أو عند الإدلاء بتصريحات أو عند القيام بمفاوضات أو مباحثات فى شتى المجالات .

وتهادى الأيام كالعهد بها ، فى حظها المرسوم وحظها المسطور ، وأنا موزع الجهد بين عملى نهاراً وبعد الظهر فى المكتب ، ومساء فى المناسبات الاجتماعية التى كنت أدعى إليها للمشاركة فى أهدافها ، لحسن ظن القوم فى قدرتى على الإسهام بالرأى فى الأدب والاجتماع والتمثيل والغناء والموسيقى والصحافة والإلقاء والإنشاء ، وإبداء النصح مع الأعضاء المشتركين .

وكان مما زلت أعتز به أننى كنت عضواً محكما فى اختبار صوت المطربتين الممتازين ، سعاد محمد ونجـــاح سلام ، والعمل على إيفادهما للقاهرة للتردد على نادى الموسيقى الشرقى ( المعهد الحالى ) ، وعلى الملحنين المصريين لاستكمال دروسهما والتزود من فن الغناء والموسيقى على يد المتخصصين فى مصر .

وكنت أذلل ما يصادف صباح ونور المدى من عقبات السفر إلى مصر أو التدريب على إلقاء الأغانى باللهجة المصرية ، عندما قصدتا القاهرة للعمل بالسينما . وأغمضت عينى عند سفر الأستاذ الكبير وديع الصافى بوصفه سائقاً لسيارة الصديق نقيب الأطباء اللبنانيين دكتور فؤاد غصن ، (الوزير فيما بعد) ، عند انعقاد مؤتمر طبى فى القاهرة عام ١٩٤٣ . وذلك ، نتيجة للتضييق فى منح تأشيرات الدخول لمصر فى أقل الحدود ، بسبب الحرب ، وقصرها على فئات لم يكن منها وديع الصافى الذى كان يتشوف لرؤية القاهرة الفنية ، والتعرف على فنانيها وفناناتها ، والتردد على مجالس ومعاهد الفن لينهل منها ويستزيد من فنه الرائع البديع . فلما اطمأننت إلى هدفه ، أغمضت عينى ، وقلت للصديق النقيب وأنا أودعه ، لقد أحسنت اختيار سائقك لأنه يليق بالمقامات .. ثم أكملت . . الموسيقية . . فضحك النقيب ليدارى حمرة فى الوجه شاعت ، وقد أبلغنى بعد عودته أنه لم يستطع أن يرفض أمنية وديع الصافى البريئة ، كما لم يشأ أن يحملنى على مخالفة التعليمات ، فاختط طريقاً وسطاً .

وكان مما زلت أزهو به كذلك ، سماعى لنظمى مردداً من أجمل صوتين ذهبيين فى سوريا ولبنان وهما السيدتان مارى جبران وزكية حمدان لقد أنشدتا قصيدة لى من لحن الأستاذ خالد أبو النصر ، مطلعها :

أغار عليك من همسات ظنى     وحسبى أن أغار عليك منى
فأين نظرت تبتعثين همـًـا     يداعب كل صب بالتمنى
وأين خطرت تنتزعين أمناً     وما برحت عيون الغيد تجنى
تعالى واخطرى فى خفق قلبى     تعالى وامرحى فى جفن عينى
تعالى أنت من دنياى همى     وأنت قصيدتى وأنا المغنى

كذلك شدت لى السيدة ليلى حلمى :

كيف أنساك والتذكر أنسى     ونديمى إن عزنى ندمائى

دغدغتنى يدُ التذكر والشـ ـعر وحبى وكلهم عشراء
سائلوا الكأس هل أذابت شفاهاً صاديات فى صمتهن دعاء
وسلونى عن الشفاه أذابت من كؤوس فى لمسهن شفاء !

أما فى عالم الصحافة فقد مربابنان فى صيف عام ١٩٤٣ الأستاذ محمد التابعى ، وحضر لزيارتى بالمكتب وبرفقته صديقه وصديقى الأستاذ سعيد فريحة صاحب ( مجلة الصياد ) والشبكة والأنوار ، فيما بعد الصياد وقد علمت من الأستاذ التابعى أن الأستاذ فريحة يطمع فى ألا أبخل عليه بالرأى والمشورة فيما انتواه من إصدار مجلة الصياد ، على طريقة المجلات السياسية الفنية الاجتماعية التى تصدر فى القاهرة ، ورجانى أن أكون عند حسن ظنه وظن الصديق فريحة . وقد كنت عند حسن ظنه ، فى ظنى ، ولا علم لى بما كان فى ظنه عنى . ولكنه أفسح لى صدر مجلته الناشئة آنذاك ، لأكتب بها صفحة أدبية ، إذا ألم بى خاطر أدبى ، أو داعبتنى عرائس الشعر .

* * *

لم يعد فى استطاعة قوسى أن يرمى سهماً لأية مسافة مهما قصر مداها . وكاد الزيت يجف فى مصباحى بعد أن حملت فوق طاقتى من عمل متواصل فى المكتب ، وبخاصة بعد أن تحولت القنصلية العامة . إلى مفوضية عند إعلان استقلال لبنان فى ٢٢ — ١١ — ١٩٤٣ . ومن مشاركة فى النواحى الفنية والاجتماعية والصحفية ، التى كنت أدفع إليها دفعاً ، لم أكن لأستطيع معه أن أعتذر أو أتردد أو أتخلف . حتى إذا ما أنفقت كل ما كان لدى من رصيدى الصحى ، الذى لا سبيل إلى تمويله بالقرض والاستدانة ، استسلمت لهزال الجسد ، ومواجع الوهن والضنى . وبعد مشاورات بين الأطباء ، أجمعوا ونصحوا بضرورة الانقطاع عن العمل وعن سكنى بيروت والإخلاد إلى راحة طويلة ، فى دار من دور الاستشفاء والنقاهة والانتجاع فى الجبل .

وقد اختير لى موضع من هذه المواضع ، فى أجمل بقعة من الجبل ، بالقرب من وادى ( لامارتين ) . . حتى فى الانتجاع أرى الشعر والشعراء إلى جوارى . . أقول إننى كنت أينما وجهت عينى وقعت على خضرة وشجر وثمر . وكانت تلتف بى بعد عناية الله رعاية الأطباء والطبيبات ومساعديهم ، إلى جانب سؤال الزملاء والأصدقاء . أما الممرضات فقد كن بلسما شافياً سخى الرعاية .

لم أفزع من هذا المصير ، ولكنى فلسفت ما أنا فيه من واقع ، وقد كنت من المؤمنين بقول الشاعر :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ‏ ‏ ‏ ‏ ويبتلى الله بعض الناس بالنعم

فها أنا بين زهر وشجر ، وشروق وسحر ، لم أكن أنعم بها وأنا فى غمرة ما كنت فيه من عمل أو فن ، وها أنا ذا أخلو إلى نفسى التى لم أكن بقادر على نجواها ، وكل منا فى طرف ، أنا بإرهاقها بما كنت فيه ، وهى بإشفاقها من مغبة المصير . وقد التقينا ، بدون عتاب .

كنت إذا الليل حلك ، أفزع إلى إخوانى وخلانى وسمارى من قمر ونجوم ، لأمضى معها ردحاً من الزمن ، أعود بعده لأشكر لليل يده عندى ، حينما كنت أهتدى فى هذا السكون الغامر ، إلى خيالات تلف حول فكرة الوجود والخلق والفناء والرضى والإيمان ، وقدرة الله وواسع رحمته وعفوه . وكنت أترجم ما يحط على نفسى من أفكار كأنها الحمائم إلى شعر أضمنه فكرة فى بيتين من الشعر يطيران فى أفق خيالى بجناحين من السخر حينا ومن الرضى أحياناً ، حتى اجتمع لى ديوان أسميته بعد طبعه ، أوراق الخريف . نظمت فى التذكار :

أتعجل الأيام تسرع خطوها ‏ ‏ ‏ ‏ فإذا مضت عنى بكيت الماضى
وأحن للذكرى فيغضب حاضرى ‏ ‏ ‏ ‏ فأقول لا تغضب فإنك ماضى

ونظمت فى مطامع النفوس :

أنـــا أشتهى ما لا أرى ‏ ‏ ‏ ‏ وأرى الذى لا أشتهى

وكذاك أطماع الحيـــــاة بـــداية لا تنتهى

ونظمت فى تنوع مظاهر الطبيعة :

هل شهدت الموج فى قصف ولين ينطح الصخر ويقسو فى النزال
ثم تلقاه على الشط استوى هامساً بالوجد فى سمع الرمال

ونظمت فيما كنت فيه :

قلت يوماً لعائدى بافتخار قد بلوت الزمان زينا وشينا
وحطامى معى يصيح بسخر تلك آثارنا تدل علينا

وكان يسكن الحجرة المجاورة لحجرتى فى هذه الدار ، أحد المنتجعين من ذوى الأرواح المرحة الجذابة . وكان بين خفة روحه وثقل وزنه ، شبه كمال الانقطاع . وارتفعت فيما بيننا الكلفة ، إلى حد سماحه لى بالنيل منه بالوصف الشعرى لضخامة جسمه وشهيته التى تبتلع حوت يونس . ودليل رفع الكلفة فى الشرق ، يكون بتنابذ الألفاظ ، أما فيما بينى وبين هذا الجار العزيز ، ( حنا المتنى ) ، فلم يصل الأمر إلى هذا الحد ، ولكنه كان يقتصر على أن أقول فيه شعراً خفيفاً مجونياً كان يرد عليه عند الاسماع إلىّ وأنا أرويه بقوله : « بيخرب بيت ها القريحة » .

وكان حنا المذكور نهماً لا ينقطع عن الأكل إلا للأكل . وكان إذا أتى على ما يقدم إليه فى وجبة الغداء أو العشاء ، تسلل إلى حجرتى بدون استئذان ، ليأتى على ما أكون قد عزفت عن تناوله .

وقد قلت فيه نظماً ذاع وشاع بعد أن نشرته مجلة الصياد فى عدد من أعداد شهر أغسطس عام ١٩٤٤ . وكان من بين ما نظمته :

أنــــا ما رأيت سواك حنا للأكل بعد الأكل حنا
صحن من ( اللبنا ) أحب إليـــــك من ليلى ولبنى[1]

---

( ١ ) اللبنا يصنعونها فى لبنان من اللبن الرائب . ويأكلونها بالزيت . ولا تخلو مائدة الإفطار فى الصباح فى لبنان من اللبنا .

ورنين آنية الطعام يحول في أذنيك لحنـــا
لك للطعـــام شهية يفنى الطعام وليس تفنى

بعد انقضاء فترة الاستشفاء ، غادرت الدار إلى عملي بالمفوضية وكنت قد بلغت درجة سكرتير ثان بالمفوضية حينئذ . والجديد الذى دخل على حياتى آنذاك ، ليس الترقية التى بلغتها بعد نحت فى الصخر ، وسير على الشوك ، ولكن هو إقلاعى عن التدخين إلى غير رجعة . وكانت هذه هى النبوءة الثالثة التى أبلغتنى نبأها ، ابنة الشاعر « جواكيم ميللر » ، قبل رحيلى من سان فرنسيسكو عام ١٩٣٤ ، وأراها تتحقق بعد عشر سنوات ، وبعد نبوأتين تحققتا من قبل .

وكان لا بد مما ليس منه بد . فقد صدر قرار بنقلى إلى الديوان العام بالقاهرة ، بعد خمس سنوات فى لبنان ، ما أزال مديناً لها بالتجربة والصبر على الشدائد ، والصمود للمحن ، والتمسك بأهداب الأمل ، والمحاولة بعد الفشل ، وهذه خصائص وطباع تمد أهل لبنان بالتفوق والنجاح أينما ارتحلوا أو أقاموا . كما كنت مديناً لها بالصحة التى كنت أراها تذبل وتخبو ، كأنها ضوء الشمس عند الغروب ، حينما تتخلى عن الضوء والحرارة ، ثم ماتلبث أن تسطع من جديد ، وهى تحمل الدفء والنور . . .

توليت إدارة قسم الشئون الآسيوية بالإدارة السياسية بالوزارة ابتداء من شهر نوفمبر عام ١٩٤٧ . وكأنما كنت على موعد مع مشاكل القارة الآسيوية بمجرد أن ألممت بشئونها . كان فى طليعة تلك المشاكل الخلاف على إقليمى ( جامو وكشمير ) بين الهند وباكستان ، بعد تقسيم الهند واستقلال جزئيها عام ١٩٤٧ . والخلاف على الحدود بين باكستان وأفغانستان على المناطق الجبلية فى بلوخستان وادعاء كل دولة تبعيتها لها . ثم جاء دور استقلال أندونيسيا عام ١٩٤٩ والخلاف بينها وبين هولندا على جزيرة ( إيريان ) . ثم قامت عام ١٩٥٠ حرب كوريا

بين جزئيها الشمالى الاشتراكى ، والجنوبى الديمقراطى ، أو بعبارة أصح بين المعسكر الاشتراكى والمعسكر الإمبريالى . وقد وقفت الصين الشعبية من كوريا الشمالية موقف الحليف القوى والسند الشريف . وحدث قبل ذلك ، قيام قوات الصين الشعبية الظافرة بتعقب فلول جيش تشانج كاى شيك الذى كان يتقهقر كل يوم عشرات أو مئات الكيلومترات. وكنت أوافى المكتب المختص بالوزارة بملخص لهذه المعارك ، مما كانت تنشره الصحافة العالمية وتذيعه الإذاعات ، مع إبداء رأيى فى ضرورة الاستعداد للاعتراف بالصين الشعبية فور هذه المعارك التى كانت وشيكة الانتهاء . وكنت أذكر فيما أرفع ، أنه لا خير فى بقاء الاعتراف بنظام نشاهده وهو يذوى ويتهاوى ، وإمهال الاعتراف بنظام نراه قد أشرق وانبثق .

وكانت الحكومة الوطنية للصين ، تنتقل مع الجيش المتقهقر من مقاطعة إلى مقاطعة ، وهى لا تقوى على المقاومة . وخلال هذه المعارك الضارية فى نهاية عام ١٩٤٩ ، صدر قرار وزارى بنقلى قائماً بالأعمال بالنيابة بدرجة سكرتير أول فى نانكين عاصمة الصين الوطنية . وكأنما أراد المسئولون أن يكافئونى على دقة وصفى للمعارك ، بأن ينقلونى إلى ميدان المعارك ، لأصف على الطبيعة ، ما أراه منها ، ومن ظفر قوات جنرال ماوتسى تونج .

ولم أكن صالحاً صحياً لهذا النقل ، بشهادة القومسيون الطبى الذى قضى بذلك بعد الفحص ، والذى صاغ قراره ، بما يمكن أن يفهم منه أنه من باب توفير أموال الدولة عدم الإقدام على نقل المذكور . . أنا . . الذى يُعد غير صالح صحياً ، ومعرضاً للكسر Fregile خلال الطريق ولم أكن فى الواقع فى صحة تتحمل جو منطقة نانكين بالذات ، كما أبلغنى بذلك سفير الصين الوطنية بالقاهرة ، وبخاصة أنى كنت عائداً من فترة نقاهة بعد مرض طويل ، فى لبنان . ولو أن الأمور كانت

مستقرة فى الصين ، لهان الأمر . ولكن هناك ، تقوم حرب أهلية . وحكومة الجنرال تشانج كاى شيك تنتقل كما قدمت مع الجيش من مكان إلى آخر . وكان علىّ أن أسأل الرائح والغادى عند الوصول ، عن مقر الحكومة الجديد ، وأى السبل أسلك للوصول إليها . وقد أنقذنى القومسيون الطبى من كل ذلك وتقرر العدول عن نقلى ، وبقائى بديوان الوزارة إلى حين صدور حركة دبلوماسية قادمة .

وفى نوفمبر عام ١٩٥١ صدر أمر ملكى بنقلى قنصلا عاماً لمصر بمدينة إستانبول . وهاهى ثانى مدينة مما سبق أن مررنا بها بقطار إكسبريس الشرق ، المتئد الرزين ، أعود لأعمل بها فترة لا أدرى مداها .

## الفصل السادس

### فى تركيا :

أبحرنا من الإسكندرية على الباخرة التركية سمسون فى النصف الأول من شهر فبراير عام ١٩٥٢ . وللأتراك خط بحرى منتظم ، يحق لهم أن يفخروا به تجرى عليه بواخرهم بين إستنابول وبيريه ونابولى وجنوا ومارسيليا والإسكندرية . وكانت رؤيتى لإستنابول كسائح لمدة عشرة أيام ، فى مطلع الحرب العالمية الثانية ، وفى شهر يولية عام ١٩٤٠ ، بعد قطع علاقاتنا بإيطاليا وعودتنا وإجراء تبادل بين بعثتنا الدبلوماسية والبعثة الدبلوماسية الإيطالية التى غادرت القاهرة إلى إيطاليا ، وقد تم فى إستنابول ، أقول ، كانت هذه الرؤية كرؤية النائم لحلم ، لا يلبث أن ينساه عندما يصحو ، فيما عدا ما يمس منه عاطفته . فقد كان كل ما يقال عن تحول الترك عن الدين الإسلامى مبالغاً فيه ، بهدف فصم ما بين العالم الإسلامى وتركيا من وشائج ، تحقيقاً لأهداف إمبيريالية عميقة الجذور . فقد كنت أرى مبلغ تعلق الترك بشعائر دينهم فى كل مكان أمضى إليه . وكانت الجوامع

التى يزيد عددها على عدد أيام السنة ، فى إستنابول ، تمتلئ ساحاتها بالمصلين ، كما تمتلئ الأرض الواقعة عند مداخلها بمن لا يجد له فى الداخل مكاناً . وكان يكفى أن تذكر اسمك الدال على انتمائك للدين الإسلامى حتى تحل بينهم فى أطيب مكان من قلوبهم ، مهما صعب التفاهم بالحديث .

وللأديان مظهر مادى ، وجوهر روحى . والأول يتعلق بالشكل والحركة ، والثانى يستهدف المضمون والمحتوى والروح . ولست فى معرض تقييم حركة ، القول فيها للمؤرخين .

دعانى إلى التحدث عن ذلك ، مادار من حديث خلال الرحلة بينى وبين راكبين فاضلين من رفقاء السفر ، كان يتناول المظهر الخارجى لتركيا الحديثة وارتباطه بظروفها السياسية والجغرافية ، والجوهر الروحى لها فى كل ما يتعلق بالعقيدة والوطنية والقومية . وليس يجدى فى اعتقادى إثارة مسائل اقتضتها ظروف لم يكن من السهل تنكبها ، ولا هنا ، فوق هذا وذاك ، موضعها .

كان أول الصديقين من رفاق الرحلة ، هو الأستاذ محيى الدين مردينى بك الذى تربطه بمصر أواصر متغلغلة جذورها منذ الجدود . وله فى مصر أقارب من المصريين ، مثلما له فى تركيا أقارب من الترك . وهو ممن يتسع أفقهم إلى حد تبدو الخلافات فيه كما لو كانت فقاقيع تتلاشى وحدها بدون أدنى جهد . فكان على علم بالسياسة العالمية وأثر تياراتها على منطقة الشرق الأوسط التى تجمعنا . وكان محبا لمصر ، لا ينسى عهد صباه بها ، الذى يدعوه إليها كلما أحس بالحنين إليه . وكان محبا لتركيا محبة تتسع وتمتد جذورها وأطرافها لتشمل الماضى والحاضر ، متمنياً لها استخلاص خير ما فى الماضى من تجربة وأسوة ، وخير ما فى الحاضر من تقدم قام على العلم المدروس دراسة هيأته لأن يسير فى ركب الحضارة والمدنية بقدر لا يطغى على ميراث الماضى من عفة وفضيلة وأدب ، ولا ينظر إليه نظرته إلى شيء متخلف ينكره ويتنكر له .

وكان الأستاذ شفيق رضا بك ، هو الرفيق الثاني في هذه الرحلة التي كانت تمتد إلى أربعة أيام مع توقف في بيروت ساعات ، استعدت فيها ذكرياتي بها ، وإن كانت في غير حاجة إلى تذكير ، لأنها منقوشة وبارزة ، وهو أمر تشكيلي نادر في جمعه بين النقش المحفور والوسم البارز . ومن حق رضا بك علي أن أخصه في هذا المكان بما يستحقه من تقدير ، لعلمه وفضله ونظرته العالمية واتجاهاته القومية . إنه من مواليد قبرص ، حيث شب بها ، واشتغل بالتدريس في مدارس القسم التركي بالجزيرة . ثم غادرها إلى الدنيا الواسعة ، يحمل زاده الوفير من لغات عديدة ومعرفة وعلم وتجربة . واشتغل ، كما ذكر لي ، بالصحافة وبالترجمة وبالتأليف وبالوساطة التجارية في فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وأمريكا ومصر ، وكثير من البلاد العربية . إنه موسوعة متنقلة . وهو كزميله رفيق الرحلة ، مرديني بك ، من واسعي الأفق الفكري ، وبعيدي مدى الرؤية . وهو مع سخطه على الشباب التركي الحديث ، إلا أنه كان يقول إنها تجربة لا مناص من الدخول فيها ، وسوف يريهم الزمن أنهم ابتعدوا عن الأرض التي كانوا يقفون عليها بثبات وصلابة ، وأصبحوا معلقين في الهواء ، لا سماء بلغوها ، ولا أرض وقفوا عليها .

كنت أسمعه يقول هذا القول لمسافر على الباخرة من شباب الترك ، يشتغل بالصيدلة . وهو ممن نعتهم بالضياع . فقد كان متأمركاً في حديثه ولفتاته وسيجارته ومضغ لبانه . فكان يسخر منه بسؤاله عن تاريخ بلده القريب ، فكان لا يحير جواباً ، ثم يعود لسؤاله عن التيارات الحديثة في المجتمع التركي الجديد في الأدب والاجتماع والسياسة فيراه فارغاً كالطبل الأجوف الذي لا خير فيه إلا إحداث الجلبة والضوضاء . وكان في ردوده يثرثر دائماً بقوله إن التقاليد القديمة كبلت أرجلنا وغلت أيدينا عن الحركة.

كان رضا بك يحدثنا عن تركيا حديث العالم بكل شيء في تاريخها الماضي وحاضرها الحديث . سياستها وأدبها وتجارتها وصناعتها واتجاهاتها

الفكرية ومتمنياته لها. وقد كنت أراها من خلال حديث ، وكأنما عشت فيها في عصورها الغابرة وتطوراتها الحاضرة .

وكنت أطلع على بعض ما كان يحمل من كتب وأوراق ، زادتنى علماً ومعرفة بما أنا قادم عليه فى بلد تربطنا به روابط عديدة . وكان الرجل متواضعاً لا يعتد بكل ما كان يحمله من تجارب ويلم به من معارف . وكأنما أراد أن نزداد به علماً فى نواحٍ لم يكن من الميسور الاطلاع عليها . ولكنه سرعان ما توصل إليها بلماحيته . ففى أحد أيام الرحلة ، افتقدته ، وبالسؤال عنه علمت من رفيقنا الثانى ، أنه استأذن قبطان الباخرة ، لينزل إلى المطابخ لإعداد صنفين للمسافرين ، أحدهما فطير باللحم ، والآخر تورتة بالفاكهة ، كانا مثار إعجاب الركب السعيد .

عند نهاية حكم السلجوقيين عام ١٣٠٠ ، تولى عثمان ابن ارتغول ، الملك . وهو الذى أقام دولة آل عثمان ، التى تولى ملكها من بعده سليمان القانونى ثم مراد ثم بيازيد ثم مراد الثانى ثم سليم الأول . وكان كل واحد من هؤلاء السلاطين يزيد من رقعة الإمبراطورية حتى أصبحت تضم ، غاليبولى ( اندرينوبل ) ومقدونيا وبلغاريا وتراقيا وسالونيك وشبة جزيرة المورة والصرب والبوسنة وألبانيا واليونان ثم هنجاريا والشمال الأفريقى فى أفريقيا ، وفى آسيا كانت تحتل العراق وسوريا وشبه الجزيرة العربية ومصر .

وبعد هزائم فى معارك عديدة ، بسبب تألب دولى عليها ، ضعفت شوكة الدولة ، حتى فكرت دول أوربا فى اقتسامها . وعندما انهزمت فى الحرب العالمية الأولى أخذت الدول الأوربية ( بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ) تحتل أساطيلها وجيوشها أجزاء هامة من تركيا ، استهدافاً لفرض شروطها ، إلا أن الحركة الكمالية التى كان يقودها من الأناضول الزعيم مصطفى كمال ، أمكنها أن تدخل فى معارك مع الجيوش اليونانية التى هزمها شر هزيمة فى سقاريا واينونو حتى تم النصر الحربى والنصر السياسى لمصطفى كمال بالتوقيع والتصديق على معاهدة لوزان عام ١٩٢٣ ، الذى أخذت بعده

الأساطيل تنسحب والجيوش تتراجع ، وأخذت تركيا الحديثة تتبوأ مكانها كدولة عصرية تحكم أراضيها التركية ، وتخلصت مما كان يعيقها عن الحركة والتقدم ، واستقبلت عهداً جديداً فى حدودها الجديدة التى يتسنى لها أن تدافع عنها وتذود عن استقلالها وحريتها .

كانت القنصلية العامة بمكاتبها ومسكن القنصل العام تقع فى حى تقسيم . وكان ظهر الدار يواجه البوسفور ، أجمل الممرات المائية فى العالم ، وأخطرها شأناً بسبب المشاكل الدولية التى قامت من أجله . وسوف يأتى تفصيل لدوافع المشاكل الدولية فى وضعه من هذا الفصل .

كان من أكثر الشخصيات جدارة بالتحليل فيمن حللت بينهم فى القنصلية العامة من زملاء دبلوماسيين ومساعدين إداريين ومستخدمين ، شخصية ( المتردوتيل ) . والمفروض فى شاغل هذه الوظيفة ، التى كانوا يطلقون عليها قديماً اسم ( الوصيف ) فى القصور والسفارات والمفوضيات والقنصليات العامة ، التى تضم دوراً لسكنى رؤساء هذه البعثات ، أنه المساعد المباشر لرئيس الهيئة فى كل ما يتعلق بمأكله وملبسه ومشربه. فهو المشرف على إعداد مائدة الطعام ، وعلى كى ملابس رئيس الهيئة الرسمية المتعددة ، وحلاقة ذقنه وتناول إوائه وإعداد حفلاته والإشراف على مخازن المشروبات والمأكولات المعلبة ، وإصدار الأوامر لباقى الخدم بما يطلبه رئيس الهيئة ، وتلقى المكالمات الخاصة من المحلات التى يتعامل معها لإعداد مطالب الحفلات الرسمية وغيرها فى مختلف المناسبات ، ثم تقديم القهوة والشاى للضيوف ، والإشراف على تنظيف صالونات الدار ومكتب الرئيس . ولكنى اختصرت أكثر من ثلاثة أرباع هذه المهام الجسيمة ، الأمر الذى جعله يضمر ويذوى ، كأن لم يكن بالأمس ديكاً رومياً منفوش الصدر . فقد كانت هذه المظاهر ، بقايا متخلفة من تقاليد دبلوماسية عفى عليها الزمن فى سيره وتطوره ، وعز عليها أن تتوقف عن مزاولة ما كان لها من اختصاص وعادات متوارثة ، أصبحت فى ذمة التاريخ.

كان اسم ( الميتر دوتيل ) أنطوان . ولكنه كان يصر على أنه يحمل أسماء أخرى ليستخدمها عند الحاجة. ولما كان أنطوان من مواليد اليونان ، ثم رحل أجداده الأقدمون إلى تركيا ، وبقى بها إلى أن لقيته ، فقد كان عملا بالمتبع فى اليونان وغيرها ، يحتفل بعيد القديس الذى يحمل اسمه ولذلك فقد رأى كلما أراد أن يتخلف مساء أى يوم عن الحضور – فيما عدا أمسيات الحفلات – أن يتسمى باسم القديس الذى يحتفل به فى هذا اليوم. فهو أحياناً ديمترى وأحياناً نقولا وأحياناً إيليا وأحياناً دانيال .

ولالتحاقه بالعمل بالقنصلية العامة قصة طريفة . فقد كان القنصل العام الأسبق فى زيارة للمدير العام للبنك الألمانى بإستانبول . وفى الساعة الخامسة من بعد ظهر أحد الأيام ، كان القنصل العام ، بناء على موعد سابق ، يدق جرس باب دار مدير البنك . وكان أنطوان هو الذى يفتح الباب . وبعد أن قاده إلى حجرة الصالون ، أبلغه أن المدير العام لا يستطيع أن يراه . ولما أفهمه بالموعد السابق المضروب ، أجابه بأنه يعلم ذلك ، ولكن المدير غير موجود . فسأله متعجباً ، وهل خرج وهو يعلم بموعدى معه ؟ فأجابه بكل أدب وثبات ، بأنه لم يخرج ولكن روحه هى التى خرجت ، منذ نصف ساعة فقط ، وقد استحسن القنصل العام هذا الحوار اللبق ، وهذه الطريقة الدبلوماسية فى إبلاغ الخبر المؤسف ، وعرض عليه العمل فى وظيفة ( ميتر دوتيل ) بالقنصلية العامة ، وسرعان ما وافق .

* * *

بعد أن قمت بالزيارات التقليدية الرسمية لزملائى القناصل العامين . مبتدئاً بعميد الهيئة ، وكان قنصل هولندا العام آنذاك ، لاحظت أن الدول الكبرى ، عندما يقترب بعض دبلوماسييها من سن الإحالة على المعاش ، يبعثون بمن يكون مرضياً عنه منهم ، مكافأة لهم وتقديراً عملياً لما بذلوه من جهود ، إلى بعض القنصليات العامة بدرجة وزير مفوض ، مثل ليشبونة وبرشيلونة وبياريتز وطنجه وجينيف ولوكسمبورج وإستانبول ، حيث

يطيب الجو وتقل مسئوليات العمل ، إلا من شاء منهم أن يجد مما حوله ما يشغله ويشغل به الآخرين . وكان فى إستانبول من هذا الفريق ، قناصل هولندا وإنجلترا وفرنسا وسويسرا وإيطاليا ومن بينهم بارون وماركيزان .

كان على بعد الانتهاء من هذه الرسميات التقليدية التى يتم بها التعارف المكتبى الذى يزيد من أواصره اللقاءات التى تتم فى مختلف الدعوات الرسمية والخاصة ، كان على أن أستعرض أهم المواضيع التى تستأهل العجلة فى بحثها ، إلى جانب غرابة موقفها . فقد أدهشنى أن أرى الميزان التجارى بين تركيا ومصر يميل إلى جانب تركيا ميلا يصل إلى حد الاختلال . وكانت تقارير من سبقنى تنبه إلى هذه الظاهرة وخطورة شأنها . وقد وجدت الفرصة أمامى سانحة لإكمال ما بدأه من سبقنى ، على أن أضع إلى جانب الكتابة ، أرقاماً وأمثلة ومقترحات ، ودعوة إلى تدخل الغرف التجارية فى البلاد العربية لتسهم فى هذا السبيل ، كما ناديت بسرعة العمل على تعديل هذا الميزان المختل . فقد كانت مصر تستورد من تركيا بضائع وأصنافاً ومنتجات يبلغ حجمها ثلاثين ضعفاً مما تصدره إليها من بضائع . أى أن نسبة الوارد للصادر هى ٣٠ إلى واحد . فقد كنا نستورد من الدخان وحده ما قيمته نصف مليون جنيه مصرى . وكنا نستورد من تركيا الأخشاب والياميش وبعض الحبوب والفاكهة والمعادن بما لا يقل عن مليون ونصف المليون من الجنيهات . وكان ما نستورده من الياميش ( البندق والزبيب والفزدق واللوز وعين الجمل والأراسيا والمشمش ) لا يقل عن ربع مليون جنيه قابلة للزيادة لا للنقصان .

وكانت تركيا قد توقفت عن استيراد غزل القطن المصرى ، إلا بكميات ومن أصناف معينة ، لا تزيد على خمسين ألف جنيه مصرى ، وذلك بعد أن زودت أمريكا مصانع إيطاليا بآلات حديثة للنسيج ، كانت إيطاليا تصنع فيها الغزول المصرية وتصدرها إلى تركيا بأقل من أسعار المنسوجات القطنية المصرية . ولم يكن من اليسير الوقوف فى وجه هذه المنافسة الخطيرة

إلا بإجراءات عاجلة .

وعندما اتصلت بالإدارة المختصة بالوزارة ( الإدارة الاقتصادية ) لعرض هذا الأمر ، مرضحاً بالأرقام والبيانات الرسمية ، جاءها من وزارة التجارة ، اقتراح بإنشاء مكتب تجارى بإستانبول لملافاة هذا الاختلال . وطلبت موافاتها بمقايسة بالتكاليف المطلوبة لهذا المكتب . وقد وافيت الوزارة بما طلبته من تقديرات إنشاء المكتب التجارى الذى لن تقل تكاليفه عن عشرين ألف جنيه إسترليني سنوياً ، بخلاف تأثيث المكتب . ثم أردفت ذلك بقولى إن القنصلية العامة تقوم فى المجال الاقتصادى والتجارى بنفس ما يمكن أن يقوم به مكتب الملحق التجارى . وليست العبرة بإنشاء المكتب لتعديل ميل الميزان التجارى ، ولكن العبرة فى مواجهة تركيا بضرورة مقابلة صادراتها إلى مصر بواردات منها بموجب نظام القائمة الذى يتضمن الأصناف المتبادلة بين البلدين والحجم الذى تكون عليه هذه المبادلة . وفى يد مصر ورقة رابحة تتمثل فى إمكان التجائها إلى دول أوربا الشرقية ، التى ازدادت بها اتصالا بعد عام ١٩٥٢ ، لتستورد منها الدخان والأخشاب والمعادن والياميش والفاكهة المجففة ، من يوجوسلافيا وبلغاريا ورومانيا وهنجاريا واليونان . وقد اقترحت إيفاد بعثة من التجار ومن ممثلين لوزارة التجارة لدراسة الحالة على الطبيعة ، وللاتصال بالمسئولين وبالتجار ، وهذا ما عملت به الجهات المختصة . ولم يمض عام على جهود المسئولين ، حتى أصبح الميزان التجارى بين البلدين متعادلا .

* * *

فى ٤ يولية من عام ١٩٥٠ ، تم توقيع اتفاقية تجارية بين تركيا وإسرائيل لمدة عام قابل للتجديد تلقائياً . وقد كان يهم الدول العربية ، إتماماً لحلقات الحصار المضروب حول إسرائيل ، عدم التوسع فى المبادلات بين البلدين على هذه الصورة ، التى وإن كانت أكثر اهتماماً بالألفاظ ، مثل الدولة الأكثر رعاية ، ومدة عام قابل للتجديد تلقائياً ، والتوسع فى

الاتصالات البحرية وتبادل الخبرات الصناعية . من اهتمامها بالجانب الاقتصادي والتجارى من المبادلات التى اقتصر حجمها على ٨٤٠ ألف دولار ، إلا أن الأمر من جانب إسرائيل كان يهمها : من ناحية الشكل ، لأنه يحقق فتح السوق التركى لصناعاتها المجمعة فى مصانعها ، مثل سيارات كايزر والثلاجات وماكينات الحياطة وموتورات الزراعة والغسالات والآلات التجارية والراديو ، التى تمدها بها أمريكا ، كما أن الأمر كان يهم إسرائيل من ناحية الموضوع فى أنه يكسر حلقة من حلقات الحصار المضروب حولها ، إلى جانب ما يترتب على ذلك من زيادة الهوة التى تفصل بين تركيا والبلاد العربية .

وقد اقترحت على المكتب الإقليمى المصرى لمقاطعة إسرائيل بالقاهرة إنشاء مجمع للغرف التجارية العربية فى صورة ( كونسورتيوم ) يتولى دراسة صادرات تركيا إلى إسرائيل ، وواردات تركيا من إسرائيل . للعمل على الدخول مع تركيا فى مباحثات تستهدف الحلول محل إسرائيل فى كل ما يمكن مدها به من المنتجات وشراء ما يفيض عن حاجتها مما تصدره من منتجات ، وبهذا تنقطع الحجة القائلة إن المبادلات التجارية لا تخضع لأى اعتبار سوى الفائدة المادية والمصلحة العامة .

وقد كان من أهداف أمريكا منذ توقيع اتفاقياتها العسكرية والاقتصادية مع تركيا ابتداء من عام ١٩٥٠ ، العمل على تخفيف حدة الحصار المضروب حول إسرائيل ، وكسره بواسطة تركيا ، إرضاء لإسرائيل من جهة ، وثمناً تتقاضاه من تركيا مقابل حمايتها من كل ما كانت تتخيله من جانب الاتحاد السوفيتى ، الذى يحمل التاريخ بين ثناياه ذكريات معارك ضارية بين تركيا العثمانية وروسيا القيصرية خلال قرنين من الزمان .

انتهت بفرض روسيا القيصرية شروطها على حكومة السلطان عبدالحميد الأول فى معاهدة ( كوتشوك كينارجى ) التى تم توقيعها فى ٢١ يولية ١٧٧٤ . ومهما تطورت الأمور ، فإن النفوس تبقى منطوية على الخشية والحذر

والبغضاء التى كانت أمريكا تستغلها لتقييد تركيا باتفاقيات عسكرية تضمن بها لنفسها قواعد برية وبحرية عديدة فى تركيا .

* * *

استرعى نظرى مبعوث جامعة القاهرة لدراسة فقه اللغة التركية وآدابها فى إستانبول ، الأستاذ أحمد السعيد سليمان ، ( الأستاذ المساعد بجامعة القاهرة حالياً ) ، بعد حصوله من جامعة السربون على دكتوراه فى اللغة التركية وآدابها ، إلى أن المكتبة العثمانية القديمة ( دار الكتب التركية حالياً ) تضم ذخائر من كتب العرب والترك الأقدمين فى الأدب والشريعة والفلك والجغرافيا والكيمياء والمنطق والفلسفة ، وهى معرضة للتلف الشديد بفعل الفئران والحشرات ومعاول الزمن ، وأن واجب الحفاظ على تراث الأقدمين يقتضينا أن ننقذ ما يمكن إنقاذه من هذه الذخائر . وقد كتبت إلى الوزارة ، التى اتصلت بالجهات المختصة فى دار الكتب والجامعة العربية للعمل على إيفاد فنيين متخصصين فى تصوير أفلام ( ميكروفيلم ) للكتب المطلوب نقلها والعمل على تكبيرها وطبعها على يد ذوى الاختصاص .

وقد باشر هؤلاء الفنيون أعمالهم على أثر وصولهم ، بعد أن مهدت لذلك مع السلطات التركية المختصة التى رحبت بهذه المبادرة ، وأمدت بلدية إستانبول وجامعاتها ومكتبتها ، الموفدين بكل المساعدات الكفيلة بإتمام مهمتهم على أكمل وجه .

* * *

تقع مدينة إستانبول على الشاطئ الأوروبى من مضيق البوسفور الذى يفصل ما بين قارة أوربا وقارة آسيا . ويحصر البوسفور من الجانب الشرقى ومضيق الدردنيل من الجانب الغربى ، بحر مرمرة ، ويمنعان — إذا شاءت تركيا — دخول أى مركب من البحر الأسود إلى بحر إيجه ، فالبحر المتوسط أو العكس . ويبلغ عدد سكان إستانبول مليوناً وربع نسمة . وهى أكبر مدن تركيا ، وتعد مركزاً للتجارة والمال والأعمال المصرفية ومصانع النسيج

وإنتاج النحاس والأوانى الفضية الدقيقة والحرير وصناعة الدخان وأعمال الموانئ من شحن وترانزيت وجمارك وغيرها .

وبعد ما أدخل عليها من إصلاحات تناولت المواصلات البرية والبحرية والطرق والفنادق وأماكن الانتجاع فى جزر الأمراء وفى يالوفا ، غدت إستانبول مدينة سياحية ، يقصدها السائحون من مختلف الدول ، لاعتدال جوها ولما تحويه من آثار بيزنطية ورومانية ، ولما تضمه من كنوز قصور السلاطين ، ولسيطرة سحر الشرق الذى يضوع من جنباتها ، ويجذب السائح إليه كالأريج الذى تتعطر به الغوانى ، استجلاباً لإعجاب المحيطين.

وتقع على البوسفور أحياء عديدة سواء على ضفته الأوروبية أو ضفته الآسيوية . وهذه الأحياء تكاد تكون منفصلة . نذكر منها على سبيل المثال فندكلى ، وببك حيث يقوم القصر الصيفى للسفارة المصرية فى أنقرة ، فوق أجمل بقعة من شاطئ البوسفور الأوروبى . وهناك من الأحياء ، قاضى كوى ، وأورطه كوى وتشانتاش وإيمرجان واستينيا وضاحية طرابية الجميلة وساريار التى يقع بعدها مباشرة مدخل البحر الأسود . ولو أنه أقيم على شاطئ البوسفور كورنيش — وهو ما يحاوله المسئولون خطوة خطوة — يسير من إستانبول حتى مدخل البحر الأسود ، لضارع الكوت دازير الفرنسى جمالا وروعة وفتنة . وتجرى على مياه البوسفور الزرقاء ، معديات ( Ferry Boats ) تحمل مئات العابرين وسياراتهم لتنقلهم بين الضفتين أو القارتين ، كما تنقلهم بين الأحياء التى ذكرناها . وأكثر عملها يقوم على النقل بين إستانبول والشاطئ الآسيوى عند أسكودار ، وكذلك بين إستانبول وحيدر باشا على الشاطئ الآسيوى أيضاً ، وهى بداية خط السكة الحديدية التى تربط بين إستانبول وأنقرة مخترقاً الأناضول .

ولمن شاء أن يرى كل أحياء إستانبول التى تقع على ضفتى البوسفور ، أن يستقل إحدى هذه المعديات من رصيف إستانبول حتى يصل بها إلى ساريار عند مدخل البحر الأسود والعودة بها فيما لا يزيد إلا قليلا على

ساعتين ، وسط مناظر ليس أمتع للعين ، ولا أشرح للصدر ولا أطلق للخاطر من قضائهما بين خضرة ناضرة يانعة ، وماء ساكن ، لا تزعج أمواجه الركب ، وبين أحياء انتثرت فوق الضفتين ، وحيث تبدو للعين فى وضوح وعلى المدى القريب ، قصور سلاطين آل عثمان مثل قصر ضولمه باغجه وبيالر بك وغيرها كثير ، يزورها السائحون بعد أن أصبحت مزارات سياحية . ومن بين قصور إستانبول السياحية قصر توب كاپو حيث أقيم فى أحد أجنحته المتحف الحربى . وإلى جوار هذا المتحف ، جناح مستقل ، جمعت فيه من مختلف قصور آل عثمان ، جواهر ولآلئ وتيجان وملابس مطرزة بالجواهر وسيوف ومتعلقات آل عثمان التى تذهل الناظر بما تحويه من كنوز لم يستطع الخبراء الأجانب العالميون تثمينها . من بينها على سبيل المثال العرش الشاهانى الذى كان يجلس عليه هؤلاء السلاطين ، والذى يبدو مرصعاً بالنادر الثمين من الماس والزبرجد والياقوت واللؤلؤ والزمرد . وإن الناظر إلى هذا البذخ والترف الذى يفوق كل تصور ، يذهله ما كان ينفقه هؤلاء السلاطين من ثروات جمعوها من أقوات الشعوب التى كانوا يحكمونها فى آسيا وأفريقيا وأوربا . ولقد أحسنت حكومة تركيا الحديثة بجمع هذه الكنوز فى مكان واحد ، ليخرج المشاهد بفكرة واضحة مجلوة ، عما حمل زعماء الثورة الكمالية على إلغاء سلطنة آل عثمان وإلغاء الخلافة التى كانوا يتسترون وراء اسمها البراق فى عمل ما يروق لهم ، وبذلك أوقف مصطفى كمال ذلك التزيف الذى كان ينزفه الشعب التركى ، والشعوب الأخرى المستعبدة ، لإرضاء شهوات السلاطين القدامى ، وتثبيت حكمهم بالجاه والاستعلاء وهذا المظهر من السرف والسفه . وبرغم الحراسة المشددة على هذه الكنوز ، فإن الزائر لا يلحظ دقة هذه الحراسة ، لفرط العناية والأمانة فى أدائها .

ولمن شاء كذلك أن يقضى رحلة بحرية إلى جزر الأمراء ، التى تعتبر ( بيوك أضه ) أكبرها وتليها ( هيبة لى ) التى يتدرب فيها طلاب المدرسة

البحرية ، أن يركب باخرة صغيرة معدة لهذه الرحلات فى خدمة منتظمة تقطع المسافة فى مدى ساعة . ويصطاف أثرياء الأتراك فى جزيرة ( بيوك أضه ) كما يؤمها السائحون للتمتع بجوها الساحر وشاطئها الرملى وهدوئها الذى أعان على تأمينه للناجعين فى الجزيرة ، منع السلطات لمرور أى نوع من وسائل النقل ، فيما عدا عربات صغيرة يجرها الحمير أو البغال ، لتنقل الراغبين فى مشاهدة أنحاء الجزيرة . وبالجزيرة فنادق للمصطافين ومطاعم ونواد وملاه . والظاهرة التى يراها السائح فى إستامبول وضواحيها ، ازدحام المطاعم بروادها . وقد علمت أن ذلك يرجع إلى دخول السيدات ميدان الخدمة العامة ، وإلى قلة الأيدى العاملة فى البيوت ، بعد انتشار المصانع ، وهذه أمور من شأنها أن تحمل الأسرة على البحث عن مأكلها فى المطاعم ، بدون أن يحرموا من الأطباق التركية الشهية التى تؤمنها لهم هذه المطاعم . وتقع هذه الجزر الثلاث فى بحر مرمرة .

ولإستانبول كذلك مصيف يتميز بمياهه المعدنية التى ثبت صحياً فائدتها للمعدة والكبد والأمعاء والكلى ، وهو مصيف ( يالوفا ) حيث يقوم به فندق ضخم تديره الحكومة ، وإلى جانبه فنادق متوسطة للمصطافين والزائرين الذين يقضون أيامهم فى المصيف ، ويتريضون فى حدائقه الغناء التى توافر المسئولون على إضاءتها ليلا بثريات تتخلل جداول مياهها المعدنية بأسلوب مبتكر جميل ، يجذب النظر ويسر الخاطر . وتقع ( يالوفا ) كذلك فى بحر مرمرة على شاطئه الآسيوى . ومياه هذا المصيف المعدنية ، تعبأ فى زجاجات وتباع فى إستانبول مع مياه أفيون حصار التى تقدم فى المشارب بدلا من الماء العادى الذى لا يشربه إلا من لا يقدر على شرب الماء المعدنى برغم أثمانه المعتدلة .

ومن الأماكن التى لا يجب أن يفوت السائح زيارتها ، سوق إستانبول الشهيرة ( كاپالى شيرشى ) أى السوق المسقوفة . وبهذه السوق كل ما يمكن أن يخطر أو لا يخطر على البال ، من التحف القديمة والحديثة والأوانى

الفضية والمصاغ الذى اشتهر الترك بصنعه والسجاجيد والمنسوجات والجواهر والثريات النادرة ، ويقدر الخبراء محتويات السوق بمئات الملايين من الدولارات . والبيع والشراء فيه يجريان ويتمان معاً ، بطريقة يحسن بمن يريد أن يختصر الطريق للوصول إلى قمة ( الشطارة ) بدون شهادة أو ملحق أو إعادة ، أن يشاهدها على الطبيعة بين التاجر والمشترى ، الذى يبلغ فيه إغراء البائع للمشترى حداً يفوق إغراء ليدى ما كبث لزوجها على قتل الملك دنكان ليعتلى عرشه .

وإن من يزور إستانبول بدون أن يتناول غداءه أو عشاءه فى مطعم ( عبد الله أفندى ) ( مكسيم ) تركيا ، أو مطعم ( بنديللى ) فى إستانبول القديمة بمبانيها الأثرية ، التى تقتحمها العين ، حتى إذا دلفتْ إلى داخلها وقفت مشدوهة أمام البديع النادر من النقش والزخرفة والأثاث والرياش ، وكذلك مطعم (كارافانساراى ) بحديقته الغناء ، ومطعم ( حكمت بلك ) على الشاطئ الأوربى من البوسفور بضاحية ( ستينيا ) ، فقد فاته التنعم بالأكل فى أحد هذه المطاعم ، ويكون قد فاتته نصف مباهج إستانبول .

* * *

كنت أستمع كعادتى بعد ظهر كل يوم إلى إذاعة القاهرة فى يوم ٢٣ يولية ١٩٥٢ ، وإذا بى أمام أكبر نبأ يمكن أن يستمع إليه مستمع ناء عن بلده .

فقد استمعت إلى بيان الضباط الأحرار الموجه إلى الشعب المصرى ، بوصفهم أعضاء مجلس الثورة ، بعزل الملك فاروق ، بعد أن كان الفساد الحزبى والسياسى ، فى سبيل الوصول إلى الحكم ، قد تغلغل وتفشى فى جسد الأمة حتى تركها عرضة للانهيار ، وليست أحداث حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ ببعيدة . وذكر البيان الذى كان يلقيه العقيد محمد أنور السادت (رئيس الجمهورية الحالى) ، أحد أعضاء مجلس الثورة ، سبب هذه الثورة ، وما تنشده من إصلاحات وما سوف تستهدفه من

إجراءات تكفل تحقيق ما حدّدته من مبادئها الستة ، التى ما تزال فى الذاكرة حاضرة . وقد تم اختيار اللواء محمد نجيب رئيساً لحركة الضباط الأحرار ، ليتولى مع أعوانه منهم إدارة شئون البلاد ، إلى أن يستقر النظام الجديد للدولة على الوجه المنشود ، حتى تولاه مجلس قيادة الثورة برئاسة جمال عبد الناصر ، الذى انتخب فيما بعد رئيساً للجمهورية .

لم أتوان فى إبلاغ هذا النبأ الهام إلى السفير الذى كان يقيم مع بعض أعضاء السفارة فى مقرها الصيفى بضاحية ( ببك ) . وبعد ساعات وصلتنا برقية تتضمن النبأ المذاع . وكان على السفارة أن تتولى إبلاغ وزارة الخارجية والسفارات الأجنبية فى أنقرة ، كما تعين علىّ أن أقوم بإبلاغ والى المدينة وقناصل الدول المعتمدين فى إستانبول .

ولست فى حاجة إلى القول بأننا — أعضاء السلك الدبلوماسى المصرى فى الخارج — كنا أول من يتلقى مظاهر الرثاء والسخرية مرسومة على وجوه الدبلوماسيين الأجانب ، كلما ذاع نبأ مشين عن أعمال القصر أو رجال الحكم . وكنا نطوى على مرارة لا حيلة لنا فى علاجها .

ولست كذلك فى حاجة إلى القول بأن أعضاء السلك الدبلوماسى فى أى دولة من الدول ، وأينما حلوا ، إنما هم وطنيون قوميون ، يضعون نصب أعينهم خدمة أوطانهم ، والبعد برسالتهم عن المهاوى الحزبية والانحرافات السياسية ، والارتفاع فوق كل ذلك ، حتى لا تستهدف أعمالهم وجهودهم سوى وجه الوطن دون ما نظر إلى ميول أو نزعات أو اتجاهات . فالسياسة الحزبية انحياز ، فى حين أن الدبلوماسية شمول وتجرد وتفان .

وهم — فى مثل ما مر بمصر من تغيير لنظام الحكم — كانوا فى الطليعة بإخلاصهم وتجردهم ، لشرح وتفسير الظروف التى أدت إلى هذه الثورة على الأوضاع التى كانت قائمة . وكانت عدتهم فى ذلك ، الصحافة والإذاعة أحياناً ، والأحاديث التى يدلون بها فى مختلف المناسبات والدعوات التى يقيمونها أو يدعون إليها ، وكانت الصحافة التركية لا تخفى اغتباطها

بزوال عرش سليل بيت محمد على الذى خان ذات يوم سلطانهم وخان الأمانة التى أقامه عليها .

ومضينا فى مسيرتنا المحددة بالتعليمات التى كنا نتلقاها من الوزارة بالقاهرة ، مضيفين إليها ما يتمشى معها من واقع معلوماتنا ومعايشتنا لما كان يجرى فى تاريخنا القريب ، مستعينين فى ذلك بسبق ممارستنا لأعمالنا سنوات عديدة .

فقدحدث بعد يوليةسنة ١٩٥٢أن كنت أرد زيارة لقنصل عام بريطانيا — وكان بدرجة وزير مفوض — وقد سبق له أن كان قنصلا عاماً لبريطانيا فى الإسكندرية حيث أمضى ثلاث سنوات جعلته ملماً بمجريات الأمور فى مصر . وقد جرّنا الحديث إلى قانون تحديد الملكية الزراعية بمائتى فدان أول مرة ومائة للأبناء فقال إنهم فى إنجلترا رفعوا الضرائب — فى سبيل تقريب الفوارق الطبقية — حتى كادت تصل إلى ١٠٠٪ بعد العشرة آلاف جنيه الأولى من ثروة المواطن . وكان هذا فى نظره علاجاً يغنى عن تحديد الملكية وتوفير الكثير من الجهد . وقد أجبته بأن الأمر فى مصر مختلف كل الاختلاف . فإن الهدف عندنا من تحديد الملكية ، إنما مرده إلى تصحيح أوضاع جاءت نتيجة الظلم الذى أحاق بما يزيد عن ٩٠٪ من مجموع السكان من حيث الملكيات الزراعية الكبيرة وبقاء أغلبية الفلاحين الساحقة لا يكاد يكفيها ما تملك أو ما تستأجر ، فى عهد محمد على ، قام هذا الوالى بمسح الأراضى الزراعية فى مصر ، وضمها إلى ملكه ، ليوزع منها على أعوانه الذين حضروا معه ، أو المقربين إليه ، ما يشاء دون حسيب أو رقيب . وكانت الحكمة الكبرى فى ذلك تكمن فى خلق طبقة ثرية قوية متحكمة تحمى عرشه فى عهده وفيما بعده من ذريته . وقد بلغت ثروات بعض أعوانه عشرات الآلاف من الأفدنة بما عليها من فلاحين وأدوات ودواب ، حتى يصنع منهم فى مواقعهم حكاماً يدينون له بالطاعة ويستغلون نفوذهم الذى توارثه الخلف عن

السلف ، حتى أصبحت العصبية الأسرية تتحدى سلطان الحكومة ، فما أتى بعد ذلك من أعوام ، وعندما قامت ثورة ١٩٥٢ كانت هذه الأوضاع الاجتماعية والفوارق الطبقية من بين مبادئها التى عملت على علاج ما ترتب من مظالم سابقة . وتم توزيع الزائد من الأرض على المدقعين من الفلاحين الذين عاشوا كالإبرة التى تكسو الغير وتبقى وحدها عارية .

ومن فضل الفلاح على المجتمع ، بسبب الفارق الكبير فى النسبة بين ما ينتج ومايستهلك ، أنه غدا عونا على انتظام تنفس الاقتصاد القومى فى مصر وفى بلدان أخرى عديدة وتجنيبها ويلات الهزات الاقتصادية .

* * *

منذ وصولى إلى إستانبول فى شهر فبراير من عام ١٩٥٢ والنشرات والمكاتبات والدعوات تترى على القنصلية العامة من إدارة سوق أزمير الدولية التى تقام بمدينة إزمير كل عام فى المدة من ٢٠ أغسطس إلى ٢٠ سبتمبر ، حيث تساهم فيه الدول المشتركة بعرض منتجاتها ومصنوعاتها فى الأقسام المستأجرة من السوق .

وكنت أبعث إلى الجهات المختصة بالقاهرة للعمل على الاشتراك فى هذه السوق لعرض أحدث منتجاتنا ، وبخاصة أن إسرائيل مشتركة فيها وغيابنا يمكن تفسيره بأنه هروب من المنافسة . ويبدو أن الوقت لم يكن متسعا للبت فى أمر الاشتراك ولم تكن مصر قد اشتركت من قبل فى سوق إزمير ، وانتهى رأى الجهات المختصة بتكليفى بزيارة السوق وحضور يوم الافتتاح وموافاة تلك الجهات بتقرير شامل عن مشاهداتى وانطباعاتى ، يتقرر على ضوئه اشتراكها فى الأعوام التالية .

وقد أبحرت من إستانبول فى ١٨ أغسطس سنة ١٩٥٢ بالباخرة أنقرة فى طريقى إلى إزمير . كانت الباخرة تشق طريقها وسط بحر مرمرة الهادئ الجميل حتى إذا ما حلك الليل كنا نمر أمام قلعة ( جنا كلى ) واسمها باللغة العربية ( جناح قلعه ) وهى القلعة التى تقابلها على الشاطئ الآخر

[الآسيوى من الدردنيل غاليو بولى حيث دارت بين الموقعين المنيعين بقلعتيهما القائمتين على مرتفعين شامخين ، المعركة البحرية التى أصر تشرشل وزير البحرية آنذاك على خوضها فى الحرب العالمية الأولى ، وراح ضحيتها عند اختراق أساطيل الحلفاء للدردنيل عشرات الآلاف من الجنود الأستراليين ، كما نقل تشرشل على أثرها إلى وزارة التموين .

سارت بنا الباخرة وهى تتهادى فى مضيق الدردنيل الذى كنا نرى شاطئيه ، حتى اتسع المسار أمامها لتمضى فى بحر ايجه نحو غايتها إزمير ، فبيروت فالإسكندرية ثم باقى الرحلة الدائرية حول موانئ البحر المتوسط .

هبطنا إزمير ثانى مدن تركيا بعد إستانبول ، فى اليوم التالى للسفر .

لقد شاب الزمان من حول إزمير ، وهى ما تزال غضة ناضرة . وأوغل تاريخها فى أغوار الدهر حتى لقد يصل ميلادها إلى آلاف السنين قبل الميلاد . وهى تحمل كذلك اسم (سميرنا) نسبة إلى إحدى عرائس الأساطير التى عاشت فى إزمير القديمة ، ورأت أن تخلع عليها اسمها فلازمها حتى اليوم .

وفى مدن خليج إزمير ، وبين دساكره وقراه ، يقولون إن هوميروس صاحب الإلياذة والأوديسا نشأ وترعرع . وكان هذا الشاعر الضرير يتنقل بين القصور والأكواخ ينشد شعره الذى غالب الزمن ورواه الخاصة والعامة ، وبقى يتردد قويًا كلحن الخلود . وكانت إزمير إحدى مدن سبعة ، تنافست على انتمائه إليها ، مثل خيوس ورودس وسالاميس وأراجوس وأثينا وكولوفون ، وإن كان أغلب المؤرخين ، على اتفاق فى انتمائه إلى إزمير .

وبمدينة إزمير آثار من العهد اليونانى أيام الإسكندر الأكبر . وكذلك من العهد الرومانى . وبعد غزو تيمور لنك لها وتدميره لمبانيها وتقتيل سكانها إلا من هرب فزعًا من هول ما رأى ، حكمها سليمان القانونى بواسطة حاكم ولاه عليها من قبله ، هو قبطان باشا أمير البحار .

وعند انتصار الحلفاء فى الحرب العالمية الأولى ، احتلتها قوات اليونان بمساعدة أساطيل الحلفاء . وفى ١٩ من شهر سبتمبر عام ١٩٢٢ تم لمصطفى كمال إخلاؤها من القوات اليونانية المتقهقرة بعدما نزل بها من هزيمة حملتها على أن تشعل الحرائق بها عند انسحابها ، كما عمدت بوارج الحلفاء إلى رميها بوابل من قنابلها ، حتى تركوها حطاماً كأن لم تكن بالأمس عروس بحر إيجه . ولهذا يلاحظ الزائر لها اليوم ، أن أغلب مبانيها جديد ، وشوارعها متسعة مستقيمة ، وحدائقها وأشجارها تلتف بها أينما اتجه البصر عن يمين أو عن شمال .

وقد اختيرت إزمير مقراً للقيادة العامة لقوات القطاع الجنوبى الشرقى لحلف الأطلسى منذ عام ١٩٥٠ ، وعهدت إلى الأسطول الأمريكى بإقامة منشآته وأحواضه واستحكاماته فى إزمير ، ليتولى الإشراف على هذا القطاع ، وليتخذ من إزمير قاعدة بحرية له برغم تذمر قطاعات كبيرة من السكان . وقد تم ذلك فى عهد حكم الحزب الديموقراطى فى تركيا . وقد جاء ذلك الإجراء مطابقاً لاستراتيجية أمريكا التى تعتبر أن حدودها الآمنة ، تمتد وتتسع حتى تصل إلى صورة متكاملة للعالم . فأوربا وأفريقيا وآسيا فيما عدا الصين الشعبية حدود آمنة لأمريكا ، ما دامت تفصل بينها وبين الاتحاد السوفيتى وتتيح لها إقامة قواعد فى دول هذه القارات طالما كان الموقع استراتيجياً بالنسبة لها . وقد تسنى لها أن تقيم قواعد فى أوربا وفى البحر المتوسط وفى كافة المحيطات وفى تركيا والحبشة وإيران ، تخضع للعسكرية الأمريكية وللنفوذ السياسى الأمريكى .

وكانت إزمير من قبل ذلك من أكبر موانئ بحر إيجه ، وموانئ تركيا كلها . وتمشياً مع هذه الأهمية أنشأنا فى أول العهد بالسلك الدبلوماسى المصرى ، قنصلية مصرية فى إزمير . وقد قص على أول قنصل من الزملاء تعين بها قصة مفادها أنه عندما عثر على دار للقنصلية ، وقام بتوقيع العقد ، أرسل طبقاً للتعليمات المالية ، صورة العقد وأرفق بها رسماً للدار وبيانا

يصف محتويات الدار ، وزاد فى الدقة حتى أدخل نفسه فى المساءلة ، عندما ذكر أن الدار تحيط بها حديقة صغيرة مسورة ، وكانت وقت توقيع العقد مزروعة خياراً وقثاء وقرعاً إسطامبولياً . ذلك أنه لم يمض سوى شهور معدودة ، حتى تلقى من الإدارة المالية كتاباً تخطره فيه بأنه بمراجعة حسابات متحصلات القنصلية ، لم يرد ذكر لمحصول الحديقة من خيار وقثاء وقرع ، وهى ترجو بعد بيع المحصول ، توريد ثمنه إلى خزينة المتحصلات ، بعد عمل ممارسة بين المشترين طبقاً للتعليمات المالية . . . .

ويحتضن إزمير خليج يضم أطرافها وينسحب بها إلى أعلى فى مدرجات تأخذ فى الارتفاع من الشاطئ على شكل ( انفتياتر ) حتى يصل إلى قمة جبل باجوس الذى يرتفع ١٨٠ متراً فوق سطح البحر .

وتبلغ مساحة إزمير وضواحيها ٥٤٣ كيلومتراً مربعاً ، وتضم هذه المنطقة ٦٨٠ قرية . ويبلغ عدد سكان إزمير وحدها ربع مليون نسمة .

وتقام سوق إزمير الدولية على حديقة للبلدية أنشأها مصطفى كمال تبلغ مساحتها خمسين فداناً ، وأسماها (كولتوربارك) .

وقد قام بتنسيقها متخصصون فى إنشاء الحدائق حتى أتت تحفة بين الحدائق العالمية نظاماً واتساعاً ونضارة وتنسيقاً .

وفى ذلك العام ، اشترك فى تلك السوق أربع عشرة دولة كبرى ، و٩٣١ مصنعاً ، واشتركت تركيا بمصنوعات ٨١٣ مصنعاً ومحلاً تجارياً . وحرصت أمريكا على أن تعرض أحدث آلاتها الزراعية والصناعية ونماذج للطائرات والموتورات وأدوات الكهرباء المنزلية .

وبعد عودتى إلى إستانبول بعثت بتقريرى لإدارة المؤتمرات والهيئات الدولية والإدارة الاقتصادية ، وكان مما اغتبطت له ، أن قررت لجنة المؤتمرات والمعارض الدولية ، الاشتراك فى هذه السوق فيما أتى بعد عام ١٩٥٢ من أعوام .

* * *

كان خط شركة ساس للطيران ينتهى فى إستانبول . وعندما رأت الشركة أن تمد خدمتها إلى القاهرة لتكون هى نهاية الخط الجوى ، تم الاتفاق بينى وبين وكيل الشركة النرويجى أن أسافر عند افتتاح هذا الخط ، على أول طائرة تكون وجهتها القاهرة . وبصحبتى سبعة من الصحفيين الأتراك الذين يمثلون مختلف الاتجاهات للبقاء فى القاهرة أسبوعاً . ثم أعود بهم على أن يلحقنا فى الطائرة التالية سبعة من الصحفيين المصريين لزيارة تركيا ، وذلك فى إطار تعميق التفاهم بين البلدين . الذى كانت أياد كثيرة تتضافر على العبث به . وقد نجحت الرحلة ، وتمنيت لو أنه تم ذلك فى أجزاء كثيرة من العالم ، عندما تتعرض لأزمات تؤثر على الصداقة والتفاهم . فالصحافة تمثل السلطة الرابعة فى الدول .

وكنت فى سبيل الإطار نفسه ، على وشك أن أنجح فى ترتيب رحلة للقاهرة لوالى إستانبول — كان هو الذى أبدى رغبته فى القيام بها تمهيداً لزيارة يقوم بها وزير خارجية تركيا — للعمل على إزالة ما كانت تضعه من عقبات ، محاولات الإمبريالية ، لتوسيع شقة الخلاف لا لتضييقه . وحدث بعد أن تلقت القنصلية العامة الدعوة الموجهة للوالى من محافظ العاصمة ، وتحدد اليوم الذى يسافر فيه ، وقمت بدعوة زملائى القناصل العامين وكبار رجال المحافظة ومندوبى الوكالات والصحف وصفوة من أساتذة جامعة إستانبول وغيرهم من أصدقاء القنصلية ، للاشتراك فى توديع الوالى ليلة سفره فى غد تلك الليلة ، حدث أن شب حريق كبير فى تلك الليلة عند منتصفها فى بلدة كبيرة على الشاطئ الآسيوى من البوسفور ، لم يستطع معه السفر ، وإن كان من الواضح أن تدبير الحريق كان مخططاً ، بدليل أن الوالى تلقى فى ذلك الأسبوع ، عدة دعوات من محافظين فى الولايات المتحدة ، لزيارة ولاياتهم . لصرف أنظاره عن السفر إلى القاهرة .

وكنت أرجو من وراء مثل هذه الزيارة إيجاد أرضية لتفاهم يقلل من

توتر النفوس . وفى الترك تعصب لوطنهم يعميهم عن سلوك السبيل المألوف ، ويخرج بهم عن حدود الاتزان. حدث أن كنت مدعوًّا فى حفل مسابقات وعروض رياضية . وكان الجو قارس البرودة وكنت أضع قبعتى فوق رأسى استجلاباً للدفء . ولم يكن قد مضى على وصولى أسابيع معدودة . وكانت الموسيقى تعزف أناشيد ومقطوعات ذات شهرة عالمية كنت أعرفها وفجأة عزفت نشيداً لم أدرك أنه النشيد القومى التركى . وإذا بى أرى أحد الجالسين خلفى يخلع قبعتى بنفسه من فوق رأسى بدون أن يترك لى هذا الشرف ، مثلما فعل عكس ذلك نابليون عندما أراد البابا أن يلبسه التاج ، فبادر نابليون ووضعه بيديه فوق رأسه عند تتويجه .

وفى يوم ذكرى وفاة أتاتورك ، حضرت مظاهرة أمام دار القنصلية العامة لتحتج على عدم تنكيس العلم المصرى فوق الدار . وقد استقبلت ثلاثة منهم ، أفهمتهم أن المستخدم الذى يتولى مهمة رفع العلم أو تنكيسه فى الأعياد القومية لمختلف الدول ، بموجب قائمة يحملها بتواريخ تلك الأعياد ، هذا المستخدم تركى الجنسية ، وبهذا تنتفى أية شبهة فى الاستخفاف بهذا اليوم ، وإننى سوف أوقع به أشد العقاب . وعند ذلك تخاذل المحتجون عندما علموا بجلية الأمر وبجنسية المسئول ، والتمسوا مجرد لفت نظره .

* * *

صدرت فى أواخر شهر أبريل من عام ١٩٥٣ حركة دبلوماسية شملتنى بالنقل من إستانبول وبتعيينى مستشاراً أول لسفارة الجمهورية المصرية فى أنقرة لأحل محل المستشار الزميل والكاتب الكبير الأستاذ يحيى حقى ، الذى كان قد تقرر نقله من أنقرة وتعيينه وزيراً مفوضاً لمصر بالمملكة الليبية آنذاك .

غادرت إستونبول فى الأسبوع الأول من شهر مايو عام ١٩٥٣ بالقطار من محطة حيدر باشا التى تقع على الضفة الآسيوية من البوسفور . وكانت المسافة بين إستانبول وأنقرة يقطعها القطار فى ١٤ ساعة ، ينصرم أغلبها

فى أحشاء الليل ودياجيه ، بدون أن تتاح للركاب فرصة مشاهدة الأناضول ، الذى هو تركيا الحقيقية منذ العهد الطورانى .

وتقع أنقرة وسط جبال تحيطها من كل جانب ، حتى لقد شبهها أحد اليونانيين الأوائل عندما رآها من مرتفع ، بأنها ومن حولها الجبال تشبه ( هلب ) المراكب حيث تمثل أطراف ( الهلب ) الجبال المحيطة التى تقع فى قاعها أنقرة . ويقول بعض المجتهدين ، إن اسم أنقرة مشتق من كلمة Anchor أى ( الهلب ) .

وقد كانت أنقرة قرية فى صميم الصحراء والريف الأناضولى ، لايوجد إلى جانبها من المدن الكبيرة سوى إسكيشهر وبروصه وأفيونقره حصار ، وبين أنقرة وبين أقرب هذه المدن مسافة ٣٠٠ كيلو متر . وتقع أنقرة على رافد صغير من روافد نهر (سقاريا) . وهى لا تعتمد قليلا أو كثيراً فى الرى ، لصعوبات فنية ، على هذا الرافد ، وبخاصة فى دائرة محيط أنقرة ، ولكن مصطفى كمال الذى كان يتخذها قاعدة لحركته للاستقلال ببعض ولايات الأناضول عن حكم الخليفة العثمانى فى إستانبول ، عمد عندما دان له السلطان إلى تخطيط المدينة على أحدث طراز ، وصرف همه إلى الاعتماد على ادخار مياه الأمطار الصيفية الغزيرة فى مخازن تشـبه البحيرات الصغيرة Reservoirs للاستفادة منها طول العام . وقد أقيمت بأنقرة على جوانب شوارعها المستقيمة مبان ومنازل ودور للهيئات وللأفراد ، كان قانون المبانى يحتم على كل مالك أن ينشئ حديقة أمامية لداره يزرعها بالزهور وحديقة خلفية لزراعة أنواع من الخضراوات وبعض الفاكهة . ولما كان الماء شحيحاً فى أول العهد بإنشاء العاصمة ، فقد كانت مياه الاستعمال اليومى ، تصرف بالتناوب ، شارعاً بعد شارع . وكانت الأفضلية فى صرف المياه للمزروعات . وبعد سنوات قليلة معدودة ازدهرت العاصمة وامتلأت بالمبانى الحكومية الضخمة ومن بينها مبنى المجلس الوطنى الكبير ومبانى

السفارات الأجنبية ودار الأوبرا والفنادق . كما انتشرت الحدائق الواسعة التى استحدثت لتزيد من خضرة العاصمة ، ولتساعد على عملية التبخر التى يعقبها المطر ، الذى يتجمع فى مخازنه التى سلفت إليها الإشارة . لقد كان هذا العمل من الأعمال الجبارة التى أخضعها لعزمه وتصميمه ، مؤسس تركيا الحديثة ( أتاتورك ) .

وكان عدد السكان فى ذلك الوقت من عام ١٩٥٣ ، يبلغ ٣٠٠ ألف نسمة . وكانت وسائل الترفيه محدودة ، لاتتجاوز ثلاثة أماكن للصور المتحركة وأوبرا موسمية وفندقين متوسطين وحدائق عديدة مترامية المساحات ، خصصت إحداها للأطفال ، ومطاعم راقية معدودة وكانت حفلات السفارات تساعد على شغل فراغ الدبلوماسيين ، إلى جانب رحلات للضواحى القريبة والبعيدة فى أيام العطلات الأسبوعية .

وقد كان وفاء مصطفى كمال للمدينة التى اتخذ منها مركز قيادته لثورته على الغاصب المحتل لأهم مناطق من وطنه ، وعلى خلافة آل عثمان التى أفضت فى نهايتها إلى ما وصلت إليه تركيا من ضعف أغرى بها الأعداء ، كان هذا الوفاء من بواعث اختياره النهائى لعاصمة الجمهورية عند إنشائها فى ٢٩ أكتوبر عام ١٩٢٣ .

وفى مطلع الثورة الكمالية كانت أنقرة هى مركز تجمع نواب كافة الألوية فى الأناضول فى مجلس أقاموه لهذا الغرض هو الذى على أساسه تكون المجلس الوطنى الكبير عند المناداة بالجمهورية ، بعد أن لفظت دولة آل عثمان آخر أنفاسها وبعد أن ألغى مصطفى كمال الخلافة فى ٣ مارس عام ١٩٢٤ مثلما ألغى سلطنة آل عثمان من قبل ذلك فى نوفبر من عام ١٩٢٢ . كذلك كان من بين دوافع اختياره لأنقرة مقراً لعاصمة أول جمهورية تركية ، البعد عن وكر الدسائس والمؤامرات فى إستانبول التى كانت تعج بعملاء الدول الطامعة فى وقت كان يريد أن يتفرغ فيه ، وهو فى أول طريق الاستقلال الحقيقى للبلاد ، لتنفيذ

مخططاته العسكرية والخارجية والاجتماعية والعلمية والإصلاحية وبإيجاز لإقامة دولة على ركائز وقوائم لا تمت بصلة للدولة العثمانية القديمة ، إلا من حيث التراث المشترك من عادات وتقاليد ؛ لم يشأ أن يصدم النفوس بالتعرض لها فى بادئ الأمر ، ولكنه راح يروض النفوس على تقبل ما كان يريده من تغيير الكتابة العربية إلى كتابة بالحروف اللاتينية ومن أداء الأذان باللغة التركية ومنع الظهور بملابس رجال الدين فى الشوارع والتحتيم على كل صاحب مقهى بأن يزوده بكتب لرواد المقهى بدلا من لعب النرد والدومينو . وكان يطلق على هذه المقاهى ( قراءات هانه سى ) أى مكان القراءة ، أو المكتبة ، ثم إبطال الغناء والموسيقى التركية القديمة واستبدالها بموسيقى الكونسير والجاز والسوناتا وهو أمر لم يعش من بعده يوماً واحداً . ويحسن فى هذه الشئون تركها لسنة التطور .

* * *

بعد أسابيع من إقامتى فى أنقرة ، رحل السفير وبعض موظفى السفارة ، كالمتبع فى صيف كل عام ، إلى المقر الصيفى للسفارة فى ضاحية ( بيك ) على البوسفور ، وبقيت أنا وبعض الزملاء الدبلوماسيين لأقوم فى غيبة السفير بأعماله ، طوال شهور الصيف .

لم أعمل من قبل فى السفارات إلا شهوراً فى أثينا . وفجأة وجدت نفسى أمام عمل دبلوماسى كبير ، أنا على رأسه ، وعلى أن أقوم به وأنجزه على أحسن وجه ، فى هذا المنصب الرفيع . وربما قربت إلى ذهن القارئ ، هذه الصعوبة المباغتة ، بضرب المثل بقاض فى محكمة ابتدائية ، قضاياه كلها مدنية ، يكاد ينسى مع الوقت عالم الجنايات وموادها وفقراتها ، وإذا به ينتقل إلى سلك النيابات حيث لا عمل له إلا فى الجنايات والجنح والإيقاع بمن تثبت إدانته فى الجرائم التى يحققها لينال جزاء ما اقترف مثل هذه النقلة تحتاج إلى بعض الوقت حتى يعاود

القطار مسيرته فوق القضبان .

على أن درايتى بالعمل بالسفارات ، كانت دراية نظرية ، نماها ما كنت أقرأه من كتب التاريخ الدبلوماسى والقانون الدولى والدراسات السياسية والدبلوماسية التى توفر على إصدارها كبار الساسة والدبلوماسيين أمثال نيفيل هندرسون ، وه. نيكلسون وجول كامبون وفيلكس جلبرت وما نشره أصدقاء فيليب بارتيلو عن أعماله عندما شغل منصب سكرتير عام وزارة الخارجية الفرنسية عشرات السنين ولكنى وجدت أن القراءة النظرية شىء والممارسة العملية شىء آخر . صحيح أن الخلفية تساعد على اتساع الأفق والإحاطة والشمول ، إلا أن أكثر ما يميز الدبلوماسى عوامل ولدت معه ومواهب تميز بها ، فى مقدمتها حاسة الاستقراء والتنبؤ بالنتائج من المقدمات ، والذوق السليم ، وحسن التصرف وشجاعة القلب ، وبراعة الحديث ، ومعارف عديدة من كل فن وعلم والإحاطة بما يجرى حوله ومأتى ذلك وباعثه ، والإحاطة بكل ما يتصل ببلده من تاريخ وسياسة واجتماع وتيارات فنية فى مختلف مجالات الفنون .

وإذا استطاع الدبلوماسى أن يوفق بين عمله فى المكتب ولقاءاته خارجه ، فليطمئن إلى أنه كسر حاجز الصوت ، وانطلق إلى فضاء واسع الأرجاء .

مضت الأيام تجرى فى سيرها الوئيد ، والعمل يجرى فى مستقر له ، إلى أن احتشدت فى الجو السياسى فى تركيا ، سحائب تجتذب الانتباه مثلما يجذب الرادار مشاهد نائية ، أبعد ما يكون النوى . وكان فى مقدمة المسائل السياسية ذات الأهمية القصوى ، وصول مستر دالاس إلى أنقرة . وفى زيارته لمصر عام ١٩٥٤ فشل فى ضمها إلى حلف بغداد وقد تخلفت عن هذه الزيارة لمصر عام ١٩٥٤ مرارة ما تزال قائمة. وكان حنق أمريكا على رفض انضمام مصر ، بداية للمواجهة الساخنة مع إسرائيل بتحريض أمريكا ، فيما بعد . وقد كان نجاح مصر عام ١٩٥٤ فى

إجلاء بريطانيا عن قاعدة القناة من حوافز أمريكا لضم مصر لهذا الحلف ، لتملأ بذلك الفراغ المتخلف عن الجلاء ولتسيطر أمريكا على منطقة الشرق الأوسط . وتلا ذلك تحرك مواضيع خلاف بين روسيا وتركيا ، لم تستطع المعاهدات الموقعة بشأنها ، أن تضع حداً لها .

وكان يقتضيني متابعة الأنباء الجديدة التي توشك أن تتخلف عنها أزمة تشغل العالم بأسره ، أن أبادر بالذهاب إلى مكتبي في ساعة مبكرة من كل نهار ، إلى ساعة متأخرة منه ، لأوافي الوزارة بأنباء زيارة دالاس ومتابعة الأزمة القادمة .

وإذا كنت نسيت أن أذكر أن جو أنقرة قاري جاف ، فإنه فوق ذلك من أكثر الأجواء انتظاماً في بدايات ونهايات الفصول وما يتبعها من ظواهر جوية ، كالثلج أو المطر . فموسم المطر يبدأ في يوم معلوم بنهاية محتومة ، كأنه موسم الأوبرا في فيينا أو ميلانو . أما جفاف جو أنقرة ، فهو نسيج وحده ، لا يدانيه مثيل له في شرق أو في غرب ولم أكن أستطيع أن أنام أكثر من أربع ساعات في الأربع والعشرين ساعة ، أقوم بعدها نشيطاً في الخامسة صباحاً ، لا أدري ماذا أفعل أو أين أذهب . ولم يكن ليفتح أبوابه في هذه الساعة سوى أقسام البوليس والمستشفيات الساهرة ، وليس بي حاجة لأي منهما . وهكذا كنت أذهب إلى مكتبي قبل حضور الزملاء والمستخدمين والسعاة والفراشين بوقت طويل . وكان التصميم المعماري الذي أقيمت على أساسه مكاتب السفارة — ولم أشترك في وضعه — يسمح لمن يجلس في مكتبي ، أن يرى كل داخل أو منصرف ، حتى لو تعمد عدم النظر ، كما لو كان مدخلا لسينما أو مسرح . فكنت عندما يمر أمامي الزملاء في ساعتهم التي يحضرون فيها قبل صلاة الظهر بقليل ، أعتذر لهم من حضوري مبكراً ، كما كانوا يعتذرون لي من أن تأخرهم مرده إلى سهرهم على قطع ساعات الليل في محاولة النوم .

كانت الخلافات على المرور فى المضايق التركية والإشراف عليها وتسليحها ، وكذلك الخلافات على بعض مناطق الحدود ( قرص وأردهان ) من أكثر المسائل التى تقف عقبة فى سبيل قيام تفاهم قوى الأواصر بين روسيا وتركيا من قديم الزمن . وبرغم أن الموضوعين قد أصبحا فى إطار معاهدات تنظم مسائل الخلاف ، إلا أن الخلافات السياسية عندما تتأزم ، تبدأ فى تفسير بنود المعاهدات بما يتفق ومصلحة كل دولة .

فعندما أثارت روسيا فى عام ١٩٤٥ رغبتها فى الاشتراك فى الإشراف على المضايق ، مخالفة بذلك ما نصت عليه معاهدة مونترو الموقعة عام ١٩٣٦ من دول معاهدة لوزان فيما عدا إيطاليا وذلك استناداً إلى أن تركيا خلال الحرب العالمية الثانية ، لم تكن ملتزمة الحياد التام فى الإشراف على المضايق ، رأت تركيا أن تضع حداً لهذه المجادلات ، بإبداء استعدادها فى مذكرة مقدمة لروسيا فى ١٨ أكتوبر عام ١٩٤٦ ، لوضع مسألة إدارتها للمضايق أمام أى هيئة للتحكيم ، وأن تركيا على استعداد لدعوة الموقعين على معاهدة مونترو للمباحثة فى تعديلها ، مع استشارة الأمم المتحدة فى أى اتفاق جديد .
وكانت مسألة المضايق والحدود بين البلدين ، كالبراكين التى تتحرك فى الحين بعد الحين .

ولم يحدث جديد منذ ذلك التاريخ ، ولم تظهر أى رغبة بدعوة إلى مؤتمر تبحث فيه الدول المعنية أمر تعديل معاهدة مونترو أو قيام معاهدة جديدة محلها ، ولكن حدث فجأة فى ٣٠ مايو عام ١٩٥٣ أن سلمت الحكومة السوفييتية للسفير التركى فى موسكو ، مذكرة أشارت فيها إلى رغبتها فى إقامة العلاقات التركية الروسية التى تهم البلدين بطريق مباشر على أساس من الود والتفاهم ، وأبدت استعدادها للدخول فى مباحثات تستهدف تحقيق هذه الرغبة ، وتنتهى إلى اتفاق الطرفين على مسألة المضايق وغيرها من مسائل الحدود ، بدلا من بقاء هذه

المسائل معلقة بدون التوصل إلى حل جازم بات .

لم تشأ تركيا أن ترد على مذكرة روسيا قبل أن تتشاور مع الأطراف التي دخلت تركيا معها في محالفات واتفاقيات . فهناك حلف الأطلسي ، والحلف البلقاني الثلاثي ( تركيا — يوجوسلافيا — اليونان ) وهناك إلى جانب ذلك الدول المشتركة في التوقيع على معاهدة مونترو وأهمها بريطانيا ، وهي دول معاهدة لوزان ( ١٩٢٣ ) فيما عدا إيطاليا .

وبعد أن أتمت تركيا هذه المشاورات ، بعثت بردها الذى أبدت فيه رغبتها في الالتقاء مع روسيا على قيام علاقات الود والتفاهم فيما بين البلدين ، وأما فيما يختص بالمضايق فإنها ترى الفرصة سانحة لتذكير روسيا بأنها في هذه المسألة تخضع لمنطوق معاهدة مونترو التي ينتهى العمل بها عام ١٩٥٦ ، والتي لم يتقدم عضو بطلب تعديلها منذ توقيعها ، وأنه لا بد من إجراء مشاورة بين الأعضاء الموقعين عليها ، إن أرادت روسيا أن تدخل عليها تعديلا .

كانت روسيا تستند إلى معاهدة بينها وبين تركيا موقعة عام ١٩٢١ قبل مونترو ، ومن بين نصوصها نص يحتوى على انفراد دول البحر الأسود بتنظيم العلاقات الدولية فيما بينها وفي مقدمتها الإشراف على المضايق . إلا أن تركيا ، في مقابل ذلك ، رأت أن تثير جدلا ورد نص له في معاهدة ١٩٢١ يعطيها الاعتراف من جانب روسيا باحترام حقوقها في إقليمى ( قرص وأردهان ) اللذين تنازلت عنهما روسيا لتركيا بكامل رضاها ، فإذا شاءت روسيا أن تحيي تلك المعاهدة ( ١٩٢١ ) فعليها أن تكف عن المطالبة بهذين الإقليمين ، وهو مادأبت على المطالبة به خلال هذه المجادلات ، في خطب زعمائها ، ومقالات رؤساء تحرير صحفها ، واستحداث عامل الإثارة في هذا الحوار الساخن .

وما دمنا بسبيل بحث ما بين روسيا وتركيا من مسائل معلقة ، تأتى في مقدمتها مشكلة المضايق ، فإن الأمر جدير بإلقاء نظرة عابرة على أصل

المشكلة من جوانبها التاريخية والسياسية[١].

كانت تركيا تتشبث بأن مضايقها (البوسفور والدردنيل) من منح الطبيعة السخية، وأنه لا دخل ليد الإنسان فى إنشائها مثلما هو الحال بالنسبة لقناة السويس أو قناة بناما، وأنها استناداً إلى هذا المنطق، تكون هى وحدها صاحبة الحق فى الإشراف عليها بحكم تملكها لها ووقوعها فى منطقة سيادتها على أراضيها، مثل نهر المسيسبى بالنسبة لأمريكا. وهى تملك هذا الحق، منذ انتصار جيوش محمد الفاتح عام ١٤٥٣ وفتحها للقسطنطينية. وبعد أن تم لتركيا فيما بعد ذلك، احتلال شبه جزيرة القرم، خضعت كل الدول المحيطة بالبحر الأسود، فيما عدا روسيا، لسيادة تركيا، كما أصبح البحر الأسود، بحيرة تركية. وكان من الطبيعي أن تحتكر تركيا حق المرور فى المضايق بموجب هذه السيادة، وتحرمه فى أغلب الأحوال على السفن الأجنبية، وفق ما تراه، مدى ثلاثة قرون.

والبوسفور فى اللغة التركية يعنى (الزور) من الرقبة. بمعنى أن من يتحكم فى هذه المضايق يتحكم فى الدول المحيطة بالبحر الأسود، وبالدول التى يمر بها نهر الدانوب قبل أن يصب فى البحر الأسود مثل هنجاريا والنمسا ويوجوسلافيا ورومانيا وبلغاريا. وطبيعى أن هذه الدول، تحتاج إلى ممر للوصول إلى البحر المتوسط ثم قناة السويس، فلا سبيل لنقل بضائعها ومنتجاتها إلا عن طريق هذه المضايق. كما أن الدولة التى تتحكم فى هذه المضايق، تخنق تركيا وتدعها تحت رحمتها.

وبعد حروب طويلة بين تركيا وروسيا، كانت سجالا، انتصرت روسيا فى حرب القرم عام ١٧٧٤، واضطرت تركيا بعد تدخل دولى كان يستهدف المحافظة على ميزان القوى، عندما رأت دول أوربا أن روسيا

---

(١) تأخذ تركيا بنظام حكيم، مؤداه الاستفادة من سفرائها المتقاعدين بتأليف مجلس استشارى من بعضهم، تعمل وزارة الخارجية على استشارته كلما حزب أمر، دون أى التزام برأى المجلس.

فى عهد كاترين كانت تريد أن تضم القسطنطينية إلى ملكها للإشراف على هذه المضايق ، اضطرت تركيا إلى قبول مبدأ حرية الملاحة فى هذه المضايق للسفن التجارية فقط ، ثم زادت تنازلات تركيا إلى أن نص عليها فى معاهدة لوزان عام ١٩٢٣ ثم فى اتفاقية مونترو عام ١٩٣٦ وتحددت بتلك المعاهدات ، حقوق تركيا فى الإشراف على المضايق ، وفى منح الحق للسفن التجارية والحربية لكافة الدول بالمرور ، على أن يكون مرور السفن الحربية خلال الحرب فى أثناء النهار ، مع اتباعها فى سيرها ، الخط الذى ترسمه لها السلطات البحرية التركية .

ظلت هذه المجادلات شهوراً ، ساهمت الصحافة فى البلدين فى إشعالها وزيادة توترها . إلا أن ثبات تركيا ، واعتمادها على مساندة أمريكا والغرب لها فى موقفها ، تمسكاً بمعاهدة مونترو من جهة ، وخوفاً من سيطرة روسيا على المضايق إذا أجيبت إلى طلبها من جهة أخرى ، أخمد جذوة هذه المجادلات .

وغنى عن البيان ، أن هذه الفترة العصيبة ، قد شغلت السفارات الأجنبية فى أنقرة ، بالمتابعة والاتصالات الشخصية والكتابة إلى وزارات خارجيتها ، طالما كان النور الأحمر مضاء ، وما دامت المقدمات تنذر بخطورة ما يؤدى إليه التوتر ، إلى أن أضيء مرة أخرى النور الأخضر ، وعند الصباح يحمد القوم السرى .

وسيبقى أمر الإشراف على هذه المضايق وإدارتها ، مشكلة المشاكل[١] ، ومثاراً لخلاف دائم بين روسيا وتركيا . ويصعب كثيراً التوصل إلى حل ترضى به روسيا رضاً كاملا ، ويحمل تركيا على الرضا به ، وتوافق الأطراف المرتبطة بها تركيا كحلف الأطلسى وحلف البلقان ، على مثل

---

( ١ ) للمؤلف بحث عنوانه « مشكلة المضايق » تناول بالتفصيل هذا الموضوع وقد طبعته وزارة الخارجية المصرية وعممته على بعثاتها فى شهر سبتمبر عام ١٩٥٣ .

ذلك الحل . وهذا مما يجعل لهذه المشكلة أهمية تجاوز الطرفين المتعارضين ، إلى غيرهما من دول العالم ، التى يهمها أمر المرور من هذه المضايق فى حالى السلم والحرب .

* * *

بعد شهور من إقامتى بأنقرة ، صدرت حركة دبلوماسية ، على أثر إعادة العلاقات الدبلوماسية التى كانت مقطوعة بين مصر وألمانيا طوال الحرب العالمية الثانية وما تلا ذلك من سنوات احتلال الحلفاء للأراضى الألمانية ، قبل توقيع معاهدة باريس عام ١٩٥٣ ، التى مارست ألمانيا الغربية بموجبها بعض حقوق السيادة كما سيأتى بيانه .

وقد تضمنت هذه الحركة الدبلوماسية نقلى واختيارى لأكون المستشار الأول لسفارة مصر فى برن عاصمة ألمانيا الغربية عند إنشائها . وتلقيت عقب إخطارى بهذا النقل ، من السيد السفير المعين ، الذى تفضل وأشار بهذا الاختيار ، وهو العالم القادر ، مما حملنى على الزهو والاعتزاز ، أقول تلقيت تعليماته بالعمل عاجلاً على السفر إلى بون لاختيار مكان للسفارة ، ثم الإعداد لفتحها ، وإجراء المكاتبات المتعارف عليها دبلوماسياً فى هذا الشأن مع جهات الاختصاص إلى أن يصل من مقر عمله فى أثينا . ولقد كان مما أعتز به ، عملى مستشاراً للسفير أحمد ثروت .

غادرنا أنقرة إلى إستانبول بالطائرة ، وبعد أيام غادرناها على ظهر الباخرة التركية ( أضنه ) إلى مارسيليا ، مارين ببيريه ثم نابولى ثم جنوا قبل الوصول إلى مارسيليا التى بقيت بها يومين وليلة ، لأستعيد ذكريات زمالة سابقة خالدة عام ١٩٣٥ فى القدس بينى وبين الزميل المغفور له الأستاذ كمال الدين صلاح الذى كان يشغل منصب القنصل العام لمصر آنذاك فى مارسيليا ، وهو الذى وافاه أجله ، فيما بعد ، فى الصومال وقت أن كان يجاهد كأفضل ما يكون عليه الجهاد فى سبيل الإنسانية ، وهو الجهاد الذى أبته عليه بعض المنظمات الاستعمارية ، عندما كان أحد

أعضاء لجنة الوصاية الثلاثية الموفدة من الأمم المتحدة للانتقال بالصومال من الحكم الإيطالي إلى الاستقلال ، فدست عميلا لها لطعنه بكل خسة ، وهو فى الطريق إلى عمله ، وكان ذلك فى شهر رمضان عام ١٩٥٦ وكان صائماً ، وأبى أن يشرب ماء قدمه له الطبيب عندما نقلوه إلى المستشفى ليلاقى وجه ربه ، وقد أدى ما عليه من واجب قبل الحياة ، ومن واجب قبل الله ، وقضى شهيداً كأوفى ما تكون عليه شهادة الأبرار .

ولم تكن مارسيليا غريبة عنى ، ولكنى فى رفقة الزميل الراحل الكريم ، رأيتها ، أو هو الذى أرانى بها ما لا تراه العين العابرة من مفاتن كورنيشها الجميل ، الذى يفضى فى نهايته إلى طريق ( نيس وكان ) حيث موائد الروليت والباكارا : وهى طريق الندامة .

غادرنا مارسيليا بالقطار السريع إلى باريس لأقضى بها فترة قبل مغادرتها إلى بون التى بلغناها فى الأسبوع الثانى من شهر سبتمبر عام ١٩٥٣ .

## الفصل السابع

### فى ألمانيا الغربية :

غادرنا مارسيليا إلى باريس بالقطار السريع . إن الريف الفرنسى لوحة فاتنة للناظرين من فرط نضارته ، ومدى العناية به ، وعرفان قدره عند أهله . وبلغنا باريس بعد اثنتى عشرة ساعة . وبرغم كتمانى نبأ سفرى ، فقد رأيت زميلا فى انتظارى بمحطة باريس ، وهو اليوم من السفراء النابهين . وعلمت أن صديق العمر ، زميلى القنصل العام فى مارسيليا ، غافلنى واتصل بالسفارة وطلب إليها حجز حجرة لنا ، كما طلب إلى صديق له وزميل بالسفارة أن يستقبلنى . وكنا فى مطلع شهر سبتمبر . وباريس فى هذا الشهر على وجه الخصوص ، تشرح القلب الشجى . وتجبر الخاطر الكسير ، وتمسح عن الصدر المكدود ما يريم عليه .

أمامى ثمانية أيام لا تزيد . على أن أرى فيها ما أحب من باريس . وهل فى باريس ما لا يحب ؟ . ماذا أرى وماذا أدع . أمامى ورقة امتحان مليئة بالأسئلة ووقت الإجابة عليها لا يتسع لها كلها . فلنأخذ الأمر بالحيلة . لقد قسمنا اليوم نصفين . نصفه النهارى للمتاحف والآثار والقصور . ونصفه المسائى لمباهج باريس ومطاعمها التى يغمرها هناء لا تدرى مأتاه ، وتفيض من جنباتها موسيقى وأضواء كلها أنس وإيناس . والنفس مشتاقة للحى اللاتينى ومنتدياته ورواده الغارقين بين شطين من الرومانسية والسريالية. إن باريس وطن كل غريب، ووطن كل فنان. والفنان له موطنان. وطنه حيث ولد، وباريس حيث يهفو ويقتدى.

إن من يعرف الشعب الفرنسى وخصائصه وطريقة معيشته وآماله وطموحه ، إنما يعرف فرنسا نفسها . وكل من تتاح له معرفة الشعب الفرنسى ، سوف يحب ذلك الشعب من كل قلبه ، ولعل من خصائص الفرنسيين الرئيسية ، عمق شعورهم نحو بلادهم ، وولاءهم الشديد لوطنهم ، وافتخارهم بما تحويه من كنوز وجمال ومفاتن ، ينعم فى أجوائها ، ويتغنى حسنها وتفردها ، ويدعو الآخرين من مختلف الشعوب ، ليشاركوه ما أفاءه الله على وطنهم من نعم سائغة موفورة .

زرنا قصر اللوفر حيث كنوز الفن تزيغ البصر ، ويرتد عنها أكثر نهماً لرؤيتها من جديد .

وجلنا فى أبهاء قصر فرساى وصالوناته التى شهدت أعجب القصص وحوت أندر التحف . ورأينا قصر شايو حيث تعقد فى قاعاته الوسيعة أخطر المؤتمرات الدولية ، وجلسات مجلس الأمن فى إحدى السنين . ومررنا بالأنفاليد الذى شيده لويس الرابع عشر سنة ١٦٧٠ ليأوى جرحى الحروب والعجزة من الضباط والجنود . وقد ضم رفات نابليون بونابرت عام ١٨٤٠ . وزرنا برج إيفل وقوس النصر وميدان الكونكردا ودار الأوبرا والكوميدى فرانسيز وكنيسة المادلين ونوتردام دى بارى الشامخة

العريقة . أما الشانزليزيه فهو كفيل بأن يبدد ساعات نهار وليل متتاليين لرؤية بعض ما حواه . ولمن يحب اقتناء النادر من الكتب أن يدلف إلى شاطئ السين حيث أكشاك بيع الكتب والمطبوعات والصور وأما غابة بولونيا ، فإنها فى حاجة ، للتمتع بما حوته من مغان ومنتديات ، إلى أسبوع يضيع نصفه فى مشاهدة ما تضمه فى حنان ، ونصفه فى مشاهدة روادها من عشاق موصولين أو مهجورين :

يا غاب بولونيا سعدت وعشت يا غاب الهوى
كم ذكريات للأحبة فيك والذكرى دوا
أغصانه ملتفة مشتاقة تشكو الجوى

* * *

ومن الأشياء أشياء تحيطها المعرفة ، ولا تدركها الصفة . وعلى رأس هذه الأشياء باريس : تاريخاً وحضارة وعلماً وفناً ومعرفة ولهواً وذوقاً وكوناً فريداً لا يدانيه مثيل . إن شئت لهواً وجدته حاضراً ، وإن شئت علماً نهلت من أصفى المنابع وأصدقها .

غادرنا باريس كمن يحثونه على القيام عن مائدة حوت كل ما ينساغ عذباً فى اللها ، ولم يكن قد نال منها إلا لقيمات ، وكل ما فى الحياة من مفاتن ومباهج ، ورغبات مطلوبة ومآرب مرغوبة ، لا نناله إلا بمقدار ، كما أن التماس راحة اليأس منه ، والسلو عنه ، يصعب تحقيقه ونعجز عن قهره :

إذا اعتادت النفس الرضاع من الهوى     فإن فطام النفس عنه شديد

* * *

وصلنا بون قبل الظهر ، وكان فى انتظارنا زملاء السفارة الذين تعجلوا إنزال ما كان معنا من حقائب ، سبقها شحناً حقائب كبيرة منذ أبعد من شهر . وكان مرد العجلة فى النزول ، إلى أن ( بون ) برغم أنها عاصمة ألمانيا الغربية التى تعد خمسين مليوناً من الأنفس ، كانت قرية لا يقف القطار فى محطتها سوى دقيقتين اثنتين . وظل هذا التقليد

معمولا به محافظة على تطبيق القوانين الألمانية الصارمة فيما هو أدنى من ذلك . وكثيراً ماحمل القطار حقائب الكثيرين من رجال السلك الدبلوماسى الأجنبى إلى كولونيا ، وهى المحطة التالية لبون ، نتيجة لتخلف هؤلاء عن الإسراع فى النزول . وقبل اختيار ( بون ) لتكون عاصمة لألمانيا الغربية ، ( إلى أن يتم اتحاد الجمهوريتين الغربية والشرقية ، الذى أوشك أن يتجمد على وضعه الحالى ) ، لم يكن بها من شىء يستحق الذكر ، سوى جامعتها ، التى لم يكن ليرفع من ذكرها هى الأخرى ، سوى أن البرنس ألبرت زوج الملكة فيكتوريا ملكة إنجلترا ، تلقى علومه بها . وبالجامعة صالة باسمه ( ألبرت هول ) . كذلك تشتهر ( بون ) بأنها محل ميلاد الموسيقار الكبير ( بيتهوفن ) الذى يتوسط تمثاله أشهر ميادين العاصمة ، كما أن من مزارات بون السياحية المنزل الذى ولد فيه ( بيتهوفن ) والذى جمعوا فيه البيانو الذى كان يستعمله وبعض نوتات سيمفونياته الخالدة وأفلام وإعلانات لحفلاته الموسيقية وصور له ولبعض من اتصل بهن من السيدات ورسائلهن إليه .

لم يكن تعداد بون عام ١٩٥٣ يزيد عن ١٣٠ ألف نسمة . وكان يحلو لبعض معارضى كونراد أديناور مستشار ألمانيا الغربية منذ عام ١٩٤٩ قولهم إن المستشار اختار بون عاصمة لألمانيا الاتحادية ، لأن بلدته ( بادهانوف ) التى بنى بها قصراً ريفياً جميلا ، تقع على الضفة المقابلة لبون على نهر الراين . وكان يقيم فى هذا القصر الريفى ، ويذهب إلى دار المستشارية فى بون صباح كل يوم فيما لا يزيد عن ربع الساعة . وقيل غير ذلك كثير . ولكن حقيقة اختيار بون كعاصمة ، يرجع إلى أنها بهيئتها كقرية ، لا تصرف أذهان الألمان عن طلب الوحدة ، وعودة برلين عاصمة لألمانيا بقسميها . ولو أنهم اختاروا ديسلدورف أو كولن أو فرانكفورت ، ودبت فى هذه المدن ما يدب فى العواصم من توسع فى المبانى والإنشاءات ، فوق ما بها ، لكفت الأذهان عن التفكير فى

برلين كعاصمة . هذا إلى جانب أن بون تبرأت من وجود ثكنات عسكرية لجيوش الاحتلال الثلاثى لأمريكا وفرنسا وإنجلترا التى توجد فى الشمال وفى الجنوب وفى الجنوب الشرقى ، حتى لا تصدم العيون عقب الهزيمة برؤية جنود الأعداء فى عاصمتهم .

كان أول ما سعينا إليه ، البحث عن دار للسفارة تضم مكاتبها ، ودار لإقامة السفير . وكنت قد حجزت قبل قدومى حجرة فى فندق يواجه تمثال بيتهوفن فى ميدانه ، بقيت به عشرة أشهر لصعوبة الحصول على مسكن فى بلدة انقلبت فى غمضة عين من قرية إلى عاصمة ألمانيا الاتحادية وما تضمه العاصمة من مبانى المستشارية والوزارات والمصالح والهيئات الدبلوماسية ومجلس النواب والمجلس الاستشارى ومكاتب المهن الحرة ومعامل البحث ، وفى إيجاز كان ذلك أشبه بعملية وضع الفيل فى منديل أو المارد فى قمقم أو البغل فى الإبريق .

وكنت مع المستشار الثانى وسكرتير السفارة وملحقها نذرع المدينة بحثاً عن مكاتب للسفارة بصورة مؤقتة ، كما كانت إدارة خاصة بوزارة الخارجية الألمانية تساعدنا فى هذا الغرض بدون جدوى . وكان المستشار الثانى الذى أمضى من حياته أكثر من عشر سنوات فى ألمانيا ، يدأب على حمل شنطة رجال الأعمال الألمان الضخمة ، ويضع فيها أختام كاوتشوك باسم السفارة وخاتماً بتاريخ متحرك ، وآخر نحاسياً بارزاً للمذكرات الرسمية وملفاً وأوراقاً وأقلاماً وختامة وخرامة ومشابك للورق وفواتير وإيصالات مدفوعة قيمتها ، وفى إيجاز كانت الشنطة مكتباً ( بورتاتيف ) . ولما كانت مكاتب السفارات قد جرى العرف الدبلوماسى على تسميتها Chancellerie فقد قلت للزميل المستشار من باب العزاء عن عدم وجود مكتب للسفارة : إننى سأخلع على شنطتك الدبلوماسية اسم ( شانطيليرى ) .

وأخيراً عثرنا على فندق صغير لا تزيد حجراته عن ست ، وافق أصحابه على أن نحتل حجرتين فى مبدأ الأمر مع الوعد بالتوسع كلما خلت بالفندق

غرفة على ألا نزيد عن ثلاث حجرات ، أى خمسين فى المائة من حجرات الفندق . وقد حجزنا مكتباً للسفير من هذه الثلاث حجرات وحجرة لى ، وحجرة ثالثة كان يجلس فيها أعضاء السفارة من الدبلوماسيين ( أربعة ) وآنستان واحدة للترجمة والثانية للآلة الكاتبة ، وحاجبان ، يجلسون حول مكتبين اثنين ولا يرتفع قدر واحد منهم عن الثانى إلا بقدر حجم جسمه وما يشغله من الغرفة الضيقة نسبياً . وبعد حين وجيز ، انضم للزملاء فى حجرتهم الوحيدة ، المستشار التجارى للسفارة ، الذى كان يصر على أن يدق الجرس للحاجب الجالس بجواره . . .

أخذنا فى الإعداد لتقديم أوراق اعتماد السفير عندما وصل إلى بون . وكان حفل تقديم الأوراق بسيطاً ، لا تتخلله خطب كما هو المتبع فى بعض العواصم . وقد ذهب موكبنا إلى قصر رئيس الجمهورية فى ثلاث سيارات وكان يتقدم الموكب ثمانية من راكبى الدراجات البخارية من الحرس الجمهورى تليهم سيارة السفير الذى جلس إلى جانبه مدير البروتوكول ، وسيارة تقلنى مع وكيل البروتوكول ، وسيارة ثالثة استقلها أعضاء السفارة . وعدنا عقب تقديم أوراق الاعتماد بالترتيب السابق نفسه .

كانت ألمانيا الغربية قد حظيت عام ١٩٥٣ بالاعتراف من جانب دول الحلفاء الثلاثة ، أمريكا وفرنسا وبريطانيا ، باستقلالها بموجب معاهدة باريس التى تم التصديق عليها من برلمانات هذه الدول الثلاث بعد ذلك بعام . وقد حقق ذلك لألمانيا ممارسة بعض حقوق السيادة فى حضور المندوبين السامين للدول الثلاث سالفة الذكر . وكان مندوب فرنسا أوسعهم شهرة وقدرة ، وهو فرانسوا بونسيه ، الذى كان سفيراً فى برلين عام ١٩٣٦ حتى قيام الحرب عام ١٩٤٠ . كما كان من قبل فى العشرينيات رئيساً للمكتب التجارى بالسفارة الفرنسية فى برلين ، حيث ألم بأوضاع ألمانيا الاقتصادية إلمام خبير . ولقد أعانته هذه الخبرة عندما عمل سفيراً ثم مندوباً سامياً لفرنسا بعد الحرب .

كان كونراد أديناور هو مستشار ألمانيا الاتحادية (الغربية) منذ عام ١٩٤٩ وقد أعيد انتخابه عام ١٩٥٣ بفوز حزبيه على الحزب الاشتراكي الديموقراطي المعارض.

وكونراد أديناور من كبار سياسيي ألمانيا فيما بعد الحرب العالمية الثانية. وكان يشغل منصب عمدة كولونيا سنوات عديدة. وهو من الداعين إلى السلام مع فرنسا، حتى لا تتكرر مأساة الحرب بين البلدين منذ الحروب السبعينية ١٨٧٠، ثلاث مرات.

وكان الحلفاء بعد انتصارهم فى حاجة إلى مثل هذه الشخصية التى تجمع إلى الوطنية والقومية الألمانية، حب المسالمة والعمل على إشاعة الأمن الأوربى، حدث أن كان أديناور يحضر اجتماعاً مع المندوبين السامين الثلاثة لأمريكا وفرنسا وبريطانيا فى فندق (بيترسبيرج) الذى يقع فوق قمة شامخة حيث يكشف شاطئ نهر الراين ويطل من عليائه على ما يجرى من تحته، وعند ما انفض الاجتماع وهم المؤتمرون بالانصراف، دعوا أديناور ليتقدمهم فى الخروج من باب الفندق، لمقامه ولكبر سنه، إلا أنه بسرعة خاطر خارقة قال لهم، لو تقدمتكم لكنت ضيفاً عليكم، ولكن أنتم ضيوفى إلى أن ترحلوا.

* * *

وفى ألمانيا الغربية مجلسان تشريعيان. مجلس (البوند زتاج) أى مجلس الشعب، ومجلس (البوند زرات) أى المجلس الاستشارى. وجدير بالذكر أن مجلس (البوندزرات) يتكون من مندوبين ينتخبون من المجالس النيابية للحكومات التسع التى سلفت إليها الإشارة، وبنسبة عدد سكان كل ولاية، إذ أن لكل ولاية من الولايات التسع حكومة ومجلساً نيابياً تجرى الانتخابات فيها على أساس المبادئ الحزبية فى كل ألمانيا الغربية.

ولكل ولاية قوانينها التى يراعى فى سنها البيئة والحالة الاقتصادية والاجتماعية للإقليم.

أما فيما يختص بمدينة برلين (التى تحتلها الدول الأربع)، بين شرق

وغرب ، فقد صدر تشريع يعطى برلين صفة الإقليم وصفة المدينة فى وقت واحد ، وهو ما صادق عليه الحلفاء الثلاثة فى برلين عام ١٩٥٠ .

كانت معركة انتخابات عام ١٩٥٣ تجرى عندما كنت فى طريق إلى بون من أنقرة لافتتاح السفارة . وكنت فى كل ميناء أو عاصمة أمر بها أجمع قصاصات الصحف التى تتناول أنباء الانتخابات . حتى إذا ما وصلت إلى بون كان قد اجتمع لى من المصادر الرسمية والصحفية ما يعين على كتابة تقرير عكفت على إعداده وبعثت به للوزارة مكتوباً بالحبر . وطبيعى أن يكون التقرير من صورة واحدة ، لعدم وجود آلة كاتبة عربية ، حيث لم تكن قد وصلت الآلات المشحونة من مصر ، كما لم يكن فى بون قبلنا أى سفارة عربية .

وبرغم ذلك ، فقد تلقينا من إدارة المحفوظات ، لفت نظر وتنبيهاً بضرورة إرسال تقارير السفارة للوزارة من أصل وأربع صور . وهذا أمر ميسور فى حالة وجود آلة كاتبة ، أما كتابة خمس نسخ من تقرير يقع فى خمس عشرة صفحة ، فإن الأمر يبدو كما لو كان عقوبة ينزلها المدرس بطالب نام ، أى متخلف ( بلغة السياسة المهذبة ) ، عندما يأمره بكتابة جملة مفيدة أو غير مفيدة ، مائة مرة . . .

* * *

حاولت أن أتعلم اللغة الألمانية حتى أستمتع بكل هذا الثراء العلمى والأدبى والمعمارى والصناعى والفنى والموسيقى والمسرحى . ولكن لسوء حظى ، وقع فى يدى كتاب باللغة الإنجليزية لتعليم اللغة الألمانية . وكان عنوانه . « اللغة الألمانية بدون مجهود » . وشاء المؤلف فى مقدمة كتابه ، أن يكون رفيقاً ورئيفاً بالمبتدئين ، فقال ما مؤداه : « إن اللغة الألمانية لغة جميلة . وستعرف ذلك عندما تتعلمها . وسوف تحبها أكثر كلما أتقنتها . ونصيحتى لك يا عزيزى القارئ المبتدئ ، أن تترك هذا الكتاب من يدك ، فور شعورك بالضيق من هذه اللغة ، حتى لا تكرهها وتنفر منها . ونحن نريد أن نكسبك ليزداد بك عدد عارفيها » . وقد عملت بهذه النصيحة بإخلاص لم أعهده فى

نفسي في أي عمل أتيته . وكنت كلما أمسكت بالكتاب ، وأحسست بالضيق ، تركته كما نصح البروفيسور المؤلف ، ومضيت أمسك بالكتاب ثم أتركه ، وأمسك من جديد بالكتاب ثم أتركه ، إلى أن تركت ألمانيا بدون أن أكسب سوى تحية الصباح وتحية المساء وكلمة للشكر وكلمة للتوديع ، أي ما لا يزيد عن مفردات الرضيع . . .

وقد حاولت أن أترك أذني لتلتقط بضع كلمات من الطريق أو المحلات التجارية أو السينما أو المسرح ، أو الإذاعة ، ولكنها كانت تعزف عن التقاط الكلام ، مكتفية بالتقاط الكثير من موسيقى بيتهوفن وباخ وبراهمز وفاجنر ومندلسون .

إن ألمانيا تعد قمة في الصناعة والطرق والتعليم الجامعي والطب والعلوم والكيمياء والاختراع والفلسفة والموسيقى . وقد كانت في مركز الصدارة في كل هذه الفنون والعلوم قبل الحرب ، ثم أخذت تستعيد سريعاً مكانتها بعد الحرب بما يشبه المعجزة . ولعل تحريمها من تأليف جيش كبير عصري وصناعة حربية واسعة ودفاع في الأرض والبحر والسماء ، كما قضت بذلك معاهدة الصلح ، لعل ذلك قد يسر لها توفير ما ينفق في هذا السبيل ، من بلايين الدولارات أو الماركات ، طوال هذه السنين ، فانشق أمامها الطريق لتنفق في مجالات العلوم والأبحاث والإنشاءات والتعمير والطرق والصناعات السلمية . هذا إلى جانب ما ساهمت به رءوس الأموال الأمريكية في ظاهرها ، واليهودية في حقيقتها ( من يهود أمريكا ) ، في هذا السبيل. لقد قامت مدن كاملة مثل هامبورج وهانوفر بعد تدمير شامل . وكذلك الشأن بالنسبة لكولونيا وفرانكفورت وديسلدورف وفيسبادن وعشرات غيرها من المدن التي تم ترميم ما تهدم من مبانيها. أما برلين الغربية فقد أريد لها أن تكون واجهة تمثل ثراء الغرب وتقدمه ، ليراها ألمان الجانب الشرقي في هذا الثوب القشيب .

أما الطرق في ألمانيا الغربية ، العلوية والسفلية والمتقاطعة وتحت الأرض فلا يفوقها سوى الطرق في أمريكا واليابان .

والطرق فى كافة أنحاء العالم ، هى نبض الحياة وشرايين الدولة . إنها تسهم فى التجارة وفى التعليم وفى الصحة وفى استتباب الأمن وفى النظام ، ثم فى السياحة الخارجية والداخلية . إن من المشاهد التى لا تغيب عن النظر فى ألمانيا ، قوافل السائحين من الألمان ومن أجناس أخرى تنقلهم أوتوبيسات ضخمة سريعة مكيفة مريحة ، من أقصى الشمال من هانوفر إلى ميونيخ جنوباً ومن الشرق إلى الغرب ومن كل مكان فى ألمانيا إلى أى مكان فيها ، ليرى أهل كوبلنز مدن : كولونيا ومعالمها وكاتدرائيتها وهانوفر ودقة مصنوعاتها وهامبورج أكبر مدن وموانى ألمانيا. وقل المثل فى بون وديسلدورف وفرانكفورت والغابة السوداء وهايدلبرج وجامعتها القديمة . ويساعد نهر الراين بما يمخر فيه من بواخر نهرية سياحية سريعة وكبيرة وتتسع لمئات بسياراتهم ، يساعد هذا النهر على زيادة التنقل وسهولته . فهذا النهر الذى ينبع من سويسرا ، يخترق ألمانيا ، ثم يتجاوزها ليخترق كل أراضى هولندا إلى أن يصب فى بحر الشمال . وهذه الرحلة تهيئ للراكب أن يمر فى أراضى ثلاث دول ، كما تهيئ له النزول فى أى منها ليقوم بالتجوال بسيارته أو بالأوتوبيس حسبما يرغب .

ولعلنا ونحن نبحث مشروع إنشاء عبارات بين أوربا ومصر وبين مصر والبلاد العربية ، أن نفكر فى الطرق وتوسيعها وإنشاء المزيد والطويل منها .

فالسائح العربى أو الأجنبى الذى يحضر على ظهر عبارة مستصحباً سيارته ، لا يكفيه أن يسير بها إلى العجمى أو رأس التين ، ثم يقطع بها الطريق الصحراوى ، أو الزراعى ، ثم يمضى إلى أهرام الجيزة أو جسر السويس أو شبرا المظلات .

إن السياحة تقوم على ثلاث قوائم : الطرق والنظافة والمعاملة . ويندرج تحت المعاملة ، الجمارك والجوازات والفنادق والبيع والشراء وتداول العملة والأمانة وحرية الانتقال ، وعدم المغالاة فى الأسعار ، إذ أن سائحى هذا العصر معظمهم من الكادحين من مختلف المهن ، وهم يقومون برحلاتهم عن طريق ضمانات مصرفية وقروض تدفع على مدى عامين . وقد بدا أننا

فى العهد الحالى نسير على الدرب الصحيح وبأقدام ثابتة واعية . ومصر التى تمتلك كنوزاً من الآثار مع وداعة جوها وأهلها النادرين ، فى استطاعتها أن تكون - عندما تفرغ من أزمتها مع إسرائيل - فى طليعة الدول السياحية فى العالم ، التى تستوعب فى يسر ملايين السائحين .

* * *

كنا ننتهز فرصة العطلات الأسبوعية والأعياد لنذهب إلى ما حولنا من مدن ، إذ أن مدينة بون العاصمة ، لا تزيد كثيراً فى حجمها عن مصر الجديدة . وكان سائق سيارتى يحمل مؤهلا جامعياً عالياً . وكان بهذه الصفة معواناً كبيراً فى رحلاتنا للشرح والتعليق على ما نراه من آثار القصور والقلاع القوطية الباقية منذ القرون الوسطى شاهداً على ما كانت عليه ألمانيا من استمساك بالنظام الإقطاعى العريق الذى يتملك كل ما على الأرض من إنسان أو دابة ، مع إحاطة كل أمير أو نبيل ، أملاكه بالقلاع والتحصينات ضد أطماع الأمراء المجاورين . وكنا نذهب إلى ( كولونيا ) لنشهد كاتدرائيتها العريقة التى تبلغ مبانيها وما احتوته من تماثيل وأيقونات وزجاج حد الروعة والجمال . وفى ديسولدورف كنا نرى ما أقيم بها بعد الحرب من طرق واسعة وميادين تلتقى فيها شوارع مستقيمة تضم محلات تجارية أريد لها أن تضارب أسواق باريس أو نيويورك أو لندن . وعلى مقربة منها تقوم مدينة ( ديسبورج ، مقر مصانع شركة ( ديماج ) للحديد والصلب ، وهى الشركة التى أقامت بمصر مصانع حلوان للحديد . ولهذه المصانع ميناء نهرى يضم صنادل ضخمة لحمل منتجات المصانع إلى مختلف المدن التى تقع على نهر الراين . وكنا نزور مدينة آخن ( اكس لاشايل ) وكاتدرائيتها التى كان يتوج فيها ملوك ألمانيا ، ومتحفها الذى يضم آثار تلك العهود . وعلى مرأى البصر منها يمكن أن ترى المدن القائمة على حدود بلجيكا . وكذلك مدن فيسبادن و بادن بادن وهما من مدن المياه المعدنية والعلاج الطبيعى . ومدينة كوبلنز حيث يلتقى نهر الراين بنهر الموزل . والغابة السوداء ( شفارتز فالد ) التى لا تطول الشمس

منها إلا رعوس أشجارها السامقة التي تعتبر ثروة خشبية ضخمة لألمانيا . ولكل مدينة من هذه المدن التي ذكرتها على سبيل المثال صناعات صغيرة تشتهر بها ، كما تضم قاعات موسيقية ومطاعم وأسواقاً خاصة بهذه المدن . وكانت السياحة الداخلية من أبرز أسباب رواج تجارة هذه المدن فى الأسواق أو المطاعم أو الفنادق . وفى مدن المياه المعدنية مثل بادن بادن أو فيسبادن أو بادنوين آر ، كنا نرى عيون المياه المعدنية تحاط بحدائق غناء ، تبدو فى أزهى حلة وأتم تنسيق ، وفى داخلها مبنى به نافورة الماء المعدنى وحولها مقاعد مريحة وطاولات وكوبات من البلاستيك ليتناول الزائر فيها القدر الذى وصفه الطبيب . وتقوم بالخدمة فيها فتيات فى نضارة الشباب وجمال الزنبق المتفتح وفى لباس يزرى بأردية الأطباء والممرضين . وكنت أتخيل أنى فى معمل تحليل بكتريولوجى من فرط ما توفر فى القاعة من نظافة وسكون . ولتوفير التسلية والترفيه للوافدين ، كانت توجد جوقة موسيقية تعزف أعذب الألحان وأكثرها استجلاباً لراحة الأعصاب المكدودة والنفوس المجهدة . . .

وفى إحدى المدن التي تقع فى سفح سلسلة جبال ( آيفن ) حيث تمتلىء تلك السفوح بالكروم المخصصة للعصر واستخراج النبيذ الألمانى الشهير ، الذى يحمل أكثر من مائة اسم ، كانت تقام فى كل عام أعياد الكروم التي تستمر أسبوعاً . وفى يوم الأحد من هذا الأسبوع كان رجال البوليس يمنحون إجازة ، حتى يعتمد الأهالى على أنفسهم فى حفظ النظام والبعد عن الشجار ، برغم أنه يوم تزدحم فيه طرقات المدينة بالزوار والأهالى وجوقات الموسيقى والرقص فى الميادين ، ومن العسير أن تجد طفلا أو كهلا غير مخمور من هذا الرحيق الذى يمجدونه ويحتفلون به احتفال قدماء المصريين بعيد عروس النيل .

ومن ملاحظاتى التي وقفت عليها فى تجوالى ورحلاتى فى أوربا ، أن الدول الأنجلوساكسونية كألمانيا وإنجلترا ودول الشمال كالدانمارك والسويد والنرويج ، تميل فى مبانيها وفى أذواقها وفى اتجاهات أفكارها إلى التماثل

والتشابه ( Comformism ) . وكان ذلك يبدو واضحاً وأنا أمرق بالسيارة من بلدة إلى بلدة فى ألمانيا ، فأرى التشابه يكاد يكون تامًّا ، فى كنيسة القرية ومجلسها البلدى ومدرستها وميدانها الكبير ذى الساعة الرنانة وفى أسواقها ، حتى كنت أول الأمر أظن أن السائق ضل السبيل وعاد أدراجه إلى ما كنا تركناه من قرية أو مدينة ، هى صورة مما مر بنا على طول الطريق . أما الدول اللاتينية كفرنسا وبلجيكا وإيطاليا وأسبانيا فإنها تتمتع بطابع الفردية ( Individualism ) فالمبانى والحدائق والشوارع والأسواق والميادين والكنائس والمقاهى والمطاعم ودور السينما ، كلها تتباين من بلد إلى بلد ، فلا يصيبك فى التنقل بينها ملل ، أو يتسرب إلى نفسك ضيق .

* * *

كان على السفارة أن تتابع ما يشغل بال الحكومة الألمانية من مسائل داخلية وخارجية ، كما كان عليها أن ترقب بحذر تطور علاقات ألمانيا بإسرائيل ودور أمريكا فى هذا السبيل ، بعد أن تم توقيع اتفاقية التعويضات فى ١٠ سبتمبر ١٩٥٢ بين أديناور وشاريت وزير خارجية إسرائيل ، وهى الاتفاقية المعروفة دوليًّا باسم اتفاقية لوكسمبرج .

ففيما يختص بالجزء الأول ، كانت الحكومة الألمانية وبعد فوز المستشار أديناور وحزبه فى انتخابات عام ١٩٥٣ ، تريد أن تصل إلى نتائج حول :

١ — التوصل إلى توقيع معاهدة باريس التى تنهى الاحتلال ، وحث الحكومة الفرنسية على الموافقة عليها ، حتى تنصرف ألمانيا بعد رفع وصاية المندوبين السامين الثلاثة ، إلى تنظيم داخليتها . وكان تردد فرنسا مبعثه الخوف من عودة العسكرية الألمانية إلى سابق عهدها من العدوان . وكانت تقول لحليفتيها فى معرض الحديث عن ترددها ، إن فرنسا هى التى تدفع الثمن ، لأنها أول من يتلقى عواقب العدوان الألمانى ، ولهذا فإنها تريد أن تحصل على كافة الضمانات التى تكفل سلامتها من هذا العدوان . حتى لقد شاع على سبيل التندر على موقف فرنسا ، أن فرنسا تريد ألمانيا قوية ، إلى

الحد الذى تقوى معه على مقاومة الاتحاد السوفييتى ، كما تريدها ضعيفة إلى الحد الذى تستطيع معه أن تهزمها . وقد تحقق لفرنسا ما طمعت فيه من ضمانات حول تحديد تسليح ألمانيا وضمها إلى معاهدة بروكسل وإلى مشاركتها فى معاهدة الجيش الأوربى وضمها كذلك إلى حلف الأطلسى .

٢ – التوصل إلى عودة السار إلى ألمانيا : وقد تكللت مساعى أديناور ومباحثاته ومفاوضاته مع فرنسا ومع الحلفاء بعودة السار إلى ألمانيا بعد عامين من جهود متواصلة .

وقد تم بعد جهود أديناور بالفعل، الاتفاق بين دول الحلفاء على عودة السار لألمانيا بدون الالتجاء إلى استفتاء لن تخرج نتائجه عما سبقه ١٩٣٥ ، وكان توقيع الاتفاقية فى شهر أكتوبر عام ١٩٥٤ . وفى هذا العام أيضاً تم اتفاق الحلفاء الثلاثة على إنهاء نظام الاحتلال القائم فى ألمانيا الغربية ، وأسفر اجتماع دول حلف الأطلسى الأربع عشرة على دخول ألمانيا عضواً فيه ، وبذلك أصبح أعضاء الحلف خمسة عشر .

٣ – موضوع وحدة ألمانيا ومشكلة برلين : وكان هذا الموضوع هو الشغل الشاغل لألمانيا الغربية . وكان المراقبون السياسيون يرون أن مرور الزمن ، يضع العراقيل فى سبيل الوحدة ويميل بها نحو تجميد الأوضاع ، بعد أن أصبح كل من القسمين جمهورية ولكل منهما حكومة ومجالس نيابية ، كما حصلت ألمانيا الشرقية على اعترافات بها بدأتها الدول الشرقية ، ثم تلتها دول أخرى فى العالم . وكان الاتحاد السوفييتى يساعد على بقاء هذه القسمة ويعمل على توسيع الهوة بينهما . وبرغم ما فى هذا التقسيم من ألم للألمان فى كلا القسمين ، فقد كان حتماً عليهما الاتفاق على التبادل الاقتصادى والتزاور فى حدود مرسومة . وفى ٢٥ مارس ١٩٥٤ أصدرت الحكومة السوفيتية تصريحاً خولت بمقتضاه لحكومة ألمانيا الشرقية مباشرة حقوق السيادة . وقد أعلن وزير خارجية ألمانيا الشرقية آنذاك ( أولبرخت ) أنه بموجب هذا التصريح ، تصبح حكومة ألمانيا الشرقية ، حكومة مستقلة ذات سيادة .

كانت هذه المسائل ذات الأهمية القصوى فى حياة ألمانيا الغربية ومستقبلها ، تتطلب المتابعة والدراسة من جانب السفارات جميعاً ، بسبب اتصالها بالأمن الأوربى من جهة ، ولأن حلها على الوجه الذى تدارسه الحلفاء ، يباعد بين ألمانيا وبين عسكريتها التى كانت تهدد سلام العالم مدى مائة عام ، بحروب كانت هى التى تشنها ، وكانت هى التى تجنى عواقبها الوخيمة. وإن كان طمع الغرب واستعماره واحتكاراته من أسباب الحروب.

ولكن كانت تقوم إلى جانب هذه المسائل ، مسائل تهم العالم العربى ، بسبب اتصالها بإسرائيل ، التى أصبحت خراجاً فى جسم الأمة العربية ، يتداعى له سائر الجسد ، ما اقترب منه أو ابتعد من أطراف وأعضاء .

وكانت اتفاقية التعويضات التى وقعتها ألمانيا الغربية عام ١٩٥٢ مع إسرائيل بضغط الحلفاء وبخاصة أمريكا ، تنص على أن تقوم ألمانيا بدفع ٣٦٥٠ مليون مارك لإسرائيل على مدى عشر سنوات . أو بحساب مبسط ، أن تقوم ألمانيا فى مطلع كل صباح ، بدفع مليون مارك لإسرائيل لمدة عشر سنوات . وقد تضمنت الاتفاقية شروط الدفع ، وتأليف هيئة إسرائيلية يكون مقرها كولونيا لمراقبة التنفيذ ، الذى يشمل خلاف الدفع النقدى ، بعض أدوات وأجهزة ومصنوعات تطلبها إسرائيل ، وكانت على الدوام مثار جدلنا مع الجانب الألمانى ، باعتبارها مواد حربية أو مما يمكن تحويله إلى أدوات حربية . ونذكر على سبيل المثال ، اللنشات والصنادل البحرية والموتورات والحديد والصلب ، وكلها كان فى استطاعة إسرائيل عقب تسلمها لها ، أن تحولها إلى أجهزة حربية .

وكنا فى جدلنا حول ذلك ، نواجه دائماً بإجابة لا تتغير ، وهى أن هذه البضائع ورد ذكرها فى اتفاقية التعويضات ، التى لدينا نسخة منها ولا وجه للجدل حولها .

وفى عام ١٩٥٢ ، لم يكن قد قام للبلاد العربية تمثيل دبلوماسى مع ألمانيا الغربية . وكانت اتفاقية التعويضات تترامى أنباؤها مما تردده وكالات

الأنباء، وتصل إلى مسامع الدول العربية . وقد رأت جامعة الدول العربية فى أواخر عام١٩٥٢ أن توفد السيد أحمد الداعوق سفير لبنان فى فرنسا وأحد رؤساء وزاراتها السابقين إلى بون لمباحثة المسئولين فى شأن التعويضات ومدى ما تتركه من آثار ألمية لدى العرب . وكانت الحجة العربية والمنطق العربى يستندان إلى أن إسرائيل لم تكن قائمة عندما كان هتلر وأعوانه ينكلون باليهود ويصادرون أملاكهم فى ألمانيا وفيما غزاه النازى من دول مثل بولونيا وتشكيوسلوفاكيا وبلجيكا وهولنده وغيرها وغيرها ، وما أنزله بيهودها من عذاب .

وإذا كان هناك وجه للتعويض فليكن لأهالى هؤلاء المضطهدين . أما دفع التعويضات إلى إسرائيل فإنه يعتبر عاملا من عوامل شد أزرها عسكرياً واقتصادياً بصورة تجافى كل عدل وتقلب ميزان القوى بين الجبهتين المتصارعتين . وكأنما لم يكف العرب أن يحملوا وحدهم وزر ما أتاه هتلر والألمان من معاونيه ، لتوجه إليهم ألمانيا غير النازية ، هذه الطعنة القاتلة بتزويد عدوهم الدخيل بالسلاح والعون المادى والمعنوى ، بأمر الإمبريالية العالمية التى تقودها أمريكا .

لقد فشلت سفارة السيد أحمد الداعوق فى مباحثاته مع المسئولين الألمان فى بون ، أمثال هالشتاين وبلاكنهورن واتزدورف وفون مالتزن ، الذين كانوا يسيطرون على وزارة الخارجية . وكانوا يستمعون إلى حجج السفير الداعوق وإلى المنطق العربى السليم ، ولا يترددون عن الإجابة بأن الأمر قد انتهى ، وأن الاتفاقية قد تم التوقيع عليها يوم ١٠ سبتمبر ١٩٥٢ ، ولا حيلة فى الرجوع عنها أو تعديلها .

كان على ممثلى الدول العربية ، عند عودة علاقات دولهم بألمانيا ، ابتداء من عام ١٩٥٣ ، وهى : مصر ،سوريا ، لبنان ،العراق ، اليمن ، أن يراقبوا تنفيذ الاتفاقية حتى لا يساء استعمال بعض بنودها فى تسليح إسرائيل ، إذ أن ألمانيا اشترطت — فى نطاق تخفيف وقع الاتفاقية على العرب — ألا تكون البضائع المصدرة إلى إسرائيل تنفيذاً للاتفاقية ، بضائع

حربية ، أو مما يمكن استعماله فى الأغراض الحربية .

وكنا نجتمع بناء على اقتراح الجامعة العربية ، وبتوجيه وزارات خارجياتنا ـ بين الحين والحين ، لنقل ما يكون قد انتهى إلى علم أحد منا ، لنناقش على ضوئه المسئولين . فإذا ما ترامى إلينا أن ألمانيا صدرت موتورات أو بواخر صغيرة تحت ستار لنشات يمكن تحويلها هى أو الصنادل البحرية إلى قطع حربية ؛ نتفق على إيفاد ممثل مصر بوصفه أقدم الممثلين ليلفت النظر إلى ما فى ذلك من مخالفة للاتفاقية . وكان الجواب الألمانى دائماً حاضراً ومعداً ، ولا يخرج عن أن هذه البضائع موضوع الحديث تستخدم لأغراض سلمية . كما أن الحديد الذى يستعمل فى صنع المواد الحربية ، يستعمل كذلك فى المبانى وفى السكك الحديدية وفى الكبارى إلى آخر هذه السفسطة والالتوائية .

إذن فالأمر لا يخرج عن كونه تحدياً لمشاعر العرب ، والسير فى سبيل تغليب فريق على فريق ، على يد سلطة عليا تتحكم فى مصائر ألمانيا الغربية ، وهى أمريكا التى ساهمت بأموال يهودها وبأموالها فى إعادة بناء ألمانيا من جديد ، وهو أمر ربط المسئولين الألمان بقيود ، يتعذر عليهم الفكاك منها ...

واستغل اليهود ، كأتم ما يكون عليه الاستغلال ، الشعور بعقدة الذنب ، التى كان يعانيها الألمان ، واستغل الرسميون الألمان شيوع هذا الشعور ، وتضخم هذه العقدة ، لدى الشعب المغلوب على أمره ، فأحسنوا اللعب من ورائها بتنفيذ كل ما تطلبه إسرائيل من مطالب . وحينما أحست إسرائيل بهذا الضعف الألمانى وملأت يديها من وقوف أمريكا إلى جانبها فيما تطلب ، تقدمت إلى ألمانيا خلال تنفيذ الاتفاقية ، بطلب قروض جانبية ، تتجاوز ملايين الماركات .

ولم يكن باقياً إلا أن تعترف ألمانيا بإسرائيل ، وهو أمر كانت تحاول التملص من ضغط أمريكا عليها بشأنه ، استبقاء لبعض مظاهر الاستقلال بالرأى من جهة ، وابتعاداً عما يجره عليها سخط البلاد العربية ، إذا تم ، من جهة أخرى .

وعند ما أصدر الاتحاد السوفييتى فى ٢٥ مارس عام ١٩٥٤ ، كما قدمنا ،

تصريحه الذى خول بمقتضاه لحكومة ألمانيا الشرقية ، مباشرة حقوق السيادة وجدنا أن ورقة رابحة سقطت فى أيدينا ، إذا أحسنا اللعب بها .

كنا نلمح فى أحاديثنا مع المسئولين الألمان ، بدون أن يرقى التلميح إلى حد الرسمية ، أو ينزل إلى مستوى ( الدردشة ) ، بما يمكن أن يؤدى إليه هذا التصريح من اعتراف بعض الدول بألمانيا الشرقية على أساسه . وقد تساءل ذات يوم كبير من المسئولين ، الذين كنت أتردد عليهم فى وزارة الخارجية الألمانية لمسائل تهم السفارة ، وألحف فى معرفة موقف البلاد العربية من ألمانيا[1] الشرقية بعد هذا التصريح ، ووجدت الفرصة سانحة ، وكان هو الذى هيأها لى ، فقلت له ، إن للبلاد العربية مواقف تتباين بالنسبة للمسائل الخارجية العالمية ، وفقاً لقربها أو بعدها منها ، وطبقاً لما ترسمه سياسة الخارجية حيال هذه المسائل ، ولكن بالنسبة لبلدى مصر ، فإنى أرجح ، وهذا رأيى الخاص ، أننا سوف نعترف بألمانيا الشرقية ، ونتبادل معها التمثيل الدبلوماسى فور اعتراف ألمانيا الغربية بإسرائيل . وقد وجم محدثى برهة ، أدار بعدها حديثه ، وجهة أخرى .

لا أزعم ، ولا ينبغى لى ، أن ذلك كان من مثبطات عزم ألمانيا الغربية عن الاعتراف بإسرائيل ، ولكن فى استطاعتى أن أزعم كذلك ، أنه قد أشاع جواً من التردد حول الاعتراف بإسرائيل ، استمر سنوات ، فالأمر كان متفقاً عليه من حيث المبدأ ، أما من ناحية الشكل فقد رؤى أن تتمهل ألمانيا وتنتهز السوانح القادمة ، حتى وقعت الواقعة ، ورأت ألمانيا الظرف مناسباً للاعتراف بإسرائيل فى التوقيت الذى ارتأته ، وهو يوم ٧ مارس عام ١٩٦٥ ، عقب تهديد الدول العربية بقطع علاقاتها بألمانيا الغربية ؛

---

( ١ ) وقد رأت ألمانيا الغربية حيال ما هو منتظر من اعتراف بعض الدول العربية التى تربطها بالدول الشيوعية مصالح واتفاقيات ، ان تتمسك بما عرف فيما بعد بمبدأ ( هاليشتاين ) الذى يقضى بقطع ألمانيا الغربية علاقاتها بالدول التى تعترف بألمانيا الشرقية .

على أثر تزويدها إسرائيل بأسلحة فى شهر سبتمبر ١٩٦٤ وفقاً لما تم عليه الاتفاق بين أديناور وبن جوريون عندما اجتمعا فى أمريكا . وكأنما كانت ألمانيا الغربية ترجو من وراء هذا الاعتراف ، أن تنال صك الغفران من إسرائيل عن خطايا النازى حيال اليهود ، وكأنما كانت تحقق فوق ذلك ما أصدره المؤتمر اليهودى العالمى من بيان يحمل فيه الشعب الألمانى بأسره مسئولية اضطهاد اليهود على يد النازية وإبادتهم .

وإنى لا أذكر أن دولة ملكت من الرصيد الأدبى ، مثلما كانت تملكه ألمانيا الغربية ، فى البلاد العربية . فلقد كان العرب مع ألمانيا بقلوبهم فى الحرب العالمية الأولى عندما كانت ألمانيا حليفة لتركيا ، مقر الخلافة ، بقبل تضليل شريف مكة على يد ما كماهون واستماع العرب لأباطيل لورانس وكانت ألمانيا تحارب دول الاستعمار الأوربى : إنجلترا وفرنسا وإيطاليا تارة وإنجلترا وفرنسا وأمريكا تارة أخرى ، وهى دول ذاق منها العالم العربى الأمرين . حتى إذا ما هزمت هزيمتها النكراء فى الحرب العالمية الثانية ، واتجهت اتجاهاً مخططاً على يد دول الاستعمار ، وقبلت كل الشروط التى فرضها المنتصر ، وتنازلت عن حدود الرايش القديم ، الأودر ونييس ، وامتنعت عن صناعة الأسلحة ، إلا ما يأمر به المنتصرون ، وارتبطت بإسرائيل باتفاقيات تعويض وتبادل تجارى أولا ، ثم اعتراف بها كما قدمنا ، اطمأن الغرب لها ، وأصبحت من دول حلف الأطلسى الخمسة عشر ، وأصبحت أكبر دولة رأسمالية فى أوربا ، وأصبحت الدولة الخامسة فى الصناعة فى العالم ، وأصبحت عملتها تهدد أغنى العملات وأرسخها ثباتاً وهو الدولار ، بعد تعويم المارك أخيراً .

عند ذلك أفاق العالم العربى على هذه الحقائق الثابتة ، ولكنه برغم ذلك كان يأمل ألا تجنح ألمانيا الغربية كل هذا الجنوح نحو إسرائيل ، استمساكاً ببعض مظاهر الاستقلال ، ولكنها راعت مصالحها مع الغرب الذى يحميها ، فى توهمها ، من الاتحاد السوفييتى ، وراعت حماية صناعاتها

وتجارتها ، وراعت وضعها فى برلين مع الحلفاء ، كما راعت إعفاء الحلفاء لها من ديون تعويضات الحرب ، الأمر الذى حملها على هذا الجنوح ، وأصبحت فى حل من كل قيد سلوكى يقف فى سبيل مصالحها .

إن فقدان الثقة والتقدير فيمن كان موضعهما فى وقت من الأوقات ، يثير شعوراً مختلطاً من الرثاء وخيبة الأمل .

وكانت هذه الفترة العصيبة تضع فوق أكتافنا أعباء ثقالاً ، وواجبات متعددة . وكنا نحمل فى أعناقنا أمانة كبرى تجاه الوطن ومصالحه . وكلما انتمى المرء إلى بلد عريق الأصل ، تضرب جذور حضارته فى أغوار التاريخ زاد حجم المسئولية ، وتضاعف الجهد المبذول .

وربما كانت مصر من أشد الدول العربية تأثراً بتحول مشاعر الألمان تجاه إسرائيل ، وتنكرهم للعرب ، وهى التى كانت تقف من ألمانيا موقف الصديق المتفانى فى الإعجاب والتقدير ، ولكن السياسة كما يقولون ، كالحب لا ثبات لها ، وعجيب الزمان غير عجيب ، كما يقول ابن الرومى .

* * *

لعل سوق الأمثلة يعمق فهم ما ذهبنا إليه من موقف ألمانيا بالنسبة لدول الحلفاء الغربيين ، وإسرائيل ، وموقفها الشاذ بالنسبة للعالم العربى .

كانت مصر فى نهاية عام ١٩٥٤ قد انتهت من دراسة مشروع السد العالى على يد خبراء عالميين ، أقروه واستحسنوا فكرته وأشادوا بفائدته ، وقد بقى أن تقوم مصر بتمويل نفقات الإنشاء عالمياً عن طريق البنوك العالمية وهو أمر طبيعى ، سبقنا إليه كثيرون . وقد رأت أن تبحث الأمر مع البنوك الألمانية قبل أن تلجأ إلى غيرها استناداً إلى رواسب من تقدير قديم . وقد قامت السفارة بالاتصالات الأولية التى أسفرت عن وجوب اجتماع رؤساء البنوك الألمانية ، على هيئة مجلس أعلى لهذه البنوك ، (كونسورتيوم) ، ليتدارسوا أمر القروض المطلوبة ، لتمويل السد العالى ، وضرورة إجراء دراسة للمشروع على الطبيعة فى موقع السد فى أسوان ، تتبعها دراسة اقتصادية

عن مدى سلامة الاقتصاد المصرى وتحمله للإنفاق على مثل هذا المشروع الضخم ، على يد خبراء كانوا سيتوجهون مع مندوبى البنوك إلى مصر لهذا الغرض . وكانت الأمور تسير سيراً طبيعياً لا تعترضه عقبات . حتى إذا كتمل تأليف الوفد المسافر من الألمان المذكورين ، تدخلت إسرائيل بضغطها على أمريكا التى ضغطت بدورها على ألمانيا الغربية ، وإذا بنا نفاجأ بأن وفد البنوك الألمانية ومن وقع عليه الاختيار من خبراء الهندسة والاقتصاد ، قد امتنعت وزارة الداخلية الألمانية عن منحهم جوازات سفر لمغادرة البلاد لأسباب تتعلق بالأمن . وتلا ذلك ما هو ثابت فى الأذهان من رفض دالاس تمويل المشروع وتشكيكه فى ثبات الاقتصاد المصرى برغم شهادة البنك الدولى بسلامته ، وما كان على أثر ذلك من وقع على مصر حملها على تأميم القناة . وقد بقيت مصر نفسها تواجه تكتلاً استعمارياً أعقبه مواجهة ساخنة مع إسرائيل وحليفتيها عام ١٩٥٦ ، ثم ما لبثت عندما توقفت الحرب ، أن اتصلت بالاتحاد السوفييتى الصديق ، الذى استجاب لرغبتها بدافع التفاهم والمودة ، بدون غرض أو هوى ، وأتم إقامة السد بما أمد به مصر من خبرة ومال ورجال ومعدات ، حتى قام السد شاهداً على هذه الصداقة ، وأخذت مصر تجنى ثماره قبل ميعاده الموقوت .

إن طول الإقامة ببلد ، والاتصال بمختلف طبقاته ، يمد المرء بمدى بعيد للرؤية ، وبطاقة كبيرة من المعرفة . والألمان شعب جدير بأن يبذل الإنسان ما فى وسعه لينظر إليه من خلال دراسة نفسية ، تحلل دوافع تصرفاته ، وتكشف عن ثرواته الفنية والفكرية والخلقية ، وعن مدى آماله الظاهرة والخفية .

كان طابع الفن القوطى هو السائد والمتحكم فى الآثار القديمة من كنائس وقصور وقلاع فى ألمانيا ابتداء من القرن الحادى عشر حيث انتقل بعد ذلك إلى فرنسا وباقى أوربا منذ ذلك القرن حتى القرن الثالث عشر . إلا أن ألمانيا كانت تلتزم به فى المعمار وفى الفنون الزخرفية وفى

الكتابة وفى اللغة . وهذا الطراز يعكس فى البناء بصفة خاصة ، الطبيعة الكامنة فى أغوار النفس الألمانية ، لما فيه من مبالغة فى الضخامة وفى الارتفاع وفى السمو ، وهى تعبيرات واقعية ملموسة عن مغالاة الألمان فى التوسع وفى العظمة وفى حب الرفعة والتفرد والعلو .

بل إن مشروبهم المفضل وهو ( البيرة) الذى يحفظونه فى براميل ضخمة تسع لما كان يتسع له حصان طروادة ، ويتناولونه فى أقداح ضخمة من السيراميك ، ترزح تحتها السواعد الهزيلة حيث يحتوى القدح منها على لتر أو يزيد ، فيه انعكاس لحب التوسع والاحتواء ، الذى أطلقوا عليه خلال عهد هتلر ، اسم المدى الحيوى .

وكنت أعجب من أن ثورة مارتن لوثر التى قامت ضد صكوك الغفران ، عادت من جديد فى صورة معكوسة فى ألمانيا الاتحادية ، التى تبذل ما تبذل لإسرائيل ، طمعاً فى حصولها منها على صكوك الغفران ، التى تمسح فى ظنها خطايا وسوءات النازية .

والألمان فى كل تاريخهم ، لا يأبهون بالحاضر ، فهم إما أن تراهم فخورين بماضيهم ، أو متطلعين إلى ما سوف يبلغونه فى مستقبلهم من رفعة وسمو .

وإذا كان العرب قد قدموا للعالم الأديان ، وقدّم الرومان المعمار ، والإغريق الأدب والفن والفلسفة ، فإن الألمان قد قدموا الموسيقى التى تجاوزوا بها النطاق القومى ، عبر حدود موطنهم ، إلى العالم الخارجى بأسره ، حتى اتسع أمام موسيقاهم بعد المجال الروحى لها ، الذى تتحرك فيه إبداعات مؤلفيهم الموسيقيين العمالقة .

والألمانى من فرط ما بلغه من تكنوكراطية ، تجده يتصرف تصرف العقل الإلكترونى الحاسب ، بدون أن يتحول أى تحول يخشى أن يخرجه عن الخط المرسوم لتفكيره . فقد روى لى صديق نزل بأحد الفنادق الكبرى ، أنه ذات مساء وقبل تناول العشاء ، ذهب إلى بار الأوتيل وطلب من البارمان كأساً من شراب ( Drymartini ) لفتح الشهية . ولما كانت كلمة Dry بالألمانية تعنى

ثلاثة ، ويكتبونها (Drei) ؛ فقد ظن البارمان أن الصديق يطلب ثلاث أقداح من هذا المشروب ، برغم أنه كان وحده ، ولم يستطع الصديق أن يناقش البارمان ليعيد كأسين مما أحضر ، إذ أن تحضير هذا الشراب الممزوج ؛ لا يسمح بإعادته إلى الزجاجة ، فاضطر إلى شرب ( المقلب ) ، ولكنه ظل ينظر للبارمان ويضحك من تصرفه الآلى ، كما راح البارمان ينظر إلى هذا الزائر ويضحك من نهمه فى الشراب ، ومن ( فراغة ) عينه . . .

وهم فى تنفيذهم الحرفى للقانون ، لا يجاريهم أحد فى العالمين . كنا فى كولونيا التى قصدناها من بون . وكانت معنا تذاكر الذهاب والعودة . وعندما بلغنا فى العودة محطة كولونيا ، وكان القطار على وشك التحرك ، ووجدنا أنفسنا أمام عربة الدرجة الثانية فى القطار ، اضطررنا إلى أن ندخلها ونجلس على مقعدين من مقاعدها . وعند ما مر عامل التذاكر ، ووجد أن تذاكرنا درجة أولى ، طلب منا بكل أدب ، الوقوف ، حيث أن المقاعد مخصصة لركاب الدرجة الثانية وهم أحق منا بها ، إذ أن مكاننا فى الدرجة الأولى ، وعلينا أن نتنزل فى المحطة القادمة لنركب العربة الصحيحة . . وامتثلنا للأمر ونحن نحمد الله أن أمره لم يكن مشفوعاً بوضع وجهنا فى الحيط . . .

وهم يقسمون العمال إلى درجات ثلاثة ا ، ب ، ج . تبعاً لحذق العامل ، ولو أن عاملاً من حرف ا كان عاطلاً ووجد عملا فى مصنع فى الدرجة ج وقبل أن يشغله ، فإن مفتش وزارة العمل يوقع الجزاء على المصنع وعلى العامل ، لأنهما بتصرفهما الخاطئ والمخالف للقانون ، قد حجبا عن عامل من الدرجة الثالثة ، عملاً كان يمكن أن يشغله .

* * *

من مزايا العمل فى بون عاصمة ألمانيا الغربية ، فوق الاحتكاك بشعب بلغ الذروة فى القدرات الفكرية والعلمية والفلسفية والصناعية ، أنه لا يفصلها عن بلجيكا أو هولندا سوى أربع ساعات بقطارات سريعة فخمة مجهزة بكل وسائل الراحة .

وفى عطلة أحد الأعياد، قصدنا بالقطار ، بروكسل ، عاصمة بلجيكا ، التى تعد أصغر دول أوربا مساحة ، حيث لا تزيد مساحتها عن ثلاثين ألف كيلو متر مربع ، ولا يزيد سكانها عن تسعة ملايين نسمة . وعندما كانت تستعمر الكونغو البلجيكى ، كان الفارق بين المساحة فى البلدين يبعث على العجب . فقد كانت مساحة الكونغو تبلغ ثمانين مرة مثل مساحة بلجيكا . ولا تزيد المسافة بين أوستند فى الشمال وأرلون فى الجنوب على حدود لكسمبورج عن ٢٩٠ كيلومتراً تقطعها السيارة فى سرعة متوسطة فى أربع ساعات .

ومن عجائب أمر بلجيكا أنها دولة يشيع الثراء فى كل نتاجها سواء أكان فى الزراعة أم فى الثروة المعدنية أم فى الثروة الحيوانية أم فى نتاج الفكر والثقافة ومجال الصناعات الدقيقة التى تتميز بالبراعة والذوق . إن بلجيكا تحمل بجدارة اسم بلد العمل .فكل من فيها يعمل فى محيطه بمهارة ودقة وضمير لا يحتاج إلى رقيب .

ويبلغ سكان بروكسل وما حولها من ضواح وقرى . مليون نسمة . وتشهد مبانى العاصمة بعراقة تاريخها وما تقلب عليها من دول غازية تركت بصمات من آثارها فيها .

ومن أقدم مبانيها ( أوتيل دى فيل ) الذى يضم بلدية العاصمة . ويرجع تاريخ هذا المبنى إلى القرن الخامس عشر . واللغات الرسمية فى بلجيكا هى الفرنسية والفلاماندية التى تجمع بين الألمانية والهولندية والفرنسية ، وتعد بروكسل من أكثر مدن أوربا ثقافة . وهى الآن عاصمة السوق المشتركة . وبالجامعة بروكسل سمعة علمية عالمية . وكذلك مدينة ( لييج ) وجامعتها وجامعة ( بروج ) التى يعتبر معهدها للعلوم السياسية الثانى بعد معهد باريس فى العالم . وتضم جامعات بلجيكا ٣٧٪ من مجموع طلبتها من الطلاب الأجانب .

وتقع على مشارف بروكسل ، ٢٢ كيلومتراً ، قرية ( ووترلو ) التى

ختم نابوليون أمجاد انتصاراته على ثراها ، عندما أطاحت بجيشه المتعب المكدود ، جيوش ( ولنجتون ) الدوق الحديدى الإنجليزى ، والقائد البروسى ( بلوخر ) فى ١٨١٥/٦/١٨ .

ولا يزيد سكان القرية عن ٧٦٠٠ نسمة . وقد أقام البلجيكيون ( بانوراما ) لمعركة نابوليون الأخيرة ، تمثل ميدان معركة ووترلو بالحالة التى جرت عليها المعركة ، وما تخلف عنها من أشلاء وجثث جنود وخيول وحطام مدافع ومركبات وعربات حربية .

ويرى المشاهد من شرفة دائرية تطل على أرض المعركة كل ما كان يجرى عليها من ويلات وتكتيكات بحجم مكبر فيه خداع للبصر ، حيث لم يترك موضعاً إلا أوضحه بالرسم وباللافتات . فالجنود القتلى يملأون أرض المعركة وقد تلطخت ثيابهم بالدماء ، وارتسمت على وجوههم سكرات الموت . ونابليون على صهوة جواده ، كان يراه المشاهد وهو يجمع شوارد عبقريته العسكرية لينقذ ما تبقى من جيشه من هذا الحصار الإنجليزى البروسى : حتى إذا ما فشل ، استسلم وهو يودع مجداً غارباً ، ازدهر حيناً ثم تولى .

وما تزال بالقرية بيوت شهدت المعركة ، يتحدث أهلها عن أحداثها بالتواتر عن الجدود ، وبالقرية متحف يضم مخلفات دوق ولنجتون ، هو نفس البيت الذى كان يتخذه ولنجتون مقراً لقيادته . ومن بين المخلفات الكرسى الذى جلس عليه بعد انتهاء المعركة بانتصاره ، ليكتب إلى لندن رسالة استسلام نابوليون .

ويروى لنا الدليل ، نقلا عن لسان مديرة المتحف ، من باب التندر ، أن الكرسى المذكور ، الذى يضمه المتحف ، بيع لأكثر من سائح أمريكى ، على أنه الكرسى الأصلى . وقد سأل ذات يوم أحد حراس المتحف ، السيدة المديرة عن حالة بيع الكرسى هذا العام ، فأجابته المديرة بحسرة ، إن حالة بيع الكراسى ليست على ما يرام هذا العام ، وعلى

غير ما كانت تأمل ، لنقص عدد السائحين الأمريكان ذلك العام . . .

وإلى غير بعيد من البانوراما ، أقيم نصب هرمى الشكل ، وعلى أضلاعه خضرة يانعة دائمة ، ويبلغ ارتفاع النصب مائة متر . وانتصب فوق قمته تمثال لأسد كبير رفع ذيله ووضع قدمه اليمنى على كرة برونزية تمثل العالم الذى خضع له .

ومن مشاهد الوفاء التى شدتنى ، رؤيتى لمنزل كان قد أقام به فيكتور هيجو عند زيارته لبلجيكا فترة من الزمان ، يقع بين بروكسل ووترلو . وعندما شرع فى توسيع الطريق بين العاصمة وموقع المعركة ، رؤى هدم ذلك المنزل الذى يعترض الطريق . وسرعان ما تنادى أصدقاء فيكتور هيجو ومحبو فنه من البلجيكيين ، وجلبوا خيرة المهندسين الذين أعدوا مشروعاً بنقل المنزل حجراً حجراً إلى جانب الطريق . وقد تم لهم ما أرادوا ، وأنقذوا منزل الذكريات من الهدم والضياع واستبقوا ذكرى شاعرهم وكاتبهم الأثير ، الذى رفض ذات يوم عفواً أصدره نابوليون الثالث عنه ، بعد القبض عليه ونفيه . وعندما بلغه نبأ العفو ، قال : إنى أرفض العفو من متهم مدان ، ومنذ متى يعفو المتهم عن برئ ؟

هلت علينا عطلة العيد الكبير ، ورأينا أن نمضيها هذه المرة فى هولندا ، بلد الزهور والتيوليب والمناظر الطبيعية الخلابة ، والقنوات وما عليها من مئات الكبارى ، وطواحين الهواء التى هى شعار هولندا . وتعد هولندا بين أغنى بلاد العالم فى منتجات الألبان. حتى قيل إن غطاء العملة الهولندية ( الجيلد ) هو اللبن لا الذهب . وهو البلد الذى يمثل قوة إرادة الإنسان وقدرته على قهر الطبيعة بإصراره ودأبه . إن بلادهم التى تعرف بالأراضى الواطئة ، يهددها بحر الشمال بالغرق ، ولكن إرادتهم أقامت سدوداً وموانع تدفع المحيط عنهم شبراً شبراً . وكلما اكتسبوا أرضاً اتسعت أمامهم رقعة الأرض الضيقة ( ٣٤ ألف كيلومتر) لأحد عشر مليوناً من السكان .

وهولندا بلد زراعى وصناعى : وهم يصنعون إنتاجهم من الألبان

والحيوان حتى بزّوا أكبر دول العالم . وبفضل قنوات هولندا التى تبلغ المئات ، وما تملكه من أسطول نهرى وآخر بحرى ، اتسعت اتصالاتها بكل دول العالم ، وراجت تجارتها ، وبخاصة مع جنوب شرق آسيا ومع أندونيسيا عندما كانت تستعمرها وتستغل خيراتها حتى عام ١٩٤٩ وهو العام الذى تكلل فيه جهاد سوكارنو وأعوانه الأبطال ، واضطرت هولندا للاعتراف باستقلال أندونيسيا . وإنه لمن عجائب السياسة والاستعمار ، أن دولة لا يزيد سكانها عن أحد عشر مليوناً ، تتحكم فى مصائر دولة واسعة الأرجاء ، متعددة الجزر ، مثل أندونيسيا التى يقرب عدد سكانها من مائة مليون نسمة .

إن من يرى امستردام وروتردام وإوترخت ولاهاى التى تغمر أسواقها المصنوعات المحلية والمستوردة من الشرق الأقصى وبضائعه من توابل وأفاويه ، وما بهذه المدن من مبان ضخمة ومنشئات ومصانع وثروات ، لا يدهش لما يرى ، وهو يعلم أن بين يديها كنوز أندونيسيا وجزرها التى لا يعدها حصر ، ولا تعيها أسماء .

لقد كان مما يسلب لذة تمتعى بما كنت أراه من عظمة المبانى وضخامة المصانع والمنشئات ، وذلك الثراء فيما تضمه المتاحف من كنوز ، ودور الأوبرا والمطاعم والقصور والطرق فى أى عاصمة كبرى فى أوربا : من باريس إلى روما إلى برلين إلى بروكسل إلى أمستردام إلى لاهاى إلى فيينا إلى لندن إلى أسبانيا إلى لشبونة ، إحساسى كلما أمعنت النظر فى كل هذا الثراء والترف ، بشقاء ودماء وعرق وحرمان من سلبت منهم هذه الثروات التى بنت كل هذه العظمة . فقد كانت تتملكنى نزعة تجريدية تدفع بى إلى الوقوف على مصدر كل هذا الثراء ، برجوعى القهقرى إلى غابات الكونجو وأحراش وغابات أفريقيا ومناجم جنوب القارة السوداء ومزارع الشاى فى الهند ، وثروات أندونيسيا المعدنيا والزراعية وثمرات أمريكا الجنوبية على عهد الإسبان ثم الأمريكيين حاليًّا ،

ومزارع وكروم شمال أفريقيا من المغرب إلى الجزائر إلى تونس إلى ليبيا ، ثم لا ألبث أن أكشف ببصري وبصيرتي ، عما في هذه المجاهل والأدغال من ثروات ، حملها المستعمر ، وبنى وشيد وأقام دعائم ما نراه في عواصمه من عظمة وثراء ، هي نتاج عرق أصحابها وثرواتهم المغتصبة منهم بحكم القوة والتفوق العلمي والتكنولوجي ، إلى أن تنبهت تلك الأمم إلى حقيقة أوضاعها عندما سرت فيها شرارة المعرفة ، وقامت لتأخذ من الغاصب حقها في الحرية والاستقلال .

كنا في شهر أغسطس عندما زرنا هولندا . وكنت أشاهد وأنا أزور مصيف أمستردام وبلاجها الرملي الجميل في ضاحية ( سفيخنجين ) ، المستحمين وهم يلهون بالعوم في البحر أو يعرضون أجسامهم لشمس ذابلة صفراء في درجة حرارة لا تزيد عن تسع درجات — أي كشتاء مصر — وفي مهب ريح لا تهدأ ولا تفتر . وكنت أرقب هذا المنظر من وراء زجاج في مطعم أنيق جميل ظننته حجرة عمليات . وكنت متدثراً بثياب شتوية . وكأنما أثارت المفارقة — صيف في الخارج وشتاء في الداخل — فضول مدير المحل الذي راح يحدثني عن قوة احتمالهم للجو في أقسى برودته ، وأن الخير في التعرض له لا في الهرب منه . وكأنما عزّ على نفسي هذا التفاخر ، فقلت له : ونحن كذلك في بلادنا نحتمل الحر احتمالا لا تقدرون عليه يا أهل الشمال ، بل تنهارون أمامه . ولو رأيتنا ونحن نسبح في عرقنا في مثل هذا الشهر ، أغسطس ، لأشفقت على نفسك من هذا المصير ، ولوليت الأدبار ، ولله في خلقه شئون ، وكل في فلك يسبحون .

* * *

بعد أكثر من عامين في ألمانيا صدر قرار بنقلي في منتصف عام ١٩٥٥ إلى سفارتنا بروما لأشغل منصب الوزير المفوض بالسفارة . وكنت بعد عشرة أشهر من إقامة دائمة في أوتيل ( برجشرهوف ) في بون ، انتقلت إلى منزل من منازل في حي كان قد أقامه الأمريكيون لقادتهم وقت

احتلالهم لألمانيا ، يقع بين بون وضاحية بادجودسبرج . وقد تنازلوا عنه لرؤساء ومستشارى السفارات الأجنبية فى بون . وعند انتقالى إلى روما ، تولت شركة شحن نقل أثاث منزلى على عربة سكة حديدية استحضرتها أمام دارى سيارة ، حتى إذا ما حملت كل متعلقاتى . قادتها السيارة إلى محطة بون ومنها إلى محطة روما ومنها إلى دارى التى كنت استأجرتها فى روما بالطريقة نفسها ، حيث فتحتها بالمفاتيح التى كنت أحملها لها وأفرغ العمال محتويات العربة بدون أن ينشرخ أو يخدش قدح أو تغيب إبرة .

لقد تم النقل على بساط من حرير وعلى طريق من اردواز . وهكذا يتم التنقل بين دولة ودولة فى أوربا وكأنه قطعة من النعيم وجمع لمعارف ومدارك هيهات أن تلم بها من الكتب . والمشاهدة تختلف عن القراءة . فأنت فى المشاهدة تمتع حواسك الخمسة . فى حين أنك بالقراءة لا تمتع سوى الفكر مع إجهاد النظر .

غادرنا ( دريسن ) وهو الفندق الذى نزل به هتلر عندما حضر لمقابلة تشمبرلين عام ١٩٣٨ . ومضينا بالسيارة إلى كوبلنز ثم فيسبادن ومانهايم وكارلسرو مقر المحكمة الدستورية العليا لألمانيا الغربية ، ومنها إلى فريبورج حتى بلغنا الحدود السويسرية وبعد قليل وصلنا إلى ( بازل ) التى عقد بها تيودور هيرزل رائد الصهيونية الحديثة أول مؤتمر للصهيونية عام ١٨٩٧ . ومنها إلى زيوريخ حيث أمضينا يومين فى زيارة ما بها وما حولها من معالم وآثار . وإن من أكبر ما تتميز به سويسرا ، الأمانة والاستقامة والنظافة والبعد عن كل ما يسبب الضيق للغير . كذلك تختفى منها الاضطرابات والإضراب والانقلابات وهذه أمور إن دلت على شىء ، فإنما تدل على ما يجنيه العالم لو تجنب الحروب التى تخلف الدمار والفقر والجريمة . إن سويسرا الاتحادية بعد آخر حروبها مع الإمبراطور ماكسيمليان النمساوى ، تم الاعتراف باستقلالها عام ١٤٩٩ فى اتفاقية بال ومنذ ذلك الحين ، وبعد أن اعترف العالم بحيادها الذى يعد فى نظر

القانون الدولى حياداً تعاقدياً ، لم تلق سويسرا من ويلات الحروب ما يخدش ما أقامته من مبادئ قانونية وخلقية واجتماعية هى سمتها وشارتها إلى اليوم . ومن يشاء أن يرى العالم مبرءاً من عيوبه ومثالبه ، منذ جريمة قتل قابيل لأخيه هابيل ، فليذهب إلى سويسرا ، ليرى هذا الكمال قائماً فى مدنها وقراها ودساكرها ، على أتم صورة وأوفاها .

ومن زيوريخ مضينا إلى لوتسرن حيث أمضينا فى فندق على بحيرتها الفاتنة اللعوب يومين زرنا فيهما معالمها وجلنا فى بحيرتها الوديعة . وكان سائقنا الألمانى ، قد قطع الطريق من بون إلى روما مرات فى عطلاته على دراجته البخارية ، مما أعاننا على معرفة الكثير من المعالم والآثار التى كنا نمر بها . ومن لوتسرن إلى الحدود السويسرية الإيطالية التى يفصل بينهما نفق سان جوتار الشهير . وقد اقترح السائق العالم الدليل ، أن نقطع الطريق من فوق النفق — وهناك من يقطعه بسيارته بواسطة السكة الحديدية داخل النفق — حتى نمتع النظر بأروع ما يمكن أن يراه المرء من جمال الطبيعة صيفاً أو شتاء . وإن كان لا وجود للصيف فى هذا الارتفاع الشاهق الذى يبلغ فى بعض قممه ( ٣٠٠٠ متر ) من جبل الألب ، إلا فى الأجندة السنوية . ومن هذه المرتفعات ينبع نهرا الراين والرون .

دخلنا الحدود الإيطالية . وكان أول ما طالعنا من مدن إيطاليا مدينة كومو وبحيرتها الأنيقة . وقد أعادت لى رؤيتها ذكرى زياراتى لها عندما كنت أعمل بإيطاليا قبل حرب ١٩٤٠ ، وقد لاحظ السائق الألمانى العالم الدليل البصير ، فرحتى وتهللى وانشراح خاطرى عندما أشرفت ببصرى على الأرض الإيطالية . ولم أستطع أن أخفى مثل هذا الفرح ، لأن الشعور بالفرح توأم للحب الذى لا وسيلة لكتمانه ، فى حين أن الحزن توأم للبغض الذى يلفه ويطويه الكتمان ويعجز عن إبدائه . ولقد أسر السائق فى دخيلة نفسه ما بدا من فرحتى . وعندما انتهى مطافه الطويل الآمن الملىء بالمعرفة والإدراك ، وبلغنا روما ، قال لى بأدبه الجم ، الذى يتمتع

به كل الألمان فى أوقات السلم :

« كنت أود يا سيدى أن تحمل لألمانيا نصف هذا الذى تولى به إيطاليا ». فقلت له إننى أحمل لألمانيا وشعبها كل مشاعر التقدير والاحترام ، ولا أنكر ما أفدته خلال إقامتى بها ، ولكن ما عاناه العرب من تصرف الحكومة الألمانية ، حيال أهم قضايا العرب ومشاكلهم ، وهى اسرائيل ، يحملنى على أن أستشعر المرارة التى كنت أبديها للمسئولين الألمان بدون جدوى ، وكان يخذلنى كتمانها إذا شئت .

وإنى لا ألتمس العذر لألمانيا بما كان يقع عليها من ضغوط أمريكا وإسرائيل والحلف الأطلسى ، ولكن الأمر يخرج عن نطاق هذا الكتاب ويتصل شأنه بالتاريخ والمؤرخين .

وبعد أن غادرنا كومو ، طالعتنا مونزا ، التى تقع على مشارف ميلانو ثم اجتزنا ميلانو التى أمضيت بها عامين قبل حرب عام ١٩٤٠ . ومنها إلى جنوا ، وعلى طريق الريفييرا الإيطالية الذى يشرف على أجمل مواقع للبحر وتقع عليه مدن تضم قصوراً وفنادق لأثرياء أوربا الذين يؤمون إيطاليا للانتجاع فى جوها البديع . مررنا براباللو وسانتا مارجريتا حتى بلغنا لاسبيزيا . وتوقفنا فى بيزا لزيارة برجها المائل الشهير الذى يرجع عهد بنائه إلى القرن الثانى عشر . كما زرنا كاتدرائيتها ومعمدانيتها الشهيرتين . وبيزا هى موطن العالم جاليللى صاحب نظرية دوران الأرض الذى دفع حياته ثمناً لإعلان رأيه العلمى . وبها جامعتها الشهيرة . وبيزا تقع فى مقاطعة توسكانى . ومن بيزا ذهبنا إلى ليفورنو حيث أمضينا بها ليلة . وهى ميناء بها معامل لتكرير البترول ، كما تضم أحواضاً لبناء السفن وإصلاحها . وفى الصباح الباكر غادرناها إلى روما . وفى الطريق توقفنا عند مدينة كاستليانو التى تعتبر مدخلا ومعبراً إلى روما وعلى مبعدة ساعتين منها .

وأطلت علينا روما الخالدة بأبراج كنائسها العديدة ، التى تطاولها جميعاً أبراج الفاتيكان وقبته التى تراها ، مثل برج إيفل فى باريس ، من أى مكان ، وحيثما كنت ، وفى أى اتجاه ، فى ليل كان ذلك أو فى نهار .

# الفصل الثامن

## فى روما :

لم تكن روما غريبة عنى . فقد أمضينا بها عشرة أيام عند قيام الحرب عام ١٩٤٠ ، كانت فيها برغم إظلامها ، تؤنس كل عابر بما يشبه السحر . وقد اتفق المعسكران المتحاربان على اعتبار روما مدينة مفتوحة ، حفاظاً على ما بها من آثار تعد سجلا لتطور الإنسانية . وروما فوق ذلك مزار دينى وعلمى وفنى وثقافى وسياحى لكل الأمم .

سأسرد بعض ما يصف به الإيطاليون عاصمتهم . أسمعهم يقولون : إنها المدينة الخالدة . إنها سيدة العالم . إنها دنيا قائمة بذاتها . إنها متحف يضم آثار كل العصور . وهى وطن أهل الفن جميعاً . وهى نبع الحضارة الإنسانية . وهى التى نقلت منها أوربا المدنية منذ أن أدخلتها إلى فرنسا فى عهد جوليوس سيزار عندما هب لنجدة فرنسا من قبائل الهون . وهى المدينة المقدسة التى قصدها بطرس الرسول ليبشر بالمسيحية . وإذا كانت كل الطرق توصل إلى روما كما يقول المثل السائر ، فإن أى طريق فى روما يصل بعابره إلى دنيا الخلود . وإذا تغنى بها الإيطاليون فى أغانيهم ناجوها بقولهم : (رومتى ) .

إن سر إيناس روما للمصريين ، فوق انفتاح أهاليها على العالم أجمع ، وترحيبهم بالقادمين إليها ، وأحاديثهم التى تتم بالقول والإشارة فى مرح وخفة يشيعان جوًّا من الألفة ، وألوانهم السمراء ، هو ما بها من مبان لا تخطئ العين ما فيها من شبه لما هو قائم فى القاهرة والإسكندرية وبورسعيد بصورة كاملة . فهذا المبنى رأيت مثيلا له فى شارع النبى دانيال بالإسكندرية . وهذه الفيلا شبيهة بفيلا فى ستانلى برمل الإسكندرية هذه العمارة توأم لعمارة فى شارع شريف . وأينما اتجهت وجدت أشباهاً

لظلال ومآلف للقاهرة أو الإسكندرية فى المبانى والمطاعم والمقاهى والمنتديات . ومرد ذلك كله إلى أن المهندسين الإيطاليين الذين أقاموا هذه العمائر فى روما ، أقام مواطنون لهم عمائر فى القاهرة والإسكندرية منذ القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين .

وتقع روما على نهر التيبر . ويبلغ عدد سكانها مليوناً وسبعمائة ألف نسمة . وبعد انهيار الدولة الرومانية الشرقية بعد العهد البيزنطى ،أصبحت روما مقراً للبابا وقصبة للعالم المسيحى الكاثوليكى . ومنذ ذلك الحين وهى كعبة القصاد من كل لون وجنس وهدف وغاية . وقد أمها أهل الفن من الرسامين والنحاتين والمعماريين والشعراء والموسيقيين والمغنين . وفن المعمار فى روما مدين للفن الإغريقى ويأخذ عنه ويضيف إليه : مما اكتسبه من ذوق جديد وفن حديث ، بحكم التطور والتقدم والارتقاء . وبعد عهد النهضة ، وفى عام ١٨٧٠ أصبحت روما عاصمة إيطاليا بعد اتحادها . وفى عهد موسولينى ، زحف عليها بأنصاره عام١٩٢٢ ، حيث استدعاه الملك لتولى الحكم . وفى عام ١٩٤٣ دخلها الألمان . وفى عام١٩٤٤ أخرجهم الحلفاء منها .

كانت فيلاسافويا وحديقتها ( ٦٠ فداناً ) هى مقر مكاتب السفارة والقنصلية ومسكن السفير . وهى من أملاك ورثة الملك فيتوريو إيمانويل الثالث ، إلى أن اشترتها الحكومة الإيطالية منهم عام ١٩٥٧ . وكانت الحكومة المصرية تستأجرها من هؤلاء الورثة الذين استقروا بالإسكندرية بعد زوال الملكية عقب الحرب . وكانت السفارة تضم مكاتب وأقساماً تفوق الحصر . ففيها عدا مكاتب السفارة والقنصلية مكاتب تجارية وصحفية وعسكرية لمختلف الأسلحة . وكان موظفو هذه المكاتب ومن يقصدونهم لأعمال تتعلق بوظائفهم ، يملأون دهاليز وممرات السفارة ، حتى لقد كدنا نستعين بشرطى مرور لتنظيم الحركة بين هذه المكاتب .

وكان مكتب السفير وصالونه ، يواجهه مكتب الوزير المفوض

وصالونه حيث كنت أعمل . ومما يروى أن خلافاً دب بين موسولينى والملك إيمانويل ، تحمس معه كبير ياوران الملك وحاول اعتقاله . وبدأت القصة باستدعاء الملك لموسولينى ليقابله فى قصره الخاص ( فيلا سافويا ) إذ أن القصر الملكى الرسمى هو قصر الكيرينال الذى يقع فى قلب روما .

وكان ذلك قبل تكليفه بتأليف الحكومة . وعندما حضر موسولينى ، جلس فى مكتب كبير الياوران– وكان مكتبى –انتظاراً لإذن الملك لمقابلته فى مكتبه ، وهو مكتب السفير . وقد حاول كبير الياوران بعد مناقشة حامية مع موسولينى أن يعتقله ، لولا تدخل الملك الذى خشى مغبة احتكاك أنصار موسولينى العديدين بالحرس الملكى . وانفض المشكل ، إلا أن المكتبين دخلا التاريخ . وأصبح مكتبى مزاراً من كثيرين من أصدقاء السفارة من الإيطاليين . وكنت أفاجأ وأنا أعمل بفوج من هؤلاء السائحين ، جاءوا للفرجة على حجرتى التى حجز فيها موسولينى . وطبيعى أن دليل هؤلاء الزائرين كان يشير إلىّ كما لو كنت أنا وفقاً لشرحه ، كبير الأمناء ، إبان الحادث ، وأن الكرسى المواجه لمكتبى كان يجلس عليه موسولينى (١) .

فى إحدى حفلات السفارة ، كانت ممثلة إيطاليا الأولى ، جينا لولا بريجيدا ، بين المدعوات . وقد حضرت مع زوجها الطبيب اليوجوسلافى ، الذى سرعان ما أحاطت به عند دخولهما سيدات وصحفيون وأصدقاء ، كما أحاط بلولا سرب من القلوب الهائمة والعيون النفاثة . ومن حسن طالعى أن وجدت نفسى جاراً لها فى هذا الحشر . وفى سعى لإنقاذها من هذه الزحمة ، أشرت عليها بمصاحبتها لمشاهدة صالونات وأروقة

---

( ١ ) كان أثاث الصالون الملحق بمكتبى عجيباً فى طرازه . فقد كانت أرائكه وكراسيه تبدو كما لو كانت ( ميناتير ) أو مصغر لصالون . ذلك أن الملك فيتوريو إيمانويل الثالث كان قصير القامة إلى حد بعيد ، ولو أنه جلس على فوتيل عادى لبدا ضيفه عملاقاً وبدا هو فى حالة لا يرضاها .

ودهاليز وأثاثات القصر . وكنت أقول لها وأنا أفسح الطريق أمامها إننا زملاء . وربما كان هذا مما اطمأنت له وصحبتني من أجله في هذه الجولة . وقد دار بيننا حديث خاطف – تخلل المشاهدة – بدأته بسؤالي عما إذا كنت زميلا من زملاء الشاشة أو المسرح . فأجبتها بأني ممثل دبلوماسي في السفارة . وأما دعوتي أو ادعائي بأني زميل ، فمرجعه إلى أن وسيلتنا وهدفنا واحد . فنحن نعمل مثلكم لإشاعة الهدوء والسلام في أي مكان ، ونعالج مشاكل ونخلق جوًّا من التفاهم الدولي مهما تباينت الأجناس أو اللغات ، وإذا كان مسرح أعمالكم هو البلاتو ، فنحن مسرح أعمالنا العالم أجمع . ولقطاتكم التي تمثلونها ، نقوم نحن بأدائها عندما ننفذ ما يأمرنا بتنفيذه ، مخرجنا الأكبر الذي يصمم سياسة خارجية بلدنا . وأفلامكم المسجلة ، عند الانتهاء من عملياتها من تحميض ومونتاج ودوبلاج ، وإعدادها للعرض ، هي أعمالنا نفسها من واقع تقاريرنا أو مقابلاتنا أو تحركنا السياسي . أما الماكياج الذي تضعونه وفقاً لما يتطلبه الدور المرسوم ، فنحن كذلك نقوم بوضعه ، بما نرسمه على وجوهنا من ابتسامات ليس وراءها في الحقيقة ما يدعو لها ، أو من إبداء دهشة لأمر ، نحن نعلم عنه كل تفصيل ، أو من كبت انفعال لابد لنا من كتمانه ، ولحسن حظكم ، أنكم تزيلون ماكياجكم بعد القيام بأدواركم ، أما نحن فإننا حتى بعد تقاعدنا ، تبقى رواسب وآثار لما وضعناه من ماكياج ، التصقت بأساريرنا وحركاتنا ، وغدت جزءاً منا لا سبيل إلى الانفصام عنه . ولا خلاف بيننا إلا أن لكم معجبين ، وأن لنا محاسبين .

إن روما من العواصم التي تنفرد بميزة لزوم التخصص في فرع مما تضم من آثار أو آداب أو فنون ، للمقيم بها ( لفترة زمنية كالتي نمضيها بها ، حتى نخرج منها لا بحصاد الهشيم ولكن بقطر من بحر ) ، وحتى لا نطلع من المولد بلا حمص .

فقد كان لي زميل بالسفارة ( سكرتير تان ) هو الآن من الوزراء المفوضين

النابهين ، أمضى أكثر من عام فى زيارات علمية تاريخية أثرية لكنائس روما ، ولم يكن قد غطى بزياراته نصف ما فى روما من كنائس .

وزميل لنا آخر ، كان همه زيارة معاهد اللغة الإيطالية وتاريخها وأدبها ومتابعة ما ينشر من أبحاث عنها وعن اللغة اللاتينية ، وهو كزميله لم يكن قد قطع فى أبحاثه نصف ما كان يبغى ، برغم تمكنه من اللغتين الفرنسية والإيطالية ، تمكناً كان مثار عجب وإعجاب مترجم السفارة الإيطالى . وكان هذا المترجم الجليل ، يعدّ من قدماء الإيطاليين ، حيث جاوز الثمانين من عمره . وكان يحمل لقب (البيكوية) منذ أن كان يعمل رئيساً للقسم الإفرنجى بمجلس الوزراء بمصر عام ١٩٢٠ . وكان اسمه (إرموللى) . ولم يكن يسمح لأحد إذا ناداه ، بأن يغفل لقب (بك) الذى كان يعتز به كثيراً . وكنت كثير الحرج من هذا اللقب . وكان يخطر ببالى أن أقول له إن أخطأ بحكم السن فى تنفيذ طلب أو نسى قضاءه ، « فين يا جدع انته يا بيه اللى طلبته منك ! » . ثم أعود فأحترم شيخوخته واعتزازه بلقبه ، وأسكت حتى أنسى أنا أو يتذكر هو . وكان زميل ثالث فيلسوف ، أمضى أكبر من عامين وهو يريد أن يلم ويحيط بمطارح الأنس ومباهج ومشارب المرح فى روما ، استمساكاً منه بمذهب كان راسبوتين فى صدر شبابه قد اعتنقه ، ومن مبادئه ، أن الصلاح والنقاء لا يدركان إلا عن طريق مقارفة الممنوع ، حتى تنجاب حقائق الأضداد ، وذلك ليتسنى له وضع سفر يضمنه جولاته ويصف فيه ما رآه رأى العين ، وذاقه مذاق الخبير . وقد تركته فى روما ، وكان لم يتجاوز فى عمله الأدبى ، بضع صفحات من مقدمة الكتاب .

وكانت متابعتى للأحداث السياسية الجارية ، وميلى للموسيقى ، قد حددا طريقى فى التخصص . وقد عدلت بين الأمرين عدلاً استقام معه أمرى . فكنت أمضى نهارى فى متابعة شأنى الأول وتقصيه ، والتجول فى دروب السياسة المظلمة ، حتى أمسك أحياناً بطرف الخيط ، الذى لا ألبث أن أفقده ، مما يحملنى على إعادة الكرة حتى يقع فى يدى .

وكنت فى ليلى أشبع ميلى للموسيقى والمسرح والأوبرا والباليه، وهى شئون لا أول لها ولا آخر فى روما . ويا حسنها تلك الأيام لو أن حسناً يدوم .

إذ العيش كالغصن فى لينه     يميل بعبء ثمار المنى

* * *

كانت سياسة إيطاليا فى تلك الفترة ١٩٥٥ – ١٩٥٦ حيال مصر تتميز بتفاهم متبادل وصداقة متأصلة منذ أقدم العصور . وكانت إيطاليا تكن لمصر مودة هى نتاج اتصالات ووشائج وتفاهم منذ فجر التاريخ . وقد حدث فى نهاية عام ١٩٥٥ أن ما كانت مصر تنتظره من قمح مستورد من أمريكا وكندا ، تأخر وصوله لأسباب سياسية ، حيث كان الاحتكاك بين مصر وأمريكا قد أطل برأسه بعد أن كسرت مصر احتكار السلاح بفضل صداقة مصر لدول أوربا الشرقية ، وهو أمر كان جديداً على السياسة المصرية بعد عام ١٩٥٢ ، ولكنه أثمر وجنينا ثمراته بالاتفاق على توريد السلاح من تشيكوسلوفاكيا بعد أن أبت كل دول المعسكر الغربى علينا مدنا به . وكان من الطبيعى أن تحجب عنا أمريكا هذه الكميات من القمح التى اتفق على شحنها فى وقتها . وقد فوجئنا فى السفارة بوصول وفد رسمى من مصر ، على أعلى المستويات فى شئون التموين . ووقفت من أعضائه على أن ما يوجد بمصر من القمح لا يكفيها سوى فترة وجيزة انتظاراً لما أمكن الاتصال بهم من جهات أخرى ، كان الاتحاد السوفيتى فى مقدمتها ومن أسرعها فى تلبية الطلب ، لتوريد ما هو مطلوب من مقادير . وعند ما أجرت السفارة اتصالاتها بالجهات الإيطالية المختصة ، حصلنا على موافقة إيطاليا على شحن الكمية المطلوبة دقيقاً مطحوناً ، على بواخر إيطالية ، على أن ترده مصر عند ظهور محصولها القادم من القمح . ولم تتجاوز الاتصالات يومين اثنين . وليس أدل من ذلك على مدى الصداقة التى كانت تربط بين البلدين ، ومدى التعاون المثمر بينهما .

أما بالنسبة للمسائل السياسية الكبرى التى كانت تشغل بال الحكومة

الإيطالية ، وتتطلب منا متابعتها عن كثب ، لتحليلها على ضوء ما يجرى حولها من أحاديث فى المجلس النيابى ، وفى أروقة الأحزاب وفى تعليقات الصحف وفى أحاديث المسئولين ، لإيقاف حكومتنا عليها ، فقد كانت بكل إيجاز تنحصر فيما يلى :

١ ـ كانت رحلة نهرو إلى أوربا وإلى إيطاليا عام ١٩٥٥ ، من بين أهم رحلاته التى قصد بها الدعوة لإشاعة السلام فى العالم الذى انقسم إلى معسكرين ، قد يؤدى الاحتكاك بينهما إلى خراب العالم . وعندما زار نهرو ، البابا ، تكهنت الأندية السياسية بأنه ربما كان الغرض من الزيارة بحث وضع المسيحيين البرتغاليين فى جوا بالهند ، ولكن تبين أنه لم يجر بشأنها أى حديث . (وقد أنهت الهند هذه المسألة بجرة قلم فيما بعد) .

وقد أتيح لى أن أتحدث لحظات ( بقصر فيلا ماداما ) فى دعوة رسمية مع بانديت نهرو والسيدة كريمته السياسية البارعةالذكية اللماحة أنديرا غاندى الرئيسة الحالية لحكومة الهند ، والتى كانت تصحب والدها العظيم كسكرتيرة خاصة ، باعتبارى ممثل دولة هى مع الهند ويوجوسلافيا ، أعمدة سياسة عدم الانحياز التى تمثل صمام الأمان بين المعسكرين .

٢ ـ كان قبول إيطاليا فى شهر ديسمبر من عام ١٩٥٥ عضواً فى الأمم المتحدة ، من الأحداث التى ارتاحت لها الدوائر السياسية الإيطالية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار . وكان قد انضم معها سبع عشرة دولة أخرى ، معظمها ينتمى للمعسكر الغربى ، ولم يعترض الاتحاد السوفييتى على هذا الانضمام ، مما حير المعقبين السياسيين ، وكان التفسير الوحيد الذى خرجوا به ينطوى على تحول فى اتجاهات الكرملين . أما إيطاليا فقد اعتبرت انضمامها للأمم المتحدة بمثابة تخطيها لآخر حاجز كانت تأمل فى تخطيه بعد انضمامها إلى كل المنظمات الدولية الأخرى للعالم الغربى .

٣ ـ انتهت فى شهر ديسمبر ١٩٥٥ المباحثات التى كانت تجريها بعثة إيطالية قصدت أديس أبابا للانتهاء من توقيع اتفاق صرف تعويضات

الحرب ، وذلك فى حدود دفع إيطاليا مبلغ ستة عشر مليوناً من الدولارات للحبشة ، تصرفه فى صورة بضائع مما جرت على استيراده من إيطاليا . وقد حاز هذا الاتفاق رضى الجانبين .

* * *

كل ما فى روما وحولها يغرى بالزيارة أكثر من مرة . ومن أين لى الوقت الذى ألحت إلى صعوبة التوفيق فى إنفاقه ، وهو محدود ، وغنى روما بآثارها غير ذى حدود .

إن أول ما يطالعك من آثار روما . (الكوليسيوم) . أو ما هو معروف لدى الأثريين باسم (انفتياترو فلافيا) . وقد بدئ فى بنائه عام ٧٢ ميلادية ، وانتهى العمل فيه عام ٨٠ . وكان الأسرى اليهود هم الذين استخدموا فى بنائه ، وكان أحد حكماء روما يقول بعد بنائه ، إنه ما دام قائماً ، فستبقى روما ، فإذا ما انهار فسوف تنهار روما ، وإذا ما انهارت روما ، انهار معها العالم . وكانت تجرى على مسرحه حفلات القياصرة التى كان فى مقدمتها مشاهدة تنفيذ الإعدام فى أعداء الإمبراطورية والقيصر ، بإطلاق الأسود عليهم ، بين هتاف الشعب وتهليله .

وفى قلب روما يقع قصر (بالاتزو فينيتسيا) الذى أقامه باولو الثانى ، (١٤٦٤ – ١٤٧١) . وكان يعد تحفة فى فن المعمار والزخرفة والتأثيث . وكان مقراً لكاردينال روما ، ثم لبابا روما . وفى عهد الحكومة الفاشستية ، اتخذه موسولينى مقراً رسمياً له . وكان يلقى أخطر خطاباته من شرفته الرسيحة الشهيرة ، على عشرات الآلاف من الشعب المستمع إليها فى الميدان المقابل للقصر المعروف باسمه ، الذى يقاطع فقرات الخطاب ، بترتيب محسوب ، بهتافات تتردد فى جنبات الميدان الفسيح .

وفى مواجهة هذا القصر أقيم تمثال (فيتوريو إيمانويل الثانى) الذى يعزى إليه الفضل فى دحر قوات النمساويين والمناداة باستقلال إيطاليا .

وفى وسط روما تقع حديقة (فيلا بورجيزى) ، المترامية الأطراف ،

التى أقام بها الإيطاليون تمثالا لشاعر العرب الخالد ، أحمد شوقى ، إعراباً عن تقديرهم لفنه وعبقريته . ويقف تمثال هذا الشاعر الخالد ، بين تماثيل مشاهير العالم من رجال الفكر والشعر والفن . فإلى جانبه تمثال (جوته) الذى أحب المدينة الخالدة ووصف رحلته إليها وما رآه فيها وصفاً يعتبر درة فى أدب اللغة الألمانية . كذلك يقوم تمثال فيكتور هيجو الذى يقدر شعره ورواياته الخالدة غالبية المثقفين فى إيطاليا .

وفى الحديقة متحف لأعمال مشاهير النحاتين من مثالى إيطاليا ، وعلى رأسهم برنيني . وقد استوقفنى وأنا أشاهد المتحف ، تمثال لكيوبا را وهى مستلقية على أريكة . وقد اتشحت برداء شفاف يكشف عن مفاتن جسدها . والتمثال من رخام أبيض ثمين ، لم أقو على مقاومة رغبتى فى لمسه ولمس ذلك الرداء الشفاف الذى ظننته شيفوناً أو حريراً رقيقاً ، من فرط دقة نحته وبراعة إخراجه من الرخام على هذه الصورة من الفتنة التى استأثر بها برنيني وأصبحت علماً عليه .

وتعد قلعة سانت أنجلو من آثار روما الخالدة . وقد تم بناء القلعة فى القرن السادس . ولقد خلد ذكرها فى أوبرا توسكا للموسيقار جياكومو پوتشيني (١٩٠٣) .

أما مدينة الفاتيكان ، عاصمة دولة الفاتيكان ، فإنها تعد عالماً بذاته . فهى مقر البابا والعاصمة التى تهفو إليها قلوب الملايين من المسيحيين الكاثوليك فى كل بقاع الأرض . وهم يحجون إليها تبركاً بالبابا الذى يمنحهم بركاته من منصة منصوبة أمام ميدان سان بيترو حيث يتلقاها الأتباع الذين يملأون الميدان على سعته . وفى المدينة وزارات الدولة ومكاتب رجال الحكم وإدارات الكنائس والمصارف والأسواق والمكتبات .

وبالمدينة كنائس ومتاحف تحتوى على أندر كنوز الفن من رسوم وتماثيل وتطريز وأيقونات وصور فى السقف وعلى الجدران من أعمال رافائيل وميكل أنجلو .

وقد أصبحت المدينة مقرًّا لباباوات روما منذ عام ١٣٧٧ . وفى ميدان سان بيترو ، توجد أعمدة على صورة نصف دائرة من كلا الجانبين ، وأنت إذا وقفت وراء إحداها حجب عنك ما تلاه من أعمدة قامت على شكل قوس كما قدمنا . وهى من إعجاز أعمال العبقرى برنينى .

وفى متحف الفاتيكان تمثال للنيل الذى أنشأه برنينى على هيئة رجل هرم ، وإلى جانبه تمثال لأبى الهول ، ومن حوله وفوق كتفيه وعلى رجليه أطفال يمرحون ، هم فى تخيل المثال ، العواصم والمدن التى تعيش على ماء النيل ، ويحتوى المتحف كذلك على القارورة النادرة المنحوتة من أغلى أنواع الأحجار الثمينة وأندرها ، التى كان نيرون يجمع فيها دموعه الغالية التى كان يذرفها حزناً على من يأمر بقتلهم من أحب أصدقائه وأقربهم . . .

ويضم الفاتيكان مكتبة تعد من أندر المكتبات الوثائقية فى العالم ، التى تحتوى على أثمن المخطوطات الأثرية . وزيارة الفاتيكان تحتاج إلى أسابيع للزائر الدارس ، الذى يميل إلى التعمق والبحث والاستقصاء .

وفى كنيسة ( سان بيترو إنفتكوليس ) ، يشاهد الزائر تمثال النبى موسى الذى أنشأه ميكل أنجلو ١٤٨٩ . ويعد التمثال قمة أعمال هذا الفنان الفذ ، التى بوأته ذروة الفن وخلعت عليه أكاليل المجد . ويرى التمثال وهو جالس بجسمه الهرقلى المتين البنيان ، وقد نطقت أساريره بنورانية النبوة وكبرياء الرسالة ، وانطلقت عيناه وراء فكر شارد ، مبعثه تألمه من شعبه الذى سدر فى غيه بدون أن تشفع فيه نصيحة أو ينفع توجيه .

ونافورة ( فونتانا دى تريفى ) تحتل من عقائد السائحين مكاناً بارزاً ، مؤداه أن كل من ألقى فيها قطعة معدنية من النقود ، ضمن عودته إلى روما . ذلك ما تقوله الأسطورة . وقد صحت هذه الأسطورة معى مرة . فقد عدت إلى روما بعد زيارتى الأولى لها ومرورى بها عام ١٩٤٠ ، وذلك عام ١٩٥٥ عندما نقلت للعمل بها ، أى بعد خمسة عشر عاماً . ولكنى اليوم — برغم إلقائى للنافورة بشيك على بياض تملؤه الأسطورة بمعرفتها — لم أعد

إلى روما إلا فى هذه الكلمات . أعود إليها مع الذكريات . وقديماً قالو :

ولو فهم الناس التلاقى وحسنــه لحبب من أجل التلاقى التفرّق

وهذه النافورة من أعمال (سالفى) المثال الفنان العظيم عام ١٧٣٥ . وقد أعانه فى زخرفة ما حولها من تماثيل عديدة نفر من مدرسة برنينى فى النحت . ويتوسط النافورة تمثال (أجريبا) التى كانت كما تقول إحدى الأساطير ، أول من جلبت الماء إلى روما .

وعلى طريق (آبيا) آثار ومخلفات قصور اندرست كانت قائمة منذ قرون عديدة حوالى عام ٣١٢ قبل الميلاد . وبها بقايا آثار (كاراكالا) ومسلة (أكسيوم) وغيرها .

ويقولون إن على هذا الطريق ، كان القديس بطرس الرسول ، يسير عند مغادرته روما هرباً من الاستشهاد على أيدى الرومان الوثنيين الذين كان يبشر بالدين المسيحى بينهم . وقد تراءى له وهو يجد فى السير ، طيف السيد المسيح يمشى نحو روما . وقد سأله القديس بطرس فى لهفة : « إلى أين أنت ذاهب أيها السيد ! » ، فأجابه السيد المسيح : « إلى حيث يقودنى قدرى » . وقد خجل القديس بطرس ، وعاد أدراجه إلى روما ، ليواجه استشهاده ، حيث لا مفر للإنسان من قدره .

وقد انتهز بعض أصحاب المطاعم الشهيرة ، فرصة ما لهذا الطريق من شهرة تاريخية ذائعة ، وأقاموا بين الأطلال الدوارس ومخلفات الآثار العتيقة مطاعم فاخرة ، تم تنسيقها وتأثيثها وإنارتها على يد مصممين من أساتذة فن الديكور ، راعوا فى تنسيقهم الزمان والمكان ، وراح الطهاة والمديرون يتفننون فى إخراج قوائم الطعام بما يتفق ومقتضى الحال . فهذا دجاج مشوى على طريقة نيرون ، وأنت تشاهد عملية الشواء أمامك ، وهذا حساء (أجريبا) ، وهذه شطائر جوليوس سيزار ، وهذه فطائر أنطونيو . على أنه لا يرتاد هذه المطاعم إلا كابر وابن كابر ، وله نسب فى الكابرين عريق يساعده على دفع فاتورة الحساب التى تبلغ مع نبيذ (آبيا) الإجبارى ،

رقماً خيالياً صاروخياً فلكياً .

أما حدائق ( البنشو ) الأنيقة الفاتنة ، التى تطل من شرفتها الوسيعة على كل روما ، فإن الأهالى يقصدونها ليستمتعوا بكل هذه الفتنة الناضرة ، حيث ينتشرون فى طرقات الحديقة وما انتثر فيها من مطاعم . ونواد . وهى ترتفع عشرات الأمتار عن روما ، وفى أيام : الآحاد والعطلات تمتلئ هذه الحدائق بزوارها من مختلف الطبقات : فمن لم تسعفه سيارته الخاصة ، أوصلته إليها السيارات العامة ، فالكل فى حق الحياة سواء .

ومن الشوارع التى لا ينساها الزائر فى روما ، شارع ( فيا فينيتو ) الذى يقع فيه أفخم فنادق روما ، مثل إكسلسيور وفلورا . كما أن به مبنى السفارة الأمريكية الذى اشترته السفارة من الملكة مارجريتا . كذلك توجد به أفخم صالات الشاى والمقاهى الفاخرة مثل مقهى ( الدونيه ) . وأنت تشاهد وأنت جالس مكانك أشهر ممثلات وممثلى إيطاليا عندما يكونون على موعد فى أحد فنادق هذا الشارع الأرستوقراطى العريق . وإنك لتسمع ٩٠٪ مما تسمعه من حديث فى هذا الشارع بلغات أجنبية ، حتى أطلق عليه بعض الماجنين من الإيطاليين اسم . « الأرض المفقودة » . وهذا الشارع يبدأ من قصر الملكة مارجريتا حيث تقيم السفارة الأمريكية ؛ ويصب فى حديقة فيلا بورجيزى . ومن شوارع روما الأنيقة ذات الأسعار العالية والبضائع النادرة ، شارع ( فيا كوندوتى ) . وهناك شبه مثل يقول : فى استطاعتك أن ( تفاصل ) فى أى مكان فى إيطاليا ، فيما عدا ( فيا كوندوتى ) ويوجد بهذا الشارع ( المقهى اليونانى ) ، ( كافيه جريكو ) الذى تقرأ عند مدخله لافتة تحمل اسمه وسنة تأسيسه وهى ١٧٦٠ . وكان يؤم هذا المقهى كبار الأدباء والشعراء والموسيقيين أمثال ( أناتول فرانسس وفيكتور هيجو ولامارتين وليست وشوبان ) . وبالمقهى مقصورات حول الجدران عدا الموائد المنتشرة فى الوسط . وكان مديرو المقهى ، كلما أم مقهاهم شهير ممن ذكرت ، أجلسوه فى إحدى المقصورات ، حتى إذا ما غادر المقهى ،

وضعوا لافتة نحاسية صغيرة باسم الفنان الكبير ، تخليداً لذكرى ذلك اليوم ، وهى ما تزال قائمة إلى يومنا هذا .

وكنا نجد فى عطلات آخر الأسبوع وإجازات الأعياد متنفساً ومنطلقاً للخروج إلى ما حول روما من ضواح وقرى ومدن . ولعل من أكبر نعم الله على روما ، وجود شاطئ البحر على بعد ٢٥ كيلومتراً فقط منها . وعلى هذا الشاطئ يقع بلاج أوستيا الجميل ، حيث يجد المستحمون لذتهم فى رياضة السباحة والبحر ، وقضاء عطلة الأسبوع فى فنادقه ، أو الإقامة فيما حوله من منازل طوال الصيف أو العودة فى اليوم نفسه لمن يمنعه عمله عن التخلف . وهناك بلاج آخر يدعى ( فريجينى ) على نفس المسافة من روما .

وعلى مشارف روما تقع قرية ( روكا ديل بابا ) وكذلك ( كاستل جوندولفو ) المقر الصيفى للبابا . وأنت إذا تركت روما فى طريقك إلى تيفولى ، حظيت برؤية قصر ( فيلا ديستى ) المسمى باسم الكاردينال إيبوليت ديستى ابن لوكريسيا بورجيا من الفونس الأول حاكم ( فرارى ) ، الذى بنى عام ١٥٥٠ ليكون مقراً للكاردينال المذكور . ويحتوى هذا القصر على نافورات راقصة متباينة الأشكال والاتجاهات ، تجعله الوحيد فى أوربا الذى ينفرد بهذا الامتياز ، ولكل من هذه النافورات التى تزيد عن المائة ، اسم تعرف به ويرمز إليها . وبرغم قدم القصر ، فإن جدرانه وأبهاءه وسقوفه ما تزال تحمل صوراً رسمها أقدر الفنانين فى ذلك العصر . ويقع القصر على مرتفع يشرف منه على ما حوله من مناظر فاتنة . وعلى جناح الأفق تنام روما وهى ملتفة فى ضباب كأنه نقاب العروس ، الذى يخفى ويكشف وجهها ، أو يتركه بين بين . وفى صالة وسيعة من صالات القصر ، أقيمت كنيسة صغيرة ، خلف مذبحها تبدو صورة للسيدة العذراء ويسوع المسيح فى طفولته ، تعد من أروع محتويات القصر . وهى من صنع الفنان ( أجريستى ) .

وأنت إذا تركت روما وصعدت شمالا ، قابلتك فلورانس مركز الإشعاع الفكرى فى إيطاليا مدى قرون . وهى مدينة ( دانتى الليجييرى ) . وإلى الشمال منها مدينتا فيرونا وبادوفا القريبتان من بحر الأدرياتيك . ولقد جرت أحداث مأساة شيكسبير ( ١٥٩٤ ) الخالدة ( روميو وجولييت ) فى هذه المنطقة . وتقع المدينتان فى مقاطعة الأديج الأعلى بين إيطاليا والنمسا . وتعدان من أكثر مدن إيطاليا غنى بآثار القرون الوسطى ( من القرن التاسع حتى الحادى عشر ) . وبها جامعتان باسميهما . وعلى مقربة من فيرونا تقع عروس الأدرياتيك ( فينيسيا ) الشهيرة بقنواتها وجندولها الحالم . ويبلغ عدد سكانها ٣٠٠ ألف نسمة . وتشتهر بالصناعات الزجاجية النادرة من مورانو إلى رقائق من البلور الملون . وفى استطاعة الزائر أن يرى المصنع وهو يقوم بصنع ما يوصى به ويستلمه بعد فترة قصيرة . وهى مركز للصناعات البحرية . وبها ملاهى الليدو العالمية التى يؤمها أثرياء السائحين للنزول بفنادقها الفاخرة التى تضم صالات الروليت والباكارا . ويقع ميدان سان مارك فى وسط المدينة حيث يشاهد قصر الدوج والحمام الذى يملأ الميدان . وبالمدينة تسعون كنيسة غنية بالآثار ، وعلى أحد قنواتها العديدة يقع كوبرى التنهدات ، حيث كان يصل بين السجن من ناحية وبين المبنى الذى يتم فيه تنفيذ حكم الإعدام من ناحية أخرى . وهناك الكوبرى المسمى ريالتو . وفى رواية شيكسبير ( تاجر البندقية ) يقول أحد أشخاص الدراما : « ماذا يجرى فوق الريالتو » . فقد كان هو مصدر أخبار المدينة لتزاحم الناس عليه .

وحلم كل عروس أن يجرى بها وبفتى أحلامها الذى يرافقها جندول ، يشدو ملاحه بأغان شجية عذبة ، وهو يعزف على آلة الجيتار أو التشيللو . ويرتدى ملاحو الجندول ملابس مزركشة جميلة ، لتكتمل الصورة الحالمة التى طرزها خيال العروس .

والحديث عن إيطاليا لا تتسع له موسوعات . ووقت الزائر محدود .

وجهده محدود . وعمله يحثه على العودة من حيث أتى ، كلما ابتعد عنه يوماً أو بضعة أيام .

ومثل كل حلم جميل ، انتهت فترة إقامتى بروما ، بصدور الأمر بنقلى إلى ديوان الوزارة ، لأشغل منصب السفير المشرف على الشئون العربية ، ولأكون فى الوقت نفسه مندوباً دائماً للجمهورية العربية المتحدة لدى جامعه الدول العربية فى شهر مارس عام ١٩٥٦ .

غادرنا روما بالسيارة إلى نابولى حيث زرنا صخرة كابرى التى يؤمها السائحون من كل أطراف الدنيا واشتهرت بهم . كما زرنا سورنتو المدينة الغارقة فى صناعة أدق أشغال الإبرة والدنتيل . ومن نابولى ، حيث كانت ترسو الباخرة أسبيريا أبحرنا إلى الإسكندرية . وخليج سانتالوتشيا فى نابولى بهجة الزائرين ، وملتقى مراحهم .

ولقد سكت عن نظم الشعر فى إيطاليا ، أو لعلنى كنت أختزن ما أرى لأنشره نظماً أو نثراً حينما يبغى الخيال . ذلك أن فى إيطاليا من الجمال ، ما تحس به الروح فى قوة ونفاذ ، ويحيط به شوق النفس ووعى الخفاق ، ولكنه فى سموه وعلاه ، يجل عن الصفة مهما أدركته المعرفة . وكان سكوتى مشابهاً لسكوت المجنون عن التحدث إلى ليلاه ، يوم أن رآها بعد غيبة واشتياق ، فلما سأله أخدانه وخلانه عما تحدث به إليها ، أجاب : « شغلنى حبها عنها » . على أنى قلت فى إيجاز وأنا أرحل بعيداً عن روما :

تاه من حولها الزمان وتاهت ... وتمنى رواءهـا كل مغنى
أى فجر وأى مغرب شمس ... وأصيل ، بحسنهـا يتغنى

# الفصل التاسع

## فى صوفيا :

بعد أيام أربعة من مغادرتنا نابولى ، كحل الله عينى فى فجر يوم باسم من أيام الربيع ، بشاطئ ثغر الإسكندرية ، الذى بدا ماداً ذراعيه مرحباً بالقادمين ، وكانت تحيط به غلالات . لم يكشف بعد المسافة عما يخفيه الشاطئ الوديع من أحلام الصبي وبدوات المنى وصبابات العذارى ، كلما هل عليهن فجر أو أطل صباح .

وكانت غيبتى عن مصر طالت هذه المرّة ، وعدت أكثر إحساساً بما فى خيرات البعد عمن تحب من لهفة الحنين ، وصبوة العاشق ، وحرارة الشوق عند اللقاء .

وقفت أستاف عطر الفجر ، وأنشق عبير الذكريات ، والطبيعة من حولى هيأت لى ، من غذاء الروح ، أقصى ما تشتهيه الروح من قوت ، وأجمل ما تتمناه العين من متاع .

إننى أحسد السائحين الذين يجيئون إلى مصر ليروها أول مرة . فإن اعتيادك النظر إلى الحسن ، يمضى بك إلى حال من الألفة به ، حتى لايبهرك إذا بدا ، مثلما فعل بك أول مرة . والقمر إذا ظل بدراً طوال الشهر ، زهدته النفوس ، وملته العيون النواظر . ولدينا آثار لو تفرقت بين متاحف العالم — بطريق الإعارة — لأغنتها . ويشق وادينا نهر مبارك الروحات والغدوات وهو من بين أنهر العالم فريد ، لا يدانيه فى خيراته أو صفاته نهر آخر ، أى نهر كان . فهو يجرى بقدر وحسبان ، وأصبحنا نقيسه بالمتر واللتر ، بعد إقامة السد العالى الذى تحكم فى جريانه وتهذيب اندفاعه . بل إن لونه يتغير مع الفصول كما لو كان شجراً أو ثمراً . وله خرير هو سيمفونية خالدة فى سمع الزمان . ولدينا فوق هذا وذاك من نعم الوادى الخصيب ،

صوت أم كلثوم الذى نباهى به كل صوت على أى لسان . ولم أحمد لآلات التسجيل فضلاً ، قدر حمدى لها ويدها عندى ، ممثلة فى أشرطة ما تغنت به أم كلثوم من شوامخ أغانيها وغنائها ، التى كنت أنتقل بها من دولة إلى دولة ، وصوتها يؤنسنى ويملأ جوانحى فرحة وطرباً .

وجدير بكل مصرى أن يعتز بوطن علم الدنيا فنون الحضارة والعلوم والمدنية ، عندما كان هذا العالم يحبو ، وحينما كان يغط فى نوم ثقيل ، بدون أن يدرك مما حوله شيئاً .

بل لقد كانت مصر أول أمة حملت رسالة التوحيد فى عبادة إله واحد منذ عهد ( أخناتون )

وجدير به أن يتفانى فى رفعة هذا الوطن الذى جمع إلى العلم والحضارة ، والسبق بينهما ، عزيمة أبنائه وإصرارهم على اللحاق بما فوته عليهم عالم إمبيريالى يخشى تقدمهم ويعمل على الفت فى إرادتهم ، بما يصطنعه لهم من عوامل وحواجز ، كإقامة إسرائيل ودعمها بكل ما تحتاج إليه ، وزرعها ودقها كإسفين يفصل بين دول المنطقة العربية .

وحللت أهلا ، وحللت سهلا ببلدى الحبيب ، وملأت عينى من مناظره ، وقلبى من لهفة الحنين إليه ، ومضيت فى عملى الذى لم يكن غريباً عنى ، منذ أن عايشت كما قدمت ، أدق وأخطر المشاكل فى الدول العربية التى عملت بها فى فلسطين والأردن وسوريا ولبنان .

كنت أشرف على الشئون العربية فى الوزارة ، وأمثل الجمهورية العربية المتحدة ، كمندوب دائم لها لدى جامعة الدول العربية ، مع زملائى من ممثلى الدول العربية ، على مستوى السفراء .

وكانت تتجمع فى الأفق الدولى سحائب قاتمة ، فى تلك الفترة من النصف الأول من عام ١٩٥٦ ، بعد أن فازت مصر بالحصول على ما تريده من السلاح من تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٥٥ ، عقب الحصار المحكم الذى ضربته حولنا الإمبيريالية ، لنبقى عزلا أمام عدو يسبح فى بحر من أسلحة

الدمار . وكانت أمريكا توالى إسرائيل إلى جانب الأسلحة والمعدات العسكرية ، بالمال الوفير والعون الأدبى فى الهيئات الدولية .؟

أما فى المحيط العربى ، فقد كان شاغل الجامعة العربية فى تلك الآونة ، عرض موضوع إبراز الكيان الفلسطينى ومناقشته وإقراره . وكنا نجتمع وننفض ، وننتهى إلى إحالة الموضوع على مجلس الجامعة على مستوى وزراء الخارجية ، ثم يعود الموضوع إلى اللجنة السياسية على مستوى السفراء لإعادة بحثه . وكان للأردن وجهة نظر معارضة فى هذا الأمر ، الذى كان فى تنفيذه ، الرد العملى على دعاوى الدوائر الأجنبية التى كانت تنتقد سكوت أهل فلسطين عن قضيتهم ، وسماحهم بأن يتناول بحثها دول عربية غيرها تقحم — فى ظنها — نفسها فى شئونهم . ولست فى حاجة إلى القول إن نقطة الحبر تعكر باللون الأسود، كوب ماء، ولكن كوب الماء تضيع فى زجاجة حبر .

ثم جاء اليوم الحاسم ، يوم ٢٦ يوليو عام ١٩٥٦ ، عندما أعلن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، قراره بتأميم قناة السويس ، حتى يستطيع أن يمول من دخلها مشروع السد العالى ، بعد أن أبت أمريكا وتوابعها إقراض مصر للقيام به ، بل عمدت متجنية إلى التشكيك فى متانة مركز مصر الاقتصادى ، الذى ثبتت سلامته .

وكان المهيمنون على السياسة الخارجية العليا عندنا ، قد رأوا أن تزيد مصر من روابطها السياسية والاقتصادية والثقافية بدول شرق أوربا ، التى كان التمثيل معها على مستوى القائمين بالأعمال . وقد صدرت بالفعل فى شهر يونية عام ١٩٥٦ قرارات بتعيين وزراء مفوضين فى هذه الدول كنت أنا من بينهم ، وكانت صوفيا من نصيبى .

كان اتفاقنا مع تشيكوسلوفاكيا على مدنا بما نريد من سلاح ، بمثابة البرهان العملى على ما يمكن أن تجنيه مصر من التوسع فى علاقاتها مع هذه الدول الشرقية ، الذى وجدت مصر أنه ألزم إليها من أى اتجاه آخر ومن أى صداقة أخرى ، فى فترة ترددت فيها تهديدات الدول الرأسمالية ،

وبخاصة دول المنتفعين من إدارة القناة . وقد جاء استعداد الاتحاد السوفيتى فيما بعد هذه الآونة ، للموافقة على بحث إقامة السد العالى ، دليلا عملياً ، وتأكيداً جديداً لما يمكن أن تقدمه الصداقة المجردة من الهوى والغرض ؛ من منافع تعود على الطرفين ، ورمزاً عند إتمام السد العالى بكل ما قدمه الاتحاد السوفيتى فى إقامته من بذل العون بالمال والخبرة والمعدات والرجال ؛ أقول إنه يبقى رمزاً ضخماً للصداقة المجردة بين الشعوب، التى لا تنزع إلا إلى إقامة تفاهم وتعاون ومودة وإخاء . . .

صدرت لى التعليمات بالسفر إلى صوفيا لتقلد مهام منصبى كأول وزير مفوض ومندوب فوق العادة لمصر لدى بلغاريا ، وهو المركز الذى لم يمض على فيه سوى فترة وجيزة ، حتى اتفق البلدان على رفع التمثيل الدبلوماسى بينهما إلى درجة السفارة ، وصرت بذلك أول سفير يمثل مصر لدى بلغاريا ، بعد أن أثبتت الأيام جدوى التوسع فى العلاقات مع دول شرق أوربا ، ومدى ما تجنيه الأطراف المعنية من هذه الصداقة الصادقة .

غادرنا الإسكندرية بحراً إلى رودس ، حيث أمضينا بها يوماً . وهى جزيرة تقع ضمن أرخبيل الدوديكانيز ، ولا يزيد سكانها عن خمسين ألف نسمة ، وبها آثار من مختلف العصور . وغادرناها مساء إلى بيريا ثغر اليونان ومنها إلى عروس الأدرياتيك ( فينيسيا ) حيث قضينا بها يوماً وليلة غادرناها إلى تريستا . وقد كان فى انتظارى مندوب شركة اللويد تريستينو حسب اتفاق سابق ، ليتولى تسلم متعلقاتى الكثيرة الكبيرة ومن بينها سيارة ، من المركب ، وليقوم بشحن كل هذه المتعلقات من تريستا إلى صوفيا بالقطار ، ثم يتولى حجز مكانين بقطار إكسبريس الشرق المتئد الرزين ، كنت أرغب فى أن يحجز لى بدلا منهما مقصورة ، حتى أستطيع أن أستبدل ملابسى بملابس سوداء قبيل وصول القطار إلى صوفيا التى كنت سألتقى بها فى انتظارى ، مدير البروتوكول وأحد مساعديه وبعض رجال الإعلام وهيئة المفوضية . ولكنه طمأننى بظرفه الذى جمع أطرافه من أب إيطالى

وأم سماوية ، فجاء مزيجاً من خفة الروح وسرعة الخاطر . فقد قال لى ، لا عليك ، فإن ( الهباب ) الذى تلفظه مدخنة القطار خلال الطريق وبلا ملل ، يتخلل كل مكان فى القطار ويدركك أينما كنت ؛ هذا ( الهباب ) كفيل بأن يحيل أى لون إلى أسود ، ويعفيك من التغيير والتمسك بالقواعد والعرف فى مثل هذه المناسبة . وقد كان ما توقع المندوب الذكى ؛ وهبطت من القطار ببذلة سوداء من غير سوء ؛ حيث كان فى استقبالى مدير البروتوكول ومساعد له وبعض مندوبى الصحف ومصورون . وقد أوصلنى مدير البروتوكول إلى دار المفوضية ( السفارة فيما بعد ) ، ومكثنا بالمفوضية بعض الوقت ثم استأذن فى الانصراف بعد أن حددت موعداً لمقابلة وزير الخارجية ؛ لتسليمه صورة من أوراق اعتمادى .

بعد أسبوع من وصولى ، قدمت أوراق اعتمادى لرئيس مجلس رئاسة الجمعية الوطنية . وكان البروتوكول يقضى بأن أستعرض حرس الشرف فى ساحة واسعة تقع أمام الجمعية الوطنية ؛ هى ميدان ( نارودنو سوبرانى ) ثم أقوم بتحية الحرس بجملة للشكر والامتنان باللغة البلغارية . وقد حرصت على أن أحفظها وأنطقها نطقاً سليما يتفق مع هذا المظهر العميق الذى ينطوى على معنى الود والتفاهم . وبعد هذا الاستعراض تقدمنى مدير بروتوكول قصر الرئاسة حتى أوصلنى إلى قاعة فسيحة وقف فى صدرها رئيس مجلس الرئاسة ، ووقفت أمامه على بعد مرسوم لألقى خطابى باللغة الفرنسية ، الذى رد عليه بما يتضمن الترحيب والاستعداد لبذل كل عون من الدوائر الرسمية العليا ، لتسهيل مهمتى وإنجاح بعثتى . ثم سلمته أوراقى التى سلمها بدوره للسكرتير المختص ثم تقدمنى إلى قاعة جانبية ، للترحيب بى .

إن تفتح نفوس أهل بلغاريا مستلهمة من تفتح أزهارهم واخضرار أرضهم . ذلك أن الخضرة لا تغيب عن نظرك أينما اتجهت وأنت فى بلغاريا. وقد صدق من أطلق عليها اسم (حديقة أوربا ) . ومثلما نمت وربت أرضها

بالزرع والضرع وأطيب الثمر ، نمت وربت قلوب أهلها بمحبة كل غريب ، والتسابق إلى صداقته وتقديم ما يكون فى حاجة إليه ، برغم صعوبة التفاهم بالحديث الذى ينوب عنه تلك البساطة والانفتاح والكرم والود الممدود الذى تحسه فى ريفنا المصرى . وربما تميز البلغارى بهذه الطيبة وروح المعاونة ، من دوام رعايته للأرض ، وعنايته بالزرع ومساعدته لما على أرضه من دواجن ودواب ، حتى تأصلت فى نفسه محبة بذل العون لمن أحاط به أو حل بأرضه وطمع فى عونه . ولم تغير الآلة بعد أن انتشرت فى بلغاريا المصانع ، من طبيعة أهلها ، التى هى أثبت وأرسخ من كل دخيل عليها أو ملتف بها . والطبع كما يقولون غلاب .

وأكثر ما تسمعه مردداً فى الحديث من البلغار ، قولهم : « قبل ٩ سبتمبر ، ومنذ ٩ سبتمبر » هذا اليوم من عام ١٩٤٤ ، هو اليوم الذى استطاع فيه البلغار بمعاونة حليفهم الأكبر ، الاتحاد السوفييتى من طرد النازيين والإطاحة بحكم الإقطاع ، وأمسك بين يديه بمقاليد الحكم والمصير بعد أن رزح طويلا تحت نير استعباد الأجنبى وإقطاع الحاكمين من أهل البلد قبل هذا اليوم الكبير الذى أصبحت فيه بلغاريا جمهورية شعبية . وهم يطلقون على بلغاريا اسم بلد (جورجى ديمتروف) وهو زعيمها البطل الذى جاهد ونظم وأوقد الشعلة وثار فى وجه الألمان الذين اقتادوه إلى السجن بتهمة اشتراكه فى حرق (الرايشستاج) عندما كان فى ألمانيا ، وهو الحريق الذى ثبت أن النازيين أشعلوه بقصد الفتك بالشيوعيين . وقد تعلم (ديمتروف) اللغة الألمانية وهو فى سجنه حتى يستطيع أن يدافع بنفسه عن نفسه بلغة القاضى الذى يحاكمه .

وبلغاريا بلد زراعى . وتبلغ مساحته ١١١,٠٠٠ كيلومتر مربع ولا يزيد عدد سكانه عن سبعة ملايين ونصف مليون نسمة . وصوفيا هى عاصمة بلغاريا التى اشتقوا اسمها من اسم آلهة الحكمة (صوفى) ويبلغ عدد سكانها ٤٥٠ ألف نسمة ، وهى تقع فى واد خصيب يمتد

حتى يصل إلى سفح جبل ( فينوشا ) الذى يعلو وتتصاعد على جوانبه أشجار باسقة وزروع دائمة الخضرة حتى يبلغ ١٢٠٠ متر . وتعد صوفيا من أكثر مدن أوربا الوسطى نظافة وحسن تنسيق . وتنتشر بها الحدائق حتى لا يكاد يخلو بيت من حديقة خاصة . ومبانيها الحكومية ضخمة فخمة . وتعد ميادينها متوسطة الاتساع فماعدا ميدان ( نورودنو سوبرونى ) الذى تطل عليه الجمعية الوطنية . وتقع بهذا الميدان كنيسة ( ألكسندر نيفسكى ) ذات القباب والطراز البيزنطى ، وهى من خير مبانى هذا الطراز فى أوربا . ومن بين مبانى صوفيا الفخمة مبنى المكتبة والجامعة ودوائر الحكومة المختلفة . كذلك مدفن الزعيم ( جورج ديميتروف ) الذى لا ينقطع سيل زواره من الصباح الباكر حتى المساء ، ليلقوا نظرة على جثمانه فى ردائه الأسود وبكل تقاسيم وجهه وحجم جسمه بعد تحنيطه بصورة علمية بارعة ودقيقة . أما المبنى الذى يضم اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ومجلس الوزراء فإنه يعد أكبر وأفخم المبانى جميعاً . وهو يحتوى إلى جانب المكاتب العديدة ، على صالات للمآدب تتسع لمئات المدعوين ، وصالات للاستقبال وقاعات للاجتماعات ومسرح زودوه بأحدث المعدات المستخدمة فى أرقى مسارح أوربا . وتقام على المسرح بين الحين والحين حفلات لكبار الزائرين من الدول الاشتراكية ، تتبارى فيها الفرق التمثيلية والفولكلورية التى تعرض فنونها بإعجاز .

ومن أكبر مدن بلغاريا بعد صوفيا ، مدينة بلوفديف إلى الشرق من صوفيا ، ومدينة فارنا التى تقع على شاطئ البحر الأسود ومدينة روسى فى الشمال . وتكثر فى بلغاريا الجبال العالية فى منطقة ريلا ورودوب . وتنمو فى بلغاريا غابات خشبية فوق سفوح الجبال تعد ثروة عظيمة ، تغنى عن استيراد أخشاب البناء والسكة الحديد والأثاث . وتزرع بلغاريا الحبوب بأنواعها والدخان الجيد وأنواعاً عديدة من الفاكهة الطيبة الثمر وبخاصة الخوخ والعنب والتفاح . وهى ترتوى من نهر ماريتزا وروافده ، ومن مياه

الأمطار الغزيرة التي يخزنونها بعناية في خزانات بعد إقامة سدود على ما ينزل منها مندفعاً من الجبال العالية ، حيث يستغلون هذه الطاقة في توليد الكهرباء التي تدير مصانعهم .

ويعتبر جبل ( فيتوشا ) متنفساً لأهالي صوفيا ، حيث يصعدون إلى قمته التي ينعمون فيها بالمنظر الجميل والهدوء والهواء النقي . وهناك بعض مطاعم صغيرة ومنتديات للرواد . وكثيراً ما يصعد الجبل جماعات تحمل معها معدات النوم والطعام ويقيمون مخيمات يقضون فيها أياماً في رياضة وانتجاع يعودون بعدها على خير حال من الصحة والنشاط بدون أن يرهقوا أنفسهم بتكاليف المصايف ، ويعتقد البلغار ، أن من يصعد هذا الجبل ويكون مصاباً بقرحة المعدة ، يعود بعد صعوده سيراً ، وقد تخلص من علته بصورة نهائية .

والشعب البلغاري من رجال ونساء ، أهل عمل وجد ، وإن كانوا في أوقات فراغهم ، المحدودة ، يعكفون على المرح والرقص والعزف والغناء ، حتى تظن أنهم منقطعون فقط إلى هذا اللون في حياتهم . وهم يقومون برقصات شعبية على أنغام سلافية وموسيقى تزيجان ، السريعة الإيقاع لا تكاد أرجلهم تبين من حركاتها الخاطفة ، التي يساعد تواترها على دفع بردهم القارس وبعث الدفء في أطرافهم .

وحل يوم ٢٩ أكتوبر بقتامة ظله ، الذي بدأ فيه العدوان الثلاثي على أرض الوطن ، بترتيب مبيت ، وهو ما يزال عالقاً بالأذهان . وقد كان الباعث عليه في نظر أغلب المعقبين السياسيين المحايدين ، هو تأميم القناة ظاهرياً ، وتحقيق مطامع الدول الثلاثة من هذا العدوان في حقيقة الأمر ؛ كل بحسب ما دبر من أطماع .

في هذه الأيام لمست طيبة الشعب البلغاري مكشوفة كأنك تقرأها في كتاب . وإنك لترى أسارير وجه البلغاري وكأنك تنظر من وراء زجاج شفاف ، يكشف لك عما وراءه . كذلك لمست صداقة الحكومة

وسفارات الدول الاشتراكية . والبارزين من أعضاء اللجنة المركزية الذين كانوا يخصوني إذا حضرت حفلا بكل تقدير وإكبار ، لأنهم كانوا يرون في شخصي صورة لبلدي المكافح الصامد أمام قوى عاتية إمبريالية .

وكان الأهالي من مختلف الطبقات يتوافدون على دار السفارة كل يوم في مظاهرات يتقدمها جملة اللافتات التي تحمل عبارات السخط والاحتجاج على المعتدين والتأييد لمصر الصامدة . وكانوا يخطبون وكنت أرد عليهم وسط كاميرات وأضواء كشافات السينما لأخذ أفلام كانوا يعرضونها في دور السينما في كل بلغاريا . وكان الكثير من البلغار الذين مارسوا العمل في البحار يتقدمون لتسجيل أسمائهم ، للتطوع للعمل في القناة كمرشدين ، بعد أن استقال المرشدون الأجانب العاملون بالقناة قبل العدوان ، حتى لم يبق سوى قلة من اليونانيين الأوفياء تمثل ٢٥٪ من مجموع العاملين .

وكنت أنوب عن المسئولين في مصر ، بتقديم الشكر على هذه الروح الصادقة الود والاستعداد ، حيث كان الكثيرون يبدون استعدادهم للتطوع للدفاع عن مصر .

وتمضي الأيام في سيرها المجد ، لتطوي ما هو شر وما هو خير من هذه الأيام ، كما يقول شيكسبير ، وتزول الغمة بعد إعلان الإنذار السوفييتي والإنذار الأمريكي للمعتدين ، بالتوقف الفوري عن القتال .

انفسح أمامي الوقت للتعرف على ما حول صوفيا من مدن ، أو قرى ، كنا نقطعها في راحة كفلتها الطرق المرصوفة رصفاً حديثاً ، يزيد من متعة الرحلة . فإلى جانب جبل ( فيتوشا ) الذي كنا نصعده بالسيارة مرات ، كنا نذهب إلى مصيف بانكي الذي كان أثرياء البلغار قبل ١٩٤٤ يبنون فيه قصورهم لقضاء الصيف بها والاستفادة من ينابيعها المعدنية . وتوجد في ضواحي صوفيا مدينة ( جورنا بانيا ) ذات الينابيع المعدنية كذلك . ويعمل البلغار على الاستفادة مما ببلدهم من مياه معدنية للشرب يعبئونها في زجاجات للتصدير وللاستهلاك المحلي . وقد أقام البلغار بمساعدة الخبراء الروس

سدوداً على مساقط المياه ، وبنوا خزانات للمياه للاستفادة منها فى الرى والاستعمال ، واستخدموا الطاقة المتخلفة من اندفاع مياه الأمطار فى توليد الكهرباء التى تدير مصانعهم . وكان يتخلف وراء السدود بحيرات ، كانت تجرى فيها بعض القوارب البخارية ، ويقضى المرتادون — ونحن منهم — أيام الصيف على شواطئها الندية من فعل الماء والزرع النامى.

وفى عطلة أحد الأعياد ، ذهبنا بقطار ( اكسبريس الشرق ) المتئد الرزين ، إلى بلجراد فى نحو ثمانى ساعات . وتقع بلجراد عاصمة يوجوسلافيا على رافد من نهر الدانوب . وسكانها ٤٧٠ ألف نسمة . والعمل المتواصل المنتظم هو سمة المدينة . ولن يقع نظرك إلا على عامل منهمك فى عمله بإقبال ولذة . وهى مركز تجارى وصناعى هام فى النواحى الكيمائية والميكانيكية وصناعة أجزاء الطيارات . و روعى فى تخطيط المدينة اختراق رافد للدانوب لوسط العاصمة حيث كان يترك فى دورانه وانثناءاته جزراً كانت تعتبر تجميلا للمدينة ، حيث تقوم بها منتديات وحدائق عامة .

وقد نزلنا بفندق متروبول الذى كان يعج بالسائحين من مختلف الدول ، حتى إن اللغات الإنجليزية والفرنسية والإيطالية كانت مسموعة أكثر من لغة البلاد . وهذا الانفتاح الذى يرجع الفضل فيه ولكل ما هو متقدم فى يوجوسلافيا إلى الرئيس تيتو ، قد أفاء العمل به ، على يوجوسلافيا ظلالا وارفة من الخير فى ميادين التجارة والصناعة والتعليم والثقافة والسياحة .

كان من شأن العلاقات الطيبة التى تربط مصر ببلغاريا أن ، تتيح للسفير العمل على انتهازها لزيادة التوسع فى العلاقات التجارية والثقافية والعلمية فى نواح وأنشطة مختلفة .

وقد تم تجديد اتفاقيات النقل الجوى وتبادل الخبرات الفنية فى الزراعة والثقافة . وتوافدت بعثات عديدة من مؤسسة الطيران ومن وزارة التربية والتعليم العالى ووزارة الإصلاح الزراعى وزادت حركة التنقل بين البلدين .

وقد تم وضع الأساس لاتفاقية ثقافية تشتمل على كل نواحي الفنون والآداب والعلوم والمسرح والغناء والموسيقى والفولكلور والرياضة البدنية وتبادل المنح الدراسية .

وقد أتاحت لى هذه الراحة النسبية من العمل فى وسط ودود صديق ، أن أقوم فى إجازات الأعياد وإجازات آخر الأسبوع برحلات داخل بلغاريا أو خارجها . وكان يقام فى شهر أغسطس من كل عام سوق دولية فى مدينة ( بلوفديف ) التى تقع إلى الشرق من صوفيا وعلى مسافة تزيد عن الساعتين بالسيارة . ويشترك فى هذه السوق عدة دول أوربية غربية ودول اشتراكية ، حيث تعرض مصنوعاتها . وكانت مصر تشترك بعرض أنواع أقطانها . وكانت السوق تقام على مساحة من الأرض متسعة ، تحيط بها المزارع والغابات من كل ناحية . وتعتبر هذه المدينة من أكبر مدن بلغاريا بعد العاصمة وأكثرها نشاطاً من ناحية التجارة والزراعة وإنتاج الدخان والفاكهة . وقد افتتح السوق رئيس الوزراء بحضور كبار رجال الدولة وسفراء الدول .

وفى إجازات العيد الكبير أو الإجازات السنوية ، كنت أذهب بالطائرة إلى فيينا ، فى مسافة لا تزيد عن ثلاث ساعات مع احتساب هبوط فى بلجراد ثم طيران فوق المجر إلى فيينا .

وكان يجذبنى نحو فيينا عاملان : عامل تاريخى يكمن فى الرغبة فى رؤية عاصمة الإمبراطورية التى اتسع ملكها منذ عهد فرديناند الأول حتى ضمت كل المجر وأطرافاً كبيرة من بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا وإيطاليا . وكانت مساحتها تبلغ ٦٧٦,٢٥٠ كليومتراً مربعاً ، كما كان يبلغ سكانها ٥٢ مليون نسمة فى المدة من ١٨٦٧ حتى عام ١٩١٨ . وكانت تسمى جغرافياً إمبراطورية النمسا والمجر . وبتوقيع معاهدة ( سان جرمين إن لى ) فى ١٠ /٩ / ١٩١٩ ، عادت الأطراف السليبة إلى أوطانها الأصلية ، وبقيت فى حدودها الحالية التى تحيط بها يوجوسلافيا والمجر

وإيطاليا وألمانيا وسويسرا . وأصبحت مساحتها لا تزيد عن ٨٤ ألف كليومتر مربع كما لم يزد سكانها حالياً عن سبعة ملايين نسمة . وأكبر مدنها بعد فينا ، لينز ، وإيزبروك وجراتز وسالزبورج ذات الشهرة العالمية التى تقيم أعيادها الموسيقية فى سبتمبر من كل عام ، حيث يحج إليها أساتذة الموسيقى وهواتها للتزود من هذا النمير الصافى والنبع الغنى .

وفى النمسا صناعات متقدمة فى الميكانيكا والكيماء والآلات الكهربائية الدقيقة ، والنسيج الراقى الصنع . ولقد أصبحت من عواصم الأناقة فى العالم بما اجتمع لها من بيوت الأزياء . ولجامعتها شهرة عالمية واسعة وبها جامعات فى كل مدنها الكبرى . ويؤم جامعاتها كثير من أبناء الدول المحيطة بها . ولمصر بها مئات الطلاب . ولعل اللغة الألمانية التى سادت حيناً فى الدول المحيطة بها ، ساعدت على تدفق الطلاب من كل هذه الدول على النمسا .

ولقد عجبت من أمر الإمبراطوريات العاتية ومطامعها التوسعية . فالأهالى فى النمسا الآن ، ينعمون بسعادة ، لم يتوفر ظلها لأسلافهم فى العهد الإمبراطورى . فقد كانوا وقود الحروب المتتالية فى سبيل توسيع رقعة الإمبراطورية . ولم يكن سعيداً سوى الأسرة الحاكمة وحاشيتها . أما اليوم فإنك تعجز فى أن تعثر على مبتئس أو حزين ، وسط رخاء وأمان .

وكان العامل الثانى الذى يجذبنى لزيارة فيينا ، هو عامل تذوق جانبها الفنى . فقد ظلت فيينا مركز إشعاع ثقافى وفكرى لأوربا مدى قرون . ففيها أشهر دار أوبرا فى العالم ، وفيها دور للمتاحف والآثار التاريخية والحضارية . ولأهلها ذوق خاص فى إنشاء المبانى وتخطيط الطرق وتجميل المحلات العامة وتنسيق الحدائق الذى يبدو واضحاً فى حدائق قصر ( شونبرين ) الذى شيد فى ١٧٤٤-١٧٥٠ فى ضواحى فيينا لإقامة الأسرة المالكة بعض الوقت من العام . وكانت الأباطرة ماريا تريزا ( ١٧١٧ - ١٧٨٠ ) من أطول الذين أقاموا به من بين الأباطرة الذين حكموا النمسا . وقد شاهدنا

فى هذا القصر حجرة صالون كسيت جدرانها بنسيج تجرى فيه سلوك من الذهب الخالص ، تقدر بخمسة ملايين جنيه إسترليني . وكذلك حدائق قصر البلفيدير الذى كان يعد مقرًّا للأسرة المالكة خلال الصيف ، وأصبح متحفاً للفن الحديث ، ويقع القصر الرسمى الملكى وسط فيينا وقد أصبح الآن متحفاً للحضارة والتاريخ الطبيعى . وتمتد أمامه حديقة متسعة مترامية يشقها طريق ويقوم على كل جانب من الطريق تمثال ، الأول لجيته والثانى لشيللر ، والشاعران الألمانيان ، الخالدان بما تركاه من تراث لم يتأثر بمعاول الزمن . ويحرص المثقفون من زوار فيينا على مشاهدة دار الأوبرا فى موسمها أو إذا لم يتيسر لهم ذلك ، زاروا المبانى والمسرح والستائر وطريقة تغييرها أوتوماتيكياً وطرق الإنارة والحيل المسرحية إلى آخر ما فى المسرح من فنون ظاهرة وخفية .

وكنا فى إحدى الزيارات ، فى موسم الأوبرا ، حيث حجزت إدارة الأوتيل لنا مكانيين فى ليلة كانت ممطرة مطراً تعذر على التاكسى أن يصل إلى الدار فى الموعد المحدود ، ودخلنا بعد أن كان الستار قد رفع منذ ثلاث دقائق . ولم يكن من المسموح أن يدخل أى مشاهد بعد رفع الستار وهو أمر مألوف وعام فى كل الأوبرات . ولما رآنا المستخدم المختص بإرشاد الرواد إلى محالهم ، تأثر لحضورنا بعد الموعد بدقائق ثلاث لأمر خارج عن إرادتنا ، ونظر إلى التذاكر ووجد أنها على الممشى الذى لا يفصلنا عنه من وراء الستار الذى كان يخفينا سوى مترين. وقد لاحظ من ألواننا أننا غرباء ، والغريب أعمى ولو كان بصيراً ، فأخذته بنا شفقة ، وطلب منا أن نستعد ، حتى إذا صفق الجمهور ، لمقطع فى الأوبرا ، أسرعنا إلى مكانينا بدون جلبة . ولكن يشاء القدر أن تكون الأوبرا المعروضة ( بايخة ) وليس بها ما يحرك مشاعر الجمهور بالتصفيق . وكنت على وشك أن أهيب بهذا الجمهور ( تصفيقه أمال . . . ) عندما حل بى التعب . وهكذا مضى الفصل المعروض ونحن وقوف نسمع ولا نرى ، حتى نزلت الستار عن

الفصل الأول . . . البارد . . .

وكل ما فى فيينا ينطق بأنها كانت عاصمة إمبراطورية مترامية الأطراف يسكنها ٥٢ مليون نسمة . إن برلمانها لا يقل عظمة عن أكبر برلمانات أوربا . وقصورها وميادينها وطرقها ومبانيها وحدائقها العامة والخاصة ، وفنادقها ومطاعمها ودور اللهو فيها من أوبرا إلى قاعات للموسيقى إلى مسارح ، تترجم عن مجد تليد وعز قديم . وقد ظلت هذه المسحة القديمة ، للدلالة على ما كان من عظمة لم يترك الزمن عليها فى مساره تجاعيد الكبر ، وبصمات الشيخوخة . وكلما وقفت بهذه المبانى ، تعجبت من صمودها أمام معاول الزمن ، الذى لم يترك عليها من الأثر ، إلا مثلما تتركه الفراشة على براعم الزهور .

وفى ضواحى فيينا مشارب للنبيذ ، يدعونها ( هويرجه ) حيث يتناولون فيها النبيذ الأحمر أو الأبيض فى أقداح ضخمة ، تحكى ما كان عليه العصر الإمبراطورى من طموح للاتساع .

وتحت ميدان الأوبرا فى فيينا ، مدينة أخرى تعج بالزائرين والمشترين والمحلات العامة والمقاهى والمنتديات والحمامات والصالونات والمطاعم والمكتبات . وعلى مبعدة لا تزيد عن ساعة بالسيارة السياحية ، تقوم ضاحية ( سيميرينج ) التى تعتبر كورقة الكومى فى أوراق ( الكوتشينة ) فإنها مصيف إن شئت وهى مشتى للتزحلق على الجليد . وينتقل السائحون بين مرتفعاتها بواسطة ( التيليفريك ) الذى ينقلهم جماعات جماعات .

وفى فيينا مدينة للملاهى ( براتا ) تضاهى أحسن مدن الملاهى فى العالم ، وتتميز بأرجوحتها التى تتسع عرباتها المقفلة لركاب ترام أو أوتوبيس مفصلى كامل العدد . وهى عندما تعمل وترتفع عرباتها فى الفضاء ، ترى منها كل مكان فى فيينا وضواحيها .

ولقد علمت مؤخراً أنهم أنشأوا مدينة جديدة للملاهى تجب القديمة وتتسم بسمة الحاضر الإلكترونى التكنولوجى . والزمن يطير بجناحين من

العلم والتطبيق فى كل جوانب الحياة .

وفى معظم حدائق فيينا العامة ، تنتشر الملاهى والمطاعم . وفى حديقة (شتادبارك) تمثال جميل للموسيقار ( يوهان شتراوس ) ، ( ١٨٢٥ — ١٨٩٩ ) وهو واضع موسيقى الفالس الشهيرة ، وأينما ذهبت فى فيينا تسللت إلى أذنك موسيقى الفالس التى أصبحت رمزاً لفيينا ورقصات فيينا ، مثلما أصبحت موسيقى القرب رمزاً للموسيقى الأسكتلندية والجاز للموسيقى الأمريكية والميجانا والعتابا لسوريا ولبنان والموال المصرى العريق ، النعمانى أو البغدادى مع الأرغول ذى النغم المنفرد فى عالم الآلات الموسيقية المعروفة الذى يترجم عن مشاعر اللوعة والحنين والصبر والكبرياء ، أقول إن الموال المصرى بكلامه وتفاعيله من بحر البسيط ونغمه من مقام البياتى ، هو رمز مصر وعنوان ثباتها ، وقدرتها على هضم كل دخيل إليها وصبغه بصبغتها .

ولعل أجمل ما وضعه شتراوس من موسيقى الفالس ، مقطوعة ( الدانوب الأزرق ) ، وكذلك ( الفالس الكبير ) . ولقد أخذنى العجب عندما رأيت الدانوب فى يوجوسلافيا وفى بلغاريا وفى النمسا ، ولم أجد فيه من الحسن شيئاً يوحى بتلك الموسيقى الناعمة الحالمة التى وضعها ( شتراوس ) للدانوب الأزرق . ولكننى عندما رأيت الدانوب ، يخترق بودابست وهو يختال فى سيره بين ضفتيها أو قسميها ، مثلما يختال نيلنا المارد الأسمر بين ضفتين خضراوين وورفرفين سندسيين ، آمنت بأن شتراوس استقى من هذا الجمال ما أفاء به على موسيقاه الخالدة . وقد يكون قد جلس فى هذا الموضع من النهر ساعة مع من أحب ، كانت كافية لتلهمه ما أطرب به العالم وخلد به اسم النهر واسم المقطوعة الموسيقية . وما أصدق شوقى الخالد ، عند ما قال على لسان قيس :

قد يهون العمـــر إلا ساعة وتهون الأرض إلا موضعا

ويطول شرح ما فى فيينا من كنوز الفن ومباهج العين ، ولكن الأمر

البارز فيها ، هو انتشار المسارح على كافة أنواع عروضها ، وهى تجاوز المائة عدا ، إذ أن السينما لا إقبال عليها من الأهالى الذين تجذبهم الموسيقى والغناء والتمثيل على خشبة المسرح ، حيث يسرى تيار كهربى يجذب المشاهد لما يجرى فوق المسرح من فن رفيع سامق ، له الغلبة والدوام على غيره من فنون العرض ، كما تقوم بين الممثل والمشاهد ألفة روحية لا بديل عنها . وهو ما يطلق عليها فى العرف المسرحى ( كريزما ) .

ومن عجيب ما شاهدت فى فيينا ، تلك البشاشة التى ترقرق فى وجوه الناس ، لا فرق بين شيخ أو صبى وسيدة أو صبية . ولكنه الرخاء يدغدغ الحواس وينشر الوداعة :

يا للوداعة ما ذرت طفلا ولا شيخاً مسنا
يا للبشاشة فى الوجـ ـوه ترقرقت أنساً وحسنا

وفيينا فى كلمة ، مدينة تفيض بالجمال ، وتفوح بعبير التاريخ وعطر الزمن وروعة الحاضر .

* * *

وأعود إلى قواعدى فى صوفيا . وكنا فى تلك السنوات فى وحدة مع سوريا . وقد حضر إلى صوفيا وفد سورى على مستوى فنى رفيع ، ليقيم معرضاً متنقلا ، يعرض فيه ما اشتهرت به سوريا من التطريز والنسيج الدمشقى الشهير ( البروكار ) وأشغال الدانتيل والإبرة وقطع النحاس والسيراميك والحفر والزجاج . وكنت أتصل بالهيئات المختصة لتوفير أماكن عامة لعرض ما حملوه فى مختلف مدن بلغاريا الكبيرة . وقد نجح هذا المعرض فى هدفه ولاقى نجاحاً وإقبالاً من الجمهور المشاهد ، بفضل معاونة السلطات المختصة .

وكان يشرف على هذا المعرض المتنقل أستاذان من وزارة الثقافة فى دمشق . وكانا مرهقين بالعمل حتى لم يجدا متسعاً لتصفح الجرائد المصرية التى كانت تصلنا بالطائرة . وكانا يكتفيان عندما يحضران إلى السفارة ،

بأن أوجز لهما شفاهاً أهم الأحداث الجارية فى العالم بصورة عامة وفى جمهوريتنا بصورة خاصة . وذات يوم من عام١٩٥٨ ،الذى توفى فيه بابا روما ، سألانى عن أهم الأحداث الجارية ، فذكرت لهما أبرز الأحداث بإيجاز ومن بينها وفاة البابا . وقد ذكرت النبأ بعدم عناية ، حيث قلت : ومن بين الأنباء كذلك ، وفاة البابا . وقد بدا عليهما التأثر ، ولكن الدهشة ألجمت لسانيهما ، وراحا ينظران ، أحدهما للآخر ، ثم ينظران إلى وجهى عساهما يجدان تأثراً أو أسى ، ولكنهما يفشلان فى استطلاعهما الصامت . ويستعيدان سؤالى بقولهم : البابا مات ؟

وكنت أجيب بغير اكتراث : أى نعم مات . ويستجمعان كل ما لديهما من علامات التعجب والاستفهام ليقولا : أتقول إن البابا مات؟ فأجيب ، وقد أدهشنى إلحاحهما فى السؤال ، إذ أننا نحمل للبابا الراحل ولكل من يأتى بعده كل احترام وتقدير ، ولكن لماذا هذا الإلحاح :

أى نعم مات البابا ، وماذا فى هذا ؟ . ثم ينكشف لهما ولى ، رويداً رويداً ، أنهما ظنّا أن والدى هو الذى مات ، لأنهم فى سوريا العزيزة يقولون عن الأب ، البابا ، وعن الأم الماما . . .

وفى النصف الثانى من عام ١٩٥٩ يصدر قرار بنقلى سفيراً بالأرجنتين ثم يعدل بالنقل سفيراً بفنزويلا ، وتحول صحتى دون تنفيذ هذا القرار ، وتتفضل الوزارة مشكورة بقبول ملتمسى للنقل إلى ديوان الوزارة . ويتم بالفعل نقلى للوزارة سفيراً مشرفاً على الشئون العربية ومندوباً دائماً للجمهورية العربية المتحدة لدى جامعة الدول العربية للمرة الثانية . وأستعد لرحلة العودة .

نعود بالسيارة من صوفيا إلى ( فارنا ) أجمل موانئ وشواطئ بلغاريا الذى يقع على البحر الأسود . ويؤم هذه المدينة فى الصيف للاستمتاع بجوها ورملها وحماماتها ، مئات الآلاف من دول شمال أوربا ودول وسط أوربا التى لا تطل أرضها على بحار . وبهذه المدينة فنادق رائعة تتكون من

مجموعة من الفيلات التى لا ترتفع أكثر من طابقين أو ثلاثة . وهم لا يقدمون وجبات الطعام فى هذه الفيلات ، ولكنهم يخصصونها للنوم والراحة وتناول طعام الإفطار . أما الغداء أو العشاء ، فإن المصطافين يتناولونه فى مطاعم عديدة تنتشر بين أشجار الحور فينعم المنتجعون بالبحر وهواء الغابات وملاعب الرمل على الشاطئ البديع الضحل . وقد وفر إقامة الفيلات على هذا النحو ، استخدام الأسانسير ومشاكل تعطله ، كما وفر إقامة مطابخ فى كل مبنى اكتفاء بعدة مطاعم متناثرة كالعقد المنظوم . وهى فى الليل متعة بما توفر لها من موسيقى الطبيعة ومن وشوشة أوراق الشجر وهينمات أمواج البحر ، وما يمتع الآذان من أوركسترا ترضى كل ذوق .

أمضينا ثلاثة أيام بهذا المصيف الجميل ، قبل أن نبحر منه على الباخرة السوفيتية (فيلكس ديرجينسكى) التى مخرت البحر الأسود فى اقتدار ومهارة ، فهى فى بحرها وفى بيتها . . .

وهبطنا إستانبول بعد غيبة ست سنوات . ثم نغادرها إلى بيريه لنبقى بها نهاراً بطوله حتى المساء، يتيسر لنا أن نمضيه كله فى أثينا التى أراها للمرة الرابعة ، والتى كانت أول عاصمة أعمل بها عام ١٩٣١ . لقد مضى ثلاثون عاماً على ذلك التاريخ تقريباً . وقد رأيت عجباً . رأيت جديداً فى كل ما وقع عليه نظرى ، أو مجدداً للقديم مما ألفته. وقصدت المطارح التى كنت أراها فى صباى . ولكنها كانت غير ما كانت إنها هى ببحرها وكورنيشها وأرصفتها وما تجدد من مبانيها، ولكن شيئاً فى روحها قد تغير . لقد تسللت إلى روحها، المادية والزمن المهرول فى سيره والشعور بالقلق من مشاكل العصر ومصاعب العيش ، وإن كانت السياحة التى تدر مئات الملايين من الدولارات سنوياً ، قد أصلحت كل شىء فى اليونان . ولعل السعادة الحقة هى التى تكون فى عين الناظر لا فى الشىء المنظور .

وكنت أرى ما أرى وأقول مع الشاعر :

أما الخيام فإنهـا كخيامهم وأرى نساء الحى غير نسائها

ونبحر إلى بيروت التى أراها ربما للمرة العاشرة . ورأيتها تقفز فوق مدارج الغنى والتجديد قفزاً سريعاً لا يلوى على شىء ، ويطأ بأقدامه كل شىء ، ويرحب بكل جديد مهما خلا من القيم .

وفى يوم معلوم من أيام الرحلة التى استغرقت خمسة أيام ، طالعتنا الإسكندرية بشاطئها الصبوح الوديع ، ومنارتها التى أرسلت شعاعات الفكر والعرفان إلى كل العالم ، والتى أضاءت لفلاسفة الإغريق طريقهم إلى خلود فلسفتهم وخلود ذكرهم فى العالمين .

* * *

أوهن الترحال جلدى ، وكاد أن يجف الزيت فى المصباح ، وكان كل أملى أن أحرص على ما بقى فيه من اشتعال ، بعد أن أضاء طريقى وأنا أعمل مدى اثنين وثلاثين عاماً ، لأنصرف إلى تدوين ما شغلتنى الوظيفة عنه من أدب أو قصة أو شعر أو ترجمة أو أبحاث أو ذكريات . حتى إذا ما تم تقاعدى ، لبيت على عجل ، داعى الرغبة فى هذا التدوين ، وعكفت على إصدار ما كان اجتمع لى من فنون الكتابة التى أسلفت الإشارة إليها ، وتكون قد تمت بذلك آخر نبوءة لابنة الشاعر الأمريكى ( جواكيم ميللر ) .

وإذا استطاب لى أمل أو حق لى رجاء ، فهو أن يكون التوفيق قد لازمنى فى لمس جوانب من مسائل كنت تمنيت أن أراها قائمة ، فحقق الله رجائى ، وأن يكون ما عرضته من صور متحركة ، هو من سبيل التذكير بشئون مضت وزمان تولى ، ولعل القارئ الذى رأى تلك المطارح وعايش تلك الأزمنة ، يستعيد ذكرى أماكن نائية ، يقربها التذكار ، كما أن من يستعرض من الشباب الطامح المجد ، ما دونت فى هذا الكتاب ، يرى ملامح هى فى ظنه ، قد تولى عهدها ، ولكن التأسى بما مضى محطة لا بد من الوقوف عندها فترة ، ليرى ما قطعه الأجداد والآباء ، وما بقى على الأبناء أن يقطعوه ويبلغوا منه وطرهم .

ولمن رأى ما رأيت من بلدان ودول ووسائل نقل وطرق ومسارح وجامعات ومراكز علوم وفنون ، بعد الستينات ، يعذرني فيما دونت ، وقد يشفع لي أنه لم يكن هناك شيء يوصف سواه ، كما يشفع لي إخفاقي في اللحاق بزمان طائر نحو مستقبل بعيد أطلق عليه علماء الاجتماع اسم Futureology ، أي دراسة التطلعات المستقبلية في مختلف المجالات وعلى كافة المستويات . ولا يعد الكتاب ترجمة ذاتية للمؤلف فقط ، ولكنه ترجمة ذاتية لكل ما أحاط به .

وحتى مساحات الدول التي أتيت على ذكرها ووصفها ، قد نالها تغيير ، بعد احتلال أو ضم أو انفصال ، ولم يبق مما لم يتناوله تغيير بالنقص أو الزيادة ، سوى ارتفاع جبال إفرست والألب وهمالايا ، وهذا ما أنا واثق منه ومن مدى ارتفاعها بالباع والذراع . ومع ذلك فمن يدري ، فقد تكون ازدادت ارتفاعاً مع موجات ارتفاع الغلاء التي عمت العالم جميعاً . . .

وبعد ، فلقد أتعبت القارئ معي في السفر والترحال ، وهو أمر إن لم يكن من شأنه ، فلعله مهما أخفى من تأثره مما قرأ ، قد أتيحت له رؤية جوانب من الحياة لا يستطيع أن يراها إلا بالسرد والرواية . ولست أزعم أني عرضتها شاملة كاملة ، ولكني كنت أبذل فيها جهد من تنوعت جهوده وتجاذبته ألوان ليس من سبيل إلى وصفها بكل ما تحمل من ظلال وأطياف ، وإنما رحت أعرضها في إطارات تختلف النظرة إليها باختلاف موقف كل ناظر لها من زاويته التي يقف في دائرتها ، ومن متابعته لمشاهد ومرئيات ، هو بين أن يكون مهتماً برؤيتها ، أو مهموماً بأمر يصرفه عما يرى .

# مراجع الكتاب


١ — المذاهب الاجتماعية الحديثة للدكتور محمد عبدالله عنان .

٢ — مآثر العرب على الحضارة الأوربية للأستاذ جلال مظهر .

٣ — الدبلوماسى الضاحك . دانييل فاريه .

٤ — السفارات : روجيه بيريفيت .

٥ — الدبلوماسى : جول كامبون .

٦ — أوراق مطوية عن فلسطين للأستاذ أحمد فراج طايع .

٧ — الدبلوماسية لسير هارولد نيكلسون .

٨ — من وحى فلسطين للأستاذ السفير السابق أحمد رمزى .

٩ — منادمة الماضى للأستاذ السفير السابق أحمد رمزى .

١٠ — منادمة الحروب للأستاذ السفير السابق أحمد رمزى .

١١ — بلغاريا أمس واليوم . جان كابانا .

١٢ — أبحاث ومراجع عن فلسطين . مختلف المصادر .

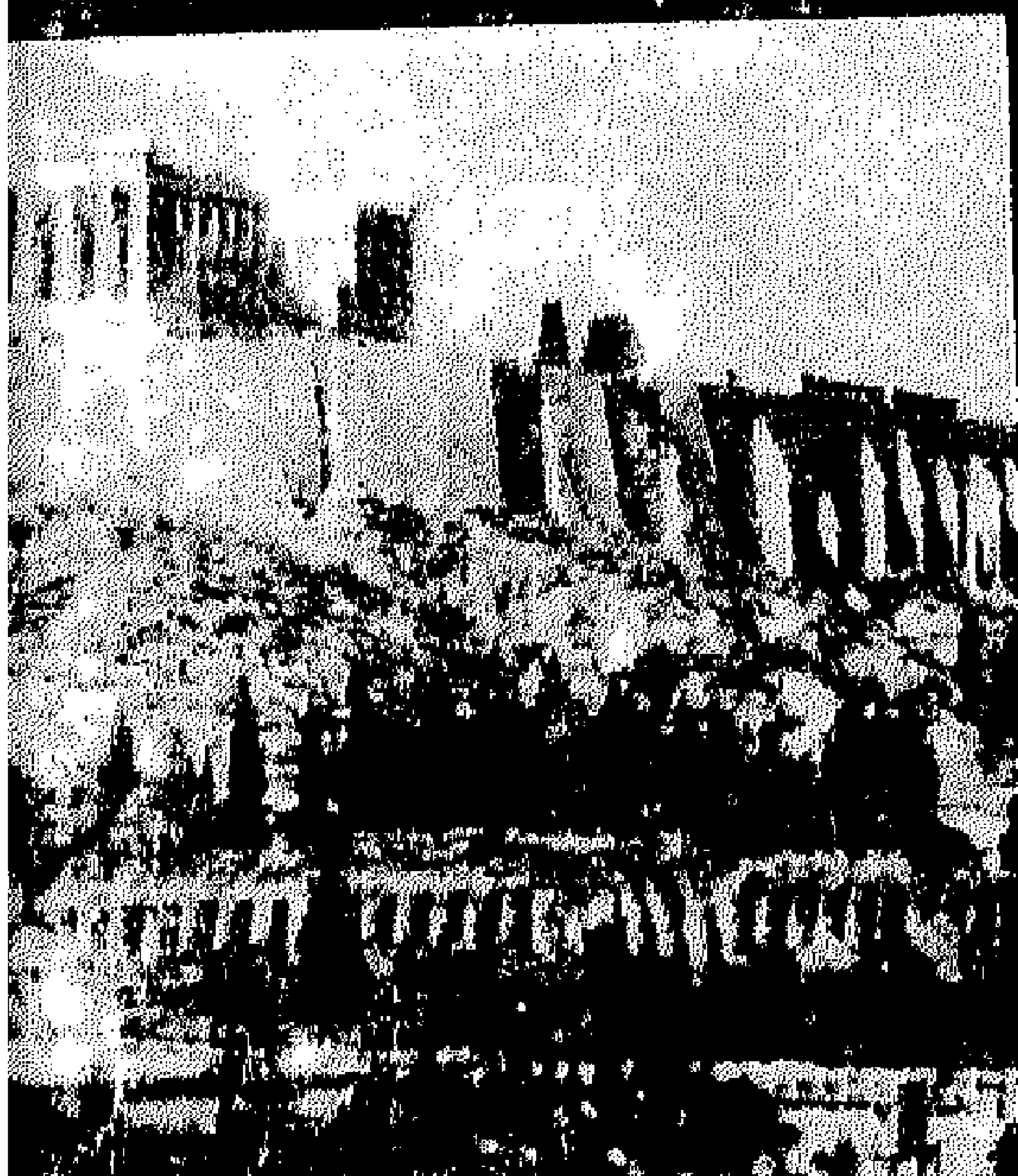
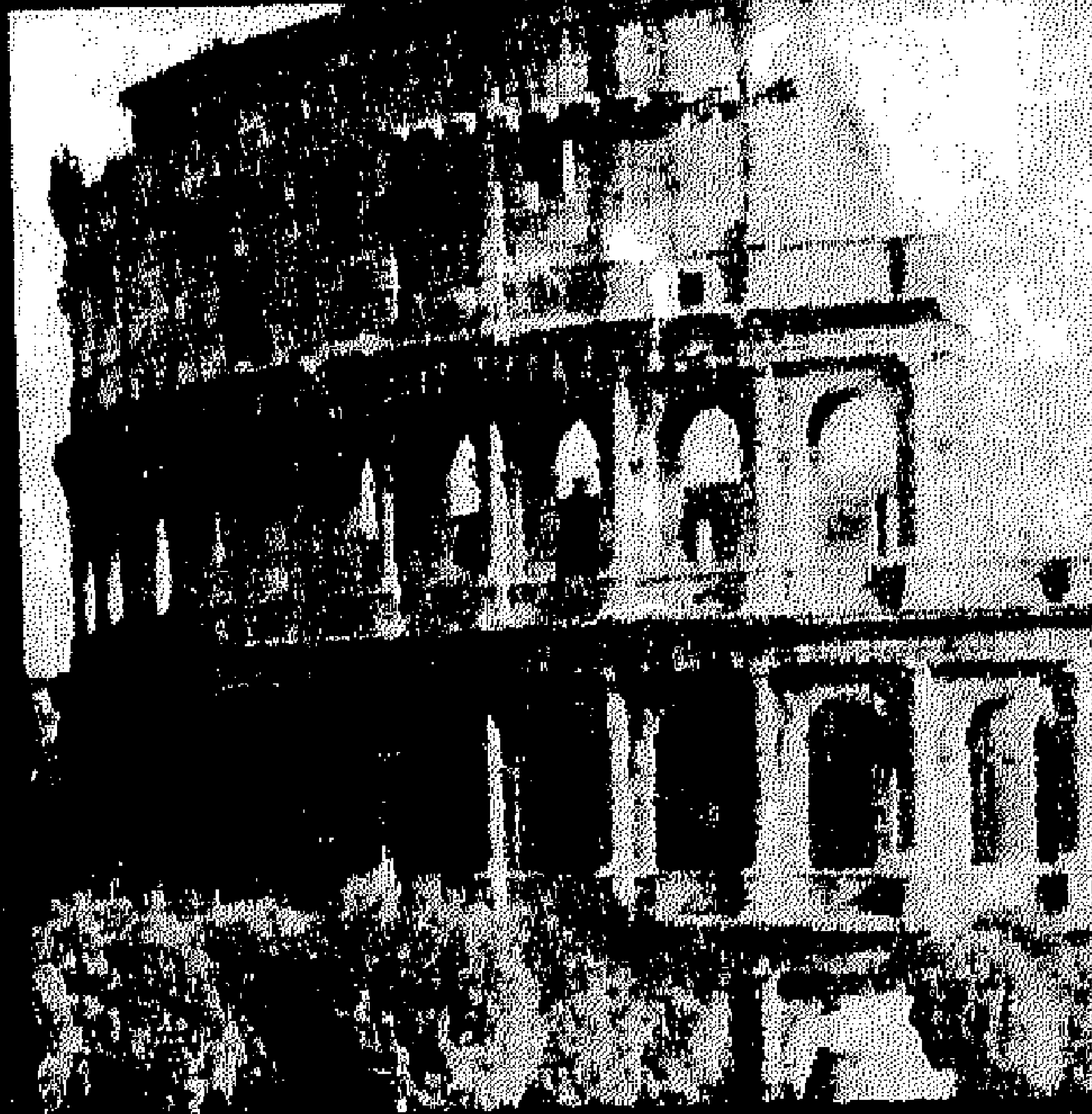
١٣ — نشرات الجامعة العربية .

١٤ — التيارات القومية والدينية فى تركيا المعاصرة للدكتور أحمد السعيد سليمان .

# فهرس الكتاب

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٥٢٤٢ /١٩٧٣

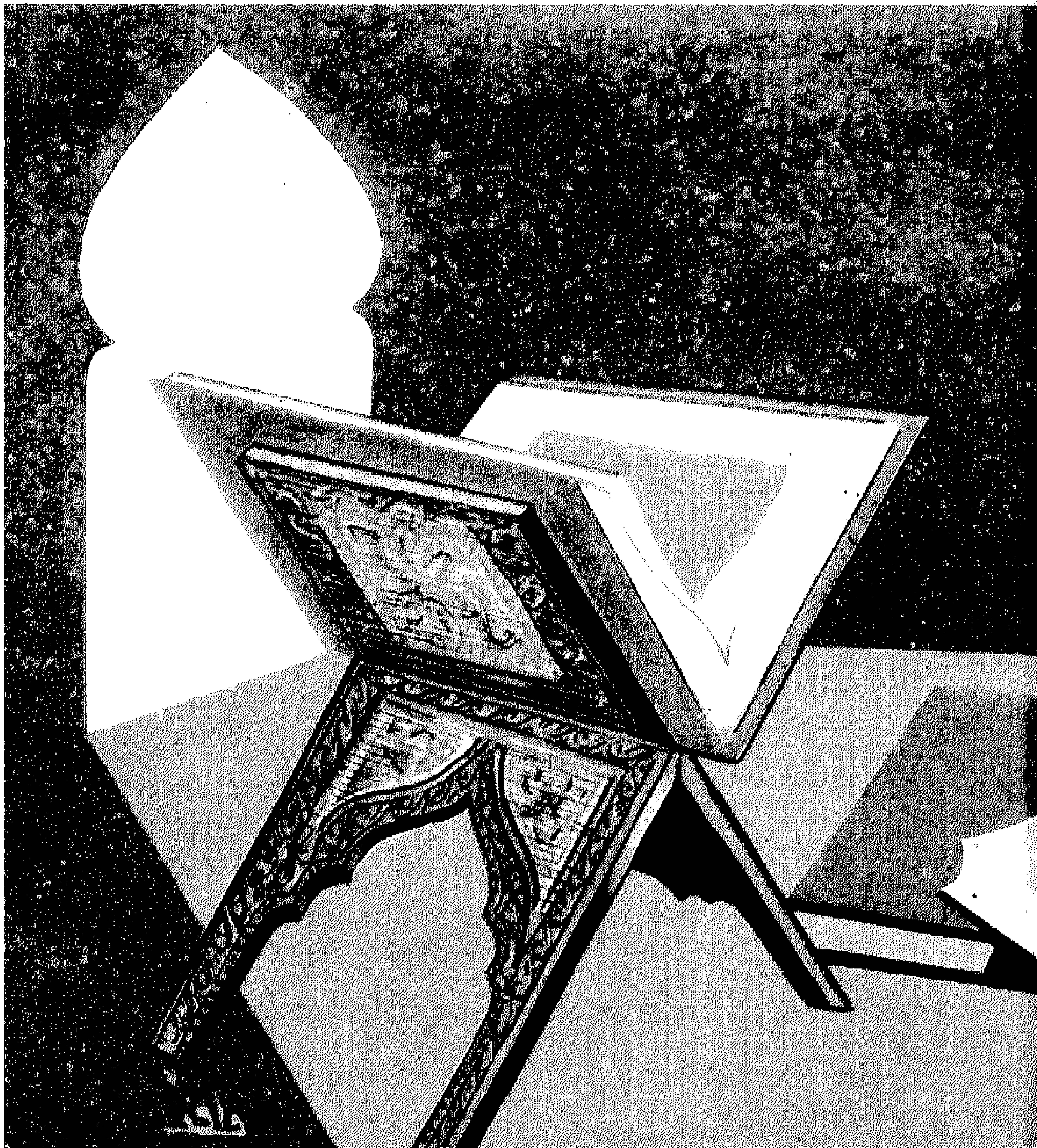
مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٣

اقرأ

فتحي رضوان

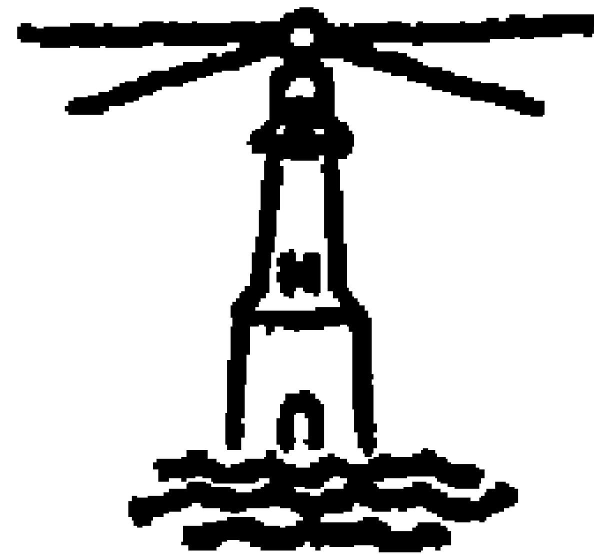
# الإسلام ومشكلات الفكر






تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر



فتحي رضوان

# الإسلام ومشكلات الفكر

اقرأ ٣٧٧

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٧٧ (عدد خاص بعيد الأضحى المبارك)

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

# القرآن

إنه أعجب كتاب عرفته الإنسانية بين جميع الكتب السماوية والبشرية ؛ فهو كتاب ثبت بنصه أربعة عشر قرناً أو يزيد ، لم يطرأ عليه تغيير واحد ، لم يحذف منه حرف ، ولم يضف إليه حرف ، وبقى يقرأ ويكتب ويدرس ، ويناقش ، فى نصه الأصيل . والإنجيل والتوراة ترجم كل منهما إلى اللغات الأخرى بل إلى كل اللغات : لا ليفهمها الراغبون فى الدرس العلمي البحت ، بل ليتعبد بهما فى ترجماتهما المسيحيون واليهود .

أما القرآن ، فعلى الرغم من أنه ترجم إلى كل لغات الأرض، فقد بقى فى نصه الأصيل ، ككتاب للعبادة : لا يقرأ سواه ، ولا يتلى غيره ، فى القارات الخمس ، وعلى مدى القرون المتتابعة ، وعلى الرغم من تطورات عظيمة طرأت على العالم ، سياسياً واقتصادياً ، واجتماعياً ، ودينياً : وعلى تغيير الحدود الجغرافية ، ونشوء وسائل جديدة لا حصر لها فى كل درب من دروب الحياة وتغيير أسلوب الناس ، فى كل ما يتناولونه أو يضطربون فيه .

وقد لا يكون هذا أمراً غريباً ، يستوقف النظر ، إذا كان المؤمنون للقرآن والقارئون له ، من أبناء العربية التى كتب بها ، ولكن الواقع غير ذلك : فالمسلمون ينتشرون فى أفريقيا وآسيا ، وهم موجودون فى أوربا وأمريكا ؛ ولغاتهم ولهجاتهم متباينة ، وكثرتهم العظمى ، لا تقرأ العربية ، وقد لا تفهمها ، ولكنهم يتعبدون بالقرآن بنصه العربى ، وفيهم من يحفظه عن ظهر قلب ، وينطق بآياته نطقاً صحيحاً ، متفقاً مع قواعد اللغة ونحوها ، ومع ذلك ، يعجز عن أن يرد عليك ، بكلمتين عربيتين ، إذا خاطبته بالعربية .

وأغرب من هذا ، أن الملايين تحفظ هذا الكتاب عن ظهر قلب ، من أوله إلى آخره ، والجماهير التي لا تحفظه ، تعرف بما يشبه الغريزة موطن الخطأ فيه إذا انتقل حرف من موضعه ، أو إذا استبدل القارئ حرف الفاء ، بحرف الواو مثلا .

والمسلمون لا يقرءون القرآن فقط ، بل إنهم يرتاونه ، ثم يوقعونه بما يسمى التجويد ، على وضع معروف ، له قواعد وأصول ، فإذا أدى على هذه الصورة كان له أثر عميق في نفوس سامعيه ، يبتعث نشوة الإعجاب. ولقراءاته أصول جمعها علم ، اسمه علم القراءات ، بيّنوا أن من هذه القراءات الصحيح والمشهور والشاذ ، ثم ألفوا في هذه القراءات وأصولها الكتب (١) .

أما النص القرآني نفسه ، فيقوم على دراسته أكثر من علم : يدرس فيه علماء أصول الدين ما جاء فيه عن الله سبحانه ، وعن ملائكته ورسله ، وكتبه واليوم الآخر ، وعن العبادات ، من صلاة وصوم وزكاة وحج . ويدرس فيه الفقهاء الأحكام ومصادرها ، وطرق الاستدلال عليها ، ويدرس فيه أهل اللغة قواعد اللغة ، ونحوها وصرفها ، وأهل البلاغة والبيان والبديع ، أصول هذه العلوم جميعاً .

وكلما مرت الأيام زادت هذه العلوم اتساعاً ، وزاد أصحابها فيها تعمقاً ، وانقسموا إلى المدارس والمذاهب ، وقام بينهم حوار وجدل ، وأثمر هذا كله كتباً وموسوعات .

فهو بحق أعجب كتاب عرفته الإنسانية ، لا يشبهه في صفاته وخصائصه ، وتأثيره على الذين يؤمنون به ، أي كتاب آخر ، يؤمن به

---

(١) ممن ألفوا في علم القراءات : أبو عبيد القاسم بن سلام ، وأحمد بن جبير الكوفي وإسماعيل بن إسحق المالكي ، وأبو جعفر بن جرير الطبري ، وأبو بكر محمد أحمد بن عمر الداجوني ، وأبو بكر بن مجاهد . .

أتباع أي دين غير دين المسلمين .

* * *

نزل القرآن أول ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بغار حراء ، على بعد ثلاثة أميال من « مكة » ، في شهر رمضان . وقد اختلف الرواة في اليوم الذي تم فيه النزول ، فهو في أقوالهم السابع ، أو السابع عشر ، أو الرابع والعشرون . كما اختلف في سنة نزوله ، أتكون السنة الأربعين بعد عام الفيل ، والرسول آنذاك في الأربعين من عمره — أم الحادية والأربعين ؟ وكان أول ما نزل من القرآن — على القول الراجح — ( اقرأ باسم ربك الذي خلق ) .

ثم نزلت سورة « المدثر » كاملة ، فكانت أول سورة من سور القرآن تنزل كاملة . أما سورة اقرأ فلم ينزل منها سوى ( اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ) .

وقد استمر نزول القرآن اثنتين وعشرين سنة ، وشهرين وعشرين يوماً . .

وقد بلغت سور القرآن ١١٤ سورة ، وبلغت عدة الآيات في هذه السور ٦٢٣٦ آية . وقد قسمت السور إلى ثلاثين جزءاً ، وقسم الجزء إلى حزبين ، والحزب إلى أربعة أرباع .

وقد ورد حديث يقول : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » ، وقد اختلف في معنى هذا الحديث ، على نحو أربعين قولا ، نجمل أهمها فيما يأتي [١] .

١ — المراد سبع لغات ، وهي لهجات يتكلم بها العرب . واعترض على هذا الرأي بأن لغات العرب أكثر من سبع لغات ، فقيل إن المقصود هو أفصح تلك اللغات .

---

( ١ ) الإتقان لجلال الدين السيوطي .

٢ — وقيل بأن الأحرف السبعة هى سبع قراءات للفظ القرآن، منها الصحيح، والشاذ والضعيف والمنكر.

٣ — وقال ابن قتيبة : إن المراد، الأوجه التى يقع بها التغاير فأولها ما يتغير حركته، ولا يزول معناه ولا صورته مثل (ولا يضار كاتب) بالفتح أو الرفع. وثانيها ما يتغير بالفعل من أمر وكان فى صيغة الطلب أو الماضى، وثالثها ما يتغير باللفظ مثل ننشرها وننشزها، ورابعها ما يتغير بإبدال حرف قريب المخرج مثل (طلح منضود، وطلع منضود)، وخامسها ما يتغير بالتقديم والتأخير مثل (وجاءت سكرة الموت بالحق) بدلا من (وجاءت سكرة الحق بالموت) وسادسها ما يتغير بزيادة أو نقصان مثل الذكر والأنثى (وما خلق الذكر والأنثى) وسابعها ما تغير بإبدال كلمة بأخرى مثل (كالعهن المنفوش) و (الصوف المنفوش).

٤ — وقال رأى رابع : الكلام لا يخرج عن سبعة أوجه فى الاختلاف، فى الأسماء : الإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث، وفى الأفعال من ماض، ومضارع وأمر. والثالث وجوه الإعراب، من نصب ورفع وخفض، والرابع النقص والزيادة، والخامس التقديم والتأخير، والسادس الإبدال، والسابع اختلاف اللغات واللهجات (كالفتح والإمالة والترقيق والتفخيم والإدغام والإظهار) ونحو ذلك.

واختلف أيضًا فى تسمية القرآن، فقائل إنه أطلق عليه القرآن اسما خاصًا به، كالإنجيل والتوراة، غير مشتق، خاص بكلام الله، وقد سمى قرآنًا، ليختلف عن ما يسمى به العرب مجموع أشعارهم وهو «الديوان» وسمى القسم من كلامه «سورة»، ليختلف عن «القصيدة» عند العرب، وسميت أجزاء السورة «بالآية» بدلا من بيت الذى هو جزء القصيدة، وسمى آخر الآية «فاصلة»، بدلا من قافية فى الشعر العربى.

وقيل إنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء، لأنه يقرن السورة بالسورة.

وقيل مشتق من « القرائن » لأن آيات الله يصدق بعضها بعضاً وقيل إنه مشتق من « القرء » أى الجمع :

ويسمى القرآن أيضاً : بالكتاب ، والكلام ، والنور ، والهدى ، والرحمة ، والفرقان ، والشفاء ، والموعظة ، والذكر ، والحكم ، والقول ، والنبأ العظيم ، وأحسن الحديث ، والمثانى ، والتنزيل ، والروح ، والوحى ، والبصائر ، والبيان ، والعلم ، والحق ، والصدق ، والعدل ، والأمر ، والبشرى ، والبلاغ .

* * *

ويهمنا فى تاريخ « القرآن » أمران ، أولهما كيف كانت تنزل الآيات ؟ وثانيهما كيف جمع القرآن ؟ لأن ما يتعلق بهاتين الناحيتين موضح بأجلى بيان . إن القرآن ، وإن كان كتاباً سماوياً ، كان للناس أعظم نصيب فى جمع آياته ، وتحديد أحكامه مما يؤيد رأينا من أن الإسلام دين الإنسان أساساً ، وشكلا ، أو جوهراً ، ومظهراً . والقرآن وهو دستور هذا الدين ، وكتابه المبين ، يحمل من خصائص الدين الإنسانية ما يحمله الدين نفسه .

خذ مثلا أن هذا القرآن لم ينزل مرة واحدة على الرسول ، ولم يصدر كما تصدر شرائع هذه الأيام ، دفعة واحدة ، فقد قلنا إن الوحى استمر ينزل بآى القرآن وأحكامه اثنتين وعشرين سنة ، وشهرين وعشرين يوماً .

ويقول الله سبحانه وتعالى : « وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث »(١) .

ورد على اعتراض المشركين : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة »(٢) ، وأجاب عن ذلك إجابتين فقال : « كذلك لنثبت به فؤادك »(٣) ؛ وقال تعالى : « ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق

---

(١) الإسراء : ١٠٦ .
(٢) الفرقان : ٣٢ .
(٣) الفرقان : ٣٢ .

وأحسن تفسيراً »[١] . فنزول القرآن مقسطاً أو منجماً ، طوال هذه السنوات كان ليثبت، قلب الرسول ، فى وجه الصعاب التى تعترض سبيله ، وبطء الناس فى الالتفاف حوله ، والالتفات إليه ، وما يراه من ضعف الناس ، وشدة جزعهم فى الإدبار ، وعظيم فرحهم فى الإقبال ، وادعائهم غير ما يضمرون ، وطلبهم ما لا يستحقون . وكان أيضاً ليقرأه الناس على مكث ، لتستقر معانيه فى النفوس ، ولكيلا يأتى المشركون بمثل ، إلا ويرد عليه القرآن بأحسن منه ، وليفسره ، ويبين فيه وجه الحق ، «ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً».

وما يقوله بعض العلماء من أن الرسول لم يأمر بجمع القرآن فى حياته ؛ لأنه كان يعلم بأن فى القرآن الناسخ والمنسوخ ، أى أن بعض أحكام سيستبدل بها غيرها ، فهذا المعنى يتصل بما نحن فى صدده من قول ، لأن مؤدى هذا الكلام ، أنه كان للأحداث والتطورات وحجج الخصوم، « ومسلكهم ، صداه فى القرآن »

وقد جاء فى كتاب تاريخ التشريع للشيخ محمد الخضرى :

« وكانت الآيات التشريعية ، وهى آيات الأحكام ، تنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى الغالب جواباً لحوادث فى المجتمع الإسلامى ، وتعرف هذه الحوادث بأسباب النزول ، وقد اعتنى بها جماعة من المفسرين وألفوا فيها كتباً ، وجعلوها أساساً لعلم القرآن ، وأحياناً كانت تنزل الآيات جواباً عن أسئلة يسألها بعض أصحابه ، وقليلا ما كانت تنزل الأحكام مبتدئة » .

وفى القرآن من الآيات ما يدل بعضها على أنها جواب لأسئلة ، منها : ( ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ) ، ( ويسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج ) ( ويسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين ) ، ( ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ) ،

---

( ١ ) الفرقان ٣٣ .

( ويسألونك عن الساعة أيان مرساها ) ، ( ويسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ) ، ( ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً ) ، ( ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى ) ، ( يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ) ، ( ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ) .

وجلى أن هذه الأمثلة ، شملت الصغير والحقير ، وما يتعلق بالغيب ، وما يتعلق بشئون العيش ، فمن الروح إلى الحيض ، ومن الساعة إلى الخمر ومن الأنفال إلى الهلال ، وهكذا . .

إنه كتاب للناس حقًّا ، لا يحتقر خاطراً يجول برأس إنسان ، ولا يتعالى عن سؤال من امرأة أو أعمى ضرير .

نزل القرآن بأنه ( لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله ) فجاء أعمى يشكو فأصبحت الآية : ( لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر ) .

* * *

وقد قسم القرآن إلى مكى ومدنى ، والمكى عمومًا هو ما نزل فى مكة وما حولها من القرى والمواقع ، كعرفات ومنى ، والحديبية . والمدنى ، هو ما نزل فى المدينة وما حولها كبدر وأحُد . وقد اختلف العلماء فيما يعتبرونه مكيًّا ، وما يعتبرونه مدنيًا ، فكانت لهم فى ذلك ثلاثة مذاهب :

الأول : أن المكى ، ما نزل قبل هجرة الرسول ، والمدنى ما نزل بعدها ، سواء نزل بمكة أو بالمدينة عام الفتح أو عام حجة الوداع . أو بسفرة من الأسفار .

والثانى : أن المكىّ ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدنى ما نزل بالمدينة .

والثالث : أن المكى ما وقع خطابًا لأهل مكة ، والمدنى ما وقع خطابًا لأهل المدينة .

ونحن لا يهمنا بيان هذا المذهب فى ذاته ، إلا من ناحية

التدليل على أن نزول القرآن ، كان صدى لما يجرى فى المجتمع الإسلامى ، وأنه كان يسجل أحداثًا ، ووقائع الحركة الإسلامية ، فى مدّها وجزرها ، وفى اصطدامها بالمشركين وتعثرها فى العقبات ، وفى انتصارها على الخصوم ، وقهرها إياهم ، ودحض أكاذيبهم وتفنيد دعاويهم .

ولذلك يقولون : إن صيغة الخطاب فى الآيات المكية ، هى : ( يأيها الناس ) و ( يا بنى آدم ) فى حين أن صيغة الخطاب فى الآيات المدنية : ( يأيها الذين آمنوا ) .

ويقولون : إن السور المكية خلت من آيات الأحكام ، إذ أن هذه الآيات نزلت فى القسم المدنى من القرآن ؛ ذلك أن الإسلام فى مكة كان فى مرحلة الدعوة ، وجمع الأنصار ، ولم يكن المجتمع الإسلامى قد تكون بعد ، إد أن المسلمين كانوا قلة ، وكانوا يعانون عدوان الأكثرية القريشية وحصارها لهم ، ومقاطعتها إياهم . فلما تمت الهجرة ، واستطاع المسلمون أن ينازلوا القريشيين فى غزوة بدر ، وأن ينتصروا على خصومهم ، أصبح الأمر يقتضى تشريعًا ، فكان التشريع .

ومن الحقائق التى تظهر اتصال القرآن بالحياة ، وبالدعوة الإسلامية ، وبكل ما يتصل بها ، وبكل ما يثيره خصومها من حجج ، أن ثلث القرآن نزل ردًّا على جدل اليهود ، وتشكيكهم ، وسخريتهم بالنبى وبالمسلمين .

ولما كانت إقامة الرسول فى مكة ، أطول من إقامته فى المدينة ، إذ بلغت إقامته فى مكة بعد الدعوة اثنتى عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يومًا ، فى حين بلغت إقامته فى المدينة ، تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام ، فإن المكى من القرآن ١٩ جزءاً ، والمدنى ١١ جزءاً ، وجملة الاثنين ثلاثون جزءاً .

ولم يكن نزول القرآن ردًّا على الكفار والمشركين واليهود وجدلا معهم ، ولا إجابة عن أسئلة المسلمين فقط ، بل كان ينزل أحيانًا بنص العبارة

التى تأتى على لسان بعض صحابة الرسول . ومما يذكر مثلا على ذلك ، قوله تعالى : ( واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ) ، فقد نزلت فى سورة البقرة عام حجة الوداع ، لما طاف النبى ، فقال له عمر : هذا مقام أبينا إبراهيم الخليل قال : نعم ، قال : أفلا نتخذه مصلى ؟

وأغضبت بعض نساء الرسول ، الرسول عليه الصلاة والسلام ، فاشتد عليهن عمر ، وقال : ( لعل الله يبدله أزواجاً خيراً منكن ) ، فنزلت الآية فى سورة « التحريم » : ( عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ) ؛ وقال عمر : قلت : يا رسول الله لو أمرت نساءك أن يحتجبن ، فإنهن يكلمن البر والفاجر ، فنزلت آية الحجاب .

* * *

وفى القرآن جانب يريك كم كان هذا الكتاب حيـاً ، قال الحسن : كنا لا ندرى ما الأرائك حتى وفد علينا رجل من أهل اليمن ، فأخبرنا أن الأريكة عندهم الحجلة فيها السرير [١] ، فالقرآن لم يستعمل لغة الحجاز وحدها ، بل استعمل ألفاظاً من لهجات جميع القبائل « فمعاذير » هى « ستور » بلغة اليمن و « المسطور » هو الكتاب بلغة حِميَر ، و « خاسئين » : « صاغرين » بلغة كنانة ، و « شروا » : « باعوا » بلغة هذيل ، « زيلنا » : « ميزنا » بلغة حِمير ، و « القطر » : «النحاس» بلغة جُرهُم ، و « الرس » : « البئر » بلغة أزد ، و « الوصيد » : « الفناء » بلغة مذحج ، و « لينة » : « نخلة » بلغة الأوس .

بل إن فى القرآن ألفاظاً غير عربية ، وقد أنكر ذلك الإمام الشافعى ، وقال أبو حنيفة إنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين ، فمن زعم أن فيه غير العربية ، فقد أعظم القول ، وقال ابن فارس : لو كان فيه من غير لغة العرب لتوهم أن العرب إنما عجزت عن الإتيان بمثله لأنه أتى بلغات لا يعرفونها . ولكن جمهور العلماء يرى أن فى القرآن عدداً غير قليل من

---

( ١ ) المختار من الإتقان فى علوم القرآن .

الألفاظ الأعجمية ، وهذا دليل على أن اللغات فى فترات حياتها وشبابها تكون من القوة والثقة بنفسها ، والتفتح على غيرها ، بحيث تضم إلى مفرداتها ما تراه جاريًا على قياس ألفاظها ، ووزن كلماتها دون خشية أو تردد .

* * *

على أن تاريخ كتابة القرآن ، ثم جمعه ، ثم الاتفاق على مصحف واحد ، أى جمع رسمى للقرآن ، وإبطال ما عداه ، يزيد من ظهور خصائص هذا الكتاب الإلهى الإنسانية ، واتصال نزوله ، وتقرير أحكامه بالناس ، وبما يجرى فى حياة المسلمين ، وما يساورهم من شكوك ، وما يقيمه خصومهم فى وجوههم من حجج ، وما يعترض حياتهم من مشكلات العمل وعوائق الظروف وملابساتها .

حدث زيد بن ثابت قال : « قبض النبى ، صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن القرآن قد جمع فى شىء » . وقال الخطابى : « إنما لم يجمع صلى الله عليه وسلم القرآن فى المصحف ، لما كان يترقبه من ورود ناسخ ومنسوخ لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاته ، ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة ، فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر » .

وقال الحاكم فى المستدرك : جمع القرآن ثلاث مرات :

١ — إحداها بحضرة النبى ، صلى الله عليه وسلم ، عن زيد بن ثابت ، قال : « كنا عند رسول الله ، نؤلف القرآن من الرقاع » . والمراد بتأليف ما نزل من الآيات المفرقة فى سورها ، جمعها فيها بإشارة النبى عليه السلام .

٢ — والثانية بحضرة أبى بكر . عن زيد بن ثابت قال : « أرسل إلىّ أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة [1] ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال : إن القتل استحر بقراء القرآن

---

(١) وهى إحدى معارك المسلمين مع المرتدة عقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وإنى أخشى أن يستمر القتل بالقراء فى المواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن . فقلت لعمر : نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ؟ قال : هو — والله — خير . فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف ، وصدور الرجال ، ووجدت آخر سورة التوبة عند أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع غيره . فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر » .

٣ — والجمع الثالث هو ترتيب السور فى زمن عثمان . عن أنس : أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وهو يشترك فى غزو ثغور أرمينية مع أهل الشام ، وغزو أذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القرآن ، فقال لعثمان : أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل إلى حفصة زوجة الرسول وابنة عمر بن الخطاب ، وكان القرآن الذى كتب فى عصر أبى بكر قد أودع لديها ، أن أرسلى إلينا الصحف ، ننسخها فى المصاحف ، ثم نردها إليك .

وأمر عثمان فألف من زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد ابن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، هيئة لترتيب السور فى مجلد واحد أو مصحف — ولمراجعة النصوص التى به فى الصحف التى كانت عند حفصة . وقال عثمان للرهط القريشيين — أى القريشيين من أعضاء هذه الهيئة — إن اختلفتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم فقط ، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق[1] .

---

(١) المختار من الإتقان فى علوم القرآن ص ٥٤ .

# العقيدة والشريعة فى القرآن

لما كان أساس الإسلام هو التوحيد ، كان قوام أحكامه جميعًا ، التكامل المفضى إلى السلام ، غاية الإسلام النهائية . فنظرة الإسلام إلى كل شيء هو الوحدة : نظرته إلى الكون ، وإلى الإنسان . . فنى ظل الإسلام لا يقوم صراع بين الإنسان ونفسه ، ولا بين الإنسان والجماعة . ولا بين الإنسان والكون ، إذ أن التناسق هو ثمرة الإسلام ، ونتيجته الحتمية التى لا تتخلف عنه ، ذلك لأن خالق الأكوان كلها واحد ، فالإرادة التى تسوسها واحدة ، والقوانين التى تصدر عن هذه الإرادة ، وهى القوانين التى تحكم الكون ، كما تحكم الإنسان الفرد ، واحدة ( وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ) .

ومن هنا لم تقم حدود فاصلة فى الإسلام : بين الدين والدنيا ، ولا بين الدنيا والآخرة ، ولا بين الروح والجسد ، ولا بين الماديات والمعنويات ، ولا بين الفرد والجماعة ، ولا بين الإنسان والكون ، فالجميع يشملهم نظام واحد ، مستقر ثابت ، واضح السنن : ( ولن تجد لسنة الله تبديلا ) ، وهو نظام خير تسوسه إرادة حكيمة عاقلة ، مبصرة مدبرة ، تدعو عباد الله أن يفكروا ويتدبروا ، ويكشفوا أحكام هذا النظام ، ويطلعوا على قوانينه ، ليكونوا أعظم قدرة على الانتفاع منه ، والتمتع بطيباته ( كلوا من طيبات ما رزقناكم ) ، ( إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قيامًا وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا ) .

وتبعًا لقانون الوحدة والتكامل فى القرآن ، تكون العقيدة فى الإسلام ، والنظام المبنى عليها ، والمتفرع عنها ، شيئًا واحداً ، فليس فى الإسلام عقيدة تقوم بنفسها ، ثم شريعة تستقل عنها ، وتناظرها ، وإن كانت

تجاورها ، وتتصل بها ؛ ذلك أن كل ما كان جوهريًا فى الإسلام هو من عقيدته وشريعته معًا . فليس فى هذه الأحكام الأساسية ، ما هو داخل فى نطاق الشريعة ، ثم ما هو داخل فى نظام العقيدة ؛ ولكن كل ما كان أصليًا أو أساسيًا جوهريًا فهو من الشريعة إن شئت ، أو من العقيدة إن أردت لأنهما فى واقع الأمر شىء واحد لا شيئان ولو تساويا ، قال الله تعالى : ( شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذى أوحينا إليك ) (١) ، ( لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ) (٢) ، ( ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ) (٣) .

ولكن حدث أن تقدم العلم ، وانقسمت علوم المسلمين ، تبعًا لذلك إلى أقسام حملت أسماء جديدة ، من تفسير إلى حديث ، إلى فقه وأصول فقه ، وكلام ومنطق . ثم استعمل المحدثون لفظ الشريعة ، فيما يستعمل فيه لفظ القانون فى البلاد الحديثة ، فى الشرق والغرب ، فأصبح ما يتعلمه الطلاب فى الكليات والمعاهد ، من أحكام الدين بعضه متعلقًا بالعقائد ( هو قسم العبادات ) ، وبعضه متعلقًا بالعلاقات بين الأفراد ، سمى ( بالمعاملات ) بل إن البعض يدخل فى الشريعة أحكام الصلاة والزكاة والحج ، ويقصر العقيدة على أصول الإيمان الكبرى ، أى ما يتصل بوحدانية الله ، والثواب والعقاب ، والجنة والبعث والنشور ؛ وهذا تطور ربما جاز للتيسير على طلاب العلم ، أو للنزول على مقتضى التصنيف والتبويب العملى ، فى حين أن الشريعة والعقيدة اسمان لمسمى واحد ، والمسلمون يؤمرون بأداء أحكامهما معًا : ( ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ) (٤) ( ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ) (٥) ( ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ) (٦) .

---

( ١ ) سورة الشورى .
( ٢ ) سورة المائدة .
( ٣ ) سورة الجاثية .
( ٤ ) سورة المائدة .
( ٥ ) سورة المائدة .
( ٦ ) سورة المائدة .

فعدم الأخذ بأحكام القرآن فسق وظلم ، ثم هو أيضاً كفر ، أى أنه مخالفة للشريعة ومروق من العقيدة .

والأستاذ الشيخ محمود شلتوت — رحمه الله — وإن قال بأن للإسلام شعبتين هما العقيدة والشريعة ، قد انتهى إلى ما نقرره ، قال : « ومن قرأ القرآن عرف أن الإسلام له شعبتان أساسيتان ، لا توجد حقيقته ولا يتحقق معناه إلا إذا أخذت الشعبتان حظهما من التحقق والوجود فى عقل الإنسان وقلبه وحياته » .

ثم قال : « وإذاً فالإسلام يحتم تعانق الشريعة والعقيدة بحيث لا تنفرد إحداهما عن الأخرى على أن تكون العقيدة أصلا يدفع إلى الشريعة ، تلبية لانفعال القلب بالعقيدة وعليه فمن آمن بالعقيدة وألغى الشريعة أو أخذ بالشريعة وأهدر العقيدة ، لا يكون مسلماً عند الله » .

وتقرير كون الشريعة والعقيدة ، فى القرآن وفى الإسلام ، شيئاً واحداً ، والنص عليه ، ولفت النظر إليه ليس تقريراً علمياً بحتاً ، يراد به تجنب الناس الوقوع فى خطأ ليس له نتائج مباشرة فى حياة الناس كما نصحح لهم مثلا تاريخ بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو نصحح قول القائل بأن الأرض مسطحة ، إنما نريد من هذا التقرير أن ننبه إلى خاصية التوحيد والشمول ، والتناسق والتكامل ، فى القرآن ، وأن نثبت فى الذهن والوجدان معاً أن هذه ميزة الإسلام على غيره من المذاهب الحديثة التى تؤثر الآن فى حياة الناس فى الشرق ، وتشكل أفهامهم وأذواقهم ، وتصوغ أسلوب حياتهم ، وطرائق معيشتهم .

والالتفات عن هذه الخاصية يدفع بعض الباحثين فى شئون المسلمين ، من المسلمين والمستشرقين على السواء ، إلى تقرير خطأ مؤداه أن تدهور حال المسلمين فى العصور الأخيرة يرجع إلى إهمالهم أحكام الشريعة ، ويقصدون بذلك إهمال أحكام الإسلام فيما يخص الثروة وتوزيعها ، أو إقامة ما يسمى هذه الأيام بالعدالة الاجتماعية من جهة ، وحكم سليم

من جهة أخرى ؛ وهذا النظر خطأ كله ، إذ لو عاد المسلمون إلى العقيدة ، لقادتهم فى الحال ، ومباشرة ، إلى التزام واحترام كل ما يراه أصحاب هذا النظر شريعة . وإذا كان المسلمون قد تراخو فى إشاعة العدل الاقتصادى بين ظهرانيهم ، وفى إقامة حكم سليم ، يحترم فيه الحاكم إرادة الرعية ، ويسهر على مصالحها ، ويدفع الأذى عن مقومات حياتها ، ويلتمس نصيحة أهل الرأى فيها ، فذلك لأن العقيدة ذوت وذبلت ، حتى لم يعد باقياً منها إلا ما يكفى للحرص على التسمى باسم الإسلام ، وعلى شرف الانتماء إليه ، ربما من قبيل التعود البحت ، إذ لا يكلف هذا الانتماء جهداً ولا بذلا ولا سعياً .

فمحاولة إقامة الشريعة — حسبما تعارف عليها هؤلاء المحدثون قبل إعادة بناء العقيدة وإشعال جذوتها — هى من قبيل وضع العربة أمام الجواد ، أو تقديم النتيجة على السبب ، ولعل العودة إلى تاريخ الإسلام منذ بعث الله رسوله ، محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ، خير ما يعيننا على فهم أن الإسلام عقيدة فحسب ، وأن كل ما جاء ثمرة لهذه العقيدة ، أو تفصيلا لها ، أو تطبيقاً لأحكامها ، تبع يأتى حتماً ولا يتخلف عنها إلا قليلا .

لقد بعث رسول الله ، ليدعو الناس إلى الإيمان بأن : لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . ولم يدعهم بادئ ذى بدء إلى صلاة يقيمونها ، ولا إلى صوم يلتزمونه ، ولا إلى زكاة يؤدونها ، ولا إلى حج يقومون به ، بل إنه لم يحرم عليهم الخمر ، إلا بعد عشرين سنة ، من بدء الدعوة ، كما لم يحرم عليهم الربا ، ولم يرسم لهم طريقاً فى الزواج أو الطلاق ، يخالف ما ألفوه عن أجدادهم ، فأبقى هذا الذى توارثوه ، حتى أمر الله ؛ بتغييره بعد سنين طويلة من بدء الدعوة حتى إن بعض المسلمين كان يضيق بأحكام كانت قائمة فى الجاهلية ، ويطلب إلى الرسول أن يغيرها ، لشدة ضررها وعظم بلواها ، فلا يستجيب لهم ، حتى ينزل فى ذلك الشأن

قرآن ، ومثال هذا حالة الظهار التى نزلت فيها الآية الأولى من سورة المجادلة : ( قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ) .

ولكن العرب لم يطيقوا دعوة الإسلام ، إلى نبذ الشرك بالله ، وإلى الإيمان بعقيدة إله واحد ، على النقيض مما يذهب إليه البعض حديثاً ، مسايراً مذاهبهم وتفسيرهم العام للتاريخ من أن قريشاً رفضت دعوة الإسلام ، لأنه فرض عليها فى أموالهم حقوقاً للفقراء ، وأمر بالزكاة ، فقوض نفوذ القرشيين وسلطاتهم المالية ، أو لأن الإسلام ، كان دين العامة ، التف حول رايته السوقة والفقراء ، فليس ذلك صحيحاً بشقيه ، فالزكاة وجميع الأحكام المالية وغير المالية تأخر نزول الآيات الآمرة بها إلى ما بعد الهجرة ، أى بعد ثلاثة عشر عاماً من بدء الدعوة . فقد فرضت الزكاة فى السنة الثانية من الهجرة .

أما محمد فهو فى القمة من النسب الشريف فى قريش ، وقريش فى القمة من الأنساب والأعراق بين العرب ، والذين آمنوا بدعوة محمد كلهم شريف وحسيب ونسيب ، فأبو بكر وعثمان وطلحة والزبير وعمر وأبو عبيدة وعلى وحمزة — كل أولئك أشراف ، وبعضهم غنى ، واسع الثراء . ولكن هذه الحقيقة بشقيها لم تخفف فى قليل أو كثير من بغض قريش للدعوة ، ولا من حماستها فى محاربتها والتضييق عليها ، وتأليب الناس والقبائل على فكرتها ، ومحاصرتها بالإرهاب والتعذيب ، وبالدعوة اللسانية ، وبالعدوان المادى . لم تترك قريش عيباً إلا ألصقته بمحمد ، بعد أن كان أثيراً لديها ، حبيباً إلى قلب رجالها لصدقه وأمانته ، ولطفه ودعته ، وذكائه وحكمته ، فقد قالوا إنه كذاب ومفتر ومجنون وكاهن وساحر ، وإن ما قاله يملى عليه بكرة وأصيلا ، وإنه أساطير الأولين .

ويمكننا أن نفهم لماذا ضاقت قريش بهذه الدعوة البسيطة ، قبل أن يفرض على المؤمنين بها شىء من العبادات ، أو من التكاليف التى تمس

المال ، أو تتطلب بذل النفس ، فحسب الدعوة أن تكون صادرة من إله خالق كل شيء فى السموات والأرض حتى تنقطع لديه شفاعة ذوى الجاه ووساطتهم ، فإذا كان البعث والنشور ركن الزاوية فى هذه العقيدة الجديدة ، وأنه (لا تزر وازرة وزر أخرى) ، وأن (من يعمل سوءاً يجز به) فقد تساوى الناس روحياً مساواة تتضاءل إلى جانبها آثار المساواة المادية، إذ لم يعد فى وسع أبى سفيان ولا أبى لهب ولا أبى جهل أن يزعموا أنهم معفون من الحساب والعقاب ، وأن لهم أن يفعلوا ما يشاءون دون حسيب أو رقيب .

وقد استطاعت الدعوة الجديدة ، لصدقها ، أن تمدّ الداخلين فى زمرتها ، بثبات وصبر ، فى وجه الشدائد التى لاقوها ، وآلام الاضطهاد التى سلطت عليهم . وبفضل هذا الثبات والصبر ، نجحوا فى أن يغيروا المجتمع القرشى فالمكى والعربى ، عن طريق هذه الكلمات القليلة « لا إله إلا الله » ، فقد تسامعها العرب جميعاً — على مرّ الأيام — ولم يستطع أحد منهم أن يقف منها موقف غير المبالى، فمنهم من ثار عليها وغضب على الداعى إليها ، ومنهم من أصم أذنيه عن سماع كلامه من فرط الضيق به ، ومنهم من أدهشته الدعوة وحيرته ، فلم يقطع فى أمرها بشىء ، فهو راض يوماً بها ، ومشوق إلى سماع أنباء رسولها يوماً ، ومنهم المأخوذ بهذا القرآن العجيب ، وأسلوبه الجديد غير المسبوق ، والمعجب بشخص الرسول وخلقة وعفته ولطفه ، ولكنه مع ذلك أضعف من أن ينزع نفسه من تقاليد مجتمعه أو أن يعالن ذوى قرباه ورحمه بالخلف ، وأن يجاهرهم بأنه اختار لنفسه غير طريقهم . ومنهم من كتم إيمانه حتى يهىء الله له مخرجاً ، ولكن على أية حال ماجت الحياة العربية بالحيوية التى دفعت بها إليها هذه العقيدة ، ودار جدل عنيف بين المعسكرين ، حول العقيدة فى أصلها الأصيل ، ولم يتجاوز هذا إلى شىء من فروعها : فالكفار والمشركون لم يجادلوا فى الصلاة ولا فى الزكاة ولا فى الحج ، ولو أنهم

استثقلوا هذه الفروض ، ولو أنهم سخروا من المصلين حين يصلون ، ومن كل سكنة وحركة من سكنات وحركات المؤمنين بالدين الجديد . ولكنهم جادلوا فأكثروا الجدل فى أن الله واحد ، وأن الآلهة يجب أن يزولوا ، وأن الأصنام والأوثان لاتضر ولا تنفع ، وأنها لا تخلق ذبابًا ، كما جادلوا فأطالوا الجدل فى عقيدة البعث ، واليوم الآخر ، والحساب والعقاب والثواب . وعلى الرغم من العناد والمكابرة ، فإن المشركين لم يكونوا طائفة واحدة ، إنما تفرقت بهم السبل أمام الدين الجديد ، وقد حرص القرآن أن يسجل مواقفهم جميعًا ، ومن ذلك قوله تعالى : (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ) .

وقوله تعالى : (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابًا وعظامًا أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون ، إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما نحن بمبعوثين ) .

وقوله تعالى : ( ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ) .

وما جاء فى سورة البقرة : ( وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون ) .

وما جاء فى سورة النساء : ( مذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ) .

وهذه الطوائف المختلفة إنما اختلافها بيان لما أصاب المجتمع القديم من هزة تباينت آثارها فى أعضاء هذا المجتمع حسب مصالحها ، وطبيعة أخلاقها وصفاتها ، وما تركته العقيدة الجديدة فى هذا المجتمع المتصلب ، هو ما تتركه كل عقيدة صالحة فى مجتمع فاسد متحلل ، انتهت حياته ، وزالت مسوّغات وجوده مع اختلاف فى الأثر الباقى لكل عقيدة .

ولست تجد فى القرآن بسوره الأربع عشرة بعد المائة ، وبأجزائه الثلاثين ، وبآياته التى زادت على ستة آلاف آية — جدلا حول عبادة

من العبادات ، التى فرضها القرآن على المسلمين ، ورسم قواعدها الكبرى ، بل إن ما جاء فى القرآن الكريم من أحكام هذه العبادات ، تقريراً لها ، وبياناً لأوضاعها ومواقيتها ، قليل غاية القلة ، خذ مثلا ما ورد فى شأن الصلاة ، فإن الآيات التى تتضمن فرضها ، أو تظهر حكمها العام ، لا تزيد على أربع هى :

( إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ) (١) ،

( يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ) (٢) ،

( حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ) (٣) ،

( أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل ) (٤) .

أما ما عدا ذلك من الآيات ، مما ورد فيه لفظ الصلاة ، وما اشتق من مصدرها من صفات أو أفعال ، فهى لاتبين حكماً ولا تقرر أصلا ، وإنما تدعو دعوة عامة مطلقة إلى الصلاة ، وتثنى على المقيمين لها ، والمحافظين عليها ، وغير الساهين عنها ، فضلا عن أثرها ، فى تزكية النفس ، والتقريب إلى الله ، والنهى عن المنكر .

ولقد دل ما قاله رسول الله عليه الصلاة والسلام لوفد قبيلة ثقيف ، حينما أبدوا رغبتهم فى اعتناق الإسلام ، على ما نقوله ، من أنه حسب المرء أن تصلح عقيدته ويشرح الله صدره للدين حتى يؤدى العبادات كلها ، مدفوعاً بقوة هذه العقيدة التى لا تقاوم . فعن عثمان بن أبى العاص قال : لما قدم وفد ثقيف ، نزلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزلهم المسجد ليكون أرق لقلوبهم ، فاشترطوا ألا يعشروا ولا يحشروا ، ولا يجبوا » . فقال صلى الله عليه وسلم : «لكم ألا تعشروا ولا تحشروا ، ولا خير فى دين ليس فيه ركوع » .

وعن وهب قال : سألت جابراً رضى الله عنه عن شأن ثقيف إذ

---

( ١ ) سورة النساء .
( ٢ ) سورة المائدة .
( ٣ ) سورة البقرة .
( ٤ ) سورة الإسراء .

بايعت ، فقال اشترطت ألا صدقة عليها ولا جهاد ، وأنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « سيصدقون ويجاهدون إذا أسلموا » .

صدق رسول الله العظيم . فالعقيدة باب كل خير . ومفتاح كل صلاة وزكاة وحج ، وسبيل الجهاد الصادق ، والبذل الذى لا يشوبه منّ ولا أذى ، وهو مصداق قوله صلى الله عليه وسلم إن فى جسم الإنسان مضغة إن صلحت صلح الجسد كله ، وإن فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب أو كما قال .

ولما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وولى أبو بكر أمر المسلمين ، ارتد من ارتد من المسلمين ، رفضًا منهم للزكاة فجمع أبو بكر كبار الصحابة يستشيرهم فى قتال الذين منعوا الزكاة ، وكان رأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وطائفة من المسلمين معه ألا يقاتلوا قومًا يؤمنون بالله ورسوله ، وأن يستعينوا بهم على عدوهم ، ولعل أصحاب هذا الرأى — على ما يثبته المؤرخون الإسلاميون — كانوا كثرة الحاضرين ، فى حين كان الذين أشاروا بالقتال هم القلة . ولكن أبا بكر قال فى حزم وإصرار : « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه » ، ولم يثن هذا القول عمر عن أن يرى ما فى القتال من تعريض المسلمين لخطر تخشى مغبته ، فقال كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها ، وحسابهم على الله » ، فأجاب أبو بكر على الفور : « والله لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، وقد قال رسول الله إلا بحقها » .

ولا ينازع امرؤ فى أنه لا أحد كعمر بن الخطاب تشدداً فى كل ما يتصل بالدين ، وبعداً عن الترخّص ، فى أمر قضى به الله ، أو أمر به رسوله ، كما ليس كمثله أحد تفقهًا فى الدين ، واجتهاداً فى تبين أحكامه ، إلا القلة القليلة من كبار صحابة الرسول رضى الله عنهم ،

ولذلك كان جداله مع خليفة رسول الله ، عن فهم وحرص على الدين ، وكان أساس فهمه أن الذين لم يجحدوا الدين ، ولم ينكروا رسالة نبيه وخاتم الرسل أجمعين ، هم مسلمون سلمت عقيدتهم . ولكن أبا بكر ، كان إمام المسلمين ، وراعى أمنهم ، وكان يرى فى السكوت على منع الزكاة ، ووفاة الرسول لم ينقض عليها إلا أيام ، قد يفتح أبواب فتنة تأتى على الدين كله ، وتقوض المجتمع الإسلامى من أساسه ؛ وقد كان بذلك أصدق حسًّا سياسيًّا وأبعد رأيًا ، شأنه فى كل ما ثار من فتن فى أعقاب وفاة رسول الله ، وهذا ما جعله خليفة لرسول الله . ولكن الذى يهمنا هنا هو رأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى أن الإيمان بالله ورسوله هو جوهر الدين ، وأن هذا الجوهر إذا سلم من الشوائب يقود صاحبه حتمًا إلى أن يقيم أركان الدين الأربعة الباقية التى لا يكمل الإسلام إلا بها ، ولا يقوم إلا عليها ، وهو ما قاله رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وأحسب أن ما أقوله هنا هو من المسلّمات التى لا يصح أن يثور حولها جدل ، ولكنى أرمى إلى ما وراء ذلك ، أرمى إلى أن ردّ الأمور كلها فى الإسلام إلى العقيدة هو الفارق المميز للإسلام عن غيره من المذاهب القديمة والحديثة ، التى تقوم بينها وبين الإسلام وجوه شبه ، حقيقية حينًا ، وظاهرية حينًا آخر .

فتلك المذاهب جميعًا تقوم أساسًا على نظام سياسى واجتماعى ، ركن الزاوية فيه سلطة تملك إلزام الناس بمبادئ هذا النظام وأحكامه ، فى حين أن الإسلام — وإن كان للوالى فيه سلطة إقامة الحدود التى بينها الدين ، وإنزال القصاص ، وإعلان الجهاد ، ضد أعداء الإسلام ، وسلطة التشريع ، فيما هو من جرائم التعزير ، وهى الجرائم التى ترتكب ضد الأفراد والمجتمع ، التى لم يرد بشأنها نص فى القرآن أو السنة — الأصل فيه أنه ( لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي ) ، والأصل

فيه ( أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ) ، و ( إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ) ؛ فإذا قامت جماعة المسلمين أو مجتمعهم ، أو دولتهم ، حسبما تشاء ، فالوازع القلبى ، والباعث النفسى ، هو قانونهم الأسمى ، وهو الذى يمنع الواحد منهم من ارتكاب المعصية ، ولو خلا إلى نفسه ، وهو يخاف هذه المعصية الخفية غير المنظورة ، والتى لا يطلع عليها إلا الله ، أكثر من خشيته سلطان الحاكم وسيفه ونطعه ، بل إنه يرحب بالجزاء الدنيوى ، ولو بلغ حدّ الموت بالرجم ، أسوأ أنواع الموت ، وأطولها عذاباً ، كما فعل ماعز المقرّ بارتكاب الزنا ، والغامدية ، لينجوا من عذاب الضمير ، ومن غضب الله ، أى من عذاب الآخرة . فالمسلمون آمنوا بحق أن الله يعلم ما يبدون وما يكتمون ، وأنهم ما يكونون فى شأن إلا كان معهم ، ويعلم السر وأخفى ، ويعلم ما تخفى الصدور . ولذلك قامت حكومة الضمير التى لا تحتاج إلى عسس يدورون فى الليل والنهار ، يتلصصون ، ليسترقوا السمع ، ويهتكوا أسرار البيوت ، ويقيموا الرقباء الذين لا يعرف أحد نصيبهم من الصدق والأمانة .

ولعل هذا هو السر فى أن الأحكام التى وردت فى القرآن عن المال ، ونظام الحكم قليلة ، إذ صرف أكثر الكلام فى القرآن ، إلى بيان العقيدة ، والتدليل عليها ، وتحسين الإيمان فى القلوب ، وإظهار مهالك المشركين ، وتردى المنافقين وسوء عاقبة المذبذبين ، وسوء منقلب الظالمين ، وسرعة زوال كل لذائذ الحياة ، وقلة شأن عرضها ، وتحسين أنواع من الخلق ، يؤدى إلى هدوء نفس الفرد ، وطمأنينة الجماعة ، وقوة الرابطة بين المسلمين ، وتوثيق روابطهم .

ولدينا فيما أثبتته الآثار فى القديم والحديث ، الأدلة على ما أثمرته هذه التربية ، ففى القديم رويت لنا حكاية تلك الفتاة التى أمرتها أمها أن تقوم فتخلط الماء باللبن أو تمذقه به ، ثم تبيعه للناس ، التماساً

لمزيد من الكسب ، وإن كان حرامًا ، فرفضت الفتاة أن تطيع أمر أمها قائلة إن الخليفة منع ذلك، فقالت لها أمها : « إنك بموضع لا يراك فيه الخليفة عمر ، ولا منادى عمر » ، فقالت الفتاة : « يا أماه والله ما أطيعه فى الملأ ، وأعصيه فى الخفاء ! » . وكان عمر سائراً فى الليل يرعى شئون الرعية التى كانت منها هذه الفتاة ، فلما أصبح الصباح ، دعاها فزوجها لابنه عاصم فولدت ابنتها من عاصم ، عمر بن عبد العزيز أعدل الخلفاء الأمويين ، ولم تكن هذه الفتاة إلا واحدة من عامة المسلمين، وكانت مثلا منهم ، يتكرر بلا شك .

أما فى الحديث فقد حكمت تركيا شرق أوربا أكثر من خمسة قرون ، وكان فى وسع خلفاء بنى عثمان سلاطين تركيا ، أن يحملوا أهل هذه البلاد قسراً على الدخول فى الدين الإسلامى ، ولقد هم أكثر من مرة بعض السلاطين بشىء من ذلك لولا أن شيوخ الإسلام فى تركيا، منعوهم ، وهددوهم بالإفتاء ضدهم ، وتأليب الناس عليهم . وقد تداولت الأنظمة هذا الجانب فى أوربا ، فأصبحت ملكية مطلقة ، وأصبحت تدين بالمذاهب الفاشية ، ثم بالشيوعية ، حسب النظام الحاكم لها .

والأمثلة كثيرة على أن العقوبة وحدها ، مهما بلغت من الشدة والردع ، لاتكفى للقضاء على الجريمة ، ولا على إرهاب الجناة ، ولا فى إشاعة الفضيلة ، أو توفير الأمن والطمأنينة ، فحيث توجد أسباب الإجرام من الظلم ، ونهب أرزاق الضعفاء ، واستعلاء الأقوياء، وسدّ أبواب العمل الشريف فى وجه طالبيه ، وكره الحاكم نصيحة الصادقين ، وانعدام الشجاعة عند من تقع على أكتافهم تبعات الرأى والهدايا والقيادة، فلاشىء يمنع الجريمة حتى المقصلة وحبل المشنقة . وقد سجل تاريخ الجريمة فى بريطانيا مايؤيد هذا تمامًا ، فقد فشت جريمة النشل فى لندن حتى اضطرت الحكومة إلى سن تشريع يعاقب النشالين بالموت ، ووضعت الحكومة يدها فعلا على بعض هؤلاء النشالين ، وأقامت مشانق

فى ميدان فسيح فى لندن لتنفذ فيهم العقوبة ، فتقاطر ألوف الناس ليشاهدوا هذا المشهد المثير ، فانتهز عدد من مهرة النشالين فرصة انشغال الناس واستغراقهم فى رؤية الشنق ، وأعملوا مشارطهم فى جيوبهم ، وملأوا أيديهم بمال لم يجمعوا مثله فى عام .

وقد نشر أخيراً « رمزى كلارك » النائب العام الاتحادى فى الولايات المتحدة إحصائية عن جرائم بلاده فى عام ، فجاء فى هذا البيان أنه تقع جريمة قتل كل ٤٣ دقيقة فى الولايات المتحدة ، وجريمة اغتصاب امرأة كل ١٩ دقيقة ، وجريمة سرقة كل دقيقتين وجريمة سطو على المنازل كل ٢٠ ثانية ، وسطو على السيارات كل ٤٨ ثانية ، واختطاف رجال كل ٢٠ ثانية .

فإذا علمت أن الولايات المتحدة ، هى نموذج للدولة المتحضرة التى تبلغ فيها الثقافة والتربية مبلغاً لا تبلغه فى دولة أخرى فى آسيا ولا فى أوربا ، وأن غناها يضرب به المثل ، وتقدمها الآلى والفنى ، أمنية كل دولة كبرى ، أدركت كيف تعجز الحضارة الحديثة عن أن تخلق مجتمعاً آمناً خالياً من الجريمة ، أو تتناقص فيه الجريمة على الأقل ولا تزيد فيه .

وهذا ما هدى إليه الإسلام الناس ، فتناول أولا ، نفوسهم وقلوبهم ، وعرف أنه هنا تكمن سر قوة الإنسان ، فالإصلاح يبدأ منهما ، والإصلاح ينتهى إليهما ، وأنه لا عدل سياسى ولا عدل اجتماعى ، ولا حكومة صالحة ، ولا مجتمع آمن ، إلا بعد أن يؤمن الإنسان الفرد بهذا العدل ، ويعتبره من واجباته الشخصية ، ويعتبر نفسه حارساً عليه وضامناً له ، ويخشى من الخروج عليه أو المساس به ، خشية تكاد تبلغ مبلغ رد الفعل اللاشعورى ، الشبيه باختلاج العين ، عند سقوط النور عليها ، أو الاتجاه إلى الخلف ، اتقاء لضربة من الأمام . وهذا ليس بمستبعد ، فالإنسان فطر قابلا للتشكل ، قادراً على إحداث

المطابقة بينه وبين البيئة التى يعيش فيها سواء كانت بيئة طبيعية أو اجتماعية .

ولو فعلنا كما فعل الإسلام فى ثلاث وعشرين سنة فقط ، هى الفترة التى قام فيها محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام ، بين ظهرانى المسلمين ، فى بلد لا مثيل له فى الجدب والفقر ، وخلوه من مصادر الثروة ومن أسباب العيش ، فضلا عن غلظ طبع أهله ، وتشتتهم فى القفار ، وتوزعهم فى حواشى الجزيرة العربية ونواحيها ، وتناثرهم فى أطرافها وأعطافها ، وسرعة ميلهم للقتال ، وكرههم الخضوع للحاكم ، وميلهم إلى الجدل ، وشدة تمسكهم بتقليد الآباء ، وتراث الأجداد لأدركنا كيف استطاع الإسلام ، فى هذه الحقبة التى لا تحسب فى أعمار الدول الكبرى ، إلا برهة لا يحس بها ، ولا يلتفت إليها ، أن يجعل منهم أمة متحدة ، وحكومة مركزية تبسط سلطانها على مساحة من الأرض تكاد تبلغ مبلغ القارة ، وأن ينشئ لهم نظاماً اجتماعياً ، وقانوناً ، وأن تظلهم — فوق كل ذلك — عقيدة واحدة ، تتناول الصغير والكبير ، من شئون حياتهم وأمور معاشهم .

فلننظر كيف كان تطبيق منهج الإسلام ، القائم على العقيدة ، فى مجال المال . لقد وضع الإسلام ، بآيات القرآن أولا ، ثم بسنة رسول الله ثانياً قواعد عامة ، ضابطة لاستنبات المال ، ثم لاستعماله ، وتوزيعه تقلم أظافر المال ، لتقلل من ضراوته وتجعله فى خدمة الناس ، لا غولا يلتهم سعادتهم ، ويهدد أمنهم ، ونحن لا نملك التوسع فى القول — ولذلك نورد هذه القواعد فى إجمال وإنجاز .

أولا : لا مصدر للمال إلا العمل ، ولابد أن يكون عملا مشروعاً ، فكل كسب يأتى بغير جهد — عدا الميراث — هو حرام ، ومن هنا حرمت عقود الغرر ، وحرم بيع غير الموجود ، لأنه كسب الحظ فيه هو مصدره .

ثانياً : إن المال أصلا هو مال الله : ( وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ) ، والناس مستخلفون فيه : ( وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ) ، فهو وديعة بين أيدينا نمتحن بحسن رعايتها ، وردها إلى صاحبها ، بعد إدارة نافعة يعود خيرها على أكبر عدد من الناس .

ثالثاً : أن خير القربات إلى الله الإنفاق فى سبيل المصلحة العامة ( لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ) .

رابعاً : أن شر ما يفعله الناس هو اكتناز المال وحبسه عن التداول ، والاستعلاء بالمال : ( وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً ) .

خامساً : ليس لمن حرم المال أن يحسد الناس على ما آتاهم الله منه ، فهو رائح غاد ولا يبقى إلا العمل الصالح .

سادساً : الإسراف مكروه : ( والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ) .

سابعاً : ومن لا يحسن استعمال المال وإدارته ترفع يده عنه .

ثامناً : المال لا يلد مالا ، وإنما الذى يلد المال العمل : ( الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس )

تاسعاً : هناك الكثير من الأخلاق الاقتصادية التى يدعو لها الإسلام ، كالوفاء بالعقود ، وتحريرها بالكتابة ، وإحسان الوزن والكيل ، والنهى عن الغش وتحريم الاحتكار .

عاشراً : نظام الميراث فى الإسلام الذى يفتت الثروة ويمنع تجميعها وتركيزها . هذا الإطار العام الذى قد يبدو فضفاضاً ، يتيح للمستغلين والمتحايلين على القانون مجالا فسيحاً ، هو فى واقع الأمر ، ضيق غاية الضيق ، مع العقيدة الصالحة ، مانع كل استغلال للمال ، والسعى فى الاستكثار منه ، ولو عن طريق حلال ، داع إلى سد حاجات المجتمع ، وإلى مكافحة الفقر ، وسد المنافذ

إليه ، فإلى جانب هذه المبادئ ، قواعد تمليها العقيدة وترتفع بها إلى مستوى القانون الملزم مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أى أهل عرصة أصبح فيها امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » ، ومثل قوله عليه الصلاة والسلام : «ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلم » .

فإذا لم توجد العقيدة الصالحة ، فقد تساوت الأنظمة كلها فيما تتيحه من الاستغلال السيئ للمال . ولكل نظام ثغراته وعيوبه ، التى تجعل المال فى ظله أداة إكراه وقهر ، واستعلاء وخوف . فإن اجتمع فى يد الأغنياء الأفراد ، فرضوا سلطانهم على الناس ، وجعلوا الحكومة فى خدمتهم ، وإن نزع المال منهم ، لم نضمن أن يجتمع فى يد جماعة صغيرة ، تشيع لوناً آخر من الإرهاب الذى يكمم الأفواه ويقذف الرعب فى القلوب ، أما مع العقيدة الصالحة ، ذات المبادئ الواضحة ، فيمكن أن تسن الشرائع المنظمة للمال ، المقيدة له ، المانعة من تملك أنواع منه ، أو إسناد إدارته إلى جماعة من الناس ، أو إبقائه فى أيدى أصحابه تحت رقابة الحاكم ، ورقابة الرعية معاً ، إذ أن هذه القوالب جميعاً لا ينقشع عنها سوءها إلا بهذه الرقابة الساهرة اليقظة ، الحساسة المدركة رقابة الضمير ، الذى استمد حيويته وشجاعته من عقيدة تجعل من المصلحة العليا قانوناً مهيمناً .

وما فعله القرآن فى مجال المال ، فعله فى مجال الحكم فقد قرر مبادئ أساسية هى :

أولا : العدل .

ثانياً : الشورى .

ثالثاً : المساواة .

رابعاً : وجوب نصح الحاكم ، ووجوب انتصاح الحاكم ، وتلمسه الرأى عند أهل الرأى . .

خامساً : الأخذ على يد الظالم ، وإلا كان المظلوم ظالماً : (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً) .

وفى ظل هذه المبادئ ، مع العقيدة الصالحة ، نضمن قيام حكومة عادلة ، أما إذا أقمت نظاماً نيابياً حراً ، أو نيابياً رياسياً ، أو شمولياً كلياً ، أو ديموقراطياً اجتماعياً ، بغير هذه العقيدة ، فالظلم واقع بصورة من الصور ، وإن أرقت بحار الله مداداً فى الدفاع عنها ، فالانتخابات وسيلة تقرير الحرية لا تضمن خلوها من تزييف الحاكم فى بلاد لم يقوّ فيها رأى الشعب العام ، ولا تضمن أن يكون نظامها فاسداً فى بلاد قوى فيها هذا الرأى، وأخيراً لا تضمن تقاعس الناس عن الإقبال عليها ، وهو أمر تقرره كل كتب القانون الدستورى .

ولسنا فى حاجة إلى أن ندلل على فساد هذه الأنظمة جميعاً ، فإن ما يعانيه العالم اليوم من التمزق ، الذى تفتت فى ظله الدول إلى قسمين وثلاثة ، فأصبح فى ألمانيا قسمان ، وفى إيرلندا ثلاثة ، وفى الهند الصينية خمسة ، وفى فلسطين ثلاثة ، وأصبح العالم عوالم ، على الرغم من الطائرات التى تلغى المسافات ووسائل الإذاعة المسموعة والمرئية ، التى تنقل إليك فى لحظة أصواتاً صادرة من أركان الدنيا السبعة ، والتى يصابح الناس فيها ويماسيهم ، أنباء الفواجع السياسية ، والاضطرابات الجنسية ، والقتل بالجملة ، والتهيؤ للحرب ، والخوف الدائم من القنبلة الذرية — إن هذه المعاناة وحدها ، دليل على أن هذه الأنظمة جميعاً ، أخفقت فى تحقيق الرخاء والأمن والسلام ، وأنه لا بد من العودة إلى مصدر الخير الذى لا شية فيه ولا ريبة ، العقيدة الإنسانية الصالحة ، التى تنظر إلى الناس جميعاً ، أمة واحدة ، وتقودهم بغير قهر ولا استعلاء على ضوء وجدانهم ، وبوحى من قلوبهم .

# المنهج الثابت فى القرآن الكريم

قال الله تعالى : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)[1] وقارئ القرآن الكريم يجد فى كل ما يتصل به آيات صدق هذه الآية . فللقرآن نظام يختلف عن نظام كل كلام سبقه للبشر . سواء كان هذا الكلام للعرب أو لغيرهم ، وسواء كان هذا الكلام شعراً أو نثراً مرسلا أو موزوناً . فقد قسم إلى آيات ، وضمت الآيات سور ، واختلفت الآيات والسور ، فى الصياغة والمعنى ، والأسلوب والمعنى ، والأداء والموسيقى ، عن كل ما أنتجته وأبدعته قرائح الكتاب والشعراء ، على مر الحقب والعصور .

ولكن لهذا النظام الثابت من حيث الصورة والشكل ، منهج داخلى ثابت كذلك ، قد لاتلمحه العين ، إلا بعد تثبت وروية ، ولكن هذا المنهج الداخلى ، على خفائه ، أدل على أن منهج القرآن جزء من نظام قائم بدوره على قواعد ثابتة ، هى فطرة الناس التى فطرهم الله عليها من جهة ، والنواميس الدائمة للكون من جهة أخرى .

ولسنا نستطيع أن نحصى جميع الدلائل على وجود هذا المنهج ، ولكن فى الوسع أن نجتزئ ببعضها . وقد يدل الجزء على الكل ، كما يشير القليل إلى الكثير .

## فمن عناصر هذا المنهج الثابت :

**أولا :** لا يأتى ذكر الخير والشر ، فى موضع من القرآن ، إلا كان ذكر الخير سابقاً على ذكر الشر ، كما تسبق الحسنات السيئات ، والثواب العقاب .

---

(١) سورة النساء : ٨٢ .

ثانياً : لا يذكر الجهاد ، أو لا يدعى الناس إليه إلا كان الجهاد بالمال سابقاً للجهاد بالنفس .

ثالثاً : لا يذكر الكثير إلا والقليل رجحت كفة القليل .

رابعاً : لا تذكر أنعم الله على الناس ، إلا سبق السمع والبصر .

خامساً : لا يشار إلى العبرانيين ، فى مواضع الرضا عنهم ، أو تذكيرهم بفضل الله عليهم ، إلا وسموا باسم بنى إسرائيل ، ولا يشار إليهم فى مواضع السخط عليهم ، وتعديد سيئاتهم إلا وسموا باسم « اليهود » أو الذين هادوا .

فإذا بدءنا بأول هذه العناصر ألفينا ما نشير إليه من تقديم الخير على الشر فى السور القصار والسور الطوال على السواء ، ومن ذلك : ( فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ) فى سورة الزلزلة ، وفى سورة التين : ( لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ) ، وفى سورة الليل : ( إن سعيكم لشتى فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ) ، وفى سورة الشمس : ( قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ) ، وفى سورة البلد : ( ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، أولئك أصحاب الميمنة ، والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة ) ، وفى سورة الفجر : ( فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن ) ، وفى سورة الأعلى : ( سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى ) ، وفى سورة الانفطار : ( إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم ) ، وفى سورة عبس : ( وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة ) . وتقديم الخير على الشر ، والتبشير على التنفير ، والثواب على العقاب ، والجنة على النار ، منهج يتفق مع

طبيعة الإسلام[٣]، باعتباره دين الفطرة ، فالأصل فى الإنسان فى نظر الإسلام ، الخير ، بدلالة صريح نص آية التين : ( لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ) .

فالشر طارئ على الإنسان ، لم يخلق به ، وقصة آدم فى القرآن ، وهى القصة التى تروى خلق الإنسان ، تؤكد أن الإنسان خلق صالحاً قابلا للخير ، قادراً على إتيانه ، وإن كان قد سقط فى المعصية ، فلأنه لم يقاوم الغواية التى أتت إليه من خارج نفسه ، لذلك أمر بأن يتحصن أمامها ، بالإيمان أو بالتقوى ليعصماه من التردى فيها . فالله تعالى يقول فى سورة الأعراف فى الآية العاشرة وما بعدها : ( ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ) ، وقال : ( ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ) ، وفى سورة الحجر فى الآية الثامنة والعشرين : ( فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ) ، وفى الآية الثلاثين من سورة البقرة : ( وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ) .

وهذه الآيات كلها ناطقة الدلالة بأن آدم كان محل رضاء ربه ، فقد سوّاه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وعلمه الأسماء كلها دون الملائكة ، وأمر الملائكة أن يسجدوا له ، فسجدوا له كلهم أجمعون ، وقد خاطب آدم ربه هو وزوجه ، فدعاهما إلى أن يتمتعا بالجنة وخيراتها ، وأن يأكلا رغداً منها حيث شاءا بغير حسيب ولا رقيب ، وكل أولئك دلائل الرضاء ، ودلائل استحقاق آدم وزوجه هذه الأنعم ، لولا أن الشيطان قد تصدّى لهما ، فأغواهما وأزلهما عنها ، ( فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ،

قلنا اهبطوا منها جميعًا فإما يأتينكم منى هدى ، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ) .

وهذه الأدوار كلها تجملها آيات سورة التين : ( لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ) .

فالخير أصل الإنسان ، وفطرته التى فطر عليها ، إلا أنه ضعيف ، وقد توعده الشيطان بالغواية ، فمن تبع الشيطان فقد تردى إلى أسفل سافلين ، ولكن من تاب وعاد إلى الإيمان ، واستعصى على الشيطان ، فله أجر غير ممنون .

ومن ثَمّ كان من الطبيعي أن تسبق الإشارة فِي القرآن إلى الخير الإشارة إلى الشر ، والبشرى بالجنة الإنذار بالنار ، وثواب الصالحين المحسنين عقاب الكافرين المذنبين ولو افترض القرآن ، أن الشر أصل الإنسان ، وفطرته التى فطر عليها ، لكانت الدعوة إلى الدين عبثًا من العبث ، إذ لا يستطيع الإنسان أن ينسلخ من طبيعة خلق عليها ، ولا أن يخرج منها ، ولكان الإيمان لونًا من الخوارق لايتم إلا نادراً ، ولا يتأتى إلا لصفوة الصفوة الذين لايجود الزمان بهم إلا فى الحقب المتباعدة ، وفى الآماد المتطاولة .

ومن هنا لسنا مع المفسرين الذين يذهبون إلى أن آيتى : ( لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ) قد نزلتا فِي الوليد ابن المغيرة ، أو كلدة بن أسيد ، كما أننا لسنا مع الذين يفسرون قول الله تعالى : ( ثم رددناه أسفل سافلين ) بأن الله يرد الإنسان إلى أرذل العمر ، وهو ما ارتآه الضحاك والكلبي على ما أورده القرطبى فى الجامع لأحكام القرآن ، ولا مع الذين فسروا ( أسفل سافلين ) بأنها النار .

فالآيتان تقصدان مطلق الإنسان ، وهما تتحدثان عن الإنسان الذى قال فى حقه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق آدم على

صورته » فى رواية ، « وعلى صورة الرحمن » فى رواية أخرى .

فطلق الإنسان ، بجسمه وعقله وروحه ونفسه ، وطاقاته العظيمة ، وقدراته الهائلة ، وطموحه إلى الخير ، وحبه غير المتناهى للعلم ، وميله إلى المخاطرة ، ودأبه على التجديد والتطوير ، والكشف والإبداع ، وتضحيته بذاته وماله من أجل فكرة مؤمن بها ، أو عقيدة يطمئن إليها ، هو تجسيد حى للفظى ( أحسن تقويم ) ، إلا أن الإنسان يطوى فى بناء جسمه من الأجهزة التى أعدها الخالق سبحانه وتعالى لتبقى على الإنسان الفرد ، وعلى الإنسان الجنس ، وهما غريزتا حب الطعام والتناسل ، وهما جهازان يجعلانه قريباً من الحيوان شبيهاً له ، بل أكثر ضراوة منه ، وأشد ميلا إلى الفتك والقتل ، وأبرع فى ابتداع أسباب الدمار والهلاك ، لنفسه ولجنسه ، ولذويه وأهل وطنه وملته . وهو بهذا يهبط إلى أسفل سافلين ، متأثراً بغواية الشيطان ، فالإنسان قابل للغواية ، بحكم غرائزه اللازمة للإبقاء عليه فرداً وجنساً : ( ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً ) .

ومن هذا كله كان منهج القرآن قائماً على تقديم الخير على الشر ، وتقديم التبشير على التنفير ، وتقديم الحسنات على السيئات ، فمنهج القرآن : الأخلاق ، وهدفه التربية والتقويم ، ولا أمل فى دعوة ولا نصيحة . ولا دين أو عقيدة ، إلا إذا اطمأنّ الإنسان إلى أن أبواب الخير مفتوحة أبداً ، وأن السعى من أجل الآخرة ، والمثل الأعلى ، متيسر على الدوام ، وهذا ما فعله القرآن ، ونجح فيه كأعظم ما يكون النجاح .

وقد يتصل بهذا العنصر الأول من عناصر المنهج القرآنى الثابت أن يكون الجهاد بالمال سابقاً على الجهاد بالنفس ، والأمثلة على ذلك :

( إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله )[1]( الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم

---

( ١ ) سورة الأنفال : ٧٢ .

أعظم درجة عند الله )[١] ، (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم )[٢] ، ( انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله )[٣] ، (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة )[٤] .

فما سر تقديم المال على النفس فى آيات الجهاد ؟

السر فى ذلك هو منهج الإسلام أيضاً فى كل ما يتصل بالدعوة إلى الدين . فالإسلام باعتباره دين الفطرة من جهة ، ودين التقويم والإصلاح والتسامى بالإنسان إلى أعلى المراتب حتى يكاد يبلغ مرتبة الملائكة من جهة أخرى ، يبدأ بالإنسان من حيث هو . فيقر للإنسان بما عليه من قصور ، وخوف ، وحرص على ما وجد عليه آباءه وأجداده ، وكراهية للتغيير والتطور ، وإشفاق من بذل المال ، وفرار من مواطن التضحية بالنفس . فالإنسان هو كذلك ، بادئ ذى بدء ، ولكن النفس الإنسانية أشبه بالمنجم العميق ، الذى إن أحسنت التنقيب فيه ، والوصول إلى أعماقه وجدت الجواهر والذخائر ، وبهرك ما فى باطنه من نفائس وبدائع .

يبدأ القرآن بتقرير الواقع البشرى فيقول فى الآية الرابعة عشرة من سورة آل عمران : ( زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ) .

هذه حقيقة ثابتة لا ينفع إنكارها ، ولا إغماض العين عنها .

والحقيقة الثانية المتفرعة عن الحقيقة الأولى: أن الإنسان حريص على المال ، أكثر من حرصه على البنين ، لذلك قال القرآن : ( المال والبنون زينة الحياة الدنيا ) ، ( يوم لا ينفع مال ولا بنون) ، (عتل بعد ذلك زنيم ، أن كان ذا مال وبنين ) ، ( إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً ) .

---

( ١ ) سورة التوبة : ٢٠ .
( ٢ ) سورة التوبة : ٨٨ .
( ٣ ) سورة التوبة : ٤١ .
( ٤ ) سورة النساء : ٩٥ .

ومن هنا ، كان امتحان الله للناس ، بما ينزله بهم من الجوع ونقص الأموال مثل نقص الأنفس : ( ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس ) .

هذا كله سبب لتقديم المال على النفس فى آيات الجهاد ، وسبب آخر يتصل بتاريخ الدعوة الإسلامية ، ففى خلال ثلاثة عشر عاماً اقضاها المسلمون فى مكة ، مهبط القرآن الأول ، وموطن الدعوة فى أولى مراحلها ، كان سبيلهم فى معاملة المشركين دفع السيئة بالحسنة : ( ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ) ؛ لذلك كان الجهاد بالمال هو أول ما يدعى إليه المسلم ، وكان المشركون وكفار قريش يسلكون سبيل مقاطعة المسلمين الأوائل ، ويقبضون أيديهم على المال ، حتى لايصل إلى أنصار محمد ، مؤملين أن يصرفهم الجوع وقلة الزاد عن البقاء معه فى صفوف الإسلام : ( هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ) .

والسبب الثالث فى تقديم المال على النفس فى آيات الجهاد هو سنة التطور والتدرج التى سلكها الإسلام فى كل ما فرضه على المسلمين ، فكما تدرج فى تحريم الخمر ، وفى تحريم الربا ، وفى فرض العبادات على المسلمين ، بما فيها من صلاة وزكاة وحج ، فقد أخر الإسلام فرض الجهاد بالسلاح ، ورد العدوان بالقوة حتى اكتمل إيمان المسلمين ، وألفوا الحرمان فى سبيل العقيدة ، وتدربوا على أداء تكاليف الدعوة الروحية ، التى هى عصمة المقاتل ، وسر ثباته ، ومصدر قوته ، فالذراع التى تحمل السلاح هى التى تضرب وليس حد سيف ، وقلب المقاتل ، هو عدته وليس قوة بدنه .

ولا يهول المقاتلين الأوائل ، والمجاهدين الرواد ، فى مطلع الدعوات ، ومفتتح الحركات ، شيء ككثرة خصوم الفكرة الجديدة ، أو الدعوة الوليدة ، ولا يفت فى عضدهم مثل قلتهم هم . ومن هنا حرص القرآن

الكريم ، على التهوين من شأن « الكثير » الخبيث ، والإعظام من شأن « القلة » المختارة ، المؤمنة بالقرآن .

وكالعهد بالقرآن يضع القاعدة العامة ، ثم يردفها بما يفصلها ، ويبين أحكامها ، ويضرب الأمثلة على صحتها . فالقاعدة فى شأن الكثرة والقلة ترد فى الآية المائة فى سورة المائدة : ( قل لا يستوى الخبيث والطيب ، ولو أعجبك كثرة الخبيث ) ، ثم ترد هذه القاعدة أكثر تفصيلا فى الآية التاسعة والأربعين بعد المائتين فى سورة البقرة ( كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ) .

ثم تتوالى بعد ذلك الأمثلة على قلة جدوى الكثرة فى ذاتها ، وبعضها يؤخذ من حياة المسلمين أنفسهم ، كما ورد فى الآية الخامسة والعشرين فى سورة التوبة : ( ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ) .

وبعد ذلك لا يرد الكثير ولا الكثرة إلا مشفوعين بما يهون من أمرهما ويحط من قدرهما إذا كانا مجرد كثرة : ( لا خير فى كثير من نجواهم ) ، ( وإن كثيراً من الناس لفاسقون ) ، ( وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون ) ، ( ولكن أكثر الناس لا يشكرون ) ، ( ولكن أكثر الناس لا يعلمون ) ( ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ) .

ويخاطب الله تعالى الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله : ( وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ) ثم : ( وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ) .

ثم يعود القرآن يصف كثرة الناس بالعيوب التى تتسم بها الكثرة عادة ، قبل الإيمان والهداية : ( وإن أكثركم فاسقون ) ، ( ولكن أكثرهم للحق كارهون ) ، ( ولا تجد أكثرهم شاكرين ) ، ( وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ) .

بقى أن نضرب مثلين على المنهج الثابت للقرآن الذى تلمحه العين ، على خفائه ، يسرى فى آيات القرآن سريان الماء فى النبات ، يبدأ من

الجذور إلى الساق إلى الفروع ، ويبعث فيه الحياة .

المثل الأول هو تقديم السمع على البصر ، فى كل موضع فى القرآن ، عددت فيه أنعم الله على الناس ، وذكرت الجوارح التى يتصل عن طريقها الإنسان بالعالم الذى يعيش فيه .

يتقدم السمع على البصر باعتبارهما نعمتين من نعم الله ، ويتقدم السمع على البصر عندما يذكران فى موضع حرمان الكفار والمشركين والضالين منهما ، باعتبارهما رمزاً على الهداية ، وأداة للإيمان ، ويتقدم السمع على البصر عندما يذكر القرآن الكريم أسماء الله الحسنى وصفاته جل وعلا . فلننظر إلى الأمثلة لنر هذا الثبات المثير لأعظم الدهشة : ( قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أمن يملك السمع والأبصار ) (١) .

( ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ) (٢) .

( وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ) (٣) .

( إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ) (٤) .

( وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة ) (٥) .

( ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار ) (٦) .

( قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ) (٧) .

( أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ) (٨) .

( ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ) (٩) .

( حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم ) (١٠) .

( والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ) (١١) .

---

(١) سورة يونس : ٣١ .
(٢) سورة هود : ٢٠ .
(٣) سورة النحل : ٧٨ .
(٤) سورة الإسراء : ٣٦ .
(٥) سورة المؤمنون : ٧٨ .
(٦) سورة السجدة : ١٩ .
(٧) سورة الأنعام : ٤٦ .
(٨) سورة فصلت : ٢٢ .
(٩) سورة البقرة : ٥ .
(١٠) سورة فصلت : ٢٠ .
(١١) سورة المجادلة : ١ .

( فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً ) [١] .
( أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ) [٢] .
( صم بكم عمى فهم لا يرجعون ) [٣] .
(قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى) [٤] .
( والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات ) [٥] .
( أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ) [٦] .
( والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ) [٧] .

وفى القرآن ما يزيد على ثلاثين موضعاً وصف فيه الله تعالى وتبارك ذاته بأنه ( السميع العليم ) ، يمكن الرجوع إليها .

ولم يأت هذا التقديم اعتباطاً ، وإلا ما التزمه القرآن من أوله إلى آخره التزاماً دقيقاً ، ولكن لهذا الترتيب ما يسوغه .

أولا : فالسمع هو أسبق حواس الطفل إلى وصله بالكون الذى نعيش فيه . فعينا الطفل تقع عليهما المرئيات دون أن تنقلا إليه معنى ، لأن الصورة لاتفهم فى ذاتها إلا مرتبطة بقدر من المعرفة لا يتأتى للطفل ، فى حين أن الطفل يستجيب لدى أول ميلاده للأصوات المزعج منها والمؤنس ، ولذلك يحصن الطفل ضد صدمات الصوت ، بما يبعثونه فى بلادنا من أصوات فى اليوم السابع لمولده .

ثانياً : إن حاسة البصر على علو مقامها عند الإنسان لا تبلغ حاسة السمع فى اتساع المدى ، وفى القدرة على الشمول والإحاطة . فالإنسان يرى فى اتجاه واحد ، فى حين أنه يتلقى الأصوات فى آن واحد من كل جهة تحيط به . سواء كان مستقبلا مصدر الصوت أو مستدبراً .

---

( ١ ) سورة النساء : ١٣٤ .
( ٢ ) سورة محمد : ٢٣ .
( ٣ ) سورة البقرة : ١٨ .
( ٤ ) سورة طه : ٤٨ .
( ٥ ) سورة الأنعام : ٢٩ .
( ٦ ) سورة الزخرف : ٤٠ .
( ٧ ) سورة الفرقان : ٧٣ .

وسواء كان السامع فى الخلاء أو وراء جدار داخل أبنية ، فالإنسان يسمع وهو فى فراشه، ملتحف بغطائه، صوت الذئب فى الحقل أو الغابة، وبينه وبين مصدر الصوت أمتار وأمتار ، وهو لا يدرى فى أى موقع من الغابة أو الحقل يكمن صاحب الصوت . كما يسمع وهو جالس فى بيته بين أهله أصوات البنادق والمدافع ، تقع على بعد أميال منه ، ويميز بين صوت وصوت ، ثم إن أكثر معرفة الإنسان عن أذنيه . ويرمز بالسمع للطاعة والهداية والانقياد . والعلم الحديث جعل السمع وسيلة الاتصال بالدنيا كلها عن طريق أجهزة الاستماع التى بلغت كفايتها إلى أبعد الحدود وأعلاها . أما الإذاعة المرئية فلا تزال متخلفة وراء الإذاعة المسموعة بكثير، وإن كان من الممكن أن تلحق بها عن طريق الأقمار الصناعية .

ثالثاً : إن فقدان البصر مصاب جلل عند الإنسان ، ولكن الأعمى يبقى على اتصال بالجماعة التى يعيش فيها بفضل حاسة السمع ، أما الأصم فتنعدم صلته بالجماعة ، إذ لا يملك وسيلة للتفاهم معها ، وتلقى عواطفها ومشاعرها ، والوقوف على آرائها وخواطرها .

رابعاً : وصف الله تعالى ذاته بأنه سميع ، لأن السمع ، معناه عند عباد الله الاستجابة لهم ، والرحمة بهم ، والعطف عليهم ، والمغفرة لذنوبهم . فى حين أن البصر معناه ، مراقبة أعمالهم ، والوقوف على ما يخفونه من أخطائهم وآثامهم . والناس لا تكف عن التوبة إلى الله سبحانه وتعالى ، تلتمس عنده العون ، وتطلب منه الثواب .

* * *

للعبرانيين فى القرآن اسمان فهم تارة : « اليهود »، وتارة ثانية : « بنو إسرائيل » . ولكن الاسم الأول ، لا يرد إلا فى حالة الغضب والتنديد فى حين لا يرد الاسم الثانى إلا حيث يذكر الله أنعمه على بنى إسرائيل ، أو يذكرهم بها ، أو يعبر عن رضاه عنهم، فى مرحلة من مراحل حياتهم كثيرة التقلب .

ولليهود اسم ثالث ، هو « الذين هادوا » وهو لا يرد فى الأغلب الأعم إلا فى حالتى السخط عليهم أو التنديد بسيئات أعمالهم عدا موضع أو موضعين .

وإليك الشواهد على ما قدمنا :

– ( يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء ) (١) .

– ( وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ) (٢) .

– ( لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ) (٣) .

– ( ما كان إبراهيم يهودياً ) (٤) .

– ( من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ) (٥) .

– ( فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ) (٦) .

– ( ومن الذين هادوا سماعون للكذب ) (٧) .

– (قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ) (٨) .

أما اسم « بنى إسرائيل » فيرد فى المواضع التالية :

– ( وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ) (٩) .

– ( ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات ) (١٠) .

– ( يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ) (١١) .

– ( ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة) (١٢) .

ومسوغ هذه التفرقة أن إسرائيل هو يعقوب ، ويعقوب هو من

---

(١) سورة المائدة : ٢١ .
(٢) سورة المائدة : ٦٤ .
(٣) سورة التوبة : ٣٠ .
(٤) سورة آل عمران : ٦٧ .
(٥) سورة النساء : ٤٦ .
(٦) سورة النساء : ١٦٠ .
(٧) سورة المائدة : ٤١ .
(٨) سورة الجمعة : ٦ .
(٩) سورة الأعراف : ١٣٧ .
(١٠) سورة يونس : ٩٣ .
(١١) سورة طه : ٩٠ .
(١٢) سورة الجاثية : ٦ .

أنبياء الله ، وهو ابن نبى هو إسحق ، وحفيد نبى هو إبراهيم ، فهو حلقة فى سلسلة صالحة من الأنبياء والصالحين ، فنسبة أحفاده إليه ، وتسميتهم باسمه ، أقرب إلى الإعزاز والتدليل منه إلى مجرد التسمية المجردة من العطف أو السخط . ولذلك لا يستقيم القول أن ننسب اليهود إلى أبيهم الذى اصطفاه الله على الناس ، واختاره للرسالة ، ثم يلعنون أو تذكر سيئاتهم.

أما اسمهم العام ، الذى لا يذكر فيه اسم أبيهم ، فلا بأس من إيراده مقروناً بما يستحقونه من التعنيف والتنديد .

* * *

لعلنا استطعنا أن نتبين هذا المنهج الثابت فى القرآن الذى توزن فيه الألفاظ مهما صغرت ، والأسماء مهما دقت ، بميزان عام شامل ، يستند إلى روح الإسلام ، ونظره إلى الأمور ، وإلى الأعمال ، فلا يشذ عن هذا المنهج لفظ ولا عبارة .

وقد لا نتبين ما فى هذا المنهج وبنائه من إعجاز إلا إذا ذكرنا أن القرآن لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم دفعة واحدة ، وأنه نزل منجماً على مدى اثنتين وعشرين سنة ، وشهرين وعشرين يوماً ، وأنه نزل فى مائة وأربع عشرة سورة ، وأن عدة الآيات فى هذه السور ٦٢٣٦ آية .

ولم ينزل القرآن على رسول الله فى بلدة واحدة ، بل نزل بعضه فى مكة ، وقدر ذلك ١٩ جزءاً من ثلاثين جزءاً يحتويها القرآن ، والباقى وقدره ١١ جزءاً نزل فى المدينة ، ونزل بعض القرآن فى مواضع بين مكة والمدينة ، ونزل فى السلم والحرب ، والهزيمة والنصر ، وفى فترات الشدة ومراحل الفرج ، أفلا يكون لكل هذا الزمن الطويل ، وهذه التقلبات الكبيرة ، والشدائد المتلاحقة ، أثر فى هذا المنهج ، فيبقى ثابتاً لا يهتز ، واضحاً لا يغمض ، واحداً لا يتعدد ؛ فهذه آية من آيات إعجاز القرآن ، جديرة بأن تستوقف النظر ، وتملأ النفوس إعجاباً ، وتملأ القلوب خشوعاً .

# تكامل الإنسان في القرآن

إن غاية الإسلام هى السلام . فأحكامه من أوامر ونواه ، وقواعده من أصول وفروع ، ومنهاجه من تربية وتنشئة ، تنتهى جميعاً إلى تحقيق سلام الإنسان : سلام الإنسان مع نفسه ، ثم عائلته : جماعته الصغيرة ، وموطنه : جماعته الأوسع نطاقاً ، فالإنسانية قاطبة : جماعته الكبرى ، وأخيراً مع الكون الفسيح ، الذى يعيش فيه ، ويتأثر به .

فالقرآن ( يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ) ، ( والله يدعو إلى دار السلام ) ، والمسلمون المؤمنون ( لهم دار السلام عند ربهم ) ، وهم عند دخولهم الجنة تحييهم الملائكة ( وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم ) ، وهم فيها ( لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاما ) ، والله جل وعلا ( هو الملك القدوس السلام ) .

وليس السلام بالمطلب الهين ، فبواعث القلق والخوف والضيق ، ودواعى التردد والارتياب والشك ، تصاحب الإنسان منذ يولد حتى يوسد التراب . فهو بعجزه أمام الكون المترامى غير المتناهى ، وجهله سر ظواهره الواضحة دع ، عنك الخفية ، وحيرته أمام آفاقه الفسيحة غير المحدودة وقوانينه الدقيقة غير المفهومة ، وفزعه لما يقع فيه من تطورات تسبب له الكوارث المهلكة من زلازل وبراكين ، وسيول وأعاصير ، وتقلبات جوية تدمر زرعه حيناً وتبيد نسله حيناً ، أصبح الخوف هو القانون المسيطر على حياة الإنسان . ومن ثم بذل الإنسان الأول أكبر جهده ، وصرف معظم وقته لتأمين نفسه ، من عوادى الطبيعة وعوادى الحيوان ، بل عوادى الإنسان نفسه ، وأصبح يعرف أن تحصيل رزقه ، وتوفير قوته ، وتهيئة مسكنه والاستئثار بأنثى أو إناث ، لا تهيئ كلها له السعادة التى ينشدها ، لأن خوفه المستمر من خطر حقيقى أو متوهم ،

حال أو متوقع ، يعكر صفوه ، وينفى عنه لذة الطعام ، ويبدد له راحة البال .

ولذلك كانت قاعدة الإسلام التى يقوم عليها كل بنائه هى السلام . فإله المسلمين هو السلام ودار المسلمين هى دار السلام ، وتحية المسلمين فى الدنيا هى السلام ، وتحيتهم فى الآخرة هى السلام ( خالدين فيها بإذن ربهم ، تحيتهم فيها سلام ) ، ( ويلقون فيها تحية وسلاما) ، والجنة هى سلام دائم ( لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما إلا قيلا سلامًا سلامًا ) .

فكيف يحقق الإسلام للمسلمين السلام ؟ إن الإسلام يقيم صرحه الشامخ بأحكام وأنظمة على العقيدة ، فالعقيدة هى مستودع قوة الإنسان وسر أسرار الوجود الإنسانى بأسره ، منها البداية وإليها النهاية ، فإذا كانت عقيدة الإنسان مفضية إلى تفتيت النفس الإنسانية وإحالتها إلى ميدان صراع بين قوتين من قواه ، تتجاذبه يمينًا ويساراً ، سدت سبل السلام فى وجه الإنسان . أما إذا كانت عقيدة الإنسان تخلق منه وحدة متآلفة متسقة ، فقد أصبحت قوة لا ترد ، تتضاءل أمامها مفزعات الكون ، وتتبدد ظلمات الوجود .

وأولى مشكلات الإنسان التى حيرته وأرهقته وبددت قواه العقلية والروحية ، هى مشكلة الخير والشر فى الوجود . وقد تباينت مواقف المذاهب الإنسانية من هذه المشكلة . فعقائد ترى أن القوى المسيطرة على هذا الكون هى قوى الشر ، وأن الخير عاجز أمامها لا قبل له بمواجهتها فضلا عن التغلب عليها ، فلا سبيل له إلا الاستسلام لها ، أو ترضيتها ما استطاع ، فإن استخلص من براثنها شيئًا فإلى حين ، إذ لاتلبث أن تستعبده وتلتهمه ، لأن قانون هذا الوجود هو الفناء لا البقاء ، والفساد لا الصلاح ، والعنف لا الرحمة ، والخوف لا المحبة — وبالجملة كل شىء باطل .

وعقيدة ترى أن الوجود معركة ، هى حرب سجال بين الشر والخير ، يكسب هذا حينًا ، ويخسر حينًا ، وهى معركة لا تنتهى ، ولا تحقق شيئًا ، فما يبنى يهدم ، وما يهدم يبنى ، وما يزول يعود للظهور ، وما

يظهر يختفى من جديد ، وهكذا دواليك ، وعلى الإنسان أن يقاوم ، فهذا قدره ، وإن كانت مقاومته عبثا ، فهى من قبيل ما كتب على « سيزيف » فى أساطير اليونان ، يصعد بالكرة إلى أعلى الجبل ، ولكنها لاتلبث أن تتدحرج إلى سفحه ، فيعدو إليها ليعود بها من جديد إلى القمة فتفلت منه إلى السفح من جديد .

وعقيدة ثالثة ترى الخير والشر عنصرين متكاملين كأنهما الليل والنهار ، أو الشهيق والزفير ، لاتكمل الحياة بدونهما ، فالخير ينقضه الشر ، ليأتى خير أكمل ، لينقض من جديد . ولا معنى للحياة إلا بنقض أحدهما الآخر ، وتعاقبهما ، لتكون حياة أكمل .

أما الإسلام فينظر إلى نفس الإنسان ، كما سبق القول، على أنها مستودع قوى الكون الذى يعيش فيه الإنسان فهى أقوى من الوجود المادى ببحاره وأنهاره وأمواجه وأبراجه وزلازله وبراكينه وسيوله وأعاصيره ، فالمؤمن الذى يطيع ربه يكون ربانيا ، يقول للشىء كن فيكون ، والنفس الإنسانية تذكر فى القرآن قرينا لآفاق الكون فى أكثر من موضع : ( وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون )[1] ، ( سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ) وآخر الأمر أن التغيير يدعه الله للنفس الإنسانية : ( إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ) .

ومن هنا ليس هناك شر محض ، ولا خير محض ، بل لعله لا شر قط ولا خير قط ، وإنما هناك نفس صالحة مؤمنة ونفس ضالة كافرة . ومن هنا أيضا يغفر الله الذنوب جميعا إلا أن يشرك به ، ( إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ) ذلك لأن الشرك بالله هو قفل نوافذ النفس الإنسانية فى وجه الكون كله ، فالشرك هو الجهل فى أقبح صوره ، لأنه يسد الطريق فى وجه الفضائل الإنسانية الأولى : العدل ، والصدق ، والإخاء ، والمساواة .

---

( ١ ) سورة الذاريات ٢٠ ، ٢١ .

وبعد ذلك يتدرج الإنسان فى مدارج القوة والسعادة ، بمقدار نصيبه من العقيدة الصالحة ، فيستحيل الكون خيراً وتزول الشرور ، وتصبح ظواهر الكون العظيم آيات الله للإنسان ، عليه أن يتدبرها ، وينتفع منها ، لا على اعتبار أنها كوارث صادرة عن كون أعمى ، يخبط بغير نظام .

قال الله تعالى : ( وعسى أن تكرهوا شيئًا ، وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم ) (١) .

فما يكرهه الإنسان ويحسب فيه أذاه قد يكون خيراً له ، ينفعه أو يقويه ، أو يرد عنه أذى لا يعلمه ولا يدريه ؛ وما يحبه الإنسان ، ويحرص عليه ويتشبث به ، قد يرديه أو يشقيه ، أو يهيئ له ضرًّا لا يخطر له على بال .

وفى موضع آخر من القرآن ، هو الآية التاسعة عشرة من سورة النساء ، يبدو هذا المعنى أكثر جلاء ووضوحًا :

( فعسى أن تكرهوا شيئاً ، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ) .

فهذه الآية الكريمة زادت وضوحًا مقدار ما قد يقع فيه الإنسان من خطأ فى تقدير الشرور والخيرات ، فهو لا يكره شيئًا ينفعه فقط بل يحرم نفسه من شىء فيه خير كثير له .

فالخير والشر إذن أمران مردهما تقدير الإنسان إياهما ، فإذا أخطأ ولم يحسن التقدير كان الشر فيما ظنه خيراً ، والخير فيما ظنه شرًّا فإذاً ما يحتاج إليه الإنسان ، هو المعرفة السليمة والتقدير الحسن ، حتى لا يؤذى الإنسان نفسه من حيث أراد لها الخير ( وما أصابك من سيئة فمن نفسك ) (٢) .

وفى القرآن موضعان آخران لا يكمل القول بغير الرجوع إلى قول الله تعالى فيهما . أول الموضعين الآية ١٦٨ من سورة الأعراف :

---

(١) سورة البقرة : ٢١٦ . (٢) سورة النساء : ٧٩ .

( ونبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ) ، وثانى الموضعين الآية الخامسة والثلاثون من سورة الأنبياء ( ونبلوكم بالشر والخير فتنة ) .
فالخير والشر فى ضوء هذه الأحكام السماوية مبعثهما نفس الإنسان ، ومقدار علمه ، ونصيبه من العقيدة الصالحة ، فالسلاح الذى يدفع به الإنسان عن نفسه الأذى ، هو نفس السلاح الذى قد يقتل به الإنسان نفسه أو أحب الناس إليه ، عمداً أو خطأ ، والآلة التى يمهد بها الإنسان الأرض ، هى الآلة التى يمكن أن يقصم بها ظهر الحيوان الذى يعينه ، والطعام الذى يمنحه القوة والصحة ، يمكن أن يكون الطعام الذى يسبب التخمة ، فالمرض فالموت .

فالله يبتلى الإنسان بالسلطان والثروة والنفوذ ، وجمال الوجه ، وحب الناس وكثرة العلم ؛ إذ قد يكون له من وراء كل هذه الخيرات شرور ، وأذى كبير . كما يبتليه بالضعف والمرض والجهل والفقر ويكون له من وراء ذلك خير كبير .

**فى الأولى** : قد يبطره الجاه والمال ويدخل فى قلبه الغرور ، ويضيع عليه فرصاً ويجلب عليه كراهية الناس ، فيفقد كل ما جمع .

**وفى الثانية** : قد يدفع شعور الإنسان بجهله إلى طلب العلم ، ويدفعه الفقر إلى التواضع وتآلف الناس ، وضبط النفس واحتمال مشقات الحياة .

وما يحدث للأفراد يحدث للجماعات . فكم من جماعة ابتليت بموقع من الأرض جدب ، فأحسنت رعايته ، واستخرجت منه الكنوز والثروات ، وأخرى أصابت موقعاً غنياً وسخياً ، أفاء عليها فيه الله ، فأورثها الرخاء والترف والرخاوة والاستهانة ، فغلبها على أرضها أقوام آخرون أجلاف لا نصيب لهم من العلم والمدنية . وهذا هو قانون الحضارة الدائم : أمم تعلو بجدها وصبرها ، وتقوى بتماسك أبنائها ، وتحملهم المشاق ، فإذا حققت الثروة والجاه ، غفلت عن سلاحها ، وأهملت

علمها ، فإذا هي لقمة سائغة لغيرها ممن هم أقل منها علماً وثروة ، وأكثر منها جلداً وصبراً .

وفى القرآن آيات كثيرة ، تذكر المسلمين بهذا القانون ، وتعرضه فى أكثر من صيغة (أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة )(١) ، (أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً فى الأرض ، فأخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق )(٢) . (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون)(٣) .

وهذا هو القانون الذى يفسر به «توينبى» المؤرخ الإنجليزى التاريخ العام كله ، ويسميه قانون «التحدى» فمن نزل به شر ، سواء كان ضيقاً فى الرزق ، أو فقراً فى الأرض ، أو ابتلاء بجار لا يكف عن العدوان ، حفزه هذا المكروه ، أو ذلك الشر ، إلى تجميع قوته ، واستثارة كامن مواهبه ، ليعلو عليها وينجو منها ، فإذا هو أحسن حالا ، وأقوى مما كان ، وأقدر على الحياة .

ودلالات التاريخ القديم والحديث ، ودلالات حياة الأفراد الكبار والصغار تؤيد هذا القانون القرآنى ، فأهل المناطق الباردة التى لا ينقطع فيها هطول الأمطار ، وإظلام الضباب ، وتنطفئ فيها الشمس ، وتهبط درجة الحرارة إلى ما دون الصفر بكثير ، تطيب فيها الحياة ، ويحلو مذاقها ، وتزدهر فيها الفنون ، وتؤتى ثمارها ، ويضطرد فيها سير العلوم وتزكو آثارها عن بلاد أحسن أرضاً ، وأطيب جواً .

---

(١) سورة فاطر : ٤٤ . (٢) سورة غافر : ٢١

(٣) سورة غافر : ٨٢ .

فالإنسان ، بفضل عقيدة القرآن ، ليس عنصراً ضعيفاً لا حول له ولا قوة ، أمام عالم أعمى ، لا سبيل إلى التفاهم معه ، أو تحقيق الأمن فيه ، بل إن الإنسان يملك مصيره ، ويشق فى هذا الكون طريقه ، وبقدر إيمانه يعلو على ما يبدو شراً مستطيراً ، أما هذا العالم ، بشقيه الظاهر والباطن ، فخاضع للإنسان ، إن عرف كيف يهتدى إلى مقاليده ومفاتيحه ، بفضل إيمانه بنفسه وإراداته فى طلب العلم وتحصيله، فالله تعالى يقول لنا : (وسخر لكم الأنهار) [١] ، (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) [٢] ، (وسخر لكم الليل والنهار) [٣] ، (الله الذى سخر لكم البحر) [٤] ثم (ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض) [٥] . ليس إذن الكون المادى الذى يحيط بنا عدواً لنا ، وإن أصابنا من بعض ظواهره كوارث ، فحسب الإنسان أن يتأمل ، ويدرس ، ويتعلم ، حتى يمكنه أن يتقى هذه المصائب المدلهمة ، ثم يحولها إلى خير كثير . والعلم يثبت لنا صحة هذا النظر .

وإذا عرف الإنسان صلة الشر والخير بنفسه ، كما عرف صلته بهذا الكون المسخر له ، وأدرك أن عقيدته ، ومقدار إيمانه ، هو الذى يحقق له الخير أو يوقعه فى الشر ، بدت له الحياة جديرة بأن تحيا ، وبدت له صعابها ومشاقها ، خليقة بأن تحتمل لتدرس ، ثم لتتقى ، ثم لتستحيل مصدراً للنعم . وأخيراً بدت له الحياة ذات معنى وأنها ليست عبثاً لا طائل تحته ، وأن معناها هذا خليق بأن ينجينا من شدة الفرح بما تحقق من خير ، ومن شدة الجزع لما يصيبنا من ضر : (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم) ، فهذه التقلبات امتحان مستمر للإنسان ، ليسبر غور نفسه ، وليقيس قوته وقدرته ، وليستخرج من

---

(١) سورة إبراهيم : ٣٢ .
(٢) سورة إبراهيم : ٣٣ .
(٣) سورة الجاثية : ١٢ .
(٤) سورة لقمان : ٢٠ .
(٥) سورة لقمان : ١٢٠ .

أعماقها مزيداً من خيراتها وفضائلها التى قد يبقى جاهلاً إياها مغضاً من قدرها ، حتى تكشفها له الأحداث ، وتريها إياه المحن .

ولكن هذه الحياة لا تستمد معناها منها نفسها ، إذ أنها ليست سوى الطريق إلى حياة أعلى منها شأناً ، وأكبر منها معنى ، تلك هى الحياة الأخرى ، هذه الدار الأخرى عند المسلم استحثاث مستمر دائب لا ينقطع لخطاه نحو الكمال والتسامى ، ولا نهاية لهذا السعى ، ما دامت الحياة متصلة ، وما دام كل عمل مهما صغر له جزاؤه فى هذه الدنيا ، وفى الآخرة على السواء :

ولهذا فالدعاء — دعاء المسلمين ، كما علمنا القرآن : ( ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ) .

والصلة بين الدنيا والآخرة ، فى الإسلام ، صلة غاية فى اللطف ، ولهذا تخفى على غير المسلمين ، وتخفى أحياناً على بعض المسلمين ، فإن هؤلاء وأولئك يرون فى القرآن ذماً فى الإقبال على الدنيا ، والانصراف إليها : ( وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ) ، (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى) ، ( وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ) فالقرآن لا يزال يذكر المسلمين بأن ما فى الدنيا زائل وفان ، ولا قيمة له لكنها كذلك — إذا قورنت بما فى الآخرة ، وبما عند الله ، وبالجهاد فى سبيل المبادئ التى تجعل حياة الإنسان — أفضل وأنقى وأجمل . ولكن الدنيا فى ذاتها ، ليست مهملة ، ولا منسية عند المسلمين لأن قانون المسلمين ( وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ) و « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

وفى هذين الأثرين تكاد تتساوى الكفتان ، فكأن الدنيا والآخرة ندّان ، وهما ندّان طالما اتصلت أولاهما بأخراهما ، أما إذا كانت الدنيا عالماً قائماً بذاته يقف الناس عنده بآمالهم وهمومهم وسعيهم وتفكيرهم ، فهى فى هذه الحال دار لعب ولهو ، وهى متاع الغرور ،

وهى متاع قليل ، بل إنها شر مطلق ، فالحكم على الدنيا ، وخيرها وشرها ، فرع من قانون الخير والشر فى الإسلام، فما قصد من الدنيا خيرها الزائل من متع البدن ، والثروة والأولاد والأموال ، وحب الشهوات فهى مفضية إلى الجحيم والخسران ، أما إذا كانت الدنيا مقدمة للآخرة فقد أصبحت داراً جديرة بأن يرعاها الإنسان ، ويزيد من جمالها ، ومن أمنها ، وخيرها ، لأنه لن يصيب خيراً فى الآخرة إلا بعمل فى الدنيا ، إذ لايستطيع الإنسان أن يقفز إلى الآخرة من فوق الدنيا فإنها الطريق إليها ، ولا طريق سواها . فالصلة إذن بين الدنيا والآخرة وثيقة إلى أقصى حد ، والمسلمون مطالبون بأن يجعلوا دنياهم على نسق أخراهم . أن يجعلوها دار محبة ، لا جدال فيها يفضى إلى الشحناء ، ولا أحقاد ، ولا تعطيل لمصالح الناس ، ولا أذاهم باللسان أو باليد أو حتى بالخاطرة تمر فى الرأس .

والأمثلة على ما نقول كثيرة ، نجتزئ بأوضحها دلالة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يثاب المرء على اللقمة حتى يرفعها إلى فى امرأته » وقال رسول الله يوماً لبعض أصحابه : « فى وضع أحدكم صدقة» والوضع هو ماء الرجل يقذف به عند المعاشرة الزوجية . فقال أصحاب رسول الله : يا رسول الله ، أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ فقال : « نعم أرأيتم إذا وضع فى حرام أيكون عليه وزر ؟ ( قالوا : نعم ) . قال : كذلك إذا وضعه فى حلال يكون له أجر » .

ومن هذين الأثرين يظهر جلياً أن ما يبدو شديد الصلة بالحياة الدنيا ، من لقمة تؤكل ، ومن لقاء بين الزوجين يتم ، وهو ما يبدو فى الوقت نفسه منقطعاً عن الحياة الأخرى ، التى هى حياة الأرواح التى فرغت من هموم الدنيا ولذائذ البدن ـ. هذا الذى يبدو دنيوياً غير روحى ، وغير أخروى ، هو بميزان الإسلام ، عمل صالح ، فسيكون له جزاء فى الدنيا وفى الآخرة ، إذ أن كل ما يسبب للناس فى الدنيا ،

راحة أو متعة أو نفعـًا ، وما ييسر لهم صعبـًا أو يقرب لهم بعيداً ، أو يوضح لهم غامضـًا ، أو ينفى عنهم أسباب الفرقة والشقاق هو عمل أخروى له جزاء فى الدار الآخرة .

فالثواب ليس وقفـًا على العبادات بأنواعها ، لأن العبادة فى الإسلام ليست الصيام والقيام والإنفاق والحج ، قال رسول الله يومـًا : « إن من الذنوب ذنوبـًا لا يكفرها الصيام ولا القيام » فقال أصحابه : وما يكفرها يارسول الله : قال : « الهموم فى طلب العيش » .

ومن قبيل هذا : « لمداد تريقه أقلام العلماء خير من دماء الشهداء » .

وفى هذا المعنى ماروى عن رسول الله من أن الناس تحدثوا إليه عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل فقال : « ومن يقوم عليه ؟ » أى من يوفر له أسباب العيش ؟ قالوا : أخوه . قال : « أخوه أعبد منه ؟ »

ولقد نهى الرسول صحابته أن يصوموا فلا يفطرون ، أو أن يقوموا الليل كله فلا ينامون ، أو يهجروا الناس ، وقال : « أنا أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام وأتزوج النساء » .

وقد قال لنا الله تعالى فى سورة الجمعة : ( يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ، وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ) ، فالتجاور الشديد بين الصلاة والانتشار فى الأرض ، مما يشعر بتكامل العملين وعدم انفصال أحدهما عن الآخر ، وقد قال الله تعالى أيضاً : ( قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ) ، وهو سؤال يستنكر فيه الله تعالى هذا التحريم لزينة الحياة وطيباتها ، لأن دنيا المسلمين ، هى دنيا الجمال ، والأناقة ، دنيا العاملين الذين يجتمع فى عملهم النشاط ، ولطف المعاملة .

فالحياة الدنيا ، إن كانت استكثاراً للأموال وتفاخراً بالأولاد ،

واستعلاء على الناس ، ونسياناً لما يدعو إليه القرآن فى كل خطوة ، وفى كل حركة ، من إقامة العدل ، وإشاعة الرحمة ، وإذاعة العلم ، وصلة الرحم والأخذ على يد الظالم ، فهى الخسران والبوار .

وفى هذا المبدأ الذى يصل الدين بالدنيا ، والأولى بالآخرة ، يصبح الإنسان كلاً لا ينفصل ، فليس فى الإسلام روح بلا بدن ، ولا بدن بدون روح ، وليس هناك حاجيات للإنسان روحية ، وأخرى مادية ، فكل عمل مادى بحت ، كطعام يؤكل أو شراب يشرب ، أو امرأة يتزوجها ، أو بناء يقيمه ، أو تجارة يديرها ، أو مساكن يرضاها كل أولئك له جانبه الروحى ، وهو لا ينسى ، لأن العبادة فى ذاتها شديدة الاتصال بالجانب المادى لحياة الإنسان ، فهى لا تصقل روحه ولا تنقى قلبه فقط ، وإنما تقيم حياته اليومية ، على أسس أكثر سلامة وتعينه على أن يربح ، وعلى أن تزداد الحياة ، لطفاً وأناقة وجمالا ، ولهذا جاء فى الأثر : «إن لبدنك عليك حقاً» وجاء فيه : «إن مصلحة الأبدان قبل مصلحة الأديان» ، و« إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » .

من كل هذا لم يكن ممكناً أن يصيب المجتمع الإسلامى ، ما أصاب غيره من المجتمعات من التصدع بسبب هذا الصراع بين الفرد والجماعة ، فالمذاهب الفردية تعلى من شأن الفرد ، ولا تطيق أن تمس حريته ، أو ينتقص ماله ، وترى الفرد هو الغاية من كل قانون ، وركن الزاوية فى كل نظام ، وتحسب أن تنافس الأفراد الحر الطليق ، هو الذى يؤدى إلى زيادة الثروات ، ونمو الطاقات ، وازدهار الأفكار والابتكار ؛ وأن الأفراد السعداء الأقوياء هم الأفراد الأحرار ، وأن الجماعة السعيدة هى التى تتكون منهم .

أما المذاهب الاجتماعية ، فترى ان الأفراد ، إذا أطلقت لحريتهم العنان ، فقد استحالت حياتهم إلى فناء ، إذ أن الفرد يجب أن يستزيد

من المال ، بأى سبيل ، وأن يحصل على القوة بكل وسيلة ، وعندها سيداس الفقراء والضعفاء بالأقدام ، ومن هنا لن تقوم فى المجتمع سعادة ، بغير نظام يقدم مصلحة المجموع على الفرد ، ويحدد الحريات ، ويوقفها إذا اقتضت المصلحة ، ويوجه الثروات ويصادرها ، إذا لم تكن ثمة وسيلة غير المصادرة للإصلاح . أما الإسلام ، فقد أعلى قدر الإنسان ، وحمى شخصه ، وماله ، ومسكنه ورأيه ، من عدوان العادين ، ولكنه أخرج الإنسان منذ مولده اجتماعياً يحب الجماعة ولا يراها عدواً له ، فقد قال رسول الله : « يد الله مع الجماعة ، والشيطان مع الفذ » ، وقد قال العباس عم الرسول للرسول عليه الصلاة والسلام : لو نقيم لك عرشاً ، فإن الناس قد آذوك ، فقال : « والله لا أزال بين ظهرانيهم ينازعوننى ردائى ، ويصيبنى غبارهم حتى يريحنى الله منهم » .

فالرسول ، وللمسلمين قدوة حسنة فيه ، كان يرى أن مكانه هو بين الناس ، لا يبتعد عنهم ولا يقوم بينه وبينهم حاجب يحجبه عنهم ، فعلموا أن المسلمين يجب أن يعيشوا معاً يتقاسمون السراء والضراء ، وقد حفظوا عن قرآنهم : ( إنما المؤمنون إخوة ) ، وعلموا من الرسول أنه لا يكمل إيمان أحدهم ، حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وأن مثل المسلمين فى توادهم وتراحمهم ، كالجسد إذا اشتكى عضو منه ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى . وبفضل هذه الروح الجماعية ، عند أفراد المسلمين كانت الجماعة محببة إليهم ، ليست عدواً لهم ، ولا شيئاً منفصلا عنهم ، كما هى مثلا فى المذاهب الشمولية أو الكلية فى أوربا الحديثة ، كالفاشستية والنازية ، فقد قال « ألفرد روكو » وزير العدل فى حكومة موسولينى : « إن الجماعة فى المذهب الفاشستى ليست مجموعة الأفراد ، وإنما هى كائن مستقل عنهم ، منفصل عن وجودهم ، له ذمة خاصة به تتراكم فيه وتجتمع حصيلة التراث السابق على مولد هؤلاء الأفراد ، والذى يستمر بعدهم »

أما الجماعة في الإسلام ، فهي المصلحة العليا للأفراد ، ولكن يحكمها الدين الإسلامي ، أي عقيدة الإسلام ، كما تحكم كل فرد منهم ، فليس للجماعة حق ليس للأفراد ، فهي لا تستبيح حرمات الناس ، وهي لا تقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وهي لا تمثل بالأحياء ولا بالموتى ، لأن الحاكم المسلم كالفرد كلاهما خاضع لحكم الإسلام ، فإن خرج عليه جاز محاكمة الحاكم ، وعزله ، بل الحكم عليه بالموت . فدولة المسلمين لا يحق لها كغيرها من الدول أن تطارد الأفراد ، وتتجسس عليهم ، بل إن المواثيق والعهود ، تربطها كما تربط أي فرد ، فقد قيل يوماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن جماعة من غير المسلمين ارتبطت معهم بميثاق تتهيأ لنقض العهد والانقضاض على المسلمين ، فلم يأذن للمسلمين أن يبادئوها بالخيانة أو يسبقوها إلى الغدر ، وقال : أوفوا لهم واستعدوا » ومن هنا لم يقم بين المسلمين في عهود دينهم المشرقة ، ما قام في ظل الدول الأخرى من صراع دام بين الأفراد والدولة ، أو بين الحاكم والمحكوم ، وهيأتهم العبادات الجماعية من صلاة الجماعة والصلاة الجامعة يوم الجمعة ومؤتمر المسلمين الشامل في يوم الحج ، أن يتشربوا روح الجماعة ، وأن يتعلقوا بها ، وأن يتحاشوا ما استطاعوا أن يخرجوا عن سبيل المسلمين متذكرين قول الله تعالى : ( ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا ) .

وبهذا كله تصبح دنيا المسلمين دنيا سلام حقاً ، سلام يشمل الفرد والجماعة ، ويشمل الحاكم والمحكوم ، ويسود علاقة المؤمن بنفسه ، وعلاقته بربه ، وعلاقته بالكون الفسيح الذي يزداد له كل يوم فهماً ، وعليه سلطاناً ، فيزداد معرفة ، وعلماً وطمأنينة وسلاماً .

# أضعف الإيمان

جاء فى الحديث الشريف : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وهذا أضعف الإيمان » .

ويحسب بعض مفسرى هذا الحديث ، أن الصفة هنا ترجع إلى الإيمان ، والواقع أن الموصوف هنا هو الوسيلة التى يتوسل بها الإيمان لا الإيمان نفسه . فالمؤمن الذى يغير المنكر بقلبه ، كالمؤمن الذى يغيره بيده سواء بسواء ، وإيمان الأول ، كإيمان الأخير لايشوبهما ضعف ولا يلحقهما وهن . كلاهما مؤمن قوى تقى ، نهض بواجبه وأبرأ ذمته ، وعلى الله جزاؤهما وثوابهما .

والدليل على ما نقول أمران :

أولهما : القاعدة الشرعية الأساسية :

( لايكلف الله نفساً إلا وسعها ) . .

وثانيهما : الحديث الشريف : « أفضل الإيمان شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناه إماطة الأذى عن الطريق » .

فمن القاعدة الأولى نعلم جميعاً أن آيات القرآن الكريم توالت على أن الإنسان يحاسب على ترك الحسنة وإتيان السيئة فى حدود قدرته واستطاعته ، فمن تعدى عن فعل الخير ، أو واقع الشر عن عجز أو إكراه فلا إثم عليه ، والله غفور رحيم ، وهو حكم تقضى به البداهة ، ولذلك جاءت شريعة المسلمين لتؤيده ولتبنى أحكامها على أساس منه ، لأن الإسلام هو دين الفطرة ، أى دين البداهة السليمة التى لاتصادم منطقاً مستقيماً ، ولا تعارض مصلحة ظاهرة ، فالإسلام يرى أن تحميل الناس ما لا يطيقون وتكليفهم مالا يستطيعون ، أمر لايصدر عن عاقل ، وشر

لاينجم عنه إلا شر أكبر منه . بل إن الإسلام لا يقنع بأن تدور أحكامه ، وأوامره ونواهيه مع الاستطاعة والقدرة إذ أنه لايدع باباً من التخفيف أو التيسير إلا فتحه ، لحمل الناس على أحكامه ، عن طواعية واختيار ليتدرجوا هم أنفسهم إلى ما فيه المشقة حتى يبلغوا ، ما يسميه الإسلام « الإحسان » .

فقاعدة « لايكلف الله نفساً إلا وسعها » كأصل أصيل فى التشريع والتقويم والهداية ، تأكدت بقوله تعالى ( فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم ) (١) ، ( ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ) (٢) ، ( ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لايجدون ما ينفقون حرج ) (٣) .

وفى القرآن آيات تفصل هذا المبدأ ، وتطبقه ، ففى سورة التوبة ( لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ) ففى هذه الآية لم يفضل المؤمنين المجاهدين على من عداهم من المؤمنين ، إلا أن يكون المؤمن الذى قعد عن الجهاد خالياً من العجز ، قادراً على الجهاد ، ولذلك جاء وصف ( غير أولى الضرر ) تطبيقاً للقاعدة العامة وقد روت لنا سورة التوبة أيضاً حكاية هؤلاء المجاهدين الفقراء الذين أرادوا أن يجاهدوا ، ولكن حال دون هذه الإرادة أنهم لم يجدوا دابة تحملهم ، ولم يجد الرسول لهم ظهراً ، ينقلهم إلى ميدان القتال ، فخفف عنهم القرآن ، وأذهب عنهم الحزن ، وأكد لهم أن ثوابهم لن يضيع . قال الله تعالى ( ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ) ، وفى سورة النحل : ( من كفر بالله من

(١) سورة النحل . (٢) سورة البقرة .
(٣) سورة التوبة .

بعد إيمانه — إلا من أكره — وقلبه مطمئن بالإيمان) ، فحتى إعلان الكفر ، وهو أكبر الآثام ورأس المعاصى ، مغفور ما دام عن إكراه ، لاعن اقتناع مستقر ، ونفس مطمئنة إلى الكفر .

وإلى جانب هذا تأتى أحكام التيسير التى هى جزء من الشريعة لا يتجزأ منها ولا ينفصل عنها ، تطبيقاً للحديث : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه ، كما يحب أن تؤتى عزائمه » ومن هذه الآيات ( يريد الله أن يخفف عنكم )[١] ، ( وما جعل عليكم فى الدين من حرج )[٢] ، ( يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر )[٣]

أما الحديث الشريف : « أفضل الإيمان شهادة أن لا إله إلا الله وأدناه إماطة الأذى عن الطريق » فعبارته قاطعة الدلالة على أن المقصود فى لغة الحديث النبوى بأفضل الإيمان وأدناه ، هو الأعمال التى يهدى إليها الإيمان ، فالحديث لا يفاضل بين إيمان وإيمان ، وإنما بين عمل وعمل ، أو قول وعمل ، أو قول وقول ، وكلها مما يأمر به الإيمان أو يدعو إليه ويحبب فيه ويعين عليه ، ولكن هذه الأعمال فى ذاتها تتفاوت فضلا ونفعاً للناس ، كما تتفاضل من حيث إنها أسرع إلى تحقيق الخير ، وأفعل فى رد الشر .

ومن ثم يكون المؤمن الذى رأى منكراً فود أن يغيره بيده ، فعجز عجزاً حقيقياً ، ثم أراد أن يغيره بلسانه فاستحال ذلك أيضاً عليه ، فغيره بقلبه ، فى مثل إيمان الذى أراد أن يغير المنكر بيده فأعانه الله على ذلك ووفق إلى ما أراد . ولكن لابد أن يكون العجز حقيقياً لا مدعى به ، وأن تكون نية المؤمن ، قد انصرفت إلى رد الشر ، وفعل الخير ، إيماناً واحتساباً لا مراءاة للناس ، والتماساً للمعاذير ، ورداً للتهمة . أما إذا كان الاعتذار بالاستحالة أو عدم الاستطاعة ، التماساً للنجاة ، وحرصاً

---

(١) سورة النساء .
(٢) سورة الحج .
(٣) سورة البقرة .

على الحياة فهذه صفة المنافقين ، لأن المؤمن الصادق لايدخل فى حسابه ولا يشغل باله رأى الناس ، فلايهمه أن يقولوا عنه أبلى فأحسن البلاء ، أو تقاعس ولم يؤد الأمانة ، لأنه — من وحى إيمانه — لايقنع بأقل من الكمال ، ولامتخل حتى يبذل النفس وكل المال . وفقهاء المسلمين يتفقون على أن إزالة الشر باليد واجبة ، ما لم تؤد إلى شر أكبر منها ، والأمر موكول إلى المؤمن ليستفتى قلبه ، فإن رأى إزالة المنكر باليد مستطاعة — ولو مع المشقة — وأنها لاتؤدى إلى شر أكبر منها أقدم ، فإن وفق فبها ونعمت ، وإلا فقد اجتهد وله أجر الاجتهاد . وقد جرى الناس على أن يقللوا من قدر إزالة المنكر بالقلب ، هذا إن فهموا معناها . والواقع أن إزالة المنكر بالقلب ، لاغنى عنها لمن أراد أن يزيل منكراً بيده أو بلسانه ، فاليد واللسان خادمان مطيعان للقلب ، يأتمران بأمره ، ويستمدان منه القوة وقد لايبلغان مبلغ قوته ، فليس كل مؤمن مقاتل يحسن استعمال السلاح ، وليس كل مؤمن قؤولا فصيحاً ، وإن كان المؤمن يجد فى إيمانه ، ما يعوض النقص فى الكفاية فى معالجة فنون الحياة ، وأساليب القتال ، وطرائق القول والأمانة . وإزالة المنكر بالقلب ، هى رفض لهذا المنكر ، ولعنه فى الليل والنهار والضيق به فى السكنة والحركة وانتظار الفرصة المواتية ، لإزالته باليد أو شجبه على الأقل باللسان ، والتنديد به ، ، والإهابة للعمل ضده . وما تغير فى أحوال الناس شىء إلى خير ، ومازال عن الناس شىء من الشر إلا إذا انعقدت قلوبهم على إزالته ، فإذا أصبحوا رأوا أنفسهم — من غير حديث أو اتفاق — قد أجمعوا على المناداة بسقوطه ، ثم الاستعداد للقتال للقضاء عليه والخلاص منه . والعجيب فى إيمان القلوب أن له إشعاعاً ، لا يمكن كتمانه أو إخفاؤه ، أو إقامة السدود فى وجه اتساعه ، وإيمان القلوب شىء غير هذا القول اللسانى ، الذى يتناجى به الناس عند نزول المكروه بهم من ظلم أو فساد ، فقد تكون هذه المناجاة سبيلا إلى تثبيط الهمة ،

وصرف الناس عن العمل ، لأنها قول يراد به إزجاء الفراغ ، أو ادعاء المجاهدة فى سبيل الخير . . والحق أنه لاتوجد فى قوى هذا الكون ، قوة تعلو على الإيمان ، أو تغلبه ، ولو كانت قوة منبعثة من البارود والنار ، أو من الكهرباء والبخار أو منطاقة من الطاقة الذرية ، أو ثمرة لقنبلة هيدروجينية ، وليس هذا الكلام شعراً إنما هو حقيقة علمية محسوبة بالأعداد والأرقام ، ومرسومة فى جداول وكشوف ، لعل قوة الإيمان مردها أنها قامت عند المسلمين وعند كل المؤمنين على الاقتناع العقلى بقدر ما قامت على نبض الوجدان وإشراقه ، فليس هو شعوذة ولاسحراً ، وإنما هو علم بما يحرك هذا الكون ويحكمه من قوانين تشمل آفاقه البعيدة بقدر ما تحكم نفس الإنسان ، الذى استخلفه الله وسخر له ما فى السموات والأرض جميعاً ولقد ساق إلينا العلم الحديث فى دنيا السياسة والاقتصاد لا فى دنيا الأديان والعقائد الدليل على أن القنابل الساحقة الماحقة ، قادرة على إزالة المدن وتقويض المصانع والجسور ، وقتل ألوف الناس فى جزء من ثانية ، ولكنها عاجزة أشد العجز عن تقوض الإرادة الإنسانية أو الفت فيها . لقد قتلت وأحرقت وأغرقت وأبادت ، قنبلتا هايروشيا ونجازاكى مائة ألف أو يزيد من اليابانيين ، فسلمت اليابان ، للولايات المتحدة وفى أقل من القليل استطاعت إرادة اليابانيين الحياة وإصرارهم على سبق العدو ، أن يعيدوا بناء ما تهدم ، وتعمير ما تخرب ، ثم على أن يكونوا أنداداً لمن أنزلوا بهم الهزيمة ، ثم أن يسبقوهم فى مجالات تفوقهم وتخصصهم : التجارة والصناعة ، حتى يكون مطلب الدولة الفائزة من الدولة المهزومة أن ترفع من قيمة عملتها عنواناً على سلامة اقتصادها ، ودليل الرفاهية والغنى . وحدث شىء مثل هذا فى ألمانيا التى ضربت قنابل الولايات المتحدة مدنها وأزالت مصانعها . لقد صدق رسول الله إذ قال : «ألا إن فى الإنسان لمضغة إن صلحت صلح ، وإن فسدت فسد ألا وهى القلب» .

# الحمد لله

يبدأ المصحف . بفاتحة الكتاب ، وتبدأ الفاتحة بلفظى ( الحمد لله ) . والمتفق عليه ، أن فاتحة الكتاب هى السورة الثانية التى نزلت كاملة بعد سورة « المدثر » التى نزلت بعد آيات ( اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ) ، فلماذا بدأ كتاب المسلمين بحمد الله ، ولم يبدأ مثلا بأن لا إله إلا الله ، وهو ما بعث به رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وما أمر بأن يقاتل الناس حتى ينطقوا بها ، معلنين أنهم يؤمنون بمدلولها ؟

وهل صحيح أن الحمد لله ، كما قال جميع المفسرين ، هى فقط الثناء الجميل على الله عزّ وجل : والإقرار بأنه مستحق للحمد على كل ما يحمد عليه سواه من الصفات والنعم ، أو أن لله حكمة أكبر : من أن نثنى عليه ، وعلى صفاته ، وعلى نعمائه ، إقراراً بربوبيته ، وإذعاناً لألوهيته ، وشعوراً بعبوديتنا لذاته ، وخضوعاً لأحكامه وآياته . لننظر أولا إلى ما قاله المفسرون وهو فى جملته متشابه .

جاء فى القرطبى . عن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قال العبد الحمد لله قال صدق عبدى ، الحمد له » . وعن أنس : « إن الله ليرضى عن العبد ليأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها » . وعن أنس أيضاً : « ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذى أعطاه أفضل مما أخذ » . وعن أنس كذلك : « لو أن الدنيا بحذافيرها بيد رجل من أمتى ثم قال الحمد لله لكانت الحمد لله أفضل من ذلك » . وشرح ذلك أبو عبد الله فقال : معناه عندنا أنه قد أعطى الدنيا . ثم أعطى

على أثرها هذه الكلمة حتى نطق بها ، فكانت هذه الكلمة أفضل من الدنيا كلها ، لأن الدنيا فانية ، والكلمة باقية ، هى من الباقيات الصالحات ،وقيل فى بعض الروايات : لكان ما أعطى أكثر مما أخذ. فصير الكلمة إعطاء من العبد ، والدنيا أخذاً من الله ، فهذا من التدبير . كذلك يجرى فى الكلام أن هذه الكلمة من العبد ، والدنيا من الله ، وكلاهما من الله فى الأصل، الدنيا منه والكلمة منه ، أعطاه الدنيا فأغناه، وأعطاه الكلمة فشرفه بها فى الآخرة » .

وروى ابن ماجه عن ابن عمران : أن عبداً من عباد الله قال : يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فعضلت بالملكين ( صعب فهمها على الملكين ) فصعدا إلى السماء وقالا : يا ربنا إن عبدك قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها ، قال الله عزوجل — وهو عالم بما قال عبده — ماذا قال عبدى ؟ قالا : يا رب ، إنه قد قال : يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك، فقال الله لهما اكتباها كما قال عبدى ، حتى يلقانى فأجزيه بها » .

وعن أبى مالك الأشعرى : الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله ، والحمد لله تملآن ، أو تملأ ما بين السماء والأرض » .

وقال القرطبى : اختلف العلماء أيما أفضل : قول العبد : الحمد لله رب العالمين ، أو قول لا إله إلا الله ؟ فقالت طائفة : قوله الحمد لله رب العالمين أفضل ، لأن فى ضمنه التوحيد الذى هو لا إله إلا الله ، ففى قوله الحمد لله توحيد وحمد ، وفى قوله لا إله إلا الله ، توحيد فقط . وقالت طائفة : لا إله إلا الله أفضل ، لأنها تدفع الكفر والإشراك ، وعليها يقاتل الخلق ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت بأن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ».

ثم قال القرطبي : والحمد فى كلام العرب معناه الثناء الكامل ، والألف واللام لاستغراق الجنس من المحامد ، فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى ، والصفات العلا .

وقد ذهب أبو جعفر الطبرى وأبو العباس المبرد — على حد رواية الطبرى — إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد ، وقال بعض العلماء إن الشكر أعم من الحمد ، لأنه باللسان والجوارح والقلب ، والحمد إنما يكون باللسان خاصة ، وقيل الحمد أعم ، لأن فيه معنى الشكر ومعنى المدح ، وهو أعم من الشكر ، لأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد ، وروى عن ابن عباس أن « الحمد لله كلمة كل شاكر ، وأن الله قال لنوح عليه السلام ( فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين ) ، وقال إبراهيم عليه السلام ( الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق ) ، وقال فى قصة داود وسليمان : ( وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ) ، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم ( وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ) ، وقال أهل الجنة : ( الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ) ، ( وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ) ، فهى كلمة كل شاكر .

وعقب على ذلك كله القرطبي فقال : الصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان ، والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان . وعلى هذا الحد قال علماؤنا : الحمد أعم من الشكر ، لأن الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد ، وعلى الشكر ، والجزاء مخصوص إنما يكون مكافأة لمن أولاك معروفاً ، فصار الحمد أعم فى الآية لأنه يزيد على الشكر .

وقال شفيق بن إبراهيم فى تفسيره الحمد لله قال : وهو على ثلاثة أوجه : أولها إذا أعطاك شيئاً لتعرف من أعطاك ، والثانى أن ترضى

بما أعطاك، والثالث مادامت قوته فى جسدك ألا تعصيه. فهذه شرائط الحمد.

وأضاف القرطبي أن الله سبحانه أثنى بالحمد على نفسه ، وافتتح كتابه بحمده ، فمعنى الحمد لله رب العالمين ، أى سبق الحمد منى لنفسى ، قبل أن يحمدنى أحد من العالمين ، وحمدى نفسى لنفسى فى الأزل لم يكن بعلة ، وحمد الخلق مشوب بالعلل . وقيل لما علم سبحانه عجز عباده عن حمده ، حمد نفسه بنفسه لنفسه فى الأزل ، فاستفراغ طوق عباده هو محل العجز عن حمده . ألا ترى سيد المرسلين كيف أظهر العجز بقوله « لا أحصى ثناء عليك » .

وقيل : حمد نفسه فى الأزل لما علم من كثرة نعمه على عباده وعجزهم عن القيام بواجب حمده ، فحمد نفسه عنهم ، لتكون النعمة أهنأ لديهم ، حيث أسقط عنهم ثقل المنة .

والحمد لله ، تقرأ برفع الدال ، ويكون معنى الآية ، فى هذه الحالة ، أنها تتضمن خبراً معناه أن الحمد من قارئ الآية ، ومن جميع خلق الله ، أى أنه يقرر حقيقة استحقاق الله للحمد عن كل ما يحمد له سواه سبحانه ، ومن جميع خلقه ، فى حين أنه إذا قرأ الآية بفتح الدال ، كان معنى ذلك قوله « حمدت الله حمداً » فكان الحمد — بهذا المعنى — من القارئ وحده .

وقال قوم إنما نقول الحمد لله تعرضاً لعفو الله ومغفرته وتعظيماً له وتمجيداً ، فهو خلاف معنى الخبر وفيه معنى السؤال . وفى الحديث « من شغل بذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .

وقال الطبرى ، على حد رواية القرطبي أيضاً ، الحمد لله ثناء أثنى به على نفسه ، وفى ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه ، فكأنه قال : « قولوا الحمد لله » .

ويقول الطبرى : معنى « الحمد لله » الشكر خالصاً لله جل ثناؤه ، دون سائر ما يعبد من دونه ، ودون كل ما برأه من خلقه ، بما أنعم على

عباده ، من النعم التى لا يحصيها العدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد ، فى تصحيح الآلات لطاعته ، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه ، مع ما بسط لهم فى دنياهم من الرزق ، وغذاهم به من نعيم العيش ، من غير استحقاق منهم ذلك عليه ، ومع ما نبههم عليه ، ودعاهم إليه من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود ، فى دار المقام من النعيم المقيم ، فلربنا الحمد على ذلك كله أولا وآخراً .

وعن الحكم بن عمير : إذا قلت الحمد لله رب العالمين فقد شكرت الله فى أمرك . قال وقد قيل : إن قول القائل « الحمد لله » ثناء على الله بأسمائه وصفاته الحسنى ، وقوله « الشكر لله ، ثناء عليه بنعمه وأياديه » . وعن كعب « من قال الحمد لله فذلك ثناء على الله » . وعن الأسود بن سريع : ليس شىء أحب إليه من الحمد من الله تعالى ، والملك أثنى على نعمته فقال الحمد لله .

وقال أبو جعفر : ولا تمانع بين أهل المعرفة باللغة العربية من الحكم بالصحة لقول القائل : الحمد لله شكراً ، فقد تبين — إذا كان ذلك عند جميعهم صحيحاً — أن الحمد لله قد ينطق به فى موضع الشكر ، وأن الشكر قد يوضع موضع الحمد ، لأن ذلك لو لم يكن كذلك لما جاز أن يقال الحمد له شكراً فيخرج من قول القائل «الحمد لله» مصدر : الشكر ، لأن الشكر لو لم يكن بمعنى الحمد كان خطأ أن يصدر من الحمد غير معناه وغير لفظه .

وقيل إن دخول الألف واللام فى الحمد ، معنى لا يؤديه قول القائل حمداً بإسقاط الألف واللام ، وذلك أن دخولهما فى الحمد منبئ عن أن معناه جميع المحامد والشكر الكامل لله ، ولو أسقطنا عنه لما دل إلا على أن حمد قائل ذلك لله دون المحامد كلها ، إذ كان معنى قول القائل « حمداً لله . . أو حمد لله » أحمد الله حمداً ، وليس التأويل فى قول « الحمد لله رب العالمين » تالياً سورة أم القرآن : أحمد الله ، بل

التأويل فى ذلك ما وصفنا من أن جميع المحامد لله بألوهيته ، وإنعامه على خلقه بما أنعم عليهم به من النعم التى لا خفاء لها فى الدين والدنيا . والعاجل والآجل . ولذلك المعنى تتابعت قراءة القراء وعلماء الأمة على رفع الحمد من ( الحمد لله رب العالمين ) دون نصبها الذى يؤدى الدلالة على أن معنى تاليه كذلك أحمد الله حمداً ، ولو قرأ قارئ ذلك بالنصب لكان عندى محيلا معناه ، ومستحقاً العقوبة على قراءته إياه كذلك ، إذا تعمد قراءته كذلك ، وهو عالم بخطئه وفساده .

ثم قال : ما معنى قوله « الحمد لله » ؟ أحمد الله نفسه جل ثناؤه فأثنى عليها ، ثم علمناه لنقول ذلك ، كما قال ووصف به نفسه ؟ فإن كان ذلك كذلك ، فما وجه قوله تعالى ذكره ( إياك نعبد وإياك نستعين ) ؟ ، وهو عز ذكره معبود لا عابد ؟ أم ذلك من قيل جبريل أو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقد بطل أن يكون ذلك لله كلاماً .

قيل : بل ذلك كله كلام الله جل ثناؤه ، ولكنه جل ذكره حمد نفسه وأثنى عليها بما هو أهل له ، ثم علم ذلك عباده ، وفرض عليهم تلاوته ، اختباراً منه لهم ، وابتلاء . فقال لهم قولوا : ( الحمد لله رب العالمين ) وقولوا : ( إياك نعبد وإياك نستعين ) فقوله ( إياك نعبد ) مما علمهم جل ذكره أن يقولوه ويدينوا له بمعناه، وذلك موصول بقوله : ( الحمد لله رب العالمين ) ، وكأنه قال : قولوا هذا وهذا .

وقد أورد الشيخ محمد رشيد رضا ، ما ذهب إليه شيخه محمد عبده من أن الحمد الثناء باللسان ، وقيدوه بالجميل ، لأن كلمة ثناء تستعمل فى المدح والذم معاً ، يقال أثنى عليه شراً ، كما يقال أثنى عليه خيراً . ويقولون إن « ال » التى فى الحمد هى للجنس فى أى فرد من أفراده لا للاستغراق ولا للعهد المخصوص لأنه لا يصار إلى كل منهما

فى فهم الكلام إلا بدليل . وهو غير موجود فى الآية . وهذه الجملة خبرية ، ولكنها استعملت لإنشاء الحمد ، فأما معنى الخبرية فهو إثبات أن الثناء الجميل فى أى أنواعه تحقق ، فهو ثابت له تعالى وراجع إليه ، لأنه متصف بكل ما يحمد عليه الحامدون . صفاته أجل الصفات وإحسانه عم جميع الكائنات .

وأضاف الشيخ رشيد: التعريف المشهور بين العلماء للحمد: أنه الثناء باللسان على الجميل الاختيارى ، أى الفعل الجميل الصادر عن فاعله باختياره ، أى سواء أسدى هذا الجميل إلى الحامد أم لا . وأزيد عليهم أنه قد يحمد غير الفاعل المختار تنزيلا له منزلة الفاعل فى نفعه منه : إنما يحمد السوق من ربح ، وهذا هو المتبادر من استعمال اللغة . وحذف بعضهم قيد الاختيار ، ليدخل فى الحمد الثناء على صفات الكمال ، ولذلك حذف بعضهم الجميل الاختيارى بقوله سواء كان من الفضائل – أى الصفات الكمالية لصاحبها – أم الأفضال ، وهى ما يتعدى أثره من الفضل إلى غير صاحب الفضل ، والظاهر أن الحمد على الفضائل وصفات الكمال إنما يكون باعتبار ما يترتب عليها من الأفعال الاختيارية ، وما عدا هذا من الثناء يسميه العرب مدحًا يقال : مدح الرياح ، ومدح المال ، ومدح الجمال ؛ ولا يطلق الحمد على مثل هذه الأشياء. وقيل هما مترادفان .

وقال النسفى : « الحمد هو الوصف ابالجميل على جهة التفضيل . وهو رفع بالابتداء وأصله النصب ، وقد قرئ بإضمار فعله على أنه من المصادر المنصوبة بأفعال مضمرة فى معنى الإخبار كقولهم شكراً وكفراً » والعدول عن النصب إلى الرفع للدلالة على ثبات المعنى واستقراره والخبر لله .

واللام متعلق بمحذوف أى واجب أو ثابت ، وقيل الحمد والمدح أخوان ، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها ، تقول حمدت

الرجل على إنعامه ، وحمدته على شجاعته وحسبه .

وأما الشكر فعلى النعمة خاصة ، وهو بالقلب واللسان والجوارح . والحمد باللسان وحده ، وهو إحدى شعب الشكر ، ومنه الحديث « الحمد رأس الشكر ، ما شكر الله عبد لم يحمده » . وجعله رأس الشكر لأن ذكر النعمة باللسان أشيع لها من الاعتقاد بالجوارح لخفاء عمل القلب ، وما فى عمل الجوارح من الاحتمال ، ونقيض المدح الذم ، ونقيض الشكر الكفران . وقيل المدح ثناء على ما هو له من أوصاف الكمال ككونه باقيًا قادراً عالمًا أبديًا أزليًا ، والشكر ثناء على ماهو منه من أوصاف الأفضال والحمد يشملهما . والألف واللام فيه للاستغراق .

وفى تفسير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الحمد لله : « الثناء الجميل بكل أنواعه ، وعلى كل حال لله وحده ، ونثنى عليه الثناء كله ، لأنه منشئ المخلوقات والقائم عليها » .

وفى التفسير الوسيط : الحمد هو الثناء على الجميل الذى يصدر عن المحمود باختياره من نعمة أو غيرها ؛ أما الشكر فهو مقابلة النعمة بالثناء على صاحبها بالقول . أو مقابلة نعمته بعمل يدل على الاعتراف بها كآداب الجوارح ، أو الشعور القلبى بفضل صاحبها ، لذلك يقول الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة ... يدى ولسانى والضمير المحجبا !

وفى تفسير حمزة وعلوان و برانق :

« الثناء والشكر لله وحده ، الذى يدبر أمر المخلوقات ، ويربى عالم الإنسان والحيوان والنبات . فى الدنيا بالحياة والغذاء والتناسل ، فيمنحها من نعمه ، ما يحفظ بقاءها إحسانًا منه ورحمة ، وهو وحده صاحب السلطان والقوة والتدبير يوم القيامة ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذ لله ، يوم يحاسب كل إنسان على عمله ، إن خيراً فخير ،

وإن شرًّا فشر » .

فالمفسرون جميعًا قديمهم ومحدثهم ، المسهب منهم والموجز ، شغلوا بالجوانب اللغوية من الآية ، وتفسير لفظ الحمد ، وإيراد معانيه المختلفة والمقارنة بينه وبين لفظ الشكر ، والتساؤل أيهما أوسع نطاقًا وأشمل مدلولا ؟ وأيهما يصدر عن جوارح الإنسان جميعًا ؟ وأيهما يصدر عن اللسان ؟ وبالتالى أيهما أعلى مرتبة ، وأعظم مكانًا ؟ ثم التساؤل عن جملة ( الحمد لله ) خبرية ، أم إنشائية ؟ واللام فى لفظ الجلالة للاستغراق أم ليست له ؟ وقد غاب فى خضم هذه البحوث ، وظيفة هذه الآية ، ودورها ، فى حياة المسلم الذى يخاطب بها ، ويدعى إلى شامل معانيها ، واستخراج ما يكلف أداؤه بهذا التأمل ومقدار ما يفيده منها .

وأول ما يجب أن يسأل نفسه المسلم قارئ هذه الآية ، وهو يتلوها : لماذا يطلب منا الله أن نثنى عليه ، ونحمده ، باللسان وحده أو باللسان والجوارح ، سواء كان الثناء على صفاته أو على نعمائه وآلائه ؟ أليس الله هو الخلاق ، الذى كانت هذه الأكوان التى لاندرى من أمرها إلا ما يشبه النقير والقطمير قيمة ووزنًا بعض صنعه ، وشيئًا من آثار قدرته ؟ فهل هو محتاج إلى حمد وشكر من جنس من مخلوقاته ، هو الإنسان الذى وصفه الله نفسه ، بأنه كان ضعيفًا ولاعزم له ، وأنه هلوع وجزوع ومنوع ؟

إن الفاتحة ، هى أم الكتاب ، وهى فاتحته ، وقد خصها القرآن الكريم بذكر خاص إذ قال : ( ولقد آتيناك سبعًا من المثانى والقرآن العظيم) ، ولقد استفتحت هذه الفاتحة بـ ( الحمد لله ) ، وجرت السنة على أن يبدأ بها خطيب يوم الجمعة وكل صلاة جامعة خطبته ، وجرى المسلمون على أن يبدءوا بها أول كلام لهم ، فما الحكمة فى هذا كله ؟

الحكمة فيه ، على ما نرى ، وفقنا الله إلى الصواب — أن هذين اللفظين هما جماع الدين كله ، وخلاصة الحكمة الإنسانية بأسرها ، وأنهما يحويان من المعانى ما يقود الناس إلى العلم ما وسع الإنسان أن يعلم ، وإلى السعادة كأعظم ما تكون السعادة المادية والروحية ، وتحقق لهم من القوة ، كأشمل ما تكون قوة النفس والعقل والبدن ؟

ولنر كيف اجتمع هذا كله فى حروف ثمانية ؟

ولكن لن يتيسر لنا أن نستظهر هذه الحقيقة الكلية إلا بحقائق تمهد لها .

وأولى هذه الحقائق أن الدين ، فى مفهوم الإسلام ، هو العلم والنور ، وأن الكفر والشرك هما الجهل والظلام .

وقد تواترت آيات القرآن الكريم على بيان أن الدين هو العلم والمعرفة ، وأنه ضد الجهل والعمى ، والتخبط فى الدياجير .

ولم يبدأ الوحى بلفظ « اقرأ » عبثًا ، فقد استمرت الحركة الإسلامية منذ البعث حتى النصر الذى كتبه الله للإسلام ، ثم بعد ذلك حتى اتسعت حضارة المسلمين ، تنويراً وتعليماً ، وهداية ، ودرساً ، وبحثاً وجدلا ، وسؤالا وجواباً ، وشكاً ويقيناً .

فالدين جاء ليعلم الناس نواميس هذا الكون ، وليلفتهم إلى مظاهره ، وينبه أذهانهم إلى أحكامه . والسبيل الأوحد لفتح أبواب هذا العلم هو تقرير الحقيقة الأساسية أن لهذا العالم خالقاً واحداً ، وأن جميع ما نراه ونسمعه ونحسه ، ونشمه ونتذوقه من عمله ، بل حتى ما لا نفهمه ، ونعيه ، وما لا نحيط به ، ونقف عليه من الظواهر والأمور يرد إلى مسبب الأسباب ، وخالق الأكوان ، ومدبر العالمين ، وأنه أكبر من أن تعيه عقولنا ، وأن تدركه أبصارنا ، فإذا عجزنا عن أن نفهم هذه الحقيقة استحال علينا العلم سواء كان فلكاً أو رياضة أو طبيعة أو كيمياء أو طباً ، كما استحال علينا أن نستنبط العلوم التى نسميها الآن العلوم الإنسانية من تاريخ

واجتماع وقانون ؛ ذلك لأن الشرك بالله يفسد كل العلم إذ ينسب الظواهر والأطوار التى يراها لغير سببها ، فيزعم أن إلهه المصنوع من ذهب أو فضة أو من خشب أو عجوة ، هو الذى يسقط الأمطار ، ويصرف السحاب ، أو يطلق الصواعق والرعود ، أو يجلب النصر ، أو يهزم الأعداء ، كما يبعد نحس الطالع ويشفى الأدواء . ( فلا إله إلا الله) ليست حقيقة روحية تعبدية ، تلزم للصلاة الصحيحة ، وتقوم عليها العبادة السليمة ، إنما هى حقيقة علمية . بل هى أم الحقائق العلمية ، لأنها أكثر ثبوتـًا . وأعظم صحة من أن واحداً زائداً واحداً يساويان اثنين ، أو من قانون الجاذبية أو النسبية ؛ لأن الإنسان الذى يعتقد أن التوسل إلى وثن . أو تقديم القرابين إليه استجلابـًا لرضاه ، أو نفيـًا لسخطه ، يمكن أن يبدل الجفاف ماء والجدب نماء ، لا أمل فى أن يتعلم شيئـًا نافعـًا ، أو يعلم هو الآخرين شيئـًا مجديـًا ، لأنه لو علم شيئـًا صحيحـًا من حيث أسبابه ونتائجه ، لا يلبث أن يخلطه بوهم من أوهام عقيدته ، فيضيع علمه الصحيح ، الذى يعينه على إقامة حياته ثم تجميلها . وقد يقول قائل ، كيف يلزم الاعتقاد والإيمان بأن ( لا إله إلا الله) ليتوفر علم صحيح ، ولتقوم حضارة عظيمة ، وقد كان أهل العصور القديمة وثنيين يؤمنون بعقيدة تقوم على تعدد الآلهة ومع ذلك شادوا المبانى الضخمة ، وشقوا الطرق الواسعة ، واستنبطوا كثيراً من حقائق العلم وطبقوها فى الزراعة والصناعة ، والطب والفلك ؟ والرد على ذلك أن عقيدة الوثنيين كانت تنطوى على بذرة عقيدة التوحيد ، كما انطوت على بذرة الدين السماوى وبمقدار ما اجتمع لهؤلاء من هذه العقيدة . التى تؤمن بوجود إله أعظم ، خالق للناس وللسموات والأرض ، استطاعوا أن يتقدموا . وإنك قادر أن تتبين آثار هذه العقيدة عند المشركين من عرب مكة وعرب الجزيرة كلها فقد كانوا يسلمون بوجود الإله الخالق . ولكنهم كانوا يشركون معه آلهة دونه . والقرآن نفسه

شاهد على ذلك ، من ذلك : ( ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ) ، ( وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ) ، ( أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد . قل : إنما هو إله واحد ) ؛ ولهذا سموا بالمشركين ، لأنهم يشركون مع الله آلهة سواه ، وينتحلون لهذا الشرك أسباباً فتارة يقولون ( ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ) ، وتارة يقولون ( أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ) ، فعبادتهم لغير الله سببها حيناً أن يتخذوا من آلهتهم وسيلة إلى الله ، لأن آلهتهم أقرب إلى أفهامهم ، إذ يرونها بالعين ويمسكون بها باليد ، ولأن هذه الآلهة هي آلهة الأجداد والآباء ، وهم يحبون أن يكونوا على آثار آبائهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يعلمون .

من كل هذه الآيات يبين أن المشركين لم يكونوا يرفضون عقيدة الإله الأعظم ، ولكن كانوا يرفضون واحدانيته ، وهذه عاهة ملازمة للعقل البشرى ، فى أطواره الأولى ، وهو لا يقوى على التخلص منها إلا بعد جهد ورياضة ، وهذا ما جاء الإسلام ليقود الناس إليه ، وليحملهم عليه . ومن وسائلها الناجعة لهذه الغاية الكبيرة ، فلسفة ( الحمد لله ) التى نحن بصدد بسطها .

فالعقل البشرى يؤثر التجسيد على التجريد ، ويقدم القريب على البعيد ، ويشغل بالمصلحة العاجلة ، عن الفائدة الآجلة . ومن هنا كان الإله الخاص ، أقرب إليه من الإله الأعلى ، وكان الولى أعظم أثراً من تعاليم رب العالمين ، وكان الدعاء إلى الإله فى شأن منصب يرتجيه أو أو ربح يؤمل فيه ، أو امرأة يطمع فيها ، أو كربة خاصة يشكو منها ، أجرى على لسانه ، وأشغل لقلبه ، من الدعاء الذى تكون الغاية منه طلب التوفيق والسداد ، والهداية إلى الخير ، والنجاة من الشر .

ولا يزال العامة ، وبعض الخاصة ، فى الشرق والغرب ، وفى القديم

والحديث ، سواء كانوا من أهل الأديان السماوية وأديان الحكماء والفلاسفة ، يترددون على أضرحة الأولياء ، ويحملون التمائم والتعاويذ والأحجبة ، ولا يذكرون الله إلا قليلا ، أو لا يذكرونه إلا مقرونًا بولى من أوليائهم ، وكأن الولى هو الأصيل ، والله — والعياذ به — هو وسيلة أو شفاعة .

ولذلك كانت فلسفة الشرك هى فلسفة الإنسان فى أدواره الأولى ، والتى بقيت — على ما سبق من القول — رواسب منها فى النفس الإنسانية إلى اليوم .

ومن هنا كان الإنسان يوفق فى بعض نشاطه وتفكيره وإنتاجه المادى والأدبى ، لأن فيه آثاراً من الإيمان بالله المجرد السامى ، الذى يهدى إلى محبة الناس والإخاء بينهم ، والإيمان بالعدل والصدق والمساواة . ولكن هذه اللمحات الربانية ، لا تلبث أن تحجبها سحب الشرك ، فتأفل شمس الحضارة الوثنية ، ويسودها الطغيان والاستبداد ، وشهرة الملوك والقادة ، وخوف الفقراء والصغار ، وتتخبط الإنسانية كلها فى كل ما تقول وتعمل ، فهى لا تهتدى إلى الحقيقة العلمية ، ولا إلى الحقيقة الروحية ، وإن اقتربت منها خطوة ، بعدت عنها خطوات ، وبقيت هكذا حتى جاء الإسلام ، ليضع للشرك حداً حاسمًا وقاطعًا ، مجرداً ملك الله من كل تجسيد وكل ارتباط بالزمان والمكان ، والشكل والصورة ، والحجم والوزن ، ورد كل الأسباب إليه ، وعودة كل الأمور له ( وإلى الله ترجع الأمور ) . ومنذ ذلك التاريخ ، تاريخ بدء الحركة الإسلامية ، بدأت الحركة العلمية ، وتحررت العقول والنفوس فى الشرق ، فانطلق الفلاسفة والمفكرون والمشرعون والمصلحون ، يقولون كل شىء فى كل شىء ، وتعددت المدارس ، وتنوعت المذاهب ، وتأمل أهل العقل فى السماء والأرض ، والمعادن والعناصر ، وغزت هذه الروح أوربا غزواً هزها من الأعماق ، وأخرجها من الظلمات دفعة واحدة ، فغشيت لها عيون ،

وكرهتها أبصار ، فكان ما عرفته من ظلمات ديوان التفتيش ومطاردة المفكرين والأحرار ، حتى فى ميدان الفلك والطبيعة ، وما قصص جليليو وكوبرنيكس وداروين إلا أمثلة مشهورة من مئات الأحوال المجهولة التى أخرت العلم كثيراً . وما جنته الإنسانية اليوم ، من ثمار العلم الباهرة ، من بدء استعمال البخار ، حتى الوصول إلى القمر ، ومن خطوات الرياضة البحتة والتطبيقية . إلى نظرية النسبية ، ليس سوى الأثر المباشر لحركة تحرير العقل الإنسانى ، على يد الإسلام ، الذى رفع عن الإنسان إصر الوثنية والشرك ، الذى حال بينه وبين معرفة أصول الأسباب ، وتبين علة العلل .

ولكن العقل الإنسانى جهاز حديث ، وتحرره أحدث منه كثيراً بطبيعة الحال ؛ ولذلك لا يزال معرضاً للغفوة والكبوة ، ميالا إلى العودة إلى ما ألفه واعتاده ، وهو ما عبر عنه القرآن ( هذا ما وجدنا عليه آباءنا ) ، فهو فى حاجة إلى تذكير وتنبيه وإنعاش ، وإلى تسديد وتقويم وهداية ، ومن هنا كانت حكمة ( الحمد لله ) .

فلا إله إلا الله ، هى الأصل والغاية ، بها أفاق العقل الإنسانى من غفوته ، وخرج من الظلام الكثيف ، إلى نور الحرية الكاملة غير المحدودة ، فلا سلطان على الإنسان إلا للعقل ، إذ سقطت بهذه العبارة الصغيرة سلطة الملوك والقياصرة ، والأمراء والأكاسرة ، كما سقطت سلطة الكهان والأحبار ، ولم يعد الإنسان خاضعاً إلا لما يقنعه ، ولا تابعاً إلا لما يؤمن به ويهتدى إليه . ولم يعد هناك حرم ، لايجوس العقل الإنسانى خلاله ، فهو يقرأ بنفسه لنفسه ، ويسأل ، ويناقش ويجادل ، ويسفه ويؤيد ، ويراجع ما قاله ، ويعدل عنه ويضيف إليه ، ويحل محله سواه ، ويبدأ من جديد ، فما دام العلم غايته ، والحقيقة ضالته ، والمصلحة العامة حافزه ، فكل ما به حرام على الناس ، أى على المسلمين : دمه ، وماله وعرضه . فما دام يؤمن بالله ، أى ما دام عقله قد تحرر ،

وما دام أنه لم يسفك دمًا ، ولم يهتك عرضًا ، ولم يسرق مالا ، فلا يحق لأحد أن يضع يده عليه ، ولا أن يمسه بسوء ، فإن اعتدى عليه معتد فكل المسلمين مطالبون بالدفاع عنه ، وإلا كانوا آثمين ، يحاسبون عن تخليهم عن القيام بالتبعة ، وكأنهم كفروا ( إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ) .

فالحمد لله جاءت أثراً لعقيدة لا إله إلا الله ، لا لتحمل الإنسان على الإقرار بعبودية لله ، وحسب ، والإذعان لإرادته وأحكامه فقط ؛ ولو وقف المسلم بالحمد لله عند حد هذا الإقرار المادى ، ولم يكن لها من الآثار على نفسه وعقله ما رسم الله لها ، وما قصده سبحانه منها ، لكان إيمانه لفظيًّا لم يخالط القلب ، وكان من قبيل إيمان الأعراب : ( قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم ) .

فالحمد لله هى حركة فى ثلاثة اتجاهات :

هى حركة عقلية أولا .

ثم حركة نفسية ثانيًا .

ثم حركة وجدانية ثالثًا .

وقبل أن نفهم مدلول الحركة العقلية لعقيدة « الحمد لله » الإسلامية ، يجب أن نعرف ما اندس فى بعض العقائد السماوية من تراث العقائد الوثنية ، فإله الوثنى هو صورة من شيخ القبيلة ومن الملك والسلطان . فهو قوى ، ولكنه باطش مخيف ، لايخيف أعداءه فحسب ، بل أتباعه معًا . وهو يقيم سلطانه على قلوب هؤلاء الأتباع بما يملك من قدرة على الإبادة والإذلال ، وطاقة غضبه تزلزل الصروح من قواعدها ، وتهز أقوى القلوب من مواضعها ، وهو شره لايرتوى من سفك الدماء ، ولايشبع

مما يقدم إليه من فروض الخضوع والطاعة ، ولا من آيات الخوف من شره ؛ ولذلك تقدم له القرابين بشرية وحيوانية إلى غير حد ، وقد يكون من هذه القرابين الأطفال ، كإله « مولوخ » إله العبرانيين ، والنساء والرجال والفتيات ، وهو غيور ، لايكاد يقبل أن يوجد إلى جواره إله سواه ، فإذا تمت له السيطرة على عباده وعدهم بالنصر ، ومنحهم الغلبة على الأعداء مهما ظلموا ، بل إنه يرسم لهم سبيل الكيد للأعداء ، ويدعوهم إلى الغدر والسطو والنهب والحرق ، ويزين لهم الجرائم ، ويباركها من أجلهم ، وقد ورد فى التوراة التى بين أيدى الناس الآن شىء غير قليل من هذه الصورة ؛ وقد بدأ أول العقد بين العبرانيين وإلههم على الوجه الآتى . جاء فى الإصحاح السادس من سفر الخروج :

« أنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين ، وأنقذكم من عبوديتهم بذراع ممدودة ، وبأحكام عظيمة ، وأتخذكم لى شعباً ، وأكون لكم إلهاً » .

وتتوالى نصوص العقد ، فهو يحرض اليهود على سرقة المصريين حين يخرجون من مصر ، فيقول فى الإصحاح الثالث :

« فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين ، بل تطلب كل امرأة من جارتها ، ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وذهباً ، وثياباً تضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين » .

وإلى جانب التحريض على السرقة نرى فى سفر التثنية التحريض على الحريق والتدمير :

« حين تقرب من مدينة لكى تحاربها ، استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح ، وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها ، يكون لك بالتسخير ، ويستعبد لك ، وإن لم تسالمك وعملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فأضرب جميع ذكورها ، بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم ، وكل ما فى المدينة وكل

غنيمتها فتضمها لنفسك ، وتأكل كل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك » .

وتأتى بقية النصائح والتوجيهات فى الإصحاح السادس فى سفر يشوع :

« واحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها ، إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد اجعلوها فى خزانة بيت الرب » .

ولهذا فإنه من الجائز أن يقع بين هذا الرب ، وبين النبى موسى حوار يؤنب فيه النبى ربه ، فيقول مثلا فى الإصحاح الثانى والثلاثين من سفر الخروج :

« أرجع عن حمو غضبك ، واندم على الشر بشعبك . . فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه » .

فجاء الإسلام لينسخ هذه الصورة ، ويمحو كل آثارها فى نفوس الناس ، فإله المسلمين لايحابيهم ولايعدهم بالنصر ، ولا يمنيهم بالغلبة لمجرد كونهم مسلمين ، فقد أقام الإسلام حكم العلم ، وقرر أن للنصر قوانينه وأحكامه ، فمن يلزمها ، وينزل على مقتضاها يتحقق له نصر الله ، وأولى هذه القواعد أن يكون القتال من أجل الله ، وفى سبيل الله ، أى من أجل الحق ، ولإقامة العدل ، ولنصرة الضعيف . ( الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ) ، فمعنى آية ( إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ) هو إقامة الإسلام ، أى إقامة العدل والحق . فليس يكفى أن يكون عدو المسلمين من غير المسلمين ، أو أن يكون مشركاً ، ليضمن المسلمون الفوز عليه ، إذ لابد أن يكونوا أهلاً للنصر فى ذاتهم من التقوى والصلاح ، والقوة والاتحاد ، والصبر فى الشدة ، والعفو عند المقدرة . والسهر فى الليل ، واليقظة فى النهار ، وإعداد أسباب النجاح والتماس وسائله .

وبعد فإله المسلمين هو إله كل الناس ، المشرك والكافر والمؤمن والصالح ، الأبيض والأسود .

فإذا اتضحت كل هذه الأحكام ، أمكن أن نفهم كيف أن (الحمد لله) تستدعى حركة عقلية من قائلها . فالمسلم يعلم أن لهذا الكون سننًا ، أى قوانين تضبطه ، وهى سنن ثابتة لا تتغير ولا تتبدل (فلن تجد لسنة الله تبديلا) ، (ولن تجد لسنة الله تحويلا) . وإننا مطالبون بأن نتأمل هذه السنن ، وأن نفهمها ، وأن نرى آثارها فى الكائنات ، وفى الأحياء وفى أنفسنا ، وفيما يطرأ من الأحداث وما يجد من الأمور ، لنكون قادرين على أن ننتفع بما سخره الله لنا من الشمس والقمر ، والليل والنهار ، والجبال والبحار ، والأنعام والأنهار (أفلم يسيروا فى الأرض) .

فإذا حل بالإنسان شىء مكروه أو مرجو ، وقلنا الحمد لله ، فمعنى ذلك أننا فكرنا فى هذا الذى أصابنا ، ولم ندعه يمر بنا ، بل عرفنا أنه وقع تطبيقًا للقاعدة الكلية الكبرى ، أى أنه جاء طبقًا لقانون من قوانين هذا الكون المادية أو الروحية ، وأن علينا أن نعرف أسبابه ومقدماته ، لنستزيد من الخير إن كان خيراً ، ولندفع الشر إن كان شرًّا .

ولكن ما هو الدليل على صحة هذا التفسير ؟

الدليل على هذا أنه ما من شىء يطلبه الله من عباده، أو يفرضه عليهم حتى العبادات والكفارات ، إلا والحكمة من تقريره خير العباد . فالصلاة والصوم والزكاة والحج كلها عبادات الغاية منها إصلاح نفوس الناس ، ومنحهم زيادة من القوة ، ولطف المعاملة ، وصدق العهد ، واحتمال الشدائد ، والسعى لخير الناس ، والإيمان بالحق والعدل ، وهم بهذا يكسبون كسبًا شخصيًّا ، وماديًّا ، إلى جانب المنافع العامة ، والفضل الروحى .

ويستفاد هذا من قوله تعالى : (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها

ولكن يناله التقوى منكم ) . وما تقرره هذه الآية هو مبدأ عام ، لاينصب على الأضاحى التى يتقرب بها العباد إلى ربهم ، بل يشمل كل قربى إلى الله ، ولو كانت عبادة مسنونة ومفروضة على جميع المكلفين .

فالحمد لله هى دعوة لتفكير العبد فيما يجرى فى هذه الدنيا له ولغيره ، ليكشف ما ينطوى عليه ، فإذا تأمل فسيعرف . ويقوم الحمد أو الشكر ، مقام المعرفة ، فالشاكر والعالم والشكور والعليم ، كأنهما مترادفان وإليك البيان :

فى سورة المائدة جاء قول الله تعالى ( كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ) ، وجاء فى سورة الأعراف قوله عز وعلا : ( كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون ) وفى سورة لقمان : ( ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ) ، وفى البقرة : ( ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ) . فالشكر هنا يأتى دائماً ، بعد موضع تكشف فيه الحقائق للناس ، فالله يبين للناس آياته ، ليريهم إياها ، ويتبع هذا كله بما معناه ، أن النتيجة لهذا العلم ، أن تشكروا ، أى أن يعلموا العلم الذى ينطوى على الحمد لله والثناء عليه والشكر له . لأن غاية العبادة أن يعرف الناس حقيقة ربهم ، وأن يزدادوا علماً بأحكامه ، فحينما يصلون إلى مرتبة العلم يشكرون ، أو حينما يصلون إلى مرتبة الشكر يعلمون . ولعل هذا المعنى يزداد وضوحاً فى قوله تعالى فى سورة إبراهيم : ( إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ) ، وقوله فى سورة لقمان : ( ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ) . ويصف الله تعالى ذاته بقوله : ( ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم ) ، ثم ( وكان الله شاكراً عليماً ) . واقتران العلم بالشكر يدل على أنهما بمعنى واحد . أو أن أحدهما يؤدى إلى الآخر ، أو يقترن به أو يقوم مقامه ، فلا يشكر أفضال الله ونعماءه وآلاءه إلا من عرفها ، ولا يعرفها إلا من شكرها . ويزيد ذلك

المعنى وضوحاً قوله تعالى : ( ومن شكر فإنما يشكر لنفسه . ومن كفر فإن ربى غنى كريم ) ، ( لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ) فإن الشكر هو بمعنى العلم ، فإنكم لاتعلمون إلا لتزدادوا فضلا ، فالخير عائد عليكم من هذا العلم ، وكلما شكرتم ازددتم فضلا ، لأنكم تزدادون علماً . والله تعالى لا يحتاج إلى شكركم وإنما أنتم المحتاجون إلى هذا العلم . وقد يمنحكم الله أفضالا ، ويبسط لكم فى الرزق والصحة ، لتروا هل تعلمون قيمة ما أعطاكم فتحسنوا الانتفاع به والمحافظة عليه فتزدادوا خيراً : ( هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ) .

فالحمد لله ، هو عملية عقلية ، لأنه لا يتأتى إلا لمن تأمل فى الكون ، وشغل عقله بأسراره ، وتحمل النصب والتعب ، ليقف على أحكامه ، وهو كلما بحث وتأمل زاد الكون أمامه اتساعاً ، وزاد فى عينيه عظمة وضخامة ، فإذا به وحده محمول على الشعور بعظمة خالق هذا الكون ، فيحمله شعوره هذا بدوره إلى التعبير عنه بقلبه ولسانه ، ولا يزال فى حلقة مفرغة يتأمل الكون ، ويكشف أسراره ، فيزداد شغفاً بالبحث ، والبحث يزيده بالكون وخالقه إعجاباً وتقد يراً وتقد يساً ، ويزداد رغبة فى مواصلة النظر فى قوانين الدنيا ، فيزداد علماً ، وكلما علم زاد تقديره وحبه لهذا النظام الدقيق الذى يعلوعلى كل عقل وفهم . والذى يعلن للعالم الشكر عظمة الله غير المتناهية ، وقدرته غير المحدودة . فيزداد هو قوة إذ يزداد علماً أو إيماناً أو شكراً ، كيفما شئت .

فالحمد لله هى حافز متجدد لعقل الإنسان ، يدفعه إلى مواصلة التفكير ، وإلى الإصرار على النظر ، وعلى استحثاث الخطى فى استكناه حقائق العالم الذى نعيش فيه ، والذى أخبرنا الله سبحانه تعالى بأنه سخره لنا وأنه لاسبيل إلى الانتفاع بهذا التسخير إلا بمحاولة تبين المفاتح المفضية إلى قواه المخبوءة ، وثرواته المكنوزة ، وقد أجمل الله سبحانه وتعالى هذا كله بقوله : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

أما أن (الحمد لله) هى حركة وجدانية ، فنحن فى حاجة إلى تشبيه ، لتوضيح المقصود من ذلك .

أفرأيت اثنين يقفان أمام منظر طبيعى جميل ، أو لوحة فنية بارعة ؟ ثم أرأيت أحدهما يمر بالمنظر أو اللوحة لايحس بما فيهما من جمال ، ولا يستمتع بما يحويانه من تناسق تطيب له النفس ، ومن لطف اللون أو الحركة ، مما تصفو له المشاعر ، وتعلو به عن مشاغل الدنيا ، وهمومها ، فى حين يقف الثانى مأخوذاً بالجمال ، لايكاد يستطيع الحركة ، فينسى نفسه ، وينسى من حوله وما حوله ؟ فإذا أفاق بعد طول الوقفة ، أحس بالراحة والسعادة والقوة معـًا ، وكأن هذه الوقفة زاد مادىّ صرف ذهنه عما كان يشغله ، وعلا بنفسه عن سائر الناس ، فأصبح أكثر قدرة على مواصلة السعى فى الحياة ، وأعظم إحساسـًا بما فيه من حب للخير ، وشعور بالجمال .

هذا بالضبط تفسير (لئن شكرتم لأزيدنكم) ، فإن وقفة صاحب الإحساس أمام المنظر الجميل ، واستغراقه فى تأمله واستشعاره بالسعادة والغبطة فى الاتصال به والنظر إليه ، هى بالضبط ما يساوى (لأزيدنكم) فكلما زاد الإنسان إحساسـًا بالجمال زاد إحساسه دقة وزاد حبه للجمال ، فزاد شعوره رقيـًا ، وزادت نفسه اتساعـًا ، وهو إذ يقف أمام المنظر الجميل ، يقف شاكراً ، مادحاً ، مثنياً ، مقدراً ، وإن لم يقل بلسانه حرفـًا واحداً ، ولكن وقفته ، ونسيانه كل شىء ، واكتفاءه بالنظر وارتفاعه عن الدنيا بكل أصواتها وحركاتها ، كل ذلك هو الشكر الناطق ، والحمد المسموع ، والثناء الملموس .

وهو لا يشكر ، حتى يزداد فى اللحظة سموًّا وقوة ، وهو لا يزداد سموًّا وقوة ، حتى يزداد حبـًا وتقديراً ، فهى الدائرة المفرغة لايدرى أين طرفاها : تشكر فتزداد ، وتزداد فتشكر ، وهكذا لاتزداد قوة ، إلا لتزداد قدرة على الشكر ، لأنه عنوان القوة ومظهرها الخارجى . أما من يمر بلوحات الكون

وأسراره ، وهو أعمى لايرى، فهو كالحجر الأصم الأبكم ، لايعى ولا يشعر، فتسد أمامه مصادر الإلهام ومنابع القوة ، ولهذا فالكون يقول له : إنى عنك لغنى !

أما أن الحمد لله حركة نفسية ، تأتى بعد التعقل والإحساس . فذلك لأن الإنسان فى هذا الكون الفسيح المترامى ، حقير لا سند له ، حائر لا هادى يأخذ بيده ، يبدو له كل شىء غامضاً ، ويبدو له كل شىء فى هذا العالم أقوى منه وأعظم ، ثم إن الأحداث، لاتقف لحظة ، فهى فى استمرار متصل ، وتطور دائب ، وتغير لاينتهى : وهذه الحركة تسبب للكائن الحى ، من الآلام والأحزان والمخاوف ، ما لا قبل له به وحده ما لم يعنه معين . فإن هذه الحركة . تنزع الإنسان من المكان الذى يألفه ، والجماعة التى يعرفها ، والحقائق التى يطمئن إليها ، والوسائل التى يحسن استعمالها ، وتلقى به فى بحر متلاطم من الصور الجديدة ، والعلاقات الطارئة ، والأفكار المستحدثة وتطلب منه فى الحال أن يتكيف مع هذا الجديد ، وإلا ابتلعه الموج وأطبقت عليه العوالم الجديدة فغيبته فى جوفها .

ولذلك فإن الإنسان فى حاجة مستمرة إلى أن يتبين حقائق ما يجد به من الأحداث وما ينزل بساحته من النوازل ، فإن لم يتبين أن هذا التغير المستمر ليس شراً وليس خيراً ، وأن هذا العالم ليس عدوه وليس صديقه ، وأن مصدر القوة نفسه ، وموطن الطاقة قلبه ، ومنبع النور عقله ، وأن عليه أن يرى فى كل ما يصيبه نصيباً من الخير ، وبذرة للأمل ، لا على سبيل العزاء والتسرية ، بل على سبيل استقراء الواقع الصادق ، إذ أن ( مع العسر يسراً ) ، ( وتلك الأيام نداولها بين الناس ) حقائق علمية ، وأنها تمنح العالمين بها ، والواقفين عليها ، قوى لا حد لها .

وليس ثمة عدو أقسى للنفس الإنسانية من اليأس ، وليس ثمة داء أشد فتكاً بها من الخوف ، ولا يحمى الناس ويحصنهم من اليأس والخوف

إلا فهم صحيح ، وتطبيق سليم لحكمة ( الحمد لله ) ، فإنها تبدد الظلام ، وتقشع لها الظلمات وتجدد لها الآمال ، وتتسع بها الدنيا ، فيزداد الإنسان قوة ، ولا يزداد قوة إلا وقد ازداد قدرة على الإعجاب ، بما فى هذه النفس الإنسانية من طاقات لايعرف الإنسان مداها ، لأنه لا يفكر فيها ، ولايمد يده نحوها ليستخرجها .

فالحركة النفسية التى تبعثها ( الحمد لله ) فى الإنسان ، أو تبعثه هو على إتيانها ، ليس مجرد العزاء الذى يسبغه التسليم لقدر الله ، والإذعان لحكمه باعتبار أن التمرد عليه معصية ، ومعصيته لا نفع منها ، ولاجدوى فيها ، بل إنه حركة إيجابية قوامها المبدأ القرآنى ( وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم ) ، ( ونبلوكم بالشر والخير فتنة ) ؛ فالمسلم الذى يقول ( الحمد لله ) إذا أصابته مصيبة ( الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنالله وإنا إليه راجعون ) يقولها ليستخرج منها قوة ، لا لأنه يقارن نفسه بمن هم أشد منه ابتلاء فقط ، بل لأنه يؤمن بأن فى تضاعيف ما يبدو لنا شرًّا خيراً من نوع ما ، وأن المؤمنين ينهاهم إيمانهم عن أن يفرحوا بما آتاهم الله ، ولا يأسوا على ما فاتهم فالحياة ليست كسبًا فقط ، ولافوزاً دائمًا ، وإنما هى قبض وبسط ، وإدبار وإقبال ، وإن الإنسان يحكم على الأمور بمقياسه الصغير ، وينظر إليها بمنظاره القصير ، فى حين أن الواجب يقتضيه أن ينهض بواجباته ، ويؤدى تكاليفه ، حتى يبدو الخير ، فى جملة الحياة التى يحياها الفرد ، ثم فى جملة الحياة الإنسانية ، باعتبارها كلاًّ لايتجزأ تطبيقًا للمبدأ المقرر فى الآية الكريمة ( من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا ) .

فالحمد لله — إذن — هى مذهب كامل ، من مذاهب الحياة والإيمان ، يتفرع أساسًا عن المذهب الشامل الكامل مذهب الإسلام القائم بدوره على أن لا إله إلا الله ، وأنه مذهب ذو ثلاث قوائم ، قائمة

عقلية : وقائمة وجدانية روحية وقائمة نفسية ذاتية ، وأن غاية المذاهب حماية العقل الإنسانى والنفس الإنسانية فى مواجهة ما يهبّ عليهما من رياح الأضاليل والأكاذيب ، ولو تسترت فى شكل العلم ، واختفت وراء اسمه ، وتوفير الحيوية له ، لكى يقف ديدباناً ساهراً لايغفل ، وحارساً لاينتابه تعب ولا ميل للراحة ، بل لايدع العقل الإنسانى ينزلق إلى الغفوة ، أو يتوق إلى الراحة : إنها ناقوس يدعو إلى التأمل الدائم ، والتفكير المتصل ، إنها دعوة لتدبر آفاق الأرض والسموات وآفاق النفس الإنسانية التى تشبه الأرض والسماء اتساعاً ، فالحمد لله أولا وآخراً .

# ذكر الله

جاء فى سورة الأنفال وصف للمؤمنين فى قوله تعالى : ( إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون ) .

وقد شرح القرطبى هذه الآية بقوله : وصف الله فى هذه الآية المؤمنين بالخوف والوجل عند ذكره ، وذلك لقوة إيمانهم ، ومراعاتهم لربهم ، وكأنهم بين يديه ، ونظير هذه الآية ( وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ) ، وقال : ( وتطمئن قلوبهم بذكر الله ) ، فهذا يرجع إلى كمال المعرفة وثقة القلب والوجل والفزع من عذاب الله فلاتناقض ، وقد جمع الله بين المعنيين فى قوله : ( الله نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثانى تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ) أى تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله ، وإن كانوا يخافون الله ، انتهى كلام القرطبى .

وقد جاء فى تفسير الجلالين ، فى شرح هذه الآية الأخيرة « يرتعد عند ذكر وعيده جلود الذين يخشون ربهم ثم تطمئن جلودهم وقلوبهم عند ذكر وعده » ..

وفيما جاء فى تفسير القرطبى ، وفى تفسير الجلالين ، ما يدل على أن تفسير الآية الثانية من سورة الأنفال ، بما ذهب إليه القرطبى نفسه . وساير فيه جميع المفسرين القدامى والمحدثين تقريبًا ، تعارض يهدر تفسيرهم ، إذ لا سبيل إلى استقامة المعنى ودفع هذا التعارض ، إلا بتقدير أن فى هذه الآية الكريمة ، مضافًا محذوفًا يسبق لفظ الجلالة ، وهذا المضاف المحذوف ، يمكن تقديره إما بوعيد ، أو بعذاب أو بعقاب ، أو أى لفظ آخر يؤدى هذا المعنى ، وبذلك يتضح معنى هذه الآية فى

يسر ، وأن القصد منها أن المؤمنين حقًّا ، هم الذين إذا ذكر وعيد الله وعذابه ، وعقابه ، وجلت قلوبهم ، لأنهم يصدقون هذا الوعيد ويؤمنون بهذا العذاب ، ويعلمون يقينًا بأن البعث حق ، والحساب حق ، والجنة حق والجحيم حق ، وإذا تليت عليهم آياته — آيات الله — زادتهم إيمانًا .

وهذا التأويل يتفق ويتسق مع مبدأ كلى من مبادئ العقيدة الإسلامية ، جاء فى سورة الرعد ، إذ ورد فيها ( الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ) .

أقول إن هذا مبدأ كلى ، ذلك لأن إله المسلمين هو رب العالمين ، وهو رب المشارق والمغارب وخالق كل شىء ، وليس كمثله شىء ، وقد وسع كل شىء رحمة وعلمًا ، كتب على نفسه الرحمة . ولذا فإن ذكره يبعث الطمأنينة فى قلوب المؤمنين ، وينزل عليهم السكينة ، ويذهب عنهم الحزن ، ويصرف عن نفوسهم الفزع .

وقول الله تعالى ( ألا بذكر الله تطمئن القلوب ) خطاب موجه إلى المؤمنين والكافرين على السواء ، فالمؤمنون يعلمهم الله بهذا الخطاب أنهم بفضل إيمانهم به ، واطمئنانهم إليه وثقتهم به ينزل على قلوبهم السكينة . ويبعث فى نفوسهم الطمأنينة ، ويثبتهم فى وجه الشدائد والملمات ، ويحميهم من الفزع فى النوازل والأزمات ، إذ يعلمهم أن مع العسر يسراً ، وأن الذين يتقونه سبحانه ويخشونه يجعل لهم من كل ضيق مخرجًا ، وهم بعد هذا كله يفرحون بما آتاهم ، ولا ييأسون على ما فاتهم . أما الكافرون ففى همّ مقيم ، وحزن متصل فى النعمة والنقمة على السواء ، ففى النعمة لايقنعون بها ، ولا ينفكون يطلبون المزيد ، ويحسدون الناس على ما أتاهم الله من فضل ، ويخشون زوال مالهم ، وهلاك سلطانهم ، يشفقون من أن يشاركهم فيه مشارك من ذوى القربى ، أو المنافسين . وهم إن نزلت بهم المصائب ذهبت نفوسهم شعاعًا ، وتخلى عنهم عزمهم

وضاقت الدنيا عليهم بما رحبت وضاقت عليهم كذلك أنفسهم ، ذلك لأن الشيطان يعدهم الفقر ، فيأمرهم بالفحشاء ، والله يعدهم مغفرة منه وفضلا .

وهذه الميزة التى وعد الله بها عباده المتقين والمحسنين ، والمخبتين والمؤمنين هى سند المؤمنين وزادهم ، لا فى خاصة حياتهم ، بل فى جهادهم الشرك ، والزيغ ، والضلال ، وحربهم الرذائل والفواحش ، وهى عدتهم فى دعوتهم إلى الخير ، والنهى عن المنكر ، فإذا زالت عنهم طمأنينتهم التى ينزلها الله على قلوبهم عند ذكره تعالى وتبارك ، انثلمت سيوفهم ، فلم تعد تقطع ، وجمدت ألسنتهم فلم تعد تنطق ، وانطفأ نورهم فلم يعودوا يهدون ولا يهتدون ، فهم — بغير هذه العدة — يتساوون مع غيرهم من سائر الناس ، بل يتفوق عليهم أهل الدنيا ، بما لديهم من مال ، وبما حصلوا من خبرة و بقدرتهم على الإغراء والخداع .

وقد جاء فى تفسير المنار ، فى تفسير آية ( فمن تبع هداى ) من سورة البقرة ، كلام يتصل بما نحن فى صدده ننقله هنا :

الخوف عبارة عن تألم الإنسان من توقع مكروه يصيبه ، أو توقع حرمان من محبوب يتمتع به أو يطلبه ، والحزن ألم يلم بالإنسان إذا فقد ما يحب . وقد أعطانا الله جل ثناؤه الطمأنينة التامة فى مقابلة ما تحدثه كلمة ( اهبطوا ) من الخوف من سوء المنقلب وما تثيره من كوامن الرعب ، فالمهتدون بهداية الله تعالى لا يخافون مما هو آت . ولا يحزنون على ما فات . لأن اتباع الهدى يسهل عليهم طريق اكتساب الجنان ، ويعدهم لسعادة الدنيا والآخرة ، ومن كانت هذه وجهته يسهل عليه كل ما يستقبله ، ويهون عليه كل ما أصابه ، أو مافقده ، لأنه موقن بأن الله يخلفه ، فيكون كالتعب فى الكسب ، لا يلبث أن يزول بلذة الربح الذى يقع أو يتوقع » .

وقد جاء فى شرح القرطبى فى تفسير الآية الثانية من الأنفال التى

نحن بصددها :

« روى مسلم عن أنس بن مالك أن الناس سألوا النبي صلى الله عليه وسلم . حتى أحفوه فى المسألة — أى أكثروا عليه فى السؤال ، وألحوا عليه إلحاحاً شديداً فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال : « سلونى ، لا تسألونى عن شىء إلا بينته لكم ، مادمت فى مقامى هذا » فلما سمع القوم هذا سكتوا ووجموا ورهبوا أن يكون بين يدى أمر قد حضر . قال أنس ، فجعلت ألتفت يميناً وشمالا ، فإذا كل إنسان لاف رأسه فى ثوبه يبكى » .

ومعنى هذا الحديث ، أن المسلمين توهموا أن الرسول ينذرهم بعقاب ، أوشك أن يحل بهم ، لذلك وجموا ، وكفوا عن القول ، ثم أخذوا يبكون فى صمت وخشوع ، فلم يكن بكاؤهم لمجرد أن الرسول وقف يعظهم . فالبكاء لم يكن لأن الرسول وقف يخطبهم ، وإنما لأنهم أحسوا أن فى وقفة الرسول على المنبر ولهجته فى الخطاب ، بعد طول المحاجة والسؤال ، أن شراً موشكاً أن ينزل بهم ، لذلك قال أنس رضى الله عنه « ورهبوا أن يكون كلام الرسول بين يدى أمر حضر » .

وقد أورد القرطبى فى تفسير الآية ذاتها نقلا عن المثنى : ( إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ) فأدوا فرائضه .

ثم عن سويد : قال هو الرجل يريد أن يظلم أو قال يهم بمعصية ، أحسبه قال « فينزع عنه » وهذا قول حسن ، فالإنسان يذكر الله ، فى موقف يهم فيه بمعصية أو بظلم ، فيرتعد ويفرق ، ويخشى عقاب الله ، فينزع عنه ، أى يعدل عنه .

فالإيمان بالله — عند المسلمين — هو أمان واطمئنان ، لا فزع ولا خوف ، ولذلك فإن آيات الكتاب العزيز ، تترى بأن الذين آمنوا لا خوف عليهم — ولا هم يحزنون ، ففى سورة فصلت : ( إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ، ولا تحزنوا ،

وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ) ، وفى سورة طه : ( ومن يعمل من الصالحات ، وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضماً ) ، وفى سورة الجن : ( فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً ) . وقد خاطب الله سبحانه وتعالى كليمه موسى ( يا موسى لا تخف إنى لا يخاف لدىّ المرسلون ) ، فالخوف عذاب يصيب به الله الكافرين ، والمنافقين ، ( فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ) .

أما ( فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ) لأن الذين اتبعوا هدى الله ( لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ) ، ( من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ) ، ( ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ) .

وليس هذا كله إلا مصداق وعد الله ( وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ) ، ولا يرد الخوف من مقام الله ، أو امتحانه ، أو بلائه إلا مقروناً بالبشرى بالخير والنعمة وحسن المنقلب : ( ولنسكننكم الأرض من بعدهم ، ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ) ( ولمن خاف مقام ربه جنتان ) ، ( وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ) ويبتلى الله المؤمن بشىء من الخوف ، على سبيل الامتحان ، إذ لا يلبث كتاب الله العزيز أن يبشر الصابرين أى الناجحين فى الامتحان بخير عاقبة ( ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين ) .

والخوف من مقام الله ، ينصرف كله إلى عقاب الله ، ووعيده ، فالخوف شعور مذل ، وإحساس مهين ، لا يبتلى الله به عباده المتقين ، ولكن يصاب به من خلا قلبه عن سكينة الإيمان ، وطمأنينة الثقة بعقيدة تثبت الإنسان وتقيه زعازع الدنيا ، ومخاوف الأطماع ، وخيالات وأشباح الشهوات .

وكما أن آيات القرآن التى تقرر أن المؤمنين لا خوف عليهم ولا هم

يحزنون ، فإنها تفيض كذلك بعبارة ( وبشر المؤمنين ) ، ( وبشر المحسنين ) ، ( وبشر المخبتين ) ، وتأتى هذه البشائر فى صيغ عديدة وإن كان المعنى ثابتاً ، من ذلك : ( وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ) والقرآن هو ( هدى وبشرى للمؤمنين ) وهؤلاء المؤمنون ( لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ) .

والمؤمنون فى ظل هذه البشائر يمضون فى الحياة ، سعداء أقوياء تزيدهم السعادة إيماناً » . كما يزيدهم الامتحان والابتلاء ، فهم فى الحالين ، يعرفون أنهم يؤدون واجباً سامياً هو ضمان حسن العاقبة فى الدنيا والآخرة ، وأنهم يتقلبون فى رحمة الله وفضله ، مهما ادلهمت الأمور ، وبدا أنه لا مخرج ، ولا مغيث . وتبلغ قوتهم الحد الذى لا يخشون معه الناس جميعاً إذا اجتمعوا عليهم (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً ) فى حين أن الكافرين ينطبق عليهم قول القرآن : ( إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ) . وهذا الكلام كله يصلح مدخلا إلى حديث طويل عن السمة البارزة فى حضارة الإسلام ، وحديث أطول منه ، عن مستقبل الإسلام ، وموقفه من المذاهب السائدة اليوم .

فحضارة الإسلام النابعة من عقيدته قامت على إشاعة الطمأنينة فى نفوس المؤمنين ، لطول ما تحدثت عن الرحمة ، والمودة ووصل الرحم ، وإيتاء ذى القربى ، ومنح الصدقات للفقراء والمساكين ، وتحرير العبيد ، والمساواة ، ودفع الحرج ، ورفع المشقة ، والدعوة إلى التيسير والتخفيف ، والحض على الرفق والحلم ، وترك المراءاة ، والأخذ بالظاهر ، والتنفير من التنطع والتكلف ، وهذه كلها سدود تقف فى طريق الخوف والفزع وتثبت أسس الطمأنينة ، فى بلد شملته بهجة الإخاء الإنسانى فاندفع العلماء يقرءون ويبحثون ، وينطلقون إلى أجواز الفضاء ، وينقبون فى باطن الأرض ، ويهتدون إلى حقائق ما سبقهم إليها سابق ، ثم أقيمت المدن ، وشقت

الطرق ، وحفرت الترع ، ورويت الأرض البور ، وتسابق الفنانون فى النقش والتصوير ، والنسج والتطريز ، والعمارة والبناء ، والموسيقى والغناء ، وأصبحت مدن الإسلام وعواصمه جامعات للعلم ، ومعاهد للدرس ، ومتاحف للفن ، وندوات للبحث ، وخزائن للكتب ، ومجالات للابتكار والابتداع ، فى عالم الفكر والصناعة ، وفى دنيا العلم والزراعة .

ثم لما أدال الدهر على المسلمين ، وانطفأت مشاعل العلم فى معاهدهم ، ومدارسهم ، وأقفرت حلقات الدرس فى جوامعهم ومساجدهم ، غلبت على الفكر الإسلامى ، فى انحداره وغروبه ، فكرة أن الدين الحق هو الذى يبيت فى ظله المسلمون على خوف ، ويستيقظون فى خوف ، وأن المسلم الصادق هو الذى يتوهم فى كل عمل يأتيه إثماً ، وفى كل قول يسمعه كفراً ، وفى كل رأى يدلى به صاحب رأى إلحاداً حتى كان الإسلام ، صنواً للوسوسة . أو شعوراً بالاضطهاد . وقد زاد من هذه البلية أن علماءهم ، أشفقوا – زمناً غير قصير – من الاجتهادات بدعوى أن السلطان فى بلاد المسلمين ، قد انتقل إلى أقوام لا صلة لهم بالدين ، ولا هم لهم إلا تثبيت ملكهم ، واسترقاق رعاياهم ، وخطف أرزاقهم ، ونهب أموالهم ، وهتك أعراضهم ، وهم فى ظلمهم وطغيانهم فى حاجة إلى من يحلل حرامهم ، ويبرر طغيانهم ، فلو فتح باب الاجتهاد ، دخل منه أدعياء الدين أفواجاً ، لاشرحاً لنص فى القرآن ولا استلهاماً لقاعدة من قواعد الشرع ، ولا قياساً على حكم ، انتهى إليه إجماع المسلمين ، بل تقرباً إلى الحكم وزلفى . والحق أن هذا الخطر واقع ، ولا توهم فيه ، ولا مبالغة ، ولكن هذا دور ( ذكر الله ) وأثره ، فإذا كان ذكر الله ، تطمئن به القلوب ، فلا خوف من صاحب سلطان مهما طغى ، ولا من حامل سيف مهما هدد أو أرعد ، وقد واجه علماء الإسلام ، والدين لا يزال غضاً ، محن اعتداء أصحاب السلطان فاستمسكوا بدينهم ، واحتملوا السجن والأذى ، وأشرفوا على الموت ، ولم يهنوا أو يضعفوا ، ولا يمكن

أن يكون الدين دينًا ، إلا إذا أعان على احتمال المشاق ، والصبر على المكاره ، مع الدعوة الملحة إلى أحكامه الكبرى ، فى مثابرة لاتنقطع ، وهمة لاتفتر .

فإذا عاد المسلمون داخل أوطانهم إلى ما كان عليه آباؤهم الأوائل ، كانت للمسلمين حياة بهيجة مشرقة . تزدان بالذوق والرقة ، واللطف والألفة وتتعانق فيها الفرحة بالعمل ، والترحيب بالجهاد : وثابت إليهم الثقة بأنفسهم ، فناقشوا ، وقرءوا ، وعرضوا أفكارهم ودافعوا عنها ، وسمعوا كلام الناس ، وأسمعوهم كلامهم ، وأحسوا أن دينهم مطلوب ، وأن دورهم باق لهم ومحفوظ ، وأن الإنسانية التى أحاطت بها المصائب والكوارث ، وسدت أمامهم سبل النجاة ، وتراكمت بين يديها المشكلات التى لا تحل ، والأزمات التى لاتنفرج ، فى أشد الحاجة إلى رأى علماء المسلمين الذى ورثوا عن أجدادهم تقاليد العلم الصحيح الذى لا يخاف ، ولا يهرب ، والذى يلقى بنفسه فى أمواج الألغاز والمعميات ، يسبح ما استطاع السبح ثم يقف ، ليستجم ، ويستعيد قواه ، ثم يستأنف العوم ، لا يخاف الغرق ، ولا يتقى البلل .

والحق أننا لا نطمع فى أن يدرك المسلمون ، هذه الحقائق المهجورة ، من دينهم ، فى يوم وليلة ، فالأمر يحتاج إلى جهاد طويل ، دونه العقبات والحوائل لأن الغاية : ليست بالصغيرة ، ولا بالقريبة ، ولكنها تستحق احتمال المشقة ، والصبر على المكاره .

ولو فعلنا لخرج جيل من المسلمين الأقوياء المطمئنين ، يبعثون فى قلوب آخرين أفزعهم حال الناس فى المشارق والمغارب ، الطمأنينة والسكينة ، تتقدمهم أعلام نقشوا عليها قول الله تعالى : ( ألا بذكر الله تطمئن القلوب ) .

# العقاب

نشرت « الأهرام » منذ سنين البيان الذى أذاعه « رمزى كلارك » المدعى العام فى الولايات المتحدة فى تقريره السنوى عن الجريمة فى بلاده، وقد جاء فى هذا البيان أنه تقع فى الولايات المتحدة جريمة قتل كل ٤٣ دقيقة ، وجريمة اغتصاب إناث كل ١٩ دقيقة ، وجريمة سرقة كل دقيقتين ، وجريمة سطو وجريمة اختطاف كل ٢٠ ثانية ، وجريمة سطو على السيارات كل ٤٨ ثانية .

ولا أدرى كم بلغت الجرائم فى السنين اللاحقة لإعلان هذا البيان ، ولكن الذى أعلمه أن «نيكسون» رئيس الولايات المتحدة قال فى خطابه السنوى للكونجرس إن من أهدافه الكبرى معالجة تزايد الجريمة . ونظام العقوبة فى دولة يقاس نجاحه بتناقص الجريمة فيها .

ولقد عالج الإسلام الجريمة بأسلوب يختلف تمامًا عن معالجة المشرع الحديث لها ، ولكن فلسفة العقوبة فى الإسلام لم تظفر بعد بما تستحقه من عناية فى تقريبها للأفهام ، وأول عناصر فلسفة الإسلام فى الجريمة والعقاب ، أن العقاب وحده لا ينفع فى ردع المجرمين ولا فى قمع الجريمة . فلابد من أمرين يتعاونان ليصل المجتمع الإنسانى إلى مايحتاج إليه من أمن واستقرار ، وحسن علاقة بين أفراده وجماعاته ، الأول : إحساس شديد بالواجب ، وضمير يقظ غاية اليقظة كاره للرذيلة والخطيئة ، ساهر كالديدبان .

والثانى : مجتمع تقل فيه بواعث الجريمة ودواعيها ، قبل قيام أجهزة العقاب والحساب ، والشرطة والحاكم ؛ مجتمع خال من أسباب الحرمان ،

ومن مثيرات الكراهية والحقد ؛ يجد فيه الفقير حاجته ، ويجد فيه الضعيف السبيل إلى رفع الصوت بالشكوى .

ولقد نجح القرآن بتأكيده للمسلمين أن الله معهم فى كل مكان وكل زمان فى أن يوقظ ضمائرهم . فقد قال لهم ، ( ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ) .

أما العنصر الثانى فقد تكفلت الشريعة الإسلامية كلها بخلق المجتمع الذى تتضاءل فيه أسباب الجريمة .

فإذا جاء العقاب فى الشريعة الإسلامية بعد ذلك ؛ كان بمثابة خط الدفاع الأخير .

فالعقوبات فى الحدود ، هى عقوبات منصوص عليها ولا سبيل للعفو عنها ، ولا التخفيف منها ، ولكنها قليلة ومحدودة ، إذ لا تزيد على ستة وهى — كما ذكرنا — حد السرقة ، وحد الزنا ، وحد الشرب ، وحد القذف ، وحد قطع الطريق ورفع السلاح .

وقطع يد السارق الذى يبدو للناس غليظًا مسرفًا فى الشدة ، أرحم من عقوبة السرقة بالحبس فى العهد الحديث ، وأنجع فى معالجة الجريمة ؛ ذلك أن الإسلام يفرق بين سارق جائع ، وسارق شبع ولكنه مع شبعه يعتدى على أرزاق الناس وأموالهم . فقد أوقف عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، حد السرقة فى عام المجاعة لما اشتدت حاجة الناس إلى الأقوات .

وأوقف حد السرقة فى حالة غلمان عبد الرحمن بن حاطب لما أحس أن سيدهم يجيعهم ولا يعطيهم حقوقهم قائلا : أما لولا أنى أظنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى لو وجدوا ما حرم الله أكلوه لقطعتهم » . فقطع يد السارق لا يقع ابتداء ، إنما لابد أن تسبقه مراحل من الدعوة ، ومن رفع المستوى الروحى والمادى للمجتمع ، ومن القضاء على أسباب السرقة ،

حتى لا يسرق إلا عدو للمجتمع . ولقد أوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم حد السرقة فى الحروب ، لأسباب تتعلق بأمن المجتمع . وهو يواجه أعداءه .

أما حد الزنا ، فلا ينفذ إلا فى جان أو جانية اعترفا على نفسيهما بالذنب وطلبا العقاب تكفيراً وتوبة ، أو بشهادة أربعة رجال ليس فيهم امرأة ، وأربعة رجال عدول يشهدون أنهم رأوا فعل الزنا كاملا . فقارن هذا بما يقضى به القانون الحديث من عقاب الزانى بشهادة واحد أو بالقرائن التى يقتنع فيها القاضى بحدوث الجريمة . وعقول القضاة كعقول الناس تتفاوت ، فعقوبة الزنا فى الإسلام هى فى الواقع حد لمنع نشر الرذيلة ، والتحدى بالفحشاء ، وإلى جانب هذا الحد يقوم أيضاً حديث رسول الله : « أيها الناس من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فاستتر فهو فى ستر الله » .

أما حد الشرب فلا يثبت إلا باعتراف الشارب ، أو إذا أحضر إلى مجلس القاضى ، ووجد منه القاضى رائحة الخمر ، ولا تكفى القرائن فى إثبات الجريمة ولا شك أن هذا الحد لا يقوم إلا بعد أن تحرم الحكومة تعاطى الخمر ، كما حرمته الولايات المتحدة سنين طويلة ، وأنفقت فى سبيل الإبقاء على هذا التحريم بلايين الدولارات .

أما حد القذف ، وهو الجلد ثمانين جلدة ، فلا ينفذ إلا فيمن اتهم رجلا أو امرأة بالزنا واللواطة ، ولم يقدم شهوداً أربعة على صحة دعواه ، ولا أحسب أن أحداً يستنكر هذا العقاب .

أما حد قطع الطريق ومحاربة الحكومة ورفع السلاح عليها ، فهو جزاء تنفذه جميع الدول ، ولا ترى داعياً إلى تسويغه ، وهو فى الإسلام الصلب أو قطع الأيدى والأرجل من خلاف أو النفى .

أما قتل من يرتد عن الإسلام فيقول فيه الشيخ عبد العزيز جاويش : وخلاصة رأينا فى ذلك أن القرآن لم ينص فى آية ما على قتل المرتدين عن

دين الإسلام . وأما الأحاديث التي سردها البخاري . فليس شيء منها فيما نرى جاء نصاً في القول بالقتل . كما يقول الشيخ شلتوت : « إن الكفر بنفسه ليس مبيحاً للدم ، وإنما المبيح للدم هو محاربة المسلمين . وإن طوابع القرآن الكريم في كثير من الآيات تأبى الإكراه » . .

فإذا انتقلنا إلى الباب الثاني من العقوبات في الإسلام . وهو باب القصاص . والقصاص لغة هو المقابلة والمماثلة . وسنده قول الله تعالى : ( وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف . . ) وقوله تعالى :

( وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ) ، والغاية منه أن يصاب الجاني بأذى مماثل لما لحق بالمجني عليه . وقد يصعب إنزال الجرح أو القطع أو الكسر بالجاني على وجه مماثل لما وقع بالمجني عليه ، لذلك أجاز الشرع أن يحل محل القصاص الفعلي ( معنى وصورة ) قصاص معنوي فقط . أي بدفع التعويض الذي تعرفه الشريعة اصطلاحا بالدية وللمجني عليه ، ولأولياء الدم إذا قتل المصاب ، العفو والنزول عن القصاص مقابل الدية ، أو بغيرها استناداً إلى قول الله تعالى : ( فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ) . وبمقتضى السنة أن للمجني عليه أن يقتص أو يعفو أو يأخذ الدية . وقد قال خادم الرسول أنس بن مالك رضي الله عنه : ما رفع إلى الرسول أمر فيه قصاص إلا طلب فيه العفو . وما دام العفو جائزاً في القصاص ، فهنا مجال فسيح لاجتهاد المجتهدين ، لنقل عبء القصاص إلى الدولة .

أما جرائم التعزير فهي كل الجرائم فيما عدا الحدود والقصاص . وعقوبات جرائم التعزير متروكة للوالي وللقاضي ، وبذلك هي تتراوح بين إحضار المتهم إلى القاضي والتوبيخ وبين القتل . ومعنى ذلك أن عقوبات قانوننا الذي ننفذه ، فيما عدا الحدود والقصاص ، هي جرائم تجيزها الشريعة .

وبعد ، فالقانون فى أى مجتمع ، وإن كان أساساً من أسس ذلك المجتمع ، هو جزء من كل ، ولبنة فى بناء ، فلا يتصور قيام قانون بفلسفة ما ، فى بناء يناقض هذه الفلسفة ويعاديها ، إنه ليكون كالقلب السليم ، فى جسم مريض يرفضه ويطرده .

# لماذا لم يرد لفظ الحرية فى القرآن ؟

كدت أجعل عنوان هذه الكلمة « لا حرية فى الإسلام » . ولكنى أشفقت أن يسوء وقع هذا العنوان فى النفوس ، وأن تغيب فكرته وحكمته فى شدة الغضب منه . أو بسبب الازورار عنه .

فمما لاجدال فيه ، أن الإسلام دين الحرية . جاء ليعلنها . وليوسع مداها . وليجعلها غاية ووسيلة ، ونهاية وبداية ، وجوهراً ومظهراً ، وسلاحاً يدفع به ، وحمى يدفع عنه . فلا إكراه فى الدين ، ولادين مع الإكراه ، ولا ثواب ولاعقاب للمضطر المحمول على العمل بغير إرادة أو نية .

ولكن مع هذا قد خلا القرآن من لفظ الحرية ، وما اشتق منها . فلم يرد فى الكتاب سوى لفظ « التحرير » ، بياناً لكفارة بعض الذنوب ، وقصد به إعتاق عبد أى فك رقبة . جاء هذا الحكم فى سورة النساء والمائدة والمجادلة ، ومثله الآية الثانية والتسعون فى سورة النساء : ( ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ) ، كما ذكر لفظ « الحر » مرة واحدة وهو يعنى به غير الرقيق .

أما الحرية بمعناها الذى نفهمه اليوم ، ونتداوله ونلوكه ، فلا ذكر له فى القرآن الكريم ولا أثر ؛ فما سر هذا ؟

إن القرآن ذكر أطوار الإنسان ، فمن تراب أو طين أو ماء مسنون إلى نطفة فعلقة فمضغة مخلقة أو غير مخلقة . فطفل ، إلى رجل يبلغ أشده ، فشيخ هرم قد يبلغ أرذل العمر ، ثم ذكر خصائصه فى النعمة والشدة ، ومواقفه عند الدعوة إلى الدين من إيمان وكفر ، ومن صدق ونفاق ، ومن ثبات وتردد ، لا إلى هؤلاء ولا أولئك ، وأطال الكتاب الكريم الحديث عن

خروج الإنسان من الضلال إلى الهدى ، ومن الظلام إلى النور ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الكفر إلى الإيمان ، ولكنه لم يتحدث قط عن الخروج من العبودية إلى الحرية ، فما السر فى ذلك أيضاً ؟

السر واضح لمن يعرف منهج القرآن وأسلوب الإسلام . فالعقيدة فى القرآن هى الأساس الذى تقوم عليه حياة المسلمين ودنياهم وأخراهم ، وتتلون به وتتأثر شئون معاشهم ومعادهم .

وكل ماعدا العقيدة ، إما باطل لا تحفل به . ولا تقف عنده ، وإما فرع منها ، أو أثر لها .

فالهداية هى غاية هذا الدين «الإسلام» ، وهدف ذلك الكتاب «القرآن» . وإذا اهتدى الناس ، وخرجوا من الظلام إلى النور ، ومن الكفر إلى الإيمان ، أصبحوا أحراراً . فالحرية لاتتحقق فى الإسلام وحدها ، فالإنسان لايكون حرًّا ، إلا إذا كان مؤمناً ، بما دعا إليه الإسلام . وإذا آمن ، كملت قوته ، فلم يعد يحسب حساب أية قوة خارجة على هذا الإيمان ، أو جاهلة له أو معتدية عليه ، وهو إذ لايخاف القوة ، أيًّا كانت ، يعلو عليها ويحس أنها أصغر من أن تخيفه ، أو تفرض عليه شيئاً «فيتحرر» فحريته نابعة من عقيدته ، و«الله أكبر» هو جوهر هذه العقيدة ، فما دام الله أكبر من كل شىء ، ومن كل شخص ، فالانقياد إليه ، واتباع ما يأمر به ، يكفى المؤمن التفكير فيما يأمر به أصحاب السلطان ، فإن التزموا ما تقضى به العقيدة الإسلامية من احترام الإنسان وتكريمه فلن يثور بينه وبينهم نزاع ، وإن خرجوا على هذه العقيدة « فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

من هنا لم يتحدث الإسلام قط عن الحرية ، لأنه تحدث طويلا عن الإيمان ، والفرد إذا آمن بالإسلام ، لايقول إنه تحرر ، وإن كان التحرر عنصراً من عناصر إيمانه ، وثمرة من ثماره . وكأن القرآن يقول — إذ أمسك عن ذكر الحرية ، وعن ذكر التحرر — إننا إذا سلخنا الحرية عن

العقيدة . رأينا أن ما حسبناه حرية — إذا لم تصل عقائد الحاكمين والمحكومين — عبودية . فليس فى الأنظمة كافة . حتى ولو كانت الإسلام نفسه . مايقى الناس من التردى فى مهاوى العبودية ، فما لم يكن الإسلام حقيقة يعيشها الناس . وإيماناً يخالط قلوبهم . لم يكف اسمه ولارسمه . ولا التمسح فيه ، ليحمى حرية الإنسان فبعد عهد الخلفاء الراشدين ، استحالت الخلافة . إلى ملك عضوض ، فانطفأ أكثر النور الذى كان يبعثه الإسلام فى القلوب ، فولى أمر المسلمين طغاة لايعرفهم الإسلام ولا يحسبون من عداد حكامه .

أدرك الإسلام هذا كله منذ أربعة عشر قرناً ، قبل أن تنشأ أنظمة الحكم الحديثة ومذاهب الفكر السائدة ، فلم يحدث الناس عن حريتهم ، إنما حدثهم عن أنفسهم ودعاهم إلى الإيمان لأنه الطريق المفضى إلى حرية حقيقية ، تواجه كل ظلم وكل تزييف .

ويخطئ الذين يحسبون أن الإيمان عند الإسلام استغراق فى الأوهام عن الدنيا ، أو فرار من الحياة ونكول عن أداء واجباتها الصغرى والكبرى معاً . فالإسلام أقام بناءه ، بعد جهاد كابد فيه المقاتلون الأوائل ، ومن جاء بعدهم ، مشكلات الحياة اليومية ومآزق السياسة الدولية ، ثم قال الإسلام للمسلمين إن المرء يثاب حتى على اللقمة يرفعها المرء إلى فم زوجته ، وقال لهم إن مداداً تريقه أقلام العلماء خير من دماء الشهداء ، وقال لهم إن فى ذنوب العبد ذنوباً لايكفرها الصيام ولا القيام ، فلما سألوا النبى صلى الله عليه وسلم : « وما يكفرها ؟ » قال لهم مامعناه : يكفرها السعى فى المعايش . من أجل ذلك سكت القرآن عن ذكر الحرية .

## الغيب

وصف الله تعالى فى أولى آيات سورة البقرة المتقين فقال إنهم ( الذين يؤمنون بالغيب ) ، فماذا يكون هذا الغيب ؟

قال القرطبى فى شرح الآية : « الغيب فى كلام العرب ، كل ما غاب عنك » .

ثم قال : « واختلف المفسرون فى تأويل الغيب هنا ، فقالت فرقة : الغيب فى هذه الآية ، الله سبحانه ، وضعفه ابن العربى ، وقال آخرون القضاء والقدر ، وقال آخرون : القرآن وما فيه من الغيوب ، وقال آخرون ، الغيب كل ما أخبر به الرسول عليه السلام مما لاتهتدى إليه العقول من أشراط الساعة ، وعذاب القبر والحشر والنشر ، والصراط والميزان والجنة والنار . قال ابن عطية ، وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها » .

ثم قال القرطبى : « وهذا هو الإيمان الشرعى المشار إليه فى حديث جبريل عليه السلام حين قال للنبى صلى الله عليه وسلم : فأخبرنى عن الإيمان قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » قال : صدقت . وذكر الحديث . وقال عبد الله بن مسعود ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب ، ثم قرأ : ( الذين يؤمنون بالغيب ) ثم قال القرطبى : وفى التنزيل : ( وما كنا غائبين ) وقال « الذين يخشون ربهم بالغيب » فهو سبحانه غائب عن الأبصار ، غير مرئى فى هذه الدار ، غير غائب بالنظر والاستدلال ،

فهم يؤمنون بأن لهم ربًّا قادراً يجازى على الأعمال، فهم يخشونه فى سرائرهم وخلوهم التى يغيبون فيها عن الناس . لعلمهم باطلاعه عليهم وعلى هذا تتفق الآى ولا تتعارض . والحمد لله » .

وقال ابن جرير الطبرى فى تفسير الآية : « عن ابن عباس ( بالغيب ) قال بما جاء منه . يعنى من الله جل ثناؤه وعن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : أما الغيب فما غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار ، وما ذكر الله تبارك وتعالى فى القرآن . لم يكن تصديقهم بذلك ، يعنى المؤمنين من العرب — من قبل أصل كتاب أو علم كان عندهم » .

وعن زر قال : الغيب القرآن ، وعن قتادة : « آمنا بالجنة والنار ، والبعث بعد الموت ، وبيوم القيامة ، وكل هذا غيب » . وعن الربيع ابن أنس : « ( الذين يؤمنون بالغيب ) : آمنوا بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ، وجنته وناره ولقائه ، وآمنوا بالحياة بعد الموت ، فهذا كله غيب وأصل الغيب : كل ما غاب عنك من شىء وهو من قولك : غاب فلان يغيب غيباً » .

وجاء فى تفسير المنار أن الإيمان بالغيب هو الاعتقاد بوجود وراء المحسوس ، وجاء فى التفسير أن الشيخ محمد عبده قال : وصاحب هذا الاعتقاد واقف على طريق الرشاد ، وقائم على أول المنهج ، لا يحتاج إلا لمن يدله على المسلك ، ويأخذ بيده إلى الغاية ، فإن من يعتقد بأن وراء المحسوسات موجودات يصدق بها العقل ، وإن كانت لا يأتى عليها الحس ، إذا أقمت له الدليل على وجود فاطر السموات والأرض المستعلى عن المادة ولواحقها ، المتصف بما وصف به نفسه على ألسنة رسله ، سهل عليه التصديق ، وخف عليه النظر فى جلى المقدمات وخفيها ، وإذا جاء الرسول بوصف اليوم الآخر ، أو بذكر عالم من العوالم التى استأثر الله بعلمها — كعلم الملائكة مثلا لم يشق على نفسه تصديق ما جاء

به الخبر ، بعد ثبوت النبوة ؛ لهذا جعل الله سبحانه وتعالى هذا الوصف ، فى مقدمة أوصاف المتقين الذين يجدون فى القرآن هدى لهم » .

ثم قال :

« ولما كان الإيمان بالغيب يطلق عند الناس على ذلك الاستسلام التقليدى الذى لم يأخذ من النفس إلا ما أخذ اللفظ من اللسان ، وليس له أثر فى الأفعال ، لأنه لم يقع تحت نظر العقل : ولم يلحظه وجدان القلب : بل أغلقت عليه خزانة الوهم ، ومثل هذا الذى يسمونه إيماناً لايفيد فى إعداد القلب للاهتداء بالقرآن » .

ولقد ورد لفظ ( الغيب ) كمصطلح قرآنى ، بالمعنى الذى سلف به القول ، مرة واحدة ، أى فى الآية الأولى من سورة البقرة ، ولكنه ورد بمعنى « المجهول » بصيغة المفرد وصيغة الجمع ، فى نحو بضعة وأربعين موضعاً ، من ذلك ما وصف به الله تعالى ذاته من أنه عالم الغيب والشهادة ( عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ) [1] ، (ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ) [2] ، ( عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ) [3] وجاء هذا الوصف بصيغ الجمع فى سورة المائدة : ( قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ) ، وفى سورة التوبة : ( ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب) ، وفى سورة سبأ ( قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب ) .

وعن الماضى المجهول وردت فى أكثر من موضع عبارة « أنباء الغيب» ففى سورة آل عمران : ( ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ) ، وفى سورة يوسف ( ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) وفى سورة هود : ( تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ) .

أما المجهول المضمر عند الله فقد ورد عنه فى سورة الأنعام :

---

( ١ ) سورة المؤمنون . ( ٢ ) سورة السجدة .

( ٣ ) سورة الرعد .

( لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ) ، وفى الأعراف : ( ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ) وفى سبأ : ( لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين » .

ويستعمل القرآن لفظ الغيب . بمعنى ما يجرى فى غيبة إنسان ما ، أو ما يجرى ولا يرى بالعين ، وإنما يعرف وجوده بالعقل ، ويحس بالوجدان ، فبالمعنى الأول ما جاء فى سورة يوسف : ( ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ) . وما جاء فى سورة النساء ( حافظات للغيب ) .

وبالمعنى الثانى ماجاء فى سورة الأنبياء : ( الذين يخشون ربهم بالغيب ) ، وفى سورة يس : ( إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ) .

فالغيب الذى يكون الإيمان به من خصائص المؤمن المسلم المتقى ، هو فى رأى بعض أصحاب الرسول هو « الله » سبحانه وتعالى ، وهو فى رأى فريق آخر من هؤلاء الرجال ، الذى قام الإسلام على قواعد من إيمانهم الخالص بالله ورسوله ، هو القرآن ، وعند فريق ثالث هو كل ما أخبر به الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، مما لاتهتدى إليه العقول من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان .

والمتفق عليه أن للمسلم أن يختار من هذه الآراء ما يطمئن إليه قلبه ، وتهدأ عنده نفسه ، إذ ليس هناك مذهب رسمى ، يحمل عليه المسلمون فيما تختلف فى تحصيله وإدراكه الأفهام ، وتتفرق فى استنباطه واستخراجه العقول ، ما دام يخلص إلى رأى له سند من الكتاب أو السنة ، أو منهما معاً . بعد اجتهاد صادق . وكان مؤهلا للاجتهاد بحكم علمه باللغة والقرآن والسنة ، وبحكم تجرده من الهوى والغرض .

فليس الغيب مرادفاً للغيبوبة ، عند المسلمين ، وليس هو رخصة ممنوحة بلا مقابل للدجالين والمشعوذين والراغبين فى الاستغراق فى الأحلام والأوهام ، ولا هو منحة للكسالى عقلياً ونفسيا ، الذين يؤثرون أن يتلقوا

من الآباء والأجداد ، أو من القادة والرؤساء ، أو من الأساتذة والمربين ، إيمانًا معدًا لهم ، يتجرعونه كالدواء دفعة واحدة ، ثم يريحون ، عقولهم من أن تفكر ، ونفوسهم من أن تتدبر وتتأمل ، وعزائمهم من أن تجاهد وتعانى ، فإذا صادفتهم صعوبة ، أو اعترض سبيلهم مجهول ، أو استعصت عليهم مشكلة اعتبروها جزءاً من الغيب الذى استأثر الله بعلمه ، والذى يجب على المؤمن أن يفوض فيه أمره إلى الله ، لا يبحث ولا يتساءل ، ولا يدرس ولا يناقش ، فيصبح فريسة سهلة ، للذين يتخذون من عقول الناس ونفوسهم أنعامًا ، ليقودوهم من خطامهم إلى حيث يريدون ، ليكسبوا من تكتلهم وراءهم جاهًا ، ومالا .

فالغيب عند المسلمين هو صنو العلم ومرادفه ، وباب المعرفة وسبيلها ، وليس حَجْراً على العقول ، ولا قيداً على الأفهام ، فالعالم ، هو أولى الناس بأن يقول لا أعرف ، ولا أعلم ، لأن العلم ، والاجتراء على المعرفة هو داء أقتل من الجهل ، وأسوأ من العجز .

وما هنا جاء فى القرآن آيتان ، تكمل إحداهما الأخرى : ( وقل ربى زدنى علمًا ) ، ( وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ) .

ولقد درج تلامذة العلم المادى ودعاته ، على الهزء والسخرية من الدين والمتدينين ، لأن الدين ، يدعو الآخذين به ، والسائرين فى طريقه ، إلى الإيمان « بالغيب » ، ويحسبون أن عدم إيمانهم بالغيب ، وعدم تسليمهم بوجوده ، هو لأن العلم الذى أتيح لهم هو علم كامل ، وأنهم نجحوا فى تنقيته من شوائب الجهالة والخرافات والأوهام ، وأنهم تحصنوا ضد الدجل والأكاذيب والخزعبلات . والحق أنهم بذلك يسجلون على أنفسهم الجهل مرتين .

المرة الأولى ، لأنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء معرفة ما يقصده الدين ، والدين الإسلامى ، بصفة خاصة ، « بالغيب » ، وبأثر هذا الاعتقاد ، فى علماء المسلمين ، ونصيبه فى إنشاء الحضارة الباهرة التى لانزال ننعم

بها إلى اليوم ، باعتبار أن العرب هم الممهدون والرواد السابقون مباشرة على عصر النهضة الحديثة فى أوربا التى أفضت إلى عصر الثورة العلمية ، ثورة البخار فالحديد والصلب : فالكهرباء فالطاقة الذرية .

أما المرة الثانية ، فهى حينما يحسبون أن العلم نجح ، أو سينجح ، فى أن يحيط بكل قوى العالم ، وقوى الإنسان معاً ، وأنه يستغنى بهذا العلم عن الإحاطة بجوانب الكون غير المرئية ؛ وبمصير الإنسانية الكلى ، بعد كل ما تجمع للإنسان من أسباب السيطرة على المادة التى حوله .

والحق أننى أحب أن أدع الكلام هنا إلى عالم وطبيب ، وحاصل على جائزة «نوبل» سنة ١٩١٢ لأبحاثه الطبية ، ذلك هو ألكسيس كيريل فى كتابه « الإنسان ذلك المجهول » قال :

« إن العلم الذى حول العالم المادى يمد الإنسان بالقوة على تحويل نفسه ، فقد كشف له عن بعض ميكانيكيات الحياة السرية ، وأراه كيف يعدل حركته ، وكيف يصوغ جسمه وروحه فى قوالب ونماذج ولدتها رغباته ، فلأول مرة فى التاريخ أصبحت الإنسانية ، بمساعدة العلم سيدة مصيرها ، ولكن هل نصبح قادرين على استخدام هذه المعرفة بأنفسنا لمصلحتنا الحقيقية ؟ يجب أن يعيد الإنسان صياغة نفسه حتى يستطيع التقدم ثانية . .

« ومن حسن الحظ أن حادثاً لم يخطر على بال المهندسين والاقتصاديين والسياسيين قد حدث . ذلك أن صرح المالية الأمريكية قد انهار فجأة ، وفى بادى الأمر لم يصدق الجمهور وقوع الكارثة فعلا . . ولكن الإنسان أصغى إلى شروح الاقتصاديين فى استسلام مؤملا فى عودة الرخاء . إلا أن الرخاء لم يعد ، ولهذا بدأ أكثر رؤساء القطيع ذكاء ، يرتابون ويتساءلون : هل أسباب الأزمة اقتصادية ومالية فقط ؟ ألا يجب أن نتهم أيضاً فساد الساسة ورجال المال وغباءهم ، وجهل الاقتصاديين وأوهامهم ؟ ألم تهبط الحياة العصرية بمستوى ذكاء الشعب كله وأخلاقه ؟ لماذا يجب

أن ندفع ملايين الملايين من الدولارات كل عام لنطارد المجرمين ؟ لماذا يستمر رجال العصابات فى مهاجمة المصارف بنجاح ، وقتل رجال الشرطة ، واختطاف الناس وارتهانهم ، أو قتل الأطفال بالرغم من المبالغ الضخمة، التى تنفق فى مقاومتهم ؟لماذا يوجد هذا العدد الكبير من المجانين ، وضعاف العقول بين القوم المتحضرين ؟ ألا تتوقف الأزمة العالمية على الفرد والعوامل الاجتماعية الأكثر أهمية من العوامل الاقتصادية ؟ » .

و « كيريل » يتحدث هنا عن الأزمة الاقتصادية التى نشبت فى ١٩٣٠ واستمرت حتى منتصف العقد الرابع فى القرن العشرين ، لا عن أزمة النقد المستحكمة التى وقعت سنة ١٩٧٢ ثم عادت إلى الظهور ، على نطاق أوسع ، وبصورة أكثر تعقداً فى سنة ١٩٧٣ ، والتى لم تجد لها حلا إلى الآن . فما أشبه الليلة بالبارحة !

وقال« كيريل» : « يجب أن نحطم الحواجز التى أنشئت بين أجزاء المواد الصلبة وبين الجوانب المختلفة لأنفسنا ، فإن الغلطة المسئولة عما نعانيه إنما جاءت من فكرة لطيفة « لجاليليو » فقد فصل « جاليليو » كما هو معروف جيداً ، الصفات الأولية للأشياء ، وهى الأبعاد والوزن التى يمكن قياسها بسهولة عن صفاتها الثانوية وهى الشكل واللون والرائحة التى لا يمكن قياسها . . ففصل الكم عن النوع ( الكيف ) ؛ ولقد جلب ( الكم ) المعبر عنه باللغة الحسابية العلم فى حين أهمل الكيف . . لقد كان تجريد الأشياء عن صفاتها الأولية أمراً مشروعاً ، ولكن التغاضى عن الصفات الثانوية لم يكن كذلك . . فالأشياء غير القابلة للقياس فى الإنسان أكثر أهمية من تلك التى يمكن قياسها .. فوجود التفكير هام جداً مثل التعادل الطبيعى ـ الكيميائى لمصل الدم ...

ثم قال : « لما اتخذت التركيبات العضوية ؛ والآليات الفسيولوجية حقيقة أكبر كثيراً من التفكير والسرور والحزن والجمال ؛ دفعت هذه الغلطة الحضارة إلى سلوك طريق أدى إلى فوز العلم وانحلال الإنسان .

« وإذا كان على الحضارة العلمية أن تتخلى عن الطريق الذى سارت فيه منذ عصر النهضة ، وتعود إلى ملاحظة المادة الجامدة ببساطة ، فسوف تقع أحداث عجيبة على الفور ؛ ستفقد المادة سيادتها ، ويصبح النشاط العقلى هاماً كالنشاط الفسيولوجى . وسيبدو ألا مفرّ من دراسة الوظائف الأدبية والجمالية والدينية . كدراسات الرياضة والطبيعة والكيمياء . . سوف تبدو وسائل التعليم الحالية سخيفة ، وتضطر المدارس والجامعات إلى تعديل برامجها ، وسيسأل علماء الصحة عن السبب الذى يحدوهم إلى الاهتمام فقط بمنع الأمراض العضوية دون الأمراض العقلية والاضطرابات العصبية ، كما سيسألون عما يجعلهم لا يبذلون اهتماماً بالصحة الروحية .

« ولسوف يدرك الاقتصاديون أن بنى الإنسان يفكرون ويشعرون ويتألمون ، ومن ثم يجب أن تقدم إليهم أشياء أخرى غير العمل والطعام والفراغ وأن لهم احتياجات روحية مثل الاحتياجات الفسيولوجية .

وختم كلامه، بقوله : « ولما كان من الواضح أن تحرير الإنسان من مذهب المادية سوف يقلب أغلب جوانب حياتنا ، فإن المجتمع العصرى ، سوف يعارض بكل قوته هذا التقدم فى آرائنا » .

وخلاصة كلام « كيريل» الطبيب الباحث العلمى ، أن مصائب الإنسانية التى تتوالى على رأسها ، والتى تمزق شعوبها ، وتلقى بها فى أتون الحروب العالمية حيناً ، وسعير من الحروب الداخلية حيناً آخر ، وفى أزمات المال والاقتصاد مرة وأزمات السياسة والأحزاب مرة أخرى ، مردها أن الحضارة الحالية تقوم على دراسة الجانب المحسوس من الكون وإهمال ما لا يحس ، ولا يقاس ، ولايوزن . . أى أن المعرفة الإنسانية بها خلل أدى إلى خلل الحياة الإنسانية ، وظهر هذا الخلل فيما تظهره الإحصائيات العلمية وإحصاءات أجهزة الأمن من أن الأمراض العقلية والعصبية والنفسية فى تزايد مستمر ، فى أرقى المجتمعات الأوربية والأمريكية .

وكلما زاد الرخاء المادى ، وبدا العلم متفوقـًا ومحققـًا المعجزات فى دولة زاد فيها عدد الجرائم ، وعدد المعتوهين والشواذ والمنحرفين ، والمصابين بأمراض النفس والعقل؛ مثل ذلك ما أورده « إريك جون دنج وول » الكاتب الأمريكى فى كتابه : « المرأة الأمريكية » من أن فى الولايات المتحدة نحو عشرين مليونـًا ممن يعانون من الأمراض النفسية والعصبية؛ أى نحو عشر سكان الولايات المتحدة . وفى إحصائية حديثة نشرتها وزارة الشئون الاجتماعية عن نسبة الأمراض العصبية والنفسية فى السويد ثبت أن ٢٥ فى المائة من السويديين مصابون بأمراض عصبية ونفسية ، وأن ٣٠ فى المائة من مجموع النفقات الطبية فى السويد تنفق فى علاج الأمراض العصبية والنفسية ، وأن نسبة حالات الانتحار بين الشابات تزداد . وعقب المراقبون على هذه الإحصائية بقولهم إنها تدعو إلى الذهول ، لأن السويد تعتبر من أغنى أربع دول فى العالم .

ومن قبل أعلن رمزى كلارك النائب العام فى الولايات المتحدة إحصائية عن الجرائم فى الولايات المتحدة ، علقنا عليها من قبل ،وهى فى رأينا تدعو إلى ذهول أكبر ، إذ يظهر منها أنه لاتنقضى إلا بضع ثوان فى الولايات المتحدة لتقع جريمة قتل أو خطف أو اغتصاب إناث ، أو سطو مسلح ، أو حريق عمدى ، دع عنك جرائم التزييف وتهريب المخدرات والنصب والاحتيال وابتزاز المال بالتهديد أو العنف .

أليس كل ذلك قاطعـًا فى أن مجتمع العلم المادى مجتمع فاسد ، ضار ينحدر إلى هاوية الجنون والانتحار ، والجريمة ؟!

فالعلم لايرفع عينه عن جانب واحد من حياة الإنسان ، ويتعالى عن جوانبها الأخرى ، ويتجاهلها ، ويرمى بالنقص والعته من يلتفت إليها ، أو يقف أمامها . ولكن الدين لا يفعل فعله ، خذ مثلا موقف الدين من الروح التى هى إحدى عناصر الغيب . إن المتدين لا يزعم أنه قادر على أن يجوس خلال مجاهلها ، ولا أن يعرف شيئـًا من عناصرها ،أو

يزعم أن لها عناصر . ولكنه لاينكر وجودها ؛ لأن علماء الفسيولوجيا والبيولوجيا لا يقولون إن الإنسان هو مجموع ظواهره الحيوية فحسب ، ويقررون أن إلى جانب الحياة شيئاً آخر يجعل من الإنسان إنساناً ، يضحى بحياته . من أجل مثل أعلى ، كما يضحيها من أجل أولاده وعائلته . وأحياناً من أجل لقمة العيش. فإلى جانب أجهزة الإنسان الهضمية والتنفسية والتناسلية والعصبية يوجد نشاط لا تفسير له إلا أن الإنسان ليس جسداً فحسب ، وإنما هو جسد وروح . ولكن ماذا تكون الروح ؟ لا أحد يعرف ، ولا أحد يقوى على الإنكار إلا على سبيل المكابرة . الدين يقول إن الروح من أمر ربى ، فهو يؤكد وجودها . أما العلم فيسقطها من حسابه ، ويتجاهل وجودها ، وبوده أن يثبت أنها وهم . ومن هنا يحدث هذا الخلل المروع فى هذا البناء الرائع ، بناء الحضارة الحديثة القائمة على الرياضيات و ( الميكانيكيات ) والمؤدى إلى إطلاق الطاقة الهائلة المنبعثة من تفتيت المادة والكشف الهائل لعالم الإلكترونات والليترونات .

فالإنسان بعد كل هذا النجاح الذى حققه فى تسخير المادة ، وإطلاق الطاقة ، لا يزال كالعهد به فى عهد الغابة ، لا ينفلك عن القتل والتدمير : يقتل أقرب الناس إليه ، وأحبهم لديه : أهل وطنه ، وأهل دينه ، وليس ثمة شهادة بالإخفاق ، أكبر من هذه الشهادة ، ولا أوضح منها . إنها شهادة دامغة ، لا ترد .

وإذا كان أمثال « كيريل » بعد أن شبعوا من البحث العلمى ، وحققوا بفضله ما حققوا من المكانة ، ينادون بأن الإنسان لابد أن يعيد صياغة نفسه ، وأن الخطأ الذى بدأ به الإنسان ، هو إعلاؤه من شأن الكم عن النوع أو الكيف ، والاحتفال بالوزن والبعد ، دون الاحتفال بالشكل والرائحة ، أى بما يقاس ويوزن ويكال ، دون الاحتفال بما يحس ويتذوق .

يجب أن يفهم علماء علم الطبيعة والكيمياء ، وعلم الحياة وعلم وظائف الأعضاء وأن يسلموا بأن الحياة الإنسانية لاتفسير لها إلا بأن هناك غيبـًا ، وأن الإقرار بهذا الغيب هو واجب علمى ، لا مجرد مهادنة للدين ، ولا خضوع لموروثهم الوجدانى ، الذى آل إليهم عن الآباء والأجداد ، وعليهم أن يدركوا أن الدين فى معناه السامى ، حينما يؤكد الغيب ، إنما يستكمل دراسة هذا الكون دراسة علمية ، لا أن يفتح بابـًا للأوهام ، ولا لمدجل الدجاجلة ، وشعوذة المشعوذين .

وإن الدين فى ذاته لا يزال أكبر ما قام به الإنسان من نشاط علمى ، وإنه لايزال رائد العلم ، وهاديه وحاميه . وإذا كان دين الإنسان البدائى خليطـًا من الحقائق والأوهام ، فذلك لأن العلم فى أعلى مراتبه هو خليط من الحقائق والأغلاط ، وأن العلم نفسه يكشف كل يوم أن ما اعتبره الحقيقة الكاملة ، فى يوم من الأيام ، كان بعض الحقيقة : نصفها أو ربعها أو أقل من ذلك ، بل إنه يعثر كل يوم على الدليل على خطئه الكامل ، فى أمور بعضها ثانوى جزئى ، وبعضها أساسى وجوهرى .

وإذا كان الإسلام قد قرر فى كتابه الكريم : ( إن الله لايغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ) ، فقد كان هذا المبدأ هو حجر الزاوية فى إطلاق عقل الإنسان من ربقة أكبر الأوهام ، وأكثرها فتكـًا به ، وإهداراً لقوته . فالشرك لم يكن إنكاراً لوحدانية الله ، ولا عجزاً عن الاهتداء إلى القوة الخالقة للأكوان والمسيرة لها ، والمدبرة لها ، وإنما كان عجزاً عن إعمال الفكر ، وقعوداً عن استنباط الحقيقة ، وخضوعـًا لأعداء العقل الإنسانى وكرامة بنى الإنسان ، المستغلين سلطة الوهم عليه ، المثيرين فى نفسه الخوف من كل ما يحيط به من ظواهر الطبيعة وقواها . ولم يكد الإسلام يفرغ من تحرير عقل الإنسان من هذا القيد الرهيب ، حتى أخذ يستحثه بكل وسيلة ، ويدفعه بكل أسلوب ، لأن يتفكر ويتدبر ، ويتعقل ، وينظر فى نفسه ، وفى

الآفاق ، وفى النجوم ، وفى الكواكب ، وفى دلالات توالى الليل والنهار فى انتظام ، وإقبال الفصول وإدبارها فى استقرار ، وعجائب الخلق ، واتساع الكون ، وجمال الحياة ، ولذائذها ، وأسباب انبعاث الشرور فيها ، وطرائق التضييق على معكرى صفوها ، ومقوضى نظامها . وبالجملة فتح الإسلام ، أمام العقل الإنسانى ، أبواب العلم بمختلف دروبه وفروعه ، وثبت أقدامه على طريق المعرفة وأكد له بأنها السبيل إلى العزة ، وإلى المنعة ، ثم إلى الجنة .

وإذا كانت محاربة الشرك ركن الزاوية فى بناء العلم ، فقد ضمن الإسلام للعقل الإنسانى الحماية والحصانة ، حينما أكد بشرية الرسل ، الذين هم حملة العلم إلى الناس ، وأكد إلى جانب ذلك أنهم لا يعلمون الغيب ، وأنهم فى هذا كسائر بنى آدم ، ففى سورة الأنعام : ( قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ) ، وفى السورة نفسها ( وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ) ، وفى الأعراف : ( ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ) ، وفى يونس ( إنما الغيب لله فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ) . وإذا كان الرسل لا يعلمون الغيب ، وإذا كان علم الغيب عند الله وحده ، فقد أقفل باب الاتجار بهذا الغيب ، فى وجه كل من ينسب نفسه إلى الأنبياء من أتباع وخلفاء وأوصياء ، ومفسرى علمهم ، وشارحى دينهم . ولو بقى هذا الباب مفتوحاً ، لو لجه آلاف من المضللين . ايطلعوا على الناس بدعاوى لا أول لها ولا آخر .

وامتلأ القرآن بعد ذلك بعثات من قواعد العلم القائم على التجربة والتمحيص ، والمقابلة والاستقراء ، من ذلك ما جاء فى سورة النجم : ( وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً ) ، وما جاء فى سورة الفرقان ، بياناً لصفات المؤمنين من أنهم من ( الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً ) ، أى أنهم يتدبرون الآيات ولا يصدقون بها إلا بعد تفكر وتأمل ، وفى سورة

الحجرات : ( يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ) .

ويرفع القرآن قدر الدليل والحجة ويسميها « سلطانًا »، ويسأل الرسول عليه الصلاة والسلام المشركين عن الدليل دائمًا ، ويطالبهم به ويقول القرآن : (أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين ) . وتمتلئ آيات القرآن بلفظ ( البينة ) ، و ( البينات ) وهي الأدلة والبراهين ، ويؤكد أن الرسل حين أرسلوا جاءوا بالبينات ، لا بمحض دعوة ( وجاءتهم رسلهم بالبينات )[١]؛ ( جاءتهم رسلهم بالبينات ، فردوا أيديهم في أفواههم )[٢] .

ولا عجب بعد ذلك أن يقرر القرآن الكريم : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » لأن معرفة الله ، هي أصل المعرفة ، والمعرفة لا تتأتى إلا لمن يسعى إليها ، فإن دانت له كان من العلماء .

فإذا سولت لأحد نفسه — بعد ذلك — أن يعتبر الغيب عند المسلمين استسلامًا للوهم ، أو ركونًا للجهل ، أو أخذاً عن السلف دون فهم ، أو كرهًا للعلم ، أر زهداً في البحث ، أو عجزاً عن النظر ، أو تضييقًا في حرية الفرد ، أو إرهابا لصاحب رأي . فإنه لايعرف الإسلام ولم يقرأ القرآن ، ولم يستفت التاريخ ليفتيه كم للإسلام والمسلمين من أياد على العلم ، او لاها لما حقق العلم ما حقق ، وإذا كان العلم قد ضل عن غايته ، والتوى عن قبلته ، فلأن المسلمين تقاعسوا اليوم عن أداء رسالتهم ، فأصبح علم الناس ، علمًا بلا روح ، أو غلبته المادة ، واستاثرت به ، فأصبح شأنه شأن كل سجين ، لايرى من الدنيا ، إلا ما تسمح به طاقة السجن ، مع إحساسه بمرارة القيد ، وقسوة الأسر ، ومن يدري فقد يستأنفون جهادهم ، ليعيدوا للعلم حريته ، وبالتالي للإنسان كرامته .

---

( ١ ) سورة يونس .　　( ٢ ) سورة إبراهيم .

# الملائكة

جاء فى تفسير القرطبى ، شرحاً للآيتين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين بعد المائة من سورة آل عمران : (إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا ، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ) .

قال بعضهم إن الملائكة كانوا يقاتلون مع المسلمين ، وكانت علامة ضربهم فى الكفار ظاهرة لأن كل موضع أصابته ضربتهم اشتعلت فيه النار ، حتى إن أباجهل قال لابن مسعود : أنت قتلتنى ؟! إنما قتلنى الذى لم يصل سنانى ( أى حد سيفى ) إلى سنبك فرسه ( أى إلى حافر فرسه ) ، وإن اجتهدت . وإنما كانت الفائدة فى كثرة الملائكة لتسكين قلوب المؤمنين ، ولأن الله تعالى جعل أولئك الملائكة مجاهدين إلى يوم القيامة ، فكل عسكر صبر واحتسب . تأتيهم الملائكة ويقاتلون معهم . وقال ابن عباس ومجاهد : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر ، وفيما سوى ذلك يشهدون ولا يقاتلون ، إنما يكونون عدداً أو مدداً . فقال بعضهم : إنما كانت الفائدة فى كثرة الملائكة ، أنهم كانوا يدعون ويسبحون ، ويكثرون الذين يقاتلون يومئذ ، فعلى هذا لم تقاتل الملائكة يوم بدر ، وإنما حضروا للدعاء بالتثبيت ، والأول أكثر » .

قال قتادة : كان هذا يوم بدر ، أمدهم الله بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف فذلك قوله تعالى : (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) ، وقوله : (ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ) ، وقوله :

( بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا ، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ) .

فصبر المؤمنون يوم بدر واتقوا الله فأمدهم بخمسة آلاف من الملائكة على ما وعدهم ، فهذا كله يوم بدر . .

قال الشعبي : بلغ النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين فأنزل الله تعالى : ( ألن يكفيكم — إلى قوله مسومين ) . فبلغ كرزاً الهزيمة ، فلم يمدهم ورجع ، فلم يمدهم الله أيضاً بالخمسة آلاف وكانوا قد مدوا بألف ، وقيل إنما وعد الله المؤمنين يوم بدر إن صبروا على طاعته واتقوا محارمه أن يمدهم أيضاً في حروبهم كلها ، فلم يصبروا ولم يتقوا إلا في يوم الأحزاب ، فأمدهم حين حاصروا قريظة ، وقيل إنما كان هذا يوم أحد ، وعدهم الله المدد إن صبروا ، فما صبروا فلم يمدهم بملك واحد ولو أمدوا ، لما هزموا .

ثم قال : ا

نزول الملائكة سبب من أسباب النصر ، لا يحتاج إليه الرب تعالى ، وإنما يحتاج إليه المخلوق فليعلق القلب بالله ، وليثق به ، فهو الناصر بسبب ، وبغير سبب : ( إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ) ، لكن أخبر بذلك ليمتثل الخلق ما أمرهم به من الأسباب التي قد قلت من قبل ( ولن تجد لسنة الله تبديلا ) . ولا يقدح ذلك في التوكل ، وهذا رد على من قال : إن الأسباب إنما سنت في حق الضعفاء ، لا للأقوياء فإن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا الأقوياء وغيرهم هم الضعفاء وهذا واضح » .

**وجاء في تفسير المنار :**

« وأنكر أبو بكر الأصم قتال الملائكة وقال : إن الملك يكفي في إهلاك أهل الأرض كما فعل جبريل بمدائن قوم لوط ، فإذا أحضر هو يوم

بدر فأى حاجة إلى مقاتلة الناس الكفار ؟ وبتقدير حضوره . أى فائدة من إرسال سائر الملائكة ، وأيضاً فإن أكابر الكفار كانوا مشهورين ، وقاتل كل منهم من الصحابة معلوم .

« وأيضاً لو قاتلوا فإما أن يكونوا بحيث يراهم الناس أو لا ؟ وعلى الأول يكون المشاهد من عسكر الرسول ثلاثة آلاف وأكثر ولم يقل أحد بذلك ، ولأنه خلاف قوله : ( ويقللكم فى أعينهم ) ، ولو كانوا فى غير صورة الناس لزم وقوع الرعب الشديد فى قلوب الخلق ولم ينقل ذلك ألبتة » .

« وعلى الثانى ، كان يلزم جز الرؤوس وتمزق البطون وإسقاط الكفار، من مشاهدة فاعل ، ومثل هذا يكون من أعظم المعجزات ، فكان يجب أن يتواتر ويشتهر من المسلم والكافر ، والموفق والمخالف .. وأيضاً أنهم لو كانوا أجساماً كثيفة وجب أن يراهم الكل ، وإن كانوا أجساماً لطيفة فكيف ثبتوا على الخيول .

**وجاء فى تفسير المنار : نقلا عن الشيخ محمد عبده :**

الملائكة خلق غيبى لا نعرف حقيقته ، وإنما نؤمن به بإخبار الله تعالى الذى نقف عنده ولا نزيد عليه . ثم قال : إن إلهام الخير والوسوسة بالشر ، مما جاء فى لسان صاحب الوحى صلى الله عليه وسلم كل منهما محله الروح ، فالملائكة والشياطين إذن تتصل بأرواح الناس ، فلا يصح أن تمثل الملائكة بالتماثيل الجثمانية المعروفة لنا ، لأن هذه لو اتصلت بأرواحنا ، فإنما تتصل بها عن طريق أجسامنا ، ونحن لا نحس بشىء يتصل بأبداننا لا عند الوسوسة ولا عند الشعور بداعى الخير من النفس ، فإذن هى من عالم غير عالم الأبدان قطعاً . والواجب على المسلم فى مثل هذه الآية : الإيمان بمضمونها مع التفويض أو الحمل على أنها حكاية تمثيل ثم الاعتبار بها بالنظر فى الحكم التى سيقت لها القصة .

**ويقول الشيخ رشيد رضا :** إن إسناد الوسوسة إلى الشياطين معروف فى الكتاب والسنة ، وأما إسناد إلهام الحق والخير إلى الملائكة فيؤخذ

من خطاب الملائكة لمريم عليها السلام. ومن حديث الشيخين فى المحدثين وكون عمر منهم — والمحدثون بفتح الدال وتشديدها : الملهمون . ومن حديث الترمذى والنسائى وابن حبان وهو « إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاز بالشر ، وتكذيب بالحق . وأما لمة الملك فإيعاز بالخير وتصديق بالحق .

ثم قال الشيخ **محمد عبده** : وذهب بعض المفسرين مذهباً آخر فى فهم معنى الملائكة : وهو أن مجموع ما ورد فى الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من إنماء نبات . وخلق حيوان ، وحفظ إنسان ، وغير ذلك ، فيه إيماء إلى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة ، وهو أن هذا النمو فى النبات لم يكن إلا بروح خاص نفخه الله فى البذرة ، فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة ، وكذلك يقال فى الحيوان والإنسان ، فكل أمر كلى قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية فى إيجاده ، فإنما قوامه بروح إلهى سمى فى لسان هذه المعانى القوى الطبيعية إذا كان لا يعرف من عالم الإمكان إلا ما هو طبيعة أو قوى يظهر أثرها فى الطبيعة ، والأمر الثابت الذى لا نزاع فيه هو أن فى باطن الخلقة أمراً هو مناطها ، وبه قوامها ونظامها ، لا يمكن لعاقل أن ينكره ، وإن أنكر غير المؤمن بالوحى تسميته ملكاً ، وزعم أنه لادليل علي وجود الملائكة ، أو أنكر بعض المؤمنين بالوحى تسميته قوى طبيعة أو ناموساً طبيعياً لأن هذه الأسماء لم ترد فى الشرع ، فالحقيقة واحدة ، والعاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات ، وإن كان المؤمن بالغيب يرى للأرواح وجوداً لا يدرك كنهه ، والذى لا يؤمن بالغيب ، يقول لا أعرف الروح ، ولكن أعرف قوى لا أفهم حقيقتها . ولا يعلم إلا الله علامَ يختلف الناس ؟

« وكل يقر بشىء غير ما يرى ويحس ، ويعترف بأنه لا يفهمه حق الفهم ، ولا يصل بعقله إلى إدراك كنهه . وماذا على هذا الذى يزعم أنه لايؤمن بالغيب ، وقد اعترف بما غيب عنه ، لو قال : أصدق

بغيب أعرف أثره ، وإن كنت لا أقدره قدره ، فيتفق مع المؤمنين بالغيب ، ويفهم بذلك ما يرد على لسان صاحب الوحى ، ويحظى بما يحظى به المؤمنون .

« يشعر كل من فكر فى نفسه ووازن بين خواطره عندما يهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو الشر ، بأن فى نفسه تنازعاً كأن الأمر قد عرض على مجلس شورى ، فهذا يورد وذلك يدفع، واحد يقول افعل ، وآخر يقول لا تفعل ، حتى ينتصر أحد الطرفين ، ويترجح أحد الخاطرين ، فهذا الشيء الذى أودع فى أنفسنا ، ونسميه قوة وفكراً ، وهى فى الحقيقة معنى لايدرك كنهه ، وروح لاتكنه حقيقتها، لايبعد أن يسميه الله تعالى ملكاً ، ( أو يسمى أسبابه ملائكة ) أو ماشاء من الأسماء ، فإن التسمية لاحجر فيها على الناس ، فكيف يحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة والسلطان النافذ والعلم الواسع » .

## ثم قال الشيخ رشيد رضا تعقيباً على رأى شيخه هذا :

إن الإمام الغزالى سبق إلى بيان هذا المعنى وعبر عنه بالسبب وقال : إنه سمى ملكاً فإنه بعدماقسم الخواطر إلى محمود ومذموم قال : «ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ، ثم إن كل حادث لابد له من محدث ، ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب ، هذا ما عرف من سنة الله تعالى فى ترتيب المسببات على الأسباب ، فمهما استنارت حيطان البيت بنور النار ، وأظلم سقفه بالدخان علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة ، وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان ، فسبب الخاطر الداعى إلى الخير يسمى ملكاً ، وسبب الخاطر الداعى إلى الشر يسمى شيطاناً ، واللطف الذى يتهيأ به القلب لقبول مهام الخير يسمى توفيقاً ، والذى يتهيأ به لقبول الشر يسمى إغواء وخذلاناً ، إن من المعانى المختلفة ما يحتاج إلى أسام مختلفة » .

وقد أورد ابن جرير الطبرى فى تفسيره عن عبد الله بن عباس أنه

قال : لم تقاتل الملائكة فى يوم من الأيام سوى يوم بدر ، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عدداً ومدداً لا يضربون » .

وعن مجاهد أنه قال : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر .

وقال آخرون إن الله عز وجل ، إنما وعدهم يوم بدر أن يمدهم إن صبروا عند طاعته وجهاد أعدائه ، واتقوه باجتناب محارمه ، أن يمدهم فى حروبهم كلها ، فلم يصبروا ولم يتقوا إلا فى يوم الأحزاب ، فأمدهم حين حاصروا قريظة .

وقال آخرون بنحو هذا المعنى ، غير أنهم قالوا : لم يصبر القوم ولم يتقوا ولم يمدوا بشيء فى أحد .

عن عمرو بن دينار عن عكرمة سمعه يقول : (بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا) ، قال : يوم بدر . قال فلم يصبروا ولم يتقوا فلم يمدوا يوم أحد ولو مدوا لم يهزموا يومئذ .

**وعن الضحاك قوله :** ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف من الملائكة مسومين ؟ كان هذا وعداً من الله يوم أحد عرضه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : إن المؤمنين إن اتقوا وصبروا أمدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، ففر المسلمون يوم أحد ، وولوا مدبرين ، فلم يمدهم الله .

**ثم قال ابن جرير :** وأما الذين قالوا كان ذلك يوم بدر ، بسبب (كرز بن جابر) فإن بعضهم قالوا لم يأت كرز وأصحابه إخوانهم من المشركين مدداً لهم ببدر ، ولم يمد الله المؤمنين بملائكته ، لأن الله عز وجل إنما وعدهم أن يمدهم بملائكته إن أتاهم كرز وأمد المشركين من فورهم ، ولم يأتهم المدد .

وقد مر بنا رأى الشيخ محمد عبده ، ورأى تلميذه الشيخ رشيد رضا فى حقيقة الملائكة وطبيعة دورهم ، ونضيف إليه ما جاء فى تفسير مجمع البحوث الإسلامية المسمى بالتفسير الوسيط ، من أن الملائكة

جمع ملك ، وهم ذوات نورانية ، خلقوا لطاعة الله فيما يأمرهم به ، ولهم قدرة التشكل بالأشكال الحسنة المختلفة ، ولهذا كان الرسل يرونهم ، وهذا مذهب أكثر المتكلمين . وقال الحكماء . هم جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة بالحقيقة .

ويتفق القرطبي والطبرى فى أن أصل لفظ ( ملاك ) مألك : مشتق من فعل ( لاك ) أى أرسل ، وأرسلت إليه مألكة ، وألوكاً ، أى رسالة . فحيث الملائكة ملائكة بالرسالة ، لأنها رسل الله بينه وبين أنبيائه ، ومن أرسلت إليه من عباده .

وجاء فى القرطبي أيضاً فى شرح الآية الأولى من سورة فاطر : ( الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ) أى جعل الله الملائكة رسلا ، قال يحيي بن سلام : إلى الأنبياء : وقال السدى : إلى العباد برحمته ونقمته .

بقى أن نتأمل فى جميع ما سلف من النصوص ، وفى آيات القرآن الكريم ، التى ورد فيها ذكر للملائكة ومن كل هذا يبين لنا :

أولا : أن القرآن الكريم خلا خلواً تاماً من وصف الملائكة من حيث الهيئة والطبيعة والعدد إلا فيما جاء فى الآية الأولى من سورة فاطر ونصها الذى مر بنا : ( الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يزيد فى الخلق ما يشاء ) والمفسرون متفقون تقريباً ، على أن أجنحة الملائكة ليست من قبيل ما نعرفه من أجنحة الطيور ، فلا هى من الريش ، ولا هى بالبداهة من اللحم والعظم .

ثانياً : ليس فى القرآن الكريم نص يعنى مباشرة ، أو يوحى بأن للملائكة دخلا أو صلة بحياة البشر ، وبما يضطربون فيه من أمور معاشهم ، أو تنافسهم على الرزق ، أو تحصيلهم للعلم ، أوسعيهم للخير ، أو انحرافهم إلى الشر .

فالملائكة أرسلوا فى الماضى إلى الأنبياء ، كما أرسل جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم . وكما أرسلت الملائكة إلى مريم لتقول لها إن الله اصطفاها . وإن الله يبشرها بكلمة منه . وكما نادت الملائكة زكريا وهو قائم يصلى فى المحراب ، وكما أرسلت الملائكة إلى إبراهيم ولوط .

فالملائكة لا يرسلون إلى أفراد الناس ، ولم يرسلوا قط فى الماضى على ما أثبته القرآن الكريم .

ثالثًا : بل الثابت فى القرآن أن الناس ، فى عهود الرسالات . والنبوات طلبوا أن يرسل إليهم ملائكة بدلا من الأنبياء والرسل الذين اصطفاهم الله من أبناء آدم ممن يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ، وكانت حجة الكافرين أن إرسال الملائكة بالرسالة ، وتكليفهم أعباء النبوة أقطع فى صحة هذه الرسالة وآكد لصدق الرسول . فأبى الله إلا أن يكون رسله من الناس ، يخاطبون المرسل إليهم بلغتهم ، ويحاجونهم بحجج العقل ، لا بالقهر الذى لا يكون للمؤمنين المصدقين فضل فيه ، كما لا يكون للمكذ بين المعارضين باب للتوبة ، أو سبيل للمغفرة : ففى سورة الأنعام مثلا : ( ولو أنزلنا ملكًا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ) ، ثم فى سورة الإسراء تبرير لعدم إجابة المعاندين إلى ما يطلبونه من أن يكون الرسل ملائكة ( لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكًا رسولا ) فالرسول يكون من طبيعة المرسل إليهم ، ولذلك جاء فى سورة الأنعام ( ولو جعلناه ملكًا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ) .

ولذلك أغلق فى باب الدجاجلة والمشعوذين باب الادعاء بأنهم رأوا ملائكة يمشون فى الأرض مطمئنين ، أو أن الملائكة تحدثت إليهم ، أو أشارت عليهم ، أو اتصلت بهم .

رابعًا : والمسلمون — وإن كانوا مأمورين أن يؤمنوا بوجود الملائكة — لم يطلب منهم أكثر من هذا التصديق ، فليسوا مأمورين بأن يتوجهوا

إليهم بصلاة أو عبادة ، أو أن يلتمسوا منهم من دون الله عوناً أو إرشاداً أو رعاية — فهم من مخلوقات الله . وعباده . والآيات على ذلك كثيرة ففى سورة النجم : ( وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئاً ) ، وفى سورة آل عمران : ( ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ) ، وفى النساء : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ) .

خامساً : بل إن قصة خلق آدم قاطعة الدلالة بأن الله فضل آدم على الملائكة ، إذ أمرهم بأن يسجدوا له ، وإذ خصه دونهم بجعله «خليفة» وإذ ميزه عنهم جميعاً بأنه علمه وحده الأسماء كلها ، ثم عرضها على الملائكة فعجزوا أن يجاروه فى علمه ، وأن يبلغوا مبلغه فى الاستعداد للمعرفة على ما به من ضعف وعلى ترديه فى الخطيئة ، وحبه لسفك الدماء .

سادساً : أن القرآن لم يرو غير واقعة واحدة فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعد الله فيها الرسول والمسلمين الذين حاربوا معه الكفار أن يعينهم بمدد من الملائكة . وقد اختلف المفسرون فى فهم ما جاء فى القرآن الكريم فى هذا الصدد ، فمنهم من ذهب إلى القول إن الملائكة لم يحاربوا فى بدر ولا غيرها ، ومنهم من قال إنهم نزلوا فى بدر ، وإنما كان نزولهم للتثبيت والدعاء والتكثير ، ومنهم من قال إنهم لم يحاربوا إلا فى بدر ، وآخرون قالوا بل فى موقعة الأحزاب .

ولكن الجميع متفقون على أن الوعد بنزول الملائكة ، هو بشرى بالنصر لاسببه ، فالنصر فى جميع المعارك : له أسبابه التى بينها القرآن ولقنها الرسول للمسلمين ، والتى لخصتها الآية : ( إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ) ، فالنصر من عند الله ، ولكن الله لايمنحه إلا لمن يستحقه ، ولايستحقه إلا من تهيأ له ، من طاعة لأحكام الدين التى هى سنن الكون السليمة ، وقواعد الحياة الصحيحة

وأساليب الجهاد الرفيعة . ومنها قوله تعالى : ( وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ) . ومنها قوله عز وعلا : ( إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ) : ومنها أمره الكريم : ( انفروا خفافاً وثقالاوجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ) ، ومنها وعده الصادق : ( إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ) ، ومنها تحذيره : ( إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ) .

وجملة القول أن فى الدعوة إلى الإيمان بالملائكة ليس فيه ما يحرج صدر أبناء العصر ولا عقولهم ، فهم يسمعون أن الإسلام دين قائم على العقل ، وأنه ليس فيه شيء غامض ، فهوواضح كل الوضوح بين إلى أقصى الغاية . وأنه لا مجال فيه للمتجرين بالأوهام والمروجين لها . ولا تعارض بين أحكامه وآيات كتابه ، وبين ما يؤدى إليه العلم ، وما يأمر به العقل ، وأن عناصر الغيب الذى يدعو إليه ، لايرفع عن عاتق الإنسان مسئولية تكييف حياته ، وتقرير مصيره ، والسعى الدائب للكشف عن حقائق هذا الكون وتسخيرها ، والانتفاع بها ومسابقة الأقوياء فى حلبات الفكر والبحث ، وفى التسلح بماديات الحياة ، بعد التحصين بمعنوياتها التى هى الأصل الأصيل لكل قوة ، والباعث الأول على تحقيق كل عزة ومنعة .

# الجن

ورد لفظ « الجن » فى القرآن الكريم ، اثنتين وعشرين مرة ، وجاء هذا اللفظ وحده غير مقترن بسواه ، فى ثمانية مواضع . أما سائر المواضع ، فقد ورد فيها مقرونا بلفظ الإنس .

قال تعالى :

( ا ) ( وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن ) .

(ب) ( يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ) .

( حـ ) (يا معشر الجن والإنس ) [١] .

وقال :

( ا ) ( ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس ) .

( ب ) ( ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ) [٢] .

إلى آخر ما جاء فى الإسراء ، وفى النحل ، وفى فصلت وفى الأحقاف ، وفى الذاريات وفى الرحمن ، وفى سورة الجن .

وهذه كلها أربعة عشر موضعاً ، كما ذكرنا ، وفى تسعة من هذه المواضع يتقدم لفظ الجن على الإنس . وفى اثنى عشر موضعاً منها لا يفصل بين اللفظين لفظ ثالث .

وقد جاء فى معجم ألفاظ القرآن الكريم ( وضع مجمع اللغة العربية عن لفظ الجن ) :

« أصل ( الجن ) ستر الشىء عن الحاسة . يقال جن الشىء يجنه جنا مثل ( ستره ) وزناً ومعنى .

---

( ١ ) سورة الأنعام : ١١٢ ، ١٢٨ ، ١٣٠ .

( ٢ ) سورة الأعراف : ٣٨ ، ١٧٩ .

« وكل شيء ستر عنك فقد جن عنك . وجن عليه وأجنه : ستره » .

**وجاء في تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده :**

« فالموسوسون قسمان : قسم الجنة ، وهم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم ، وإنما نجد في أنفسنا أثراً ينسب إليهم ، ولكل واحد من الناس شيطان وهو قوة نازعة إلى الشر يحدث منها في نفسه خواطر السوء وإنما جعل الوسوسة في الصدر على ما عهد في كلام العرب . من أن الخواطر في القلب . والقلب مما حواه الصدر عندهم ، وكثيراً ما يقال : إن الشك يحوك في صدره ، وما الشك إلا في نفسه وعقله .

« وأفاعيل العقل في المخ ، وإن كان يظهر لها أثر في حركات الدم ، وضربات القلب ، وضيق الصدر أو انبساطه ، وكل ما أوردوه في خرطوم الشيطان وخطمه ومنقاره ، وجثومه على الصدر ، أو القلب ، أو نحو ذلك ، فهو من التمثيل والتصوير ، وإلا فليجعلوا مثل ذلك للقسم الثاني من الوسواس أو الموسوسين ، وهو الناس . فإن الله نسب إليهم الوسوسة على السواء» فقال : ( من الجنة والناس ) .

« فليكن للناس الذين يوسوسون في صدور الناس خرطوم وخطم ومنقار يدخل في الصدور ويوضع على أذن القلب فإذا ذكر الله خنس الخرطوم ، كما ذكروا في الجنة ، ولكنهم يكثرون الوصف ويخترعون ما يشاءون بأوهامهم مما لا يراه الناس ، وإن كانوا لا يعقلونه ، ويجترئون على الغيب فيذكرون من شئونه ما استأثر الله بعلمه ، ثم لا يكفيهم ذلك حتى يخترعوا من الأحاديث ما يسند أوهامهم ، وينسبون إلى السلف أنه يقوي مزاعمهم والله يشهد أن النبي صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح براء مما ينسب إليهم من ذلك كله ، وإنما هو اختراع من لم يرض لنفسه أن يقترف جريمة واحدة . جريمة الجرأة على الغيب بوهمه حتى يضم إلى ذلك جريمة الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ولعل الشيخ محمد عبده قد عنى بقوله هذا بعض ما أورده عدد من كبار المفسرين ، منه ما جاء مثلا فى تفسير القرطبى :

« واختلف هل رآهم ( الجن ) النبى صلى الله عليه وسلم أو لا ؟ فظاهر القرآن يدل على أنه لم يرهم ، لقوله تعالى ( استمع ) ، وقوله تعالى : ( وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ) . وفى صحيح مسلم والترمذى عن ابن عباس قال : ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن وما رآهم . انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين ، وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : ما لكم ؟ قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب ، قالوا : ما ذاك إلا من شىء حدث ، فأضربوا فى مشارق الأرض ومغاربها ، وانظروا ما هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء ؟ فانطلقوا يضربون فى مشارق الأرض ومغاربها ، فمر النفر الذى أخذوا نحو تهامة ، وهو بنخلة ( أى رسول الله ) عامدين إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له ، وقالوا هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء ، فرجعوا إلى قومهم ، وقالوا : يا قومنا : ( إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به وان نشرك بربنا أحداً ) فأنزل الله عز وجل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ( قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجن ) .

وروى الترمذى عن ابن عباس ، قال : قول الجن لقومهم : ( لما قام عبد الله يدعوه ، كادوا يكونون عليه لبداً ) ، قال لما رأوه يصلى وأصحابه يصلون بصلاته ويسجدون بسجوده . قال هذا حديث حسن صحيح ، فى هذا الحديث دليل على أنه عليه السلام لم ير الجن ولكنهم حضروا وسمعوا قراءته ، وفيه دليل على أن الجن كانوا مع الشياطين حين تحسسوا خبر السماء بسبب الشياطين لما رموا بالشهب وكان

المرميون بالشهب من الجن أيضاً . وقيل لهم شياطين . كما قال ( شياطين الإنس والجن ) فإن الشيطان كل متمرد خارج عن طاعة الله . وفى الترمذى : كان الجن يصعدون إلى السماء ، فيستمعون إلى الوحى فإذا سمعوا الكلمة ، زادوا فيها تسعاً ، فأما الكلمة فتكون حقاً ، وأما ما زادوا فيها فيكون باطلا ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا مقاعدهم ، فذكروا ذلك لإبليس ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك ، فقال لهم إبليس ما هذا الأمر إلا من أمر قد حدث فى الأرض ، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً يصلى بين جبلين ، فأتوه فأخبروه فقال : هذا الحدث الذى حدث فى الأرض قال هذا حديث حسن صحيح ، فدل هذا الحديث على أن الجن رموا كما رميت الشياطين .

وفى رواية السدى : أنهم لما رموا أتوا إبليس فأخبروه بما كان من أمرهم ، فقال : ائتونى من كل أرض بقبضة من تراب أشمها ، فأتوه فشم ، فقال : صاحبكم بمكة ، فبعث نفراً من الجن ، قيل سبعة ، وقيل كانوا تسعة منهم زوبعة ، وروى عاصم عن زر أنهم كانوا سبعة نفر ، ثلاثة من أهل « حران » وأربعة من أهل نصيبين وحكى جويبر عن الضحاك : أنهم كانوا تسعة من أهل نصيبين ( قرية باليمن غير التى بالعراق ) وقيل إن الجن الذين أتوا مكة كانوا من نصيبين ، والذى أتوه بمكة كانوا من نينوى .

ولكن الرازى يقول فى شرح سورة الجن ، إن القول بأن الجن كانت تسمع الخبر من السماء ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم حرست السماء ورصدت الشياطين فمن جاء منها مسترقاً السمع رمى بشهاب فأحرقه لئلا ينزل به إلى الأرض فيبلغه إلى الناس فيخلط على النبى أمره ، ويرتاب الناس بخبره ، إن البعض اعترض على هذا وطعن فيه من وجوه :

أولها : أن انقضاض الكواكب مذكور في كتب قدماء الفلاسفة أى قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم .

ثانيها : كيف يجوز أن هؤلاء الجن يشاهدون واحداً وألفاً من جنسهم يسترقون السمع فيحترقون ، ثم يعودون لمثل صنيعهم .

وثالثها : أنه يقال فى سمك السماء إنه مسيرة خمسمائة عام، فهؤلاء الجن إن نفذوا فى أجرام السماء وخرقوا اتصاله فهذا باطل ، لأنه تعالى نفى أن يكون فيها فطور على ما قال : ( فارجع البصر هل ترى من فطور ) ؟ وإن كانوا لاينفذون من جرم السماء فكيف يمكنهم أن يسمعوا أسرار الملائكة من ذلك البعد العظيم . ثم إن جاز أن يسمعوا كلامهم من ذلك البعد العظيم فلم لايسمعون الملائكة حال كونهم فى الأرض .

رابعها : لم لم يحافظ الملائكة على الأحوال المستقبلة بالسكوت عن ذكرها حتى لا يتمكن الجن من الوقوف عليها .

وخامسها : أن الشياطين مخلوقون من النار ، والنار لا تحرق النار .

وسادسها : إذا كان القذف لأجل النبوة فلماذا دام بعدها ؟

وسابعها : أن هذه الرجوم تحدث بالقرب من الأرض بدلالة رؤيتنا لها ، فكيف يقال إنها تمنع الشياطين من الوصول إلى ملك السماء .

وثامنها : أن هؤلاء الشياطين كان يمكنهم نقل أخبار الملائكة إلى الكهنة فلم لاينقلون أخبار المؤمنين إلى الكفار ليؤذوهم ؟

وتاسعها — لمَ لمْ يمنعهم الله ابتداء من الصعود إلى السماء حتى لا يحتاج إلى دفعهم عن السماء بهذه الشهب .

ويقول الأستاذ محمد أحمد خلف الله :

« كان القرآن يجرى على الصور الذهنية أو على الواقع النفسى فى تشبيهاته واستعاراته حين يتحدث عن جهنم ، وحين يصف طعامها

وشرابها ، وحين يتحدث عن الذى يتخبطه الشيطان من المس — جاء فى الرازى عند تفسيره لقوله تعالى : ( إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين ) ما يلى : وأما تشبيه هذا الطلع برءوس الشياطين ففيه سؤال : لأنه قيل إنا ما رأينا رءوس الشياطين ، فكيف يحكى تشبيه شىء بها ؟ وأجابوا عنه من وجوه :

الأول : وهو الصحيح — أن الناس لما اعتقدوا فى الملائكة كمال الفضل فى الصورة والسيرة ، واعتقدوا فى الشياطين نهاية القبح والتشويه فى الصورة والسيرة كان حسن التشبيه بالملك عند تقرير الكمال والفضيلة فى قوله : ( إن هذا إلا ملك كريم ) ، فلذلك وجب أن يحسن التشبيه برءوس الشياطين للقبح وتشويه الخلقة .

« وجاء فى الكشاف عند تفسيره قوله تعالى : ( لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ) ما يأتى : لا يقومون إذا بعثوا من قبورهم ، إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان أى المصروع ، وتخبط الشيطان من زعمات العرب ، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع ، والخبط الضرب على غير استواء ، كخبط العشواء فورد على ما كانوا يعتقدون » .

« والقرآن يجرى على هذا المذهب حين يتحدث عن الجن وعن عقيدة المشركين منهم ، وأنهم كانوا يستمعون إلى السماء ليعرفوا أخبارهم ، ثم يقومون بعد ذلك بإلقاء هذه الأخبار على الكهنة ، وكان الكهنة يدعون الاطلاع على الغيب ومعرفة الأسرار » .

حارب القرآن هذه الفكرة ، وحاربها تدريجيًّا وبأساليب مختلفة ، فالجن كانت تقعد منها مقاعد للسمع ، ولكن الكواكب أصبحت رجومًا والشهب أصبحت لواحق ، والجن تخطف الخطفة حتى بعد رسالة محمد عليه السلام ، وحتى بعد أن حدثت المعجزة وعتقت الجن من الاحتراق . ذلك أسلوب محاربة الفكرة يوم أن كان سلطانها قويًّا ،

وإيمانهم بها عظيماً ، ويوم أن كان القرآن فى أول عهده بهم ، ولكن حينما تقدم الزمن ، وحينما استقر الأمر فى البيئة ، واشتهر أمر المعجزة ، وأخذ القوم يصدقون بالرجم ، انتقل القرآن إلى أسلوب آخر فقرر أن الجن ما كانت تعلم الغيب ، وأنها لو كانت تعلمه ما لبثت فى العذاب بعد أن فارق سليمان عليه السلام الحياة ( فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين ) .

ويقول الأستاذ أحمد حسين .

« الجِنَّة » هم الجن ، وقد سموا ذلك من الاجتنان ، وهو الاستتار والخفاء ومنه الجنين أى المستتر فى بطن أمه .

« ولعل ما سبق يوضح هذه الآية ، فهذه الأصوات المنبعثة من داخل نفوسنا ، والتى قد تدفعنا إلى طريق الشر ليست فى حقيقتها إلا أثراً وانطباعاً ورد فعل لما نقابله ونلقاه فى حياتنا اليومية ، عناصر محسوسة ملموسة ، نستطيع أن نحددها ، وأخرى خفية مجهولة ، نعجز عن إدراكها ، ونعجز عن تصورها ولكننا نحس آثارها علينا .

« ولم يعد هناك شك أو شبهة فى أنه يوجد داخل النفس البشرية ، وحول الإنسان ، وفى هذا الكون ، مناطق وعوالم وكائنات لم يصل الإنسان بعد إلى معرفة كنهها ، ولكنه لا يشك فى وجودها .

« وعلماء النفس يحدثوننا عن العقل الباطن ، محاولين أن يفسروا بهذه الكلمة المظاهر غير العادية التى تطرأ على الإنسان والتى لا يستطيعون تعليلها بالقوانين المادية العادية ، فينسبونها إلى العقل الباطن ، دون أن يروا هذا العقل الباطن ، أو يعرفوا مكانه ، أو يحددوا قدراته تماماً ، كما كان القدامى يفسرون هذه الظواهر بأنها عمل الجن » .

وتقول الأستاذة عائشة عبد الرحمن :

« وليس من الضرورى أن يقتصر مفهوم الجن على ما ألفنا من إطلاقه على تلك الأشباح التى لا تظهر لنا فى تهاويل الظلمة وتصورات

الوهم ، وإنما يتسع اللفظ — بدلالته الأصلية على الخفاء ، وبمقابلته للإنس — لأى جنس غير بشرى يعيش فى عوالم غير منظورة ولا مدركة ، وراء حدود عالمنا الأرضى الذى نعيش فيه نحن الإنس ، فلا يخضع للسنن المعروفة التى توجه حياتنا وتحكمها .

« وبهذا المدلول الرحب تنتفى شبهة الخرافة التى تدفع كثيراً منا إلى رفض الاعتقاد فى وجود الجن وإن كانت الكشوف العلمية الحديثة لا تنفى احتمال وجود جنس غيرنا ، يعيش فى عوالم خفية كالكواكب والقمر ، لاتزال نجهلها وإن لم نكف عن السعى إلى اكتشاف خفاياها ومجاهلها » .

وفى ضوء هذه الآراء كلها — القديمة والحديثة — ننظر فى سورة الجن ، لنقف على أغراض القرآن الكريم ، من تخصيص سورة بهذا الاسم ، وعن هذا النوع من المخلوقات التى لا يراها الناس ، والتى لا يعلمون شيئاً عن وصفها ، ولا سيرتها ، ولا طبيعتها ، إلا أنها خلقت من مارج من نار » .

جاءت هذه المعانى التالية فى السورة :

أولا : قل يا محمد إنه أوحى إلىّ أن جماعة من الجن استمعت إلىّ وأنا أتلو القرآن ، فقالوا لجماعتهم — على أثر هذا الاستماع : إننا سمعنا قرآناً بديعاً ، أى لم نسمع شيئاً مثله ، يدعو إلى الهدى والصواب ، فآمنا بالمنهج الذى يدعو إليه هذا القرآن ومن ثم فلن نشرك بربنا أحداً ، فالله هو ، حقاً وصدقاً ، ربنا ، وهو لا صاحب له ، ولا ولد . وقد ظهر لنا ، بفضل هذه الهداية ، بطلان ما كان يقوله بعض الجهال منا من أن الله له شريك أو أنه اتخذ ولداً ، فهذا القول شطط لاسند له ، والإصرار عليه خطأ ومعصية .

ثانياً : وقد ظننا أن الناس لاتجترئ على الله تعالى بالكذب ، فيكبر عليهم أن ينسبوا إليه عز وعلا ، ما لا يليق به من الصحبة والولد .

ثالثاً : وقد علمنا – أى الجن – أن بعض الناس كانوا يستعينون بالجن ، ويلتمسون منهم العون والحماية ، بدون أن يطلبوا هذا من الله وحده ، مع أنه تصدر منه كل القوى ، فزادهم هذا الخطأ فى التفكير ، والفساد فى الاعتقاد ، ضعفاً واضطراباً بدل أن يمنحهم قوة ومنعة ، إشارة إلى ما درج عليه العرب عند نزول أحدهم بواد لا عهد له به من قولهم « إنى أعوذ بسيد هذا الوادى » ، معتقداً أن لكل واد سيداً من الجن .

رابعاً : قد كان من آثار فساد عقيدتهم ظنهم أن من يموت لن يبعث ثانية بعد موته .

خامساً : إننا – نحن الجن – طمعنا فى أن نستقل عما توحى به السماء وألا نطلب الهداية من سبيلها ، بالاعتماد على قوتنا ، باستراق العلم ، فعلمنا أن السماء ، أى الحصول على المعرفة ، قد حدد ، فأصبح سبيل العلم والهداية واضحاً ، وتنكبه يؤدى إلى الهلاك : الذى تعنيه الأرصاد والشهب ، وتصوره خير تصوير مادى .

سادساً : ولما كان هذا حدثاً لا عهد لنا به ، ولما كان علمنا قاصراً ، فنحن لاندرى أفيه خير لأهل الأرض أم أنه شر . سيهتدون به ، أم سيصدون عنه .

سابعاً : على أننا كالناس – منا الصالحون ، ومنا دون ذلك ؛ أى الفاسدون ، فنحن على مذاهب مختلفة .

ثامناً : بيد أننا قد تحققنا أنه لن يكون فى وسعنا أن نفلت من سلطان الله ؛ ولن نغلبه بالهرب ، لا فى الأرض ولا فى السماء .

تاسعاً : لقد آمنا ، والإيمان يكفل للمؤمن اطمئناناً ، وينزع عنه الخوف من أن يصيبه غبن أو ضعف .

عاشراً : والمؤمنون منا كالمؤمنين من البشر ، هداهم ربهم إلى خير طريق ، وجزاهم بإيمانهم خير الجزاء ، أما الكافرون فجهنم مثواهم .

حادى عشر : والمؤمنون من الجن يقررون بأن المساجد لله ، وأنه لا يجوز أن يدعى فيها مع الله أحد،ويذكرون أنه حين بعث محمد صلى الله عليه وسلم ليدعو إلى ربه ، اجتمع عليه المشركون وتكاثروا تجمع وتكاثر صوف اللبد على عاتق الكبش ، ليقضوا عليه وعلى دعوته .

ثانى عشر : والدعوة التى استثارت كل هذه الكراهية هى أنه لا رب إلا الله ، وأن محمداً ليس سوى رسول الله ، فلا يملك بذاته لأحد ضراً ولا نفعاً ، وأن الله وحده سبحانه وتعالى هو الذى يحميه ، وأنه عليه الصلاة والسلام ، لا يلتمس هذه الحماية إلا منه عز وعلا .

ثالث عشر : وأن كل ما اختص به عليه السلام ، وتميز بفضله عن سواه من البشر ، هو أنه يبلغ رسالة ربه ، ولذلك فإن من عصى هذا الرسول فقد عصى الله ، لأن الرسول لا يقول من عنده ، وإنما يقول ما يوحى إليه به .

رابع عشر : أن الكفار الذين لا يصدقون بدعوة محمد ، سيرون غداً أن ما وعدهم به من حسن المثوبة ، وشدة العقاب ، صحيح ، وعندها سيعلمون من هو القوى الذى لا يغلب ، بفضل إيمانه ، ومن هو الضعيف ، الذى سيلقى الهوان بسبب كفره .

خامس عشر : على أن هذا كله غيب لا يعلمه إلا الله ، فمحمد لا يعرف متى تقوم الساعة ، وهل قيامها قريب أو بعيد ، فعالم الغيب استأثر به ، لينطلقوا فى حياتهم ، فيظهر من أعمالكم إيمان المؤمن ، وكفر الكافر ، ونفاق المنافقين .

سادس عشر : إذا كان الله قد استأثر بغيبه ، فلا يمنع هذا الاستئثار ، من أن يختار الله ، بعض عباده ، ليبلغوا إلى قومهم ، ما يريد الله أن يكلفهم القيام به ، ثم هو عز وعلا يحميهم من عدوان أعدائهم ، ليؤدوا الرسالة التى اختيروا لها ، وهو سبحانه يرقب ويحصى

ما يصدر عنهم من قول أو فعل .

فسورة « الجن » – وإن حملت هذا الاسم عنواناً لها ودار فيها حديث حول الجن ، واستماعهم للقرآن ودهشتهم منه ، وإيمانهم به ، وتحدثهم عما كان منهم قبله ، وانقسامهم إلى صالح وفاسد – سورة من سور القرآن الكريم ، نزلت لما نزلت له كل سور القرآن من الدعوة إلى الله رب العالمين ، وتوحيده ، وتنزيهه عن كل ضعف ، ولبيان صلته بالبشر ، وأن هذه الصلة ، تقوم عن طريق رسالات الرسل ، الذين يختارهم ، ويوحى إليهم ، ويكلفهم أشياء يقولونها ، وأشياء يعملونها ، وأفكاراً ينشرونها ، ويدعون إليها ، وأن هؤلاء الرسل – على الرغم من اختيارهم للرسالة ، واختصاصهم بالنبوة – بشر ، يأكلون الطعام ، ويمشون فى الأسواق ، ويخضعون لما يخضع له الناس أجمعون ، من سنن هذا الكون ونظامه ، فلا هم خالدون ، ولا هم مطلعون على الغيب .

فالحديث عن الجن وسيلة ، وليس غاية ، كأكثر ما يتخذه القرآن من موضوعات وقصص وأنباء الأمم ، وتاريخ الرسل ، فالقرآن لم يقصد أن يفرد سورة لتكون درساً عن الجن ، وبيان أحوالهم وصفاتهم ، ولم يعن بتقرير حقيقة حماية أخبار السماء من عبث الجن ، كنبأ واجب العلم به لذاته ، وإنما الغاية من هذا كله تأكيد الإيمان بوحدانية الله ، وتأكيد حقائق الإسلام الكبرى ، بمبادئه الأساسية من أن مخلوقات الله ، ما خلق من طين وما خلق من نور وما خلق من نار ، ما كان متمرداً ، وما كان قانتاً مخبتاً ، وما كان بين الصالح والفاسد ، محكوم بسلطان الله ، مسير بإرادته ، وأنه سيحاسب على ما يقول ويفعل ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

فماذا تكون عقيدة المسلم فى الجن ، وما قوامها ؟ :

١ – إنهم من مخلوقات الله ، فكما أن الله قد خلق الملائكة ، فقد

خلق الجن والإنس .

٢ ـــ إن القرآن خلا من وصف أو بيان أو تحديد لطبيعة الجن ، أو تحديد مواطن لهم ، أو أسلوب للتخاطب معهم ، أو منهج للاتصال بهم ، ولم يذكر إلا أنهم خلقوا من نار .

٣ ـــ إن بعض المفسرين من المحدثين ، يميل إلى أن الجن هم من قبيل نوازع النفس التى لا تشاهد ولا تلمس لأنها لا تجسد ، ولكن تحس آثارها ، وبعضهم يراها من قوى النفس المخبوءة التى لا تزال استنتاجاً يستعان بفرضه على حل ألغاز النفس الإنسانية ومعمياتها . وفريق ثالث يرى أن الجن قد يكونون من سكان هذا الكون الفسيح ، وليس صحيحاً أن يكونوا من سكان كوكبنا الأرض .

٤ ـــ ولكن القرآن على أى حال ينهى عن الاستعانة بهم أو الاعتماد عليهم ، أو الخوف منهم ، فإن من يتولاهم ، ويطلب الحماية منهم من دون الله ، لا يناله من وراء ذلك إلا الضعف والخبال . وهو لا ينسب لهم شأناً فى حياتنا ، ولا مشاطرة فيها ، فهم لا يذللون لنا صعباً ، ولا يقربون بعيداً ، ولا يؤذون عدواً لنا ولا حبيباً .

٥ ـــ وهم فى نهاية الأمر ، خاضعون لله ، لا يفلتون من سلطانه ، ولا يخرجون من أحكامه .

٦ ـــ إن ما ورد فى القرآن عنهم توسل به القرآن لتأكيد أحكامه الأساسية ، وقواعده الرئيسية من توحيد الله ، والإذعان له ، وطاعة أوامره ، وتحاشى نواهيه ، وإن عمل الخير يجازى الجزاء الأحسن ، وعمل الشر يجازى بأشد العقاب .

٧ ـــ ونتوج هذا كله أن حياة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعى تابعيه خلت من إشارة ، ولو طفيفة ، تجعل للجن فى حياة المسلم شأناً يفسد عليه إيمانه بالله واعتماده على نفسه ، وثقته بالفضائل التى دعا إليها القرآن من الصدق والشجاعة ، والوفاء والصراحة ، والنظام

والنظافة ، والتضحية والفداء .

فالإسلام عقيدة خلت من شيء يؤيد الخرافة ، أو يسندها أو يفتح باب الانزلاق إليها ، أو الاتجار بها ، وقد جاء ليحكم إغلاق الباب في وجه المتجرين بالشعوذة ، ومدعى الكهانة والاتصال بالسماء ، ومعرفة أنبائها ، و إخافة البشر ، وابتزاز المال أو الجاه . من قذف الرعب فى نفوسهم .

وكما قلنا — فى حديثنا عن الملائكة — إن حياة الناس خالصة لهم ، يصنعونها كما يبدو لهم ، فهم قادرون — بفضل ما أودعه الله فى نفوسهم ، من قدرات غير محدودة ، ومن قوى غير معروفة ، أن يحيلوها جنة ، وأن يكونوا فيها أقوياء أعزاء متحابين ، تمضى أيامهم رخاء وهناء ، وسكينة وصفاء ، يجملها الفن ، ويوسع من خيراتها العلم ، ويمنع شرورها الحب والنظام ، كما أنهم قادرون على إحالتها إلى جحيم لا يطاق ، يتلهب سعيره ، ويتلظى أواره ، بما فى نفس الإنسان من قدرة مذهلة على تهيئة أسباب الخراب والدمار ، من قتل الملايين فى ساعات ، إلى سحق المدن ، وحرق القرى ، وإبادة المزروعات ، فى لحظات . فلا شأن للملائكة ولا للجن بحياة الناس ، إنما صلتهم بخالق الكون عن طريق رسله ورسالاته ، وعن طريق ما أودعه فى عقل الإنسان ونفسه مباشرة ، بغير واسطة ولا شفاعة ، ولقد بلغت هذه الحقيقة أعلى مراتبها ، فيما جاء فى القرآن الكريم من أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فترك الله لنا حياتنا كلها بين أيدينا ، وجعلنا سادة عليها ، وبذل لنا كل ما يقوى ثقتنا بالإنسان ، فقد استخلفه على الأرض ، وأمر الملائكة أن يسجدوا له ، وجعل نفس الإنسان كآفاق الكون ، مجالا للتأمل ، وبذلك ارتفعت النفس الإنسانية إلى أعلى المراتب . ولم يعد يقبل منه ، أن يلتمس المقدرة لنفسه ، فيما يقارف من خطأ ، أو فيما يشكو من ضعف ، بفعل الملائكة أو الجن أو سواهما من خلق الله .

# ألف لام ميم

من سور القرآن الكريم ، تسع وعشرون تبدأ بحروف مفردة ، هى : الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون .

أما هذه السور فهى : البقرة ثم آل عمران فالأعراف فيونس فهود فيوسف فالرعد فإبراهيم فالحجر فمريم فطه فالشعراء فالنمل فالقصص فالعنكبوت فالروم فلقمان فالسجدة فسورة (يس) فص ، فسورة غافر ثم سورة فصلت فالشورى فالزخرف فالدخان فالجاثية فالأحقاف فسورة (ق) فالقلم .

وتتوالى هذه السور فى ثلاثة مواضع : فأولى تلك السور وثانيتهاهى البقرة وآل عمران فى بداية المصحف الشريف ، ثم تأتى سورة الأعراف وهى السورة السابعة وحدها ، ثم تتوالى على التتابع فى السور العاشرة والحادية عشرة فالثانية عشرة فالثالثة عشرة فالرابعة عشرة فالخامسة عشرة ، ثم ينقطع تواليها حتى سورة مريم التاسعة عشرة لتليها سورة طه ثم يبدأ التتابع ثانية واضحاً ومتصلا فى موضعين : أولهما يبدأ بسورة الشعراء أى السورة السادسة والعشرين ، فتليها السورة السابعة والعشرون والثامنة والعشرون فالتاسعة والعشرون فالثلاثون فالحادية والثلاثون فالثانية والثلاثون ، ثم ينقطع التتابع ليستأنف بسورة يس وهى السادسة والثلاثون وسورة (ص) وهى الثامنة والثلاثون ، ليبدأ التتابع ثانية من السورة الأربعين إلى السورة السادسة والأربعين بلا انقطاع . ثم تأتى كل من سورتى (ق) وهى الخمسون ، و(القلم) وهى الثامنة والستون ، كل فى موضع كما ترى .

وقد تحدث بطبيعة الحال جميع المفسرين القدامى والمحدثين ، عن هذه الحروف ، وقد اخترنا أن ننقل بصددها بعض ما أورده الإمام

أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي فى مدارك التنزيل وحقائق التأويل قال :

« الم ونظائرها أسماء ، مسمياتها الحروف المبسوطة التى منها ركبت الكلم ، فالقاف تدل على أول حروف ( قال ) والألف تدل على أوسطها واللام تدل على الحرف الأخير منها . وكذلك ما أشبهها ، ثم الجمهور على أنها أسماء السور ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : أقسم الله بهذه الحروف . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : إنها اسم الله الأعظم . وقيل إنها من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله ، وما سميت معجمة إلا لإعجامها وإبهامها .

« وقيل ورود هذه الأسماء على نمط التصدير كالإيقاظ لمن تحدى بالقرآن كالتحريك للنظر فى أن المتلو عليهم قد عجزوا عنه عن آخرهم ، كلام منظوم من عين ما ينظمون من كلامهم ، ليؤديهم النظر إلى أن يستيقنوا أنه لم تتساقط مقدرتهم دونه ، ولم يظهر عجزهم عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولة ، وهم أمراء الكلام ، إلا لأنه ليس من كلام البشر ، وأنه كلام خالق القوى والقدر . وقيل إنما وردت السور ليكون أول ما يقرع الأسماع مستقلا بوجه من الإغراب وتقدمه من دلائل الإعجاز ، وذلك أن النطق بالحروف أنفسها كانت العرب فيه مستوية الأقدام ، الأميون وأهل الكتاب ، بخلاف النطق بأسامى الحروف ، فإنه كان مختصاً بمن خط وقرأ ، وخالط أهل الكتاب ، وتعلم منها ، وكان مستبعداً من الأمى التكلم بها استبعاد الخط والتلاوة ، مع اشتهار أنه لم يكن ممن اقتبس شيئاً من أهله ، حكم الأقاصيص المذكورة فى القرآن ، التى لم تكن قريش ومن يضاهيهم فى شىء من الإحاطة بها ، وأن ذلك من جهة الوحى ، وشاهد على نبوته » .

ثم أورد النسفى حقائق عن هذه الأحرف فقال :

« واعلم أن المذكور فى الفواتح نصف أسامى حروف المعجم ،

وهى الألف واللام والميم والصاد والراء ، والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون فى تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم ، وهى مشتملة على أنصاف أجناس الحروف ، فمن المهموسة نصفها : الصاد والكاف والهاء والسين والحاء . ومن المجهورة نصفها : الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون . ومن الشديدة نصفها : الألف والكاف والطاء والقاف . ومن الرخوة نصفها : االلام والميم والراء والصاد والهاء والسين والعين والحاء والياء . ومن المطبقة نصفها : الصاد والطاء . ومن المنفتحة نصفها : الألف وااللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون . ومن حروف القلقلة نصفها : القاف والطاء .

ثم قال : واختلفت أعداد حروفها : مثل ص ، ق ، ن ، طه ، طس ، يس ، حم ، ألم ، الر ، طسم ، المص ، المر ، كهيعص ، حم عسق ، فوردت على حرف وحرفين وثلاثة وأربعة وخمسة ، كعادة افتنانهم فى الكلام . وكما أن بنيته على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف سلك فى الفواتح هذا المسلك » .

وما أورده النسفى فى جملة ، هو ما ذهب إليه المفسرون ، وقد جمع القرطبى هذه الأقوال على نسق آخر ، ننقل منه :

قال عامر الشعبى وسفيان الثورى وجماعة من المحدثين هى سر الله فى القرآن ، ولله فى كل كتاب من كتبه سر ، فهى من المتشابه الذى تفرد الله بعلمه ، ولا يجب أن يتكلم فيها ، ولكن نؤمن بها ، ونقرؤها كما جاءت . وروى هذا القول عن أبى بكر الصديق وعن على بن أبى طالب رضى الله عنهما ، وذكر عن عمر وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا : الحروف المقطعة من المكتوم الذى لا يفسر . وقال أبو حاتم لم نجد الحروف المقطعة إلا فى أوائل السور ، ولا ندرى ما أراد الله جل وعز بها .

ثم قال القرطبى : عن الربيع بن خيثم قال : إن الله تعالى أنزل هذا

القرآن فاستأثر بعلم ما شاء وأطلعكم على ما شاء ، فأما ما استأثر به فلستم بنائليه ، فلا تسألوا عنه ، أما الذى أطلعكم عليه فهو الذى تسألون عنه وتخبرون به ، وما بكل القرآن تعلمون ، ولا بكل ما تعلمون تعملون .

ثم قال القرطبى : وقال جمع من العلماء كبير : بل يجب أن نتكلم فيها ، ونلتمس الفوائد تحتها ، والمعانى التى تتخرج عليها .

ثم قال إن ابن عباس ذهب إلى أنها اسم الله الأعظم ، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها . وقال قطرب والفراء وغيرهما . هى إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العرب حين تحداهم بالقرآن وأنه مؤتلف من حروف هى التى منها بناء كلامهم . قال قطرب : كانوا ينفرون من استماع القرآن فلما سمعوا « آلم » و « المص » استنكروا هذا اللفظ ، فلما أنصتوا له ، صلى الله عليه وسلم ، أقبل عليهم القرآن المؤتلف ليثبته فى أسماعهم وآذانهم ، ويقيم عليهم الحجة وقال جماعة : هى حروف دالة على أسماء أخذت منها ، وحذفت بقيتها كقول ابن عباس وغيره : الألف من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد صلى الله عليه وسلم . وقالوا : الألف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف ، والميم مفتاح اسمه مجيد . وروى عن ابن عباس قوله : « ألم » أنا الله أعلم . و« الر» أنا الله أرى و « المص » أنا الله أفصل .

وقال القرطبى : من عادة العرب التكلم بالحروف المقطعة ومن ذلك قول الشاعر : فقلت لها قفى فقالت « قاف »

أراد فقالت وقفت ، كما قال عليه السلام ، «كفى بالسيف شا» معناه شافيًا .

وقال زيد بن أسلم : هى أسماء للسور . وقال الكلبى هى أقسام أقسم الله تعالى بها لشرفها وفضلها وهى من أسمائه عن ابن عباس أيضًا . ورد بعض العلماء هذا القول فقالوا : لا يصح أن يكون قسمًا لأن القسم معقود على حروف مثل : إن ، وقد ، ولقد ، وما ، ولم يوجد هاهنا

حرف من هذه الحروف . والجواب أن يقال : موضع القسم قوله تعالى : لا ريب فيه ، فلو أن إنسانًا حلف والله هذا الكتاب لا ريب فيه ، لكان الكلام سويًا ، وتكون « لا » جواب القسم فثبت أن قول الكلبي وما روى عن ابن عباس سديد صحيح .

ثم قال القرطبي : « فإن قيل ما الحكمة في القسم من الله تعالى ، وكان القوم في ذلك الزمان على صفتين : مصدق ومكذب ، فالمصدق يصدق بغير قسم ، والمكذب لا يصدق مع القسم . قيل القرآن نزل بلغة العرب ، والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه أقسم على كلامه . والله تعالى أراد أن يؤكد عليهم الحجة فأقسم أن القرآن من عنده. وقال بعضهم ( ألم ) أي أنزلت عليك هذا الكتاب . من اللوح المحفوظ . وقال قتادة في قوله ( ألم ) قال اسم من أسماء القرآن، وروى عن الترمذي أن الله أودع جميع ما في تلك السورة من الأحكام ، والقصص في الحروف التي ذكرها في السورة ، ولا يعرف ذلك إلا نبي أو ولي ، ثم بين ذلك في جميع السورة ، ليفقه الناس » .

وجمع الطبري هذه الأقوال وغيرها ننقلها عنه مجملة :

عن قتادة : « الم » اسم من أسماء القرآن . هو مذهب كل من مجاهد وابن جريج .

وعن مجاهد أيضًا : « الم فواتح يفتح الله بها القرآن » .

وعن زيد بن أسامة : هي أسماء السور .

وعن ابن عباس : هي اسم الله الأعظم .

وعن ابن عباس أيضًا : هو قسم أقسم الله به ، وهو من أسماء الله .

وعن ابن عباس كذلك وعن سعيد بن جبير وعن ابن مسعود : هي حروف مقطعة من أسماء وأفعال : كل حرف من ذلك لمعنى غير معنى الحرف الآخر .

وعن مجاهد فواتح الصور كلها « ق » و « ص » و « حم » و « طسم »

و « ألر » وغير ذلك هجاء موضوع .

وعن الربيع بن أنس : هى حروف يشتمل كل حرف منها على معان شتى مختلفة فالألف مفتاح اسمه « الله » ، واللام مفتاح اسمه « لطيف » ، والميم مفتاح اسمه « مجيد » . الألف آلاء الله ، واللام لطفه ، والميم مجده . واللام ثلاثون سنة ، والميم أربعون سنة .

وقال بعضهم هى حروف الجمل . وقال الطبرى : كرهنا ذكر الذى حكى عنه ذلك، إذ كان الذى رواه ممن لا يعتمد على روايته .

وجاء فى التفسير الذى نشرته مجلة منبر الإسلام :

« هذه حروف ابتدأ بها الله سبحانه وتعالى ، ليشير بها إلى إعجاز القرآن الكريم المؤلف من حروف كالحروف التى يؤلف منها العرب كلامهم ، ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن ، وهى مع ذلك تنطوى على تنبيه للاسماع لتميز جرسها » .

وجاء فى التفسير الوسيط :

( ألم ) افتتح الله بعض سور القرآن بأسماء بعض الحروف وعددها ثمانية وسبعون حرفاً فى جملة السور ، وهى تكرار لأربعة عشر حرفاً ، فى أوائل تسع وعشرين سورة ، ومنها سورة البقرة ، وأولها ( ألم ) وقد ذهب كثير من السلف إلى أن معانى هذه الحروف وأغراضها سر من الأسرار التى استأثر الله تعالى بعلمها ، فتكون من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله .

« أما علماء الخلف فقد حاولوا ببيان المقصود منها ، لأن القرآن جاء بلغة العرب ، ليفهموه . ومن أحسن ما قيل فى ذلك أنها تشير إلى إعجاز القرآن لأنه مكون من كلمات أساسها هذه الحروف التى تنظمون منها أيها العرب كلامكم ، ومع ذلك عجزتم عن أن تأتوا بمثله ، وفيكم الفصحاء والبلغاء ، فإذا جاء به النبى الأمى ، فالله تعالى هو الذى أنزله ، ولم يأت به من عند نفسه ، لأنه مثلكم فى الفصاحة ، فإذا

عجزتم عن الإتيان بمثله ، فهو مثلكم فى ذلك ، فالقرآن فوق مقدرة البشر جميعاً . ومن أحسن ما قيل أيضاً أن المشركين قد تضافروا على ألا يسمعوا القرآن ( وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ، لعلكم تغلبون ) .

وجاء فى تفسير المنار : ( ألم ) هو وأمثاله أسماء للسور المبتدأة به ، ولا يضر وضع اسم الواحد ( الم ) لعدة سور لأنه من المشترك الذى يعين معناه اتصاله بمسماه ، وحكمة التسمية والاختلاف فى ( ألم ) و( المص ) نفوض الأمر منها إلى المسمى سبحانه وتعالى ، ويسعنا فى ذلك ما وسع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعيهم . وليس من الدين فى شىء أن يتنطع متنطع فيخترع ما يشاء من العلل التى قلما يسلم مخترعها من الزلل ، وقد أسند التفسير هذا الرأى للشيخ محمد عبده .

ونحب أن نورد بعض ما لاحظناه بصدد هذه الحروف ، وموضعها فى القرآن الكريم .

أولا : أن هذه الحروف المفردة ، لا تأتى إلا فى أوائل السور .

ثانياً : أنها لا ترد فى أوائل السور إلا مقرونة بذكر القرآن ، وبتأكيد من الله تعالى أنه هو الذى نزله على رسوله بالحق .

ثالثاً : استثناء من هذه القاعدة ، وردت هذه الألفاظ ، فى موضعين اثنين فقط من القرآن الكريم ، غير مقرونة بذكره أو بآياته ، وذلك فى سورة العنكبوت : ( ألم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ) ، وفى سورة الروم : (ألم ، غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين ) .

رابعاً : لم يذكر القرآن الكريم أو آياته فى أوائل سور القرآن البالغ عددها أربع عشرة سورة ومائة ، غير مسبوق بهذه الألفاظ المفردة إلا فى سورتى الفرقان والزمر التى استفتحت بقوله تعالى : ( تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ،

فاعبد الله مخلصاً له الدين ) .

وقد وقعت سورة « الزمر » ، بين سورتين بدأتا بالألفاظ المفردة، مقرونة بذكر القرآن الكريم .

خامساً : لم يرد قسم في القرآن من الله تعالى إلا في أوائل السور ، من مثل ( والعاديات ضبحاً ) ( والضحى والليل ) ، ( والليل إذا يغشى) ، ( والشمس وضحاها ) ، ( لا أقسم بهذا البلد ) ، « والفجر وليال عشر ) ، ( والسماء والطارق ) ، ( والسماء ذات البروج ) ( والنازعات غرقاً ) ، ( والمرسلات عرفاً ) ، ( لا أقسم بيوم القيامة ) .

ننتقل بعد ذلك إلى التأمل في منهج القرآن ، في القسم ، فهو يقسم بأشياء تبدو لنا صغيرة الشأن قليلة القيمة ، كالتين والزيتون ، أو كالعاديات أو الخيل أو ببلد كمكة ، أو بالظواهر الطبيعية كالليل والفجر ، والشمس والقمر ، وبالرياح وبالنجوم ومواقعها وهو قسم يقول الله تعالى عنه : ( وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ) .

وغاية القرآن الكريم من القسم بهذه الأشياء الصغيرة الشأن ، وبهذه الظواهر الطبيعية التي هي أثر من آثار قدرة الله ، وبالنجوم والكواكب التي هي من مخلوقاته عز وجل أن يلفت نظر الإنسان إليها للتأمل فيها ، والنظر في النظام الذي تكون جزءاً منه ، ليزداد علماً وحكمة وفهماً لأحكام القرآن ، ولأصول الدين ، لأن الدين أساسه التسليم بقدرة الله ، وبعجز الإنسان أمامه وبحاجته إلى حمايته ورعايته سبحانه وتعالى ، وأنه بار بعباده رءوف بهم ، وأن كل ما يجرى عليهم مما يبدو لهم منطوياً على الخير أو الشر يمكن أن يزيدهم قوة ، لو ازدادوا فهماً لأحكام هذا الكون ونظامه ، وإدراكاً لسننه الثابتة التي لا تتحول ولا تتبدل .

وقد علمنا الله تعالى في كتابه : ( إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ) ، وقد ضرب لنا فعلا مثلا بالذبابة وخلقها فقال :

( إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ) .

فالقسم بالحروف لا ينبو عن أسلوب القرآن البيانى ، ولا منهجه الفكرى ، بل يتسق معهما ويتفق . وهو فى المواضع التى وقع فيها مفهوم تماماً بطبيعة الحال ، لأنه يتحدث عن القرآن الذى هو كتاب ، ولأنه كتاب فهو يتكون من ألفاظ ، تتكون بدورها من حروف . فمادة الكتاب هى الحرف به يبدأ ومنه ينشأ ، وتنشأ أجزاؤه الصغرى فالكبرى ، وعن طريقه تتدفق الأفكار ، وتنتقل من القائل إلى السامع ، ومن المخاطب إلى المخاطب به . والدعوة إلى تأمل الأشياء الصغيرة التى هى أصل الأشياء الكبيرة ، هى رسالة الإسلام العقلية والروحية معاً . فهو يتحدث كثيراً عن الذرة ، ويلفت النظر إلى ( لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ) ، ( وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ) ، ( قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ) ، ( إن الله لا يظلم مثقال ذرة ) ، ( فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ) ، ( وإن تلك مثقال حبة من خردل أتينا بها ) ، ( إن تلك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ) .

فليس إذن عند الله شيء حقير مهما صغر ، ولا يخرج عن نظامه أمر مهما بدا تافهاً ، قليل الشأن ، بل إن الله يذكر الإنسان المرة بعد المرة ، بأنه من ( ماء مهين ) وبأنه ( خلق من صلصال من طين ) بل إن الشيطان طرد من رحمة الله ، وأقصى عن الجنة لأنه لم يفهم حكمة الله ، وأبى أن يفتح عقله لنوره ، إذ رفض أن يسجد لآدم ، لمجرد أن ( آدم ) خلق من طين ، واعتبر نفسه خيراً منه لأنه خلق من نار : ( قال أأسجد لمن خلقت طيناً ؟ ) ، ( قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين ) .

فالتأمل فى الصغير والضئيل من الأمور ، أو ما يبدو صغيراً وضئيلا ، من أساليب القرآن ومناهجه فى تعليم البشر ، وتعويدهم احترام مخلوقات الله ، واستظهار قدرته ، وعظمته فى أصغر ما خلق : ( ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ) ، ( ألم نخلقكم من ماء مهين ؟ ) .

فإذا كان القرآن قد وجه الخطاب إلى الكفار والمشركين ، والمسلمين والمؤمنين ، فى شأن القرآن الكريم ، فى كونه كتاب الله ، وكونه منزلا على رسوله ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وليحتمل فى سبيل ذلك ، أن ينصرفوا عن سماعه وأن يشكوا فى صدقه ، وأن يلغوا فيه ، فهذا موضع تجب فيه الدعوة للتأمل فى أصل هذا الكتاب ، وهذا التأمل سيستدرج المتأمل إلى التفكير فى الكتب عموماً ، ما سبقت القرآن ، وما خطه الناس بأيديهم ، وسينتهى به التفكير إلى أن هذه الكتب ، تتكون من حروف صغيرة ، تنشأ منها جمل ، فماذا تكون هذه الحروف ؟ هى علامات لأصوات تصدر عن الإنسان ، ومثال هذه الأحرف : الألف واللام والميم والراء والهاء والصاد . إلخ . فهل يعرف العرب هذه الحروف ؟ ثم هل يدرون أنها قادرة على أن تنقل الفكر من رأس إلى رأس ، ثم من مكان إلى مكان ، ثم من زمان إلى زمان ، ثم من أمة إلى أمة . فإذن هى أداة خطيرة وفعالة ، وليست كما تبدو علامات لا قيمة لها ، ولا وزن . بل إنها جديرة بأن نتعلمها ، وبأن نعلمها أولادنا . وأخيراً هى جديرة بأن نفكر فيمن خلق لنا هذه الحروف ، وأجراها أصواتاً على ألسنتنا ، وجعلنا قادرين على التخاطب بها . فإذا كان الله هو الذى تفضل علينا بهذا كله ، فهذا الخالق العظيم ، يقسم لنا بهذه الحروف الصغيرة ، بأنه كما خلقها ، وكما علمنا إياها ، خلق منها هذا الكتاب .

ولذلك جاءت هذه الأحرف ، فى أوائل السور ، متنوعة ، تصدر من الحلق ، وتصدر عن الشفتين ، مهموسة ومجهورة ، خفيفة وشديدة إلى آخر ما قاله الإمام النسفى .

وقد يكون الإنسان قادراً على أن يتصور أن فى وسع كتاب أن ينقل الناس من حال إلى حال ، ولكن أن يكون الحرف الصغير قادراً على هذا ، فأمر يحتاج إلى تنبيه وإيقاظ ، وإلى ما يشبه الصدمة ، فإذا أقسم الله العظيم ، خالق كل شىء بالحرف فإن هذا القسم إذا فهمناه ، يفتح لنا عالماً من التأملات فى هذا الكون الرحيب الفسيح الذى خلقه لنا الله ، وسخر لنا فيه القمر والشمس ، والبحار والأنهار ، ومهد لنا سبلا نسلكها ، ونزداد بفضلها قوة وعلماً . إن التفكير فى الحروف وخلقها وخالقها ، أفعل فى نفس الإنسان وعقله من التفكير فى خلق السموات والأرض ، وفى اختلاف ألسنة الناس وألوانهم . لأن هذه الحروف ، تصدر عن الإنسان نفسه ، ولا تكلفه جهداً ، وهو لا يكف عن النطق بها ، وهى مع ذلك تغير أحوال الناس ، وتعلمهم ، وتزيدهم قوة ، وهى سبيل الإنسان ليقرأ هذا القرآن ويفهمه .

فالقسم بالحروف فى القرآن ، هو مظهر من أجل وأكبر مظاهر عظمة القرآن والإسلام معاً . فالكتاب الذى بدأ بقوله ( اقرأ ) ، هو الكتاب الجدير بأن يتضمن قسماً من الله بالحروف . فليس ثمة سبيل للقراءة ، إلا بمعرفة هذه الحروف وتعلمها وتعليم الغير إياها .

إذن هذه الحروف قد وردت فى أوائل تسع وعشرين سورة من سور القرآن الكريم — وهو عدد حروف الأبجدية كلها — ليقسم بها الله العظيم ، إظهاراً لعلو مقامها ، وكشفاً عن أنها أصل المعرفة ، وأنها باب العلم ، وهو يقسم بها ، على حقيقة عظيمة أخرى ، هى أن القرآن من عنده ، وأنه لا يتكون إلا منها ، ولا يوجد إلا بها ، ليتحقق بهذا القسم فى وقت واحد نفعان جاء الإسلام ليحققهما للإنسان : أن يزيد من قدر العلم والمعرفة عنده ، وأن يدفعه إلى الاستزادة منهما .

والثانى أن هذا العالم الكبير مفاتح السيطرة عليه والانتفاع به باعتباره مسخراً لخدمة الإنسان المؤمن الصادق العالم ، مفاتح هذا

العالم ، هى أمور صغيرة فى رأى العين ، كالحروف . فعلى الإنسان أن يبحث عنها ، ويحيط بها ، لكى يكون قوياً قادراً ، وعالماً مؤمناً ، وسعيداً صالحاً . إن هذه الأحرف كما قلنا ، قادرة على أن تنقل الإنسان من الجهل إلى العلم ، ومن الظلام إلى النور ، ومن الضعف إلى القوة . فتأمل أيها الإنسان فى قدرة الخالق العظيم ولا يهولنك هذا الكون الفسيح ، ولا تتضاءل أمام ضخامته ، وترامى آفاقه ، فإنك سيده بالعلم ، والعلم كما تريك الحروف ، سهل ميسور ، إن حرصت عليه ، والتمست السبيل إليه .

يتضح من كل ذلك أن التكلم فى الحروف المفردة ، الواردة فى تسع وعشرين موضعاً من القرآن الكريم ، فيه خير كثير ، ومنافع للناس عظيمة ، وبذلك يكون واجباً ، كما قال بذلك عدد من التابعين الصالحين ، والمفسرين السابقين ، ومع ذلك فإن حجة المذهب القائل بأن هذه الأحرف والغاية منها مما استأثر الله بعلمه ، فنفوض الأمر فيها لله ، قائمة على أن الأحرف بطبيعتها لا تحمل بذاتها معنى ، فهى ليست كالأفعال والأسماء ، فالذى يقول ( ألف ) أو ( ميم ) فإنه لم يقل شيئاً ، وما دام الله تعالى ، قد اختار أن يستفتح بها عدداً فى سور كتابه ، فلا يجوز لنا أن نقول إن هذه الأحرف تعنى شيئاً ما ، تدركه أفهام البشر ، لأنها فى واقع الأمر ، لا تعنى شيئاً مما تعارف عليه الناس ، وكل محاولة منا ، لإسناد المعانى إليها ، هى رجم بالغيب ، لا يأمن الإنسان فيها الوقوع فى الخطأ .

إلا أن القرآن فى جملته وتفصيله ، خطاب موجه إلى الناس ، ليفهموه وليتدبروه ، ويعوا من حياتهم ، ومن الكون الذى يحيط بهم ، أموراً كانوا يجهلونها يهتدوا إلى سبل كانوا لا يفكرون فيها ، وإن العلم بهذه الأمور ، والاهتداء إلى تلك السبل ، بمثابة الخروج من الظلام إلى النور ، ومن الضعف إلى القوة ، ومن المهالك إلى الطمأنينة والسلام . ونسبة

الاستغلاق والغموض المطلق إلى شيء فى القرآن ، من لفظ أو معنى ، مما لا يتفق مع رسالة الذكر الحكيم ، ولا مع إنزاله على رسوله ، وتكليف الرسول بتبليغه ، وقد تواترت الآيات الدالة على ذلك ، ففى سورة القمر وحدها ثلاثة مواضع جاء فيها : (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) كما جاء فى سورة الإسراء : (ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا) ، وفى سورة فصلت : (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته) ، وفى سورة الزخرف : (إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) ، وفى سورة إبراهيم : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) ، وفى سورة محمد : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) .

فكل ما فى القرآن معروض على أفهام الناس وعقولهم ، ليحاولوا فهمه ، والانتفاع بما يفهمونه ، وهم بطبيعة الحال متفاوتون ذكاء وصبراً ، كما تتفاوت حظوظهم من توفيق الله ، ولكنهم مهما ضؤل نصيبهم من القدرة العقلية ، ومن استطاعة الإدراك والتحصيل ، فهم مطالبون بأن يستعينوا بغيرهم ممن هم أكثر علماً ، وممن يستطيعون أن يفقهوا الناس : (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) ، (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) ، فالجهاد الذى هو أعلى مراتب الإيمان ، لا يخرج إليه المسلمون كافة ، لكى يفرغ بعضهم للعلم والتفقه : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) ، وليس معنى ذلك ، أن الله لم يستأثر بعلم الكثير (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ، ولكن هذا الذى استأثر به الله نفهم ما جاء بشأنه فى القرآن ، ولا يكون للمسلمين كرطانة الأعاجم ، أو من قبيل المعميات التى تكون عنصراً فى أديان أخرى ، فالله تعالى قال : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) ، فنحن نقرأ هذا الكلام فنفهم منه كل كلمة فيه ، ونفهمه جملة واحدة ، وندرك من كلماته ومن معناه أن الله تعالى ينهانا عن الخوض فى موضوع الروح ،

ولكنا نعرف كلمة الروح ومدلولها ، وإن كنا لا ندرى طبيعة هذه الروح ولا كنهها .

كذلك جاء فى القرآن الكريم عن الساعة ، وموعد قيامها : ( يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله ) ، ( إن الله عنده علم الساعة ) ، ( يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى ) .

وليس معنى هذه الآيات الصريحة البينة أن المسلمين لايفهمون ما المقصود من الساعة ، وأنهم لا يجوز لهم أن يفهموا معناها ، وأن يشرحوا هذا المعنى لمن لا يفهمه جيداً ، فهذا كلام عربى مبين ، واضح ظاهر ، ولكن الذى لا نعلمه ، ولا يحق لنا أن نخوض فيه ، هو موعد قيام الساعة ، لأن الله قال بصراحة إنما علمها عنده وحده سبحانه وتعالى .

وكل المذاهب الأخرى فى تفسير الألفاظ المفردة التى تقول إن هذه الألفاظ أجزاء من أسماء أو أفعال ، صرح ببعضها ، وأخفى بعضها الآخر ، أو أنها أسماء لله سبحانه وتعالى ، فنحن لانقف أمامها لنناقشها واحداً واحداً ، وإنما نقول إن كل هذه الآراء لا تتفق مع روح الإسلام ، وجوهر أحكامه ، فالإسلام دين صريح واضح يصل فى صراحة أحكامه ، ووضوح قواعده ، إلى أقصى الحد ، فهو خال تماماً من الألغاز والغموض ، وليس فيه علم يبذل للكافة ، وعلم يستأثر للأحبار ورجال الدين ، إنما هو علم أبوابه مفتحة لكل مجتهد ، وما دام طالب العلم يتوسل إليه بوسائله البشرية ، من الاجتهاد ، وخلوص النية ، وصدق الرغبة ، وسؤال من يعلم ، والصبر على البحث وتحضير وسائله ، فله الحق فى أن يؤمل فى الوصول إلى مراتب العلم ، فليس فى الإسلام كهنوت ، ولا هيئة تفرض رأيها على المسلمين بجاهها ، أو سلطانها ، ولو كان جاه العلم ، فلكل مسلم أن يختار لنفسه الرأى الذى يرتضيه ، ما دام قد وصل إليه بنفسه ، أو بالاستعانة بسؤال ، ممن يحق لهم النظر فى أحكام الدين ، والفتوى فيها .

# قفل باب الاجتهاد : نقمة أم نعمة ؟

أوفد رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل إلى اليمن ليفقه أهله فى الدين ، فسأله الرسول كيف تقضى ؟ فقال معاذ : أقضى بكتاب الله ، فإن لم أجد فبسنة رسوله ، فإن لم أجد ، أجتهد رأيى . وقد حمد رسول الله ، الله تعالى ، إذ وفق معاذاً إلى ما يرضى الله ، ويرضيه عليه الصلاة والسلام .

وقال الإمام على : قلت : يا رسول الله ، ينزل بنا من الأمور ما لم ينزل فيه قرآن ، ولم تمض فيه منك سنة ، قال : اجمعوا له المؤمنين من العالمين فاجعلوه شورى بينكم ، ولا تقضوا فيه برأى واحد .

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى ، عندما ولاه القضاء ، اعرف الأشباه والأمثال ، فقس الأمور على ذلك .

وقال عمر للقاضى شريح : اقض بما استبان لك من قضاء رسول الله ، فإن لم تعلم كل أقضية رسول الله ، فاقض بما استبان لك من أئمة المجتهدين ، فإن لم تعلم ، فاجتهد رأيك ، واستشر أهل العلم والصلاح .

وفى هذه الأقوال جميعاً سند الاجتهاد ، وسند اجماع المجتهدين ، كمصدر من مصادر الأحكام فى الشرع الإسلامى . والاجتهاد ، أى إعمال الفكر واستفراغ الجهد ، للوصول إلى حكم الحالة التى لم يرد فى شأنها نص فى القرآن أو فى السنة ، أمر تستوجبه الحياة نفسها ، فكما يقول الشهرستانى فى كتابه « الملل والنحل » : الحوادث والوقائع فى العبادات مما لا يقبل الحصر والعدد ، ويعلم قطعاً أنه لم يرد فى كل حادثة نص ، ولا يتصور ذلك أيضاً ، والنصوص إن كانت متناهية فالوقائع غير متناهية ، ولما كان ما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى ، علم قطعاً أن الاجتهاد والقياس واجبا الاعتبار حتى يكون بصدد كل واقعة اجتهاد .

ولم يجادل أحد فى أن صحابة رسول الله اجتهدوا ، والرسول بين ظهرانيهم . وقد أعلن معاذ بن جبل رضى الله عنه أنه سيجتهد برأيه ، والرسول على قيد الحياة . ثم إن الصحابة اجتهدوا بعده ، فقرروا وفعلوا ، ما لم يأت به نص القرآن والسنة ، ومن أعظم ما فعلوه ، جمع القرآن فى مصحف ، ثم حمل الناس على مصحف واحد .

واجتهاد الخليفة الثانى مشهور معلوم ، منه أنه عطل حكم المؤلفة قلوبهم ، وفيه نص فى القرآن ، وعطل حد السرقة فى واقعة غلمان أبى بلتعة ، كما عطله فى عام المجاعة ، كما نهى أمراءه عن زواج الكتابيات ، وهو جائز . وقد أجاز أصحاب الرسول ، كسعيد بن المسيب وربيعة بن عبد الرحمن ويحيى بن سعيد الأنصارى التسعير ، فى حين أن الرسول امتنع عنه ، وقال : « إن الله هو المسعر القابض الباسط الرازق ، وإنى لأرجو أن ألقى الله وليس يطالبنى أحد بمظلمة فى دم ومال » .

وجملة القول أن المسلمين اجتهدوا وقاسوا الأحوال الجديدة ، والأمور المستحدثة ، والوقائع غير المسبوقة ، على الأحوال والأمور والوقائع التى ورد فيها نص فى القرآن والحديث ، وأنهم واصلوا اجتهادهم ، فتعددت طرائقه ، ولولا أن المسلمين اجتهدوا ، وسايروا ما أتت به فتوحهم الواسعة ، وحضارتهم المزدهرة ، وثقافتهم التى تعددت روافدها وترامت آفاقها ، من علاقات إنسانية جديدة ، ووجوه للنشاط الاقتصادى والاجتماعى والفكرى لم يكن لهم بها عهد من قبل ، لضمرت شريعتهم ، وجفت منابعها ، ولتقلص ظلها ، فأظلتهم شرائع غيرهم كما حدث لهم ذلك بعد حين . وبفضل هذا الاجتهاد بقيت الشريعة الإسلامية فتية : يتجدد رواؤها ، ويزداد نطاقها اتساعاً .

وقد اشترط المسلمون ، فيمن يتصدون للاجتهاد من علمائهم ، شروطاً ، حتى لا يتصدى لهذه المهمة العظيمة ، من ليسوا أهلا لها ، فكان لا بد للمجتهد من توافر العلم باللغة العربية لغة القرآن والسنة ،

والعلم بقواعدها ونحوها وصرفها ، وأساليب العرب فى البيان ، على أن يكون عاقلا عدلا متصفًا بالأخلاق عارفًا بآيات الأحكام فى القرآن وأسباب النزول ، والناسخ منها والمنسوخ ، وأحاديث الأحكام إلى آخر ما اشترطوه فى هذا الطراز الرفيع من العلماء .

ثم اشترط المسلمون فى عصور تدهورهم للإجماع صورة تجعله مستحيلاً إذ اشترطوا لصحته اجتماع كل مجتهدى العالم الإسلامى ، بعد معرفتهم والوقوف عليهم ، ثم معرفة رأيهم جميعاً فى المسألة المعروضة عليهم واستمرارهم على رأى واحد ، حتى صدور هذا الرأى منهم .

والمسلمون لم يتشددوا هذا التشدد ، عن حرص على الدين ، أو اتقاء للمزالق ولا رغبة فى جمع الكلمة ، وإنما فعلوا ذلك لأنهم فقدوا الثقة فى أنفسهم ، فتهيبوا الاضطلاع بالمسئولية ، وآثروا التقليد والمحاكاة ، على التفكير والابتكار والتجديد ، فالابتكار مشقة ، والتجديد معاناة ، والتفكير له ضرائبه من درس وسهر ، ومراجعة ومقابلة . والتقليد والنقل عن الآباء والتشبث بالقديم ، سنة الأمم الضعيفة وصفة الجماعات المغلوبة على أمرها ( قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا )[١] ، ( قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا )[٢] .

وقد كنا نذكر هذا الجمود الذى أصاب التفكير الإسلامى بعامة ، وتفكير علماء الشرع الإسلامى بخاصة ، فتذهب أنفسنا حسرات عليه ، حتى أدركنا أن التشريع الإسلامى ، ليس إلا انعكاسًا لحياة المسلمين ، فلما ضعف أمرهم ، واستكانوا لحكم الأجنبي وقبلوه ، وتسابق علماؤهم على ترضى السادة الجدد ، والسير فى ركابهم ، تخلت عنهم صفات المجتهدين ، وأعوزتهم وسائلهم ، فى حاجتهم إلى الاجتهاد ، وقد سادهم الإعجاب بكل ما هو أجنبي وأقروا بالعجز عن منافسة الحضارة الجديدة ، وأهابوا بأولادهم أن ينجوا بأنفسهم عن الانقطاع لدراسة

( ١ ) سورة البقرة : ١٧٠ . ( ٢ ) سورة المائدة : ١٠٤ .

الشرع الإسلامى وتعليمه والقضاء به ، لأنه لا يدرّ رزقاً ، ولا يكسب جاهاً ، ولا يحقق نفوذاً .

وكأن الشرع الإسلامى قد خرج من حياة المسلمين أنفسهم شيئاً فشيئاً ، حتى أصبح تراثاً ينظر فيه ، كما ينظر إلى كل قديم عزيز فقد صلته بالحياة ، وإن بقيت عند الدارسين المتخصصين أشياء علماء الآثار .

ولما انقطعت الصلة بالشريعة الإسلامية كقانون ، انبعث من الحياة القوية ، التى سادت المدن ، وأخرجت أكبر العقول وأضافت إلى العلم النظرى والتطبيقى الكثير الخالد لارتفاع شأن علمائها ، فلما دهم الحكم الأجنبى بلاد المسلمين ، صغر قدر هؤلاء العلماء عند الناس ، وصغروا عند أنفسهم ، فبات تكليفهم بالاجتهاد ، لوناً من العبث ، الذى لا يأخذونه هم بالذات مأخذ الجد . حسبك أنه كان تقليداً فى عهد الحكم البريطانى أن يحشد علماء المسلمين فى كل مصر ، فى ليلة القدر كل سنة فى دار المعتمد البريطانى ، لندرى أى درك وصل إليه الحال .

إذا كان هذا الجو ، جو الاجتهاد ، الذى هو صراع ومكابدة ، ومسئولية وثقة بالنفس ، وحرص على الشرف ، وكره للذل ، وعزم على مقاومة الباطل ، وتنديد بالغاصب ، ووقوف فى وجه الفاسد وجمع لكلمة الأمة حول راية القتال ، وإيمان بالدين الخالص ، ورغبة فى التضحية والبذل ، لم يكن الاجتهاد قط ، كلاماً يقال ، ولا فتوى يفتى بها وتكتب على ورق ، ولا حكماً يصدر فى قضية ، وإنما كان أولا وقبل كل شىء علماً واسعاً تعززه نفس قوية . ولأمر ما عذب أئمة المسلمين ودخلوا السجن ، أمثال أبى حنيفة ومالك .

فرحمة الله لهذه الأمة ، إن علماءها حينما لم تتوافر فيهم ، ولا فى الجو الذى كانوا يتنفسون فيه شرائط الاجتهاد ، ردوا أنفسهم عنه إلى أن تدور رحى القتال ضد الغاصبين ، فتجرى فى العرق دماء ، تجعل الاجتهاد حتماً لا مفر منه ، ونفعاً محضاً لا شرّ فيه .

# دولة القانون فى الإسلام

الدولة القانونية ، هى الدولة التى يخضع فيها الحكام للقانون ، خضوع المحكومين له . وهى أمل من آمال البشرية : يبدو دانيًا حينًا ، ثم يبعد ويمعن فى البعد حتى ليخيل إلى أبناء البشرية أنه كاد يكون سرابًا ، أو ندًّا للعنقاء والخل الوفى !

وقد زاد من بعده أن اشتدت أوار الحروب الساخنة فى العهود الأخيرة منذ وقعت الثورة الفرنسية ، ثم جاءت فى أعقابها حروب نابليون الدولية ، فحرب سنة ١٩١٤ العالمية ، فمحنة سنة ١٩٣٩ البشرية ، فلما وضعت هذه الأخيرة أوزارها ، أعقبتها الحروب الباردة ، التى تسخن بدورها ، وتبرد ، حسب تقلبات السياسة ، ومخاوف الزعماء الحقيقية أو المدعى بها .

وقد منحت كل هذه الحروب الحكام ذرائع تبيح خرق القانون ، وتعطيله وتأجيله ، ومداراته ، وتخديره وتنويمه ، وإرهابه وإخضاعه ، مع تراشق المعسكرات بتهم يدور أكثرها حول إذلال كل معسكر للقانون وتمويهه أو تشويهه . على أن الذى يؤكد — مع الأسف الممض — أن أزمة القانون حقيقة واقعة ، وليست وهمًا أو خيالا ، أن فقهاء الغرب المدل بحبه للقانون وإعلاء كلمته ، والخضوع لسيادته ، اعترفوا فى غير مداراة ، بأن دولة القانون فى بلادهم دالت ، ولعل من أصرح هؤلاء « دى لانكفورت » فى كتابه « القياصرة الجدد » ، وقد أنذرنا بدولة قياصرة تقوم فى الغرب من طراز قياصرة روما ، لهم سلطان كسلطان هؤلاء القياصرة القدامى ، كما أنذر ، بأننا صائرون إلى هذا المصير ، بغير وعى منا ، كأننا السائرون نيامًا ، فنسلم حرياتنا إلى يد مستبد ، فراراً من حريتنا .

وقال الكاتب إن هؤلاء القياصرة فى غير حاجة إلى إحداث انقلاب على الدستور ، أو ثورة ضده إذ حسبهم أن يتسللوا إلى مواطن القوة من دروب فى الدستور نفسه . .

* * *

لذلك كله أصبح الحديث عن دولة القانون التى يسرى فيها الشرع العام ، على الحاكم مثل سريانه على الرعية ، من أحب الأحاديث إلى قلوب الناس ، التماساً للأمل ، أو تعزية عن الواقع .

وقد عرف الناس هذه الدولة ، كاملة المعالم ، واضحة الملامح ، صريحة لا تتوارى ، جلية لا يخطئها البصر ، مهما قصر ، حينما عرفوا الإسلام . قال نبى المسلمين، رسول الله صلى الله عليه وسلم لصحابته : « قاربوا وسددوا ، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله » ، فقال أصحابه ولا أنت يا رسول الله : قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه فضال » ! ومعنى ذلك أن الرسول نفسه فى حاجة إلى رحمة الله وفضله، ولينل عفوه ، وينجو من عقابه .

فالقانون الذى يحكم الناس جميعاً ، وفى مقدمتهم رسول الله رب العالمين ، هو ما جاءت به الآية الكريمة : ( ليس بأمانيكم ولا أمانىّ أهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يُجْزَ به )، ولم يهمل الرسول عليه أفضل الصلاة فى أن يعلن هذا المبدأ ، بأكثر من أسلوب ، وبأكثر من عبارة ، وفى أكثر من مناسبة ، قال : « يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، ويا بنى عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب ما أغنى عنك من الله شيئاً . يا فاطمة بنت محمد سلينى ما شئت من مال ، لا أغنى عنك من الله شيئاً » .

* * *

ولكن ما أيسر ما يقول الناس، وما أكثر ما يقولونه ضد ما تُطوَى عليه الصدور ، وما تعلنه الأعمال ، فانظر ماذا جرى من محمد ، فى

أكثر الأمور مسًّا بقلب الإنسان وإثارة لوجدانه .

أسر المسلمون فى غزوة بدر ، أبا العاص بن الربيع ، وكان من رجال مكة المعدودين أمانة ومالا وتجارة ، وكان فوق ذلك زوج بنت رسول الله ، من السيدة خديجة ، ولكن أبا العاص استمسك بدين قريش ، ولم يدخل الإسلام ، وبقيت معه زينب بنت الرسول فى مكة ، وأرسل أهل مكة يفتدون أسراهم ، فبعثت زينب مالا افك أسر زوجها ، وبعثت معه قلادة كانت أمها قد أهدتها إليها ، عندما زفت إلى زوجها ، فلما رأى الرسول قلادة ابنته المهداة إليها من زوجته ، رق لها رقة ، شديدة ، وقال للمسلمين « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا » ، فقالوا : نعم يا رسول الله ، وأطلقوه وردوا عليها مالها .

وقبل أن يطلق سراح أبى العاص أخذ النبى عليه عهداً أن يرد « زينب » إليه لتلحق بالمسلمين بالمدينة ، وأوفى أبو العاص بالوعد ، حتى إذا كان قبيل الفتح ، خرج أبو العاص بتجارة إلى الشام ، فيها بعض ماله ، ومال لرجال من قريش ، فتصدت للقافلة سرية من المسلمين ، فاستولت على مال القافلة وبضاعتها ، وفر أبو العاص ناجياً بنفسه . فإذا كان الليل دخل على السيدة زينب بنت الرسول فاستجار بها فأجارته . . فلما خرج رسول الله إلى الصبح ، كبر وكبر الناس ، صرخت زينب من صفة النساء : « أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع ! » فلما سلم الرسول من الصلاة أقبل على الناس يقول : أما والذى نفس محمد بيده ، ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم . إنه يجير على المسلمين أدناهم » . ثم انصرف فدخل إلى ابنته فقال : أى بنية ! أكرمى مثواه ، ولا يخلصن إليك ، أى لا يتصل بك اتصال الزوج — فإنك لا تحلين له . ثم أرسل رسول الله ، إلى السرية التى أصابت مال أبى العاص فقال : إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم : وقد أصبتم له مالا ، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك وإن أبيتم فهو

فىء الله أفاءه الله عليكم ، فأنتم أحق به » قالو : « يا رسول الله ، بل نرده » ، فردوه . وأطلق سراح أبى العاص ، فعاد إلى مكة ، فوزع على أصحاب المال مالهم ، ثم أعلن إسلامه قائلا إنه لم يرد أن يعلن إسلامه ، قبل أن يرد الأمانات إلى ذويها ، حتى لا يظن أهل مكة ، أنه اتخذ من الإسلام ذريعة لأكل أموالهم .

فانظر كيف كان مسلك الرسول فى الواقعتين ، دع عنك الرفق الذى اصطنعه ، والتواضع الذى أقسم به ، ودع عنك هذه الكلمة التى ندت من صدره ، وهو ينهى صلاته فى الصبح ، معلناً أنه لم يعرف من قبل ، أن ابنته أجارت زوجها ، ليعلم الناس أنه لا يتواطأ حتى مع أحب الناس إليه ، وأقربهم إلى نفسه ، وأحقهم بالرعاية الخاصة ، على القانون، فيعطى نفسه أكثر مما يعطى قانون الناس كافة .

إنما الغاية من ذكر هاتين الواقعتين ، أن الرسول سلم بحق السرية ورجالها فى الاستيلاء على مال القافلة ، وأنها إن أرادت مصادرتها ، فلا تثريب عليها ولا لوم . ولا يتوهم متوهم أن الرسول كان يعلم يقيناً أن المسلمين سيستجيبون لرجائه ، وسيفكون له أسر زوج ابنته . فقد رباهم على غير ذلك ، وعلمهم كيف يجهرون بالرأى ويشتدون فيه ، حتى قال أحدهم فى غلظة لا مبرر لها : « أهذا المال مال أبيك ؟ » ، فإذا هم عمر بضرب عنق الرجل نهاه الرسول ، وقال قولة يحيطها الخلود بإطار من عنده : دعه يا عمر ، إن لصاحب الحق مقالا .

ويروى لنا التاريخ أن أنصارياً كان له بستان ، وكان لآخر نخيل فيه ، فعرض عليه أن يبيعه النخيل فأبى ، فعرض عليه أن يبدله به نخيلا فى موضع آخر فأبى ، فرفع صاحب البستان شكواه إلى الرسول ، الذى أعاد عرض الأمرين على صاحب النخيل ، فأبى كذلك، فاقترح الرسول أن يهب نخيله لصاحب البستان فركب رأسه ورفض، وعندها فقط ، قال لصاحب البستان : أنت مضار فاخلع النخل .

# نظام الحكم في الإسلام

لا خلاف فى أن القرآن الكريم لم يورد بيانًا عن نظام الحكومة التى يرتضيها أو يأمر بها الإسلام ، صحيح أن الآية الثامنة والثلاثين من سورة « الشورى » والآية التاسعة والخمسين بعد المائة من سورة « آل عمران » قد تحدثتا عن الشورى ، وصحيح أن فى القرآن آيات تأمر بالعدل ، وتنهى عن الانحراف عنه ، لكراهية أو محبة . ولكن فيما عدا ذلك ، لا يجد الباحث من الأحكام ما يستطيع أن يقول معه إن الكتاب قد رسم خطًّا ما للناس يلزمونه فى اختيار حكامهم ، أو أرسى قواعد لضبط العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وإظهار ما يجوز لكل منهما وما لا يجوز . ومن ثم حق للفقهاء منذ نزل القرآن ، ويحق لنا اليوم أن نتساءل : فيمَ سكوت القرآن عن بيان مفصل لنظام الحكم ؟

جرت أكثر الأقوال فى الجواب عن هذا السؤال بأن مرد ذلك إلى كون الإسلام نظامًا صالحًا لكل زمان ومكان ، ونظام الحكم من أكثر الأنظمة الإنسانية تأثراً بالتطورات الطارئة التى تأتى بها الأيام ، والتى تثبت فى البيئة . فما يصلح للناس فى عهد قد يضيقون به فى عهد ثان ، وما قد ينفعهم فى بلد ، قد لا تستقيم به أمورهم فى بلد آخر .

وهذا القول صحيح ، وقد أخذت به الشريعة ، فمن قواعدها « تغير الأحكام بتغير الزمان والمكان » ، وقد قال ابن خلدون فى مقدمته : إن أحوال العالم والأمم ، وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر . إنما هى اختلاف على الأيام والأزمنة ، وانتقال من حال إلى حال . .

وعلى الرغم من أن هذه الإجابة صحيحة فى جملتها ، فإن ما صرف القرآن عن بيان نظام الحكم هو أسلوب الإسلام وطريقته فى التشريع .

فأساس التشريع الإسلامى ، هو التربية الخلقية ، وإقامة رقابة الضمير الإنسانى ، بديلا من رقابة الدولة بشرطتها وعسسها . فالأصل فى الإسلام ، هو محاسبة الإنسان نفسه مستهدياً بأحكام الدين ، ومنها الحديث الذى يأمرنا أن نعبد الله كأننا نراه : فإن لم نكن نراه فهو يرانا . فرقابة الحكومة ، أو رقابة القانون هما رقابتان احتياطيتان .

ولذلك حرص الإسلام على أن ينشئ مجتمعاً تحكمه الضوابط الخلقية ، فإذا نجحت التربية الخلقية فخلقت مجتمعاً يسود علاقات أفراده الصدق والأمانة ، والوفاء والصراحة ، وكراهية الظلم ، ونصرة العدل ، والمسارعة إلى الخير ، ومقاومة الشر ، فأى نظام حكم يقوم فى هذا المجتمع ، يتساوى مع أى نظام آخر ، فمجتمع كهذا ، لن يقبل أو لن ينبعث منه نظام ظالم ، أو حكومة فاسدة ، أو حكام تعوزهم القدرة أو الكفاية .

وقد لخص الحديث النبوى هذه النظرة الإسلامية إلى الحكم إذ قال « كيفما تكونوا يولّ عليكم » ، فنظام الحكم أشبه شىء بالسائل ، يوضع فى الإناء الملون ، فيأخذ لونه ، ذلك لأن نظام الحكم — على ما أثبتته التجارب — هو صدى أخلاق الشعب : أما الدساتير والقوانين ، فلا تقيم حكماً ولا تغير من شئون الناس شيئاً .

لذلك احتفل الإسلام بأخلاقيات الحكم دون نظامه ، فعرض على الراعى وعلى الرعية فروضاً يعلم الإسلام أنها من الحكم جوهره ، وأنها إذا روعيت استقام شأن الرعية ، وصلح أمر الراعى ، فإذا أهملت وقفت النصوص ، ومعها البنادق والمدافع ، والمحاكم والسجون عاجزة لا تقدم خيراً ولا ترد شراً .

وقد روى لنا تاريخ بريطانيا مثلا رائعاً ومردعاً فى الوقت نفسه ، ما أجدرنا أن نتعظ به .

لقد فشت فى لندن منذ قرون جريمة « النشل » حتى أصبحت

خطراً داهمـًا هدد أمن الناس وأموالهم ، فصدر قانون قضى بعقوبة الموت شنقـًا ، على كل من يرتكب هذه الجريمة ، ونفذت عقوبة الشنق علنـًا ، زيادة فى الردع ، فتزاحم الناس فى الميدان الذى أقيمت فيه المشنقة ، فانتهز النشالون الذين لم يضع القانون يده عليهم ، فأعملوا أصابعهم الخفيفة ، ومشارطهم السريعة فى جيوب المشاهدين ، فنشلوا فى ساعة ، ما كانوا يعجزون عن نشله فى أيام .

وليس فى الوسع أن نسرد نصوص الدستور الأخلاقى الذى فرضه الإسلام على الراعى ، ولكن نستطيع أن نذكر بعضها على سبيل المثال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من إمام يغلق بابه دون ذوى الحاجة والخلة والمسكنة إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته » ، وقال : « من ولى من أمر الناس شيئـًا فاحتجب عن أولى الضعف والحاجة ، احتجب الله عنه يوم القيامة » .

وأمر الإسلام الولاة أن يحسنوا اختيار أعوانهم ، فقد قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « من استعمل رجلا من عصابة وفيهم من هو أرضى الله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » . ومن جهة أخرى فرض الإسلام على أفراد الرعية ألا يعينوا على الظلم فقد قال الرسول الكريم : « من أعان ظالمـًا بباطل ليدحض به حقـًا ، فقد برئ من ذمة الله ورسوله» ، وفرض عليهم أن ينصحوا للحاكم ، وأن يجهروا بالرأى فى شئونهم ، فجعل خير الجهاد كلمة حق عند حاكم ظالم .

ولقد تسأل : ومن سيقوم بتربية الشعب ، ليكون له هذا الخلق القوى ، ثم ليسهر عليه ينميه ، ويمنع عوادى الزمن عليه ؟ والجواب عن هذا أن الله فرض على جماعة المسلمين أن يكون منهم دائمـًا طائفة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، فإذا نسيت الجماعة ذكروها ، وإذا صلحت أعانوها ، وإذا خافت قووا إيمانها ، وإذا اندفعت سددوا خطاها ، سدد الله خطانا .

# الإسلام والعالم

أديت فريضة الجمعة فى الكعبة ، فى غير موسم الحج . فجلست فى المسجد ، أجيل النظر فى الجموع الحاشدة التى امتلأ بها صحن المسجد ، وقد ضمت صورة مصغرة للعالم الكبير ، على ترامى أنحائه وأطرافه ، وتعدد أجناسه وأصنافه ، وكان معى زملاء رحلة ، رجال أشداء صناعتهم القتال ، فراعنى أنى رأيت الدموع تنحدر على وجناتهم ، وكأنهم أطفال ، من فرط التأثر بجو المكان ، والذكريات التى تتداعى فى نفس المسلم بالجلوس فيه . أما أنا فقد رحت أتأمل فى وجوه المصلين ، الذين وفدوا من كل صوب وحدب من دنيانا ، مستمتعاً بالنظر إلى حمام الحرم ، وهو يرسم فى الجو خطوطاً ودوائر ، يحط ويشيل ، كما يحلو له ، رمزاً ناطقاً بالسلام والسكينة والحرية . فلما أذن المؤذن ، وأقبل الخطيب ، أحسست بوجيب قلبى عنيفاً ، حتى خيل إلى أنه موشك أن يقفز من مكانه . فلما وصل الخطيب إلى آخر درجات المنبر ، ثم استدار ليواجه المصلين ، بلغت الغاية من التأثر حتى أوشكت أن أنتظم فى سلك الباكين ، ذلك لأنى تصورت نفسى على هذا المنبر ، أخطب العالم مجتمعاً وممثلا فى هذه الألوف من المصلين الهادئة وجوههم ، الخاشعة قلوبهم ، متجهين إلى قبلة واحدة ، مسيرين بعقيدة واحدة ، يظلهم تاريخ واحد . ماذا عسى أن أقول لهم ، والعالم الإسلامى فى أيدى سادة العالم وأمرائه ، كالكرة يتقاذفونها بالأيدى أو بالأرجل ؟ ولكن الخطيب أسرع إلى نجلتى ، فقد وقف هادئاً ، ثم حمد الله وأثنى عليه ، وأخذ فى صوت رتيب ، يخطب فينا ، كأننا لم نقطع الفيافى والقفار ، راجلين أو طائرين ، لنشهد هذه الساعة ومثيلاتها ، أو كأننا فى مسجد بعطفة من حارة فى حى من أحياء بلدنا ،

فقد حدثنا يومذاك ، فى شأن من شئون دنيانا التافهة ، فرحت أحدق فيه ، وكأنى لا أصدق أذنى ، ولا عينى ، ثم استحالت الحرارة فى بدنى وقلبى ، إلى برودة ، فلما نهضت إلى الصلاة ، كنت شبحاً بلا روح .

ما حدث يومذاك هو خير بيان لحال الإسلام منذ سنوات ، التى لا أدرى كم تغيرت اليوم ، لقد كان الإسلام نسراً محلقاً ، يصل إلى قمم الجبال الشوامخ ، ويطل على العالم الفسيح ككل متصل ، ثم أصبح كبط الترع ، له جناحان ، ولكن لا يرفعانه عن مستوى الماء الضحل . لقد تقلصت عالمية الإسلام ، وكونيته ، فأصبح ديناً محلياً ، وهو الدين السماوى الذى جاء رسوله ، ليخاطب الدنيا قاطبة ، خاطب القرآن النبى بقوله : (قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً) . ورب المسلمين ، هو رب المشارق والمغارب ، وهو رب العالمين ، والخطاب فى القرآن موجه للناس ، وقاعدة الإسلام الكبرى : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) ، وقول الرسول : « كلكم لآدم » .

بدأ الإسلام قوة عالمية ، واستمر قوة عالمية حتى سقطت دول المسلمين فى يد الاستعمار . فمنذ الأيام الأولى وجهت دعوة الإسلام إلى أكاسرة وقياصرة وأمراء القوى الكبرى فى العالم ، وجهت إليهم من هذه القرية الصغيرة « مكة » ، فوصلت إلى حواضر الحضارة المزدهرة ، المزدهية بقوتها وجاهها ، المدلة بسلاحها وسلطانها ، وبقى الإسلام قوة عالمية فى صور مختلفة : تارة بما ينقله للعالم من ثقافة علماء القدماء التى أثرت فى عقول البشر ، وصاغت أفهامهم وأفكارهم حتى اليوم ، وتارة بما يضيفه إلى علم الإنسانية من طرائق مستحدثة ، وتعديلات غير مسبوقة ، وكشوف لحقائق مجهولة ، وتارة ثالثة بما قدمه من نماذج بشرية عالية ، فى دنيا الفلسفة والعلم والفقه والإدارة وقيادة الدول والجيوش . وتارة رابعة بالصراع الذى نشب بينه وبين العالم المسيحى ، وأخذ صورة

الحروب ، وصورة السياسة ، بمناورات ومحاورات ، أو بمعاهدات ومحالفات . وقد تشكل تاريخ الإنسانية بهذه الحروب العالمية ، الحروب مع إمبراطورية بيزنطة ، التى انتهت بسقوط القسطنطينية فى يد المسلمين ، وبحروب أمراء الغرب ضد دولة المسلمين فى الأندلس ، التى انتهت بانتصار شارل مارتل ، فى بواتييه . على أن الحرب الصليبية ، التى استمرت قرنين أفادت المعسكرين ، فقد وحدت المسلمين ، وأدت إلى دنو القبائل التركية من أواسط آسيا إلى الشرق الإسلامى ، كما أتاحت للمسيحيين أن يدركوا مدى تخلفهم عن أهل الشرق ، فكانت بداية عصر النهضة عندهم ، إذ نقلوا عن المسلمين ما نقلوا .

وكان آخر مراحل حياة الإسلام العالمية ، نشوء الدولة العثمانية ، التى بدأت حياتها بدخول « عثمان باديشاه » مدينة بورصة سنة ١٣١٧ ، فقد حاول الاستعمار الغربى على مدى أربعة قرون أن يزيحها من الوجود ، فلما ضعفت ثم انهارت ، تدفق زحف الاستعمار الغربى ، على بلاد المشرق والمغرب العربى ، وبدأت الصهيونية العالمية تعربد ، وتوجه الاستعمار الغربى ، وتمتطى ظهره ، وتمده بالقوة ، وتأخذ منه العون ، حتى كانت كارثة الإنسانية الكبرى ، التى تسمى « إسرائيل » .

نجحت عوامل الضغط المختلفة ، العسكرية والسياسية والفكرية ، فى التضييق على الإسلام وخنق روحه العالمية ، فأخذ علماؤه ومفكروه ، وساسته وقادته ، يدخلون فى مواقع المحلية ويقنعون بفتات السياسة والفكر . وتمزقت هذه الوحدة التى كانت تظل علماء الإسلام ومشرعيه وفقهاءه وأدباءه ، والتى أعانتهم على أن يتصلوا على بعد الدار ، وشط المزار ، وعلى الرغم من وعثاء السفر ، وصعوبة الاتصال ، فقد كان العالم المسلم يخرج من أقصى العالم الإسلامى إلى أقصاه بلا حواجز ولا جوازات ، لا يستوقفه أحد ، ولا يسأل إلى أين يذهب .

ولقد حدث أن اشتدت الحملة على « الدين » كفكرة ، حتى

أصبح متهماً ، يطلب منه أن يدفع عن نفسه ، ثم ما لبث أن استعاد اعتباره ، حتى عند ألد خصومه ، فقد أدرك الذين يتعقبونه بالاتهام ، ويطاردونه بالتشهير ، أنه كان ولا يزال قوة تحرر ونضال ضد كل ما رسفت فيه الإنسانية من أغلال الاستبداد والاستئثار بالسلطة ، واستغلال الضعفاء ، وأن أكبر عيوبه فى الرجال الذين ينتسبون إليه زوراً ، ويتجرون باسمه باطلا ، وأن الجرائم التى ارتكبت باسمه ليست فى مثل قبح ما ارتكب باسم العلم والفلسفة والفن . فعلى أقل القليل لم يصنع الدين القنبلة الذرية ، ولا الهيدروجينية ولا الصواريخ الحاملة للرءوس النووية ، كما لم يصنع الأدوات والأجهزة التى هتكت أسرار الناس ، واقتحمت عليهم عزلتهم ، وارتفعت بالجاسوسية العالمية والعلمية إلى مرتبة القانون المقدس ، الذى لا يخجل من تطبيقه أحد .

ومن ناحية أخرى لم يستطع رجال الدين مهما ساء مسلكهم ، وخدموا القوة الظالمة ، أن ينافسوا العلماء الذين سلحوا الطغاة ، وجمعوا لهم المال ، ولا الأدباء والقراء والمصورين الذين باعوا أقلامهم وفنهم ، فى سوق النفاق السياسى ، بضاعة مزجاة .

ولما كانت الأزمة الإنسانية قد بلغت ذروتها ، ولم يعد أحد قادراً على إنكار تعثر الإنسان ، وامتلاء طريقه بالصعاب ، وامتلاء حياته بالآلام ، وقصور أجهزة التدقيق والتنسيق التى أعدت للأخذ بيده ، وانتشاله من وهدته ، فإن كل قوة مدعوة للإسهام فى الدفاع عن مستقبل الإنسان ، وتحريره من القيود التى لا يتحطم منها واحد ، حتى تنبت بدله عشرات ، وإطلاق طاقاته ، وصيانة خير تركاته ومأثوراته ، والتقريب بين شعوبه وجماعاته .

ولا جدال فى أن الدين النقى الخالص ، هو فى مقدمة هذه القوى التى توجه إليها الدعوة ، ولا جدال فى أن الإسلام العالمى ، أول ما تتجه إليه قلوب المؤمنين فى سلام إنسانى طويل العمر ، عادل ، مستقر ،

فإن يده لم تلوث بما لوثت به أيدى الآخرين من دماء الشعوب التى استعمرت ، ولا الشعوب القوية التى دمرت مدنها ، وخربت بيوتها ، وقتل رجالها ويتم أطفالها وترمل نساؤها .

ولكى يؤدى الإسلام دوره العالمى يجب :

أولا : أن يؤمن المسلمون بدورهم الإنسانى والعالمى ، وأن الأزمة الإنسانية الكبرى التى تمر بها فى حاجة إلى روح الإسلام العالمية ، وفكره الإنسانى ، وتقاليده وأساليبه فى التقريب ، وقدرته على التنسيق .

ثانياً : أن يزدادوا علماً بثقافتهم وعلومهم ، وأن ينفضوا عنها الغبار ، ويقربوها للأطفال والشبان ، وينشروها فى ملخصات ويعلقوا على المطولات ، ويشرحوها ، ويفهرسوها ، ويبوبوها ، ويقارنوا بينها وبين ما وصل إليه العلم الحديث .

ثالثاً : أن يعيدوا النظر فى برامج التطوير التى أدخلت على الجامعات الإسلامية ، على أن يكون أساس هذا التطوير ، طالب الجامعة الإسلامية ، الذى حصل العلم الإسلامى من تفسير وحديث وفقه ولغة منذ مطلع حياته الدراسية ، مقرونة بالعلوم الحديثة من رياضة وعلوم وآداب ، فإذا دخل هذا الطالب الجامعة الإسلامية الكبرى ، والتحق بكلياتها التى تلقن العلم الحديث من طب وقانون وهندسة وصيدلة ، تخرج فيها طبيباً أو مهندساً متميزاً عن زملائه الذين أتموا علمهم فى الكليات العلمانية البحتة وأفادت منه الإنسانية بوصفه عنصراً جديداً .

رابعاً : يجب بذل جهد خاص ودءوب ومثابرة لجعل اللغة العربية اللغة الثانية فى جميع بلاد المسلمين التى لا تتكلم العربية .

خامساً : إعداد ما يلزم للشعوب الإفريقية والآسيوية من معلمين وكتب فى مادتى الدين واللغة ، سهلة ، مبسطة ، جميلة الطبع ، حسنة التنسيق .

سادسًا : يجب إعادة النظر فى مادة ومنهج التربية الدينية فى مدارس الدول الإسلامية ، وجعلها أرحب أفقًا ، وأيسر تناولا ، وأكثر اتصالا بشئون الدنيا .

سابعًا : يجب أن يصل علماء المسلمين أمتهم بمشكلات الدول الإسلامية ومشكلات العالم بأسره السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وأن يكون لهم رأى فيها .

ولعل هذا بعض ما يجب على الإسلام بحكم كونه عقيدة عالمية .

# الدين والدولة
# والدنيا والآخرة فى الإسلام

يقول بعضنا — فى سبيل بيان فضائل الإسلام — إنه دين ودنيا ، أو دين ودولة ، ولكن هذا القول تعوزه الدقة ، وينأى عن الحق . فليس فى الإسلام عنصران يتناظران ، أحدهما الدين ، وثانيهما الدنيا ، أو أحدهما الدنيا والثانى الآخرة ، فالعلاقة بين الدين والدنيا ، كما قلت من قبل ، فى الإسلام من ألطف العلاقات ، وأخفاها على غير المؤمنين بالسلام ، المدركين لجوهر أحكامه . فالإسلام محيط شامل ، يضم الدنيا والآخرة ، ويتحدث عن كليهما ، ويبين كيف يفضى أحدهما إلى الآخر ، وكيف يتصلان ، حتى لتكاد تعجز عن تبين الحد الفاصل بينهما ، وحتى لتكاد تقول إنهما شىء واحد ، مع أن الدنيا فى حكم الدين عاجلة فانية ، والآخرة هى دار القرار . وإنى لأدعوك أن تتأمل — بداءة ذى بدء — فى جملة من الأحاديث ، أضعها تحت نظرك ، قبل أن نسترسل فى الكلام :

روى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك » .

وروى عن ثوبان قال : قال رسول الله : « أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله ، ودينار ينفقه الرجل على دابته فى سبيل الله عز وجل ، ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله » . وقال أبو قلابة ، وهو أحد رواة هذا الحديث « وبدأ بالعيال ، وأى رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عيال صغار ينفعهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم ؟ » .

قال رسول الله : « فى وضع أحدكم ( أى فى مائه ) صدقة » . فقال أصحاب رسول الله : أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ فقال رسول الله : « أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر ؟ » قالوا :

نعم . قال : « كذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر » وقال رسول الله : لمداد تريقه أقلام العلماء خير من دماء الشهداء » .

وقال رسول الله أيضاً : « إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها الصوم ولا الصلاة» قيل فما يكفرها يارسول الله ؟قال : «الهموم فى طلب العيش» .

وقال عليه الصلاة والسلام : « عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة » ، و « علم ساعة خير من عبادة عشر سنين » .

فما الذى يستقر فى يقينك ، وأنت تطالع هذه الأحاديث البينة الناطقة الدلالة ، الواحدة بعد الآخر ؟ ألا ترى معها ، أن الدنيا عند المسلمين ليست قليلة القدر ، ولا هى بالمصاب الذى لا حيلة فى علاجه ، إلا بمحاولة نسيانه ، فالمسلمون مدعوون أن يحبوا حياتهم فى أشد حالات التيقظ والإقبال ، ودنيا المسلمين هى دنيا الأصحاء العقلاء الأقوياء المشغولين بهموم العيش ، وهى دنيا الأناقة والنظافة والرقة واللطف ، يكره فيها الصوت القبيح ، والرائحة الكريهة ، والجلسة المعوجة ، والحركة الجافة ، والصيحة المزعجة .

وأهم من هذا كله ، أن دنيا المسلمين ، ليست خارج الدين ، ولا تقع بعيداً عن أحكامه ، ولا هى كيان قائم بذاته ، فهى محكومة به خاضعة له ، تتحرك على قواعده ، وتسير فى نطاقه . والدين لا يدع منها صغيرة ولا كبيرة إلا ويصدر حكمها ، ويرسم مسارها ، ويبين غايتها ، وها قد رأيت أن رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، قد بين لنا أن العبادة فى الإسلام ، ليست وحدها الصلاة والصوم ، وأن الهموم فى طلب العيش تكفر من الذنوب ما لا يكفره الصيام ولا القيام ، وأن ثواب المرء يأتيه حتى فى أخص علاقاته ، وأبعدها عن تصور اتصالها بالثواب والأجر ، فكما « يثاب المرء على اللقمة إذا رفعها إلى فى امرأته » كذلك يثاب الرجل إذ يفضى إلى زوجته ، ففى دنيا المسلمين ، يؤجر الإنسان على كل جهد وعمل وسعى وحركة .

ولكن كيف نوفق بين هذه العناية البالغة بالحياة الدنيا ، وبرفع ثواب العمل فيها ، وتحصيل الرزق ، وطلب العلم ، والإنفاق على الأهل، على ثواب الجهاد فى سبيل الله ، بمعناه الخاص ؟ كيف نوفق بين هذه العناية الفائقة ، وبين آيات فى كتاب الله كثيرة مثل قوله تعالى : ( تريدون الحياة الدنيا والله يريد الآخرة ) ، (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ) ، ( أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ ).

والتوفيق بين هذه الأحكام التى تبدو متناقضة ، وهى متكاملة ، هو هذا النسج البديع الذى تفرد به الإسلام بين المذاهب والمبادئ ، فكل خطوة فى الحياه الدنيا مباركة ونافعة ، إذا اتصلت بالمثل الأعلى ، الذى يسميه الإسلام « الآخرة » فالحياة الدنيا إذا انفصلت عن هذا المثل ، وأصبحت غاية عند الناس ، أصبحت ملعونة : واستحق محبوها الشقاء والعذاب ، ولذلك تتداخل الدنيا والآخرة تداخلا يجعلهما كلا لا ينفصل ، فكل عمل فى أولاهما ، له أثر فى أخراهما ، فالعمل الدنيوى لا يحكم عليه فى ذاته ، وإنما يحكم عليه بغاياته وأهدافه ، فقد يكون نافعاً وضاراً ومأجوراً أو منكراً فى آن واحد : مثال ذلك أن رجلا مر على النبى ، فرأى أصحاب الرسول من جلده ونشاطه فى الكسب والارتزاق ما جعلهم يتحدثون فى . قالوا : يا رسول الله لو كان هذا فى سبيل الله فقال : « إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً ، فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين ، فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله وإن كان يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان » .

فالدنيا هى الطريق المفضية إلى الآخرة ، والناس جميعاً ، يصلون إلى هذه الآخرة إلا عن طريق الدنيا ، وهذه الطريق — وإن كانت ممراً ومعبراً تكسب لاتصالها بالآخرة من الفضل والقيمة ما يجعل فرضاً على السائرين فيها أن يجعلوها طريقاً نظيفة أنيقة فسيحة ، تحفها الأزهار والرياحين إلى عالم يسوده السلام الشامل ، يعيش فيه الناس

إخوانًا متحابين ،( فى جنة عالية لا تسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة ) ، (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما ، إلا قيلا سلامًا سلامًا ) .

أما من يفضل الدنيا على الآخرة ، أى من فضل العمل ، أيًّا مَّا كان صغيراً أو كبيراً ، نافعًا أو ضارًّا فقد استحالت دنياه إلى شىء لعين ، واستحال هو وأمثاله إلى مجرمين يحبون العاجلة ، ويذرون الآجلة ، وهؤلاء يقال لهم إن ما عندكم ينفد وما عند الله باق ، أى أن (حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) .

ولما كانت الدولة فرعًا من الدنيا ، فهى تأخذ حكمها ، فليس فى الإسلام دين قائم بذاته ودولة تقوم إلى جواره ، فيتساويان أو يتناظران ، فالدولة فى الإسلام هى فرع من دنيا المسلمين ، وهى كدنيا المسلمين خاضعة للدين ، ومنبثقة منه ، وهى ليست كدولة غيرهم ، فهى للدين تقوم ، وبالدين تحيا ، وله تسعى ، وفى سبيله تفنى ، وليس لها من أغراض الدول الأخرى وأطماعها شىء ، وهى لا تقوم إلا حين يؤمن المسلمين ويكتمل إيمانهم ، ثم يجتمعون فى صعيد واحد ، وتظلهم راية واحدة ، وبالجملة هى دولة الإسلام ، غاياتها غاياته ، أو غايات الحياة كما يريدها الإسلام على الوجه الذى بيناه .

فدولة المسلمين أدنى مقامًا من عقيدتهم ، لأنها لا تعدو أن تكون وسيلة من وسائل هذه العقيدة ، وقد حققت هذه العقيدة ، بحيويتها الرائعة ، وجاذبيتها الآسرة ، ما لم تحققه أكثر دول المسلمين منذ خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، فقد انتشر الإسلام فى شرق إفريقيا وغربها واتسعت رقعته فى آسيا من أقصاها إلى أقصاها ، على يد رجال تجردوا من كل نفوذ ، انتشروا فى الأرض يبتغون فضل الله ، فأدخلوا فى الإسلام أممًا وشعوبًا ، يتزايد عددها ، ورقعتها ، على عدد ورقعة ما فتحته دول الإسلام جميعًا على تعاقب العصور .

هذه دنيا المسلمين ، ودينهم ، ودولتهم .

# أزمة بلا مأزومين

من بين التعبيرات الموفقة فى اللغة الإنجليزية : عبارة « تفكير التمنى » أو « تفكير الأمانى » ، فكثيراً ما يفكر الناس فى أمور لا وجود لها ، ولكنهم من فرط تعلقهم بها ، يحسبونها أمراً واقعاً ، ويرتبون على وجود هذا « الموهوم » نتائج تتسلسل وتطول .

ومن أوضح الأمثلة على ما يخلقه التمنى هو ما تواضعنا على تسميته « بالفكر الإسلامى الحديث » ، فقد طال انتظارنا لهذا الفكر الإسلامى، واشتدت رغبتنا فى أن يخرج إلى الوجود ، وأن يسهم بالعناء والنقد ، والاقتراح والإلهام ، والتوجيه والإرشاد ، والمقاومة والمعارضة ، فى تكييف حياتنا وحل مشكلاتنا .

ولكن الأمة الإسلامية فى عصرها الأخير — وإن كانت قد حملت هذا الفكر ، ودفعت ما تدفعه من ضرائب الحمل ، من قلق وضيق ، ومن غثيان ودوار ، ومن ضعف ووهن — لم تضع بعد حملها ، حتى ظن بعض الأطباء ، أنه حمل كاذب . .

ولكننا رفضنا أن نسلم بهذه الحقيقة المرة ، وأبينا إلا أن نتعامل مع الفكر الإسلامى باعتباره واقعاً يلمس ويرى ، ويتحرك بيننا ويعمل بالأحياء ، ولكى نؤكد لأنفسنا حقيقة وجوده تصورنا له من أدوار الأحياء وأدوائهم ، كل شىء . فأعلنا — فيما أعلنا — أن « الفكر الإسلامى فى أزمة » .

ولا بأس من هذا كله ، فإن هذه أعراض التطور المأمول ، ولابد أن يسبق الحلم الواقع ، وأن يمهد الوهم للحقيقة ، ولابد من شىء من الخيال ، لنخلق حياة جديدة ، ولنغير واقعاً كريهاً .

والحق أن المسلمين ، ونعنى مفكريهم وعلماءهم ، وأدباءهم

وشعراءهم ، قدموا للفكر الإسلامى الحديث هذا الوليد المرتقب ، فى القرن الأخير ، ما كان جديراً بأن يبعث هذا الفكر ، صبيًّا فتيًّا ، مليئًا بالحيوية ، راغبًا فى المناجزة والقتال ، بارعًا فى الكر والفر ، قوى الساعد ، مسدد الإصابة . ففيم تأخر ميلاده ولمَ طالت فترة الوضع ؟

يقول الشيخ عبد الوهاب خلاف فى بيان أسباب جمود المسلمين ، وتحجر فكرهم :

جمد التشريع الإسلامى ، ووقف عن مماشاة الزمن عن التطور بتطور المسلمين ، وزاد هذا الجمود تحجراً أن علماء المسلمين رسموا الإجماع بصورة لا سبيل إلى أن تتحقق فى الوجود ، وسموه بأنه اتفاق جميع المجتهدين فى الأمة الإسلامية بعد عهد الرسول على حكم شرعى . وقرروا أن الإجماع لا يتحقق إلا إذا عرف جميع المجتهدين من المسلمين فى العالم الإسلامى ، وأحصوا ، وأبدى كل منهم رأيه صراحة فى الواقعة المفروضة ، وعلم رأى كل واحد منهم ، وعلم أن كل واحد منهم أصر على رأيه إلى أن يتم إبداء كل واحد رأيه ، وكأنهم أرادوا إجماعًا عالميًا قاطعاً فى الحكم الذى ينعقد ، لا ما أراده الرسول حين قال لعلى : «أجمعوا له العالمين من المؤمنين واجعلوه شورى بينكم ولاتقضوا فيه برأى واحد ، فهو إنما أراد أن يكون الرأى للجماعة لا للفرد » .

والمعلوم أن مصادر الأحكام فى الإسلام هى القرآن وسنة الرسول عليه السلام ثم الإجماع . وقد عرفت ما يفهمه من الإجماع فقهاء المسلمين فى أيامهم الأخيرة .

وما يقوله الشيخ عبد الوهاب خلاف ، عليه رحمة الله، ليس المرض وإنما هو العرض كما سبق القول. فلماذا تشدد فقهاء المسلمين وعلماؤهم هذا التشدد الذى يبدو معجزاً، فى حين بدأت حياة المسلمين الفكرية باجتهاد الرسول عليه الصلاة والسلام ، واجتهاد صحابة الرسول وهو بين ظهرانيهم ، واجتهاد الصحابة والخلفاء بعد حياة رسول الله ؟ لماذا

قال الرسول صلى الله عليه وسلم : لا تقطع الأيدى فى السفر ؟ أى لا تقطع يد السارق إذا كان المسلمون فى حرب ؟ لماذا عطل عمر رضى الله عنه حق المؤلفة قلوبهم ، وهو حق منصوص عليه فى القرآن ، وكان الرسول يؤديه لهم ، وجرى على نفس النهج أبو بكر رضى الله عنه ؟ لماذا نهى عمر عن زواج أمراء المسلمين من الكتابيات وهو جائز بنص لا خلاف عليه ؟

كل ذلك لأن الحياة تسبق التفكير وتلده ، فإذا خرج للوجود ، ورأى نور الدنيا ، وسع آفاق الحياة وأغناها . وأمدها كل يوم بجديد، ثم راح الاثنان : الحياة والتفكير ، يتفاعلان ويتبادلان الخبرات .

لكن لابد أولا من إرادة الحياة . ولو نظرنا فى تاريخ المسلمين لوجدنا أنه بدأ بدعوة بسيطة هى أن خالق هذا الكون كله واحد ، وأنه ليس كمثله شيء ، وأن جميع الأوثان والأصنام والأرباب والأحبار وأدعياء الولاية والكهان ، ومن يجرى فى فلك الملوك والسلاطين والشيوخ والرؤساء، مخلوقات هذا الخالق الأسمى . ولما رضى المسلمون بهذه العقيدة وحدتهم ، وجعلت من العرب أمة ، وعندها تلفتوا حولهم فى هذا الكون البديع ، وقد تفجر فهمهم لعلم أحكامه وقوانينه وكشف خفاياه وخباياه ، وتذوق ما فيه من جمال ، وأدركوا ما يتخلله من دقة ورقة ، فإذا هم علماء مبدعون ، ومشرعون مقننون ، وقادة جيوش ، ومؤسسو دول ، ثم شعراء وأدباء ، وصانعو أساطير ، وفنانون وصناع .

فقهاء المسلمين كانوا يجتهدون ، وكانوا يشعرون أن هذه الحياة حياتهم ، وأن هذه الدنيا دارهم ، وأن هذا الكون الفسيح يدعوهم إلى التأمل والدرس ، والابتكار والخلق ، وأنه ليس هناك ربع خال لا تدوسه الأقدام ، ولا حرم منيع لا تتخطى إليه الأفكار . قالوا كل شيء : توهموا وشكّوا ، وتحققوا وآمنوا ، وراجعوا القديم وعلقوا عليه ، وأضافوا إليه ، واختلفوا حوله ، فاستحرت الخلافات ، وتعدّدت المذاهب

والمدارس . ولكن لما أدال الزمان على المسلمين ، وسلبهم استقلالهم ، وجعل بلادهم حمى مستباحـًا لكل أجنبي ، ولكل عقيدة وثقافة وحضارة ولغة ، انكمشت نفوسهم ، وضؤلت عزائمهم ، وخافوا من كل شيء حتى من دينهم ، وأمهات الكتب التي وضعها فقهاؤهم وعلماؤهم . فانقطعت الصلة بينهم وبين أصل ثقافتهم ، وأصبحوا مستهلكين لا ينتجون شيئـًا ويستوردون كل شيء : الملابس والمآكل ، والكتب والأفكار ، والأنظمة والمبادئ ، وتسولوا فأصبح دينهم ملكيًّا وجمهوريًّا وفاشيستيًّا وديموقراطيًّا واشتراكيـًا ، ورجعيـًا ، فإذا صعد الناس إلى القمر ، قالوا في القرآن تنبؤ بذلك ، وإن حطمت الذرة ، قالوا إن في القرآن بيانـًا لهذا التحطيم .

ولو لم تغادر إرادة الحياة المسلمين ، وتتخلى عنهم ، لما وضعوا هذه الشروط المعجزة لمصدر من مصادر أحكام دينهم ، يضمن له متابعة الحياة ، وملاحقة تطوراتها ، ويقول الأستاذ أبو زهرة في هذا المعنى : « وقد يخلو بعض الأقاليم أو بعض العصور من المجتهدين ، وليس ذلك لأن الاجتهاد محرم وبابه مقفل ، بل لأن المدارك لم تتجه والهمم تقاصرت ، وإن كان السبب ميسراً والباب مفتوحـًا » .

بل لو أن هذه الإرادة تعيش شاكية سلاحها ، لاجتمع مجتهدو المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها بأيسر الجهد ، فما أكثر ما يجتمع علماء الطب أو العلوم الطبيعية أو الاجتماعية في مؤتمرات دولية ، ومؤتمر لمجتهدي المسلمين لا يمكن أن يكون أبعد منالا من مؤتمر يضم المشتغلين بأي علم من علوم الإنسان وبخاصة أن دافع علماء المسلمين سيكون دنيويـًّا ودينيـًّا ، في حين لا يكون لعلماء الفلك أو الهندسة إلا دافع دنيوي بحت . وللمسلمين مؤتمر سنوي يمكن أن يغني عن سواه من المؤتمرات ، هو مؤتمر الحج .

ومع ذلك فإن في هذا الإجماع آراء لبعض الأئمة والفقهاء ، من

ذلك ما نقل عن ابن حنبل فى قول . وعن الشافعى فى قول آخر : « من ادعى بالإجماع فهو كاذب » فى حين يقول الشيخ شلتوت : « ولا أكاد أعرف شيئًا اشتهر بين الناس أنه أصل من أصول التشريع فى الإسلام ثم تناولته الآراء واختلفت فيه المذاهب من جميع جهاته كهذا الأصل الذى يسمونه الإجماع » فاحتشاد الصعاب فى طريق اجتماع الأئمة ليس مرده إلى الدين ، ولا إلى شيء فى قواعد الإجماع . وإنما هو ما أصاب المسلمين أنفسهم . فنحى الإسلام عن حياتهم ، ونحاهم عن الحياة. ولذلك يصعب القول — أو يستحيل — إن التفكير الإسلامى فى أزمة . فإننا مهما تمنينا أن تقع هذه الأزمة . وتستفحل . باعتبارها علامة حياة ، فإنها لن تقع حتى يخوض المفكرون الإسلاميون مشكلات الحياة الحاضرة . يفكرون فيها ، ويفكرون لها ، ويقترحون مستوحين دينهم وتراثهم ، ولا يقتصر دورهم على عرض التراث الإسلامى وتنقيحه ، على الرغم من أن هذا الدور عظيم ولا مناص منه . ولكن حينما نفرغ منه ينبغى أن يقدم الإسلاميون للناس نظامًا يعيشون فى ظله . يعطيهم مالا تعطيهم أنظمة غيرنا ، وعندها ستنفرج الأزمات ، وبانفراجها ندل على أن تفكيرنا كائن حى ، يكسب من كل ما يعرض له من شر وخير .

# المعارضة

لما اقتحم ثوار فرنسا سجن الباستيل فى ١٤ يولية سنة ١٧٨٩ حطموا أبواب الزنازين بالبلط والفؤوس ودعوا المساجين والمعتقلين الذين طال عليهم الأمد فى غيابات السجن أن ينطلقوا إلى الحرية ، ولكن كم كانت دهشة الثوار إذ رأوا بعضهم يقاوم ويتشبث بالبقاء فى السجن . وقد بدا عليهم فزع هائل ؛ ولا غرابة فى مسلك هؤلاء التعساء فهم لطول مكثهم بعيداً عن الحياة الحرة ألفوا القيد وخافوا جلبة الدنيا . فالحرية — على تمكن غريزتها — نبات حساس سريع العطب ما لم نتعهده بالرّى والرعاية ؛ ومن أجل هذا جاء القرآن الكريم بنصوص إن تأملها المسلمون وتدبروها فإنها تقيهم العبودية . ففى القرآن أربع طوائف من الآيات لكل منها رسالة فى إبقاء جذوة الحرية متقدة فى النفوس .

فالطائفة الأولى : أثبتت كل ما وجهه خصوم الإسلام إليه من قذائف الإهانة .

والطائفة الثانية : سجلت كل حجج خصوم الإسلام فى جدالهم إبان نزول القرآن .

والطائفة الثالثة : بينت كل ما كان من الرسول من أمور عاتبه الله تعالى عليها ورده فيها إلى الصواب .

أما الطائفة الرابعة والأخيرة : فقد أعطت طرفاً مما توجه به المسلمون إلى الرسول من الأسئلة ، وجدالهم أحياناً معه عليه الصلاة والسلام .

عن آيات الطائفة الأولى ما قاله الكافرون عن القرآن : ( إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ) ، ومنه ما يريدون به غمز أمانة الرسول ( ومنهم من يلمزك فى الصدقات ) ، ومنها اتهامه عليه الصلاة

والسلام بالجنون : ( يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون ) . . أو بأنه شاعر ومجنون ( إنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ) ، أو بأنه ساحر كذاب : ( وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ) .

ويخاطب القرآن الكريم بهذه الآيات كل من يتولى أمراً من أمور المسلمين بقوله إنكم لستم كرسول الله : ولا أبعد منه عن المعصية ، ولا أكرم على الله منه ، ولكن هأنتم أولاء ترون كيف سبه الجهال وتطاولوا عليه ، فلم يجرح ذلك صدره ، ولم يثنه عن الجهاد ، فلا تضيقوا بدوركم بتجنى المتجنين ، ولا عيب العائبين فهذه ضريبة القيادة والأمانة .

أما الطائفة الثانية فقد سجلت كل حجج الخصوم بنصها ، وسجلت الرد عليها ، فقد جاء فى القرآن مثلا : ( لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين ) ، مسجلا ما قاله خصوم الرسول من أن القرآن كان من إملاء راهب مسيحى ، ولم يخش القرآن على عقول المسلمين من سماع هذه التهمة ، وتناقلها جيلا بعد جيل ، وقال المشركون ساخرين بلسان أحدهم : ( من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ) .

وقال المشركون إذا كنت رسولا حقًّا فأتنا بمعجزة كمعجزات موسى وعيسى ، فرد عليهم القرآن : ( وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ) .

ولذا فرسول الله يحاج مشركى العرب وزعماء الكفار من قريش بالحجة والقرآن ، مطمئناً إلى نصر الله .

والقرآن الكريم يخاطب المسلمين على مر الدهور ، بهذه الآيات ، بأن العقيدة السليمة لاخوف عليها من حجج الخصوم وجدالهم ، بل إن إثبات هذه الحجج وبيانها والرد عليها يكسب العقيدة قوة ويربك خصومها .

أما الطائفة الثالثة فهى التى عاتب فيها الله سبحانه وتعالى عبده محمداً خاتم الرسل ـ على أمر من الأمور ، ومن هذه الآيات : ( عفا الله عنك لم أذنت لهم ) ، ( عبس وتولى أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى ) ( يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ) .

وبهذه الطائفة من الآيات يخاطب القرآن المسلمين بأنه لا عليكم من الخطأ ، فالرسول نفسه قد خوطب على الوجه الذى رأيتم فى هذه الآيات . فاعملوا واجتهدوا ، فإن أصبتم فلكم أجران ، وإن أخطأتم فلكم أجر . لا تظنوا أنكم لا تخطئون .

أما الطائفة الأخيرة فتطلعنا على بعض ما توجه به المسلمون من أسئلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى القرآن نحو خمسة عشر موضعاً أو يزيد ، بها آيات تبدأ بلفظ ( يسألونك ) ، ذلك لأن المسلمين درجوا على أن يسألوا الرسول فى كل ما يعن لهم من أمور ، لا يبين لهم فيها وجه الحق . وكان القرآن يقول لنا إنكم إذا كنتم مطالبين بأن تطيلوا صبركم على الخصوم ، فما أحراكم أن توسعوا صدوركم للأصدقاء : يسألونكم ويجادلونكم كما جادل الرسول أصحابه .

وقد اجتمع للإسلام هذا كله ، بفضل الظروف التى نشأ فيها ، فقد عانى المسلمون الأوائل الأمرين ، عانوا الاضطهاد والمعارضة اللجوجة الشرسة .

ولكن الإسلام لم يعرف — فى أى دور من أدوار حياته — المعارضة المتحزبة كجزء من نظامه ، كالتى يحسب أنها النظام الأمثل فى حين أن العمل يؤكد أنها على أحسن الأحوال شر لا بد منه ، فقد سجل التاريخ الحديث ، أن العالم ألقى به فى أتون المجزرة البشرية على يدى هذه المعارضة التى عميت عن المصلحة الكبرى ، من أجل المصلحة الذاتية .

ولعل الفوضى التى يعانى منها العالم فى السياسة والمال والفقر ، والتى يدل عليها تعثر العدل الدولى وعجزه ، وتأييد المشكلات الدولية وتفاقمها ، والبلايين المبددة فى التسليح من جانب والمخدرات من جانب آخر . والمخاوف التى تجتاح الجماعات والأفراد — لعل هذا كله يقطع بأن النظام السياسى فى العالم أخفق إخفاقا يجعل من حق الإسلام علينا ، أن نتأمل تجربته فى الحكم والمعارضة ، التى تلقى بعض المسئولية على أفراد المجتمع أجمعين : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » . بعد أن ترهف الضمير العام والضمير الشخصى على السواء . وتزيل الحواجز بين الحاكم والمحكوم ، وتفرض على الموظف العام حياة بسيطة . وتجعله فى متناول السرية يسألونه وينصحونه ، ويلتمسون عنده الإرشاد والنصح أيضا ، وتجعل دور العبادة ندوات مفتوحة على الدوام ، لمناقشة الشئون العامة تنقش على بابها « من رأى منكم منكراً فليغيره »

# العلمانية

يروى تشرشل فى مذكراته ، أنه اجتمع مع روزفلت رئيس الولايات المتحدة ولتفينوف ، سفير الاتحاد السوفيتى فى واشنطن ليضعوا إعلان الأمم المتحدة الذى نشر فى أول يناير سنة ١٩٤٢ ، فاعترض السفير السوفيتى على عبارة « الحرية الدينية » التى وردت فى المشروع ، فانبرى له روزفلت وألقى محاضرة طويلة : عن الموت والنشور ، والبعث والحساب ، والجنة والنار ، فأغرقه فى بحر طام من العلم اللاهوتى ، فلم ير السفير بداً من أن يسحب معارضته نجاة بنفسه من موجة أخرى من التلقين الدينى .

ويقول تشرشل إنه مازح روزفلت قائلا له : لقد كنت مشفقاً عليك من نتائج انتخابات الدورة الثانية لرياستك ، أما الآن فلا خوف عليك ، إذ لو لم يعد الأمريكيون انتخابك ، فسيكون البريطانيون سعداء إذا قبلت أن تعين كبيراً للأساقفة فى بلادهم ، فبلاغتك فى الوعظ ، وعلمك بالدين يؤهلانك لذلك .

وهذه القصة الصغيرة على طرافتها ، تتضمن من المعانى ما يحسن سوقه للذين يؤمنون « بعلمانية الدولة » . فماذا تكون هذه العلمانية أولا ؟

والعلمانية اصطلاح حديث يقصد به ما ليس دينياً أو كهنوتياً ، ولعله مشتق من لفظ « العالم » ، وترجع أصول العلمانية إلى ردود الفعل لثورة مارتن لوثر فى سنة ١٥٢٠ على البابا وانتقاده العنيف إياه لبيع صكوك الغفران للعصاة والخاطئين من المسيحيين مقابل مال كثير يدفع للبابا ، فيضمن لهم دخول الجنة ، ولسخط لوثر على عبادة القديسين ودعوته إلى العمل بالكتاب المقدس وحده ، ولم تلق هذه الدعوة أول

الأمر استجابة ذات شأن ؛ ولكن لما أخذ أتباع لوثر يكثرون سلطت عليهم الكنيسة والأمراء الذين انحازوا لها مايصفه جوستاف لوبون بقوله : أبيد الشيوخ والنساء والأطفال ، وصار رئيس برلمان « إكس » البارون « دويبن » مثالا يحتذى لقتله فى عشرة أيام ثلاثة آلاف شخص وتدمير ثلاث مدن ، واثنتين وعشرين قرية . بعد هذه المجازر انتهى الرأى السياسى إلى تجريد الدولة من كل نشاط دينى ، وإبعاد الخدمات الدينية عن نطاق إشرافها وتوجيهها ،وعدم تحميل ميزانية الدولة شيئاً من نفقات الكنائس والأديرة ، وتحريم التعليم الدينى فى المدارس والمعاهد الحكومية .

فهل كفّت الدول — لاسيما فى غرب أوربا — حقـًا عن النشاط الدينى ، وغسلت يديها منه . يهمنا فى الإجابة عن هذا السؤال الجانب الخارجى من نشاط الدول « العلمانية » فالثابت من تاريخ الاستعمار الأوربى الغربى فى آسيا وإفريقيا أن هذه الدول اتخذت من الدين وسيلة لتسويغ استعمارها ولنهب أرزاق أهل المستعمرات ، وحرمانهم من ثقافتهم الوطنية ، ومن نفض نير الاستعمار عن أعناقهم .

وإذا أردنا أن نضرب الأمثلة على زيف هذه « العلمانية » وكذبها ، تزاحمت بين أيدينا الأمثلة ، حتى لاندرى أيها نأخذ وأيها ندع ، ولكن أحسب أن ما جرى فى الجزائر — فضلا عن اتصاله بنا ، لوقوعها فى محيطنا العربى والإسلامى نموذج صارخ لعلمانية الغرب ، وسننقل المثل التالى من كتاب الكاتبين الفرنسيين كوليت وفرانسيس جانسون المعنون : « الجزائر خارج القانون » قالا :

« لعل العبث بالدين الإسلامى كان هو المجال المفضل لدى القائد « روفيجو » ليعيث فيه فساداً واستهتاراً ، فقد وقف هذا القائد الفاجر ونادى بين قومه بأنه يلزمه أجمل مسجد فى مدينة الجزائر ليجعل منه معبداً لإله المسيحيين ، وطلب من أعوانه إعداد ذلك فى أقرب وقت ممكن ، وأشار لهم إلى جامع القشاوة لأنه كما قال أجمل جوامع

الجزائر طرازاً ، وحدد يوم ١٨ من ديسمبر سنة ١٨٣٢ لإنجاز هذا العمل ، وفى الموعد المحدد تقدمت بطاريات الجيش تزحف إلى المسجد ، فإذا بداخله أربعة آلاف مسلم اعتصموا به خلف المتاريس ، فاندفعت نحوهم القوة العسكرية ودحرتهم بالسناكى . . . » ، ثم وضع فى هذه الكاتدرائية منبراً كان يعرف فى الجزائر بأنه « منبر الرسول » وهو آية فى النقش العربى ، وعلى هذا المنبر وقف الحاكم « موجو » يقول : إن آخر أيام الإسلام قد دنت ، وفى خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح » .

وهو بطبيعة الحال غير المسيح الذى يؤمن به المسلمون ، كما أمرهم بذلك دينهم ، ولا هو المسيح الناصرى الذى قال للناس : أحبوا أعداءكم ، باركوا لأعينيكم .. إلخ » ، ونحمد الله إذ أعفى الجنرال ديجول ، بلاده فرنسا ، موطن الثورة ، والإنسانية من هذه الوصمة الكاذبة . فلنر ، فى الجانب الآخر ، كيف حقق الإسلام كل ما عقد على « العلمانية » من آمال لم تتحقق لا فى داخل الدول ولا خارجها .

أولا — ليس فى الإسلام هيئة ولا طبقة تحترف صناعة الدين ، أو تستأثر بشرح أحكامه ، فكل مسلم مدعو لقراءة الدين والتفقه فيه ، وله الحرية فى أن يفهم ما يشاء ما دام يفهم لنفسه ، وله أن يستعين بمن هم أرسخ منه قدماً فى اللغة ، وأقدر منه لثقافتهم وعلمهم ليأخذوا بيده ، فليست تلاوة القرآن حكراً لأحد ، ولا هى ممنوعة عن أحد ، بل إنها مستحبة كلما تيسرت للإنسان . والإنسان يصلى وحده بلا رقيب ولا موجه ، وإذا اجتمع المسلمون ، تقدم أحدهم فأمهم ما دام يعرف أصول الصلاة ، ولو كان أشعث أغبر لا يؤبه له .

وفى هذا المعنى يقول الشيخ شلتوت : قد اتصلت بالقرآن ، بعد أن التحق الرسول بربه ، أفهام العلماء والأئمة فيما لم يكن من آياته نص فى معنى واحد ، وكثرت الآراء والمذاهب فى النظريات والعمليات ،

لا على أنها دين يلزم وإنما هى آراء وأفهام » .

ثانياً — عبادة المسلمين وصلاتهم جائزة فى كل شبر من كل أرض ؛ فالله تعالى قال : ( فأينما تولوا فثم وجه الله ) ؛ وقال الرسول عليه أفضل السلام « . . وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » .

ثالثاً — ونبى المسلمين ورسول الله إليهم بشر مثلهم ، يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق ؛ وكان له كل نشاط الآدميين ، فتزوج وأنجب ، وصام وأفطر وحارب وسالم وعاهد ؛ وعرف اليتم والثكل ، ماتت له زوجات وبنات وبنون ؛ وأكد القرآن والحديث بشريته ؛ ووصفه القرآن بأنه عبد الله ، وقال عن نفسه « إنه عبد يأكل كما يأكل العبد ؛ ويجلس كما يجلس العبد » ففى القرآن : ( سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً ) ، وفيه ( قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ) ؛ وفى الحديث : « لست ملكاً ولا جباراً ، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد فى مكة » .

والرسل جميعاً — عند الإسلام — ليسوا إلا مبلغين لرسالات الله ووظيفتهم الإرشاد والتعليم عن طريق الوحى ؛ وفى علماء المسلمين من يقول إن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، يجوز عليه من الخطأ والصواب — عدا ما خصه الله به — ما يجوز على أى فرد من البشر .

رابعاً — الأصل فى الأشياء الإباحة ، ولا تحريم إلا بأمر الله ، فى نص من القرآن أو نص من الحديث قطعى الورود ، فالإباحة والتحريم من حقوق الله وحده ؛ ولا يشاركه فى ذلك شريك من رسول أو خليفة ، أو هيئة ، أو جماعة أو طبقة أو فئة . وبالتالى لا يوجد من يغفر الذنوب إلا الله ، وكل مسئول عن عمله لا تنفع أحداً عند الله قرابة حتى للرسول الكريم ، فقد قال عليه السلام : « يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئاً » وقال : « لو سرقت فاطمة بنته — رضى الله عنها — لقطعت يدها » .

وأخيراً يساوي الإسلام بين رسل الله جميعاً ، وأديانهم ( آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله ) .

وقد أمر الإسلام المسلمين أن يعاشروا أهل الكتاب بالحسنى ، وأن يأكلوا طعامهم ، ويتزوجوا نساءهم ، كما أمرهم : (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ) .

وقد نشأ من كل ذلك جو من حرية الرأى والإخاء الإنسانى ، والتعاون الأخوى ، أتاح للمسلمين وإخوانهم من أهل الكتاب مسيحيين ويهود ، أن يتعاونوا فى إنشاء حضارة إنسانية ، بقى التسامح وكراهية القسر والعنف ، طابعها المميز حتى فى أدوار انحلالها ، وقد روى مصطفى كامل فى كتابه الشهير « المسألة الشرقية » أنه لما فتحت القسطنطينية على يد محمد الفاتح السلطان التركى ، وانتخب المسيحيون الروم بطريركاً قال له السلطان محمد : « كن بطريركاً لليونان والله يحميك ، وفى كل الأحوال والظروف اعتمد على مساعدتى وتمتع بكل الامتيازات التى كانت لأسلافك من قبل » .

فهل علمانية كائنة ما كانت قادرة على أن تحقق هذا أو شيئاً قريباً منه ؟

# الهيبيز ومستقبل الدين

قد لا يكون هذا العنوان ، على قدر كاف من الوقار الواجب توافره فى كتاب دينى ، ولكن من تقاليد ديننا أنه « لا حياء فى الدين » ، ومن آيات الله تعالى : ( والله لا يستحى من الحق ) .

والحق أن ظاهرة الهيبز ، وما يشبهها ويجرى مجراها ، من تمرد الشباب وخروجهم على المألوف ، واصطناعهم الأزياء الغريبة ، والسير حفاة ، والتلذذ بالقذارة ، وإن كان فى عنق أحدهم آلة تصوير بمئات الجنيهات ، والتعرى بدنيـًا على قارعة الطريق ، مع الصراخ والصياح — إن هذه الظاهرة ، هى دعوة عنيفة لرجال الدين لأن يفيقوا ، وأن يدركوا أن الأزمة التى تجتاح الإنسانية أكبر من أن تحلها ، أو تفرج كربها ، الأساليب التى تواضعوا عليها ، التى لم تعد توقظ نائمـًا ، ولاتردع ظالمـًا ، ولاتبعث همة ، ولا تحرك إرادة . . إن الدين الآن — وفى مقدمة الأديان دين المسلمين — قد عاد غريبـًا كما بدأ ، وجاهلية القرن العشرين ، التى تكاد الأنوار فيه تغرق المدن والقرى ، هى جاهلية أشد قتامـًا وأبعد أغواراً ، وأشق تناولا من جاهلية عشرين قرنـًا مضت حينما قال الناصرى لتلاميذه فوق الجبل فى فلسطين : « أحبوا أعداءكم » ومن جاهلية مكة وما حولها حينما قال اليتيم الفقير : « لا إله إلا الله » .

إن جاهلية اليوم هى جاهلية العلم والتخصص ، جاهلية المبادئ المعتزة بذاتها ، والجماعات المنظمة المعززة بالصحف والأقلام ، والباحثين والمحللين ، والإخصائيين ، والأساتذة والجهابذة ، جاهلية معامل البحث المدقق والمحقق ، ولكيلا تتهمنى بالتجنى أدع القول لعالم من علماء هذه الأيام حصل على جائزة « نوبل » سنة ١٩٢١ ، وكان طبيبا استمر فى أبحاثه المتعلقة « بالقلب الميكانيكى » بعد أن اعتزل ممارسة الطب ،

وكانت غاية أبحاثه فى هذا القلب ، أن يصل الحياة فى جسد نزع منه القلب لفترة ما . وأعنى به الأستاذ الدكتور ألكسيس كاريل فى كتابه : الإنسان ذلك المجهول .

قال : إن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة ، هو إحدى الكوارث التى عانت منها الإنسانية . فالبيئة التى ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة بالنسبة لقوامنا ولا بالنسبة لهيئتنا . إننا قوم تعساء لأننا ننحط خلقياً وعقلياً . وإن الجماعات التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم ، هى على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة فى الضعف ، والتى ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها » .

ثم قال : « إن العلم الخالص لا يجلب لنا مطلقاً ضرراً مباشراً ، ولكن حينما يسيطر جماله الطاغى على عقولنا ، ويستعبد أفكارنا فى مملكة الجماد ، فإنه يصبح خطراً ، ومن ثم يجب أن يحول الإنسان اهتمامه إلى نفسه وإلى السبب فى عجزه الخلقى والعقلى . . وليس هناك أى ظل من الشك فى أن علوم الميكانيكا والطبيعة والكيمياء ، عاجزة عن إعطائنا الذكاء والنظام الأخلاقى والصحة والتوازن العصبى والأمن والسلام » .

وأحسب أن هذا القدر من الفقرات يثبت أن عيسى ومحمداً ، عليهما الصلاة والسلام دعوا إلى اون من العلم ، ثبتت صحته ، كما توالت خيراته وبركاته ، وهو علم صحيح غاية الصحة لا يقوم على الخرافة ولا على الوهم ولا الدجل واستغلال الجهال ، ولكن ميزته الكبرى أنه نابع من هذه الآية القرآنية الكريمة ومثالها ( سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ) .

فالعلم الإسلامى المسيحى ، يتخذ من الإنسان نفسه وعواطفه ، آماله ومخاوفه ، شكه وتردده ، يقينه وإيمانه ، طمعه وزهده ، ميدان البحث ، ومجال الدراسة .

إن الإنسان قد تحكم فى الماء والهواء . واستخرج النار . وصنع البارود . ثم حطم الذرة ، وصعد فى الفضاء . ووصل إلى أعماق المحيط . وقد وصل هذا الطراز من العلم الإنسانى إلى نتائج مذهلة .

ولنعد إلى الهيبز لنتساءل ما الذى هز عقولهم ، وملأ نفوسهم بالمرارة ؟ وما الذى أطلق مظاهرات السخط والاحتجاج فى الشرق والغرب . يتزعمها الشبان الصغار ؟ وما الذى جعل الأدب ضرباً من الجنون . والفنون لوناً من العبث ؟

واضح ، أن الذى قذف اليأس فى القلوب . وأشعر الناس أنهم يسيرون فى طريق مسدود ، هذا العلم الناقص : العلم الذى لا يزال ينتزع لقمة الجائع من فمه ليصنع بها صاروخاً عابراً للقارات ، وينتزع من الفقير المريض ثوبه البالى الممزق ، ليضيف أسلحة هلاك كل يوم ، نعلم بعضها ، ونجهل أكثرها .

كان الشبان فى أوربا يظنون أن العالم بعد المسيحية والديموقراطية والاشتراكية والشيوعية والجامعات والصحف والموسيقى ، والمتاحف ، سيصبح أكثر إنسانية وأقل وحشية ، فإذا هو وحش ضار لا يشبع من طلب الدماء : وتعذيب الأبرياء . وفرض الأحكام الظالمة باسم أطهر المؤسسات وأشرفها . لذلك صرخ الشبان : كل شىء باطل. ولا أمل فى الإنسانية ، ولا رجاء فى العلم : أما الدين فقد انتهى دوره ، لأنه رأى كل ذلك ، ولم يفعل شيئاً .

لكن لا يزال هناك أمل فى أن يعود رجال الدين ، فى كل مكان ، إلى دينهم ، ويعيدوا الإنسانية إلى العلم الإنسانى الذى وضع القرآن أسسه . فإن القرآن لم يدع دوراً من أدوار حياة الإنسان إلا سجلها : ( هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ) .

وكانت آيات القرآن التى تتحدث عن الإنسان بأنه (كان كفوراً) ، ( وكان قتوراً ) ، (وكان عجولا ) (وكان أكثر شىء جدلا ) دعوة

لرجال الدين ، الذين هم رجال العلم الأوائل ، لينظروا فى الآفاق ، ثم ليعودوا إلى نفس الإنسان ، يجوسوا خلالها ويستنبطوا منها القوة ، ويخرجوا أحسن معادنها .

ليعلم رجال الدين فى كل مكان أن الأصنام التى حطمها محمد بن عبد الله النبى الأمى ، بعصاه فى الكعبة ، وهو يقول : ( جاء الحق وزهق الباطل ) عادت من جديد .

فإن لم يخرج رجال الدين ، وقد تركوا سياسة إيثار العافية ، والإخلاد إلى الراحة ، ليواجهوا هذه الأصنام الجديدة ، حق لنا أن نتساءل فى جزع : هل للدين مستقبل ؟

# المرأة والرق

من أظهر الأمثلة على الطابع الإنسانى للشرع الإسلامى أحكامه فى المرأة والرقيق . وهما مثلان إن دلا على إنسانية الشرع الإسلامى فإن الأمر انعكس فيهما ، فبدا أمر الشرع الإسلامى بشأنهما ، دليلا عند خصومه أو عند الذين تخفى عليهم حكمته ، أو عند الذين استسلموا لتيار حضارة وثقافة مغايرة للحضارة التى قامت على أسس من الإسلام بدا لهم أن حكم الإسلام فى المرأة وحقوقها ، والرق وحقوقه ، حكم تأخر وتخلف .

ولكى نعرف ما فعله الإسلام من أجل المرأة ، لابد أن نعرف كيف كانت تعامل قبل نزول القرآن لا عند العرب وحدهم ، بل عند الأمم كافة .

فالمرأة قبل الإسلام كانت عاراً يتخلص منها أبوها وأولياؤها الذكور بوأدها ، أى قتلها حية .

وقد أشار القرآن إلى ذلك : ( وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألاساء ما يحكمون ) .

ثم وردت إلى ذلك إشارة ثانية : « أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ، وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسوداً وهو كظيم » .

وفى سورة التكوير : ( وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت ) ، وقد استقرت عادة الوأد حتى قيل : « وأد البنات من المكرمات » ، وقد

يلتمس للرجال العذر فى حزنهم إذا رزقوا بالبنات ، فقد كانت المرأة متاعـًا تورث ، كما يورث غيرها من عناصر المال ، كالبهائم وأثاث المنازل . وكان يحق للابن أن يتخذ من زوجة أبيه ، زوجـًا له ، وهو ما سماه القرآن بزواج « المقت » — وقد يكون الزواج أقل ما يصيب المرأة من الشرور . فقد كان للابن حق التصرف فى زوجات أبيه بالبيع أو بالهبة .

وكانت المرأة اليهودية أحط درجة من المرأة العربية ، فقد كان لأبيها أن يبيعها قبل بلوغها ، وكان للابن أن يفعل ذلك ، وكلنا نعرف ماذا كان مكان المرأة الهندية فى عهد بعثة الرسول بل فى القرن العشرين . فقد كان زواج الأطفال متفشياً ، فكانت الطفلة دون الخامسة تزف إلى صبى فى مثل سنها أو أقل ، فإذا مات حرم عليها الزواج ، وأصبح مرآها مما يجلب نحس الطالع ، وغالبـًا ما يموت زوجها الطفل دون أن يدخل بها ، فإذا بلغت سن المراهقة ، وأصبحت صالحة للزواج كتب عليها الترمل إلى آخر العمر .

وكانت إلى جانب هذه العادة عادة حرق الزوجات ، ولعلهما عادتان متكاملتان ، فالأرملة التى يموت عنها زوجها إن لم تحرق مع زوجها وعاشت بعده نفر منها المجتمع ، وتحاماها الرجال وفر منها الناس كأنها برصاء . ولذلك كان من أكبر أعمال الحركة الوطنية الهندية مكافحة هذه الآفات الاجتماعية المدمرة ، وقد لقيت عناء شديداً فى اقتلاع جذورها .

وقد بقيت المرأة على هذا الوضع المؤسف والمخزى معـًا ، حتى بعد البعثة المحمدية بقرون عديدة .

حسبك أن تعلم أن مؤتمرات كنسية كانت تعقد للبحث فى هل للمرأة روح كروح الرجل ، أو أن لها روحـًا كروح الحيوانات

كالكلاب . والثعالب . بل إن أحد هذه الاجتماعات فى روما قرر أنه لا روح لها على الإطلاق . وأنها لن تبعث فى الحياة الأخرى .

وفى القرون الوسطى اشتدت الغيرة على المرأة . واشتد سوء الظن بخلقها وطبيعتها ، فحرمت الظهور فى المجتمعات . وشاعت عادة أقفال العفة . وهى أقفال من حديد ركبت فى أحزمة خصصت لتلبسها النساء حول خصورهن ، إذا غاب عنهن أزواجهن فى سفر . ثم تغلق بمفاتيح يبقيها الزوج معه لا تفارقه لحظة .

بل إن بعض المجتمعات وضعت على فم المرأة قفلا تغدو به وتروح[١] . وأحسب أن هذا القفل كان لا يقفل إلا عند خروجها من دارها ، حتى لايدور بينها وبين الرجال حديث ، تغويهم به إلى الرذيلة ، فماذا فعل الإسلام ، إنه قفز بها قفزة ضخمة ، فقد وضعها إلى جانب الرجل تماماً ، فجعل لها من الحقوق ما له ، وكلفها مثله بالتكاليف الدينية والمدنية ، فهى ترث كما يرث ، وتملك كما يملك ، وتبيع وتشترى ، وتهب وتوصى ، وتؤجر وتوكل ، ولها أن تزوج نفسها إذا بلغت سن الرشد ، ولا يجوز لوليها أن يزوجها على عكس إرادتها ، أو أن يزوجها ، قبل أن يعرف رأيها . من خلف ظهرها ، وإذا هم بشىء من ذلك ، وأراد أن يفرض عليها زوجاً بعينه ، كان لها أن ترفض ذلك[٢] . وفى القرآن الآيات الكثيرة التى تقرن المرأة بالرجل ، وتساوى بينهما من ذلك قوله تعالى : (فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض) ، ثم قوله تعالى : (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة

---

(١) الإسلام دين الهداية والإصلاح ، محمد فريد وجدى ، ص ١٨١ .

(٢) فى الحديث : لا تنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا البكر حتى تستأذن. إن الثيب أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأمر وسكوتها إذن .

طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) . ويفيض القرآن كما تفيض أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى احترام المرأة ، يدل على ذلك الآية الكريمة : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة) .

ولم يرتفع الإسلام بمركز المرأة اجتماعياً واقتصادياً فحسب . بل إنه رفع قدرها أدبياً وروحياً ، فالمرأة مكلفة القيام بالصلاة والصوم والحج والزكاة وقد أشركها الإسلام فى نشر دعوته ، وهو بعد حركة ، تكافح وتلاقى الشدائد ، فقد كانت أسماء بنت أبى بكر ، هى التى تحمل إلى رسول الله وأبيها الطعام ، وهما لائذان بغار ثور فلما اشتد ساعد الإسلام ، كانت السيدة عائشة زوج رسول الله ذات أثر بين فى الدعوة الإسلامية فسمعت الكثير من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحفظتها ، ونقلتها بعد وفاته ، فكانت مصدراً من أهم مصادر السنة ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها : «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء» مشيراً إليها .

والثابت أنها تأتى بعد أبى هريرة فى الرواية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد روى أبو هريرة ٥٣٧٤ حديثاً وروت السيدة عائشة ٢٢١٠ .

ولما ثارت مسألة الخلافة عن الرسول ، واختير أبو بكر لها دون على ، هددته فاطمة بنت رسول الله وزوج الإمام على بأنها ستدعو الله عليه ، فبكى أبو بكر . وقال لا حاجة لى فى بيعتكم ؛ ولما ولى على الخلافة ، قاومته السيدة عائشة ، واشتركت فى الحرب التى أعلنها بعض كبار الصحابة ضده . فأحكام القرآن ، والإسلام ، فى شأن المرأة والتسوية بينها وبين الرجل ، والاعتراف لها بالإرادة الكاملة والحرية غير المنقوصة ، طبقت فى الإسلام عملياً وظهرت آثارها فى المجتمع .

وقد قرر عليها الإسلام العلم فريضة ، كما قرره على الرجل ، إذ

قال رسول الله : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، ولم يفرض العلم على المرأة من قبيل تهذيبها وتحليتها كزوجة ، بل إن الفقهاء أجازوا لها الانتفاع بهذا العلم فى الشئون العامة ، فالإمامان الطبرى والظاهرى أجازا لها القضاء عموماً ، وأجاز لها أبو حنيفة القضاء .

وهذه المشاركة من جانب المرأة المسلمة فى الشئون العامة وهذا التكريم الذى عبرت عنه الآيات القرآنية ، يثبت كم تتخلف المرأة الغربية بعد أربعة عشر قرناً من الإسلام ، فقد جرى استفتاء فى سويسرا سنة ١٩٦٦ فى هل تمنح المرأة حق العضوية فى الانتخابات أو تحرم منه ؟ فأسفر استفتاء عام عن تقرير حرمانها .

قارن هذا بما ثبت من معارضة امرأة لعمر بن الخطاب ، الخليفة الثانى ، وهو يتحدث على منبر المسجد عن المغالاة فى المهور ، فذكرته امرأة كانت تصلى فى المسجد بالآية (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً) وهى آية تدحض رأى عمر ، فأقر لها بصحة رأيها وقال : أصابت امرأة وأخطأ عمر . وتدل هذه الواقعة على كثير : تدل أولا على صلاة النساء فى المساجد ، وعلى حفظهن القرآن وقدرتهن على الجدل ، ثم على عدم تهيبهن الحديث فى المجالس العامة ، ثم على احترام أكبر رجال الدولة لحقهن فى المناقشة وإبداء الرأى .

وقد روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم حديثه الذى راح عنواناً على الرأفة بالمرأة والحدب عليها فقد قال : « رفقاً أنجشة بالقوارير » وكان « أنجشة » يحدو الإبل : أى يغنى لها لتسرع فى السير : فآذى ذلك النساء الراكبات هذه الإبل ، لذلك دعاه الرسول ألا يسرع فى حدائه .

ولما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبته الأخيرة ، المعروفة

بخطبة الوداع ، لم ينس أن يوصى الرجال بحسن معاملة النساء .

ولكن يأخذ خصوم الإسلام عليه فى شأن المرأة أربعة أمور :

أولا — قول الله تعالى : ( الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ) .

ثانيا — أنه جعل نصيب المرأة فى الميراث نصف نصيب الرجل .

ثالثا — أنه أباح للرجل أن يتزوج مثنى وثلاث ورباع .

رابعا — أنه أباح للرجل أن يطلق زوجته ، دون الرجوع إليها ودون تعويضها .

أما أن القرآن قال إن الرجال قوامون على النساء فقول صحيح من ناحيتين : من ناحية تقريره لما كان واقعا عند نزول القرآن ، ولما استمر فى غير بلاد المسلمين حتى اليوم ، فالإسلام لم يفرضه فى بلاد البوذيين والبراهمة والمسيحيين واليهود .

ولسنا نود أن نقول إنه طبيعة الأمور . ولكننا نود أن نقول إنه كان قائما قبل الإسلام ، وكان شائعا عند بدء البعثة الإسلامية ، ثم استمر إلى اليوم فى العالم كله بأسره تقريبا ، ولكن هذه القوامة فى الإسلام مشروطة بحدين ، أولهما : ( ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ) ، وثانيهما أن قوامة الرجل على المرأة مبينة فى الإسلام ، فليست هى قوامة بطش ولا استباحة لعقلها أو إرادتها أو ازدراء بشخصيتها .

فالقوامة تكاد تكون مساواة لا يفرق بين العضوين فيها إلا درجة واحدة فى مجتمع كانت الفوارق بينهما درجات ودرجات لعلها لو قيست لبلغت مائة درجة .

ولم يكن ممكناً للدين يجعل للاعتبارات العملية وحقائق الحياة مكانها اللائق بها ، فى كل ما يقننه ويقرره . أن يتجاهل حقيقة وضع المرأة فى المجتمع . ويعلن نبذها لكل ولاية للرجل . فإنه لو فعل لكان حكمه نقشاً على الماء ، أو نفخا فى الهواء . ولكنه بالخطوة التى خطاها . وهى فى واقع الأمر خطوات . قرر للمرأة حريتها ، وفتح أمامها أبواب التقدم والتحرر ، والسيادة. واعترف بالأمر الواقع : وهو أن الأسرة ككل وحدة إنسانية لابد لها من رئيس : ولابد للرئيس من حقوق الولاية ، وإلا فشت الفوضى ، ولكن هذا الرئيس محدود السلطة . ورياسته هدفها رعاية المرءوسين لا البطش بهم ، ولا الاستعلاء عليهم : ولا تجاهل إرادتهم ولو فعل ذلك لما حماه الشرع . ولما جعل لخروجه على حدود ولايته قيمة ، ولا أقام لها وزناً . فإذا رأى الرجل والمرأة بعد ذلك أن يتقاسما الأمور ، واستقامت حياتهما فليس فى الإسلام ما يمنع ذلك .

أما كون نصيب المرأة دون نصيب الرجل فى الميراث إذ هو النصف فهذا أيضاً تقدم ، بل هو ثورة على أوضاع المجتمعات الإنسانية كلها فى ذلك : فالمرأة العربية التى أصبحت ترث نصف ما يرثه أخوها ، منذ أربعة عشر قرناً كانت هى نفسها تورث كالمتاع : بل كانت تقتل وتحرم من الحياة ثم هى بعد ذلك أفضل من السيدة الفرنسية فى القرن العشرين التى لم يكن لها ذمة منفصلة عن ذمة زوجها والتى بقيت محرومة من صرف مبلغ من مصرف إلا بإمضاء زوجها إلى جانب إمضائها .

ولكن الإسلام راعى فى تقدير نصيبها بالنصف ثلاثة أمور « أولها » ما كان معمولا به عند بدء الدعوة الإسلامية ، فقد كانت المرأة تورث ولا ترث « ثانيا » أنها معفاة من الإنفاق على بيتها وأولادها . « ثالثا » أن للمرأة حق استثمار مالها ، حرة بغير إشراف ، أو رقابة

من ذويها الذكور سواء كانوا أزواجاً ، أم آباء أم أبناء ، وقد توفق فى هذا الاستثمار فتفوق ثروتها ثروة زوجها .

على أن للأب ، إذا شاء ، أن يسوى بين أبنائه وبناته بطريق الهبة ، حال حياته ، وقد أجاز الشرع الإسلامى الوصية للوارث وغير الوارث فى حدود الثلث ، وقد أصبح هذا مقرراً الآن فى قوانين المواريث بمصر .

أما أن الاسلام قد أباح للرجل أن يجمع بين أربع زوجات ، فذلك لأن الإسلام على منهجه فى التطور جاء فى وقت كان الرجال فيه يتزوجون بغير قيد مطلقاً ، وقد بلغ عدد زوجات النبى داود حسب الثابت فى القرآن تسعاً وتسعين ، والثابت من تعدد الزوجات بقى ممارساً حتى القرن السابع عشر بعلم الكنيسة .

وقد اشترط الإسلام أن يعدل الرجل بين زوجاته وإلا فلا يحق له أن يتزوج سوى واحدة ، وقرر القرآن صراحة أن الرجال لن يعدلوا بين النساء ولو حرصوا ، فقيد الزواج بأكثر من واحدة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما بعث يوم القيامة وشقه ساقط » ، ومع ذلك فإن زواج الرجل بأكثر من زوجة يقع الوزر فيه على الزوجات اللائى يقبلن أن يتروجن رجلا تزوج قبلهن. ولو تطور المجتمع ، ورفضت النساء الزواج برجل متزوج لتحقق ما هيأ القرآن له بنصه على استحالة العدالة بين الزوجات .

وقد تؤثر المرأة أحياناً أن يكون لزوجها زوجة أخرى تعرفها ، وتعرف أولاده منها ، وما ينفقه عليهم من أن يكون له خليلات مجهولات ، وأن يعيش معها مخادعاً كاذباً لا تعرف شيئاً عن حقيقة صلاته ، ولا فيم ينفق أمواله .

وقد تدرج المجتمع الغربى فى الاعتراف بالخليلات ، فأجاز لهن

طلب التعويض ، وأجاز للولد غير الشرعى طلب النفقة .

وليس لدينا شبهة فى أن تطور المجتمع ، هو الذى يضيق من نطاق تعدد الزوجات ، وهو الأمر المشاهد حتى فى ريف بلادنا الذى تكثر فيه حالات تعدد الزوجات لانحطاط مستوى الرجال والنساء اقتصادياً واجتماعياً .

وأخيراً إن الإسلام قرر للمرأة الحق فى أن تشترط على زوجها حقها فى طلب الطلاق إذا تزوج عليها أخرى .

وحسبنا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه أنه أبغض الحلال إلى الله . وإن المجتمع الحديث كله أصبح لا يمارس الطلاق فقط بل يسرف فى هذه الممارسة ، ولو حرم الإسلام الطلاق ، لصادم الطبيعة البشرية ، ولدفع الرجال والنساء إلى حرج شديد ، ولجعل الحياة الزوجية جحيماً لا فكاك منه ، إلا بالموت ، أو الجنون .

فالزواج شركة لا تتم إلا باتفاق الطباع ، ولا يتم هذا الاتفاق فى جميع الأحوال . فما العيب فى فض شركة عواقب بقائها بغير اتفاق أوخم من فضها ؟ وقد يكون فضها أدعى إلى استئنافها بعد حين على أسس أكثر دواماً .

والإسلام لم يقرر هذا الحق مطلقاً ، فقد رسم له منهجاً ، فقد أمر الرجل بأن يسرح زوجته عند الطلاق بإحسان ، وألا يرهقها ، أو يستبقى عنده مالها ، وعليه أن يوفيها مؤخر صداقها ، وعليه أن ينفق عليها خلال فترة عدتها ، أى حتى يثبت أنها ليست حاملا ، حتى تستطيع الزواج بسواه . فإن ادعت أنها لم يأتها الحيض ، استمر ينفق عليها ، ولو لبثت على هذا الإنكار سنتين ، كما ذهب أبو حنيفة .

ولا يطلق الرجل زوجته إلا بعد أن يرسل كل من الزوجين حكماً ليصلحا بينهما .

جملة القول أن جميع ما قرره الإسلام فى حقوق المرأة وواجباتها ، وفى الزواج والطلاق اعترف بالأمر الواقع ، ولم يلتزم به ، أو يقف عنده . بل فتح جميع الأبواب للتحرر منه ، والسمو عليه ، بحيث يصبح الزواج مقصوراً على واحدة ، ويصبح الطلاق أمراً نادراً ، وعنه تصبح الفوارق بين المرأة والرجل ، هى فوارق الطبيعة وحدها ، التى لا سبيل إلى إلغائها .

وقد جرى الإسلام فى تحرير الرقيق ، وإلغاء الرق ، على ما يجرى عليه دائماً ، فى كل ما يريد أن يلغيه من الشرور ، أو يفرضه من العقوبات .

فالإسلام لم يلغ الرق لأنه يريد الإبقاء عليه ؛ بل لأنه كان يريد إلغاءه فى الواقع . إذ لو ألغاه طفرة لانفض الناس عنه ، واعتبروا رسوله مجنونا يهذى ، فالرق كان أساساً من أسس الحياة الاقتصادية والاجتماعية . فإلغاؤه فى الحال كان بمثابة نفى المجتمع الذى جاء الرسول لهدايته والأخذ بيده فى مدارج التقدم والتطور . لذلك ترك الرق كمبدأ لتستهلكه وتقضى عليه أخلاقيات المجتمع الإسلامى والأسس التى قررها الإسلام .

فبدأ بتحديد مصادر الرق ، فلم يعد ثمة إلا مصدر واحد فقط للرق ، هو الوقوع فى أسر المسلمين فى حرب مشروعة ، يعلنها الإمام بقصد إعلاء كلمة الحق والدين ، وفيما عدا ذلك لا يسترق الإنسان ، فلا يسترق بدين ، ولا يسترق لبيع ، ولا يسترق فى حرب قبلية ولا حرب بقصد الحصول على الغنائم . .

ثم التمس لتحرير الرقيق أو فك الرقاب ، عشرات من المسوّغات ، وكأنما يتخذ منها مجرد ذرائع لإلغاء الرق .

وحينما جاء الإسلام كان الرق نظاماً شرعياً معترفاً به ومقبولا ، وقد أخذت به جميع الأمم تقريباً ، فاليونان والرومان أقروه كما أقره

أفلاطون وأرسطو ، والمسيحية لم تستنكر الاسترقاق ولم تعمل على إبطاله ، بل قد نصح بعض القديسين العبيد أن يطيعوا سادتهم ، والصبر على أحوالهم ويذكرون لهم أن استرقاقهم مستند إلى أصول إلهية . بل إن آباء الكنيسة كانوا ينافسون أمراء الإقطاع فى اقتناء العبيد .

وقد جاء فى رسالة بولس الرسول للعبيد :

« أيها العبيد أطيعوا سادتكم ، حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح » .

« ولا بخدمة العين ، كمن يرضى الناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب ، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس ، عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك سيناله من الرب عبداً كان أم حراً » .

وقد كان حال العبيد فى ظل القانون الرومانى بالغاً حد السوء ، فقد كان فى وسع السيد أن يقتل عبده ، بلا حساب أو عقاب ، أو شعور بالإثم أو وخزة من ضمير ، والقوانين التى كانت تصدر للتخفيف على العبيد تبين كيف كانوا ضحايا نظام ظالم قاس لا يرحم ، فقد صدر قانون الإمبراطور بترونيا وهو يحرم على السادة إلزام عبيدهم بمقاتلة الوحوش إلا بإذن من القاضى .

وفى عهد الإمبراطور « انتوفان » صدر أمر يقضى بأن من يقتل عبده يعاقب بغرامة . .

ولما صدر فى عهد الإمبراطور كلوبوس قانون يعتبر فيه قاتل العبد مرتكباً لجناية القتل ، ألغى بمجرد وفاة ذلك الإمبراطور .

وفى سنة ١٦٨٥ صدر قانون ينص على أنه إذا اعتدى أحد الزنوج بأقل إكراه على سيده أو أحد الأحرار ، أو ارتكب أخف السرقات ، فإن جزاءه القتل .

ومن هنا جاء قولنا إن الإسلام لو ألغى الرق ، لما ظهرت خصائصه الإنسانية التي ظهرت بإبقائه الرق ، والعمل على إلغائه تدريجياً .

فإنه — إلى أن يزول الرق — اعتبر الرقيق إنساناً ، واعتبره مساوياً لسيده ، وبذلك أعلن أن إنسانية الإنسان لا تزول بأى سبب لا بالرق ولا بالمعاداة والحرب ، فالإنسان لا يفقد حقوقه كإنسان .

قرر الإسلام : « من قتل عبده قتلناه ، ومن جدع عبده جدعناه ، ومن أخصى عبده قتلناه » .

ثم قال : « إخوانكم خولكم ، أى عبيدكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس » .

وحرم الإسلام على المسلمين أن يخدشوا إحساس هؤلاء الأرقاء ، بمجرد التسمية الجارحة ، فقال : « لا يقل أحدكم عبدى ولا أمتى ، ولكن ليقل فتاى وفتاتى وغلامى » ، ثم قال : « من كانت له جارية فعلمها وأحسن إليها وزوجها كان له أجران » .

وقد طبق المسلمون هذه المبادئ ، فقد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً ، وقد كان رقيقاً حبشياً ، المدينة وفيها وجوه العرب وساداتهم . وكان كثير من الموالى فقهاء ، يعلمون الدين فى الأمصار الإسلامية المختلفة .

ولما ذهب عمر بن الخطاب إلى الشام ليبرم معاهدة مع أهل دمشق استصحب رقيقاً له ، فكان يركب هو مرحلة ، ويركب عبده مرحلة ، وهكذا ، فلما وصلا إلى المدينة كان العبد فوق الدابة ، وكان الخليفة وراءها وقد كان مندوب المسلمين فى مفاوضة المقوقس حاكم مصر ، عبادة بن الصامت ، وهو زنجى .

وقد وصل كثير من الأرقاء الذين تحرروا مناصب الدولة الكبرى فكانوا وزراء وتولى بعضهم الملك .

وقد قرر الفقهاء بالإجماع أن مكاتبة العبد مستحبة ، ويقصد بها أن يتفق العبد مع سيده على أن يدفع لسيده ثمن حريته ، بأن يعمل ويحصل على مال يدفعه إلى مالك رقبته ، مقسطاً ، وقد استحسن الفقهاء أن يدع السيد عبده ليعمل ويحصل على الثمن الذى وعد به .

وخرج الفقهاء على القاعدة المقررة من أن البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر انحيازاً إلى الأرقاء وتخفيفاً عليهم ، فإذا ادعى غلام أنه حر ، وادعى آخر أنه عبده ، كان على الغلام ؛ اليمين فإن أداها صدق ما لم يقدم الآخر بينة .

وقضت الشريعة بأن من يتزوج أمته ، ورزق منها بأولاد ، فقد تحررت ، ولا يجوز له أن يبيعها ، فإن مات كملت حريتها ، لأن أولادها يكونون أحراراً .

وقد أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يجود بنفسه المسلمين « بالصلاة وما ملكت أيمانكم » ، وقال رسول الله أيضا : « لقد أوصانى حبيبى جبريل بالرفق بالرّقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تسترق » .

ويذهب البعض إلى أن « ظن » هنا ، بمعنى : اعتقد أو أيقن ؛ فلها فى اللغة هذا المعنى أيضاً .

ولكى يعجل الإسلام بانتهاء الرق ، بعد كل هذه الضوابط ، التى تعدم الفارق بين العبد والحر ، جعل كفارة كثير من الذنوب فلك الرقبة ، أى إعتاق العبيد وجعل من مصارف الزكاة تحريرهم ، ومن ذلك : ( فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيماً ذا مقربة ) .

ثم ( ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير

رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ) .

( لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان . فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ) .

( والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا ، فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ) .

فلينظر الناس إلى ما تؤمن به حضارة الغرب اليوم ، من أن غير أهلها ، هم دماء مهدرة ، وحرمات مستباحة ، بل أصحاب الأرض الأصلاء لأنهم من غير الفاتحين ، وإن كانوا من دينهم ، يعاملون معاملة دون معاماة البهائم ، ويفرض عليهم الجهل والعجز ، إلى أبد الآبدين ، وليعرفوا كم كان الإسلام متقدما .

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٥٥١٠ / ١٩٧٣

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٣



اقرأ

٩

رواية طويلة من أدب فلسطين المحتلة

تأليف الكاتبة العربية : سحر خليفة

# لم نعد جواري لكم !

٧

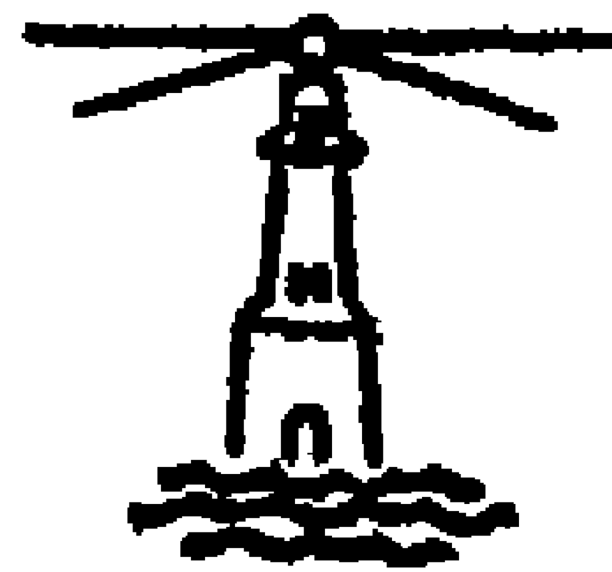
تقديم : حلمي مراد






تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر

# لم نعد جواري لكم!

## رواية طويلة من أدب فلسطين المحتلّة

تأليف الكاتبة العربية : سَحَر خليفة
تقديم : حلمي مراد

اقرأ ٣٧٨

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٧٨

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

## هذه الرواية الفلسطينية . .

## . . ومولد أديبة جديدة !

الرواية التي يسعدني أن أقدمها لقراء العربية في الصفحات التالية ، تعلن عن « مولد » روائية عربية جديدة ، أتوقع لها أن تلمع ويكون لها شأن في المستقبل القريب ..

وأعترف أنني قرأت هذه الرواية خمس مرات ، وفي كل مرة يزداد إعجابي بها ، وتذوقي لمواطن الجمال والإبداع فيها .. بل لعلها في القراءة الأولى لم تعجبني إلا بقدر ، فقد حرمني من الاستمتاع بها على الوجه الأكمل أنني قرأتها بعين الناقد الفاحص الذي يدرسها ليتعرف على الطريقة التي اتبعتها المؤلفة في رسم شخصياتها ، وتحديد ملامح بطلاتها وأبطالها ، وتوجيه أقوال كل منهم وتصرفاته .. فكنت كمن يرتاد لأول مرة طريقاً جديداً ليرسم خريطته ، ويقيس أبعاده ويحدد معالمه ، فيشغله ذلك كله عن الاستمتاع بجمال المناظر الخلابة التي تحف به من الجانبين !

فلما أعدت ارتياد الطريق ، أو مطالعة الرواية — « كقارئ » — أذهلتني روعتها وجمالها ، واستمتعت بها استمتاعاً كاملا لا أذكر أنني حظيت بمثله من رواية عربية ، باستثناء نماذج تعد على الأصابع ، من إنتاج بعض أدبائنا الكبار الذين حرثوا هذا الحقل البكر وأنبتوا فيه بذور هذا الفن الجديد على الأدب العربي : فن « الرواية » .

فماذا أعجبني في هذه الرواية ؟

أعجبني فيها — أولا — هذا السيل المتدفق من «الأفكار» و« المواقف »

التى تكاد تطالعك فى كل صفحة من صفحاتها ، والتى تعالج — فى بساطة و «عفوية» خالية من التكلف والإقحام ، وفى إطار فنى روائى سليم ، بالغ الاتقان — عديداً من مشكلات الحياة والمجتمع ، وما يعتمل فى النفس البشرية من عواطف ونزعات ، وماتضطرب به أجسادنا من غرائز ، وانفعالات ..

وأعجبنى فى هذه الرواية — ثانياً — جزالة الأسلوب ، وجمال التصوير والتحليل للمشاعر والخلجات ، ونفاذ النظرة إلى أعماق الشخصيات التى يقوم عليها بناء الرواية ، والتى تتقاذفها — وتتجاذبها — أحداثها ومواقفها .. بحيث تخرج من قراءتها وقد «عايشت» أبطالها وبطلاتها ، وأحببتهم ، أو نفرت منهم ، كما لوكنت تعرفهم منذ بعيد ، وتألفهم ، وتشفق من فراقهم !

وأعجبنى فى الرواية — ثالثاً — هذه الجرأة فى التعبير والتفكير ، التى لعلها من سمات بعض أشقائنا من أهل فلسطين وما يجاورها من البلاد العربية الشقيقة : الأردن ، وسوريا ، ولبنان . . هذه الجرأة المبتكرة — الخفيفة الدم — التى قد تداريها أكثريتنا نحن المصريين وراء ستار من التحفظ ، وكظم المشاعر ، أو صون اللسان . .

تقول المؤلفة فى وصف مشاعر رسامة تحب ، لكنها ترفض الزواج ممن تحب :

« ووقفت أمام المرآة تتأمل صورتها ، وعلى شفتيها الجريئتين ابتسامة ماكرة . كان شعرها الأسود الأملس ينحدر خيوطاً حريرية سوداء ، مغطياً كتفيها ونهديها .. «ما زلت فتاة .. بابا مغلقاً .. أرضاً بوراً .. لوحة لم ترسم بعد . . وأنا فى الانتظار . انتظار الطارق الجرىء ، الفلاح المعطاء ، الرسام المبدع . وهذه البلاد لا تحتوى إلا رجالا يحلمون بإناث يحبلن ويلدن ، ويحشين ورق العنب !

« وابتسمت بسخرية : «عليّ أن أختار : بين عبودية الفن ، وعبودية الرجل ! والفن عبودية تقود إلى الحرية ، أما عبودية الرجل فمذلة وانكسار . وقد اخترت طريقي ولن أحيد عنه . قد أجد الحب يوماً ، ولكني لن آخذه إلا من إنسان يعرف من أنا ، وما وظيفتي ، ولِمَ خلقت ! . . إنسان لا ينتظر مني مولوداً كل سنة ، ويقعدني مشلولة عن التفكير والحركة ، في انتظار رجوعه إلى البيت حاملا صلعته وبطيخته ! »

وأعجبني في الرواية – رابعاً – هذا النقد لأوضاع المرأة المتخلفة في بعض المجتمعات الشرقية ، وهذا التمرد على تلك الأوضاع :

« الجو هنا كئيب ، والفراغ والملل يسيطران على الجميع . . ولقد كتب على المرأة أن تعيش « محنطة » في هذه البلاد ، أن تكون مجرد « أنثى » ، وعليك يا عزيزتي أن ترضى بهذا » . .

« لا ، لن أرضى بهذا . يجب أن تثور المرأة على هذا الوضع ، وأن ترفضه . إن مجرد الشكوى لا يجدي شيئاً . يجب أن تتطلع المرأة إلى آفاق أوسع ، إلى مجالات أكثر عمقاً واتساعاً . عليها أن تفرض وجودها ، وأن تنزل إلى ميادين العمل . أن تشارك الرجل في كل مجالاته ، حتى السياسية منها . أين الصحفيات ؟ أين الكاتبات ؟ أين المرشدات الاجتماعيات ؟ أين الرسامات ؟ أين الأيدي الناعمة في المصنع مثلا ؟ ألم ترى ما فعلته الصناعة في المجتمع الأوربي ؟ لقد قلبته رأساً على عقب : تطورت المبادئ والنظريات والقيم ، حتى أنظمة الحكم تغيرت ، فأين نمت الاشتراكية وترعرعت ، أليس في الأجواء الصناعية ؟ » . .

وأعجبني في الرواية – خامساً – هذا الحشد من « القضايا » الاجتماعية والإنسانية التي عالجتها ، خلال سياقها ، بغير أن تشعرك بأدنى انحراف

عن "قالبها" الروائى أو خطها الفنى ! . . عشرات القضايا الهامة ، منها على سبيل المثال لا الحصر : الإفراط فى النسل أو تحديده . . الزواج المبكر أو المتأخر . . الحب وهل يلهم الفنان أم يعوقه . . « ملكية » الزوج الشرقى لجسد زوجته . . الحب للحب ، والحب المفضى إلى زواج ! . . هل المرأة مخلوق ناقص ؟ . . معنى الشرف ومدى اختلافه باختلاف المجتمعات والأجيال . . الفرق بين الحب ، وممارسة الحب ! . . حياة الفنان الخاصة ، هل هى ملك للجماهير ، مثل إنتاجه ؟ . . الاستسلام للعواطف ، أهو وقف على الشباب ، محرم على الشيوخ ؟ . . هل يزيد الحزن من جاذبية المرأة ، ويلهم الفنان ؟ . . الفن والالتزام بقضايا الأوطان . . الوصولية والتسلق فى بيئة أدعياء الثقافة . . الطبقية والحقد الاجتماعى . . الثقافة والعطاء . . الفرق بين المثقف والفنان ، وبين آلام الجسد وآلام النفس ، وبين قلم الكاتب ، وريشة الرسام ، ومبضع الجراح . . الفنان أكثر الناس شقاء ، وأكثرهم سعادة . . وضميره أقسى عليه من ضمير الفرد العادى ! . . فلسفة الحرمان بالنسبة لكل من الرجل والمرأة . . إلخ .

قال الرسام الكبير وهو يمد يديه مبسوطتين أمام تلميذته :

« انظرى ! أترين فرقاً بين هذه الأصابع وأصابع أى موظف صغير فى مصرف أو وزارة ؟ أو حتى بينها وبين أصابع أى عامل كادح ؟ قد تكون أصابع العامل أقوى وأصلب ، وأصابعى أرق وأنعم . قد تكون أصابعه أكثر تأثيراً فى الصخر ، لكن أصابعى أكثر تأثيراً فى القلب والفكر والحواس ! باستطاعتك تشبيه أصابعى هذه بأصابع طبيب جراح . والفرق أن هذه تحمل الريشة والقلم ، وتلك تحمل المبضع . المبضع يجرح ، وريشتى وقلمى يفعلان الشىء ذاته . المبضع يشرح اللحم والجلد والعضل ، أما ريشتى فتشرح العقل والقلب والخيال . قد يكون الألم الذى يحدثه المبضع أحد وآلم ،

إلا أنه سطحي ومؤقت . أما جرح ريشتى فهو أكثر إيلاماً ، لأنه أكثر توغلا ! »

وأعجبنى فى هذه الرواية — سادساً — ما يلوح لك وراء كل سطر من سطورها من « خلفية » ثقافية عريضة .. خلفية تقارن مثلا بين الحب فى مأساة شكسبير « روميو وجولييت » ، والحب عند « جميل بثينة » و « قيس بن الملوح » ! .. وتورد على لسان بطلاتها وأبطالها مناقشات وآراء حول لوحات « فان جوخ » . . وقصص جوركى ، وتشيكوف ، وموررافيا ، و « د . ه . لورنس » . . وفلسفة « فولتير » الداعية إلى الثورة من أجل الحرية .. وسيكلوجية « فرويد » و « يونج » . . وأشعار « بايرون » و « شيللى » و « وردز ورث » ! . . إلخ .

وأعجبنى فى الرواية ، أولا وأخيراً ، أنه من خلال صفحاتها الرائعة يتضوع عطر مدن فلسطين الحبيبة : ( القدس ) الشامخة ، و ( رام الله ) ، و ( أريحا ) ، و ( نابلس ) ، وشاطئ نهر الأردن ، والبحر الميت ، والضفة الغربية .. حيث نعيش أحداث القصة ونتعرف على بطلاتها وأبطالها : نسرين ، نزار ، بشار ، سهى ، سامية ، عبد الرحمن ، سميرة ، إيفيت ، وفاروق ! .. نتعرف عليهم ونعايشهم فى بيئتهم الأصلية . . تحت ظلال أشجار السرو والصنوبر ، وغابات الجوافة ، وبيارات البرتقال ، وبساتين اللوز ، والوهاد الخضر المزدانة بشقائق النعمان . . !

* * *

وأخيراً ، فإذا كانت هذه باكورة إنتاج « سحر خليفة » فى فن الرواية الطويلة ، فقد سبقها إنتاج آخر لها فى الشعر الحديث : ديوان غير مطبوع ، أنتقى لك منه السطور التالية . . التى لا تنقصها الثورة على « التفرقة العنصرية » بين المرأة والرجل ، ولا تنقصها « سلاطة اللسان » ! . . التى لعلها المسئولة عن عدم طبع الديوان حتى الآن ، بحكم أن الناشرين جميعاً هم من جنس الرجال ! ؟

**حلمى مراد**

# هو الملك . . وأنا الحريم !

لأنى امرأة

لأنى من صنف الحريم

بعلى تزوج أربعة

ماذا يهم ؟

لو ألهبتنى غيرتى

لو أحرقتنى دمعتى

لو جففتنى وحدتى

ماذا يهم ؟

لو بت فى قعر الجحيم

فهو الملك

وأنا الحريم !

* * *

يا اخوتى لا تسألوا

لا تذهلوا

لو كان يمشى خجلا

لو كان يشبه عجلا

لو أطرشا أو أحولا

أو أحمقاً أو أهبلا

فهو الملك

وهو الوزير

وهو الأسد يا اخوتى

حتى ولو أن الزئير

مستبدل بصدى الشخير !

* * *

هواى رذيله

زناه رجوله

جمالى عوره

فجوره ثوره

وله الجوارى بعد موتى

أما أنا

فإلى الجحيم !

* * *

عقلى عقيم

فكرى سقيم

لو كنت أفهم من فهيم

فهو الحكيم

وهو العليم

حتى ولو كان

بهيم . . !

يا أمة نساؤها

تساق نحزا كالبقر

أبشر أخى بحضار

يمجها ذوق النور .

سحر خليفة

# شخصيات الرواية

**عبد الرحمن الميثلوني** : رسام مشهور ومكافح وطني ، في نحو الخمسين ، أحب سامية في شبابه ولم يتزوج حتى الآن .

**سامية** : أرملة أحبت عبد الرحمن في شبابها فلما فرقت بينهما الأيام تزوجت من مهاجر ثري في أمريكا ، لكنه مات بعد عشر سنوات فعادت إلى وطنها حيث افتتحت مكتبة ثقافية .

**نزار** : وكيل مكتب للاستيراد . زميل قديم لعبد الرحمن وصديق مخلص لسامية . متزوج من ابنة عمه الثرية .

**نسرين** : (آنسة) : شقيقة سامية ومساعدتها في المكتبة.

**بشار** : صيدلي شاب مثقف ، يتردد على المكتبة لشراء الكتب الحديثة ، ورؤية « نسرين » !

**سميرة** : خريجة الجامعة الأمريكية في بيروت . عصامية واسعة الثقافة . تعمل مدرسة للغة الإنجليزية في مدرسة ثانوية للبنات .

**ربيع** : ابن عم سميرة وخطيبها ، درس الطب ثم سافر إلى إنجلترا للتخصص ، فأحب فتاة إنجليزية !

**فاروق** : ابن رجل أعمال ثري ، تخرج من إكسفورد وعاد ليمارس هوايته في مطاردة الحسان وإيقاعهن في حبائله ، شأن العاطلين بالوراثة !

**سهى** : رسامة شابة أدمنت المخدرات . أحبت « بشار » لكنها رفضت الزواج منه !

**شكري** : تاجر ، ولوع بالطعام ولا يكف عن انتقاد زوجته « إيفيت » . أبعد ما يكون عن الرومانتيكية !

**إيفيت** : زوجة شكري وأم لطفلين منه . رومانتيكية حالمة ضئيلة الثقافة ، تحلم بالحب ، ولا تطيق زوجها شكري !

# إهـداء

إلى الذى علمنى معنى الحب العظيم :

للوطن . . للفن . . وللإنسان . .

إلى الرسام الفلسطينى الكبير الأستاذ

« إسماعيل شمـوط » أهدى كتابى هذا ،

عساى أردّ بعضا من جميل مضى . .

لكنه لم يمت !

سحر خليفة

## ١

من خلال أشجار السرو الداكنة الخضرة ، الممشوقة القدود ، ظهرت البناية الكبيرة بقرميدها الهرمى الأحمر ، مذكرة بالكنائس العتيقة الضخمة التى ترصع جبال القدس وهضابها .

لم تكن البناية كنيسة ، ولم تكن المدينة بيت المقدس . لم يكن الزوار ممن منّ الله عليهم بسكينة الإيمان وخشوعه ، فقد كانت البناية مكتبة عتيقة البنيان ، حديثة المحتويات ، وكانت المدينة «رام الله» ، وكان الزوار هم علية القوم — أو من نسميهم كذلك : المثقفون . . وأشباه المثقفين . . وأدعياء الثقافة . . وهلم جراً . .

نقر المطر حبات السرو الكروية ، فاهتزت الفروع برعشات تذكر بالحب والحياة . . وغطت أعالى الأشجار الخضراء غلالات شاحبة من البخار المتصاعد من الأرض الحمراء المرتوية . . ونبح كلب فى سفح الجبل البعيد . . ومرت سيارة على الشارع اللامع كجدول رقراق ، وإذ غاصت العجلات فى الماء انطلق الرشاش متسابقاً فى كل اتجاه ، ووقفت سيارة خضراء طويلة أمام المدخل العريض ، ونزل شاب أنيق يحمل غليوناً ، ويرتدى معطفاً من صوف «الهيلد» الثمين . قفز الدرجات البيضاء بخفة ، واختفى خلف الباب الزجاجي للمكتبة الضخمة .

القاعة واسعة فسيحة ، وبعض أعمدة رخامية تتناثر هنا وهناك ، وفى الركن مدفأة أمريكية ضخمة . وفى مقابلها منصة عريضة يجلس خلفها شاب وإلى جواره صندوق النقود ، وخلفه تقبع رفوف من الكتب المنوعة .

فى طرف القاعة إلى أقصى اليمين ركن محاط بالزجاج الأصفر من جوانبه الثلاثة ، ولا يوصل بينه وبين القاعة إلا باب زجاجى ، وآخر خشبى يؤدى إلى المطبخ الصغير وملحقاته . أما الواجهة المقابلة للمدخل

فقد جعلت على شكل قاطع خشبي مزخرف . وفى الركن الزجاجي ، وخلف مكتب لامع من الخشب المصقول جلست صاحبة المكان : أرملة جميلة ، فى أوائل الأربعينات ، مثقفة ، غامضة ، حزينة . . تتميز بعينين داكنتين ، وشرود ذهني لا يكون إلا لفنان أو معقد! . . وفى مقابلها جلس رجل يحمل ملفاً ، وعند قدميه قبعت حقيبة رجال الأعمال بصمت وجلال .

كانا يناقشان أحد المواضيع التى يحلو لمثقفينا الخوض فيها ، أوبالأحرى كان هو يناقش ، وهى تسمع . قال مؤكداً : « الحب حقيقة وهمية ، ولا جدال فى هذا . فحين يكون المرء فى أقصى اندفاعه لتحقيق رغباته الروحية والجسدية من خلال الحبيب ، يبيت من فرط اشتعال أحاسيسه يعتقد بأن حبه لذلك الإنسان كان النتيجة الحتمية لالتقاء إنسانين خلقا ليكمل أحدهما الآخر ، وأن الحياة بدون التحامهما تكون عديمة القيمة والمعنى . الحب أنانية وغريزة ، وليس عواطف رقيقة وتضحية وعبادة! »

وانتظر رد فعل عباراته ، ولكن السيدة كانت تتأمل الشعاع الذهبي المنبثق من خلال زجاج النافذة الأصفر بصمت ، وكانت تفكر بشرود : « أمن المعقول أن يكون الحب وهماً ! أمن المعقول أن أكون قد أضعت عمرى وأيامى وسعادتى فى سبيل وهم وخيالات فتقتها الغريزة ؟ » .

وخافت الاقتناع بهذه الفكرة البغيضة — بغض الواقع وجموده — فهذا يعني الكثير مما تخاف الاعتراف به : أن حبها العظيم كان وهماً ، وأن حزنها الدرامى كان من أجل نفسها وليس من أجل « عبد الرحمن » ، وأن هروبها الجبان كان صواباً ، وأن ندمها فى غير محله ، لأن « عبد الرحمن » لم يكن إلا إنساناً عاديا ، وجدت فيه مرتعاً خصباً لتحقيق رغباتها . فالحب أنانية وغريزة .. وهزت رأسها وقالت بصوت فيه شيء من الرعب : « أبداً ، أبداً ، الحب حقيقة ! » . فابتسم بسخرية وقال : « حقيقة .. نعم ، ولكنها حقيقة وهمية ! » . . قالت باندفاع : « وما تفسير قصص

الحب الخالدة إذن؟». ابتسم وتساءل : «تقصدين " روميو وجولييت "؟». قالت بتشبث : «وغيرها ، وغيرها ، مئات القصص ، ألوف القصص ، وتضحيات ، وحوادث انتحار . . » . . فواصل هو كلامها : « . . وقتل وخطف واغتصاب ، والبواعث معروفة ، فهي إما الغيرة ، أو حب الامتلاك بالإكراه ، أو نفث الشهوة غصْباً ! »

قالت بألم : « لاتجرد العالم من أجمل مزاياه ! » . قال بإصرار : « تقصدين : من " أكذب " مزاياه ! ؟ » . قالت : «ليكن ، طالما أننا نعيش الكذبة بصدق . » . قال مؤكداً : « لكنه زيف ووهم ! »

ــ ليكن ، طالما أنه وهم منتج خلاق . أتذكر أشعار « قيس بن الملوح » ؟ و « قيس بن ذريح » و « جميل بثينة » وغيرهم ؟

قال ضاحكاً : « وهناك "فانجوخ" وأذنه الموضوعة على قاعدة من القطيفة! » . . وأخذ يقهقه بسخرية . وعاد يواصل نقاشه ببرود كاد يقتلها ، فابتعدت بعينيها عن وجهه وعادت ترقب الشعاع الذهبي المنبثق من زجاج النافذة الأصفر . . وتلقائياً وبدون تردد ، بدأت عملية هروبها المعهود . كانت كلما وجدت نفسها محاصرة بخطر ما ، انفلتت بدون تردد هاربة من الموقف كلياً أو جزئياً ، فإما أن تغادر المكان ، أو تهرب بأفكارها تاركة مخاطبها يتحدث ، ويتحدث ، في حين تهزّ هي رأسها بين الفينة والفينة مدعية الإنصات . وبينما كان يقول : « قيس بن الملوح ذاك كان مخبولا . . » كانت هي تتأمل الشعاع وتلهم أفكارها بصمت ، محدثة نفسها : « كان عبد الرحمن يقول إن اللون الأصفر يجمع بين صفات الألوان الشفافة والألوان الصاخبة . فهو مثير ، لكنه رقيق في الوقت نفسه . وهو مشرق لأن فيه وهج الشمس وتألقها ، وهو كئيب لأنه يُذكّر بالذبول والمرض . فيه خصب القمح المحصود ، وفيه فتور الأوراق الحزينة المتساقطة . فيه نداوة عيون النرجس البريء ، وفيه جفاف البشرة الحائلة حين يفارقها الدم . . » .

كان « نزار » يواصل النقاش وحده ، وكان يظن سكوتها دليل الاقتناع والتجاوب . . فمضى يقول : « عندما يقف الإنسان المحايد مراقباً تطور الأحداث من بعيد ، يكتشف حقيقة مذهلة ، هى أن الإنسان لا يبحث فى الحب إلا عن احتياجات يفتقدها ويتشوق إليها . وأن ما حببه فى الحبيب لم يكن مصادفة أو تخطيطاً ، بقدر ما هو اندفاعات لملء الفراغ الذى تحتويه الروح ويحتويه الجسد . وكلمة "أحبك" هى أكذب كلمة ينطق بها الإنسان ، لأنها تعنى العكس تماماً . فهى تعنى "أنا أحب فيك ما يسعدنى وما يلبى رغباتى . أنا أحب فيك نفسى وغريزتى" . كلمة "أحبك" لا تعنى . . »

وكانت هى تدخن بصمت .. وتمضى تجادله فى سرها : « كلمة أحبك كلمة صغيرة ، لكنها تجعل العالم كبيراً ، طويلا ، عريضاً ، له سماء زهرية السحب ، وأشجار متألقة الخضرة ، وأناس يقفزون بينها مرحاً .. كما لو كانوا يعيشون قصة من قصص الأطفال الخيالية ، كسندريلا مثلا . . أو "أليس فى بلاد العجائب" . . أو "هانسل وجريتل" . . والعالم الكالح يصبح مضاء بنيونات ملونة ، بكهارب مزوقة تضىء لحظة وتنطفىء أخرى . . قطرات المطر يصبح لها صوت عذب ، أعذب من نقرات طائر الحسون على زجاج نافذة فى الصباح . . والشوارع المجللة بغبش البخار تصبح جنة . . حتى الوحل يصبح له لون لذيذ ، يكاد يشبه الحناء المعجونة بماء زهر البرتقال . . أى خصب .. أى جمال . . أى عمر يستحق أن يعاش ! ! . . وكم تتبدل الأشياء ! كم تتبدل ! يصبح الكالح مشرقاً ، والمظلم مضاء ، والبارد دافئاً ! »

وكان يواصل نقاشه غير المجدى . . وهى ماضية فى نجواها لنفسها :

« تقول إن كلمة « أحبك » كلمة زائفة ، مضحكة ؟ ! آه لو سمعتها يا مسكين ، حين قالها « عبد الرحمن » ! لقد ركضت يومئذ .. ركضت ، لم آبه لأى شىء فى العالم سواها ! ركضت إليه .. لم أعبأ بأناقتى ، ولا بجمالى ،

فالحب يجمل حتى البشاعة.. وكانت السيارة تنهب الأرض .. تنهب الطرق الملتوية بين «رام الله» و «نابلس» . . وكلمات ملأى بالهوى والوجد تنساب من المذياع فتعمر فى المخيلة قصوراً من المرمر الشفاف . . أترى يا مسكين ؟ حتى كلمات المذياع تصبح أجنحة تحملنا على أشرعتها ، والسيارة تنهب الأرض ،! والوهاد تشع خضرة وفرحاً . . العالم كله يصبح فى حالة رقص على أنغام موسيقى رقيقة متموجة لها إيقاع مزركش .. والزيتون نظيف . كروم الزيتون تظلل الأرض البنية المزدانة بالربيع ، وينابيع من زهيرات «ثدى البقرة» و «الپانسيه» . . والصخور نظيفة ، أنظف من قلب وردة عذراء لم تلمسها يد إنسان . وعصافير الشعراء الزرقاء تملأ العالم زقزقة وهى تقفز على الأرض بخفة الأنسام . . وبعد هذا نتساءل : من أين يأتى الحزن !! من أين يأتى الحزن ؟ ! من أين وفى العالم حب ، وفى الحب جمال ، وفى الجمال سعادة !؟ . . ونتساءل .. من أين يأتى الحزن !! » .

. . وكان نزار ماضياً فى ثرثرته يقول : «قد يستطيع الإنسان فرض سيطرته على أحاسيس آخر فترة ما ، ولكن بعد مرور تلك الفترة لا يبقى سوى الذكرى ، وحتى الذكرى تصبح كالحة وباردة ، لا تثير فينا سوى ما يثيره مرور طائرة تحلق على ارتفاع شاهق ، لا يكاد يصل إلينا منها سوى خيال الصوت وخيال الصورة ! »

وفيما «نزار» ماض فى كلامه ، كانت «سامية» تحدث نفسها : «ما وجهة نظره فىّ ؟ ربما كان يعتقد أنى امرأة مهووسة تقتات من فتات الذكريات . . ذكريات الصبا والشباب . . آه ، لقد أصبحت فى الأربعين ! لقد ضاع العمر . . ضاع الأمل ! »

وقالت له أخيراً ، بألم حاولت إخفاءه : «ما وجهة نظرك فىّ ؟ »

فحاول أن يبدو مرحاً ، وهو يجيبها بخفة : «أنت ؟ حسنا : امرأة ناضجة ، ثمرة شهية ! » . . فابتسمت وهى تستدير بعينيها نحو النافذة : «تلك هى الأكذوبة التى يتحفوننا بها ، فعندما تستهلك المرأة

صباها يعزّونها بالنضج . . وكأن المرأة تصبو لهذه الصفة السقيمة . أنا واثقة بأن من بين كل ألف امرأة قد نجد واحدة ترضى استبدال النضج بالصبا . . وقد لا نجد ! » .

كان « نزار » قد أتى فى مهمة تجارية . هى صاحبة المكان ، وهو وكيل أحد مكاتب الاستيراد ، وصديق قديم تمتد معرفتها به إلى ما قبل زواجها واغترابها ، وعودتها ثانية بعد أن أصبحت أرملة تلتف بالغموض والكآبة . والأهم من ذلك أنه كان صديقاً لعبد الرحمن ، حبيب شبابها ، وكان يعلم بما حدث ، وفيم تفكر ، وكيف تعيش ، وربما كان يعتقد بأنها مريضة أو مصابة بلوثة ، فامرأة لا تستطيع نسيان رجل هربت منه طوعاً ، وبعد كل هذه السنين ، إما أن تكون ساذجة وإما أن تكون مريضة ، ولم تكن ساذجة طبعاً ، فهل تكون مريضة ؟

وبقيت فى المكتب وحدها . كانت لوحة « زهرة المرجريت» معلقة على الجدار ، فى مواجهتها ، ومن خلال القاطع الخشبى الذى يفصل الركن عن القاعة، بزواياه الهندسية وزجاجه الأصفر ، ظهرت المناضد البنية مهجورة غير مأهولة ، والشاب الجالس خلف المنصة يقرأ كتاباً غرامياً ، والضوء من خلال الزجاج الأصفر فى الركن الزجاجى بدا متألقاً برغم تلبد الأجواء فى الخارج .

* * *

دخلت « نسرين » فى تلصص ، فتحت باب المكتب بهدوء ، ورأت أختها « سامية » — كالعادة — تغوص فى جوها الخاص الكئيب . . فجلست فى سكون . تناولت سيجارة ، أشعلتها ونفخت فيها وهى تتأمل شحوب أختها . وبعد فترة من الصمت تساءلت : « سامية ، لم لا تخرجين من عزلتك ؟ »

ولم تجب الأخت . . نظرت فى وجه أختها بصمت ، ثم استدارت بعينيها نحو الشعاع . كانت ما تزال فى عملية هروبها التى قد تستغرق ساعات ، وقد تستغرق أياماً . . فقالت نسرين وهى تغالب إحساسها

بالحرج : «إنك لست أول أرملة فى العالم!».. ولم تجب سامية.. فقالت نسرين بصبر : « لو انطمرت كل الأرامل بمثل حزنك بحلل نصف العالم وشاح أسود ! »

وقامت واقفة واتجهت نحو النافذة ، وأخذت تنظر من خلالها إلى الحديقة . كانت أشجار السرو المحيطة بالمكان تهتز حسب إيقاع الريح ونقر المطر . ففتحت النافذة وهى تقول : « لون الزجاج يضايقنى أحياناً ، فهو بالرغم مما يشعه على من فى الداخل من إشراق وتوهج ، إلا أنه يطفئ ألوان الطبيعة فى الخارج.. مثلا أنا لا أستطيع تذوق تفاوت الخضرة من خلاله ، ولهذا أضطر إلى فتح النافذة حتى أرى حقيقة الأشياء بدون حاجة إلى المنظار الذى اخترته أنت ! » والتفتت تحدق إلى وجه أختها ، وانتبهت تلك لوقع الجملة ورددتها فى عقلها : « أضطر إلى فتح النافذة لأرى حقيقة الأشياء ، بدون حاجة إلى المنظار الذى اخترته أنت ؟.. يا للصغيرة !.. فهى ما عادت طفلة . . لكنها تظل طفلتى المدللة » .

وقالت نسرين بتأمل : « هل يجب على الإنسان أن يكون فناناً كى ترتج أعماقه لرؤية الجمال؟! ».. ولما لم تسمع رداً ، أجابت بألفة من يخاطب نفسه : « هناك الفنان المتذوق ، وهناك الفنان الخلاق ، وبما أننى لست خلاقة فأنا ذواقة ، وهذا يوصلنا إلى اكتشاف رائع وهو أننى فنانة ! »

وأطلقت ضحكة مرحة طارت عبر النافذة ، ولم يصل إلى سمع سامية منها سوى قهقهة بعيدة ممزوجة بصوت الريح وطقطقات الماء المتساقط من حافة سقف الردهة الطويلة الممتدة أمام المكتبة . وقالت نسرين بتأمل : « تفتننى خضرة السرو حين تبلله الأمطار ويغسل الماء ثماره الكروية . يصبح الأخضر شديد الدكنة ، وتلمع الكريات بألوانها البنية وتنحنى بعض الفروع النحيلة بأمشاطها الخضراء ، وفى طرف كل سن مشط قطرة ماء . رائع ! » ثم التفتت لأختها باسمة : « أترين أننى ذواقة ؟ » . . فابتسمت سامية بحنان : « ومن ينكر هذا ؟ » أجابت

نسرين : « أنت ! » . . فتساءلت سامية برقة : « أنا ؟! » . أجابت نسرين : « لقد شككت فى تقييمى لأريحا ! »

ولم تستطع سامية إخفاء ابتسامتها وهى تهز رأسها وتقول : « أهناك من هى أشد منك عناداً ؟ » فرمقتها أختها بخبث وقالت : « كنت سأوجه إليك السؤال نفسه ! » . . فقالت سامية بحزم فجائى : « نسرين ، للمرة الأخيرة أقول لك إنى لن أذهب لأريحا ! »

فصاحت نسرين بغيظ : « ولكن لماذا ؟ من عادتنا الذهاب لأريحا كلما حلا لنا ذلك، والآن، لأنى فى أشد الشوق للذهاب ورؤية المعرض، ورؤية من هو أهم من المعرض .. عبدالرحمن الشهير .. فنان البؤساء كما يقال عنه . وهناك تلك الرسامة السورية، يقال إنها موهوبة ، وهى أيضاً ممن اشتركوا فى معرض بروكسل . واللوحات التى تعرض فى هذا المعرض لم تعرض إلا هناك ، فى بروكسل . لأنى أكاد أتفتت شوقاً للذهاب ، ترفضينه ؟ اوبعد هذا تتساءلين إن كانت هناك من هى "أعند" منى ! »

أسندت سامية جبهتها إلى راحة يدها ، وبدا أنها ستصاب بإحدى نوبات الصداع المقيتة؛ فقالت نسرين متراجعة : « حسناً ، كما ترين ! » .

ثم استدارت بوجهها نحو النافذة المفتوحة وقد بدا عليها التجهم والغيظ ، وبعد فترة استدارت وقالت : « أقبل بعض الأصدقاء . . حمداً لله . . ترى لو لم نكن نملك هذه المكتبة التى تعطينا الفرصة لرؤية الناس والتعرف بهم ، ماذا كان يحل بنا ؟ ! »

. . وأقفلت النافذة وخرجت بعد أن خلعت معطفها وعلقته على المشجب بجانب الباب ، وأخذت سامية تراجع الفواتير وأعداد الكتب المستوردة وأصنافها .

## ٢

قال بشار ، وهو صيدلى شاب مثقف يكثر من التردد على المكتبة بقصد شراء الكتب الحديثة ، وبقصد آخر هو أن فى المكتبة شابة

حسناء تدعى نسرين : « كان النادى الثقافى فرصة لا تعوض . كنا نجد مكاناً نناقش فيه الآراء والكتب . شىء غريب ! حتى الثقافة ممنوعة فى هذه البلاد ؟ » فتساءلت نسرين : « وأين هو هذا النادى ؟ »

ابتسم بشار بسخرية واستدار ناحية فاروق، وهو ابن أحد الأثرياء وخريج أكسفورد ، يلبس صوف « الهيلد » مفصلا حسب الطريقة الإنجليزية . . وكذلك يصفف شعره . يدخن الغليون ويهوى السيمفونيات ، ويطعّم حديثه بمفردات ومصطلحات تبذ معلومات مؤلفى المعاجم، وعندما يكون المزاج صافياً ورائقاً، يتحف المجموعة بحكم وعبر مستوردة من شكسبير وبايرون ! قال بشار : « أجب يا أخا العرب ! أين النادى؟ » فضحكت المجموعة للقب الذى لا يبدو مناسباً . وارتفعت فوق حاجبى « أخا العرب » ابتسامة أنيقة ، ثم سحب غليونه من فمه وقال برصانة :

« Well .. كل ما أعرفه أنه ما عاد هنا » . فتساءلت نسرين : « أين إذن ؟ » فقال ببرود مصطنع : « فى ( الجفر ) ! »

وعلا الضحك ثانية . . فتساءلت نسرين بفضول : « تقول إنه انتقل للجفر ؟ ولم ؟ ألم يكن ناجحاً هنا فى "رام الله" ؟ حسب معلوماتى أنه كان ناجحاً ، كان محط الطليعة المثقفة .. هذا ما سمعته من نزار . . »

فأجاب فاروق ببرود انجليزى معرّب : « كان ناجحاً فى رام الله ، لكنه انتقل للجفر » . . تساءلت بفضول : « ولكن لماذا ؟ » . . فأجاب : « لقد اعتقل هو أيضاً » . وارتفعت الضحكات ، ثم قالت سميرة — مدرسة اللغة الإنجليزية فى مدرسة البنات الثانوية وخريجة الجامعة الأمريكية فى بيروت : « طبعاً ، هذا منتهى الوفاء ، لقد صعب على المكان هجران أهله . فأبى إلا اللحاق بهم ! » . . وتساءلت نسرين : « ومنذ متى تم هذا الحدث السعيد ؟ » . . فأجاب بشار : « قبل مجيئكم من أمريكا ببضعة أشهر » . فسألته : « وما التهمة ؟ »

قالت سميرة : « ما من تهمة أبداً ، هو اختار ذلك . فى صباح أحد الأيام طرقنا الباب فوجدناه مزداناً بالشمع الأحمر ! » . . وواصل بشار ، بجد هزلى : « موضة العصر ، فمنذ ذلك الحين والناس يزدانون بالشمع الأحمر . فمن لا يضعه فوق بابه يضعه فوق فمه . وكنا عندما يغلو أحدهم فى نكاته يصرخ أحدنا : " قليلا من الشمع الأحمر " » .

واهتزت الرؤوس بسخرية .. وعلق فاروق : « Isn't it wonderful ? » . فرددت نسرين : «مدهش!» .. وقال بشار وهو يقدم سيجارة لكل من الشابتين اللتين تشاركانه وزميله الجلوس حول «طاولة» منزوية فى أحد أركان قاعة المكتبة الغاصة برفوف الكتب : « كنت أود لو أقدم لكما شيئاً تشربانه ، ولكن ما العمل ؟ » . فقالت سميرة بأسف : « تذكرنى الآن بجلسات النادى . . أتذكر ؟ لقد كان البوفيه رائعاً هناك » . ثم استدارت ناحية نسرين وقالت : « تتساءلين أين المثقفون فى هذا البلد ؟ كنت أود لو أنك عاصرت النادى وزواره . عبد الرحمن الميثلونى كان أحد مؤسسيه . طبعاً عندما اعتقل عبد الرحمن — وكان ذلك منذ مدة طويلة — استمر النادى فى القيام بنشاطاته ، ولكن عملية التصفية كانت ما تزال على قدم وساق ، وبالتدريج انتقلت إدارة النادى إلى الجفر ! »

وقال بشار مكملا : « وقد صعب على المكان هجران أهله ، فأبى إلا اللحاق بهم » ! . . فقال فاروق بتأمل : « إنى من مشجعى مكتبتكم هذه يا نسرين ، وقد أسعدنى أن أرى فى هذه المدينة مكتبة بهذا المستوى الراقى . » . . فقالت نسرين : « الفضل يرجع إلى سامية ، فبعد وفاة زوجها ، والقرار الذى اتخذناه بتصفية الأملاك فى شيكاغو ، والرجوع إلى وطننا ، أخذنا نفكر فى مشروع نستطيع — بتقديمه للبلد — الخدمة أولا ، والاستفادة ثانياً . . كنا نبحث عن مشروع تحتاجون إليه . واقترحت أنا إقامة "سوبر ماركت" ، ولم ترض سامية بذلك . . ثم فكرنا فى إقامة فندق سياحى ، ولكن سامية رأت أن ذلك سيرهقها . وذات يوم كنا نمر

بإحدى المكتبات الضخمة ، فتوقفت سامية أمام المبنى الجميل وقالت :
« سنقيم مثل هذه : مكتبة بقسم عام ، وآخر تجارى »
. . وهكذا كان !

وعلق بشار : « مشروع رائع ، وأروع ما فيه أصحابه ! » .. فعلقت سميرة بخبث : « واضح » . . وقالت نسرين : « بعد الحياة فى أمريكا ، تصعب الحياة هنا ، فالجو هنا كئيب ، والفراغ والملل يسيطران على الجميع! » فقالت سميرة موافقة : « وبالأخص نحن يا عزيزتى . لقد كتب على المرأة أن تعيش " محنطة " فى هذه البلاد ، هذا هو المطلوب من المرأة أن تكون هنا ، مجرد " أنثى " محنطة ! وعليك يا عزيزتى أن ترضى بهذا ! »

وقالت نسرين بجد : « لا ، لن أرضى بهذا ، أنا لم أعتد هذا ولن أعتاده ! » . . فقال فاروق مشجعاً : « نعم هذا ما يجب أن يحدث ، أن تثور المرأة على الوضع ، أن ترفضه . إن مجرد الشكوى لا يجدى شيئاً . يجب أن تتطلع المرأة إلى آفاق أوسع . إلى مجالات أكثر عمقاً واتساعاً ، عليها أن تفرض وجودها . أن ترتاد الأماكن والمحال العامة ، أن تنزل إلى ميادين العمل . أن تشارك الرجل فى كل مجالاته .. حتى السياسية منها » .. فقالت سميرة : « وهل قصرت المرأة فى ذلك ؟ » . . فتساءل بشار : « فيم الشكوى من وضع الأنثى المحنطة إذن ؟ »

تساءل فاروق بصوت فيه الكثير من الاتزان المنمق : « اين الصحفيات ؟ أين الكاتبات ؟ أين المرشدات الاجتماعيات ؟ أين الرسامات ؟ أين الأيدى الناعمة فى المصنع مثلا » ؟ . . فعلق بشار بسخرية : « إن وجد . . »

فأجاب فاروق بهدوء : « وعلى افتراض أنه موجود ، فهل تساهم المرأة فى الإنتاج ؟! » .. فقالت سميرة : « أوجد المصنع وسترى ! »

ابتسم فاروق بذكاء وأحنى رأسه كمن يقدم تحية ، ثم قال : « هذا جواب ذكى . ولكن ألا ترين أنه يتضمن شيئاً من اللف والدوران ؟ » .. فتساءلت سميرة : « ولم ؟ » . أجابها : « أنت تعرفين تماماً أن قيام المصنع

لايغير من الوضع شيئاً ! » فقالت سميرة بحماس :

— غريب قولك يا فاروق ، ألم تر ما فعلته الصناعة فى المجتمع الأوربى؟ لقد قلبته رأساً على عقب ، فنفسية الجماهير اختلفت وتطورت ، وكذلك المبادئ والنظريات والقيم الجديدة . حتى أنظمة الحكم اختلفت ، فالاشتراكية من أوجدها ؟ وأين نمت وترعرعت ؟ أليس فى الأجواء الصناعية ؟ وهذا الصراع الذى يشمل العالم ويهدد بحرب كونية قد تكون السبب فى دمار الكرة الأرضية بأسرها ، أليس صراعاً بين الاشتراكية والرأسمالية؟ والرأسمالية موجودة منذ الأزل ، فالظلم لم يكن مستحدثاً ، وقد عاصرت البشرية مختلف أنواع الاستغلال ، سواء الإقطاعية أو الرأسمالية أو حتى الإمبريالية . أقول إن الرأسمالية لم تكن مستحدثة يوماً ، لكن الاشتراكية كانت كذلك . والاشتراكية نبعت من المجتمع الصناعى . إذن فالصناعة هى السبب فى هذا التغيير الذى طرأ على العالم من كل ناحية . المرأة تغيرت ، أصبحت عاملا حيوياً فى كثرة الإنتاج وقلته . الرجل تغير ، أصبح أكثر مرونة وأقل عنجهية ، أصبح لا يجد مانعاً من الوقوف فى المطبخ ليغسل الأطباق . لم لا ، وامرأته تقف طوال اليوم وراء الآلة ، وفى آخر الشهر يتقاسمان أعباء وتكاليف الحياة التى لا تنى تتصاعد . . وهكذا ترى أن قيام المصنع يغير من الوضع كثيراً ، ولا يسعنى إلا أن أعود وأردد ثانية وبدون خوف من أن أتهم باللف والدوران : « أوجد المصنع . . وسترى ! »

بدت على فاروق لمحة من ضيق ، فهو خريج أكسفورد ، ويعرف من مفردات اللغة ما يعجز عنه المتخصصون ، وهناك أشعار « بايرون » تتردد بين شفتيه ببراعة وأناقة لاحد لهما ، وأخيراً وليس آخراً ، هو « رجل » فى مجتمع غير صناعى . كل ذلك يجعل من العار أن تتفوق عليه فتاة من عائلة فقيرة ، ومن مستوى علمى أقل من مستواه بكثير ، وبخاصة أن الشهادة التى حصل عليها كانت ثمرة دراسة دفع

تكاليفها والده الثرى ، أما الشهادة التى حصلت عليها سميرة ، فمن أموال الوكالة ، إذ أن سميرة كانت قد حصلت على بعثة نتيجة امتيازها فى امتحانات الدراسة الثانوية . وقال فاروق ، متحدياً : « على افتراض أننا قبلنا ما أدليت به ، فهل تظل المرأة العربية على حالها حتى قيام المصنع ؟ قد تقوم الساعة قبل قيام المصنع ! »

فردد بشار ، مصادقاً : « صدقت يا أخا العرب ، فهل تبقى المرأة على ما هى عليه فى انتظار رحمة الله والمصنع ؟ » . . وقالت سميرة بهدوء : « ومن قال إننا قاعدات ، أو " مقعدات " ؟ ! » .. فضحك بشار معلقاً : « حلوة " مقعدات " هذه ! » . . لكن سميرة واصلت كلامها ، وكأنها لم تسمع تعليقه : « أنا مثلا ، أتعرف أن أمى ما زالت ترتدى الزى القروى ؟ » . فتساءلت « نسرين » فى دهشة : « أملك أنت؟ »

ــ نعم أمى أنا . وهل فى ذلك غرابة ؟ بالطبع هذا ليس من شأنه أن يهبط من قيمة أمى ، ولكن العبرة تكمن فى أن امرأة قروية تلبس الزى الوطنى ، أنجبت من الأطفال عشراً ، وتزوجت وهى فى الثانية عشرة ، لها ابنة مثلى تحمل شهادة جامعية ، بلغت السادسة والعشرين ولما تتزوج بعد ، وإن تزوجت فلن يكون زوجها إلا رجلا يناسبها سناً وقلباً وقالباً ، وإن وَلَدَتْ فلن تلد من الورثة إلا بعدد المورثين !

قهقه بشار : «لكم حصلنا على أسرار بدون مقابل ! » . . فقالت بسخرية : «إن من تناقش الاشتراكية لا تتوقع مقابلا فورياً . الاشتراكية صبر ، بل هى قمة الصبر ، أليس كذلك يا أخا العرب ؟ » . . وابتسمت بتحد . . فظهر البرود الإنجليزى المعرب فى أجلى صوره وأروعها ، إذ قال فاروق بلهجة الأب الحانى : « أنت خطيرة يا ابنتى ! »

وبدا واضحاً ، للحظة ، أن نفوراً خفيفاً قد بدأ يأخذ طريقه إلى قلبى الشابين المثقفين . كانت هى ــ برغم كل الأفكار الثورية التى هضمتها والمبادئ العادلة التى آمنت بها ــ لا تزال تحس بشىء من

عدم الألفة تجاه أبناء الطبقة الموسرة . كانت تحقد عليهم فى يوم من الأيام ، وعندما كبرت وقرأت وفهمت ، أصبحت إنساناً أكثر ميلا للاعتدال ، ولأخذ الأمور بعين العقل والمنطق . ولكن ، وفى فترات كهذه ، يستثار الحقد الدفين ، وبالكثير من الصبر يتحول الحقد إلى عدم استلطاف ، ليس إلا .

وساد الصمت عند ما دخل عميلٌ المكتبة ، ووقف يحاسب البائع الذى يقف فى طرف القاعة وراء المنصة الطويلة ، بعد أن انتقى كتاباً من أحد الرفوف. وقالت نسرين : «هذا هو الزبون الأول منذ الصباح .. تصوروا ؟ » . . فعلق فاروق : « الناس فى هذه البلاد لا يعبأون بالأدب ! » وقالت سميرة : « الناس فى هذه البلاد لا يجدون ما يملأون به بطونهم ، فما بالك بعقولهم ؟ ! » . . فقال فاروق بلهجة حاول أن يجعلها ناعمة : « ليس إلى هذا الحد يا آنستى ! » . . فهزت رأسها بأسى ، وأردفت : « لن أجادلك فى هذا ، كل ما أطلبه منك هو زيارة إلى المخيمات فى يوم كهذا . ساعة واحدة فقط وبعدها ستحكم فيما إذا كان الأدب يعنى شيئاً بالنسبة لمن يملأ الوحل طرقاتهم وبيوتهم وعقولهم ! »

قالت نسرين بعجب أنيق : « أهنالك فقر فعلا ؟ » . ولم تجب سميرة ، بل استدارت بعينيها باشمئزاز وأخذت تراقب رفوف الكتب . فى حين قال فاروق متلطفاً : « سميرة فتاة حساسة أكثر من اللازم ، وعاطفية أيضاً » .. وفهمت سميرة قصده من الهدنة التى يحاول عقدها معها ، فابتسمت .. واستطرد هو : « أتذكرين يا سميرة ذلك الكتاب الذى ناقشته مرة فى النادى ؟ كان الموضوع شائقاً جداً . وكنت لبقة إلى أبعد حد . لقد أعجبنا جميعاً بالطريقة التى قدمت بها الكتاب » . . فقال بشار مؤيداً : « نعم ، كانت رائعة ! » . وتساءل فاروق : « ماذا كان عنوان الكتاب ؟ » . . فقالت سميرة بهدوء : « أثر الفن فى المجتمع » وعلق فاروق ، مصطنعاً الاهتمام : « نعم ، وقد ركزت حول دور الفن

فى تثقيف الجماهير . . فقالت سميرة باتزان : « وجهة نظرى أن الفن هو طليعة التقدم ، هو الذى يوحى به ويدل على أقصر الطرق إليه . إنه الرائد الذى يضع النظريات السباقة . خذ فولتير مثلا ، ألم يكن فولتير ــ وأمثاله ــ الممهدين للثورة الفرنسية ؟ »

وصمتت قليلا ، ثم قالت بأسف : «فعلا إنى آسفة لما حدث للنادى !» فتساءل بشار مفكراً : « لم لا نحاول فعل شىء من أجله ؟ » . وبادر فاروق إلى الإجابة : « حاولنا الكثير ولم نستطع » . . فقالت نسرين : « افتتحوا ناديا آخر ، بدلا منه ! »

ــ غير ممكن .

ــ لماذا ؟

ــ لأنه سيزدان بالشمع الأحمر هو الآخر .

ــ حتى ولو كان نادياً « فنيًّا » ، بدلا من ناد « ثقافى » ؟

طرق فاروق المنضدة بغليونه بجد وقال : «هذه فكرة معقولة : ناد فنى ، ولم لا ؟ » . . وأخذ يطقطق حافة المنضدة بغليونه ، كمن يفكر فى أمر خطير ! . . ثم قال بعد تأمل : « هذا المكان يصلح لأن يكون نادياً ، بقاعة الكتب هذه ، والمدخل الجميل ، والحديقة بأشجارها الضخمة ، ثم السرو الذى يحيط بها إحاطة السوار بالمعصم ، فيحمى المكان من تلصصات العيون الفضولية . . » ثم صمت وأخذ يحدق فى وجه « نسرين » كمن يحثها على التفكير «» . . فقالت نسرين باسمة : « لكنه الآن مكتبة » . . فقال مفكراً : « هذا صحيح ، ولكن باستطاعة أختك مساعدتنا إن هى أرادت ذلك ! » . . فتساءلت نسرين : « ماذا تقصد ؟ » . . قال ملمحاً : « تلك القاعة التى تستعمل لعرض الأفلام الثقافية » . . . فهتف بشار محرضاً : « فعلا ، فهى لا تستغل إلا مرة كل أسبوعين . ثم إن لها باباً خارجيًّا يطل على الحديقة ، دون حاجة لتخطى قاعة المكتبة ! »

هزت نسرين رأسها فى حيرة ، وتمتمت بحرج : « لا أدرى » . . فقال بشار بحماس : « هذه فكرة رائعة ، ولا أعتقد أن أختك ستعارضها » . . فقالت نسرين بارتباك : « لا أدرى ، ولكنى أعتقد أن سامية ميالة للهدوء . ثم إن النادى لا بد وأن يشتمل على مزايا خاصة ، فهل ستقنعكم القاعة ؟ » . فردد بشار بحرارة : « ستقنع أبانا ، فهل تسمحين لنا باستغلالها ؟ » . . فقال فاروق وهو يمد يده موقفاً تيار الحماسة : « المسألة لم تصل بعد إليها ، نحن مازلنا فى محاولة مبدئية لبحث الموضوع من شتى أطرافه ، ولم ننته من الطرف الأول ، ألا وهو صاحبة المكان ! » فقالت نسرين : « وصاحبة المكان تقبع هناك ، ما من دخل لى بالموضوع ، فغداً إذا حصل مالا يرضيها قد تتهمنى بأنى كنت السبب ! »

والتفتوا ناحية المكتب الزجاجى ، ورأوا سامية من خلال فجوات القاطع الخشبى منكبة على دفاترها وأوراقها . فقال بشار فى حيرة : « أتظنونها تقبل ؟ » . . فتساءل فاروق : « ولم لا ؟ نحن لن نكلفها أكثر من طاقتها . كل ما نطلبه هو أن تسمح لنا باستعمال المكتبة من الساعة الخامسة مساء حتى التاسعة . أما بشأن الأثاث ، فسيتبرع كل واحد منا بشىء ما . ومن ناحيتى أنا ، أعدكم بمنضدة خضراء ومضربين وكرة ! » . . صاح بشار : « وكرة ! يا سلام ! أترين يا نسرين : سيتبرع حتى بالكرة . . حتى الكرة ! »

وقهقهوا ، لكن سميرة أطلقت سؤالا أوقف الفرحة بالفكرة ، إذ تساءلت : « وماذا عن الشمع الأحمر ؟ » ، فضرب بشار المنضدة بيده وصاح : « صحيح . . ماذا عن الشمع الأحمر ؟ هيا فكر يا أخا العرب ! » . . وأخذ فاروق يحدق فى الوجوه الثلاثة طالباً النجدة ! . . فى حين قالت سميرة : « لن نسميه نادياً ، بل مكتبة . » . . فتساءل بشار : « كيف هذا ؟ وماذا كنا نخطط منذ ساعة ؟ » . فالتفت

إليه فاروق وقال بسخرية : « افهم يا أخانا : الفتاة تقول لك بأنه مكتبة . وفى المكتبة يجتمع المثقفون ويطالع المثقفون ويناقش المثقفون . . » فقالت نسرين ضاحكة : « . . ويلعب المثقفون ، ويرقص المثقفون ، ويرسمون وينحتون ويمثلون . . » . . فالتفت فاروق إلى بشار وأكمل بخبث : « . . ويتباله المثقفون ! »

وقهقهوا . ومن خلال الضحكات انطلق نداء مهلل : « إيفيت ! . . هالو ! » . . ودخلت إيفيت الجميلة ، برفقة زوجها شكرى ، وكانت ملتفة بالصوف من رأسها حتى اخمص قدميها . . وصاحت بمرح : « ما هذا ! أصواتكم وصلتنا ونحن فى الشارع ! » . . فعلق فاروق : « وبالمناسبة ، فإن قاعة نادينا ستكون بعيدة عن الشارع ، وبذلك لن تصل أصواتنا للمارة ! » . . فردد بشار مصادقا : « فعلا . . فنادينا سيكون ناديا محترماً » .

وتساءلت إيفيت : « أى ناد ؟ » . . فأخذ فاروق بطريقته الأنيقة المنمقة يشرح لها كيف نبتت الفكرة . وكيف أينعت الفكرة . وكيف أنهم فى سبيلهم لحصاد ثمار الفكرة ! . . وغردت إيفيت ، وزقزقت نسرين ، واستعمل فاروق بعضاً من مفردات معجمه الفذ ، محاولا إظهار طاقته الهائلة على التفكير السليم والتخطيط الصائب الخلاق ، وكانت إيفيت تردد بفرح هائل كاد يبكيها : " Wonderful .. Great .. Great .. " وأخذ الجميع يحلمون بالنشاطات التى سيقومون بها. فاقترح فاروق إقامة مسرح شكسبيرى ، فهو على استعداد لانتقاء مسرحية تثير ذهول مثقفى المدينة ، وهو أيضاً على استعداد للقيام بدور البطولة ، ثم إنه سيخرجها ، فما رأى المجموعة فى كل هذه التضحيات ؟

ومرة أخرى ، غردت إيفيت ، وزقزقت نسرين ، وهللت سميرة . وقال بشار إنه سينشئ فريقاً لكرة السلة ، وسيكون الملعب فى الساحة الخلفية ، وسيتكفل بإقامة المواسير والقوائم وتركيب السلال . وغردت

إيفيت ، وزقزقت نسرين ، وهللت سميرة . وقال فاروق : « أما الرقص والدبكة والفنون الفولكلورية فمن اختصاص الجنس اللطيف . ولكن ما بالكم نسيتم مواهب شكرى ! ؟ » . . فصاحت إيفيت : « البيانو ! » . . فابتسم شكرى وقال : « أنا على استعداد ، ولكن من أين نأتى بالبيانو ؟ » فقال بشار : « اسمع يا أخ . هذا ناد اشتراكى ، يعنى أن على الجميع أن يشتركوا فى التحضير له والإشراف عليه . وما دام اختصاصك سيكون البيانو ، فأنت المسئول عن تدبيره . » . . فصاحت إيفيت : « لكن البيانو باهظ الثمن ! » . . فقال شكرى بكبرياء : « ولا يهمك ، سندبر المسألة » . . وتدخلت سميرة ، من خلال الزوبعة الضاحكة : « لا تحلموا كثيراً ، أجلوا كل هذا إلى ما بعد موافقة صاحبة المكان ! » . ورددت نسرين موافقة . . فهبّ بشار واقفاً ، بهوجائيته المعهودة ، وقال : « هيا إذن ! » . . لكن فاروق جذبه من ذراعه مستمهلا ، وأفهمه بأن طريقته هذه فى التصرف والكلام قد تنفر سامية من المشروع ، وأن عليه أن يلتزم الصمت ، حين يأخذ « هو » فى سرد التفاصيل وعرض المسألة بطريقته الأنيقة المتزنة . واقتنع بشار ، ووافقت المجموعة . . وأخذوا يخططون !

وقال فاروق متفلسفاً : « المسألة بحاجة للتخطيط . . ماذا تظنها ياعزيزى ؟ » . وأخذ ورقة وقلماً ، ووضع نقاطاً ، وفندها وفصلها ، ووضع رسوماً ، وحسب التكاليف والتبرعات التى تعهد بها الموجودون حتى الآن . . إلخ . وأخيراً وبعد كل ذلك وقفوا بجلال المقدم على معركة حاسمة تكلفه حياته ومستقبله. وتقدمتهم نسرين نحو المكتبة !

* * *

قال فاروق لسامية بعد الكثير من اللف والدوران واستعمال بلاغته واستعراض بعض مواهبه ، بما فيها خفة ظله : « كنا نثق بأنك من طليعة هذه الأمة . كيف لا وقد كنت عضواً فى النادى الثقافى يوماً ،

وقد كنت ركيزة من ركائز نشاطه ؟ ! » . . فقالت سامية مبتسمة : « كان ذلك فيما مضى ، يوم كنا صغاراً ! » . . فصاح بشار متعجباً : « ماذا تقولين ؟ وما أنت الآن ؟ أقسم بالله العظيم أنى نسيت من منكما الأكبر : أنت أم نسرين ! » . . فقالت نسرين بتواطؤ المتذلف الذى يبتغي نيل شيء مقابل نفاقه : « حتى أنا نسيت ، أقسم أنى نسيت من فينا الأكبر ! » . . وأخذوا يضحكون .

ثم أخرج فاروق عريضة رسوماته وعرضها على أنظار سامية ، مع الكثير من الاحترام والإعجاب بشخصها الكريم وثقافتها التى تكاد تبذ ثقافته هو شخصياً ! . . وبعد الكثير من الوقت ، والكثير من الجد والهزل والافتراضات والاحتمالات ، السيئ منها والحسن ، وافقت سامية على السماح لهم باستعمال قاعة السينما ثلاث مرات فى الأسبوع ، ولمدة لا تزيد على أربع ساعات فى اليوم . . ثم التفتت إلى بشار وقالت : « أما بالنسبة للساحة الخلفية ، وكرة السلة والقوائم والمواسير ، فأظن أن هذا سابق لأوانه . أنت تعرف الظروف السياسية التى نمر بها ، وما من داع لفتح أعين الشرطة . إنى موافقة تماماً على وجوب وجود مكان يجمع النخبة فى هذه المدينة ، ولكن بشرط ألا يكون نادياً عاماً ، ثم ألا يكون نادياً إلا بالفعل ، أما اسماً ، فهو مكتبة ، ثم ألا يدخل فى عضويته إلا من أوافق عليه أولا ! »

. . والتفتت للوجوه المتلهفة ، واستطردت : « اعذرونى إن أنا صممت على وجوب معرفة الأشخاص الذين يدخلون المكان الذى يعتبر مكانى أولا وأخيراً ، أم ترانى مخطئة ؟ » . . فصاح بشار : « أبداً . . أبداً . . من يجرؤ على أن يزعم ذلك ؟ » . . فى حين واصلت سامية : « أى أننى سأكون المسئولة عن كل ما يحدث فيه ! ؟ » . . فقالت سميرة : « طالما أنك وافقت مبدئياً على أننا أهل لاستغلال القاعة ، فهذا يعنى أنك تثقين بنا ؟ » . قالت سامية : « طبعاً » . فعاودت سميرة :

« إذن ، فما دمت قد شرفتنا بثقتك ، فلم لا تكملين المعروف ؟ » .
فسألت سامية : « أى معروف ؟ » .

— ألا يكون الحكم على الأشخاص رهن مشيئة شخص واحد . نحن فى عصر اشتراكى .. ولابد من تطبيق الاشتراكية والديمقراطية .

فقالت إيفيت لسميرة ، متأففة : « ألا تكفين عن إدخال السياسة فى كل جزئيات حياتنا ! ؟ » .. فأجابتها سميرة ، بصوفية أو ما يشبه الصوفية : « نخطئ إذا ظننا أن السياسة ليست المرادف الثانى لكلمة « حياتنا » ! » . . فقالت إيفيت بتبرم : « حياتك وحدك . أما نحن فلا ! » . . فابتسمت سميرة بسخرية وقالت : « صحيح ، كيف نسيت هذا ؟ السياسة للاجئين أمثالى فقط ، لمن ذاقوا التشرد وجربوا النوم تحت الخيام ، أما أنتم أبناء النعمة فلكم عطاء الله ، وأما نحن فعلينا رحمة الله ! »

استدارت إيفيت بوجهها وقالت متمتمة : « لا تنفك تذكرنا بخيمة عاشت فيها بضع سنوات ! » . . فقالت سميرة ساخرة : « وهل كان باستطاعتك العيش فيها بضعة أيام ؟ » . . فصاح بشار : « ما هذا ! أتريدون أن تقلبوها مأتماً ؟ » . . فقالت إيفيت : « سلها هى ، فهى التى أخرجتنا عن موضوعنا ! » . . فقالت سميرة ، جادة : « كنت أقول إننا طالما نلنا ثقة السيدة سامية ، فلا مانع من إشراكنا فى تحمل بعض المسئوليات ، وأنه يكون من الأفضل أن تكون عضوية النادى غير معلقة بإرادة فرد واحد : أولا لأنى ضد الأحكام الفردية . وثانياً لأن الأحكام الفردية تكون عرضة للخطأ أكثر من الأحكام الجماعية ! »

تمتمت إيفيت بغيظ : « يا سلام عليك يا سميرة ! » . . وتظاهرت سميرة بعدم السماع ، فواصلت كلامها : « لم لا نؤلف مجلساً يضم مجموعتنا ، تعرض عليه المشروعات التى تقترح ، ويؤخذ القرار بالتصويت ؟ » .

فقالت سامية : « ولكن ألا ترين أنى سأكون المسئولة الوحيدة عن أية خسارة تنال المكان ؟ » . . فأجابت سميرة : « ولم نفترض أنها خسارة ؟ إن قيام نشاط كهذا فى مكتبتك سيزيد من كمية المبيعات . وطالما أن الرواد سيكونون من المثقفين ، فسوف تكون الكتب زادهم الأساسى ! » .

وازنت سامية الفكرة من الناحية التجارية ، فلم تملك أن ابتسمت معلقة : « هذا صحيح » . . فقال لها فاروق : « أترين يا سيدتى الجميلة ؟ نحن لا نفكر إلا فى المشروعات المجدية ! » . . فضحكت سامية وقالت : « حسنا ، أوافق على إقامة المجلس ، بشرط أن تكون لى فيه صلاحيات خاصة ! »

وإذ تساءلوا عن قصدها ، أجابت : « حق استعمال الفيتو ! » . وأرادت سميرة فتح فمها ، فأوقفتها لكزة تلقتها من نسرين التى همست لها : « لا تفسدى الموضوع ! »

وغردت إيفيت ، وزقزقت نسرين ، وهللت سميرة . . حين دعاهم فاروق للغداء فى أحد المطاعم الفخمة ، احتفالا بالمناسبة السعيدة . واعتذرت سامية ، بينما غادرت المجموعة الشابة المكان . وقالت نسرين وهم يجلسون فى سيارة فاروق الضخمة : « لم لا نتناول الطعام على شاطئ البحر فى ( أريحا ) ؟ وسيكون بإمكاننا مشاهدة المعرض المقام فى فندق البحر الميت ؟ » . . فصاح بشار مهللا للفكرة الجهنمية ، بينما انطلقت السيارة فى طريقها إلى ( أريحا ) !

## ٣

عندما تستبد الوحدة بالمرأة ، ترتمى فى أحضان الذكريات ، تسترجع الماضى : الأيام السعيدة منه ، والوجوه التى كانت السبب فى تلك السعادة . . وعندما يطل ذاك الطيف الأليف الوديع ، يعود حاملا معه كل الأحاسيس المرهفة التى طفح بها القلب يوما : كل الحنان ، كل الدفء والتحليق فى سموات شفافة الزرقة . وتهيم المرأة حبًّا ، ربما لذكرى

الحب ، وليس لمن كان السبب فيه ! . . وتبيت الذكريات أكثر إثارة من الواقع نفسه ، فتنغمس فيها وتمعن فى الانغماس ، علها تنسى برودة الحاضر ، وظلام المستقبل !

كانت سامية تسير فى الشارع الموصل لمنزلها ، وحيدة ، فالمكتبة تغلق أبوابها فى الواحدة ظهراً ، وأختها ذهبت مع المجموعة الضاحكة . . أما هى فما من ملجأ لها ، سوى استرجاع الماضى ونبش الذكريات !

كانت الأرض ما تزال مبتلة بماء المطر ، وبرك صغيرة تملأ الشقوق والحفر ، والسماء لا تزال تتوعد بالكثير من السيول . وتوقفت سامية بجانب حديقة أحد البيوت الحجرية البيضاء ، وكانت هناك نباتات كثيفة ترتمى متعانقة على حافة السور . وقد انبثقت من وسط خضرتها الداكنة المبتلة زهيرات صفراء ، تحيط بها أهلة ليلكية . توقفت أمام الزهيرات تحدق فيها . وكانت حساسيتها تتكثف ، وتتكثف . أصبح من المستحيل احتضان كل تلك الكثافة داخل جسد محدود الطاقات ، ضيق الاتساع . وشعرت بنفسها كما لو كانت وشاحا عريضاً ، نسيجه ريش ، ولونه ضباب ، تعابثه العواصف وتلويه الرياح . والرهافة تزداد ، والشجن ينضح ، والحنين إلى الماضى يتضخم ، والشوق المستحيل لذاك الوجه الحزين الذى يحمله أعز إنسان كان يتمدد ويتمدد . . . كان صديقاً . . كان حباً . .

وطغى على كيانها فيضان داخلى غمرها بالذهول ، والحزن العميق ، فأخذت تئن تحت وطأة الوحشة والعذاب ! . . لم لا تموت ؟ فماذا تعنيه الحياة سوى الهرب ، والوحشة ، والمرارة ؟ ! لقد فقدته ، وبذلك فقدت إحساسها بالحياة ، وارتباطها بها . وهو لا يعرف أنها خانت نفسها أكثر مما خانته ، وأنها مذ بعدت عنه بعدت عن ذاتها . فكل الأشياء أصبحت تافهة : الألوان أصبحت كالحة ، الطبيعة ما عادت جميلة ، وهى كذلك ما عادت جميلة . . والحياة أصبحت عبارة عن درب أسود كئيب .

إنها تعرف ما هى بحاجة إليه ، تعرف أنها بحاجة لرجل . الرجل فى نظرها لا يعنى « ذكراً » ، يغرقها بالجنس واللذة . الرجل فى نظرها عبارة عن إنسان كبير ، له ذراعان تستطيعان احتضان الكرة الأرضية بأكملها ، له دماغ يستوعب الحزن ، ويعرف من أين يأتى وكيف يذهب . له عينان فيهما حنان الملائكة وشفافية الإله . . وما من رجل له كل ذلك سواه . . سواه !

وغمر وجنتيها سيل من الدموع . .

لقد حاولت البحث عن رجل . لم تكن تؤمن بأن للرجل من الحق فى الحياة أكثر مما لها ، وقد حاولت البحث عن الحياة من خلال الجنس ، عدة مرات ، وكل مرة انتهت إلى هزيمة ، فما كان الجنس يثير فى نفسها سوى حاجة ملحّة للتقيؤ . وكل هؤلاء الرجال الذين عرفتهم فى أمريكا بعد وفاة زوجها كانوا سحالى باردة رخوة ، لا يبعثون فى النفس سوى الخوف والمرض ! ... أهى عقدة المرأة الشرقية التى ما فتحت أذنيها إلا لتسمع بأن الجنس خطيئة محرمة ؟ .. أهى التفاهة التى يغرق فيها الرجال الذين قابلتهم ؟ . . أهى ذكرى عبد الرحمن ؟

من يستطيع أن يعرف ؟ هى نفسها لا تعرف !

وغمر فؤادها وجد حاد مفرط التوهج ، فأخذت تتمتم بهوس : « عبد الرحمن ! . . عبد الرحمن ! . . عبد الرحمن ! »

* * *

كان عبد الرحمن يجلس تحت مظلة تقبع فوق منضدة مستديرة ، غرزت أرجلها فى الرمل ، وقد جلست قبالته زميلته الرسامة السورية « سهى بركات » . كان البحر الميت يمتد أمام ناظريهما ، والشمس ترش وجهه بقصاصات فضية متألقة . . وقالت « سهى » ، فى محاولة فاشلة لافتتاح موضوع للحديث : « أتظن بأن الألم هو الذى يخلق الفنان ؟ » . . فرفع إليها نظرة ساهمة ، كمن لم يفهم السؤال . . وقالت

محاولة التوضيح : « فى مقالك الأخير ، قلت إن الألم هو الذى خلق معظم الخالدين ! » . . فقال باقتضاب : « أعتقد ذلك . » . . فقالت باسمة : « الحزن أصبح موضة الفنانين و" تقليعتهم " . أصبح ادعاء أكثر منه إحساساً ! » .

قال بلا مبالاة : « ربما » . . فقالت مستدرجة : « أوردت أمثلة عن" تولوزلوتريك " و"فان جوخ " و"جويا " ، ونسيت "بتهوفن" ! » . . قال بملل : « كنت أستعرض حيوات الرسامين لا الموسيقيين » . . فقالت بعجب : « وما الفرق بين فن وآخر ! ألم تقصد الفنان على وجه العموم ؟ » . . قال بصبر : « هذا صحيح ، ولكنى ما طرقت سوى أبواب الرسامين . كنت أحاول إقامة وجه للمقارنة بين أعمالهم . ولو كنت أدخلت بتهوفن لوجب أن يصبح المقال مقالين . » . . تساءلت : « تقصد أنه كان يصبح طويلا ! ؟ » . . قال بدون اهتمام : « بل يصبح متشعباً » .

وأشعل سيجارة ، وأخذ يرقب البحر من خلال عدسات نظارته . . وأخذت هى تتأمله . كانت ممن يجدن سحراً خاصًّا فى رجل يضع نظارات طبية لها إطارات سوداء . وكان الشيب الذى جعل من شعره رماداً يثير فى نفسها رهبة ، وفى قلبها تحفزاً ، وفى أحاسيسها إثارة . لم يكن ضخم الجثة ، لكنه ضخم الشخصية . كان إذا تحدث سكت الآخرون ، وإذا كتب ناقش النقاد ، وإذا رسم امتلأت الصالات . وكان إعجابها به يزداد . وكانت ترى فى وجودها معه فى معرض واحد إحدى تلك الفرص التى لا يمنحها القدر إلا مرات قلائل فى العمر !

وكان عبد الرحمن يجد فيها رسامة موهوبة ، وفتاة جميلة ، ونفسية غريبة . كانت تعجبه ، لكنه لم يكن على استعداد لإقامة علاقة صادقة معها ، أو مع أى امرأة أخرى . كان يعتقد بأن الحب نوع من الاستعباد ، نوع من « الذل » هو فى غنى عنه ! ثم إنه ما من

امرأة تستحق أن تنال قلبه وفكره . لقد أحب مرة ، وتركته حبيبته حين كان فى أمس الحاجة إليها . تركته وراء التضبان وتزوجت ثرياً مغترباً طارت معه إلى أمريكا . . ولا بد أنها كانت فى بحر من السعادة حين كان هو فى أعمق أعماق الشقاء ! . . حسناً ، إن كانت هذه هى طبيعة المرأة ، فما من داع لدخولها حياته ثانية . واحتياجات الجسد قد تلبى ، فالمعجبات كثيرات ، وهو لا يحاول الاصطياد . كل ما عليه هو أن يلبى دعوة ملحة متشوقة !

قالت « سهى » وهى تنهض : « ألن نأخذ قسطا من الراحة ؟ أشعر بالنعاس يغلبنى على أمرى ، وأنا أفضل أن أرتاح قليلا قبل افتتاح الصالة عصراً » . . وقام واقفاً ، وسارا معاً على الرمل ببطء . لم تشأ فرض حديثها عليه بعد أن وجدته غير ميال للكلام . . ودخلا الفندق الضخم ، وأخذا يصعدان الدرجات المغطاة بالسجاد الأخضر ، صامتين . . وعندما وصلت إلى باب غرفتها ألقى إليها بتحية مهذبة ومشى قاصداً غرفته .

وخطر لها خاطر جرىء : « لو أنه دخل غرفتى ؟ ! . أتمنى أن أعرف كيف يمارس الحب ، وبأية نفسية ! . . يعجبنى شكله ، وأظننى سأشتهيه بعنف أكثر إذا واصلت التحديق فى وجهه ، وتتبع حركاته ، والاهتمام بخصوصياته . يبدو بارداً ، ولكنه لو كان كذلك لما أنتج تلك اللوحة الصاخبة التى أطلق عليها اسم ( لحظة حب ) ! . . لوحة مثيرة . . ومما لا شك فيه أنه قد مر بتلك اللحظة . . شىء مضحك ! وكيف أفترض بأن رجلا مثله لم يمر بلحظة حب ! . . ألوان " لحظته " تلك غريبة ، فقد استعمل ألواناً تثير الذهول الممزوج بالدهشة . كنت أعتقد بأن اللون الأحمر هو الذى يستعمل فى رسم لوحة كهذه ، أما هو فقد استعمل الأصفر ، على خلفية برتقالية متوهجة ، فظهرت اللوحة كقطعة من الشمس ، أو برتقالة ناضجة ، بل زهرة عباد الشمس

الغجرية الألوان المتعالية الرأس . إنه يبدو متأثراً بأسلوب فان جوخ ، بيدأن خطوطه أكثر مرونة وليونة. "لحظته" تلك فيها مزيج من الوحشية واللطف ، مزيج من العنف والرقة ، من السعادة والألم . ترى ، هل مر بهذه اللحظة ، أم أنه يحلم بها ؟ »

ووقفت أمام المرآة تتأمل صورتها ، وعلى شفتيها الجريئتين ابتسامة ماكرة . كان شعرها الأسود الأملس ينحدر خيوطا حريرية سوداء ، مغطياً كتفيها ونهديها . أما نهداها فكانا قبتين شامختين ، فى قدسية وأصالة . . « ما زلت فتاة . . باباً مغلقاً . .أرضاً بوراً . لوحة لم ترسم بعد ! . وأنا فى الانتظار ، انتظار الطارق الجرىء ، الفلاح المعطاء ، الرسام المبدع . وهذه البلاد لا تحتوى إلا رجالا يحلمون بإناث يحبلن ويلدن ، ويحشين ورق العنب ! » .

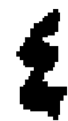
وابتسمت بسخرية . . « على أن أختار : بين عبودية الفن ، وعبودية الرجل ! والفن عبودية تقود إلى الحرية ، أما عبودية الرجل فمذلة وانكسار .وقد اخترت طريقى ولن أحيد عنه . قد أجد الحب يوماً ، ولكنى لن آخذه إلا من إنسان يعرف من أنا ، وما وظيفتى ، ولم خلقت! . . ولا ينتظر منى مولوداً كل سنة ، ويقعدنى مشلولة عن التفكير والحركة ، بانتظار رجوعه البيت حاملا صلعته وبطيخته ! » .

وقهقهت بصوتها العريض قهقهة غريبة ، وكانت تدور فى أنحاء الغرفة عارية ، رغم برودة الجو ، ثم انسلت تحت غطاء السرير الأبيض ، وأخذت تدلك صدرها بيدها ، وتحرك قدمها طلباً للدفء . « أحب البطيخ فى الصيف ، وإذا لم يحمله ذاك الرجل فسأضطر لحمله أنا . ما أسخفنى ! . . أفكر كالمراهقات ، أو ربما كالأغبياء . وقد أكون غبية . . لكننى لست غبية ! »

كان شعرها مفروشاً على الوسادة خلف رأسها ، وعندما استدارت على جانبها الأيمن سقطت خصلة باردة على ظهرها ، فأخذت ترتجف

ببطء ، وعادت تدلك صدرها بيدها . « ورغم جمالى فهو لا يأبه لى ، ولا يحاول استغلال المواقف . . أهو التهذيب ، أم الكبرياء ؟ . . يقولون إنى مثيرة ، يظنون أن الجمال الملموس هو مصدر الجاذبية ، أما أنا فأقول إن الإحساس هو المصدر . فما معنى أن تكون المرأة جميلة ومتبلدة؟ تكون كالدمية ، ويكون وجهها كالقناع ، وأطرافها باردة كمقابض الأبواب ؟ ! .. وطريقة التفكير لها أثر كذلك ، فأنا أومن بالذبذبات التى يطلقها العقل ، كما تطلق محطة الإرسال بها . فمثلا عندما أرى رجلا يعجبنى ، أحس بهذا فوراً ، ولا أعبأ بإخفاء ما أحس به . قد لا أفصح ، ولكننى أحس وأفكر ، وتبدأ أحاسيسى بإرسال ذبذبتها ، وعقلى يبث موجاته . وقد تلتمع عيناى ببريق متحفز ، وقد يكتسى وجهى بمظهر متألق ، وقد ترن فى صوتى نبرة مثيرة ،ا وهنا تكمن جاذبية المرأة !

« وعندما أتمنى النوم على ساعد رجل ، أعترف لنفسى بهذا ، ولا أكذب عليها كما تفعل النساء فى بلدى ! وقد يكون هذا عاملا من عوامل الإثارة . ولو كان الأمر كذلك ، فكل النساء مثيرات ، لأنهن يحلمن كما أحلم ، ويشتهين كما أشتهى ، ولكنهن كاذبات منافقات . أما أنا فصادقة وصريحة ، فما وجه العيب فى أن أتمنى رجلا ؟ أليست هذه سنة الطبيعة ؟ ولماذا يحق للرجل أن يشتهينى ولا يحق لى أن أشتهيه ؟ ألأنهم قالوا بأن ذلك « عيب » ؟ . . أنا لا أعترف بصواب أحكامهم ولا بأصالة تصرفاتهم ، ولذا ، فأنا أتمنى وأشتهى وأحب كما يحلو لى ، ولهذا السبب أيضاً ، فأنا مثيرة بشكل غير عادى كما يدعون ، فى حين أننى لاأمثل إلا عينة صادقة من بنات جنسى . . . » . . ونامت وهى تحلم بطارق الباب المغلق . . بالفلاح المعطاء . . وبالرسام المبدع . . فقد كانت فى الانتظار !


٤

فى أحد أركان الصالة الضخمة ، وقفت المجموعة الضاحكة تتأمل اللوحات ، وتعلق على « ما » فى الصالة بقدر ما تعلق على « من » فيها ! ..

كانت النساء يرتدين أجمل فساتينهن ، ومما لاشك فيه أن مدام «بتيت باري » قد باعت أثمن أزيائها بهذه المناسبة السعيدة . وصالونات التجميل كانت تباع مواعيدها فى السوق السوداء ، وربما كانت لا تزال بعض النسوة ينتظرن رحمة الله « والسشوار » فى صالون « شكوكو » حيث تصفف « إيفيت » شعرها . وربما أقفلت أبواب المعرض قبل إقفال أبواب حلاقى النساء ! . . ولكن لا بأس ، فالليل طويل ، والنوادى كثيرة ، وساحات الرقص فى الفنادق الفخمة تمتلىء حتى الفجر ، فموسم الأعياد على الأبواب ، والسياحة هذا العام شملت حتى بعض أجزاء أوربا الشرقية . وفى العامين المنصرمين ، ١٩٦٤ و ١٩٦٥ ، كانت السياحة قد وصلت إلى قمة مجدها ، حتى إن ثلاثة فنادق أو أربعة ضخمة أقيمت فى مدينة القدس وحدها . وقد امتدت حركة البناء حتى شملت ( رام الله ) و ( أريحا ) و ( بيت لحم ) وبقية المناطق السياحية .

وانعكس ضوء الثريات الكريستالية على السجاد الأخضر المحلى برسوم ذهبية . ومن الواجهة الزجاجية العريضة المطلة على مياه البحر ، ظهرت السماء متلبدة ، والغيوم رمادية وداكنة ، وعلى سطح الماء انعكست بعض حمرة أطلقتها الشمس المنسحبة بهدوء وسلام . وبدأت قطرات قليلة من المطر فى التساقط على وجه البحر الساكن ، عديم الموج والزبد :

تلفتت « إيفيت » حواليها بضيق ، وأخذت ترمق أناقة السيدات بغيظ وحسرة . لم تكن قد أعدت عدتها من أجل هذه المناسبة . فجاءت بملابسها الصباحية وتسريحتها العادية ، وهذا لا يناسب الجو الحالى ، ثم إنها كانت بانتظار مناسبة كهذه لترتدى فستانها المخملى المطرز بأسلاك الفضة واللؤلؤ . . فكيف غاب عن بالها هذا الموقف ! !

ومرت أمامهم سيدة ترتدى ثوباً حريرياً بأكمام فضفاضة ، ومن تحته ظهر سروال عريض الساقين ، وقد زينت حوافه بحبات من اللؤلؤ . وكان شعرها مرفوعاً إلى أعلى ، تكاد تبتعد قمته عن جبهتها بما لا يقل

عن شبرين كاملين . ورمقتها إيفيت بخيبة ، وتحسست شعرها بقلق واضطراب ، وتنهدت بصمت . . فى حين قال فاروق بإعجاب : « ياللإبداع ، هذه أبدع لوحة فى المعرض! » . . وقالت سميرة بإصرار : « بل إن لوحة "البؤساء" هى أروع ما فيه ! » . . فاستدار فاروق ، ورأى إيفيت تقف بجانب الزجاج وإلى جانبها إناء فخارى مما يستعمل للزراعة المنزلية ، وقد تفرعت أغصان النخلة الصغيرة ، فاصلة إيفيت عن المجموعة . وكان باستطاعته أن يمد رأسه من خلال أكف النخلة ويحدثها ، دون أن يلفت نظر أحد إليه ، فقال وهو يمد رأسه من خلال النخلة : « ما رأى إيفيت فيما ترى ؟ » . قالت متمتمة : « لم أكن أعتقد بأن مستوى الأناقة سيكون عالياً بهذا الشكل ! » . قال باسماً : « الجمال عندى أثمن من الأناقة ! » . وكانت فى صوته رنة غامضة . وكان للجملة وقع جميل فى نفسها ، وقد اعتبرت قوله هذا مجاملة لطيفة ، فهو يقصد أشياء تفهمها حتى ولو لم تستطع تفسيرها . قال بلطف شديد : « أى لوحة أعجبتك ؟ » قالت بصوت يغالبه عدم الثقة : «تعجبنى "لحظة حب" . » . . وكان « بشار » يهتف للمجموعة ضاحكا : « أنا معجب بكل ما أرى ، وخاصة بالعنصر النسائى. أما بشأن الفن ، فأنا أفضل الفن اللطيف! » . . وانفلت من بينهم متجهاً ناحية الزاوية التى تعرض فيها لوحات « سهى بركات » . . وتساءل فاروق بينما كان شكرى يناقش سميرة حول لوحة البؤساء : « هل أعجبتك "لحظة حب"؟ » ، فابتسمت سميرة بانطباع يشبه الخجل وقالت : « إنها مثيرة فعلا . ألا ترى ذلك ؟ » . فابتسم برقة وقال : « فعلا ، وأظننا نلتقى فى كثير من ميولنا » . قالت وهى تحمر : « وأنا أعتقد ذلك » .

استرق فاروق نظرة لظهر شكرى الطيب القلب ، وعاد يقول محاولا الإيماء لإيفيت بأشياء يقصدها ولكنه يخفيها : « أتعرفين أن كلا منا اختار اللوحة التى تناسب نفسيته ؟ » .. وهنا علت وجهها حمرة مفاجئة ! وادعى هو عدم ملاحظة ذلك ، فاسترسل : « عبد الرحمن ليس فنانا

فحسب ، بل هو عالم نفسى ! » . . واستدار بظهره لظهر شكرى الذى كان لايزال يناقش "البؤساء" ! . . وقال فاروق وأسنانه تطبق على طرف غليونه الذى كانت رائحة تبغه تثير فى إيفيت أحاسيس ساذجة لا تنتاب إلا فتاة أصغر من أن تكون مراهقة : « لو كنت عبد الرحمن لما اتخذت سواك نموذجا ! » . . فاصطخب وجهها بانفعالات غريرة ، وأرخت أجفانها بحركة ساحرة . أما هو فأخذ يتأمل فمها القرمزى الصغير ذا الشفتين الممتلئتين ، وأنفها الدقيق الذى تنتهى استقامته بفتحتين صغيرتين جداً . وكانت ذات بشرة ناصعة البياض مشوبة بالحمرة ، وعيون شديدة الزرقة ، أما جسمها الممتلئ ، ففيه تعاريج وانحناءات بالغة الإثارة !

وكانت ترفع عينيها ، فتجد « فاروق » ما زال محدقاً فى وجهها ، متخذاً وضعاً رومانتيكياً . . العينان شبه مغلقتين ، والفم يمتص طرف الغليون موحياً بشتى الإيماءات ، ويده تحتضن كرة الغليون كما لو كانت تحتضن قبة نهد فج ! . . فتعود وترخى جفنيها ، بحركة توحى بالخوف ، والترقب ، والدعوة ! . . وقال فاروق ، متخذاً هيئة محلل نفسى : « مذ رأيتك لأول مرة ، عرفت بأن هنالك لغزاً فى حياتك ! » . فابتسمت إيفيت بمرارة من تقول : « كيف عرفت ! » . وكان فاروق يعرف كيف يجعل المرأة تحس أنها بطلة لقصة درامية ، وأنها مظلومة ، وأنها جوهرة فى يد فحام ! وبالتأكيد ، أشعرها أنه البطل الذى سيخلصها من براثن الألم ، ومن أيد قاسية لا تعرف كيف تحافظ على مشاعرها المرهفة ، ومن الحرمان العاطفى الذى تعيشه . قال وهو يمسح جبينه بمنديله الناعم : « الجو خانق هنا . . » . . واسترق نظرة مستكشفة للمحيطين حواليه وقال : « أتحبين استنشاق قليل من الهواء المنعش ؟ » ، وسار دون أن يسمع إجابتها ، واتجه ناحية المدخل دون أن يلتفت خلفه ليرى هل ستتبعه أم لا ، فقد كان واثقاً بنفسه ، وبسذاجة إيفيت ! . . فأخذت ترتجف ، وشعرت بالضعف يأخذ طريقه إلى قلبها . ولكن كان هناك

رادع الخوف ، وإحساس آخر تفهمه ولا تستطيع تفسيره ، اسمه الضمير ! .. وشعرت بالخوف مما حدث ، ومن نفسها ، فمشت مسرعة تجاه زوجها وأمسكت بيده تشدها ، فالتفت إليها وسألها ببرود : « ما بك ؟ » . قالت مبتسمة : « لا شيء . تعبت من الوقوف » .

وأخذت تنظر فى وجهه بانتظار كلمة عطف ، أو ابتسامة ألفة ، لكنه كان من ذوى الدم البارد . وأحست بالراحة للحظات ، فقد نجت من الفخ ، ونجحت فى الاختبار . وبعد لحظات أخذ الملل طريقه إلى نفسها ، وأخذت تقارن بين زوجها وبين فاروق ، والفرق شاسع بالطبع : هذا رجل ملىء الرأس بالمسئوليات ، وذاك لا مسئولية لديه إلا التخطيط لمشاريع مسلية وطريفة . هذا أب لطفلين ، وذاك أعزب طليق . هذا طيب القلب بسيط المظهر برىء النظرات ، وذاك يلبس الجوخ ويدخن الغليون ويعرف كيف يوقع المرأة فى حبائله من أول نظرة . ولكن ما رأته إيفيت هو أن هذا الرجل – زوجها – يشعرها بأنها لا أكثر من جذع شجرة جافة ، وذاك – فاروق – يشعرها بأنها خوخة شديدة النضج ، حلوة المذاق ، ناعمة الملمس ! وهذا شعور لا تستطيع المرأة عموماً مقاومته ، وخصوصاً من لها مثل سذاجة إيفيت !

وهمست « نسرين » : « أهذا هو عبدالرحمن الميثلونى ؟ » . وكان عبدالرحمن يقف بالباب الزجاجى العريض ، وقد فتح الباب على مصراعيه ، ووقفت بعض السيدات ممن يمثلن الاتحاد النسائى على الجانبين ، وقد زينت صدورهن بشارات ترمز للجمعية التى ينتظمن بها . والتفتت السيدات الأنيقات بلهفة جليلة ، بينما أخذ الرجال فى تقديم السيجار الفاخر لمعارفهم من الرجال . ودخل عبدالرحمن ، فلحق به صحفيان وكل منهما يتسلح بكاميرا « فلاش » . وهمست إيفيت بانفعال : « ياهيبته ! إنه يبدو كواحد من العلماء ، لا أهل الفن . كنت أعتقد أنى سأرى رجلا بلحية مدببة وملابس مزركشة ، لكن هذا يبدو عادياً

ووقوراً . . ألا يبدو وسيما ؟ ألا تعتقدين يا نسرين بأنه يشبه "جاري كوبر" ؟ . فأجابتها هذه بلهفة : « أكاد أرى عظمته فى وجهه ! دعونا نلتقى به » . فقال شكرى ببرود : « فيما بعد . . ألا ترى ذاك الصحفى اللئيم وكيف يضايقه ؟ » . وكانت إيفيت ترقب الرجل العظيم بشبه تقديس ، ثم قالت لزوجها مناشدة : «تقول إنك تعرفه ، فلم لا تكلمه ؟». وعندما أحس شكرى بكل ذلك المقدار من التقدير الذى تكنه السيدات لأمثال عبد الرحمن من المشاهير ، أحس بالإهانة ، وبشىء يغلى فى صدره . . وقال باستخفاف : « ومن هو عبدالرحمن هذا ؟ لا تدعونى أعتقد بأنه بات إلها ! » . . وفى تلك اللحظة ندت صرخة مكتومة عن إيفيت وهى تهتف : « ذاك هو فاروق يصافحه ويكلمه . . يا إلهى . . أترين يا نسرين ؟ » . . وبدون تردد مشت نسرين تجاه الاثنين .فتبعتها إيفيت بعد أن تركت ذراع زوجها مدلاة إلى جانبه . وهو لا يزال واقفاً يرقب عبدالرحمن ، محاولا تحليل قيمته كفنان . . وكذكر ! . . وكان فاروق يقول لعبد الرحمن : «منذ خروجك من المعتقل لم تنل ( رام الله ) منك سوى معرض واحد . فهل تكون أوربا أحوج منا لفنك ؟ » . . ابتسم الميثلونى وقال بهدوء : « ظروف . » . فقال فاروق عاتباً : « أية ظروف هذه التى تمنعك من الاستقرار فى مدينتك ومسقط رأسك ؟ » . قال عبد الرحمن مصححاً : « لا . .لا تخلط ، فسقط رأسى ( ميثلون ) ، ومنشأى ( حيفا ) ، ومهبط وحيى ( رام الله ) ». قال فاروق : « المهم أن رام الله هى التى أنجبتك » . قال عبد الرحمن ساهماً : « بل قل هى الأحداث » .

وكانت نسرين قد أصبحت على بعد خطوة منهما ، وقد وقفت إيفيت خلفها ترقب الفنان «المقدس» ، بشعره الفضى ونظارته بإطاريها الأسودين الأنيقين . قال فاروق مرحباً : « أهلا ، نسرين . أنت لا تعرفين الأستاذ معرفة شخصية؟ » . اقتربت تلك منه برهبة وهى ما تزال تبحث فى وجهه

عن سر عظمته وشهرته ، حتى أحسن عبد الرحمن بشيء من الدهشة ، فما الذى يسترعى انتباهها فى منظره بهذا الشكل ! ؟ . . وكانت هى تفكر بانشداه : « كيف يستطيع المرء أن يكون ضخماً بهذا الشكل ! » .. وكان هو يتأمل ملامحها العذبة بشيء من الاستغراب ، فكيف تستطيع فتاة ما على وجه الأرض أن تحمل هذا الشبه الغريب لوجه كان الوجود بأسره فى نظره؟ ورغم السنوات العشر ، رغم الاعتقال ، رغم العذاب والدموع ، رغم النسيان ، ما زال هناك إحساس أقوى من تعاريج الزمن ، إنه رعشة الذكرى المفاجئة التى تثار فى داخلنا ولو للحظات ، فتنبش الحنين لذكرى مضت وطواها النسيان ! . . وقال له فاروق : « أنت تذكر سامية » . . ولم يجب عبدالرحمن ، فقد فهم ، أو بالأحرى تكهن من تكون هذه الشابة . وقالت نسرين وهى تمد يدها مصافحة باندفاع : « سمعت عنك الكثير . كنت أتمنى رؤيتك . نحن يا أستاذ من مقدرى فنك العظيم . أنا لا أذكر إلا أنى معجبة برسام عربى يسمى عبد الرحمن . حتى فى أمريكا ، عندما كانوا يسألوننى عن فنانى المفضل ، كنت أقول بثقة : « الميثلونى » . هذا مع أنى لم أرمن لوحاتك إلا القليل ، ونحتفظ بواحدة لدينا حتى الآن ، وأظنك قد رسمتها منذ سنوات طويلة ، فتاريخها يعود إلى عام ٥٢ » .وكان عبد الرحمن يتأملها باهتمام ، وسألها :

— أية لوحة ؟ — « زهرة المرجريت » .

هز رأسه بدون تعليق ، فواصلت : « لاأذكر إلا هذه اللوحة معلقة فوق رأس أختى فى مكان ما . . أختى سامية . . أتعرفها ؟ " نزار " يقول إنكما قد التقيتما فى النادى الثقافى » . . . وقال فاروق موضحاً : « نزار صابر » . فقال عبد الرحمن مؤكداً : « نزار ، زميل الدراسة ورفيق الشباب . ما أخباره ؟ ألا زال مديراً لوكالة الاستيراد تلك ؟ » . قال فاروق : « لم يتغير من أمره سوى بنصره الذى ازدان بدبلة ، فإن صادفته فلا تنس تعزيته ! » . ابتسم عبد الرحمن وتساءل : « ومن تزوج ؟ أتكون

هى نفسها ؟ » . ضحك فاروق : « طبعاً . . ابنة العم الثرية » . وكانت إيفيت ما تزال ترقبهم بانفعال ، وفاروق يدعى عدم الإحساس بوجودها . كان يريد إفهامها بأنه غير راض عن تصرفها معه . ولذا فهو لا يأبه بها ! .. فالتفتت نسرين وقالت معتذرة : « آسفة جداً ياعزيزتى ، أستاذ ، اسمح لى أن أقدم لك صديقتى "إيفيت" » . . وأضاف فاروق موضحاً : « زوجة شكرى عبد الله » . . فصافحها عبد الرحمن مرحباً : « أهلا ، أهلا ، ما أخبار شكرى ؟ أما زال يهوى الموسيقى ! ؟ » . قالت إيفيت بسخرية : « أكثر مما يهوانى ! » . . وضحكوا . .

قالت نسرين : « لم لم تقم معرضك هذا فى ( رام الله ) ؟ » : قال عبد الرحمن : « أبداً . لم تكن المسألة مقصودة . تلقيت دعوة من الاتحاد النسائى فى ( أريحا ) ، وكان أن رتبت السيدات المحترمات الموضوع بشكل مغر ! » . . فتساءلت نسرين : « وهل لو تلقيت دعوة من اتحاد آخر فى مدينة أخرى ، تلبى ؟ »

ــ هذا يتوقف على الظروف !

وأخذت نسرين تنظر فى وجه فاروق كمن تستشيره فى موضوع ما . وتبادل الاثنان نظرة تدل على الفهم ، إذ قال فاروق بعدها : « ماذا لو دعوناك لإقامة معرضك هذا فى نادينا المتواضع ؟ » . تساءل عبد الرحمن متعجبا : « ناديكم ! ؟ » . وقهقه فاروق : « لا . لا . لا تحسبه النادى الثقافى ، فذاك قد ولى إلى غير رجعة ! » . وقالت نسرين كمن تسمع درساً حفظته فى الصباح : « ذاك ما زال مزداناً بالشمع الأحمر ! » . . فضحك عبدالرحمن ، فى حين واصل فاروق : « نادينا هذا ليس سوى قاعة فارغة لا تحتوى إلا بعض الكراسى الخشبية ، وشاشة تعرض عليها الأفلام الثقافية . إنه ليس نادياً بالمعنى الصحيح ، فهو مكتبة . فى صباح اليوم اتفقنا على هذه الفكرة ، لإيجاد مكان يلتقى فيه المثقفون » . وواصل توضيحه للأمر كمن يقدم اعتذاراً : « أنت تعرف الفراغ الذى

تركه النادى الثقافى » .

هز عبد الرحمن رأسه . . وقالت نسرين : « ولم تمانع سامية ، فقد سمحت لنا باستعمال القاعة » . . . وأخذ عبدالرحمن ينظر إلى نسرين مستطلعاً ، كمن يقول : « وما دخل سامية فى الموضوع ؟ » . فقال فاروق موضحاً : « المكتبة تملكها سامية . أنت لم تر مكتبتها . إنها حدث هام . المكان رائع ، والفكرة مدهشة ، وبإدارة من ؟ بإدارة ألطف امرأة عرفتها مدينتنا . ألا تذكر رقة سامية ؟ » . . ولم يجب عبدالرحمن ! . . فواصل فاروق موجهاً حديثه لنسرين ، كمن يقدم شكره واحترامه « بالنيابة » ، مقابل استعمال القاعة : « يخيل إلى أن ما من امرأة تتحلى بكل هذه الرقة والدماثة والنعومة أكثر من سامية ! » . ونظر إلى إيفيت وهو يغمز ، فاستدارت بعينها إلى عبدالرحمن . . فى حين واصل فاروق : « يخيل إلى أن هذه السيدة تعيش فى عالم آخر ، بعيد عن عالمنا وواقعنا . إن فى وجهها حزناً لا يستطيع رؤيته رجل دون أن يثير فى قلبه إحساساً بالذنب والندم ! » . . فعلق عبدالرحمن بسخرية دفينة : « وقد يكون العكس هو الصحيح ! » . . وابتسم الجميع على اعتبار أن التعليق كان نكتة عابرة . وعندئذ اقترب صحفى فضولى من الفنان وقال له مقاطعاً : « أتسمح يا أستاذ بسؤال واحد ؟ » . نظر عبد الرحمن فى وجه فاروق مستغيثاً ، فقال فاروق : « فيما بعد . ألا تراه منشغلا ومشغولا ؟» . فقال الصحفى بإلحاح : « طيب ، صورة واحدة » . هز عبد الرحمن رأسه وقال : « كل ما تريده منى احتفظ به للمؤتمر الصحفى . والآن أرجوك . خفف ضغط يديك عن عنقى ! » ونظر الصحفى إلى عنق عبد الرحمن بعجب . فأخذ فاروق يقهقه ساخراً : « يا للذكى » !

واقترب شكرى وسميرة من المجموعة ، وصافحا الميثلوفى . وأخذ الجميع يبحثون عن « بشار» ، ولكن ذاك كان فى واد آخر . كان يراقب قباب صدر « مهى » بانشداه . . وهو يقول للرسامة الجميلة : « يصعب على

المرء أن يحزر من منكما أكثر فنًّا : « سهى » التى رسمت كل هذه اللوحات ، أم الفنان الأعظم الذى رسم «سهى » !؟».. وكانت هى تضحك وتقول : « ولم لاتسأله ؟ » . قال : « عندما يأخذنى إليه لن أنسى ذلك! »

– ومتى يتم هذا الحدث السعيد بإذن الله ؟

– عندما تطلقين علىّ صاروخاً آخر من مدفعية عينيك الذريتين!

وأخذت تضحك وتضحك ، فتجرأ وقال : « دعينى أر أصابعك!».

تساءلت بدهشة : « ولماذا ؟» قال : « لأرى إن كان هنالك قيد ما ! » ومدت يديها مبدية باطنهما . ورأى هو حلقة الخاتم ، فتساءل : « أهو قيد ، أم حلية ؟ » . أجابت : « حزر! . » . قال : «لقد حزرت منذ البداية ، فأنا أستطيع معرفة المرأة من عينيها ! » تساءلت : « وماذا ترى فى عينى المرأة ؟ »

– أرى نيرانا مطفأة ! – وماذا ترى فى عينى الفتاة ؟

قال بخبث : «نيرانا مطفأة أيضاً ، ولكن بانتظار من يحمل عود الثقاب ! » . قالت بغيظ ضاحك : « أنت بذىء اللسان ! » . قال مكملا : « . . والفعال أيضا ! » . . ثم أضاف وهو يقلب يدها ، متأملا الخاتم : « أستطيع أن أكون مهذبا عندما أعرف أن محدثتى قد بدأت تعبأ بى ! » . قالت : « ستظل قليل التهذيب إذن ! » . أجاب : « بل سأبدأ بالتهذيب منذ الآن ! »

وأمسك بيدها محاولا رفعها إلى فمه ، فهتفت بوجل : « لا ، لاتفعل ! ألا ترى الصحافة اللعينة ترقبنى ! » . . فقال وقد بدا الجد يكسو ملامحه : « وأين أراك كى أثبت لك أنى أجيد التهذيب ؟ »

– اتصل بى فيما بعد ، أما الآن فاذهب !

وكانت سميرة تقترب منهما قائلة : « يا آنسة ، هل فى استطاعتك الانضمام لمجموعتنا ؟ » والتفتت إلى بشار : « كنا نبحث عنك. فقد كنا نتدارس موضوع نقل المعرض إلى النادى » . . فتساءل بشار بلا مبالاة :

« أى معرض ! وأى ناد ؟ » . أجابت : « أعنى نقل هذا المعرض إلى نادينا . أم تراك فى حالة لا تسمح لك بالاستيعاب ؟ ! »

قال متذكراً : « آه ، عرفت . . ماذا تقولين ؟ المعرض والآنسة سهى فى ( رام الله ) ! ياللهول ! طبعاً ، طبعاً . . ماذا إذن ! »

وأمسك بيد الرسامة ، وسحبها معه إلى حيث تقف المجموعة .

## ٥

تساءلت سامية بوجل : « ورضى بذلك ؟ ! أواثقة أنت بأنه قبل الدعوة ؟ » قالت نسرين بفخر : « مئة بالمئة ! » . قالت سامية بحذر : « وهل عرف المكان ؟ أقصد هل عرف أين ستعرضون لوحاته ؟ »

أجابت أختها : « طبعاً » ، فتساءلت سامية : « وهل قال إنه يذكرنى ؟ أقصد يعرفنى ؟ »

قالت نسرين بدون اهتمام : « لاأذكر بمَ أجاب ، رغم أنى سألته هذا السؤال . لقد اختلط الموقف عندما ذكرت نزاراً ، فبدأ يسألنا عنه » . وأحست سامية بالمرارة تملأ قلبها : « لقد نسينى ، طبعاً ، وكيف يذكرنى بعد كل تلك السنين ، وبعد كل ما حدث ! لقد نسينى . . لقد بت منسية » . . وكانت نسرين تستطرد : « . . وقال فاروق إنك لطيفة ، وإنك رائعة . . وقال أشياء أخرى جميلة عنك . أما عبدالرحمن فهو رغم مظهره الجاد يميل إلى المرح ، ولقد أضحكنا بتعليقه . قال فاروق إن فى وجهك حزناً لا يستطيع الرجل رؤيته دون أن يحس بالذنب والندم . فقال عبد الرحمن : « أو أن العكس هو الصحيح ! » ، وضحكنا .

عضت سامية شفتها بدون وعى ، وأخذت ترتجف بصمت : « نعم ، العكس هو الصحيح . مازال يذكر ما حدث ! » . . وأعقب ذلك الشعور بالألم لمحة أمل : « إنه مازال يذكر الإساءة ، إذن فهو مازال يذكرنى ، وإلا لما حوت كلماته ذلك المقدار من النقمة الساخرة . لا بأس . .

فليذكر الإساءة، وليحاول الانتقام، وليشمت بى . . على شريطة أن يذكرنى ! »

* * *

وابتداء من اليوم التالى ، ابتدأت الترتيبات للمعرض . فلم يفارق بشار الدوائر الرسمية إلا بعد أن حصل على إذن بإقامة معرض فى المكتبة .

وراح فاروق يضع الرسوم ، ويرسم الخطوط ، ويحضر كشفاً بأسماء المدعوين لحفل الافتتاح . وشكرى استأجر بيانو من محلات « بوتاجى » ؛ و « إيفيت » أخرجت فستانها المخملى المطرز بخيوط الفضة واللؤلؤ من الخزانة ، استعداداً لتدشينه . ونمقت سميرة الكلمة التى ستقال ترحيباً بالرجل العظيم . وكان الكل شعلة من نشاط وحيوية ، عدا واحدة قبعت فى مكتبها الأصفر تتخيل ما سيكون عليه الموقف حين تراه : هل ستنهار ؟ هل سترتمى على كتفه طالبة الصفح والغفران ؟ ولكن كيف سيقابلها هو ؟ وماذا سيكون موقفه منها ؟ الغضب ؟ السخرية ؟ اللامبالاة ؟ هل سيبتسم ؟ هل ستعلو التقطيبة وجهه ؟ وهل يصافحها ؟

وجاء نزار يسأل بدهشة : « أصحيح ما سمعت ؟ » . . ورأى الترتيبات الهائلة التى تجرى فى المكان ، فقال وهو ينظر فى وجه سامية : « إذن فالخبر صحيح ! » . . فقالت بتردد : « نعم ، هذا آخر ما كنت أتوقعه . صحيح أنى كنت أحلم بلقياه ، كنت أحلم فقط ! » . . وكان وجهها حزيناً ويائساً ، واستدارت نحو النافذة ، محاولة إخفاء ما بها . . فى حين قال نزار مواسياً : « ولم كل هذا القلق ؟ إنها الظروف ، إنه القدر » . فقالت وهى ما تزال مستديرة بوجهها نحو النافذة : « هذا ما نقوله عندما نرتكب الأخطاء . يا لسخفنا ! » . . ومشت ببطء ، ووقفت أمام لوحة « المرجريت » تتأملها ، وكانت ذكريات الماضى تغترفها . ثم مشت إلى حيث جلست وراء مكتبها ، وأشعلت سيجارة ، وقالت بمرارة ساخرة : « نعم ، هذا ما يفعله الإنسان . . عندما يخطئ ، يلقى

بأعباء أخطائه على أكتاف القدر ، وعندما يصيب ، يردد بغرور وبلاهة :

ومشيئتى قدر على أقدامه تتفتت الأيام والأقدار

ترى أين تكون مشيئتنا حين نخطئ ؟ أم أن مشيئتنا هى التى تدفعنا للخطأ ؟ ومن الذى اختار الخطأ ؟ القدر أم نحن ؟ أم أن الخطأ فينا ؟ إذن فمشيئتنا خطأ ، وأقدارنا خطأ ! »

ونفضت رماد لفافتها بتبرم : « وعندما نعمل ونفشل يقال لنا : « لن يصيبكم إلا ما كتب الله لكم » . وعندما نعمل وننتج يقال : « بمثل أعمالكم توعدون ! » . فأين كان الوعد حين عملنا وفشلنا ؟ .. وذاك الذى لم يعمل لكنه نجح ، أى المثالين ينطبق عليه ؟ . . أما أنا ، فلم أعمل ، وقد فشلت ، و بهذا أكون بمثل عملى قد وعدت ! »

والتفتت إليه وقالت بجد : « نزار . أنت الوحيد الذى عرف الماضى ، والوحيد الذى يعرف الحاضر . فهلا كتمت الحاضر كما كتمت الماضى ؟ » وأخذ ينظر فى وجهها بتساؤل . . قالت وهى ترخى أجفانها بيأس : « أرجوك ، لا تفهمنى خطأ . أنا ما قصدت الشك فى صداقتك ، ولكنى أطلب منك كتمان الحاضر عن ذاك الذى ابتدأ الماضى معه ! » . تساءل نزار : « تقصدين . . ؟ » . قاطعته : « أقصد ألا تخبره بأى شىء تعرفه عنى . أنت لا تعرف موقفى فهو حرج . وقد يظننى أحاول استعادته بواسطتك .. أفهمت ؟ » . حاول الاعتراض : «ولكن . . »، لكنها عادت تقاطعه : « أرجوك . . هل تعدنى ؟ أرجوك » ، فرضخ مضطراً : « حسناً ، وإذا سألنى ؟ » . أجابته فى حزم : «ادع الجهل . ومع هذا فأظنه لن يسألك . أنا واثقة من ذلك ! » . . فقال مجادلا : « وأنا واثق بأنه سيسألنى ! » . لكنها أسكتته : « مهما كان الأمر . ادع الجهل . . أرجوك ! »

ثم قالت ، فى محاولة للتبرير : « لن أكذب عليك يا صديقى ، فما اعتدت أن أفعل ذلك مع نفسى أو مع الناس . أنت

لا تعرف الوضع الذى أعيشه ، وأى يأس وأى صقيع . فأنا أمر بفترة حرجة . أحياناً أحس بأنى لست أكثر من صورة فى مرآة ، وأنى إذا مسست وجهى فستصطدم يدى بزجاج بارد . لكن هذا الزجاج ، رغم برودته ، شديد الحساسية . . وأى لمسة قد تترك بصمة فيه . تترك أثراً . وتأبى كرامتى حتى الشفقة على نفسى . أرى عاراً أن أخذل ذاتى ، وأن أتمسح بالأعتاب . مازال بى بعض قوة ، وهى سلاحى الوحيد الذى يقينى التهالك والانهيار . افهمنى ، أرجوك . أحب أن أجد من يتفهم موقفى . أنا مازلت قوية ، والعقاب الذى سأناله لن يؤكد لى سوى قوتى . فلو كنت ضعيفة لطلبت الرحمة . ولكنى لست ضعيفة لأطلبها . فلا تكن سبب حرمانى كرامتى . . وقوتى » .

وتساءل نزار قبل أن يخرج : « وفى أى يوم سيكون الافتتاح ؟ » ، فأجابته : « يوم الخميس ، ولكنى أعتقد أنه سيجىء غداً ليبدأ بالترتيبات المناسبة . وسأحاول ألا أفرض وجودى على المكان ، وكان الله فى عونى ! »

* * *

عندما وصل الميثلونى وزميلته إلى مكتبة الفكر الحديث ، كانت سامية قد غادرت المكان بحجة ما . وابتدأ العمل . وكان فاروق فى غاية الحماسة . كان يجوب المكان بشكل لا أثر فيه للبرود الإنجليزى المعرَّب . ويبدو أن العمل قد أنساه الكثير من مزاياه كمثقف ثرى : فالمصطلحات الشكسبيرية تضاءلت بنسبة كبيرة ، وكذلك البرود الإنجليزى الذى تفرضه عليه شهادة مستوردة من بلاد الإنجليز . وكذلك جمدت أعمال القنص للجنس اللطيف التى تفرضها عليه ظروف « الدون جوانية » . وعلقت سميرة على ذلك بسخرية ، ضاحكة : « لو كان الأمر بيدى لحكمت عليك وعلى أمثالك بالعمل المؤبد . لقد أصبحت لا أخا عرب فحسب ، بل أبا عرب ! » فأجابها ، بتهكم : « كنت أتمنى أن أسمعك تتكلمين هكذا ، لو أن الوالد أورثك مثل ما سأرث » . قالت :

« من الصعب أن نحكم : من فينا أسعد حظًّا ! » . ثم تمتم فيما بينه وبين نفسه : « يا للفتاة المكابرة ! » . .وقالت وهى تمسك بالشاكوش لتعطيه له ، بينما كان يقف على السلم الخشبى ليدق مسماراً فى الحائط : « لو كنت مكانك لفعلت ما فعله تولستوى ! » . تساءل فاروق : « وماذا فعل تولستوى ؟ » . قالت هازلة : « كما تفعل أنت الآن : استعاض عن الغليون شاكوشاً ! » ... وضحكا . لكنه قال : « لن أستعيض عن الغليون إلا منجلا » . فعاجلته : « احذر فقد يسمعونك ! »

— يا آنستى ، أتظنيننى أبله ؟ تلك الشعارات خلقت من أجلكم ، من أجل الفقراء والبسطاء، لتنسيهم همومهم. أما نحن فلنا زينة الحياة الدنيا.

تساءلت: « ولم المنجل إذن ؟ » . قال : « لأحصد بعض الألسنة » . تساءلت ببراءة مصطنعة : « تقصد تلك التى تستعمل للغزل والتفذلك ؟ » . وأخذت تقهقه . ثم تركته وهو يفكر : « يالها من خبيثة ! مما لاشك فيه أنها ذكية ، وأنها مثقفة ، ورغم أنها ليست فى عداد الجميلات ، إلا أن لها شخصية تثير التساؤل حقًّا . لو أن لإيفيت خفة ظلها وذكاءها لاكتملت الصورة . لكن إيفيت سطحية ، مملة ، وغيور ! » .

وكان عبد الرحمن يقف بجانب النافذة يدخن ، والابتسام يعلو وجهه ، فقال لفاروق معلقاً : « كنت أظنك مدرب خيل ماهراً » . قالت سميرة باستفزاز : « أنا فرس جموح ! » . فقال لها فاروق من فوق السلم الخشبى : « لو قصدت تدريبك لجعلت مشيك رقصاً ! » . قالت بسرعة : « هذا يعنى أنك تجيد الرقص . . أى رقاص ! » . فعلق عبد الرحمن ضاحكاً : « تقصدين راقصاً ؟ » .أجابت : « بل رقاصاً . »

— رقاص ساعة ؟ — نعم ، ساعة الزمن البائد .

ثم التفتت لفاروق وقالت : « إصح يا أخا العرب ، فالعالم يركض بينما ما زلت أنت تعبث أمواج الحرير . إصح ، فهذا الجيل ما عاد لطبقتكم المترفة، ولا لأيديكم المخملية، بل لنا نحن ، للفقراء ، للعمال ،

وللكادحين المنتجين ، إصبح قبل فوات الأوان! » . علق عبد الرحمن : « قد يكون منبهه تالفاً ! » . قالت : « نحضر له ديكاً يوقظه ! » . قال فاروق : « أفضل الفراريج ، وخصوصاً الناضج منها . وقد أجعل منك فروجة يوماً ، فلا تتباهى بذكائك ! » . قال عبد الرحمن : « يحق لها أن تتباهى ، فلديها الكثير . » قال فاروق ساخراً : « الكثير من الديون ؟ » . قالت بفخر : « بل الكثير من القناعة » . قال فاروق ، محاولا إيقاعها فى الفخ : « القناعة نقيض للثورة » . قالت بتحد : « تلك قناعة البليدين والبليدات . أما قناعة الثوريين فصبر وعمل ! »

وكان عبد الرحمن يرمقها باسماً بألفة . أحس أنه يعرفها منذ زمن طويل ، فهى واحدة من طبقته ، وهى ذكية وخفيفة الظل . ولم تكن سميرة جميلة . لكن شكلها فيه ما يسترعى الانتباه . كانت نحيفة القوام ، لطيفة الملامح ، بشرتها سمراء خمرية . ملابسها بسيطة ولا تميل إلى الزركشة . ترتدى التنانير الضيقة والقمصان القطنية باستمرار . . ولم يلبث فاروق أن نزل عن السلم وأخذ يقترب منها متوعداً مهدداً بشاكوشه ، فأسرعت تختبئ وراء عبد الرحمن . وقال فاروق ممثلا دور الغاضب : « لا تتحدى ، فأنا لا أحتمل الإثارة ! » . فعلق عبد الرحمن ضاحكاً : « أية إثارة تعنى ! » . قال فاروق وهو يرمقها من فوق كتف عبد الرحمن : « لم يبق إلا هذه الفروجة لتثيرنى ! لكن الجائع لا يأبه كثيراً إذا كانت الوجبة دسمة أم عجفاء ! » فقالت مصطنعة الخوف : « ارأف بحالى يا أخا العرب ! » . قال متخذاً هيئة المتسامح الكريم : « حسناً ، مادمت قد استغفرت . . ولكن لا ، استرحمينى أكثر . هيا استرحمى ! » . قالت بصوت ضاحك : « رحمة الله عليك ! » . . وقهقه الثلاثة ، فى حين كان فاروق يرمقها بإعجاب دفين : « تغيظنى بكبريائها ، تثير فى عقلى أسئلة لا تخطر لى على بال . . تجعلنى أنسى قالب الأناقة الذى أحبه . . تجعلنى أحس بأني ما زلت طالباً فى الثانوية . وأنه لا بأس من المرح والانطلاق . أميل

للنظر فى عينيها الذكيتين ، ففيهما حكايات وأساطير . فيهما طموح وأمل . وثورة . . وعمل . فيهما تحد ، فيهما جمال غريب النوعية . فهو ليس جمالا من النوع المتعارف عليه . . كعينى إيفيت الزرقاوين الناعستين ، ولا كعينى سامية العميقتين الداكنتين ، بما فيهما من حزن وعذاب وانتظار . عينا سميرة فيهما إشراقا ، فيهما ما يجذب نظرى وانتباهى » .

ودوى صوت نسرين فى قاعة الكتب منادياً سميرة ، فخرجت هذه راكضة . وكان فاروق يرقبها وهى تبتعد . وعلق عبد الرحمن باسماً : « فتاة ذكية ولطيفة » . هز فاروق رأسه وتساءل : « أتعجبك هذه النوعية ؟ » . أجاب عبد الرحمن : « أنا أحب المرأة المرحة بدون ابتذال . وهذه من هذا النوع . كنت أتمنى لو التقيت بمثلها يوم كنت أفكر فى النساء . يوم كانت المرأة تمثل عاملا حيوياً فى حياتى » . فسأله فاروق : « وهل يعنى هذا أنك بت من أعداء المرأة ؟ » ، فأجاب الفنان الكبير : « لا . . ليس هذا ما أقصد ، فالمرأة إنسان قبل أن تكون أنثى ، بيد أنى ما عدت أعبأ بهن كثيراً ، فالفن يملأ كل وقتى ، ولا أريد توزيع طاقاتى ! » . فقال فاروق : « لكنى أعرف نقيض هذا ، يقال إن الحب ملهم الفنان . »

قال عبد الرحمن مفكراً : « تلك هى النظرية التى أحاول بلورتها من خلال مقال أكتبه . فالفنان الذى يؤمن بقدسية فنه ، ويؤمن بأن الأصالة هى منبع الخلق والإبداع ، هذا الفنان الأصيل الملهم ، لا حاجة به لامرأة توقظ فنه ، فقد يكون العكس هو الصحيح ، قد تشغله بحبها الفردى عن حبه الجماعى للإنسانية . والفن طاقة إنتاجية ، حرارة تستعر فى أعماق الفنان ولا يبرد أوارها إلا بعد ترجمتها إلى لوحة ، أو شعر ، أو نغم . الفن عصير روحى ، إفراز جمالى ، خفقات قلب مفعم بالحب والرحمة ونكران الذات . وقد يمر الفنان بحب يعتصر روحه وقلبه وجمالياته ، فيصبح قشرة فارغة ، أو زهرة بدون شذى . هذا هو رأيى بعد التجربة » .

قال فاروق متعجباً : « غريب . كنت أعتقد بأن الفنان لا يستطيع العيش بدون حب ! » . فقهقه عبد الرحمن وقال : « تلك ياسيدى ذريعة ابتدعها أشباه الفنانين ، أو قل المزيفون منهم » .

قال فاروق : « أتعرف ، أنه موضوع هام ومثير ! يجب أن نثيره فيما بعد ، عندما تكون المجموعة كلها معنا » .

* * *

عندما دخلت الشابات رأين عبد الرحمن يتجه نحو السلم الخشبى ويجلس على حافة خشبة منه . وتساءلت نسرين : « لم لا ترتاح قليلا ؟ تفضل فاجلس فى المكتب وسأصنع لك فنجان قهوة » . فترك المجموعة وتبعها . مشت أمامه ، فتحت باب المكتب المغلق وهى تقول : « سأحضر لك القهوة خلال دقائق » . وتركته بمفرده ومضت . . غرفة جميلة ، فيها لمسات أنثوية حنون . أرائك خضراء داكنة . مكتب خشبى أنيق ، زهرية مليئة بزهر البنفسج . إناء فخارى على حافة النافذة تنسكب منه شلالات خضر من نبات الخنشار المنزلى ، وضوء أصفر ينهال عليه عبر زجاج النافذة . وفى الصدر ، وعلى الجدار المجاور للقاطع الخشبى بزواياه الهندسية تقبع لوحة « المرجريت » . وأحس الفنان بحزن غريب . إحساس ناعم ينساب إلى قلبه كما تنساب إلى الأذن المرهفة موسيقى حساسة آتية من بعيد . . بعيد . . وتبدأ الذكريات : أطياف حالمة شفافة . . شريط متقطع . . مشاهد تقفز إلى ذاكرته بدون استئذان . . وملامحها . . وعيناها . . وكلماتها . . وفرك جبينه بمرارة . جبهة سمراء مشت عليها تعاريج الزمن . فى الماضى كانت مبعث سحر ومصدر غزل . كانت ترنو إليه وتقول : « أسمر الجبهة كالخمرة . . » فيبتسم بسخرية ويردد مكملا الأغنية : « سابحاً فى زورق من صنع أحلام الشباب » .

ولكم حلمنا . . كم حلمنا ! . . كانت تجيد الكلام ، تجيد التفكير ،

تجيد النقد . لم تكن فنانة ، لكنها كانت ذواقة ممتازة ، وكانت تنقد كل ما لم أكن راضيا عنه . أعجبت بها . كانت جميلة ، عذبة ، ناعمة ، وقد أحببتها . . عبدتها . . أما الآن ، فلم يبق إلا الذكرى . معظم ما حلمنا به معاً تحقق : أصبحت أنا شهيراً ، ناجحاً ، صاحب مدرسة لها أكثر من تابع . لوحاتى وكلماتى أخذت طريقها إلى كل مكان ، حتى أوربا ! كل ما حلمت به تحقق إلا هى ، فقد بقيت حلماً . . ذكرى!

ورفع عينيه ليرى من الذى يقف فى الباب : كانت هى . . الحلم . . الذكرى ! ووقف دون أن ينطق . ودخلت هى ، ومشت فى اتجاهه وهى تنظر إليه بغيبوبة . كانت ترتجف . وعندما أمسك بيدها الباردة مصافحاً ، ظلت صامتة ، لم تقل شيئاً ، ولم يقل هو ! . . فى يوم من الأيام ، يوم وصله خبر زواجها المفاجئ ، وكان وراء القضبان ، تمنى لو أمسك بعنقها وأنشب أسنانه فيه ! تمنى أن يصفعها حتى يدميها . تمنى أن يعتصرها ، يكمشها بقبضته ويبتلعها لتبقى فى داخله . . فى أعماقه . وبكى ، لا خوفاً من الشرطة ، ولا من آلات التعذيب الكهربائية ، بل وحشة ، ووحدة ، وشوقاً ! . . سبع سنوات من السجن ما كانت قليلة ، وما كان باستطاعة المرأة العادية أن تنتظر رجلا كل تلك المدة . لكنها ما كانت عادية ، حتما لم تكن عادية ، فقد كانت ذكية ، مثقفة ، ذواقة ، حساسة . وكانت تلك المرأة — سامية — جالسة الآن تدخن ، وقد غاصت فى أريكتها ، والضوء الأصفر ينسدل على وجهها وشعرها . ورفع عبدالرحمن عينيه يتأملها . . لم تتغير كثيراً ، إلا أنها كبرت عشر سنوات ، أصبحت أقل نضارة ، أقل اندفاعاً ، أقل مهابة وأكثر حزناً . كان فى عينيها بكاء لم ينضج بعد ، وفى شفتيها كلام فج . وكان يريد أن يسألها عن أخبارها وعن حالها ، وعما فعلته بها السنون . . كان يريد أن يعاتبها بهدوء ، فقد انطوى ذاك الحزن الهائل الذى أحس به يوماً . وذاك العذاب الوحشى انطفأت حدته . وكان يريد أن يناقشها بهدوء وبموضوعية

عن السبب ، سبب غدرها وخيانتها . كان يريد أن يعرف السبب ، يريد أن يفهم الدوافع والحوافز !

لكنه لم يقل شيئاً .

وكانت هي تمتص مرارتها حتى الثمالة . « هذا ما كنت أتوقع ، لا شيء أكثر من الإهمال ! » . . ودخلت نسرين تحمل القهوة ، وقالت وهي ترى أختها تجلس ساكنة شاردة : « متى رجعت ؟ كنت أتوقع قدومك منذ ساعات » .. وكان هو يفكر بحزن : « أما أنا ، فقد توقعت قدومها سنوات بأكملها . . وعندما وجدتها أمامي ، لم أجد إلا حلماً مملا . . وذكرى كالحة . . فأين تلك اللهفة التي كانت تصيبني عندما كنت أجالسها ! أين ذاك السيل الفياض من الكلام الذي لا ينقطع ! كنا نتكلم ساعات وساعات .. نناقش الأدب والسياسة ، والمجتمع ، والفن . . نحلم بالمستقبل . . نضع المشاريع والخطط . . يمسك كل منا بيد الآخر ، يشد عليها بحنان ، وكانت تضع كفي على عنقها ، وتخبئ يدي في ثنايا اللحم الدافئ والشعر الأسود الناعم » — وأخذت عيناه طريقهما إلى عنقها بدون وعي ! — « وكنت أتحسس عنقها الشمعداني وأنا أرتجف ، وأدغدغ أذنها بأصابعي . . وكانت ترفع كتفها وتضغط يدي بين الرأس وعظم الكتف . . وأحياناً لا أستطيع تمالك نفسي ، فأجذب رأسها إلى وأقبلها . . كانت تشعرني بأني ملاكها . . إلهها . . معبودها . . فكيف انقلبت ؟ كيف ! كيف ! ! »

وعندما تكلمت لأول مرة ، وسمع صوتها كما لو كان آتياً من أعماق بئر بعيدة ، فيه نغمة مترددة ، فيه ذهول وحيرة ، لم تتملكه سوى الدهشة ! وتساءلت نسرين : « ما بلك ، أتشكين من شيء ؟ » فأجابت أختها بتردد ، وهي تنظر بعيداً عنه : « إني تعبة » . وعادت نسرين تقول ، بقلق : « أهو الصداع المعهود ؟ » . . ولم تجب سامية ، فأخذ عبد الرحمن يتأملها من جديد ، كان يريد أن يعرف . . أن يعرف أشياء كثيرة ،

بجذافيرها ، بكل تفاصيلها . ولكنه لم يقل شيئاً ! . . وقالت نسرين : « لم لا تذهبين إلى البيت لتنامى ؟ » . أجابت سامية باقتضاب : « سأفعل » . وكان هو يشرب قهوته فى صمت ، يرقبها بفضول ، يريد أن يعرف فيم تفكر ، وبأية نفسية تعيش ، وفى أى الأجواء قضت مدة عشر سنوات ؟ !

ولكنه لم يقل شيئاً ! ووقفت سامية ببطء ، ونظرت إليه بوجوم وقالت ، بصوت لا أثر فيه للحياة : « أعذرنى ، فأنا تعبة » .

وخرجت . .

## ٦

ورآها فى اليوم التالى . كان يقف فى نافذة قاعة الكتب ، وكانت هى قادمة من الخارج ، تلبس معطفاً أبيض اللون ، شعرها الفاحم مردود إلى الخلف بشريط مخملى أسود ، تضع قفازاً أسود . ومن خلال فتحة معطفها عند الرقبة ، كانت تضع شالا يضم مزيجاً رائعاً من اللونين : الأسود والأبيض . خطواتها مازالت إيقاعية ، رأسها مرفوع إلى أعلى ، وفى عينيها — عينيها اللتين كانتا مرآة ذاته يوماً ، تحفتيه النادرتين ، « ماستيه » الداكنتين — كانت تنبسط بحار أحزان وحيرة .

وعندما لمحته لم يبد أنها أحست بوجوده ، إذ استمرت تمشى وهى مرفوعة الرأس ، سريعة الخطوات ، أنيقة الحركات . وفتحت الباب الزجاجى ، وألقت إليه بتحية جادة : « صباح الخير » . ودخلت المكتب . ورآها من خلال القاطع الزجاجى تخلع معطفها بهدوء ، تتحرك بهدوء ، تدخن بهدوء ، وتمنى عدة مرات أن يدخل ويكلمها . . يكلمها بهدوء ، ويسألها عن السبب . . كى يعرف الدوافع والتفاصيل .

لكنه لم يقل شيئاً ! . . وعندما كانوا يلتفون جميعاً حوله ، كانت هى الوحيدة التى تظل بعيداً ، فى ركنها ، فى « غيبوبتها » ! وعلقت نسرين

باعتذار : «أختى غريبة الأطوار ، فهى انطوائية ، تعشق الوحدة والانعزال» .

وأخذ عبد الرحمن يتساءل فيما بينه وبين نفسه : « منذ متى كانت هكذا ؟ ! يبدو أن أشياء كثيرة قد تغيرت فيها! ». وقال فاروق : «هذه المرأة تعجبنى ، أحس أمامها بأنى لست أكثر من غلام ! » ، فتساءلت سميرة بخبث : « أليس هذا هو الواقع ؟ » . وقال بشار وهو يهمس فى أذن سهى التى كانت تجلس بجوار عبد الرحمن ، وكان همسه ذاك يصل إلى أذنى الفنان: «كنت أعتقد أن لسامية أجمل عينين وُهبتهما امرأة ، لكنى غيرت رأيى حين رأيتك ! » . وابتسمت هى ، واستدار عبد الرحمن برأسه. فى الليلة السابقة، سهروا فى قاعة السينما بالمكتبة . وضعوا مناضد صغيرة متقاربة ، ألصقوها معاً ، وصفوا عليها الطعام والشراب . وافتتح فاروق زجاجة ويسكى تكريماً للفن والفنانين. وعزف شكرى على البيانو أنغاماً جافة باردة ، لكنها بالطبع قوبلت بالتهليل والتصفيق . وغنت سهى ، ورقصت نسرين ، وأطلقت سميرة أروع نكاتها ، بينما انهمر سيل من أشعار بايرون من بين شفتى فاروق الذى كان فى أحلى مزاج .

ولم تحضر سامية، وتساءل الجميع. . فقيل بأنها تشكو الصداع ، وتمنى عبد الرحمن لو أنها حضرت ، لا لأنه بشوق إليها وإلى حضورها ، بل لأنه كان يريد أن يرى كيف تتصرف ، وبأيه نفسية تعيش ، وفيم تفكر؟ . .ألازالت تجيد الكلام ؟ ألازالت سريعة الخاطر ؟ ألازالت قوية الشخصية ومحور الجلسات ؟ .. وخجل أن يسأل نزارا الذى كان يجاوره ولا ينفك يسأله عن حاله وأخباره ، وعن بروكسل ، وعن آخر أخبار القلب . وقال عبد الرحمن إن حاله لابأس بها ، وإن أخباره تعرف عنها الصحافة أكثر مما يعرف هو ، ومعرض بروكسل كان ناجحاً ، والقلب نائم بهدوء وهناء . .

وعندما خرجوا من المكتبة فى منتصف الليل ، كانت الشوارع خالية،

والضباب كثيفاً ، والمطر ينهمر . وقبل أن يوصل نزار الفنان بسيارته إلى الفندق ، مرا أمام فيلا صغيرة أمامها حديقة محاطة بسور غير مرتفع ، وباب حديدى صغير . وقال له وهو يرقبه خلسة : « هنا تعيش سامية مع أختها » . . ومن خلال الظلمة رأى نافذة مضاءة ، ولم يستطع إلا أن يتساءل عما تفعله فى تلك الساعة . تقرأ ؟ . . تسمع الموسيقى ؟ . . ترقب التلفزيون ؟ . . وعلق بسخرية : « أصبحت أغنى مما كانت ! » . فقال نزار : « يقال إن زوجها كان ثرياً » . . وضحك عبدالرحمن بجفاف ، ولم يعلق . . لكنه لم يستطع أن يرد تساؤلا مر بخاطره مئات المرات من قبل : « هل تزوجت من أجل المادة ؟ وهل باعته وباعت كل ما كان يمثل فى نظرها من فن ، وذكاء ، ونبوغ . . فى سبيل المال ؟ إنها لم تكن فقيرة ، فهى من عائلة موسرة ، ولم تكن من أولئك اللواتى يجدن فى المال سعادة . كانت تقول بأن المال وسيلة وليس هدفاً » .

وتوقفت سيارة شكرى خلفهما ونزلت نسرين ، فأطلت من زجاج نافذة عبدالرحمن وأخذت تطالبه بالنزول وإكمال السهرة فى منزلهم . ورفض بالطبع ! . . وهكذا مرت تلك الليلة ، ولم يرها إلا فى صباح اليوم التالى . . وانقضى النهار كله ما بين تحضير للمعرض ، وتحضير لسهرة الليلة . لكن سامية لم تحضر سهرة الليلة التالية ، وقيل بأنها مصابة بزكام . وأحضر شكرى كنزه الثمين ، وهو عبارة عن صندوق ملىء باسطوانات يعود تاريخها إلى ما قبل التاريخ ! فسمعوا منيرة المهدية ، وأم كلثوم الصغيرة ، وبعض الموشحات الأندلسية . وقبل نهاية السهرة ، كان فاروق قد استطاع إقناع ثلاث سيدات بأنه معجب حتى آخر رمق ! وانفعلت إيفيت ، وسخرت سميرة ، ولم تتجاوب نسرين ، لكنها كانت تبدى نحوه شيئاً من اللطف ، أو هكذا خيل إليه !

وعندما عزف شكرى أنغامه السمجة ، راقص بشار سهى . وأخذ يهمس فى أذنها بكلمات مشبوبة ، وكان يبدو واضحاً أنهما فى غاية

الانسجام . ولو تمادى بشار قليلا لقضى ليلته تلك منشوراً على قباب صدرها . لكنه لم يفعل أكثر من أن ضغطها إلى صدره بعنف أثناء مراقصتها . وأخذ يتحسس انحدار خصرها ، ممعنا فى إثارة نفسه وإثارتها!.. وربما كان قد خطر ببالها أن تنام على ذراعه ، فقد كان فى عينيها بريق متحفز ، ودعوة ملحة . لكن بشارا لم يكن له مثل جرأتها . . وهكذا ظل الباب موصداً ، والأرض البور قاحلة جدباء ، واللوحة الفارغة قطعة قماش لم تلون بعد !

* * *

يصعب القول متى وكيف بدأت عملية المطاردة المستترة . فى يوم الافتتاح ، وكان عبدالرحمن يقف بكل عظمته بين جمهور غفير من المثقفين ، وأدعياء الثقافة ، وأشباه الفنانين ، وقطيع كبير من سيدات رصعت صدورهن وأصابعهن بالجواهر والحلى ، وهاتيك يكن فى العادة ممن يغرمن برجل تخطى الأربعين ، ويضع على عينيه نظارات طبية بإطارات سوداء أنيقة ، له شعر بلون الرماد ، وتاريخ طويل حافل بالنضال الفنى والسياسى .

يومئذ ، وكان المجد يحيط به من كل جانب ، لمح سامية تقف فى زاوية منعزلة بجانب النافذة ، ترقبه من خلال دخان سيجارتها الذى لا ينقطع . وادعى عدم رؤيتها ، وادعت هى عدم المراقبة . وغيرت موضعها ، وغير موضعه . ولكن ، وبعد انقضاء دقائق ، وجد نفسه مراقباً من قبلها ! وعندما لحظته استدارت بوجهها وادعت الانشغال بمراقبة اللوحات ! . . وتكرر الموقف ، تكررت المراقبة ، وتكرر التهرب. وبعد ما كان يظن أنه لا يعبأ بها ، أخذ يتحين الفرص لضبطها متلبسة «بفعلة» النظر إليه . لكنها كانت أذكى من أن تدعه يضبطها ! . . وكان هناك عاملان يثيرانه ويؤثران فيه : كان هناك ذاك الشريط الحافل بالذكريات ، ذكريات ما قبل الاعتقال ، وذكريات ما بعد الاعتقال . هذا يجذبه

وذاك يبعده ، هذا يثير حنينه وذاك يثير غضبه ، واستفاق فجأة ليجد نفسه غاضباً منها ، وتساءل متعجباً : « ألم أكن غير عابئ بها ؟ لقد نسيت ألمي وغضبي ، نسيت الجرح العميق الذي خلفته في قلبي وكرامتي . وها أنا أجد نفسي فجأة غاضباً ، جريحاً ، مهاناً . فماذا يعني هذا ؟ أنني ما زلت أعبأ بها ؟ » . . وعندما خرج زوار المعرض جميعاً ، ولم يبق إلا أفراد المجموعة ، أخذ يبحث بعينيه عنها ، لم يكن يريدها أن تذهب . وأحس بارتياح شديد حين خرج إلى قاعة الكتب ورآها من خلال القاطع الخشبي المزخرف تجلس وراء المكتب ، تدخن بصمت ، وتراجع مجموعة من الأوراق والقوائم . ولمحته ينظر إليها ، فتهرب بعينيه وأسرع متجهاً نحو أحد رفوف الكتب يختبئ خلفه ، وكان ذلك الجزء من القاعة شبه مظلم ، إذ كان الوقت غروباً متأخراً . ورأى كرسياً وحيداً يقبع بين رفين متقاطعين ، فجلس عليه وأخذ يفكر بإصرار : « لن أدعها تسيطر على تفكيري ثانية . لن أدعها تعبث بي مرة أخرى ، فأنا لا آبه لها ، ولن أعبأ بها ! » . . وكانت هي تفكر وقلبها يدق بانفعال : « هل كان يرقبني ؟ هل رأيت في عينيه اهتماماً ! هل تعمد النظر إلي ؟ » . . في حين كان هو يسترجع الماضي البعيد : « في ذاك الحقل ، بجانب قريتنا البعيدة ، وكان الربيع يفرش الأرض بألوان . . ألوان . . ألوان . . مروج . . مروج من أزهار « البانسيه » ، و« المرجريت » الصغيرة تضيء العالم بعيونها الصافية كعيون الأطفال . ومن بعيد ، رأينا حقلا يمتد بامتداد النظر . كان لونه زهرياً يميل إلى الزرقة . حقلا لا حدود له من زهيرات ثدي البقرة . وأخذنا نركض إليه ، نركض ، نركض . . . وارتمت عليه بفرح الأطفال الصغار . وانفرش ثوبها الأصفر حولها حلقة من نور . كانت تعرف أني أحب الأصفر . . وكانت جميلة . . . جميلة . . ! والعالم جميل : الربيع . . الحشائش . . وبساط الزهر غير المحدود . وكان كل شيء يصطبغ باللامحدودية . العالم بلا حدود . . .

والجمال بلا حدود . . وأحلامنا . . وحبي لها . . كل شيء بلا حدود !

«كنت سعيداً . . كنا سعداء . لم أحس يوما بسعادة أكثر . حتى ولا في ( عمان ) ، يوم مجدتني الصحافة وطبلت لى الأجواء الثقافية . . ولا يوم بيعت إحدى لوحاتي بمئات الدنانير . صحيح أن الفن سعادة ، لكن الحب هو القمة ، قمة السعادة . فكيف أحاول أن أثبت غير ذلك في مقالي المزيف ، بقولي إن الفن هو الحقيقة الباقية أبداً ، و إنه الحب الأبدي الذي لا ينطفيء ، ولا يبرد أواره . . الحب المقدس الذي كلما أحبه الإنسان ازداد حبًّا ، والطعام الروحي الذي كلما أكلنا منه ازددنا جوعاً . ولكن للحب رعشة حساسة تثير كل خلايا الجسم والروح والأحاسيس . وكنت أحبها ، وكانت تحبني ، هكذا كانت تقول ، وكنت أصدق ، وكنت سعيداً إذ صدقت . هه ! . . كانت تدعى أنها ستموت إذا تركتها ، وأنها ستقطع شرايين يديها إذا رأتني أغازل امرأة أخرى ، وأنها ستغتالني بدون رحمة إن أنا فكرت في واحدة غيرها . فكيف تركتني إذن ؟ كيف تركتني . . . ؟ ! ! »

وكان ينوى أن ينهض مسرعاً ليذهب إليها ، يدفع الباب ، يغلقه بالمفتاح ، يشدها عن كرسيها ، يهز كتفيها وينظر في عينيها مباشرة — لأول مرة منذ عشر سنوات ! — ويسألها صارخاً : « لم تركتني . . ياخائنة.. يامتوحشة . . يا من أحببتك حب الإنسان لنفسه ! » . . ولكنه لم يفعل . بقي في مكانه يقطر عرقاً وألماً وغضباً . فقد عاد الماضي ، عادت الذكرى بألوانها الحية ، عاد الألم من جديد ! . . وسمع أصواتا من وراء الرفوف المجاورة ، كانت أنات وتأوهات ، وصوت رجل يهمس بلهجة فاترة :

— حبيبتي . . حبيبتي . .

كان صوت « بشار» !

وسمع صوت احتكاك أقمشة الملابس ، وكانت المرأة تتأوه وهى تردد زجراً ، فيه من الدعوة أكثر مما فيه من الردع ! . . والتفت عبد الرحمن

نحو مصدر الصوت ، ولكن الرفوف كانت تحجب الشخصين . ومن خلال الخشب كان هناك شق طويل رأى من خلاله بشارا يعانق « سهى » ، يتحسس خصرها وظهرها ، يغمر وجهها بالقبل وهو يلهث : «ستكونين لى.. لن أتركك ! » . وكانت تهمهم حين تجد مجالا لعتق شفتيها من فمه :

ـ أتركنى . . أتركنى !

وتلف ذراعيها حول عنقه وتشد رأسه إليها أكثر وتقول : « أقول لك اتركنى ! » . ويبدو أن بشاراً كان فى أوج الاشتعال ، إذ قال وهو يعصرها : « سنتزوج » . . وأجفلت هى ، ودفعته عنها ، وقالت وهى تحاول تمالك نفسها : « لا . . أنا لن أتزوج ! » . . قال وهو يمد يديه إليها ثانية : « بل سنتزوج . . فأنا أحبك . . ألا ترين أننى أحبك ؟ ألا تصدقين ؟ » . . فارتمت بين ذراعيه وهى تنشج برقة مثيرة : « وأنا أحبك . . لكننى لن أتزوجك ! » . . وابتسم بشار وهو يشدها إليه بعنف كاد يطبق على أنفاسها ، وأخذ يهمس فى أذنها بكلمات مثيرة ، وهى تتلوى بين ذراعيه وتقول ببطء :

ـ أنت عنيف . . عنيف . . عنيف !

وعندما استفاق عبدالرحمن ، أحس بالخجل من نفسه ، ولكنه كان منفعلا لأقصى درجة . لقد ذكره الموقف بمواقف ملتهبة مشابهة وقفها مع سامية قبل عشر سنوات ! . . وبقى جالساً فى مكانه فترة طويلة ، حتى بعد أن ذهب بشار ورفيقته . وسمع وقع أقدام تقترب ، كانت أقدامها ، خطواتها ، نفس الإيقاع الذى حفظه عن ظهر قلب ، تلك الخطوات التى كانت تشابه خفق النبض فى قلبه . واقتربت الأقدام . . أكثر . . وأكثر . . هنا . . وهناك . . وأخيرا وقفت . ورآها أمامه . . قالت بجدية غريبة : « معذرة » ، واستدارت متراجعة !

« جاءت تبحث عنى . . تبحث عنى . . ولكن . . فلتبحث ، فلتبحث العمر كله ، كما بحثت عنها ولم أجدها ، فى ذلك الوقت . .

فى أحلك ساعات العمر . . فى وحدة السجن . . تحت وطأة التعذيب بين يدى الربانية .. لم أجدها .. لم أجد حتى طيفها يقف معى ، يساندنى ، يواسينى . . حتى حبها ، حتى روحها ، حتى نفسها ، حتى كل الروحانيات التى يحتويها الإنسان كانت قد أخذتها بعيداً عنى ، وأنا فى أشد الحاجة اليها ! تركتنى وراء القضبان وذهبت . . تزوجت من مغترب ثرى ، وتركتنى وحدى . . وها هى ذى تبحث! فلتبحث كما بحثت أنا عن طيفها ولم أجده.. كما بحثت عن حبها ولم أجده . . كما بحثت عن ذكراها ولم أجد سوى العذاب والألم ! »

وكانت هى تقف أمام نافذة القاعة المظلمة تنظر إلى العتمة فى الخارج ، والريح تصفر ، والمطر يتساقط ، وفروع الشجر تهتز ، وكانت الدموع تنهمر من عينيها ، وقلبها يئن بلوعة : « لقد نسينى . ماعاد يعبأ بى.. هل كان يحلم بمقال جديد ، أم بلوحة جديدة ؟ » . ودخلت المكتب ، وأغلقت الباب ، وأنزلت ستارة ثقيلة على القاطع المزخرف ، وهبطت على أريكة فى الزاوية وأخذت تبكى فى الظلمة . كانت ترتجف ، تنصهر ، تموت ! . . وأخذت تضغط راحة كفيها إلى شفتيها وهى تتخيل أنها كفه هو ، وتهتف من أعماقها : « ليتنى أموت . ليتنى أموت! » . . وقفت وراء النافذة الصفراء ، وأحست أغصان الخنشار الباردة تدغدغ وجهها الساخن . وكانت ما تزال تشد كفها إلى شفتيها وتتمتم بوله ، من خلال شهقات البكاء : « عبدالرحمن.. عبدالرحمن .. عبدالرحمن .. »

وكان هو يفكر : « فى ذاك الحقل ، بجانب قريتنا البعيدة ، والربيع يفرش الأرض بألوان . . ألوان . . ألوان . . وكان ثوبها الأصفر مفروشاً حولها كحلقة من نور . . استلقت على الأرض ، كانت تنظر إلى بابتسامة لن أنساها .. لن أنساها . . كانت فى ابتسامتها شفافية ، حساسية ، إشراق نرجسة طويلة العنق ، ندية الشفاه . وكنت أمسك بيدها الناعمة أتحسسها بشفتى . . ونامت على ساعدى . . وكان وجهها قريباً من وجهى..

وكنا نتبادل . . آه . . وكنت سعيداً . . كنت أحب رائحة شعرها الأسود الناعم . . وكانت تقول إنها ترى فى عينى إشعاعاً ذرياً سيكون السبب فى إحداث عاهة لديها إن أنا واصلت تسليطه عليها ! . . وكانت تمسك بنظارتى تسحبها . . وتغلق عينى بشفتيها ! »

وكانت هى ما تزال تبكى : «لو يعرف أنى خنت نفسى أكثرمما خنته ، وأنى منذ بعدت عنه بعدت عن ذاتى ، فكل الأشياء أصبحت تافهة ، الألوان كالحة ، الطبيعة ما عادت جميلة ، وأنا كذلك ما عدت جميلة . »

وفتح باب المكتب ، ورفعت رأسها المتعب ونظرت . كان هو . . وظلت تنتظر . . تنتظر . . لكنه عاد متراجعاً . أغلق الباب ومضى . وسقطت فى شبه غيبوبة : «أهو يحاول الانتقام ، أم أن ذاك مجرد صدفة؟» وكان هو يفكر بحزم : « لن أضعف ثانية مهما حدث ، مهما تعذبت ، مهما جننت ، مهما حدث . فهى ليست أكثر من خائنة تافهة ! »

* * *

وكانت تلك هى الليلة الأولى التى تسهر فيها مع المجموعة . غسلت وجهها ، أعادت زينتها ، شدت قامتها ودخلت . وهلل الجميع لقدومها ، ولم تنظر حواليها ، فقد كان يحتسى الوسكى وهو يتعمد عدم رفع عينيه إليها ، وقد استطاع ذلك ، لكنه لم يستطع رفع عينيه عن الشابين العاشقين اللذين كانا يتبادلان الأحاديث والنظرات واللمسات المشتعلة . . ولقد كان عاشقاً مثلهما يوما . وكانت هى مصممة على فكرة معينة : ستجذبه إليها من جديد ، لا على أساس أنها حبيبة سابقة ، بل على اعتبار أنها امرأة جديدة تدخل حياته ، ولابد أن تدخل ! . . وابتلعت مقداراً من النبيذ أعاد الدم إلى وجنتيها ، وأخذت تفكر فيما يشغلها عنه وعن ذكرياته . كانت تريد أن تمحوه تماماً ، أن تغسل نفسها منه ، وتحاول فعل ذلك معه . ستنسيه سامية القديمة وستعود إليه امرأة أخرى ، أكثر نضجا وذكاء وخبرة . صحيح أنها ما عادت جميلة كذى قبل . لكنها واثقة بأنها ليست بشعة . وعبدالرحمن لا يأبه

كثيراً بالشكليات والمظاهر ، فهى تعرفه جيداً . كان دائما يعجب بالشفافيات . بالروح ، بالفكرة ، شأنه شأن كل فنان أصيل !

وكان فاروق يجلس بين إيفيت وسميرة ، وشكرى يعزف ألحاناً مملة على البيانو ، وبشار وسهى يجلسان فى أريكتين صغيرتين متلاصقتين ، وهما لا يكفان عن الحديث وتبادل النظرات واللمسات! . . ونسرين تجلس على مقربة من عبدالرحمن ونزار اللذين كانا فى شغل شاغل عن المجموعة باحتساء الوسكى والتقاط حبات الزيتون وقطع الجبن الصغيرة. وقام فاروق وبدأ يراقص إيفيت تارة ، وسميرة تارة أخرى . وكان مشهداً طريفاً ، وكان الثلاثة فى غاية الانشراح من هذه الرقصة الثلاثية المستحدثة . وقالت سميرة ضاحكة :

ــ أراهن بأنك تستطيع مراقصة ثالثة !

وكانت نسرين ترقبهم بتسلية ، فقفزت ومدت له يدها ، فتناولها وترك الاثنتين واقفتين تنتظران رحمته أن تشملهما ! . . وقال عبد الرحمن معلقا على الموقف : « يبدو أنك تطبق منهاج : للرجل مثنى وثلاث ورباع » فأفلت فاروق يد نسرين وأخذ يتلفت حواليه وهو يتساءل : « وأين الرابعة؟ هيا . . من ستكون الرابعة ؟ » . وأخذ ينادى : « يابشار ! أقرضنى حسناءك لحظة . » . . وتقدم من سهى برشاقة ، فقامت معه ، ودارت بضع دورات ثم عادت تجلس بجوار بشار الذى كان قد اقترب من نزار وبدأ حديثاً ضاحكاً معه . وأخيراً وقف فاروق وسط القاعة ، وصفق بيديه بحركة تمثيلية ملفتاً انتباه الموجودين وقال : «والآن ، سيداتى ، سادتى ، المشهد الختامى لما قدم إليكم ، وهو قمة ما وصل إليه الفن الحديث » . والتفت إلى شكرى وقال راجياً ، بتعاظم : «موسيقارنا العظيم ، هلا عزفت لنا شيئا من « الفالس » ؟ ! » . . وابتدأت أنغام الفالس الحانية ، ناعمة رقراقة ساحرة . وأخذت كل فتاة تقول «هذه الرقصة لى» . واقترب فاروق من إيفيت وتساءل : « أتوافقون على هذه ؟ » . صاحت الفتيات : « لا . . »

. . واقترب من سميرة وتساءل : « وهذه ؟ » . . صاحت إيفيت بغيظ : « لا . . » . . وعندما اقترب من نسرين ، لم يجد من تعارض فى اختيارها ، لكنه عندما وصل إليها غمزته وهمست : « خذ سامية ! » . . وحملق بعينيه متسائلا ، فأكدت بهزة من رأسها . وانفلت فاروق مغيراً اتجاهه ، ووقف فجأة أمام سامية وقال بأدب :

ـ سيدتى الجميلة .

ومد يده بحركة تمثيلية فائقة الظرف . فأخذت ترمقه بابتسام كما لو كانت تتساءل : « وما نتيجة هذا المزاح ؟» . وقالت نسرين مشجعة : « هيا . . هيا . . أثبتى أنك أمهر منه ! » وأيدتها سميرة : « نعم ، أثبتى أنه رقاص وليس راقصا ! » وصفقت سهى مرحبة بالفكرة ، وأخذت تنادى : « إذا لم ترضى بفاروق ، رشقتك برفيقه ! » . وصاح بشار : « كلى تحفز ! » . وأخذت سامية تهز رأسها وهى تبتسم . . فصاح نزار من مكانه : « أتعرف لم ترفضك ؟ » تساءل فاروق : « عرّفنا يا علاّمة عصرك ! » . أجاب نزار : « لأنها بانتظارى أنا ! » . وقام واقفا واقترب منها وقال هامساً : « هيا . . لا تخذلى عظمتى أمامهم ! »

ابتسمت ، ومدت يدها إليه وهى ما زالت تبتسم ، فأخذوا يصفقون مهللين . وعلقت سميرة بصوت مرتفع : « السيدة سامية تعرف كيف تنتقى ، وقد انتقت رجلا ! » . فضحكوا ، بينما أخذ فاروق يحدجها باسما ويسألها : « وما أكون أنا ؟ » . قالت هامسة : « سل المرآة » . قال مغيظا : « سأجعل منك مرآتى ، وأنا أتحدى إن كان بإمكانك إنكار ملامح رجولتى ! » . فاحمر وجهها ، وانفلتت هاربة من جانبه لتندس بجانب سهى .

ثم نهضت سامية ترقص بنعومة مع نزار . وكان هذا يتأملها بإعجاب ومودة . وعلق هامساً : « يبدو قلقاً ! ؟ » . قالت باسمة : « أريده أن يبدو هكذا ، بل أكثر من هذا ! » فسألها : « ألا تخافين ؟ »

قالت بسخرية مريرة : « وم أخاف ؟ أن أفقده ؟ لقد فقدته وانتهى الأمر . ألا أراه ثانية ؟ وهذا ما سيحدث حتما . أن أغضبه ؟ وهذا ما أريد . أريده أن يغضب . أن يذكى غضبه ! » . وتذكرت فكرتها فى محو عبدالرحمن من مخيلتها ومحاولة الظهور له بشكل امرأة جديدة! وسألت نزارا رأيه ، فأبدى عدم موافقته ، قائلا : « ستفقدين أصالتك التى هى سر جمالك . شخصك الحقيقى هو الذى أحبه عبدالرحمن ، فلا تشوهيه . يكفى أن الظروف قد وضعت ما يكفى من العراقيل والشوائب ، فلا تزيدى المسألة تعقيداً . وعبدالرحمن حساس جداً ، ولن تستطيعى خداعه أو التمثيل عليه ! » . قالت بيأس : « ماذا أفعل إذن ؟ أنا لن أركع عند قدميه ! » . قال بتفهم : « لا ، فهذا ما سيزيد من نفوره». وصمت لحظات ، ثم قال بعد تفكير : «ابقى كما أنت ، فإما أن يعود إليك وأنت ما أنت عليه ، أو لا يعود إذا كان مآله أن يتركك بعد أشهر . والآن..» وابتسم فى وجهها وقال : « أرى أمامى الآن ثمرة ناضجة تغرينى بما لا قدرة لى على مقاومته ! » . قالت ضاحكة : « أواثق من سلامة أسنانك؟ » وأخذا يضحكان .

وكانت الموسيقى ناعمة على غير عادة ، وكان ثوب سامية الأصفر الناعم يتموج بحركات أثيرية ، وعلى وجهها ابتسامة فيها شفافية ، حساسية ، إشراق نرجسة طويلة العنق . . وثوبها ينفرش حولها كهالة من نور . وعبدالرحمن يرقبها بانشداه . وعلقت نسرين بفرح : « أترون كم هى رشيقة ؟ ألا تعتقدون أنها جميلة ؟ » . قال فاروق : « تذكرنى بأميرة موناكو ، فيما عدا أن أميرتنا سمراء خمرية » .. وكانت سميرة ترقبها بإعجاب فريد ، وتتساءل : « كيف تستطيع المرأة أن تكون رقيقة بهذا الشكل؟ ». فقال فاروق : « عندما تكف عن حشو رأسها بحكايات سخيفة عن الشاكوش والرقاص ! » . قالت بأسف ضاحك : « فعلىّ رحمة الله إذن ! » . وهمس نزار لسامية : « إنه يرقبك ! » . قالت بصوت متهدج :

« أكاد أحس بنظراته تخترق ظهرى ! »

واستمر فى الرقص . وكانت تبدو كطيف خيالى ، وعبدالرحمن يرقب خطواتها الرقيقة ويهز رأسه على وقع الأنغام بدون وعى ! كان هناك عاملان يعبثان بنفسيته : الوسكى ، وطيف المرأة التى أحبها كما لم يحب أحداً من قبل — وربما أكثر مما أحب فنه ، وهذا شىء غير طبيعى بالنسبة للفنان ! — وكان مستغرقا فى التفكير : « تبدو أكثر جمالا من الماضى ! أم أننى سكران ؟حزن عينيها يزيد من جاذبيتها . . إذن فصحيح أن الحزن يزيد من جاذبية المرأة بالنسبة للرجل . لماذا ؟ ألأنها تشعره بأنه الأقوى ؟ ألأن الحزن يذكر الرجل بأنه الجانى ؟ وعندئذ يكون حب الرجل كما يكون حب الجانى للضحية ؟ ! مسكين أيها الإنسان ، ما أعقدك ! . . ومسكين أنا ، ما أبلهنى ! . . رجولتى وعزتى تأبيان لى أن أكون فى وضع المجنى عليه من قبل هذه المرأة ، فتحاول مخيلتى أن تخلق لها هى وضعاً حزينا ، لتبدو فى دور الأضعف ، حتى أكون أنا فى دور الأقوى ! . .سلسلة من العبث : فمن الذى يعبث ؟ نحن بأنفسنا ، أم أنفسنا بنا ؟ يذكرنى ثوبها بيوم بعيد ، فى حقل بعيد . . وكان الربيع يفرش الأرض بألوان . . ألوان .. ألوان . . هيه! لن أعود لنبش الماضى . . ولكنى أتساءل : لماذا يجعل الحب المرأة أكثر إثارة ، وحساسية ، وجاذبية ؟ . . وصوت المرأة العاشقة فيه رنة تدغدغ الحواس : كصوت سهى حين كانت بين ذراعى بشار .. كصوت سامية يوم نامت على ساعدى فى الحقل البعيد . غريب ! حتى أكثر النساء خشونة يصبحن لينات فاتنات مثيرات . وحين تمتلىء قلوبهن حباً يضحين شهوانيات ! أظننى بحاجة لامرأة هذه الأيام ! »

وسألته نسرين : « ألا يعجبك ثوب أختى ؟ » . همهم بدون وعى : « طبعا . . يبدو كقطعة من الشمس ! » . . قالت نسرين مفسرة : « سامية تحب الأصفر . تقول إنه يذكرها بشبابها » . وأخذت تضحك : « أختى غريبة الأطوار ، تظن أنها باتت عجوزا ! » . أخذ عبدالرحمن

ينظر فى عين نسرين بدون تركيز ، وتساءل بلهفة سكرى : « من ؟ أختك عجوز ؟ فما أكون أنا ؟ » . وكان الوسكى قد بدأ يعبث بتوازنه ، فأخذ يردد كمن يحلم : « الأصفر يجمع بين صفات الألوان الشفافة والألوان الصاخبة . فهو مثير ، ومع ذلك فهو رقيق ! » . وواصلت نسرين : « وهو مشرق لأن فيه وهج الشمس وتألقها ! » . قال بكآبة : « وهو كئيب لأنه يذكر بالذبول والمرض ! » . قالت نسرين : « فيه خصب القمح المحصود » . قال : « وفيه فتور الأوراق الخريفية المتساقطة » . قالت : « فيه طراوة عيون النرجس البرى » . . فأجفل قليلا ، ونظر فى وجه نسرين بعينين خدرهما الوسكى : « من أين جئت بأوصاف الأصفر هذه ؟ »

— لم تبتكرها قريحتى ، فقد سمعتها من سامية .

قال بحدة المخمور المضعضع : « بل هى منى . . من فيض قريحتى أنا ! » . نظرت نسرين فى وجهه بعجب ، وقالت بلطف : « أستاذى ، هل آتيك بفنجان قهوة ؟ » . تساءل بخجل : « هل أبدو مخمورا ؟ » . قالت بابتسام : « قليلا . » . . فوضع الكأس من يده وقال : « سأتوقف عن الشراب . . وعن النظر إليها » . تساءلت نسرين : « إليها؟ من هى ؟ » . قال بكآبة : « لا . . لا شىء » . قالت بخبث : « ألا تعجبك ؟ » . تساءل مضطربا : « من ؟ » .

— أختى سامية !

أجفل وقال : « بلى . . فهى سيدة محترمة » . وسكت قليلا ، ثم عاد يتساءل : « ولكن ، لم هذا السؤال ؟ » . أجابت : « لأنى لم أرك مرة واحدة تكلمها بألفة ! » . قال متذرعاً : « أختك غير ميالة للمرح ، ثم إننى أحترم انزواءها ، فقد تكون فى غنى عن صحبتنا ! » . قالت نسرين ساهمة : « مسكينة أختى ، أعتقد أنها تعيسة جداً » . قال مستدرجاً : « كل أرملة تحس بإحساسها » . فقالت دون وعى : « ولكنى لا أعتقد أن موت

زوجها هوسبب تعاستها ، فهى لم تكن مغرمة به ! » . فسأل مستغرباً : « لم تكن ؟ ! » . أجابت : « لا . . وأظنها كانت تضيق به ، رغم محاولاته المستمرة أن يكون لطيفاً ومرحاً ومؤدباً . . » ، فعاد يسأل باهتمام : « وما السبب إذن؟ » . قالت نسرين : « إنها تبدو كمن تعيش فى «زنزانة» نفسية ، فرغم حريتها السطحية إلا أنى أعتقد أنها مكبلة من الداخل! »

قال باهتمام : « كيف ؟ » . قالت بحيرة : « لا أدرى . . فهى قليلة الكلام ، انطوائية ! » . وأخذت ترقب أختها بإشفاق ، وعادت تقول : « للمرة الأولى منذ سنوات أراها تبتسم ابتسامة متسعة بهذا الشكل ! »

ـ وكيف كانت تبتسم من قبل ؟

قالت بحيرة : « لا أدرى ، ولكن ابتسامتها لم تكن ابتساماً ، كانت نوعاً من البكاء الجاف المعكوس ! » . تساءل : « بكاء جاف معكوس؟» ضحكت ضحكة صغيرة وقالت : « هذا ما أعتقده». تساءل : « أليس لها أصدقاء ؟ »

ـ أبداً ، فهى ترفض أى نوع من الصداقة . أتدرى ! أحياناً أظنها تعيش فى عالم غير عالمنا ، عالم الأشباح مثلا . ربما كان لها أصدقاء منهم!

وأخذت تضحك ، وقالت وهى تغطى فمها بيدها : « اعذرنى ، يبدو أننى أنا المخمورة الآن ! » . فابتسم وقال مشجعاً : « بل أنت فتاة ذكية». قالت بامتنان : « أشكرك ، فأنت ترفع من معنوياتى » . ثم قالت فجأة : « صحيح ، نسيت أن أقول لك إن " نزار " هو صديقها الوحيد . إنه رجل طيب ، ألا تعتقد هذا ؟ هو مهذب» . فأجاب : « فعلا ، وهو صديقى القديم أيضاً . لم نفترق إلا أثناء اعتقالى وخروجى من البلاد . ولكنك لم تقولى لى : متى رجعتما من أمريكا ؟ » . أجابت : « مضت الآن على رجوعنا سنة ونصف تقريباً » . فعاد يسأل : « وهل رجعتما حال وفاة المرحوم ؟ » . قالت مصححة : «لا ، بل بقينا هناك سنة . ولكن سامية كانت تحن للعودة إلى الوطن ، فهى من ذاك النوع الذى يعتقد أن للأرض

رابطة تشد الإنسان ! » .

ــ وأنت ، ألا تعتقدين هذا ؟

ــ لا ، فالمكان الذى يوفر لى سعادة أكثر ، هو الذى يشدنى أكثر !

قال بتأمل : « يجب أن أناقشك فى هذا الموضوع حين أكون صاحيا تماما ! » . قالت باسمة : « أتريد إقناعى بما فشلت فيه سامية ؟ » . قال محاولا السيطرة على تركيزه : « نعم . . » ، فقالت مبتسمة : « ستتعب معى ! » . قال : « تعب الواجب راحة » .

قالت وهى تهز رأسها : « لن أقتنع ، فهذه البلاد تعيسة وكئيبة . الناس هنا سلبيون وكثيرو التأفف . ووضع المرأة هنا مضحك ومقرف . وأنا امرأة . . أقصد فتاة . . وتعاليمهم يجب أن تطبق على أيضا ! » قال بتفهم : « أفهم ما تحسين به ، ورغم هذا سنتحدث ونتناقش حين أكون فى كامل وعيى ! » . قالت نسرين : « كانت سامية تقول إنها ستكون فى وطنها أكثر سعادة ، والذى أراه أن وضعها لم يختلف ، فهى باقية كما كانت : انعزالية ، انطوائية ، تعيسة . والوطن لم يسعدها ، بل أشقانى أنا أيضاً . . وهى ما زالت شقية ! » . قال مستدرجاً : « شقاؤك أنت سنجد له حلا : أما شقاء أختك فما هو مبرره ؟ ثم كيف تعرفين أنها ما زالت شقية ؟ » . أجابت فى عفوية : « كيف أعرف ؟ ألا ترى ذلك الحزن الذى يسكن فى قاع عينيها ؟ إن أحداً لا يخطئ التكهن بذلك من أول نظرة . أتعرف ؟ أذكر قبل ذهابنا لأمريكا ــ رغم أننى كنت صغيرة حينذاك ــ أنها لم تكن بهذا الشكل . لقد كانت إنسانة أخرى . كانت غيرها الآن ! . تساءل فى شرود : « حقًّا ؟ » .

ــ نعم . . نعم ، أنا واثقة بأنها لم تكن بهذا الشكل !

* * *

وكانت الموسيقى قد توقفت ، والمجموعة تصفق للراقصين اللاهثين . . فى حين أخذ هو يراجع فكره : « الأصفر يذكرها بشبابها . أى بالفترة

التى عرفتها فيها ؟ ؟ وهل صحيح أنها لم تكن سعيدة مع زوجها ؟ أتكون قد احتفظت بذكراى ؟ . . هه . عدنا للسخف . . اسمع يا عبد الرحمن ! أين المنطق ؟ . . امرأة تظل تذكر رجلا طوال عشر سنوات ! ! أهذا منطق ؟ ولكن ألا يجوز أنها لم تلق رجلا يملأ فراغها أكثر منى ؟ بل ربما كان ضميرها يعذبها بشأنى . يذكرها بى باستمرار ، حتى باتت تحب عذابها أكثر من حبها لى . هناك أناس يستسيغون العذاب ، يبحثون عنه ، يستمرئون طعمه . وهؤلاء فى العادة مرضى . وقد تكون هى مريضة . ولكنها لوكانت من هذا النوع لاستعذبت ألم انتظارى ، ولانتظرتنى ! لكنها هربت ، وهذا دليل الضعف والجبن . والمرأة مخلوق ضعيف ، ولهذا نحبه . لا ، لا ، أنا أحب المرأة القوية ، الصبور ، ذات المبادئ والمثل . أنا لا أجد فى المذلة أنوثة كما يجد رجال الشرق . أنا أحب المرأة الصلبة بدون عنف ، الرقيقة بدون ميوعة ، الجميلة بدون غرور . وقد كانت هى رائعة . أى رجل كان باستطاعته أن يحبها كما أحببتها ؟ وأى رجل كان باستطاعته إقناعها كما أقنعتها ؟ كانت تقول بأنى « خارق » ، ولا أعتقد أن هناك الكثيرين ممن تسميهم « خارقين » . وهى ليست امرأة عادية ، فإن لها نفسية فنان . ولو أنها غير منتجة . أى أنها من صنف الآلهة غير الخلاقة . وبهذا فهى لن ترضى بأى رجل ! . . ولكن ، أترانى أحاول إيجاد ثغرة أنفذ منها إليها ؟ . . أحاول تبرير موقفها منى ؟ . . أحاول إقناع نفسى بأنى كنت السبب فى تعاستها ؟ أحاول إثبات أن ذكرياتنا معا ما زالت ترسب فى مخيلتها ؟ حتى أنا نسيت هذه الذكريات ، فكيف لا تنساها هى ؟ . . ولكن ، يقال إن المرأة أكثر تعلقاً بالذكريات من الرجل ! ثم إن الظروف التى مررت بها لا تدع لى مجالا لأجلس بهدوء وراء مكتب محاط بشتى الأجواء التى تذكر بأيامنا معاً ، كما تفعل هى ! . . اللون الأصفر باتت له قيمة خاصة عندها ، وهذا تعلق غير طبيعى ممن لا يعيش عالم الألوان كما نفعل نحن عباد

اللون والحركة . فلكل فنان لون معين يظل يدور فى فلكه مهما تنقل بين الألوان . فأنا أعرف برتقالى "جوجان" من بين ألف لوحة ، وأصفر " فان جوخ" ، ونبيذى "رمبرانت" .. هذه أشياء تخص الرسامين .. أما هى؟!

« وتلك اللوحة : « المرجريت » حين أهديتها لها كنت ما أزال رساماً مغموراً ، وكانت معرفتى بها سطحية . كانت تعجبنى مثل أية فتاة جميلة مثقفة ذكية . وكنت أعجب كيف تسنى لها أن تظل بعيدة عن« زنزانة» الزواج ، رغم أنها فى أواخر العشرينات من عمرها ؟ . . وقد أجابتنى عندئذ ضاحكة : « لم أجد الرجل الخارق بعد ! » . وسألتها : « وهل يجب أن يكون خارقا ؟ » . أجابت ضاحكة : « نعم ، إن كان يود الاقتران من إنسانة غير عادية » . فسألتها : « تعنين أنك غير عادية ؟ ».. فتطلعت فى وجهى بتحد ، وقالت : « ستحكم أنت بنفسك ! »

« ورأيتها عدة مرات . تناقشنا معا فى أمور كثيرة . انتقدت رسومى الفاشلة ، وحتى الناجح منها كانت تشير إلى موطن الضعف فيها ! وكنت أحتد ، وبعد تفكير ودراسة أجد أنها كانت محقة ، وأنها تمثل رأى الجمهور المثقف ، الحساس ، الصادق ! . . ومقالاتى كانت تقرأها حرفاً حرفاً ، وتناقشها كلمة كلمة ! لقد أحببتها بكل ما هى عليه من صراحة . وقالت مرة إلى إنسان خارق ، فسألتها : أهذا يعطينى تبريراً للاقتران بإنسانة غير عادية ، فضحكت . وبما أنى كنت فقيراً ، ومغموراً ، وملاحقاً من قبل الشرطة ، اتفقنا على أن تظل علاقتنا علاقة عواطف فقط ، ولو أنها لم تخل من أشياء طفيفة . ويوم أهديتها تلك اللوحة ، كما يهدى العاشق حلية لحبيبته ، كان يوماً مطيراً كهذا اليوم ، لقيتها فى النادى ، وأخذتها إلى غرفة المكتب الحالية ، وقلت لها أشياء حلوة . أسمعتها كلمات رقيقة . . وبكت بين ذراعى ! . . كانت حساسة ، وكانت حساسيتها تثيرنى ، تهزنى . كانت تعرف كيف تحب .. والنساء عادة يعرفن كيف يتلقين الحب ، ولكن لا يعرفن كيف يعطينه ! ..

ربما فى هذه البلاد فقط ، فالمرأة الغربية تجيد الحب أكثر من المرأة الشرقية ، وهذا منطقى . فالمرأة هنا مكبوتة ، معقدة ، وخائفة . وحين تندفع يكون حبها اندلاعاً . . انفجاراً . . كنار هوجاء مخربة !

أما هى فكانت تعرف كيف تحب . ربما لأنها كانت تحب بعمق ، وبصدق ، والنساء يصبحن مثيرات فاتنات ، شهوانيات ، حين تمتلىء قلوبهن حباً . حتى أشدهن جفافاً وأكثرهن خشونة ، تصبح طبيعة لينة ناعمة . وقد كانت هى جنية فى ثياب امرأة . والفنان يعشق الجن والأساطير والغيبيات . الناس والمجتمع والتقاليد ما كانوا يعنونها أكثر مما يعنيها قيام انقلاب فى ملاوى أو السنغال ! وأهلها كان معظمهم ممن اغتربوا لأمريكا ، وأمها كانت عجوزاً ، وبذا كانت سيدة نفسها ! ؟

* * *

وكان عبدالرحمن ينظر إلى سامية الآن بعينين زائغتين . وكانت هى ترتجف بانفعال تحت مجهر عينيه الحزينتين . وكان داخلها ينشج بلوعة وهى ترى دموعاً شفافة تغبش عينيه . . والكل فى انشغال : رقص ، وضحك ، وموسيقى . أما ذلك التيار الخفى من الحزن والشوق والألم ، فكان شريطاً لاسلكياً يربط بينهما رغم كل الحواجز ، رغم الاعتقال ، رغم الخيانة ، رغم السنوات العشر من الغربة والضياع . . رغم النسيان الذى لف ذاكرته ، والذكرى التى ما برحت عنصر الحياة المشوق بالنسبة لها . رغم المرارة والألم والغضب. كان بينهما ذاك الشريط الحساس . . يعيدهما . . يقربهما . . يربط بينهما . . وكان فى عينيه عتاب . كانت تسمع نداء عينيه . إنه نداء غاضب ملىء بالألم العميق : « لم تركتنى ؟ . . لم تركتنى ؟ . . لم تركتنى ؟ » .وأخذت دموعها تتساقط . وكان هو يفكر بذهول : « تبكين ! . . تبكين ! . . الآن تبكين ؟ إذن فأنت تعرفين كيف تبكين ! ولكن ما فائدة كل هذا وقد ضاع الحب ، بعد أن ضاعت الثقة ؟ »

وانسحبت هى من المكان . دخلت مكتبها المظلم ، وغرقت فى

غيبوبة من المرارة والتعاسة . . وكان هناك أمل ، أمل فى أن يتبعها ، أن يفتح الباب كما فعل قبل السهرة ، وأن يعاتبها ويلومها ويعنفها . . وأن يصفعها إذا اقتضى الأمر !

كانت تنتظر . . وعندما فتح الباب ، وكان هو يقف فى الظلمة ، أخذت تبتهل بصمت وهى ترتجف : يارب.. يا رب.. يا رب ! .. ويبدو أن الله لم يستجب لابتهالها ، إذ لم يقل عبدالرحمن سوى بضع كلمات وخرج . قال : « الدمع لا يمحو الخطأ ! »

وأخذت أعماقها تنزف : « منذ متى كان قاسياً ؟ منذ متى كان حقوداً ؟ ! » . . وكانت نسرين تقف بالباب تضىء النور وتتساءل بجزع : « ما بك . . ما بك ؟ أهو عبدالرحمن ؟ إنه مخمور ، لقد لاحظت ذلك ، رأيته خارجاً من هنا ، هل فعل شيئاً ؟ » . وكان نزار يقف خلف نسرين ، فقال بجفاف : « اتركيها ، دعينى أسألها » . واقترب منها وسألها : « هل تكلم ؟ هل تكلم؟ » . قالت من خلال دموعها : « الدمع لا يمحو الخطأ . . هذا ما قاله » . وسألها بلهفة : « وأنت ، ألم تقولى شيئاً ؟ ألم تقولى شيئاً ؟ » . هزت رأسها نفياً .

ــ وأين ذهب ذكاؤك ؟ أين ذهب الذكاء ؟ لقد كانت فرصة لا تعوض . كان يجب أن تستوقفيه ، وأن تقولى شيئاً يعيد الحنين إلى قلبه!

وكانت نسرين تردد بذهول : « ماذا أرى ؟ أنا لا أفهم شيئاً !! » . قال نزار وهو يستدير إليها : « اسمعى ، أنت ما عدت صغيرة ، ذاك الرجل كان يحب أختك ، وكانت هى تحبه ، وتزوجت أختك وتركته فى المعتقل ! » . فغرت نسرين فاها وتساءلت بذهول : « رجل كهذا يترك ؟ هذه فظاعة ! » . فازداد نحيب الأخت وهى تردد : « الدموع لا تمحو الخطأ . . الدمع لا يمحو الخطأ ! » .

. . وظلت تردد هذه الجملة طوال ليلها ، ورأسها على وسادتها الباردة ، والغطاء يغمرها بمزيد من الوحشة والحنين . وكانت تدفن رأسها

فى صدر خيالى لرجل خارق . . وكان ذاك ينام مخموراً وهو يردد : الدمع لا يمحو الخطأ !

كانت « سهى » تهتف وهى بين ذراعيه : « أنت عنيف . . عنيف . . عنيف ! » . . وكان مفروشاً على قباب صدرها ، يلثم وجهها بحنان ويقول : « أنا آسف . . آسف ! » . قالت هامسة : « أتأسف لأنك أسعدتنى ؟ » . وضاعا فى لجة من العنف واللطف والنشوة ! . . واعتقد بشار للحظات أنه امتلكها بكل ما فيها من حواس وأفكار ومواهب ، ولكنه أفاق بعد أيام ليجدها تقول له وهى لا تنظر فى وجهه : « نعم يا عزيزى . . أحبك لكننى لن أتزوجك ! » . . وصاح فى وجهها : « أمجنونة أنت ؟ » . ولم تجب ، بل قالت بهدوء : « لقد أفهمتك منذ البداية أنى لن أتزوجك ! » فأمسك بذراعها يهزها : « وذاك الحب ؟ وذاك العنف ؟ وذاك الالتحام ؟ » . قالت بشرود : « تجارب يا عزيزى » . وأصابه ذهول كاد يفقده عقله : « ومن ستتزوجين إذن ؟ » . قالت بابتسامة غريبة : « الفن » ! فصفق الباب وتركها فى غرفة الفندق ومضى.

وأخذ يتردد عليها . كل يوم نفس الحكاية : محاولات فاشلة لإقناعها بوجوب وحتمية الزواج ، وأن الزواج مرحلة لا بد من تخطيها ، وأنها إن لم تتزوجه هو فستتزوج غيره ، وطالما أنها تحبه كما تقول ، فلم لا تتزوجه وينتهى الإشكال ؟ . . وكانت تقول بترو : « أولا الزواج ليس فريضة حتمية ، فما وجد بعد شىء باستطاعة الإنسان أن ينعته بـ « المحتم » ، لأن لا حقيقة على وجه الأرض ، وكل شىء "جائز" ! » . ثم ابتسمت بلطف معلمة مدرسة ابتدائية ، وقالت : « هكذا قال زرادشت » .

وحملق بشار فى وجهها : « ما هذا التخريف ؟ ولا يهمنى من يكون زرادشت ! ولكن من هو زرادشت هذا ؟ سمعت عنه لكنى لا أعرفه ! » . فضحكت بحنان وقالت وهى تقرص أذنه : « أترى ؟ لن نستطيع الحياة

معا ، فأنا من طينة وأنت من أخرى ! » . وكان يعرف أن كل كلماته ستضيع سدى ، فهو فى واد وهى فى آخر . وهو لا يستطيع الإمساك بها ، فهى تحلق فى سموات أبعد من أن يطاولها حتى بالنظر . فلا يجد أمامه متنفساً إلا جسدها الفاتن . . وكان هو وحده الذى اكتشفه ، فقد أدرك أنه هو المكتشف الأول ، ويبدو أن هذا كان اكتشافه الأخير من ناحيتها ، إذ ما عاد بإمكانه التغلغل فى حياتها أكثر . فقد كانت تسير فى عوالم أخرى غريبة . كانت تفكر بطريقة غريبة ، وتتكلم بطريقة غريبة ، وتمارس الحب بطريقة أغرب ! . . وكان هذا العنصر الأخير هو عنصر الإثارة والتشويق بالنسبة له ، فبدلا من أن يفتر حبه ويبرد ، ازداد توقداً واشتعالا . لقد كانت غريبة فعلا ، وكان فى بعض الأحيان يشك فى أمرها ، فتصرفاتها توحي بشىء ما ، فهى إما نصف مجنونة أو أنها تتعاطى المخدرات . وقد كان يود أن يسألها عن ذلك خاصة ، يوم شم تلك الرائحة الغريبة فى غرفتها عصر ذاك اليوم ، ولكنه خاف غضبها فظل صامتاً . كانت غامضة كالأحجبة ، وربما كان غموضها قد زادها سحراً وفتنة ، فازداد تعلقاً بها ، وأخذ يلاحقها محاولا إقناعها بالزواج منه . وكان لا ينفك يسألها ، حتى فى أدق اللحظات وأشدها خشوعاً : « أتحبيننى ؟ » . . فتجيبه : « جداً » . . فيسألها : « أتتزوجيننى ! » . . فلا تتحرج من أن تصدمه بقولها : « لا ! » . . فيزداد معها عنفا ووحشية . . !

* * *

ومضت بضعة أيام ، وكان المعرض قد أوشك على النهاية . لم يبق سوى بضعة أيام وتنتقل اللوحات ، وينتقل عبدالرحمن ، وتنتقل سهى ، وينتهى كل شىء ! ولم يجد بشار سوى صديقه فاروق يشكو إليه همه وخيبته . وفوجئ ذاك بالموضوع تماماً ، فالكل على اعتقاد ثابت بأن بشارا وسهى متفاهمان ومتفقان على الزواج ، هذا شىء مفروغ منه ،

فما هذا الذى يسمعه فاروق من صديقه ؟ وقال فاروق بعد تفكير : « أمصمم أنت على الزواج منها ؟ أتريدها فعلا ؟ » .

ــ أريدها ، أريدها ! يجب ألا تفلت من يدى وإلا جننت !

وكان وضعاً يستحق الرثاء والعجب : امرأة ، عربية ، تخطت السابعة والعشرين ، ترفض زوجا ، موسراً ، متعلماً ، وسيما ! ! . . وقال فاروق: «سنشرك عبد الرحمن فى الموضوع ! » . فسأل بشار : «وما دخل عبد الرحمن؟» . فأجاب فاروق : «هو الوحيد الذى سيتمكن من إقناعها.»

ــ ولكن ألا تظنه يفكر بنفس طريقتها؟ والدليل أنه غير متزوج؟!

ــ وكيف يتزوج وقد قضى معظم أيام شبابه ما بين الزرقاء والجفر؟

قال بشار : « فعلا » . فاستطرد فاروق : « إذن فموعدنا الليلة ؛ وستكون السيدة « سامية » هنا . ستجىء هذه الليلة ، مهلا ، تلك هى نسرين فلنسألها . »

وكانت نسرين تقترب منهما . وحيت باسمة ، وهى تقول : «مرحباً ، ما آخر الأخبار ! هل قرأتم مقال عبدالرحمن الجديد ! له آراء غريبة فى الحب ! ». قال فاروق وهو يتأمل قبعتها الفرائية البيضاء : «تليق بك هذه القبعة» . فسألته : «تجربها ؟» . قال محذرا : «أترغبين فى رؤية دكتور زيفاجو؟». قالت : «لا أعتقد أنك ستقارن بين نفسك وعمر الشريف!».

ــ ولم لا ؟ أهو أكثر وسامة منى ؟

ــ معاذ الله ، وهل هناك من هو كذلك ؟

قال وهو يرفع رأسه وحاجبيه بكبرياء : « لم تلده أمه بعد ! » . . فتدخل بشار بجفاف : « يا أخى خلصنا . ألن تسألها ؟ » . قال فاروق وهو يفرك كفيه بحركة أنيقة : « لم تقولى لنا يا آنسة نسرين ، ما أخبار السيدة سامية ؟ » ، فأجابت :

« بخير ، أنفلونزا بسيطة ، لكنها ستجىء هذا اليوم . من عادتها أن ترقد فى الفراش بضعة أيام كلما أصيبت بالبرد . لكنها ستجئ إحالا .

لقد خرجت قبلى من المنزل . »

وسمعوا وقع أقدام تسير فوق الممر الخارجى المؤدى للقاعة ، ورأت نسرين أختها تمشى ببطء فوق بلاط ممر الحديقة. فقالت : «هاهى ذى».. وكانت علامات الإعياء والتعب بادية على سامية. كانت قد قضت ثلاثة أيام شاقة بعد تلك الليلة الكئيبة . وبرغم أن عبد الرحمن بدا كالضائع بعدها ، وكان يبدو واضحاً أنه يبحث عنها فى كل مكان ، لكنه لم يسأل أحداً ! وكانت نسرين قد أخبرت سامية بأنه كان بادى القلق زائغ النظرات ، فابتسمت تلك بتشاؤم غير المصدق ، وقالت إن كل ذلك إن هو إلا خيالات وأوهام ! . وقال فاروق لبشار : « ما رأيك فى أن تفاتحها أنت فى الموضوع ؟» « .. فاتجه بشار نحو الباب الزجاجى ليفتح لسامية وهو يقول : «هذا ما سأفعل !» . ومشى ليلحق بسامية ، فى حين تساءلت نسرين : « أى موضوع » . فأجابها فاروق : « تعالى أقل لك » . . وجلسا حول منضدة فى زاوية بعيدة ، وأخذ يقص عليها الموضوع : « بشار يعبد سهى . . . . سهى تحب بشارا . . بشار يود الاقتران بسهى . . سهى ترفض الزواج من بشار ، لماذا ؟ لا أحد يدرى ! أهناك مانع ؟ لا ، ليس هناك أى مانع على الإطلاق.. فبشار شاب مرح ، صيدلى ناجح موسر ، عائلته محترمة ، وسيم ومثقف ؛ وهى تحبه . أليس هذا غريباً ؟ » ، فهزت نسرين رأسها بحيرة وقالت : « لا أدرى ، ألا يمكن أن تكون مرتبطة برجل آخر ! »

— لكنها تحب بشاراً ، وهى ليست طفلة لتحب رجلا وترتبط بآخر!

— من المحتمل أنها تود تكريس نفسها للفن ، حسب نظرية عبد الرحمن فى مقاله الأخير .

— هذه خزعبلات ، فأى امرأة شابة ، جميلة ، فياضة الحيوية مثلها ، تستطيع الحياة بدون رجل ؟ إلا إذا كانت شاذة ؟ !

خبأت نسرين وجهها فى كفيها وأخذت تضحك ، فقال فاروق

وهو يرمق خجلها متحدياً : « أليس هذا صحيحاً ؟ قولى ، هل يستطيع الإنسان أن يحيا بدون الجنس الآخر طواعية ؟ قد تجيء ظروف قاهرة تمنع ذلك ، ولكنه لا يختار ! » . قالت نسرين : « فما بالك أنت ؟ ! »

— ومن قال لك إنى أعيش بلا نساء ؟ لا يا آنستى ، أنا رجل غير ميال للعفة أو الشذوذ !

فأخذت نسرين تقهقه . وارتفع صوت إيفيت المنغّم : « ما نوع النكتة ؟ دعونى أضحك معكم » . وجلست فى مواجهة فاروق ، وأخذ هذا يقص القصة من أولها : « بشار يعبد سهى . . سهى تحب بشارا . . بشار يود الزواج من سهى . . سهى ترفض الزواج من بشار . . لماذا ؟ إلخ » . . فقالت إيفيت بعجب : « أمر غريب فعلا . لو كنت مكانها لقبلت فوراً ، فهو شاب ممتاز . تعجبنى عضلات صدره وساعديه القويين ! » . ورمقها فاروق وابتسامة خبيثة على شفتيه . وأخذ يوجه لها نظرات غريبة لم تلحظها نسرين ، التى قالت ضاحكة : « يتساءل فاروق فيما إذا كان باستطاعة الإنسان أن يحيا بدون الجنس الآخر طواعية ؟ » . فقال فاروق وهو يرمق إيفيت بنظرات ساخنة : « هل يستطيع الإنسان أن يعيش بدون جنس ؟ أنا أشارك «د . ه. لورنس» رأيه حين يقول إن الجنس هو أصل المعرفة وأصل الحياة ، وإنه التحقيق الوحيد لذات الإنسان » . وكانت إيفيت تغض الطرف عن نظراته التى تحمل ألف معنى ومعنى ! . . وقالت نسرين : « من يعلم ، ربما كان هناك سبب يمنع سهى! » . ثم نهضت فجأة قائلة : «اسمحا لى ، يبدو أن سامية بحاجة إلى». وكانت سامية تشير لأختها من وراء القاطع الزجاجى المزخرف .

* * *

وبقيت إيفيت مع فاروق . . فظلت هى صامتة تنظر إلى المنضدة البنية أمامها ، فى حين أخرج هو غليونه وعلبة التبغ وأخذ يحشوه

بدقة ، ثم أشعله وسحب نفساً طويلا ، بينما كانت عيناه تبحثان عن عينيها بإصرار . وقال من طرف شفتيه ، والغليون مازال يحتل الطرف الآخر : « لم أرك منذ مدة ! » . فابتسمت إيڤيت وهى تحمر ، ولم تجب . . فأخذ يتأملها من جديد : جميلة ، بشرة وردية رائعة ، شعر أسود فاحم يتوج رأسها المحمول على عنق يضاهى عنق نفرتيتى . وعندما انحنت قليلا للأمام ، وهى تشبك ذراعيها على صدرها ، لم يحتمل الثديان الضغط فقفزا إلى أعلى ، وظهر شق صدرها من خلال فتحة الثوب الأرجوانى . كان مثل واد سحيق توجت جباله بالثلج الناصع المؤتلق البياض . وأخذ فاروق يتأمل المشهد بدقة ، والاضطراب المنفعل ينشره ويطويه ، ثم قال بصوت دافئ محاولا كسب ثقتها : « لم أكن أعتقد أنك تجيدين الرقص هكذا ! . . . إنك ترقصين مثل « باليرينا » ، لم أراقص من هى أرشق منك » . . . فهمست بصوت منفعل : « شكراً » . قال بدون كلفة : « ماذا تفعلين هذه الأيام ؟ » . قالت بكآبة : « أحيا » . قال بحنان مفاجئ : « إيڤيت ، حزنك الداخلى هذا لا يعجبنى . ماهذا الجواب الكئيب ؟ ها . . ما هذا الجواب ؟ أهذا جواب شابة جميلة دافئة ذكية مثلك؟أتعرفين ما معنى هذه الكلمة؟ معناها أنك تحيين فقط ، أى تأكلين وتشربين وتنامين . . أما السعادة الحقيقية ، التوهج المشع ، والازدهار المشرق الذى نسميه حباً . . فذلك مالا تعرفينه . أنا واثق بأنك لا تعرفينه ! » وسكت لحظة ثم قال بصوت يحمل كل الشفقة التى حواها العالم :

ــ حرام . . . حرام . . . حرام . ! !

وكانت هى ما تزال تنظر إلى المنضدة وذراعاها معقودان على صدرها تشده بانفعال ، فيزداد الشق انحداراً ، وتزداد الهضاب شموخاً . . وقال هامساً بدفء وحنان مثيرين : « كل مرة أراك فيها يزداد قلقى عليك . . أرى فى عينيك ما هو أعمق من الحزن نفسه . خبرينى إيڤيت ، اعتبرينى

صديقاً ، أخا ، زميلا ، اعتبريني أى شىء ولكن قولى لى ، ما بك ؟ »

قالت وهى تهز رأسها بشرود : « لا أدرى . . » .

— لا تدرين ؟ كيف ! أهناك إنسان لا يدرى ما به ؟ المريض يعرف ما به ، يتألم ، يعرف أين يكمن الوجع . والجائع يعرف ما به ، يأكل . والعطشان كذلك ، وأنت ما بك ؟

كان الاحمرار والانفعال يعلوان وجهها الطفولى الجميل ، وأخذت دموعها تتساقط فجأة وبغزارة .. فهتف بإشفاق : « إيفيت .. صغيرتى ، ما بك ؟ إيفيت ! » . وأمسك بيدها التى كانت تأخذ طريقها نحو محفظتها لتخرج ورقة « كلينكس » ، وأخذ يتحسس يدها الطرية الدافئة ويضغطها وهو يهتف مكرراً : « إيفيت . . إيفيت » . وسكت فترة وهو يرقبها برقة ، وعاد يردد : « إيفيت . . إيفيت الجميلة . . إيفيت الرقيقة .. إيفيت الحساسة» . وازدادت دموعها انهماراً . كانت تلك هى المرة الأولى التى تسمع فيها رجلا يهمس فى أذنها بكلام ملىء حناناً بهذا الشكل ! وأخذت كلمات زوجها تطن فى أذنها : « إيفيت ، ما أغباك ! . تصرفاتك أمام الناس تورثنى الجنون . . معاملتك للأولاد لا تعجبنى . . أنت قاسية وأنانية ، وتفتقدين روح الحنان .. أنت إنسانة هوجاء .. أنت غير طبيعية .. سطحية .. والناس يسخرون منك ! »

وبينما كان فاروق يردد : « إيفيت الرقيقة ، إيفيت الذكية ، إيفيت الحساسة» .. أخذت تبتلع غصتها بحدة وتسائل نفسها : «أى إيفيت أنا؟ أى إيفيت ؟ إيفيت الذكية أم إيفيت الغبية ؟ إيفيت القاسية أم إيفيت الرقيقة ؟ إيفيت الأنانية أم إيفيت الحساسة ؟ . . أى إيفيت أنا ؟ ! ! »

وكانت الحيرة تحتدم فى عينيها ، والألم والوحدة والوحشة تمضغها بضراوة : « ما أتعسنى . . لا أعرف من أنا » .

وكان فاروق يردد : « إيفيت . . غريب كيف تستطيع امرأة أن

تكون كل هذا ! كيف تستطيعين أن تكونى أنيقة ولبقة بهذا الشكل . . كيف ؟ ؟ ! » وكان صوت زوجها يردد : « إيفيت أين الجوارب ، ألا زالت فى الغسيل ؟ إيفيت ، أزرار القمصان كلها مقطوعة . إيفيت ابنتك تبولت على الأرض . . وخادمتك البلهاء مازالت نائمة » . . وكان فاروق يقول : « إيفيت . . كنت أظنك تصبغين شعرك ، غريب! كيف تجتمع البشرة البيضاء والعيون الزرق بهذا الشكل مع هذا الشعر الفاحم الأسود ؟ . . كنوز ، كنوز . إيفيت أنت لا تعرفين ما أنت ! » . . وكانت أعماقها تردد : «وكيف أعرف؟ كيف أعرف !!» فى حين كان صوت زوجها يقول : « إيفيت ، ما هذه التسريحة السخيفة ؟ تبدين كالهاربة من مستشفى المجاذيب ، وحلاقك هذا يعرف كيف يضحك على مثيلاتك . . يفرغ رؤوسكن وجيوبكن . . اللهم صبرنى حتى لا أخطف موساه يوماً وأشكل له تسريحة أنيقة فى أنبوبة عنقه الملتوية!»

وكان فاروق يقول : « ألا تنظرين فى المرآة لترى ما أنت ؟ يا الله . . كيف تستطيعين الاحتفاظ بكل هذا التواضع وأنت ما أنت عليه ؟ ! » . . لكنها أخذت تحملق فى المنضدة وهى تبكى وتبكى : «أية مرآة . . أية مرآة . . مرآتك أم مرآة زوجى ! ! » . . فى حين استمر هو يقول : « إيفيت ملاك فى ثياب امرأة ! » بينما أعماقها تصرخ بوحشة : « من أنا ؟ من أنا ؟ من أنا ؟ » . . وأحست بيديه الاثنتين تضغطان يدها المرتجفة . . وكانت يده العليا تفرك بشرة كفها بنعومة ورقة فتحس بيدها تنزلق فى وعاء ماء دافئ ، ثم تحس بميل شديد لأن تلقى بكل جسمها وروحها وثقلها فى ذاك الوعاء . وبالضبط كان هذا مايحاول فاروق الإيحاء به إليها ! . . وكان يقول كمن يهمس بسر خطير : « أتظنين أنى كنت ألعب الكرة فى إنجلترا ؟ وأن شهادتى المترامية الأطراف حلية أزين بها جدار مكتبى ؟ لقد كنت أدرس أشياء كثيرة ، أشياء كثيرة جداً . وكلها معلومات تجعل من الرأس مفاعلا ذرياً .

ولا تدهشى إذا قلت لك إنى درست علم النفس فوق كل مادرست . درست علم النفس حتى بت لا أعرف نفسى ! »

وعلى اعتبار أنه أطلق نكتة وجيهة ، فقد أخذ يقهقه قهقهة أرستقراطية فيها الكثير من الكبرياء والأنانية ، ورنين الذهب الموروث . وقال مردداً وهو يطأطئ برأسه وينظر فى وجه إيڤيت من أسفل : « أليس هذا مضحكاً ؟ أن أدرس علم النفس حتى بت لا أعرف نفسى ؟ . . ها ها ها ها ها ها و » . ورفرفت هى بعينها ، وابتسمت ابتسامة صغيرة بحجم «اللوزة » . وضرب هو المنضدة بيده صافعاً خشبها وقال : « وتخبئين الشمس عنى فى يوم مطير كهذا ؟ هيا . . إشراقة أخرى بحق الذى سواك وعدلك ! » . . فابتسمت هى ابتسامة أكبر ، بحجم « الجوزة » . . وأخذ يضغط يدها ، يشدها ، يداعبها ، يتحسس أظافرها المطلية ، وهو يرسم على وجهه نظرة فيها الكثير من الخشوع الدنس: «مذ رأيتك عرفت من أنت . . عرفت أنك جميلة » ــ وكان صادقاً هنا ــ « وعرفت أنك لطيفة وبسيطة ــ وهو محق هنا ــ «وعرفت أنك ذكية »ــوكان هنا أكثر كذباً من مسيلمة الكذاب نفسه!ــ « . . عرفت أنك من طينة أخرى ، طينة خاصة من صنع إله الخير والرحمة . فى عينيك طهارة الياسمين فى أول مواسمه . . اعذرينى إيڤيت! لا تقسى باللوم علىّ إذا صارحتك بأنى أغار من زوجك ! » .

وأخذت هى تنظر إليه بتفهم ، فهومسكين حقًّا ، فكيف لايغار من زوجها ؟ زوجها الذى يستطيع أن يضم إيڤيت الجميلة ، الرقيقة ، الحساسة ، بين ذراعيه ؟ وكيف تلومه ؟ لا ، إنها لن تلومه أبداً . . ! وسألها : « إيڤيت ، أى نوع من « الكريم » تستعملين لتحصلى على هذه البشرة الناعمة ؟ » . ونظرت إليه والابتسام فى عينيها . وكانت دموعها قد جفت ، فبدت الآن فى عزّ تألقها . وكان هو يتأملها وهو لا ينفك يضغط يدها . . « لا بد من نيلها . . لا بد . . فهى رخصة . .

رخصة . . عنقها الحريرى يثير فىّ ارتعاشات لن تهدأ إلا إذا غمرته بفيضان من القبل ! . . صدرها الغنى بكنوز الملك سليمان يوقف شعر رأسى . . ساقاها العاجيتان تحفران خنادق فى سويداء قلبى . . سأنالها ! » . . وأخذ يهمس لها : « ألا تؤمنين بالصداقة بين الرجل والمرأة ؟ باعتقادى أن الصداقة بين الرجل والمرأة تكون أعمق بكثير مما تكون عليه بين امرأتين ، إذ لن يكون هناك مجال للغيرة ، والحسد ، والتحدى ، والمنافسة . خذى نزاراً مثلا ، ألا تعتقدين أنه مثال الصديق الوفى لسامية وأختها ؟ ثم أنا ، خذينى مثلا : ألا تعتقدين بأنى صديق ودود عفيف النفس شريف المقاصد؟ قولى، ماذا ترين فىّ ؟ »

وكان يتحين الفرصة ليرميها بنظرة قاتلة من سهام لحاظه الفتاكة. ورفعت عينيها الزرقاوين الصامتتين ، وكان ينظر فى وجهها بألفة وإعجاب وشهوة . كان فى عينيه بريق أخاذ سلب قلبها الصغير ، وكذلك عقلها ! وأخذ يدغدغ يدها بحركة جعلت جسدها كله فى حالة غليان . فأخذ قلبها يدق ، ويدق ، وهو ما زال يغرس فى عينيها انطباعات لم تعرفها من قبل . وأخذت تسائل نفسها حائرة « أهذا هو الحب الحقيقى ؟ أهذا هو الحب ؟ » وبدأت يدها ترتجف بين يديه ، وأثارته رجفتها بعنف ، وأخذ يفكر : « ما يضير المرأة قليل من العبث ! وهى لن تفقد شيئاً على كل حال ، فهى امرأة ! » . . وقال جاداً : « إيفيت ، يجب أن أساعدك . يجب أن أفعل شيئاً من أجلك، أنا صديق ودود عفيف النفس شريف المقاصد ، ولن أتوانى عن مد يد المساعدة . اسمعى ، يجب أن تقرئى ، يجب أن تطلعى على أجواء أخرى ، وأن تعرفى ما يدور فى العالم . أن تعرفى أن المرأة إنسان له الحق كل الحق فى الحياة كالرجل تماماً . لها الحق فى أن تعمل ، وتكسب ، وتبنى نفسها ومن حولها . وأن تمارس حقها فى البناء والإنتاج ، وأن تفكر ، وتبلور أفكارها فى أفعال . وأن تفعل ما يحلو لها ، أى شىء يحلو لها ، تماماً

كالرجل . يجب أن تقرئى ..» .. فتمتمت بدون ثقة : «ولكنى أقرأ» .
– ماذا تقرأين ؟
– يحضر لى شكرى مجلات عربية وإنجليزية ، مثل « . . . . »
فأطلق فاروق ضحكة مستخفة مليئة بالهزء ، ارتجت لها أعماق إيڤيت المضعضعة . . بينما استطرد هو : « أحرى بزوجك الفالح أن يحضر لك مجلة أطفال ! أواه من رجال الشرق ، أنا أعرفهم ، يريدون من المرأة أن تقبع خلف جدار سميك من التخلف والتبلد .. زوجك يحضر لك مجلة « . . . . » الله أكبر ! أهذه هى الثقافة ؟ . . لا لا ياسيدتى ، يعز على مثقف مثلى أن يرى سيدة رائعة مثلك ولا يساعدها. أعوذ بالله . زوجك هذا –أقصد كل الأزواج ، كل الرجال فى الشرق ، يتعمدون إبقاء عقولكن مغلقة على ما فيها من رواسب الماضى البغيض ! » .. وأخذ ينقر المنضدة مفكراً : « اسمعى ، سأبدأ تثقيفك بنفسى : سأعطيك كتباً تغير مفاهيمك للحياة . تفتح عينيك على حقائق ما زالت مجهولة بالنسبة لك . أنا قرأت ودرست وجربت. . لا تسأليني عن خبرتى فى الحياة ، فأنا لا أحب الكلام عن نفسى ، كما أننى لا أحب الغرور– برغم أنه يحق لى أن أغتر ! فقد منحتنى الحياة الكثير : مال ووجاهة وأصل طيب ، ولا تنسى والدى النائب فى البرلمان، ثم العلم الذى أصبح الإنسان لا يساوى بدونه شيئاً . لقد نلت الماجستير فى ثمانى سنوات ، تصورى ، ثمانى سنوات فقط . لا تتعجبى كثيراً ، فقد كنت من الطلبة المبرزين طيلة عمرى . كما أننى جيد التربية ، تستطيعين أن تقولى إنى جنتلمان راق . ولكن ما لنا ولهذا الحديث ، أنا لا أحب الكلام عن نفسى وإنما أحب المساعدة ، أنا لا أترك يداً ممدودة دون أن أمارس واجبى المقدس كمثقف وكصاحب مسئولية اجتماعية ووطنية . وأنا كصديق ودود ، عفيف النفس شريف المقاصد، لن أبقيك على ما أنت عليه . حرام . . حرام ! » .

وأمسك بيدها يشدها : « تعالى ، سأعطيك كتباً تنمى مداركك » . .

* * *

ومشت معه نحو الرفوف ، وأخذ يقلب الكتب وهو يهمهم ويدندن : هذا كتاب سخيف ، وذاك كتاب جاف ، وهذا كاتب تافه . همنجواى غير صادق ، وشتاينبك سوقى ، وديكنز موضة قديمة ، وجين أُوستين باردة ، وشارلوت برونتى لها رومانتيكية المراهقات .. ثم التفت إليها وقال : « هل قرأت لألبرتو موراڤيا ؟ لا ؟ غريب ! ! أهناك إنسان ذكى مثقف لم يقرأ "امرأة من روما" ؟ » . وأخذ يهز رأسه بإشفاق : « أنا لا ألومك أنت ، وإنما ألوم زوجك الذى يحكم عليك بالبقاء وراء سور من التخلف والجهالة . اسمعى : خذى هذا الكتاب ، اسمه « السأم » ، إنه رائعة موراڤيا التاريخية ، سيجعلك تهيمين فى أجواء لن يفسرها لك غيرى . دراستى لعلم النفس تساعدنى على فهم الكتب العميقة كهذا الكتاب . . وهذا أيضاً : فيلسوف إنجلترا اللامع « د . هـ . لورنس » . لقد بذ "كارلايل" نفسه ! » . أما من هو لورنس ، ومن هو كارلايل ، فتلك أسماء ارتجفت لها أعماق إيڤيت ! وحيرتها أمام هذه الأسماء جعلته يزداد انتفاخاً وكبرياء ، فيستطرد : « خذى هذا ، تحفة لورنس الخالدة ، كتاب أقام الدنيا وأقعدها : محاكمات وتحقيقات ، ومصادرة . . والكثير الكثير من المشاكل واجهت هذا الكتاب ، أتعرفين لماذا ؟ لأنه يحتوى الكثير من الأفكار المتحررة — وما كان الحكم فى بريطانيا يسمح بذلك ! — هئ ، يظنون أن الكتاب صودر وحوكم لأنه يحتوى بعض المشاهد التى نمارسها فى حياتنا يومياً ، خذيه واقرأيه » ، وناولها كتاباً بالإنجليزية عنوانه « عشيق ليدى تشاترلى » . ثم قال وهو يقترب منها كثيراً : « إذا احتجت لأى شىء اسأليني ، أى سؤال يخطر ببالك ، ما عليك سوى أن تلمحى لى به ، وأنا سأجيبك بكل ترحاب ، فأنت صديقتى ، وأنا صديقك ، وأنا

أعتز بصداقتنا هذه » .

وكانت هي تقف وراء الرفوف المتعاكسة ، بعيداً عن العيون .. بعيداً عن زوجها ، والناس ، والمجتمع ، وفي يدها كتابان هما تحفتا العصر اللتان ستقلبان مفاهيمها الخام ، ستعطيانها ما هي بحاجة إليه من اتساع وتفهم وعمق . كان في يدها « السأم » و « عشيق ليدى تشاترلى» .. ومضى فاروق يواصل البحث بين الكتب . انحنى ،جلس القرفصاء ، وهو يعبث بين المجلدات ، وهي تنظر إليه برهبة وتوجس ولهفة ، فقد كانت سترته الجوخ ،بتربيعاتها البيضاء والسوداء ، ورائحة تبغ الغليون التي تنبعث منه . ورباط عنقه الجميل ، ثم شعره المقصوص حديثاً بأناقة . كان كل ذلك يثير في مخيلتها حكايات وحكايات عن الحب ، وساحات رقص مضاءة بشموع خافتة ، ومدفأة تدفئة جيدة . . والنوم على أسرة مغطاة بأقمشة وردية ، وبجانب السرير منضدة عليها نبيذ ، وعطر ، وغليون ! . . وقال وهو ما زال مطأطئاً :

– انظرى هذا المجلد .

وطبعاً لكى تنظر ، كان عليها أن تنحنى مثله ، وأن تجلس القرفصاء بجواره. وارتفع ثوبها عن فخذين رائعين أخذ يتأملهما بانشداه ! وأمسك بالمجلد ، وضعه على ساقه وقال مشيراً لصورة فيه : « هذا مجلد عن « بوتتشلى » ، أترين هاتيك العذارى الفاتنات ! كل واحدة منهن تمثل فصلا من فصول السنة الأربعة . ثم هذه . . » ، وقلب الصفحة فظهرت صورة ملونة لامرأة عارية ،تقف على صدفة ضخمة في البحر ، ووجه يمثل إله الريح ينفخ على أمواج البحر . . وقال مهمهماً : « أتكهن بأن لك جسما كهذا ! » . . وأخذت هي تلهث بصمت . . «أليس لذيذاً أن تحس المرأة بأنها موضع إعجاب رجل وسيم أنيق مثقف كهذا ! » .. وكان رأسه يقترب منها .. كانت هي تعرف هذا ، لكنها ادعت النقيض . وكان أن أصبح وجهه أقرب من أن تستمر في

إنكار وجوده . ونظرت إليه . وكان ينظر إليها كما لو كان مشدوها بفعل مفاجآت القدر الغريبة التى جمعتهما – يا سبحان الله – هكذا ، مصادفة ، بعيداً عن العيون ، خلف رفوف الكتب ، جالسين القرفصاء ، ورداؤها مرفوع حتى منتصف فخذيها . . وأخذت هى ترتجف ، أصبح وجهها بلون القرمز ، وأعماقها المتلمظة تهتف : « كم هو لذيذ أن نحب . كم هو لذيذ أن أجد من يفهمنى ! » .

واقترب بشفتيه من خدها ، ومسه بنعومة فائقة . . فأخذت تتمتم : «أنا خائفة .. خائفة ! » . . وهمس فى أذنها وهو يدغدغ شحمة أذنها بفمه : « تخافين منى أنا ؟ منى أنا ؟ ! » . . واستيقظت فجأة لتتذكر من هى وما تفعله ، فهتفت بنزع : « لا ، أرجوك . اتركنى » ووقفت ، ووقف قبالتها بعد أن وضع المجلد من يده . وكانت نظراتهما ما تزال مشدودة ، وأنفاسهما تلهث ، وأعصابهما مترترة . . ومد يده ، وشدها إلى صدره بنعومة . . فانهارت ، وأخذت تبكى ، وهى تدفن رأسها فى صدره . وأخذ يقبل عنقها وأذنها . . ووجهها . . وشفتيها . . وهى تغمغم بانفعال : « حبيبى . . حبيبى . . » وأخذ يضغطها إليه ، وهى تغوص . . تغوص . . تغوص . . وشعرت بنفسها سمكة ملونة صغيرة فى وعاء بلورى ملىء بماء دافئ . . دافى . . دافئ . . وصوت يغمغم : « كم أنت دافئة . . كم أنت شهية . . يجب أن أراك فى غير هذا المكان . . عدينى يا حبيبتى بألا تتركينى ! » .. فقالت وهى تنشج : .«أنت حياتى .. فكيف أتركك ؟ ! » وأخذ يضغطها وهو يهمس : « أنا أعرف أنك متعطشة للحب ، وسأرويك ! » . . وكانت هى تفكر بسذاجة : « لم لا أشعر هكذا مع شكرى ؟ إذن فهذا هو حبيبى ، لا ذاك ! » .

وارتفع صوت « نسرين » يخاطب زبوناً من بعيد ، فقال فاروق مجفلا : « ابتعدى من هنا . . هيا ابتعدى ! » ، فمشت مبتعدة ، واتجهت نحو باب قاعة السينما ، دون أن تدع مجالا لأحد أن يراها .

وعندما خرج فاروق من وراء الرفوف ، قال لنسرين بهدوء من كان غارقاً فى دائرة معارف : « ألا زال بشار مع أختك؟ » ، فأجابت : « نعم ، ما زالا فى حجرة المكتب » . فقال وهو يتأملها : « تليق بك هذه القبعة » .

— تليق بك أكثر ، ألست أكثر وسامة من عمر الشريف ؟

ضحك بانطلاق عصفور برىء ، ومشى متجهاً نحو المكتب . .

## ٨

أصبح موضوع بشار وسهى موضوع الساعة، ومشكلة المجموعة كلها . بشار لم يدع أحداً لم يستشره ويوسطه ، وفاروق محامى بشار المفوض ، هو الآخر لم يدع أحداً إلا وناقش الموضوع معه. سميرة رفضت التدخل فيما لا يعنيها ، سامية قالت إن الموضوع خاص جداً ولا يعنى إلا صاحبيه . عبدالرحمن قال إن لسهى ظروفاً خاصة عليهم احترامها، لكن ذلك لم يثن فاروق عن انتهاز كل فرصة للخوض فى الموضوع ، فزميله مغرم لدرجة الذوبان ، وسهى لا تبدو أقل منه ولهاً ، وكل شىء سهل المنال ، فما المانع ؟ سهى قالت لبشار إنها من طينة تختلف عن طينته . وبعد بحث وتنقيب فى مقالات قديمة عنها تبين أنها من عائلة فقيرة مغمورة الشأن ، والدها سكير يدمن الخمر ويدمن ضرب أمها ليلا، فهل هذا هو السبب ؟

أهى خائفة من الزواج لأن زواج أمها كان السبب فى إحداث شرخ فى نفسيتها ؟ أهى خائفة من التعرض لما تعرضت له والدتها ؟ إن كان هذا هو السبب ، فما من داع للقلق . أما إن كانت تحاول الظهور بمظهر الرسامة الشهيرة التى تفوق الناس العاديين بطولة ، فذاك موضوع يستحق الدراسة ، وتستحق سهى بعد ذلك صفعة على مؤخرتها ، فهى ليست أكثر من ابنة سكير حقير ! هذا ما فكر فيه فاروق ، وقرر كشف اللثام عن القصة التى أصبحت أكثر إثارة من أى موضوع آخر ، إلا إيفيت طبعا !

وأخذ يتحين الفرصة المناسبة ليناقش الموضوع بشكل جماعى. كان يريد أن يمثل أحد أدواره البطولية التى يظهر فيها كإنسان متفوق. وفى مثل هذه المجالات ، وحين تكتسب الموضوعات حساسية معينة وتصبح مثيرة لكل انتباه ، تصبح لذكائه قيمة وفعالية . وهو عدا أنه شاب وسيم — ولا شك فى هذا ، بعد أن اختبرت وسامته فى مختبرات التجربة عدة مرات ، وكانت النتيجة إيجابية ولا ريب — فهو يريد أن يثبت أنه قادر على حل الأزمات بقوة شخصيته ، وهاهوذا يستعد لإدخال ثقافته وذكائه معركة منافسة وتحد ضد العوائق التى تحول دون هذا الزواج. وقد كان من الممكن أن يظهر نفس الحماسة تجاه أى موضوع طلاق لو استعين به فيه ، فالقضية ليست قضية حماسة من أجل الجمع بين الناس أو تفرقتهم ، بقدر ما هى عملية استعراض لمواهبه المتألقة !

وكانت ليلة هادئة . لم يبق إلا يوم واحد وينتهى المعرض . وكان الجو قد أصبح أقل مرحاً عن ذى قبل : شكرى وإيڤيت فى خصام دائم . سهى وبشار ما عادا فرحين كذى قبل ، هى تريد حباً وهو يريد زواجاً . سامية وعبدالرحمن فى عملية المراقبة المستترة . نسرين ترقب الجو بحذر . وسميرة التى تسلمت رسالة من ابن عمها ، خطيبها ، الذى يتخصص فى طب الأطفال فى إنجلترا ، منزوية مع رسالتها. وفاروق يتربص لأخذ موعد « جاد » من إيڤيت . وللخوض فى قصة الموسم ، قصة سهى وبشار !

وكان شكرى يعزف ألحاناً حزينة مملة ، وكل يمضغ أحزانه ومشاكله. وقال فاروق كمحام يفتتح الجلسة : « لم يبق إلا يوم غد وينتهى المعرض ، وبهذا يكون قد انتهى أول نشاط قدمه نادينا هذا ، فما رأيكم ؟ هل كان المعرض ناجحا ؟ » . فتوقف شكرى عن العزف ، واقترب من المجموعة الملتفة حول المائدة الطويلة ، وجلس قرب زوجته الحردة . وقالت سميرة وهى تخبئ رسالتها فى حقيبتها ، وتدخل فى النقاش فى محاولة لخلق جو مرح : « من رأيى أن نبدأ بالتفكير فى النشاط الذى نزمع القيام به بعد المعرض ،

فما رأى الأستاذ عبد الرحمن ؟ » . قال عبدالرحمن بفتور : « هذا يتوقف على رغبتكم أنتم » . قالت سميرة مجاملة : « كيف ! لقد اتخذناك رئيس شرف لهذا النادى ، ويجب أن تدلى بدلوك فيه » . قال عبد الرحمن بابتسامة كئيبة : « من الأفضل أن تبقونى بعيداً عن الموضوع ، وإلا حدث مالا تحمد عقباه » . قالت سميرة بابتسام : « تقصد الشمع الأحمر ؟ » . قال وهو يهز رأسه بفتور : « شىء من هذا القبيل ! » . . فقال فاروق : « من رأيى ألا يتخذ نادينا صفة ثقافية فقط ، بل واجتماعية كذلك ، أى أن ندعو للمحاضرات التى تختص بالمشاكل الاجتماعية ، كالزواج والطلاق والحب والجنس وتحديد النسل وما إلى ذلك ». قالت سميرة مؤيدة : « فعلا ، نحن بحاجة لهذه النشاطات » . قال فاروق : « مجتمعنا العفن هذا ملىء بالأدران الخبيثة والأورام المتأصلة ، وعلى المثقفين أن يبدءوا بشد العزائم لخوض معركة ضد التخلف والجهالة قبل البدء فى أى شىء آخر . نحن بحاجة ماسة لنهضة عصرية تضم المجتمع كله ، بمختلف طبقاته ، بمختلف عناصره ، بنسائه ورجاله ومثقفيه ، وعماله وفلاحيه . . » قالت سميرة محبذة : « هذه أفكار ممتازة ، فيجب ألا يقتصر نادينا هذا على الطبقة المثقفة فقط ، يجب أن يكون للجميع ، فهذا عصر اشتراكية لا عصر احتكار » . . قال فاروق بامتعاض خفى : « يبدو أن الآنسة سميرة قد فهمتنى خطأ . فأنا حين قلت نهضة عصرية تشمل فئات الشعب لم أقصد أن النهضة ستكون منبعثة من نادينا المتواضع هذا ، بل من كل مكان . من كل شارع . من كل بيت ، من كل حانوت . ولن يكون نادينا هذا هو المكان لإجراء تجارب النهضة ، لأسباب عديدة ، أهمها أن هذا المكان قد وجد من أجل المثقفين فقط . » . . قالت سميرة معارضة : « على المثقفين ألا يظلوا قابعين فى بروجهم العاجية بعيداً عن الشعب ومآسيه ، عليهم أن ينزلوا من عليائهم ويندمجوا فى الأوساط المختلفة ، فى البيئات المتخلفة ، فى كافة الأجواء المريضة والسليمة ، لكى يكون الارتباط

وثيقاً بين القائد والجندى ، بين المخطط والمنفذ ، بين الهادى والمهتدى» .
قال فاروق مناقضاً : « ولكن لا بد للرئاسة من مكان يخصها » .
— ومن الذى حال دون ذلك ؟ ها نحن نجلس الآن نناقش ونخطط ونحلم ونفكر ، فهل منعك فرد من أفراد هذا الشعب من فعل ذلك ؟

قال ببرود مصطنع : « وجود أشخاص لا ينتمون إلى طبقتنا سيكون كالنغم النشاز فى مقطوعة موسيقية جيدة ! » . قالت بعجب : « ولكن ما هى طبقتنا ، ومن هى طبقتنا ؟ »
— المثقفون طبعا .
— تقصد الطليعة ؟
— بالضبط ، الطليعة .
— حسناً يا أخ فاروق ، فطالما أنك تعتبرنا طليعة هذه الأمة ، فعلينا أن نأتى بهم إلينا إذا كان من المتعذر أن نذهب إليهم ، وهذا أضعف الإيمان . يجب أن يكون هذا المكان معبداً يؤمه كل المصلين ، وإلا كان فاشل المقصد ، سيئ النوايا .
تساءل وهو يرسم علامة تعجب على وجهه : « سيئ النوايا ؟ ! » .
فأجابته فى حماسة : « نعم ، يؤسفنى أن أقول هذا ، إذ أننا بتخصيص هذا المكان لطبقة معينة كما نسميها ، أو لأفراد معينين ، نعزز مبدأ التفرقة الطبقية ، ولكن منذ متى كان للمثقفين طبقة خاصة بهم ؟ الثقافة كانت أولا وأخيراً من الشعب وإلى الشعب ، حضارة مستقاة لحضارة قادمة ، هذا هو مفهومى عن الثقافة » . وصمتت قليلا ثم قالت مواصلة كلامها : «هناك فقرة قرأتها بهذا الشأن ، وما زالت ذاكرتى تحتفظ بها . يقول أحدهم : «المعرفة والثقافة يفتحان أعين أشد الناس تواضعاً وضاعة ، ويكثران من عدد العقول المفكرة إلى ما لا نهاية» . قال عبدالرحمن موافقا : « هذا قول صحيح ، فالثقافة ينبغى أن تظل فى متناول الجميع » .. وانبرى فاروق مدافعاً عن رأيه : « ولكننا لن نفتح هذا المكان للسوقة وأبناء

الشوارع ! » . قال عبدالرحمن باستهجان : « لمن تفتحه إذن ؟ لسيدات المجتمع ذوات الحلى البراقة ، والأظافر المصقولة ؟ أم لذوى الذقون المعطرة والجيوب المنتفخة ؟ » . فهز فاروق يده ملوحاً بحركة أنيقة : « لا ، لم تفهموا قصدى ، أقصد أن هناك بعض الشباب لا يأتون لمثل هذه النوادى إلا لأسباب معروفة ، وهى تصيد الفتيات والتمحك بهن ! » . . فقالت سميرة وهى ترقبه بنظرة ساحرة: « والمثقفون، ألا يفعلون هذا ؟ على الأقل عند ما يفعل السوقة هذا ، وبطريقتهم المتواضعة فى الغمز واللمز وترقيص الحواجب ، لا يلامون ! » . . وانطلقت قهقهة طويلة من الجميع ، فواصلت سميرة: « يظل الشاب الذى تسميه سوقيًّا : خجولا ، قليل الثقة بنفسه ،متواضعاً ، ترضيه نظرة ، ترضيه كلمة ، أما أصدقاؤنا المثقفون ، فلا أظن أن احتياجاتهم تتوقف عند هذا الحد ! » . فعلقت نسرين بخبث : « وقد يكونون من صنف لا يميل إلى العفة ! » . فاحمرت أذنا فاروق ، لكنه واصل بمزيد من الحذر : « ولكنهم لن يرضوا ، حتى ولو فتحنا الباب على مصراعيه وقلنا لهم « هاكم محاضرة عن فرويد مثلا » ، فلن يأتى أحد! » قالت سميرة: «لم الممانعة إذن فى فتحه طالما لن يجيئوا؟ على الأقل لا يتخذ النادى صفة طبقية » . . قال عبدالرحمن معلقاً : « ولماذا تقولون : « هاكم محاضرة عن فرويد » ؟ أنتم بهذا تبعدونهم قصداً ، تذكرون أسماء غريبة تنفرهم . قل مثلا « هاكم محاضرة عن تعدد الزوجات ، أو السعادة الأسرية ، أو عن الجنس » ، وسنحكم بعدها إن كانوا سيجيئون أم لا ! »

قال فاروق : « ولكن لكل فئة من فئات الشعب مكان تجتمع فيه ، وهذا المكان لنا ، فهل نشاركهم نحن أماكنهم حتى يشاركونا أماكننا ؟ » . قال عبدالرحمن : « هذا هو المطلوب ، أن تشاركهم ويشاركوك . أن تعطيهم ويعطوك : أن تفيد وتستفيد » . قال فاروق ساخراً : « وماذا باستطاعتهم أن يعطونا أو يفيدونا ؟ » . قالت سميرة بغضب : « فلم أسميتنا

بالطليعة إذن ؟ إذا كنت تعتبر نفسك أحد أفراد هذه الطليعة فعليك أن تبدأ بالعطاء . العطاء المجانى . وحتى ذاك الذى تطلب من ورائه مقابلا لن يسمى عطاء . أو مبادلة ، أو مقايضة ، إلا إذا كان له طرفان : أنت وهو ، أى أنت وابن بلدك ، أى أنت وشعبك » .

قال عبدالرحمن مؤيداً : « فعلا ، هذا هو دور المثقف فى المجتمع . ثم ما معنى أن يكون الإنسان مثقفاً ؟ الثقافة بتعريف الفلاسفة ليست العلم ولا الذكاء . . إنها انفتاح العقل والقلب والحواس وكل الملكات ، وليس تقييدها بأساليب أو ارتباطات معينة ، وأنت حين تعتقد بأنك مثقف الآن ، فقد تعتبر جاهلا غداً . ولكن لا بأس . لا أحد ينكر أنك مثقف بمقياس التناسب الشهير ، فأنت بالنسبة لشعبك مثقف ومتعلم ، أى أكثر معرفة وعلماً من أكثرية أفراده ، ولكن قد لا تكون أكثر الناس عطاء وبذلا . وبالعطاء وحده نميز إنساناً على آخر ، وبالبذل نعرف من الأكرم ، ومن الأخلص . أنت تمجد المثقف على اعتبار أنه الأقوى ، وبما أن على الأقوى أن يكون الأحسن ، فعليه أن يكون أكثر احتمالا ، وتواضعاً ، وتضحية . وهنا تكمن الثقافة : أن تعرف نفسك وتنكرها ! »

ثم استطرد عبدالرحمن ، بعد لحظة صمت : « اعذرونى ، ربما أكون قد خلطت بين دور الفنان ودور المثقف ، ولكن ما من فنان غير مثقف ، وإلا ما كان فناناً . وبما أن الفنان هو أكثر الناس حساسية وتحسساً ، وأحملهم للعبء وأصبرهم على الفشل ، وبما أنه فيلسوف يعبر باللحن واللون والكلمة عن مفاهيم قد تسبق روح العصر وأفكار المجتمع ، إذن فهو أكثر الناس تحرراً ، أكثرهم وعياً وعمقاً وانطلاقاً ، فهو متميز بكل مواصفات الثقافة التى بيناها ، وهنا نخرج بنتيجة غريبة ، وهى أن الفرق بين الفنان والمثقف فرق ضئيل ، على اعتبار أن لهما ملامح متشابهة و هدفاً واحداً . فالفنان منتج ، والمثقف متذوق ، هذا فرق تصنيفي فقط ، أما من ناحية المسئوليات فهي واحدة ولا شك ،

فبدون المثقف لن يجد الفنان من يتذوق أعماله ويعين مقاصدها وأهدافها ، لن يجد من يحكم عليها أولها ، وهذه تجربة مريرة ، أن ينتج الفنان ولا يجد من يتذوق هذا الإنتاج أو يعبأ به . فوظيفتنا هى كالتالى : أنا أنتج يا أخ فاروق . وأنت تحكم وتقيم ، وبالتالى تنتقد وتتفهم وتتكهن ، وعن طريقك أجد أنا نجاحى ، وعن طريقك يجد الشعب واسطة تترجم له ما لم يستطع الوصول إليه منفرداً . فالمثقف هو الطليعة لأنه الأقوى والأصبر والأحسن . وأنت مثقف ، إذن فأنت مسئول ! »

وكانت سهى حتى تلك اللحظة ترقب الموقف دون الاشتراك فى النقاش ، ولكنها اما كادت تسمع ما قاله عبد الرحمن عن المثقف والفنان حتى انبرت قائلة : « اسمح لى يا أستاذ بأن أسترجع بعض ما قلت . تقول بأن الفرق بين المثقف والفنان إنما هو فرق طفيف ، وأن مسئولياتهما واحدة ! هنا أختلف معك ، فالمنتج هو غير المتذوق . المبدع غير الناقد . والفنان فى نظرى هو أقرب الناس إلى الكمال ، وبذا يكون هو الأقوى وهو الأصبر ، وهو الأحسن . . وليس المثقف ! »

وهنا تدخلت سامية فى المناقشة ، لأول مرة ، قائلة : « لكن الثقافة فن كذلك » . . فقالت سهى بحماسة : « الثقافة شبه فن ، وليست فناً قائماً بذاته ، لأنه ليست فيها أصالة ولا إبداع » . . وهنا تساءل بشار : « وما الأصالة ، وكل يقول عن نفسه أصيلا ؟ وما سمات الأصيل ، ومن أين تأتى أصالته ؟ » . فقالت سهى : « الأصالة فى البساطة ، وفى التعبير الصادق الحساس ، وليس كل من ادعى الأصالة أصيلا ، فهى كما يقول « يونج » نبتة طبيعية تنمو تلقائيًا من الجذر الحيوى للعبقرية . . تنمو ، ولا تصنع . أما الثقافة فتصنع » .

— لكن الثقافة تنمو كذلك ، فالثقافة والأصالة شبيهان .

قالت سهى بإصرار : « بل الثقافة تقليد للأصالة ، لأنها لا تحتوى

على روح الإبداع . هى تصنيع ، تصنيع لأفكار مستوردة ، مستوردة من أولئك الذين امتلكوا الأصالة أصلا . وهنا يكمن الفرق بين المثقف والفنان . المثقف ينظر للإنتاج بعين جواهرى خبير ، يعرف الماسة النادرة من الماسة العادية . وهو الذى باستطاعته معرفة ما إذا كانت اللؤلؤة من محارة عذراء لم تمسسها يد إنسان ، أو لؤلؤة مستوردة من مزارع اللؤلؤ فى اليابان ! .. . أما الفنان فهو المنجم ، المنجم الذى اقتطعت منه الماسة ، المحارة التى احتوت اللؤلؤة ! » .

وقال عبدالرحمن : « فى الحقيقة أن المثقف كما قلت قبلا واسطة بين الطرفين : بين الفنان المبدع الذى ينتظر الحكم ، وبين الشعب الذى لا يستطيع إدراك مواطن الإبداع إلا عن طريق المثقف . » . . وهنا اندفع بشار يقول ، بإحساس المهان : « إذن فهو «شرابة خرج »، حسب تعريفكم ! » . فانبرى عبد الرحمن مفنداً ومصححاً : « بل هو القاعدة ، قاعدة البناء ، وكيف يقوم البناء الحضارى بدون قاعدة ؟ » . . فقالت سهى بتأكيد : « أما الفنان فهو البناء ، قمة البناء . » . . فقال فاروق ساخراً : « أى أنكم فى الأعالى ، ونحن فى أسفل السفح ! »

وهنا قالت سهى ، بشىء من الكبرياء : « نحن لم نختر ، هكذا وجدنا ! » . . فقال بغيظ : « ماذا تقصدين بـ «وجدنا» هذه ؟ أتعنين أنكم وجدتم فى القمة ، أم تعنين أننا وجدنا فى القاع ؟ » . قالت سهى بمزيد من الكبرياء : « أنا أقول بأن الفنان هو القمة ، وكفى ! » . . وقالت سامية بصوت عميق : « أى هو الأقوى ؟ » . ورددت سهى بإيمان : « بلا شك ! » . . فقالت سامية ، بصوتها الهادئ الرخيم : « منذ دقائق قرر الأستاذ عبدالرحمن بأن الأقوى هو الأحسن ، والأحسن هو الأكثر عطاء وبذلا ، فهو الأكرم ، والأكرم هو من يعرف قيمة نفسه وينكرها ، أى أن يكون متواضعا . » . . ثم ابتسمت لسهى وتساءلت : « أليس كذلك ؟ » ــ واختلست نظرة لعبد الرحمن ، وكان

ذاك يرمقها باهتمام – ثم واصلت : « يقول " وردزورث " : « لا فرق بين الشاعر ، أى الفنان ، وبين أى رجل آخر ! » ، فقال عبدالرحمن مقاطعاً ، بأدب : « اسمحى لى يا سيدتى ، أهذا ماقاله فقط ؟ » . . فنظرت إليه نظرة قصيرة ، وقالت وهى تغض ببصرها ، « قال أشياء كثيرة ، هذا أهمها » . . فعقب ، مواجهاً لأول مرة : « أوافقك على أن هذا من أهم ما قاله فى الشاعر ، ولكن يبدو أنك قد نسيت الشطر الآخر من القول . ألم يقل : «لا فرق بين الفنان أو الشاعر وبين أى رجل آخر كجنس . ولكن كمرتبة ؟ »

وأخذ ينظر إليها ، مصراً أن تجيبه مباشرة، لكنها ابتسمت بلطف وقالت : « أنت أدرى ! » . وقالت سهى : « تستطيعين أن تقولى « أنت الأدرى » لأنك الأقوى ، لأنك الأحسن ، أتعلمين لماذا ؟ لأنه الفنان ! » فقال عبد الرحمن وهو يلتفت إليها باسماً : «لا تؤلهينى !» . وقال فاروق ساخراً : « إنما هى تؤله نفسها من خلال الفنان على اعتبار أنها فنانة » . فقهقهت سهى وقالت : « سبحان الله ما ألمعك ! لقد ضبطتنى ! »

ابتسم فاروق بغيظ ، إذ هى باعترافها أنها ضبطت إنما تقرر وتصر على ألوهية ذاتها ، أى أنها تتفوق على المثقف الذى يمثله هو ، هو بكل إمكانياته ومواهبه ونبوغه ، وهذا ما لن يغفره لها ! وخطر بباله أن يهتف فى وجهها بسخرية : « قليلا من التواضع يا ابنة السكير ! » لكنه لم يقل سوى : « إذن فأنت فى القمة ! » . فقالت بإصرار : « بل فى الطريق إليها » . . فقال ملمحاً : «ولهذا لاترغبين فيمن يحول بينك وبين القمة!». وأخذ ينظر فى اتجاه بشار الذى احمر وجهه خجلاً وغضباً ، فقالت سهى وهى تحدق فى وجه فاروق بغضب من أحس بنواياه : «الحب لا يضع العراقيل فى وجه الفنان ، بل يلهمه»، وأمسكت بيد بشار تشدها، فقال فاروق بخبث : « أما الزواج فيضع العراقيل فى وجه الفنان ، أليس كذلك ؟ »

وكان الموقف قد بات حرجاً، والجميع فى انتظار ما ستقوله سهى الغاضبة، لكن تلك أمسكت بزمام أعصابها وقالت : « على اعتبار أنك من المعجبين بـ «د . هـ . لورنس» ومؤيديه ، يسرنى جداً أن أقدم لك فقرة من أقواله : « إن الروح الإنسانية لفى حاجة ملحة للجمال الحقيقى أكثر مما هي بحاجة للخبز نفسه » . . أى أن الإنسانية بحاجة للإنتاج الجمالى أكثر من الإنتاج المادى ! » . فقال فاروق متحدياً : « لكن لورنس قال أيضا إن الشيء الوحيد الذى يستطيع الإنسان معرفة نفسه من خلاله هو رغباته ودوافعه » . فقالت بتحد : « أكمل . . أكمل » . فقال بفتور : « هذا ما قاله » .

— بل انه قال بعد ذلك : « ولكن كلا الاثنين ، الرغبة والدافع ، يفضيان إلى تلقائية ميكانيكية ليهويا من الحقيقة التلقائية إلى حقيقة مادية ميتة ، وإن على الثقافة أن تقف حائلا دون هذا السقوط » . وابتسمت بسخرية ، ثم استطردت : « وبما أنك مثقف يا أستاذ ، فعليك أن تقف حائلا دون هذا السقوط ! » . فقال وهو ينظر فى اتجاه بشار ، محاولا إيغار صدره : « أو تسمين الزواج سقوطاً ؟ ! » . فقال عبدالرحمن متدخلا : « فى اعتقادى أن المناقشة الموضوعية يجب أن تبتعد عن روح التحدى والتجريح ! » . فقال فاروق بأدب زائف : « أنا آسف » . وأغلق فمه . لكن سهى عادت وأمسكت بطرف الموضوع : « إن مايربك صديقنا فاروق ليس موضوع الزواج أو عدمه، بل كون الفنان أرقى من المثقف ، أليس كذلك ؟ » ، وأخذت تحدق فى وجهه بسخرية وشماتة . ثم واصلت وهى تتلمظ لإغاظته : « يقول شيللى بأن الفنان هو «الأسعد ، الأحسن ، الأحكم ، وأكثر الناس تألقاً » ، أرأيت يا أستاذ فاروق ، أنا لم أجئ بأحكام من عندى ، بل من فلاسفة عظام ، وأظن أن هذا يصدمك . أليس كذلك ؟ » ، وأخذت تقهقه بشماتة ، فتساءل بغيظ : « أى أن الفنان هو الإنسان الأسمى : السوبرمان ؟» . . فقالت ، بإيمان

مبالغ فيه : « هذا هو الواقع ! » ، فى حين واصل هو : «وأنه القمة؟» ، فقالت بإصرار : « فعلا ! » ، فقال بنعومة : « . . ونحن من سكان القاع ! » ، فأخذ الجميع يقهقهون ، وظنت سهى للحظات أنها قد انتصرت عليه وأرضخته وأرغمته على الاعتراف ، لكنه قال وهو يقف فجأة بحركة تمثيلية بارعة ، ويمد يده بأصبع الاتهام : « فكيف تنازلت وأحببت واحداً من سكان القاع ؟ » . . فاربدّ وجه بشار وأخذ يزفر . وعندما حاولت سهى الإمساك بيده رفض ذلك واستدار بوجهه عنها ، وكان السؤال فى انتظار الجواب فتبرع عبد الرحمن بالتدخل لتهدئة الموقف قائلا : « الحب عاطفة سامية ترقى بالإنسان وتلهم الفنان ! » . فقال فاروق شامتاً بلؤم : « ولكنك قررت فى مقالك الأخير عكس ذلك ! » ، فتساءل عبد الرحمن متعجباً : « أنا » ؟

ـ نعم أنت ، قلت بأن الحبيب قد يشغل الفنان بحبه الفردى عن حبه الجماعى للإنسانية ، وقلت بأن الفنان قد يمر بحب يعتصر روحه وقلبه وجمالياته ، فيصبح كرة فارغة ، أو زهرة بدون شذى !

ودون وعى ، التقت عينا عبدالرحمن بعينى سامية ، فأرخت تلك أهدابها باستسلام ، شأن من قبلت حكماً جائراً بصمت ! . . وتساءلت نسرين لأول مرة : « أستاذ! ألم تمر بحب ما ؟ » ، فقال بشرود : « بلى ، مررت بحب فاشل ! » . قالت مستدرجة : « لكنك لم تقدم فناً فاشلا . » ، فقال مفكراً : « لقد توقفت عن الإنتاج مدة طويلة ، عدة أشهر ، وربما سنة أو أكثر ، لم أستطع خلالها رسم لوحة أو كتابة كلمة ! » . وكانت الكلمات تمثل عتاباً مبطناً بالنسبة لسامية ، لكن نسرين واصلت : « وما أول لوحة أنتجتها بعد تلك الفترة ؟ » . قال وابتسامة مريرة تحيط بوجهه : « لحظة حب » ، كانت هى أول لوحة . لقد كانت استغراقاً فى ذكرى رفضت اعتبارها ذكرى . وفى تلك اللوحة عشت لحظة ، بل لحظات وساعات ، مع ملهمتها . كنت أحلم بها ، أتمناها ، أعيش معها ولها! »

## ٩

وانتقلت عينا سامية نحو اللوحة المعلقة فى مواجهتها ، وتذكرت يوماً بعيداً ، بجانب قرية بعيدة ، والربيع يفرش الأرض بألوان . . ألوان . . ألوان . . وكان ثوبها الأصفر يتطاير مع الهواء ، وزهر المرجريت الصغير يضىء العالم بعيونه الصافية المتألقة . فى ذاك اليوم قالت له إنها ترى فى عينيه إشعاعاً ذريًّا سيكون السبب فى إحداث « عاهة مستديمة » لديها ، إذا استمر فى تسليطه عليها . والتفتت لترى الإشعاع يحيط بها ، يغمرها ، يغرقها ، يغوص فى أعماقها !

وواصل عبد الرحمن وهو يستدير بعينيه ناحية اللوحة : « كنت أرفض الواقع ، كنت أرفض الألم ، كنت أخلق لنفسى واقعاً من وحى فنى ومخيلتى . كنت أرفض واقع المرارة والخيبة ، وعشت فى اللوحة لحظات سعيدة ، لكنها كانت من صنعى أنا ، وبفضلى أنا ، ولم تكن بفضل الملهمة ! » . . فقالت نسرين : « بل بفضل الملهمة ، فلولا الملهمة ما جاء الوحى! » . . فقال وهو يهز رأسه بمرارة : « وكم تمنيت لو فقدت الوحى ولم أفقد الواقع ، لو فقدت قوة مخيلتى ولم أفقد إثارتها . ولكن ، هذا ما حدث . لقد كان إبداعى أروع من إبداع الطبيعة ، وكانت الصورة أفضل من الأصل ! » .

وأحست سامية بأعماقها تترنح . . كان عبد الرحمن ممن يجيدون توجيه الصفعات المعنوية ! . . وقال شكرى فى محاولة لإرضاء زوجته الحردة : « هذه اللوحة ستكون من نصيبى ، أهى معروضة للبيع ؟ » . وتوقفت أنفاس سامية بانتظار الحكم ! : «هل سيبيعها ؟ هل سيبيعها ؟» . كانت اللوحة تمثلها ، كانت هى . . فهل يبيعها ؟ . . قال عبدالرحمن ببطء : « سأفكر فى الموضوع . » . . « إذن فهو متردد . . والتردد معناه حدوث صراع ما . . ولو ضئيلاً ! » . . وقالت نسرين : « بل سنشتريها للمكتبة . » ، فقالت إيفيت بنزق : « نحن السباقون ! » .

وقالت نسرين : « عندما تكون اللوحة فى المكتبة ، تكون ملكاً للجميع ، نراها كلنا ، فما رأى الأستاذ ؟ » . قال عبدالرحمن متراجعاً : « وقد لا أبيعها . . سأفكر فى الموضوع . » . . واهتزت أعماق سامية : « لن يبيعها ، لن يبيعنى ! » . . ونظرت إليه بامتنان ، لكنه استدار بعينيه ولم يواجه نظرتها ! . . وتساءلت سميرة : « اعذر فضولى يا أستاذ ، ولكن هل بالإمكان معرفة من كانت ملهمتك ؟ » . لم يجب ، فقالت سميرة بأسف واعتذار : « أنا آسفة . » ، فقال بهدوء : « لا بأس . لقد جرت العادة أن تكون عواطف الفنانين مسرحاً مجانيًّا للجمهور ، ولكنى لا أميل لهذا النوع من الدعاية ، فهناك أشياء تخص الإنسان وحده دون غيره ، وإذا نشرتها الصحف وخاض فى تفاصيلها أهل الصحافة ، أصبحت مضغة ملوثة ، أصبحت مشاعاً ، وفقدت قدسيتها » !

وكانت سامية تتابع حديثه بلهفة «فذكراى ما زالت مقدسة لديه.. ما زالت مقدسة. أعرف أنه لا يقصد كيل أى مديح لى ، ولكن كلمته هذه تعتبر نوعاً من المديح ، فهو لا يريد لقصتنا أن تصبح مضغة ملوثة ، ولا مشاعاً ، خوفاً من أن تفقد قدسيتها . ومهما اتخذ من مواقف لا مبالية ، إلا أنه ما زال يبالى ، ما زال يبالى ! » . . وقال فاروق : « هذا دليل آخر على أن الحب يمثل عاملا حيويًّا بالنسبة للفنان ، عاملا مقدساً كما تقول ، فكيف تحاول إثبات العكس فى مقالك ؟ » . فقالت سهى : « الحب عنصر مثير ، يثير المخيلة ، يثير الحماسة الروحية ، فيزداد إنتاج الفنان ! » . . فتساءل فاروق مصطنعاً البراءة : « أفهم من هذا أنك تحبين الفن ولا تحبين الحبيب ؟ » . . فتساءلت محرجة : « كيف هذا؟».. فأجاب : « أقصد أنك تحبين من أجل زيادة الإنتاج ، كمن يزيت الآلة ليشحذ طاقتها ! » . . قالت بغضب : « هذا غير صحيح ، فلو كان كل فنان يفعل هذا ، لكان تاجر حب أكثر منه مبدعاً جماليًّا ! » . فقال بسخرية : « وكيف نستطيع نحن سكان القاع التمييز بين تاجر

الحب والمبدع الجمالى ؟ ! » . قالت وهى تصرف بأسنانها : « عندما تستطيع أخذ دورك فى طابور الطليعة المثقفة ، تستطيع أن تعرف ! » . فتساءل وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة : « وهل بشار ممن أخذوا مكانهم فى الطابور ، ليعرف ؟ » ، فتساءل بشار بدهشة : « أعرف ماذا ؟ »

— الفرق بين تاجر الحب والمبدع الجمالى .

ولم يجب بشار ، فقد كان فى وضع لا يحسد عليه . فى حين قال فاروق ملمزاً : « جرت العادة فى الشرق — وحتى فى الغرب أيضاً — أن تكون المرأة هى الضحية ! » . . فقالت سهى باندفاع : « أعتقد يا أستاذ أنك تتدخل فى أمور لا تخصك . كما أعتقد أن على المثقف الحقيقى ألا يتلمظ على المشاكل والدسائس ! » . . فتساءل بغضب : « أية دسائس ؟ » . صاحت بحنق : « منذ البداية وأنت تحاول إيجاد ثغرة للنفاذ منها ، تريد أن تعرف لِمَ أمانع فى الزواج من بشار ؟ ! » . . فقال محاولاً الظهور بمظهر الصديق المخلص : «بشار صديقى ، وأنا أحاول مساندته . » . . قالت بغضب : « بشار صديقى أكثر مما هو صديقك ، ثم إنك تحاول مساندته ضد من ؟ ضدى أنا ؟ ثم من الذى طلب مساعدتك ؟ » . فقال مواجهاً بشار : « هو الذى طلب مساعدتى ، هو الذى وسطنى ! » . . فالتفتت سهى إلى بشار وقالت بغضب : « كيف حدث هذا يا بشار ! كنت أظن أن قصتنا إنما هى شىء خاص بنا فقط ! ». فقال فاروق بسخرية : « الفنان ليس ملكاً لنفسه فقط ، « فالسوبرمان » لا يحق له أن يكون ملكاً لنفسه ! » . ولم تجبه سهى ، بل ظلت تحدق فى بشار ، بانتظار جوابه ، لكنه لم يجب ، فواصلت : « ألم تسمع ما قاله الأستاذ عبد الرحمن ، بأن هناك أشياء تخص الإنسان وحده ، وأنها تفقد قدسيتها إذا أصبحت مشاعاً ؟ » . فقالت سامية متدخلة : « أعتقد بأن على الشخصين اللذين تربطهما علاقة عاطفية أن يناقشا مشاكلهما فيما بينهما ، وألا يدعا لأحد مجالا

للتدخل . » ، فقالت سهى باندفاع ، وهى تهب واقفة : « أعتقد بأن هذا عين الصواب ، ولهذا فأنا أستأذن أملا فى أن أناقش الموضوع مع بشار فى مكان آخر . » . . وانسحبت ، بينما تبعها بشار صامتا .

وقالت سميرة : « أعتقد أن السيد فاروق قد أثار إشكالاً نحن فى غنى عنه ! » ، فقال هذا بحقد : « كان لا بد من مساندة بشار ، فهو ضعيف أمامها . لا أدرى كيف سحرته ، إنى لأعجب كيف تستطيع امرأة مهما بلغت من الذكاء والجمال والدهاء ، أن تسيطر على رجل وهى ليست أكثر من امرأة ! » ، فقالت سميرة بدهشة : « ماذا تعنى بـ « ليست أكثر من امرأة ؟» هل تعتبر المرأة مخلوقًا ناقصًا ؟ ». فقال بكبرياء ضاحك : « للرجل مثل حظ الأنثيين . » . . وأخذت إيفيت تنظر إليه بدهشة ، متسائلة : « ألم تقل بأن المرأة إنسان له الحق كل الحق فى الحياة مثل الرجل تماماً ؟ » . . وكانت سميرة تهتف شاهقة : « أنت تقول هذا ؟ أنت ؟ »

– وهل ينسى الإنسان دينه ؟

لكنها واصلت باندفاع : « ولم لا تذكر دينك إلا حين يقف فى مصلحتك ! » . . فقال منتفخًا : « بل أذكره فى كل وقت . » . فقالت بسخرية : « ألا تسرق ؟ » . قال بكبرياء : « لا ، لست بحاجة لمال أحد ! » . قالت : « هناك أشياء أخرى غير المال قابلة للسرقة ! » . . وكانت إيفيت تنظر إليهما بقلب خافق وأعصاب متوترة ، فقال فاروق : « لم أسرق ، ولن أسرق ! » . وفكرت إيفيت : « أظنه كاذباً ! » . أما سميرة فسألته : « ألا تكذب ؟ » ، فقال بتحد : « أنا أقل الناس كذبًا ! » . . وفكرت إيفيت : « بل أظنك أكثرهم كذباً ! » .وتساءلت سميرة : « ألا تزنى ؟» ، فابتسم فاروق وقال ، وهو يتنحنح : « فى الحقيقة هذا سؤال محرج . سبحان الله يا عروبة ! لقد أصبح فيك نساء يطالبن بالحب ويعارضن الزواج ، ويسألن أسئلة محرجة ! »

قالت سميرة : « أجب ولا تهرب ! » ، فقال بكبرياء : « حسن ، فأنا أعترف ، ولكن على اعتبار أنى أمارس الحب لا الزنا ! » . . فقالت سميرة بسخرية : « لا تبطن الكلمات ، فسواء أسميناه زنا ، أو أسميناه ممارسة حب ، فهو الخطيئة الملعونة ! » . . فقال بعجب : « ما هذا الانغلاق ! ألا تعيشين فى هذا العصر؟ ألا تعرفين بأن الجنس أصبح غير ما كانه فى الماضى ؟ لقد اختلفت القيم والمفاهيم ، اختلف معنى الشرف المتعارف عليه ! » . وكانت سميرة تتساءل بمرارة : « أهو معنى الشرف الذى اختلف فقط ؟ ألم يختلف وضع المرأة أيضًا ؟ ألم تصبح عاملاً حيويًّا فى بناء المجتمع وحضارة الأمة ؟ أريد أن أفهم يا حضرة المثقف ، لم اختلف معنى الشرف ولم تختلف أشياء أخرى فى مقابل هذا ؟ » . وكانت إيفيت تتساءل داخليًّا : « قال لى بأن المرأة إنسان كامل، ألم يقل هذا؟ » فى حين واصلت سميرة سخريتها المريرة: « لقد وقعت فى الفخ يا صاحبى ! ، فلست سوى متدين مزيف يتخذ من دينه حجة وذريعة لكى يصل إلى مصالحه وغاياته . أنت « متدين مصلحة » يا أستاذ ! » . وأخذ الباقون يقهقهون .. فقال فاروق باندفاع غاضب : « مهما قلت ، ومهما فلسفت الأمور ، تظل المرأة هى الأضعف ، والرجل هو الأقوى ، وتظل العاقبة سطحية بالنسبة للرجل ، بينما تكون وخيمة بالنسبة للمرأة ، فعندما يمارس الرجل الحب فهو لا يقدم على جريمة ، أما بالنسبة للمرأة . . ؟ » . . فصاحت سميرة متممة : « فجريمة ! ! » .

وكانت أعماق إيفيت تتلوى : « أيها الغادر الملون ، فما رأيك فى إذن ؟ » . وقال فاروق مجيبًا سميرة : « نعم، للأسف هذا هو الواقع ، ولهذا فأنا أعجب كيف ترفض « سهى » الزواج وقد جرى ما جرى ! » . . فتساءلت نسرين وهى تحس بأن القضية باتت قضية دفاع عن حق المرأة عموماً فى الحياة : « وماذا جرى ؟ » . قال بخبث : « أنت أدرى . . » .

قالت مواجهة : « لا ، لا أدرى ، فهلا أفهمتنى ؟ » . قال :

ــ أنت تعرفين بأنهما يمارسان الحب !

قالت غاضبة : « لا ، أنا لا أعرف ، وأنت كذلك لا تعرف ! » . قال ضاحكًا : « هيا ، لنكن صرحاء ، ألا يعرف الجميع بأنهما يمارسان الحب ؟ » . قالت بغيظ : « وكيف عرفت ؟ هل أخبرك بشار؟ »

ــ ذلك واضح وضوح الشمس فى وسط الظهيرة !

قالت سامية : « أظن أن الخوض فى مواضيع كهذه غير لائق ! » . قالت نسرين : « بل من اللائق أن نعرف وجهة نظر الأستاذ فاروق فى المرأة حين تحب رجلا ! » . قال : « أعتقد بأن الحب شىء ، وما نقصده بممارسة الحب شىء آخر ! » . قالت سميرة : « تقصد بالنسبة للمرأة فقط ، أليس كذلك ؟ » . قال موضحًا ، وقد كست البراءة وجهه : « لا تلومونى على عادات المجتمع ، لست مرشد هذه الأمة ! » .

ــ لقد أيدت عادات المجتمع باعتبار أنها رائعة وملائمة ، فأنت ملام لتأييدك ، وعدم إيجابيتك فى التطوير !

تساءل متجهمًا : « تطوير ؟ أى تطوير ؟ وهل أنا المسئول عن ذلك ! » . قالت سميرة : « تظل مسئولا طالما بقيت تعتبر نفسك أحد أفراد الطليعة المثقفة » .

ــ وماذا باستطاعتى أن أفعل فى هذا الخضم من التقاليد والقيود ؟

ــ على الأقل أن تكون أقل تزمتًا وأكثر عدالة !

ــ أى تزمت ، وأية عدالة !

ــ ألا تقف من المرأة موقف الجلاد ، تحرم عليها ما تحلله لنفسك ، وألا تخوض فى تفاصيل قصص الحب التى تراها من حولك . . ثم ألست تطالب بالديموقراطية . . . إلخ .

ــ ( مقاطعا ) بشرط أن تكون فى صالح المجموع !

قالت بتأكيد : « هذا شىء لم نختلف عليه ، ولكن بما أنك توافق

على مفهوم الديموقراطية ، فعليك أن تراعى حرية الفرد ، طالما أنها لا تمس حرية الآخرين ! » . قال فاروق : « لكن سهى ما عادت ملك نفسها ، هى التى قررت ذلك . وعلى هذا ، يحق لنا أن نضع تصرفاتها تحت المناقشة . » . قال عبدالرحمن بمرارة : « كنت أتمنى لو أن الناس يعبأون بإنتاج الفنان بقدر ما يهتمون بتفاصيل حياته الخاصة . فمثلا نحن نعرف عن تفاصيل حياة سارتر وسيمون أكثر مما نعرف عن أفكارهم ! . . نعرف عن كوكتو وراسكين وبودلير وغيرهم أكثر مما نعرف عن مؤلفاتهم ! . . وأرى أن الحال معكوس بلا مبرر ، فبدلا من أن يوضع إنتاج الفنان تحت المجهر ، أصبحت حياته الخاصة ، وعلاقاته العاطفية والجنسية هى التى توضع تحت المجهر . أليس هذا مثيراً للدهشة والتساؤل ؟ » . قال فاروق : « بصراحة ، بصراحة ، أنا لا أحب نوعية سهى . هذه النوعية الثائرة على كل عرف وتقليد ، فهى ابنة الشرق أولا وأخيراً ! » . وكانت إيفيت تفكر بمرارة . . : « فماذا تقول عنى أيها المخادع ؟ » . . فى حين قال زوجها شكرى : « فى الحقيقة إن النظريات شىء ، والتطبيق شىء آخر . اعذرونى يا كرام إن قلت لكم بأن على المرأة أن تكون أكثر تحفظاً ، فماذا يحل ببيوتنا لو أن كل امرأة ألقت بحبلها على غاربها ؟ » . فقال فاروق مؤيداً : « فعلا ، ماذا يحل بأولادنا ، ماذا يحل بنسائنا ، ماذا يحل بشرفنا ! ؟ » . . وأخذت دموع إيفيت تتساقط بصمت . وقال شكرى : « أنا رجل شرقى ولا أحب أموراً كهذه ! » . فقال فاروق بحماسة : « وأنا مثلك يا أخ شكرى . مثلك تماماً . » . . فقال شكرى مستطرداً : « ولا أحب العبث بالشرف والمقدسات . » . ، فقال فاروق موافقاً ، وبحماسة تتزايد : « بالضبط ، هذا ما كنت أريد قوله . وبصراحة ، لو كنت مكان بشار ، للفظتها لفظ النواة ، فكيف يتزوج بفتاة شبع منها ! » . فصاحت سامية لأول مرة : « كفى . . كفى . . ما هذا ! ؟ » . وهتفت إيفيت

بقلب يحتضر : « أرجوكم . . أرجوكم ! » . . والتفت شكرى ليرى وجه زوجته غارقًا فى الدمع ، فتساءل بدهشة واستنكار : « ما بك ! أهذا وقت دموعك ! ؟ » . ولكزها بمرفقه خلسة ، وقال هامسًا : « لا تجعلينا سخرية أمام الناس ، اسكتى ! » . فصاحت غير آبهة به : « بل اسكت أنت ! » . ثم التفتت إلى فاروق صائحة : « وأنت اسكت.. أنت اسكت. . يا أكبر كذاب ولدته امرأة . أغلق فمك ، أغلقه حالا ! » .

. . وأخذ الجميع ينظرون إليها بدهشة . . فى حين قالت سامية وهى تحاول تمالك أعصابها : « إن ما حدث لهو فوق قدرتى على الاحتمال. أنا لا أسمح لأحد بنهش الآخرين أمامى ! . . أبداً ، أبداً ، هذا منتهى الجبن والابتذال . أهذه هى مجتمعات الثقافة فى هذه البلاد ؟ نهش وتحد وتجريح ! ثم تلك الفتاة ، تدينونها كما لو كنتم أنبياء مطهرين ، لماذا ؟ من أنتم وكيف عرفتم وتأكدتم مما فعلته ؟ ثم على افتراض أنها فعلت ما يحلو لها ، هى حرة . وذاك التهجم على المرأة عمومًا ، إنه شىء مهين ، مهين .فأين الثقافة يا أدعياء الثقافة؟ أنا واثقة بأن الواحد منكم عندما يختلى بفتاة ساذجة يشتهيها يأخذ فى حشو رأسها بما لذ وطاب عن حرية المرأة ، وعن كيانها ، وثورتها ، وحقوقها . . وعند ما ينال ما يريد ، يقول بصلافة ووقاحة « لن أتزوج من فتاة شبعت منها ! »

فصاحت إيفيت : « ويقولون أكثر . . يقولون أكثر ! » ، فلكزها شكرى ، لكنها صاحت ثانية : « اسكت . . ابتعد عنى . . لا تكلمنى لا تلمسنى ! » . وكان فاروق يحدجها خلسة بقلق ، فماذا لو زل لسانها وفضحت ما فعلاه ! فهى غبية وسطحية وهوجاء ، وزوجها عريض المنكبين قوى الساعدين ، وممن يعتدون بالشرف ! . . ولم يلبث شكرى أن قال فى شبه اعتذار : « إيفيت سريعة الانفعال ، هذه عادتها ، تبكى لأتفه الأسباب ! » فقالت سميرة : كنت أود أن أفعل مثلها ، لكن دموعى لم تطاوعنى » . . وقالت نسرين : « أما أنا فميولى أكثر

عنفاً ، فبدلا من البكاء كنت أود أن أصفع من يهينني ويعاملني بشكل مذل ! » . فقال شكري بدهشة : « ما من أحد أهانك يا آنسة نسرين ، فأنت فتاة محترمة » . ، لكنها صاحت بثورة : « بل أنا غير محترمة ، ولا أريد أن أكون محترمة في نظركم ، لأنكم لن تحترموني حتى ولو كنت البتول نفسها ، يكفي أني امرأة لأكون إنساناً ناقصاً ! » فقال عبد الرحمن مهدئاً : « ما كان ذلك لائقاً يا سيد فاروق ، من غير اللائق فعلا نهش الأعراض ، أنا أمقت هذا ! » . فقال شكري ببلادة : « نحن لم نأت بجديد ، هذه هي الوقائع ، والواقع مر » . فقال عبد الرحمن : « بل أنتم تزيدون من مرارته » . وأخذ يقول كلاماً لطيفاً عن المرأة ، محاولا استرضاء المجموعة النسائية الغاضبة . لكن إيفيت المفجوعة استمرت في البكاء دون توقف ، فاضطر زوجها للاعتذار والانسحاب . . وكذلك فعل فاروق . . ولم يبق في القاعة سوى أربعة : عبد الرحمن ، وسامية ، ونسرين ، وسميرة . وعندما حاولت سميرة الاستئذان ، أصرت نسرين على استضافتها لتلك الليلة ، فغداً يوم جمعة ، وهناك الكثير مما تود استشارتها فيه والتحدث عنه ، وهناك موقف فاروق من المرأة المتحررة ، وهناك موقف شكري المتزمت ، ثم ذلك الضعف الذي أبداه بشار أمام استفزازات رفيقه ، والحقيقة التي لا مجال لإنكارها هي أن شخصية سهى أقوى بكثير من شخصية بشار ، فلا عجب إذا رفضت المرأة الزواج من رجل أضعف منها ، ولكن العجيب أن الرجال لا يعترفون بإمكانية تفوق امرأة ما ، وبدلا من احترامها يحاولون تحطيمها ، وهذا جبن ونذالة ، وهذا بالفعل ما كانه موقف فاروق !

ترى أهذا موقف الرجل العربي المثقف عموماً من المرأة المتحررة ؟ إذن فأفكارهم التي غرروا بهن بواسطتها منذ البداية ما كانت سوى طعم يصطادوهن به ! يريدون قضاء أوقات مسلية على حسابهن

ويستخدمون أفكاراً لا تمت لعقليتهم الشرقية بصلة ، ولقد وقعت الطيبات فى الفخ بسهولة . فما صبغة النادى إذن ؟ أهو مكان تنبثق منه الأفكار المتحررة ، أم بؤرة ينام فيها العفن ؟ !

وإيڤيت المسكينة كم كانت حساسة . ما كان المظنون أنهاترى فى الإهانات الموجهة لأية امرأة أخرى ، إهانة تنال منها شخصياً . وقد كان موقفها برغم ما فيه من سذاجة ، نبيلا وكريماً . لقد بكت تأثراً وغيظاً من موقف زوجها وفاروق من سهى . بكت غضباً من موقف الرجال عموماً من المرأة ، وقد نعتت فاروق « بالكذب » لأنه افترى على سهى . وباختصار كان موقف إيڤيت نبيلا وكان فاروق مختالا فى ثياب المثقفين ، فهل كل المثقفين بهذا الشكل؟ فما يكون موقف نسرين وسميرة إذن ! هل تقاومان ، فى محاولة لإصلاح الاعوجاج ، وبذلك تعرضان سمعتيهما للنهش والاستغابة ، أم تتقوقعان كما تفعل فتيات هذه البلاد ، حتى تظلا بعيداً عن الاتهامات والإدانات ؟

وكانت الشابتان قد انزوتا فى ركن بعيد فى القاعة وهما تتساءلان وتتشاوران ، وأخيرا هبتا معاً ، واقتربتا من المائدة المهجورة حيث كان يجلس الجمع المنفرط الذى لم يبق منه إلا سامية وعبد الرحمن . . وقالت نسرين لشقيقتها سامية : « أعطينى مفاتيح الجاراج ، سنمر بمنزل سميرة لنخبرهم بأنها ستقضى ليلتها عندى » . . ثم انصرفت الشابتان .

## ١٠

ولم يبق فى المكان سوى سامية وعبد الرحمن ، والقاعة متسعة ، دافئة ، مليئة باللوحات والألوان . . وقدح ويسكى فى يده ، وسيجارة فى فمها ، والسكون يلف المكان ، فيما عدا صوت الريح العابث آتياً من وراء زجاج النوافذ ، وصوتاً بعيداً لرشات المطر تنقر المزاريب ومدخنة المدفأة الضخمة . ولو كانت الأفكار تسمع ، لسمعت القاعة احتدام الصراع فى النفسيتين المتقابلتين !

وظلت سامية تنتظر أن يقول عبد الرحمن شيئاً ، تنتظر ، تنتظر ، وترفع عينيها لتنظر فى وجهه . فترى عينيه تصوبان إليها نظرات فيها حدة وتوجس ! كان يريد من كل قلبه أن يخاطبها كأية امرأة أخرى يجدها أمامه فى مثل هذا الوضع ، كان يريد أن يعتذر لها عما بدر من الرجلين من إساءة ، فهو نفسه لا يقر أفكارهما ، وقد كان يريد أن يناقشها فى موقف فاروق من سهى ، يريد أن يفهمها بأن حملة فاروق كانت بدافع الغيرة أكثر مما هى بدافع المبدأ ! . . وكان يريد أن يواصل ، ويواصل ، ويقول لها بأنه يشعر بالوحدة ، وأنه يتمنى أن يجد امرأة تفهمه كما فهمته هى فى الماضى ، وأنه يود بل يحلم بالاستقرار مع امرأة تمنحه قلبها وروحها وجسدها . امرأة تفتح له الباب مساء ، تتحسس جبينه بحنان حين يهده التعب ، وتواسيه حين يهاجمه النقاد ، وتقول له كل ليلة إنها تجده رجلا مليئاً بالحيوية ، وإنها تعتبره خارقاً . . وإنها تحبه !

. . ولكنه لم يقل سوى : « أتسمحين لى بإحدى سجائرك ؟ » ، ثم نهض من مكانه فتناول سيجارة من علبتها ، ووضع العلبة مكانها ، فتناولتها وسحبت واحدة ، ووقف هو حائراً ، هل يجلس بجوارها ويواصل حديثاً انقطع منذ عشر سنوات ؟ ومعنى هذا أنه سيعاتبها ويلومها ، ويقسو عليها ، وقد يهز كتفيها وهو يصرخ فى وجهها : « لم تركتنى ياخائنة ؟ لم تركتنى يا متوحشة ؟ لقد كنت ملاكى ، كنت العالم كله ، كنت حبيبتى ، أتسمعين ؟ كنت حبيبتى ! » . وعاد يجلس مكانه بشرود ، ونسى أن يعيد قداحتها إلى مكانها ، وظلت هى تنتظر وسيجارتها مطفأة فى فمها ، فى انتظار شعلة ، فى انتظار كلمة : « لم لا يشعل سيجارتى ! هل نسى وجودى ؟ لم لا يقترب ؟ كنت أظنه سيقترب ، فالجو مناسب ، المكان كله مناسب ، وأنا على استعداد لاحتمال أية كلمة جارحة يلقيها فى وجهى ! . إنى أرى

حيرته فى عينيه ، وأرى عناداً كذلك ، وأرى شوقاً يحاول دفنه ، ولكنى لن أسمح له بذلك ، فأنا أريده حياً ، متوقداً ، متوهجاً ، كما كان ، وأكثر ! »

وانتبه هو ، فراح يحدث نفسه : « يالى من أبله ! سيجارتها فى فمها » فى انتظارى ! » . . واقترب ، وطأطأ منحنياً ليشعل سيجارتها ، وكانت يده قريبة من وجهها ، قريبة من فمها . يده الكبيرة ، الحساسة ، الحانية . . قريبة من شفتيها . . وشعلة صغيرة زرقاء تنبعث منها . ورآها تلمس بسبابتها نار الشعلة الصغيرة وهى تنظر فى عينيه بألم ، فأجفل وسحب القداحة بسرعة وصرخ : « لم فعلت ذلك ؟ ؟ ! »

وكانت دموعها تسيل ، وإصبعها الملسوعة ما زالت ممدودة . . فجلس بجوارها ينظر فى وجهها ، فى دموعها الحزينة ، وكان منفعلا . وقال بصوت جاف : « أرينى إصبعك » . ، وأمسك بها ، ورأى علامة حمراء فى وسطها ، وكانت الإصبع رقيقة ، ناعمة ، لها ظفر نظيف مطلى بلون باهت ، وكانت إصبعها ترتجف كما لو كانت تطلب النجدة . فأمسك بالإصبع يحتضنها فى كفه ، وهو يتمتم بدون وعى : « هل تؤلمك ؟ » ، ونظر فى عينيها الحزينتين ، وكيانه كله فى حالة تحفز ، ونسى كل شىء . نسى عشر سنوات من الضياع والعذاب والألم ، نسى غدرها ، نسى خيانتها ، نسى الحواجز التى أقامها الزمن بينه وبينها ، ولم يذكر سوى الإصبع الرقيقة الحساسة المرتجفة التى تطلب رحمته ونجدته . وهتف بإشفاق : « لم فعلت ذلك ؟ ! »

وكان فى صوته حنان ، فازدادت دموعها انهماراً . وعاد يسأل بإشفاق : « هل تؤلمك ؟ » . ولم تجبه . كانت تبادله النظر فقط ، وفى عينيها أوجاع العالم كله . وهو رجل حساس ، ودموع المرأة تثير حنانه وشفقته ورحمته ، والنظرة الحزينة العميقة من هاتين العينين الرائعتين لها وقع خاص ، فيه رعشة ! . . وهمس وهو يقرب الإصبع من فمه : « سأقبلها . . ولن تؤلمك بعد ذلك » . . فهزت رأسها كطفلة مقتنعة

بأن القبلة فى الإصبع الموجوعة تمنح شفاء ، بينما أدنى هو الإصبع من فمه يقبل العلامة الحمراء . . وعاد ينظر فى عينيها وهو يهمس : « هذه الإصبع ، كانت الآمر الناهى ، كانت إشارة المرور ، وإشارة التوقف . بإشارة منها كنت أركض كالحصان ، وبإشارة منها رقدت ميتاً بدون حياة . وقد كانت قاسية ، فبإشارة منها دفنت وأنا بعد حى ! »

ولم تقل شيئاً ، فقد كانت دموعها تقول كل شىء .. وواصل هامساً : « سامية . . لم فعلت ذلك ؟ »

وكان سؤالا غريباً ، له أكثر من معنى : لم فعلت هذا بإصبعها ؟ أم به ، بخيانتها؟ وواصل الدمع التدفق ، فعاد يردد : « سامية . . لا تبكى .. أجيبى : لم فعلت ذلك » ؟ . . لكنها لم تجب! . . وكانت إصبعها مازالت فى يده ، قريبة من فمه ، وعاد يلثمها بحنان وهو يتساءل : « ألا زالت تؤلمك ؟ » ، وهزت رأسها كطفلة نالت عقاباً شديداً ، وأحس بنفسه جلاداً قاسيًا : فامرأة كهذه ، حساسة ، رقيقة ، مرهفة ، لا تستحق جزاء قاسيًا . امرأة جميلة رائعة كهذه ، تستحق الإعجاب والحب فقط . ويدها المرتجفة بين يديه ، لا تستحق ناراً تكويها ، بل قبلة حنوناً فى باطنها . وأخذ يقبل باطن اليد الملسوعة ، واليد تتحسس وجهه بشوق ، بلهفة ، وحنان . ثم سألها وهو يرفع رأسه ثانية وينظر فى عينيها : « لم فعلت ذلك ؟ »

واحتارت بم تجيب ، فتابعت الصمت ، فعاد يكرر بإلحاح : « لم فعلت ذلك بإصبعك ؟ لم ؟ » ، فقالت هامسة : « كنت تعيسة ! » . . فتساءل وهو مازال ممسكاً بيدها يحتضن الإصبع برأفة : « ألأنك تعيسة تحرقين إصبعك ؟ » فقالت بخجل حزين : « وكنت أريد إثارة انتباهك ! »

كان صدقها هو أحد المزايا التى أحبها ، فابتسم بحنان وتساءل : « وهل أفلحت ؟ » . قالت بحذر : « يخيل إلىّ ذلك »

— أتظنين أن إحراق إصبعك هو الذى أثار اهتمامى؟ لو أننى لا آبه

بك ما كان اهتمامى ليثار ولو أحرقت جسمك كله !

ــ وحتى هذا كنت على استعداد لفعله لو اقتضى الأمر !

ــ إذن فأنت تحبينى !

ولم تجب . . كانت تخاف أن يسخر منها ، ومن حبها ، ومن تاريخها الأسود معه ، ففضلت الصمت ! لكنه قال ملحاً : « أجيبى ، ألا تحبينى ؟ » ، فنظرت إليه بحيرة وخوف وألم ، ولم تجب ! فقال بمزيد من الإلحاح : « قولى . . قوليها ! ». قالت هامسة « أنت تعرف ! »

ــ أعرف ماذا ؟ هيا قولى . . أعرف ماذا ؟ !

قالت وهى ترخى أهدابها باستسلام : « أنت تعرف أنى أحبك . » . . فارتسمت على وجهه ابتسامة مريرة ، وتساءل : « وكيف أعرف ؟ ! هل أنا نبى لأعرف ذلك ؟ هل أعطيتنى إثباتاً ؟ هل أعطيتنى علامة ؟ كيف أعرف بدون دليل !! » . . نعم ، لقد ابتدأ العتاب ، وهذا ما كانت بانتظاره ، هذا ما كانت تخافه ! قال وهو يشد كفها فجأة بعنف ، ويخرج الكلمات من بين أسنانه : « لم تركتنى إذن ؟ لم تركتنى ؟ »

وأخذت دموعها تسيل . فترك يدها ترتمى من يده ، واقترب بوجهه منها ، محاولا الغوص فى أعماقها ، ثم قال وهو يهتز : « لم تركتنى . . ؟ لم خنتنى . . ؟ لم غدرت بى . . . ؟ ألم أكن أحبك ؟ ألم تكونى ملاكى ؟ ألم تكونى معبودتى ؟ ألم تكونى ما كنت عليه ؟ »

ولم تجبه ، وكان تدفق الدمع من عينيها يزيد من ألمه وغليانه ، فأمسك بكتفيها يهزهما وصاح : « وأنت . . أحببتنى . . وما زلت تحبينى . . أنا أعرف هذا . أعرف . أعرف ! . رأيت ذلك فى كل حركة من حركاتك : رأيته فى لوحة المرجريت ، وفى زجاج النوافذ . . فى ثوبك الأصفر الهفهاف . . فى خطواتك التى كانت تتبعنى كلما اختفيت ، وفى نظراتك المتلهفة الباحثة كلما اختبأت ! . . رأيته فى أعماق عينيك ، فى حزنك ، وفى دموعك وتهربك . . كنت تحبينى

وما زلت ، فلست امرأة قنوعاً ، يرضيها أى رجل والسلام . . بل كنت بحاجة لرجل خارق ، لإنسان يفوقك ذكاء وقوة وحساسية . . وقد كنت أنا ذلك الرجل : كنت أنا رجلك . كنت أنا معبودك . كنت إنسانك الخارق . فكيف تركتنى ؟ ولم ؟ لم ؟ هيا أجيبى قبل أن أضغط عنقك ! »

وكانت ثورته قد وصلت إلى أبعد حد ، وكانت هى ترتجف بين ذراعيه ، وجفناها المسدلان يرتعشان . وصاح : « كنت أود أن أقتلك ، وددت من صميم قلبى أن أقتلك . ولو كانت الظروف قد ألقت بك إلىّ فى تلك اللحظات ، لما تركت فيك عرقاً ينبض ! كنت أود لو أصفعك ، أدميك صفعاً . وأنشب أسنانى فى عنقك ، وأقصف عظامك عظمة عظمة ! . . كنت أود أن أحرقك . . أن أغمرك بفيض من البترول وأشعل فيك النار ، ولا أتركك إلا وقد صرت رماداً » !

ورفعت أهدابها تتأمل وجهه الحبيب ، بصمت ، فازداد هياجه وصاح : « لا تتخذى هيئة القديسات ! لا تنظرى إلىّ بهذه الطريقة التى تعذبنى . أنت تعرفين إن نظرتك هذه ستضعفنى ، فلا تسلطيها علىّ . وأنا أعرف أنك تضمرين آلاف الأشياء . . وأنك تودين أن تقولى شيئاً معيناً . . فماذا تريدين أن تقولى ؟ ماذا تريدين أن تقولى ؟ » . . فتساءلت هامسة : « كنت تريد أن تقتلنى ؟ » . . فصاح بغضب : « نعم . . نعم . . هذا ما تمنيت ! » . . « وكنت تريد إحراقى ؟ » . . « نعم ، وألف نعم ! » . . فتساءلت وهى تغرس نظراتها فى عينيه : « وأفزعتك لسعة فى إصبعى ! ؟ » . . وأخذا يتبادلان النظر بترقب وتحفز . وقال متمتماً : « مازلت ذكية ! ولكنك لئيمة ، لئيمة ! وخبيثة ، وغادرة متوحشة! ». قالت باستسلام : « نعم » . . « وتقولين نعم؟ ألا تخجلين من ذلك ؟» . . « من ينكر خطيئة ، إنما يرتكب أخرى! »

— ومازلت تجيدين الكلام . هيه ، وماذا أيضاً ؟ هيا استعرضى عضلاتك أمامى ، هيا . والآن ، ماذا تريدين منى؟ لم أثرت انتباهى ؟

ماذا تريدين مني ؟

قالت ببطء : « أن تحبني » . صاح بسخرية : « أحبك أنت ؟ أحب بربرية متوحشة ، لها قلب الذئاب وملمس الأفاعي ؟ أنت ؟ أنت ؟ وهل انعدمت النساء لأحبك أنت ؟ ! » . قالت ببطء : « وبرغم هذا فأنت تحبني ! » . صاح : « أنت كاذبة ، فأنا أمقتك ! ألا ترين هذا ؟ ألا ترين أني أكرهك ! » . . قالت هامسة : « لا . . فأنت تحبني » . . « بل أكرهك ، وأتمنى قتلك ، أتمنى ضغط عنقك وإنشاب أسناني فيه ! »

قالت بهدوء : « ولم لا تفعل ؟ » . . وأخذا يتبادلان النظر . . وكان في عينيها حكايات وحكايات عن الحرمان والشوق واللهفة . . وفيضان ، فيضان من الحب . . وترك كتفيها فجأة وأشاح بوجهه عنها وهو يقول ، بندم : « ماكنت أريد أن يحدث ذلك . لم أكن أريد أن أراك ثانية لأبدأ القصة من جديد . كنت أتمنى أن أراك فقط لأعرف لمَ تركتني ؟ ذلك هو ما كنت أتلهف لسماعه : سبب زواجك المفاجئ وخروجك من البلاد ، سبب هجرانك ، سبب خيانتك ! كنت قد وعدتني بدل المرة ألف مرة ، بأنك لن تكوني إلا لي ، وكنت تقسمين بشرفك وشرفي بأنك لن تحبي سواي ، طبعاً كل تلك الحكايات كانت أوهام شباب ! والآن ، وبعد أن أصبحنا كباراً ، وبعد أن داعب الشيب رأسي ، وحفرت الأيام خطوطاً في جبهتي ، وملأت قلبي بألوف المشاكل والمآسي ، أعرف أننا لم نكن سوى عاشقين حالمين . كنا أبعد الناس عن المنطق . كنت تقسمين أنك لن تحبي سواي ، وكنت أصدق هذا . كنا غريرين ، ولكنا برغم هذا كنا سعيدين . . تصوري ، كنت أتوقع منك انتظاري سبع سنوات ، سبع سنوات كاملة ، أخرج بعدها « حطام » فنان . . حطام إنسان . . حطام رجل ! تصوري : كنت أتوقع أن أجدك بانتظاري ! ولكن ، وبعد تسعة أشهر ، تسعة

أشهر فقط . كنت فى أحضان رجل آخر ! . . إن ما حدث ليس شيئاً غريباً ، وليس ظرفاً قاهراً ، فحكايتنا قد تتكرر كل يوم : رجل يسجن ويترك وراءه امرأة بانتظاره . وقد تنتظره هى ، وقد لا تنتظر ، ولكنها فى الغالب لا تنتظر . وهذا ما حدث : رجل سجن ، وامرأة لم تنتظر . وما من غرابة فى ذلك ، كان شيئاً عاديا . ولكنى كنت أعتبر قصتنا فوق المستوى العادى ، وكنت أعتبرك إنسانة غير عادية ، وأعتبر نفسى إنساناً خارقا فعلا . . اعذرينى ، فقد صدقتك ! »

وصمت فترة ، كان لا يزال مشيحاً بوجهه عنها . ربما كان فى وجهه عذاب كاسح ، ربما كان فى عينيه ألم ممض ، ربما كانت فى حلقه غصة ملتهبة . كانت هى تتوقع هذا وتتكهن به ! . . وهمست : « عبد الرحمن . . ليتك تعرف » . ! . . فهز رأسه ببطء وتمتم : « لقد عرفت . . عرفت . . وهذا مازاد فى ألمى وتساؤلى ودهشتى ، كنت تعيشين أوهام قصتنا ، تمضغينها ، تجترينها ، تحتسينها قطرة قطرة . شىء غريب ، فماذا كنت تنتظرين ! وبماذا كنت تحلمين ؟ هى أن الظروف لم تجمعنى بأختك . هى أن المعرض لم يقم فى هذه المكتبة ، هى أنى نسيتك ! » . . فهتفت باندفاع : « ولكنك لم تنسنى ! » فالتفت إليها وقال بمرارة : « بلى ، لقد نسيتك . . صدقينى . . فالأيام كفيلة بأن تنسينا أى شىء ، أى شىء ، حتى آلامنا ، حتى أمانينا ، حتى عواطفنا ، كل شىء قابل للنسيان ، فالعالم يدور ، وأيامنا تدور ، وعواطفنا تدور معه . هذه حقيقة جافة وجلفة ، وبعيدة كل البعد عن الرقة والرومانتيكية . . فنحن نحلم بالحب الأبدى والحزن الأبدى والنجاح الأبدى ، ولو كان باستطاعتنا لحلمنا بالإنسان الأبدى . ولكن كيف والموت يذكرنا بضآلتنا وقصورنا ! والموت موجود حتى فى الحياة : نسميه النسيان ، لكنه فى الحقيقة ليس سوى الموت مستتراً فى ثياب النسيان ! وقد نسيتك . كنت قد مت بالنسبة لى ! »

فأخذت دموعها تسيل ، والذل يملأ قلبها ، فواصل : « وأنت أيضاً نسيتنى » . . فصاحت بهلع : « أبداً ، أبداً ، لم أنسك مذ عرفتك . . لقد عشت معى حتى فى غربتى . أى شيء ما كان لينسيني عبد الرحمن ، لا الموت ، ولا النسيان ، ولا أى شيء ! » . . فهز رأسه بتفهم وقال بأسى : « لم أكن بالنسبة لك حبًّا ، كنت « عقدة » ! » . . فنشجت باكية : « بل كنت حبًّا ، كنت حبى الأول والأخير ، كنت أسطورتى الأبدية » . . فهز رأسه ثانية ، وقال : « أترين ؟ ألم أقل لك إن الإنسان مازال يبحث عن الأبدية ؟ يحلم بالحب الأبدى ، بالحزن الأبدى ، بالنجاح الأبدى ، ولو كان باستطاعته لحلم بالإنسان الأبدى ، ألم أقل لك ؟ » . . فنشجت بصوت أعلى ، واستطردت : « لكنى لم أنسك ، لم أنسك ، ألا تصدق ؟ »

ــ بلى أصدق ، وما أصدقه هو أنك عشت عقدة وليس حباً . لقد كنت شوكة فى ضميرك ، وقد حاولت التكفير فكان أن أصبحت شوكة فى قلبك ، وهذا ليس حباً !

فصاحت بعنف : « بل كان حبًّا ، لا تقل هذا ، لا تعذبنى أكثر ! » ، وأخذت تهتز بصمت ، فقال وابتسامة مريرة على شفتيه : « وأنا نسيتك ، هذا طبيعى ومؤكد ، ولكنك عدت واستيقظت من جديد . لقد بعثت ثانية . ربما لو حاولت الاعتذار ، ولو حاولت اجتذابى ، ولو افتعلت مواقف درامية أو أقاصيص ملفقة لأغلقت الباب فى وجهك ولردعتك . ولكن طريقتك تلك ، مراقبتك المستترة ، تهربك من مجالستى . انعزالك وانطوائيتك وكبرياءك وتجاهلك لى . . كل ذلك أثار دهشتى ، والدهشة انقلبت تساؤلا ، والتساؤل بات إلحاحاً ، فملاحقة ، فإيجاد ثغرة فى الجدار الذى أقامه الزمن بينى وبينك ، والذي حاولت تحصينه أنا بلامبالاتى ، وادعائى عدم الاهتمام ! » .

* * *

وكانت تستمع بلهفة ، فقد عاد حنينه ، عاد كما كان ، وهى لن يهمها ما يسميه عبد الرحمن بالموت الحى ، وما يسميه بالنسيان ، ما يهمها هو أنه حاليًا فى حالة « حب » ، وهاهوذا يعترف . . وكانت يده مرتمية على ساقه بإعياء ، وكان يبدو متعباً ، حزيناً . . فقالت بخوف : « دعنى ألمس يدك . . » ، فالتفت إليها يخدجها بشىء من السخرية والعتاب ، فقالت مدافعة : « أرجوك! . . حتى لو فكرت أن تخرج الآن ولا تعود ثانية أبداً . حتى لو عزمت على ألا تدعنى أرى وجهك مرة أخرى ، فلا تفعل ذلك قبل أن تدعنى ألمس يدك ! » . . ابتسم بمرارة ، فقالت بصوت عميق حزين : «فى تلك الليلة ، ساعة قلت لى إن الدمع لا يمحو الخطأ . . » لكنه قاطعها : « نعم ، أعرف . . أعرف أنك قاسيت ، وأنا كذلك قاسيت. تصورى ، كنت أعتقد بأن ما كنت أفعله هو الشىء الذى أريده وأقصده . ولكنى فى الصباح ، وعندما لم تحضرى للمكتبة ، بدأت عملية الانتظار ، وبعد الظهر لم تحضرى ، وانتظرت أكثر ، وكانت الساعات طويلة ، والدقائق جرارة ، ولم أهدأ إلا بعد أن صارحت نفسى بأنى مازلت أهتم بك ، وأنى أتشوق لرؤيتك ، وأنى أرتاح للمجالس التى تحتويك ، بل إنى ما عدت أعبأ بجلسة تخلو منك ! »

وأحس بيدها تمسك بيده ترفعها . وقالت وهى تتحسسها بخدها : « ساعة قلت لى إن الدمع لا يمحو الخطأ ، كنت أتخيل يدك هذه على فمى ، وأنى أقبلها ، وأنى أعتذر لها وأطلب منها الصفح ، وأدللها ، وأعانقها ! » . . وكانت كلماتها دافئة ، رقيقة ، صادقة ، فيها حنان عميق ، فيها ثقة بما تعنيه . وكان هو يستوعب كل ذلك ، يرتشف تلك الكلمات حرفاً ، حرفاً ، يشرب معانيها ، يحتسى نكهتها ! . . وواصلت : « كنت أحلم بأن أقول لك — وأنا ألقى برأسى على ركبتك — إنى خنت نفسى أكثر مما خنتك . وإنى منذ بعدت عنك بعدت عن ذاتى ، فكل الأشياء باتت تافهة . الألوان كالحة ، الطبيعة ما عادت

جميلة ، وأنا كذلك ما عدت جميلة . كنت أحلم بأن أقول لك هذا يوماً ، وأن أقنعك بصدقي ، وأن تصدقني أنت ، فهل تصدقني ؟ » .
قال بشرود : « لا أدري ، فأنت غريبة الأطوار ! عندما أحببتك كنت أظن أني أعرف جزئياتك ، تفاصيلك ، حذافيرك. أما الآن فأنا لا أعرف عنك سوى أنك الإنسانة التي أحببتها منذ عشر سنوات ثم نسيتها . الإنسانة التي وثقت بها فخانتني ، والتي كانت لي فامتلكها رجل آخر! أما ما هي الظروف التي دفعت بك للزواج ، وما نوع ذاك الزواج ، ومن هو ذاك الرجل الذي قضيت معه كل تلك المدة ، والذي أنساك عهدك ووعودك . . ثم تلك السنوات العشر من الغربة والضياع . . فإن ذلك كله قد بات يقف حائلا بيني وبينك، جعل منك امرأة غريبة عني ! اعذريني ، أنا لا أقصد الإساءة إليك ، لا أقصد الانتقام، ولكني بالفعل أتساءل عمن أحب ! أهو طيف الفتاة التي عرفتها في الماضي ، أم هيكل المرأة التي أراها في حاضري ؟ . . وهناك فرق بين الواقعين ، فاعذريني ، لقد بت غريبة . وهناك ألوف الجزئيات التي تفصلك عني ، وأخاف أن أعدك بكلمات قد أندم عليها في الصباح . أخاف أن أطمئنك الآن ، وأعود فأكتشف عنك أشياء تفاجئني ، فأتراجع . . قد أضطر للتراجع ، ولا أريد أن أنكأ جراحك أو أن أجرح كرامتك ، فأنت امرأة رقيقة . . وهجراني قد يذبحك ، كما ذبحني هجرانك يوماً ! ولكني كرجل استطعت الصمود. أترين ؟ لا أريد أن أجعل منك مختبراً لعواطفي ، لا أريد أن أعدك بشيء ، دعي كل شيء للأيام ، قد نلتقي ثانية ، وقد نفترق ، وقد نضيق نحن بذكرياتنا وقصتنا فنمزقها برضانا ورغبتنا . دعينا نكتشف ذلك ، لقد أصبحنا كباراً . وما من داع لأن ننكأ الجراح ونلعب بالعواطف والخيال ، فقد يصدمنا الواقع! » . ثم قال وهو يلملم شتات نفسه : « والآن ، دعينا نذهب ، فالساعة الآن تقارب الثانية

والنصف بعد منتصف الليل ، وأختك لم تحضر بعد ! » . .
فقالت بشرود : « ربما عادت للبيت مباشرة ، أظنها فعلت ذلك » . .
فتساءل وهو ينهض : « هل أوصلك ؟ مشياً على الأقدام بالطبع ،
فما من سيارة لدى . » ، فتساءلت بقلق : « وتعود مشياً ؟ المسافة بعيدة ! »
ابتسم وهز رأسه : « لا بأس ، فأنا أحب المشى ، ترى هل كنت
أحب ذلك حينما كنا معاً ؟ » . . وأخذت تتذكر ، فعاد يبتسم :
«أترين ؟ لقد نسينا أشياء كثيرة عن أحدنا الآخر ، ويلزمنا بعض الوقت
لإعادة الاكتشاف ، ولاستعادة الأنفاس ! »

* * *

كان الليل شديد البرودة ، والضباب يغطى الطرق والمنحنيات ، وسارا معاً تحت أشجار الصنوبر اتقاء لرذاذ المطر . سارا صامتين وكل منهما يجتر ما حدث ، ويتكهن بما ستأتى به الأيام : فهى مازالت غريبة عنه ، وهو مازال حلمها المعبود الذى لن تدعه يفلت ، ولو أفلتت منها الأنفاس ! وقال عبد الرحمن باتزان : « سامية ، نحن ما عدنا صغاراً ، بضع سنوات وأصبح فى الخمسين ، أتعرفين هذا ؟ » . قالت بصوت خافت : « أعرف » . قال وهو يلتفت إليها ويتأملها من خلال الظلمة : « وأنت شارفت الأربعين ! » . . « نعم . . » . . « أعنى أننا لم نعد صغاراً لنستسلم للعواطف ! »

فانبرت مدافعة : « العواطف هى أقدس ما يملكه الإنسان ، فإذا فقدها فقد إنسانيته ، وهى ليست مقصورة على الصغار فقط . هذا كلام غير منطقى وغير مثالى ، وأنت آخر من يتلفظ بكلام كهذا! فما الذى يميز إنساناً عن آخر سوى عواطفه ؟ . . وأنت ما الذى سما بك ورفعك ! أليست عواطفك ؟ ألم تمارس فن الرسم لتحيى مشاعر الناس ؟ ألم تكتب لتوقظ حساسيتهم وأدمغتهم رحمة بهم ؟ ألم تسجن من أجلهم ؟ ألم تتعذب من أجلهم ؟ » .

فقاطعها عبد الرحمن : « أنا لا أقصد العواطف الراسخة . أنا عندما قلت إننا يجب ألا نستسلم للعواطف إنما قصدت ألا ندع الانفعالات العابرة تعبث بنا ! » . . وكانت تفكر بألم . . « يريد أن يقنعنى ويقنع نفسه بأن عواطفنا لم تكن سوى انفعالات عابرة ، ولكنى لن أقتنع ولو استعار منطق أرسطو نفسه ! » . . ثم قالت بثقة : « لا تحاول إقناعى بأن الانفعالات العابرة لا تؤثر فى حياة الفرد ، فمشاعرنا كلها عبارة عن انفعالات عابرة أحسسنا بها فى مواقف معينة ، وهذه الانفعالات تتجدد بتجدد المواقف ، ولن تستطيع بصورة من الصور أن تفصل بين الانفعالات العابرة والانفعالات الراسخة . لأن الانفعال العابر هو جزء من كل ، خلية فى جسم ، ذرة من كيان . وإذا حاولت الفصل فقد تضطر لاستخدام التفتيت والتكسير والتشويه » .

وكان يرمقها من خلال الظلمة باهتمام ، وقال باسماً : « أما زلت تطالعين كعادتك ! » فتوقفت هى ، وأخذت ترمقه بعجب . . فقال كمن يخاطب نفسه : « السنوات العشر الماضية لم تزدك إلا جاذبية ، وحساسية ، وصبراً ! » . . فقالت بخجل : « كنت أحس بأنى قد بدأت أشيخ ! » . . فقهقه بلطف وتساءل : « حقا ؟ لم ألاحظ هذا ! » . قالت بتحد : « ليس الذنب ذنبى إن كنت قليل الملاحظة ! » . قال باسما : « وما زلت تحتفظين بروح النكتة ! » . قالت وهى تستدير إليه وتمسك بساعده تشده : « صدقنى بأنى دفنت هذه الروح حين افتقدتك » . وكانت فى لهجتها حرارة وصدق وخشوع . وكانت تبدو فاتنة ، حارة ، لينة . وفى ليال باردة كهذه ، وفى عمر موحش كهذا ، يحلو للرجل أن يحتضن امرأة دافئة كهذه ! وابتسم خلسة وواصل السير . . فقالت بشرود : « هذا الدرب ، بأشجاره ، وحفر الأسفلت فيه ، وتلك الزيتونة الضخمة الغارقة فى الظلمة ، وذلك البيت الصغير المضاء، بقرميده الأحمر ، هذا

الدرب مشيته ألوف المرات بدونك ، وكنت أراه موحشاً ، كئيباً مظلماً حتى فى عز الظهيرة . أما الآن ، فهو شيء آخر ! »

وكانت الأشجار المتلاصقة على جانبى الطريق ترسم ظلالا داكنة على الأرض ، وقد انبثقت من بين فروعها أنوار كهربائية خافتة الإضاءة ، بينما ارتفع القمر الشاحب فى سماء كُحْلية الزرقة ، وهو يطل من خلف الغيوم ببخل وتوجس . وقالت : « ألم تشتق لهذه البلاد ؟ » . قال ساخراً : « كنت سأسألك نفس السؤال ! » . وتفادت هى سخريته ، وقالت بإيمان : « هذا مكانى » . فقال مؤكدا : « ومكانى أنا أيضاً ، فما من شيء فى الوجود يهمنى قدر ما أهتم بهذه الأرض وبمن عليها . وقد أسجن قريباً بتهمة هذا الاهتمام ! أترين ؟ أصبح الحب تهمة ، والرحمة جريمة ! أصبح الشرف خسة ، والبذل نذالة ! وقد أسجن قريباً ، إن لم يكن هذا الشهر ، فنى الشهر القادم ! » ، ونظر إليها باسماً : « لا تأملى كثيراً ، أتسمعين ؟ قد أسجن ! » . . وأحست بوخزة فى قلبها ، فهاهوذا يعيرها . وحدثت نفسها : « قل ما يحلو لك ، فأنا صامدة ، صامدة حتى ولو ذهبت بى إلى الجحيم ! » . ثم قالت بخبث : « ليتك تسجن ، لأنتظرك ! » . فقهقه بمرح ، فى حين ابتسمت هى وأمسكت بيده تشد كفه ! واستدار ينظر فى وجهها بألفة : « إذن هكذا ، تتمنين لى السجن ؟ ! » . . « لأثبت لك انى سأنتظرك ! » . . « ولو حكم على بالسجن المؤبد ؟ » . . « ولو مت ! » . . « وقد تتمنين موتى لتثبتى أنك ستنتظرين بعثى ! » . . « جرب ، وسترى . ! »

وأخذا يضحكان . . وعندما وصلت منزلها ، كانت الفيلا الصغيرة مضاءة ، فقد كانت الشابتان فى الانتظار . وقال وهو يمسك بيدها : « أما زالت إصبعك تؤلمك ؟ » . قالت متظاهرة بالألم : « جداً » . ابتسم وقال : « أظنك ستقترحين على معالجتها بطريقتى الخاصة ! » . . ولم تجب ، بل أخذت تنظر إليه باسمة . . فهز رأسه بعجب :

« غريب ! لم تتغيرى كثيراً ، مازلت مغرمة باللف والدوران ! »
ــ لأمنحك فرصة الظهور بمظهر شرلوك هولمز العظيم !
وضحك ، وأمسك بأصبعها يلثمها .

## ١١

صاح شكرى : « إيفيت ، لا تصرخى هكذا ، ماذا حدث لك ؟ هل جننت ؟ قلت لك ألف مرة لا ترفعى صوتك بهذا الشكل ، أنا لا أطيق هذا ! » . . فصاحت : «ومن قال لك إنى أطيق الحياة كلها ؟ » ، وأخذت تصرخ باكية : « لم لا تأخذنى يارب؟ لم لاتأخذنى؟» . فجلس بجانبها على حافة السرير ، وأمسك كتفها بلطف ، محاولا فهم ما يدور فى نفسها : « أفهمينى ماذا حدث لك ، منذ أكثر من أسبوعين وأنت فى حال لا يصبر عليها إلا الملائكة ، هل أستطيع معرفة السبب ؟ » . صاحت وهى تغطى وجهها : « أنا تعبة . . تعبة . . أريد أن أموت ! » ، فصاح يائساً : « ولكن لماذا ؟ ماذا تريدين ؟ أفهمينى ما الذى يتعبك ؟ الخادمة واستبدلنا بها أخرى كبيرة . والقمصان بتنا نبعث بها للكواء ، والفستان الذى تطلبينه اليوم تنالينه غداً ، فماذا تريدين ؟ هل قصرت معك فى شئ ؟ قولى : هل قصرت فى واجباتى ؟ » فصاحت بهياج : « أنت لا تحبنى ! » .

فغر فاه وأخذ ينظر إليها بعجب وقال : « لاأحبك ؟ وما الذى نقوم به كل ليلة ! ؟ » . ارتمت على الأريكة ، خبأت رأسها فى ساعديها وأخذت تنشج ، فقام عن حافة السرير وجلس على حافة أريكتها وقال : « إيفيت ، كفى عن « الدلع » قليلا ، أرجوك . منذ أسبوعين لم تطبخى لنا أكلة تستحق المضغ ! » ؛ فاستدارت بجسمها عنه بعنف ، وأخذت تشهق وتشهق ، محدثة نفسها : « فاروق . . فاروق . . ذاك النصاب القذر ، كان يعرف كيف يجعل قلبى يرفرف كما لو كانت له أجنحة الحمام ! كان يقول كلاماً يذيب

المفاصل ، أما هذا الرجل فهو لا يقدم لى إلا العلف ، يعلفنى كما لو كنت دابة ! . . ويعلف نفسه كخنزير شره ، ويحب ببطنه أكثر مما يحب بقلبه ، ولحبه رائحة الطبيخ ! . . وعندما ينام معى إخاله يأكل من طبق طعام « بايت » ، وأنا ذاك الطعام ! » . . وصاحت ثانية : « لم لا تحبنى ؟ » . هتف وهو يبسط يديه بيأس ، والانقباض والملل يجترانه : « ولكنى أحبك ! »

— لا . . أنت لا تحبنى !

قام واقفاً وقال وهو يذرع الغرفة : « بلى أحبك » . . . قالت وهى تتمخط بعنف ، وتمسح دموعها المنهمرة : « أنت لا تعرف معنى الحب ، أنت لا تعرف كيف تحب ، أنت لا تحبنى ! » .

أخذ يتأملها بدهشة وصاح فجأة : « قلت لك أحبك ، أحبك . . هل أفتح النوافذ والأبواب وأسمع الناس صوتى لتصدقى ؟ هل أشق قميصى القذر هذا — وهو على فكرة قذر ، قميص قذر ، أتسمعين ؟ — قلت هل أشق قميصى القذر وأنا أقول لك « أحبك » حتى يلين قلبك وتصدقينى ؟ » وأخذ يذرع الغرفة بغضب ونفاد صبر ، وعاد يقول : « قميصى هذا قذر ، ومع هذا فأنا أحبك ، والأولاد هزلت أجسامهم من أكل المطاعم ، وبرغم هذا فأنا أحبك . هل صدقت الآن ؟ ولولا حبى لما صبرت على أعمالك وتصرفاتك ، لولا ذلك لما احتملت سخفك وسطحيتك وغباءك . ولو كان أى رجل آخر فى مكانى لشنقك ، لاغتالك ، أما أنا فلا أفعل شيئاً من هذا ، بل أقف هكذا مكتوف اليدين أمام سيدتى وأصيح من أعماق معدتى الفارغة ، وقميصى يقطر حباً وقذارة وأصيح : أحبك ، أحبك . . فهل صدقت ؟ » . . صاحت بألم : « اسكت ! اسكت ! لا أريد حبك . . اذهب إلى الجحيم أنت وحبك وقميصك ومعدتك ! »

مشى فى اتجاه الغرفة ينوى الخروج ، لكنه عاد ووقف قبالتها وهو يضم

كفيه أمامها بابتهال : « حاضر ، حاضر ، سأذهب إلى الجحيم ، ولكن عجبا ، كيف سموا الجحيم جحيماً وإيفيت ما زالت على وجه الأرض ! ! » . هتفت بقلب متوجع : « خذنى يارب ، خذنى ! » ، .. فى حين وقف هو يتأملها بغيظ ، قال : «شدماحيرتنى ! ماذا تريدين منى ؟ أن أحبك أم لا ؟ إن قلت لك إنى لا أحبك لاأرضيك . وإن قلت لك إنى أحبك . لاأرضيك . وإن نمت معك لاأرضيك ، وإن أهملتك ، لا أرضيك . إن اشتريت لك فستانا ، نظرت إليه بقرف وقلت : « لوكان لونه أحمر لكان أجمل » . وأقول لك : « لكنه أحمر » فتقولين : « هذا برتقالى يامصاب بعمى الألوان ، ألاترى ؟! » وأقول : « لونه أحمر كالدم ، وليس كالبرتقال » . فتقولين : « بل برتقالى مودرن . وأنت المخطئ ولست أنا» ، وأسألك حسماً للشر: «فهل أردالفستان؟» فتقولين : « لماذا ؟ أكثير علىّ أن ألبس فستاناً بعشرين ديناراً ؟» .. وهبط على الأريكة المقابلة وزفر : « لا حول ولا قوة إلا بالله ! أشتهى مرة أن أسمع منك كلمة حلوة ، كلمة لطيفة ، كأن تقولى لى : « سلمت يدك » أو : « شكرًا» ، أو حتى : « فعلا هذا فستان أحمر ! » .. فأبعدت إيفيت يديها عن وجهها وصاحت : « وحتى الآن مازلت تدعى بأن لون الفستان كان أحمر ؟ أنا أعرف ماذا تقصد من وراء هذا كله ، تقصد أن تظهرنى بمظهر الغبية ، تريد أن تملأنى بعقد النقص ، تريد أن تحط من قيمة ذوقى ومن إرهاف حسى . لكنى لن أعبأ بك ولا بأحكامك ، ثم إننى منذ الآن فصاعداً لا أريد منك أى شىء ، لا تحضر لى أى شىء بيدك ، فأنا سأتولى عملية الشراء بنفسى ! » . قال هادرا : « لكنك تنتقين كل ما تريدين ، وأنا الذى يدفع ! »» ، صاحت بغضب شديد : « وستدفع إلى ما لا نهاية ، ولكن لى أنا ، ستعطينى النقود قبل خروجك من المنزل . أم تريد فرض سلطتك علىّ أكثر مما تفعل ؟ . أنا أعرف ماذا تقصد ، تقصد أن تبقينى عالة عليك ، وأن تشعرنى بأنى أتكل

عليك فى كل صغيرة وكبيرة . لا يا سيدى ، فأنا لست بلهاء ، تريدنى أن أبدو ضعيفة الشخصية ، ومعقدة ، وغير مسئولة . . لكنى منذ الآن سأبدأ بنهج جديد . سأنمى شخصيتى بحيث أستطيع الدفاع عن نفسى أمام اضطهادك . وسأقرأ كتباً عظيمة ، وسأدرس الفرنسية ، وسأتعلم البيانو لأنافسك ، وسنرى من فينا الذى يعرف إذا كان لون الفستان أحمر أم برتقالياً؟ ومن الآن فصاعداً ، لا تشتر لى أية مجلة . سأحضر كتباً ضخمة . . ضخمة ! والآن اغرب عن وجهى ، فأنا لا أطيقك ! اغرب قبل أن أقيم القيامة ! » . . فوقف ورفع يديه وقال مبتهلا : « اللهم اشهد بأن هذه المرأة ستكون سبباً فى إصابتى بـ « الجلطة » . ماهذا ؟ ! ماذا فعلت كى تحل بى هذه المصيبة ؟ أهذا هو الزواج ؟ لعن الله أبا كل من تزوج ، ولعن الله أبى قبل الجميع ! » . . فأخذت تنشج بحرقة : « يارب ، أريد أن أموت ! » .

ودخلت الخادمة الجديدة بعد أن نقرت الباب . وكان الجو كئيباً ، فقالت برهبة : « سيدتى ، هناك رجل يريدك ، يقول إن اسمه فاروق » . صاحت إيڤيت : « اطرديه ، اطرديه ! » . .فوقفت الخادمة مشدوهة ، بينما قال لها شكرى : « انتظرى ، لا تذهبى ! » ، وصاحت إيڤيت : «أنا لا أطيقه . لا أريد رؤيته ! » . فقال بجفاف : « إن كنت لا تريدين رؤيته فأنت حرة . أما أنا فأريد رؤيته ، وهل ستمنعينى من رؤية أصدقائى أيضاً ؟ الفستان الأحمر وقلنا عنه برتقاليا ، أما أصدقائى فلونهم أزرق كالعفاريت ، أتعرفين العفاريت الزرق ؟ هاهاها . . فما رأيك ؟ لم يبق إلا أن تمنعينى من رؤية أصدقائى ، لا ياسيدتى ، سأرى « فاروق » و« بشار » وسأرى أى رجل يعجبنى ، هل منعتك من رؤية أحد ؟ » . صاحت : « لكنه نذل ! » .

— نذل ؟ لماذا ؟ ألأنه شريف ؟ ألأنه يغار على المبادئ والشرف؟ ألأنه شرقى يفخر بشرقيته ؟

– بل هو كذاب . . كذاب !

– وكيف عرفت أنه كاذب ؟

ولم تجب بل أخذت تنشج . فقال وهو يقترب منها ويطأطئ على رأسها مقبلا شعرها : « وهاك قبلة ، ها ، وماذا تريدين أكثر ؟ هل أقبل يدك ؟ مستعد . أقبل ركبتك ؟ مستعد » . ، وهمس فى أذنها : « وأقبل نهديك أيضاً . . فقط ارحمى أعصابى يابنت الناس » . . فحملقت فى وجهه مشدوهة وقد هزتها الصدمة ، وعادت تنشج : « ياقليل الذوق ، ياعديم الرومانتيكية » . . . وأخذ يضحك وهو يغادر الغرفة ، بينما سبقته الخادمة وهى تخفى ابتسامة خبيثة .

* * *

كان فاروق فى حال لا يحسد عليها ، فقد كان السبب فى إثارة أجواء مشحونة بالتوتر والخلاف : أغضب سهى ، وجسم المشكلات بين العاشقين . أساء للعنصر النسائى بمجموعه ، فأصبحن يلاقينه بالتجهم والامتعاض . ثم هناك إيفيت ، فهو لم يفطن لرد الفعل الذى أحدثه كلامه لديها إلا بعد أن انتهى من الكلام . . وأخذ شكرى يهدئه ويطيب خاطره ، فقد كان موقف فاروق فى نظره رائعاً . . « حمداً لله ، فشكرى مازال يجهل ، وإيفيت ما زالت تملك بقية من عقل ! » . . وتساءل فاروق عما يجب عليهما القيام به لمسح ما خلفاه من انطباعات سيئة فى نفوس الجميع ؟ يدعون الجميع لعشاء راقص ؟ لا ، فسميرة ترفض السهر فى مكان غير المكتبة . أيبعث فاروق برسالة اعتذار لكل واحدة ؟ لا ، فذاك مدعاة للسخرية . أم يبعث بباقة ورد لكل واحدة ؟ لا ، فذاك سيؤكد وجهة نظرهن فيه كمنافق ! وأخيراً تم الاتفاق على دعوة المجموعة إلى نزهة فى الخارج ، يشوون فيها اللحم ويحتسون البيرة ، فأجواء الطعام الجيد تساعد الإنسان على نسيان المتاعب . وسيأخذ فاروق معه كرة ، وسينفخ شكرى بالهارمونيكا أنغاماً مرحة ، وسيكثران

من امتداح سهى ، وسيتركان لها مجالا واسعاً لاستعراض غرورها وتفوقها . . ولكن هل ستنسى الفتيات الإساءة ؟ هذا أكيد ، فالعنصر النسائى ميال لنسيان المشاكل ، وإلا لعم الطلاق كل بيت وكل عائلة !

عندما دخلت إيفيت بجبينها المعقود ، كاد فاروق يركع عند قدميها طالباً الصفح والمغفرة ، فهو ما كان يقصد أن يهين المرأة أبداً ، وهو بالذات من أشد أنصار المرأة حماسة ، وقد كون فى يوم ما جمعية تسمى ( جمعية الرفق بالمرأة ) . أما لماذا اندثرت هذه الجمعية ، فلأن الناس ما عادوا طيبين ، وما عادوا يرأفون بحال المرأة ، ولا الحيوان ، ولا أية فصيلة أخرى ! وهو لم يكن المسئول عما حدث ، فالويسكى كان قد فعل فعلته الإجرامية ، وسهى المغرورة استفزته بشكل لا يتصوره عقل ! . . « تصورى يا إيفيت ، تلك المتفذلكة تظن أنها أرقى من الناس العاديين ، وحتى من هم فوق العاديين أمثالك ، تصورى ! فى نظرى أنت تساوين عشراً من مثيلاتها ، فهى مغرورة ، ومتكبرة ، ولديها نوع من الخشونة التى يجب ألا تكون إلا لرجل ذى شارب يقف عليه صقران ! كل ذلك لأنها رسمت بضع لوحات تكاد تشبه خربشة الدجاج . وضعت ألواناً على فرشاتها ، وأخذت تكنس بها اللوحة ، وادعت بأن ذلك شىء خارق ، وأنها تكاد تصل إلى مرتبة « سالفادور دالى » ! . . أتعرفين من هى سهى هذه ؟ تصورى كل ذاك الغرور يكمن فى ابنة سكير يدمن الخمر ويدمن ضرب زوجته . بيت والدها خان قذر ، وأمها تشبه النساء اللواتى يغسلن فى مثل بيت والدك العامر . لقد أفهمتك يا إيفيت مرة بأن أبناء الفقر يحقدون على أمثالنا ، تستطيعين تسميتهم « بالمعقدين » ، إنه نوع من المرض ، مرض نفسى ، وأنا فى العادة أعرف كل شىء عن مثل هذه الأمراض ، فقد درست أشياء كثيرة ، وقد درست علم النفس حتى بت لا أعرف نفسى . . أتذكرين أنى قلت لك شيئاً عن موضوع كهذا ؟ . . يقولون إنها جميلة ؟ من قال

هذا ؟ أتجدها جميلة يا شكرى ؟ صديقتى إيڤيت . جمال المرأة فى أنوثتها ، فى ليونتها ، فى أصلها وفصلها ، جمال المرأة فى ذكائها ولباقتها ، وهذه أشياء تتمتع بها عزيزتنا إيفيت . وهى أبعد الأشياء عن سهى ، أليس كذلك يا شكرى ؟ »

وطبعًا ، شكرى بانتظار مناسبة كهذه ليريح زوجته من تعبها ، وليريح الله من الاستماع لمطالبة إيڤيت المتكررة بأن يأخذها ، ولكى لا تنعته ثانية « بقليل الذوق ، عديم الرومانتيكية ! » . . وقال فاروق : « أتظنين أن مثقفًا مثلى يعتنق أفكاراً كتلك التى ادعيتها البارحة ؟ لقد كنت مغيظًا ، كنت أريد الانتقام لصديقى فإنها قد جعلت منه طرطوراً ، جعلت منه مسخرة ، لم ترحم حبه ، لم ترحم عواطفه ، وأنا إنسان عاطفى وحساس ، وتؤلمنى آلام العشاق المتيمين ! » . . ثم تساءل بلهجة ذائبة : « وأنت يا إيڤيت ، ألا تشفقين على العشاق ؟ شكرى ، دعنى أهنئك ، لك زوجة رائعة ، رائعة ، وإذا كانت سهى صادقة فى أن هناك إنسانًا متفوقا فعلا ، فهو هنا . . يدعى إيڤيت ! » . . فهتف شكرى مؤيدا : « أبدعت يا فاروق ، أطربتنى ! « وصلة » أخرى بحق السماء ، الآن عرفت ما الذى تريده إيڤيت . . تريد مثل هذا ، ولكن من أين لى بمثل هذا ؟ ! » . . فقال فاروق ، منتفخا : « هذه مواهب يا أستاذ . . مواهب ! » . . وأخذت إيڤيت تقهقه بانشراح .

## ١٢

عندما قبلت الفتيات الدعوة ، قبلنها بروح مليئة بالتحدى . فهن سوف يثبتن للرجل المثقف أنهن ثوريات لا نظريًا فقط ، بل وعمليًا ! . . بقيت مشكلة الجو ، وهذه المشكلة بالإمكان التخلص منها إذا كانت النزهة ستوجه إلى أريحا . أريحا مدينة الموز والبرتقال والأشجار الجحيمية الحمرة . وعناقيد زهر « المجنونة » تتدلى فوق كل سور ، وبجانب كل منزل ، و « ليلك » و « أكاسيا » و « زنزلخت » . . ألوان تغرق الإنسان

فى بحر من الحرارة والهوس !

أريحا . . أخفض مدينة فى العالم ، أقرب مكان من نواة الكرة الأرضية . والأرض خصبة هناك ، والطبيعة متنوعة ، بحر كثيف الأملاح لايزخر بالحياة إلا حين تنعكس عليه أشعة الشمس وأنوار الزوارق ليلا . على الشاطئ تقام المقاهى والفنادق ، حيث يسبح الناس نهاراً ويرقصون ليلا ، وفى أعلى جبل قرنطل ، حيث صام المسيح واعتكف أربعين يوماً ، تستقبل الأديرة المصلين نهاراً ، ويصلى الرهبان ليلا . . . وكانت لفاروق مزرعة فى أريحا ، قطعة أرض كبيرة غرست بأشجار البرتقال ، وفى المنطقة الجنوبية تقع غابة صغيرة من أشجار الجوافة ، وأمام الكوخ الصغير أقيمت مزرعة للورد ، ومستنبت للأزهار النادرة . الكوخ مكون من غرفة كبيرة وملحقاتها ، وقد فرش الكوخ بفرش أنيق يناسب الأجواء المنطلقة . وربما كان فاروق يستغل كوخه ذاك لشئون غير الزراعة والرحلات وقضاء أيام العطلات . هذا شىء لا نجزم به وإنما نتكهنه ، فقد كان فى الغرفة ما يوحى بجو فيه شىء من السرية . . ستائر كثيفة ، أريكة عريضة ، بار صغير ، وحمام فيه « برنس » نسائى !

كانت المجموعة تجلس أمام الكوخ مباشرة ، فى ساحة أسمنتية أحاطت بها أشجار الورد من كل جانب ، وكان فاروق يردد بمرح : « أى أيد ناعمة ستسقينا القهوة ؟ » ، فأبعد شكرى الهارمونيكا عن فمه وصاح : « أتبرع بيدى زوجتى ! » . وقالت سميرة : « على الإنسان ألا يتبرع إلا بما يملكه ! » ، فصاح شكرى : « جزاك الله خيراً ، وهل فى امتلاكى لزوجتى أدنى شك ؟ » . قالت سميرة : « الزواج ليس ملكية ! » . . « وماذا إذن ؟ إن كان لا يعجبك ، فهو أكثر من ملكية ! » . . « تقصد عبودية ؟ » . . « سميه ما شئت ، أما أنا فأسميه ملكية ! »

وقالت نسرين : « الزواج شركة . . » ، فقالت سميرة : « أنا أعترض

يا سيد شكرى ، الزواج أخذ وعطاء ، والعبودية لا تأخذ أبداً ، كما أنها لا تعطى ، لأن الأخذ والعطاء مفروضان عليها ، وكل ما هو مفروض مرفوض ! » . فابتسم عبدالرحمن وهمس فى أذن سامية ، وكانت تجلس بجواره على مقعد استراحة طويل : « دخلنا فى الفلسفة ! » . . فنظرت فى وجهه باسمة ولم تعلق . فقال شكرى متأففا : « ألا يحق للإنسان أن يستمتع بفنجان قهوة دون الدخول فى متاهات فلسفية تفرضها عليه ظروف قهرية ؟ » . وعلق عبدالرحمن ضاحكاً : « وكل ما هو مفروض مرفوض ! » . . وقهقه الجميع . . فى حين قال شكرى : « لنر ما ستفعلين بابن عمك بعد الزواج ! » ، فعلق فاروق : « الزواج من الأقارب غالباً ما يكون فاشلا ، ومن الناحية الصحية فهو غير سليم ، وقد تنجبين أطفالا مشوهين ! ». فتساءلت سميرة بخبث: « أتقصد أن تقول إن أمك كانت قريبة والدك ؟ » . . وقهقهوا بضجيج . . ثم تساءل بشار بعد فترة : « وماذا بشأن القهوة ؟ ! رجاء ألا تدخلوها فى قائمة المفروضات لئلا تصبح مرفوضة ! » . . فقال شكرى : « تحت أمرك يا بطل ، ماذا تريدها ؟ مضبوطة ؟ قليلة السكر ؟ سادة ؟ اطلب ، فإيڤيت تتحرق شوقاً لعرض مزاياها ! » . وكانت إيڤيت ترمق زوجها بسخرية ممتعضة ، ثم تمتمت : « كفى ثقل دم . » . فضحك شكرى ، وعلق بسماجة : « زوجتى لها مزايا فخمة ، من أهمها النوم حتى العاشرة صباحاً ، وطبخ المسلوقات كى لا نزداد وزنا ، وحرق ما سلقته لنصبح بدون وزن على الإطلاق ! » . . وعلقت سميرة : « لماذا يدعون بأنك ثقيل ! » . وقهقهوا ، فهدد شكرى : « إن لم تكفى شرك عنى رشقتك بالشر الذى لا بد منه ! » . فعلق بشار مقهقهاً : «يقصد زوجته !» ، فتمتمت هذه وهى تنظر إلى زوجها شذراً : « يا لخفة ظلك ! » . فصاح شكرى : « أتسمحون يا سادة يا كرام ؟ إن لزوجتى هوايات مختلفة منها إقامة أشكال مخروطية وأخرى أسطوانية ، وأخرى لا شكل لها على الإطلاق على قمة رأسها ، مقابل دينار عن كل

شكل سيريالى ، لصالون الحلاق العظيم « شكوكو ! » . . فتمتمت إيفيت وقد بدأت تحمر : « أسكت . . أسكت . » . . فقهقه شكرى وواصل : « وأما موهبتها الجيدة فتتجلى فى ألفاظها الأنيقة التى تصبها فوق دماغى ، هنا ! » ، وأشار لرأسه الذى بدأ يصاب بالصلع . . فقالت سميرة : « لا تعبأ ، فستنزلق كلماتها من على دماغك حتماً ! »

قهقهوا ، واستدار عبدالرحمن وسأل سامية : « ألا تعجبك هذه الفتاة ؟ » ، فأجابت باسمة : « جداً . » . وكان عبد الرحمن مسترخيا على كرسى استراحة طويل بجانب كرسى سامية ، ومد يده وأمسك بيدها المدلاة يتحسس الإصبع المصابة . وسأل وهو يبتسم : « أما زالت تؤلمك ؟ » ، فابتسمت ، وبادلته نظرة طويلة مثقلة بشتى المعانى .. فى حين قال شكرى مواصلا حديثه عن زوجته : « أقول لها يا بنت الحلال اعقلى ، « شكوكو » هذا لا يفعل شيئاً سوى إفراغ جيوبكن ورؤوسكن ! » . . وهنا قامت إيفيت مسرعة ، وقالت وهى تدارى غيظها واحمرارها : « سأصنع القهوة ! » . . واستمر زوجها فى استعراض خفة ظله ، مستغلا زوجته كعنصر أساسى من عناصر الكوميديا !

وكانت إيفيت تقف فى المطبخ الصغير تبكى ، عندما هتف فاروق : « إيفيت ، لا تبكى أرجوك ! » ، لكنها أخذت تشهق بصمت ، وعندها أمسك بكتفيها وشدها إليه ، فاستجابت كطفلة مرهقة ، وخبأت رأسها فى صدره وهى تنشج . وربما لأول مرة أحس فاروق تجاهها بحنان حقيقى ، فأخذ يهمس بغضب : «ذاك الخنزير ، الأبله ، لاأظنه يعرف ما يقول!» . . وأخذت تبكى وهى تهتز على صدره ، ولفها بذراعيه وشدها إليه وهو يقطر رحمة ، وأخذ يهمس فى أذنها : « إيفيت ، حبيبتى . . إيفيت ، كيف أساعدك . . كيف أخلصك منه ! كيف ؟ ! » . . وكان شكرى فى الخارج يضع طفلته على ركبته ويقول لها : « وأنت ، ألن تذهبى إلى شكوكو ؟ » . قالت وهى تعبث بشعر رأسه الخفيف : « سأذهب معك ».

فصاح بشار : « أبشر يا خال ، لقد أصبحت زبوناً . زبوناً عتيدا . » . . وفي المطبخ قالت إيفيت وهي تضع إبريق القهوة على النار : « يحلو له أن يجعل مني أداة يستعرض عليها ثقل ظله ! » . ولم يجب فاروق ، بل هز رأسه وهو يناولها ملعقة ووعاء السكر . وقالت وهي تضع السكر في إبريق القهوة : « كنت أحلم برجل آخر ، من نوعية أخرى » ، وكانت تود أن تقول « برجل حساس ، برجل يعرف كيف يذيب المرأة بين ذراعيه كقطعة من الزبد ، رجل عاطفي مرهف ! » ، ولكنها لم تكن تجيد التعبير عن مشاعرها ، فقد كانت تفتقر إلى الثقافة والثقة ، فإذا ما حاولت الحديث في موضوع جدي وحاولت خوضه بتركيز ، تضيع في لجة من زحام الأفكار والاضطراب ، فتجيء الكلمات مشوهة مهزوزة بعيدة عن السلاسة والاتزان ، وتظهر إيڤيت غبية ، مع أنها ليست كذلك إلى حد ما ! » وزفر فاروق بشكل يدل على التأثر والانفعال . وقبل أن يخرجا من المطبخ كان قد أخذ منها موعدا للقاء في غابة الجوافة بعدالغداء !

ولم يضع جهد فاروق عبثاً ، فالمرح الذي ساد روح الجميع كان بفضله : الغداء اللذيذ ، والبيرة المثلجة ، والجو الجميل ، كل ذلك كان بفضله ، وكذلك كان التألق الذي ساد وجه إيڤيت برغم المنغصات التي لا بد منها حين يكون شكري موجودا ! وأثناء اللعب بالكرة كانت إيڤيت إحدى رفيقتي فاروق . وبما أن نسرين لم تكن ذات طبيعة خبيثة ، فهي لم تلاحظ تلك النظرات الحارة ، ولا اللمسات المتعمدة المتبادلة بين فاروق وإيڤيت . وفي الجانب الآخر وقف الفريق الآخر المكون من بشار وسهى وسميرة . أما سامية وعبد الرحمن فقد اكتفيا بالاستماع لموسيقى شكري .. المنشغل بهوايته القديمة عن هواية زوجته الجديدة !

ثم نهض عبدالرحمن مصطحباً سامية لاكتشاف المكان ، ولاكتشاف الأسرار التي تراكمت بفعل الزمن والاغتراب . وكان يتحين الفرصة لسؤالها ذاك السؤال الذي لا ينفك يحاصره ، يضايقه ، يخنق أنفاسه :

« لم تركتنى ؟ » . وتخطيا مزرعة الورد وأخذا يضربان الخطى فى « بيارة » ( بستان ) البرتقال ، بين الأغصان المترنحة تحت ثقل ثمارها التى لم تزل بعد خضراء . وكانت أشجار الليمون تطلق أفواجاً جديدة من زهيرات شمعية ناصعة البياض . وشذى الزهر الفواح يعطر الأجواء الحارة فى عز الظهيرة . وفى نهاية البيارة قبعت شجرة عالية بانزواء ، وامتدت أمامها مساحات من الأرض الخصبة المزروعة بالخس والسبانخ ، وظهرت كرات الكرنب غامقة الخضرة من الخارج ، بينما ظهرت الأوراق الداخلية بيضاء تميل إلى الخضرة . ومن بعيد جاء صوت «موتور» ماء يضرب بانتظام ، ويتلاشى الصوت فى المساحات تاركاً رنة حائرة مكتومة . وعلى مرمى النظر امتدت غابة الجوافة بأشجارها العالية وسيقانها الناعمة الملساء . وعم سكون شامل لا يخدشه إلا صوت ضربات موتور الماء البعيد ، وصوت ضحكة بعيدة انطلقت من أحد أفراد المجموعة . قالت سامية : « ألن تغير رأيك بشأن المعرض ؟ » ، فطأطأ وهو يمد بصره فى الأبعاد المترامية ، محاولا اكتشاف فكرة أو موضوع قد يسوق إلى ذلك السؤال اللعين الذى يضايقه ؛ فقد كانت أعماقه تلح مطالبة بمبدء الجدل والمناقشة والحكم على المواقف . نظرت إليه فوجدته يحدق فى وجهها بشرود وغموض ، وأحست بنظرته تحفر كيانها بمعاول قاسية رهيبة ، فحاولت الهرب من خوفها وإحساسها بالحرج ، فقالت برهبة : «مازال فى عينيك ذاك الإشعاع الذرى ، أتذكر ؟ » . فابتسم ، دون وعى ، فقد كان حائراً ومترددا : ماذا عليه أن يفعل ؟ هل يسألها ويناقشها ويسمع دفاعها ، أم يتركها تفعل ذلك بنفسها ؟ ثم هل من حقه أن يعرف مادار فى غيابه ، أم لا ؟ لو كانت امرأة جديدة بالنسبة له لما سأل عن ماضيها أبداً ، فالذى يهمه هو الفترة التى يقضيانها معا ، واحترام كل منهما لهذه الفترة . أما بالنسبة لسامية فالمسألة تختلف ، فقد كان بالنسبة لها ماضياً ، وهذا الماضى بالذات لا يخصه وحده ، فهو موزع بينه وبين

رجل آخر ، رجل مات ، لكنه برغم هذا كان ما يزال جزءا من ذاك الماضى . وتلك الفترة التى كانت تخصه . عوملت باحتقار وابتذال ، وهو لن ينسى ذلك . قد يتسامح ولكنه لن ينسى . وإذا كان لا بد من الدخول فى علاقة جديدة ، فمن المستحيل إقامتها وذاك السؤال ما زال حائرا بدون جواب ! . . وابتسم بمرارة ، وكانت هى ترقبه بإمعان ، وأحست بما فى ابتسامته من حيرة وألم ، فقالت ببطء : « ما زلت حاقدا؟» ، فقال بترو : « أنا لا أحقد ، أنت تعرفيننى » . وسكت وأخذ يتشاغل بخط رسوم على الأرض الحمراء الساخنة ، ثم قال بعد فترة صمت : « يهمنى أن أعرف من هى المرأة التى أمامى ، فمن أنت ؟ » . استدارت بنظرها بعيدا عنه وأخذت تزدرد غصتها بصمت . . « إنه لم يكتف بما حدث ، يريد محاكمتى ، والحكم علىّ ! » . . ثم قال بدون مقدمات : « أريد أن أعرف الأسباب . » . لكنها ظلت صامتة تستمع إلى دقات الموتور ، بقلب مقبوض وأعصاب متوترة ، فقال بلهجة فيها نوع من الأسف والاعتذار : « كل ما أقصد قوله هو أنى حاليا لا أعرفك جيدا ، لا أعرف من أنت ، ولا ما أنت ، ولا ما تريدين . فيم تفكرين ، بم تحلمين ، وكيف تعيشين ؟ كنت أعرفك فيما مضى ، كنت أعرف كل خطوة ستخطينها من مجرد تتبع حديثك وصمتك . بإيماءة كنت أعرف ما يدور فى خلدك ، وكنت أعرف ماذا ستقولين عند ما تفتحين فمك ، كنت أعرفك جيداً ، أو هكذا خيل إلى . أما كيف قمت بما قمت به برغم توقعاتى المناقضة ، فهذا ما يحيرنى ! والذى أريد معرفته هو : هل أخطأت أنا فى معرفتك ، أم أنك أخطأت فى معرفة ذاتك ؟ كنت أعرف أنك تحبيننى ، فإذا كنت مصيبا ، فكيف تزوجت من رجل آخر ؟ وإن كنت مخطئا فلماذا غررت بى ؟ لم أكن غنيًّا ولا مشهوراً ، لم أكن أكثر من مكافح مغمور مجهول ، وكنت أنت غنية وجميلة ومعروفة ، وقد قيل لك الكثير ضدى ، ولو لم أكن أمثل شيئاً هاما فى نظرك لما احتملت كل ذلك فى سبيلى . وإن كنت

أنت المخطئة ، فما تبريرك لما حدث ؟ وهل ما حدث لن يحدث مرة أخرى ؟ إن كانت طبيعتك هى تلك الطبيعة الهادئة المستقرة المخلصة ، فالسؤال هو «لماذا تركتنى ؟» . وإن كانت طبيعتك متقلبة غريبة متوترة ، فلماذا أبقيت على ذكراى ؟ وإن كنت لا تعرفين من أنت ولا ما تريدين فكيف أعرف أنا ؟ أحدنا متهم بسوء الفهم ، إما أنا ، وإما أنت ، ولكى أعرف كيف ستعاملينى مستقبلا علىّ أن أعرف لماذا عاملتنى بهذا الشكل فى الماضى . والسؤال هو « لماذا تركتنى ؟ »

ولم تجبه ! كان قلبها يدق برهبة ، والغصة تملأ حلقها فتكاد تخنقها ! . . فرفع عينيه وحدق فى وجهها بجدية ، ثم أعاد السؤال : « لم تركتنى ؟ لماذا لم تنتظرى ؟» ، فتمتمت بصوت ضعيف : « لقد كنت تعيسة بدونك . وهذا يكفى ! » . . فقال بصوت جاف : « أعرف أنك كنت تعيسة بدونى ، ولهذا أسأل : لماذا تركتنى ولم تنتظرى ؟ » ، فقالت بتلعثم : « أرجوك ، لا تنظر إلى هكذا ! » . فغض بصره وسأل : « هل أخيفك ؟ » . قالت هامسة : « نعم » . قال بأسف : « لم أعتد هذا الموقف ، موقف المحقق ، موقف القاضى ، موقف « المخيف » ، ولكن عندما يكون المتهم بريئا فإنه لا يخاف أحداً ، لا المحقق ولا القاضى ! » . قالت بشرود : « أرجوك ، ما من داع لتذكيرى بخطئى . لقد اعترفت به آلاف المرات ، ولقد نلت من العقاب ما فيه الكفاية . ألم تر تلك الحياة الموحشة التى عشتها ؟ كنت أتوه فى غاب مقفر ، خال من أى مخلوق سواى ، وقلبى يتفتت شوقا وعذابا . لقد كنت مجرمة ، قذرة ، وسيئة ، أعرف هذا ، أعرفه جيدا ، وقد ضعت بدونك ، عشرة أعوام من الغربة والوحشة ليست قليلة ، وكفانى هذا عقابا . ألا يكفى ؟ » . . قال موضحا : « لكنى لا أريد معاقبتك ، أنا لا أطلب هذا ولا أفكر فيه ، كل ما هنالك أنى أريد معرفة من أنت . ليلة أول أمس قلت لك إنى لا أعدك بشىء لأنك غريبة عنى » . . ونظر فى وجهها فرآه غارقا

فى الحزن ، فقال بأسف : « أرجوك يا سامية ، افهمينى ، يجب أن تفهمى أن أية علاقة مبنية على جراح غير نظيفة قابلة للفساد . وأنا أريد أن أنظف الجراح ، أن أسطح التغضنات ، أن أضىء القاع ، أن أعيد لعلاقتنا عمقها ونظافتها . وتلك الثقة ، لقد كانت أهم عنصر ، وهى الأساس لكل بناء سليم تقوم عليه أية علاقة طيبة بين إنسانين ، ويجب أن أعرف الحوافز التى دفعتك لتركى وقد كنت أمثل الأمل فى نظرك ، أم أننى مخطئ ؟ » . — لا ، لستَ مخطئا .

— فلم تركتنى إذن ؟ — لقد كنت تعيسة .

هز رأسه بأسف وقال : « هذا عذر واه ! » . قالت بانفعال : « بل هو عذر مقبول . لقد كنت تعيسة ، لم أستطع احتمال الألم ، كنت أتخبط ، ولا أدرى كيف حدث ذلك . أفقت يوما فوجدتنى فى أمريكا ، وبجوار رجل غريب ! » . نفخ وقال بغضب : « اسمعى ، لقد كنت صادقة فيما مضى ، عرفتك هكذا ، فهل اختلف الوضع ؟ » . هتفت بألم : « لا تقل هذا ، صدقنى إنى لا أدرى كيف حدث ذلك . كنت فى حال غير طبيعية ، صدقنى ! » . وعاد يسأل : « وضعك غير الطبيعى ذاك كان نتيجة سجنى ، أليس كذلك ؟ » . أجابت : « نعم . . صدقنى ! » . فعاد يشدد وطأة استجوابها : « وبدلا من انتظار من تتألمين من أجله ، بدلا من الوقوف بجانب من أسميته " أملك " ، وليت الأدبار وهربت ! » . هتفت : « أردت أن أهرب من الألم ! »

— وتركته لى وحدى . . لى وحدى آكله ويأكلنى ، لم تتركى لى فقط عذاب الزبانية والآلات الكهربائية ، لم تتركى لى فقط عذاب غربتى عنك وعن العالم كله ، لم تتركى لى النوم على الأرض الباردة فقط ، وفوق بطانية متهرئة ، والبق والقمل وشتى الحشرات المستوطنة فى الزنزانة الضيقة تفتك بجلدى ، لم تتركينى لهذا فقط ، بل حرمتنى نفسك ، حرمتنى الأمل أن ألقاك ثانية ، وأن أرى فى عينيك نظرة شوق ، وأن

أسمع من شفتيك كلمة « خارق »! وعوضتني عن الثقة غشًّا وغدراً وخيانة ، حتى قصاصة لم أتلق منك ! . . والغيرة ، الغيرة عليك ، كنت أريدك لى ، لى وحدى . . وكنت أتخيلك مع ذاك الرجل ، فأحترق . . أحترق ! » . . واستدار بوجهه إليها ، وكانت تبكي بصمت ، فصاح : « لقد أفسدت أحلامنا ! » . قالت من خلال دموعها : « ولكنك نلت كل ما طلبت ، أصبحت كل ما تمنيت ، نلت الشهرة والمجد ! » ، فهزّ رأسه بمرارة وسخرية : « وخسرتك ! وقد كنت كنزى الأكبر . كنت الحنان ، كنت الحب ، وما الحياة بدون حنان وبدون حب ؟ ملايين الملايين يعيشون مغمورين مجهولين ، يعيشون ببساطة وراحة ، وربما بسعادة ، وإن كانوا أشقياء فليس لأنهم يفتقدون الشهرة ، بل لأنهم يفتقدون الحب ، يفتقدون الحنان . تتحدثين عن المجد ؟ ! وما المجد ؟ هل أستطيع النوم على صدر المجد بدلا من صدرك ؟ هل أستطيع سماع دقات قلبه الخافقة بحبى ؟ المجد أحب الألوف ، الألوف . . وأنا لست سوى واحد من قطيع ، قطرة من محيط ! . . والشهرة ، هل كان باستطاعتها أن تمنحنى طعاما هنيئا وفراشا دافئا ؟ الشهرة عبارة عن صحفى بارد يلاحقنى . همسات تدور من حولى تنغص علىّ وحدتى ونجواى إلى نفسى ، سواء فى وحدتى أو مع الآخرين . أجراس تقرع لكل خطوة أخطوها . هذه هى الشهرة . أما أنت ، فكنت نظرة حانية ، ويداً رقيقة تتحسس جبينى المتعب ، وقلبا يحتوى آلامى وآمانىّ ، وقد كنت أغلى عندى من المجد ، أحلى من الشهرة . فلم تركتنى ؟ ! »

قالت بذهول : « لا أدرى ، لا أدرى ! . . كل ما أدريه أنى تعذبت بدونك ، وأن الحياة بدون حب هى قفر بلقع ، خال من الماء والعشب . جزيرة بعيدة ، أرضها جافة ، سماؤها كالحة ، وماؤها ملح ! »

— هبى أنك أحببت ذاك الرجل !

— لا . . لم أحبه . . لم أحبه !

– هبى أنه لم يمت !

– كنت على وشك أن أتركه .

– هبى أنك رزقت منه أطفالا .

– لم أرزق ، لم أكن أريد ذلك !

– هبى . . هبى . . فما يكون موقفك آنذاك ؟ تتركين أطفالك وتعودين إلى !

– لا أدرى . .

– تتركين الرجل الذى أصبح أباً لأطفالك !

– لا أدرى !

– وتموت قصتنا ، وتموت ذكراى ، وقد أموت أنا ، وتظلين أنت بعيدة ، ولا تسألين عنى ؟

صاحت بحدة : « لا أدرى . . لا أدرى ! »

– بل تدرين . أنت لست مجنونة ، المجانين أو المرضى هم الذين يتصرفون بدون إرادة !

– هؤلاء فقط ؟ إذن فنحن مخيرون لا مسيرون ؟ أو نختار نحن؟

– وهل أرغمك أحد؟ هل منعك أحد ؟ هل ضغط عليك أحد ؟

– أهى الضغوط الخارجية التى تقرر مصائرنا فقط ؟

– ماذا إذن ؟ أليست إرادة الإنسان قائده ؟

– ومتى امتلك الإنسان إرادته ؟

– منذ الأزل . منذ وجد الإنسان وجدت إرادته !

– وجدت ، أين ؟ أين وجدت؟ فى الأرض أم فى السماء؟ وجدت ، نعم . ولكن أين ؟ المهم أن يجدها الإنسان نفسه ، أن يمتلكها ، وليس المهم هو وجود غير محدود الإقامة . فما يكون الخطأ إذن ؟ نقع فى الخطأ دون علم بأنه خطأ ، ولكننا فى الغالب نعلم أنه كذلك ، أنه خطأ . ونندم ، ونستنجد بالله وبمحمد وبالمسيح ، ونطلب الشفاعة والهدى ونظافة الضمير ، وبعد فترة نعود لما أقدمنا عليه وما ندمنا على فعله ، نعود ونخطئ . ونعود ونندم . ونعود ونستغفر الله ومحمد والمسيح ! . .

فأين تكون إرادة الإنسان حين ذاك ؟ فى الأرض أم فى السماء ؟ إرادة الإنسان موجودة ، ولكن متى استطاع الانسان امتلاكها بشكل مطلق ؟ متى كان باستطاعته تسخيرها والتخطيط لها ؟ متى كانت أجسادنا أداة لتنفيذ الإرادة ؟ ومتى كانت الإرادة سليمة صائبة مائة فى المائة ، والإنسان مركب ضعيف . . زورق تائه . . معدن لم يكتشف بعد . وكل إنسان نوعية قائمة بذاتها ، وكل نفس لها أسرارها ، وكل سر له انفتاحاته واستغلاقاته . ألم تخنك إرادتك أبداً ؟

قال مفكراً : « ليس فى الأمور الجسيمة » .

ــ وعندما تزل الإرادة ، كيف نستطيع الحكم على تفاهة الأمور أو جسامتها ؟ يقبع الإنسان حينئذ أشبه بساعة بهلوانية ، أشبه بميزان مختل . وتتعقد الأمور ، وتختلط العقد ، وتتشابك الخيوط ، ونفقد السيطرة على زمام أمورنا . . ونخطئ !

ونظرت إليه . كان يبحث عن خطأ زل به لسانها ليناقشها فيه ، لم يكن يريد أن ينهى الموضوع بهذا الشكل المبهم . وكأنها أحست بما يدور فى نفسه من تشكك وتوجس ، إذ واصلت الدفاع عن نفسها : « كانت الظروف عاصفة . كنت أريد أن أهرب . أن أجد ملجأ يحمينى من ألمى العظيم ، كنت أريد أن أموت ، أو أغرق فى دوامة من النسيان » .

ــ لكنك لم تموتى ، ولم تنسى ؟ ــ للأسف لا !

ــ ولكن ما الدافع ؟ هل رأيت ذلك الرجل من قبل؟ هل أعجبك؟ هل أغرتك ثروته ؟ ــ لا ، لا تقل هذا ، أنت تعرف من أنا . .

ــ بصراحة ، أنا لا أعرف شيئاً ، لم تتركى لى شيئاً أعرفه سوى أن المرأة إنسان ضعيف الإرادة ، كاذب اللسان ، سيئ النية ، وأنها ثعبان غادر !

ــ أرجوك ، لا تكن قاسياً . . أرجوك . قلت لك إنى كنت تعيسة ، وإنى كنت خائفة ، وإنى كنت أركض فى الظلمة فتعثرت

ووقعت . أتذكر ليلة أول أمس ؟ فى تلك اللحظة ، عندما بلغ خوفى قمته ، لم أجد سوى اللهب الأزرق أحرق به أصبعى . كان ذلك تعبيراً عن رغبتى فى الانتحار . كنت أريد أن أحترق ، وأن أموت !

ـ ولكنك قلت بأنك فعلت ذلك لإثارة انتباهى ؟ !

ـ لا ، لم يكن هذا هو الدافع الأصلى . فى اللحظة التى امتدت فيها يدى للنار ، لم أكن فى حالة تفكير ، وإلا لما جرؤت . كنت أنتحر . فما يكون وضع المنتحر ؟ هل تعتبره مريضاً أم مجنوناً ؟ كنت أنتحر ، كنت أنتحر !

وفاض العذاب ، وفاض الدمع . وكان هو يفكر بتوجس وهو يرقب دموعها بذهول . . « من هى هذه المرأة ؟ ما الذى تفكر فيه حقا ؟ ما الذى تحس به ؟ أكاد أشك فى كل كلمة تقولها ، فى كل حركة تصدر عنها . أخاف الاقتراب منها ، وأخاف الابتعاد عنها . بإشارة منى قد تكون لى ، و باشارة أبعدها عنى ، وأنساها كما نسيتها فى الماضى ، ويعود للقلب نومه الهنىء ! » .

وكانت هى تبكى بخوف . . « سيتركنى ، أكاد أرى ذلك فى انعقاد جبينه ، فى قسوة نظرته ، فى انطباقة شفتيه ، سيتركنى لوحدتى ولذكرياتى معه . . ولفشلى فى الحب والزواج ! »

* * *

وكان يحدق فى بحر دموعها . . « دموع المرأة أكبر كذبة خلقتها الطبيعة ، دموع التماسيح ، دموع الثعالب ، دموع إبليس نفسه ! كدت أصدقها . ليلة أول أمس قالت إنها أحرقت أصبعها بغية إثارة انتباهى ، وأسرنى ما ظننته صدقاً فى تلك اللحظة . كدت أذوب حناناً حتى أنى لم أستطع منع نفسى من الركوع عند قدميها إلا بصعوبة . وبدلا من أن تكون فى موقف المسترحم ، أصبح هذا الموقف لى . أى سخف ! أية بلاهة ! رجل تعبث به دموع امرأة فتبدل موقفه بين لحظة وأخرى ،

وبدلا من أن يكون سيداً يصبح عبداً لها ، للشك ، وللتوجس ؟ ! قالت إنها أحرقت اصبعها بغية إثارة انتباهى ، هذا ما قالته ، وبطريقة تقطر صدقاً ، وها هى ذى تقطر صدقاً أيضاً وهى تقول إنها أحرقت اصبعها خوفاً ، وانتحاراً ، فماذا أصدق ؟ » .

وكانت هى تتمزق . . « عبد الرحمن ، أنت يا هذا الرجل ، كيف أتمكن من إقناعك واجتذابك ؟ هل ستتركنى ؟ وأعود أقطع الطريق بين منزلى والمكتبة وحدى . . وحدى . . أراقب الحفر فى الأسفلت . أقف أمام النباتات على الجدران . أعد الأشجار واحدة واحدة ، كيما أنسى مسافة الطريق ، ومسافة الزمن ؟ كلا ، إن الموت أرحم . . أرحم ! إذا ما تركتنى فلن أكتفى بإحراق أصبعى فقط ، سأحرق جسدى كله . سأنتحر حقاً ! »

وخرج من دوامة أفكاره ، ليقول ببطء : « عندما نعود إلى ( رام الله ) فى المساء ، سأجمع اللوحات لأنقلها فى صباح الغد إلى ( نابلس ) » ، وصمت . وراحت هى تنتظر . . « ألن يقول شيئاً آخر ؟ ألن يطلب منى مساعدته فى جمع اللوحات ، أو حتى مراقبته وهو يجمعها ؟ فى الماضى كان يحلو له أن يعمل أثناء وجودى . . يرسم ، يكتب ، يدندن ، ولم أكن أقول شيئاً إلا إذا سألنى ، وكنت آتيه بالقهوة ، وأشعل له المدفأة ، وأضيء له النور فى المرسم حين تغشى العالم الظلمة . كنا نسبق روح العصر ، لم أكن أخاف ألسنة الناس ، لم أخف إلا عليه ! » . . ومدت يدها بمفتاح صغير ، فأخذ يرمق المفتاح بتساؤل : « ما هذا ؟ » . — مفتاح المكتبة .

— وهل تسمحين لى بالدخول وحدى ؟

هزت رأسها بمرارة ، فقال بفضول : « لماذا تهزين رأسك ؟ » استدارت بوجهها عنه ، فواصل التساؤل : « ماذا هنالك ؟ لم هزت رأسك ؟ » . قالت بشرود : « سؤالك ذاك ، كان فيه طعم غريب ! »

ـ كان فيه لياقة .

تمتمت بيأس : « اعذرنى »، وحدثت نفسها . . « منذ متى كان يعبأ باللياقة معى ؟ كان يتصرف كما لوكنت جزءاً منه، كما لو كنت نفسه ، وها هو ذا يتشدق الآن باللياقة ! » . . وقال متردداً : « ولن أرجع المفتاح ؟ » . وأحست بشىء يشبه الطعنة يخترق أمعاءها ، وظلت تنظر إلى أشجار الجوافة فى الغابة القريبة بذهول . . « حاقد ، مهما ادعيتَ صفات التسامح . عنيد مهما ادعيتَ الليونة . متكبر مهما اصطنعتَ التواضع . لكنك لن تمرغ جبهتى فى الوحل ! لن تجرنى من عنقى ــ العمر كله ــ ككلبة جرباء مهرئة الجلد ، لن أسمح لك بذلك ، مهما كانت النتائج ، مهما حدث . . الموت أرحم ! »

وأجابت بهدوء : « اتركه إذا مررت بمنزلنا . أو قد أبعث لك بنسرين لتساعدك فى جمع اللوحات » .. والتفت إليها ليتأكد مما تعنيه ، فوجد جبهتها مرفوعة ، وفى عينيها نظرة شرود . قال وهو يرمقها : « ألن أراك ثانية ؟ » . قالت بمرارة : «ما من داع لفرض ثقلنا على الآخرين ، عندما تشعر بالشوق الحقيقى . . ستَرانى » .

« ماذا تقصد هذه المرأة : عندما تشعر بالشوق الحقيقى ؟ . . ما معنى هذا ؟ فى الماضى وقعت صريع نظرة كبرياء من عينيها . أنا لا أحب المرأة المتهالكة ، أحبها أن تظل الإله الذى نطلب عطفه ورحمته ! » . . وقال يجس نبضها: « ألن تحضرى للمكتبة » . قالت دون أن تنظر إليه : « لماذا ؟ » . أجاب : « إنما كنت أسأل فقط ! »

وظل جبينها مرفوعاً ، ونظراتها غائمة غامضة . . « تستدرجنى ياعبد الرحمن؟ . . أعرفك ،أعرفك جيداً . ولكنك ستفهم أنى لن أقضى العمر كله أردد كلمات الاستغفار والاسترحام ! » . وعاد يسألها : « وهل سأجد قهوة فى المكتبة ؟ » . « هاهوذا يذكرنى ، ويذكر نفسه ! » وقالت ببرود : « أدوات القهوة فى المطبخ الصغير ، لن تجد صعوبة فى

العثور عليها » . . فقال وهو ينظر إليها بإلحاح : « ( رام الله ) باردة ، وسيكون الجو رطباً فى المكتبة » . . ولم تجبه ! .. كانت تزدرد غصة أفعمت حلقها .. فقال كمن يخاطب نفسه : « حسنا ، سأشعل المدفأة ، لقد اعتدت أن أفعل ذلك وحدى . ولسنوات طويلة عشت بدون تدفئة على الإطلاق ! » . . ولم تجبه ، فقال بامتعاض وغيظ : « أرى أنك لا تعبأين بى ، أهذا هو الحب الذى تدعينه ؟ » . قالت مواجهة : « أولا ، أنا لا أدعى شيئاً . أنا أقول ما أحس به . ثانياً أنا ألبى ما تطلبه منى . أردتَ الذهاب للمكتبة فأعطيتك المفتاح . سألتنى عن مكان القهوة فقلت لك . تقول بأن الجو رطب هناك . سأوصى نسرين بأن تشعل لك المدفأة الكبيرة » . . . وكان كل منهما ينظر فى عينى الآخر بتحفز . كانت غاضبة ، وكان قلبه يدق وهو يتأمل عنادها الذى رآه لذيذاً ، مسلياً ، ومثيراً . . وقال مدعياً الغضب : « كنت تقفين بجانبى ، كنت تحضرين لى القهوة بيديك ، وتشعلين لى المدفأة حتى دون أن أطلب ذلك . وأحياناً ترغمينى على ارتداء « البلوفر » قسراً ، كنت تخافين علىّ بصدق ، كنت تعرفين أنى مصاب « باللومباجو » وأن البرد يزيد من آلام ظهرى . . » ، فقاطعته وهى تلتفت إليه وتسأله بصوت مرتعش : « اللومباجو ، نعم . . أما زال كما كان ؟ » . قال بجفاء : « وأكثر ، وأكثر . أترين : لقد نسيت ، أتدرين لماذا ؟ لأنك ماعدت تعبأين بى كذى قبل . كنت تخافين على ، كنت تحبيننى حقاً . أتذكرين كم « بلوفراً » صنعت لى ؟ » . ارتعشت أجفانها بقلق . . « هل يسخر منى ؟ هل ينصب لى فخاً ؟ هل يذكرنى بقصد إثارة حنينى ، أم بقصد التفكه ؟ ولكنه هو نفسه يذكر ذلك ، وإلا فكيف تذكر وحده ؟ » ، وعاد يقول بغضب : « والآن ، وبعد عشرة أعوام من الشوق الذى تدعينه ، أعود فأجد امرأة جف حنانها ! » . . وقالت بغضب مماثل : « لا تقل هذا ، حنانى نبع لا ينضب ! » .. فعقد

حاجبيه بطريقة ساخرة ، ولوى شفتيه بتبرم ، ولكن كانت فى العينين نظرة متلهفة ، وبريق الشوق والحنين . وقال : « أنا لا أرى فى وجهك إلا الغضب ! » . فطأطأت باستسلام وهى ترخى أهدابها السود بطريقة ناعمة مثيرة . وكان هو يتأملها ويفكر ، محدثاً نفسه : « كيف تستطيع المرأة الاحتفاظ بكامل جاذبيتها وحساسيتها وجمالها حتى حين تبلغ الأربعين ؟ ! هل للذكاء يد فى ذلك ؟ » ورفعت نظرها ، فوجدت عينيه تهيمان فى واحة من الإعجاب والحنان . وأخذ قلبها يدق بعنف ، فسألها بلطف آسر : « لم احمر وجهك ؟ » . ولم تجبه . قال هامساً : « ألن تأتى للمكتبة ؟ » . قالت هامسة بدورها : « بلى » .

— وتأتين بالقهوة ؟

— نعم . — وتشعلين لى المدفأة ؟

— نعم . — وتجلسين بجانبى ؟

فاضت دموع حنانها . فمد يده ولمس استدارة وجهها بأصابعه ؛ كنحات يتحسس تمثاله المفضل ! .. وقال : « تذكرينى بالماضى ؟ . إنى أكاد أعيشه . أحس بتدفق الدم فى عروقى من جديد ، وباصطخاب النبض فى قلبى . لم تؤثر فى امرأة كما فعلت سامية ، عدينى بأن تعودى إلىّ كما كنت ! »

— بل أحسن مما كنت ، فقد ازددت خبرة ، وحكمة ، وشوقاً !

— يكفينى ما كنت عليه فيما مضى ، هذا كل ما أطلبه منك : أطلب حناناً ، وتفهماً ، ووفاء .

ولم تستطع المكابرة أكثر من ذلك ، فألقت برأسها على كتفه ، تدفن نشيجها وخفقان قلبها !

# ١٣

كانت تركض فى اتجاه غابة الجوافة ، وكان الجو حارًّا ، أو ربما كان الانفعال والخوف هما السبب فى كل ماتصبب منها من عرق . وهتف فاروق وهو يمد ذراعيه : « إيفيت ، لقد تأخرت ! » . قالت وهى تنظر خلفها بقلق : « كنت مترددة . لم أكن أريد المجىء ! » . فتساءل وهو يمسك بيدها و يجرها إلى مكان ازدحمت فيه الأشجار والظلال : « ولم التردد ؟ » . قالت لاهثة : « لا أدرى . . فأنا خائفة ! » . قال ونظرة منكسرة تكسو وجهه : « تخافين منى أنا ؟ » . قالت بتلعثم : « أنا خائفة ، من كل شىء . تركت « نينا » نائمة فى حجر والدها . ستستيقظ وتنادينى . . سأعود . . قد يجىء أحد ويرانى . . وقد يعرف شكرى ! » .. فحاول جاهداً تهدئتها : « لن يعرف شكرى . . لن يعرف ! » . لكنها قالت وهى لا تزال تنظر حوالها : « وحتى إن لم يعرف ، فأنا خائفة . . اسمع ، ألا تسمع شيئاً ؟ يا إلهى ، أريد أن أعود ، يجب أن أعود ! ، فأمسك بيدها يشدها : « إيفيت ، تعودين ؟ ماذا تقولين ؟ ، أجابت وهى تنصت كفأر مذعور : « انصت جيداً . . ألا تسمع شيئاً ؟ ماهذه الضربات ؟ » .. قال مبتسماً : « هذه دقات موتور الماء ، والخشخشة منبعثة من أوراق الجوافة الجافة ! » . قالت وهى تتلفت حواليها : « سأعود ! سأعود ! » فصبغ وجهه بقناع يقطر حزناً ، وسألها : « أتتركيننى وحدى يا إيفيت ؟ » . نظرت فى وجهه التعيس بإشفاق ، ورأت الحزن يغطى جبينه الجميل ، وشفتيه ترتجفان بانفعال . ومرت بذاكرتها مشاهد مشابهة رأتها فى أفلام أبكتها ، فتخيلت نفسها بطلة فى أحد تلك الأفلام الغرامية الطافحة بالمآسى الدرامية . فقالت وهى تتقمص دور العاشقة المعذبة التى تضحى بحبها فى سبيل المبادئ

والشرف : « فاروق ، أنا لست لك . لا مفر . يجب أن تنسانى! » .. فهتف بجزع : « أنساك ؟ لا يا إيفيت ، لا تطالبينى بما هو فوق طاقتى ! » . . وسبحت عيناها فى غمامة من الدمع والتأثر ، كانت تعيش فى موقف حلمت به سنوات وسنوات . . هى فتاة جميلة ، وهو فارس أنيق . هى عاشقة ولهى ، وهو عاشق مدله . هى متزوجة ، وهو معذب . . ويا للمأساة !

وأخذت دموعها تتدفق ، تأثراً لما فى مخيلتها من إثارة ، أكثر منها انفعالا للموقف نفسه. وقال فاروق مسترحماً : « إيفيت ، لاتكونى قاسية ، وجهك السماوى هذا لا يحمل سوى رحمة الملائكة . قلبك الذى أسمع خفقانه لم يعرف سوى الحب والحنان ، فلا تفسديه بالكراهية . . لا تكرهينى ! » . . فهتفت ، بقلب متوجع : « أنا أكرهك ؟! » ، وأخذت تنشج ، فتلفت فاروق حواليه خوفاً من أن يصل صوت نشيجها لأحد . وبعد أن اطمأن ، واصل التوسل : « إيفيت ، ماذا أفعل ؟ دلينى على طريقة » . . فقالت مجفلة : « لا ، لا أستطيع ! » . تساءل بدهشة : « لا تستطيعين ماذا ؟ »

— أن أترك زوجى . وبيتى . . وأولادى !

فغر فاه ولسان حاله يقول : « ومن طلب منك ذلك ! » . وقالت بسذاجة : « سأظل على حبك حتى الممات ، هكذا كتب علينا : أن نشقى ، وأن نتعذب . . ولكن فى سبيل من نحب ، يهون الشقاء ويهون الألم . وفى سبيل أطفالى تهون التضحية ! » . وحدث نفسه : « ألم تقل فاتن حمامة كلمات كهذه فى فيلم ما ؟ » ، ثم هتف وهو يمسك بها من كتفيها : « إيفيت ، يا إلهة التضحية والمحبة . . إيفيت يا ملاك الرحمة . يا ربيبة القديسين ! » .

وكان وجهها يترنح حزناً وطرباً . حزناً على وضعها كعاشقة محرومة ، وطرباً لسماع كلمات حلمت بها سنوات طويلة . وجاءها صوته :

« إيفيت ، لا تطرديني من فردوسك . الموت أهون ! » . . وجثا على ركبتيه محتضناً ساقيها . ووجدت نفسها محاطة بذراعي فارسها العاشق الأنيق ، وجسدها مرفوع إلى أعلى كما لو كانت « جان دارك » الحب والقداسة . وارتسمت على وجهها ابتسامة مضيئة ، وهي تردد كلمات هامسة كما لو كانت صلوات مقدسة : « يجب أن نحتمل ما كتب علينا . هذه مشيئة الله ، الله يختبر عباده ليعرف الخبيث من الطيب ، وسنكون من الطيبين » .. وكان هو يهتف عند ركبتيها : « إيفيت ، يا أنبل امرأة عرفتها . إيفيت . . . » وانحنت لترفعه من ركعته ، فشدها إلى أسفل ، فركعت مثله ، فاحتضنها بين ذراعيه ، وأخذ يعطرها بالهمسات والقبلات : « حبيبتي . . إيفيت . . أحبك » .. ستكونين لي . . إيفيت . . إيفيت ! » . . وسمعا خشخشة بعيدة ، فتوقفت أنفاسهما للحظات ، وأخذت هي تنظر ناحية المكان الذي صدرت منه الخشخشة ، وشهقت وهي تبعده عنها : « اتركني . . اتركني .. ذاك عبدالرحمن ينظر إلي ، وتلك سامية . . اتركني ! »

فتركها ونهض مسرعاً ، واختبأ خلف شجرة ضخمة وهو يتحسس ياقته وشعره ويمسح فمه بكفه . ولحقت به إيفيت ، فهتف بجفاف وغلظة : « لم جئت ؟ » . فتحت عينيها بعجب ، فاستدرك قائلا بصوت خافت : « حبيبتي . يجب أن أكون حذراً على سمعتك ، ثم إنني معروف جدا ، وأبي نائب في البرلمان ، وقد أصبح نائباً أيضاً ، ولذلك يجب أن تكون سمعتي نظيفة ، وسمعتك أنت بالنسبة لي أهم من أي شيء في العالم . أهم من أي شيء ، أقسم بحبك يا إيفيت . . أتصدقين ؟ أنا خائف على سمعتك ، هذا هو الحب الأصيل . . أنا لا أريدك إلا مرفوعة الرأس أمام الناس » .

* * *

وكان عبد الرحمن ينظر مصدوماً من بعيد ، وأخذت سامية

تردد بذهول وانفعال : « أحقيقى ما أراه ؟ » . والتفتت لترى عبد الرحمن مازال واقفاً يحملق باتجاه المكان الذى كانت فيه إيفيت مع فاروق فهتفت سامية : « عبد الرحمن . . هل رأيت ما رأته عيناى ؟ » ولم يجب عبد الرحمن . كانت الصدمة قد هزته ، وكان فكره يردد : « غدر المرأة . . غدر المرأة ! » ، بينما قالت سامية بذهول : « أهذا هو العفيف الشريف الذى يدافع عن الأخلاق والشرف الشرقى ؟ » . فالتفت إليها عبد الرحمن وقال بجفاء : « إنه أعزب ! »

ــ لكنه صديق زوجها ، ثم إنها بلهاء ، إيفيت امرأة ساذجة ، محدودة الذكاء ، محدودة الثقافة ، عاطفية لدرجة الهوس ، انفعالية لدرجة النزق . الكل يعرف هذا ، أما هو فقد كان يمثل دور المثقف الراقى ابن العائلة المحترمة والنسب الرفيع ، والشهم الذى يدافع عن الطهارة والشرف ، وهاهو ذا يغرر بها ، وهى طفلة ، ليست أكثر من طفلة ساذجة !

فاستدار عبد الرحمن يحدجها بسخرية ، وتساءل بمرارة : « ألا تغدر المرأة إلا حين تكون طفلة ساذجة ؟ » . . وكانت كلماته تحفر فى قلبها خندقاً ! فها هو ذا يعيرها ويذكرها بموقفها منه . ورغم كل ما قاله وما قالته ، ورغم الانتفاضات العنيفة التى اعترته وهو يعانقها ويناجيها ، فما زالت هناك ثغرة يصعب ردمها ، بل من المستحيل ردمها ! .. وأحست بحنق شديد على إيفيت ، فها هى ذى تفسد كل الآمال التى بنتها ، هاهى ذى تعطى لعبد الرحمن دليلا آخر على خيانة المرأة ، وغدرها وكذبها !

وواصلا الطريق بصمت كئيب . وعندما وصلا ساحة الورود حيث تلتف المجموعة ، كان فاروق يجلس هناك منشغلا فى حديث ذى شجون مع سميرة ونسرين ، أما إيفيت فكانت فى الداخل تصنع القهوة . وعندما قدمتها لم تواجه الاثنين بنظرها !

وكان عبد الرحمن مشيحاً بوجهه عنها باشمئزاز ، بينما اكتفت سامية بتوجيه نظرات غاضبة إليها . أما فاروق فكان غارقاً فى حديث متشعب ، وكان يقول لنسرين المنصتة باهتمام : «أنا أوافق سميرة على رأيها، وأعتقد أن هذه الأمة بحاجة لثورة أخلاقية أكثر مما تحتاج إليه من سلاح ومشروعات . وأعتقد أن على المثقفين أن يبدءوا بحملة توعية واسعة النطاق ، كما فى ( كوبا ) . أتعلمين أنه خلال سنوات قليلة أصبحت كوبا لا تضم من الأميين الا بقدر ما يحتوى هذا القلب من خطايا؟! » . . فصاحت سميرة ضاحكة : «يا أمة الأميين يا كوبا!»

## ١٤

عندما عاد عبدالرحمن من ( نابلس ) بعد غياب دام أكثر من أسبوعين ، كان أول ما فكر فيه هو زيارة خاطفة لسامية وللمكتبة ، فقد أحس بعبثية مقاومته لذاك الرباط الذى يشده إليها ! كان الماضى يذكره ، والحاضر يشوقه ، أما المستقبل ، فأنّى له بمعرفة ذاك الدرب الضبابى الذى كتب عليه أن يمشيه ، بكل ما فيه من حلاوات ومرارات! . .

وكان معرض نابلس قد نال من النجاح أضعاف ما ناله معرض ( رام الله ) ! . . وكتبت عنه الصحافة أكثر مما كتبت عن معرض ( أريحا ) . ورجال المباحث المختفون خلف النظارات القاتمة كانوا يذرعون الصالة بنشاط ، حيث وقف خيرة الشباب هناك : فذاك يسارى معتدل . وذاك يسارى متطرف ، وذاك ناصرى والآخر من رجالات البعث . أما اليمين فما كان له فى المعرض موطئ قدم . وربما قام عبدالرحمن أثناء زيارته لنابلس ببعض الزيارات المشبوهة ، هذا ما احتوته تقارير ذوى النظارات القاتمة ، أما التفاصيل فلم تذكر . ولكن كان لا بد من محاسبة عبدالرحمن على ذلك يوما ، ولا بد من استجوابه والتحقيق معه . وفى تلك الأثناء لم يبعث إلى سامية بكلمة واحدة . انتظرت منه رسالة ، انتظرت

مكالمة هاتفية ، انتظرته هو ، فلا بد أن يعود ، فرام الله هي المقر . وقد استأجر قبل ذهابه إلى نابلس شقة صغيرة فى طريق فرعى من شارع الإذاعة : إحدى الغرف كانت تطل على واد وأشجار وأفق فسيح ، وقد جعل من هذه الغرفة مرسما ومكتبة . وكانت المجموعة قد زارته فى منزله الجديد قبل ذهابه ، وكانت سامية على علم بمقر هذا المنزل ، لكنها لم تمر به يوما لتتأكد من رجوعه ، فقد حدست من غيابه الصامت ذاك مدى ما يمر به عبدالرحمن من حيرة وتشكك . وكان مشهد إيفيت وفاروق فى غابة الجوافة هو العامل الأساسى فى انقلابه الكئيب ذاك . كانت سامية تعرف هذا وتفهمه ، وربما أحست هى الأخرى بما تحمله خيانة إيفيت من أدلة سافرة على غباء المرأة وضعفها ، وبالطبع هذا يذكر بماضيها الداكن مع عبد الرحمن . فلا عجب إذا خلف هذا الموقف فى نفس عبدالرحمن كل ذاك الإحساس بالإهانة غير المباشرة .

ولكن كان لا يزال يراود سامية أمل فى أن يزور المكتبة ، وأن يراها ، وأن ينظر فى عينيها ، وأن تحبه بصمت ، وأن تقول له بكل حركة من حركاتها إنها فى انتظار كلمة ، وإنها رهن إشارته ! كانت تعرفه جيداً ، فهو حساس ، وعاطفى — رغم ذاك العقل الجبار الذى يقيد خطواته وتحركاته — وهى واثقة من أنه سيعود ! ولكن متى ؟ متى ؟ . . إنها قد قرأت أخباره فى الصحف ، ورأت صوراً ملونة للوحاته فى المجلات ، وسمعت صوته فى الإذاعة يحكى قصة الفن والثورة المبطنة ، والكفاح السلمى فى سبيل التقدم والحرية . لكن ذلك كله ما عاد يهمها ، كل ذلك ماعاد سوى حاجز يبعده عنها ، شريط شائك يفصل بينه وبينها . وهى ما عادت صاحبة مبادئ ومثل عليا كما فى الماضى . فماذا تعنى تحركات عبدالرحمن هذه سوى المزيد من الرقابة ، والمزيد من توجس المخابرات ، والمزيد من التهديد ؟ وهى امرأة هادئة الطبع ، تميل إلى الهدوء وتمقت المغامرة . وكل تلك التحركات ما عادت تمثل فى نظرها

سوى مغامرات خطرة . فلا الشعب مدرك لما يقصده عبدالرحمن ، ولاالسلطة مستعدة لتفهم إنسانية عبدالرحمن ونزعته السلمية وتبنيه سياسة مستوردة من الشرق الأقصى ، نفذها غاندى يوما وأفلح . . ولا السلام بمقترب من أمة لا يفصل بينها و بين العدو سوى أسلاك شائكة ومتاريس . فما تعنى تحركات عبدالرحمن بالنسبة لها سوى جهد ضائع ، واستنزاف لقوى الرجل الذى تحب ، واستهلاك للوقت الذى كان عليه أن يقضيه معها ، يطارحها فيه الغرام !

* * *

كان عصرا مطيرا ، وبرد ( رام الله ) يذبح المفاصل ذبحا . ولكن ما كاد عبدالرحمن يطأ عتبة المكتبة ويدفع الباب الزجاجى للقاعة ، حتى لامس وجهه هواء جاف دافئ حملته مروحة المدفأة الأمريكية الضخمة ، فمسح شعره من أثر الماء ، وخلع معطفه المبتل ، ومشى إلى الداخل ببطء وهو ينظر إلى مناضد القاعة الخالية المهجورة . كان الموظف منشغلا بالقراءة ، وأنوار « النيون» التى تضىء السقف مطفأة ، إلا ذاك الذى يعلو رأس الموظف ، ومكتب سامية الزجاجى مغلقا ومعتما . ووقف الموظف وصافحه من وراء المنصة ، وقال إنه ما من أحد هنا سوى تلك الرسامة الشابة . فهى تداوم على الحضور إلى قاعة النادى كل عصر حتى المساء . . فمشى عبدالرحمن نحو القاعة ببطء ، وفتح الباب الموارب بهدوء ، وفوجىء ببعض قطع أثاث جديدة تحتل المكان : فى الركن الأيمن قبعت مائدة خضراء نصبت فى وسطها شبكة قصيرة ، وبجوار الشبكة مضربان وكرة . وفى الركن الأيسر بجانب البيانو الذى أحضره شكرى كانت هناك قطعة أثاث ضخمة من تلك التى تحتوى آلة تسجيل وجرامفون واسطوانات . وكانت الإبرة تدور فى نهاية اسطوانة ما ، محدثة صوتا رتيبا متقطعا . أما فى القسم الأسفل من القاعة ، فقد أقيم مسرح خشبى طلى حديثا بدهان ذى لون داكن الحمرة ، وقد

غطت المسرح ستارة بيضاء تحوى رسوماً يابانية رقيقة : جذع شجرة متشعب الأغصان ، عار إلا من زهيرات لوز ذات لون زهرى ، محاطة بخطوط بنية شاحبة لتظهر تكوين الزهيرات وتفصل بينها وبين الأرضية البيضاء . وفى ركن بجوار النافذة المسدلة الستائر قبعت بضع أرائك جلدية ، وقد نصبت حاملة لوحات وفيها لوحة لم تكتمل بعد ، وعلى منضدة قريبة ظهرت خشبة الألوان ملقاة بإهمال ، وقد تناثرت حولها أنابيب الألوان بفوضى وإهمال .

كانت القاعة شبه مظلمة ، ولهذا لم ينتبه عبدالرحمن لوجود « سهى » منذ الوهلة الأولى . وكانت الرسامة جالسة على إحدى الأرائك فى وضع ملتو ، وقد وضعت ذراعيها على ظهر الأريكة . ودفنت رأسها فى ذراعها بشكل جعلها تبدو شبه نائمة . . فاتجه نحو الجرامفون ، ونحى الإبرة عن الأسطوانة بهدوء وهو ينظر للشابة ، مخافة إقلاقها . لكنها لم تلبث أن رفعت رأسها ببطء ونظرت إليه بعينين زائغتين ، ووجه قد هدّه الحزن ! . . ولم يبد أنها عرفته أو فوجئت بوجوده ، إذ أنها ظلت تنظر إليه بعينيها الكئيبتين الغارقتين فى ضباب الدمع والحيرة . . فهز رأسه محييا ، وقال مبتسما : « جئت هذا الصباح من نابلس ، وقد مررت بكم لأستعلم عن أخباركم ، فهل من جديد ؟ » . لم تجبه « سهى » ، بل ظلت تنظر إليه بنظرات زائغة مظلمة ، فاقترب منها وهو ينظر إليها ، وتساءل : « مابك؟» لكنها لم تجب أيضا بل أعادت رأسها إلى وضعه السابق ، وعادت لسابق نومها . . فجلس على أريكة مقابلة وأخذ يتأمل وضعها الكئيب ذاك ، ثم التفت إلى اللوحة وأخذ يتفرس فيها . كانت لوحة ضخمة ، لا يقل عرضها عن متر ونصف ، ولا يتعدى ارتفاعها الخمسين سنتيمتراً . وكانت تحتوى خطوطا حادة عنيفة كضربات سكين . والألوان متشابكة متناقضة ، والخلفية قاتمة كئيبة ! فتساءل بدهشة : « منذ متى بدأت ترسمين بهذا الشكل؟ أى نوع من الرسم هذا ؟ تجريدى ، أم تكعيبى ، أم سيريالى ، أم ماذا ؟

لم تجبه . . بل زفرت ، فارتفع ظهرها وانخفض بحركة عميقة . ثم رفعت رأسها ببطء ، وجلست وهى تمد ساقيها فى وضع كسول . كانت ترتدى بنطلونا داكن اللون ، و« بلوفر » أبيض صوفيا ، بياقة ضخمة تغطى عنقها وتكاد تصل حتى منتصف ذقنها . وبدت فريدة الجمال بشعرها الأبنوسى الداكن ، وعينيها السوداوين اللتين زادهما الحزن جمالا وغموضا . وما عتمت أن قالت مهمهمة ، بصوت متحشرج : « أعطنى سيجارة » ، فابتسم وتساءل : « أما من تحية ؟ أما من ترحيب ؟ هكذا فقط : أعطنى سيجارة ؟ » . . فرمقته بعينين تعيستين ، وقالت هامسة : « اعذرنى ، فأنا مريضة ! » . تساءل بدهشة : « ولم تجلسين هنا إذن ؟ لم لا تلزمين الفراش ؟» . هزت رأسها بدون اكتراث وقالت : « هيا اعطنى سيجارة ، فأنا مريضة . » . . فقال باهتمام : « ولكن إذا كنت مريضة حقًّا ، فيجب ألا تدخنى ، فالتدخين ضار ، وقد تدمنين ! » . . لكنها هزت رأسها بسخرية : « أدمن ؟ وماذا لو أدمنت السجائر ! وماذا لو أدمنت أى شىء آخر ؟ ماذا لو مرضت ؟ وماذا لو شفيت ؟ ألست زائلة لا محالة ؟ وسيان لو دخلت القبر بخدين متوردين ، أو دخلته بعظام بارزة ، فهيكلى هو الباقى . وسواء كسوت هذا الجسم لحمًا ، أو أبقيته جلداً وعظمًا ، فالهيكل العظمى هو الباقى . والآن أعطنى سيجارة ، وإن كان لديك ما هو أقوى فأعطنيه ، ولكن لا ، فأنت لا تحمل إلا السجائر . وأنا أعرفك ، أعرف أنك تخاف البرد والرشح والمرض . أما أنا فلا أخاف شيئاً . والآن ، أعطنى سيجارة ! » . . فناولها واحدة ، وأشعلها . ثم سألها بعد فترة صمت : « ما بك ؟ »

نفخت الدخان كثيفًا من فمها ، وهزت يدها التى تحمل اللفافة وقالت بصوت خافت وهى تتفرس فى دخان لفافتها المتصاعد فى حلقات ملتوية : « من أين يأتى الحزن يا عبدالرحمن ؟ » . كانت فى صوتها بحة ، وكلماتها تحتوى مقدارا هائلا من اليأس والقنوط . فابتسم بإشفاق ،

وأشعل لفافة ، وأعاد العلبة إلى جيبه وقال : « لماذا ؟ أحزينة أنت ؟ » . قالت بصوت مخنوق : « هذا هو مرضى : الحزن . ويبدو أنه مرض مستعص . عندما كنت صغيرة ، كنت أظن أن حزنى سيتوقف حين يتوقف والدى عن ضرب أمى ، وعن السكر . وتوقف والدى عن ضرب أمى ، وعن السكر أيضاً ، لا لأنه تاب ، بل لأن الله أخذه إليه . وأصبحنا وحدنا ، مجموعة من الأطفال تعولهم امرأة فى منتصف العمر ، تغسل فى دور الأغنياء . وازددنا فقراً حين أصبح لدى الأغنياء غسالات كهربائية ، فأصبحت أمى مربية أطفال . تربى أطفال السيدات الأنيقات اللواتى يتزيّن بما يعادل عشرات الدنانير ، ويساومن أمى على القروش والدراهم خوفا من أن تسيء استغلالهن ، ولكى يقال إنهن ماهرات ومقتصدات ! . . كانت تربى أطفال النسوة المتخمات ، وتترك أطفالها بدون تربية . فنحن عباد الله الفقراء ، الذين وعدهم الله بالجنة والحياة الأخرى فقط ، ما خلقنا لكى يكون لنا مرب سوى الشوارع والأزقة والمصادفات . كنا جياعا . أنصاف عراة ، ينخر البرد أجسامنا . وكانت تلك الحجرة زريبة مظلمة ، وكنت أشعر بذلك كله : بالجوع والبرد ولسعات البق والقمل الحارة . . وكنت حزينة ، وغاضبة . أما أمى فلم تكن حزينة ولا غاضبة ، فقد كانت تصلى . تصلى . تصلى وتركع لله وللناس . وكنت حزينة من أجلها ، وغاضبة من ركوعها للناس . وظلت هى تصلى ، وظللت أنا حزينة وغاضبة . كانت متعبة ، تأتى من بيوت الأغنياء وقد هدها التعب والشيخوخة ، رغم أنها كانت ما تزال فى منتصف العمر ! . . وكنت جائعة ، حزينة ، غاضبة . وظننت أن حزنى سيخفت لو خفت جوعى ، ولكنه لم يفعل . وتحسنت أحوالنا قليلا حين عملت أختى صبية لخياطة ، ونصب أخى بسطة بجوار الدار لبيع الفول والحمص . تحسنت الأحوال ، وكنت مجدة فى دراستى فلم ينتزعونى من المدرسة . وكنت أهوى الرسم ، لكن أحداً فى دارنا ما كان يعلم .

فالفن رخاء لا يتذوقه الفقراء ، هذا ما عرفته من مشاهداتى فى بيت الطبيب الذى كانت أمى تعمل فى داره . وكنت أذهب مع أمى فى الموعد الذى تأخذ فيه ابنته دروس البيانو ! . . وأقف خلف الباب المنفرج ، أسترق السمع والنظر . كانت نقرات البيانو تضرب فى أحشائى ، والأنغام تسيل فى دمى كشعاع إلهى . وكنت أتلوى وجداً وشوقاً للمس تلك الآلة الكبيرة ، وكانت ابنة الطبيب تنال علقة ساخنة قبل كل درس ، إذ يجب على الفتاة المهذبة الراقية أن تجيد القليل من فن الموسيقى كى تقال عنها أشياء جميلة ، وأنا لم أكن أريد أن تقال عنى أشياء جميلة ، كل ما تمنيته هو أن ألمس تلك الآلة ، وأن أسر للبيانو بكل ما يحتويه صدرى من عذاب وغضب . لكن ذلك ما كان لائقا ، فالفن رخاء لا يتذوقه الفقراء . الفن تخمة لا يصاب بها إلا الأغنياء فقط . وقد كنت فقيرة ، وحزينة ، وغاضبة .

* * *

« ورغم أنى ما عدت جائعة ولا مقرورة ، إلا أن إحساساً بالظلم ظل يلازمنى ، وإحساساً بالتفاهة ، وبنكران الناس لى . كنت ساخطة ، وربما ما زلت ، فأخذت أبحث عن العدالة ! رأيت كل شىء منطوياً على الخطأ ، كل شىء ، وكنت أرفض أن أظل نكرة ، كنت أظن أن الشهرة . . والحب . . والجنس . . ستمحو حزنى وغضبى . . لكنه كله عبث . . عبث ! . . وظللت أبحث ، وأبحث ، وأبحث ، عن الجمال . . والكمال . . والعدالة . . واكتشفت أن الفن يحتوى هذا كله . ولكن لحظة الفن تلك مؤقتة . تلك اللحظة التى تبهر الأنفاس بعمقها وصفائها وسحرها ، والتى كنت أود ألا أستفيق منها ، مؤقتة مع الأسف ، أعود بعدها إلى ما كنت عليه من حزن وغضب ! . . فكيف أنجو ؟ لو أننى أعرف فقط . . لو أننى أعرف . . فهل تعرف أنت ؟ قل لى ، أنت أكبر منى ، أذكى منى ، وأعمق منى ، قل لى ، أين الحل ؟ أين أجد كل ما أبحث عنه ؟ » .

كان عبد الرحمن يرقب خلجات وجه « سهى » الملتاعة باستغراق ، فقد كان فيها ما يشد البصر بدون رحمة . وحملقت فى وجهه وسألت بإلحاح : « قل لى ، أين أجد الحل ؟ » . قال بتأمل : « .. كما أن للحزن وجوهاً ، فللسعادة وجوه أيضا . هناك من يسعدهم أن يكونوا أغنياء ، وهناك من يسعدهم أن يكونوا مشهورين . هناك من يسعدهم أن يتولوا أمور البشر ورقاب العباد ، فيدفعون الأمم إلى الحرب والاقتتال . وهناك من يسعدهم أن ينشروا مبادئ الحب والوداعة والسلام . وأنا وجدت سعادتى فى الحب والمحبة ! » . . فهزت سهى رأسها باستخفاف ،وقالت :

« الحب ؟ ! أنا أخاف الحب رغم بحثى المتواصل عنه . يقولون إنه روح الجمال فى هذا العالم . ولكن الحب يبطر العظماء . أتعرف ؟ عندما أجد من يحبنى ويعجب بى، ويحملق فىّ بدهشة وإكبار ، لايعود بإمكانى الالتفات لمواهبى الأصلية التى سببت دهشة ذلك الانسان وإكباره وحبه . أنسى كل ما أنا عليه ولا أذكر إلا حملقة ذلك الإنسان وإعجابه ، وأبدأ فى التفكير هكذا : « لو كان باستطاعتى أن أزيده دهشة ، وأزيده حملقة ، وأزيده حباً ؟ ! » . . وآخذ فى افتعال النبوغ ، أى أننى أبدأ بالتمثيل ، والتمثيل صورة وليس أصلا ، فتأتى العظمة التى أدعيها مشوهة ممجوجة . وأثناء ذلك التمثيل أشعر بأنى أقوم بعمل قذر ، بالتزوير مثلا ، أو بإنجاب لقيط ، أو باختلال فى نظام جسمى ، بفقدان المقدرة على التحكم فى عضلاتى وأعصابى . . كما لو كنت أحاول استخراج ضحكة من أعماقى ، وإذا بى بدلا من استخراج ضحكة ، أستخرج قيئا ! »

ونظرت فى وجهه وتساءلت بخشونة وسخرية جارحة : « سيدى ، اعذر سوء تربيتى ، لأننى بدون تربية كما قلت لك . اعذر فظاظتى ، فنحن أبناء الشوارع ما اعتدنا النفاق ، ولا اللباقة ، ولا اللياقة ! » . . وتأملت وجهه لترى رد فعله ، فلم تجد إلا عينين هادئتين مستوعبتين . وكانت منفعلة وغاضبة ، تلقى بكل ذلك العبء الذى ترزح تحت ثقله

فى وجهه كما لو كانت تتهمه بأنه كان السبب فى كل ما مرت به من معاناة وعذاب . وكان من الواضح أنها تعانى دواراً داخلياً، أو حمى حقيقية . وبدت تهذى وهى تخاطب نفسها أكثر مما تخاطبه ، فى محاولة تلقائية لإفراغ ما تحس به من تخبط ومعاناة، أصبحا خاصية تميز أبناء هذا العصر القاسى — وقد كانت سهى واحدة من أبناء هذا الجيل المعذب ! —

ثم واصلت : « نحن أبناء الفقر لم نعتد سوى القرف ، كالبق ، والقمل ، والسل . . واهتراء الجلد بفعل الدمامل والتقيح ! وهذه أشياء تقرف ذوى الخدود الوردية ، أمثال « بشار» و « فاروق » ، و « إيفيت » ! هؤلاء طبعا لا يسرهم سماع ابنة سكير هبطت عليها الشهرة فجأة ، فجعلتها ترتدى ثياب البرجوازيين والمثقفين . أنيقة ، تلبس الميني ، تمارس الحب بكبرياء ، تطعّم كلامها بمفردات لغة أجنبية ، وتلقبها الصحف بـ « الفنانة » ! والفن فى هذه البلاد تخمة لا يصاب بها سوى الأغنياء ، مثل ابنة الطبيب تلك ! »

وضربت الطاولة الصغيرة أمامها بغضب واستطردت : « كانت ابنة الطبيب تنال علقة ساخنة قبل موعد درس البيانو ، وكنت أنا بكل ما لدى من أحاسيس ومواهب ، أقف هناك خلف الباب الموارب أتلوى ، أتلوى. فأين العدالة ؟ أين العدالة ؟ قل لى أنت . أنت تعرف أكثر منى البقية : ألا يستحق البشر كل ما ينالونه من حروب وويلات ؟ دعهم يقتتلوا . دعهم ينسحقوا ، فهم غربان لا تقتات إلا بالديدان ! هناك بلاد جعلت من المواهب واسطة لبلوغ الجمال ، ونحن نجعل من الجيوب واسطة ! . . أصبح الفن عبداً للناس بدلا من أن يكونوا عبيداً له . فما معنى هذا ؟ وأين الأمل ؟ . . الفن خلق من أجل بلوغ الحرية ، واسطة للجمال والسعادة ، فهو تعويض روحى يهبه القدر المنصف — ولو أنه ليس كذلك فى الغالب — تعويض للبؤساء كيما ينسوا حرمانهم ، كيما ينسوا تعبهم وعبوديتهم . ولكن الناس قلبوا الأوضاع ، فأصبح الفن تخمة بدلا

من أن يكون غذاء . وبدلا من أن يكون سيدا صار مسودا ، وبدلا من أن يصبح هدفا صار واسطة ، وبدلا من أن يصبح دما يغذى الحياة ، أصبح ضغطا فى الدم ! »

* * *

ومدت يدها مفتوحة بدون كلمة ، ففتح علبة السجائر وناولها واحدة وأشعلها لها . ثم عادت تقول بمرارة : « ولكن فجأة ، يبعث القدر بفقيرة مثلى ، لها عقل يبحث ، ولسان لاذع ، وفعال جريئة ، لتقول إن أولئك الأدعياء ليسوا أكثر من ديدان رخوة ، قذفتها بالوعات البطر والرفاهية ، والكبرياء وقصر النظر ! . . أتعرف الآن لم أهرب من بشار وأمثاله ؟ ولم أخاف الحب ؟ لأنه يبطرنى ، فلا أعود كما أنا . . قطة متحفزة يعابثها طفل شقى مدلل . وأنا تلك القطة ، مخالبى متحفزة ، عيونى متحفزة ، أذناى متحفزتان . أنا كتلة تحفز وتحد . وبالتحفز أظل صاحية محملقة لا تفوتنى صغيرة ولا كبيرة . وبالتحدى أنتج ، أنتج ، وأتحداهم . . هل باستطاعة أحدهم اعتصار روحه كما أفعل ؟ هل باستطاعة أحدهم تحسس نواة الخلق والغوص فى أعمق أعماق اللحظة السحرية الخلاقة كما أفعل ؟ . . هل باستطاعة أحدهم أن يفعل مثلى ، يجاهر بما يحس ، يبصق فى وجه الزيف ، ويغنى للجمال ؟ هل يستطيع أحدهم أن يضرب العالم بحذاء عتيق كما أفعل ؟ هل باستطاعة أحدهم — وهذا أهم ما فى الموضوع — أن يكون صادقاً وجريئاً مع نفسه ومع الآخرين ؟ . . لا ! ما من أحد يستطيع ذلك ، أتعرف لماذا ؟ لأنى لست رخوة ، لست غرابا يأكل الديدان . ولست دودة تأكلها الغربان . فأنا شىء آخر . أنا خارقة ، لأننى فنانة ، لأننى خلاقة . وأنا لست زعيما يكتفى بالتصفيق والمديح فحسب ، لأنى لن أنسى سبب ذلك التصفيق أصلا ، ولن أحاول زيادة إعجابهم بى ، لا لأنى لا آبه بهم وبآرائهم فقط ، بل لأنى لا أريد أن أمثل أو أزيف ، لا أريد أن أفقد مقدرتى على التحكم فى عضلاتى فأتقيأ بدلا من أن

أقهقه . وهكذا فأنا أرفض البطر ، والحب بطر ، فأنا أرفض الحب إذن ، وليكن ما يكون ! »

وأطفأت السيجارة بعنف ، ووقفت تتمطى وهى تحاول المشى مترنحة ، ولكنها عادت وهبطت فى أريكتها من جديد ، وأسندت رأسها على ركبتيها المقوستين ، وأمسكت برأسها تشده وتضغطه . وعادت فرفعت رأسها بعد فترة ، وقالت بصوت باك : « ولكن الحب دفء ولذة ، وأنا كإنسان ، كامرأة ، بحاجة للدفء واللذة . وهذا ما يقهرنى : كونى إنسانا بحاجة للدفء واللذة ! »

واستوت فى جلستها وأخذت تتلفت حواليها ، كمن يبحث عن حل لمشكلة يقع تحت طائلتها. وضربت صدرها وحشرجت : « لو كان باستطاعتى سحق هذا الجسد ، لو كان باستطاعتى قتل مادتى ! » . . وأخذت تتلفت حواليها بذهول . . وتنهدت بعمق ، وقالت بيأس : « أعلم أنى لو قتلت جسدى فسأقتل روحى أيضاً ! لو كان باستطاعتى التخلص من قشرتى لكان بالإمكان أن أصبح إلهاً ! » . . وشدت يديها إلى صدرها وهتفت ووجهها يتقلص ويتشنج : « يا للعذاب! الآن ، الآن ، عرفت من أين يأتى الحزن ، فهل عرفت أنت ؟ . . عرفت بأن صراعى إنما هو محاولة فاشلة للوصول إلى الله والتقمص فى شخصه . قد أصل ، ولكن للحظات ، لأن جسدى يشدنى ، قشرتى تقوقعنى ، جذورى فى الأرض تجذبنى . حزنى لم يسببه الفقر والجوع ، لم يسببه الغضب والتعب ، لم يسببه نكران الناس وتحقيرهم . حزنى كان لضياع الإنسان بين الأرض والسماء ! والحزن هو المفاعل المولد للطاقة وللحرارة . فلو كنت سعيدة لما أنتجت ، ولما فكرت ، ولما تحديت ! إذن فالحزن نار مقدسة ، تكوى لتصقل ، وتصهر لتنقى . وهذا هو الثمن ، ثمن مجدى وألوهية ذاتى ، أليس كذلك ؟ قل لى : أليس هذا هو الثمن ؟ »

هز عبد الرحمن رأسه بأسف وقال : « لكنك ما زلت ضائعة ،

فأنت لم تجدى الحل بعد ، وفنك فيه من رائحة النقمة والانتقام ، أكثر مما فيه من حب وسلام . وأنا أختلف معك ، أنا لا أؤمن بنظرية الفن من أجل الفن . أنا أؤمن بأن الفن رسالة ووسيلة ، وأن الفنان مشعل يضىء الدروب المظلمة للمتخبطين والحائرين . وأنت لم تقللى الحيرة فى هذا العالم ، بل زدتها ، وقد منحت المتخبطين تفسيرات فلسفية لتصرفاتهم غير المجدية ، فأين الحل ؟ ابحثى عن الحل أولا ، أو على الأقل ، فلتكن لديك النية لذلك. هذا هو المطلوب منك كفنانة، وكمثقفة ، وكإنسانة! »

أخذت تحملق فى وجهه بعينين زائغتين . وكانت أعماقها تئن بلوعة : « ولكن أين أجد الحل ؟ كيف أجده ؟ أنت تقول إن الحب هو الحل ، وأنا أقول إنه ليس كذلك . تقول إن الفن رسالة ووسيلة ، وأنا أقول إن الفن هدف . أنت تنشد سعادة المجموع ، وأنا لا آبه إلا بنفسى ، فكيف أبحث عن الحل لديك ؟ وأنا لا أثق بك ؟ »

* * *

ونهضت متباطئة ، وقالت بذهول : « فلنستمع إلى شىء من الموسيقى ! » ، واتجهت نحو الجرامفون ، ووضعت الإبرة على الأسطوانة الكبيرة ، فانبعثت أنغام « تشايكوفسكى » رقراقة عذبة ، مغردة . فقد كانت البجعة ما تزال ترف بجناحيها ، والأمير العاشق يدور ويدور ، والأسطوانة تدور . . تدور . . ورأسها يدور . . « عبثا أبحث عن حل لهذا المأزق . إنى أبحث عن الحياة حتى أجدها ، وعندما أجدها أهرب منها ! أخاف أن تبطرنى وتنسينى سر وجودى ومعنى حياتى . وأغوص فى أعماق التساؤلات وأتخبط ، وأقرر أنى ما خلقت للحياة العادية ، وأعرف أنى لو وجدت الحل فسأجد الطريق ، وإذا وجدت الطريق فسأعيش الروتين وسأصبح عادية ، مجرد إنسانة عادية مرت بهذا العالم مرور الكرام دون أن يكون لمرورها أثر أو بصمة . ولكنى ما وجدت لهذا السبب فقط ، كى أعيش كإنسانة عادية تأكل وتشرب وتبحث عن الحب ! ..

وأعود لفلسفتي المريرة — رغم أن مدعي الفن قد شوهوها ! — فلسفتي التي تقول إن « لا خلق إلا عن طريق الألم . . عن طريق الحزن والوحدة ، ففي الحزن حل ، والحل هو الفن ، وهو الإبداع ! »

وصاحت فجأة كمتهم يدافع عن نفسه : « الحزن يجعلني أعيش حالة صراع دائم ، بين صراع الألم من حزني ، واللذة الدفينة التي يولدها الحزن في أعماقي : لذة الانتصار على نفسي . لذة الشعور بأني بطلة ، وأني خارقة ! »

ولم يجبها ، فقد كان يعلم بأن هذا الحديث غير موجه له ! وكانت تذرع القاعة أمامه ، فارعة الطول ، جميلة القوام ، شعرها يتناثر على ظهرها بفوضى ووحشية . خطواتها مترنحة كما لو كانت تقع تحت تأثير منوم أو مخدر ! وخطر بباله أن يسألها : أهي في حالة طبيعية ، ولكنه عاد وصمت واكتفى بمراقبتها .. فلم تلبث أن نظرت إليه ، ثم أشاحت عنه متحدية ، وهي تحدث نفسها . . « يعتقد بأني مجنونة ! آه ، الأبله ! حتى هذا الرجل ، حتى هو كنت أعتقد بأنه أرقاهم ، لكنه واحد منهم ، مجرد رجل . ولكن مالي وله ، فلدي ماهو أهم منه ، فأنا أبحث عن الحقيقة .. أبحث عن الحقيقة . . أغوص أكثر . . أكثر . . وأبحث . أتراني مريضة تتلهى عن ضياعها بتحطيم لعبتها . . وأنا لعبة نفسي ؟ ! أتراني مجنونة في ثياب مفكرة ؟ والجنون ليس تيهاً في الشوارع والأزقة ، ليس شعراً منفوشاً وثياباً مزقتها أظفار الغضب والتمرد على العقل فحسب ، فالجنون أنواع ، فهل ما ينتابني واحد منها ؟ »

وصرخت بعذاب : «من أين أتيت ياحزن ؟ من بعث في طالبك ، ومن استدعاك واستجار بك ؟ » . . فنهض عبد الرحمن وقال ، مشفقاً : « أنت السبب . أنت السبب .. الحزن ما أتاك من تلقاء نفسه !

أنت التى بعثت فى طلبه ، أنت التى استدعيته واستجرت به ! »
فصاحت بعذاب ودموعها تغرق وجهها : « أهكذا يستمر ضياعى وتخبطى وحزنى ! ! حتى متى ؟ قل لى ، حتى متى ؟ » . فقال وهو لا يزال واقفاً : « وكيف أستطيع أن أقنعك ؟ ، ما من أحد يستطيع إقناعك إلا أنت ، فالحل فيك ، فى داخلك ، لكنك ترفضينه ، فكيف أساعد من يرفض مساعدة نفسه ؟ ! » .. فوقفت أمام اللوحة وقالت : « عندما أمسك بريشتى لألون بها قماشة بيضاء ، أرى أن كل ما أقوم به ليس سوى عبث أطفال . فأنا سخيفة ، مغرورة ، تائهة ، ولست سوى واحدة منهم ، واحدة من قطيع الخراف ، والسكين بانتظارى ! أكاد أحس بنصله فوق عنقى . . ومهما تحديت القدر ، فسأظل واحدة منهم ، واحدة من قطيع الخراف ! ومهما ارتفعت فستظل دنيويتى الزائلة تذكرنى بعبثية وجودى ، وبأن كل شىء زائل . . إلا الموت ! . حتى الفن زائل .. حتى الفكر زائل .. حتى الكرة الأرضية بأكملها .. فمن يبقى ؟ من يبقى ؟ وماذا يبقى ؟ ! » .. ووقفت فى وسط القاعة وقد شبكت ذراعيها حول صدرها ، كمن يحاول وقاية نفسه من شر أو هلاك ، وهمست بصوت كالفحيح : « من ينجدنى مما أنا فيه ! من ينجدنى من عقلى ، ومن عذابى ومن جنونى ! بحثت عن معنى ، فما وجدت سوى الفراغ ! »

وهومت بيدها فى الفراغ ، وقالت بذهول : « ماوجدت سوى الفراغ ، فراغ ، فراغ ... وها أنا ذى أطلب مساعدتك ، لكنك مثلهم ضعيف . كلكم ضعفاء ، فكيف يمد الضعيف يد المساعدة ! وكلكم خبثاء ، فكيف يحب الخبيث صالح غيره ! وكلكم جبناء ، فكيف يقوى الجبان على مواجهة الأذى ! كلكم أنانيون ، فكيف يعطى الأنانى ، وهو يفتقد روح العطاء ؟ » . . فتساءل عبد الرحمن بأسف :

« أواثقة أنت بأن هذه التهم لاتمسك أنت أيضاً ؟ »

وراحت تحدث نفسها : « لن يفهم سر حزنى ، ما من أحد فهم تعاستى . ولن يفهموا ما أريد ، فهم يعتقدون أنى إنسانة هوائية غرتها الدنيا ومظاهر الحياة السطحية . وسأظل غريبة عنهم وسيظلون أغراباً ، وأظل وحيدة . . وحيدة . . وحيدة . . ضائعة تبحث عن سر الوجود ومعناه ، وعندما تظن أنها وجدت جواباً ، لسؤالها ، تكتشف أن للجواب سؤالا بحاجة لجواب ! . . للجواب سؤال . . وللسؤال جواب . . وهكذا . . وللحل لغز . . وللغز حل . . وهكذا . . والحب حل للوحدة ، والوحدة حل أبتعد به عن غربة الناس وغرابتهم ، وغربتى وغرابتى . . وعن التذكير بأن كل شيء عبث ، لأن كل شيء زائل . . ولا خلاص غير الموت ! »

## ١٥

وكانت قد قطعت القاعة ذهاباً وإياباً عشرات المرات ، وقد أخذت دموعها تسيل ، وهو ينظر إليها ويدخن . كان يعرف ما بها ، ولكن ما هى الطريقة لإقناعها ؟ ! . . ثم جلست على الأريكة بارتطام ، ونشجت بقلب يتمزق : « حتى الفن زائل يا عبدالرحمن ، حتى الفن زائل. فلم التعب ؟ ومن أجل من ؟ ولماذا ؟ ! » . وطأطأت برأسها وقالت بأسف واعتذار : « اعذرنى . . أنا آسفة ، فإنى أهذى . أعرف هذا . وقد اعتدته ، وقد اعتادنى الناس هكذا . . أنا أعرف فيم تفكر ، تظننى مجنونة ، أليس كذلك ؟ اعترف ، هيا اعترف ! » . . لكنه قال بهدوء :

ـ بالعكس ، فأنت فتاة ذكية ، أنت فنانة أصيلة .

صاحت بتشنج : « فنانة ؟ ياللتعاسة ! حتى الفن زائل ! . . الفن ، معبودنا يا عبد الرحمن ، إلهنا العظيم ، دفء أرواحنا الهائمة ،

خمرة نفوسنا العطشى ، هدانا وملجأنا ومأوانا فى الفراغ والوحشة والتشرد . . حتى الفن زائل ! » . . وأخذت تشهق وتزفر ، ودموعها تنهمر بغزارة !

ومرت فترة صمت كئيب ، كان خلالها يفكر فيما يتعين عليه أن يقول : أيقول لها إن الله رحيم ؟ وإن ضياعها يكمن فى تهربها من الواقع والمسئولية ؟ ستتهمه بسوء النية . أيقول لها إنها متشائمة بدون مبرر ؟ ستتهمه بالسذاجة والقصور . وأخيراً قال بصوت هادئ : « انظرى » ! ومد يديه مبسوطتين أمامها : « أترين فرقاً بين هذه الأصابع ، وأصابع أى موظف صغير فى مصرف أو وزارة ؟ أوحتى بينها وبين أصابع أى عامل كادح ؟ » ولما لم تجبه واصل : « هناك فرق بالطبع ، فأصابع ذاك قد تكون أقوى وأصلب بالتمرس لا بالخلقة ، وأصابعى أرق وأنعم . فهل تكون أصابعه أقوى من أصابعى ؟ قد تكون أصابع العامل أكثر تأثيراً فى الصخر ، لكن أصابعى أكثر تأثيراً فى القلب والفكر والحواس ! باستطاعتك تشبيه أصابعى هذه بأصابع طبيب جراح . والفرق أن هذه تحمل الريشة والقلم ، وتلك تحمل المبضع . المبضع يجرح ، وريشتى وقلمى يفعلان الشىء ذاته ، المبضع يشرح اللحم والجلد والعضل ، أما ريشتى فتشرح العقل والقلب والخيال . قد يكون الألم الذى يحدثه المبضع أحد وآلم ، إلا أنه سطحى ومؤقت . أما جرح ريشتى فباعتقادى أنه أكثر إيلاماً ، لأنه أكثر توغلا ! . . والمبضع يجرح كى يشفى ، وريشتى تجرح كى تشفى . واليد حاملة المبضع تقسو لترحم ، ويدى تفعل الشىء ذاته ، إذن فالفنان طبيب روحى ، جراح يستعمل ريشته وقلمه ليحدد المكان المعطوب ، ليستأصل الورم الخبيث قبل أن ينمو ويتفاقم . ولكى يكون الإنسان فناناً ، عليه

أن يكون مفكراً . فالفن فكر قبل أن يكون مهارة . والفكر هو أرق ما يملكه الإنسان ، لأنه المخطط حين تستعصى الحلول ، وهو المدبر حين تربد المحن ، وهو الهدى حين يعمينا الضلال . . والغريب ، الغريب أن يكون الفنان الواعى ، أى الفنان المفكر ، هو أكثر الناس تخبطاً ، أكثرهم حساسية ، وأكثرهم شقاء . فهو كمن يحمل مصباحاً ينير به كل الدروب إلا دربه ، ويحل كل المعضلات إلا معضلته ، ويقنع كل الأدمغة إلا دماغه ! »

وزفر بتأمل ، ثم قال شارداً : « والفنان الأصيل هو أكثر الناس شقاء ، وهو أكثرهم سعادة ! » . وضحك بمرارة وتساءل : « أليس هذا غريباً وشاذاً ؟ » . ولم تجب ، فعاد يقول بتأمل : « أكثرهم شقاء لأنه أكثرهم تحسساً ليس لآلامه فقط ، بل ولآلام الآخرين ومصائبهم . فالظلم قبر فى نظره ، والكذب رذيلة مرة ، والزيف سجن لايطاق . انه يحس بالأشياء مضاعفة ، مكبرة بمجهر ، وعندما يصيح بألم وغضب ، يتعجب الآخرون ويتساءلون : « لم كل هذا الضجيج ؟ المسألة لا تحتاج لكل هذا العذاب ! ! لماذا يقولون هذا ؟ لأن أحاسيسهم غير مضاعفة ولا مكبرة ، وربما كانت منقوصة ، فى حين أن أحاسيس الفنان غير عادية . ولكن ما العادى وما غير العادى ؟ .. العادى هو ماتمتلكه الغالبية العظمى من الناس ، ما يمتلكه الإنسان العادى . إذن فأحاسيس الناس التى نراها أنا وأنت منقوصة ، هى الأحاسيس العادية . أما أحاسيسنا فهى غير العادية ، لأنها مضاعفة ، ولأنها مكبرة ، فهل يحق لنا أن نفخر ونفاخر بما نملك ، أو نداری مشاعرنا التى تثير سخرية الناس ودهشتهم ، لا لشىء إلا لأنها أحاسيس مضاعفة ؟ هنا يبرز دور الفنان ، فالفنان هو القائد ، ولهذا فإن عليه أن يكون شجاعاً ، يواجه الضعف ويواجه الخطأ ، بل يصرخ فى وجه الخطأ : « هذا

خطأ ! » . وعندما يسخرون ، يردد ثانية وثالثة : « هذا خطأ ! » . وعندما يفتشون عن زلاته وعثراته التافهة ليحاربوه بها — كما يحدث دائماً — ليثبتوا أنه ليس الأقوى وليس الأحسن ، لا ينفك الفنان يردد : « هذا خطأ ، ولن أمتنع عن رؤيته كذلك ولو قلبتم عاليّ سافلا ! »

• • •

وكانت الغيبوبة قد بدأت تتلاشى عن ذهن سهى ، ففتحت عينيها على سعتهما وهى تتلقف كلماته بلهفة .. فى حين واصل هو : « ونحن حين نقرر ، أو بالأحرى حين يقرر التاريخ أن الفنان هو الأقوى ، فلا يعنى هذا أنه معصوم من الخطأ والزلل . أبداً ، فنحن بشر ، لنا أجساد تحتوى الغرائز ، وأفواه تتلهف للمذاق المترف ، ومعدات تتحرق شوقاً للامتلاء . ولنا زوايا مظلمة ، وفى نفوسنا غابات بدائية لم تهذب بعد . تحتوى الخبيث ، وتحتوى الأنانية وحب الظهور ، تحتوى الكثير من الخطأ ، فهل نظل الأقوى رغم هذا ؟ » .. والتفت إليها موجهاً نظراته المستكشفة ، وكانت تتابع حركاته وكلماته ، فقالت وهى ترخى أجفانها بيأس : « لا أدرى ، يخيل إلىّ أحيانا أنى أضعف الناس وأسخفهم ! » . . فقال عبد الرحمن متأملا :

— أتعرفين لماذا يظل الفنان هو الأقوى ؟ لأنه صاحب الضمير الأنظف . فالفنان يخطىء ، والعادى يخطئ ، ولكن ضمير الفنان أقسى على صاحبه من ضمير الفرد العادى . وهكذا يكون عذاب الفنان أشد وأكثر إيلاما . والفرد العادى يمر بالمشاكل والعقد ، ويتألم ويتعذب ، ولكن آلام الفنان تكون أحدّ وأقوى ، لأن حساسيته مضاعفة . والفرد العادى عندما لا يمر بالتعقيد يشعر بالارتياح ، أما الفنان فيهرب من الارتياح قصدا ، خوفاً من أن يؤدى به الارتياح إلى البطر ، فتخفت حساسيته ، ويخفت وهج ضميره ! . . إذن

فهو الباحث قصداً عن الألم ، وحتى لو لم يجده فى طريقه ، فهو يبحث عنه فى طريق الآخرين ، وهكذا دواليك . أترين ؟ إنك لست أول فنان قاسى . هذه سنة الطبيعة ، طبيعة الفنان !

قالت بحسرة : « إذن ، فقد كتب علينا أن نعيش التعاسة المضاعفة ؟ » . قال مبتسماً : « وأن نعيش السعادة المضاعفة أيضاً ، فهناك تلك اللحظات السحرية التى نمر بها ، أنسيت ؟ » قالت ، وعيناها تهيمان فى آفاق بعيدة : «نعم ، هناك ذاك الضياء الذى يغمر العالم بفيض لا ينقطع من النور والجمال » . وأسدلت جفنيها بحسرة : « ولكنه لا يدوم ، فهو سريع الأفول ! » . قال بتفهم : « ولهذا فظل أكثر اشتياقاً إليه ، ولو طالت مدته لاتخذ بعض صفات الروتين ، فيصبح عاديا ، ومملا ! » . قالت بثورة : « لكن لحظات التعاسة أكثر بكثير . أنا لا أسعد بقدر ما أشقى ، ولحظات الحزن أضعاف لحظات السعادة ! » .. فسألها وماذا تريدين إذن ؟ أن تبادلى كل لحظة شقاء بلحظة فرح؟ المسألة عندئذ تصبح مقايضة ، وقد تصبح تجارة ! » . قالت بدهشة : « نعم ، تصبح تجارة . تصبح مادة ! » . قال بعطف : « هل فهمت ؟ » . قالت بشرود : « فهمت . . فهما يحتوى طعم المرارة ! »

تساءل ، وكأنه لم يسمع كلماتها الأخيرة : « وماذا عن بشار ؟ » حملقت فى وجهه بشراسة وصاحت : « أنت قمئ ! » . قال بهدوء وهو يرفع يده بالتحية : « شكراً ! » . صاحت : « لم سألتنى عن ذاك المسخ ؟ لقد كنا فى الأعالى ، وأنت لا تريد إلا أن تهبط بنا إلى أسفل قرار ؟ » . تساءل : « بشار مسخ ؟ » . . « نعم ، وتافه وسخيف ! » . . « وفاروق ؟ » . . « حرباء ملونة ! » . . « وإيفيت ؟ » . . « حمقاء تستحق صفعة ! » . . « وشكرى ؟ » . . « طبل أجوف » ! . . « وسامية ؟ » . . حملقت سهى فى وجه عبد الرحمن

وقالت بتحد : « سأقول لك ، حتى ولو كانت حبيبتك : سامية امرأة مهووسة ، تقتات بالأحلام وتعيش على هامش الواقع ! »

هز عبد الرحمن رأسه وعاد يتساءل : « وسميرة ؟ » فأجابت : « فتاة ذكية ، لكنها كسمكة مجففة ، فهي بدون عواطف ! » . . فسألها : « وأنا » ؟

- سأقول لك ( وقد صممت على اختراق حاجز الزيف والتملق ، وأخذت على عاتقي كشف الخبايا ! ) : أنت أفضلهم ، لكنك مغرور وحاقد . نعم مغرور ، فلن أنسى مواقفك أمام الصحافة وأثناء المحاضرات التي ألقيتها ، لقد كنت تتقمص شخصية الخارق ، أليس هذا مضحكاً ؟ هل تعتقد أنك خارق حقاً ؟ هاها .. ياللسخرية !

وأخذت تقهقه وهي تتلوى بعصبية وجنون ، وهو يتأملها بصبر وهدوء .. ثم واصلت : « إنك مضحك بالفعل .. وحاقد . . يامسكين ، تلك المرأة المهووسة مازالت تركض وراءك مقطوعة الأنفاس لتثبت لك إخلاصها وأمانتها ، وهي بلهاء لا تعرف أن العاطفة مصيرها إلى البرود والزوال ، فقد تنساك غدا ، كما نسيتك في الماضي ، فهي ليست أكثر من خائنة . يالكم من مساكين ، كلكم تثيرون السخرية . . هاهاها ! » . . فهز عبد الرحمن رأسه بحزن : « نعم ، هذا صحيح ، هذا عين الصدق والصواب . كلنا كما ذكرت تماماً ! » . . فقالت بكبرياء : « وها أنت ترى أن أحكامي لم تكن خاطئة ! »

- وأنا أكثر الناس اعترافاً بذكائك ! ولكن حاشا أن تنصبي نفسك إلهة تقرر مصائر البشر ، تبحث عن أخطائهم لتصفعهم بها ، تعريهم لتضحك من تشويههم وضآلتهم . تبرز نقاط ضعفهم لتعيرهم وتزيد من تعقيدهم ومرارتهم وسخطهم . نحن لسنا آلهة يا « سهى » ، ولن ننصب أنفسنا آلهة تقرر مصائر البشر . فأين الديمقراطية إذن ؟ أتفهمين الآن ما تعنيه الديمقراطية ؟ . أنا

أرحم الخاطئ ، لأنى خاطئ أيضاً ، فى أعمق أعماقى أحتوى روح الخطأ ، أقاوم الخطأ ، أقاومه ، أنتصر عليه لحظة وينتصر علىّ أخرى . وقد أكون أقدر الناس على مقاومته . لماذا ؟ لأنى من الأذكياء ، وذكائى خيّر ، أما لماذا كنت ذكياً ، وكيف كنت خيّراً ، فتلك ظروف ، وبيئات ، ومواهب . الظروف تحكمنى ، عاطفتى تحكمنى مهما ادعيت الاستقامة ، معدتى تحكمنى مهما تقشفت ، والناس يحكموننى لأنى منهم ، والمجتمع يحكمنى لأنى حيوان أليف ، وجسدى يحكمنى ، قشرتى تقوقعنى ، جذورى فى الأرض تجذبنى ، ولو كان باستطاعتنا سحق هذا الجسد ، والتخلص من هذه القشرة ، لكان بالإمكان أن نصبح آلهة !

ونظر إليها وابتسم بعطف : « إنك قد كشفت عن تعاستك وإحساسك بالنقص والتفاهة . وتحاولين الهرب من هذا الإحساس بتقمص دور المتفوقة ! » . . فاستدارت بوجهها تخبئ دموعها وخزيها . وإذ ذاك قال بهدوء : « قلت إنك تشعرين أحياناً بأنك أضعف الناس وأسخفهم . وأنك تصارعين قوى لا ترحم ! » . . ولم تجب ، كانت دموعها ماتزال تنهمر ، فقال بهدوء حزين : « الله هو روح الجمال ، روح المحبة ، روح العدالة . وأنا أحب الجمال لأنى ميال للخير ، ميال للحب والعدل والتسامح ، والجمال يشتمل على كل هذه العناصر . . فأنا أحب هذا الجمال وأعبده ، ونظرية روح الجمال المطلق التى أتى الفلاسفة بها تعجبنى وقد تبنيتها ، لا لأنها فكرة مثالية تترفع عن كل ممجوج وتافه فحسب ، وتترفع عن أى تفصيل يثير فى نفسى روح التحدى والتساؤل والتمرد . بل لأن الفكرة تناسبنى ، تقنعنى ، وتريح عقلى وروحى ! . . وأنا أومن بأن الله فىّ ، وفيك ، وفى كل إنسان نظيف . نستطيع أن نكون آلهة نفوسنا ، ولا نستطيع أن ننصب من أنفسنا آلهة تتحكم فى رقاب العباد . وإن كانت الظروف تعاندنا وتعابثنا ، فالذنب ذنب المصادفات ، -

ذئب الجانب المظلم في الإنسان . وهكذا ، فأنا أبعد الناس عن الكفر بالله ، لأني أومن بأنه لا يناقض العدل والجمال والمحبة ، بل إنه روح العدل وروح الجمال وروح المحبة . وكما أن العدل لا ينجب ظلماً ، والجمال لا يلد البشاعة ، والمحبة لا تحث على الكراهية ، فالله لا يقسو ولا يظلم . هذا هو إلهي ، إله نظيف، رحيم ، متسامح ، وكل ماعداه وهم وعار وسذاجة ! »

ومرت فترة كانا يدخنان خلالها في صمت ، ثم تساءل : « وماذا عن بشار ؟ » . ولم تجب ، بل نفضت يدها بلا مبالاة ، فعاد يتساءل : « ماذا عنه ؟ » ، فهمست بضيق : « لقد قلت لك رأيي فيه ! » . ابتسم وتساءل : « مسخ ؟ » . هزت رأسها إيجابا ، فابتسم ثانية وقال : « ونسيت أن أقول لك إننا أنصاف مسوخ كما أننا أنصاف آلهة ، ففيك شيء من المسخ أيضا ! » . فهزت كتفيها وقالت : « ليكن ، ولكني لا أرى مسخيتك بقدر ما أرى مسخيته . أشعر بأنه صغير وتافه ! » . . ثم عادت تهز كتفيها بتبرم ، وقالت : « أنا لا أحبه ! » . حملق في وجهها وقال بدهشة : « كنت أعتقد غير ذلك ! » . قالت ببساطة : « كنت أشتهيه ! » . ابتسم وطأطأ رأسه ولم يعقب ، فقالت بحدة : « نعم كنت أشتهيه، ماذا ، ألا يحق لي أن أشتهيه ؟! » ، وأخذ يرقبها بابتسام ، فصاحت : « ألم تشته امرأة أبداً ؟ ».قال : «ومن ينكر هذا ؟ »

حملقت كمن تذكرت فكرة مفاجئة وتساءلت : « قل لي ، من أي نصف تنبع الشهوة ، من النصف المسخ أم من النصف الإله ؟ أم تراك ستدعي بأن الجنس خطيئة وعار وانحطاط ؟ » . قال بتأمل : « هذا يتوقف على نوع الشهوة ، فإذا اشتهت امرأة رجلا تصفه بالمسخ ، فلا أظن أن شهوتها تنبع من نصفها الإلهي ! » . قالت بظفر : « أترى ؟ هذا ما أردت تفسيره ولم أفلح ، أنا أرفض هذه العلاقة لأنها نابعة من النصف المسخ ! » . تساءل بدهشة : « ومن حثك عليها ؟ أنت اخترت وأنت

رفضت ، لقد تخطيت الكثير فى سبيل هذه العلاقة ، وها هى تنقلب إلى علاقة مسخية ، فهل كانت تستحق كل تلك التضحية ؟ » .

قالت ساخرة : « تقصد أنى تخطيت التقاليد ، أليس كذلك ؟ حسنا ، أنا لا أعبأ بالتقاليد . إلى الجحيم بكل الناس وبكل التقاليد ! » . . هز رأسه وتمتم مرددا كلماتها : « إلى الجحيم بكل الناس وبكل التقاليد! ». قالت مستفهمة : « ألم يعجبك ما قلت ؟ » . قال وبسمة صفراء على شفتيه : « السكوت أفضل ! »

— ولماذا ؟ ألست حرة ؟ ألست ثائرة ؟ أنا لا أعبأ بهم ، أنا حرة !

هز رأسه وتمتم : « وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جئنا ! » . ووقف وعقد كفيه وراء ظهره وقال : « السكوت أفضل ، فلنبق أصدقاء ! »

— هذا يعنى أنك تخفى الكثير ، وهذا يعنى أنك لم تكن جاداًّ فى جدلك ، ولم تكن صادقاً معى ، فمم تخاف ؟ أتخشى غضبى ؟ أتخشى سلاطة لسانى ؟ أتخشى ضياع صداقتنا ؟ مم تخاف ؟ أنا لا أخاف شيئاً ، قل ما تريد ، أرجوك .

— لكنى لا أريد قول أى شىء !

وحملق فى وجهها بسخرية وقال بجفاف : « قلت لى إنى قمئ ، وها أنا ذا أثبت هذا ، فأنا لا أريد لأنك أنت بالذات تريدين ، ألست حرًّا ؟ أنا لا أعبأ بك ولا بما تريدين ! » . . فحدجته بنظرات مستخفة ، فتوقف قبالتها وقال : « وأنا حقود أيضاً ، ولهذا أبقيت تلك الكلمات فى مكان ما داخل صدرى لأقذفها فى وجهك فى الوقت المناسب . وأنا مدع ومحب للظهور ، وأنانى وغيور ومغرور ، أنا خليط من أحط الصفات وأحقرها ، أيعجبك هذا ؟ . . ولكن إذا كنت أنا حقودا ، فأنت حمقاء ، أكثر حمقا من زرافة تجعلها رقبتها الطويلة تنظر إلى الناس من عل ، وهى لا تعرف أن رقبتها الطويلة هذه تنتهى برأس صغير بحجم البرتقالة ! » . صاحت بعنف : « اصمت ، فمن أنت لتهيننى ؟ » . قال

بسخرية : « سيدتى ، أنا لم أقل أكثر مما قلت انت ، ولم أجرؤ أكثر مما جرؤت . أترين يا إلهة الحكمة والصواب ؟ لا أسهل من أن ترمى أحكاماً عشوائية فى وجوه الآخرين ! » . صاحت : « لكنك اعترفت بأن أحكامى صائبة ! »

ـــ وأحكامى أنا صائبة أيضاً . أترين يا رائعة عصرك ؟ أنت لا ترين إلا نفسك . تدورين وتدورين وتدورين ، ولكن فى فلك واحد هو ذاتك . وتنظرين للأشياء من زاوية معينة هى زاويتك أنت فقط !

ـــ وأيكم لا يفعل هذا ؟ على الأقل أنا يحق لى أن أفعل .

ـــ ولماذا ؟ ألأنك من طينة السوبرمان ؟

ـــ أتسخر ؟ ألم نتفق على أن الفنان سوبرمان ، أى خارق ؟

ـــ أتعتقدين حقا بأنك خارقة؟ ها هاها .. يا للسخرية! أنت مضحكة حقا . . أتظنين أنك خارقة ؟

كانت تلك نفس كلماتها ! أليس غريباً كيف نتربص لأخطاء الآخرين ، ونغض الطرف عن أخطائنا ! وكان هذا هو الذى قصد تفسيره ! . . وكانت تقف قبالته تحملق فى وجهه بدهشة ، ورأت منه ازدراء وسخرية واشمئزازا ، وفهمت الدرس جيدا ، فانهارت على الأريكة بارتطام ، وتأوهت بمرارة ، بينما اتجه هو ناحية النافذة يراقب بداية الظلمة فى الخارج . كان المطر مازال ينهمر ، والريح تعوى بصخب ، وداخلها هى أيضا كان يعوى ! . . ولم يلبث أن قال بتأمل حزين :

ـــ إنك لست أول من نقم وسخط ، فقد سبقتك فى ذلك الدرب يا أختاه. ربما مررنا بنفس الظروف ، ربما كانت لنا نفس التجارب مع الفقر والظلم والتشرد ، ربما قاسينا مرارات واحدة ، وربما حملنا كفاءات ونفسيات ومواهب متشابهة .. وقد ظُلمت ، قاسيت الظلم فى شتى صوره ، ظلمت كثيرا وتألمت كثيرا فحقدت كثيرا . كرهت حتى لم يعد فى داخلى مكان لأى شعور آخر ، ونقمت حتى بت كتلة من النقمة والانتقام ؛

كرهت كل الناس ، كل العالم ، كل شيء ، وكفرت بكل شيء !

في يوم بعيد ، قبل خروجنا من فلسطين ، كان والدي مزارعاً في بيارة برتقال لأحد الأغنياء . ابن صاحب البيارة لم يطق تفوقي عليه في سباق الركض فأهانني أمام بقية الطلبة ، فرددت على الإهانة بأحسن منها . شتمني فلعنت والده ، صفعني فأرديته أرضاً ، وعندما عدت في المساء وجدت والدي في انتظاري وفي يده خيزرانة كسرها على أضلعي . وكرهت والدي . وفي يوم آخر ، وجدت أمي بقع الألوان على أرض الغرفة ، جن جنونها ، وأمسكت بأوراقي تمزقها ، وبألواني تسكبها في المرحاض . وكرهت أمي . وفي يوم آخر كرهت إنسانا آخر ، فآخر . ولم يبق واحد إلا كرهته ، وفي النهاية كرهت نفسي . وجاء عام ٤٨ ، فكرهت العرب وكرهت اليهود وكرهت هيئة الأمم والعالم أجمع !

وفي يوم ، وقفت على حافة ذاك الوادي حيث أقطن حاليا ، وكنت مغمورا ومجهولا وفقيرا ، كنت أعمل مدرساً في إحدى القرى ، أذهب صباحاً ، وأعود عصرا إلى ( رام الله ) ، وأنام بعد منتصف الليل حين أكون منهكاً من الوقوف خلف لوحة جديدة . في ذاك اليوم ، وقفت على حافة الوادي ، وتلفت حولي ، كنت وحيدا ، أجلس على صخرة ، تظللني شجرة ، وأصوات العصافير الدورية ترن في قاع الوادي السحيق . كانت السماء محمرة الأفق ، ونسيمات خفيفة تهف على وجهي بحنان أذاب مشاعري . وفكرت فجأة : « أنا بحاجة للحب ، أنا جائع للحب . فمن أحب ؟ ومن سيحبني وأنا مليء بالكراهية والنفور ؟ أنا لا أطيق الناس ولا أعبأ بهم ، فمن سيطيقني ويعبأ بي ؟ »

وأخذت دموعي تسيل على وجهي . كنت أحس بوحدة قاتلة ، وبشوق مريع للحب والحنان . وعند ما عدت للبيت عانقت أمي لأول مرة منذ سنوات طويلة . وحملقت هي في وجهي بدهشة . وعندما تأملتها وجدتها لا أكثر من امرأة مسكينة جار عليها الزمن ، وشققت يديها آثار

المعارك اليومية . وسخرت من نفسي ، فكيف كنت أطلب التفهم والتقدير من امرأة جاهلة عاشت البؤس وعاصرت التخلف؟! ونظرت فى وجه أبى ، وكان يركع على سجادة الصلاة يبسمل ويتمتم ، كان فى وجهه ما يرمز إلى العبودية والخضوع ، فقد كان عبداً لربه ولصاحب عمله ولوكالة الغوث . وقد عاملنى معاملة العبد ، أى كما يعامل نفسه ، فكيف ألومه ؟ والناس ، كل واحد منهم له حكاية وله عذر ، فكيف أكرههم؟ كيف!!

ومنذ ذلك اليوم أصبحت أخطاء الناس أقل إيلاما لمشاعرى . لماذا ؟ لأنى أتلقاها بقلب المحب ، وقلب المحب ملىء بالرحمة والشفقة والتسامح ، كقلب الأم ، كقلب الله ! . . وأنا أعترف بأن الأمر لم يكن سهلا ، ولكن كل شيء ممكن إذا توفرت الإرادة وتوفر الإخلاص . هذا هو الجمال ، هذا هو الكمال ، هذه هى العدالة . إن مجرد ادعائى البحث عن الحل دون النظر فى داخلى أولا ، يعنى استعراضاً زائفاً لإيمان لا أحس به . أترين أين تكمن ألوهية الإنسان ؟ المسألة تحتاج للفكرة ، والفكرة بحاجة للتطبيق ، وإلا ما نفع الجمال بدون تطبيق ؟ يكون جمالا ضائعاً فى الهواء ، وربما لا يكون . لأنه لا ينعكس ولا يتبلور . . » .

* * *

والتفت إليها ، رآها تحدق فى وجهه الأليف مبهورة الأنفاس . . وهتفت بدون وعى : « أنت رائع ، لم لم أجدك منذ البداية ؟ » . وتقلص وجهها وهى ترى سامية تدخل القاعة وبصحبتها سميرة . وارتفع صوت سامية العميق بفرح : « عبدالرحمن ، كنت أعلم أنك قادم . . » . وقالت سميرة بلهفة : « حمدا لله ، فسيتمكن « ربيع » من رؤيتك ! »

— ربيع . ؟

— نعم ، ابن عمى ، خطيبى ، فهو قادم بعد أيام ، فى أوائل ( نيسان ) .

تساءل ضاحكاً : « يبدو أنك مغرمة به ! » . قالت وهى تشد يديها إلى صدرها : « أعبده » ! ، فهز رأسه وتساءل : « هكذا ! وكيف

يدعون أنك سمكة مجففة ؟ » ، والتفت إلى « سهى » وسألها :

— ألا تريْنها قد ازدادت جمالا ؟ يخيل إلى أن الحب قد جملها . فبقدر ما تنطوى على حب ، يزدهر جمالها . أليس كذلك ؟

## ١٦

فى صبيحة يوم الجمعة ، حضرت سميرة للمكتبة برفقة شاب طويل القامة ، دقيق الأطراف ، بالغ النحافة . وقفا فى الحديقة فترة طويلة ، تمشيا بين أحواض « البانسيه » والبنفسج ، وواصلا السير حتى بلغا آخر الحديقة حيث السور الذى يحيط بالمكتبة كلها . كانت لسميرة قصة طويلة مع « ربيع » . أحبته كثيرا ، وساعدته كثيرا ، وانتظرته أكثر . عندما تخرج فى جامعة القاهرة قبل أربع سنوات ، وقع فى حيرة من أمره ، فإما أن يفتتح عيادة صغيرة فى القرية الخضراء القريبة من ( رام الله ) وبذلك تتاح له الفرصة للزواج من ابنة عمه ، وإما أن يقبل تلك المنحة الهزيلة التى قدمتها إحدى جامعات إنجلترا للطلبة الفلسطينيين المتفوقين والتى يحق له بواسطتها الالتحاق بالجامعة مجاناً . ولكن كانت هناك مشكلة السكن والمصاريف اليومية كالمأكل والملبس وبعض اللوازم الضرورية. وربما كانت هناك كتب باهظة الثمن ، وملفات وأدوات وما إلى ذلك. وفى يوم صارح ابنة عمه برفضه لتلك المنحة التى ستعقد مستقبله أكثر مما تسهله ، وقد كانت فى صوته نبرة حزينة متحسرة . وبدا واضحاً فى كلامه وتعبيرات وجهه أنه يتمنى لو كانت المنحة كاملة وتغطى كل نفقات إقامته فى إنجلترا . وكان الموقف مثيرا للعجب والدهشة معاً ، فقد كانا ينتظران تخرجه بفارغ الصبر واللهفة ليتزوجا ، وليحققا بعض ما حلما به ، وها هو الآن متلهف على التخصص أكثر من لهفته على الزواج ، فهل كان حبه لها أمرا مشكوكاً فيه ، أم أن حبه للعلم غلب حبه لها ؟ هذا ما تساءلت عنه سميرة ، ولكنها لم تصرح بتشككها وحيرتها !

أما كيف ابتدأت علاقته بها ، فقد كان ذلك فى الصيف الذى سبق السنة الأخيرة من دراسته للطب . جاء لزيارتهم ذات مساء ، فاستضافوه لبضعة أيام ، والأيام امتدت لأسبوعين كاملين . وبما أن ابن عمه المدعو « طالب » كان متغيبا عن البيت باستمرار بسبب عمله فى شركة الأخشاب التجارية ، فقد كانت سميرة تقوم بدور المضيفة والمرشدة معاً . كانت تأخذه وتعرفه على الأماكن والأشخاص ، ويتحدثان فى الأمور السياسية ، ويقرءان الصحف ويناقشان الكتب والأفكار ، وأحياناً يخرجان إلى الحقول القريبة ، يجلسان على صخور الهضبة المطلة على بيادر القمح المحصود ، وعن بعد تغطى المساحات صفرة القمح المخملية . وفى أماكن أخرى حيث ابتدأ الحصاد ، كانت تظهر بقايا القش والتبن كالحة اللون ، وتبدو الأرض بلون كالح أجرد كرأس هرم داهمه الصلع فجأة . أما حيث عمل المحراث بهمّة لقلب الأرض وما عليها من أعشاب وبقايا تصلح لأن تكون سمادا مغذياً حين تختزنه الأرض فى جوفها ، فكانت التربة الحمراء الغنية تبدو كسجادة عجمية لها لون الحناء المجبولة بالعنبر .

وفى إحدى الأمسيات مشت معه فى مشوار صامت طويل . كانت الشمس تنحدر فى الأفق البعيد نحو المغيب ، والنسائم الصيفية تهفهف شعرها القصير الأملس ، بينما كسا وجهها الصبيانى تعبير ناعم حساس . كانت ممن يتذوقون جمال الطبيعة بعمق ، وممن يؤمنون بالحب ، وقد كانت مفعمة القلب بحب عميق دارته طويلا ، ولولا كرم الظروف لظل حبها موءودا مدة طويلة ، وربما إلى الأبد ، إذ أنها لم تكن تجيد أساليب جذب انتباه أى شاب ، مهما بلغ تعلقها به ومهما أحست تجاهه من عواطف صادقة وحادة . ورغم أنها عاطفية جدا ، إلا أن شكلها لا يوحى إلا بأجواء العلم والسياسة . فقد كانت طموحاً فى مجال العلم ، وممن ترتاب فيهن المخابرات ، وتضعهن تحت مراقبة مستمرة !

فى مساء ذاك اليوم ، أمسك بيدها وهما عائدان مع بداية انسدال

الليل على الحقول ، وقال لها بصوت يقطر إحساساً وحناناً، بأنه يحبها، وأنه معجب بها ، وإنها فتاة ناضجة العقل والتفكير ، وهو يحب الفتيات ذوات العقول الذكية الرصينة . وفاتح والدها فى الموضوع ، وبالطبع قوبل الأمر بالترحاب ، وقرئت الفاتحة وكتب الكتاب فى نفس الأسبوع .
وكانت الخطة أن يتزوجا بعد تخرجه فى السنة التالية ، وتساعده هى بما ادخرته طوال مدة عملها ليفتتح عيادة صغيرة فى القرية ، وربما أخذ الله بيده وتحسنت الأمور فيكون باستطاعته افتتاح عيادة فى ( رام الله ) ، أو يذهب للتخصص فى إحدى جامعات أوربا ويعود ليعمل فى أحد المستشفيات الضخمة فى القدس كإخصائى له قيمته . وعند ما عاد من القاهرة حاملا شهادته بامتياز، وأبلغها موضوع المنحة ، ورأت بعينيها الذكيتين مبلغ تشوقه وحسرته ، أبلغته بقلب مخلص ونوايا صادقة أنها على استعداد لمساعدته فيما ينقصه من مال ، فهناك هو المبلغ الذى ادخرته من عملها فى انتظاره ، كما أنها لن تكف عن ادخار مبلغ شهرى ثابت ليكون تحت تصرفه عند الطلب . ورفض فى البداية هذه التضحية بنفس أبية ، ولو قال لها يومئذ إنه متلهف على الزواج منها أكثر من لهفته على التخصص لانتهى الموضوع ونفذا المخطط القديم . لكن رفضه ذاك كان يحمل معنى آخر ، إذ أنه رأى فى مساعدتها له نوعاً من المعروف الذى هو فى غنى عنه ، فمن غير اللائق أن يمد يده ويأخذ منها تلك المبالغ وهو ما زال خاطباً وليس زوجاً ، كما أن والدته حذرته من الذهاب إلى أوربا قبل الزواج من ابنة عمه ، فقد يحدث مالا تحمد عقباه فيحب أجنبية تسلب عقله وماله ، فتنسيه بلاده وابنة عمه . وتحت إلحاح ابنة عمه المحبة الذكية قرر قبول المساعدة ، وسافر على أمل أن يعمل فى أحد المستشفيات هناك فلا يضطر لاقتراض مبلغ كبير منها ، لكنه وجد مستشفيات إنجلترا تختلف عن معظم جامعات أوربا ، إذ أن طريقة التخصص تتم عن طريق محاضرات ودراسات نظرية ، فلا يجد الطبيب

مجالا لممارسة المهنة إلا بعد التخرج نهائيا ، وهكذا استمر يبعث فى طلب النقود ، واستمرت هى فى إرسالها !

* * *

وعندما دخلت « دوروثى » حياته ، إنما كان يقصد إلا ادخار بعض التجارب فى ميدان النساء ، فسدت عنده فراغاً كبيراً كان يعانى منه . . . ولم يتوقف الأمر عند ذاك الحد ، إذ أن كل يوم مر على علاقته بدوروثى زاد من تعلقه بها ، ووقوعه فى أسر عواطفها الحارة ، على عكس ما كان يتوهمه عن فتيات البلاد الأوربية الباردة . وزاد من خضوعه لعبودية هذه العلاقة أن الفتاة كانت متحررة ، تملك التصرف فى حياتها ووقتها وظروفها كما تحب ، ولم تفرض عليه مقابل استمتاعه بصحبتها أى ثمن أو جزاء . . ولا طالبته بالزواج ! . . فاستمرأ هو هذا المورد السهل ، وأدمن هذه العلاقة التى تعمقت بمرور الأيام ، حتى بات يجهد ذهنه للبحث عن مخرج من حيرته بين الفتاتين . وفى البداية كان يكتب إلى ابنة عمه باستمرار ، لكنه مع ازدياد تعلقه بدوروثى قلت رسائله ، وكم كان يتمنى لو أنه ما كان مديناً لها بتلك المبالغ وتلك الخطبة ، إذن لكان من السهل التخلص منها ، أو على الأقل لمنح فترة أطول للتفكير والتحقق من عواطفه ومشاعره . وعندما تأهب للسفر إلى وطنه فى أجازة الصيف ، أحس بروحه تفارقه ، وبكى على صدر دوروثى كطفل ينتزع من حضن أمه ، وناما فى الليلة الأخيرة كل منهما بين ذراعى الآخر ، وقد بلل الدمع وجهيهما ووسادتهما . ووعدها بأن يفعل المستحيل للخلاص من ابنة عمه ومن ديونها ومن خطبتها ، وها هى ذى تنتظره الآن ، تنتظر منه أن يبعث فى طلبها ، أو أن يرجع إليها ويعيش فى بلادها ، أو على الأقل أن يبعث خبراً يقول فيه إنه قد بات حراً ! .

وعندما اجتمع الأقارب فى دار العائلة لاستقباله ، كان عمه « أبوطالب » هناك ، فتلقاه بصدر مفتوح وآمال شاهقة . وربت على ظهره بفخر واعتزاز ، وقال له ما معناه إنه لم يبق إلا أن يتم التوفيق الذى

منّ الله به عليه ويتزوج ، وينجب أطفالا . . وقال له ابن عمه طالب بلهفة ، إن سميرة تنتظره على أحر من الجمر ، وإنها كانت تود لو جاءت معهما ، لولا علمها بأن الدار ستكون مكتظة بالمستقبلين والزوار ، ولكنها ستنتظره فى صباح الغد ، فالغد يوم جمعة ، وهو يوم عطلة سميرة الأسبوعية . وفى الغد خرج الجميع لاستقباله منذ وصلت سيارة الأجرة التى أقلته حتى درجات الحديقة ، وعندما دخلت سميرة غرفة الجلوس حيث أجلسوه والتفوا حوله ، أصابته رجفة وأحس بدماء الخجل تكتسح وجهه. وصافحته بحرارة ، وأخذت تتفحصه بنظرات ضاحكة مستطلعة ، فادعى الخجل والتهذيب ليخفى بروده وجفافه ، حتى مر الموقف بسلام.

وعندما سألته إذا كان يحب الخروج للنزهة أو زيارة بعض الأماكن التى اشتاق إليها ، طلب منها أخذه لمكان هادئ بعيد عن ضجيج الأهل والأصدقاء ، لعله يجد هناك فرصة مناسبة لإطلاعها على الموقف ، وقد يستطيع إيجاد حل لهذا المأزق ، وقد تتفهم موقفه فتريحه من تلك الخطبة المفروضة ! . . وحين جلسا أخرج من جيبه علبة سجائر أجنبية وقدم لسميرة واحدة ، رفضتها باعتذار وابتسام . وكانت عيناها الذكيتان تتفحصان وجهه وثيابه وحركاته . لكم تغير ! ! لكم يبدو هزيلا وشاحبا ! وجبهته مقطبة مغضنة ، ونفثات الدخان كثيفة وثقيلة ، ونظراته ضعيفة وتائهة . والتقت نظراتهما ، فابتسم بتكلف فى عينيها الضاحكتين المستطلعتين ، وقال مداريا حرجه : « كيف حالك ؟ » . فأغمضت عينيها بحركة سريعة وفتحتهما كمن تريد قول أشياء كثيرة بحركة واحدة . وامتص نفساً طويلا من السيجارة ، فقد كان فى حركتها تفاؤل أشفق أن يزجره ! . . كانت فرحة به ! . . وقالت بصوت مرتعش من أثر اللهفة : « لم تكتب كثيرا فى الفترة الأخيرة ! » ، وابتسمت . فتأمل ابتسامتها ولهث ، وقال بغموض : « كانت الدراسة شاقة فى الفترة الأخيرة » ورأى أن واجبه أن يضيف كلمات مجاملة ، فقال بسرعة : « قلة الكتابة

لا تعني النسيان ! » . قالت بلهفة : « أعرف ، وقد عذرتك . » .قال بصوت مرهق : « أحس بالتعب ، وبالصداع . » . . فقالت بلهفة : « ماذا بك ؟ » . ورآها فرصة مناسبة للهرب من حرجه ، فقال وهو يتحسس جبهته : « لقد أصبت بمرض شديد في الآونة الأخيرة » . قالت بانزعاج : « بم أصبت ؟ » . قال باستسلام : « كبدى متعب ، يرقان ، وأنيميا ، والتهاب اللوز المعهود ! » ورأى نظراتها الجزعة ، فضحك وقال مستهينا : « لا شيء يستحق الخوف والجزع . » . فطأطأت رأسها وابتسمت وقالت : « جو هذه البلاد سيعيد إليك لونك وحيويتك» ، وأمسكت بيده وقالت ببساطة ومرح : « تعال أعرفك بأصدقائي ، وسأريك نادينا الجديد . » . ووجدها فرصة مناسبة للهرب من هذا الجو الحرج المشحون ، فرحب بالفكرة . . ومشى معها على الممر المعشوشب المبلل . كانت أحواض « البانسيه » بعيونها المخملية وأوراقها الخضراء تضحك بلهفة لشمس أبريل ( نيسان ) الجميلة ، وقد انفتحت بعض الزهيرات على سعتها كاشفة للعالم ألواناً تغرق الإنسان بموجات دفء لايحاكيها إلا دفء الطبيعة وجمالها. وعبثت نسمة طرية بسيقان النرجس وتساقطت بضع قطرات من كؤوس الزهر بصمت وخشوع . ورفعت سميرة رأسها إلى أعلى ، ورأت أغصان الخشخاش تحمل أفواجاً من النوار الأبيض . ومن خلال الأوراق الخضراء اللامعة بعد اغتسال ، ظهرت السماء صافية شديدة الزرقة ، والشمس متوهجة الشعاع . . فأغمضت سميرة عينيها ووقفت لاهثة تحت عمود من النور الدافئ وتمتمت بقلب أفعمته السعادة وخدره الجمال : « ما أجمل الدنيا ! » . ومنعها خجلها عن التعبير عن كل ما أحست به من سعادة وفرح ، فقد كانت تود لو قالت إنها اليوم ، واليوم بالذات ، ترى ألوان « البانسيه » أكثر جمالا ، ورائحة زهر الخشخاش أكثر نفاذا ، وسيقان النرجس أكثر رشاقة ، والسماء أكثر تألقاً ، لا لأن ( آذار ) الماضي كان أبخل من

أن يمن على الوجود بأيام مشرقة كهذه ، بل لأن وجوده هو بالذات كان سر الجمال وسر الربيع :

وابتسمت وهي تفكر : . « لقد جاء « ربيع » ليذكرنى بالربيع ! ». وعادت تتمتم بوله وهي تضم كفيها النحيلين إلى صدرها : « ما أجمل الدنيا ! » . وتمتم ربيع وهو يتأمل وجهها الدقيق الأسمر ورموشها الكثيفة الطويلة ، وحاجبيها الطبيعيين : « عندما تركت إنجلترا ، كان الثلج ما زال يغطى الشوارع ! » . . ضحكت وقالت بفخر ساذج : « لترى الفرق بين هذه البلاد وتلك ؟ » ، فزفر وقال ، متشاغلا عنها بالنظر إلى زهرة بانسيه قطفها وأخذ يتأملها : « إنجلترا أيضا جميلة ، وقد أحببتها! ». سألته ضاحكة : « أجمل من بلدك ؟ » . هز رأسه وقال : « لكل بلاد ما يميزها ، ولكن . . » ، ولم يكمل . . كانت « دوروثى » هى أهم ما يميز إنجلترا ، وكان يفكر فيها بإلحاح مؤلم . وابتلع زفرة حادة كاد يطلقها صدره المفعم ، وأحس بالخجل من ابنة عمه المخلصة اللطيفة ، ولكى يدارى إحساسه بالحرج والذنب ، طبع ابتسامة على وجهه وقال وهو يمد يده بالزهرة التى يحملها : « أتقبلين هذه ؟ »

نظرت إليه برقة ونعومة . كان إحساسها بحبه يطغى على كل ذرة فى كيانها ، وكانت تود لو تلقى بنفسها بين ذراعيه وتقبل جبينه المتعب ووجهه الشاحب وأعلى عنقه ، حيث تكمن لوزتاه العنيدتان ، وأن تقول له من أعمق أعماقها : « سلامتك .. ليت المرض أصابنى أنا بدلا منك . » ولكنها لم تفعل شيئاً سوى أن مدت يدها والتقطت الزهرة بخشوع وقالت : « سأحفظها فى أغلى كتاب عندى ، سأحفظها ما حييت ! » . واحمر وجهه تحت وطأة نظراتها الصافية الواثقة . ورأى رعشة فى شفتيها ، وموجة من الوله تجتاح عينيها الفاحمتين . ولم يدر ما يقول . وبدون تفكير ، امتدت يده وأمسكت بيدها تستنجد بها من وطأة إحساسه بالذنب ، وأحست هى بالضغطة المستنجدة تغمرها بكل الحب الذى فى

العالم ، فتعلقت يداها الاثنتان بيده الباردة الوجلة لتمنحاها الدفء والحنان . وقال وهو يدارى حرجه : « دعينا ندخل »

## ١٧

كانت القاعة دافئة ، رغم آن الجو مازال يحتوى بعض النسائم الباردة فى الخارج ، وفى الظل تكون البرودة أثقل وطأة بفعل الرطوبة . وأعطاه الدفء إحساساً مؤقتاً بالارتياح ، فأخذ يتلفت حواليه مستكشفاً المكان ، بينما كانت سميرة تقص عليه حكاية صاحبة المكان وأختها ، والنادى ، والمعرض . . . إلخ . وكانت لوحة « لحظة حب » معلقة على الجدار الواسع فى مواجهة المكتب الزجاجى ، حيث تجلس سامية منشغلة عن العالم بأوراقها ، وبعبدالرحمن الذى كان يجلس قبالتها يتكلم ويتكلم ، وهى تصغى وتدخن . وقالت سميرة باهتمام : « أترى ذلك الرجل صاحب الشعر الفضى الذى يكلم السيدة فى ذاك المكتب الزجاجى ؟ إنه عبد الرحمن الميثلونى ، الرسام الشهير ، هل سمعت عنه ؟ » . نظر ربيع عبر الزجاج متأملاً ذاك الرجل الأشيب بنظارته الأنيقة وقال : « هذا الاسم ليس غريباً عن أذنى » . . . وقالت سميرة بحماسة : « إنه فنان شهير ، وهو إنسان رائع ، سأعرفك به يوماً » . . . ولم يبد الاهتمام على وجه ربيع . كان يحس بأنه لا يعبأ بعبد الرحمن ولا بصاحبة المكان ولا بالنادى الجديد . فهذه الأجواء لا تهمه فى كثير ولا قليل . والحقيقة أنه بات يحس أنه فى مكان غير مكانه ، وفى بلد غير بلده ، وأنه غريب فى جو قاحل كئيب . فتأمل اللوحة الفخمة بدون حماسة ، وقال : « كان ذلك فيما مضى ، عندما كانت تستوقف أنفاسى لوحة أو مقالة ، أما الآن فما من شىء يسترعى انتباهى أكثر من مجلة طبية ! » . وتمتم مدعياً القلق : « آه ، لقد تذكرت أنى لم أقرأ مجلة طبية منذ أكثر من أسبوع ! » ، وتلفت حواليه وتساءل : ما هذه الكتب ؟ أى « المواضيع تطرق ؟ » . ومشى نحو الرفوف وأخذ

يقاب الكتب باهتمام مبالغ فيه . ورن صوت إيفيت محييًا : « هالو سميرة ! » .

التفتت سميرة فرأت « إيفيت» قادمة وقد حملت فى يدها كتابًا مجلداً بورق بنى ، وارتسمت علامة استفهام على وجه إيفيت ، فقالت سميرة هامسة والبهجة تغمر ملامحها وحركاتها : « هذا ابن عمى ربيع . . . خطيبي . » ، فأطلقت إيفيت آهة طويلة مندهشة : « ماذا ؟ ! » ، وأخذت تتفحص الشاب الطويل المشغول بتقليب الكتب . ثم دنت من أذن سميرة وقالت بانفعال : « إنه وسيم جداً رغم نحافته ، بضعة كيلوات ويصبح فى رشاقة « روك هدسون » ! وأخذت تتفحصه بدقة ، ثم قالت وهى تعض شفتهاالسفلى بأسنانها : « الشعر الأملس يأخذ عقلى ، انظرى إلى نعومة شعره وتهدله! لعنة الله على حلاقى « شكوكو » . فبالرغم من كل وعوده ما زال شعرى يحتفظ بموجاته المقيتة ! » .

قالت سميرة مجاملة : « لكن شعرك جميل يا إيفيت ، إن شكوكو يفسده أكثر مما يجمله » . ولكن إيفيت لم تكن مصغية إلى ما قالته سميرة ، إذ كانت تتفحص الشاب بدقة ، وتنهدت : « إه ، كم أنت محظوظة يا سميرة ، فخطيبك رشيق القوام ، ولا بد أنه يجيد أحدث الرقصات وأظرفها ! » ، فضحكت سميرة باستخفاف ، وقالت بفخر : « ربيع لا يرقص ! » . فتحت إيفيت عينيها بعجب وتساءلت : «ماذا ؟ لا يرقص؟ ماذا يفعل إذن ؟ » . قهقهت سميرة وهى تخبئ فمها وراء كفها وقالت : « ربيع كان مضطهداً سياسيا ، وقد أدخل الزنزانة مرة ، ولكن ليس لفترة طويلة » ، وهمست بجد : « ربيع رجل متزن ، لا يعبأ بالرقص ، ولا بنعومة شعره ! » . . . فرسمت إيفيت على وجهها نظرة ساخرة وقالت : « فهمت » ، واوت شفتيهابسخرية . . . ثم عادت تتأمل ساقيه الطويلتين وقالت : « أراهنك يا سميرة أن ابن عمك ليس كما تقولين ! » . فابتسمت سميرة وقالت متكلفة الدهشة : « غريب ! ما كنت أعلم أنك تعرفينه أكثر منى ! » .

قالت إيفيت وهى تتأمل الحذاء الحديث وسيقان البنطلون الضيقة جداً : « هذا الحذاء لا يدل إلا على ذوق مرهف يراعى آخر صيحات الأناقة . انظرى إلى أرجل بنطلونه كم هى ضيقة ! أعتقد أن بنطلونه يشكل « زنزانة » حقيقية بالفعل ! » وأخذت تضحك وراء كفها ، وقالت فجأة : « كم سيموت فاروق كمداً عندما يرى حذاء خطيبك ! وعلى فكرة ، أتراهنين أن ابن عمك يجيد الرقص » ؟ . قالت سميرة مدافعة : « ربيع كان فى إنجلترا » ، تساءلت إيفيت : « وماذا كان يفعل فى إنجلترا ؟ » ، قالت سميرة بجد : « كان يتخصص فى طب الأطفال . » ، قالت إيفيت لتغيظها : « آه ، ظننته كان يرقص ! » ، وشدتها من يدها وقالت : « اسمعى يا بنت ، متى تصبحين فتاة مودرن ؟ ألن تكفى عن الانشغال بالمتاعب ؟ وماذا لو أجاد الرجل الرقص ؟ هه ؟ هل ينقص هذا من رجولته وفحولته ؟ الرقص رياضة جميلة ، ووسيلة راقية لاستعراض رشاقة الإنسان وجمال قوامه . انظرى فاروق ، ألم تعجبى به حين راقصنا فى ليالى المعرض ؟ أم أنك نسيت ذلك ؟ ثم إنك أنت بالذات ترقصين ! » . قالت سميرة بامتعاض : لكنى « لا أجيد الرقص . » ، قالت إيفيت ضاحكة : « بالفعل ، فأنت تدبدبين ولا ترقصين ، هى هه » . وأخذت سميره تشاركها الضحك ، وعندما توقفتا سألتها سميرة : « أرى أنك تتثقفين ، ماذا تقرأين هذه الأيام ؟» وبحركة سريعة ، أخفت إيفيت الكتاب وراء ظهرها وقالت : « هذا كتاب لا تقرأه هاويات المتاعب أمثالك ، دعك منه ! » . . . ورأت سميرة بفطنتها الحركة السريعة ، فأمسكت ذراعى إيفيت وسحبتهما من وراء ظهرها وقالت : « دعينى أر ما هذا الكتاب . » ، وحاولت إيفيت التملص وهى تقول : « لا ، لا . . . دعى هذا الكتاب . . . دعيه . . . اتركينى ، ستمزقينه ! » ولكن يد سميرة كانت قد أطبقت على الكتاب وفتحته ، وقالت وهى تهز رأسها :

ـــ ها ، فهمت : « عشيق الليدى تشاترلى » . من أين لك به ؟!

طفرت الحمرة إلى وجنتى إيفيت وقالت: « وجدته هناك ، فى ذلك الرف. والآن هاته . » ، قالت سميرة لتغيظها : « لن أعطيه لك ! » . قالت إيفيت بحرارة: « أعطنيه وكفى ثقل دم ، عندما أنتهى منه سأعطيه لك . » ، فناولتها سميرة الكتاب قائلة : « لدى الكثير مما يستحق القراءة أكثر من هذا الكتاب ! » . تساءلت إيفيت: « ولم السخرية ! أتظنينه كتاباً خليعاً ؟ إنه كتاب رائع وقيم . إنه إحدى الروائع الأدبية ، أم تراك تفكرين بعقلية الرجعيين ! ثم إن مؤلفه « د . هـ . لورنس » كان فيلسوفاً فذاً ، خرج للعالم بأحدث النظريات وأروعها ، لقد سبق فرويد فى علم التحليل الجنسى ، أتظنين أن فرويد نفسه لم يتأثر به ويسرق عنه أفكاره ؟ د . هـ . لورنس يا آنستى هو أول من قال بأن الجنس هو جذر الإنسان ومصدر كل رد فعل يصدر عنه ! » . . . ففتحت سميرة عينيها وهى تصغى بعجب لحديثة الثقافة هذه وتساءلت: « إش ، إش ، من أين لك هذا ؟ امدى علمى أنك لا تتابعين إلا السينما وآخر زيجات النجوم وأحدث تسريحات إليزابث تيلور ، فما كل هذا ! ! » . . . كسا الجد وجه إيفيت وقالت وهى تلوى فمها نحو خدها الأيمن : « أكثير على أن أخرج عن دائرة المنزليات ؟ كان ذلك فيما مضى حين كنت لا أفقه فى العالم شيئاً ، أما الآن فقد فتحت عينى لأجد معلوماتى لا تساوى حزمة من الفجل الذابل ! » . . . وأطلقت تنهيدة قصيرة ، ثم قالت بامتعاض :

ــ يحب الرجل الشرقى إبقاء زوجته متخلفة الذهن والمفاهيم ، ليظل هو المدبر وهو المفكر ! لا يا آنستى . . . من الآن فصاعداً سأقرأ « د . هـ . لورنس » ، و « مورافيا » وهلم جراً .

.. وكانت سميرة تراقبها والبسمة تغطى وجهها ، وقالت : « أتريدين نصيحتى ؟ لا تقرئى الكتب المثيرة ، فهى ليست لنا ! » . قالت إيفيت بعجب : « ماذا تقصدين بـ « ليست لنا » هذه ؟ » . قالت سميرة بجد: « لنا نحن نساء الشرق ! » . تساءلت إيفيت بانزعاج : « ولم يا آنستى ؟

ماذا بنا نحن نساء الشرق ، وماذا ينقصنا ؟ » . . . فشدت سميرة ذراع إيفيت وانتحت بها جانباً منزوياً وقالت : « سأكون صريحة معك : هذه الكتب لن تزيدك إلا حسرة ونقمة ، وستفتح عينيك على ما ينقصك من متع وملاذ ! » . . . وعلت الحمرة وجهها وهى تستطرد بجدية : « أعرف واحدة تزوجت زيجة مرسومة ككل زيجات هذه البلاد ، وقد صارحتنى بأن حياتها قد باتت جحيماً منذ بدأت قراءة القصص الحسية المثيرة . أتعرفين لماذا ؟ لأنها عرفت أن ذلك الشعور البارد اللزج الذى يصيبها كلما اقترب منها زوجها ليس إحساس المرأة الطبيعي تجاه رجل تشتهيه وتحبه ! وأخذت تقارن بين ما تقرأ وبين ما تناله ، فكادت تصاب بالانهيار والتدهور . ولقد مرت بفترة مريرة أصبحت أحاسيسها فيها أسرع اشتعالا من الغاز نفسه ، وأصبحت نظرتها للرجال أقل صفاء وإخوة . أصبحت تبحث فيهم عن ذلك البطل الذى يستطيع إيقاظ مشاعرها وخصوبتها ، أفهمت ؟ » .

وكانت إيفيت تستمع باهتمام : ولكن بدون اقتناع . . . ثم قالت بإصرار : « ولهذا السبب بالذات أقرأ أنا هذه الكتب ، أريد أن أعرف كيف يكون الحب وكيف يكون الإحساس به . أريد أن أجربه ، أن أعرف معناه ، أن أحس به ! » . . . واستدارت بعينيها الزرقاوين نحو النافذة الكبيرة . وفجأة ، وبدون سابق إنذار ، أخذت الدموع تتدفق من عينيها . وأصيبت سميرة بالجزع والدهشة ، ولكنها كانت أكثر تفهماً من هذه الأم الطفلة ، رغم ما ينقصها من تجارب . وأحست بالشفقة تغمر كيانها كله ، فهذه الشابة الساذجة ما زالت تحلم بالحب ، حتى بعد إنجاب طفلين ! وبالرغم من وجود زوجها الطيب الدمث ! ولكن ، أليس من الممكن أن تكون زيجة إيفيت أيضاً إحدى تلك الزيجات المرسومة ، ورغم أن شكرى شاب دمث ومهذب ، إلا أن هذا لا يثبت مقدرته على إقناع إيفيت وإشباعها . وبالرغم من افتقار سميرة للتجارب الواقعية التى تمر بها

النساء ، إلا أن مقاومتها واتساع أفقها يمدانها بالكثير من الحكمة والتفهم ، وهى تعرف أن الحب يؤدى تلقائيًا إلى الجنس ، وإن كان الجنس لا يؤدى بالضرورة إلى الحب . ورضوخ الزوجة لمتطلبات زوجها لا يحتم وجود تجاوب من ناحيتها .

وفى الحقيقة أن سميرة نفسها قد مرت بتجربة مماثلة عندما قرأت كتابًا لأحد الأدباء المكشوفين ، وقد جعلها الكتاب شديدة الإحساس بوجود جسدها ومتطلباته . وكانت تعرف أن زواجها من ربيع لن يتم إلا بعد سنوات طويلة ومملة من الانتظار الكئيب ، فإذا هى استمرت فى هذا الوضع الجسدى المشتعل فلن يصيبها غير العذاب والقلق . وقد استطاعت مؤلفات تشيكوف وجوركى إعادتها إلى واقع التعساء والجائعين فى معداتهم ، وعرفت أن جوع المعدة والتفكير فى المشكلات قد يخفف من جوع الجسد . ولكن امرأة مدللة مرفهة كإيفيت لن تستطيع فهم الفرق بين هذا الجوع وذاك ، لأنها لم تجرب الأخير ، وبالتالى فهى لن تعرف قيمة ما لديها ، إلا إذا فقدته . وما يهمها الآن هو إشباع ذاك الجوع الخاص الذى تحس به !

وقالت سميرة ببطء : « إيفيت ، أتبكين ؟ كيف أشرح لك ان ما ينقصك ليس شيئًا إذا ماقيس بما يفتقده الجياع والمشردون !؟ » ، فنظرت إيفيت إلى سميرة من خلال دموعها بتعاسة ، فكيف تستطيع فتاة جافة مثل سميرة ، لا يهمها من الحياة إلا ملاحقة السياسة والشقاء ، أن تفهم ما تفتقده امرأة حساسة خصبة مثلها هى ؟ ! . . وتمتمت إيفيت وهى تمسح دموعها بورقة كلينكس ناعمة : « لن تفهمينى ، لن تفهمينى ! » ، فتساءلت سميرة مدافعة عن نفسها : « لماذا ؟ ألست أنثى مثلك ؟ أليس لى جسد له احتياجاته ومتطلباته ؟ » . قالت إيفيت وهى ترنو إلى النافذة الكبيرة : « لكنك لست محرومة ! » ، فتلفتت سميرة حواليها — كمن تخاف وصول حديثهما إلى أذن متطفلة ! — وقالت : « وكيف تحكمين ؟ » . هزت إيفيت رأسها هزءاً وفكرت :

« تريد مقارنة نفسها بى ، ولديها ذاك الشاب الوسيم ببنطلونه الضيق وشعره الناعم المتهدل ؟ ! أما شعر شكرى فرحمة الله عليه ! وأما بنطلونه الشبيه بسروال « أبى ملحم » فيتسع لى أنا أيضاً إذا شاركته فيه يوماً ! » وقالت سميرة كمن خمنت ما يدور فى رأس صاحبتها : « أترين هذا الشاب ؟ إنه لم يقبلنى قبلة واحدة حتى الآن.. أتصدقين؟ » فتحت إيفيت عينيها وتساءلت : « أحقيقى هذا ؟ » ، ثم أردفت بصبر نافد : « ليس المهم حصولى على قبلة أو صفعة على مؤخرتى ، المهم هو أن أحصل على ذلك الإحساس الحار تجاه إنسان ما . أريد أن أحب رجلا ، أن أتذوق ذاك الإحساس اللذيذ . أريد أن أحس بأشياء كثيرة ، كثيرة ! » ، وفتحت ذراعيها وأحاطت صدرها بهما كما لوكانت تتوهم وجود ذراعى حبيب حولها ! . . فأخذت سميرة تتأمل إيفيت بعينيها المغمضتين ووجهها المتوهج بشتى الانفعالات المحرومة الجائعة . وكانت بشرة إيفيت البيضاء الصافية قد اصطبغت بالحمرة، بينما تدلت خصلات عابثة على جبينها المتألق بفوضى مغرية . أما فمها فكان مفتوحاً نصف فتحة ، وقد ظهرت أسنانها اللؤلؤية البيضاء من فرجة الفم المكتنز المصبوغ ، وفكرت سميرة بإعجاب : « ما أجملها » ! وعادت تتأمل الحركة الساذجة التى قامت بها إيفيت ، وواصلت التفكير : « ولكن ، هناك شىء ينقصها ، وأظنه التوازن » .. فى حين فتحت إيفيت عينيها وقالت بشىء من الوحشية :

—أريد رجلا أحبه ، ولاأريد رجلا يحبنى . زوجى يقول إنه يحبنى .. هه ، أى نوع من الحب المقزز ! أنت لن تعرفى ما تحس به المرأة لأنك لم تخوضى التجربة . كونى على ثقة بأن الزواج فى هذه البلاد يجيع المرأة أكثر مما يشبعها ، أما أنتن العذارى الطاهرات فأنتن لا تعرفن ما وراء الستار ، ثم إنك . . ( ورمقت الشاب المشغول بقراءة كتاب ضخم وهو لا يزال واقفاً ). . ثم إنك تحبين

وتأملين . . أما أنا فأين الحب ، وأين الأمل ؟

وأخفت وجهها فى كفها ، وأخذت تشهق بصمت . . فأمسكت سميرة بذراعها بضراعة وقالت : « إيفيت ، أرجوك ، سنناقش هذا الموضوع فى يوم آخر ، ولولا وجود ربيع لما تركتك فى هذه الحال ، ولكن . . » ، وتلفتت حوالبها ثم إلى ربيع وقالت : « هيا ، اذهبى واغسلى وجهك وتعالى أعرفك بابن عمى ، وسيحكى لك عن الكثير من مآسى السجن والجوع والتعذيب . هيا ، أرجوك . سأنتظرك ، أم أنك تريدينى أن أرافقك إلى الحمام ؟ » . . وبعد أن انسحبت إيفيت عادت سميرة إلى ابن عمها – المنهمك فى المطالعة – وقالت بابتسام : « يبدو أنك تريد التعويض عن الأسبوع الذى أمضيته بدون قراءة ! » . فهمهم وقال : « لحظة . . لحظة وسأنتهى » .

* * *

رددت إيفيت لنفسها كلمات سميرة : « تعالى أعرفك بابن عمى ، وسيحكى لك الكثير من مآسى السجن والجوع والتعذيب . . هه ، ومالى ومال حكايات السجن والجياع ، كأنما ينقصنى الهم لأبحث عنه فى حكايات الأشقياء ! هؤلاء يحصدون ثمار ذنوبهم ، فلماذا أقف بجانبهم ؟ . . سميرة هذه فتاة جادة أكثر من اللازم ، وهى جافة الجسد والعواطف ، تريد إقناعى بأنها تتعذب مثلى ، وأنها محرومة كحرمانى . تريد إقناعى بأنها تشاركنى الهم . . أكثر الله خيرها ، ولو لم أر ذاك الشاب الوسيم ، بساقيه البديعتين ، لصدقت ، ولكن . . » وأخذت الدموع تسيل على وجهها منزلقة على كل التعاريج الناعمة الحساسة ، وراحت تناجى : « فاروق . . أين أنت ؟ لعنة الله عليك ، أهكذا تقاطعنى بعد أن بدأت تفهمنى ؟ لكنّ الذنب ذنبى ، فمنذ اكتشاف سامية وعبد الرحمن لعلاقتنا ، اتصل بى عدة مرات تلفونيا ، ولكن خوفى من شكرى منعنى . آه ، لعنة الله على شكرى

وعلى خوفى ، أى مرض هذا الذى أصابنى ! ! » .. وأخذت تتحسس صدرها المكتنز بدون وعى ، وهى تضغطه بكفيها بقسوة ، ودموعها تتساقط : « أهذا ما انتظرته من الحياة ؟ وهل سيستمر ما أحس به أبد الدهر ؟ ؟ » .

وعضت شفتها بأسنانها العليا وهى تزفر ، وكانت هبات حارة كاللهب تجتاح جسدها الشاب اللدن ، واحتدام وزوابع تغتال روحها وقلبها .. ورددت بحسرة : « سرعان ما بلغت الثلاثين يا إيفيت .. الثلاثين ... عشرة أعوام أخرى وتصبحين فى سن اليأس . ياللهول ، ماذا ! ! ألم يبق من عمر الشباب غير عشر سنوات ؟ عشر سنوات قصيرة ، قصيرة . ولكن ، أليس من الممكن أن أجد فى هذه السنوات العشر ما لم أجده حتى الآن ؟ ربما ! ولكن ذلك لن يكون إلا إذا أحسنت استغلالها . السنوات العشر الماضية مرت بهدوء ، برتابة ، بملل ، أما السنوات العشر القادمة ، فسأركض خلالها ، سأركض ، سأركض .. سأركض ! » .

وأخذت تركض بدون وعى نحو الممر الموصل إلى الحمام الكبير ، ولمحت عيون عبد الرحمن وسامية ترقبانها بدهشة ، ورأت سامية تقف ويدها ممسكة بالأوراق الملقاة على المكتب ، وهى تحملق فى اتجاهها : « هه ، القديسون المزعومون .. لعنة الله عليكم ، كم تدعون الفضائل أيها الأوغاد ! سامية تعتبرنى خاطئة ، لم ؟ ألم تفعل مافعلت أنا ، بل ما هو أضخم ؟ مات زوجها غماً وكمداً ولم تذرف عليه دمعة واحدة ! كانت تحب هذا العملاق الأشيب . وأنت يا « دون جوان » السياسة والتعاسة ، أتراك مازلت تعبأ بالأشقياء والجائعين ؟ انظر أيها المتغطرس وسترى ما يعنيه شقاء المرأة حين يداهمها جوع الحب ، أى شقاء ، أى جوع وأى عطش ، هه .. يقولون إنى خائنة ، وإنى بلهاء ، وإنى سخيفة ، حسناً ، سأقرأ كل ما كتبه « مورافيا » ، وسأحفظ

تعاليم « فرويد » عن ظهر قلب ، سأدهشهم بما أعرفه عن الحياة وعنهم ، وسأصبح قوية . قوية .. أقوى من أن تؤثر فىّ نظراتهم الزاجرة . . وسأركض .. سوف ألتهم ما تبقى من العمر .. وسأركض! »

ووقفت أمام المرآة العريضة فى الحمام تحملق فى وجهها الغاضب الباكى .. « هه ، عندما يخون الرجل زوجته يلومون المرأة ، يقولون إنها لم تعرف كيف تحتفظ به وكيف تشبع أحاسيسه ، وعندما يحدث العكس يقولون لم تراع الشرف والتقاليد ولم تحفظ النعمة وحرمة زوجها! يا للافتراء .. عندما يعشقون نلاحقهم بعواطفنا وتوسلاتنا ، وعندما نعشق يلاحقوننا بألسنتهم وسياطهم ، ولكن ، سحقاً لهم! لن أعبأ ، فسأصبح قوية ، قوية ، وسأثور وسأنال ما أشتهى من الحب والحياة! » .

ورأت شبح سامية فى المرآة العريضة وهى تقف وراء ظهرها ، فصاحت بغضب : « نعم ! ماذا تريدين ؟ أتريدين نصحى ؟ أتريدين تأنيبى ؟ أتريدين زجرى؟ ياناس ، أتركونى لهمّى . ياناس ، انزلوا عن ظهرى . أنتم ، أنا أعرفكم ، فأنتم تدعون الطهارة وأنتم أنجاس ، وتقسمون أنى مذنبة وأنتم الذنوب مجسمة ! » . . واقتربت من سامية وهى تلوح بذراعيها بحركات هستيرية ، وأخذت تصيح كحيوان كاسر حين رأت سامية تقترب من الباب وتغلقه : « افتحيه ، افتحيه ، أتخافين الفضائح؟ أتخافين على سمعة مكتبتك القذرة هذه ؟ أما أنا فلا أخاف . أتخافين وصول صوتى للزبائن فى الخارج؟ اطمئنى ، فما من أحد سوى مدللتك المقددة وخطيبها طبيب الأطفـــال بشعره الحريرى وساقيه الصاروخيتين ! . . لماذا تنظرين إلى هكذا ؟ ها ؟ منذ أسابيع وأنت تنظرين إلى هكذا . منذ رأيتنى وفاروق فى غابة الجوافة . أنا أعرف فيم تفكرين ، فأنت تقولين إنى قذرة ، وإنى مقززة ، وإن زوجى الرائع خسارة فى واحدة مثلى .

لا تقولى هذا ياسيدتى ، فزوجى الرائع لا يصلح إلا للعرض فى قاعة مكتبتك الضخمة هذه بجانب تماثيلك الرخامية الجامدة ! أما بالنسبة لى ، فهو قطعة من الهليون الرخو ، ولو رأيته وهو يقبلنى . . يضع شفتيه هنا . . » وأشارت إلى خدها وواصلت « فيسيل لعابه هنا ! » — وأشارت إلى أسفل عنقها — « يظل فمه مفروشاً على خدى كقطعة من المطاط البارد ، وأحس بجموده ينتقل إلىّ ، وبالحياة تموت ببطء فى أمعائى ، وبساقى تتيبسان فى وعاء ملىء بالجليد ! . هه ، أيخجلك هذا الكلام ؟ حسناً ، لقد أحسست بهذا يوماً مع ذلك الزوج الذى ارتحت منه ، أتذكرين ماكانت تعنيه تلك الأحاسيس اللزجة الكريهة ؟ »

أشاحت سامية بوجهها فى ألم ، فواصلت تلك هجومها المركز : « منذ تلك الحادثة وأنت ترصدينى ، تراقبين تحركاتى ، تحصين علىّ أنفاسى ، ماذا تريدين منى ؟ ها ؟ ماذا تريدين ؟ » . ووضعت يديها فى خاصرتيها وأخذت تهتز كسوقية : « لماذا تراقبيننى ؟ ماذا تقصدين بهذه النظرات الصامتة الباردة ؟ أعرف موعظتك المرتبة مسبقاً . ستقولين بطهارة القديسات ، (وأخذت تقلد لهجة سامية بسخرية وهزء ) ! : « اعقلى يا إيفيت ، اهدئى يا إيفيت ، فكرى يا إيفيت ، اصفعى مؤخرتك يا إيفيت ! » . . لعن الله أبا إيفيت وحرق عظام موتاها عن آخرهم ! أليس لك فى هذا العالم من عمل إلا إيفيت ومراقبة إيفيت وشنق إيفيت ؟ أتركينى لهمّى ، دعينى لأعيش . دعينى أتنفس ، ألا ترين أنى أموت ؟ ألا ترين أنى أختنق ؟ ألا ترين هذه النيران التى تلتهمنى ؟ » . . وأشارت إلى صدرها بعلامة طولية وصاحت : « هنا . . هنا . . أحس بالاختناق والمرض ، والموت ! » . . والتفتت إلى المرآة وتمتمت بذهول :

— مرة واحدة نعيش ، مرة واحدة فقط ، وبعدها نموت ويموت

كل شيء . حتى الفضائح تموت ، حتى المبادئ تموت ، حتى الحياة تموت ، ولن نأخذ معنا إلا ما عشناه ، فقط ما عشناه . وسأعيش ، سأعيش ، رغما عنكم ، أترين ؟ رغما عنكم ، فما زلت صغيرة ، ومازلت جميلة ، وما زلت مرغوبة ، وغدا عندما أصبح مثلك فى الأربعين لن يقترب منى الرجال ، فهم لا يحبوننا إلا نضرات متألقات ، أما أنت فذكاؤك يشفع لك ، ومالك ، ومكتبتك . أما أنا ، فلا شيء إلا جمالى ، أتظنيني بلهاء ؟ لا يا سيدتى ، قد أكون ضعيفة الثقافة ، لكننى لست ضعيفة العقل !

وهجمت على الباب وفتحته بقوة وخرجت ركضاً . وكان عبدالرحمن يقف فى الممر ، ولا شك أنه كان يستمع للحوار الذى أجرته إيفيت مع نفسها ! وتنحى عن طريقها وهو ما زال يراقبها ، تنهب القاعة ركضاً ، وفستانها الفيروزى الصوفى يتطاير من حولها بتدفق وهى تشد الكتاب البنى إلى صدرها وتركض . . وفتحت باب القاعة الزجاجى ، وقفزت إلى الخارج . . وقطعت الممر المعشوشب ركضاً . وكانت أشجار السرو قد بدأت تتحرك بفعل هبات رياح باردة على غير انتظار ، وكانت الشمس قد احتجبت وراء ستار كثيف من الغيوم السخية . . وكان الرذاذ قد بدأ يرش العالم بقطرات لها وقع زغب العصافير . ووقفت تلهث أمام البوابة الضخمة ، وتطلعت إلى السماء بدون وعى ، ومسحت وجهها العاصف بكفها ، و بدأت تهبط الدرجات العريضة بذهول . ورأت فيما يشبه الحلم سيارة تقف على الرصيف ، وكان فاروق يحمل غليونه بيد ، ويمسك عجلة القيادة بيده الأخرى . ورآها تنزل الدرجات وهى تهبط بثقلها على إحدى ساقيها ، فيرتج صدرها بحركة ثائرة غاضبة ، ويتراقص ذيل الثوب الفيروزى عند أسفل الفخذين ، وتهتز خصلات شعرها الناعم بفوضى وعبث . . ومرت أمام فاروق ، ألقت عليه نظرة كئيبة حزينة وسارت مرفوعة الرأس ، وعيناها شبه مغلقتين ، بينما ازداد رش الرذاذ فأصبح

مطراً خفيفاً ناعماً حنوناً . وأطلق زمرة قصيرة من نفيره تشبه التحية ، فلم تلتفت إليه . وناداها فلم تجب ، وعاد فاستعمل نفيره فلم ترد ، فأدار سيارته ومشى خلفها ببطء ونادى : « إيفيت ، إيفيت ! » . وأطل برأسه من النافذة وأخذ يهمس : « إيفيت الجميلة ، إيفيت الرقيقة ، إيفيت الذكية . . إيفيت الفيروزية ! » . وعبث بمفاتيح « الريكوردر » فى سيارته الفخمة ، وانطلق صوت المطربة فيروز يردد : « مين قال حاكيته وحاكانى عادرب مدرستى . . » ،وأخذت كلمات الأغنية تسيل ، تتأرجح على وقع المطر الناعم الحنون ، وإيفيت الغاضبة تسير بذهول وعلى غير هدى ، وذكريات الصبا المبكر تعبث بالمخيلة ، مذكرة بأحلام المراهقة ومهرجانات الصبا .. والأغنية تردد «مشوار رافقته أنا مشوار ..» ، وفاروق يلاحقها : « إيفيت .. إيفيت الجميلة ، إيفيت الفيروزية . . يا زهرة رشقنى بها ( نيسان ) ، يا حديقة دشنها الربيع ، يا ابتسامة الملائكة فى أغصان اللوز المزهرة ، إيفيت ! » ، وصوت فيروز : « شو قال ، كنا صغار ، مشوار . » . وإيفت تمشى ، وتمشى .. « شو قال ، كناصغار ، مشوار .. » والحياة كلها مشوار ، هه ، وكنا صغارا يا إيفيت ، كنا وما زلنا صغارا يا إيفيت ، فأنا سأركض ، سأركض . . « مشوار جينا عالدنى ، مشوار .. مشوار . . مشوار . » . . نعم مشوار ، وللمشوار نهاية ، وللطريق نهاية ، وللحياة نهاية ، ولكنى سألتهم ما تبقى من العمر . فأنا سأركض ، مازلت صغيرة ، صغيرة ! . . شكرى ، شكرى . لعنة الله على شكرى وذكراه ، و « سمسم » ، و « نينا » ، آه . . سمسم ونينا . . وفيروز ماضية تغنى : « ياريت ، أنت وأنا فى بيت ، شى بيت أبعد بيت . ممحى ورا حدود العتم والريح ، والثلج نازل بالدنى تجريح . . يا ريت ! » ، وفاروق يهتف : « إيفيت . . إيفيت الجميلة . . يا حسونتى التركزازية ، يا حجلة نيسان المذهب ، إيفيت ! »

وكان الشارع مازال طويلا ، وخالياً، وأشجار الصنوبر على الجانبين

تمايل بإبرها الخضراء بوقع راقص منتش ، وكل شيء يذكر بالرقص والنشوة والحب. وقال فاروق بلهفة : « سنصل المدينة هكذا ؟ لقد أفسد المطر تسريحتك ، وسيبتل ثوبك الذى أحبه ، وسيبرد الجسد الحار ! تعالى واركبى . وأعدك بمشوار على طريق( بيرزيت)، سنقطف الشقائق على الوهاد الخضر ، وسنسرق اللوز من بساتين الفلاحين النائمين . تعالى . ! » . والتفتت إليه . كان وجهها قد نسى دمعه وأحزانه ، وحلت محل الغضب ابتسامة مراهقة غرة . وتوقف حين توقفت ، لكنها هزت كتفيها بعبث ونزق ومشت تهز خاصرتها بإيقاع راقص . وأطلق ضحكة أتبعها بآهة لاهثة ، وعاد يسير خلفها . نظرت ضاحكة إلى الخلف فرأت أسنانه تلمع خلف ضحكة مرحة أطلقها . وأخذ يطلق النفير محاكياً وقع قدميها العصبيتين ، فازدادت الخاصرتان اهتزازا وتأرجحاً ودوى صوت فيروز مرددا : « يا حجل صنين فى العلالى . . يا حجل صنين فى الجبل » . وترك فاروق عجلة القيادة وأخذ يصفق للأغنية ولوقع الخطو الراقص . وعادت تنظر إلى الخلف متصنعة الغضب ، لكنها أطلقت ضحكة منغمة تشبه التحية الصباحية من فم شهى . وردّ فاروق على التحية بأحسن منها . وفجأة أخذت تركض ، فداس الفرامل وأوقف السيارة جانباً ونزل منها وأخذ يركض خلفها . . إلى أين يأخذنا المطر حين تعبث النشوة بالأحاسيس وأحلام المراهقة ! وذكريات الصبا . . والحلم المعبود فى أن تصبح المرأة قبرة بنفسجية تطلق جناحيها للريح ثانية ، وتطلق عقيرتها بالغناء وهى تطير . . تطير . . تسبح فى عالم نيسانى له رائحة الأعشاب البرية ! وطعم الحرية عذب . . أعذب من رحيق زهيرات الياسمين والعبهر . . والريح ريحان . . والشمس وردة . . والإله فراشة بجناحين أزرقين ، وفيروز تغنى للحب والقلب المراهق ، وذكريات الحرية . آه ، ذكريات ! بل هى حقيقة ، حقيقة ، وهى حبقة رشقها ( نيسان) ، حديقة دشنها الربيع ، ابتسامة ملائكية تراقص على شفاه

أغصان اللوز المزهرة ، ولن تقف سامية فى وجهها ، ولا عبد الرحمن ، ولا العالم كله ! . . « مشوار جينا عالدنى . . مشوار . . مشوار .. »

## ١٨

قفزت إيفيت درجات منزلها بعد أن أوصلها فاروق من طريق خلفى مهجور .. استقبلتها طفلتها « نينا » على الباب الخارجى ، فحملت الصغيرة بين ذراعيها وضمتها إلى صدرها بحرارة . كان صدرها يخفق بسعادة ، وما زال قلبها يغنى « لحجل صنين ، وللمشاوير الممطرة على الدروب المبتلة » . غريب ! كيف يستطيع الإنسان أن يسعد الآخرين حين يحس هو بالسعادة ، وفعالنا مرآة لما فى الداخل ، وعواطفنا مسرح يشد أجسادنا إليه ، بحر يجرف زوارقنا ويسير أشرعتنا حسب بوصلة القلب المذبذب . وآه لو نعي ما نريد ! . . ودفعت إيفيت باب الفراندة الزجاجية حيث تصطف أحواض السيراميك المستطيلة على حافة الزجاج ، وتهدلت من بعضها نباتات بيتية متسلقة ، ومن بعضها الآخر شعت زهيرات القرطاسية الزهرية والزرقاء بألوان تخطف البصر . وفى الزاوية وراء المكتبة الجلدية الحمراء اختبأ الوعاء الذى تسلقت منه نبتة الشمع المخملية فملأت سقف « الفراندة » بالورق الأخضر المشمع ، والزهر الناعم بأوراقه السميكة المخملية ، تتلألأ فى كؤوسه حبات العسل اللامعة . وشدت الصغيرة يد أمها نحو قاعة الزوار .

دخلت إيفيت باب القاعة وأجفلت . كانت سامية فى الركن تدخن سيجارتها بصمت ، بينما جلست سميرة بجانبها جامدة لا تبدى حراكا . « هه . لعنة الله على هؤلاء الناس ، لم لا يتركون الإنسان فى همه ؟ » . ولكن السعادة تعطى الإنسان ضبط أعصاب وارتياحاً لا مثيل لهما . وابتسمت إيفيت بنعومة وقالت مرحبة ، بصوت لا يحمل أى أثر للمشاكل أو التعاسة : « أهلا ، أهلا .. هل انتظرتمانى طويلا ؟ » . وصافحتهما

بمودة وجلست ببساطة على إحدى الأرائك وسألت : « أرجو ألا أكون قد تأخرت عليكما ؟ » ، وابتسمت بلطف جعل سميرة ترمقها بدهشة متزايدة ، وعادت تسأل « كيف حالكما ؟ » ، فنفضت سامية سيجارتها وقالت بجد هادئ : « كيف حالك أنت ؟ » . نظرت إيفيت فى عينى سامية بدون خوف ولا حرج ، وقالت وهى تبتسم بكل طيبة : « حمدا لله ، إننى فى أحسن حالاتى ! » . . فابتسمت سامية بفتور ، أما سميرة فظلت مطبقة بجمود . وسألتها إيفيت : « وأين خطيبك الوسيم ؟ » . قالت سميرة وهى ما زالت مطأطئة : « عرفته بعبدالرحمن ، وقد تركناهما فى المكتبة معاً . » . . ضحكت إيفيت فجأة بمرح كما لو كانت تستمع لنكتة لطيفة ، وسألتها سامية : « إيفيت . . أين كنت ؟ »

واهتز الشيطان داخل الطفلة المذنبة ، فقالت ببراءة تحسد عليها : « كنت فى حالة عصبية لا تحتمل ، فمشيت تحت المطر ، فهدأ المطر من روعى . وعلى فكرة . . » ، وطأطأت برأسها وقالت بخجل : « سامية ، أغاضبة أنت منى ؟ » . امتصت سامية نفساً طويلا وقالت بأسف : « بل أنا خائفة عليك يا إيفيت ! » . قالت إيفيت بحرارة : « ولكن لم الخوف ؟ لست طفلة ، صدقينى إنى كنت أمشى تحت المطر » . قالت سامية : « هكذا إذن ؟ » . قالت إيفيت بانفعال : « ماذا ! ألا تصدقين ؟ أقول لك إنى كنت أمشى تحت المطر ! » . صوبت الاثنتان إليها نظرات ذات معنى ، ولكنهما لم تفصحا . وقالت سامية بعد فترة : « إيفيت ، اعتبرينى أماً ، اعتبرينى أختا ، اعتبرينى صديقة ، اعتبرينى أى شىء ، ولكن ثقى بى ، أرجوك ، ثم هذه سميرة ، أنت تعرفينها فهى أصدق وأخلص للصديق من نفسه ! » . . واقتربت من مقعد إيفيت واستدارت إليها بوجه يقطر حزناً وإحساساً : « إيفيت ، حبيبتى . . إيفيت.. ألا تثقين بنا؟ » . أجفلت إيفيت وتراجعت للخلف وقالت لطفلتها : « نينا ، اذهبى عند خديجة ». ثم أجابتهما إيفيت وقد وشى

الاحمرار وجهها : « بلى ، أثق . ولم لا أثق ؟ » . قالت سامية : « إذن فلم لا تصدقين معنا ؟ »

أجفلت إيفيت وأخذت تعبث بطلاء أظافرها وتنتزعه وتكحته ، وقالت بإصرار : « بل أنا صادقة ، قلت إنى كنت أمشى تحت المطر ، وها أنت ترين أثر الماء فى شعرى ، وها هوذا ثوبى ما زال رطباً ! » . قالت سامية بحذر : « بحثنا عنك فى كل مكان ، ولم نجدك ! » . قالت إيفيت بعناد : « كنت أمشى تحت المطر ، أقسم برأس « سمسم » . . وحياة « نينا ! » .. وعلا الوجوم وجه سامية ولم تعلق . وارتفع صوت فيروز آتياً من ترانزستور كان منسيا فى الفراندة : « ياحجل صنين فى العلالى . . يا حجل صنين فى الجبل . . »

ولهثت إيفيت ، واحمر وجهها نشوة ، واجتاحتها موجة مفاجئة من الفرح الطاغى ، فأخذت تطلق ضحكات مكتومة متشنجة وهى تشد كفيها إلى صدرها ، وانتبهت لحالها فجأة ، فقالت معتذرة : « يا إلهى . . لم تجعلون من التفاهات مشكلة ؟ ! » . فتساءلت سامية بحزن : « أواثقة أنت أنها تفاهات ؟ » ، وأخذت تتفحصها بجدية وأسف . وكانت تلك تقوم بمحاولات غير مجدية لتبدو أقل مرحاً وسعادة ، ولكن بدون جدوى . وقالت سميرة بأسى ساخر : « كنت تمشين تحت المطر ؟ » . فنهضت إيفيت ، وخرجت من القاعة ، وأخذت الاثنتان تتبادلان النظر والتساؤل : أتكون قد غضبت ؟ أيكون معنى خروجها محاولة لبقة لإفهامهما بأنهما غير مرغوب فيهما ؟ . . لكن إيفيت لم تلبث أن عادت تتبختر وهى تحمل الترانزستور بيدها وتهز رأسها حسب إيقاع الأغنية الراقصة ! . . ونظرت الاثنتان إليها بدون تصديق ، وهتفت سميرة بدهشة وأسف : « إيفيت ! ما هذا ؟ ! » . فقالت إيفيت بتهرب ماكر : « يا حجل صنين » ، ألم تسمعيها ؟ ألا تعرفينها ؟» .. فنهضت سميرة بغضب وهجمت على الترانزستور فاختطفته وأقفلته ، وصاحت : « أنت لست طفلة . .

لست طفلة ! » . فقالت إيفيت بهدوء غريب : « هذا بالضبط ما كنت أحاول شرحه منذ الصباح » . قالت سامية : « إيفيت ، منذ متى كنت خبيثة ؟ » . قالت إيفيت ضاحكة : « منذ بدأت أفهم معنى الحياة ! » . صاحت سميرة : « أية حياة تعنين ؟ حياة العبث والتهرب واللامسئولية ؟ حياة الكذب والزيف والتلاعب ؟ أهذا معنى الحياة فى نظرك ؟ » . قالت إيفيت بسخرية : « ما معنى الحياة إذن ؟ أفهميني يا فيلسوفة السياسة والتعاسة ، ها ؟ » . وقالت سامية مهدئة : « لا تتشاحنا كالأطفال ، ما هكذا يتفاهم العقلاء ! » . فقالت إيفيت مهاجمة : « ماذا تقصدين بالعقلاء ؟ » أتعنين أنى لست عاقلة ؟ أى أننى بلهاء ، أرجوك يا سيدتى ، لا تسخرى منى ! » . قالت سامية متراجعة : « أنا أسخر منك ؟ لماذا ؟ ماذا قلت لأعطيك فكرة كهذه ؟ » . . فأطلقت إيفيت قهقهة جافة ساخرة : « هاها . . أتظنينى غبية ؟ لا يا سيدتى ، لا ، فأنا ما عدت تلك الصبية الطيبة الخجول ! »

قالت سامية وعيناها تغرورقان بدمع شفاف رقيق : « بل أنت إيفيت الصادقة الطيبة المخلصة . أنت إيفيت المعطاءة المتسامحة الحساسة . إيفيت ، إيفيت . . لا تخذلى إيمانى بطيبتك ! » . ومست الكلمات العاطفية الحساسة قلب إيفيت ، فلهثت بصمت ، وازدردت غصة مفاجئة اجتاحت حلقها وتمتمت بانكسار : « آه ، يا رب . . ماذا أفعل ؟ ».. قالت سامية بحنان : « ماذا تريدين يا إيفيت ، أفهميني ماذا تريدين ؟ » . وقفت إيفيت وسط الغرفة وقد تدلت يداها إلى جانبيها واكتسى وجهها بشحوب باهت ، فى حين أخذت شفتاها ترتجفان كما لو كانت مشرفة على البكاء . . وقالت بحسرة : « أهذه هى الحياة ؟ ليس هذا ما حلمت به ! » . .وأخذت سميرة ترقبها بدهشة : فما معنى أن تكون امرأة جميلة تعيش فى فيللا ضخمة رائعة حديثة كهذه ، وفى كنف زوج حنون طيب كريم كشكرى ، وأطفال يقطرون شهدا ،

كل هذا وتتساءل بحسرة كما لو كانت تعيش فى بئر مظلمة : « أهذه هى الحياة ؟ » .. وهزت سميرة رأسها وهى تدارى اشمئزازها ، وأخذ فكرها يردد : « البطر . . البطر . . البطر ! » . وقالت سامية فى محاولة جادة لفهم إيفيت ومواقف إيفيت : « بم حلمت ؟ ماذا تتمنين ؟ ألم تنالى ما تتمناه أى امرأة على سطح الأرض ؟ بيت جميل ، زوج طيب حنون ، أولاد غاية فى العذوبة ، ماذا تريدين ؟ » . . ففتحت إيفيت فمها بحركة يائسة وقالت مهمهمة : « لا ، ليس هذا فقط ، ليس هذا ، أهذه هى الحياة ؟ » .| وأخذت نظرات سميرة تنتقل ما بين قطع الأثاث الفاخر المترف باشمئزاز .. « هؤلاء الأغنياء البطرون . . آه ، ما أتعس هذا العالم وما أبغضه ! . إن ثمن الأريكة الواحدة فى هذه الغرفة يفرش بيت موظف ذى راتب لا يقل عن ثلاثين ديناراً ! . . وهذا البيانو الألمانى الفخم ، وهذه السجادة العجمية برسومها المزركشة وألوانها التى تمثل الإبداع نفسه ! وهذه اللوحة الضخمة ، وتلك . . والثريا التى يكاد كريستالها يقبل أقدام الضيوف ! . . آه ، إن هؤلاء الأغنياء يعتنون ببيوتهم أكثر من العناية بعقولهم ومبادئهم ! » . . وفيما كانت إيفيت تتساءل لاهثة : « أهذا كل ما فى الحياة ؟ » ، رمقتها سميرة بغضب : « ماذا تريد إذن هذه الدمية ؟ ماذا تريدين يا حورية أرضنا القذرة ؟ ! مجتمع قذر ، قذر . . ونظم فاسدة ، وعدالة موطوءة بحذاء ! . . هناك نسوة يضاهين الملائكة حكمة وجمالا ، لكن الفقر طمس حكمتهن وجمالهن ، وأنت تتخمين وتبطرين وتأنفين ، رغم أنك لا تصلحين لأن تكونى أكثر من خادمة فى مقهى سياحى ، أو راقصة فى ناد ليلى ! .. فى الدول الاشتراكية لا يأبهون كثيرا بعرض الأجساد الفاتنة ، إن ما يهمهم هو الإنتاج والفكر ، والعقل ! ولو عشت هناك لما نلت حتى هذا الثوب الذى يساوى راتب شهر كامل من رواتب خادمة فى مطعم ! »

وقالت سامية : « ماذا تريدين ، أفهمينى ! شكرى رجل ممتاز

يا إيفيت ! » . فصاحت إيفيت : « شكرى . . شكرى . . أليس على وجه الأرض رجل مثل شكرى ؟ » . قالت سامية بتمهل : « فعلا ، ليس على وجه الأرض رجل مثل شكرى. » ، فصاحت إيفيت : « لماذا ؟ أهو « روك هدسون » أم عمر الشريف ؟ » ، فضحكت سميرة باستخفاف ، محدثة نفسها : « آه البلهاء ، ألا تعرف بأن المظاهر هى الجانب الكاذب للأشياء ؟ يا عزيزتى إيفيت ، إن من يرى رأسك الجميل هذا يظنه يحتوى عقلا جميلا مثله ، وإن من يرى جسمك الرائع هذا يظنه يحتوى توازنا وانضباطاً ، ولكن المظاهر هى الجانب الكاذب للأشياء ! »

وصاحت إيفيت منفجرة : « أنا لا أطيقه . . لا أطيقه ! » . . فهدج صوت سامية بأسى : « لماذا ؟ ولكن لماذا ؟ » . فحملقت إيفيت فى سامية بتحفز وصاحت بوقاحة : « لنفس السبب الذى شغلك عن زوجك السابق ! » . فهتفت سميرة بغضب : « إيفيت ، ما هذا ! ألا تحترمين مشاعر الناس ؟ » . . فأشعلت إيفيت سيجارة وأخذت تمتصها بعصبية وقالت : « ولم لا يبدءون هم باحترام المشاعر ؟ ها ؟ أم أن لمشاعرهم قيمة ، ومشاعرى لا وزن لها ؟ » . . قالت سامية مدافعة : « إيفيت ، لكل إنسان ظروفه ، وأنا كانت لى ظروف غريبة . » . فهزت إيفيت كتفيها وقالت : « هذا ما يقوله كل إنسان عن ظروفه ! » .

قالت سامية : « علاقتى بعبدالرحمن ابتدأت قبل معرفتى بـ « غالب » . أنت لا تعرفين القصة منذ البداية ، ولكن ، بما أن الموضوع قد أثير فلا مانع من إيضاح الحقيقة لك.. لقد كنت على علاقة دامت سنين طويلة بعبدالرحمن . عرفته قبل أن يكون ما هو عليه . كان نكرة . . كان مجده الحالى مجرد حلم فى رأسى ورأسه ، وكان نجاحه الفنى هو هدفنا وقمة أمانينا . وعندما سجن ، بادأته أنا بالقطيعة . أنا التى خنته ، أنا التى هربت من حاضرى المظلم ومستقبله الذى كان لعبة فى أيدى سجانيه!»

غضت سميرة من بصرها بخجل وهمهمت : « سامية ، ما من داع لنبش أحزانك ، لست مسئولة عن الدفاع عن نفسك أمامنا . إن هذا محرج لك ولنا ! » . فقالت سامية بذهول : « وها أنا أكفر عن ذلك ، ولقد كفرت طويلا وكثيرا ! » . تساءلت إيفيت : « ولكن لم خنته ؟ ألم تحبيه ؟ » . تمتمت سامية بشرود : « بل عبدته ! » . تساءلت إيفيت بدهشة : « لماذا خنته إذن ؟ كيف استطعت ذلك وقد أحببته ؟ يا إلهى ، أليس الحب هو أروع ما فى الحياة ؟ فكيف تهربين من حبك وسعادتك ؟ » . . قالت سامية : « هذا موقف يصعب تفسيره ، ولكنى كنت البادئة بالخيانة ، وها أنا أحاول التعويض والتكفير ! » . وامتصت نفساً طويلا من سيجارتها ، وعادت تقول : « لقد كنت أجبن من أن أحتمل الظلام الذى اكتنفه ، فأردت الفرار بجلدى . لم أكن قوية بما فيه الكفاية لأقاوم الخطأ . » . فتمتمت إيفيت بشك وحيرة : « وكيف تريدينى أن أكون أنا بالذات أقوى على مواجهة الخطأ منك ؟ أنت أذكى منى وأكثر ثقافة ، وقد ضعفت ، فماذا يحل بى أنا ؟ » . قالت سامية بإشفاق : « إيفيت ، لا تفقدى الثقة بنفسك . إنك الآن تعين الخطأ ، وعندما يعى الإنسان الخطأ يتجنبه ! » . علت الحيرة وجه إيفيت وتمتمت ذاهلة : « ولكنى أركض نحو الخطأ لأننى أريده ، أريده ، فأنا مشتاقة إليه ، تواقة له ، أريده ! » . فقالت سميرة فى محاولة جادة للإقناع : « ولكن ما يدفعك نحو الخطأ هو الغريزة وليس العقل! »

فقالت إيفيت بتعاسة : « أو ليست الغريزة أقوى من العقل ! . . هناك رغبات طبيعية أصيلة كل الأصالة ، وهذه تبحث عن منفذ لها ، وتلح مطالبة بالإشباع ! » . قالت سميرة : « لكنها لا تشبع ، فهى كالمعدة تماماً ، كلما امتلأت وجب القيام بعملية الهضم ، وكلما هضمت وجب القيام بعملية الامتلاء ! » . قالت إيفيت : « إذن فهى رغبات أصيلة وليست « مستوردة » ، وذلك لأنها غريزية ، ويجب

إشباعها ! » . . فصاحت سميرة بحنق :. « ولكنها لا تشبع ، فماذا تفعلين ؟ هل تظلين تركضين وراءها لاهثة مقطوعة الأنفاس؟ » . هزت إيفيت كتفيها مدعية عدم الاهتمام وقالت : « لا أدرى » . قالت سميرة بإصرار : « بل يجب أن تدرى . اسمعى : ماذا يمنع الأم عن إهمال واجبها تجاه أولادها ؟ وما الذى يجبر الجندى على قتال الأعداء بحماسة ؟ وما الذى يدفع بالإنسان إلى مد يد المساعدة لفقير مهمل معدم ؟ أليس هو الضمير ؟ والإحساس بالمسئولية ؟ أليس هو التهذيب والخلق القويم ؟ . . وما الذى يمنعنى عن الرقص فى الشارع كلما حلا لى ؟ ما الذى يمنعنى عن تقبيل شاب وسيم أجده أمامى فجأة ؟ ما الذى يمنعنى عن الذهاب مع شاب أجده جذاباً وشهياً ؟ » . قالت إيفيت بنزق : « الذى يمنعك هو أنك لا تريدين ذلك بالفعل ! » . قالت سميرة بجدية : « ومن قال لك إنى لا أريد ذلك ؟ لقد حدث صباح اليوم أن مس « ربيع » يدى بيده ، وأحسست برغبة قاهرة لا تقاوم فى إلقاء نفسى بين ذراعيه ، ولكنى لم أفعل ذلك ! » . تأملتها إيفيت باستهجان وتساءلت : « وما الذى منعك عن فعل ذلك ؟ » . قالت سميرة بإصرار : « الوعى ، فأنا أعى أن على المرأة أن تظل سلبية فى علاقتها مع الرجل ، كى يظل يشعر بأنه سيد الموقف ، أم أنك تريدينه أن ينفر منى ؟ » . . فصاحت إيفيت : « ولكن هذا سخف . لنفرض أن ابن عمك « لوح » جامد ، فهل لا تمدين يدك وتحركينه ؟ » . قالت سميرة : « إننى لن أفرض ثقلى على رجل لايتجاوب معى ! » . قالت إيفيت : « دعيه يتجاوب ، ابدئى أنت ! » . فأجابت سميرة : « هذا دوره وليس دورى . » . قالت إيفيت بسخرية : « ومن قال هذا ؟ أمك أم التقاليد ؟ » . قالت سميرة : « بل عقلى ، الوعى الذى حدثتك عنه . » . فتساءلت إيفيت بدهشة : « وغريزتك ؟ وأحاسيسك ؟ وانفعالاتك ؟ أتقتلين هذا كله ؟ تصبحين آلة ، تصبحين « خشبة » ؟ » ، فقالت سميرة : « غريزتى وأحاسيسى وانفعالاتى تسير فى

الطريق الذى أخطه لها ، ولا أسير أنا فى الطريق الذى تخطه لى ! » . صاحت إيفيت بحنق : « لكن الغريزة أقوى ! » ، فقالت سميرة بإصرار : « بل العقل أقوى ! » . . وكانت سامية تفكر بذهول : « كلاهما على خطأ ، فالإنسان عبارة عن زورق تائه ، ينحرف ساعة نحو اليمين ، وساعة نحو اليسار . وكلنا زوارق تعيسة . . . تعيسة ! »

وقالت إيفيت : « استعمال العقل يمدنى بالتعاسة.. واستعمال ، أو بالأحرى الانسياق وراء الغريزة يمدنى بالسعادة ، وهدف الإنسان الأول فى الحياة هو البحث عن السعادة . فمن الطبيعى والمنطقى أن أندفع وراء الغريزة لأنها توفر السعادة » . . فضربت سميرة ذراع الأريكة بكفها وصاحت : « هذا صميم الخطأ ، فالعقل تقدم ، والغريزة تقهقر ! » . صاحت إيفيت باستخفاف : « يا إلهى !. . ما أجهلك فى أمور الحياة! أنصحك بقراءة ( عشيق الليدى تشاترلى ) » . . ووقفت تتلوى وسط الغرفة . مدت ذراعيها إلى أعلى فى حركة تمط مثيرة ، ورفعت صدرها إلى أعلى ، ثم أنزلت ذراعيها ومدت كفيها وأخذت تضغط صدرها بنشوة ، وقالت : « لم تعرفى أجمل ما فى الحياة ، ولهذا فأنا أتوقع بأن أجلك سينتهى وأنت بعد عذراء ! » . . فتساءلت سميرة بامتعاض : « أليس ذلك خيراً من أن أموت بغياً ؟ » . فتساءلت إيفيت : « وما علاقة العذراء بالبغى؟ » . فرمقتها سميرة وقالت وهى تستدير بوجهها نحو الحائط : « كلتاهما إنسان ، ولكليهما طريق خاصة فى الحياة . ولكنى واثقة بأن البغى لا تولد بغياً ، فى حين أن غلطة صغيرة قد تضيع العذراء فتخلق منها بغياً . وقد كان هدف العذراء حين بدأت الطريق هو السعادة .. أما النهاية ، فذلك يتوقف على الخطوات المنتهجة ، وعلى طريقة السير ، وعلى . . »

وأكملت حديثاً طويلا مليئاً بالحكمة والفلسفة ، لكن إيفيت ما كانت بحاجة إلى كل هذه الدروس المملة . وعندما تخرج المواقف التى تشارك

فيها عن دائرة الإثارة يبدأ عقلها فى البحث عن منفذ ومهرب . وابتدأت أفكار « د . هـ . لورنس » تعبث بمخيلتها ، وأخذت تحوم فى دوامة من الهذيان الفكرى : الإنسان الجسد . . والإنسان الآلة . . والكبت ، والأشباع ، والعقل والغريزة . . وانطلاق الفكر ، وانطلاق الجسد . وأخذت تقارن بين الشخصيتين المتناقضتين فى رواية « لورنس » : الزوج المفكر المقعد ، والبستانى الثائر القوى . أيهما أروع ؟ أيهما أرقى ؟ ذاك الزوج الضعيف المقعد المكابر ، أم هذا القوى المتوقد الجميل ؟

وقالت سامية : « إيفيت ! وأطفالك يا إيفيت ؟ ماذا عن «سم سم» و« نينا ؟ » . فنفضت إيفيت يديها فى الهواء كما لو كانت تحاول نفض هم مزعج يفاجئها ، بينما قالت سامية بتروّ : « إيفيت : لن أناقشك وأتفلسف معك . دعك مما قاله « لورنس » وما قاله أفلاطون وتدبّرى مصلحتك أولا : هل تعتقدين أن من صالحك هدم بيتك ؟ » . فقالت إيفيت وهى تستدير نحو النافذة المطلة على الحديقة : « لست سعيدة فيه ، لأحافظ عليه ! » .

— ولكن لماذا ؟ لديك كل ما تتمناه النساء ، فماذا تريدين ؟

أجابت إيفيت وهى ما زالت مستديرة بوجهها : « أولئك النساء يفكرن بأشداقهن ! » . فتساءلت سميرة ساخرة : « وأنت ، بماذا تفكرين؟ بغريزتك الجنسية ؟ » . فاستدارت إيفيت بغضب وتمتمت من بين أسنانها : « لو لم تكونى فى بيتى ! نعم ، ولم لا ؟ نعم ، أنا أفعل ذلك ، أما أنت فلا تفعلين ، لا لأنك أرقى ، بل لأنك لا تمتلكين هذه « الموهبة » الجسدية التى تعيننى على التفكير ! » . . فقالت سامية مهدئة : « عدنا لمشاحنات الأطفال ! أهكذا يتناقش المثقفون ؟ . . إيفيت ، أنصتى إلى : حبيبتى ، أنا فقط أريد أن أعرف كيف ستتدبرين أمرك ، ماذا لو ارتاب شكرى فى تصرفاتك ؟ ألا يحس ببرودك نحوه ؟ » . فأطلقت إيفيت ضحكة جافة : « هه ، وكأنه يعبأ بحرارتى أو برودتى ! إن ما يهمه

هو أن يبيع أكبر كمية من الثلاجات وأفران الغاز والغسالات . . وهلم جرا . الآلات هى همه الوحيد فى الحياة ! وأما بالنسبة إلى فإنه لايشرفنى حتى بمعاملتى كآلة ، فالآلة تثيره وتسليه وتملأ جيوبه ، أما أنا فإنى - كما يقول - أثير ملله وغيظه ، وأفرغ جيوبه ! » . . . وفجأة ، ضربت إيفيت ظهر الأريكة بيدها ضربة قوية رنت فى أرجاء الغرفة ، وأخذت تشهق فى نوبة حادة من البكاء : « خذنى يا رب ! ليتنى أموت . ليتنى أموت ! » .

وأخذت الاثنتان تهدئانها ، بينما أطلت الصغيرة من وراء الباب تنظر برعب وجزع إلى أمها ، وارتفعت شفتها فجأة وتقلص وجهها وأخذت تبكي بصمت . ولكن أحداً لم يشعر بوجودها ولا بألمها ، فقد كانت أمها تبكى سوء حظها ، ونحسها ، وخيبتها فى الحب والحياة ! . . وحاولت سامية التخفيف عن إيفيت ما أمكن ، وأخيراً استطاعت إقناعها بالذهاب إلى الحمام لتغسل وجهها ، قبل مجىء زوجها للغداء.

ولم يلبث شكرى أن دخل محملا بأكياس ورقية مليئة بالفاكهة والخبز ، فركضت الصغيرة وصدمت رأسها فى ساقه بلهفة وهى تنادي : «بابا . . بابا » ، بينما اقتربت منه إيفيت بتلكؤ وابتسمت بتكلف وهى تحمل عنه بعض الأكياس وتذهب بها إلى المطبخ . ورأى الزوج الضيفتين تحتلان ركناً من الصالة ، فابتسم ورحب بهما بصوت تعب ، ثم اقترب منهما وصافحهما بيد ، بينما أمسكت يده الأخرى بيد ابنته . كان طويل القامة ، عريض المنكبين ، ممتلىء الجسم ، وفى بعض المواضع يكاد يميل إلى السمنة . وكان له بطن ناتىء يكاد يصبح كرشاً ، ولولا طول قامته لظهر أكثر بروزاً . بشرته تميل إلى البياض الشاحب . أما عيناه فتميلان إلى الخضرة . قليل الشعر فى قمة رأسه ، مفلطح الجبهة بدون بشاعة . لم يكن وسيما ، لكنه لم يكن بشعاً . متوسط الذكاء ، طيب القلب ، محدود الثقافة . لم يكن يعبأ بقراءة الصحف والكتب

وسماع الأخبار أو مناقشة السياسة ، فقد كان تاجراً ولا يعبأ إلا بالتجارة وأسعار النقد الد ولى ! .

هبط على الأريكة ملقياً بجسمه عليها بحركة مسترخية كسول ، ومد ذراعيه بطول ذراعي الأريكة ، ومد ساقيه فى وضع مريح ثم تمتم : « عند ما استيقظت فى الصباح ورأيت الشمس تملأ العالم ، ظننت أن « نيسان » ( أبريل ) سيدفئ عظامنا قليلا . ولكن السماء تأبى الكف عن الأمطار . وها هى البرودة تعود من جديد ! ». ثم تحدثوا قليلا: فسأل الضيفتين عن حال المكتبة ، والبيع . وهل تجارة الكتب مربحة ؟ وما أخبار عبد الرحمن ونسرين ؟ ثم ما أخبار بشار وسهى ، أما زالا على حالهما ؟ .. وأخبرته سميرة عن وصول ابن عمها ، وكيف تركته فى المكتبة مع عبد الرحمن . واقتربت الصغيرة منه وطلبت من أبيها أن يجلسها على ساقه ، فرفعها ببطء ووضعها على فخذه بعد أن اعتدل فى جلسته ، لكنه أنزلها فى الحال منكراً : « ما هذا ؟ أيتها اللعينة ! إذهبى وغيرى سروالك القذر ، هيا ! » . والتفت إلى إيفيت قائلا بامتعاض : « أشتهى أن أجدها مرة واحدة بسروال نظيف ، فهى دائماً قذرة ! » . . فلوت إيفيت شفتيها ولم تعلق ، فى حين نظر هو إلى بنطلونه فرأى بقعة مبلولة تحتل فخذه ، فكشر زاوية أنفه وقال معتذراً : « هذه الطفلة كالأنبوب ! » ، وقهقه بطيبة ، ورمى إيفيت بنظرة متسامحة صبور ، فقالت بتأفف : « تنظر إلىّ كما لو كنت أنا التى تبولت على فخذك ! » . فابتسم وهو ينظر فى وجهى الضيفتين ، وقال بمرح : « نحتمل منك ما هو ألعن ، أفلن نحتمل التبول ؟ » ، فقالت مزمجرة : « أشتهى أن أسمع من فمك كلمة مديح أو تقدير ! » ، فزم شفتيه وقال بسخرية مرحة : « فعلا ، معك حق ، يجب أن أقول بأن سراويل نينا دائماً نظيفة كالفضة ، وأن طبخ خديجة يجعل من الشهية مفاعلا ذرياً ، وأن وجود الغبار على سطح الزجاج والأثاث يقيهما العث والتلف! ! » . . فقالت إيفيت وهى

تستدير نحو سميرة ، كمن تشهدها على أمر جلل : « أرأيت ؟ يريدون منا أن نكون خدماً فى ثياب سيدات مجتمع ! » ، واستدارت نصف استدارة ، قائلة باشمئزاز : « لم يكن ينقصنى إلا الجلوس فى المطبخ طيلة النهار ، لأرقب خديجة وهى تطبخ ، ثم أعصب رأسى وأدور على قطع الأثاث ألمعها وأدعكها . لا يا سيدى ، أنا لم أعتد هذه الأعمال ! » . . فقاطعها يكمل ما تريد قوله : « أعلم : فى دار أبيك كان الخدم أكثر من قطع الأثاث ، وكانت الدادة تأتيك بفنجان الحليب حتى سريرك . سريرك المغطى بالحرير طبعاً ! وطبعاً ، السجادة التى تحت سريرك والتى كان طولها لا يزيد عن المتر كان ثمنها يقدر بما يعادل ثمن كل السجاد المفروش فى بيتى المتواضع هذا ! » .

احمر وجهها غضباً وقالت : « أتسخر ؟ » . فابتسم وأجاب : « أبداً ، ولم أفعل ذلك ؟ ألم يكن صحيحاً ما قلته ؟ » . فقالت بعصبية : « فلا تلمنى إذن ! » . فتساءل متصنعاً العجب : « على ماذا ؟ » . أجابت : « على سراويل « نينا » وطبخ خديجة والغبار على الزجاج والأثاث . أنا لم أعتد أعمالا « بدائية » كهذه! » . تساءلت سامية بدهشة : « هل تسمين أعمال البيت وواجبات الأمومة أعمالا بدائية ؟ » . أجابت إيفيت بنزق : « هذه الأعمال التافهة باستطاعة أية فتاة محدودة الثقافة والإمكانيات أن تقوم بها! » . . فقال شكرى ببرود وسخرية : « بالله ألا تقصين علينا كيف قضيت نهارك ، وما الذى أنتجته طوال اليوم ؟ » . . فأطفأت سامية سيجارتها فى المنفضة بعصبية ، بينما تشاغلت سميرة بالعبث بحلقة معدنية فى حقيبة يدها . . وقالت إيفيت بغضب : « هل ستفتح لى محضر تحقيق ؟ وهل يجب على أن أعطى تقريراً مفصلا عن تحركاتى وتنقلاتى كل يوم ؟ فى أى عصر تعيش يا أستاذ ؟ لسنا فى عصر الحريم يا مولاى ! » . . فرمقتها سميرة بدهشة : « أيتها الوقحة ، ولديك المقدرة رغم كل هذا على التحدى والاستفزاز ؟ لو كنت مكانك لخرست ، ولما رفعت عينى فى

وجهه ! » ، فقال شكرى زافراً : « من الأحسن أن نحتفظ بمشاكلنا لأنفسنا ولا نصدع رأس الناس بها ! » . . فقالت إيفيت فجأة كما لو كانت تقذف طعاماً يضايق معدتها : « وماذا لو مشيت تحت المطر ؟ لقد كنت أمشى تحت المطر . » فرفع شكرى عينيه وحدق فى وجهها ، ثم هز رأسه باستسلام . . فقالت إيفيت ممتعضة وبنفور : « ماذا ؟ ألا يروقك ما فعلت؟ ألم تر إنساناً يمشى تحت المطر؟ هناك أناس يعشقون المشى تحت المطر ، وغيرهم يتزحلقون على الثلج ، وآخرون . . » . . ونظرت سامية خفية إلى شكرى ، فوجدته يهز رأسه باستسلام ومرارة ، أما سميرة فكانت تحدق فى وجه إيفيت بدون وعى ! . . والأخيرة « تدندن » بكلمات لحن راقص ، وتعلق عليها بعبارات استعارتها من « عبد الرحمن » ! . . وأخيراً وقفت سميرة فجأة قائلة : « أرانى مضطرة إلى الذهاب ! » . . . ثم تبعتها سامية قائلة « وأنا كذلك ! » .

وعندما خرجنا من القاعة إلى « الفراندة » الزجاجية كان المطر قد بدأ ينقر الزجاج محدثاً أصواتاً تتردد أصداؤها المكتومة فى أنحاء المكان بخشوع . وعند ما وصلنا إلى منتصف الممر المؤدى للبوابة الحديدية سمعنا شكرى يهدر : « إيفيت ، أدخلى وكفى عن هذا » ! . ونظرنا ، فوجدناها تقف فى منتصف الدرجات الرخامية وقد مدت ذراعيها ؛ وكفاها مفتوحتان للسماء المطيرة . ورفعت وجهها بينما أغمضت عينيها وعلى شفتيها ابتسامة نشوانة غامضة . . فظهرت كعابدة وثنية تتعبد إلى إله المطر ، وهى تطلق قرقرة عابثة !

## ١٩

أصبحت معالجة إيفيت هى شغل المجموعة الشاغل ، ونصب كل واحد من نفسه حكماً عليها . حتى فاروق نفسه لم يتورع عن التلميح لسميرة ونسرين بأنه ضحية سوء فهم من المجموعة ، وسوء تصرف من

إيفيت . وإن كانوا لا يصدقون ما يقوله فليراقبوا إيفيت جيداً ليعرفوا أنها امرأة مريضة ، وأنها بحاجة لطبيب نفسي ! ومرة أو اثنتين تجرأ وقال عن إيفيت أمام سامية والمجموعة - بلهجة فيها الكثير من الغمز - إن « إيفيت امرأة جميلة فقط » ، وحدجته سامية بنظرة سوداء تعني أن عليه أن يغلق فمه ، فأغلقه في الحال . أما في حضور عبد الرحمن فلم يأت على ذكر الموضوع أبداً ، إذ لم يكن عبد الرحمن ممن يكتفون بتوجيه النظرات اللائمة فقط ، بل كان يحدث أن يفيض كيله فيصب على رأس محدثه غضبة شديدة قد تنتهي بمشكلة حقيقية ! . . وكانت إيفيت قد أصبحت لا تطاق : شجار دائم مع زوجها ، ومشاكل لا حصر لها بينها وبين الجميع ! ضربت الخادمة يوماً فأوقعتها أرضاً ، واصطدم رأس الخادمة بالحائط فانكسر أحد أسنانها الأمامية ، وجرحت شفتها جرحاً بليغاً أدى بها إلى غرفة العمليات في المستشفى ، وغرزتين دشنتا الشفة المشقوقة . : ومشكلات لا أول لها ولا آخر وقعت على رأس شكري من جراء تهديد أهل الخادمة بخطف أحد ولديه ، أو الاعتداء على زوجته في الشارع ، أو اقتحام منزله ليلا ! ! . . حتى اضطر لعقد معاهدة سلام فيما بينه وبين أهل خديجة ، مقابل خمس أوراق نقدية من فئة العشرة دنانير !

وكانت إيفيت تبكي يومياً ، وتخرج من البيت باستمرار ، ولا تُرى إلا « بتقاليع » غريبة من ثياب مفرطة البهرجة ، أو تسريحات بأشكال لا تخطر على بال بيكاسو نفسه ! . . ماذا كانت تقصد بتهربها الدائم من البيت ؟ ربما كانت تريد نسيان وضعها كامرأة متزوجة وأم . وربما كانت تحس بضيق شديد من مكثها في البيت ، ولهذا تحاول الهرب منه ، وربما كانت تحاول إيجاد حل أو عزاء لمشاكلها وأحزانها ، المهم أنها لم تفلح فيما ابتغت ، ومشاكلها ازدادت تعقيداً ، وهمومها ازدادت ثقلا ، وأحزانها أصبحت تهدد أعصابها بالانهيار . وشكري التعيس لا ينفك يسأل المحيطين به - بطيبة وسلامة نية - عن الطريقة المثلى لمعاملة

زوجة كزوجته؟ ويتساءل بغباء يشبه البلاهة : « ماذا تريد ؟ ما الذى ينقصها ؟ البارحة فقط اشتريت لها معطفاً من الفرو بمبلغ كذا ! » . . ولم يغب عن بال شكرى أن ينصح صديقه فاروق بعدم الزواج ، لئلا يقع فى مأزق حرج كهذا . وبالطبع : سأله فاروق عن نوعية ذاك المأزق، وشكى له شكرى ما جاش به الصدر وطفح به الكيل ، فقال له فاروق هامساً : « هل يضايقك دلال النساء؟ كلهن يفعلن ذلك ! »

أما كيف عرف فاروق ، ومن أين استقى حكمته الفريدة هذه ، فهذا أمر لم يسأله عنه شكرى ، فثقته بصديقه غير محدودة ، وبالطبع فإن فاروق عند حسن ظن صديقه ، ولكى يخفف من حدة الأجواء المسمومة التى يعيشها شكرى فى بيته ، أصبح يقضى معظم أوقاته عنده : فالسهرة فى منزل شكرى ، والعشاء على مائدة شكرى ، وأجمل الأوقات مع شكرى! وفى المقابل كان يدعوهما إلى النوادى والسينما والحفلات الراقصة!

وبدأت المدينة تلغط . . وأصبحت تصرفات إيفيت حديث المجتمعات والأندية ، وقيلت أشياء كثيرة ، من جملتها إن فاروق « الدون جوان الماكر » يعرف من أين تؤكل الكتف ! . . وحاولت سامية الكثير من أجل كسب ثقة إيفيت ، أفهمتها أن علاقتها مع فاروق ستكتشف فى يوم من الأيام ، وأنها ستخسر زوجها مقابل رجل لا يبتغى سوى التسلية وملء الفراغ . وأنكرت إيفيت وجود أية صلة لها بفاروق ، فليست هناك أية رابطة بينها وبينه سوى الإعجاب والحب العذرى ! وابتسمت سامية ابتسامة صفراء وتساءلت ، وهى تنظر فى عينى إيفيت بإصرار : « الحب العذرى ؟ ! » ، فما كان من إيفيت إلا أن بكت وشهقت وضربت وجهها وصدرها وأخذت تصرخ بهستيرية : « لم لا تصدقون؟ ألا تعترفون بوجود الحب العذرى ؟ ألا تعترفون بصداقة الرجل والمرأة ! ثم إن فاروق صديق ودود ، عفيف النفس شريف المقاصد ! » .

وذات يوم أمسك عبد الرحمن بشكرى وقال له : « لم لا تأخذ

زوجتك فى رحلة طويلة للبنان أو أوربا ، فقد يكون فى ذلك نفع وتهدئة لأعصابها المتعبة ؟ » ، فهتف شكرى مستنكراً : « أعوذ بالله ، وأترك عملى طوال تلك المدة ؟ ثم إننى أسكتّها البارحة بسهرة فى فندق الكونتيننتال ، وكان فاروق معنا ، وقد رقصنا حتى الفجر ! » ، وأخذ يتثاءب ، وقام معتذراً لأنه سينام طوال بعد الظهر كى يتمكن من حضور حفل القنصلية الأمريكية مساء هذه الليلة ، ففاروق قد استطاع تدبير بطاقات لثلاثتهم ! » . . . وزوى عبد الرحمن حاجبيه وقال ، بصوت حاول أن يجعله جافاً : « رفع الكلفة مع الأصدقاء قد يسبب المشكلات ! » فتساءل شكرى وهو يتمطى : « أى أصدقاء ، وأية مشكلات ؟ » : فقال عبد الرحمن بجدية : « فاروق رجل أعزب ، وإيفيت جميلة ، والناس فى هذه البلاد كثيرو الكلام ! » . . فقهقه شكرى بطيبة وقال : « يا شيخ . . ولا يهمك . . دعهم يتكلمون ، أتريدنا أن نعيش الكآبة خوفاً من تقولاتهم ! وفاروق صديق ودود ، عفيف النفس شريف المقاصد ! » . فتمتم عبد الرحمن بإبهام وهو يزوى حاجبيه : « فعلا . . »

لكنه لم يلبث أن تحدث مع سامية فى الموضوع ، وناقشا الموقف بجدية ، فطلبت منه سامية مفاتحة فاروق فى الأمر ، وقال عبد الرحمن بغيظ : « ذلك اللعين لا يعطينى فرصة للجلوس منفردين معاً ! لم أعد أراه إلا نادراً ، ثم إننى أعرف مسبقاً أنه سينكر ما رأيناه فى غابة الجوافة : والمشكلة ليست فاروق بالذات ، فلو استمرت تصرفات إيفيت بهذا الشكل ، فستجد بدل فاروق عشرين فاروقاً . المهم هو توعيتها هى ، وهذا من اختصاصك أنت ! » . وعلى أثر ذلك تركت سامية المكتبة — بعد أن تعهد عبد الرحمن بأخذ مكانها فى المكتب ريثما تعود — وذهبت لزيارة إيفيت .

كانت إيفيت ما تزال فى ثياب النوم ، فقد كانت تنوى الرجوع للفراش بعد أن ذهب شكرى إلى عمله ، والأطفال إلى المدرسة ، والخادمة

إلى المطبخ . إن سهرة البارحة فى القنصلية استمرت حتى الثانية عشرة ؛ وبعدها ذهب الثلاثة مع بعض الأصدقاء من موظفى القنصلية إلى حيث أكملوا السهرة فى فندق ( سان جورج ) حتى الفجر . ورقصت إيفيت مع فاروق طويلا . دار بها بعيداً عن عينى زوجها ، وهمس فى أذنها بكلمات أغنية « غرباء فى الليل . . يتبادلون النظر » . وأخذ يحدق فى عينيها النبيلتين باضطراب وأسى ، فهو ما عاد مازحاً فى علاقته بها : وها هوذا يزداد تعلقا بها يوماً بعد يوم ، والعلاقة التى قصد بها ملء فراغه باتت أكثر من مجرد تسلية عابرة ! لقد بات يشعر بالحسرة كلما اضطر لمغادرتها أو توصيلها إلى منزلها بعد كل سهرة . وقد بات يتضايق من مغازلة الأصدقاء لإيفيت ! وفى الوقت الذى يكون فيه شكرى منشغلا بالحديث مع أحد المعارف عن أحدث نوع من المكانس الكهربائية ، كان يتناقش هو وإيفيت حول آخر كتاب نصحها بقراءته . وكم كان غريباً أن يجد أن إيفيت لم تكن غبية كما كان يتوقع ، فهى تلتهم الكتب التهاماً ، وخصوصاً الغرامية منها ، وأصبحت لها أفكار خاصة حول الحب والجنس والحياة . وكانت تتساءل وهى تدور معه فى حلقة الرقص ، وفمها لصق أذنه : « وما معنى الخيانة ؟ أهى أن أخون رجلا لا يربطنى به سوى طفلين ، أم أن أخون رجلا يربطنى به كل شىء ؟ » ولما لم يجب ، دفنت وجهها فى كتفه وأخذت تبكى ، وأحس بها قريبة جداً منه فى تلك اللحظة ، وأن دموعها تعنيه كثيراً . . وإذا بها تعود إلى التساؤل : « ما معنى الحياة ؟ وما هدفها ؟ إن هدف الإنسان السعادة ، فلماذا نضل عن ذلك الهدف ؟ » . . ولا يجد فاروق ما يجيبها به سوى قبلات مختلسة يطبعها على عنقها كلما وجد الفرصة المناسبة . وكانت تتأمل زوجها وهو يحتسى الويسكى ويلتهم أطباق « المزة » بشهية غريبة ، فتحدث نفسها : « لست بالنسبة له أكثر من طبق مزة » ! ! . . ويقول فاروق برأفة : « لا تظلميه ، فهو يحبك » . فتتساءل بسخرية : « يبدو أنك

تشفق عليه! ». فيلوى فاروق رأسه بعيداً عن نظراتها المتهمة ويقول بحسرة: « نعم » . وتشد كفه بأصابعها وتقول بغيظ : « وأنا . ألا تشفق على؟» ويقول بحزن : « بلى » . وتصر بأسنانها وتتساءل : « فما معنى هذا ؟ » .

وكان يقع تحت وطأة أسئلتها المحرجة ، وقد أصبحت سليطة وشديدة المراس فى الفترة الأخيرة ، فإن تلك الكتب أعطتها حجة قوية ، وأفكاراً يصعب الوقوف فى وجهها ! . . وكان هو يحب شكرى ، وكلما ازداد تعلقه بإيفيت ازداد تعلقاً بشكرى أيضاً ، فما السر فى ذلك ؟ أهو حب الصياد لفريسته ؟ وأيهما الفريسة ؟ إيفيت ، أم شكرى ؟ . . أم هو الإحساس بالذنب ؟ أو هى الألفة التى تسببها العشرة الطويلة ، وقد بات يلتقى بشكرى ليلياً تقريباً ، كما أنه بات يمثل « محامى الدفاع » بالنسبة لصديقه الحائر ، فهو أحياناً يضطر للتصدى لهجمات إيفيت التى تكيلها لزوجها ، فى محاولة لنفث كبتها وللانتقام من رجل تحس بأنه بات سجاناً وليس زوجاً ! . . وأحياناً يصرخ فى وجهها بعنف ، ويؤنبها تأنيباً خشناً ، ويقول لها إنها امرأة عديمة القلب ، وإن زوجها ملاك من السماء ، وإنها لو كانت زوجته لما استمر فى العيش معها أسبوعاً واحداً . . وتصرخ فى وجهه بوحشية : « لا تتدخل فى شئونى ، أنت عدوى ، ولا أريد رؤية وجهك بعد الآن ! » .

لكنها فى الصباح تتصل به تليفونياً وتقول له وهى تشهق : « أنت السبب » : ويهتز قلبه برأفة ، وأحياناً بغضب . ومرة أو اثنتين ، كان يؤدى به الصراع الذى بات يعيشه إلى قرار بقطع علاقته بها ! . . وكان يغيب بالفعل يومين أو ثلاثة ، فتتصل به ، وتبكى وتقول إنها ستنتحر إذا هو ابتعد عنها ، وأنه إن كان يريد إبقاءها زوجة لصديقه ، فعليه ألا يحرمها وجوده ، وإلا فما معنى الحياة بعدئذ ؟ . . وتحت وطأة إلحاحها ، وإلحاح شكرى ، وإلحاح الملل والفراغ ، كان يعود إليها من جديد !

فى تلك الليلة ، وهى تبكي على كتفه ، أحست بدموعه تسيل على أذنها ، فازدادت التصاقاً به وأخذت تقبل عنقه وهى تنتفض بعذاب وتهمس فى أذنه : « لم لا نهرب ؟ سنذهب إلى إيطاليا أو إلى أستراليا ونعيش معا ، ولن تتركنى بعد ذلك ، ألا تريد هذا ؟ » .

ولم يجب ، بل شدها إليه بقسوة وتنهد ، فقالت : « أنا أعرف فيم تفكر ، لقد بت تحب شكرى أكثر مما تحبنى ، أليس كذلك ؟ لست غبية كى لا ألحظ مدى ما أصبحت عليه صداقتكما من قوة . أنا أعرف سر عذابك ونحولك ، فأنت قد بت تخاف عليه أكثر مما تخاف علىّ ، وبات إخلاصك للصداقة أكثر من إخلاصك للحب . لا بأس ! افعل ما تشاء ، فلن أعيش طويلا لأشهد النهاية . ها أنا أقول لك هذا ، ستكون السبب المباشر فى موتى . وبعدها فلتبق على صداقتك له ، فهو أحق بك منى ! » . . فأجابها زاجراً : « كفى عن البلاهة ، لقد أصبحت لا تطاقين ! » . . فتلوى عنقها وتقول بغيظ : « كيف أحببت رجلا مثلك ؟ أنت لست أكثر منه إحساساً . الرجال كلهم عديمو الإحساس والعواطف . أنت تعرف الظروف التى دفعتنى إليك ، ولو كنت أجد من يحبنى لما التفت إليك ! » . . فيحملق فيها بعجب ويتساءل : « هكذا ! إذن فقد كنت اللعبة التى لم تجدى غيرها ! وأنا الذى كنت أحسبك امرأة عاطفية خجولا ، وها أنذا أكتشف أنك لست بالعاطفية ولا بالخجول ! » .

ويعودان إلى المائدة وكل منهما يطبع على وجهه تكشيرة ضخمة ترعب شكرى المسكين ، فيتساءل بدوره عمن كان السبب فى ذاك الغضب . وتبدأ هى بالكلام ، فتشير إلى فاروق بأصبع الاتهام قائلة إنه غير أهل للصداقة ، وإنه فظ وغليظ ، وإن التى ستتزوجه ستكون أتعس امرأة فى العالم . ويتساءل شكرى بذكاء يحسد عليه : « كل هذا لأنه رد على اتهاماتك الموجهة إلىّ ؟ » ، ثم يلتفت إلى فاروق قائلا : « فى المرة

القادمة ، عندما تبدأ إيفيت فى نفث غضبها علىّ ، فما عليك إلا أن تغلق فمك ، وإلا تحول غضبها عليك أنت ! » . . فيقول فاروق بجمود : « فإغلاق الفم هو فضيلة المغلوبين ! » . وتتساءل إيفيت بغيظ هستيرى : « لا أظنكما ستدعيان الفضائل ، لأنى أرى فميكما مفتوحين على سعتهما ! » . . فيجيبها فاروق متسائلا بدوره بغيظ : « وماذا عن فمك أنت ؟ » ، فتصرخ : « كيف تجرؤ ؟ كيف تجرؤ ؟ » . . وتضيع صرخاتها فى عباب الموسيقى المنبعثة من الأوركسترا الإيطالية ، والمطرب يغنى كلمات عاطفية تبدأ بكلمة الحب ، وتنتهى بكلمة الحب أيضاً . وفى نهاية السهرة ، وعند ما تتردد أصداء اللحن المعهود : « غرباء فى الليل » ، تتبادل إيفيت وفاروق نظرات حزينة منفعلة ، وتبكى بحرقة فى ظلمة الزاوية المضاءة بالشموع . فتمتد يد فاروق تتحسس يدها تحت المائدة ، فى حين يدندن شكرى اللحن بفمه وهو يحتسى الويسكى ، ويمضغ المزة !

## ٢٠

أمسكت إيفيت بالتليفون وهى فى فراشها وتمطت قليلا ، ثم كورت ساقيها واستلقت على جانبها الأيسر وهى تضع السماعة على أذنها ، وقالت هامسة : « أما زلت غاضباً منى ؟ » . فزفر وقال : « ماذا تفعلين ؟ أريد أن أراك . » ، فأطلقت ضحكة منغمة وقالت : « لا ، لن أراك الآن لأنى نائمة ، لقد أفقت وكل عضو فى جسمى ينشد النوم . سأموت من كثرة السهر . ألا تلاحظ أن بشرتى قد ازدادت شحوباً ؟ » . وفى الماضى كان ينتظر كلمة كهذه ليمطرها بوابل من الغزل : فبشرتها أجمل بشرة فى العالم ! وخداها أشهى خدين حملتهما تفاحة . . وعيناها مرآة السماء على الأرض . . إلخ . . أما الآن ، فما عادت عواطفه الحائرة بحاجة لمثل ذاك الكلام المزيف ! . : وقال بعد فترة صمت : « اسمعى . لقد كنت أفكر طوال الليل . . » . فضحكت باستهزاء :

« أى ليل ؟ لقد افترقنا فى الصباح ! » . لكنه قال مقاطعاً : « إيفيت ماذا أقول لك ؟ يجب أن نجد حلا لما نحن فيه ، أنا لا أستطيع الاستمرار فى وضع كهذا . لقد أصبح الموقف متعباً ومثيراً للكآبة والقلق ! » . فقالت بخبث : « حسناً ، إذن فلتنفذ المشروع الذى عرضته عليك ! » . . ولما لم يجب واصلت : « ماذا تنتظر ؟ أنت غنى ، وباستطاعتك أن تقوم بكل المشروعات التى تخدم حبنا . وأنا سأتبعك إلى آخر العالم ! » ، فقال باتزان غريب : « وماذا عن طفليك سم سم ونينا ؟ » . فصاحت بخشونة : « هذا من شأنى وحدى ! » .

ـــ بل من شأننا معا ، فقد تستفيقين وتتهميننى بأنى السبب فى حرمانك من طفليك ! .

قالت بغضب : « ألم تفكر فى هذا إلا الآن ؟ لم لم تفكر فيه قبل أن توقعنى فى حبك ! إسمع ، أنا أعرف ماذا تقصد ، تريد ، تريد الخلاص منى ، أليس كذلك ؟ تريد الابتعاد عنى كما حاولت فى المرتين السابقتين ، وها أنت تخترع المبررات لكى تلقى بى جانباً وتتزوج من ابنة الوزير الشقراء . أتظننى بلهاء؟ أنا أعرف أن والدك يحثك على الزواج من ابنة الوزير ! والدك يريدك رجل سياسة لا رجل عواطف . . أليس كذلك ؟ » . . وأخذت تقهقه بعصبية : « ستكون نائباً فى البرلمان كوالدك ، فمن شابه أباه ما ظلم ، أليس كذلك ؟ » ، وعادت تقهقه بسخرية لاذعة : « وستكون ممثلا للشعب فى مجلس الأمة . . ها ها ها . .

وستكون زوجاً لدجاجة شقراء محدودبة الظهر ، لكنها تبيض ذهباً ! وأنت يا قرة عينى تحب الدجاجات التى من هذا النوع ، فهن يعرفن كيف يوصلن أزواجهن إلى الكراسى ! » . . فصاح بغضب : « إن لم تكفى عن هذا الكلام ، سأعرف ما أنا صانع ! » ، فقالت بسخرية : « أتهددنى ؟ أم تراك تحاول الظهور بمظهر الشخصية الفذة ؟ أتظننى سأسترحمك وأستعطف قلبك ؟ لا يا سيدى ، اذهب وافعل ما تريد .

هيا :: اقطع هذه المحادثة واذهب من توك واطلب يد ابنة الوزير وبذلك تصبح النائب المرتقب ، وعريس الدجاجة الحدباء ! »، فقال بعنف : « متى تكفين عن الحماقة ؟ ألن تكبرى ؟ » . صاحت بانفعال : « ماذا تقول ؟ أنا حمقاء ؟ أنا حمقاء ؟ صن لسانك يا أستاذ . أنا إنسانة عاقلة ومفكرة ، وأتحداك وأتحدى العالم كله ، هيا أثبت أن هناك من هى أذكى وأكثر ثقافة منى . مع من تظن نفسك تتكلم ؟ أنا إيفيت يا أستاذ ، ألا زلت تجهل من هى إيفيت ؟ » . . فقال ببرود : « ومن هى إيفيت ؟ » . صاحت ساخرة : « نعم نعم ؟ ألا تعرف من أنا ، أنا ابنة اسحق بك الصفدى ، أم تراك نسيت من هو والدى ، حسناً سأذكرك به ، أتعرف من هو أكبر وأغنى تاجر للسجاد فى الشرق الأوسط كله ؟ أتعرف من هو أوجه وأكرم رجل فى الأردن كلها؟ إنه والدى، هل تذكرت الآن ؟ » . . فقال بعنف : « أهو ذاك الذى أنجب أحمق ابنة على وجه الأرض ؟ وأظنهم يسمونها على ما أعتقد : إيفيت؟ ! » :. فصاحت وهى تشهق : « أيها المتوحش ، أيها البربرى ، سأريك ما أنا فاعلة ، وسأجعلك تبكى دماً من الخجل والندامة . وستكون أنت قاتلى ، ستكون السبب فى انتحارى ! » ، ووضعت السماعة بعد أن أسمعته شهقة لن ينساها . . فصاح بقلق : « إيفيت، إيفيت ! . . آه . . المجنونة . . . ستقتل نفسها !» . وركض نحو سيارته محاولا الوصول إليها قبل أن تنفذ تهديدها الجنونى ، فمن يدرى ، قد تفعلها ، فهى . . فهى إيفيت !

وعندما وصل إلى منزلها ، كانت سيارة سامية أمام الباب ، وكانت سامية تقف فى « الفراندة » الزجاجية وهى ترتدى معطفها الأبيض ، وكان يبدو أنها قد وصلت من توها ، فغير اتجاهه ، ومر من شارع فرعى يؤدى إلى المدينة من جديد . . ودار بسيارته فى كل الشوارع الكئيبة الممطرة ، فقطع شارع البيرة ، وعاد أدراجه فسار فى الشارع

الرئيسي . وكان بعض الفلاحين يقفون على الرصيف تحت المطر فى انتظار الأتوبيس ؛ بينما وقف بائع الكعك والبيض فى زاوية قريبة من المحطة وقد غطى بضاعته بقطعة من النايلون اتقاء للمطر . ومر أمام لافتة ضخمة معلقة فى منتصف الطابق الثانى من بناية ضخمة تحتل أبرز مكان فى الشارع . أوقف سيارته أمام البناية ونزل ، ورآه بعض المارة فرفعوا أيديهم بالتحية . لكنه قفز الدرجات الموصلة ودفع باباً ودخل ، وكان هناك بعض القرويين يجلسون فى غرفة الانتظار ، ورآه السكرتير فأسرع لتحيته ومصافحته . وسأله فاروق عن الوالد ، فقال السكرتير : « والدك مشغول الآن . إحدى الشخصيات السياسية فى زيارته .أتريد الدخول عليه ؟ » ؛ فأجابه : « لا ، ولكن فور خروج الرجل بلغ والدى بأنى هنا . » ، وجلس فى غرفة الانتظار . وعند ما دخل فاروق مكتب والده ، كان هذا ما زال مشغولا عنه بالتليفون ؛ وكان يردد وراء كل مقطع أو كلمة : « نعم يا معالى الوزير . . حاضر يا معالى الوزير . . أمرك يا معالى الوزير . . »

وجلس فاروق فى الكنبة المقابلة للمكتب .. فى انتظار انتهاء الحديث .

كان مكتباً فخماً ، تدل كل قطعة فيه على مظاهر الثراء والترف . مدفأة كبيرة تتوهج كالشمس . سجادة رمادية تفرش الأرض كلها ، ستائر من قماش ثمين تزين النوافذ ، وقد انفرج القماش النبيذى عن « دانتيل » أبيض فى منتصف النافذة . وفى السقف تدلت حاملة عريضة لثلاث أنابيب « نيون » تشيع فى المكان ضوءاً مشرقاً . وعلى المكتب الخشبي الضخم منفضة وطاقم أقلام وقداحة ، كلها مصنوعة من خشب الزيتون المحفور والمطعم بالصدف . . وقال الوالد : « عاش من رآك يا فاروق ! » ، فرسم فاروق ابتسامة متكلفة وقال : « أهلا . » . وقال الوالد بابتسامة هازئة : « أهلا بك ، أين أنت يا رجل ؟ أنسيت أن

لك أهلا فى هذه البلاد ؟ » . . فقال فاروق برصانة غريبة : « أنت تعرف يا أبى أنى مشغول طول الوقت. » ، فنفخ والده دخان سيجاره من زاوية فمه كما يفعل كبار الشخصيات ، وقال بصوت ضخم يتناسب وجثته الضخمة وهيئته الصارمة : « مشغول بماذا ؟ » . فقال فاروق وهو يزوى ما بين حاجبيه : « مشغول بوظيفتى ، فى الوزارة . » ، فابتسم الوالد وهز رأسه بسخرية : « حقاً ! مشغول بوظيفتك ؟ » ، فرفع فاروق رأسه ونظر فى وجه أبيه ، وكان ذاك ينظر إليه بإمعان من خلال نظارته الغليظة . ولم يجب فاروق ، فقد كان يعرف تماماً ما يجول فى خاطر أبيه ! . . فى حين مسح الوالد طرف سيجاره بحافة المنفضة ، فتساقط الرماد جافاً جامداً ، وقال : « أتعلم من كان فى زيارتى ؟ » ، فهز فاروق رأسه نفياً . وكان والده ما زال يتأمله بإمعان كما لو كان يحاول أن يثير ارتباكه وقلقه ! . . وما لبث الوالد أن قال : « الوزير ( . . . ) كان هنا ، أتعرف ما سبب مجيئه ؟ » . وبدون انتظار لإجابة فاروق قال : « جاء لإجراء مشاورات معى بشأن دخولى فى الوزارة الجديدة ، بعد أن فوضه رئيس الوزراء المرتقب بذلك. » .. فقال فاروق بعجب : « حقاً !؟» . وإذ ذاك سحب الرجل نفساً طويلا وقال بتأمل : « نعم ، سأصبح وزيراً ، أما أنت ، فلن تصبح شيئاً إذا استمرت صداقاتك وعلاقاتك النسائية على هذا المستوى ! » ، وهنا علا الوجوم وجه فاروق ، فقال والده بترفع : « أنا لن أتدخل فى خصوصياتك ، ولكن أحب أن ألفت نظرك إلى أن علاقتك بالميثلونى لن تجر عليك إلا الويلات . أنت تعرف ماضيه ، وحاضره ليس أفضل من ماضيه ، وهو مراقب ، وقد يقع قريباً فى يد الشرطة من جديد ، وترددك على تلك المكتبة السخيفة لن يكون فيه إلا إضاعة لوقتك وطموحك . أما مشكلة المشاكل فهى السيدة الرعناء . ماذا ! أتريد أن تكون بطلا لإحدى الجرائم أو الفضائح ؟ أهذا هو طموحك السياسى من أجل مستقبلك ؟ اطمئن ، فستقبلك

لن يكون إلا مظلماً إذا استمرت تصرفاتك وعلاقاتك النسائية بهذا الشكل ! » . . فقال فاروق والوجوم يعلو وجهه : «أبي . . أنا ما عدت صغيراً ! » . وإذ ذاك زفر والده وقال بشيء من الانفعال : « أنت حرّ يا ولدي ، ولكن ، أمامك الآن فرصة لا تعوض ، في البرلمان حالياً مقعدان شاغران ، فماذا تنتظر؟ أنا لا أستطيع تهيئة الجو أمامك وأنت صديق للميثلوني وعشيق لامرأة معروفة جداً ، ومن المتوقع جداً أن يصحو الزوج الأبله بين لحظة وأخرى . ويطلق في الجو فضيحة أو جريمة ! » . فقال فاروق بتجهم : « لست صديقاً للميثلوني ! » . واستطرد الأب بسخرية : « لكنك عشيق إيفيت ، أليس كذلك ! » ، فقال فاروق بغضب : « لست عشيقاً لأحد . وعلاقتي بعائلة عبد الله هي علاقة صداقة فقط ، وشكري ليس أبلها أبداً ، فهو شاب محترم ، وقد كان زميلي في الدراسة . وإيفيت امرأة محترمة رغم كل ما يقال عنها ، وأنا أكن لها كل إعزاز واحترام ! » .. وإذ ذاك فتح الوالد عينيه عجباً ، وابتسامة ترف على شفتيه ، وقال : « لست عشيقاً إذن ، بل عاشقاً ! رائع ! وهذا ما يجعل للقصة حبكة . اسمع يا بني : إلعب ما شئت ، واعشق ما شئت ، واسرق ما شئت ، ولكن دون أن تدع مجالا لأحد كي يضبطك أو يهددك . دعهم يظنون بك أسوأ الظنون ، دعهم يعتقدون بأنك كاذب وزان ولص ، دعهم يفترضون ما يريدون طالما أنت في موقف حصين ، لكنك لا تعرف هؤلاء الناس : فهم كلاب ، لا يعضون إلا المستضعفين! أنا لا أمنعك عن القيام بغزوات أومغامرات» .

وإذ رأى في وجه ولده تقطيبة ضخمة ، قال متراجعاً : « أنا أعرف أنه ما عاد لي سلطان عليك . لقد بت رجلا ، سيد نفسك ، ثم إن لسان حالك يقول بأنك أكثر ثقافة مني ، وأذكى مني ، وأكثر علماً مني ، ولكن مهلا ، فهناك الخبرة ، وهي تنقصك . . وهناك الحنكة ، هناك الذكاء التجاري الذي يوصلك إلى هدفك ويحقق لك أطماعك . هناك

ما يميز الرجل الناجح عن الرجل المنسى المهمل . ولا أظنك ترغب فى أن تكون منسياً ، فأنت طموح . ولنقل بصراحة : أنت أنانى ومحب للظهور ، ولن تقنع بالقليل أو حتى بالمتوسط ، فمن أدرى بك منى ؟ . . دون إخوتك جميعاً كنت أعرف أنك الناجح الوحيد ، فقد كنت الأعند ، والأقوى ، والأقسى . كنت تطلب الكثير ، ودائماً تتمنى أكثر مما تحصل عليه ، ولا يحلو لك إلا ما فى أيدى الآخرين . صفات كهذه لن تظل متوارية وراء الستار ، ولا بد من تهيئة الجو أمام هذه المزايا لتنمو وتتجه فى طريق طموح . فلا تضيع كل ذاك فى سبيل الميثلونى أو إيفيت . اسمع ، ابتعد عن الميثلونى وابتعد عن إيفيت . أنشىء صداقات — المفيد منها ! — واعشق النساء ، اصطدهن ، أوقعهن ، اخدعهن ، ولكن بدون فضائح أو مآس ! اسمع كلامى يا فاروق ، اتبع هذه الطريق ، فهى مضمونة النتائج . وكما قلت لك : لا تعط الناس أسرارك ، وإلا كنت من المستضعفين ، دعهم يفترضون ولكن لا تمنحهم منفذاً إليك ، لا تمنحهم فرصة ضبطك متلبساً ! التهم العشوائية دخان نشمه ولا نمسكه ، المهم هو سمعتك . افعل ما تريد ، ولكن بتستر ، ومن مصدر قوة . وهناك مثل عامى يقول : « شيئان لا نسمع بهما : موت الفقير وزنا الغنى ! » ، أفهمت ؟ » .

هب فاروق واقفاً بتجهم وقال : « سأراك فيما بعد ، شكراً . » ، ومشى يضرب الأرض بكعبيه ، فقد أحس بالإهانة والغضب ، وهو لن يسمح لوالده بالتدخل فى أمره أبداً ، فقد أصبح رجلا ، وهو حر ؟ والحال دائماً هكذا : الوالد ينصح ، والولد يرفض النصيحة ، أحياناً يرفضها دفاعاً عن مبدأ يؤمن به ، وأحياناً يرفضها لأنها لا تخدم نواياه ، وأحياناً يرفضها بدافع العناد والكبرياء ، وكان فاروق ممن يقفون الموقف الأخير . وعاد يجول فى الشوارع ، ومر ثانية أمام منزل إيفيت ، وكانت سيارة سامية ما تزال تقف أمام الباب ، فعاد أدراجه وأخذ يقطع شارع

الإذاعة بسيارته ذهاباً وإياباً . ومر بالمكتبة ، فأوقف سيارته أمامها وصعد الدرجات مسرعاً . وكاد يرتطم بـ « ربيع » الذى كان خارجاً لتوه ، وابتسما ، وتصافحا . وسأل ربيع فاروق أينوى قبول دعوة الميثلوفى إلى ميثلون ؟ . . . وبدون تردد ، ولكى يثبت لنفسه أنه ما عاد طفلا ، وأن نصائح الوالد ما عادت تثير سوى سخريته ، ولكى ينفى عن نفسه تبعيته لوالده . . قال فوراً : « طبعاً ، سأكون فى الطليعة ! » . ودخل المكتبة . ولفح وجهه دفء جوها ، ورائحة الكتب بنكهتها الخاصة العميقة . وقف وسط القاعة الضخمة ونظر للمكتب الزجاجى فرأى سميرة تجلس هناك بجوار عبد الرحمن . وكان هو يتكلم ، وهى تصغى بتأثر ، وقد ظهر الانفعال على قسمات وجهها الصبيانى . كان عبد الرحمن يتكلم بجدية ، ويبدو أن الموضوع كان شخصياً ومؤثراً . وكانت هى تستمع وهى مطأطئة الرأس ، بشرود .

وخرجت « نسرين » من قاعة السينما ، ورأت فاروق يقف هناك ، فحيته وقالت : « لماذا تقف هكذا ؟ ما بك ؟ » . وأخذت تتأمل وجهه العابس على غير عادة ، وتساءلت : « ما بك ؟ اقترب من المدفأة إذا كنت تشعر بالبرد . » ، فهز رأسه بشرود وقال : « لا ، مجرد صداع بسيط ، وسأجلس وأدخن . » . . وجلسا حول مائدة فى ركن منزو . أخرج غليونه ، فحشاه بالتبغ ، ثم أشعله ، وأخذ يمتصه بشراهة وانفعال . وانتبه لحاله فحدث نفسه : « ما بالى قلقاً ؟ ما الذى يضغط صدرى بهذا الشكل ؟ طلبت العزاء عند والدى فزادمن شعورى بالقلق والتعب . وإيفيت . إيفيت . . لقد أصبحت مشكلتى الكبرى ، وسامية عندها الآن . تستدرجها ، تحقق معها ، وقد توقع بها . . وستكون فضيحة بالفعل ! » . . وخاطبته نسرين بتبرم : « هذه الأيام يبدو الكل مكتئباً . عبد الرحمن قلق ، وسامية فى حال لا تطاق ، وسميرة تبدو أكثر تعاسة بخطيبها مما لو كانت بدونه ! يبدو أنه لا يبادلها نفس المشاعر . أترى ؟ عندما

خرج ربيع من هنا كانا فى حال غريبة . تصور أنه لا يبادلها إلا الضرورى من الكلام . وأحياناً يرفض مجاملتها ، ببرود غريب! . ورغم أنه لا يبدو قليل ذوق بهذا الشكل الذى يتظاهر به ، إلا أنى أعتقد بأنه لا يحبها ، فما رأيك ؟ » .

فى الماضى كان ينتظر مناسبة كهذه ليبدى رأيه فى الموضوعات ، أيًّا كانت تافهة ، ويبدأ مناقشات لا أول لها ولا آخر ، ويحلل نفسية هذا ونفسية ذاك ، ويعزو تصرفات تلك إلى الكبت ، وتصرفات ذاك إلى الكبرياء ، وأحياناً إلى قصر النظر . أما الآن ، فحاله لا تسمح له بالتمعن فى مشاكل الغير ولديه ما لديه . لديه . . إيفيت ! . . « أخشى أن توقع بها سامية ، ويفتضح الأمر! »

وقالت نسرين : « ألستمعى فى الاعتقاد بأن ربيع لا يحب سميرة !؟» فأجاب فاروق : « يبدو الأمر هكذا بالفعل ! » ، وقالت نسرين بثرثرة : « يا إلهى ، ما أروع صبر هذه الفتاة ، وجلدها ! لو كنت مكانها لصفعته على وجهه ، فماذا يظن نفسه ؟ ! ما أسخف هؤلاء الشباب ، يكون الواحد منهم لطيفاً ، ظريفاً ، شكوراً ، وعندما يغترب ويرى العالم الأوربى ، والحضارة ، والنساء ، ينسى أهله ! » ، فقال فاروق محاولا الانشغال بالحديث ، فى محاولة يائسة لنسيان اضطرابه وقلقه : « فما بالك أنت بدورك ؟ » . فابتسمت كمن ضبطت أثناء اقترافها لأكذوبة صغيرة وقالت : « حالى أنا يختلف يا عزيزى . لقد نشأت فى أمريكا ، ثم أن معظم أهلى وأقاربى هناك . والوضع الطبيعى لى هو أن أعيش حيث تسكن غالبية أفراد العائلة . ولولا إصرار سامية على المكوث هنا لما بقيت فى هذه البلاد . وقد أتمكن من إقناع سامية بالاغتراب ثانية لولا وجود عبد الرحمن . فإذا تزوجا فسأرحل نهائياً ، سأعيش مع عمتى هناك أو مع عمى . وأرجو أن يتزوجا ! » . . قال فاروق بسخرية :

« الميثلونى لن يتروج! » . نظرت إليه نسرين بدهشة وتساءلت : «ولماذا ؟ طبعاً الميثلونى سيتروجها ، فهو يحبها . ألا ترى أنهما لا يفترقان ؟ » . فأجاب : « أعلم ، لكنه لن يتمكن من الزواج منها ، فرجل مثله لن يستطيع الزواج ! » ؛ قالت نسرين بحدة : « ولكن لماذا ؟ ما المانع؟ انه فى حال ميسور ، وأختى كذلك ، وهما عاشقان قديمان . » ، قال بفتور : « لكن حاضر الميثلونى ليس أفضل من ماضيه ، وقد يعتقل قريباً ! » . وانتبه لنفسه ، لقد ردد نفس كلمات والده ، وهو الذى يحاول بناء شخصيته بعيداً عن التأثر بشخص والده ، فازداد قلقه واضطرابه ! . . وكانت نسرين تقول : « وماذا لو اعتقل ؟ » ، فردد وراءها : « نعم ، ماذا لو اعتقل ؟ هل ستنتظره سامية ؟ » . فقالت نسرين بإصرار : « نعم ، ستنتظره حتى آخر العمر ! » ، فقال وابتسامة ساخرة على شفتيه : « هذا كلام مراهقات ! » . قالت نسرين بانفعال : « لقد جربت سامية الحياة بدون عبد الرحمن ، وانظر ماذا كانت النتيجة : حبها له لم يبرد أبداً ! » . فسألها فاروق باسماً : « أتعتقدين ذلك ؟ » ، فنظرت إليه وقالت بفتور : « وماذا تعتقد أنت ؟ » . قال بترو : « أعتقد أنها ما كانت واقعة تحت تأثير الحب ، بل تحت تأثير وهم ضخم ! » . فنظرت إليه من زاوية عينيها ، وقالت باسمة : « أنت لا تحب عبدالرحمن ، أليس كذلك ؟ » فقال مدافعاً : « أبداً ، إذا كنت لا أحبه ، فلست أكرهه ! » . وقالت نسرين بعجب : « وما إحساسك تجاهه إذن ؟ »

— لا شىء ! .

— كيف لا شىء ؟ عبد الرحمن ليس شخصاً عادياً ، وإن كنت لا تحس بشىء تجاهه فكأنك تنكر وجوده ، ألا تعجب به ؟

— ولماذا أعجب به ؟

حملقت فيه بدون تصديق، وقالت : « تقصد أنك لا تكن له الإعجاب ؟ » ، فعاد يسألها : « ولماذا تتوقعين أن أفعل ؟ » . قالت

بانفعال : « لأنه فنان ، وإنسان ، ومبدع ! » ، فهز رأسه وقال ، محاولا إظهار عدم مبالاته : « إنسان أعلى من المتوسط بقليل ! » ، فضربت الطاولة بكفها وقالت بغيظ : « يا إلهي ، ما أجحدك . أتنكر فضله وقد وهب حياته كلها لمبادئه ؟ ! » . قال هازئاً : « ألأنه اعتقل مرة أو مرتين أصبح « جيفارا » ؟ » . قهقهت نسرين بغيظ وقالت : « أنت تغار منه . أنا أعرف . أعرف ! » . فقال بغضب : « أغار منه ؟ خسىء ، لم يخلق بعد الذى أغار منه ، فماذا يفضلنى ؟ مستواى الاجتماعى أرقى من مستواه ، وشهادتى أعلى من شهادته ، وثقافتى أعمق من ثقافته ، وشكلى أوسم من شكله ، وعمرى أصغر من عمره ، وثروتى أضخم من ثروته ، ووالدى سيصبح وزيراً ، ووالده مات مزارعاً فى بيارات البرتقال ! ولكنى رغم كل تفوقى عليه أعامله معاملة الند للند ، فهو رجل دمث لا بأس به ، ويعرف كيف يحترم الناس المحترمين ، وعند ما يمر بى فى الشارع يرفع يده بطولها ويحيينى أجمل تحية ، فهو يكن لى احتراماً عميقاً . أنت تعرفين أن أبناء الفقر يظلون حاقدين علينا ، أما هو ، فشعوره تجاه الذين يفضلونه ليس حقداً على الأقل . فهو لطيف ودمث ، هذا كل ما يميزه . أما عن اعتقاله ، فأظنه مدعاة للتخوف ، لا للفخر ! » . فصاحت به نسرين : « لكنه أعتقل من أجلك أيضاً ، ومن أجلى ، ومن أجل كل فرد فى هذا الشعب ، فكيف تقول هذا عنه ؟ » . قال بكبرياء : « وما الذى قدمه الميثلونى لشعبه باعتقاله ؟ لقد سجن . تشرفنا ! وماذا بعد ؟ ماذا أفاد باعتقاله ؟ هل حرر فلسطين ؟ هل قلب نظام الحكم ؟ هل نفذ الديموقراطية ؟ هل مسح الجوع والجهل عن وجه هذا الشعب ؟ ما الذى فعله الميثلونى ؟ وماذا أفاد باعتقاله ؟ وحتى لو قلب نظام الحكم ، كما كانت تهمته فى المرة السابقة — ولو أنى أعتقد بأن التهمة كانت ملفقة ، فرجل لين كالميثلونى لا يستطيع الدخول فى مؤمرات سياسية كهذه .

فهو أضعف من ذلك !ـ ولكن، على اعتبار أن التهمة حقيقية ، وأنه نجح فى قلب نظام الحكم ، فهل تعتقدين بأنه كان سيستبدل به ما هو أحسن ؟ كلا ،، بل كان سيحدث فى الأردن ما حدث فى بعض البلاد العربية : انقلابات ولا شىء غيرها ! وتلك الشعارات ليست أكثر من (كليشيهات) تزين الصحافة والإذاعة ، وتؤدى إلى المزيد من القتل والتعذيب، والمزيد من الهمجية ، والمزيد من الدم ! . . ثم تبدأ الحلقة المفرغة : فلاحون يعتلون المناصب ويصبحون ممثلين للشعب فى المجالس النيابية . . أنظرى إلى برلماننا ، إنه لا يضم إلا النخبة ، الأغنياء والمثقفين وذوى الأصل الطيب ، وعندما يتكلم أحدهم فإنه يعرف كيف يتكلم . . نوابنا يعرفون كيف يوجهون الأمة وكيف يلبون مطالب الشعب ، وكيف يصنعون التاريخ ، أما الفلاح فماذا يعرف ؟ ومن جهتى أنا ، فأنا أومن بأن البرلمان هو المسرح الذى ينبغى ألا يقف عليه المهرجون، ومن الممكن أن أنال أنا شخصياً مقعداً فيه . أتعتقدين بأنى سأظل موظفاً فى الوزارة ، لا يا عزيزتى ، فسأدخل البرلمان قريباً ، وسأمثل الشعب ، فما رأيك ؟ ألن أمثل أمتك خير تمثيل ؟ »

وقبل أن تفتح فمها لتجيب ، فتح الباب الزجاجى ودخلت سهى . ووقع نظر نسرين عليها فوقفت ترحب بها ، ونادتها لتجلس بجوارهما ، فمشت تلك تجاههما ببطء . كانت تبدو أكثر شحوباً منها فى الماضى : وشعرها الأسود الطويل مشدود إلى الخلف بمحبس فضى للشعر ، وفى عينيها الحريثتين حزن وتعب ، وفى مآقيها زرقة وجفاف . . فقال لها فاروق باسماً : « منذ متى لم أرك ؟ أين أنت ؟ » . قالت بفتور : « هنا » ، وجلست على مقعد وهى تلهث ، وكان الإرهاق يجلل وجهها . ثم سألته ببرود : « ما أخبار صديقك ؟ » . « تقصدين بشارا ؟ يقول أخوه بأنه يرأس الآن مختبراً كيميائياً فى السعودية ، وقد تمت خطبته على آنسة تعمل مدرسة هناك ، وأظنه فى أحسن حال . أترين ؟ لقد

أضعته من يدك ! » : : فنفضت سهى يدها فى الهواء وقالت بلا مبالاة : « لم يكن يناسبنى ، وأنا لن أتزوج إلا ممن يناسبنى . . ولن أجد من يناسبنى ! » ، فتساءل فاروق ضاحكاً : « وأنا ، ألا أناسبك ؟ » ، فنظرت إليه وزوت ما بين عينيها وقالت : « لا . » فتساءل : « ولا للحب ؟ » . قالت باستخفاف : « ولا للحب ! » . تساءل بخبث : « ولا كزميل "كيف" ؟ » . ارتسم العبوس على وجهها وقالت : « ماذا تقصد ؟ » . قال مواربا : « أراك دائماً ترقصين فى « الكارلتون » ، وعندما ترقصين تحلقين ، أشعر بأنك تسبحين فى عالم حالم جميل، ملىء بالسعادة والانبساط و « الكيف » ، فلم لا نخرج معا مساء هذا الأحد ؟ » : قالت ببرود : « لا ، فقد وعدت صديقاً أمريكيًّا بذلك » . تساءل ملمزاً : « أهو « هيبى » ؟ » . قالت بجفاف : « لا أدرى ! » . . عاد يلح : « فما رأيك فى ليلة الجمعة ؟ » . . وهنا قاطعته نسرين : « يوم الجمعة سنكون فى ( ميثلون ) ، قد لا نعود إلا فى منتصف الليل . ألن تذهبا ؟ » : قال فاروق : « طبعاً ، لقد وعدت « ربيع » بذلك قبل لحظات » : : واستدار ناحية سهى وسألها : « وأنت ؟ » . قالت بفتور : « طبعاً ، وهل سأبقى وحدى ؟ » . ولمح فاروق خيال سامية يمر فى الحديقة مقترباً من الباب ، فنهض قائلا : « سأذهب الآن ، فلدى موعد . » . . وانتظر حتى دخلت سامية المكتب الزجاجى ، فخرج هو بعد أن أكد للشابتين أنه سيراهما بعد غد فى ( ميثلون ) . وعرض عليهما مرافقته فى سيارته أثناء الرحلة ، فإن سامية وعبد الرحمن سيركبان فى سيارة شكرى ، وسيكون هو وحيداً ، بدون مبرر !

* * *

دخلت سامية المكتب الزجاجى ، وكان الامتعاض يبدو واضحاً ومرسوماً فى كل قسمة من قسمات وجهها ، فخلعت معطفها وجلست على أريكة ثم أشعلت سيجارة وأخذت تنفخها بضيق وهى تستمع لما يدور :

نظر إليها عبد الرحمن نظرة طويلة محاولا معرفة ما يدور فى رأسها ، وعاد يستمع إلى سميرة وهى تزفر وتنفث همها . كانت تقول : « أنا لا أريد نقودى ، أنا أريد حباً وحناناً . إن كان يعاملنى بهذا الشكل كى أمله وأعتقه ، فما من داع لكل هذا اللف والدوران ، فليفسخ الخطبة ويطلقنى ، ولن أطالبه بحقوقى كخطيبة ، ولا بحقوقى كدائنة ، وليعد من حيث أتى ! » . وزفرت بمرارة ، وكانت الدموع تتراقص فى عينيها ، ثم استطردت : « إنه لم يكن هكذا . لقد تغير ، انقلب حاله ، ما عاد ذاك الشاب الجاد ذا الأفكار الثورية البناءة ، لقد انقلب حاله ، أصبح « مائعاً » ! . . أهكذا ، بين ليلة وأخرى ، يصبح الشاب الثورى مائعاً ! كيف ؟ ولماذا ؟ ما الذى حدث ؟ ماذا رأى هناك ؟ ما الذى غير اتجاهاته ؟ وتلك النقمة على البرجوازية المدللة ضاعت ، فقد أصبح هو نفسه مدللا . وذكريات السجن والمعتقل ، كل ذلك ضاع . ضاع ! » وصمتت لحظات ، ثم عادت تقول بغضب : « ما من أحد لم يلحظ جفافه وبرودم تجاهى . ما من أحد إلا وينظر إلى نظرات متسائلة قلقة مترقبة . وأنا أكره هذا الموقف الذى يضعنى فيه ، فهو مدين لى ، وأخاف لو فاتحته فى الأمر أن يتهمنى بأنى أحاول استغلال موقف المتفضلة عليه . لقد أصبح فاسداً ، فاسداً ، لقد فقد حساسيته وكرامته وتهذيبه ، طريقته الحقيرة فى الخلاص منى هى أكبر دليل على ذلك ، فلو كان بعد شريفاً لاتخذ طريقاً أقل التواء وأقل تجريحاً . ولو أنه قال لى : « فليمض كل إلى سبيله » لقلت له « مع ألف سلامة » . صحيح أنى أحببته ، ولكنى لست مراهقة لأظل متعلقة برجل لم يبق منه إلا صورته . أنا لا أستطيع النظر إلى بنطلونه الضيق وحذائه الثمين ، وأنسى أيام اعتقاله ، أيام كان ثورياً ، عنيفاً ، وجاداً ! . . تصور أنه فى ذاك النهار أخذ يغازل إيفيت بكلمات مائعة أمامى ، وتلك البلهاء كانت تضحك بفرح وهى تجاريه فى سخفه وسماجته ، ولم يخجل منى ، لم أشعر

بالغيرة ، أقسم ، أقسم أنى ما أحسست إلا « بالقرف » . أنا لم أعتد الأجواء الموبوءة ، ولم أعتد مجاملة المنحرفين ، وها هوذا يضعنى فى أسخف موقف وقفته فى حياتى . وظن فاروق ساعتها أنى أغار من إيفيت — تصور ، أنا أغار من إيفيت ! — فحاول استغلال الموقف لصالحه ! » .

ووقفت فى وسط الغرفة وهى تكاد تنشج : « ما هذا ؟ ما هذا الجو المقرف ؟ ! أهكذا يعيش المثقفون فى هذه البلاد ؟ أهذه هى أجواء الثقافة ؟ إن كان هذا ما يفعله هؤلاء ، فماذا يفعل الجهلة ؟ ماذا يفعل بقية الشعب ؟ أجبنى يا أستاذ . . أجبنى ! ماذا تركنا للبقية ، من فضائح وقذارات ؟ أخى « طالب » سافر للسعودية ، وجد وظيفة مغرية هناك فترك الشركة التى كان يعمل فيها بأمان وسافر . ترك كل شىء وسافر . مضى يبحث عن مستقبله فى الخارج . « ربيع » أفسدته أجواء الحضارة ، فبدلا من السعى فى سبيل الوصول إلى مجتمع كذاك الذى أعجب به ، ها هو ذا يحاول الهرب من ماضيه وحاضره ومستقبله هنا ، لينشئ نفسه من جديد هناك فى بلد غير بلده ، وبين قوم غير قومه . يريد أن يجد حضارة جاهزة للاستعمال ، حتى ولو كانت لغيره : و « بشار » ذهب إلى السعودية أيضاً ، و « نسرين » تلح ولا تنفك تحلم بالرجوع لأمريكا ، وكل من أعرفهم باتوا أغراباً ، إما أن يكون البطر قد صنع منهم ذلك ، أو صنعه ضياعهم وغربتهم الفلسفية التى يدعونها . وهناك « سهى » . . أنت تعرف ما أقصد ، فنانتنا المثقفة ، مبدعتنا الشابة ، ثائرتنا الهادفة ، أنت ترى ما هى سائرة إليه ؟ ! » .

هز عبد الرحمن رأسه وقال باقتضاب : « لا بأس ، سيعودون ، كلهم سيعودون ! » . قالت سامية ، لأول مرة : « وإيفيت ، لم لم توردبها ضمن هؤلاء ؟ » . نظر إليها عبد الرحمن مستفسراً ، فهزت رأسها وقالت بجفاف : « إنها عنيدة كالبغال . لا فائدة ! » . ثم تناولت سيجارة وأردفت : « لقد سئمت من كثرة المشاكل . أحس برأسى يكاد ينفجر ،

فى كل يوم مشكلة جديدة . يكفى ذلك التشنج الذى أصاب سهى صباح الأحد الماضى ، ليتك كنت هنا لترى حالتها كيف كانت . يقولون إنها مدمنة ، لم أكن أصدق هذا ، أما بعد ما حدث ، فأعتقد بأن لتشنجها علاقة بالإدمان ! . . هلا فاتحتها فى الأمر ؟ أنت الوحيد الذى تثق به ! » . فقال بشرود : « نعم ، سأفعل ، ولكن فى الوقت المناسب . » ؛ والتفت إلى سميرة وقال : « وأنت ، يجب أن تفاتحى «ربيع » ؛ ولكن فى الوقت المناسب . والآن يجب أن أنصرف ، فلدى موعد هام . » . . فنظرت إليه سامية بعتاب وأسف . ما الذى يشغله عنها ؟ وأين يذهب ؟ وما الداعى لكل تلك المواعيد المبهمة التى يتذرع بها ؟ . . والتفت إليها قبل خروجه وقال معتذراً : « سامية ، لن أراك غداً ، سأكون فى مكان غير ( رام الله ) » ، وتوقف عن الكلام ، وأخذ ينظر إليها مستطلعاً رد الفعل ، فلوت شفتيها باستسلام وقالت : « لا بأس » . وعندما خرج ، أخذت سهى من وراء الحاجز تحدق فى ظهره المتوارى وقلبها يدق بعنف ، ودموعها تكاد تطفر من عينيها ، والحسرة تملأها!

## ٣١

كان يوما من أيام أيار ( مايو ) اللؤلؤية . . يبدأ الصباح بضباب دخانى أبيض يغطى الأودية ، بما فيها من أشجار وصخور ومنازل ، ويصل حتى منتصف الجبال . ويستيقظ سكان المرتفعات فى الصباح ليجدوا أنفسهم مرفوعين على أجنحة دخانية ، فيعرفون أن أوان « المشمش » قد ابتدأ ، وأن الضباب سيعمل على منح « التوت » مقدرة على التساقط ، « والخيار » امتلاء وارتواء . ويقولون ، وبسمة مضيئة على الشفاه : « فاكهة أيار ، توت ومشمش وخيار ! » .

فى بلادنا ، يبدأ الصباح ملحناً بألحان شعبية حية تنطلق من حناجر القرويين قاطنى المرتفعات الجبلية . يمشى الفلاح وراء حماره المحمل

بالفاكهة والخضار واللبن ، ويردد أنغامه المألوفة السمحة : « هاى التين ، هاى اللبن ، هاى الفقوس .. » . ويكون الصبح ما زال فى أول إشراقاته ، والشمس ما تزال مختبئة وراء الهضاب . وتطل النسوة فى ثياب النوم من النوافذ والشرفات تنادين وتساومن وتشترين ، وأحيانا تنادين وتساومن ولا تشترين! وبعد عقد الصفقات تجلس العائلة على الشرفة تشرب القهوة والشاى ، ويأكلون أكلتهم الشعبية المفضلة : خبز وجبن وتوت .

أطلت المجموعة على مشارف القرية ، ولم يكن فى الشوارع الضيقة المتربة إلا بعض الفلاحين ممن يقصدون باب الله مع الصباح ، وبعض الديوك المذهبة الأعناق والتى كانت قد انتهت للتو من « وصلتها » الغنائية الصباحية . كانت عجلات السيارات تقفز فوق الحجارة والحفر ، ولولا ندى الصباح لأثارت موجة من الغبار والتراب . واتجهت السيارات نحو السهل الفسيح المؤدى لبحيرة ( صانور ) المزهرة ، وبانت الأرض وعرة المسالك ، ولم يعد بإمكانهم تخطى المساحات المزروعة بالقمح والبرسيم ، فأوقفوا السيارات بجانب التل وقرروا قطع المسافة مشياً على الأقدام . كانت الشمس قد بدأت تلون الهضاب والجبال المحيطة بالبحيرة بألوان وردية متألقة ، والهواء ساكن لايحرك شعرة فى رأس سنبلة ! وامتدت خضرة القمح الحانية مغطية السهول المنبسطة وسفوح التلال ، وفى الأماكن الوعرة والمنحدرة وقفت أشجار اللوز والبرقوق بإعياء لكثرة ما ترنحت به أغصانها من ثمر . ومن بعيد ، على مدى البصر ، ظهرت مساحة شاسعة بيضاء ناصعة البياض مغطاة بما يشبه الحصى الأبيض ، فأخذت إيفيت تركض وتقفز وهى تطلق ضحكات فرحة سعيدة ، لترى ما ستكون عليه تلك المساحة . وتبعها « سم سم » الصغير وهو يناديها ويطالبها بانتظاره ، ولكنها لم تسمع ، ولم تتوقف عن الركض . .

وأخذت نينا تبكى وتبكى ، فحملتها سميرة وأخذت تركض بها محاولة اللحاق بإيفيت ، فاشتد صراخ « سم سم » ، فحملته نسرين وأخذت

تركض ، ووجدوا أنفسهم جميعاً يركضون وهم يصرخون ويضحكون . وفجأة ، توقفوا مبهوري الأنفاس أمام البحيرة العجيبة . لم يكن يظهر فيها ماء ولا لمعان أديم ، فقد كانت عبارة عن مساحة شاسعة تمتد طولا بما يقرب الكيلو مترين ، ونحو كيلو متر عرضاً ، وقد ظهرت كمرج أسطورى لزنابق مائية بيضاء ، متشابكة كمفرش من الدانتل الأبيض . كانت الزنابق بحجم أصداف البحر الصغيرة ، ولها أغصان خضراء طويلة مسحوبة ، تتشابك خفية تحت أوراق الزهيرات البيضاء ، تاركة لذلك المجال استعراض مفاتنها ورقتها . أما كيف نشأت تلك البحيرة وهى التى لم تكن موجودة أصلاً ، فقد حدث ذلك قبل أربعة أعوام ، عندما جاء الشتاء بأمطار شديدة الغزارة ، وبما هو أكثر من طاقة الأرض على الاستيعاب ، فاستقرت المياه المنحدرة من المرتفعات والجبال المحيطة فى ذاك السهل العميق ، وأخذ يزداد الماء ارتفاعا بعد كل شتاء جديد ، ومع انجراف التربة والطمى تكونت تلك البحيرة الخصبة بزنابقها البيضاء المتشابكة .

وركضت الصغيرة نحو الزنابق محاولة اقتطافها ، فتبعها شكرى ونهاها عن فعل ذلك ، محاولا إفهامها ما تعنيه تلك الزنابق وتلك الأرض الرملية التى لا يظهر منها إلا الجمال . أما ما احتوته من هياكل لحيوانات ضلت طريقها وغاصت فى ذاك الموت المغطى بالزنابق ، فقد اختبأت فى القاع وتحت أغصان الزهر المتشابكة . ومر بهم فلاح وحمار أعرج يحمل فاكهة أكثر من طاقته . وبينما كان عبد الرحمن يفرغ كل ما معه من فاكهة على الأرض المعشوشبة حيث جلسوا ، أخذ الفلاح يقص عليهم كيف ابتلعت البحيرة حماره السليم فى الشتاء الماضى ، وكيف كان ذاك الحمار نشيطا معافى مليئا بالحيوية والصحة ، أما هذا فهو بليد كسول وأعرج ، وسبحان الله الذى لا يأخذ إلا الملاح ! . . ومرت الساعات الصباحية الأولى بسعادة وهناء ، وفى

الضحى تركت المجموعة المكان وصعدوا التل قاصدين القرية السعيدة، مارين بمزارع اللوز والبرقوق . وكانت تفصل بين المزرعة والأخرى سلاسل من الحجارة المتراصة جعلت بشكل جدران وحواجز ، وكانت عملية القفز من مزرعة إلى أخرى تستدعى مهارة وخفة ، فأخذت إيفيت تستعرض خفتها وليونتها بشكل جعلها تعرض نفسها للخطر فى كثير من الأماكن . وصاح زوجها : « يا إيفيت . ستدقين عنقك ! » ، فصاحت بشجاعة مفتعلة : « لست خائفة على عنقى ! » ، فقال فاروق ضاحكا : « ستقعين على عصعصك . » ، قالت وهى تهز كتفيها بنزق : « ولست خائفة على عصعصى » . . وصاح شكرى : « يا بنت الحلال ، خذى أحد الطفلين عنى . » ، فهزت خاصرتها ولم تجب ، ووقفت على حافة سلسلة حجرية وقالت بنزق ودلال : « سأقفز من هنا » . . فهتف عبد الرحمن راجيا : « بالله يا إيفيت دعينا نكمل النهار على خير ! » . فمدت لسانها بعبث وقالت مغيظة : « سأقفز ، فمن يستطيع مجاراتى ؟ » ، وأخذت تقهقه : « هاها . . كلكم شيوخ وعجائز ، ياحرام، كيف يشيخ الناس مبكرين فى هذه البلاد ! والآن ، أترون هذه المسافة ؟ سأقفزها قفزة واحدة لأعلمكم كيف يكون الشباب. وهبطت على الأرض ، فوقعت تحت ثقلها ، وتدحرجت على التراب اللين وهى تصرخ وتقهقه . وأخذوا جميعا ينتظرون ما ستكون النتيجة ،لكنها وقفت ، وردت شعرها إلى الخلف ، ونفضت التراب عن مؤخرتها وعن أرجل بنطلونها ، وأخذت تقهقه وتضحك وهى تشاهد الوجوم يرتسم على الوجوه ، وصاحت : «مالكم جامدون هكذا ؟ ماذا حدث؟ لاتدعوا أن وجومكم كان خوفا وقلقا على ، فأنتم لاتعرفون من أنا ! » .وصاحت ضاحكة وهى تركض نحو السلسلة المقابلة : « سوبرمان ! » . وقفزت قفزة أخرى طويلة ، فصاحت الطفلة بفزع وهى ترى أمها تهوى إلى الأرض بضجيج . وصاح شكرى بغيظ : « إيفيت ، ما هذه الحماقة ؟ هذه ليست شطارة ،

ماذا لو كسرت رجلك أو عمودك الفقرى ؟ ماذا لو وقعت على دماغك وشجت جمجمتك ؟ » . . فقالت بتحد : « أنا حرة ، وسأفعل ما أشاء! » قال عبد الرحمن: « لم نختلف فى هذا الموضوع ، ولكن لمن تتركين أطفالك ؟ » . قالت باستخفاف : « ليسوا أطفالى وحدى ، فهاهو والدهم يملأ الدنيا طولا وعرضا ! » .وأخذت تركض قاطعة المسافة الباقية للوصول إلى القرية . وتصاعدت رائحة دخان الطابون فملأت الجو بعبير لطيف يذكر بأجواء الريف والقرية ، وكان أقارب عبد الرحمن فى الانتظار ، فالتقوا بهم أمام بواباتهم الحجرية القديمة ، وتراكض الأطفال الصغار بأقدامهم الحافية وثيابهم المزركشة للفرجة على الأغراب والنسوة اللواتى ترتدين البنطلونات . ونهرهم شاب يافع فتصايحوا وتراكضوا أمام عصاه ، فوقف هو يسترق النظر بدلا منهم ! أما الأطفال فاختبأوا خلف الجدران والأشجار يسترقون النظر ويشيرون بحركات بريئة ، ويقرقرون بضحكات سخية ساذجة .

وناداهم عبد الرحمن ، فاختبأوا بمزيد من الحذر ، وعندما رأوه يمد يده إلى جيبه ويعطى أحدهم شوكولاته وحلوى ، هجموا عليه وهم يمدون أيديهم ويتصايحون ويتقاتلون للوصول إليه !. . كانت الفلاحة العجوز أخته، وذاك الشاب المفتول الساعدين الذى يرتدى بنطلونا وقميصا أبيض مفتوح الصدر ، هو وحيدها « علاء الدين » الذى تخرج من كلية (خضورى) الزراعية ، وعاد للقرية ليفلح الأرض التى ورثها عن والده ويزرعها . وقد قدم عبد الرحمن مصطحبا كل ذاك الجمع بناء على دعوة ملحة من ابن اخته الذى كان قد زار المكتبة فى الشهر المنصرم ، وتعرف بسامية ، وعرف أنها تخص عبد الرحمن ، وأنها قد تكون خطيبته أو ما يشبه ذلك . ورأى أن من واجبه أن يدعو هذه السيدة التى قد تصبح من أفراد العائلة للتعرف بأمه ، وكانت سميرة تقف هناك فشملتها الدعوة . وعندما سمعت إيفيت بما حدث جن جنونها واتهمت عبد الرحمن

بالتحيز ، فما كان منه إلا أن وجه الدعوة للمجموعة كلها !

وكانت فى ساحة الدار المكشوفة بقرتان ضخمتان تأكلان العشب من صندوق خشبى أمامهما ، ومن ركن من أركان الساحة تصاعدت أصوات الدجاج المحبوس فى قفص كبير ضخم ، وبجانب القفص أقعى كلب حراسة عسلى اللون وقد فتح عينيه بحذر لمرأى الأغراب ، فانتصبت أذناه وبدأ ينبح ، ولكن رؤية صاحبه وسط المجموعة هدأت من روعه وأعادته لوضعه المطمئن السابق . وصعدت الجماعة الدرجات الحجرية المتآكلة قاصدين العلية المرتفعة حيث يجلس الضيوف فى العادة . وكانت الغرفة جميلة ونظيفة وجيدة التهوية إذ أنها تطل على الوادى والبحيرة ، وقد ظهرت فى الأسفل أغراس الزيتون التى قام علاء الدين بزراعتها حديثا وقد أحاطت بها دوائر ترابية جيدة الحراثة . وفى الحقل المجاور حيث أقيمت حظيرة الماعز انتصب الطابون وقد اجتمعت حوله النسوة يتبادلن الأوعية والأرغفة والدجاج المشوى . كانت وليمة ريفية رائعة ، أكلوا فيها الدجاج بالبصل ، والأرغفة المغموسة بزيت الزيتون ، وشربوا اللبن والحليب ، وتحلوا بشتى أنواع الفاكهة التى تنتجها القرية . وفى العصر أخذهم « علاء الدين » إلى مزرعته وأخذ يشرح لهم خططه ونواياه فى إنشاء مزرعة حديثة تنتج أنواعاً غريبة من الفاكهه والخضر . وكان قد استورد كمية لا بأس بها من البذور من أمريكا وأستراليا ، وقام بإجراء تجارب زراعية عليها ، ولكنها كانت ما تزال فى بداية نموها ، وربما ظهرت تباشيرها فى الشهر القادم .

وكان من المتفق عليه أن يقام استقبال جامع عصر ذاك اليوم احتفالا بالضيوف الكرام ، وبعبد الرحمن ابن القرية البار الذى خرج من القرية ولم ينسها وما زال يذكر كل من فيها ، وبالطبع كان كل من فيها ما زال يذكره ويعرف أنه بات رجلا مشهوراً ، وأن له قيمة وثقلا سياسياً ، ولابد من اجتماعهم به للسلام عليه والترحيب به . وبعد

العصر اجتمع الرجال فى الساحة الخلفية تحت أشجار الجوز الباسقة ، وجلست النسوة بخفر وحياء فى زاوية منزوية ، وعند جذوع الشجر جلس نافخ المزمار وناقر الطبل على كرسيين صغيرين ، والتأم شمل من حولهما يصفقون ويهزجون بأغان قروية عذبة . وعندما حمى الوطيس نزل الشبان إلى الساحة يرقصون « الدبكة » . . وقامت الفتيات وتمايلن على انغام الربابة ، وغنين لهديل الحمام ، وللأرض الخصبة ، وللمواسم المعطاءة السخية . وعندما دبت الحماسة فى أوصال فاروق ، شبك ذراعه فى خصر علاء الدين وأخذ يرقص الد بكة على وقع الأنغام الصاخبة . وعندما غنى المنشد كلمات غزلية للصبية ذات الضفائر الشقر والصدر المحمل بالضلال ، قفزت سهى للساحة وأخذت تضرب الأرض بكعبيها وهى تلوح بأطراف ثوبها الواسع المزخرف . كانت جميلة ، سمراء خمرية ، شعرها الأسود الناعم يتطاير فى تموجات غنية معتمة . ضربات الأقدام عنيفة ، تدق الأرض بكعبها ، ضربة ، ضربتين ، ثلاثا ، وقفزة طويلة فى الهواء ، فترتفع أذيال الثوب حتى منتصف الفخذين ، وعندما تهبط على الأرض يرتج صدرها وينسدل شعرها ، وتومئ ، وتنحنى ، وتعود فتشد قامتها ، وتلوح بمنديلها . وتزغرد النسوة بانفعال ، ويشتد التصفيق ، ويتسارع الوقع ، ويفغر الفلاحون الأفواه انشداهاً وهم يتطلعون إلى تلك الجنية السمراء الممتدة ، وصوت المنشد يردد ويردد : « يا أم الجدايل شقرا ويتلالى . . لعبها الهوا عا الصدر العالى » . وتدور وتقطع الساحة قفزاً ، والخصر غاية فى الدقة ، والقد مياد وليّن ، والخطو موزون ونابض . . وهتفت سميرة بانشداه : « رائعة ، ساحرة ! » . فهز عبد الرحمن رأسه وقال هامسا : « فنانة ! » .

: . وهناك سحر يطوف فوق الأجفان المترنحة ، ودمع حزين يتلألأ فى العينين شبه المغلقتين ، وذاك الرجل البعيد كالسحاب ، الصامد كقلعة ، المحرم كتفاحة الجنة ، ذاك الرجل المشدوه لا يرى أمامه

إلا فناً أصيلا ، وإعجابه ناتج عن التذوق وليس عن الحب ، وهذا أكثر مايدمى ويجرح . . وأخذ فاروق يردد كلمات مشجعة أثارت غيرة إيفيت ، وعندما لفتت نظره لسوء تصرفه غير مكانه بحيث بات أبعد من أن تصله تعليقات إيفيت المغيظة . وجعل يصفق ويصفق وهو يطلق صيحات تحاكى صرخات الريفيين قوة وحماسة . وقال عبد الرحمن هامساً : « دموعها تتساقط ، وجسدها يتلوى عذابا أكثر مما يتلوى نشوة! » . فقالت سامية : « أتراها واقعة تحت تأثير المخدر ؟ » . ولم يجب عبد الرحمن ، فقد كانت عيناه تلاحقان تلك الفراشة التى ترقص للموت والحياة معا . وكانت تضرب الأرض بعنف : ضربة ، ضربتين ، ثلاثا ، وقفزة طويلة فى الهواء ، والشعر يرتفع فى سحابة غنية معتمة ، وأضواء الأصيل تتراقص محدثة انعكاسات متوهجة ، وأخرى شاحبة فوق وجهها . . ثم انسحبت من الحلقة ، واختلفت الألحان ، وعاد المنشدون للألحان الهادئة الرائعة ، ولم يبق منها إلا ما تتركه الحمرة فى رأس الظامئ . وانسل فاروق وراءها يبحث عنها ، وكانت إيفيت ترقبه بترصد ، فأخذت تزفر باضطراب ، ولكنها عزمت على اللحاق به مهما كلفها الأمر . وقالت سامية بتوتر : « عبد الرحمن » : أين ذهبت سهى ؟ ألم تلاحظ أنها فى حال لاتوحى بالخير ؟ » ، فهب عبدالرحمن واقفا وقال : « سأتبعها ، سأبحث عنها » ، ومشى يضرب الخطو فى أثرها ، ورآها تبتعد باتجاه البحيرة . كان هناك طريق قصير يوصل إلى حافة البحيرة من الناحية الشرقية ، وأشجار الصفصاف تشكل ممراً محاطا بالجذوع والظلال ، وكانت تترنح فى خطوها ، وذراعاها تتدليان إلى جانبيها ، وأطراف ثوبها النبيذى تتراقص عند كل عثرة ، وفى منتصف الطريق ظهر فاروق قادماً من طريق جانبى يبعد عن مكانها بما يقرب العشرين متراً ، ووقف وسط الطريق الصفصافى يسده مداعباً ، لكن تلك واصلت السير وكأنها لم تره . فمد ذراعيه فى عرض الطريق معاكساً ، لكنها واصلت السير بشرود وترنح . ونظر فاروق فلمح

عبد الرحمن يتبع سهى على بعد ؛ فأسدل ذراعيه بخيبة ، ومشى فى اتجاه الدرب الذى قدم منه ، واختفى وسط الأشجار !

وكان هناك ، قريبا من البحيرة ، جذع شجرة مخلوع وملقى بجانب الحافة ، وقد سودت الماء والشمس قشرته وشققتها . . فجلست « سهى » على طرفه واستغرقت فى شبه غيبوبة . كانت لاتزال مضطربة الأنفاس ، وصدرها يعلو ويهبط ، وكان عبد الرحمن يرى ظهرها يئن تحت وطأة أنفاسها الثقيلة . ورآها تغطى وجهها بكفيها وتنتحب بصوت مكتوم ، فهتف بإشفاق وهو يوسع الخطو نحوها : « سهى ! ما بك ؟ » ، فالتفتت إليه بوجه يقطر حزنا وبكاء وتساءلت بصوت مقطوع الأنفاس : « أنت !! » ، وأخذت تحملق فى وجهه باستغراق ، وكانت عيناها متشبثتين بوجهه بيأس غريق يستنجد . فقال بسرعة ولهفة : « دعينى أساعدك ، دعينى أشاركك متاعبك ، خبرينى ما بك ! » . . فابتسمت بسخرية وعادت تتساءل بصوت مذبوح : « أنت ؟! » ، فقال بقلق : « نعم أنا ، ألا أستحق ثقتك ؟ ألا أستحق صداقتك ؟ أرجوك ، دعينى أقترب منك وأساعدك على حل ألغازك . دعينى أجرب ، دعينى أحاول ، فقط امنحينى ثقتك وصداقتك . أنا أعرف أنى لست يسوع المسيح لأفتدى آلامك بدمى ، ولكنى إنسان يحمل فى قلبه صدقا وصداقة . . والآن ، قولى بصراحة ، ما بك ؟ » . . فأسدلت جفنيها وما زالت الابتسامة الصفراء تتذبذب فوق وجهها ، وقالت بارتباك : « لا ، لاشىء . لاشىء البتة! » ، وعادت تغطى وجهها بكفيها ، فجلس بجوارها على حافة الجذع وأخذ ينتظر . كان الأصيل يقترب من الغروب ، والغيوم المتناثرة فى الأفق البعيد قد بدأت تحمر وتتذهب ، والبحيرة الممتدة أمامهما بزنابقها البيضاء تطلق عبيراً معطراً يختلط برائحة الحشائش المتعفنة على الحافة المخضرة ، وبلبل متفرد يغرد على غصن

من أغصان شجرة ( زنزلخت ) مزهرة . وبين الفينة والفينة يحمل الهواء صدى أصوات الفلاحين الهازجين ممتزجة بقرعات الطبل التي باتت لبعدها خافتة وهادئة .

وقالت سهى بعد فترة وهى ترفع وجهها وتمسحه بمنديلها : « أما من حل لهذا المأزق ؟ ! » ، والتفتت إليه ، وكان وجهها قريباً من وجهه ، فرأى ملامحها تزداد جمالا عن قرب ، وصوتها يزداد حساسية فى أذنه . وقالت وهى تزفر وتشد قبضتها على منديلها كمن تريد عصره : « ليس للحزن نهاية ! » ، وحدقت فى عينيه وابتسامة باكية على وجهها ، وهزت رأسها بسخرية مريرة وقالت : « أنت . . » ، ولم تكمل ، فقد استدارت بوجهها عنه وعادت للصمت . فتساءل : « أنا ؟ ما بى ؟ » . قالت بغموض : « لا . . لا شىء ، إنما أنا تعيسة ، أنا ، ولست أنت . » ونهضت ، فمشت خطوتين ، ونظرت إلى البحيرة بشرود وقالت : « أليس غريبا أن يختلط الجمال بالبشاعة ؟ هذا العالم جميل . . » ، وابتسمت وهى تستدير إليه ، وواصلت : « لكنه سافل! » . فابتسم وقال : « أهذا القول موجه إلىّ ؟ شكراً على كل حال ! » . قالت بسرعة : « لا . . لست أنت ، أقصد العالم ، أما أنت . . » ، ولم تكمل . وأخذت تذرع المساحة أمامه بشرود وكآبة ، ثم وقفت فجأة وقالت وهى تمد يديها مبسوطتين : « « أحيانا أشعر بنفسى حشرة أوقعتها شباك عنكبوتية فى فخ رهيب ، وأحس بمطارق تهوى على صدغى وقلبى ، وأنياب وحشية تنغرس فى وجدانى وكل أحاسيسى ، وبأيد حديدية تعصر عنقى ، وأتمنى لو أصيح . . أصيح . . أصيح . . لكن صوتى يضيع فى هدير أمواج الحياة الصاخبة ، ويمر الناس بى فلا يعبأون حتى بوجودى ! وأتساءل بحسرة : « أهذه أنا ؟ مجرد حثالة قذفها الله إلى الأرض ؟ وأكفر . . أكفر . وأعتب على السماء ، ولكن عتبى يضيع سدى ، فالسماء مكان الغيوم ، والأرض مكان البشر ، وما من أحد يعبأ بضياعى وكفرى ! : « أهذا ما تعنيه

الحياة ؟ حيرة .:. ضياع ؟ : : ما كل هذا الهم والنكد ؟ ما كل هذا التكرار الممل ؟ وحدة . . ضياع .. وحدة . . ضياع .. نفس النغمات ، نفس المعزوفة .، نفس الأصوات المنشزة . وأحاول أن أسد أذنى ، وأن أغمض عينى ، وأن أتلف حساسيتى . وأتمنى لو ترحمنى السماء فتمسخنى قرداً ، فقد سئمت ما أنا فيه . سنوات وسنوات وأنا أجتر نفس الأنغام . . نفس المعزوفة . . نفس الأصوات المنشزة . أهذا ما تعنيه الحياة ؟ »

واستدارت وعادت تذرع المسافة من جديد . ووقفت على الحافة وقالت بلوعة : « كنت أقول لهم : إفهمونى ، وأفهمونى . إفهمونى فأنا تعيسة بالفعل . وأفهمونى من فينا المحق ومن فينا المخطئ ؟ أنا لا أرى فيكم سوى جلاميد صخر : وجوه قاسية ، قلوب متحجرة ، وأحاسيس منتهكة . وأنتم ترون فىّ إنسانة مفلسفة ، سخيفة ، وشاذة ، فمن المصيب فينا ؟ قل لى أنت : من فينا المحق ومن فينا المخطئ : أنا أم هم ؟ » . . لكنه لم يجب ، بل ظل يتمعن فى وجهها مأخوذاً بحركاتها ، فواصلت : « هذه مصيبتى ، فلن أعرف ، ولذا فسأظل معذبة ، وهم لا يريدون أن يعرفوا ، ولذا فسيظلون مرتاحين ، ويظلون فى نظرى أصواتاً منشزة ، وسأظل أنا فى نظرهم مفلسفة وسخيفة . وأعرف أن شقائى سيدوم مدى الأزمان ، وأن ضياعى سيفوق كل ضياع ، لأنى غريبة عن كل ما هو مرعى ومتداول . فكل الأشياء فى نظرى إما مغلوطة أو منقوصة ! » . وجلست بجواره على حافة الجذع فى صمت ، وغابت فى شبه غيبوبة . فقال بصوت هادئ : « سهى ، متى تكفين عن تناول ذاك السم ؟ » :

فالتفتت إليه بحدة وتساءلت وهى تفتح عينيها بدهشة : « كيف عرفت ؟ من قال لك ؟ » . أجاب بجدية : « ليس المهم كيف عرفت ، المهم هو إنقاذك من الإدمان ! » . قالت هازئة : « لست مدمنة ، أنا لا أتعاطى نوعا محدداً ، كى لا يُدمنه جسمى ، فأنا أتعاطى شتى الأنواع ، كل الأنواع ، أى نوع يصادفنى أو أستطيع الحصول عليه ! » . فقال

بدهشة : « ولكن هذا ضار جدا ، وسوف يتلف صحتك وأعصابك ! » ، فتساءلت بسخرية : « وعلام الخوف؟ »

— على الحياة ، ألا تخافين على الحياة ؟

— بل أخافها ، ولا أخاف عليها !

— وهل المخدرات وسيلة للهرب من ذاك الجو ؟

لوت شفتيها وقالت بلا مبالاة : « إذا شئت هذا ، فليكن ! » ، فهتف باستغراب : « ولكن هذا ضار جدا ، ألا تعلمين ذلك ؟ » ، قالت بسخرية : « لو كان الموت بضاعة ، لاستوردتها ! » ، فحملق فى وجهها وقال بحدة : « ولكن ما بك ؟ ماذا تريدين ، ماذا ينقصك ؟ عم تبحثين ؟ » . لوت شفتيها بلا مبالاة وقالت : « عن كل شىء ، وعن لاشىء! » . فقال بعنف: « اسمعى ، إنك لست صغيرة ولا جاهلة ، ولست إنسانة عادية لتتصرفى بهذا الشكل غير المبالى ! وحتى الناس العاديون يعرفون مسئولياتهم ويحترمونها . وأنت فنانة موهوبة ، وقد كتب لك أن تحملى فى أعماقك بذور الفن والخلق والإبداع ، أى أن تحملى « رسالة » عليك تنفيذها والتقيد بها ، وعليك احترام الحياة ، والروح ، والإنسان : وقد كنت أتوقع لك مستقبلا مضيئا يكلله المجد والغار ، فإنك بدأت بداية حسنة ، ولكنك عدت وخمدت ، كنار ينطفئ أوارها ، وقريبا ستتلاشى أضواء نجمك قبل أن تسطع ، ألاتعلمين هذا ؟ . إننا فى ذلك المساء الممطر ناقشنا الحياة وناقشنا الموت ، وناقشنا التعاسة ، وكنت أظننا قد فرغنا من كل ذلك ، ولكن يبدو أنك تتلذذين باجترار الكآبة والحزن . وعندما ينوء كاهلك مللا وتعاسة ، تهربين مما بحثت عنه — أو ربما اصطنعته !! — بواسطة المخدرات ، والسموم ، والجدل العقيم ، فما هذا التعقيد ؟ ما هذا الظلام الذى تحيطين به نفسك ؟ إن كنت تعتقدين أن التعاسة هى ثمن المجد ، فأنت مخطئة . ألا ترين كم فى هذا العالم من تعساء ، ولكنهم ليسوا جميعا مفكرين وعظماء ، فالتعاسة لاتجلب العظمة

وإنما يجلبها التحدى ، والإرادة ، والقدرة على الاستيعاب وتحديد الهدف : كل هذه الأشياء مجتمعة تجعل من الإنسان مسئولا وقائداً ، أما حالك وطريقتك فلن يوصلاك إلا إلى الهاوية ، أو الجنون ! » .

قالت بغير مبالاة : « من الأفضل ألا تتدخل فيما لايعنيك ! » ، فصاح فى وجهها : « وكيف حكمت بأنه لايعنينى ؟! طبعاً أنت تعنينى ، وأنا اهتم بك كثيراً ؛ ويهمنى جداً أن تسيرى فى الخط الصائب . وهذا ليس بالنسبة لك وحدك بل بالنسبة للجميع ، بالنسبة لكل من أراه وأعرفه ، وأنت أولى الناس بعنايتى واهتمامى ؛ فكيف لايعنينى أمرك ؟» . . قالت بغضب : « أرجوك ، لاتحاول الظهور بمظهر الأنبياء ، أنا سخيفة وشاذة وحشاشة ، أيسرك هذا ؟ حشّاشة ، وقد أثير « قرفك » ، وقد أثير مللك ، وقد أبدو فى نظرك إنسانة بلاخلق ولامبدأ ، فلا تدّعى الاهتمام بى ! » . قال بحدة : « وهل يتحتم على أن أقسم لك بأنى مهتم ، كى تصدقى ؟ » . قالت وهى تحدق فى وجهه بوحشية : « أى نوع من الاهتمام ؟ أى نوع ؟ تريدنى أن أقدم معرضا فى كل موسم؟! أن أنام على اللوحات وألتحف بالألوان ؟ وتريد منى أن أعصر ذاتى كما أعصر أنبوبة الدهان ، وأن أجعل للأجساد حركة ، وللملامح نطقا ، وللشفاه الخرساء لساناً يتكلم ؟ هذا ما تطلبه منى ، هذا ما تطلبه لى ، هذا ما تعتبره اهتماما ، أليس كذلك؟ واهتمامك الحقيقى هناك ، بتلك السيدة المملة المهووسة ، تلك الدجالة المنافقة . والآن أرجوك ، لاتدعى الاهتمام أكثر من هذا! »

حملق عبد الرحمن فى وجهها بدهشة وتساءل : « ماذا تقصدين ؟ ماذا تعنين ؟ » . قالت والدموع تنهمر من مآقيها المحمرة : « ألا تفهم ما أعنى ؟ ألا تفهم ؟ » . فأخذ يحملق فى وجهها بدون تصديق ، وكانت هى تنتظر كلمة منه ، إيماءة ، حركة . . ولكنه لم يقل شيئا ، بل طأطأ بكآبة وأخذ يزفر ببطء ، فقالت متمتمة : « نعم أعرف ، أعرف أن اهتمامك الحقيقى ليس بى ، اهتمامك بى ليس سوى اهتمام أستاذ مخلص بتلميذة

نجيبة ، كل ما يهمه من أمرها هو ذكاؤها وتقدمها ونجاحها ، أما ما تحس به هذه التلميذة ، ومايسعدها أو يشقيها ، فليس شيئا فى نظرك! أليس كذلك ؟ ولكن لا ، لست تلميذة ، لم أعد تلميذة، لم أعد فنانة ، فأنا أريد أن أحيا كالأخريات ، أريد أن أجد من يحبنى وأن أشعر بألفة الناس ، وأن أحس بعناق العالم . . ولكنهم يأبون ذلك ، وأنت تأبى ذلك . . أنت . . أنت ! » . قال باضطراب : « ولكن ما بهذا الشكل تبلغ الأمانى ! وما كل ما يتمنى المرء يدركه! » . فهزت رأسها بمرارة وقالت : « ولهذا سأظل غريبة وضائعة ومحرومة ، وسأظل خائفة ! » قال بغيظ : « وهاأنت تلوحين لى بالجزاء والعقاب : فإما أن تنالى ما تريدين ، وبالتالى تنفذين رسالتك ، وإما الحرمان . . وبالتالى حرمان الناس من فنك ، أليس كذلك ؟ » . . نهض وأخذ يمشى بخطوات ثقيلة ، ورأسه مدلى بين كتفيه بإعياء وتعب ، ونظراته لا تستقر على شيء . ثم قال بعد فترة صمت : « مازلت فجة ، ومازلت مندفعة وراء أفكار وتخيلات يخلقها الوهم وأحلام الشباب ! إن رسالة الفن أعمق من هذا وأسمى ، وللفنان الحقيقى مقاييس أرقى من تلك التى لديك ، والفن عطاء مجانى وليس مقايضة ! » . قالت بسخرية : « شبعان يعظ الجائعين ! » . تساءل بحدة : « ماذا تقصدين ؟ » قالت وهى تلوح بيديها : . « صحتك جيدة ، رأسك ممتلى ، عقلك ممتلئ ، وقلبك ممتلئ . نلت من العالم كل ما تريد: المجد والحب والشبع ، وقد نسيت أن الجوع ليس تهمة ، وكونى جائعة لايعنى أنى مجرمة ! » : قال بجدية : «الجوع سنة الحياة، ومامن إنسان نال كل ما تمنى . تلفتى حواليك جيداً وسترين أن فى داخل كل منا جوعا دفينا ، وأن كل واحد منا « محروم » بشكل أو بآخر ، والسعادة « فكرة » كما أن الجوع فكرة : السعادة شبع وارتواء، والجوع حاجة وعطش، وقد تروى فكرتك فتحسين بالشبع ، فالارتواء ، فالسعادة .. وبعد أيام ، أو سنوات ، تعودين إلى

ما بدأت به ، تعودين إلى الجوع ثم إلى البحث عن الارتواء . لنكن أكثر صراحة : لقد بدأت القصة هكذا : كنت تحسين بجوع المعدة ، وكبرت وامتلأت معدتك ، فأحسست بالارتياح لأيام قليلة ، عدت تبحثين بعدها عن إشباع لجوع آخر . واعتقدت أن جوعك ناتج عن الجهل ، فتعلمت ، واعتقدت أنه ناتج عن جهل الناس بك ، فاشتهرت . وعادت فكرة الجوع تنخر جسمك وعقلك ، وظننت أن حرمانك من الجنس هو الحاجز ، فقفزت فوقه وتخطيته . أحسست بالحب تجاه « بشار » ، لفترة ، وعندما ارتويت ، أهملته ، ولفظته ؛ لو أنك لم تستطيعي الحصول عليه لظل حبك متوهجا كما كان ، ولظللت تسعين فى أثره ! وها أنت الآن تقعين تحت تأثير فكرة ، وتحت ضغط جوع جديد ، فمتى تكفين عن الركض واللهاث وراء أفكارك ! متى ؟ الحب فكرة ، وكل إحساس فكرة ، كلما رضخنا للأحاسيس ازددنا عبودية ! » . قالت بثورة : « فما بالك أنت ؟ لاتزعم التحرر وأنت عبد مثلى ، لكنك لست عبدا لى ، بل لها ! » . قال مبتسما : « أعرف ما تقصدين ، ولكن افهمى : أنا فى حبى حر ولست عبدا . أنا أختار ، وأحاول اختيار الأحسن والمناسب ، وإذا لم أجد حبى حسنا ولا مناسبا أتحرر منه ولا أستمر فيه ! أنا لا أدعى الزهد والتقشف ، ولا أرغب فى الصيام عن كل ملاذ العالم وأفراحه ، ولكنى أختار الأصلح والأنسب ، ولا أحاول اجتياز كل الحواجز فى سبيل فكرة عابرة ، فقد توقعنى الحواجز ، وقد أفشل أثناء القيام بعملية الاجتياز ، وأنسى المبدأ والهدف ، وأسرق وأكذب وأتلاعب فى سبيل « الوصول ! » . . وأثناء ذلك أنشغل بالزيف وحواشيه فأضل عن الهدف . وهذا ما يحدث لك ، فها أنت تضلين ، تضيعين وتنشغلين فى عملية الاجتياز ، فتنسين الهدف ! »

قالت مجهشة : « ولكنى أحبك . . فأنت قوى ، وتعرف الناس وتعرف نفسك : وأنا أحب الأقوياء ، أحبك أنت بالذات ، وإنى

لأتعذب . ألا ترى ؟ ألا تفهم ؟ ألا تحس بآلامى ؟ أنت تذكرنى بالإنسان الآلى : الفكر بحساب ، الحب بحساب ، الهدف بحساب : فماذا أبقيت للقدر؟ ماذا أبقيت للمصادفات؟ ماذا أبقيت للحظ العاثر؟ «.. ورآها منكمشة على نفسها بذلة : رأسها مختبئ فى حضنها ، وذراعاها ملتفان حول رأسها — كمن يطلب الأمن والحماية — فأحس بإشفاق شديد ، ووخزة فى ضميره وقلبه ، فهاهو يقف منها موقف القوى من الضعيف ، موقف الحر من الذليل . . فتقدم منها وركع عند ساقيها ، وأمسك برأسها يرفعه ، ثم قال بعطف : « سهى ، عزيزتى ، أرجوك . افهمى ، حاولى الخروج عن دائرة ذاتك ، حاولى فهم الأمور بتجرد . لاتكونى عاطفية بهذا الشكل : استعملى المنطق قليلا ، أرجوك . أنا رجل أشيب ، ألا ترين رأسى ؟ لقد أصبحت على أبواب الخمسين ، أى أننى فى سن والدك . وأنت شابة جميلة موهوبة وحساسة ، وقد وهبتك الطبيعة الكثير مما تحسدين عليه ، وهناك الكثيرون ممن باستطاعتهم فهمك ، وحبك ، وإسعادك . أما أنا ، ففى رأسى ألف مشكلة . وعلى كاهلى ألف عبء ، وفى صدرى ألف آهة ، وأحلامى ما عادت أحلاما بل أهداف ، وأمانى أصبحت غايات . أما الحب ، فلا وقت له عندى ، صدقينى : أن تلك المرأة تحبنى ، لا أنكر ذلك ، وأنا أحبها ، أو بمعنى أصح ، أفضلها ، وهى تقنع بهذا ، فهل تقنعين أنت ؟ . : إن الحب فى نظرى غريزة ، والغريزة ميالة للتجديد والحركة ، وإذا أنا انسقت وراء أهوائها نسيت الهدف . أما الفكر فحضارة ووعى وتجارب . لقد شخت ياصغيرتى ، ما عاد للحب قيمة ، ما عاد للفرح قيمة ، فجراحات الشعوب تنخر قلبى وتملأه ، وجوع المعذبين ينسينى جوعى وحاجتى ، وإذا كنت تعتقدين أنى متيم فأنت واهمة . وكما قلت لك ، تلك المرأة تفهمنى وتحبنى وتعرف ما أريد ، وهى تناسبنى ، وأنا أناسبها ، أما الحب .. الحب . ؟ فهو وهم تفتقه الغريزة ، وكلما خفت لهيب الشباب ضعفت نار الحب ! »

قالت « سهى » هامسة ووجهها يكاد يلتصق بوجهه ، ودموعها تتدحرج على وجنتيها ، وعيناها تتأملان وجهه بعبادة : « مهما قلت ، مهما زجرت ، مهما وعظت ، فأنا أحبك ! » ، وأمسكت بيده ودفنتها فى عنقها كقطة مسالمة ، وقالت : « المرأة تعشق الرجل الكبير ، وأنت كبير ، أحس بك تملأ فراغ العالم كله ، ومعك يكون للأشياء معنى ، وللحياة معنى ، وحتى للشقاء معنى . » أما مع الآخرين فتكبر غربتى ، وتزداد وحشتى ، حتى لأحس بالضيق والخوف والملل ! » فقال عبد الرحمن ، بعطف : « سهى ، أرجوك ، لاتحلمى كثيراً ، أرجوك ، أرجوك » ، وسحب يده برفق وقال : « سهى ، سأكلمك فيما بعد . . سأكتب لك رأيى فى هذا الموضوع ، فإن الكتابة أخف وطأة ، وأكثر تركيزا ! »

ثم نهض واستدار ، فرأى « سامية » تقف على بعد أمتار ، متكئة على جذع شجرة بإعياء ، وعلى وجهها انطباع مذهول . . والتقت نظراتها الجزعة بنظراته ، فأخذت تحدق فى وجهه بانشداه ، وشفتاها تتمتمان بكلمات غير مسموعة . . فاقترب منها بسرعة وقد عرف ما يجول فى خاطرها ، وقال بلهفة : « سامية ، لا تحدقى هكذا ، لقد أسأت الفهم ! » . . ولكن صدمتها كانت أعنف من أن تمنحها الفرصة لفهم ما يقول ، فأخذت تتمتم بذهول : « أنت تفعل هذا ؟ أنت ؟ أنت ! »

فقال بإصرار : « سامية إفهمى ، لست مذنبا لتضعينى فى قفص الاتهام ! » ، لكنها هزت رأسها بحسرة وقالت بصوت متحشرج : « أنت ! إلهى ، معبودى ، الصنم الذى عبدته وركعت أصلى له طيلة خمسة عشر عاما ، ورفضت كل شئ فى سبيله ، وقاومت كل شئ كى أحتفظ بصورته نقية وحية فى قلبى وذاكرتى ! ليتنى مت قبل هذا ! ليتنى مت قبل أن يتحطم الصنم المعبود ، ليتنى عميت قبل أن أراك تتصرف كالباقين : تتلاعب وتزيف وتتلون ! » . . فصاح وهو يهز كتفيها : « لا تعذبى نفسك هكذا ، أرجوك . أقسم لك أنى ما كنت إلا

صادقا . أنا لا أخاف اتهاماتك ، بل أخاف ألمك » . ثم توقف عن الكلام وأخذ يصيخ السمع وقد عقد حاجبيه بعبوس . سمع صوت امرأة تصرخ بصوت حاد ، وكانت تولول وتبكي وتستغيث ، فترك عبدالرحمن ذراعي سامية وأخذ يركض في اتجاه الصوت . الذي حدث هو أن إيفيت لم تستطع احتمال رؤية فاروق يتبع امرأة أخرى . فتبعته ، لتتجسس عليه . وكانت قد تذرعت أمام زوجها بحجة أنها ستأخذ الطفلة لتغير ملابسها المتسخة ، وحملت الطفلة وأخذت تركض بها باحثة عن فاروق ، فوجدته واقفا على حافة البحيرة ، آملا أن تمر به سهى في طريق عودتها . وعندما رأى إيفيت قادمة تحمل الطفلة تساءل عابسا : « ماذا تفعلين هنا ؟ » ، فقالت مزمجرة : « بل ماذا تفعل أنت ؟ » . قال بهدوء لامبال : « لاشيء ، كما ترين ! » . قالت بعنف : « بل أنت هنا في انتظار إحداهن ! » . قال بدهشة : « كيف أنتظرك وأنا لم أعدك بلقاء ! ؟ » . قالت بغيظ : « لا تكن خبيثا ، أنت تعرف من هي التي أقصدها ، لاتدعي الدهشة . هيا قل ، كيف حصلت على وعد منها ؟ » : قال مدعيا عدم المبالاة : « ممن ؟ »

– من سهى ، أنت تعرف ، وأنا أعرف ، أم تظنني بلهاء ؟ أين هي ؟ أين اختبأت ؟ وكيف استطاعت الاختباء قبل مجيئي ، آه الوقحة ، سألقنها درسا لن تنساه !

– تلقنينها درساً لن تنساه ؟ لماذا ؟ وبصفتك من ؟ زوجتي أم قريبتي ؟

ومشى مبتعداً عنها بضع خطوات ، وقال وهو ينظر إلى الطفلة التي اتجهت نحو البحيرة : « حاذري ، ابنتك تتجه نحو الماء ! » . قالت بغضب : « لا تغير الموضوع ، لا تحاول التهرب والتملص ، وإن كنت تظن أني لن أستطيع أن أسحب أذنها من عظام جمجمتها فأنت مخطئ ، إن كنت تظن بأن سهى تستطيع اختطافك مني فأنت مخطئ :

وإن كنت تظن أن رباطي بك يجب أن يكون الزواج ، وأن الزواج هو الإداة الوحيدة التي تمنحني فرصة التدخل لإنقاذك من تلك الحشاشة ، فأنت مخطئ ! » . . فقاطعها بعنف : « أرجوك ، أرجوك ، أنا لا اسمح لأى إنسان بالتدخل فى خصوصياتى. أنا لا أسمح حتى لأبى بالتدخل ، أتفهمين ؟ » . . وكانت الصغيرة قد اقتربت كثيراً من الحافة ، ومدت يدها لالتقاط زنبقة قريبة منها ، فانصاعت الزنبقة ، وأخذ جذرها ينسحب وراءها كحبل طويل مشدود بطرفها . فأخذت الطفلة تسحبه وهى تبتعد عن الحافة ، وأخيراً انقطع الساق بعد أن امتد حوالى مترين .

وعادت الصغيرة إلى الحافة ، وألقت ببقية تفاحة كانت تمسك بها ، وأمسكت بزنبقة أخرى . . بينما واصلت «إيفيت» جدلها مع فاروق فى تشنج : « وها أنت ذا تقول بكل وقاحة إنها جميلة وساحرة ! ألم تقل إن جمال المرأة فى أصلها وفصلها ؟ ألم تقل إن جمال المرأة فى ليونتها ورقتها ؟ وإن لسهى خشونة رجل ذى شاربين يستطيع أن يقف عليهما صقران . ألم تقل هذا ؟ أم أنك نسيت ؟ إذا كنت نسيت فسأذكرك بذلك ، وأذكرها هى ! بل انك قلت أيضاً إن أمها حقيرة تشبه الخادمات اللواتى يعملن فى منزل والدى ، وإن والدها سكير يدمن الخمر ويضرب زوجته ! إذا كنت نسيت هذا ، فسأذكرك به وأذكرها . . وقلت أيضاً إن نوعية سهى لا تعجبك ، النوعية الخارجة عن كل عرف وكل تقليد ! »

أطلق فاروق قهقهة طويلة وتساءل : « أنت تقولين هذا ؟ أنت ؟ » ، فقالت وهى تفتح عينيها على سعتهما : « ماذا تقصد ؟ قل ، ماذا تقصد ؟» قال باسما : « وماذا لو عبثت قليلا ؟ لست زوجتى لتتحكمى فى ! » . قالت والاحمرار يطفح فوق وجهها : « بل أكثر من زوجتك ، فالزوجة تكسب ولا تخسر ، وهى عندما تعطى لا تتحدى ولاتتعدى ، أما أنا فقد ضحيت بالكثير فى سبيلك ، ثم إنك تحبنى ، ألا تحبنى ؟ » .

وأخذت دموعها تتدحرج على وجنتيها بمذلة ، فقال وهو يقترب منها : « طبعا ، أنا أحبك كثيراً ، وأنت تعرفين هذا ، ولكن يجب علينا مراعاة الظروف قليلا ، يحسن فى رأيى أن تكون لى علاقة مع امرأة أخرى لكى أبعد الشبهة عنك ! » . . فقالت وهى تنشج باكية : « ولكنى لا أطيق هذا ، لا أطيق رؤيتك مع امرأة أخرى ! » ، فقال يهدئها : « حسنا ، حسنا ، ولكن ، ماذا لو ارتاب زوجك ؟ صباح ذاك اليوم قال لى والدى إن المدينة كلها تلغط فى الموضوع ! لذلك فمن الأفضل أن يرانى الناس مع امرأة أخرى ، على الأقل فى هذه الفترة بالذات ! »

ـ ولماذا هذه الفترة بالذات ؟

قال مهمهماً : « ربما نلت كرسياً فى البرلمان . ليس ذلك مؤكداً ، بل إنه مجرد احتمال . ولكن المهم هو سمعتك ، التى يجب المحافظة عليها ، ولكن ، أين ابنتك ؟ لقد غابت عن عينى رغم أنى كنت أتعمد مراقبتها . . »

تلفتت إيفيت حواليها ، ونادت بصوت منخفض : « نينا . . نينا . . » ودارت تبحث عنها وراء الأشجار والصخور . . وعندما اقتربت من الحافة وجدت بقية التفاحة هناك ، ولمحت طرف ثوب أزرق حريرى يطفو على وجه البحيرة على بعد أمتار من الحافة . فأخذت تصرخ منادية ، وكان فاروق قد اقترب منها وأصبح بجانبها تماما ، وعندما حاولت النزول إلى الماء شدها إلى الوراء وصاح : « ستموتين ! » . . وكانت الطفلة قد لفظت أنفاسها منذ دقائق ! وأخذت إيفيت تطلق صرخات مدوية وهى ترى طرف الثوب الأزرق أمامها ولا تستطيع الوصول إليه ، فقد تشبث « فاروق » بها كى لا تنزل إلى الماء ، فأخذت تصفعه كنمرة متوحشة ، وتعض ذراعيه وهى تتلوى محاولة الإفلات . . فقال وهو يقاوم حركاتها العنيفة : « لقد ماتت وانتهى الأمر ، ألا ترين هذا ؟ فلا حركة تصدر عنها ولا إشارة توحى بالحياة . وموت واحدة خير من

موت اثنتين ! » : ؟ فجحظت عيناها ، واصفر وجهها ، وأخذت تلهث وهى تحاول من جديد الوصول إلى الطفلة . . وكانت حركاتها غاية فى العنف والقوة ، وصراخها يملأ الجو شؤما وضجيجا . وحاولت التملص من بين ذراعيه بأن ارتمت على الأرض ، فتدحرج معها بضعة أقدام ، ووقعا على الحافة المبتلة وهما يتصارعان كحيوانين شرسين ، وهى تطلق صرخات مدوية كعواء كلب جريح يتوجع ! .

وصل عبد الرحمن ورأى المشهد ، وفهم الموقف ، فأمسك بالأم الملتاعة محاولا توعيتها وردها إلى صوابها ، فأخذت تصرخ مستغيثة بزوجها الذى كان يركض فى اتجاههم وخلفه ثلة من الفلاحين والصبية : وقفز شكرى إلى البحيرة رغم تحذير عبد الرحمن ، فلم يبق منه فوق الماء سوى رأسه . والتفت سيقان الزنابق وأغصانها حول عنقه وجسمه وذراعيه كأذرع أخطبوط جائع ، فأخذ يقوم بحركات بطيئة ثقيلة للوصول إلى الطفلة . كان الماء ضحلا ولزجاً ، وجذور الأعشاب كثيفة ومتراصة ، والحركة فى ماء كهذا تكاد تصبح مستحيلة ، ولكنه كان قوى البنية ويجيد السباحة ، وأمامه طفلته التى يحبها أكثر من أى شىء فى العالم ، فأخذ يقوم بحركات عنيفة يائسة ، ويضرب الماء الثقيل المعشوشب بذراعيه المقيدتين بالأعشاب والحشائش ، وقدماه ترفسان بقوة ، وكفاه تشدان الأعشاب الأمامية فى محاولة لجذب الأعشاب وما عليها . واقتربت الجثة الصغيرة فأمسك بطرف الثوب وشده إليه ، وأمسك باليد الصغيرة الباردة ، فأحس بسكاكين حادة تطعن قلبه ، وأخذ شعره يخز جلدة رأسه وصدغيه كشوك متوقد ، فاندفع يناديها وهو يرفع رأسها إلى أعلى : « نينا . . نينا . . أجيبى ! » . لكن الطفلة لم تجب ، فقد كانت تحلم بعالم أكثر نظافة ، وبأم أكثر حنانا . وكانت المجموعة كلها ترقب الموقف على الحافة وقد اجتمع عشرات الفلاحين وهم يحملون العصى الطويلة يمدونها لشكرى كى تساعده على الرجوع . وكان وجه الصغيرة محتقنا ، ورقبتها مزرقة ، ومن فرجة الفم

المفتوح تظهر أسنان صغيرة بيضاء . وأخذ شكرى يهز الرأس بيديه : « نينا . . نينا ! » . . وصاح عبد الرحمن يخاطبه : « اسحبها وارجع : أمسك بالعصى ، هيا أمسك بالعصى ، لاتنس نفسك ، سنحاول إنقاذها على الشاطىء ، إرجع أنت ! » . . فرفع شكرى الجثة على كتفه وهو يشدها بذراعه ، وأمسك بالعصى الممدودة إليه وأخذ يضرب الماء الضحل بقدميه . وكانت إيفيت تجلس على الأرض وقد غطى الطين وجهها وثيابها ؛ وعلقت الأعشاب بشعرها . وكانت تبكى وتولول ، ثم بدأت تطلق شهقات حادة يرتج لها جسمها كله ، فأمسكت سامية بها وشدتها إلى صدرها وأخذت تواسيها وتهدئها ، بينما ركعت بجانبها كل من نسرين وسميرة . . ثم ألقت إيفيت بجسمها على الجثة الصغيرة الملقاة على الأرض وأخذت تشدها إلى صدرها وهى تلف الذراعين الصغيرين حول عنقها ، ثم راحت تناديها ، وتهدهدها ، وترجرجها على صدرها ، أملا فى إيقاظها ! . . ومرت ساعة وهم فى هذه الحال ، أصيبت إيفيت أثناءها بالإغماء ، كما اصيبت سهى بالتشنج . وكان « ربيع » يحاول إسعاف الاثنتين معا ، بينما شد شكرى الطفلة إلى صدره وأخذ يشهق ، وأخيراً حمل الجثة الصغيرة وشدها إلى صدره ، ثم دفن وجهه الباكى فى عنقها وبدأ يسير فى اتجاه القرية ، فتبعته إيفيت وهى تجرجر قدميها وأحزانها ، وإلى جانبيها التفت النسوة والصديقات . وبدأ صبية القرية يتراكضون ، ووقف المارة يحدقون فى الموكب الكئيب بفضول . وعندما مر الجمع أمام مخفر الشرطة المتواضع أوقفهم رجال البوليس وطلبوا شهودا للحادث ، فدخل عبد الرحمن ومعه علاء الدين وأحد الفلاحين ؛ وأجريت اتصالات . وتبودلت الأوامر والإشارات . ووجد عبد الرحمن نفسه بعد ساعات فى غرفة ضيقة من سجن ( نابلس ) الكبير ، وأحد الضباط المرتزقة يقول له وعلى وجهه ابتسامة ساخرة لئيمة : « حيث يكون « الميثلونى » تكون المشكلات ! »

وفى الليل نام فى السجن مع اللصوص وقطاع الطرق ، وفى الصباح اقتيد إلى عمان ، وابتدأ التحقيق معه حول موت الطفلة ، ثم انتهى بالتحقيق فى تهم لا أول لها ولا آخر : فهو متآمر ، وخطير ، ويهدد الأمن وسلامة العرش والدولة ! وهو عميل للشيوعية ، كما أنه مجرم سياسى ، ودجال وطنى !

. . وفى الليلة التالية ، أركب فى سيارة مغلقة الجوانب ، وأخذ إلى معسكر مجهول فى الصحراء ، حيث أجلس فى غرفة ضيقة لساعات طويلة ، يجيب عن أسئلة المحققين . وبعد التحقيق اقتيد إلى زنزانة مظلمة حيث قدمت له وجبة من الخبز والماء ، ونام على الأرض بدون غطاء ، وفى الصباح أخذ ينتظر بداية التحقيق من جديد .. ولكن بدون جدوى ، فقد مرت ثلاثة أيام دون رؤية أحد ، إلا حامل الخبز والماء ! . وأخذ عبد الرحمن يلح مطالباً بإعادة التحقيق كى يعرف أسباب الاعتقال ، رغم أنه كان أدرى الناس بنوعية هذا الاعتقال ، فقد كان التحقيق بالنسبة إليه أخف وطأة من مرارة الانتظار !

ومرت الأيام ، وتلتها الأسابيع ، ثم الأشهر . . ثلاثة أشهر فى الزنزانة أخرج بعدها ووضع فى معسكر ضخم ملئ بالسجناء .وعلم ساعتها أنه فى معتقل ( الجفر ) السياسى ، وأن حكاية اعتقاله القديمة قد أعيدت ، فبات معزولا عن العالم ، وبات يشبه « الحى الميت » !

وبعد أربعة أشهر وصلته رسالة من سميرة . كانت مقتضبة ، ولا تحوى إلا الضرورى من الأخبار : « نحن بخير لكننا قلقون عليك . علاء الدين ووالدته يسألون عن صحتك . ما أخبارك ؟ نرجو أن تكون فى حال حسن . الجميع يسألون عنك ، ونحن بانتظارك . . » . . وعجب لأن التوقيع كان باسم سميرة وليس سامية ، وليس سهى ! أين سامية ؟ وماذا حل بسهى ؟ سامية ما زالت تحمل نفس الانطباع ، وسهى قد أصبحت مدمنة ولا ريب ، وإيفيت التعيسة ماذا فعلت بعد ذاك الدرس المريع ؟ وشكرى ؟وفاروق ؟

ومضى شهر آخر ، ثم تسلم من سميرة رسالة أخرى ، كانت أطول من سابقتها : « أعمل بالتدريس كسابق عهدى ، و« ربيع» غادرنا إلى انجلترا ليتزوج بمن يحب ، بعد أن أخليت طرفه ، ووعد بإرسال بقية النقود.. سهىسافرت إلى سوريا للعلاج ، وفاروق نال كرسيا فى البرلمان . إيفيت وزوجها على وفاق الآن . وجميعنا قلقون عليك ، مشتاقون إليك ، وبانتظارك » .

عجبا ! وسامية؟ والمكتبة ؟ ونسرين ؟ ماذا حل بهؤلاء ؟ لارسالة من سامية ! لا سؤال ، لا قصاصة ! وبعث برسالة صغيرة لسميرة تحوى تساؤلاته ، لكن الردعاد مقتضبا كالعادة ، وخلوا من أى ذكر لسامية : « قلقون عليك.حصلت على إذن لرؤيتك بواسطة فاروق ، قلوبنا معك » .

* * *

وفى صباح يوم كئيب مظلم اقتيد إلى غرفة الانتظار . لم يكن فى الغرفة إلا لوح خشبى له أرجل مقوسة . فجلس على طرفه بإعياء وأخذ ينتظر الزيارة الموعودة . كانت الغرفة ضيقة ، جدرانها مطلية بلون أخضر كالح ، والنوافذ مسدودة بألواح خشبية قذرة ، والبلاط ذو لون معتم أجرد ، وقد تكسرت بضع بلاطات عند العتبة حيث يقف جندى ضخم الجثة يسد الباب بطوله وبندقيته. ودخلت« سميرة » وحدها ، وهى تتلفت حواليها بفضول . فوقف عبد الرحمن بإعياء وابتسم ، ومد يدا هزيلة معروقة ، فصافحته سميرة وهى تحاول الابتسام مشجعة ، لكن بسمتها جاءت فى شكل دمعة ، ثم ألقت بنفسها على كتفه وأخذت تنشج : « أستاذ ، أستاذ ، لا أدرى ماذا أقول ! » . وراحت تشهق وهى تخبئ رأسها فى ثيابه القذرة التى تغطى صدره النحيل ، ثم قالت وهى تمسح دموعها : « أحضرت لك جبنا ودجاجا وسجائر . وقد رجوت الجندى أن يوصلها إليك ، ولا أعلم إن كان سيفعل بها ما فعله فى المرات السابقة ! ألم يصلك منى شىء؟ لقد بعثت لك بسجائر وحلوى ».

ثم توقفت عن الكلام وتبادلت وإياه نظرة طويلة ، وقد أخذت دموعها تنساب على وجهها بغزارة ، وقالت : « انك تبدو معتلا . سأحاول ما أمكن – بواسطة فاروق – كي يسمحوا لك بدخول المستشفى العسكرى ، فالمستشفى أضمن» .لكنه هز رأسه وقال بشرود : « نعم » . . وجلسا على حافة اللوح الخشبي المتراقص : هو ببنطلون بنى كالح اللون ، وقميص أبيض قذر الياقة والصدر ، وقد اصفرت الأكمام تحت الابطين . وغطت حافة الأكمام طبقة سمراء قذرة من أثر احتكاك القماش باللحم المتسخ . وكان حذاؤه أيضاً مغبراً قذراً ، أما شعره فكان حديث القص ، ولحيته حليقة ( ربما خصيصا من أجل هذه الزيارة ، وحتى يراه الزوار بشكل لائق ! ) . . وكان فى ذقنه جرح موسى صغير ، وتحت عينه ندبة ملتئمة لكنها ما تزال حمراء شاحبة . . وقال بشرود : « وسامية ؟أين هى؟»

فنظرت سميرة إلى أظافرها وأجابت بوجل : « سامية ؟ . . إنها لم تأت ! » . فقال بإصرار : « اين هى ؟لم لم تكتب ؟لم لم تسأل ؟ » . فأجابته سميرة ، وهى تستدير بوجهها : « سامية وسهى . . حدثت لهما مشاكل ، أشياء لاتهمك كثيراً . » . . ففتح عينيه وتساءل بحذر : «كيف لاتهمنى ؟ هيا قولى ما لديك ، قولى ! » ، فنظرت إليه وقالت : « أستاذ ، يكفيك ما أنت فيه ، دعك منهما ! » . . لكنه أمسك بذراعها وضغطها ، وتساءل : « ماذا حدث ؟ ماذا حدث ؟ » . فقالت بتردد : « يبدو أن سامية لديها فكرة خاطئة تجاهلك ، وسهى كذلك . » . . فتساءل بدهشة : « ماذا تقصدين؟ هيا فسرى ، صارحينى بما لديك ، لاتخافى من شىء! إن كنت تخشين إيلامى ، فكونى على ثقة من أنى سأحتمل . لقد احتملت الكثير ، وسأحتمل ما لديك ! » .قالت سميرة بخوف : « سامية باعت المكتبة وسافرت لزيارة أقاربها فى أمريكا ! » .

. . هب واقفا كمن لدغته أفعى ، ثم عاد ، وجلس فى مكانه بصمت وذهول ، وتمتم : « آه . . للمرة الثانية ، للمرة الثانية ؟ لايلدغ

المؤمن من جحر مرتين ، أما أنا فقد لدغت! » ، وأمساك رأسه بين كفيه ، وأسند ذراعيه إلى ركبتيه ، وغرق فى صمت عميق ! .. فقالت سميرة مدافعة عن سامية : « سامية مازالت تحبك! وهى لم تترك البلاد إلا وهى فى حال سيئة جداً . صحتها أصبحت معتلة ، وأعصابها باتت تهدد بالانهيار . لقد تبادلت وسهى اتهامات كثيرة فى احدى المناسبات ، والحقيقة أننى خجلة مما حدث ، وما كنا نعلم أنك تكن لسهى عاطفة خاصة » .. فنظر إليهما مبهوتا وتساءل : « أنا أكن لسهى عاطفة خاصة ؟» وصمت فترة وهو يحدق أمامه بغضب ، ولكنه عاد فأطلق قهقهة جافة وقال : « أنا أكن لسهى عاطفة خاصة؟ أهذا ماقالته سهى ؟ » . قالت سميرة مواربة : «لا ، بل هذا ما أصبح متداولا . » . فصاح من بين أسنانه : « آه ، يا للأغبياء» . وشد قبضته بغضب ، وتساءل :

« وأنت ؟ أتعتقدين مثلهم أنى « دون جوان » حقير ؟ أتصدقين هذا ؟» . فهزت رأسها بصمت وقالت : « أنت أستاذنا الكبير ، أنت معلمنا ، أنت قنديلنا . » . . لكنه هز رأسه بمرارة ، منكرا : « أستاذ من ؟ معلم من ؟ قنديل من ؟ للأستاذ تلاميذ ، وللمعلم مقتدون ، وللقنديل مهتدون ، وأنا أستاذ بلا تلاميذ ، ومعلم بلا مقتدين ، وقنديل بلا مهتدين ، فهل أظل أستاذا ومعلما وقنديلا ؟ .واستدار بوجهه إليها ثم استطرد مبتسما : « صغيرتى ، صديقتى ، إذا شئت فأنت تلميذتى الوحيدة . » . . فقالت

وهى تدارى فى أعماقها الخجل والمرارة والارتباك : « كلنا تلاميذك يا أستاذ ، ولست وحدى! » .. لكنه تساءل بمرارة : « كلكم؟ أى كلكم؟ من فيكم ؟ تلفتى حوالى وانظرى أين أنا وانظرى أين هم ، وابحثى عما تركه وجودى من أثر ، وما تركه فى من أثر . أترين شيئا يدل على أثر ، ولو ضئيل ؟ » فأمسكت بذراعه تشده وهى تقول : « أستاذ ، لا تكن متشائما ، لقد خلفت لنا أشياء كثيرة ، وقد حققت أشياء كثيرة ، وإن كنت لاترى ذلك الآن فسوف يراه غيرك ، سوف تراه الأجيال القادمة ! » . .فقال بعد

فترة صمت : « مرورنا فى هذا العالم إنما هو ضربة حظ ومصادفة ، وبقدر ما لدينا من حظ ، نصيب الهدف . وأنا لم أصب الهدف ، الذى أصابه فاروق وأمثاله . . فانظرى أين أنا وأين هو ! »

ثم تلفت حواليه وقال : « هذا ما نلت ، أترين ؟ » . ثم قهقه بجفاف وقال : « وأبلغ ما فى الموضوع أنى لم أطلب شيئا لنفسى . لقد طلبت لهم ، لأولئك الذين لايحركون ساكنا ، ولا يسألون ولايجيبون ، لتلك الأغلبية غير المباليـــة . . ولكن هناك أيضاً المعـــذبون ، والمتعبون ، ومن أجل هؤلاء انتهى بى المطاف إلى هنا . . ثم استدار إليها وتساءل : « وأنت ، ماذا نلت ؟ أنت الوحيدة التى طلبت إرضاء عقلها وضميرها ، وقد كان هدفك مشابها لهدفى ، ووضعك مشابها لوضعى ، وإيمانك مشابها لإيمانى . . فانظرى أين نحن ، أنت مدرسة متواضعة مهملة منسية ، وأنا . . أنا هنا ! »

وصمت ، وقد أخذ يزفر بمرارة . . فقالت : « أستاذ ، لقد طلبنا هدفا ، وقد أصبنا الهدف ! وإن كانت الظلمة كثيفة وحالكة ، فإن هذا لا يدل على فشلنا وخيبتنا ، فقد أصبنا الهدف ، وقد كان الهدف هو إرضاء العقل والضمير ، وهذا ما فعلناه ، هذا ما نفذناه . . »

ومرت فترة صمت . . ثم فتحت سميرة حقيبة يدها وأخرجت منها علبة سجائر ، وعادت تقول بخجل : « أستاذ ، إن لم يعطوك ما أحضرت لك ، فهاك هذه .. » .. فابتسم وقال وهو يمد يده : « نعم ، أعطينى سيجارة ، فأنا بحاجة إليها ! » . وأخذ يمتص اللفافة باستغراق ، وقال بعد فترة : « إه ، ما أسخفنا ! كم تؤثر فينا الأحداث التافهة العابرة ؛ وكم تدمينا الضربات ، حتى ولو وجهت إلينا من الأيدى الضعيفة ! هه ، ماذا لو ذهبت سامية ؟ وماذا لو كذبت سهى ؟ ماذا لو ظن الناس بى الظنون ، ولفقوا لى التهم ؟ ماذا لولم يسأل الناس عنى ، ولم يعبأ الأصدقاء بأحزانى ؟ ولم الحزن أصلا ؟ علام ؟ وهل يستحق الألم تألمنا ؟ » .. ثم التفت

إليها وابتسم قائلا : « إننى أبدو سخيفاً ، أليس كذلك ؟ » : : ورآها تحدق فى وجهه بألفة واستكانة ، فقال بعطف : « آه ما ألطفك أيتها الصغيرة ! أتمنى لو كانت السعادة بيدى ، إذن لأعطيتك إياها بدون تردد ، فأنت رائعة ، ألست رائعة ؟ » . فابتسمت وقالت بمرح كئيب : « ربما » ، وضحكت ضحكة صغيرة ، فقال وهو يتأمل وجهها الصبيانى الأسمر : « نعم ، أنت رائعة ، فلك نفس نظيفة كعيون النرجس ، وفى رأسك عقل يتألق كالذهب ، ولك قلب واسع باستطاعته الاحتمال ، والحب ، واستيعاب الرحمة . . ولئن كان الربح من نصيب الزنادقة ، فالشرف والطوبى لنا ! » . . فقالت هامسة بلطف : « أعرف » . فقال مفكراً : « أنت تعرفين الكثير ، فهل الكثيرات يعرفن كما تعرفين ؟ » . قالت بتردد : « لسن جميعا هكذا ، فبعضهن ينسين ما ينبغى ذكره ، ويذكرن ما ينبغى نسيانه ! » . . فقال وهو يهز رأسه : « أجوبة موزونة ، من رأس موزون . والآن ، صارحينى : أسعيدة أنت ؟ » . . فقالت وهى تطأطئ برأسها : « وكيف يكون الإنسان سعيداً ، وفى العالم كل هذا الخطأ ؟ » . فقال مشجعاً : « الخطأ أنواع ، فأى الأنواع تقصدين ؟ » : قالت ببطء : « كل خطأ يجر إلى خطأ ، حتى أصبحت حياتنا سلسلة من الأخطاء ! » . . فقال باسما : « وماذا باستطاعة الإنسان النظيف أن يفعل كى يخلص العالم من بعض أدرانه ؟ أنت فتاة صغيرة ، متواضعة ، محدودة الإمكانيات ، محدودة الطاقات ، وأنت امرأة فى مجتمع شرقى ، أى عصفور فى قفص ، وأدنى لكزة قد تنتزع ريشة من جناحيك . . وماذا باستطاعة عصفور فى قفص أن يفعل ؟ »

قالت ، وابتسامة مضيئة على وجهها ، وفى عينيها بريق من يخرج الكلام من أعماق قلبه :

— يغرد !

فهز رأسه باسماً ، وقال :

— نعم ، أنت عصفور فى قفص ، وأنا — إن شئت — غراب فى قفص !

قالت ضاحكة :

— لست غرابا يا أستاذ ، بل أنت بلبل !

قال وهو يشد على يدها مصافحا :

— إذن ، فلنغرد معا !

تمت

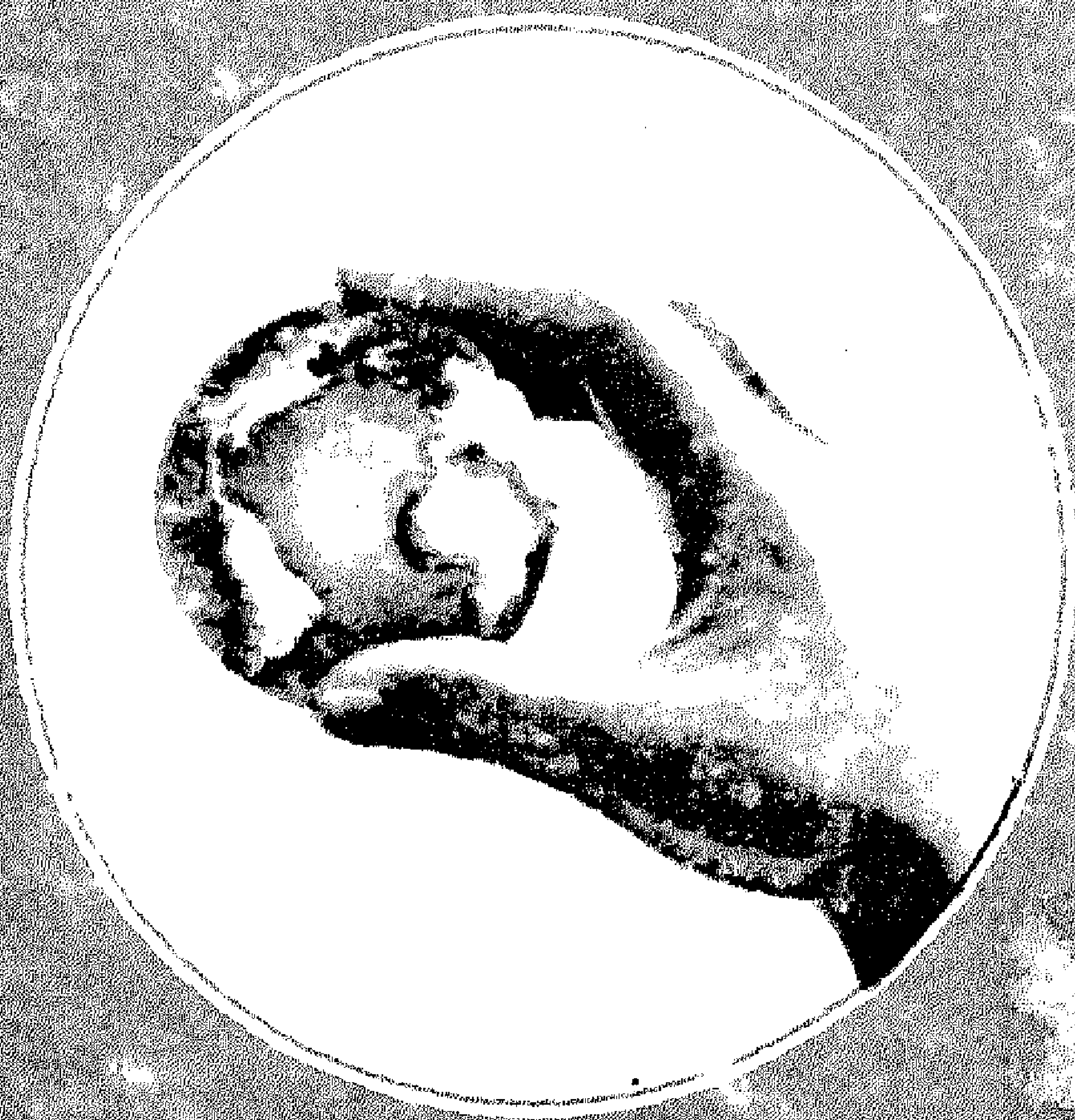
تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٥٦٥٣ /١٩٧٣

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٤

من خلال صفحات هـــذه الرواية الرائعة ، وتحت ظلال أشجار السّرو والصنوبر ، وغابات الجوافـة ، وبيّارات البرتقال ، وبساتـين اللوز ، والوهـاد الخضر المزدانة بشقائق النعمان ... يتضوع عطر مدن فلسطين الحبيبة : (القدس) الشامخة .. و(رام الله) .. و(أريحا) .. و(نابلس) .. وشاطئ نهر الأردن .. والبحر الميت .. والضفة الغربية .. حيث نعيش أحداث القصة ونتعرف على بطلاتها وأبطالها : نسرين ، نزار ، بشّار ، سُهى ، سامية ، عبد الرحمن ، سميرة ، ايفيت ، وفاروق !

اقرأ

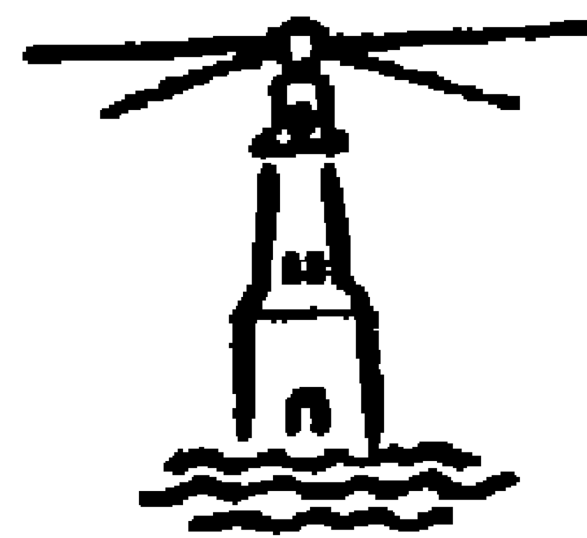
# العالم بين يديك



# اقرأ

تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر

بأسلوب اليوم وتفكير الغد

# العالم
# بين يديك



اقرأ ٣٧٩

دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع

# تقديم

| | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| وُلِدَ سُقْراطُ | عام ٤٧٠ | ، | وتُوُفِّيَ | عام | ٣٩٩ | ق . م . |
| ووُلِدَ أفلاطونُ | عام ٤٢٨ | ، | وتُوُفِّيَ | عام | ٣٤٧ | ق . م . |
| ووُلِدَ أرِسْطو | عام ٣٨٤ | ، | وتُوُفِّيَ | عام | ٣٢٢ | ق . م . |
| ووُلِدَ الكِنْدِيُّ | عام ٨٠١ | ، | وتُوُفِّيَ | عام | ٨٦٥ | للميلاد . |
| ووُلِدَ الفارابيُّ | عام ٨٧٠ | ، | وتُوُفِّيَ | عام | ٩٥٠ | للميلاد . |
| ووُلِدَ ابنُ سينا | عام ٩٨٠ | ، | وتُوُفِّيَ | عام | ١٠٣٦ | للميلاد . |
| ووُلِدَ الإدريسيُّ | عام ١١٠٠ | ، | وتُوُفِّيَ | عام | ١١٦٦ | للميلاد . |

منذ أعوام تُعَدُّ بالمئات أو بالألوف ، وُلِدَ هؤلاء العباقرة ، كما وُلِدَ آلافٌ غيرُهم من الأعلام ؛ وعَمَّروا في الأرض ما شاء اللهُ أن يُعَمَّروا ؛ ثم مَضَوْا بعد أن تركوا من المعارف على طريق الموكِبِ البشريِّ معالِمَ كأنَّها الجبالُ يَهْتَدِي بها السَّارِبون ، وأضاءُوا مصابيحَ كأنَّها النُّجومُ يَهتَدِي بها السَّارونَ والمُدْلِجُون .

مَضَى هؤلاء جميعاً دون أن يَعْلَمَ أحدُهم أنَّ للأرض نِصْفاً غَرْبيًّا نُسَمِّيه اليومَ الأمريكتين .

مَضَوْا وهم يجهلون ما يعرِفه الآنَ الصِّغارُ والكِبارُ ، كما يعرفه الدَّهماءُ والعلماءُ .

وُوُلِدَ كريستوف كولومبس عام ١٤٥١ ؛ واستَوْلَتْ عليه وهو شابٌّ فكرةُ إمكانِ الوصولِ إلى الشرقِ الأقصى والهندِ لمن يُبْحِرُ مُغَرِّباً .

وَتَمَّ له بعضُ ما أراد من الإبحار غَرْباً فى أربعِ رِحْلاتٍ متتابعاتٍ ظنَّ بها أنّه قد أصاب هَدَفَهُ وبَلَغَ من الشَّرق الأقصى والهندِ مأرَبَهُ .

وتُوُفِّيَ كولومبس عام ١٥٠٦ وهو لا يعلم أنه اكتشفَ نِصْفَ الكرةِ الغَرْبِيَّ .

وجَهْلُ هؤلاء الأعلامِ بما يعرِفُهُ اليومَ الصِّغارُ والعامّةُ ، لا يُلْقِي ظِلالاً من الرَّيْبِ على عِلْمِهِم ؛ ذلك لأنّنا نقيسُ الأمورَ بمعاييرَ يدخلُ فى حُسْبانِها الزّمانُ والمكانُ .

وبهذه المعاييرِ نفسِها ، لا يُعَدُّ اليومَ من المثقّفين مَنْ يجهلُ الحقائقَ الأساسيّةَ عن تِسْعَ عَشْرَةَ دَوْلةً عربيّة ، أو عن تسعٍ وعشرينَ دولةً إفريقيّة قَطَعَتْ عَلاقَتَها بعدُوِّنا انتصاراً لقضيّتِنا العادلة .

وأصغر دولةٍ فى العالَمِ لها صوتٌ فى الأمم المتحدة كأكبرِ دولة ؛ ويُمكنُ أن يكونَ هذا الصوتُ لنا ، ويمكِنُ أن يكونَ علينا .

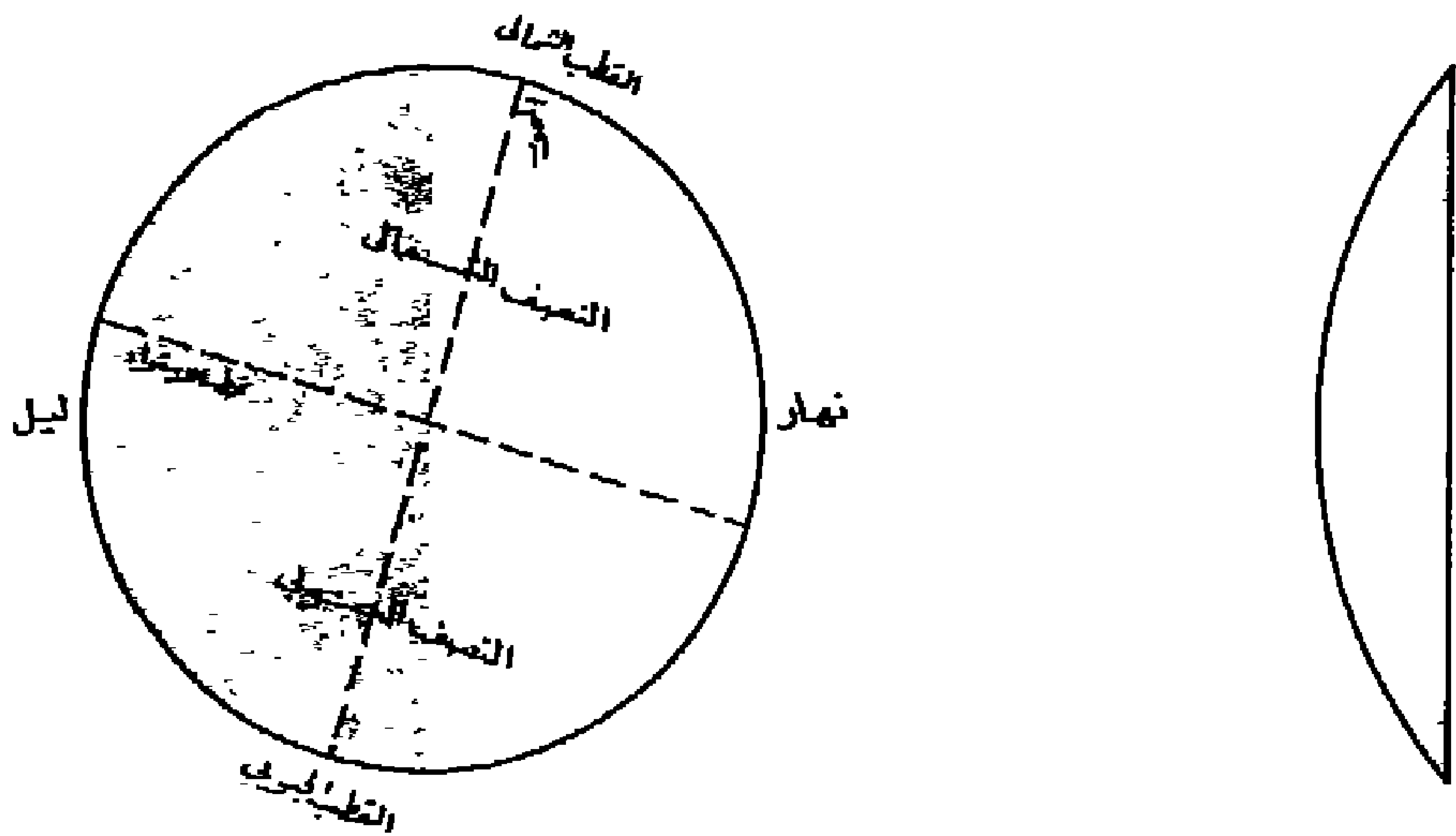
وليس يكفى أن تكونَ هذه الدولةُ معروفةً لدى جهاتنا المسئولةِ ودوائرِنا العليا ؛ بل إنّ القاعدةَ الشعبيّةَ يجب أن تعرف العَدُوَّ والصديق ؛ ويجبُ أن تُعِدَّ للعَدُوِّ ما استطاعتْ من قُوَّة ، وأن تَخفِضَ للصَّديق جَناحَ الصَّداقةِ وحقوقِها . . . فى كلِّ يومٍ ، ويومَ يَجِدُّ الجِدّ . . .

وأَوَّلُ خَطْوَةٍ فى سبيلِ الرُّشْدِ هى المعْرِفَة :

# الأرض

الأرض أحد كواكب المجموعة الشمسية التسعة . وهي خامسة هذه الكواكب حجماً ، وثالثها من حيث البعد عن الشمس .

والأرض كرة غير تامة الاستدارة يبلغ قطرها نحو ٧,٩٠٠ ميل . وقد سمى الجغرافيون الخط الوهمي الذى يصل بين قطبي الأرض بالمحور .




وأطلقوا على الدائرة الوهمية التى تفصل نصفها الشمالى عن نصفها الجنوبى « خط الاستواء » .

وتلفّ الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق فتتمّ لفة كاملة في كل يوم ؛ ويكون نصفها المواجه للشمس نهاراً ، ونصفها الآخر ليلاً .

والناس الذين يعيشون عند خط الاستواء يقطعون هذه الرحلة بسرعة ١٠٤٠ ميلاً فى الساعة ؛ والذين يعيشون فى شيكاغو ( على خط عرض ٤٢° شمالاً ) يقطعونها بسرعة ٦٧٥ ميلاً فى الساعة ؛ أما عند القطبين فتساوى هذه السرعة صفراً .

* * *

وتدور الأرض حول الشمس بسرعة ١٩ ميلا فى الثانية ، فتتم دورة كاملة فى ٣٦٥ يوماً وربع يوم تقريباً .

ونحن لا نشعر بحركة الأرض لأننا نمضى معها فى رحلتها بسرعة واحدة — نحن وما يحيط بنا من أماكن وجبال وأنهار وأشجار وهواء وسحاب — شأننا فى ذلك كشأن راكب الطائرة ، لا يشعر بأنها تتحرك مادام نظره محصوراً فيما يحيط به داخل نطاقها ؛ فإذا أطل من إحدى نوافذها خيل إليه أن معالم الأرض تتقهقر إلى الوراء :

بسرعة إذا كانت الطائرة منخفضة ؛

وببطء إذا كانت مرتفعة ؛

وببطء شديد إذا كانت الطائرة مرتفعة ارتفاعاً كبيراً .

وتدور الأرض حول الشمس فى فلك يبلغ طوله نحو ٥٨٠ مليون ميل ، بسرعة معدلها ٦٦,٠٠٠ ميل فى الساعة .

وليس فلك الأرض حول الشمس كامل الاستدارة ، ولذا يتفاوت بعدها عن الشمس بين ٩١,٥٠٠,٠٠٠ ميل و ٩٤,٥٠٠,٠٠٠ من الأميال .

ويميل محور الأرض عن الوضع العمودى أمام الشمس بزاوية مقدارها ٢٣,٥ من الدرجات . وهذا الميل هو السبب فى الفصول الأربعة .

| | | |
|---|---|---|
| وطول قطر الأرض المارّ بقطبيها (المحور) | ٧,٩٠٠ | ميل |
| وطول قطرها عند خط الاستواء | ٧,٩٢٦ | » |
| وطول محيطها المارّ بالقطبين | ٢٤,٨١٩ | » |
| وطول محيطها عند خط الاستواء | ٢٤,٩٠٢ | » |
| والمساحات اليابسة منها | ٥٧,٦٥٦,٠٠٠ | » مربع |
| والمساحات المائية | ١٣٩,٢٩٤,٠٠٠ | » » |
| ومجموع مساحة سطح الكرة الأرضية | ١٩٦,٩٥٠,٠٠٠ | » » |

أى نحو مائتى مليون من الأميال المربعة .

ونسبة الماء العذب إلى الماء الملح ٢٪ .

وأعلى قمة جبل فى الأرض هى قمة إفرست بجبال هيمالايا ، ويبلغ ارتفاعها ٢٩,٠٢٨ قدماً فوق سطح البحر .

وأعمق بقعة فى قاع المحيطات ، قرب مندناو من جزر الفيليبين بالمحيط الهادى ، يبلغ عمقها ٣٦,٢٠١ من الأقدام تحت سطح البحر .

**القارات :**

والمساحات اليابسة الكبيرة من سطح الأرض تسمى القارات .

والقارات ستّ ، غير الأراضى القطبية والجزر ، وهى :

| القارة | مساحتها بالميل المربع |
|---|---|
| آسيا | ١٨,٨٦٥,٠٠٠ |
| أفريقيا | ١١,٦٨٤,٠٠٠ |
| أوربا | ٢,٠٨٥,٠٠٠ |
| أمريكا الشمالية | ٩,٨١٦,٠٠٠ |
| أمريكا الجنوبية | ٦,٨٧٨,٠٠٠ |
| أستراليا | ٢,٩٦٨,٠٠٠ |
| الأراضى القطبية | ٥.١٧١,٠٠٠ |

## الجزر :

والمساحات اليابسة الصغيرة ، إذا أحاط بها الماء من جميع جهاتها تسمى الجزر .

وما الجزر إلا جبال تقوم أصولها وسفوحها فى قاع المحيطات والبحار ، وما ظهر منها فوق الماء نسميه الجزر .

ومن الجزر الكبيرة جرينلاند ، ومساحتها ٨٢٧,٣٠٠ ميل مربع
وجزيرة غينيا الجديدة ، ومساحتها ٣٤٧,٥٠٠ « «
وجزيرة مدغشقر ، ومساحتها ٢٢٨,٠٠٠ « «

وإذا اتصل طرف من الجزيرة بالأرض سميت « شبه الجزيرة » ، مثل شبه الجزيرة العربية ، وشبه جزيرة أيبريا .

## الجبال :

الجبال كتل كبار من الصخور مرتفعة ارتفاعاً كبيراً عما يحيط بها . فإذا قل ارتفاعها عن ألف قدم سميت « تلالاً » .

ولضخامة الجبال وروعتها ظن الناس أنها قديمة قدم الأزل ، وأنها باقية خالدة لا تزول . ويؤكد العلماء أن لكل جبل بداية سببها حدث من أحداث الأرض ، وأن لكل جبل نهاية لا ريب فيها طال الوقت به أو قصر . فهناك ما يثبت أن جبالاً من أضخم جبال الأرض – مثل جبال الهيمالايا وجبال الألب – كانت يوماً قيعاناً للبحار ، بدليل ما بين طبقات صخورها من بقايا وحفريات لأحياء مائية .

والجبال إذا اتصل بعضها ببعض وامتدت مسافات طويلة سميت « سلاسل الجبال » .

ومن أطول سلاسل الجبال فى العالم سلسلة جبال الأنديز ، التى تمتد نحو ٤,٠٠٠ ميل بطول الجانب الغربى من أمريكا الجنوبية المشرف على المحيط الهادى . وبها بركان كوتوباكسى ، وهو أضخم بركان نشيط فى العالم ، إذ يبلغ ارتفاعه عن سطح البحر ١٩,٦١٢ قدماً . وأعلى قمة فيها هى قمة أكونكاجوا ، وهى أعلى قمة فى الأمريكتين ، ويبلغ ارتفاعها ٢٢,٩٧٦ قدماً . وبها بحيرة تيتيكاكا التى يبلغ ارتفاع سطحها عن مستوى سطح البحر ١٢,٥٠٠ قدم .

وسلسلة جبال روكى ، بأمريكا الشمالية ، يمكن أن تعد جيولوجياً امتداداً لسلسلة جبال الأنديز . وهى تمتد من الجنوب ٤,٠٠٠ ميل حتى تبلغ شبه جزيرة ألاسكا . وأعلى قمة فى سلسلة جبال روكى هى قمة ماكنلى فى ألاسكا ، ويبلغ ارتفاعها عن سطح البحر ٢٠,٣٠٠ من الأقدام .

ومن أكبر سلاسل الجبال فى العالم القديم سلسلة جبال الهيمالايا التى يبلغ طولها ١,٥٠٠ ميل ، وتقع فى شمال الهند، وبها أعلى قمة فى العالم وهى قمة إفرست التى يبلغ ارتفاعها ٢٩,٠٢٨ من الأقدام ، وقمة جودوين أوستن (٢٨,٢٥٠ قدماً) .

وينبع من سلسلة جبال الهيمالايا أنهار السند والكنج والبراهمابوترا .

وأعلى جبال أوربا سلسلة جبال الألب ، التى تمتد ٦٠٠ ميل من قرب فينا شرقاً إلى خليج جنوا فى الغرب . ويبلغ عرض سلسلة جبال الألب ١٣٠ ميلاً فى منطقة التيرول . وأعلى قمة فيها هى مونت بلان ، التى يبلغ ارتفاعها ١٥,٧٧١ قدماً فوق سطح البحر

وأعلى قمة فى أفريقيا هى قمة جبل كليمنجارو ، ويبلغ ارتفاعها ١٩,٣٤٠ قدماً .

## المحيطات :

المساحات المائية الكبيرة فوق سطح الأرض تسمى المحيطات .

والمحيطات أربعة ، هى :

| المحيط | مساحته بالأميال المربعة | متوسط عمقه بالأقدام | أكثر بقاعه عمقاً بالأقدام |
|---|---|---|---|
| المحيط الهادى | ٦٤,٠٠٠,٠٠٠ | ١٤,٠٥٠ | ٣٦,٢٠١ |
| المحيط الأطلنطى | ٣١,٧٤٤,٠٠٠ | ١٢,٦٩٠ | ٢٧,٤٩٨ |
| المحيط الهندى | ٢٨,٤٠٠,٠٠٠ | ١٣,٠٠٢ | ٢٤,٤٤٢ |
| المحيط القطبى الشمالى | ٥,٤٢٧,٠٠٠ | ٥,٠١٠ | ١٧,٨٨٠ |

وقد ظل الجغرافيون زمناً يطلقون على النطاق المائى المحيط بالأراضى القطبية الجنوبية اسم « المحيط القطبي الجنوبى » ، ثم عدلوا عن ذلك واصطلحوا على أن هذا النطاق هو امتدادات لمياه المحيطات الهادى والأطلنطى والهندى .

## البحار :

البحار مساحات مائية كبيرة ، ولكنها دون المحيطات .

ومنها بحار متصلة اتصالاً مباشراً بالمحيطات ، مثل بحر العرب والبحر الكاريبي وبحر الشمال .

ومنها بحار متصلة بالمحيطات اتصالاً يسيراً ، مثل البحر المتوسط والبحر الأحمر .

ومنها بحار داخلية معزولة ، مثل بحر قزوين والبحر الميت وبحر آرال . ولذلك قد تعد ، لعزلتها ، ضمن البحيرات .

ومن بحار العالم :

| البحر | مساحته بالأميال المربعة | متوسط عمقه بالأقدام | أكثر بقاعه عمقاً بالأقدام |
|---|---|---|---|
| البحر المتوسط | ١,١٤٥,٠٠٠ | ٤,٦٨٨ | ١٦,٤٥٣ |
| البحر الكاريبي | ١,٠٤٩,٠٠٠ | ٨,٦٨٥ | ٢٣,٧٥٠ |
| بحر اليابان | ٣٨٩,١٠٠ | ٤,٤٢٩ | ١٢,٢٧٦ |
| بحر الشمال | ٢٢٠,٠٠٠ | ٣٠٨ | ٢,١٦٥ |
| البحر الأحمر | ١٦٩,١٠٠ | ١,٦١١ | ٧,٢٥٤ |

والمحيطات والبحار ماؤها ملح ، فإن نحو ٣,٥٪ منه يتكون من كلوريد الصوديوم ( ملح الطعام ) ، وسلفات الصوديوم والمغنسيوم والبوتاسيوم وغيرها .

ويكوّن الماء الملح ٩٨٪ من مجموع ما على الأرض من ماء .

**البحيرات :**

هى مساحات منخفضة عما يحيط بها من الأرض ، يملؤها الماء ؛ وقد تكون الأرض المحيطة بها مرتفعة ، قليلاً أو كثيراً ، عن مستوى سطح البحر . كما أن منها ما ينخفض مستوى سطحه عن مستوى سطح البحر .

وقد تكون البحيرات كبيرة حتى تسمى بحاراً ، مثل بحر قزوين وبحر آرال والبحر الميت .

وتسمى البحيرات الصغيرة أو الضحلة بالبرك أو المستنقعات .

والبحيرات التى تصبّ فيها أنهار يكون ماؤها ملحاً ، والتى تنبع منها أنهار يكون ماؤها عذباً .

ومن أشهر بحيرات العالم العذبة بحيرة فكتوريا التى يبلغ مسطحها ٢٦,٨٢٨ ميلاً مربعاً ، أى نحو نصف مساحة الجزيرة البريطانية وويلز . وبحيرة فكتوريا هى المنبع الأول لنهر النيل .

ومن بحيرات العالم :

| البحيرة | موقعها | مساحتها بالأميال المربعة | ارتفاعها فوق سطح البحر بالأقدام | أكثر بقاعها عمقاً بالأقدام |
|---|---|---|---|---|
| بحر قزوين | الاتحاد السوفيتي وإيران | ١٤٣,٢٤٣ | -٩٢ | ٣,٢١٥ |
| بحيرة ڤكتوريا | أفريقيا | ٢٦,٨٢٨ | ٣,٧٢٠ | ٢٧٠ |
| بحر آرال | الاتحاد السوفيتي | ٢٥,٦٥٩ | ١٦٤ | ٢٢٣ |
| بحيرة تنجانيقا | أفريقيا | ١٢,٧٠٠ | ٢,٥٣٤ | ٤,٧٠٨ |
| بحيرة تشاد | أفريقيا | ٩,٩٦٤ | ٩٢٢ | ٢٣ |
| بحيرة تيتيكاكا | أمريكا الجنوبية | ٣,١٤١ | ١٢,٤٩٧ | ١,٢١٤ |
| البحر الميت | الأردن وفلسطين | ٣٤٩ | -١.٣٠٢ | ١,٣٠٩ |

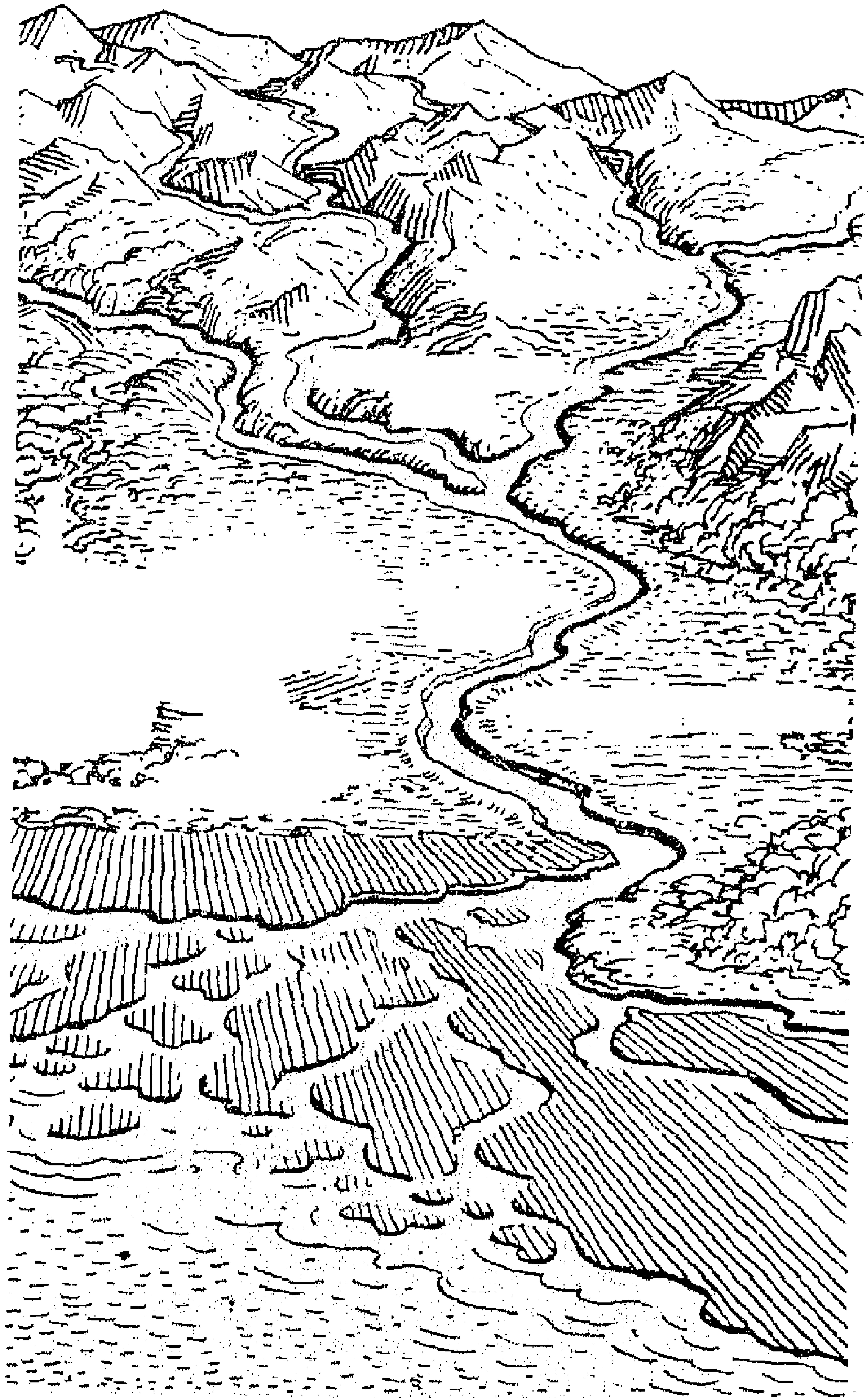
ولبحيرة تيتيكاكا وضع فريد ، فهى تقع بين بوليفيا وبيرو بأمريكا الجنوبية ، على ارتفاع يبلغ ١٢,٥٠٠ قدم تقريباً فوق سطح البحر .

كما أن للبحر الميت وضعاً فريداً آخر ، فهو يقع بين الأردُنّ وفلسطين ، وينخفض سطحه عن مستوى سطح البحر ١,٣٠٠ من الأقدام .

## الأنهار :

النهر مجرى مائى يحمل الماء العذب من منابعه حتى مصبه .

ومنابع الأنهار تتكون عادة من جداول تأتى بذوب الثلوج من أعالى قمم الجبال ، أو تجلب مياه الأمطار الغزيرة التى تتساقط فوق



أراض مرتفعة ؛ ثم يتصل بعض هذه الجداول ببعض فتصبح نهيرات يتجمع ماؤها ويزداد فى مواسم الأمطار أو ذوبان الثلوج ، فيعمق له مجرى رئيسيًّا هو النهر .

وقد تتجمع مياه هذه الجداول فى بحيرة تكون بمثابة خزان يمد النهر بالماء طول العام .

وقد يصب نهرٌ مياهَه فى نهر آخر فيسمى النهرُ الأولُ بالرافد .

ويصب بعض الأنهار ماءه فى المحيطات أو البحار أو البحيرات من مخرج رئيسى واحد يسمى المصبّ .

ومن الأنهار ما يتشعب إلى فرعين أو عدة فروع يفرغ منها ماءه فتسمى هذه الفروع وما تحصره من أراض بالدلتا .

وقد يتجه بعض الأنهار إلى سهول وبطاح منخفضة من الأرض ، فيتشعب إلى نهيرات وجداول وبرك ومستنقعات ، فتتشرب الأرض ماءه أو يتبدد فى الهواء بخاراً .

وحوض النهر هو الأراضى التى ترتوى بمياهه .

والأنهار العميقة إذا كان تيارها هادئاً صالحاً للملاحة النهرية تعد من وسائل النقل الاقتصادية النافعة .

والأنهار سريعة التيار ، أو ذات المساقط والشلالات ، كثيراً ما تستغلّ فى توليد الطاقة الميكانيكية أو الكهربائية .

وأطول أنهار العالم هى :

| | |
|---|---|
| النيل ، وطوله | ٤,١٥٧ ميلاً * |
| ثم الأمازون ، وطوله | ٣,٩١٥ » |
| ثم المسيسبى والميسّورى ، وطولهما معاً | ٣,٨٦٠ » |

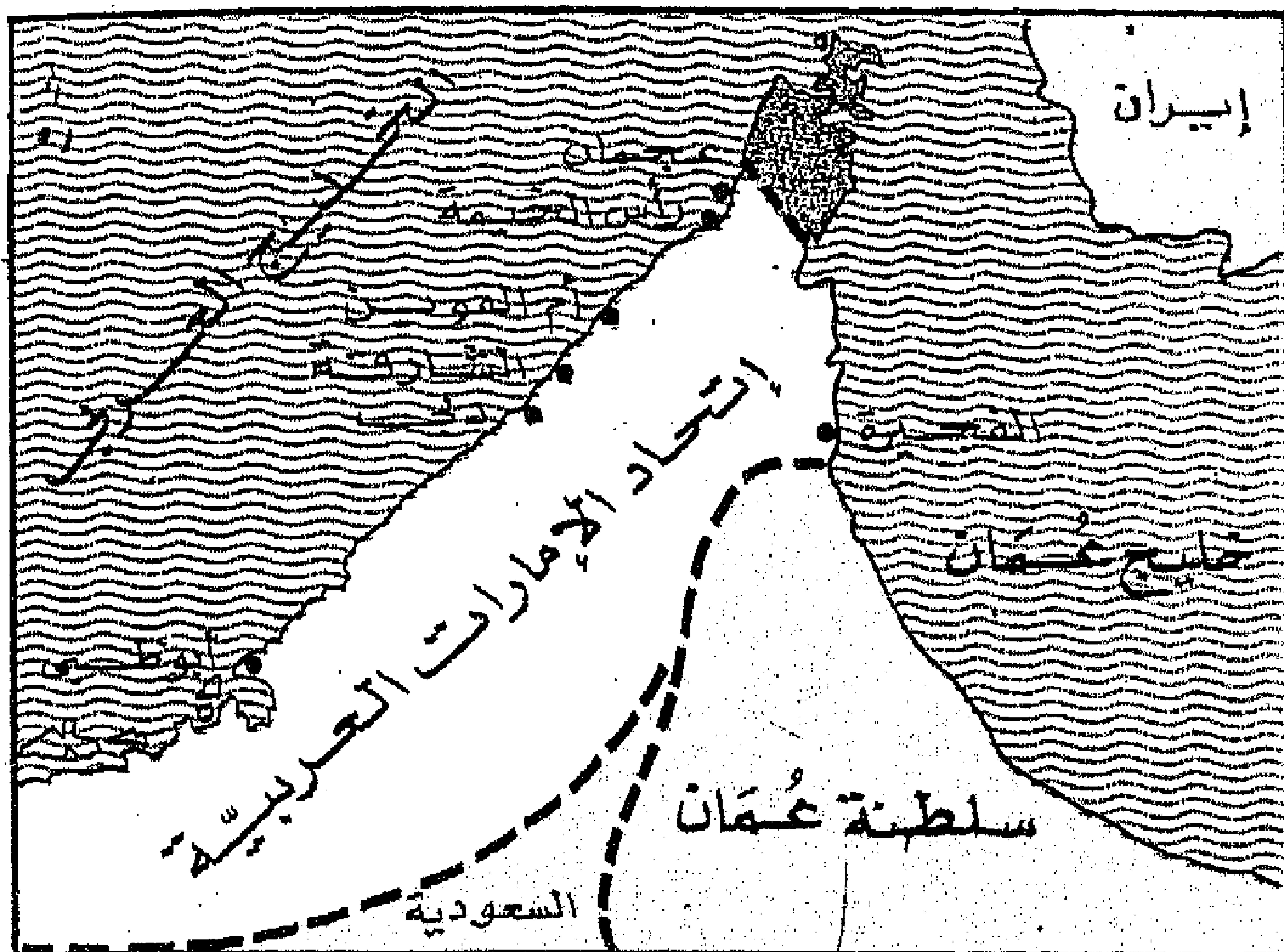
ومن أنهار العالم أيضاً :

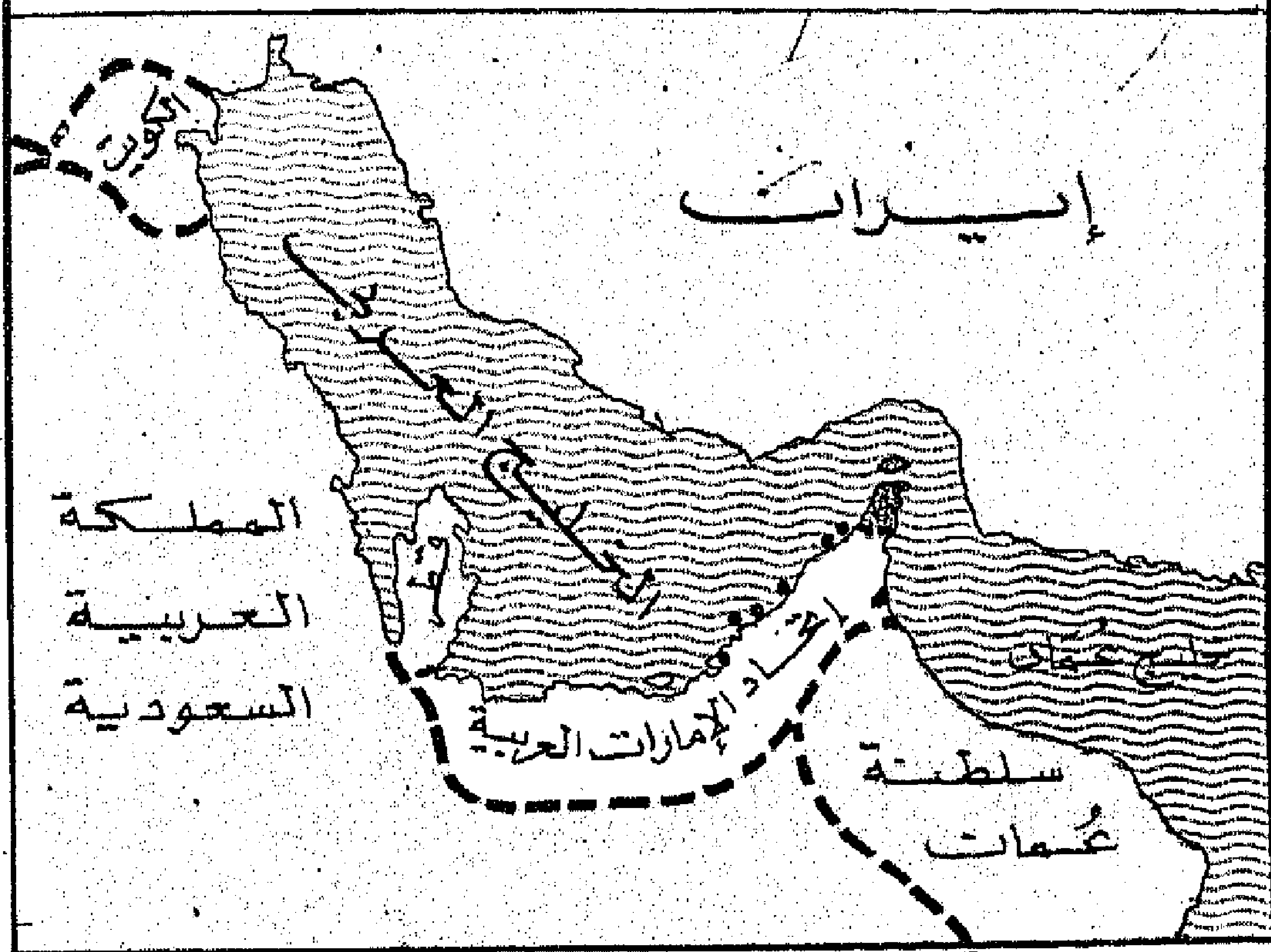
| | |
|---|---|
| الكونغو ، وطوله | ٢,٧١٦ » |
| النيجر ، وطوله | ٢,٦٠٠ » |
| الفولجا ، وطوله | ٢,٢٩٣ » |
| سنت لورنس ، وطوله | ١,٩٠٠ » |
| السند ، وطوله | ١,٨٠٠ » |
| الدانوب ، وطوله | ١,٧٧٧ » |
| الفرات ، وطوله | ١,٧٣٩ » |
| الزمبيزى ، وطوله | ١,٧٠٠ » |
| دجلة ، وطوله | ١,١٨٠ » |
| الراين ، وطوله | ٨٢٠ » |
| اللوار ، وطوله | ٦٣٣ » |
| الرون ، وطوله | ٥٠٥ » |

* هذه الأرقام منقولة عن :
Britannica Junior Encyclopaedia; Vol. 13; p. 106; RIVER.
وهى مطبوعة بنيويورك عام ١٩٧١ . ولا موضع بعد ذلك للقول بأن النيل ثانى أنهار العالم طولا .

# العَالَمُ

# بَيْنَ يَدَيْكَ


إيران
اتحاد الإمارات العربيّة
خليج عُمان
سلطنة عُمان
السعودية


الكويت
إيران
المملكة
العربية
السعودية
الإمارات العربية
سلطنة
عُمان

## اتحاد الإمارات العربية

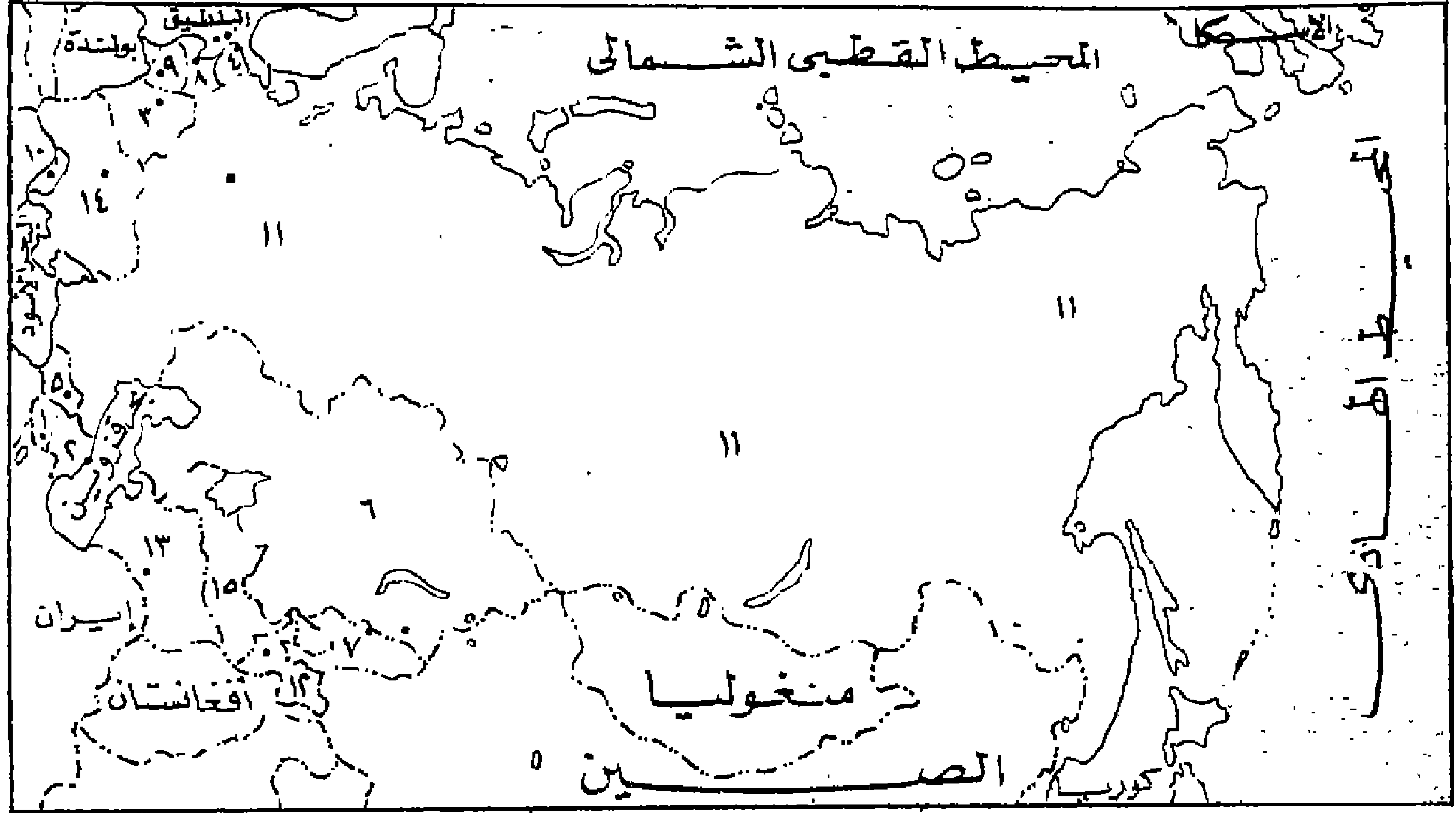
*FEDERATION OF ARABIAN EMIRATES*

نظام الحكم : اتحاد عربى
المساحة : ٨٣٦٠٠ كيلومتر مربع
عدد السكان : ١٩٥٠٠٠ نسمة
كثافة السكان : ٢ نسمة فى الكيلومتر المربع
العاصمة : أبوظبى *Abu Dhabi*
السكان : ٢٥٠٠٠ نسمة
موقع العاصمة : ٢٧َ ٢٤ْ شمالاً ، و٢٣َ ٥٤ْ شرقاً
العملة : ريال *Riyal*

انضمّ إلى الأمم المتحدة فى ٩ ديسمبر ١٩٧١

ويتكون الاتحاد من الإمارات الآتية :

| الإمارة | المساحة كم ٢ | عدد السكان | كثافة السكان فى كم ٢ |
|---|---|---|---|
| أبوظبى | ٧٣,٥٥٠ | ٥٥,٠٠٠ | ٠,٧ |
| دبى | ٣,٧٥٠ | ٦٣,٠٠٠ | ١٦ |
| الشارقة | ٢,٥٠٠ | ٣٣,٠٠٠ | ١٣,٢ |
| رأس الخيمة | ١,٦٢٥ | ٢٦,٠٠٠ | ١٦ |
| الفجيرة | ١,١٧٥ | ١٠,٠٠٠ | ٨,٥ |
| أم القوين | ٧٥٠ | ٤,٠٠٠ | ٥,٣ |
| عجمان | ٢٥٠ | ٤,٥٠٠ | ١٨ |
| المجموع | ٨٣,٦٠٠ | ١٩٥,٠٠٠ | |




١ أرمينيا ٤ إستونيا ٧ القرغيز ١٠ مولدافيا ١٣ تركمانستان
٢ أذربيجان ٥ جورجيا ٨ لاتفيا ١١ روسيا الأصلية ١٤ أوكرانيا
٣ روسيا البيضاء ٦ قازاجستان ٩ لتوانيا ١٢ تادجيكستان ١٥ أوزبكستان

# اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية

*UNION OF SOVIET SOCIALIST REPUBLICS*

الاسم الرسمى : *Soyuz Sovetskikh Sotsialisticheskikh Respublik*

نظام الحكم : جمهورى اشتراكى

المساحة : ٢٢ ٢٤٤ ٠٠٠ كيلومتر مربع

عدد السكان : ٢٤٧ ٧٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١١ نسمة فى الكيلومتر المربع

العاصمة : موسكو *Moscow*

السكان : ٧ ٣٠٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٤٥َ ٥٥ْ شمالاً ، و ٤٢َ ٣٧ْ شرقاً

العملة : روبل *Ruble*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥

ويتكون من ١٥ جمهورية هى :

| الجمهورية | المساحة × ١٠٠٠ كم٢ | السكان بالمليون | الجمهورية | المساحة × ١٠٠٠ كم٢ | السكان بالمليون |
|---|---|---|---|---|---|
| أرمينيا | ٣٠ | ٢,٥ | لتوانيا | ٦٥ | ٣,٢ |
| أذربيجان | ٨٧ | ٥,٢ | مولدافيا | ٣٤ | ٣,٧ |
| روسيا البيضاء | ٢٠٨ | ٩,٢ | روسيا الأصلية | ١٧,٠٤٥ | ١٣٣,٣ |
| استونيا | ٤٥ | ١,٤ | تاجيكستان | ١٤٤ | ٣,٠ |
| جورجيا | ٧٠ | ٤,٨ | تركمانستان | ٤٨٨ | ٢,٢ |
| قازاقستان | ٢٧١٥ | ١٣,٢ | أوكرانيا | ٦٠١ | ٤٨,٣ |
| قرغيزستان | ١٩٨ | ٣,٠ | أوزبكستان | ٤٥٠ | ١٢,٣ |
| لاتفيا | ٦٤ | ٢,٤ | المجموع | ٢٢,٢٤٤ | ٢٤٧,٧ |

## إثيوبيا — *ETHIOPIA*

الاسم السابق : الحبشة — *Abyssinia*

الاسم الرسمى : *Ye Ityiopia Neguse Neguest Menguist*

نظام الحكم : إمبراطورى

المساحة : ١ ٢٢١ ٩٠٠ كيلومتر مربع

عدد السكان : ٢٦ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٢١ نسمة فى الكيلومتر المربع

العاصمة : أديس أبابا — *Addis Ababa*

السكان : ٧٠٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٠٣َ ٩ْ شمالاً ، و ٤٢َ ٣٨ْ شرقاً

العملة : دولار إثيوبى — *Ethiopian Dollar*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٣ نوفمبر ١٩٤٥



## الأرجنتين ARGENTINA

الاسم الرسمى : *Republica Argentina*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ٢ ٧٧٦ ٦٥٦ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٢٥ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٩ نسمة فى الكيلومتر المربع

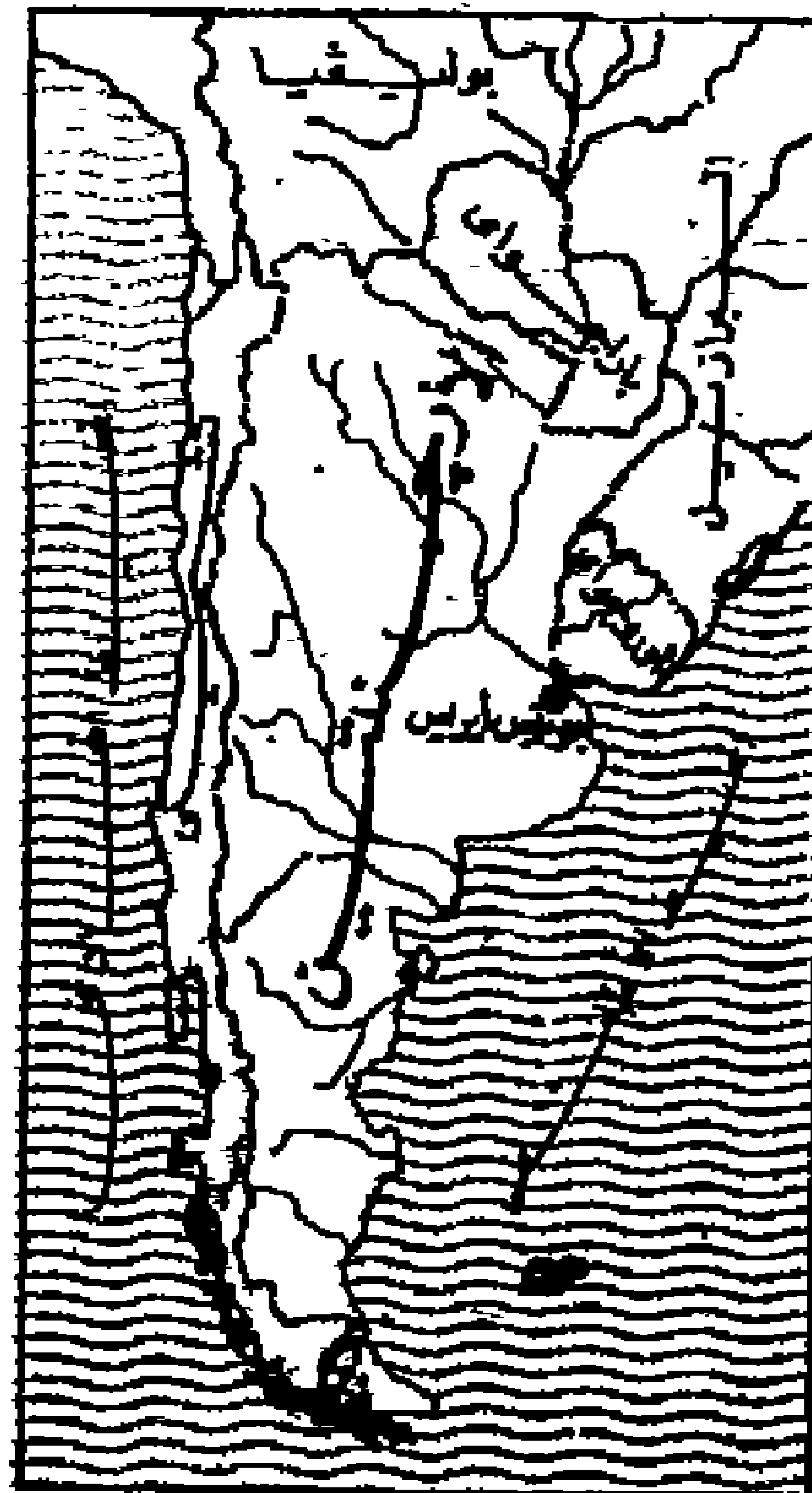
العاصمة : بوينس أيرس *Buenos Aires*

السكان : ٣ ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٣٠َ ٣٤ْ جنوباً ، و ٢٠َ ٥٨ْ غرباً

العملة : بيزو *Peso*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥

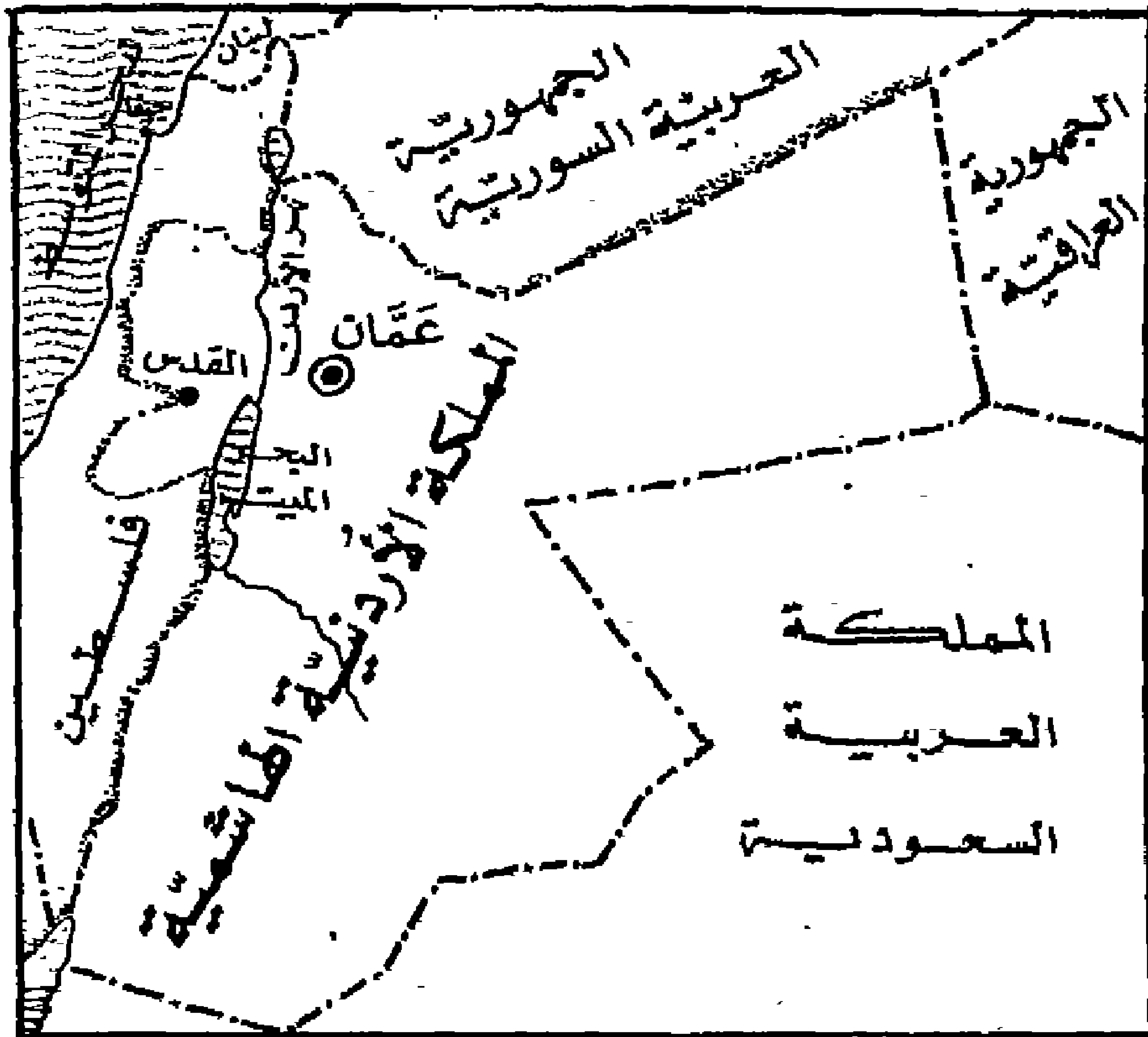


٢٦

# الأردن

*JORDAN*

الاسم الرسمى : المملكة الأردنية الهاشمية
نظام الحكم : ملكى
المساحة : ٩٢٠٠٠ كيلومتر مربع
عدد السكان : ١٤٠٠٠٠٠ نسمة
كثافة السكان : ١٥ نسمة فى الكيلومتر المربع
العاصمة : عَمّان *Amman*
السكان : ٥٠٠٠٠٠ نسمة
موقع العاصمة : ٥٧َ ٣١ْ شمالاً ، و ٥٦َ ٣٥ْ شرقاً
العملة : الدينار الأردنى
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٤ ديسمبر ١٩٥٥



## إسبانيا
## *SPAIN*

الاسم الرسمي : *Estado Espanol*

نظام الحكم : ملكي

المساحة : ٥٠٤٧٥٠ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٣٣٩٠٠٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٦٧ نسمة في الكيلومتر المربع

العاصمة : مدريد *Madrid*

السكان : ٣٢٠٠٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٢٥َ ٤٠ْ شمالاً ، و ٤٣َ ٣ْ غرباً

العملة : بيزيتا *Peseta*

انضمت إلى الأمم المتحدة في ١٤ ديسمبر ١٩٥٥



## استراليا — *AUSTRALIA*

الاسم الرسمى : *Commonwealth of Australia*

نظام الحكم : كومنولث

المساحة : ٧ ٦٨٦ ٨١٠ كيلومترات مربعة

عدد السكان : ١٢ ٨٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١,٧ نسمة فى الكيلومتر المربع

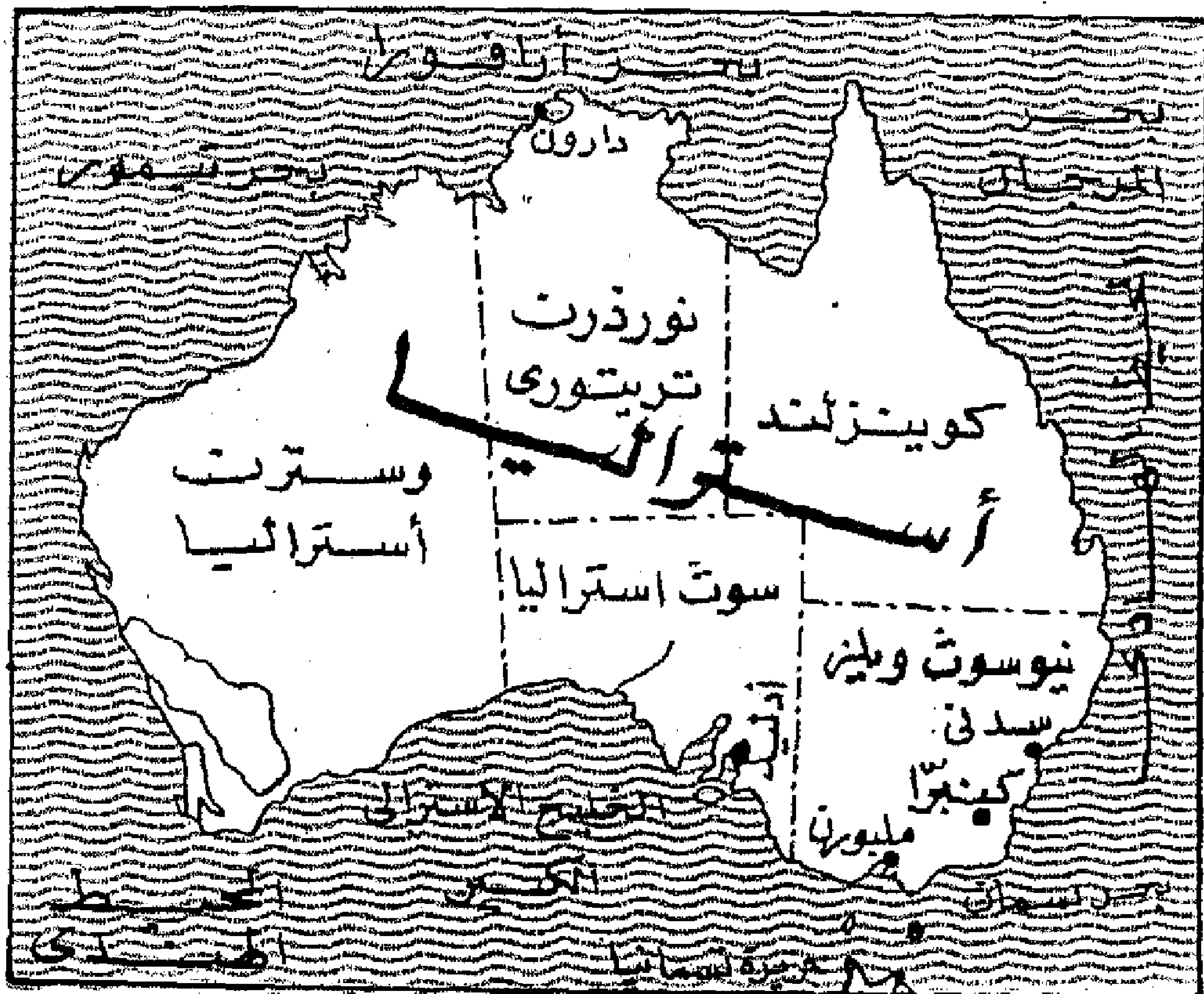
العاصمة : كانبرا *Canberra*

السكان : ١٤٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ١٥َ ٣٥ْ جنوباً ، و ٨َ ١٤٩ْ شرقاً

العملة : الدولار الأسترالى *Australian Dollar*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١ نوفمبر ١٩٤٥



## أفغانستان *AFGHANISTAN*

| | | | |
|---|---|---|---|
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ٦٤٧ ٤٩٦ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ١٧ ٨٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٢٧ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | كابول | *Kabul* |
| السكان | : | ٥٥٠ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٢٨َ ٣٤ْ شمالاً ، ١٨َ ٦٩ْ شرقاً | |
| العملة | : | أفغان | *Afghan* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٩ نوفمبر ١٩٤٦



## إكوادور ECUADOR

الاسم الرسمى : *Republica del Ecuador*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ٢٨٣ ٥٦١ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٦ ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٢٣ نسمة فى الكيلومتر المربع

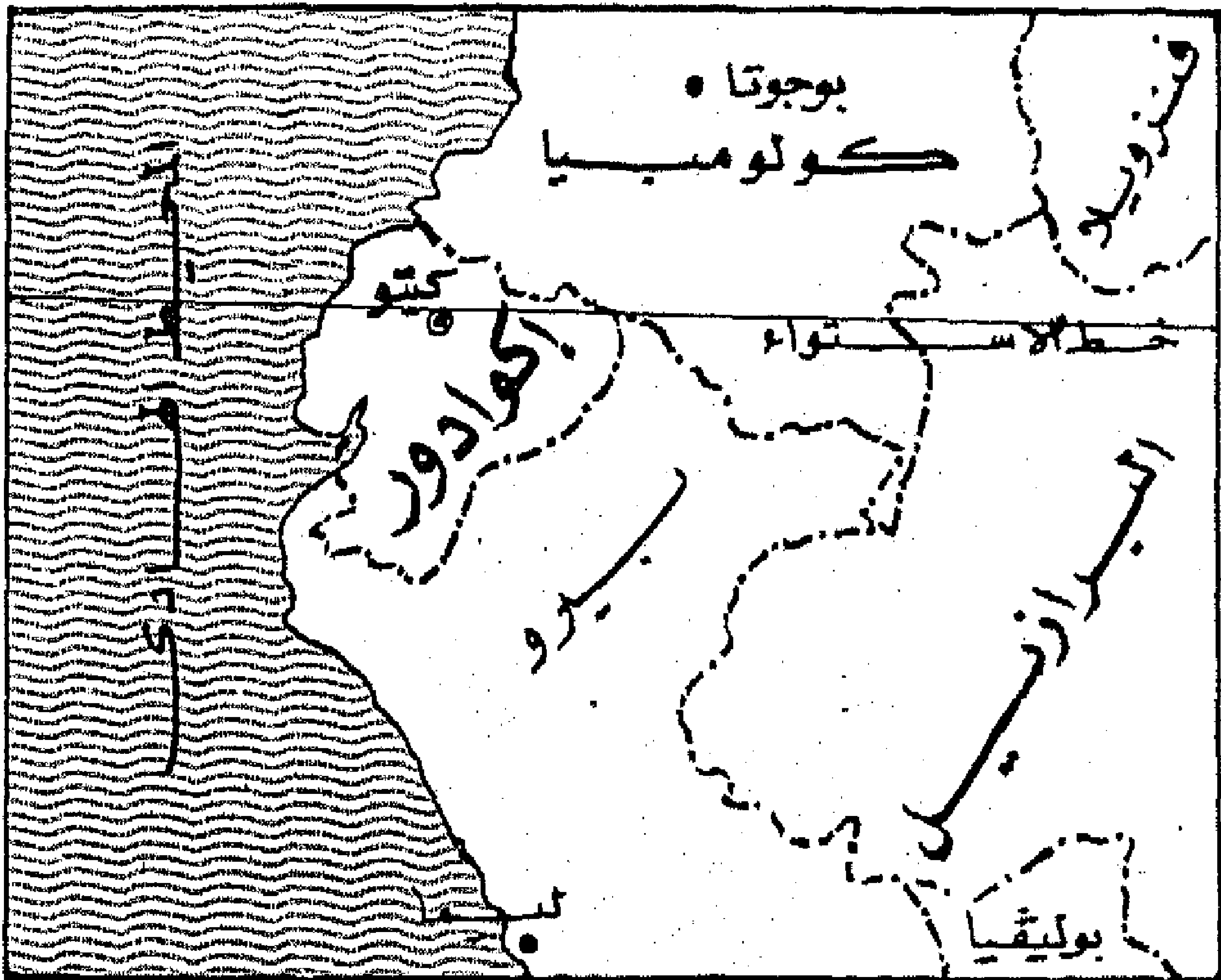
العاصمة : كيتو *Quito*

السكان : ٦٠٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ١٤َ صفرْ جنوباً ، و ٣٠َ ٧٨ْ غرباً

العُملة : سوكر *Sucre*

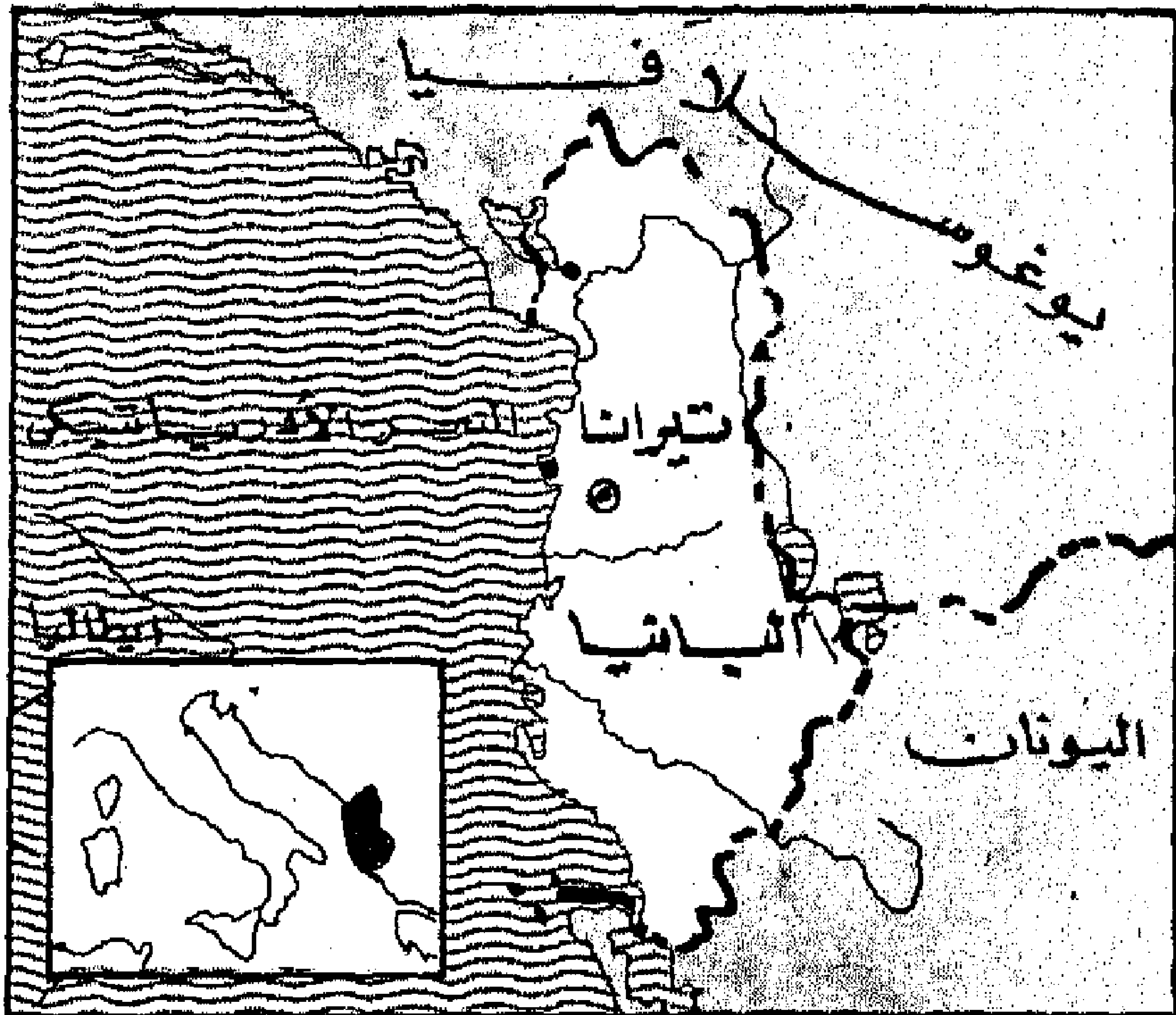
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢١ ديسمبر ١٩٤٥



## ألبانيا ALBANIA

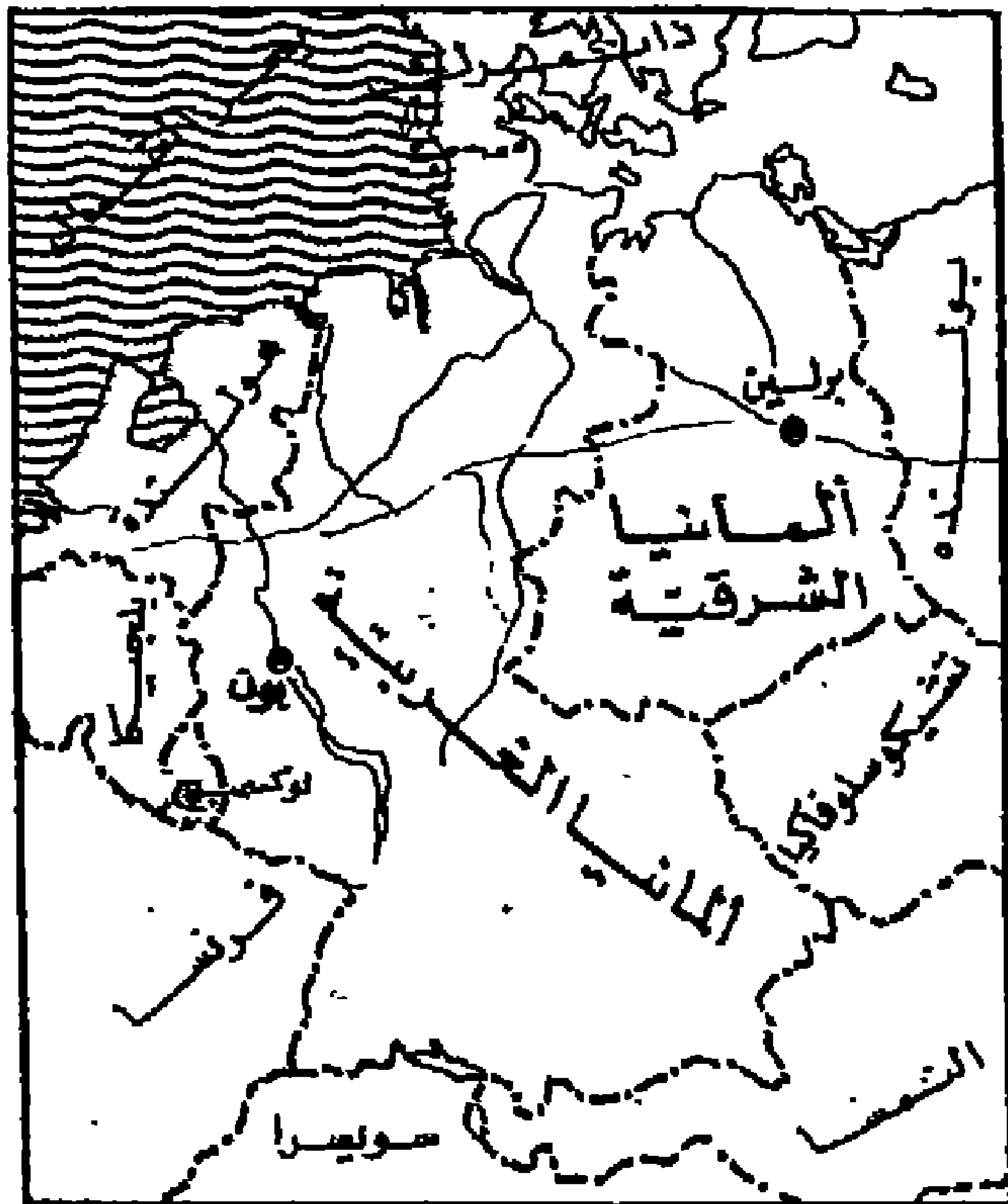
| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | Republica Popullore e Shqiperise | |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ٢٨ ٧٤٨ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٢ ٢٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٧٧ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | تيرانا | Tirana |
| السكان | : | ٢٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ١٨َ ٤١ْ شمالاً ، و ٤٩َ ١٩ْ شرقاً | |
| العُملة | : | لِك | Lek |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٤ ديسمبر ١٩٥٥



## ألمانيا الشرقية — *EAST GERMANY*

الاسم الرسمى جمهورية ألمانيا الديموقراطية
*Deutche Demokratische Republik*
نظام الحكم : جمهورى
المساحة : ١٠٨ ١٧٣ كيلومترا مربعاً
عدد السكان : ١٧٠٥٠٠٠٠ نسمة
كثافة السكان : ١٥٨ نسمة فى الكيلومتر المربع
العاصمة : برلين الشرقية *Ostberlin*
السكان : ١٠٨٩٠٠٠ نسمة
موقع العاصمة : ٣٢َ ٥٢ْ شمالاً ، و ٢٥َ ١٣ْ شرقاً
العملة : مارك ألمانيا الشرقية *Ostmark*
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٨ سبتمبر ١٩٧٣



## ألمانيا الغربية WEST GERMANY

الاسم الرسمى جمهورية ألمانيا الاتحادية
*Bundesrepublik Deutchland*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ٢٤٨ ٤٦٩ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٠٠٠ ٩٠٠ ٦٢ نسمة

كثافة السكان : ٢٥٣ نسمة فى الكيلومتر المربع

العاصمة : بون *Bonn*

السكان : ٠٠٠ ٣٠٣ نسمة

موقع العاصمة : ٤٤َ ٥٠ْ شمالاً ، و ٠٦َ ٧ْ شرقاً

العُملة : مارك ألمانى *Deutche Mark*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٨ سبتمبر ١٩٧٣



## أنجولا ANGOLA

الاسم الرسمى : *Africa Occidental Portuguesa*

نظام الحكم : مستعمرة برتغالية تكافح فى سبيل الاستقلال

المساحة : ١ ٢٤٦ ٧٠٠ كيلومتر مربع

عدد السكان : ٥ ٦٠٠ ٠٠٠ نسمة

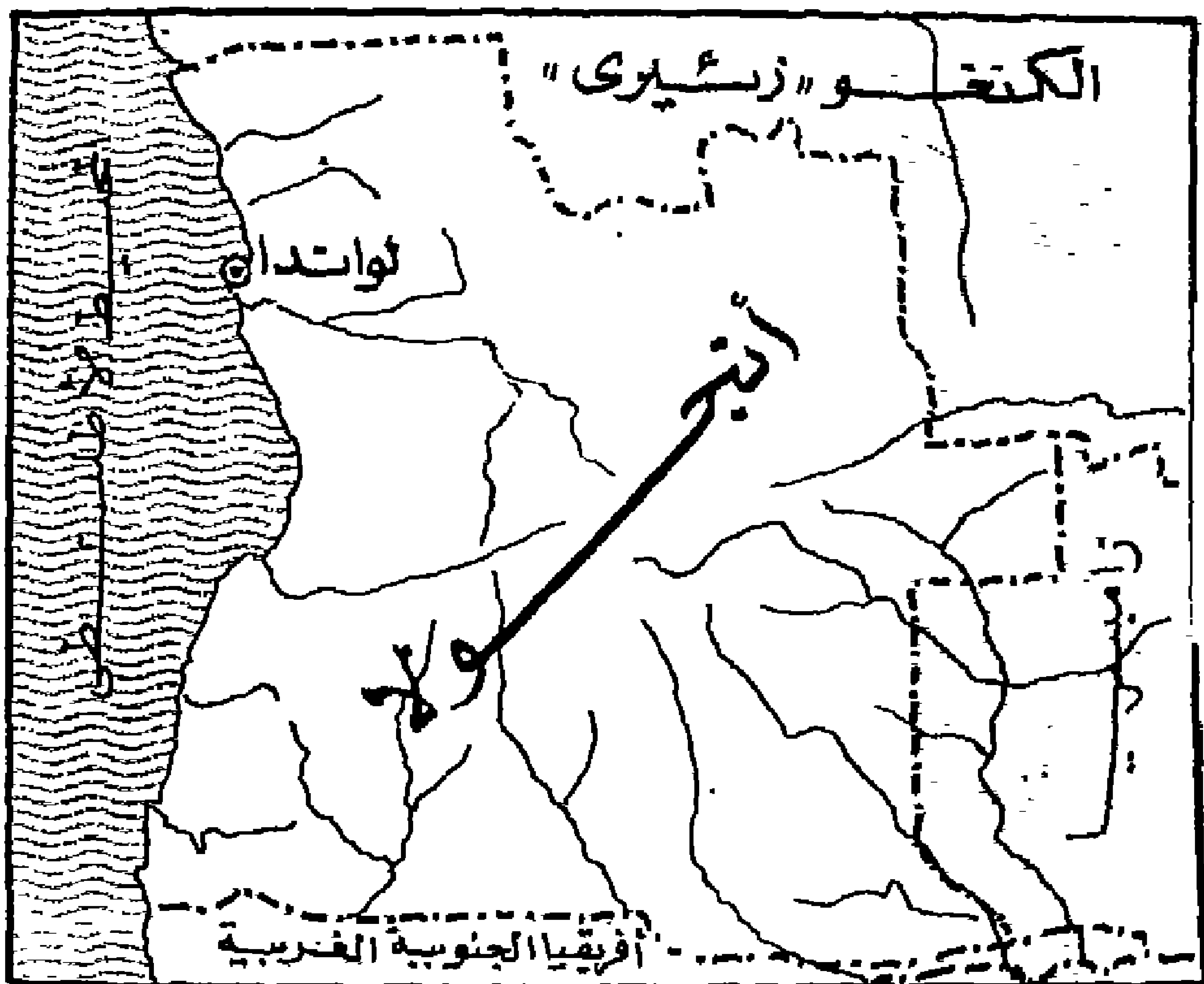
كثافة السكان : ٤,٥ نسمة فى الكيلومتر المربع

العاصمة : لواندا *Luanda*

السكان : ٣٠٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٠٠َ ١١ْ جنوباً ، و ٤٥َ ١٧ْ شرقاً

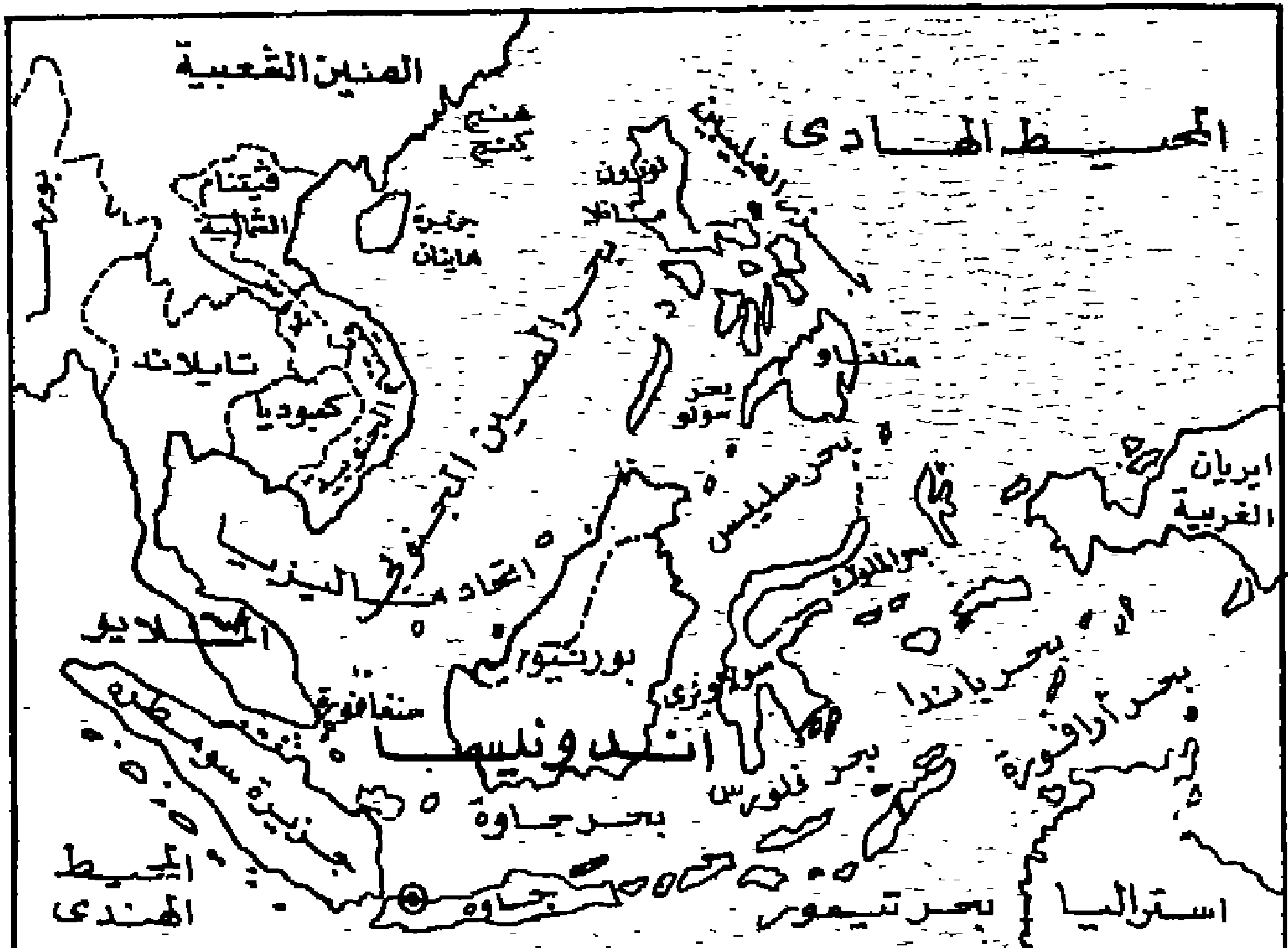
العملة : البرتغالية



## أندونيسيا INDONESIA

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم السابق | : | جزر الهند الهولاندية | |
| الاسم الرسمى | : | | Republik Indonesia |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ١٩٠٤٣٤٥ كيلومتراً مربعاً | |
| عدد السكان | : | ١٢٥٠٠٠٠٠٠ نسمة | |
| كثافة السكان | : | ٦٦ نسمة فى الكيلومتر المربع | |
| العاصمة | : | جاكرتا ( باتافيا ) | Djakarta |
| السكان | : | ٥٥٠٠٠٠٠ نسمة | |
| موقع العاصمة | : | ٠٨َ ٦° جنوباً ، و ٤٥َ ١٠٦° شرقاً | |
| العملة | : | روبيه | Rupiah |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٨ ستمبر ١٩٥٠



## أوروجواى URUGUAY

الاسم الرسمى : *Republica Oriental del Uruguay*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ١٨٦ ٩٢٦ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٢ ٩٥٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١٦ نسمة فى الكيلومتر المربع

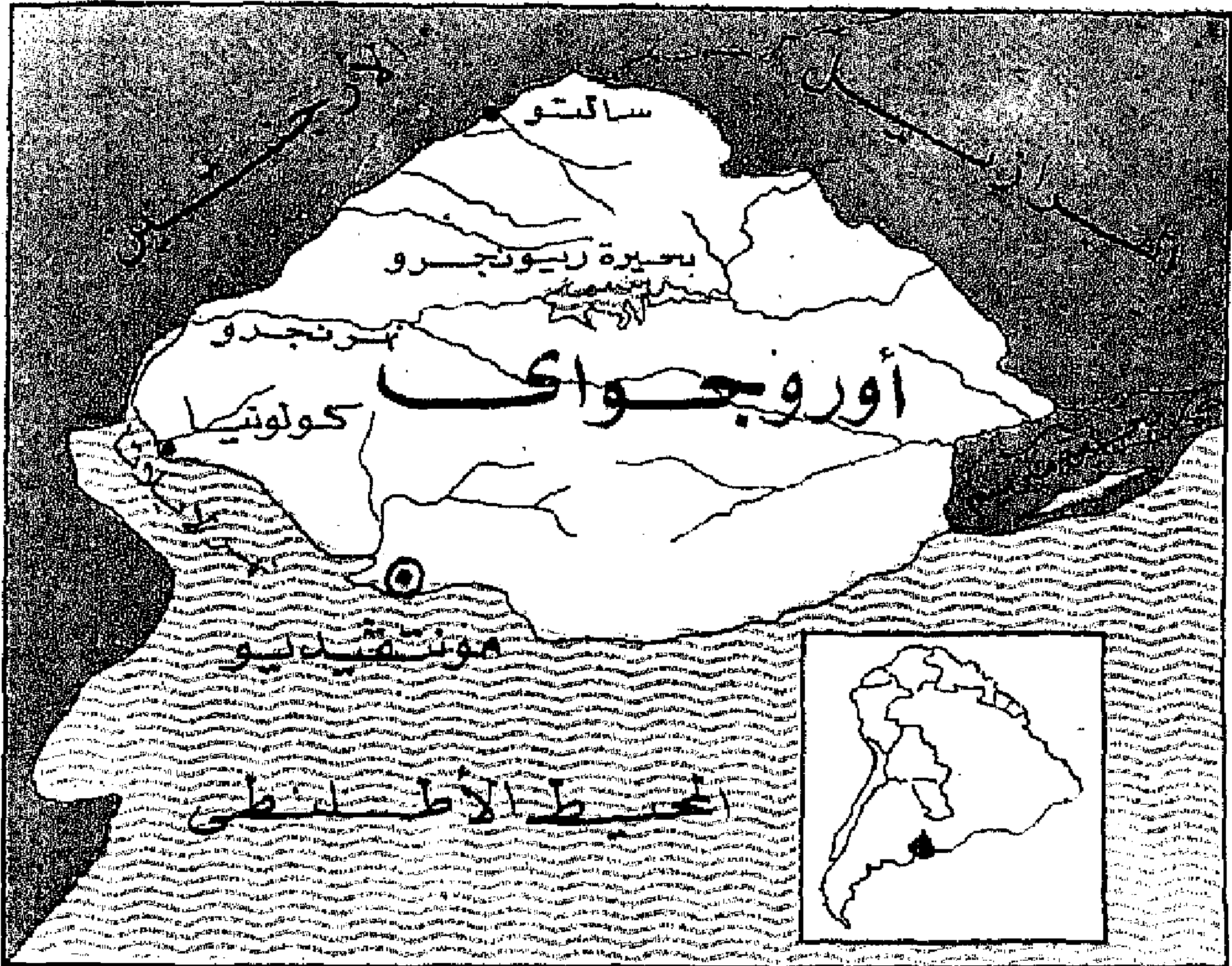
العاصمة : مونتفيديو *Montvideo*

السكان : ١ ٤٠٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٥٥َ ٣٤ْ جنوباً ، و ١٠َ ٥٦ْ غرباً

العُملة : بيزو *Peso*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٨ ديسمبر ١٩٤٥



## أوغنده . UGANDA

الاسم الرسمي : *Republic of Uganda*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ٢٣٦ ٠٣٦ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ١٠ ٢٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٤٣ نسمة فى الكيلومتر المربع

العاصمة : كمبالا *Kampala*

السكان : ١٧٥ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ١٩َ ٠ْ شمالاً ، و ٣٥َ ٣٢ْ شرقاً

العملة : شلن شرق أفريقيا *Shilling*

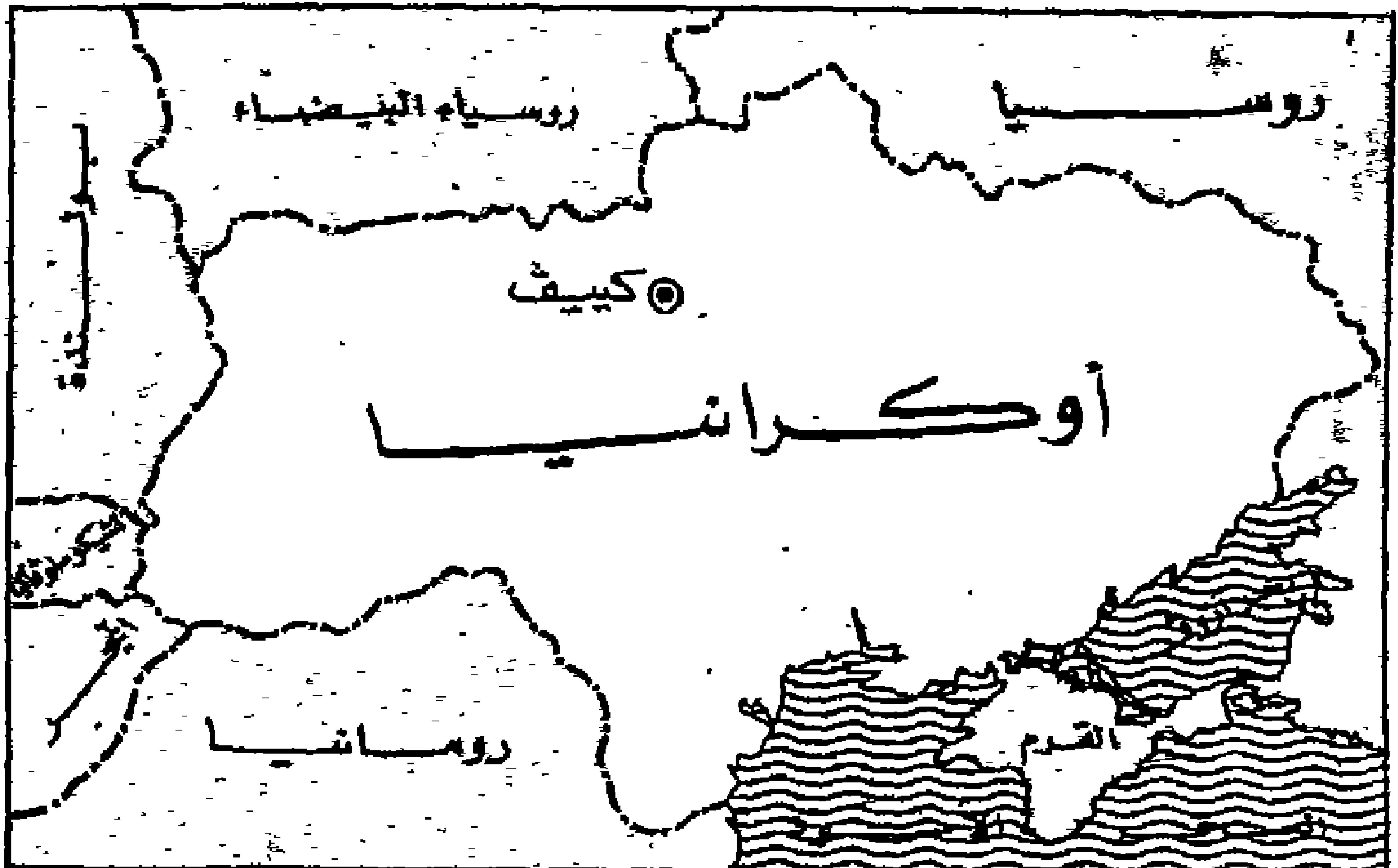
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٥ اكتوبر ١٩٦٢



## أوكرانيا UKRANIAN SSR

| | | |
|---|---|---|
| نظام الحكم | : | من جمهوريات الاتحاد السوفيتى |
| المساحة | : | ٦٠١٠٠٠ كيلومتر مربع |
| عدد السكان | : | ٤٨٣٠٠٠٠٠ نسمة |
| كثافة السكان | : | ٨٠ نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | كييف Kiev |
| السكان | : | ١٧٠٠٠٠٠ نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٣٠َ ٥٠ْ شمالاً ، و ٢٨َ ٣٠ْ شرقاً |
| العملة | : | روبل Ruble |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ كتوبر ١٩٤٥



# إيران
# *IRAN*

الاسم الرسمى : *Keshvar-e Shahanshahi-ye Iran*

نظام الحكم : إمبراطورى

المساحة : ١٦٤٨٠٠٠ كيلومترا مربع

عدد السكان : ٣٠٤٠٠٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١٨ نسمة فى الكيلومتر المربع

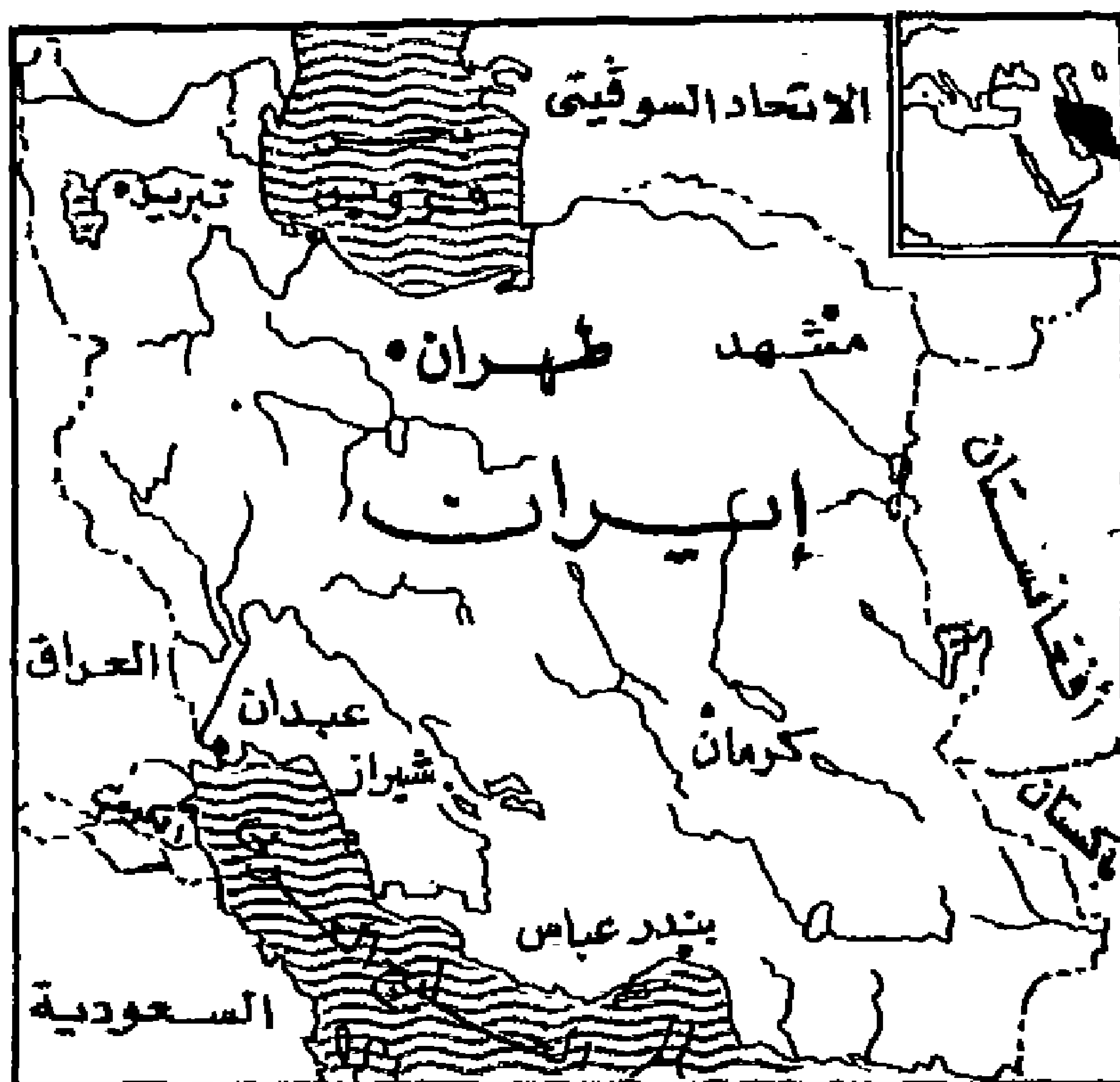
العاصمة : طهران *Teheran*

السكان : ٣٠٠٠٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٤٠َ ٣٥ْ شمالاً ، و ٢٦َ ٥١ْ شرقاً

العملة : ريال *Rial*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ كتوبر ١٩٤٥



## ايرلنده IRELAND

الاسم الرسمى : *Poblacht na h'Eireann (Eire)*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ٧٠ ٢٨٠ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٣٠٠٠٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٤٣ نسمة فى الكيلومتر المربع

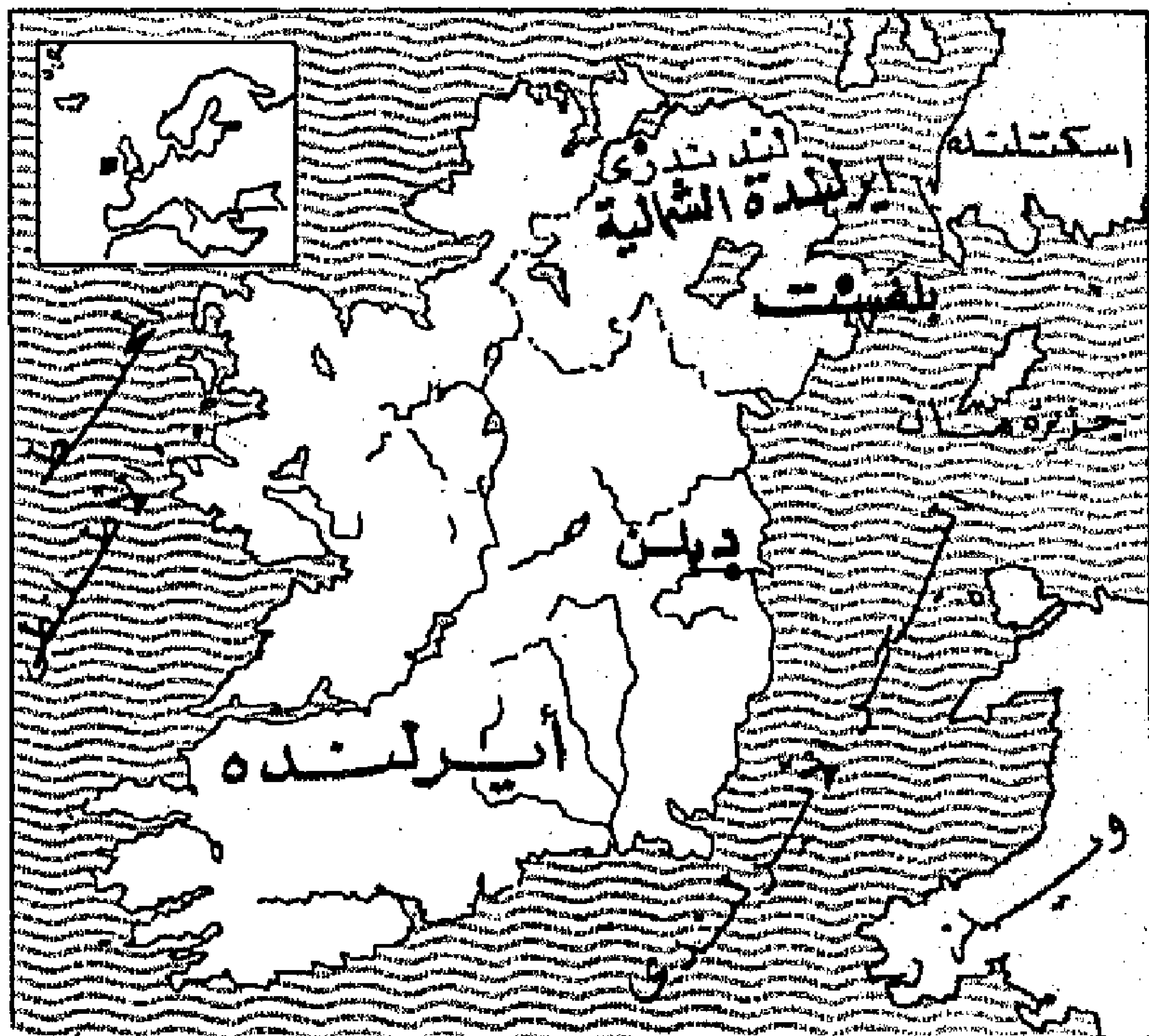
العاصمة : دبلن *Dublin*

السكان : ٧٠٠٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٢١َ ٥٢ْ شمالاً ، و ١٨َ ٦ْ غرباً

العُملة : الجنيه الأيرلندى *Irish Pound*

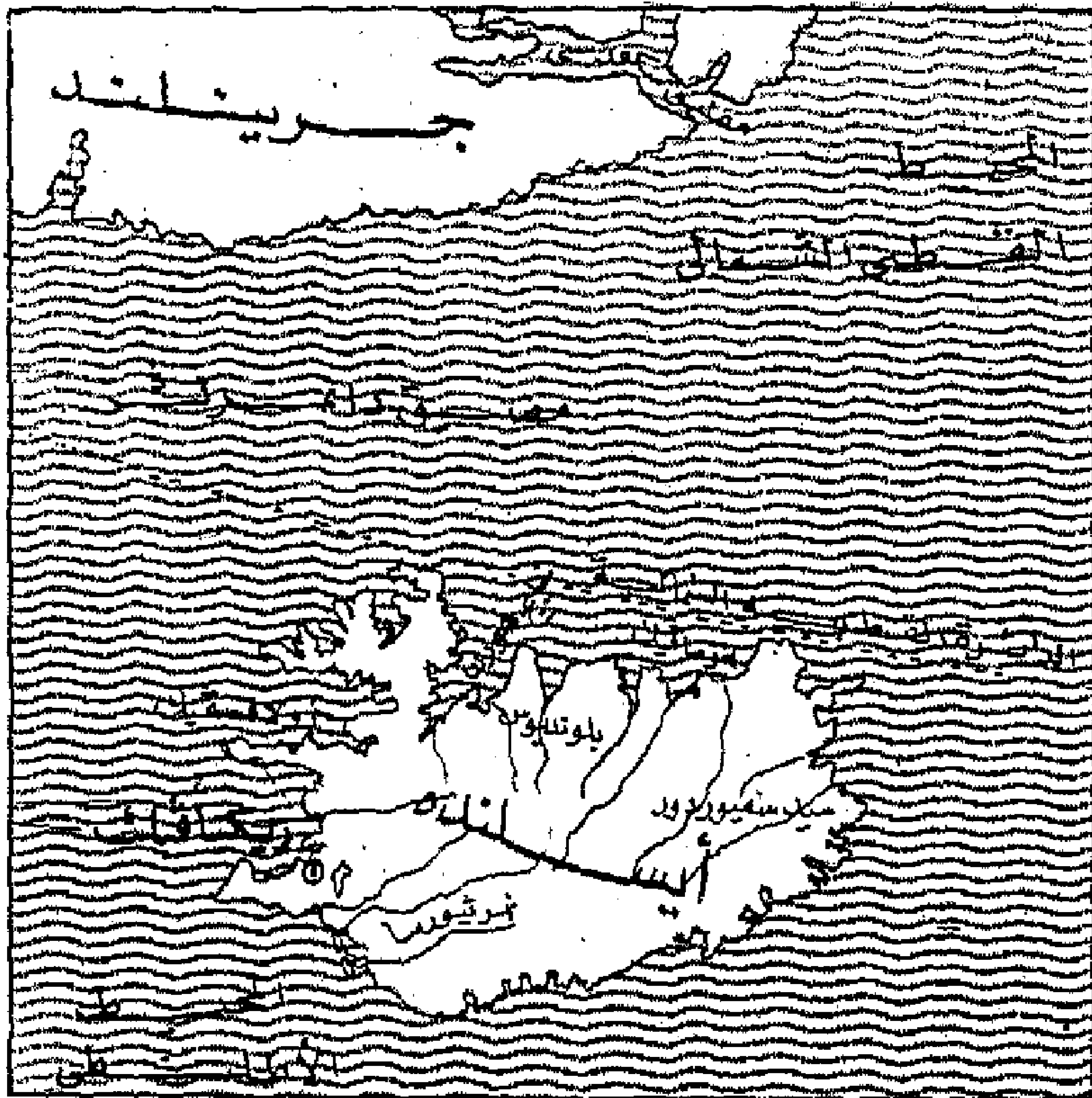
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٤ ديسمبر ١٩٥٥



## أيسلنده . ICELAND

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | | *Lydveldid Island* |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ١٠٣٠٠٠ | كيلومتر مربع |
| عدد السكان | : | ٢١٢٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٢ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | ركيافيك | *Reykjavik* |
| السكان | : | ٩٧٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٠٩ ٦٤° شمالاً ، و ٥٨َ ٢١° غرباً | |
| العُملة | : | | *Krona* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٩ نوفمبر ١٩٤٦



## إيطاليا — *ITALY*

الاسم الرسمى : *Republica Italiana*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ٣٠١٢٥٥ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٥٥٢٠٠٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١٨٣ نسمة فى الكيلومتر المربع

العاصمة : روما *Rome*

السكان : ٢٨٠٠٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٥٤َ ٤١ْ شمالاً ، و ٢٩َ ١٢ْ شرقاً

العملة : ليرة *Lira*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٤ ديسمبر ١٩٥٥



## باراجواى — *PARAGUAY*

الاسم الرسمى : *Republica del Paraguay*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ٤٠٦ ٧٥٢ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٢ ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٦ نسمة فى الكيلومتر المربع

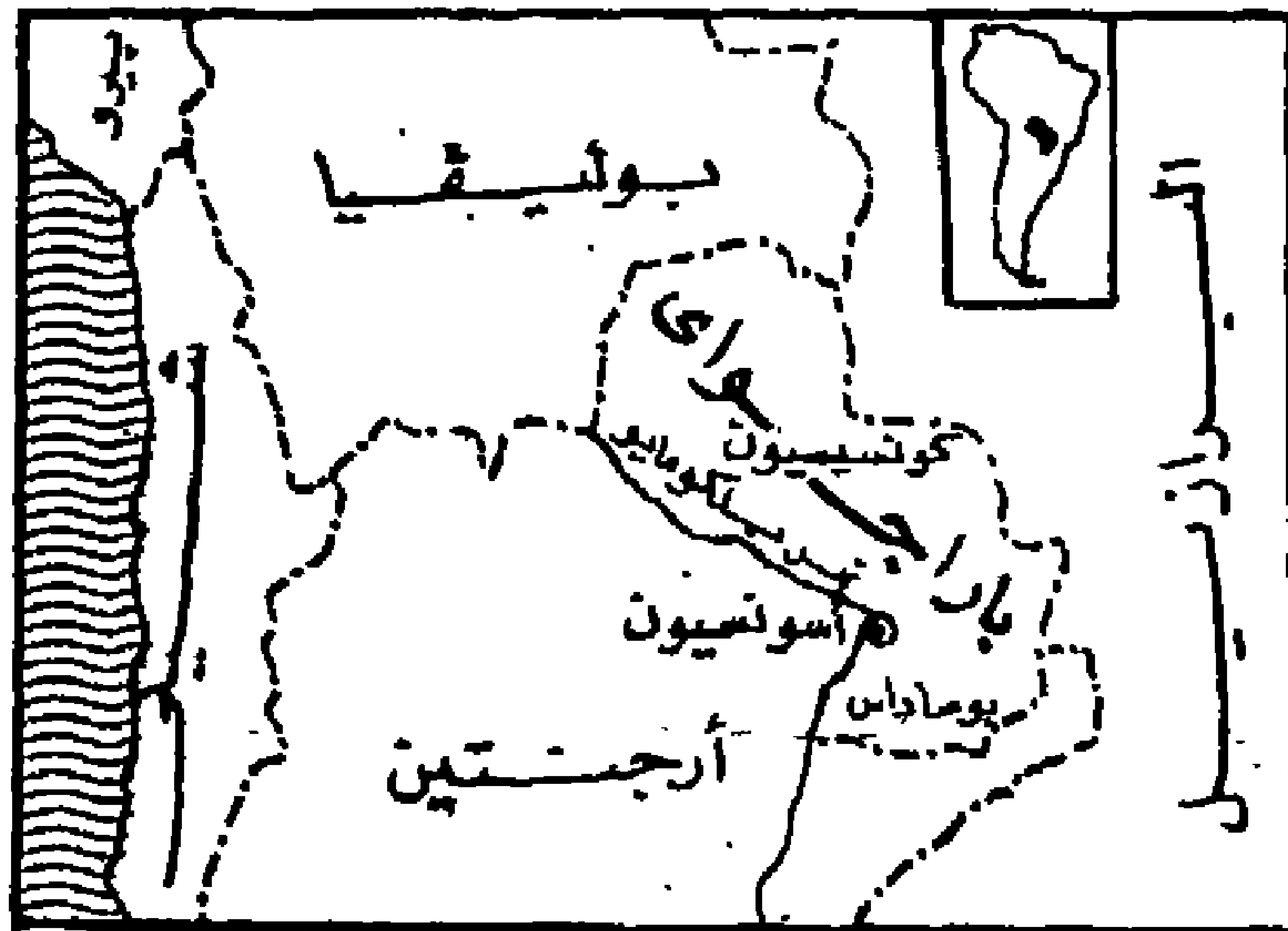
العاصمة : أسنسيون *Asuncion*

السكان : ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ١٥َ ٢٥ْ جنوباً ، و ٤٠َ ٥٧ْ غرباً

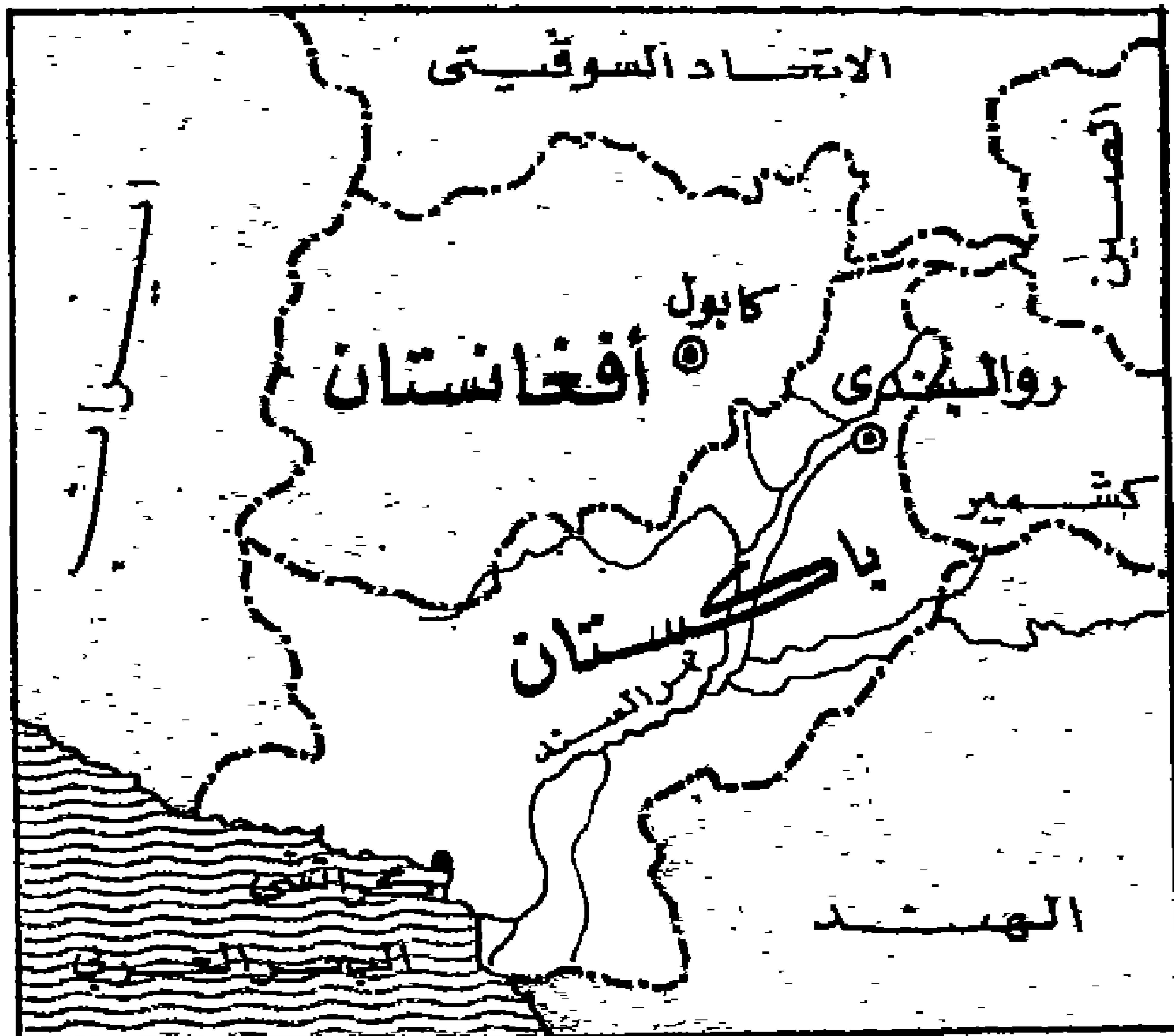
العملة : جوارانى *Guarani*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥



## باكستان PAKISTAN

الاسم الرسمى : جمهورية باكستان الإسلامية
نظام الحكم : جمهورى
المساحة : ٨٠٣٩٤٠ كيلومتراً مربعاً
عدد السكان : ٦٠٠٠٠٠٠٠ نسمة
كثافة السكان : ٧٢ نسمة فى الكيلومتر المربع
العاصمة : روالبندى *Rawalpindi*
السكان : ٥٠٠٠٠٠ نسمة
موقع العاصمة : ٤٠َ ٣٣ْ شمالاً ، و ٠٨َ ٧٣ْ شرقاً
العملة : الروبية الباكستانية *Pakistan Rupee*
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٣٠ سبتمبر ١٩٤٧.

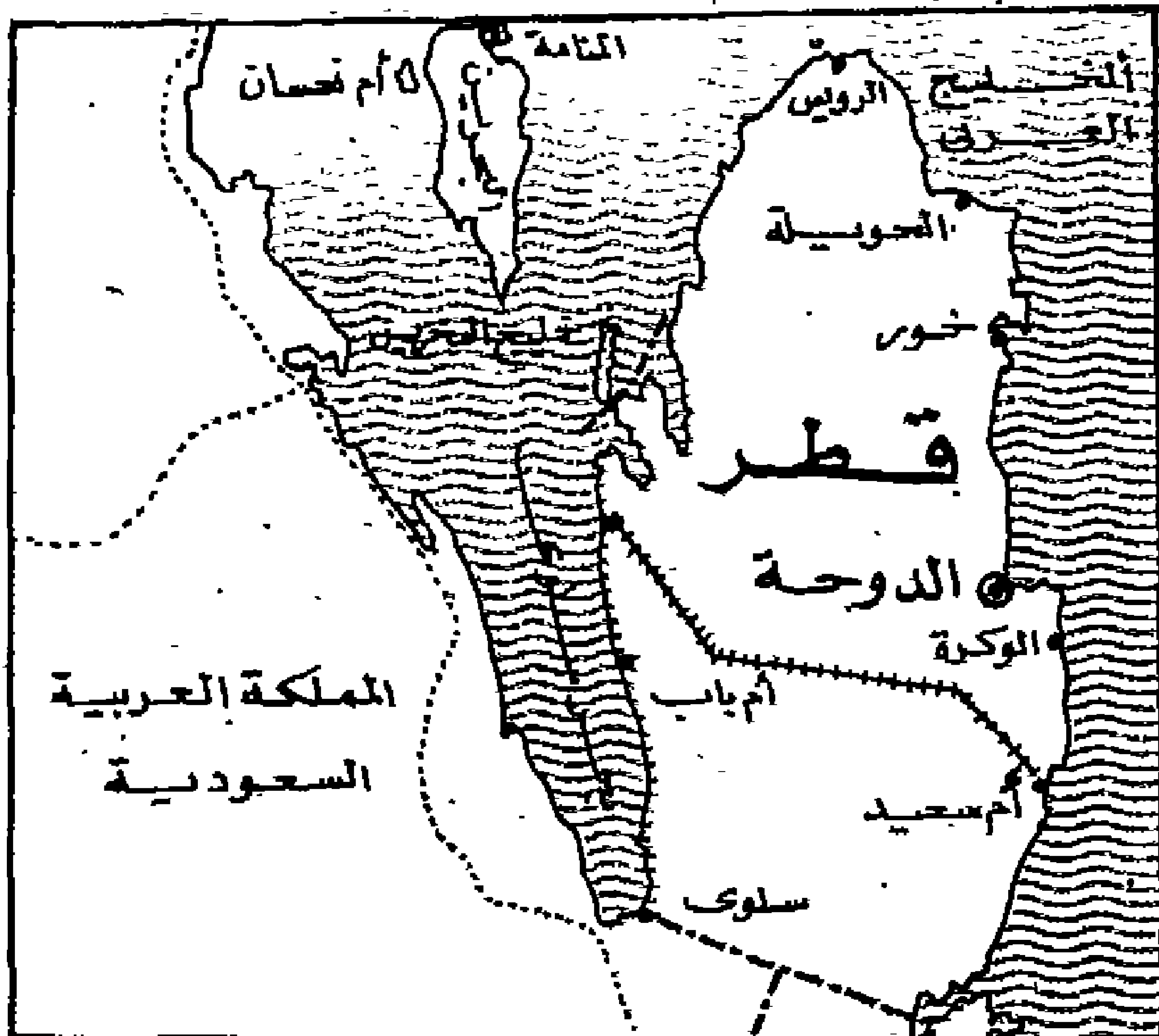


## البحرين
## *BAHRAIN*

| | | | |
|---|---|---|---|
| نظام الحكم | : | إمارة | |
| المساحة | : | ٥٩٨ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٢٢٥ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٣٧٦ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | المنامة | *Almanama* |
| السكان | : | ١٠٠ ٠٠٠ | نسمة |

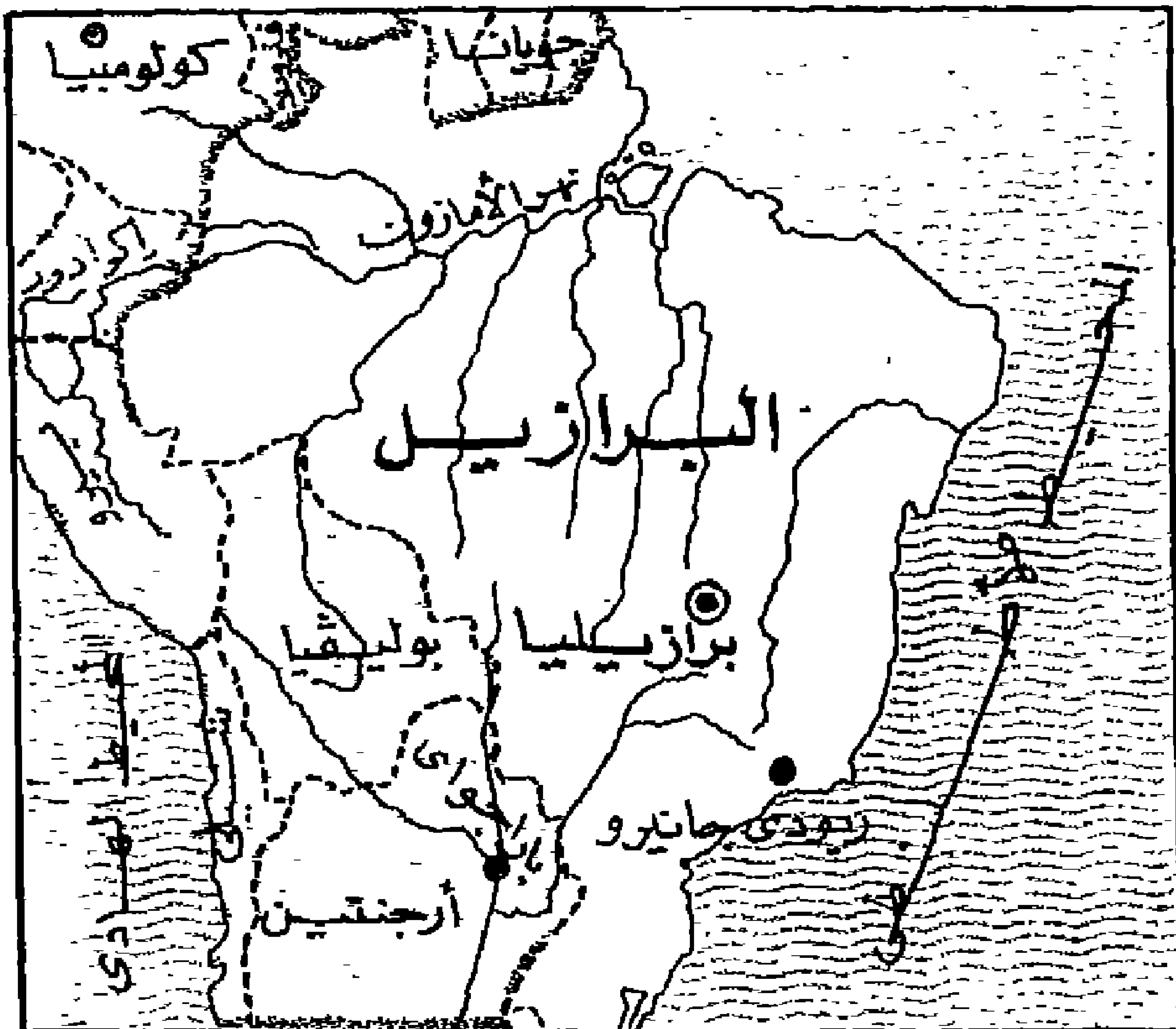
موقع العاصمة : ١١َ ٢٦ْ شمالاً ، و ٣٥َ ٥٠ْ شرقاً

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢١ سبتمبر ١٩٧١



## البرازيل BRAZIL

الاسم الرسمى : *Estados Unidos do Brazil*
نظام الحكم : جمهورى
المساحة : ٨٥١١٩٦٥ كيلومتراً مربعاً
عدد السكان : ١٠١٠٠٠٠٠٠ نسمة
كثافة السكان : ١٢ نسمة فى الكيلومتر المربع
العاصمة : برازيليا *Brasilia*
السكان : ٥٠٠٠٠٠ نسمة
موقع العاصمة : ٥٤َ ١٥ْ جنوباً ، ٥٠َ ٤٧ْ غرباً
العملة : كروزيرو *Cruzeiro*
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥



## بربادوس BARBADOS

| | | | |
|---|---|---|---|
| نظام الحكم | : | حكومة برلمانية | |
| المساحة | : | ٤٣٠ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٢٦٥ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٦١٦ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | بردجتون | *Bridgetown* |
| السكان | : | ١٥ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٠٠َ ١٣ْ شمالاً ، و ٣٠َ ٥٩ْ غرباً | |
| العُملة | : | البريطانية | |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٩ ديسمبر ١٩٦٦

## البرتغال PORTUGAL

الاسم الرسمي : *Republica Portuguesa*

نظام الحكم : جمهوري

المساحة : ٩٢٠٨٢ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٩٧٠٠٠٠٠ نسمة

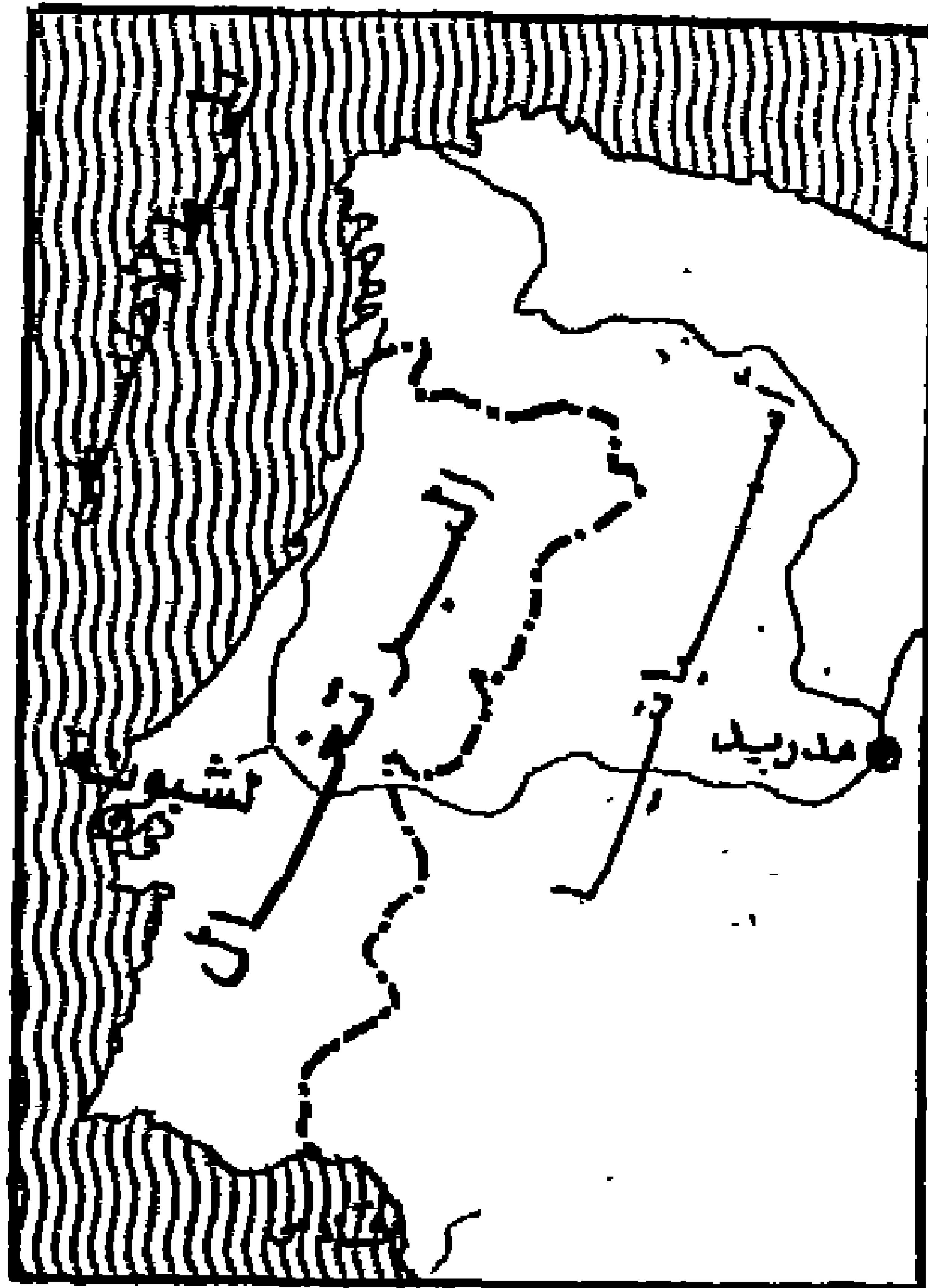
كثافة السكان : ١٠٥ نسمة في الكيلومتر المربع

العاصمة : لشبونة *Lisbon*

موقع العاصمة : ٤٤َ ٣٨ْ شمالاً ، و ٠٨َ ٩ْ غرباً

العملة : اسكيدو *Escudo*

انضمت إلى الأمم المتحدة في ١٤ ديسمبر ١٩٥٥



## بريطانيا العظمى — *GREAT BRITAIN*

الاسم الرسمى : *The United Kingdom of Great Britain and Northern Ireland*

نظام الحكم : ملكى

المساحة : ٢٤٤٠٣٠ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٥٦٣٠٠٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٢٣١ نسمة فى الكيلومتر المربع

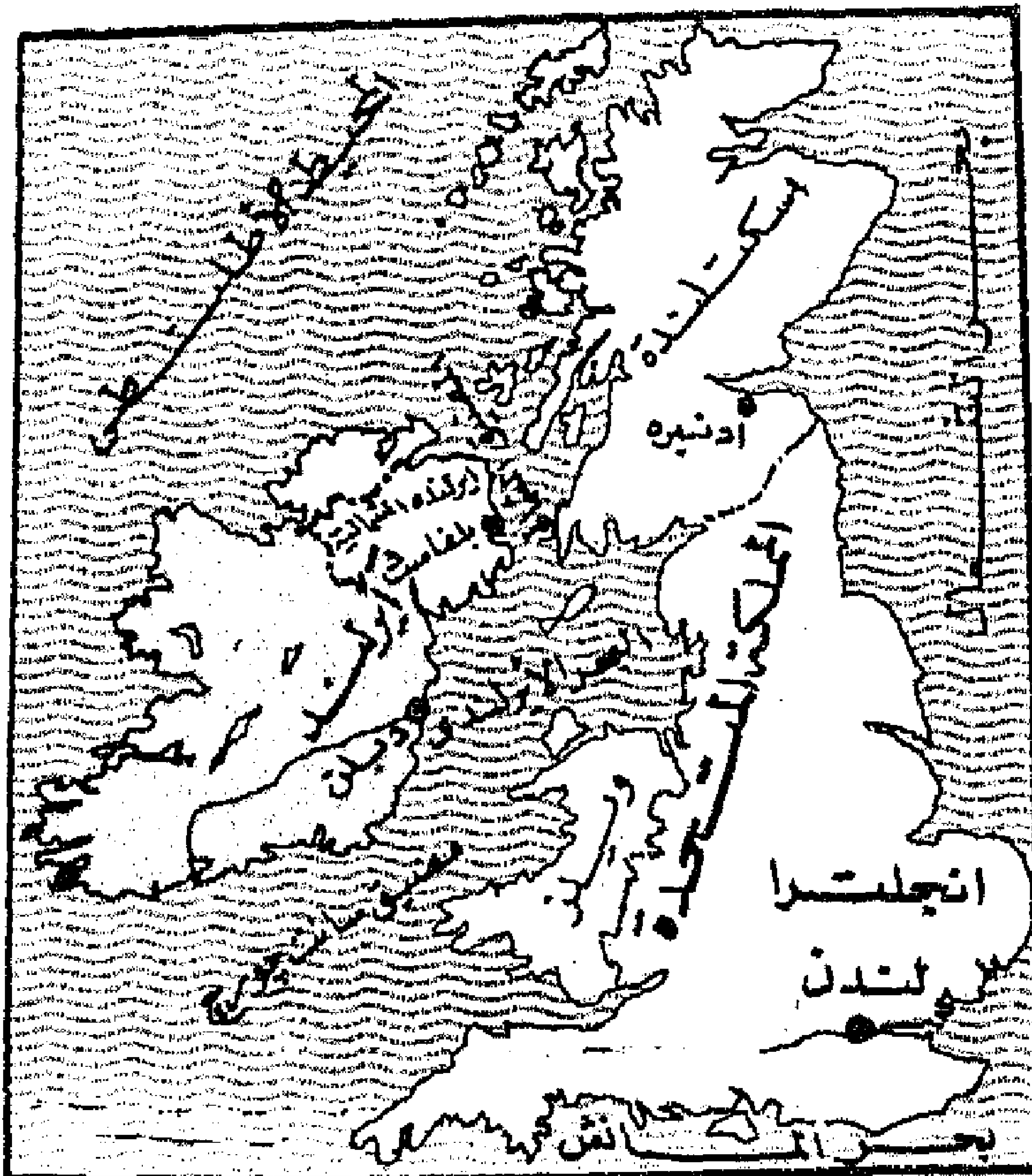
العاصمة : لندن *London*

السكان : ٧٧٠٠٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٣٢َ ٥١ْ شمالاً ، ٠٦َ ٠ْ غرباً

العملة : الجنيه *Pound*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥



## بلجيكا BELGIUM

الاسم الرسمى : *Royaume de Belgique-Koninkrijk Belgie*

نظام الحكم : ملكى

المساحة : ٣٠٥١٣ كيلومترا مربعا

عدد السكان : ٩٩٠٠٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٣٢٥ نسمة فى الكيلومتر المربع

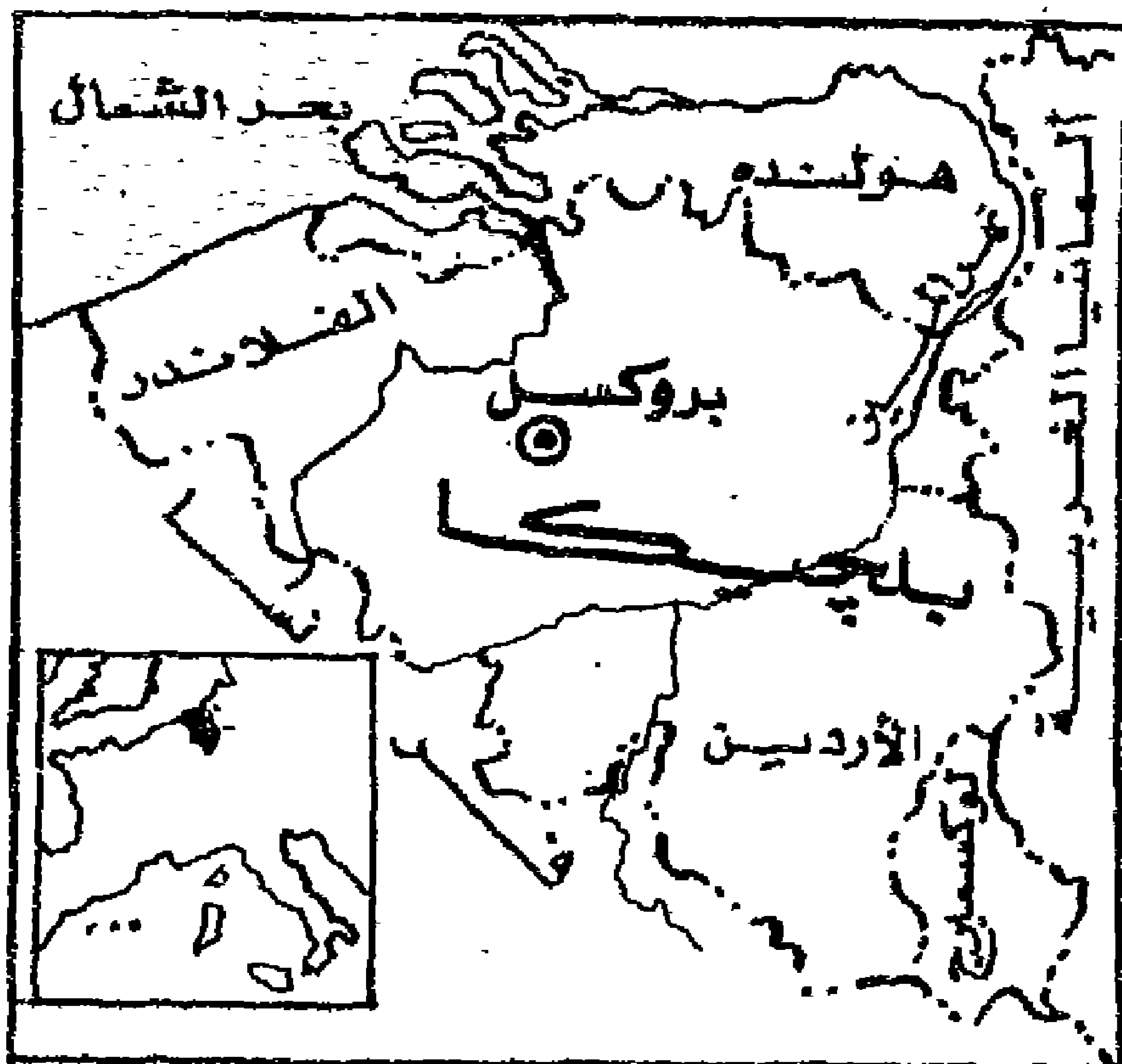
العاصمة : بروكسل *Brussels*

السكان : ١١٠٠٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٥١َ ٥٠ْ شمالاً ، و ٢١َ ٤ْ شرقاً

العملة : فرنك *Franc*

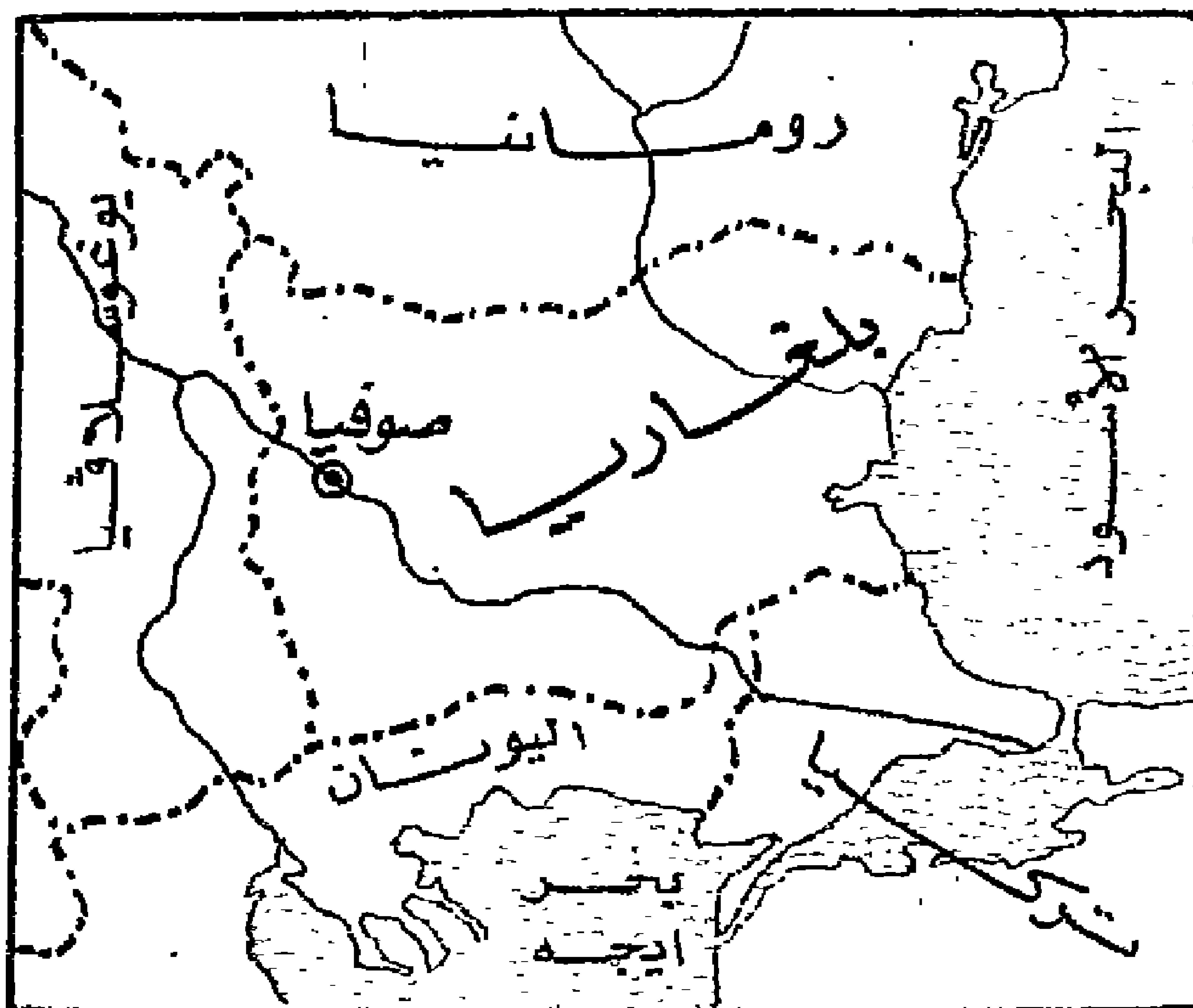
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٧ ديسمبر ١٩٤٥



## بلغاريا — BULGARIA

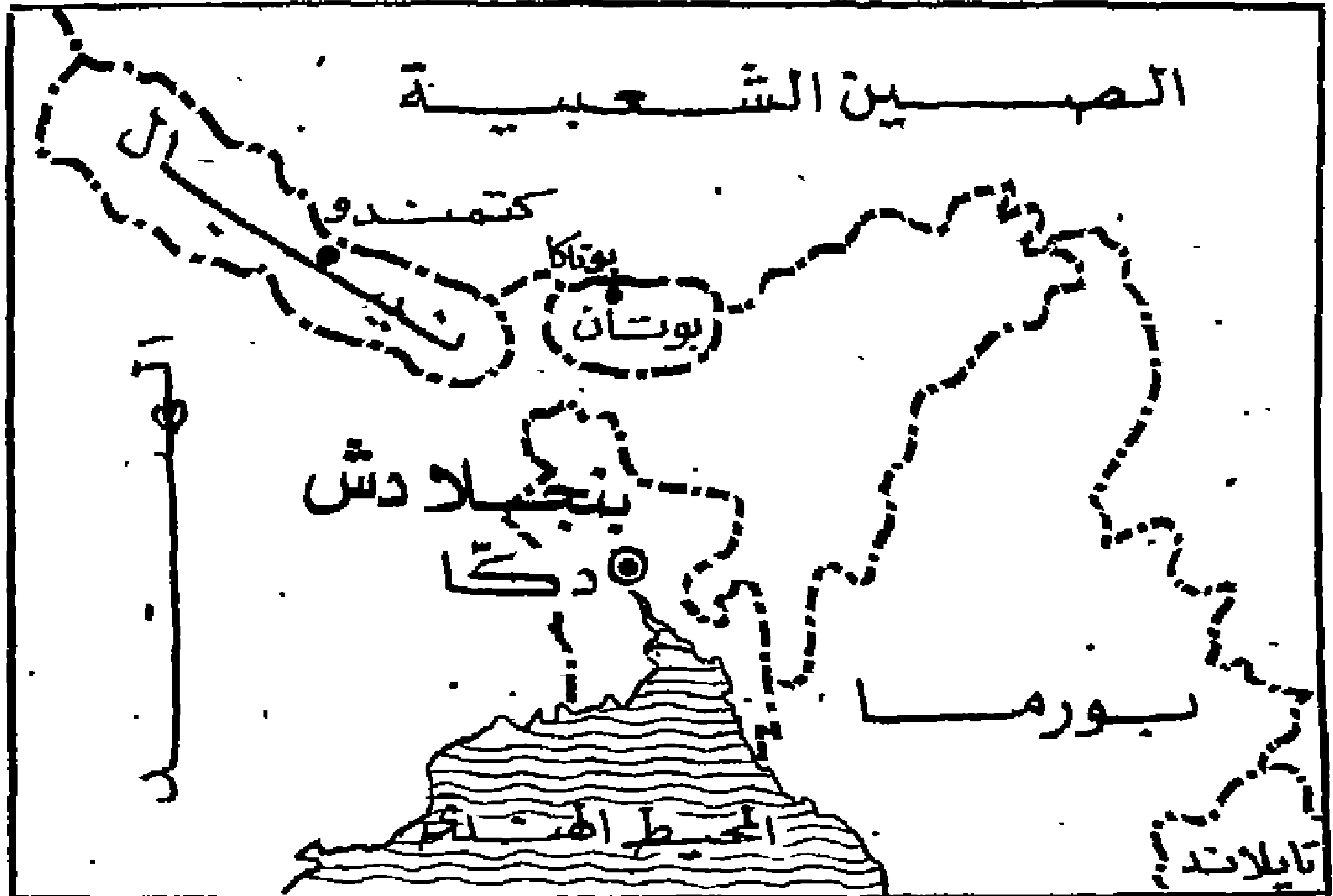
| | | |
|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | *Narodna Republica Balgarija* |
| نظام الحكم | : | جمهورية اشتراكية شعبية |
| المساحة | : | ١١٠ ٩١٢ كيلومترا مربعاً |
| عدد السكان | : | ٨ ٦٠٠ ٠٠٠ نسمة |
| كثافة السكان | : | ٧٧ نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | صوفيا *Sofia* |
| السكان | : | ١ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٤٥َ ٤٢ْ شمالاً . و ٢٠َ ٢٣ْ شرقاً |
| العملة | : | ليف *Lev* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٤ ديسمبر ١٩٥٥



## بَنْجلا دِش — *BANGLA DESH*

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم السابق | : | باكستان الشرقية | |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ١٤٢ ٧٧٦ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٧٣ ٠٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٥١٢ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | دكا | *Dacca* |
| السكان | : | ١ ٠٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٤٢َ ٢٣ْ شمالاً ، و ٢٢َ ٩٠ْ شرقاً | |
| العُملة | : | روبية | *Rupee* |



## بنما PANAMA

الاسم الرسمى : *Republica de Panama*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ٧٥ ٦٥٠ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ١ ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٢٠ نسمة فى الكيلومتر المربع

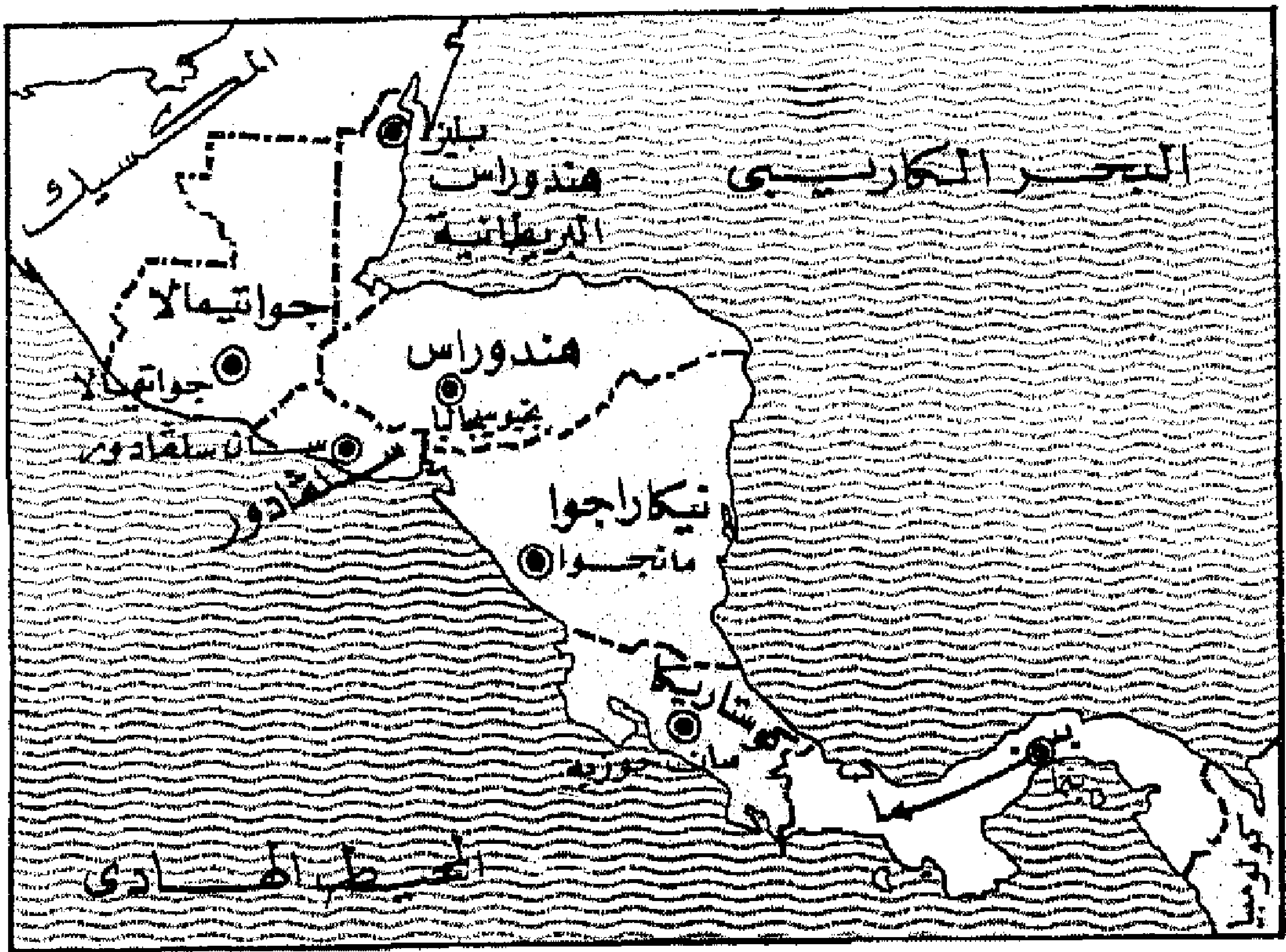
العاصمة : بنما *Panama*

السكان : ٥٥٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٣٧َ ٨ْ شمالاً ، و ٣٣َ ٧٩ْ غرباً

العُملة : بالبو *Blboa*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٣ نوفمبر ١٩٤٥



## بهاما ( جزر ) BAHAMAS

الاسم الرسمى : *Commonwealth of the Bahamas*

نظام الحكم : الكومنولث البريطانى

المساحة : ١١ ٤٠٥ كيلومترات مربعة

عدد السكان : ١٨٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١٦ نسمة فى الكيلومتر المربع

العاصمة : نساو *Nassau*

السكان : ١٠٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٠٠َ ٢٥ْ شمالاً ، و ٣٠َ ٧٧ْ غرباً

العملة : البريطانية

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٨ سبتمبر ١٩٧٣



## بوتان BHUTAN

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | | *Drugu; Druk-yul* |
| نظام الحكم | : | ملكى | |
| المساحة | : | ٤٧ ٠٠٠ | كيلومتر مربع |
| عدد السكان | : | ٨٥٠ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ١٨ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | بوناخا | *Punakha* |
| السكان | : | ٢٥ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٣٠َ ٢٧ْ شمالاً ، و ٠٠َ ٩٠ْ شرقاً | |
| العملة | : | الروبية الهندية | *Ind. Rupee* |

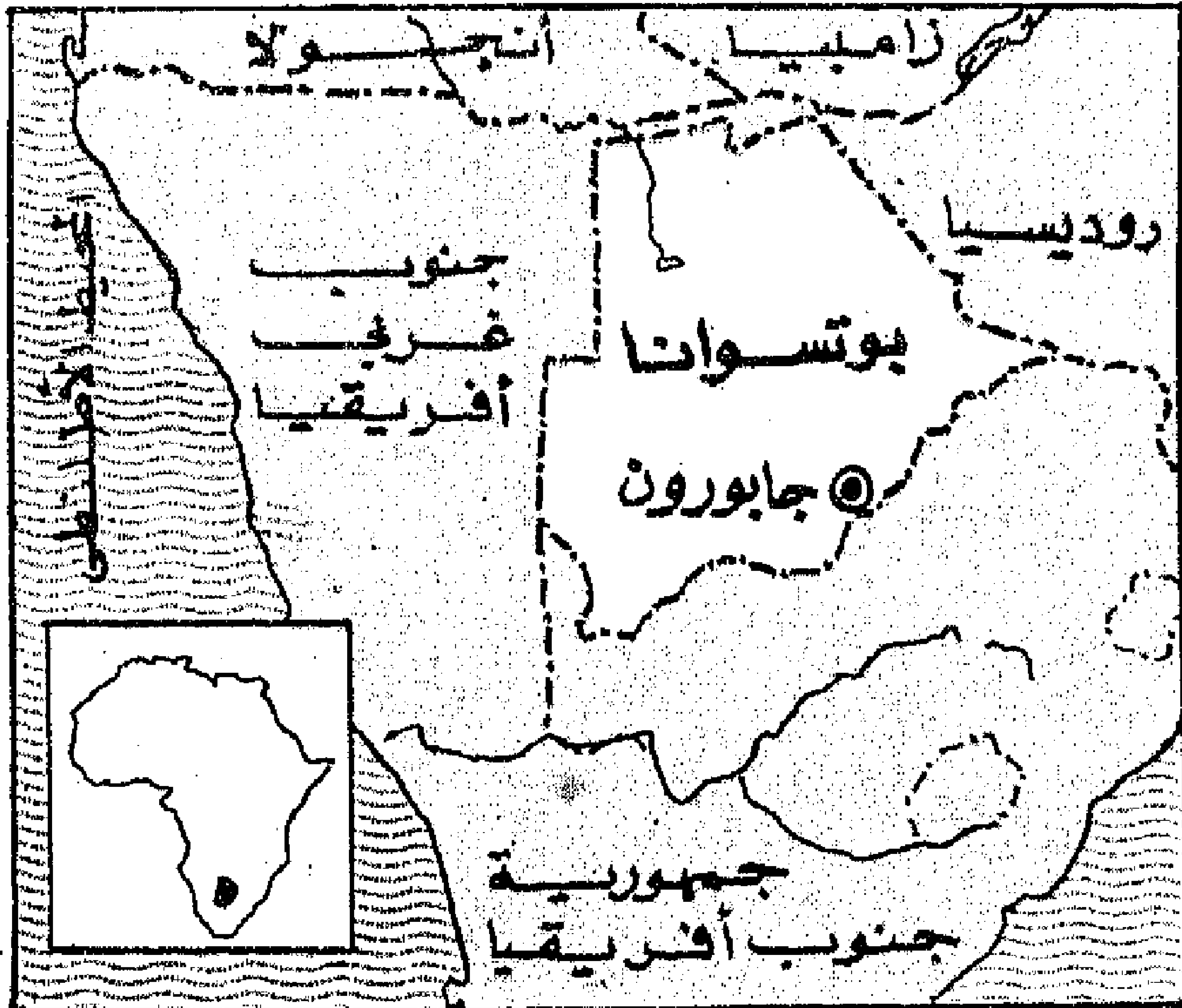
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢١ سبتمبر ١٩٧١



## بوتسوانا — *BOTSWANA*

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| الاسم السابق | : | بتشوانالاند | | |
| الاسم الرسمى | : | | | *Republic of Botswana* |
| نظام الحكم | : | جمهورى | | |
| المساحة | : | ٦٠٠ ٣٧٢ | كيلومتراً مربعاً | |
| عدد السكان | : | ٠٠٠ ٦٨٠ | نسمة | |
| كثافة السكان | : | ١ | نسمة فى الكيلومتر المربع | |
| العاصمة | : | جابورون | | *Gaborone* |
| السكان | : | ٠٠٠ ٢٠ | نسمة | |
| موقع العاصمة | : | ٤٥َ ٢٤ْ جنوباً ، و ٥٥َ ٢٥ شرقاً | | |
| العُملة | : | راند | | *Rand* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٧ أكتوبر ١٩٦٦



## بورما BURMA

الاسم الرسمى : *Pindaungsu Myanma Naingngan*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ٦٧٨٠٣٣ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٢٨٧٠٠٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٤٢ نسمة فى الكيلومتر المربع

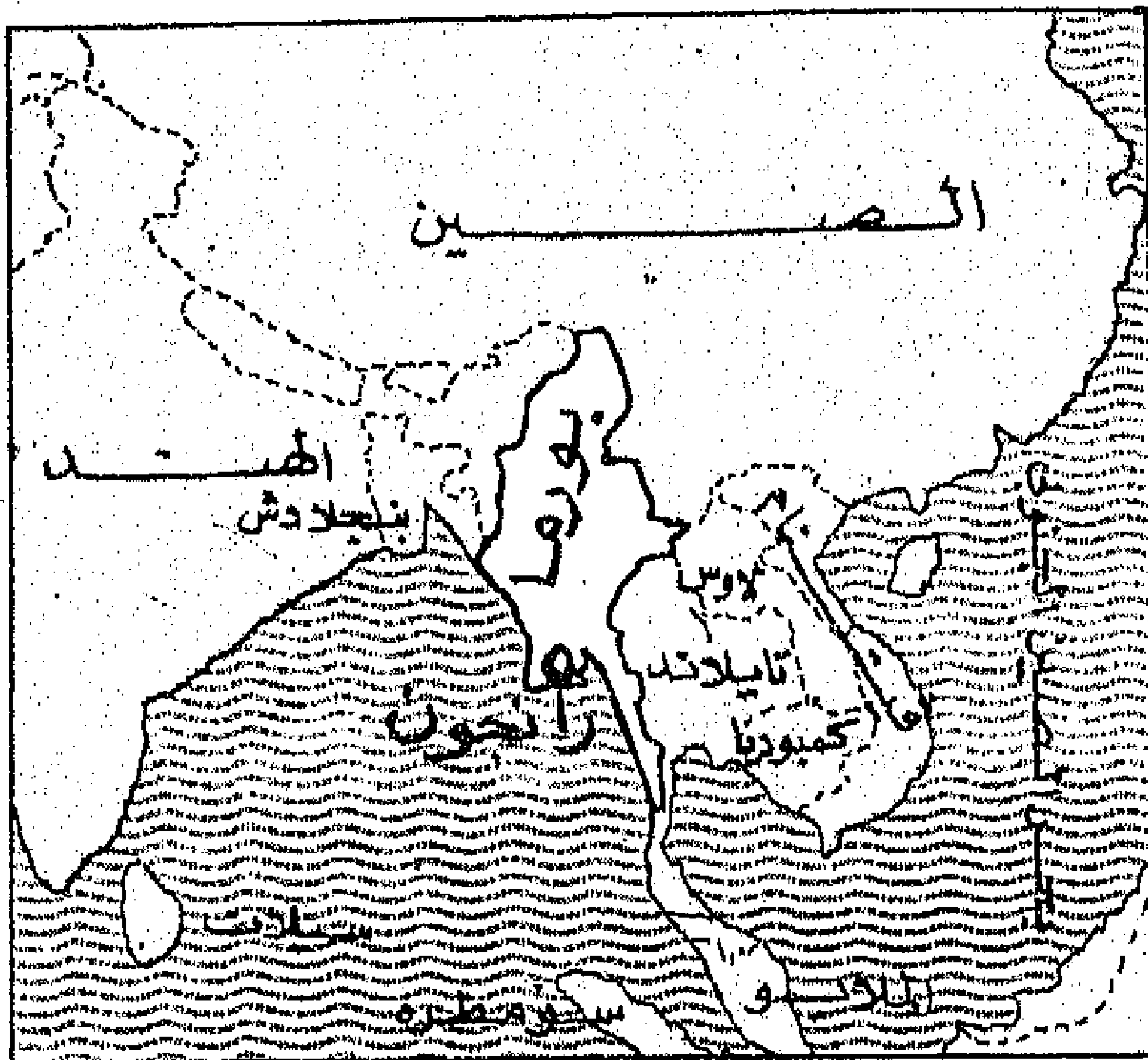
العاصمة : رانجون *Rangoon*

السكان ١٩٠٠٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٤٥َ ١٦ْ شمالاً ، ٢٠َ ٩٦ْ شرقاً

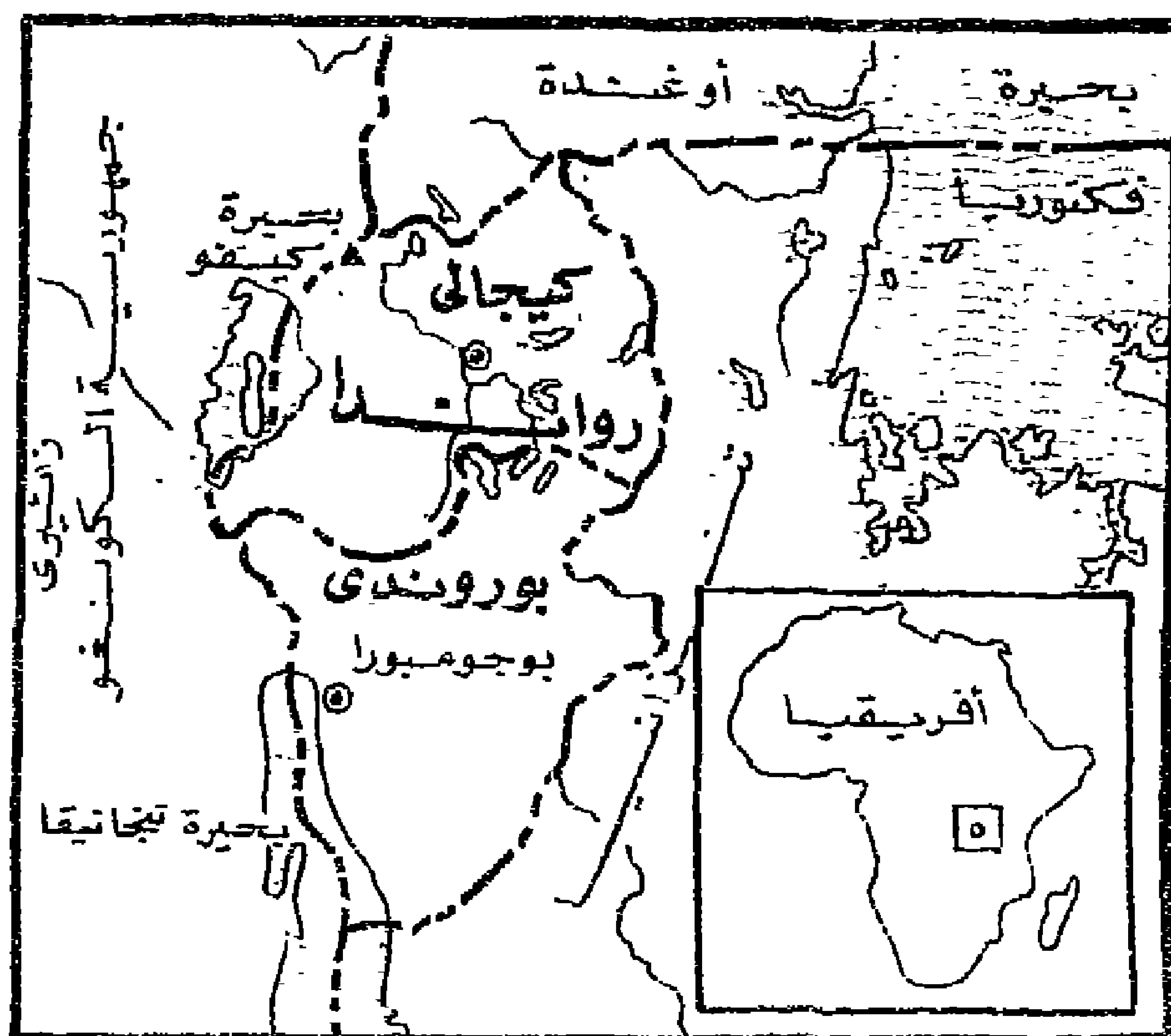
العُملة : كيات *Kyat*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٩ أبريل ١٩٤٨



# بوروندى BURUNDI

الاسم السابق : أفريقيا الشرقية الألمانية
الاسم الرسمى : Republika y'Uburundi
نظام الحكم : جمهورى
المساحة : ٢٧ ٨٣٤ كيلومتراً مربعاً
عدد السكان : ٣ ٦٠٠ ٠٠٠ نسمة
كثافة السكان : ١٣٠ نسمة فى الكيلومتر المربع
العاصمة : بوجومبورا Bujumbura
السكان : ١٠٠ ٠٠٠ نسمة
موقع العاصمة : ٢٢َ ٣ْ جنوباً ، و ٢١َ ٢٩ْ شرقاً
العملة : فرنك Franc
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٨ سبتمبر ١٩٦٢



## بولنده

## *POLAND*

الاسم الرسمى : *Polska Rzeczpospolita Ludwa*

نظام الحكم : جمهورية شعبية

المساحة : ٣١٢ ٥٢٠ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٣٣ ٤٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١٠٧ نسمة فى الكيلومتر المربع

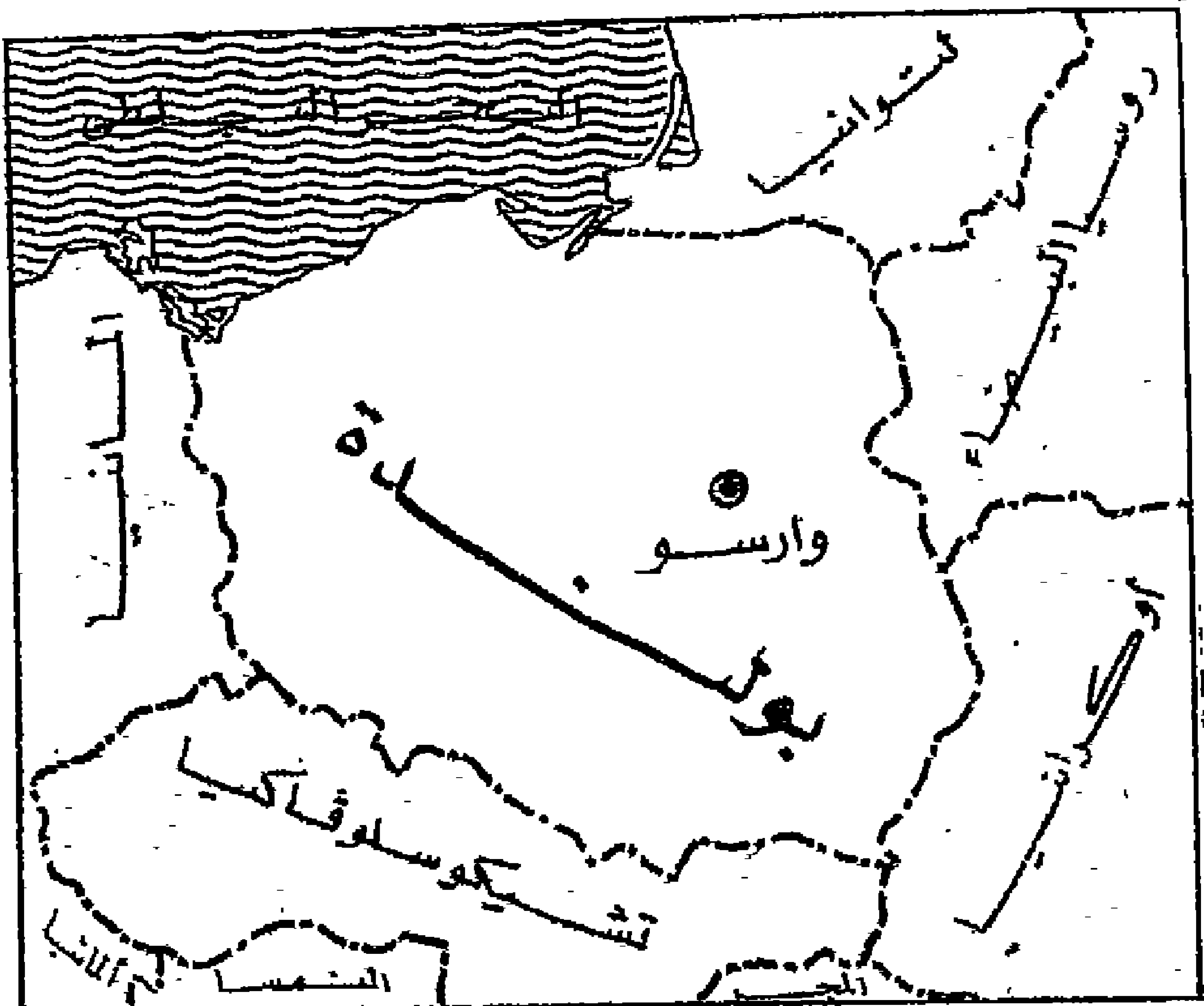
العاصمة : وارسو *Warsaw*

السكان : ١ ٣٠٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ١٥َ ٥٢ْ شمالاً ، و ٠٠َ ٢١ْ شرقاً

العُملة زلوتى *Zloty*

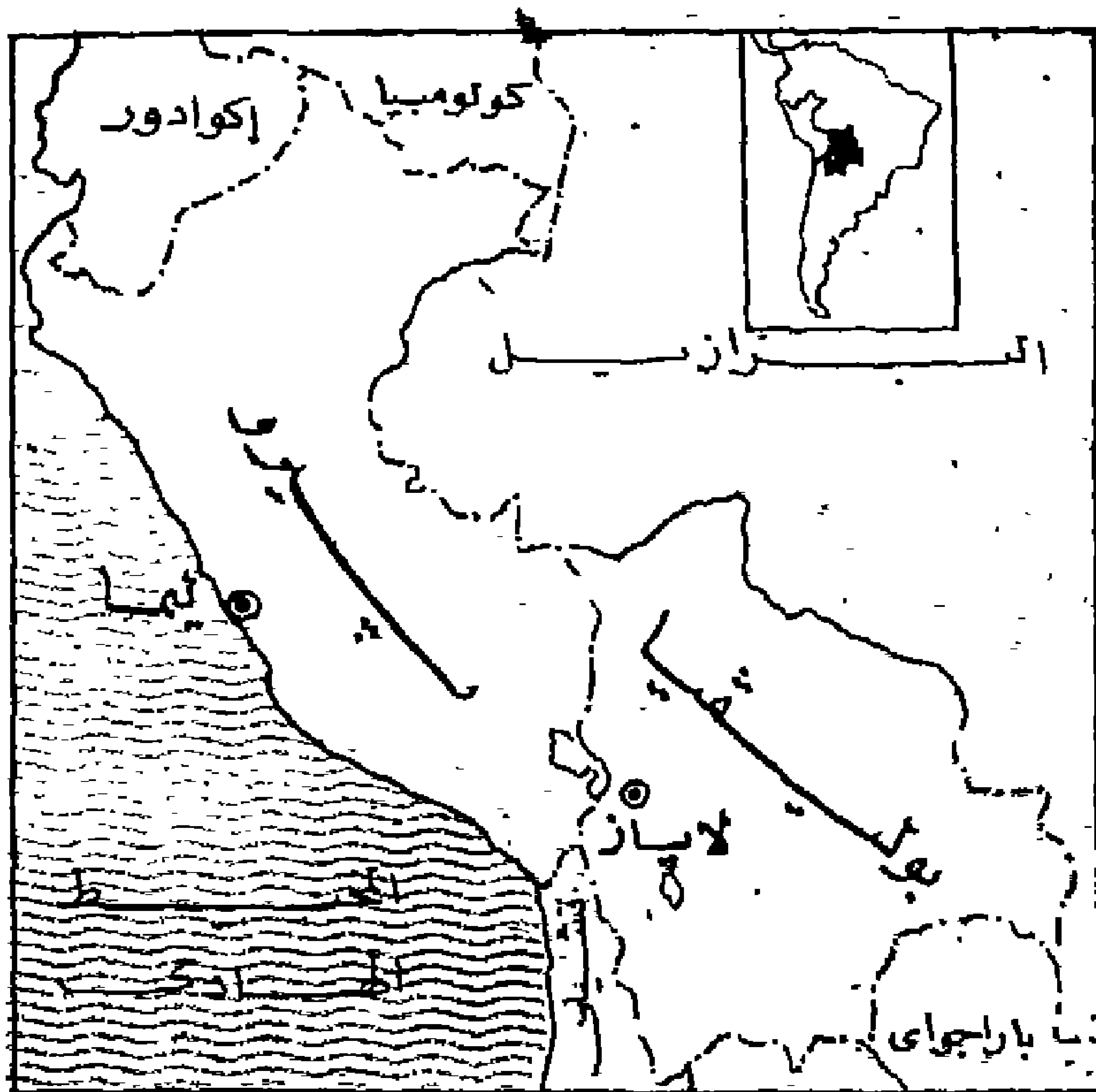
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥



## بوليفيا BOLIVIA

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | | *Republica de Bolivia* |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ١٠٩٨٥٨١ كيلومتراً مربعاً | |
| عدد السكان | : | ٥٢٠٠٠٠٠ نسمة | |
| كثافة السكان | : | ٥ نسمة فى الكيلومتر المربع | |
| العاصمة | : | لا باز | *La Paz* |
| السكان | : | ٦٠٠٠٠٠ نسمة | |
| موقع العاصمة | : | ٢٠َ ١٦ْ جنوباً ، و ١٠َ ٦٨ْ غرباً | |
| العملة | : | بيزو | *Peso* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٤ نوفمبر ١٩٤٥



## بيرو PERU

الاسم الرسمي : Republida del Peru

نظام الحكم : جمهوري

المساحة : ١٢٨٥٢١٦ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ١٤٣٠٠٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١١ نسمة في الكيلومتر المربع

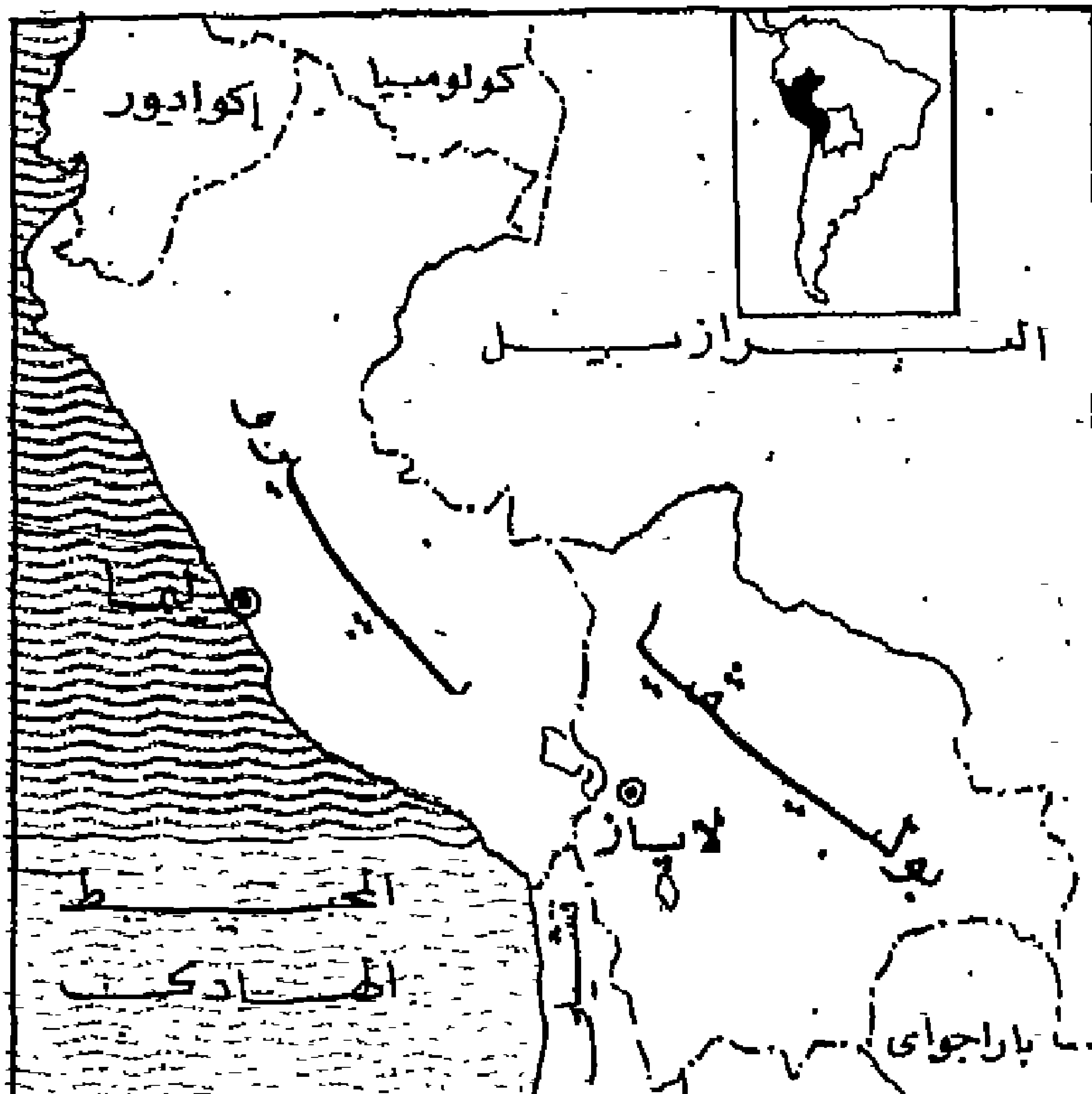
العاصمة : ليما Lima

السكان : ٢٣٠٠٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٠٦َ ١٢ْ جنوباً ، و ٠٣َ ٧٧ْ غرباً

العُملة : سول Sol

انضمت إلى الأمم المتحدة في ٣١ أكتوبر ١٩٤٥



## تايلاند THAILAND

| | | |
|---|---|---|
| الاسم السابق : | سيام | *Siam* |
| الاسم الرسمى : | | *Muang T'hai. Prathet T'hai.* |
| نظام الحكم : | ملكى | |
| المساحة : | ٥١٤ ٠٠٠ كيلومتر مربع | |
| عدد السكان : | ٣٧ ٩٠٠ ٠٠٠ نسمة | |
| كثافة السكان : | ٧٤ نسمة فى الكيلومتر المربع | |
| العاصمة : | بانجكوك | *Bangkok* |
| السكان : | ٢ ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة | |
| موقع العاصمة : | ٤٥َ ١٣ْ شمالاً ، و ٣٥َ ١٠٠ْ شرقاً | |
| العملة : | باهت | *Baht* |

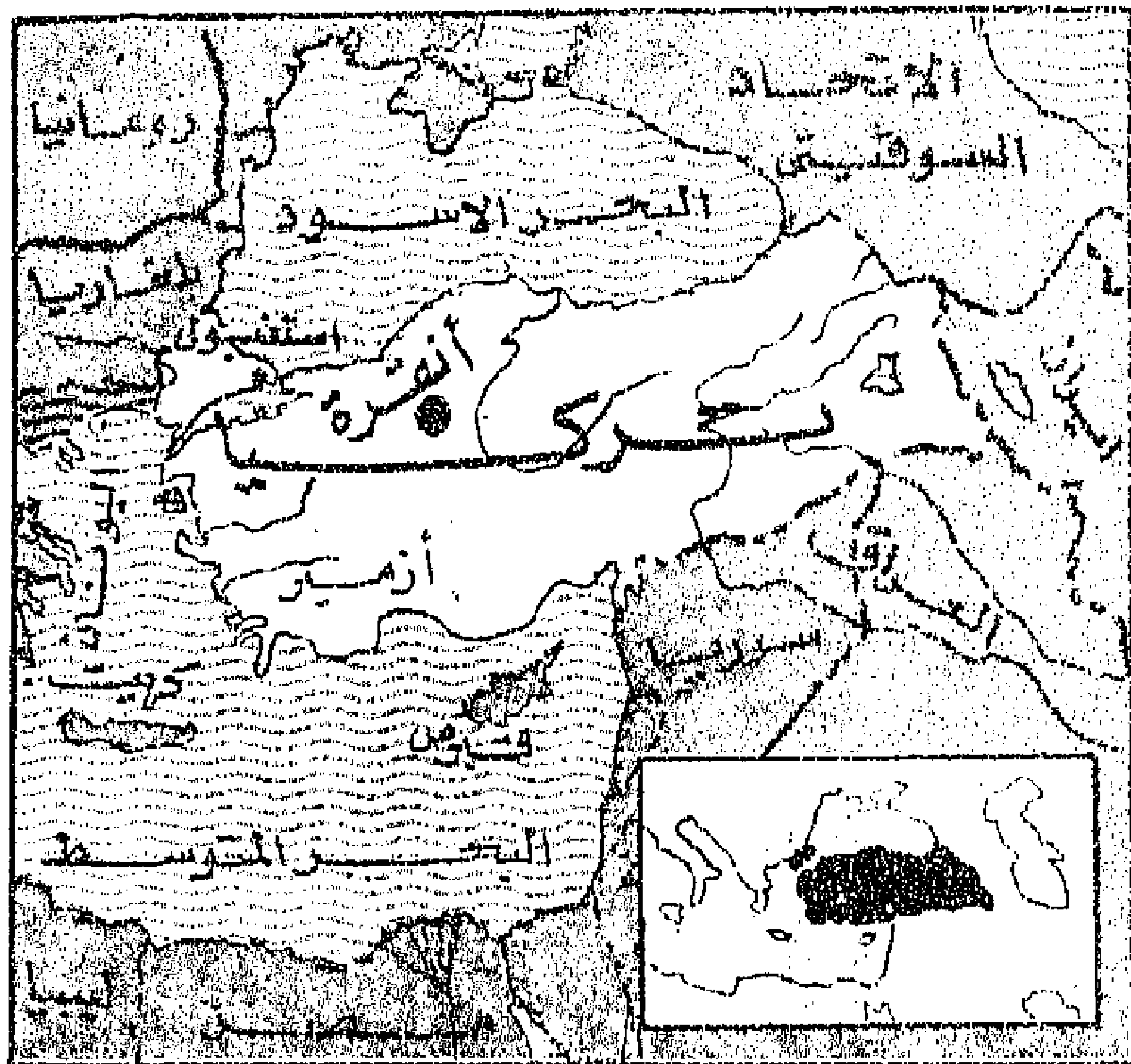
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٠ ديسمبر ١٩٤٦



# تركيا TURKEY

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | | *Turkiye Cumhuriyeti* |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ٧٨٠ ٥٧٦ كيلومتراً مربعاً | |
| عدد السكان | : | ٣٦ ٦٠٠ ٠٠٠ نسمة | |
| كثافة السكان | : | ٤٧ نسمة فى الكيلومتر المربع | |
| العاصمة | : | أنقرة | *Ankara* |
| السكان | : | ١ ٢٠٠ ٠٠٠ نسمة | |
| موقع العاصمة | : | ٥٥َ ٣٩ْ شمالاً ، و ٥٠َ ٣٢ْ شرقاً | |
| العملة | : | ليرة | *Lira* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ اكتوبر ١٩٤٥



## ترينداد وتوباجو TRINIDAD and TOBAGO

نظام الحكم : استقلت ١٩٦١ ، كومنولث

المساحة : ٥ ١٢٨ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ١ ١٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٢١٥ نسمة فى الكيلومتر المربع

العاصمة : بورت أوف اسبين *Port of Spain*

السكان : ١٥٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٣٨َ ١٠ْ شمالاً ، و ٣١َ ٦١ْ غرباً

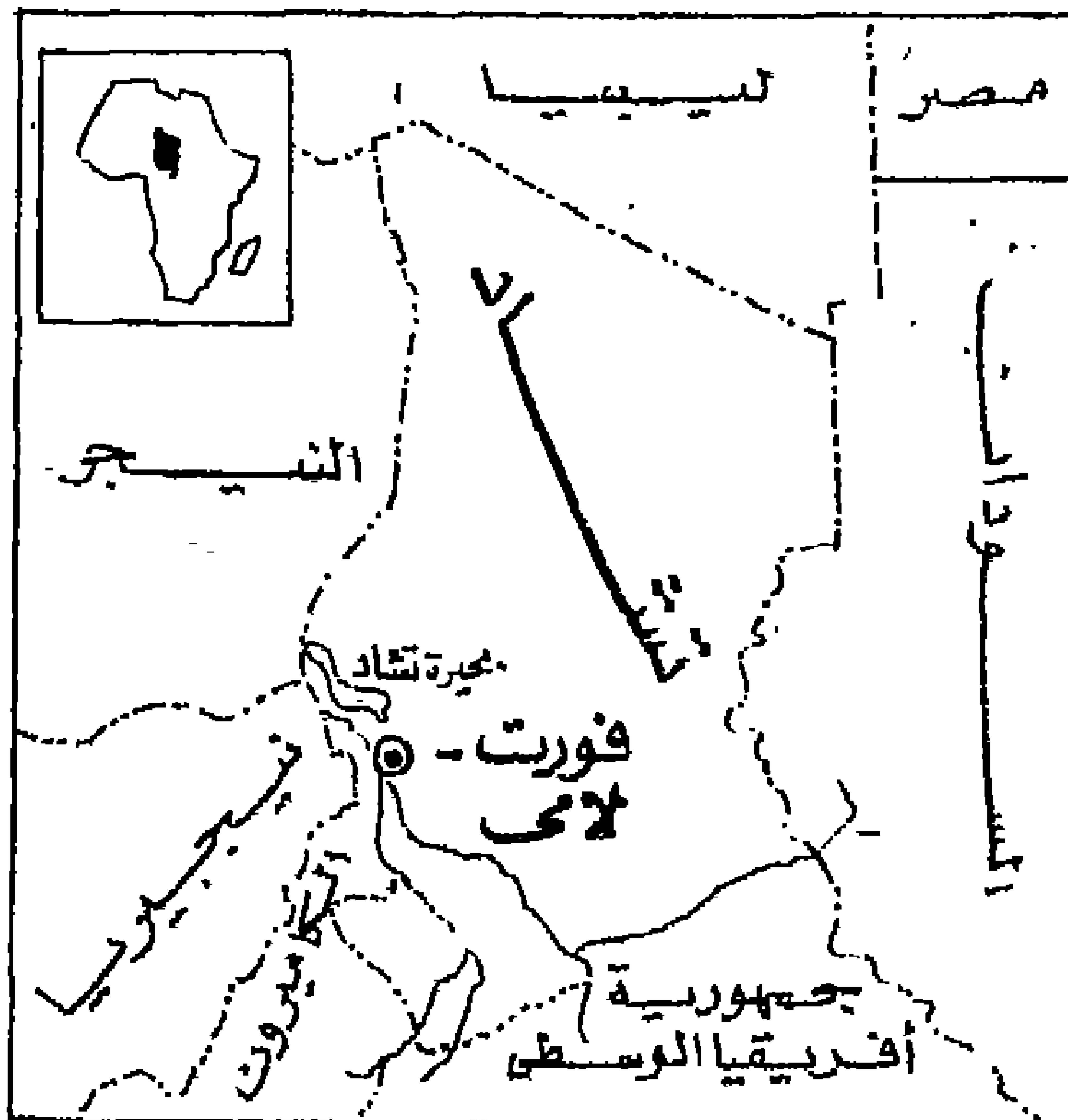
العُملة : دولار *Tr. and Tob. Dollar*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٨ سبتمبر ١٩٦٢

## تشاد CHAD

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | جمهورية تشاد | *La République du Chad* |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ١ ٢٨٤ ٠٠٠ | كيلو متر مربع |
| عدد السكان | : | ٣ ٧٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٣ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | فورت لامى | *Fort-Lamy* |
| السكان | : | ١٥٠ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ١٠َ ١٢° شمالاً ، و ٥٩َ ١٤° شرقاً | |
| العملة | : | فرنك | *Franc* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٠ سبتمبر ١٩٦٠



## تشيكوسلوفاكيا — *CZECHOSLOVAKIA*

الاسم الرسمي : *Ceskoslovenska Socialistika Republika (CSSR)*

نظام الحكم : جمهورية شعبية

المساحة : ١٢٧ ٨٦٩ كيلو متراً مربعاً

عدد السكان : ١٤ ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١١٣ نسمة في الكيلومتر المربع

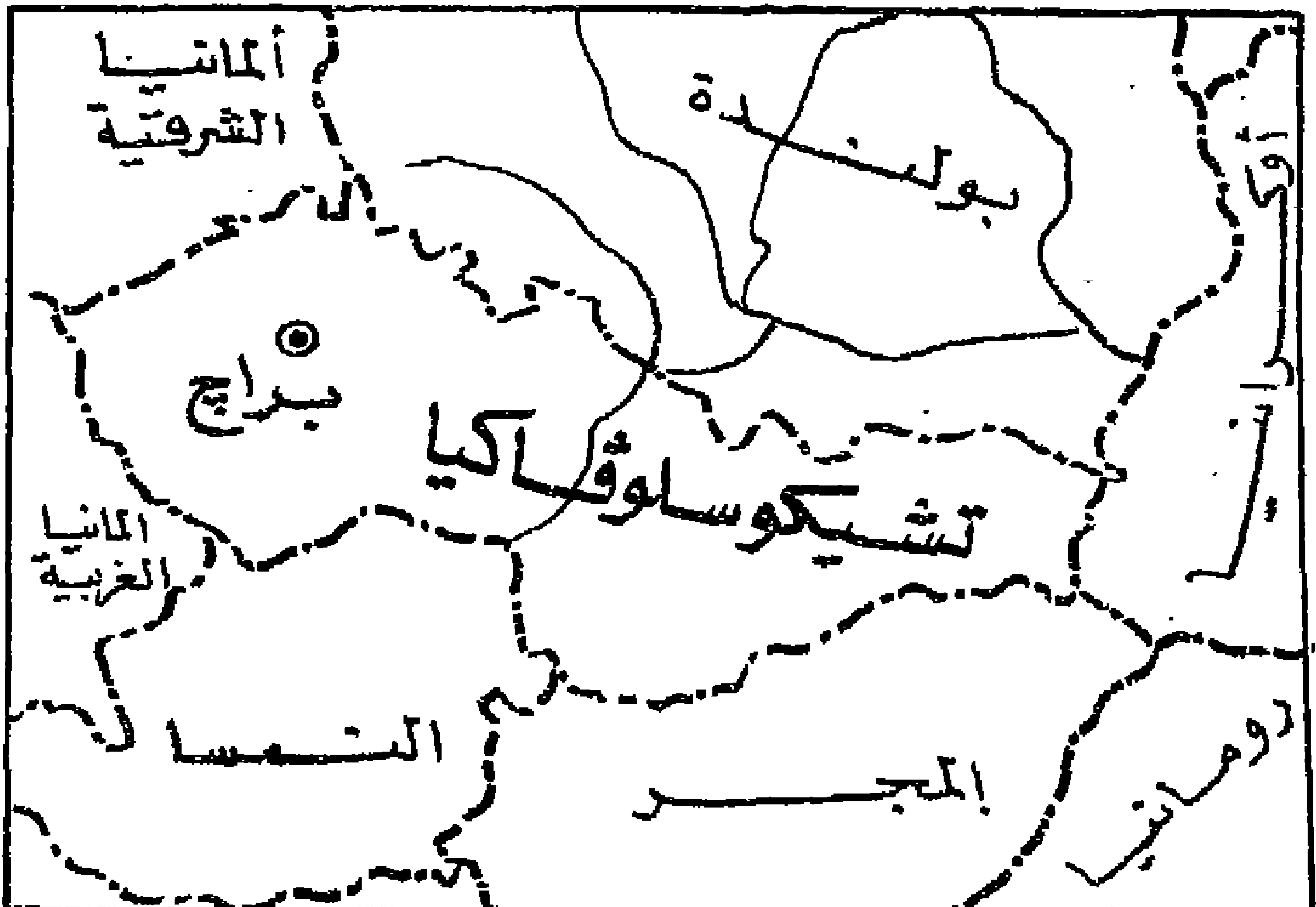
العاصمة : براج *Prague (Praha)*

السكان : ١ ١٠٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٠٥َ ٥٠ْ شمالاً ، و ٢٥َ ١٤ْ شرقاً

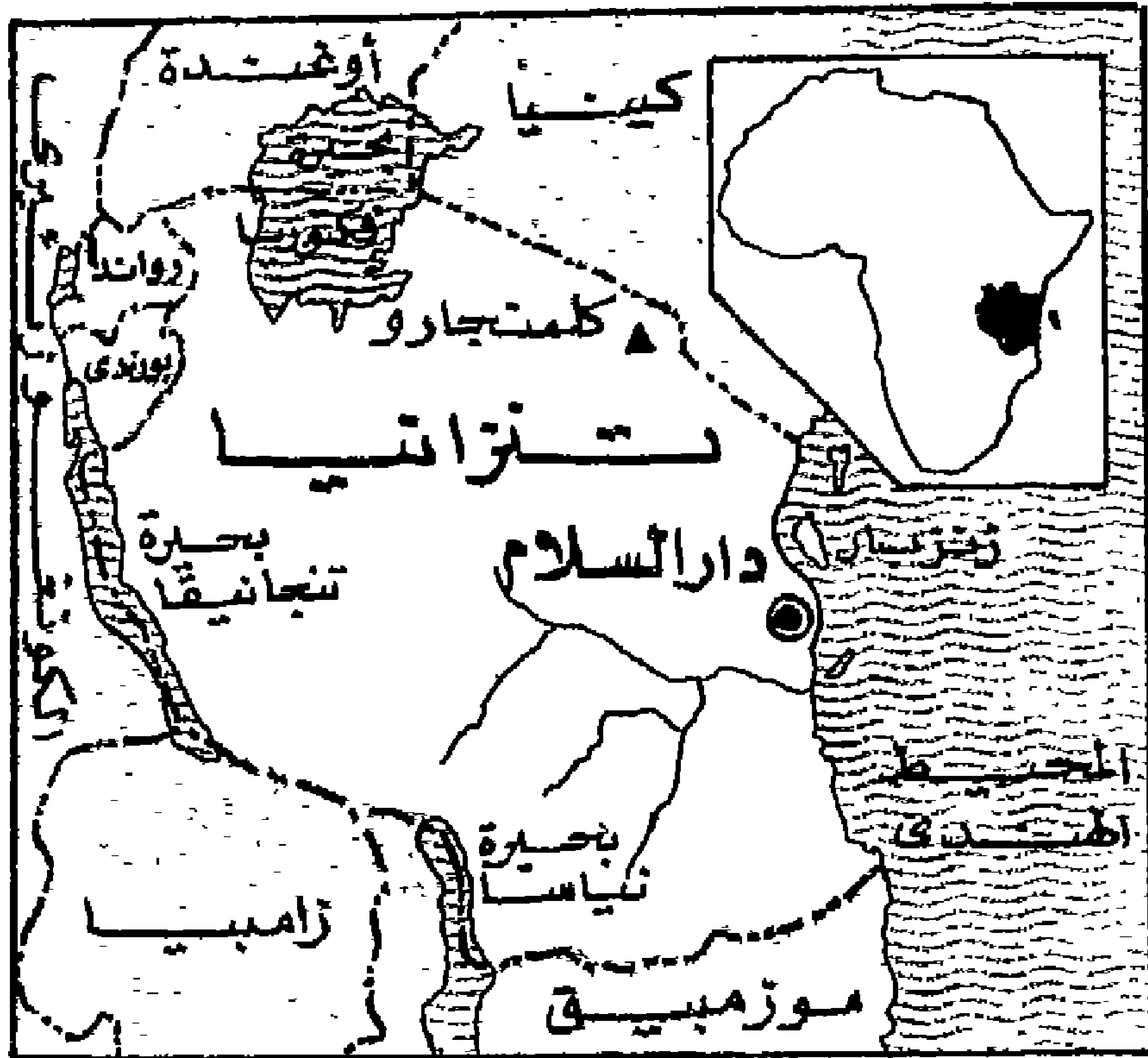
العملة : كورونا *Koruna*

انضمت إلى الأمم المتحدة في ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥



## تنزانيا TANZANIA

الاسم السابق : تنجانيقا وزنزبار
نظام الحكم : جمهورى
المساحة : ٩٣٩ ٧٠١ كيلومتر مربع
عدد السكان : ١٣ ٩٠٠ ٠٠٠ نسمة
كثافة السكان : ١٥ نسمة فى الكيلومتر المربع
العاصمة : دار السلام *Dar es Salam*
السكان : ٣٠٠ ٠٠٠ نسمة
موقع العاصمة : ٥١َ ٦ْ جنوباً ، و ١٨َ ٣٩ْ شرقاً
العملة : الشلن التنزانى *Tans. Shilling*
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٤ ديسمبر ١٩٦١

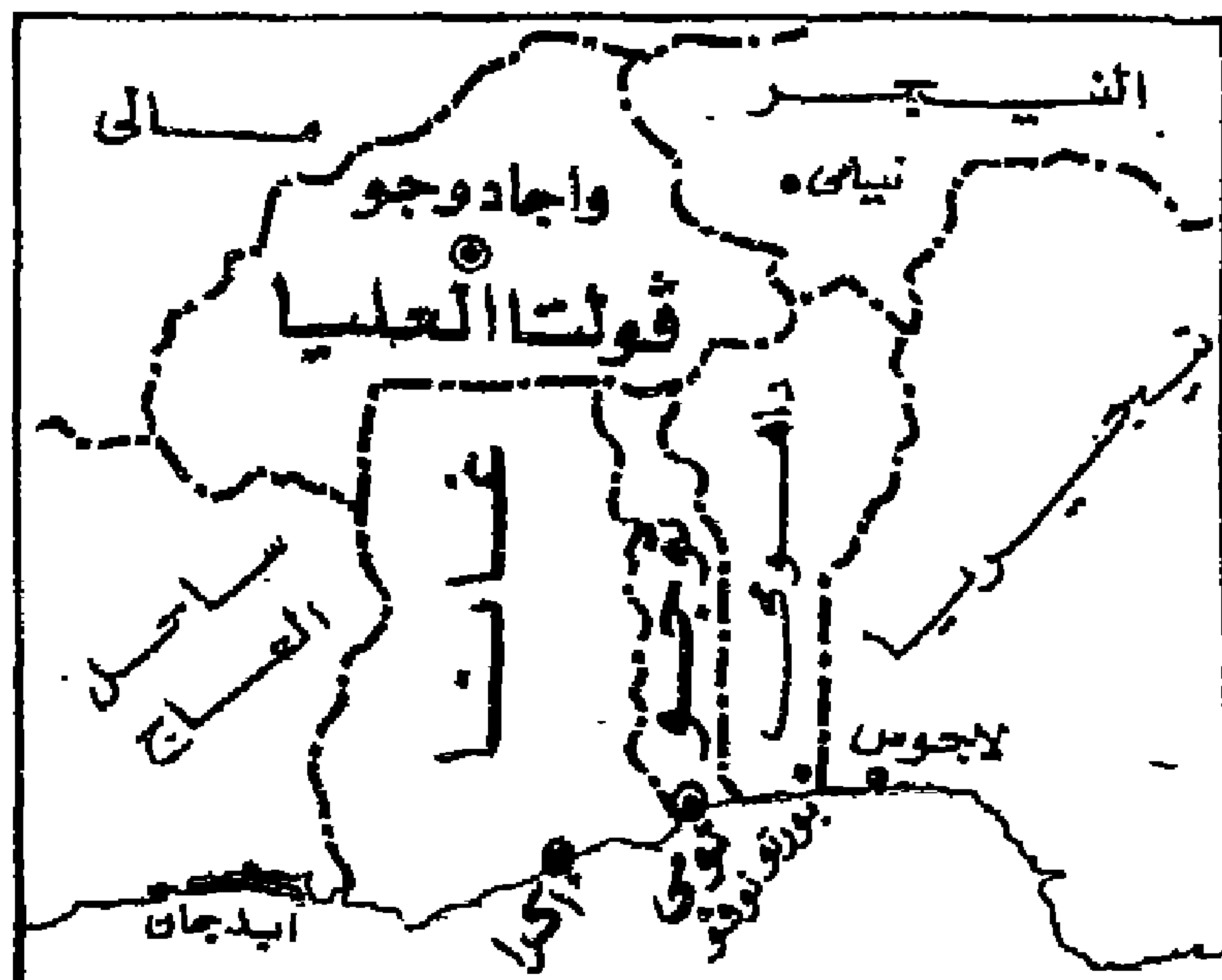


## توجو — TOGO

الاسم الرسمى — *République Togolaise*

| | | | |
|---|---|---|---|
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ٥٦٠٠٠ | كيلومتر مربع |
| عدد السكان | : | ٢١٠٠٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٣٧ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | لومى | *Lomé* |
| السكان | : | ١٥٠٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ١٠َ ٦ْ شمالاً . و ٢١َ ١ْ شرقاً | |
| العملة | : | فرنك | *Franc* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٠ سبتمبر ١٩٦٠



## تونس

*TUNISIA*

الاسم الرسمى : الجمهورية التونسية

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ١٦٤ ١٥٠ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٥ ٤٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٣٣ نسمة فى الكيلومتر المربع

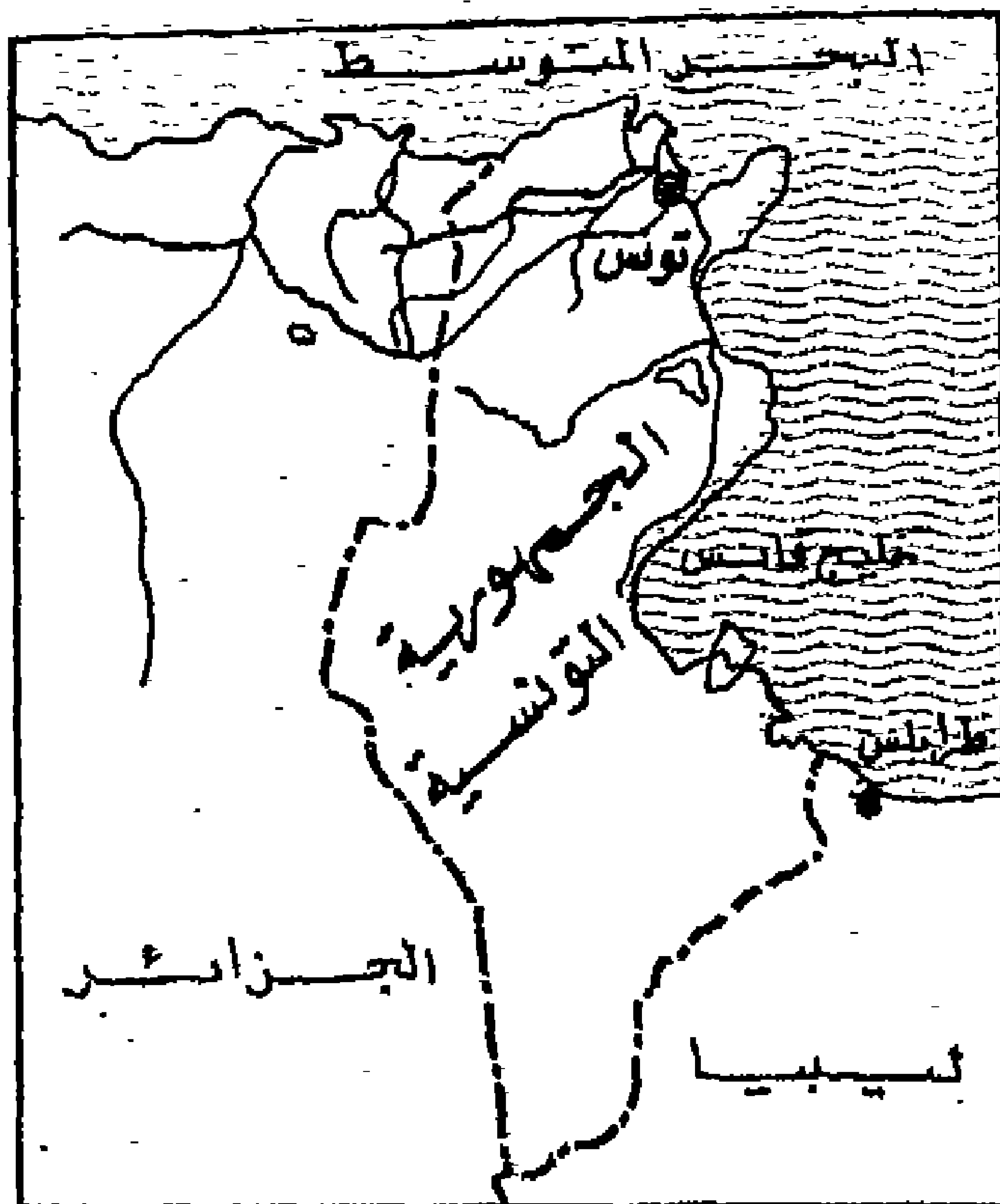
العاصمة : تونس *Tunis*

السكان : ٩٠٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٤٧َ ٣٦ْ شمالاً ، و ١٠َ ١٠ْ شرقاً

العملة : الدينار *Dinar*

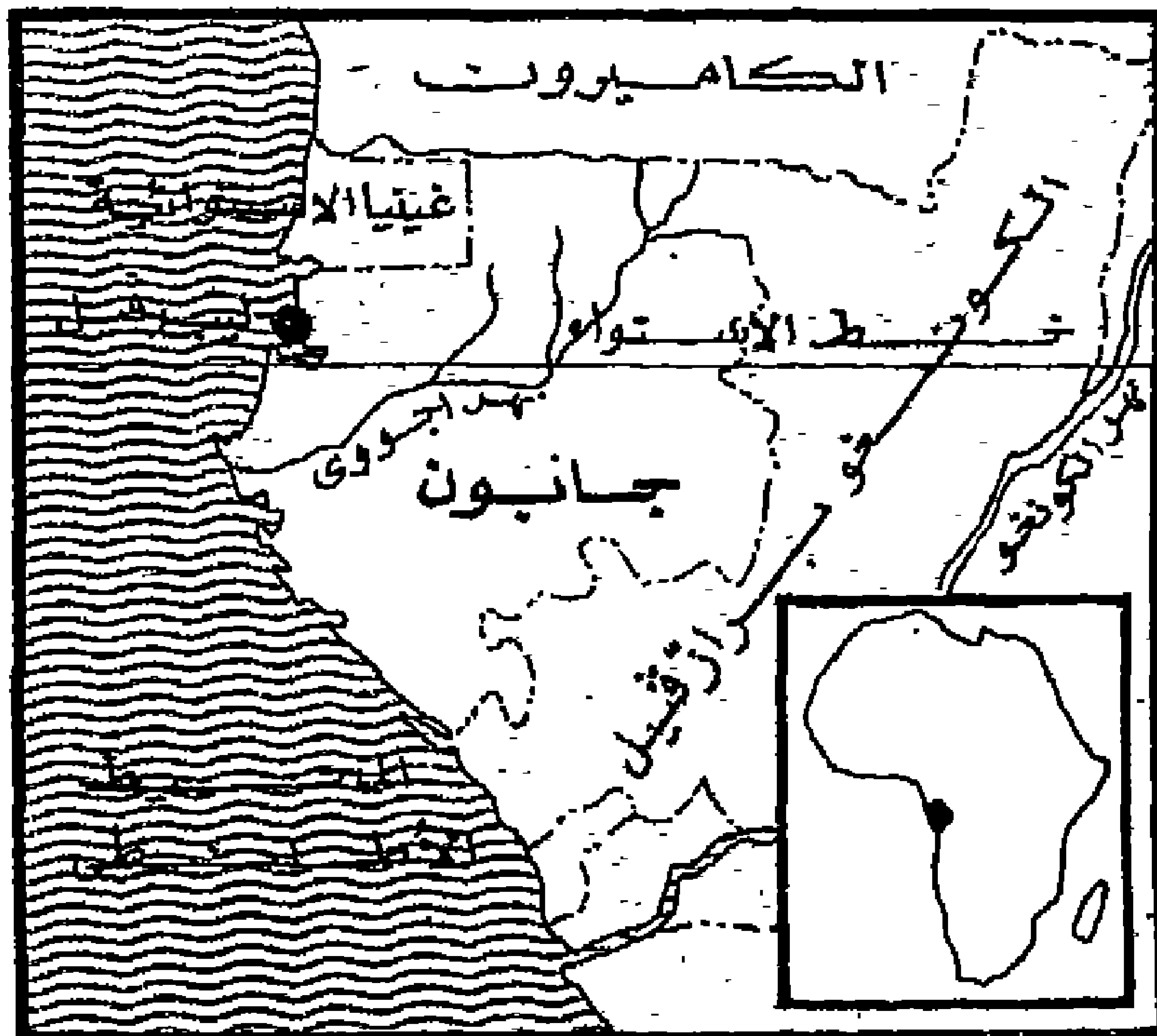
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٢ نوفمبر ١٩٥٦



# جابون GABON

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | | République Gabonaise |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ٢٦٧ ٦٦٧ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٥٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٢ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | ليبرفيل | Libreville |
| السكان | : | ٦٠ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٣٠َ صفرْ شمالاً ، و ٢٥َ ٩ْ شرقاً | |
| العملة | : | فرنك | Franc |

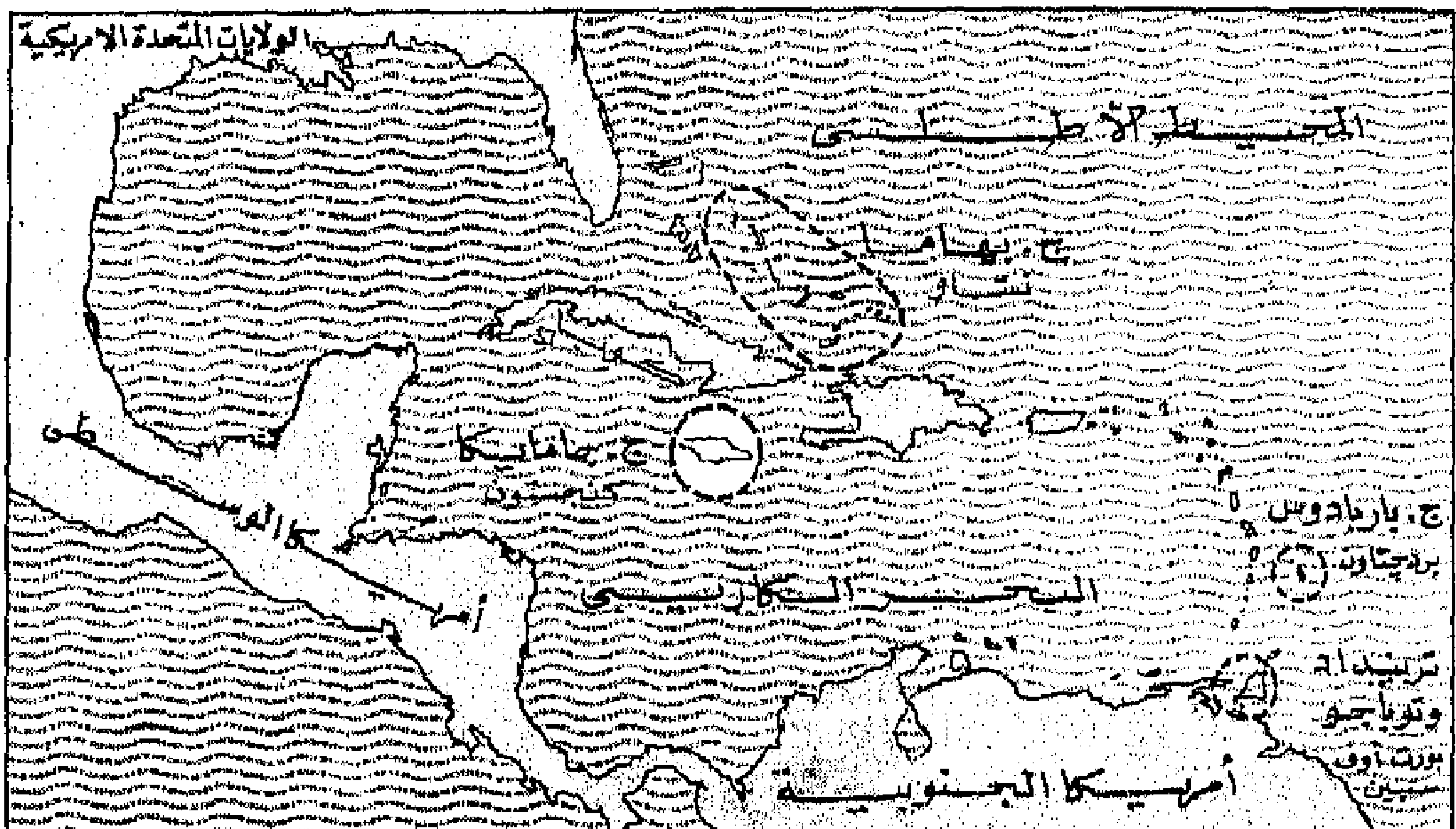
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٠ سبتمبر ١٩٦٠



## جامايكا — *JAMAICA*

| | | | |
|---|---|---|---|
| نظام الحكم | : | مستقلة ، كومنولث | |
| المساحة | : | ١٠٩٦٢ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٢١٠٠٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ١٩٠ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | كنجستون | *Kingston* |
| السكان | : | ٥٠٠٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٥٨َ ١٧ْ شمالاً ، و ٤٨َ ٧٦ْ غرباً | |
| العُملة | : | الجنيه | *Pound* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٨ سبتمبر ١٩٦٢



## جامبيا GAMBIA

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | | *Republic of Gambia* |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ١١ ٢٩٥ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٣٨٠ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٣٤ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | باثورست | *Bathurst* |
| السكان | : | ٣٥ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٢٨َ ١٣ْ شمالاً ، و ٣٩َ ١٦ْ غرباً | |
| العملة | : | الجنيه | *Pound* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢١ سبتمبر ١٩٦٦



## الجزائر ALGERIA

| | | |
|---|---|---|
| الاسم الرسمي | : | الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية |
| نظام الحكم | : | جمهورية شعبية |
| المساحة | : | ٢ ٣٨١ ٧٤١ كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ١٤ ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة |
| كثافة السكان | : | ٦ نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | الجزائر *Alger* |
| السكان | : | ١ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٤٢َ ٣٦ْ شمالاً . و ٨َ ٣ْ شرقاً |
| العملة | : | الدينار |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٨ اكتوبر ١٩٦٢



## جمهورية أفريقيا الوسطى CENTRAL AFRICAN REPUBLIC

الاسم الرسمى : *République Centrafricaine*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ٦٢٢ ٩٨٤ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ١٦٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٣ نسمة فى الكيلومتر المربع

العاصمة : بانجوى *Bangui*

السكان : ١٧٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٢٣َ ٤ْ شمالاً ، و ٣٧َ ١٨ْ شرقا

العملة : فرنك *Franc*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٠ سبتمبر ١٩٦٠



## جمهورية جنوب أفريقيا REPUBLIC OF SOUTH AFRICA

| | | |
|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | *Republiek van Suid Afrika* |
| نظام الحكم | : | جمهورى عنصرى |
| المساحة | : | ١ ٢٢١ ٠٣٧ كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٢٢ ٣٠٠ ٠٠٠ نسمة |
| كثافة السكان | : | ١٨ نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | بريتوريا *Pretoria* |
| السكان | : | ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٤٥َ ٢٥ْ جنوباً ، و ١٢َ ٢٨ْ شرقاً |
| العُملة | : | راند *Rand* |

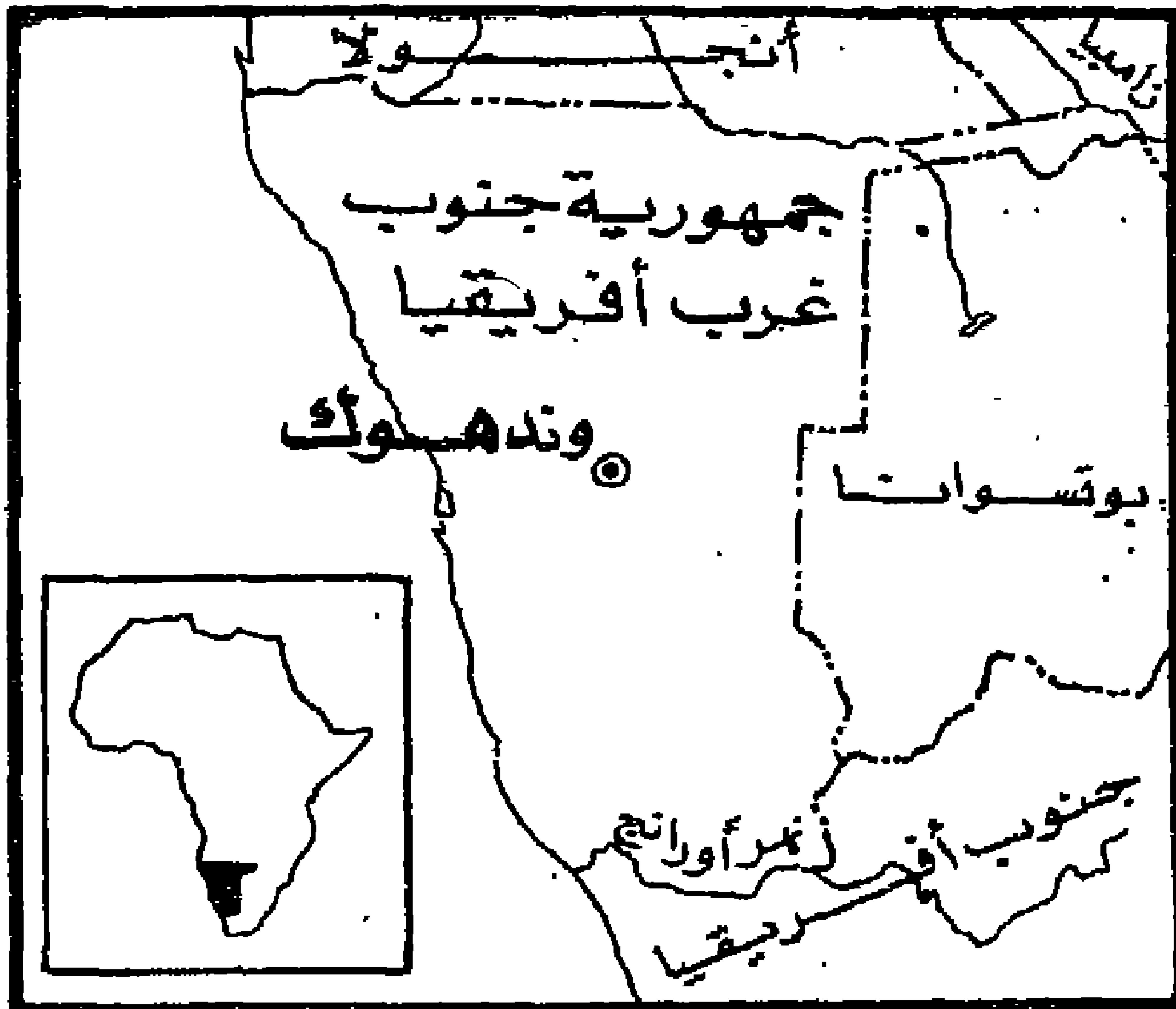
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٧ نوفمبر ١٩٤٥



# جمهورية جنوب غربى أفريقيا

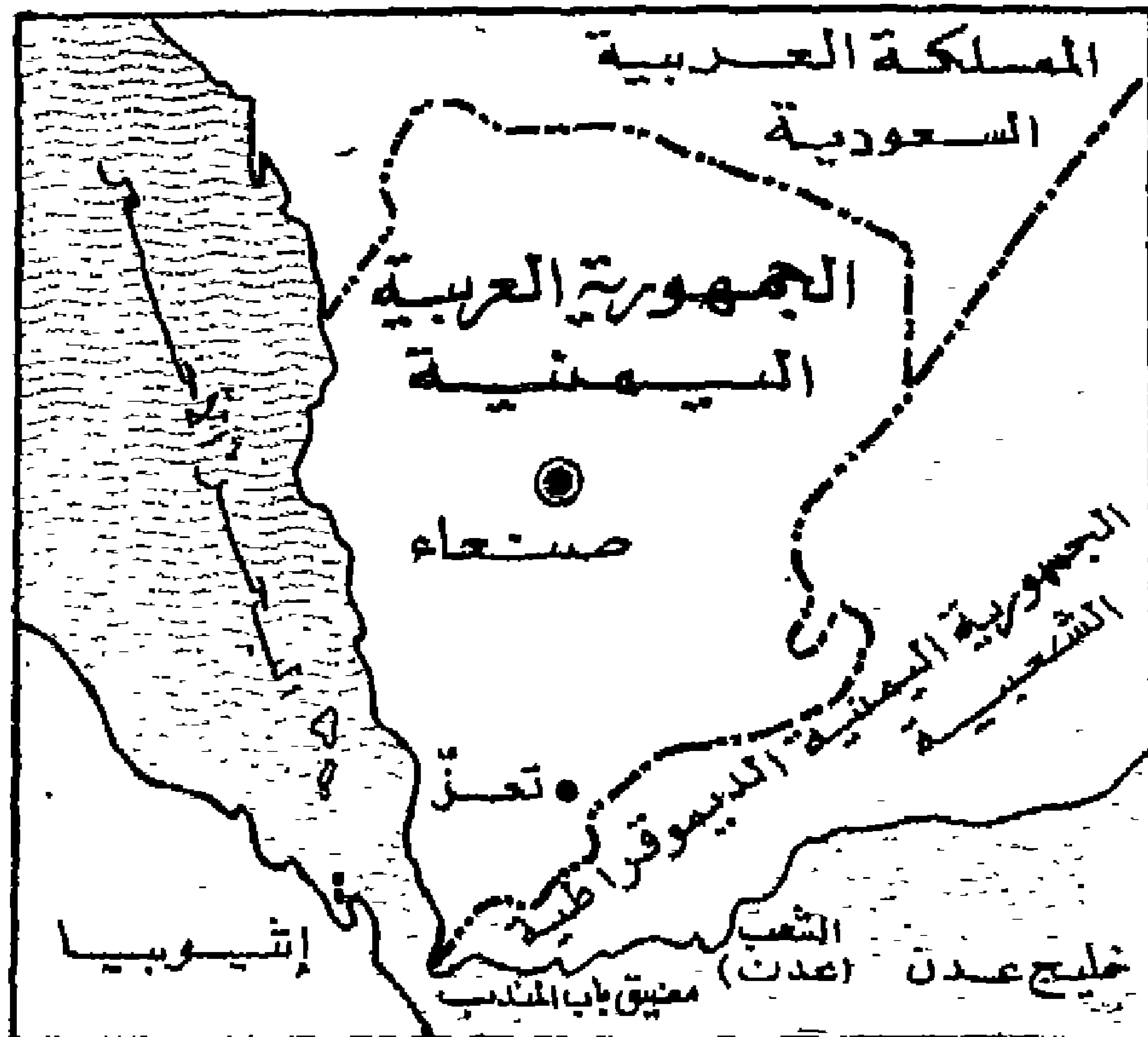
## *SOUTH WEST AFRICA REPUBLIC*

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | ناميبيا | | *Namibia* |
| نظام الحكم | : | جمهورى | | |
| المساحة | : | ٨٢٤ ٢٩٢ | كيلومتراً مربعاً | |
| عدد السكان | : | ٦٥٠ ٠٠٠ | نسمة | |
| كثافة السكان | : | ٨، | نسمة فى الكيلومتر المربع | |
| العاصمة | : | وندهوك | | *Windhoek* |
| السكان | : | ٧٥ ٠٠٠ | نسمة | |
| موقع العاصمة | : | ٢٤َ ٢٢ْ جنوباً ، ٠٦َ ١٧ْ شرقاً | | |



## الجمهورية العربية اليمنية — *YEMEN ARAB REPUBLIC*

الاسم السابق : اليمن
نظام الحكم : جمهورى
المساحة : ١٩٥ ٠٠٠ كيلومتر مربع
عدد السكان : ٥ ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة
كثافة السكان : ٢٨ نسمة فى الكيلومتر المربع
العاصمة : صنعاء — *San'a*
السكان : ١٠٠ ٠٠٠ نسمة
موقع العاصمة : ٢٧َ ١٥ْ شمالاً ، ١٢َ ٤٤ْ شرقاً
العملة : ريال — *Riyal*
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٣٠ سبتمبر ١٩٤٧



# الجمهورية اليمنية الديموقراطية الشعبية

## *YEMEN DEMOCRATIC POPULAR REPUBLIC*

الاسم السابق : عدن ومحميات الجنوب العربى

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ٢٨٧ ٦٨٢ كيلومتر مربع

عدد السكان : ١٣٠٠٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٤,٥ نسمة فى الكيلومتر المربع

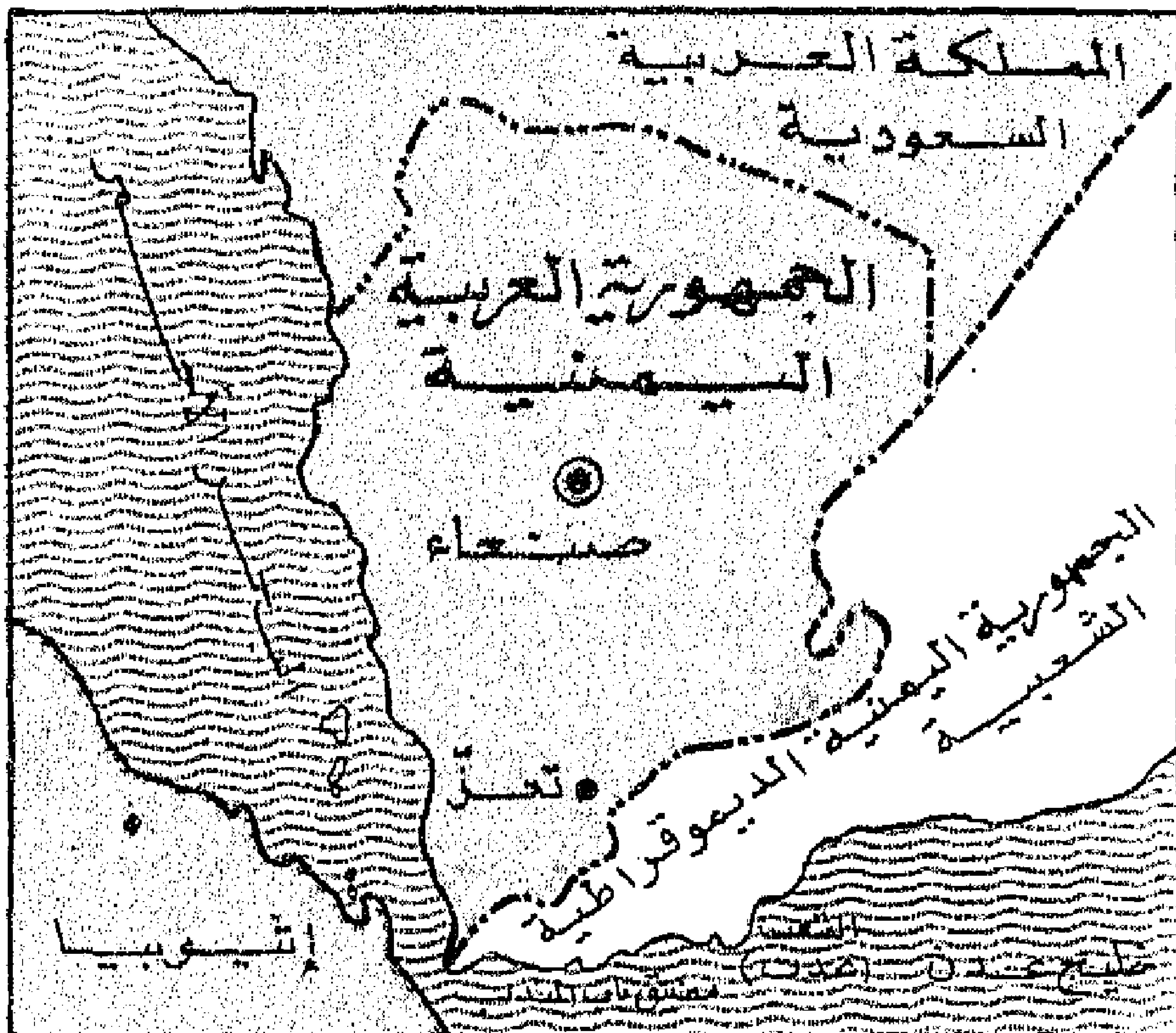
العاصمة : مدينة الشعب ( عدن ) *Aden*

السكان : ١٢٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٥٠َ ١٢ْ شمالاً ، و ٠٠َ ٤٥ْ شرقاً

العملة : ريال *Riyal*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٤ ديسمبر ١٩٦٧



## جواتيمالا — *GUATEMALA*

الاسم الرسمى : *Republica de Guatemala*

نظام الحكم : جمهورية

المساحة : ١٠٨٨٨٩ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٥٥٠٠٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٥٠ نسمة فى الكيلومتر المربع

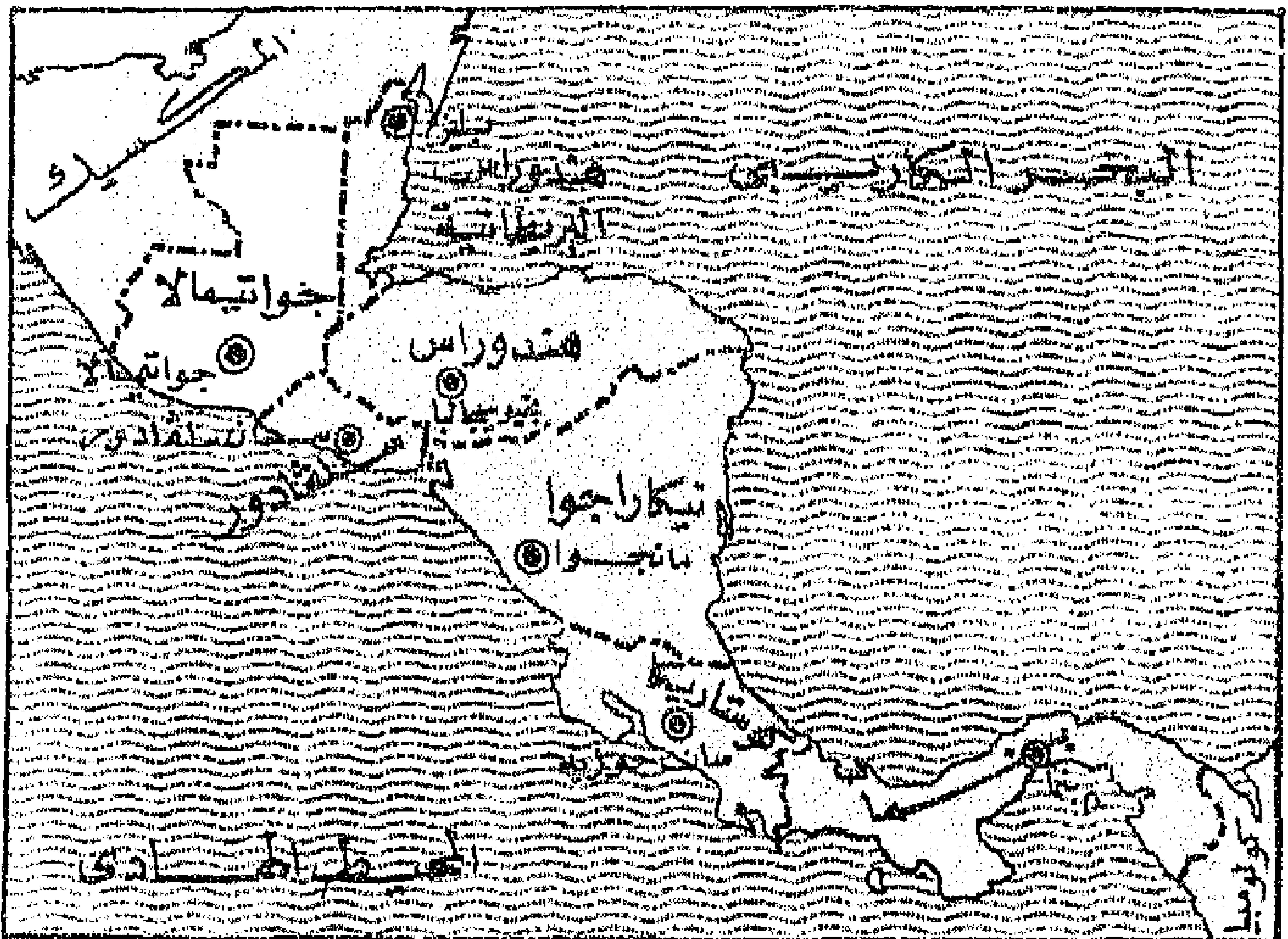
العاصمة : جواتيمالا *Guatemala*

السكان : ٦٥٠٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٣٨َ ١٤ْ شمالاً ، و ٢٢َ ٩٠ْ غرباً

العملة : كويتزال *Quetzal*

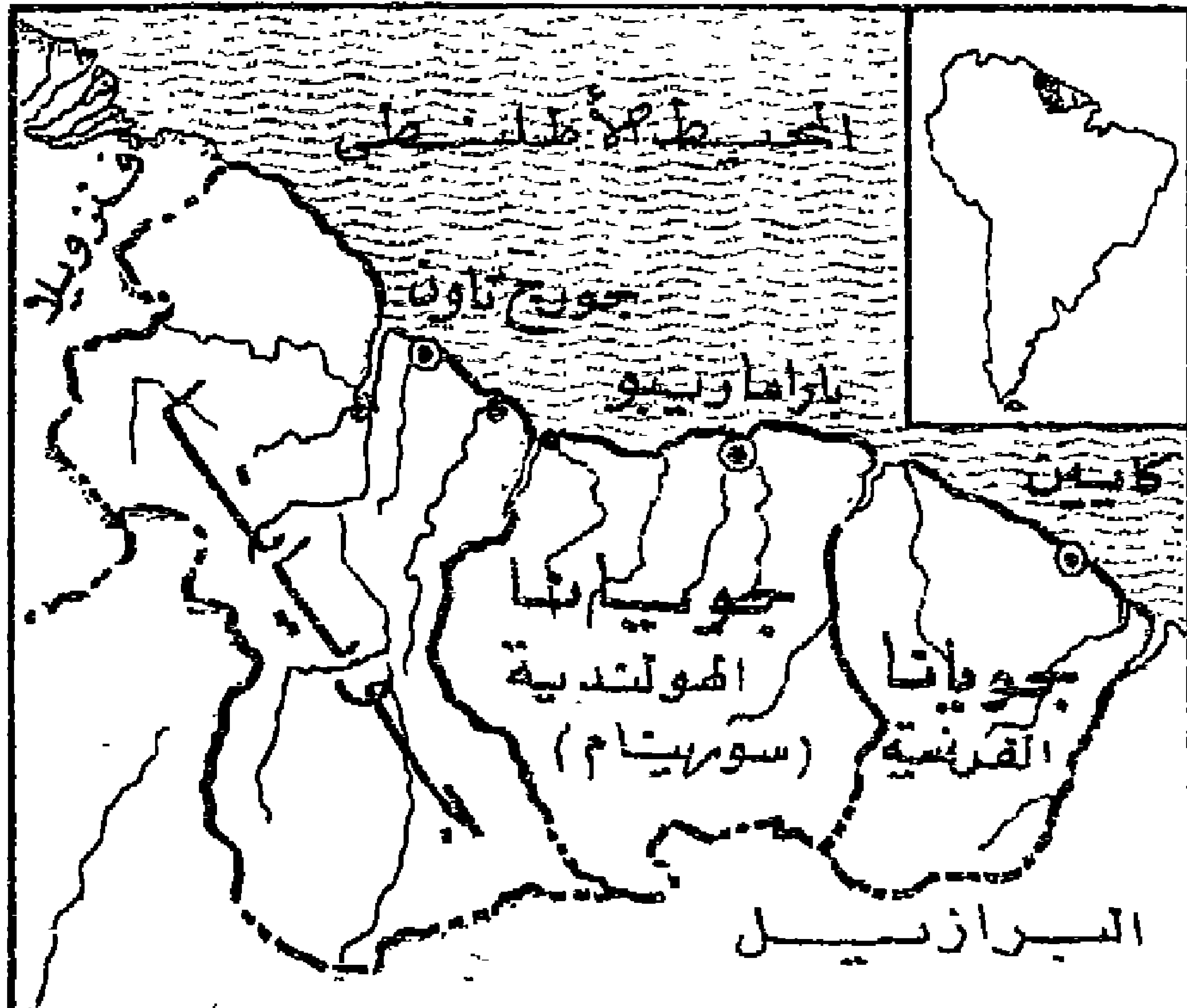
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢١ نوفبر ١٩٤٥



# جويانا GUYANA

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم السابق | : | جيانا البريطانية | British Guiana |
| الاسم الرسمى | : | | Cooperative Republic Guyana |
| نظام الحكم | : | نالت استقلالها فى ٢٦ مايو ١٩٦٦ | |
| المساحة | : | ٢١٤ ٩٦٩ كيلومترا مربعاً | |
| عدد السكان | : | ٧٥٠ ٠٠٠ نسمة | |
| كثافة السكان | : | ٤ نسمة فى الكيلومتر المربع | |
| العاصمة | : | جورج تاون | Georgetown |
| السكان | : | ٢٠٠ ٠٠٠ نسمة | |
| موقع العاصمة | : | ٤٦َ ٦ْ شمالاً . و ١٠َ ٥٨ْ غرباً | |
| العملة | : | دولار جويانا | Guyana Dollar |

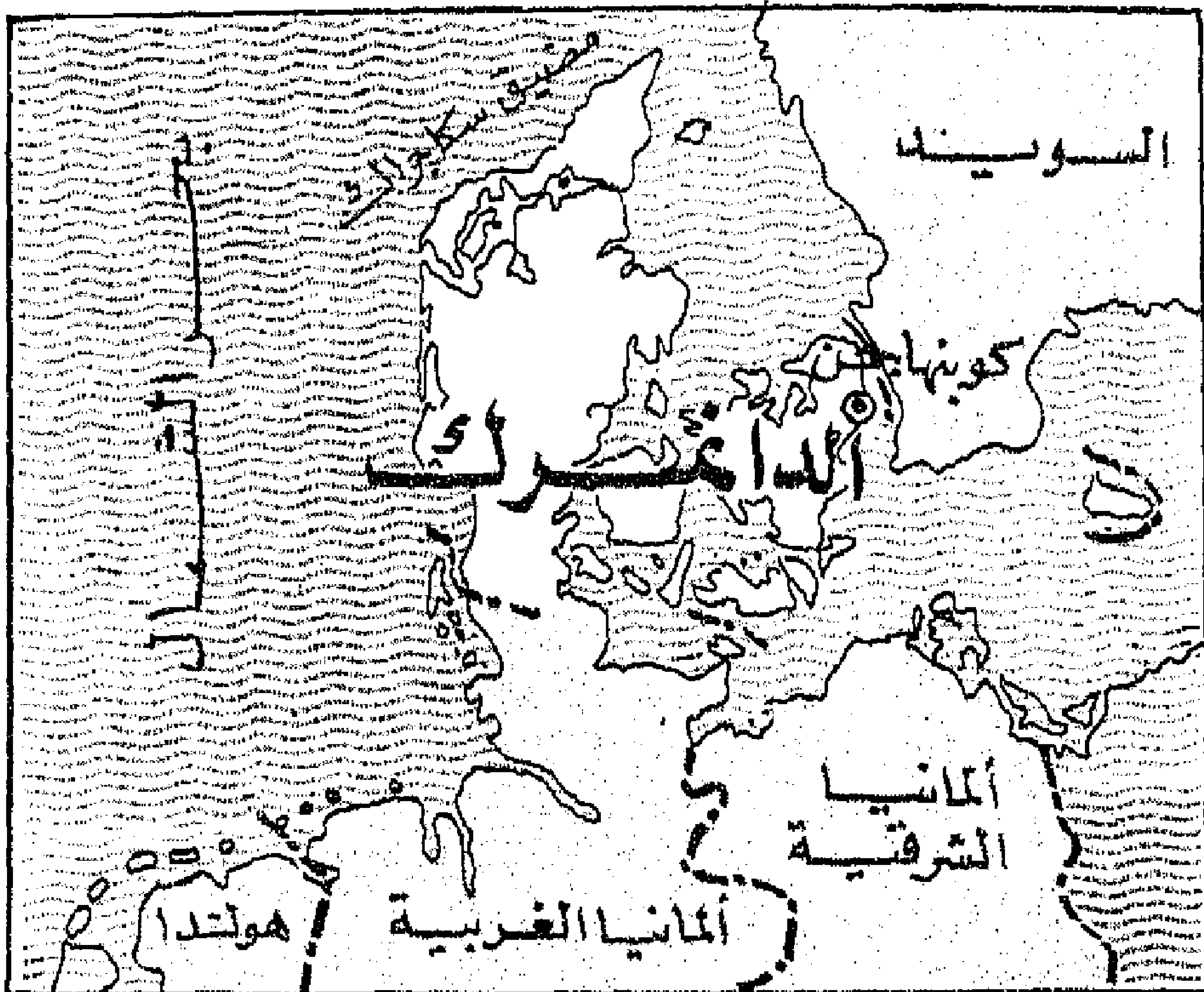
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢١ سبتمبر ١٩٦٦



## الدانمرك — *DENMARK*

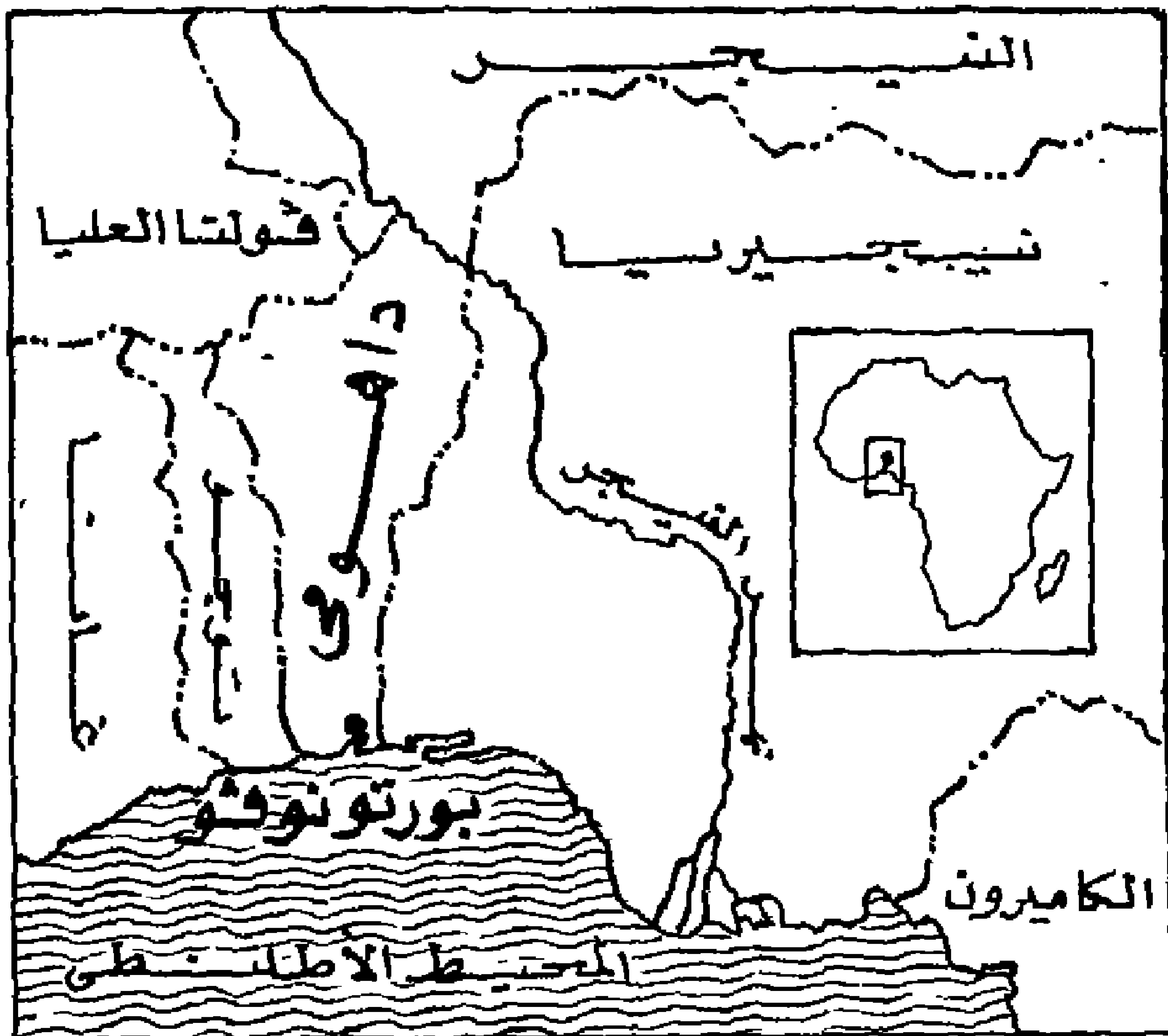
| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | | *Kongeriget Danmark* |
| نظام الحكم | : | ملكى | |
| المساحة | : | ٤٣٠٦٩ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٤٩٠٠٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ١١٤ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | كوبنهاجن | *Copenhagen* |
| السكان | : | ١٤٠٠٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٤٣َ ٥٥ْ شمالاً ، و ٣٤َ ١٢ْ شرقاً | |
| العملة | : | كرونر | *Kroner* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥



## داهومى DAHOMEY

الاسم السابق : افريقية الغربية الفرنسية
الاسم الرسمى : *République du Dahomey*
نظام الحكم : جمهورى
المساحة : ١١٢٦٢٢ كيلومتراً مربعاً
عدد السكان : ٢٨٠٠٠٠٠ نسمة
كثافة السكان : ٢٥ نسمة فى الكيلومتر المربع
العاصمة : بورتو نوفو *Porto-Novo*
السكان : ٩٠٠٠٠ نسمة
موقع العاصمة : ٣٠َ ٦ْ شمالاً ، و ٤٧َ ٢ْ شرقاً
العملة : فرنك *Franc*
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٠ سبتمبر ١٩٦٠

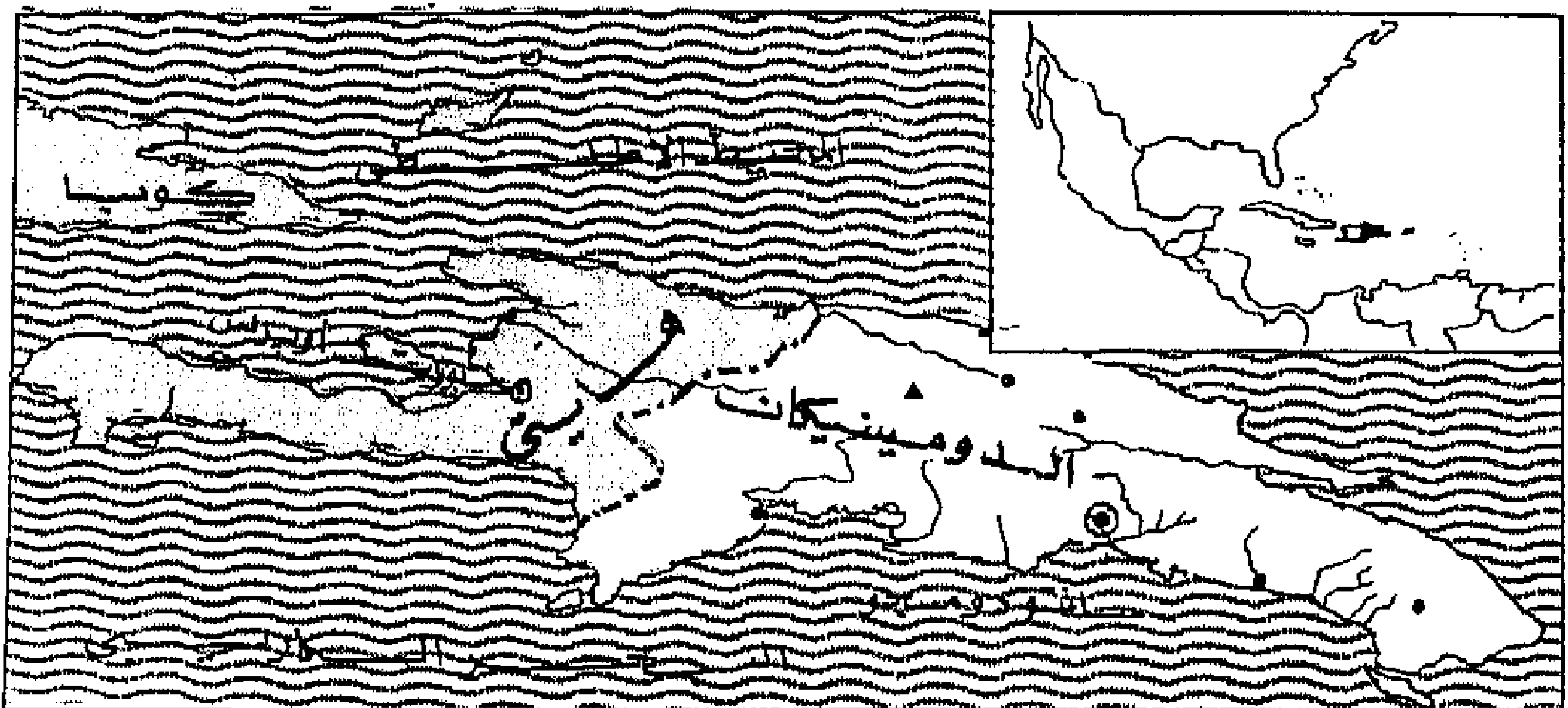


# الدومينيكان

DOMINICAN

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | | *Republica Dominicana* |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ٤٨ ٧٣٤ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٤ ٣٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٨٨ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | سانتو دومنجو | *Santo Domingo* |
| السكان | : | ٧٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٣٠َ ١٨° شمالاً ، و٥٧٫٥َ ٦٩° غرباً | |
| العملة | : | بيزو | *Peso* |

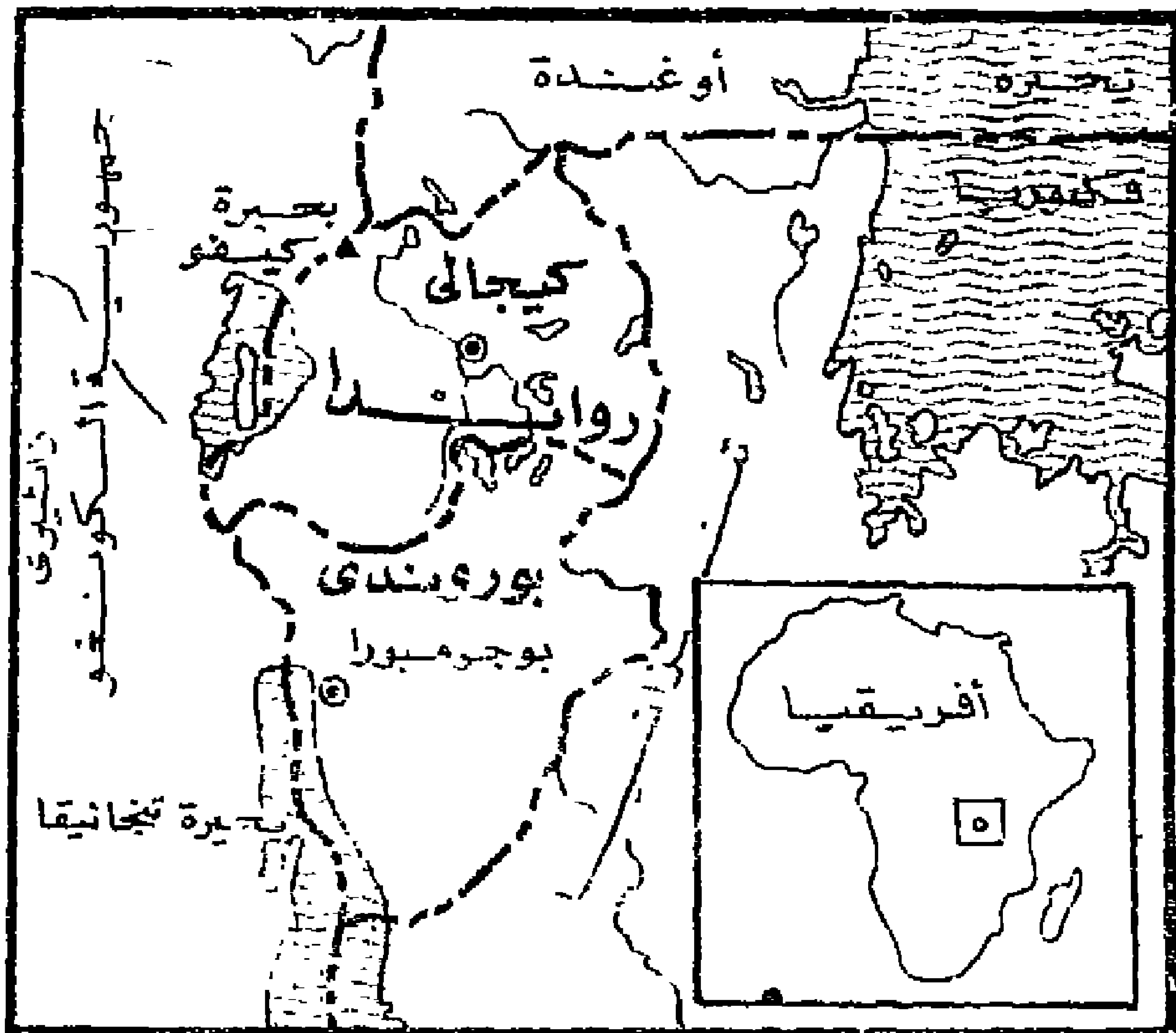
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥



# رواندا RWANDA

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | | *République Rwandaise* |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ٢٦ ٣٣٨ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٣ ٧٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ١٤٠ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | كيجالى | *Kigali* |
| السكان | : | ٢٠ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٥٩َ ١ْ جنوباً ، و ٠٥َ ٣٠ْ شرقاً | |
| العملة | : | فرنك | *Franc* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٨ سبتمبر ١٩٦٢



## روسيا البيضاء BYELORUSSIAN SSR

| | | |
|---|---|---|
| نظام الحكم | : | من جمهوريات الاتحاد السوفيتى |
| المساحة | : | ٢٠٨٠٠٠ كيلومتر مربع |
| عدد السكان | : | ٩٢٠٠٠٠٠ نسمة |
| كثافة السكان | : | ٤٤ نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | مينسك *Minsk* |
| السكان | : | ١٠٠٠٠٠٠ نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٥٢َ ٥٣ْ شمالاً ، و ٣٠َ ٢٧ْ شرقاً |
| العملة | : | روبل *Ruble* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥



## رومانيا — ROMANIA

الاسم الرسمى : *Republica Socialista Romania*

نظام الحكم : جمهورى اشتراكى

المساحة : ٢٣٧ ٥٠٠ كيلومتر مربع

عدد السكان : ٢٠ ٧٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٨٧ نسمة فى الكيلومتر المربع

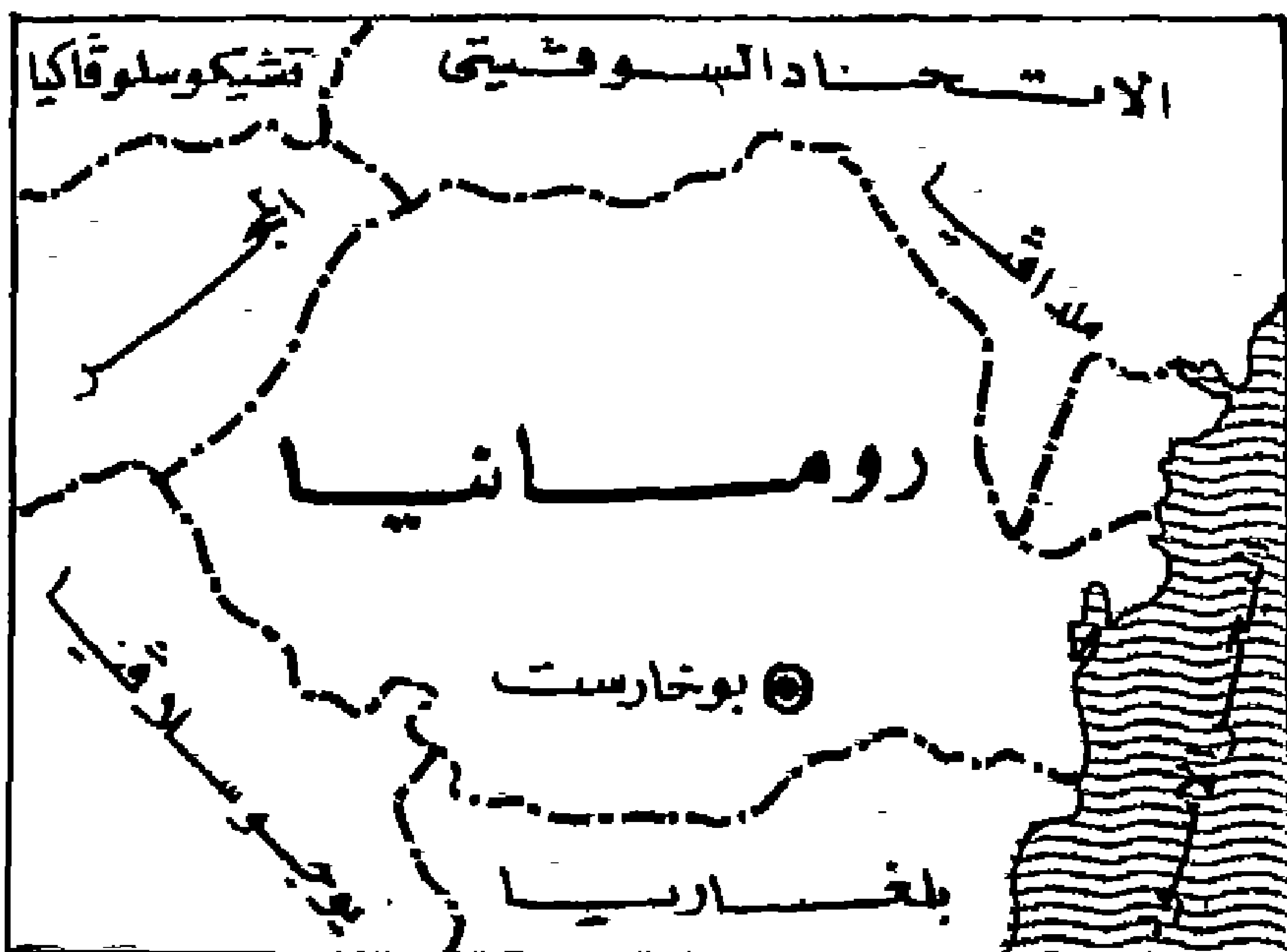
العاصمة : بوخارست *Bucharest*

السكان : ١ ٧٠٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٢٥َ ٤٤° شمالاً ، و ٠٦َ ٢٦° شرقاً

العملة : ليو *Leu*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٤ ديسمبر ١٩٥٥



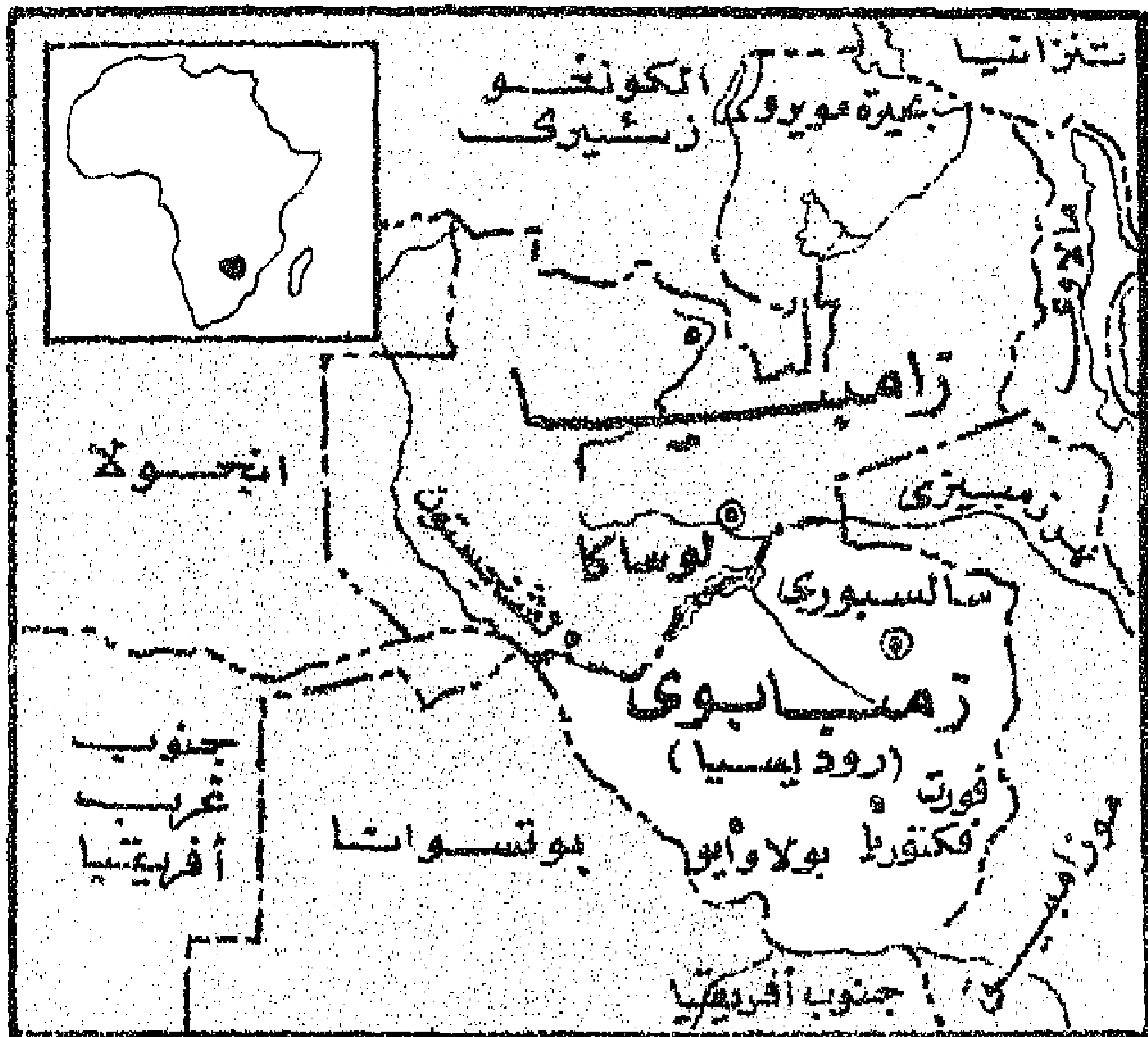
## زامبيا — *ZAMBIA*

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم السابق | : | روديسيا الشمالية | |
| الاسم الرسمى | : | | *Republic of Zambia* |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ٧٥٢ ٦١٤ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٤ ٦٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٦ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | لوساكا | *Lusaka* |
| السكان | : | ٢٥٠ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٢٦َ ١٥ْ جنوباً ، و ٢٠َ ٢٨ْ شرقاً | |
| العُملة | : | الجنيه | *Pound* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١ ديسمبر ١٩٦٤

## زمبابوى *ZIMBABWE*

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم السابق | : | جمهورية روديسيا | |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ٣٨٩ ٣٦١ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٥ ٦٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ١٤ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | سالسبورى | *Salisbury* |
| السكان | : | ٤٥٠ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٤٣َ ١٧ْ جنوباً ، و ٠٥َ ٣١ْ شرقاً | |



# ساحل العاج — *IVORY COAST*

الاسم الرسمى : *Republic of Ivory Coast*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ٣٢٢٦٤٣ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٤٥٠٠٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١٤ نسمة فى الكيلومتر المربع

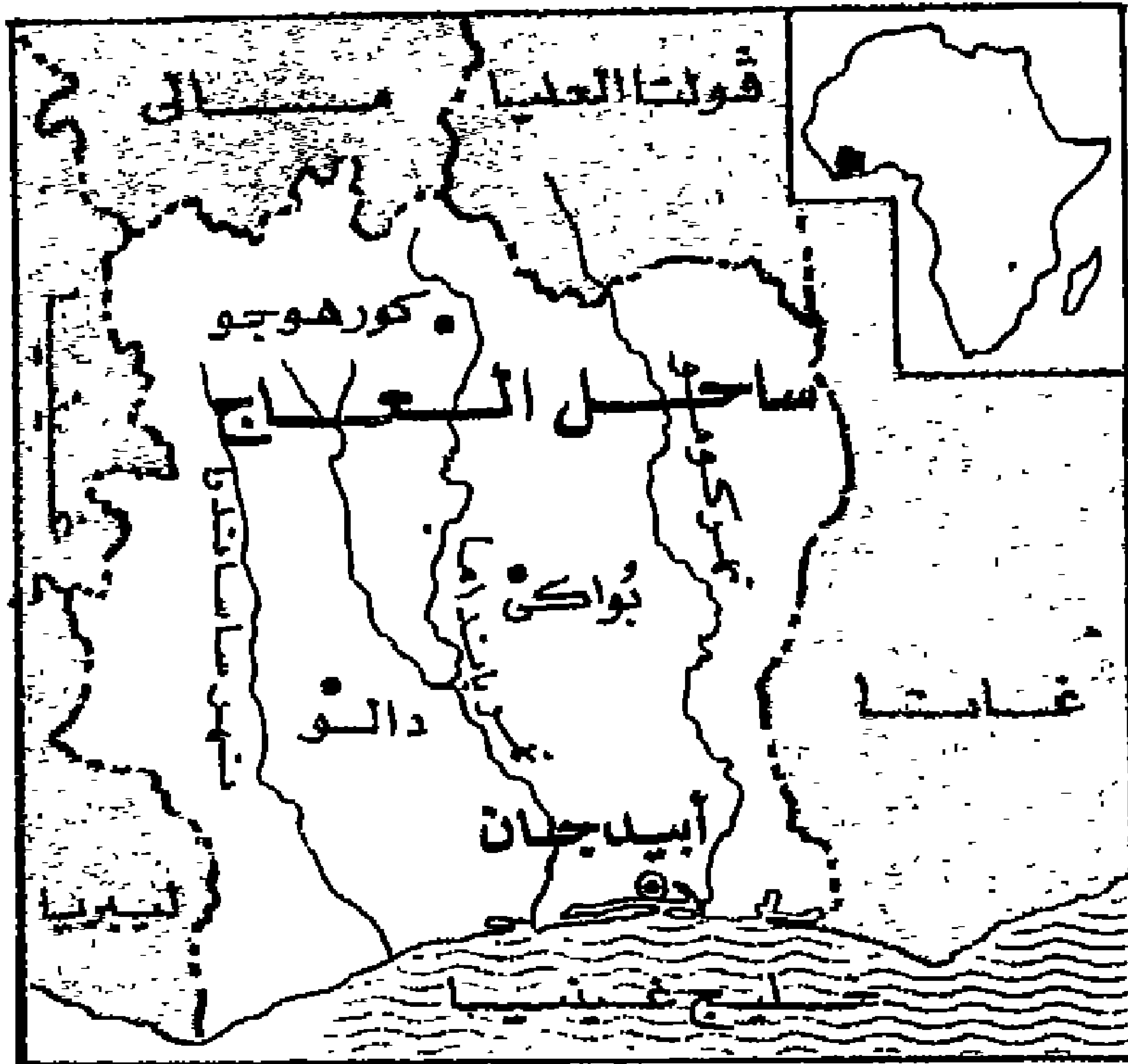
العاصمة : أبيدجان *Abidjan*

السكان : ٥٠٠٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ١٩َ ٥ْ شمالاً ، و ٠١َ ٤ْ غرباً

العملة : فرنك *Franc*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٠ سبتمبر ١٩٦٠



## سلفادور

*EL SALVADOR*

الاسم الرسمى : *Republica de El Salvador*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ٢١ ٣٩٣ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٣ ٨٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١٧٨ نسمة فى الكيلومتر المربع

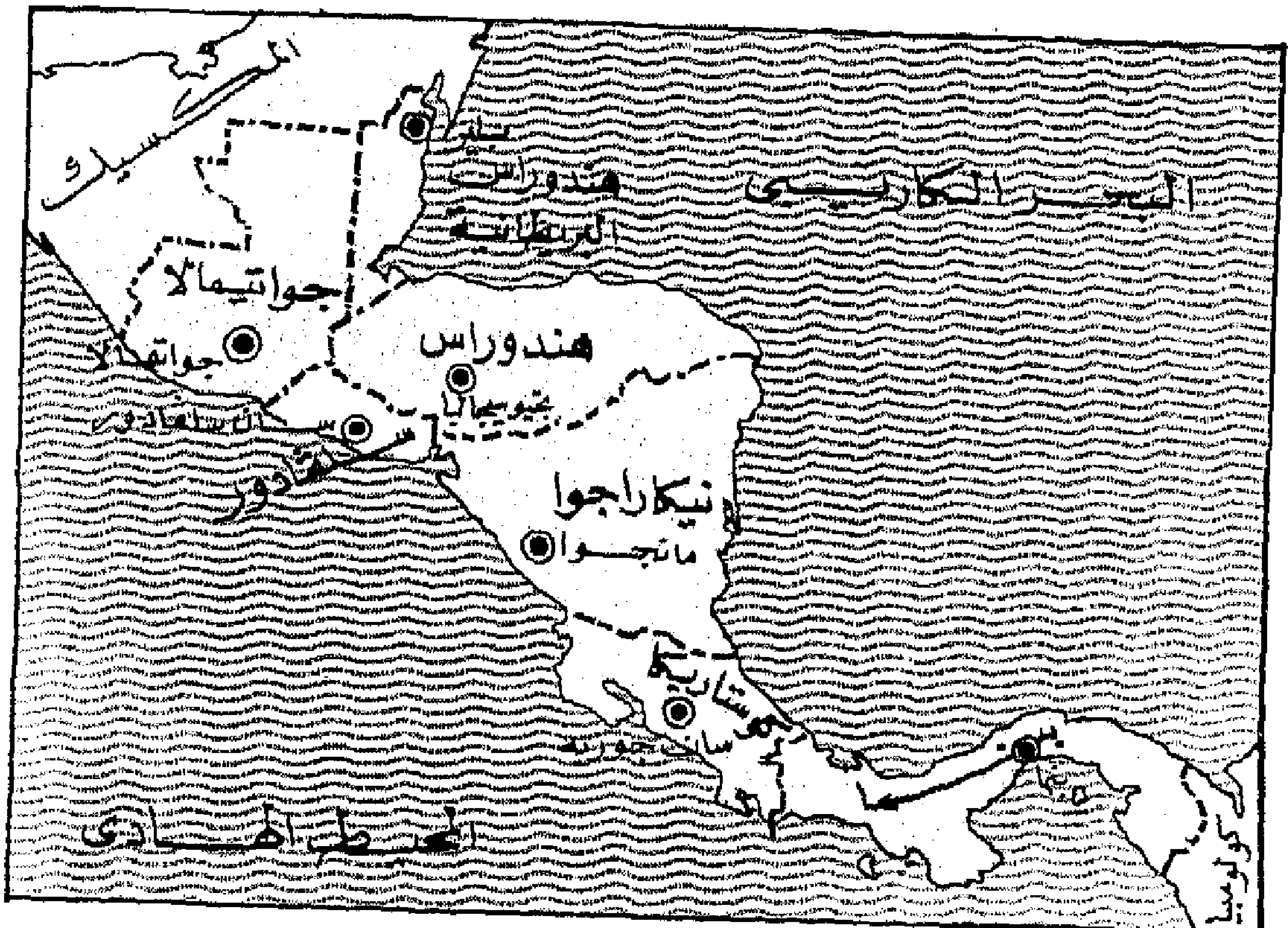
العاصمة : سان سلفادور *San Salvador*

السكان : ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٤٠َ ١٣ْ شمالاً ، و ١٠َ ٨٩ْ غرباً

العُملة : كولون *Colon*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥



## سنغافورة SINGAPORE

الاسم الرسمى : *Majulah Singapura*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ٥٨١ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٢ ٢٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٣ ٧٨٧ نسمة فى الكيلومتر المربع

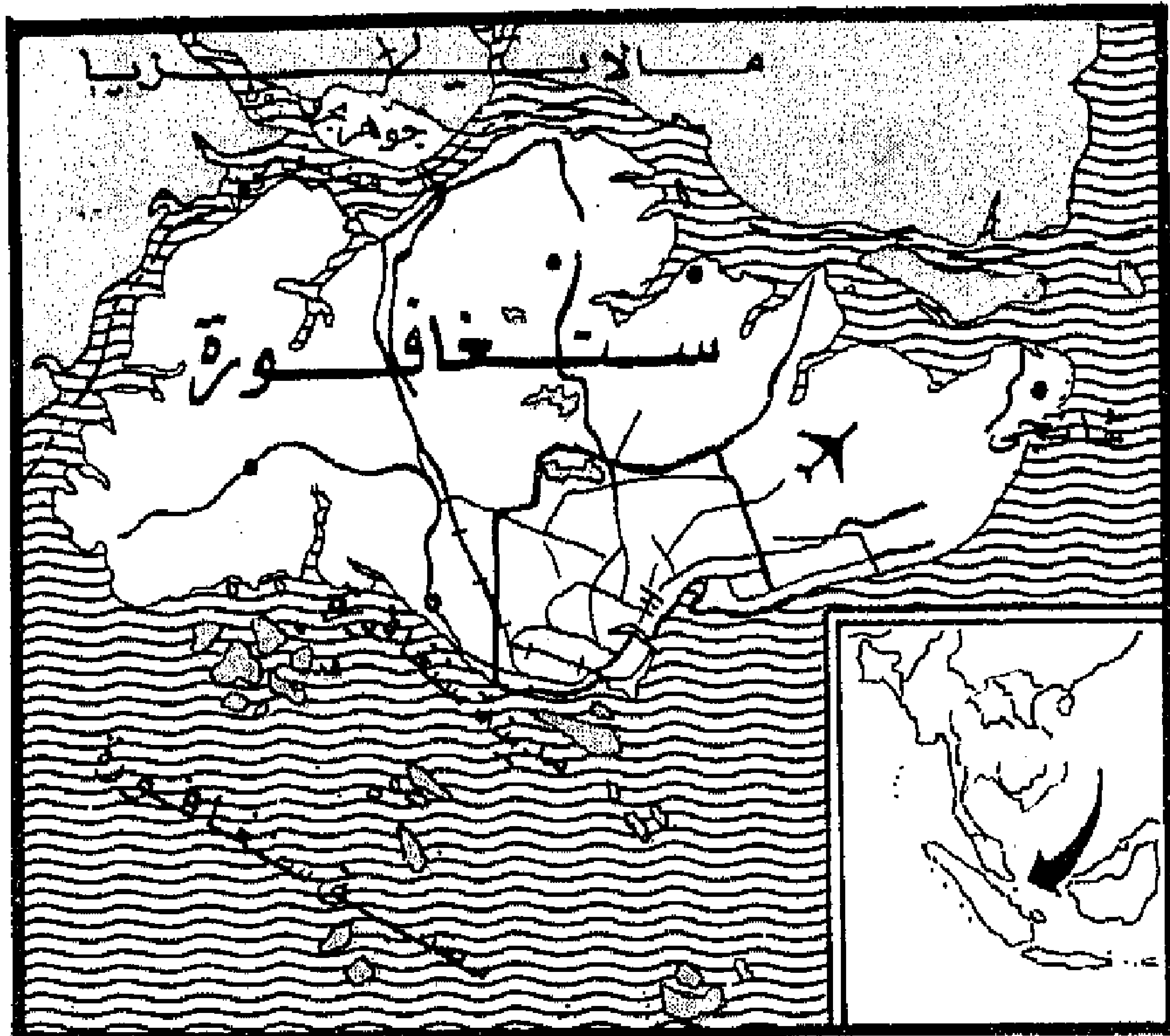
العاصمة : سنغافورة *Singapore*

السكان : ١ ٠٧٩ ٠٠٠ نسمة (١٩٦٢)

موقع العاصمة : ٢٠َ ١° شمالاً ، و ٤٥َ ١٠٣° شرقاً

العملة : الدولار الملاوى *Malayan Dollar*

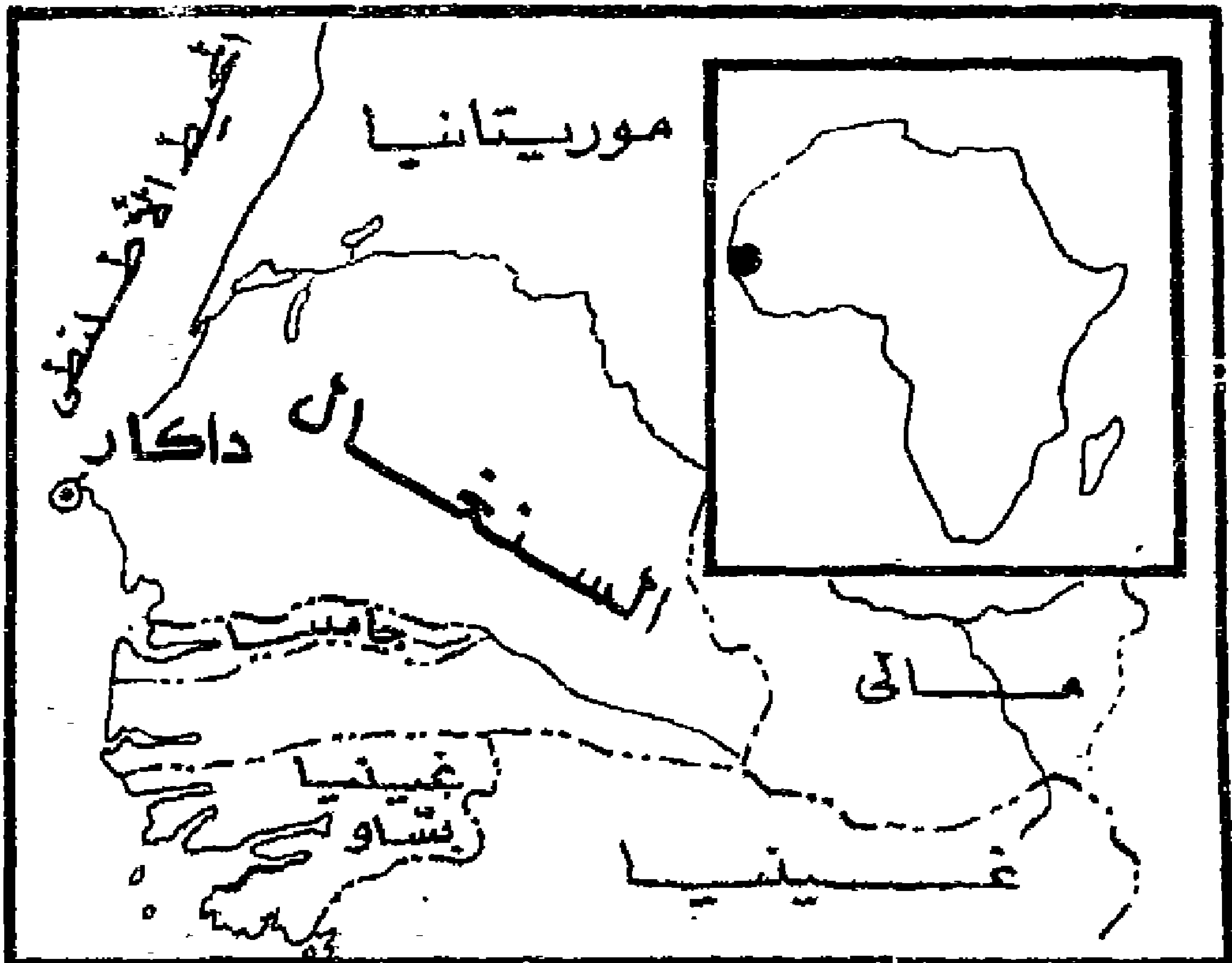
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢١ سبتمبر ١٩٦٥



## السنغال SENEGAL

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | | *République du Sénégal* |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ١٩٦ ١٩٢ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٤٠٠٠٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٢٠ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | دكار | *Dakar* |
| السكان | : | ٦٠٠٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٣٨َ ١٤ْ شمالاً ، و ٢٧َ ١٧ْ غرباً | |
| العُملة | : | فرنك | *Frank* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦٠



## سوازيلاند *SWAZILAND*

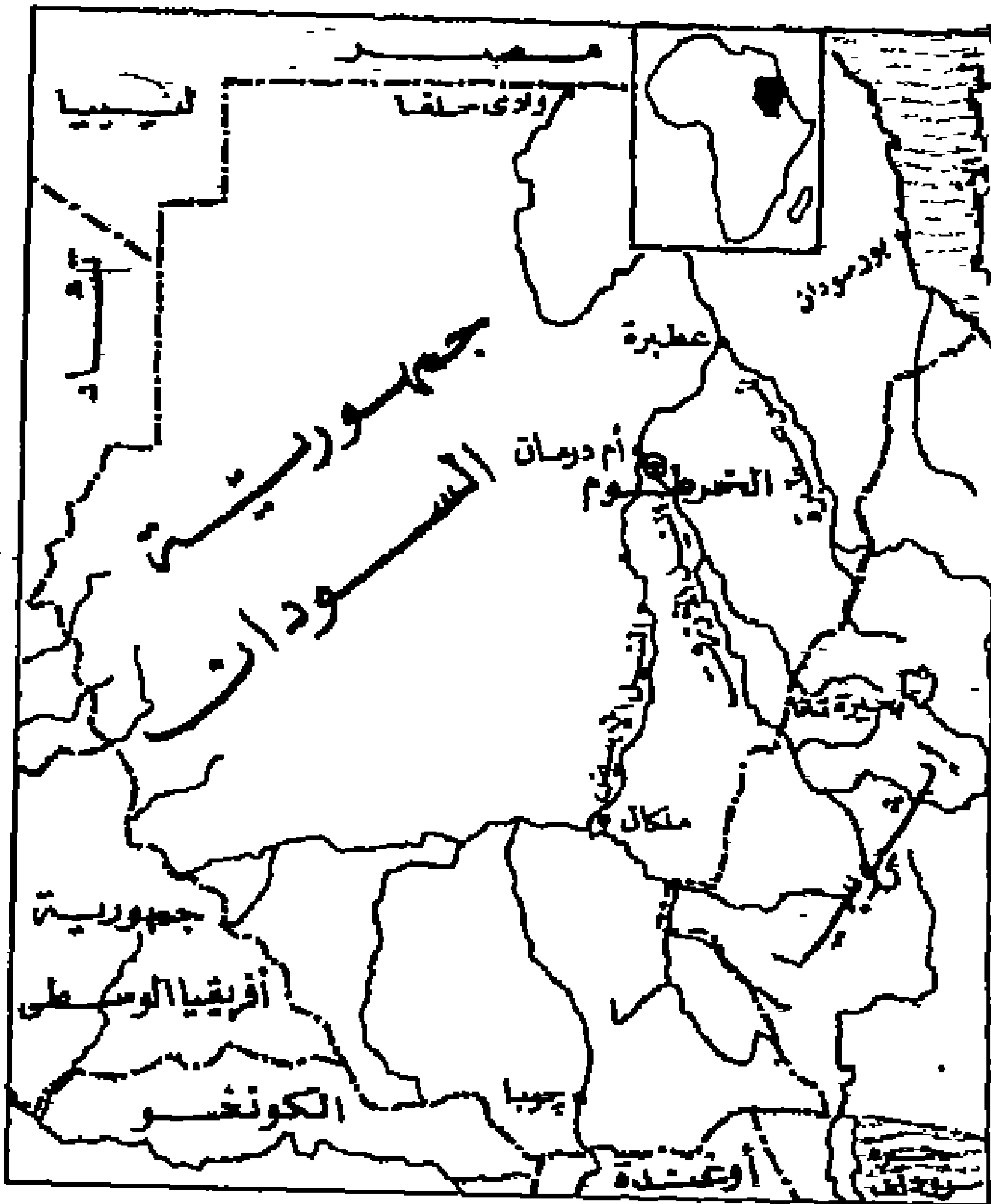
الاسم الوطنى : نجوانى *Ngwane*
نظام الحكم : ملكى
المساحة : ١٧٣٦٣ كيلومترا مربعا
عدد السكان : ٤٢٠٠٠٠ نسمة
كثافة السكان : ٢٤ نسمة فى الكيلومتر المربع
العاصمة : مبابانى *M'babane*
السكان : ١٥٠٠٠ نسمة
موقع العاصمة : ١٨َ ـ ٢٦ْ جنوباً ، و ٠٦َ ٣١ْ شرقاً
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ سبتمبر ١٩٦٨



## السودان
*SUDAN*

| | | |
|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | جمهورية السودان الديمقراطية |
| نظام الحكم | : | جمهورى |
| المساحة | : | ٢٥٠٥٨١٣ كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ١٦٦٠٠٠٠٠ نسمة |
| كثافة السكان | : | ٧ نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | الخرطوم *Khartoum* |
| السكان | : | ٣٠٠٠٠٠ نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٣٣َ ١٥ْ شمالاً ، و ٣٥َ ٣٢ْ شرقاً |
| العملة | : | الجنيه السودانى |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٢ نوفمبر ١٩٥٦



# سوريا *SYRIA*

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | الجمهورية العربية السورية | |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ١٨٥ ١٨٠ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٦٨٠٠٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٣٧ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | دمشق | *Damascus* |
| السكان | : | ٩٠٠٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٣٠َ ٣٣ْ شمالاً ، و ١٩.َ ٣٦ْ شرقاً | |
| العُملة | : | الليرة السورية | |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ اكتوبر ١٩٤٥

ثم ١٣ اكتوبر ١٩٦١

## السويد SWEDEN

الاسم الرسمى : *Konungariket Sverige*

نظام الحكم : ملكى

المساحة : ٤٤٩ ٧٥٠ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٨ ٢٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١٨ نسمة فى الكيلومتر المربع

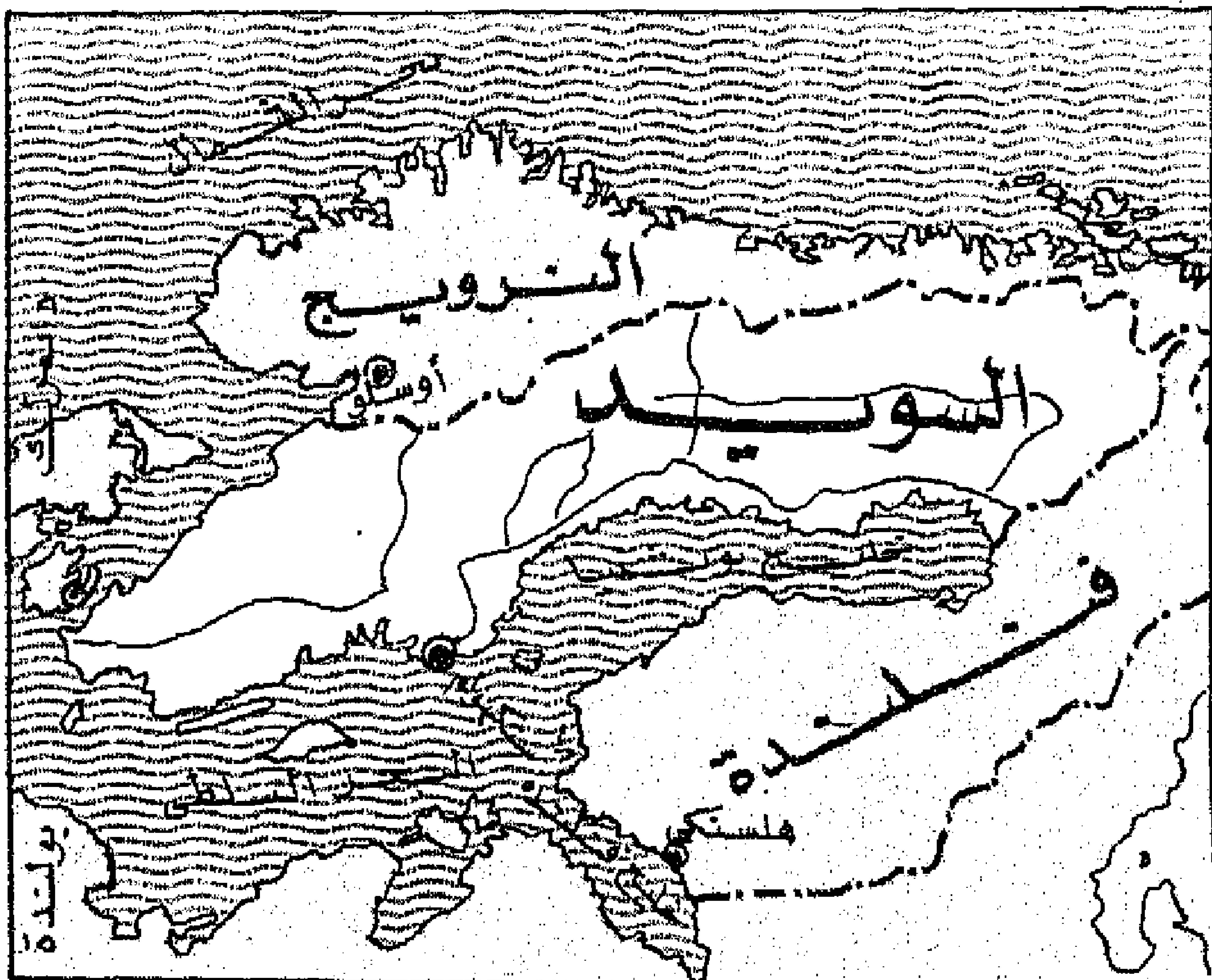
العاصمة : استوكهلم *Stockholm*

السكان : ١ ٤٠٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٢٠َ ٥٩ْ شمالاً ، و ٠٥َ ١٨ْ شرقاً

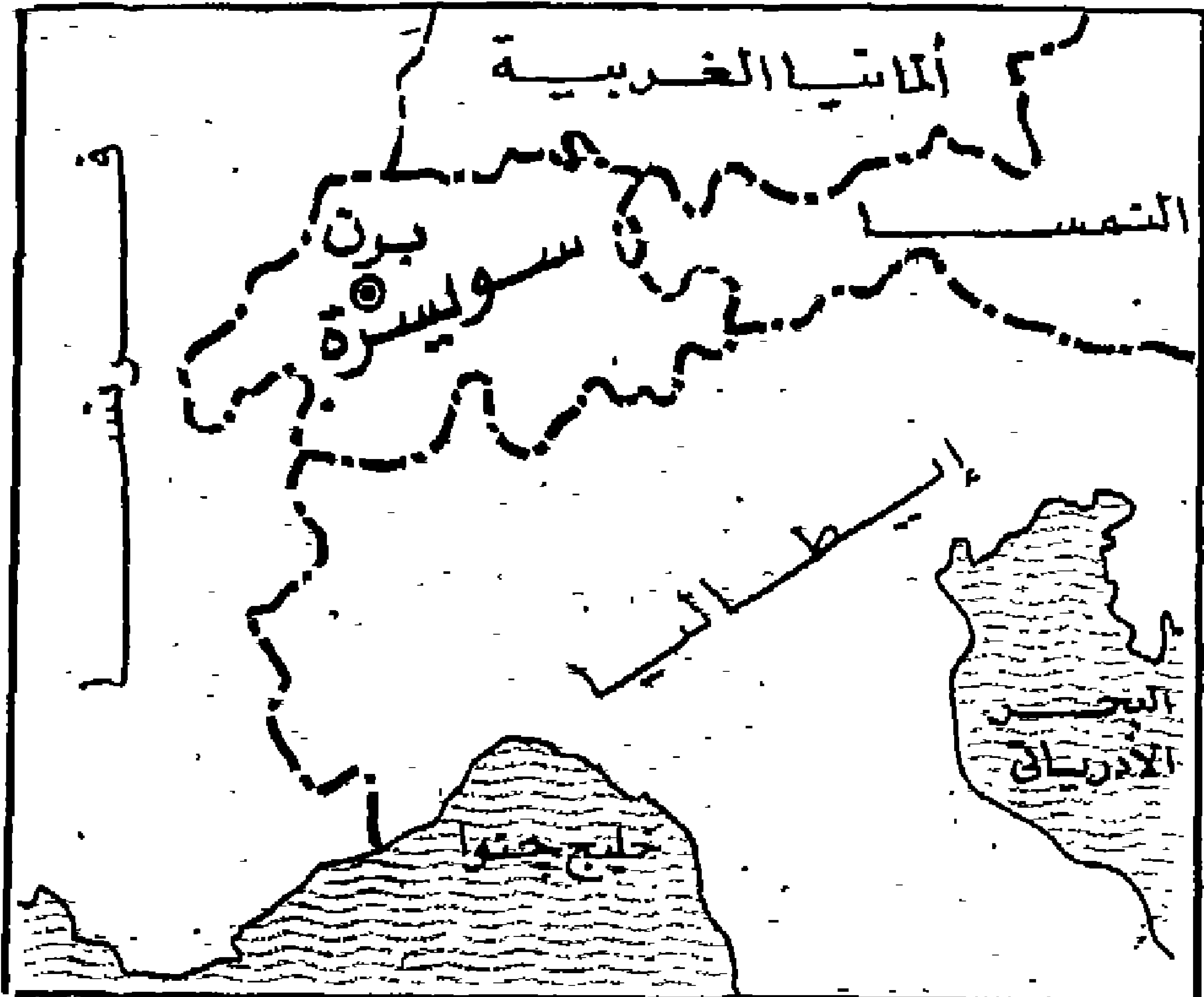
العُملة : كرونا *Krona*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٩ نوفمبر ١٩٤٦



## سويسرا SWITZERLAND

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | بالألمانية | | *Schweizerische Eidgenossenschaft, Confederatio Helvetica* |
| | | بالفرنسية | | *Suisse* |
| | | بالإيطالية | | *Svizzera* |
| | | بالرومانية | | *Svizzra* |
| نظام الحكم | : | جمهورى | | |
| المساحة | : | ٤١ ٢٨٨ | كيلومترا مربعا | |
| عدد السكان | : | ٦ ٥٠٠ ٠٠٠ | نسمة | |
| كثافة السكان | : | ١٥٨ | نسمة فى الكيلومتر المربع | |
| العاصمة | : | برن | | *Bern* |
| السكان | : | ١٦٢ ٠٠٠ | نسمة | |
| موقع العاصمة | : | ٥٧َ ٤٦ْ شمالاً ، و ٢٦َ ٧ْ شرقاً | | |
| العملة | : | الفرنك السويسرى | | *Franc* |



## سيراليون
## *SIERRA LEONE*

نظام الحكم : استقلت ١٩٦١ ، كومنولث
المساحة : ٧١ ٧٤٠ كيلومتراً مربعاً
عدد السكان : ٢ ٧٠٠ ٠٠٠ نسمة
كثافة السكان : ٣٨ نسمة فى الكيلومتر المربع
العاصمة : فريتاون *Freetown*
السكان : ٢٠٠ ٠٠٠ نسمة
موقع العاصمة : ٣٠َ ٨ْ شمالاً ، و ١٧َ ١٣ْ غرباً
العُملة : ليونى *Leone*
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٧ سبتمبر ١٩٦١

## سيلان CEYLON

الاسم الرسمى : سرى لانكا *Sri Lanka*

نظام الحكم : جمهورى ، كومنولث

المساحة : ٦٥٦١٠ كيلومترات مربعة

عدد السكان : ١٢٩٠٠٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١٩٧ نسمة فى الكيلومتر المربع

العاصمة : كولومبو *Colombo*

السكان : ٦٥٠٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٥٥َ ٦ْ شمالاً ، و ٥٢َ ٧٩ْ شرقاً

العملة : روبية *Rupee*

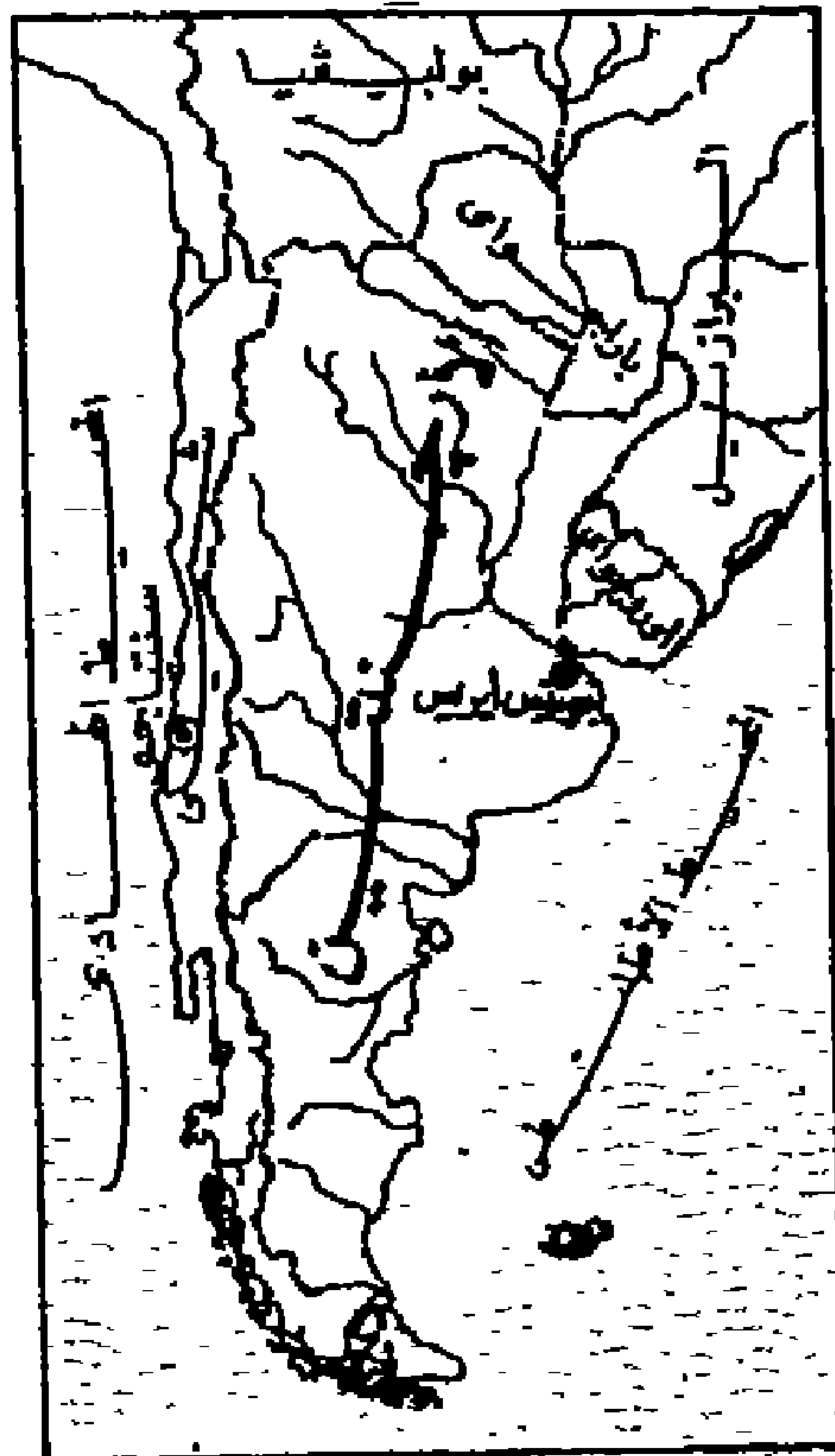
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٤ ديسمبر ١٩٥٥



## شيلى CHILE

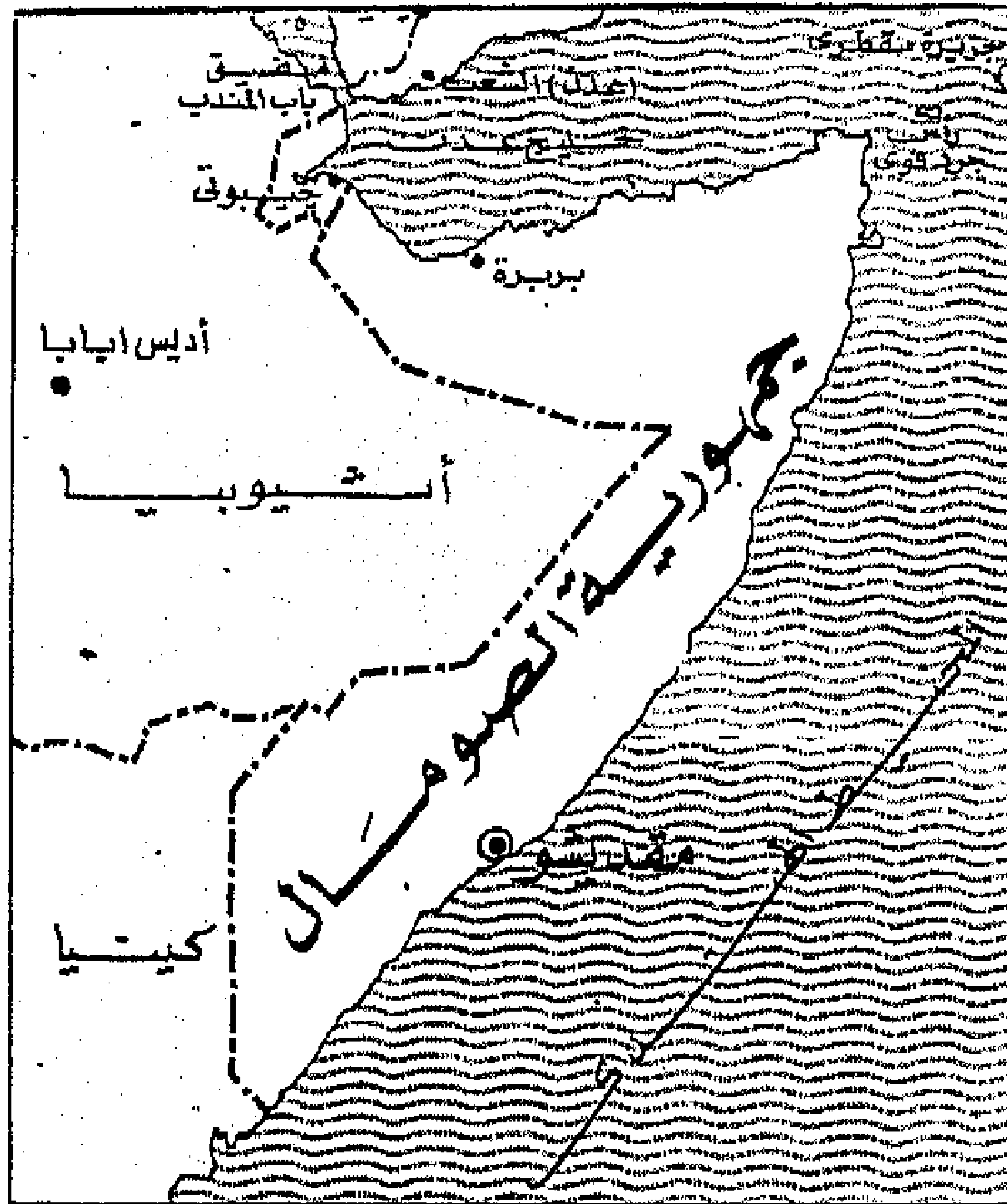
| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | | *Republica de Chile* |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ٧٥٦٩٤٥ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ١٠٠٠٠٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ١٣ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | سنتياجو | *Santiago* |
| السكان | : | ٢٨٠٠٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٣٠َ ٣٣ْ جنوباً ، و ٤٠َ ٧٠ْ غرباً | |
| العملة | : | إسكودو | *Escudo* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥



## الصومال · SOMALIA

الاسم الرسمى : الجمهورية الديمقراطية الصومالية
نظام الحكم : جمهورى
المساحة : ٦٣٧ ٦٥٧ كيلومتراً مربعاً
عدد السكان : ٣ ١٠٠ ٠٠٠ نسمة
كثافة السكان : ٥ نسمة فى الكيلومتر المربع
العاصمة : مقديشيو *Mogadishu*
السكان : ٢٠٠ ٠٠٠ نسمة
موقع العاصمة : ٠٢َ ٢ْ شمالاً ، و ٢١َ ٤٥ْ شرقاً
العُملة : الشلن الصومالى *Somali Shilling*
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٠ سبتمبر ١٩٦٠



## الصين — *CHINA*

الاسم الرسمى : جمهورية الصين الشعبية *Chung-Hua Jen-Min Kung-Ho Kuo*

نظام الحكم : جمهورية شعبية

المساحة : ٩٥٦١٠٠٠ كيلومتر مربع

عدد السكان : ٨٥٠٠٠٠٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٨٩ نسمة فى الكيلومتر المربع

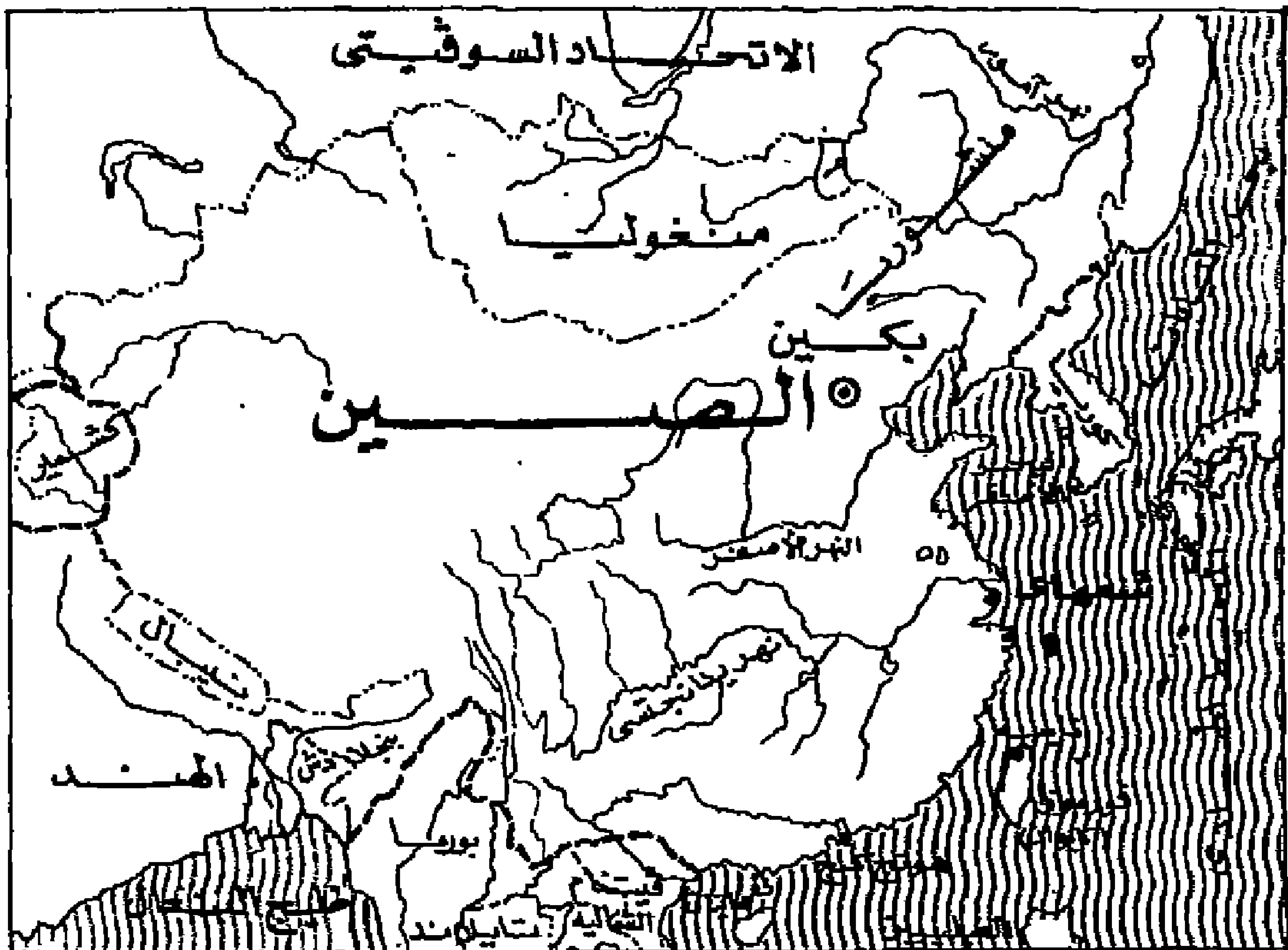
العاصمة : بكين *Peking*

السكان : ٨٠٠٠٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٥٥َ ٣٩ْ شمالاً ، و ٢٥َ ١١٦ْ شرقاً

العملة : يوان *Yuan*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٥ أكتوبر ١٩٧١



## العراق — *IRAQ*

الاسم الرسمى : الجمهورية العراقية الديموقراطية الشعبية

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ٤٣٤ ٧٢٤ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ١٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٢٣ نسمة فى الكيلومتر المربع

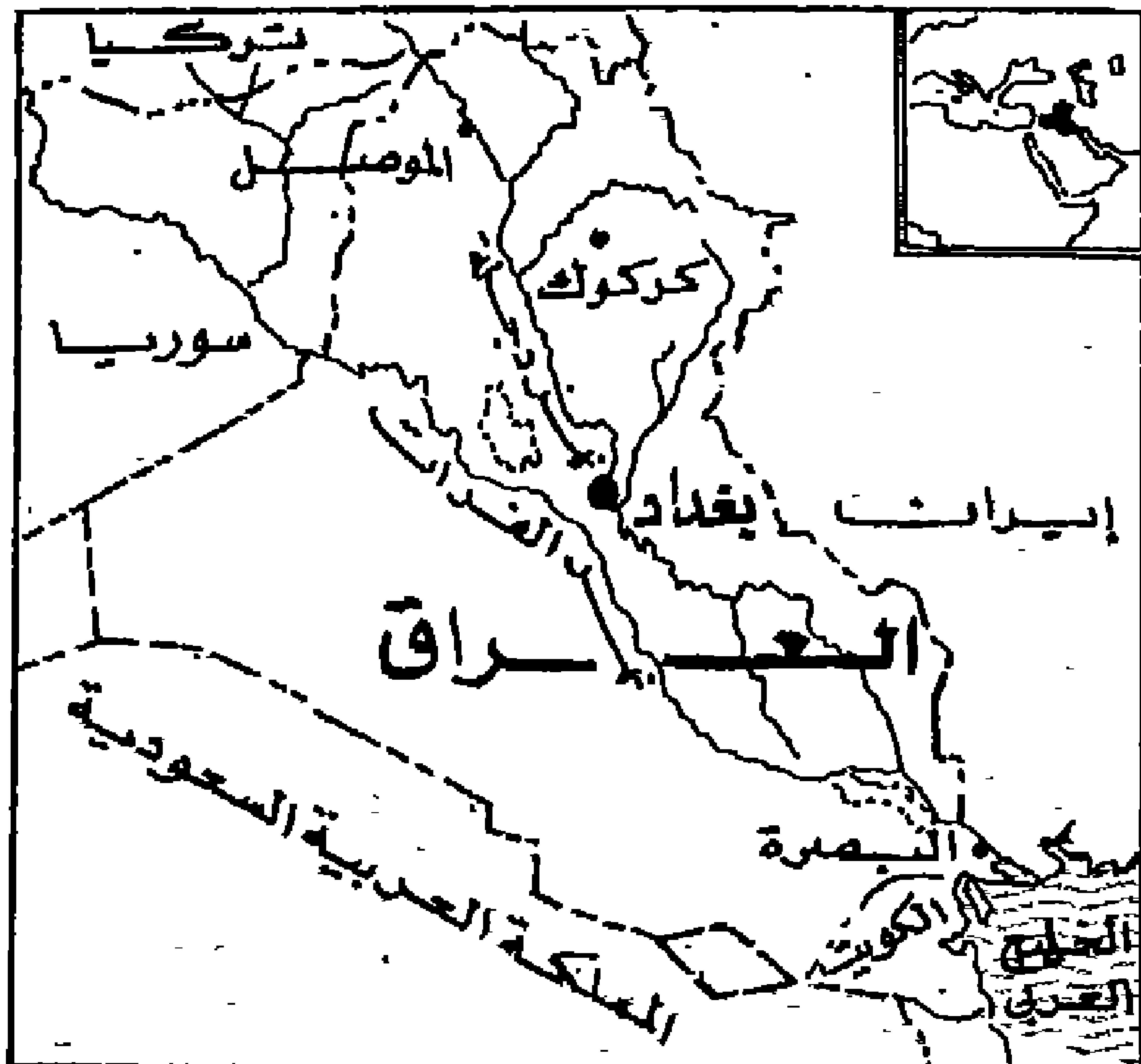
العاصمة : بغداد *Baghdad*

السكان : ٢ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٢٠َ ٣٣ْ شمالاً ، و ٢٦َ ٤٤ْ شرقاً

العملة : دينار

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢١ ديسمبر ١٩٥٥



## العربية السعودية — *SAUDI ARABIA*

الاسم الرسمى : المملكة العربية السعودية

نظام الحكم : ملكى

المساحة : ٢ ١٤٩ ٦٩٠ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٧ ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٣,٥ نسمة فى الكيلومتر المربع

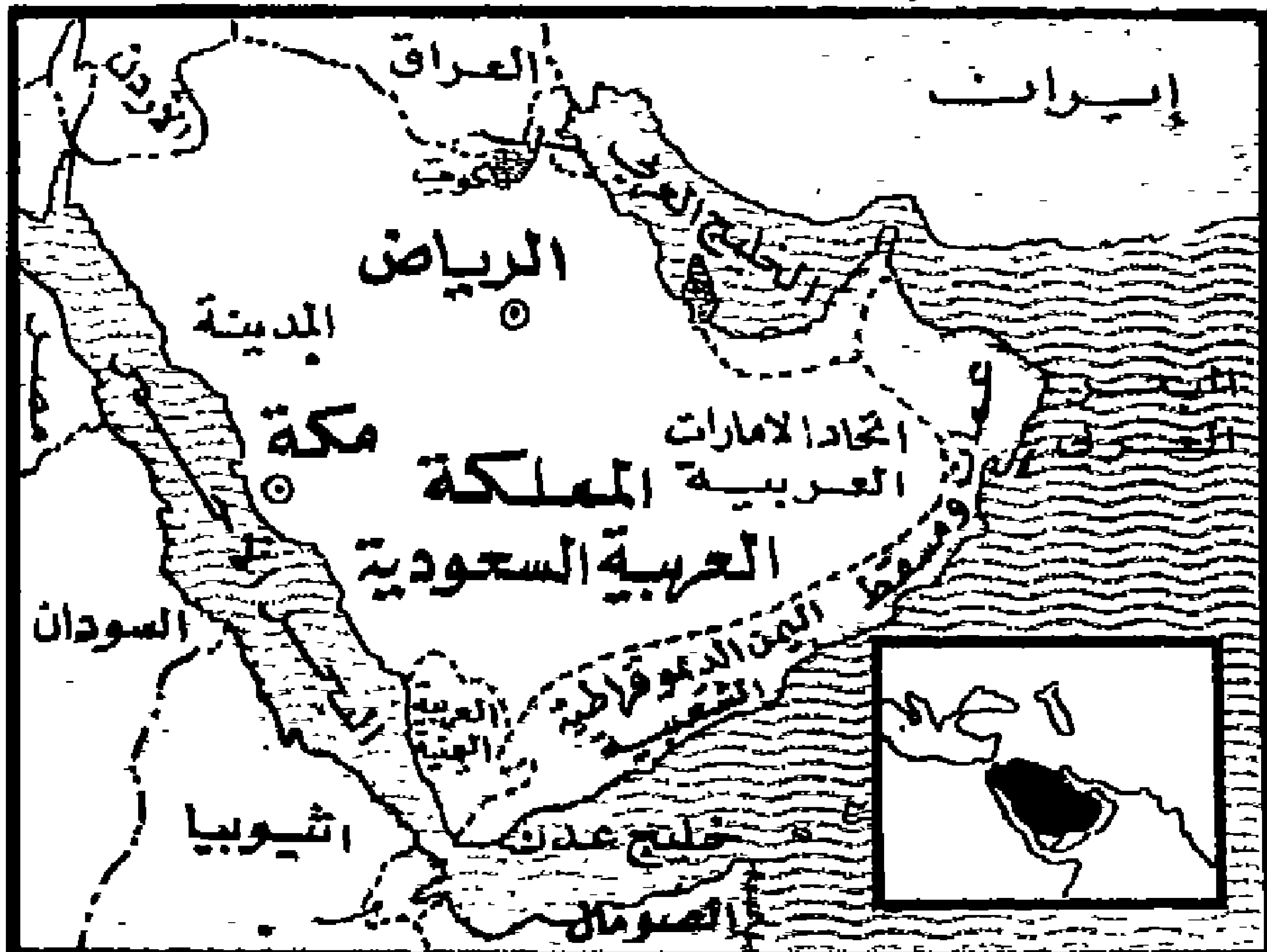
العاصمة : الرياض *Riadh*

السكان : ٣٠٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٣٩َ ٢٤ْ شمالاً ، و ٤٤َ ٤٦ْ شرقاً

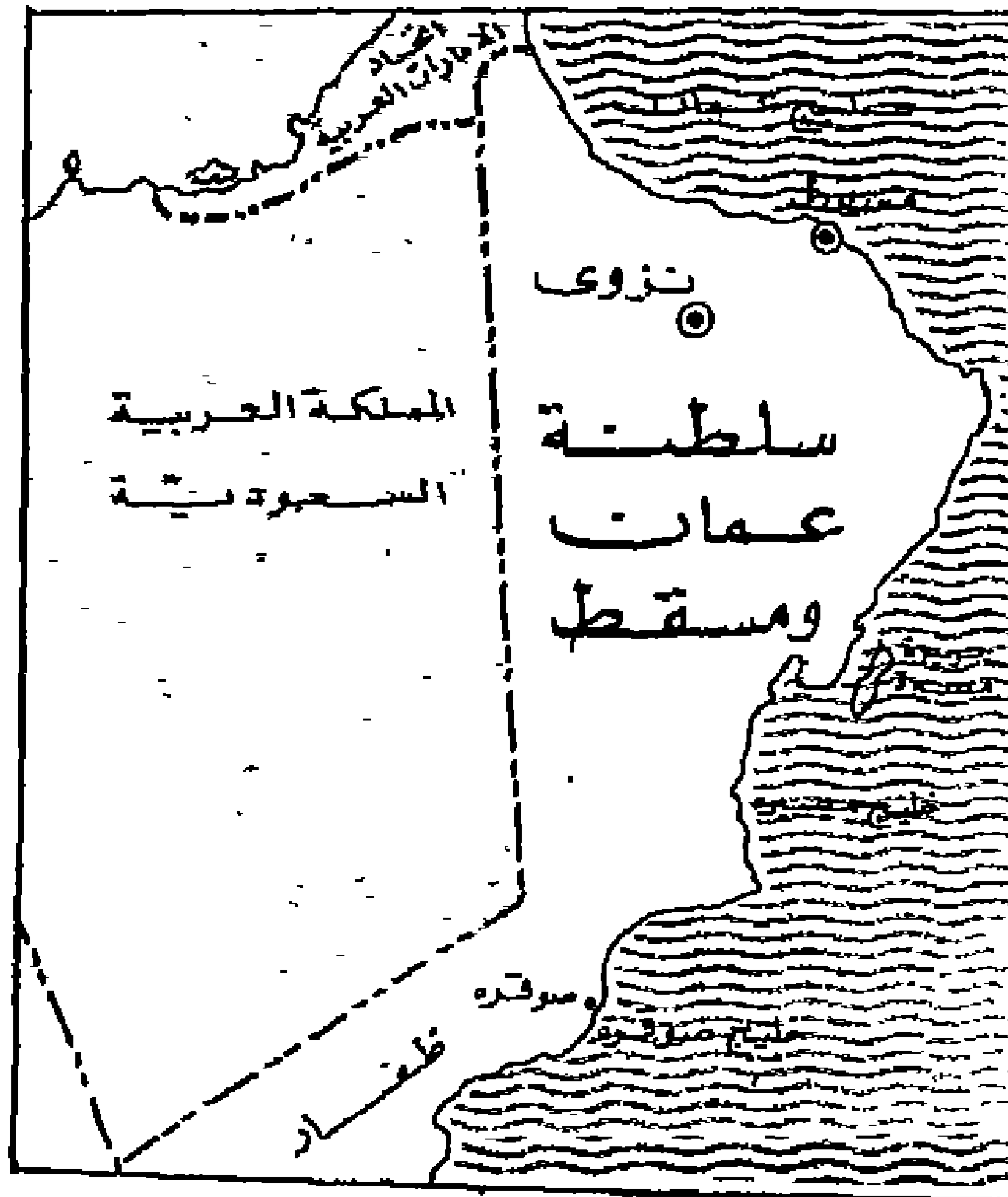
العملة : الريال السعودى *Riyal*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ اكتوبر ١٩٤٥



## عُمان — *OMAN*

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم السابق | : | مسقط وعمان | |
| الاسم الرسمى | : | سلطنة عمان | |
| نظام الحكم | : | سلطنة | |
| المساحة | : | ٢١٢ ٤٠٠ | كيلومتر مربع |
| عدد السكان | : | ٧٥٠ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٣,٦ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | مسقط | *Muscat* |
| السكان | : | ٧ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٣٦َ ٢٣ْ شمالاً ، و ٣٧َ ٥٨ْ شرقاً | |
| العُملة | : | الروبية الهندية | *Indian Rupee* |



## غانا *GHANA*

الاسم السابق : ساحل الذهب *Gold Coast*

الاسم الرسمى : *Republic of Ghana*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ٢٣٨ ٥٣٧ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٩ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٣٨ نسمة فى الكيلومتر المربع

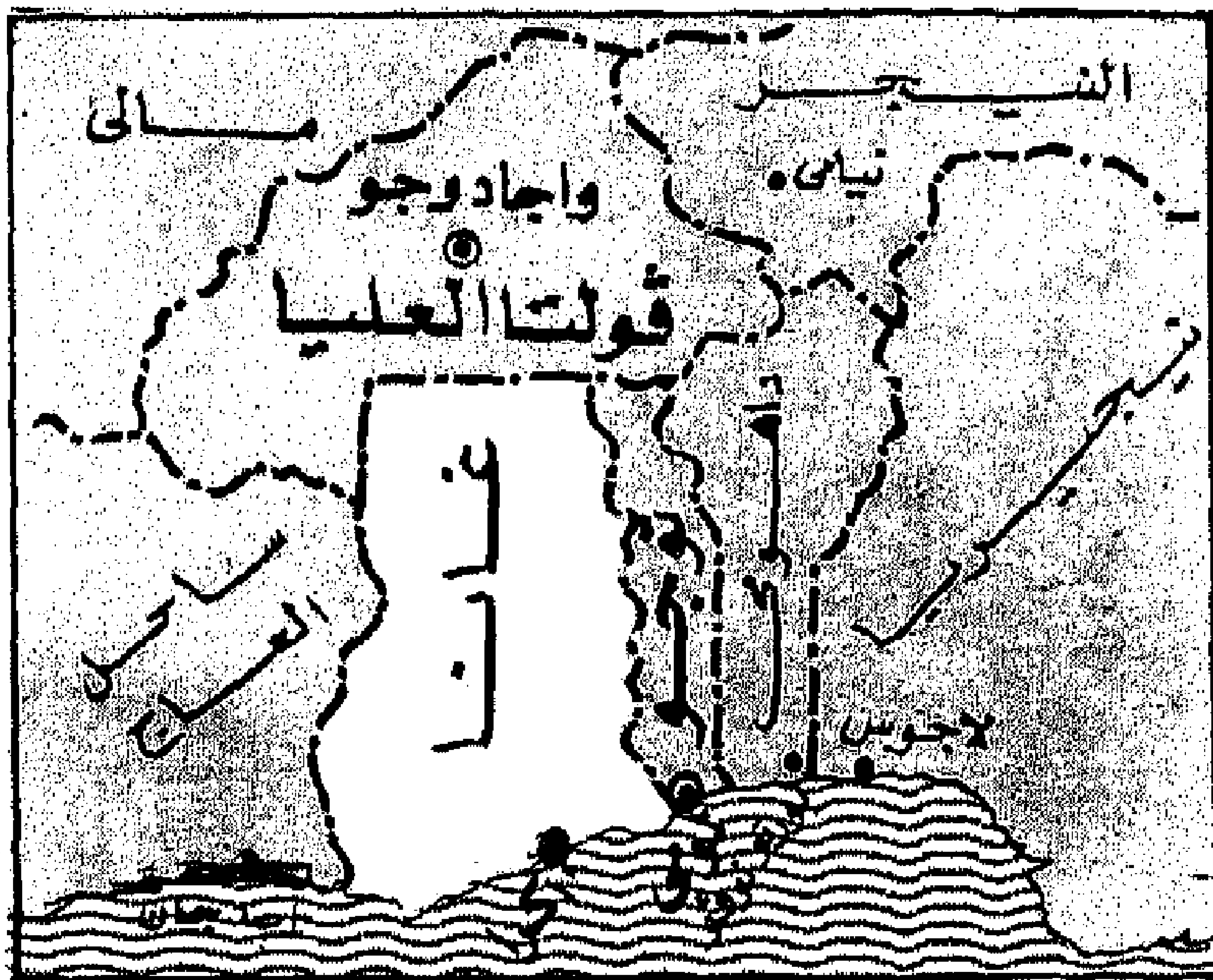
العاصمة : أكرا *Accra*

السكان : ٨٠٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٣٣َ ٥ْ شمالاً ، و ١٥َ صفرْ غرباً

العملة : الجنيه *Pound*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٨ مارس ١٩٥٧



## غينيا GUINEA

الاسم الرسمى : *République de Guinée*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ٢٤٥ ٨٥٧ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٤ ٢٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١٧ نسمة فى الكيلومتر المربع

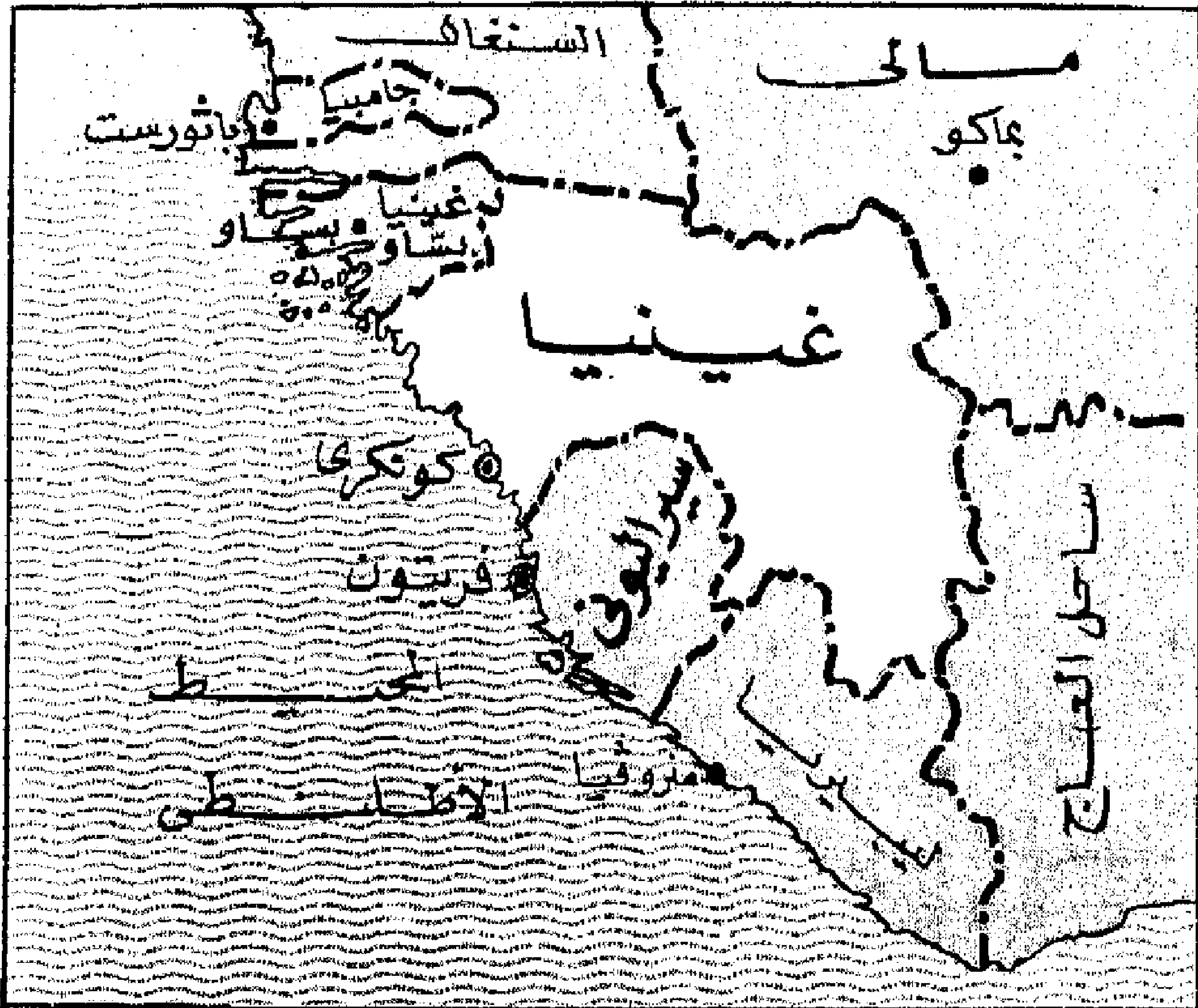
العاصمة : كوناكرى *Conakry*

السكان : ٢٥٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٣٠َ ٩ْ شمالاً ، و ٤٣َ ١٣ْ غرباً

العملة : الفرنك الغينى *Guinea Franc*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٢ ديسمبر ١٩٥٨



## غينيا الاستوائية — EQUATORIAL GUINEA

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم السابق | : | غينيا الإسبانية | |
| الاسم الرسمى | : | | *Republica de Guinea Ecutorial* |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ٢٨٠٥١ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٣٠٠٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ١١ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | سانتا إيزابل | *Santa Isabel* |
| السكان | : | ٤٥٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٤٥َ ٣ْ شمالاً ، و ٥٠َ ٨ْ شرقاً | |



# غينيا بِسّاو GUINEA BISSAU

الاسم السابق : غينيا البرتغالية

نظام الحكم : أعلن استقلالها في ٢٤ سبتمبر ١٩٧٣

المساحة : ٣٦ ١٢٥ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٥٥٠ ٠٠٠ نسمة

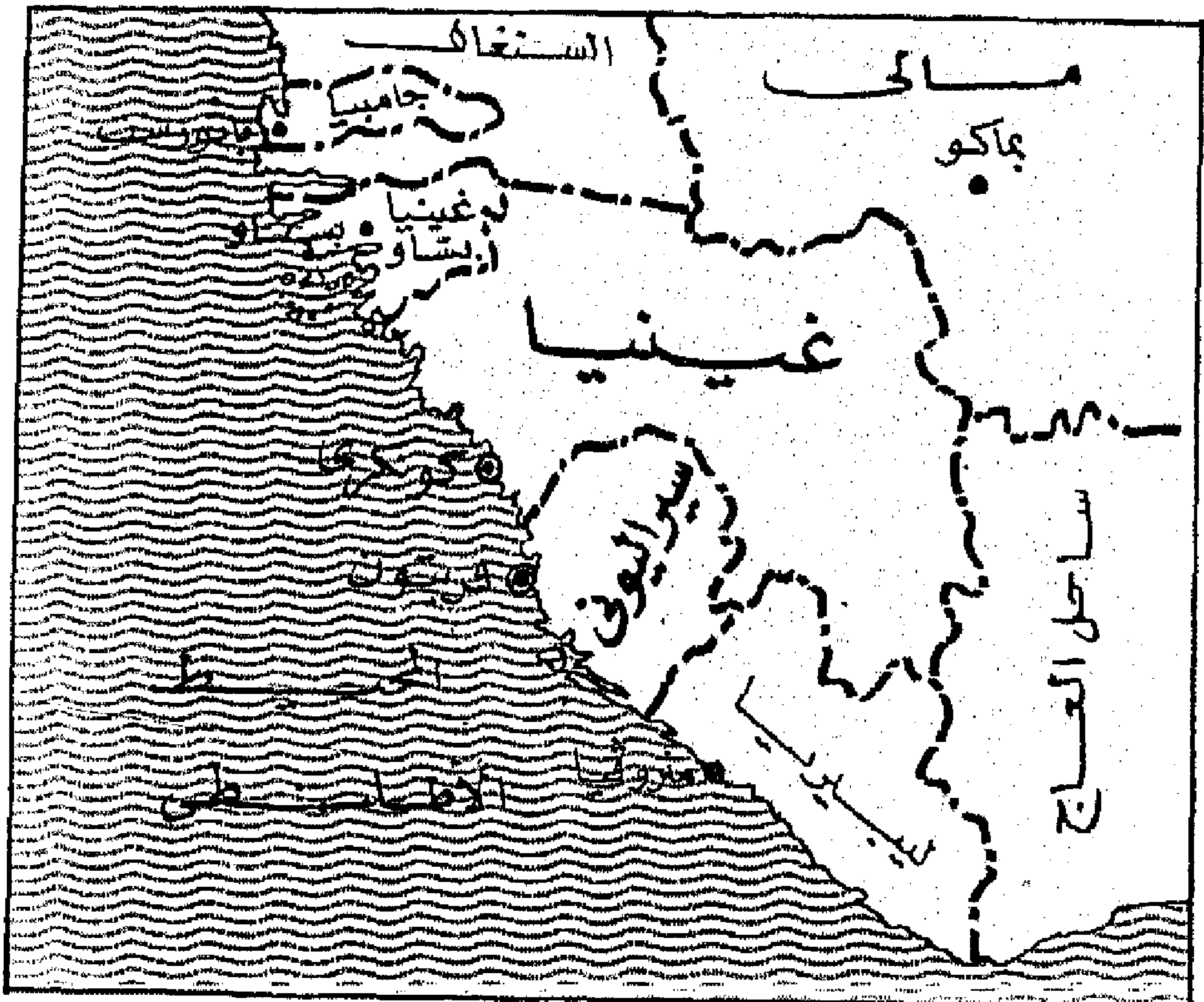
كثافة السكان : ١٥ نسمة في الكيلومتر المربع

العاصمة : بِسّاو Bissau

السكان : ٣٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٥٢َ ١١ْ شمالاً ، و ٣٩َ ١٥ْ غرباً

اعترفت بها في الجمعية العامة للأمم المتحدة ٧٩ دولة



## فرنسا FRANCE

الاسم الرسمى : *République Française*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ٥٤٧٠٢٦ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٥٢٨٠٠٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٩٧ نسمة فى الكيلومتر المربع

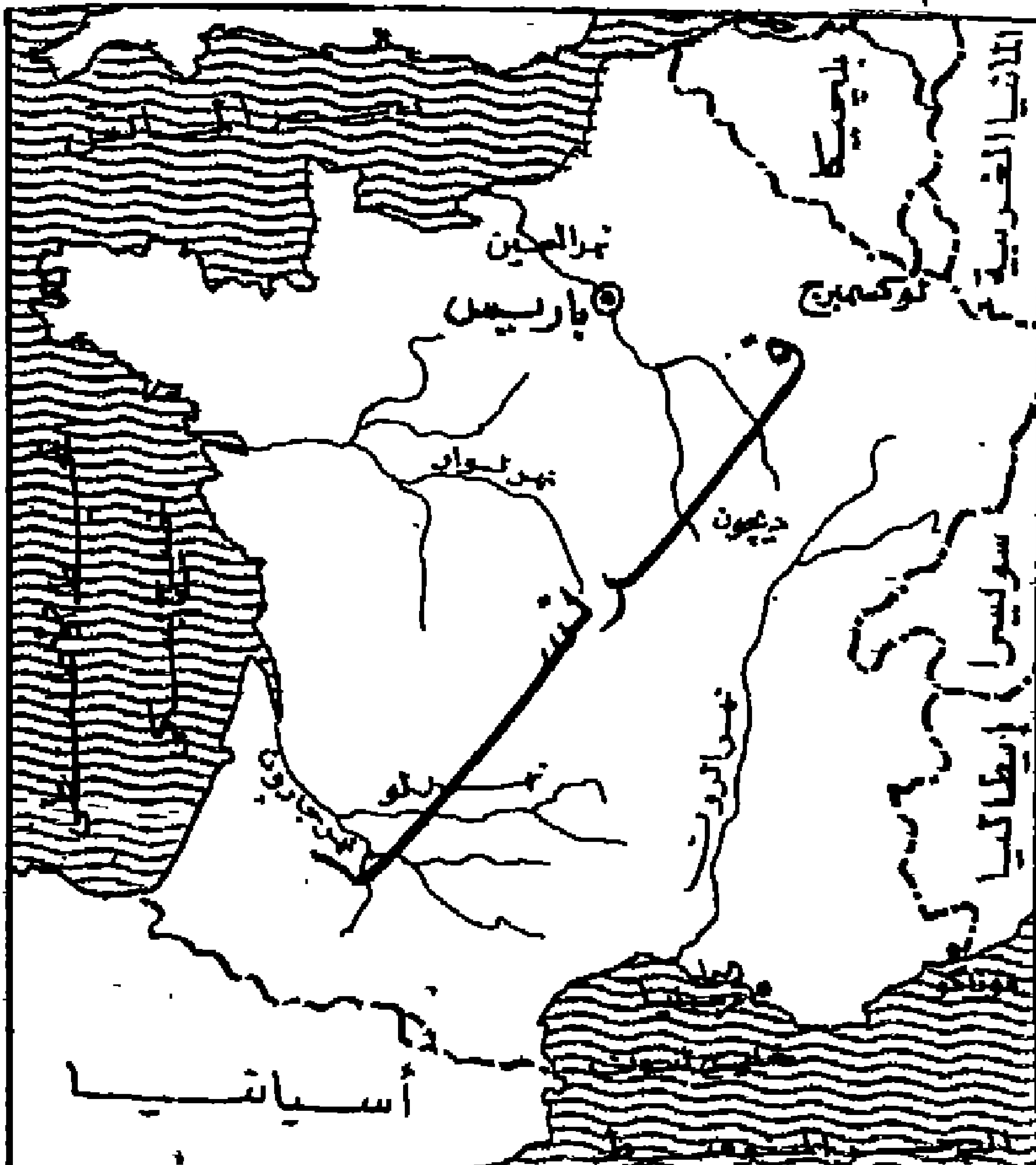
العاصمة : باريس *Paris*

السكان : ٢٥٠٠٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٥٢َ ٤٨ْ شمالاً ، و ٢٠َ ٢ْ شرقاً

العملة : فرنك *Franc*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥



## فلسطين *PALESTINE*

الاسم الرسمى : إسرائيل — *Medinat Israel*

نظام الحكم : عصابة عنصرية مغتصبة

المساحة : ٢٠٧٧٠ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٣٢٠٠٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١٥٤ نسمة فى الكيلومتر المربع

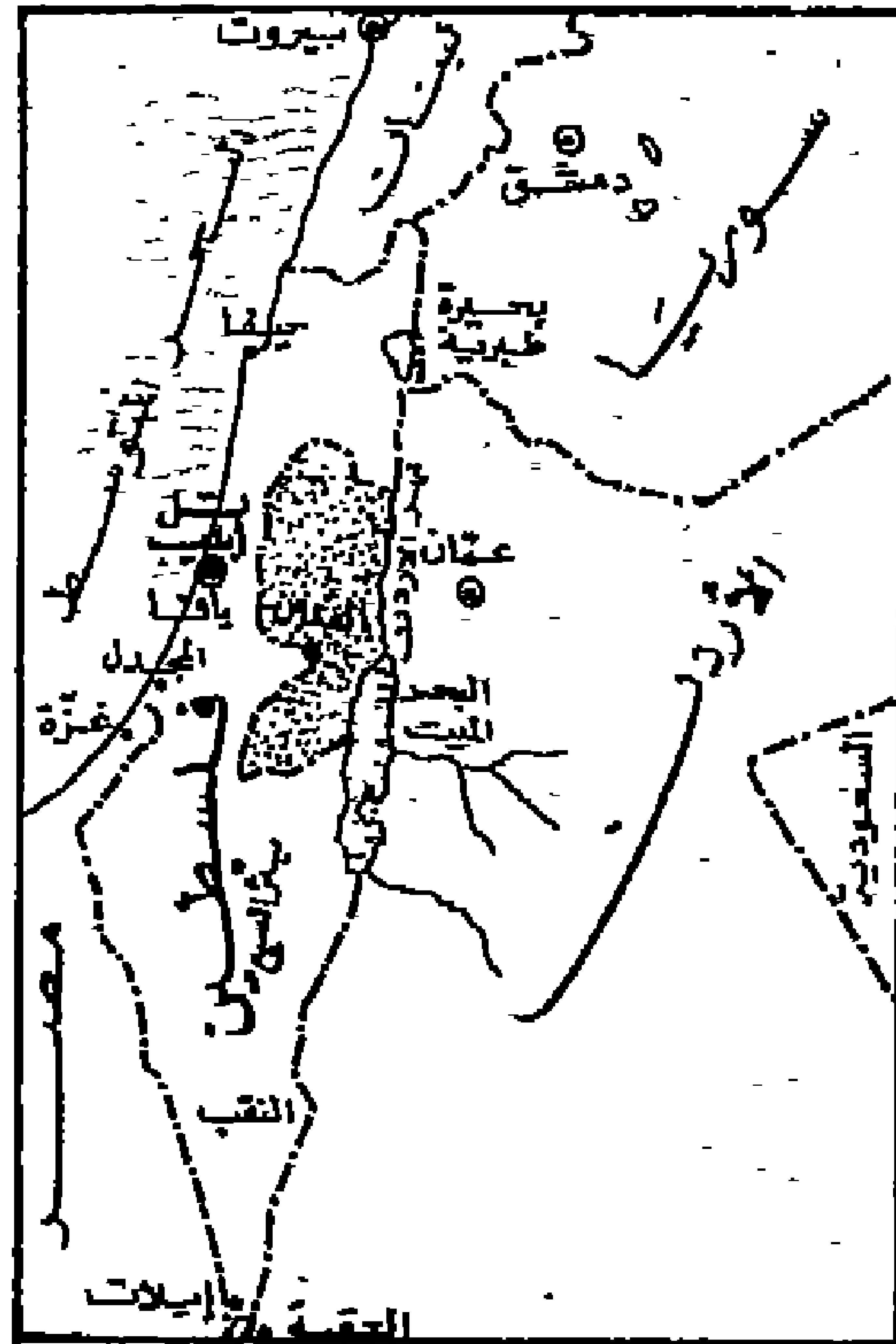
العاصمة : تل أبيب — *Tel Aviv*

السكان : ٣٦٢٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٠٥َ ٣٢ْ شمالاً ، و ٤٦َ ٣٤ْ شرقاً

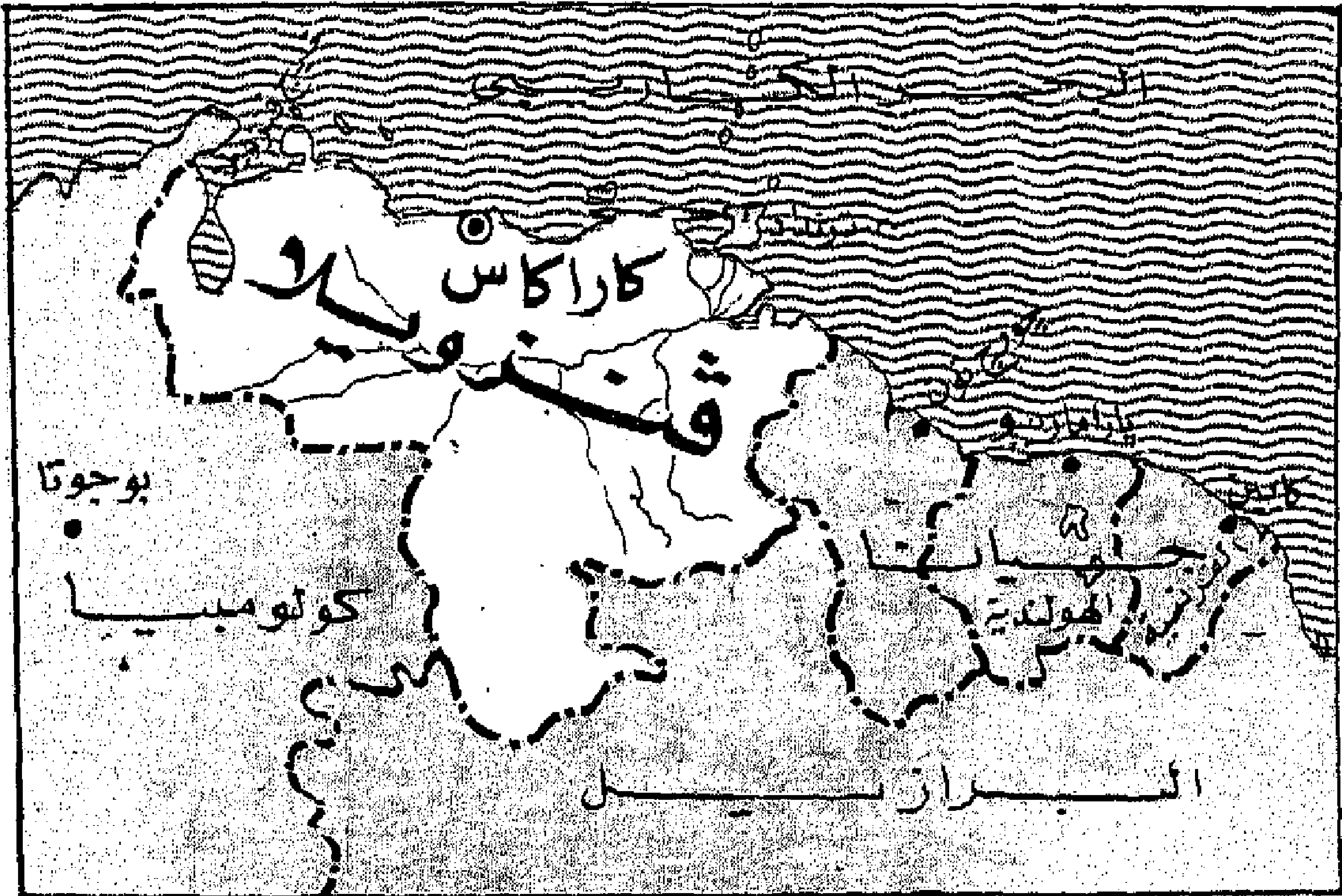
العملة : الجنيه الإسرائيلى — *Isr. Pound*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١١ مايو ١٩٤٩



| | | | |
|---|---|---|---|
| **فنزويلا** | : | | *VENEZUELA* |
| الاسم الرسمي | : | | *Republica de Venezuela* |
| نظام الحكم | : | جمهوري | |
| المساحة | : | ٩١٢٠٥٠ كيلومتراً مربعاً | |
| عدد السكان | : | ١١٢٠٠٠٠٠ نسمة | |
| كثافة السكان | : | ١٢ نسمة في الكيلومتر المربع | |
| العاصمة | : | كاراكاس | *Carcas* |
| السكان | : | ٢٣٠٠٠٠٠ نسمة | |
| موقع العاصمة | : | ٣٥َ ١٠ْ شمالاً ، و ٥٦َ ٦٦ْ غرباً | |
| العملة | : | بوليفار | *Bolivar* |

انضمت إلى الأمم المتحدة في ١٥ نوفمبر ١٩٤٥



## فنلنده FINLAND

الاسم الرسمى : *Suomen Tasavalta-Republiken Finland*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ٣٣٧ ٠٠٩ كيلومترات مربعة

عدد السكان : ٤ ٨٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١٤ نسمة فى الكيلومتر المربع

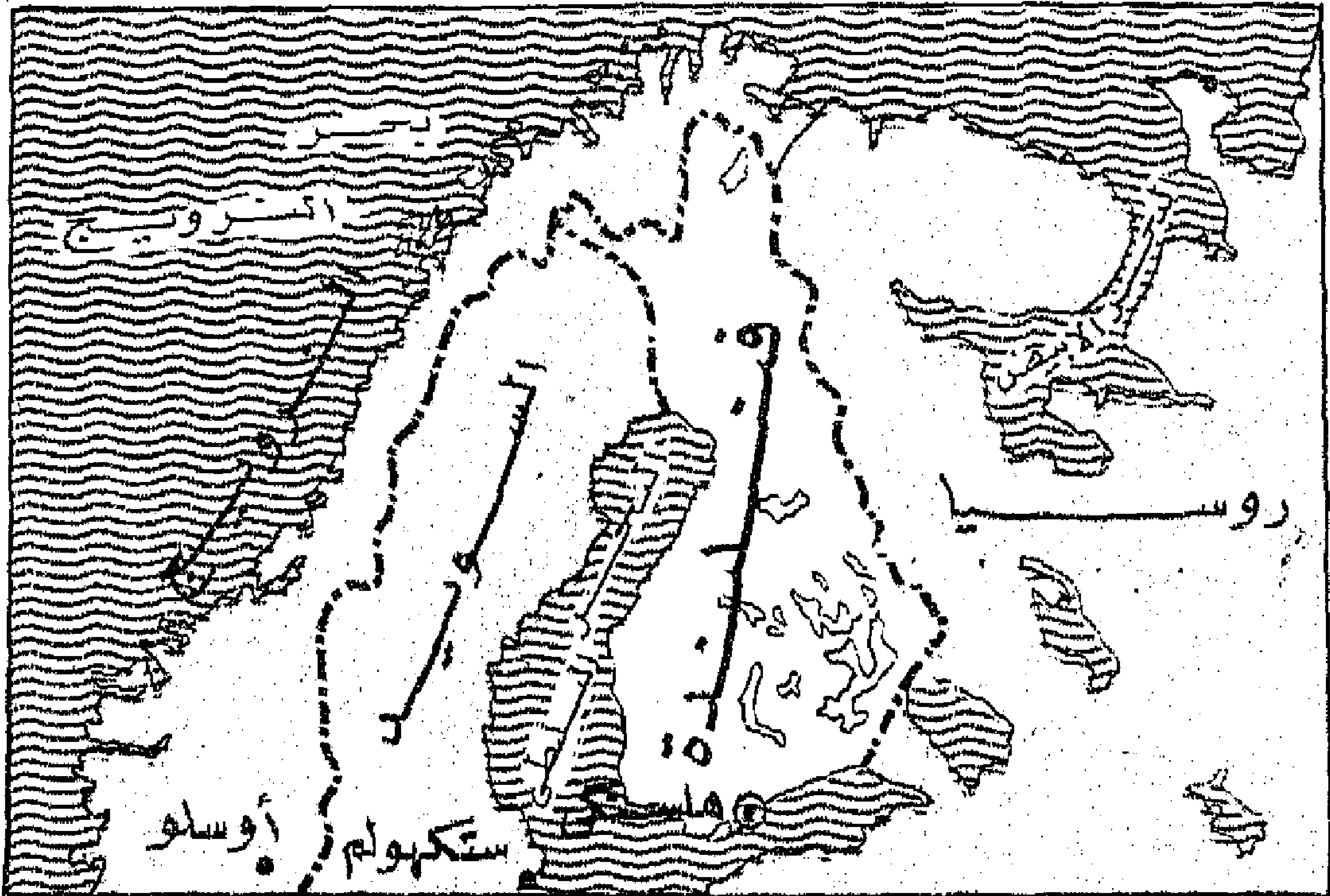
العاصمة : هلسنكى *Helsinki*

السكان : ٧٠٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٠٨َ ٦٠ْ شمالاً ، و ٠٠َ ٢٥ْ شرقاً

العُملة : ماركا *Markka*

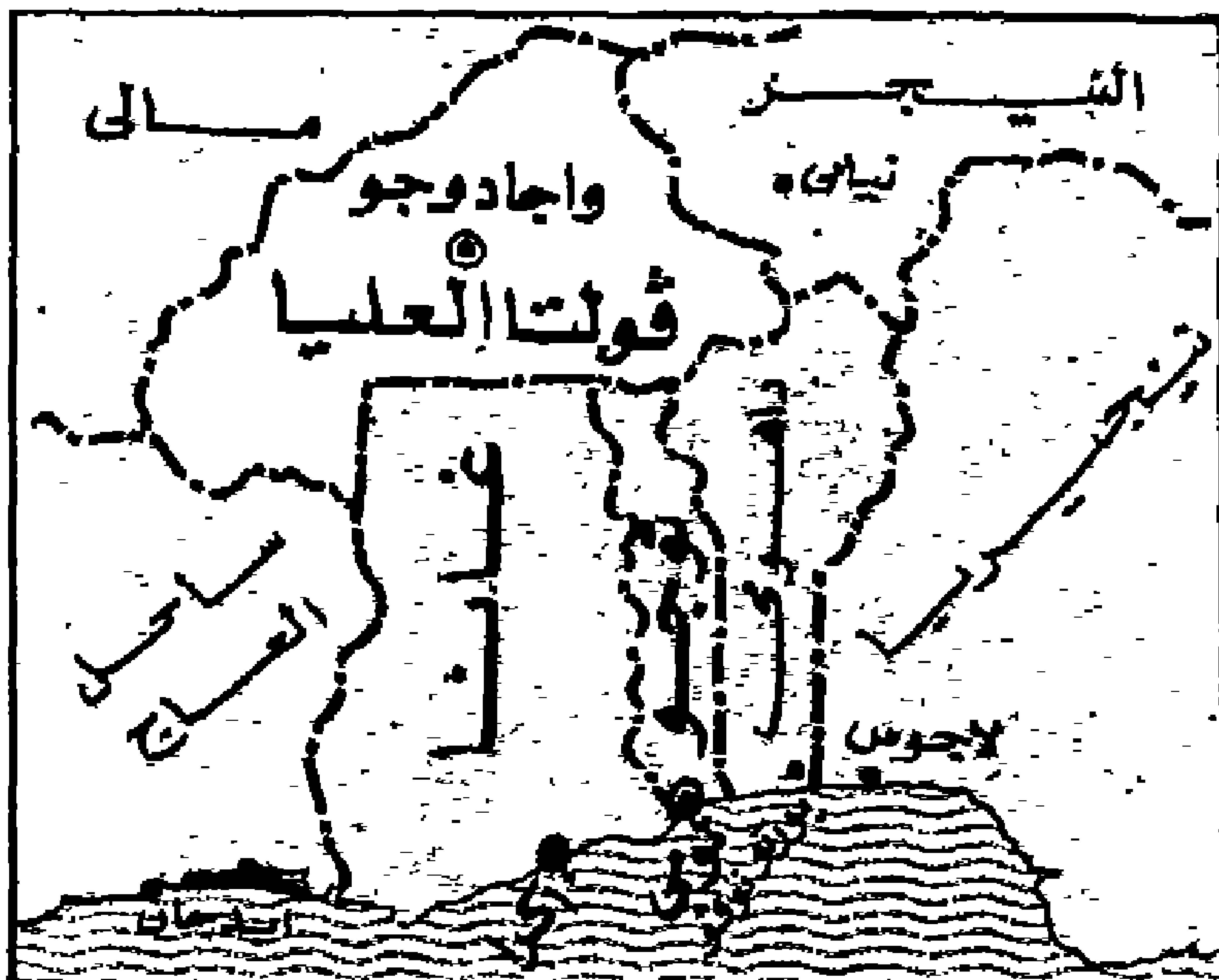
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٤ ديسمبر ١٩٥٥



## فولتا العليا
*UPPER VOLTA*

| | | |
|---|---|---|
| الاسم السابق : | أفريقيا الغربية الاستوائية | |
| الاسم الرسمى : | | *République de Haute Volta* |
| نظام الحكم : | جمهورى | |
| المساحة : | ٢٠٠ ٢٧٤ | كيلومتر مربع |
| عدد السكان : | ٠٠٠ ٦٠٠ ٥ | نسمة |
| كثافة السكان : | ٢١ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة : | واجادوجو | *Ouagadougou* |
| السكان : | ٠٠٠ ١٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة : | ٢٠َ ١٢ْ شمالاً ، و ٤٠َ ١ْ غرباً | |
| العُملة : | فرنك | *Franc* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٠ سبتمبر ١٩٦٠



## فيتنام الجنوبية — *SOUTH VIETNAM*

الاسم الرسمى : *Viet Nam Cong Hoa*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ١٧٠٩٠٦ كيلومترات مربعة

عدد السكان : ١٩٣٠٠٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١١٣ نسمة فى الكيلومتر المربع

العاصمة : سايجون *Saigon*

السكان : ٢٥٠٠٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٤٦َ ١٠ْ شمالاً ، و ٤٣َ ١٠٦ْ شرقاً

العملة . بياستر *Piastre*



## فيتنام الشمالية — NORTH VIETNAM

الاسم الرسمى : *Viet Nam Dan Chu Cong Hoa*

نظام الحكم : جمهورى ديمقراطى

المساحة : ١٥٨٧٥٠ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٢٣٢٠٠٠٠٠ نسمة

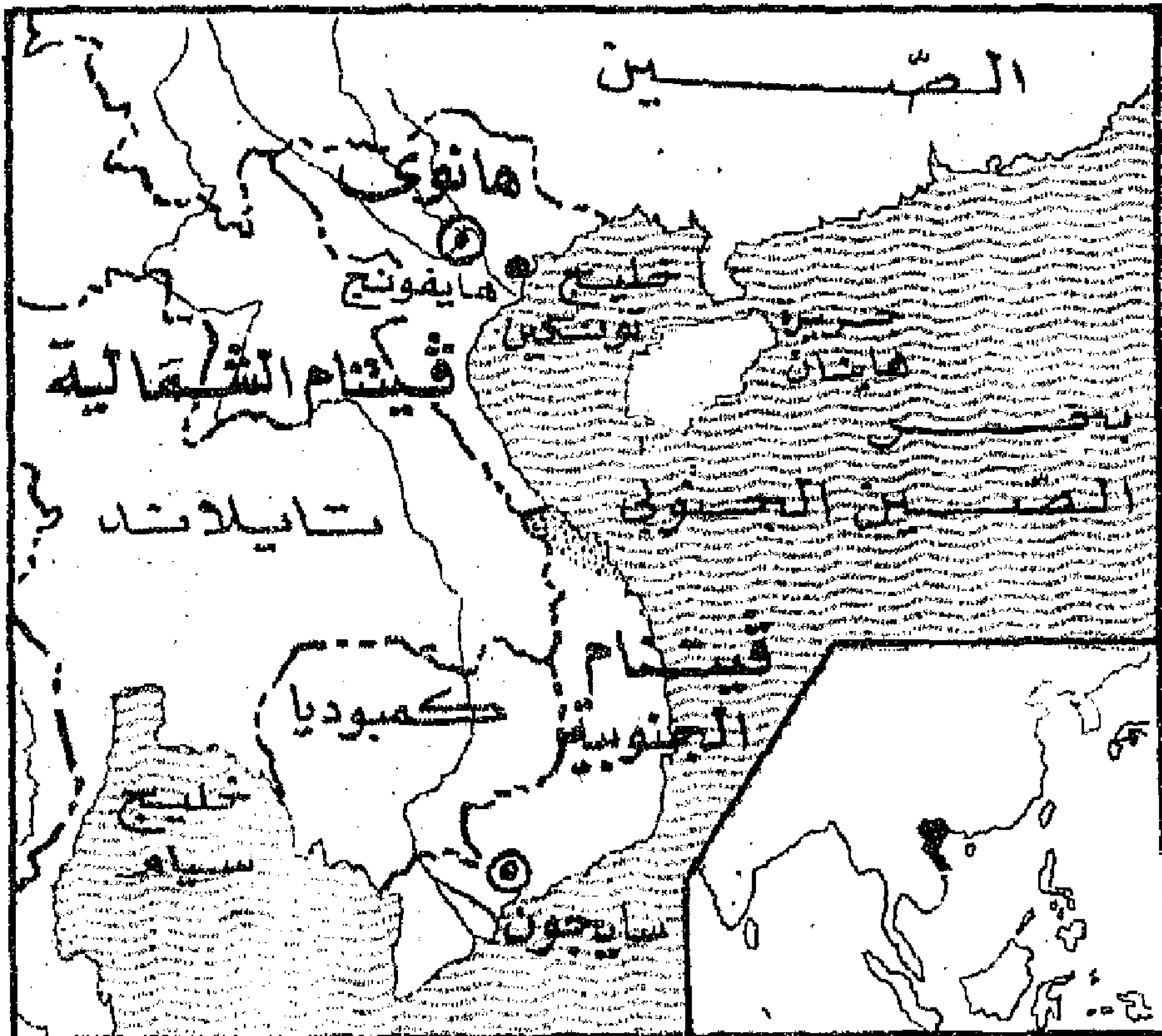
كثافة السكان : ١٤٦ نسمة فى الكيلومتر المربع

العاصمة : هانوى *Hanoi*

السكان : ١٠٠٠٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٠١ ٢١° شمالاً ، و ٥٢َ ١٠٥° شرقاً

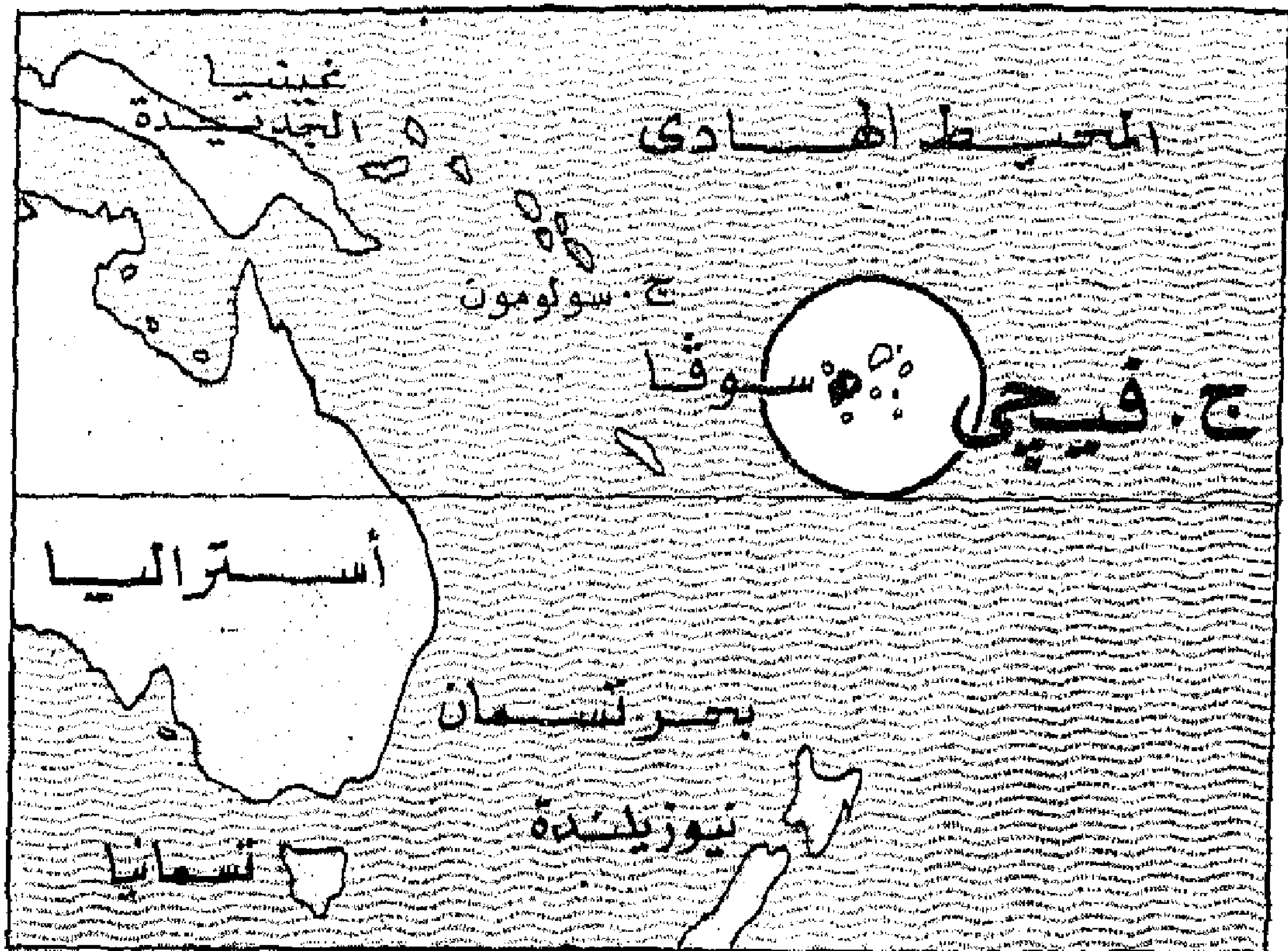
العُملة : دونج *Dong*



## فيجى ( جزر ) FIJI

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | | | *Fiji Islands* |
| نظام الحكم | | الكومنولث البريطانى | |
| المساحة | | ١٨ ٢٧٢ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٥٥٠ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٣٠ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | سوفا | *Suva* |
| السكان | : | ٦٠ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٥٠َ ١٨ْ جنوباً ، و ٠٠َ ١٧٥ْ شرقاً | |
| العملة | : | البريطانية | |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٣ أكتوبر ١٩٧٠



## الفيليبين — *PHILIPPINES*

الاسم الرسمى : *Republica ng Pilipinas*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ٣٠٠ ٠٠٠ كيلومترمربع

عدد السكان : ٤٠ ٨٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١٣٦ نسمة فى الكيلومتر المربع

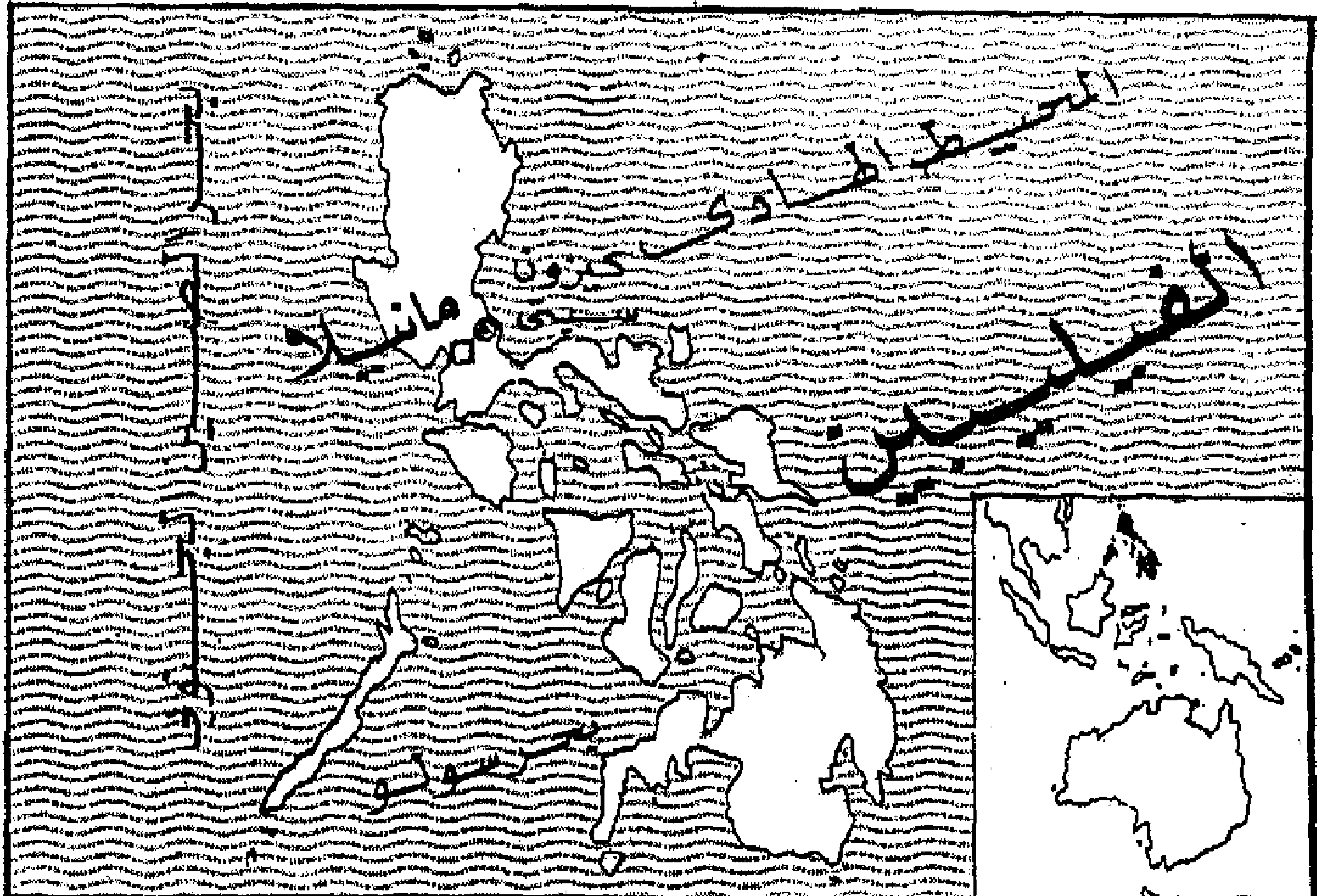
العاصمة : كيزون سيتى *Quezon City*

السكان : ٦٠٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٣٩َ ١٤° شمالاً ، و ٠١ ١٢١° شرقاً

العُملة : بيزو *Peso*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥



## قبرص *CYPRUS*

الاسم الرسمى : *Kypriake Demokratia, Kibris Cumhuriyeti*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ٩ ٢٥١ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٦٥٠٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٧٠ نسمة فى الكيلومتر المربع

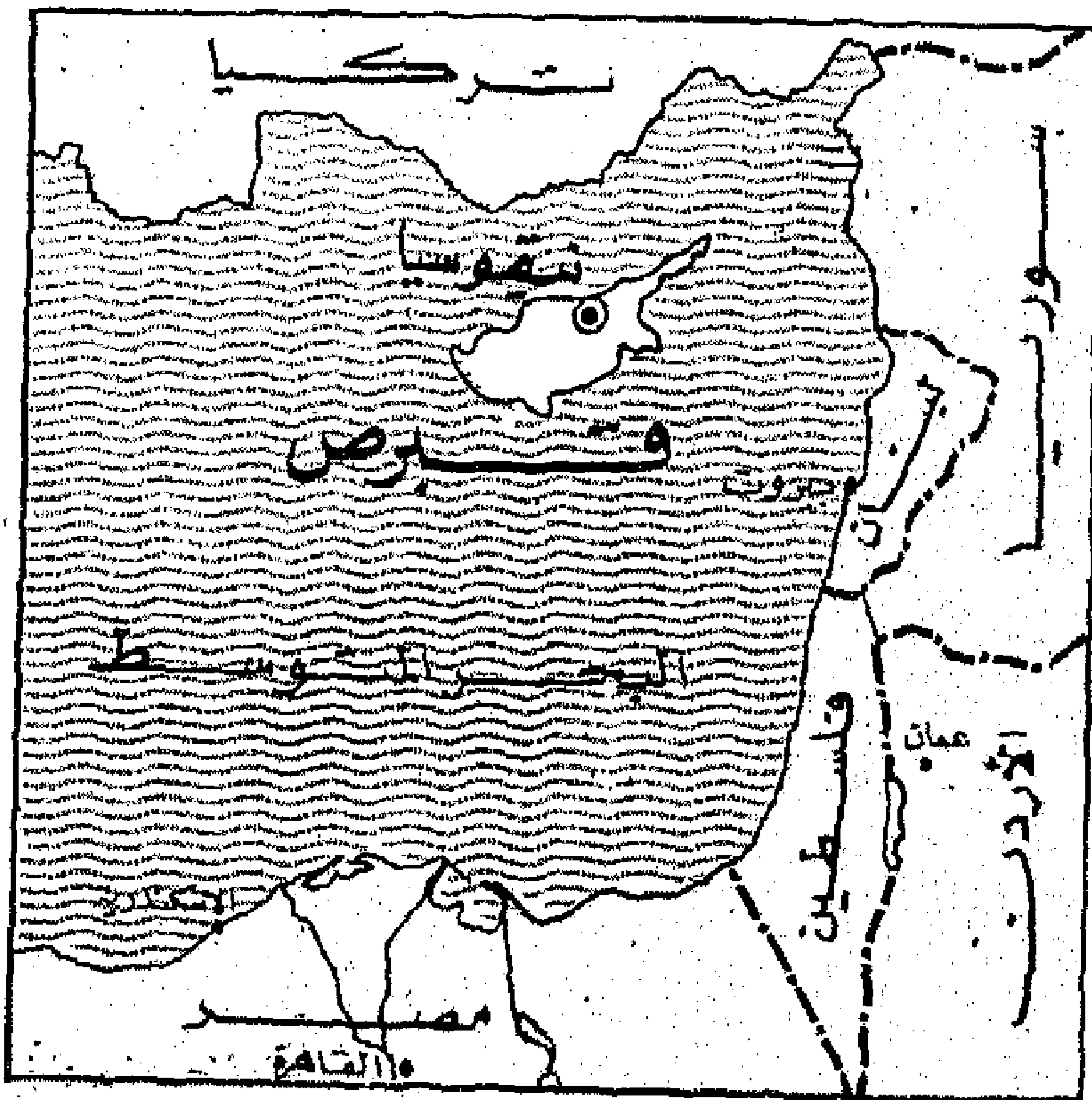
العاصمة : نيقوسيا *Nicosia*

السكان : ١٢٠٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ١١َ ٣٥ْ شمالاً ، و ٢٣َ ٣٣ْ شرقاً

العُملة : الجنيه *Pound*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٠ سبتمبر ١٩٦٠



# قَطَر *QATAR*

نظام الحكم : سلطنة

المساحة : ٢٢ ٠١٤ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ١١٠ ٠٠٠ نسمة

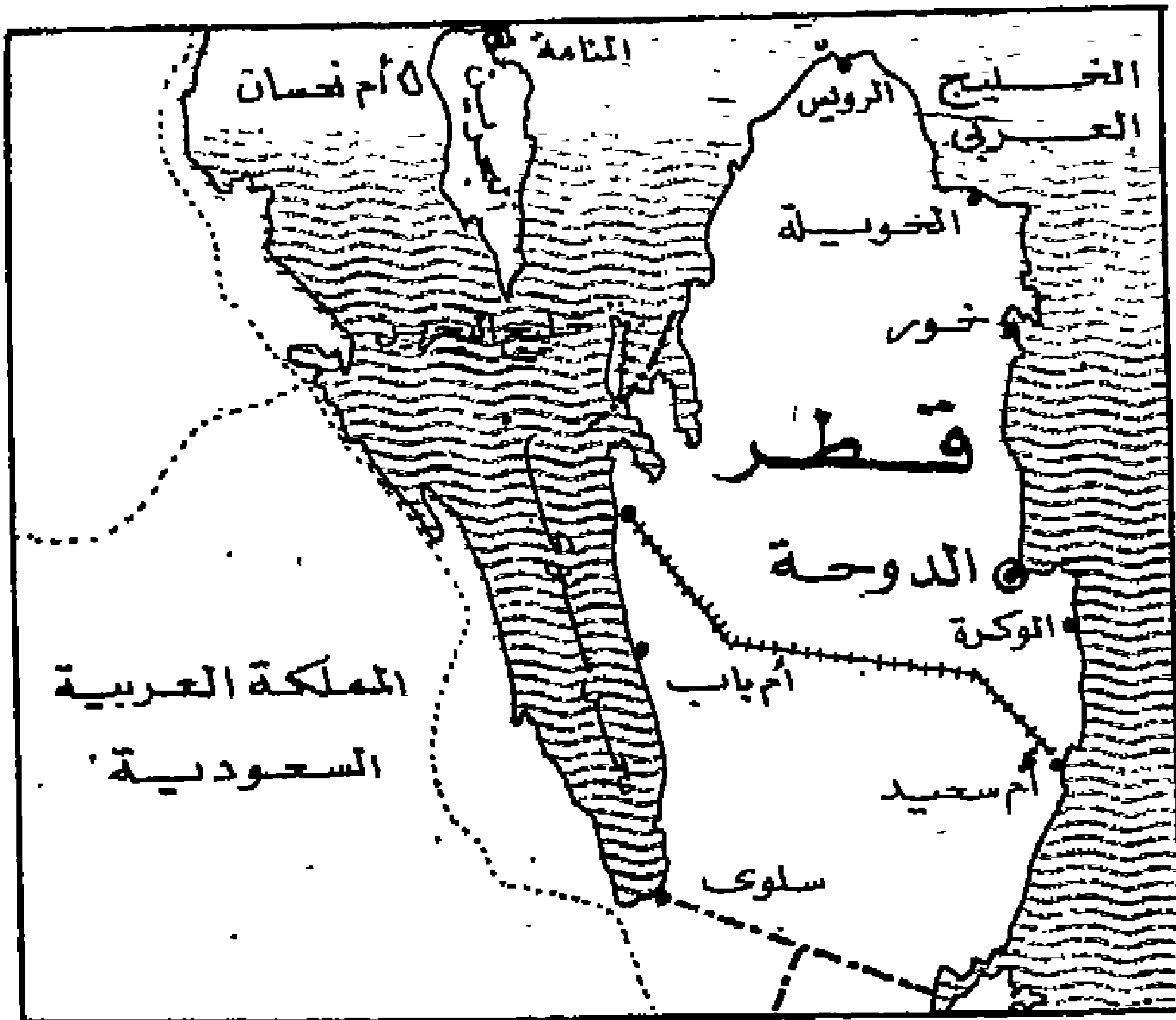
كثافة السكان : ٥ نسمة فى الكيلومتر المربع

العاصمة : الدوحة *Doha*

السكان : ٦٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ١٥ ٢٥° شمالاً ، و ٣٤ ٥١° شرقاً

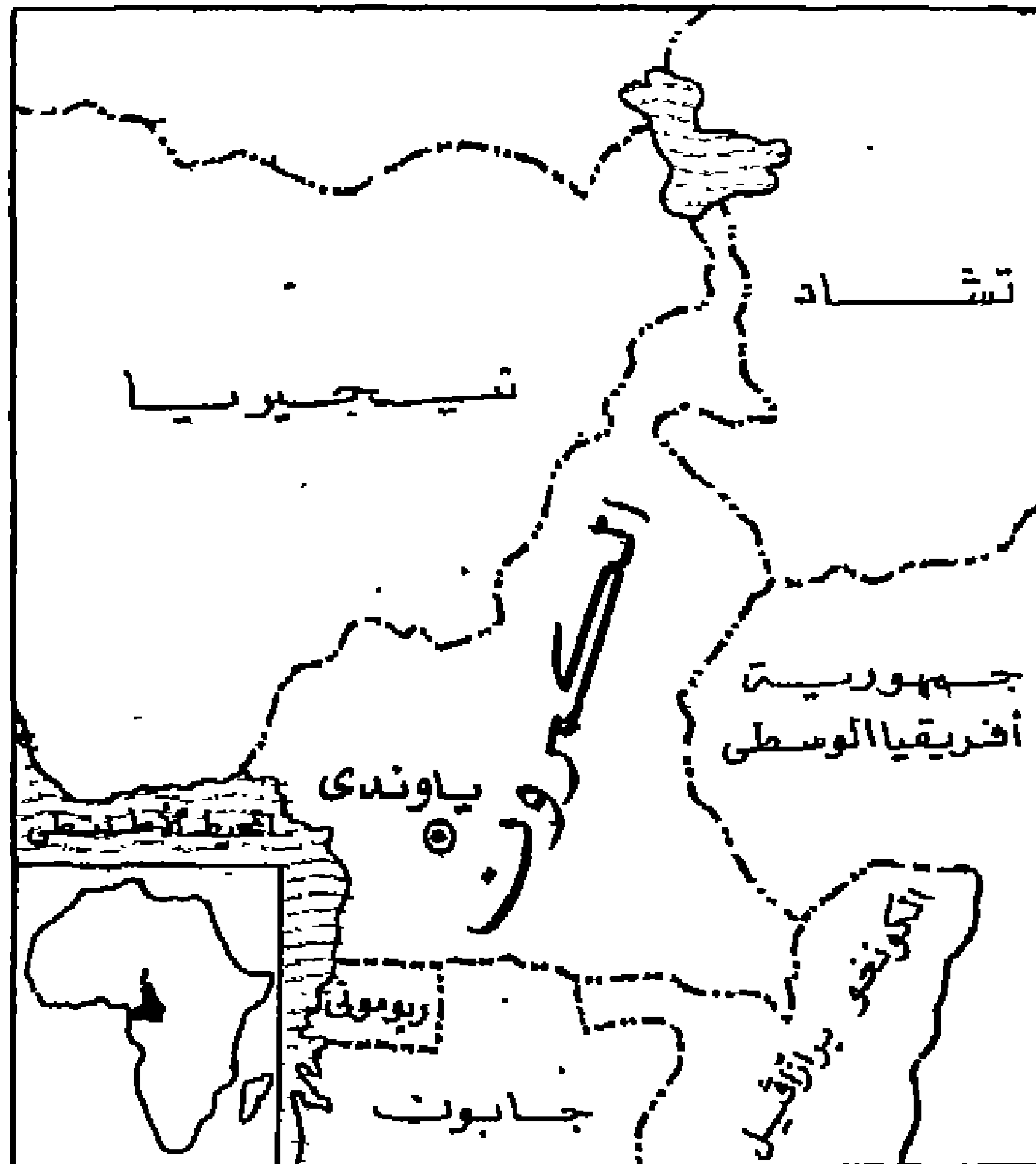
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢١ سبتمبر ١٩٧١



## الكاميرون CAMEROON

| | | |
|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | *République Fédéral du Cameroun* |
| نظام الحكم | : | جمهورى |
| المساحة | : | ٤٥٧ ٤٤٢ كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٦٠٠٠٠٠٠ نسمة |
| كثافة السكان | : | ١٣ نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | ياوندى *Yaoundé* |
| السكان | : | ١٣٠٠٠٠ نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٥١ً ٣ْ شمالاً ، و ٣١َ ١١ْ شرقاً |
| العُملة | : | فرنك *Franc* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٠ سبتمبر ١٩٦٠



## كمبوديا CAMBODIA

الاسم الرسمى : *République Khmer*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ١٨١٠٣٥ كيلومتراً مربعا

عدد السكان : ٧١٠٠٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٣٩ نسمة فى الكيلومتر المربع

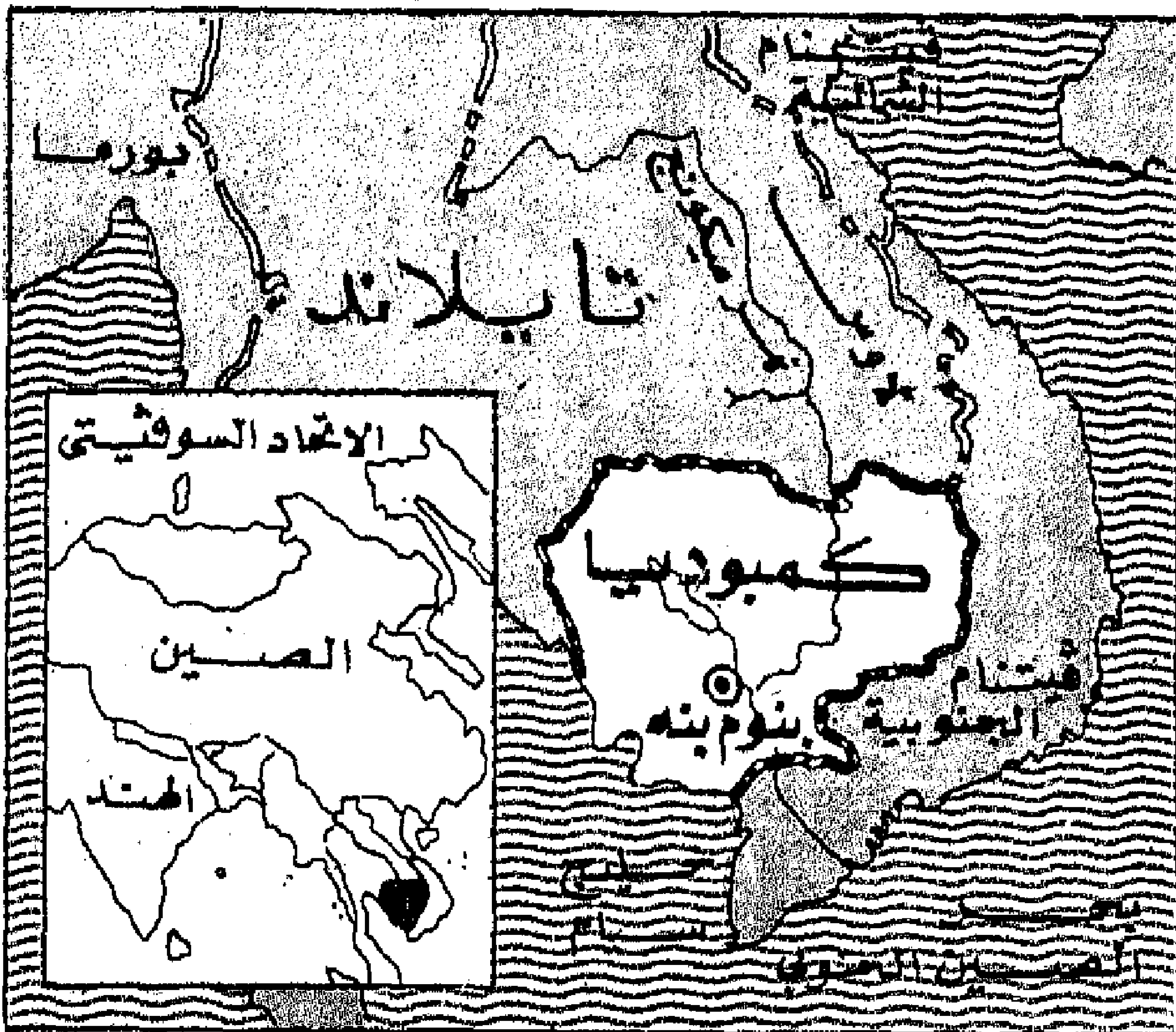
العاصمة : بنوم بنه *Phnom Penh*

السكان : ٦٥٠٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٣٥َ ١١ْ شمالاً . و ٥٥َ ١٠٤ْ شرقاً

العملة : ريال *Riel*

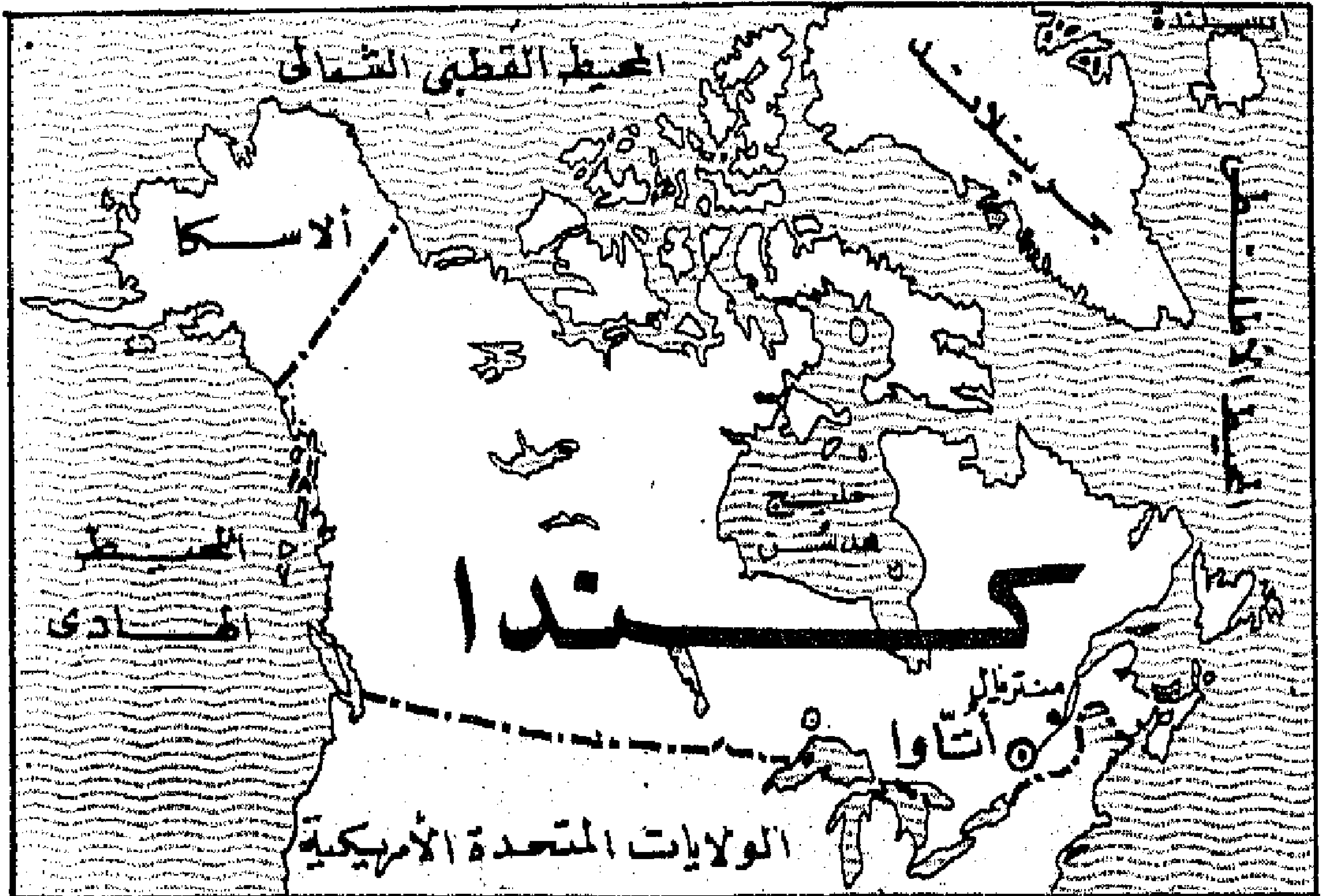
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٤ ديسمبر ١٩٥٥



## كندا CANADA

| | | |
|---|---|---|
| نظام الحكم | : | دولة اتحادية ـ كومنولث بريطاني |
| المساحة | : | ٩٩٧٦١٣٩ كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٢٢٢٠٠٠٠٠ نسمة |
| كثافة السكان | : | ٢ نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | أوتاوا Ottawa |
| السكان | : | ٣٠٠٠٠٠ نسمة |
| موقع العاصمة | | ٢٥َ ٤٥ْ شمالاً ـ ٤٣َ ٧٥ْ غرباً |
| العُملة | : | دولار Can. Dollar |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٩ نوفمبر ١٩٤٥



## كوبا CUBA

الاسم الرسمى : Republica de Cuba

نظام الحكم : جمهورية شعبية

المساحة : ١١٤ ٥٢٤ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٩٠٠٠٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٧٩ نسمة فى الكيلومتر المربع

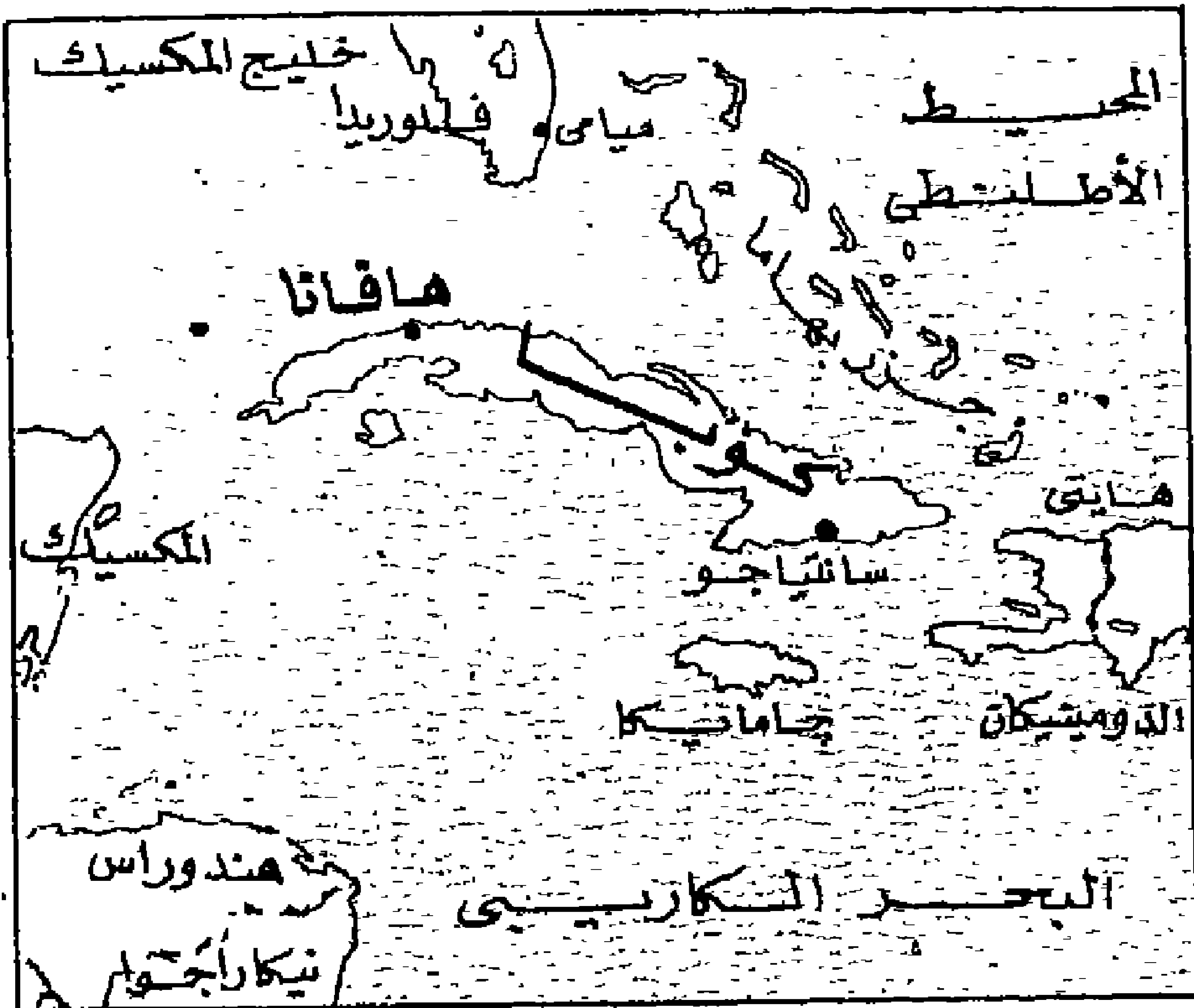
العاصمة : هافانا Havanna

السكان : ١٠٠٠٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة ٠٧َ ٢٣ْ شمالاً . و ٢٥َ ٨٢ْ غرباً

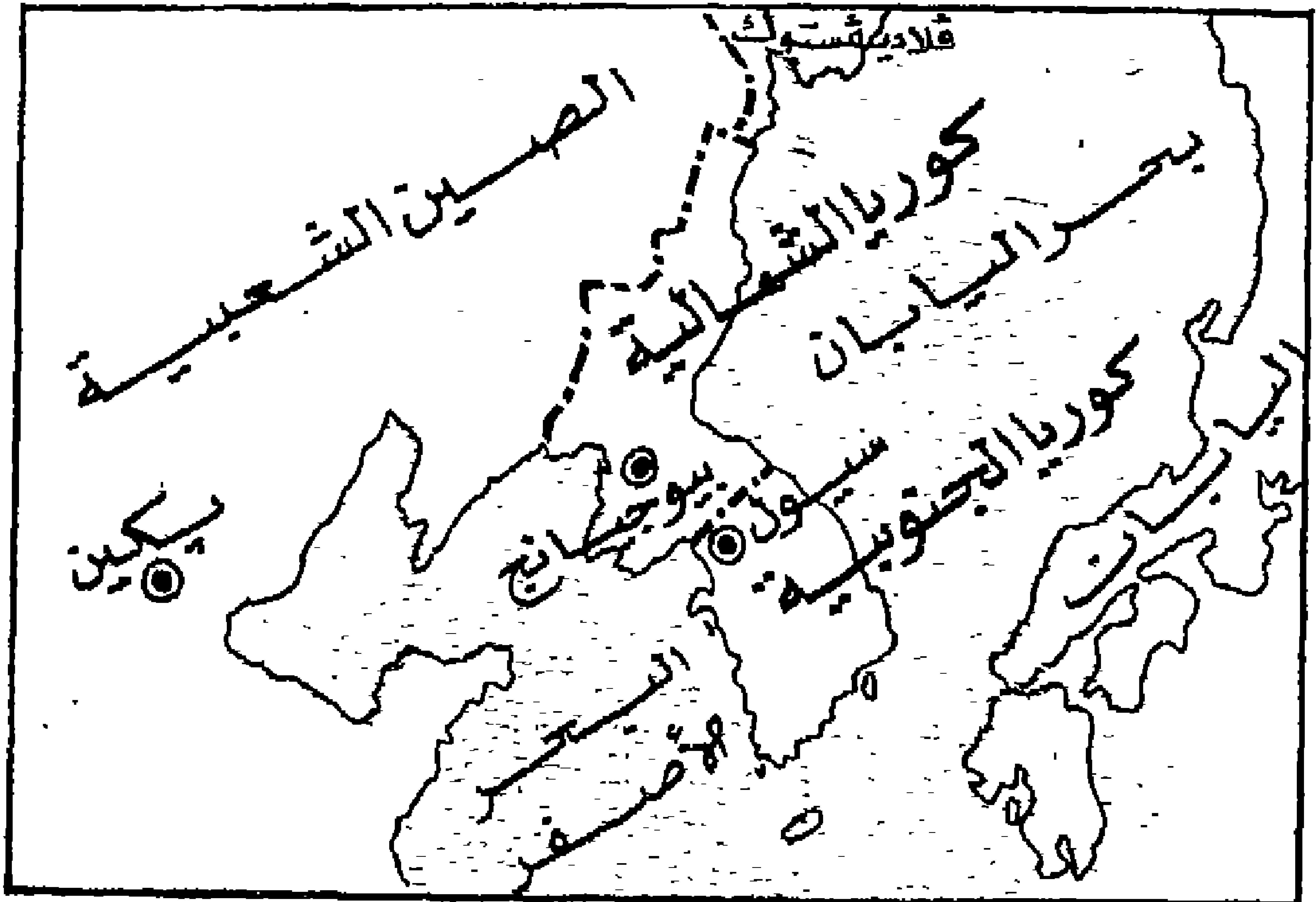
العملة : بيزو Peso

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥



## كوريا الجنوبية — *SOUTH KOREA*

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | | *Taehan, Dahan Minkuk* |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ٩٨ ٤٧٧ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٣٤ ٠٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٣٤٥ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | سيول | *Seoul* |
| السكان | : | ٦ ٠٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٣٠َ ٣٧ْ شمالاً ، و ٠٠َ ١٢٧ْ شرقاً | |
| العملة | : | ون | *Won* |



## كوريا الشمالية — NORTH KOREA

الاسم الرسمى : *Choson Minchu-chui Imnin Konghwa-guk*

نظام الحكم : جمهورية ديمقراطية شعبية

المساحة : ١٢٠ ٥٣٨ كيلومتراً مربعاً

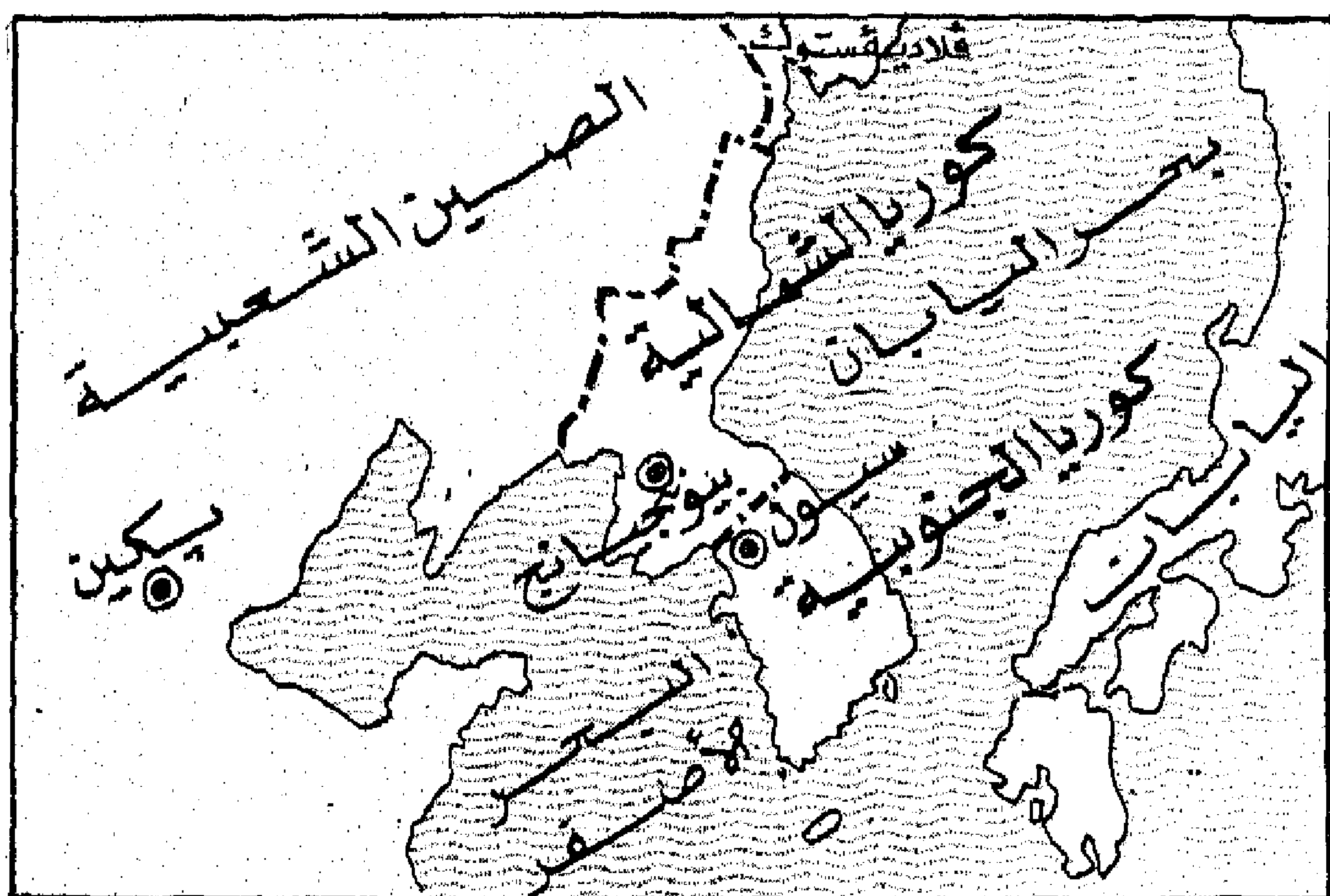
عدد السكان : ١٤ ٣٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١١٨ نسمة فى الكيلومتر المربع

العاصمة : بيونج يانج *Pyongyang*

السكان : ١ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٠٠َ ٣٩ْ شمالاً ، و ٤٧َ ١٢٥ْ شرقاً



# كوستا ريكا

*COSTA RICA*

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | | *Republica de Costa Rica* |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ٥٠٧٠٠ | كيلومتر مربع |
| عدد السكان | : | ١٩٠٠٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٣٧ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | سان جوزى | *San José* |
| السكان | : | ٤٠٠٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٥٩َ ٩° شمالاً ، و ٠٤َ ٨٤° غرباً | |
| العملة | : | كولون | *Colon* |

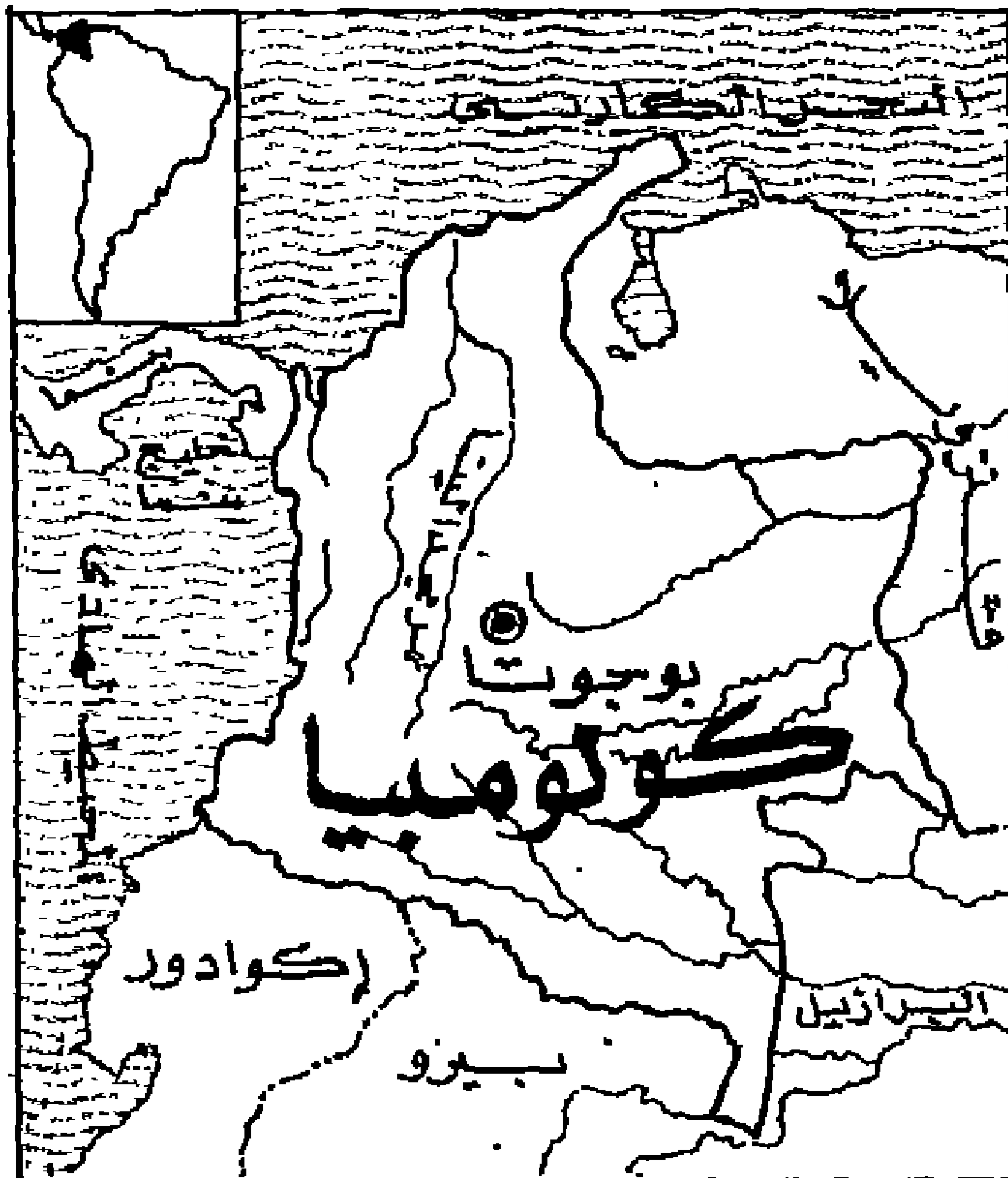
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢ نوفمبر ١٩٤٥

## كولومبيا COLOMBIA

الاسم الرسمى *La Republica de Colombia*

| | | | |
|---|---|---|---|
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ١ ١٣٨ ٩١٤ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٢٢ ٤٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٢٠ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | بوجوتا | *Bogota* |
| السكان | : | ٢ ٦٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٣٨َ ٤ْ شمالاً ، و ٠٥َ ٧٤ْ غرباً | |
| العُملة | : | بيزو | *Peso* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٥ نوفمبر ١٩٤٥



## الكونغو برازافيل CONGO-BRAZZAVILLE

| | | |
|---|---|---|
| الاسم السابق | : | الكونغو الفرنسية |
| الاسم الرسمى | : | *République Populaire de Congo* |
| نظام الحكم | : | جمهورية شعبية |
| المساحة | : | ٣٤٢ ٠٠٠ كيلومتر مربع |
| عدد السكان | : | ٩٥٠ ٠٠٠ نسمة |
| كثافة السكان | : | ٣ نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | برازافيل *Brazzaville* |
| السكان | : | ٢٠٠ ٠٠٠ نسمة |
| موقع العاصمة | : | ١٤َ ٤ْ جنوباً ، و ١٤َ ١٥ْ شرقاً |
| العملة | : | فرنك *Franc* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٠ سبتمبر ١٩٦٠



## الكونغو زائيرى ( كنشاسا ) CONGO-ZAIRE (KINSHASA)

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم السابق | : | الكونغو البلجيكية | |
| الاسم الرسمى | : | | Républiqu Zaïre |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ٢٣٤٥٤٠٩ كيلومترات مربعة | |
| عدد السكان | : | ١٨٠٠٠٠٠٠ نسمة | |
| كثافة السكان | : | ٨ نسمة فى الكيلومتر المربع | |
| العاصمة | : | كنشاسا ( ليوبولدفيل سابقاً ) | Kinshasa |
| السكان | : | ١٥٠٠٠٠٠ نسمة | |
| موقع العاصمة | : | ١٨َ ٤ْ جنوباً ، و ١٨َ ١٥ْ شرقاً | |
| العملة | : | الفرنك الكونغولى | Congo Franc |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٠ سبتمبر ١٩٦٠.



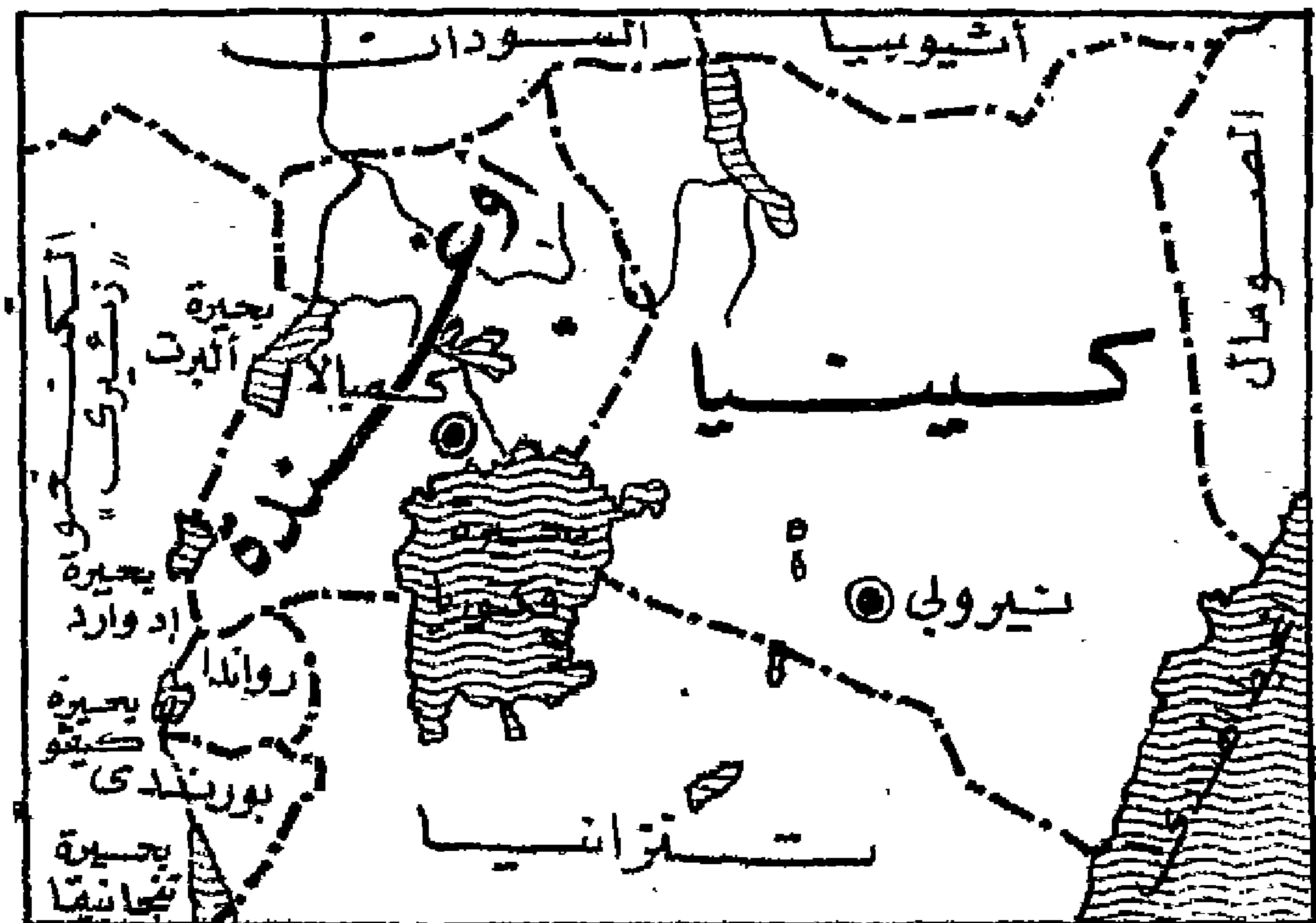
## الكويت *KUWAIT*

الأسم الرسمى : دولة الكويت
نظام الحكم : دولة مستقلة يحكمها أمير
المساحة : ١٦٠٠٠ كيلومتر مربع
عدد السكان : ٦٥٠٠٠٠ نسمة
كثافة السكان : ٤١ نسمة فى الكيلومتر المربع
العاصمة : الكويت *Kuwait*
السكان : ٣٥٠٠٠٠ نسمة
موقع العاصمة : ٢٠َ ٢٩ْ شمالاً ، و ٠٠َ ٤٨ْ شرقاً
العُملة : الدينار الكويتى
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٤ مايو ١٩٦٣

## كينيا — *KENYA*

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | | *Jamhuri ya Kenya* |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ٥٨٣ ٦٤٤ | كيلومتراً مربعاً |
| عددالسكان | : | ١١ ٨٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٢٠ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | نيروبى | *Nairobi* |
| السكان | : | ٥٥٠ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ١٧َ ١ْ جنوباً ، و ٥٠َ ٣٦ْ شرقاً | |
| العملة | : | شلن شرق أفريقيا | *E. A. Shilling* |

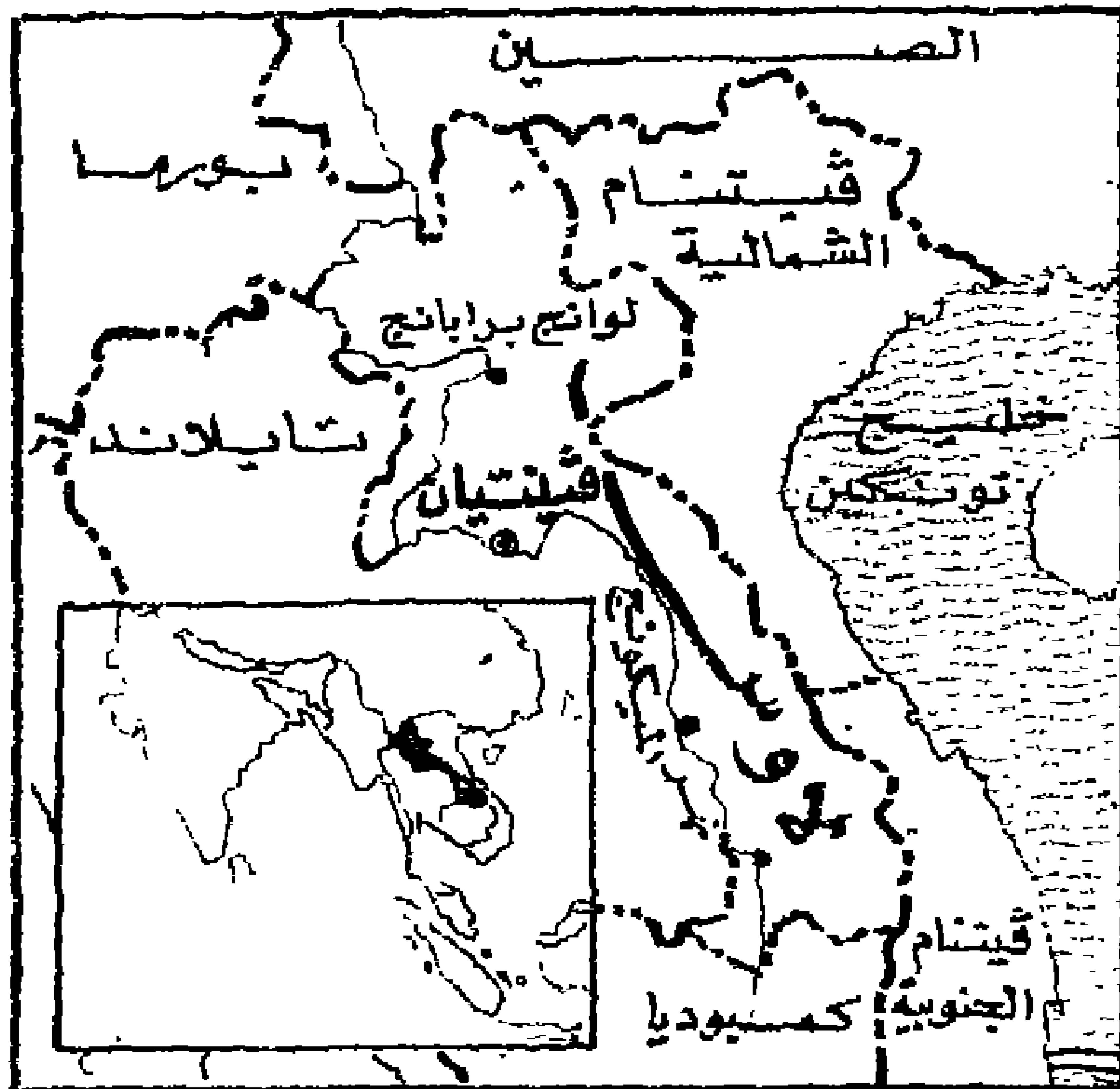
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٦ ديسمبر ١٩٦٣



# لاوس LAOS

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | | Royaume du Laos |
| نظام الحكم | : | ملكى | |
| المساحة | : | ٢٣٦ ٨٠٠ | كيلومتر مربع |
| عدد السكان | : | ٣ ١٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ١٣ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | فينتيان | Vientiane |
| السكان | : | ٢٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ١٩َ ١٧ْ شمالاً ، و ٣٨َ ١٠٢ْ شرقاً | |
| العملة | : | كِب | Kip |

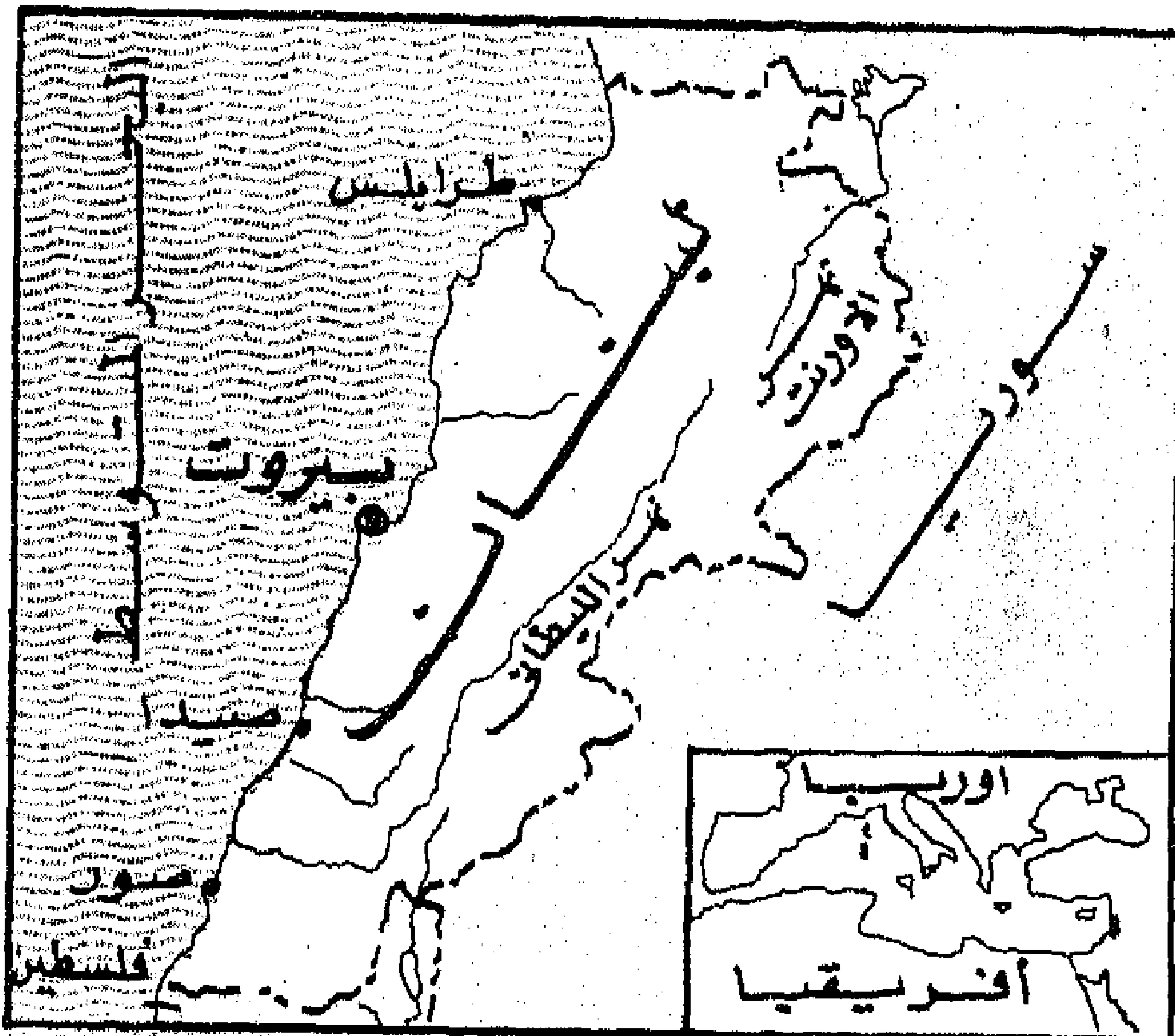
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٤ ديسمبر ١٩٥٥



# لبنان
*LEBANON*

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | الجمهورية اللبنانية | |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ١٠٤٠٠ | كيلومتر مربع |
| عدد السكان | : | ٢٨٠٠٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٢٦٩ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | بيروت | *Beirut* |
| السكان | : | ٧٥٠٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٥٢َ ٣٣ْ شمالاً ، و ٣٠ ٣٥ْ شرقاً | |
| العملة | : | الليرة اللبنانية | |

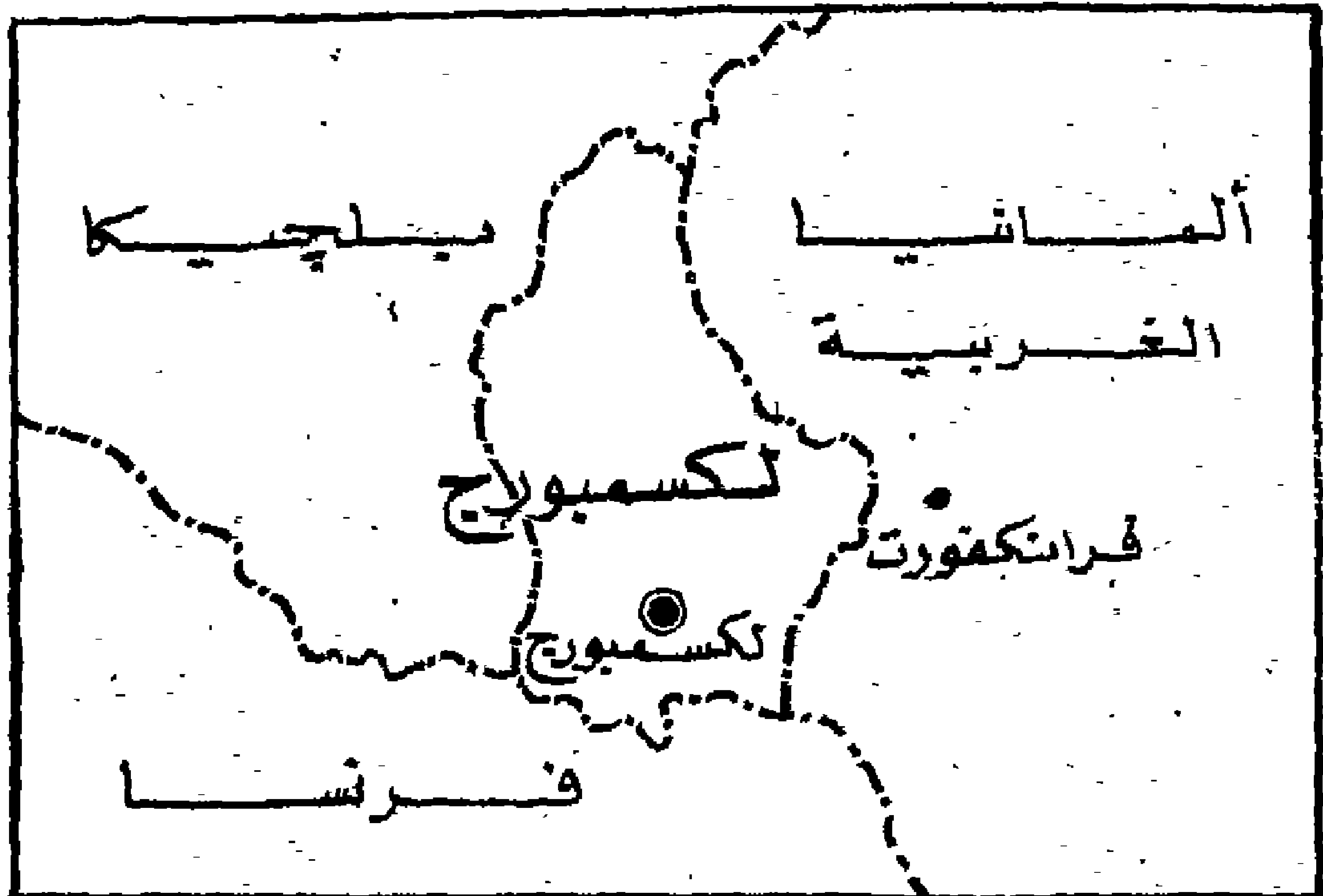
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥



## لوكسمبرج LUXEMBOURG

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | *Grand-Duché de Luxembourg* | |
| نظام الحكم | : | دوقية | |
| المساحة | : | ٢ ٥٨٦ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٣٤٣ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ١٣٣ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | لوكسمبرج | *Luxembourg* |
| السكان | : | ٧٥ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٣٧َ ٤٩ْ شمالاً ، و ٠٨َ ٦ْ شرقاً | |
| العملة | : | فرنك لوكسمبرج | *Lux. Franc* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥



## ليبريا — *LIBERIA*

الاسم الرسمى — *Republic of Liberia*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ١١١ ٣٦٩ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ١ ٢٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١١ نسمة فى الكيلومتر المربع

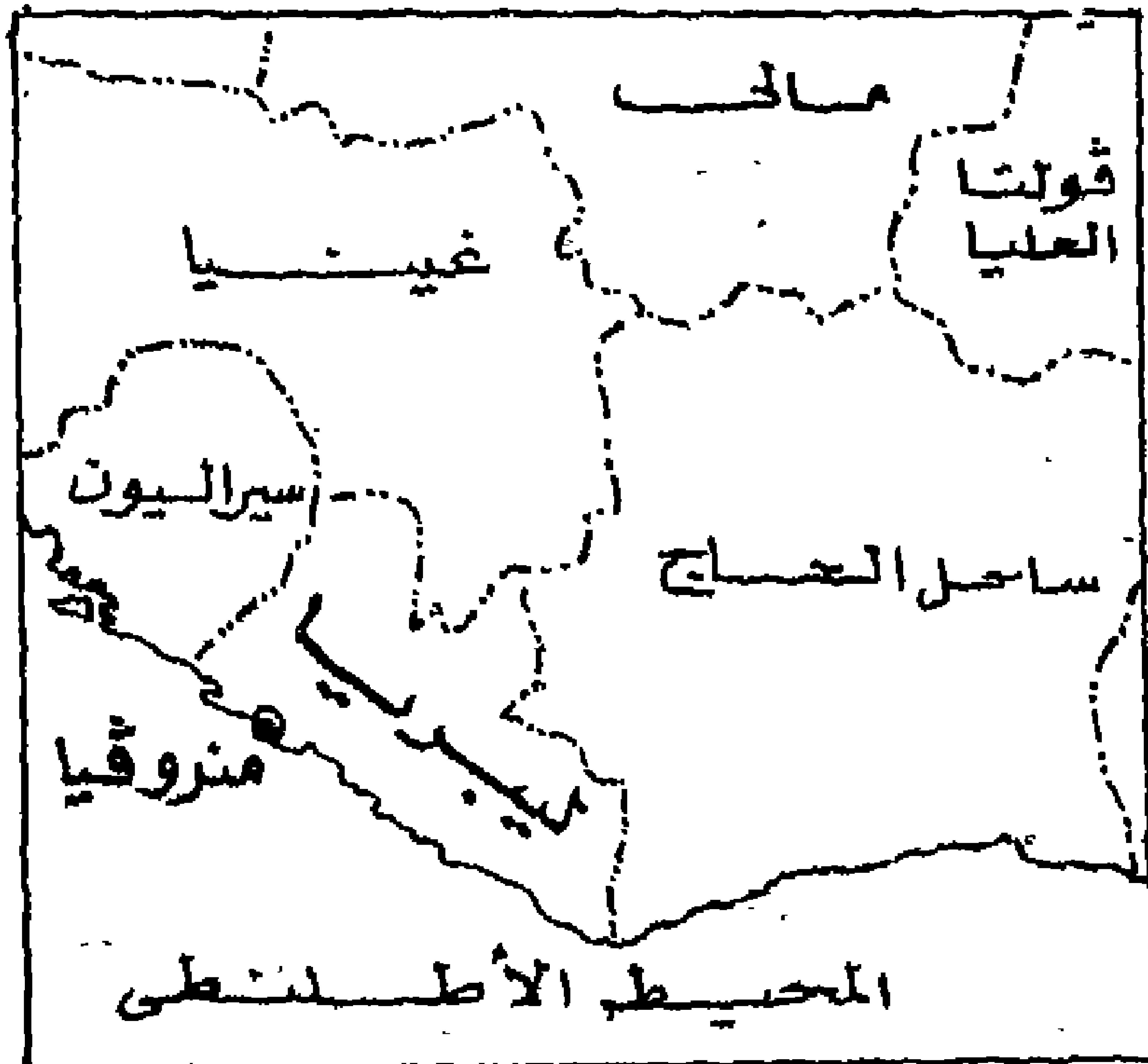
العاصمة : منروفيا *Menrovia*

السكان : ٥٨ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٢٠َ ٦ْ شمالاً ، و ٤٦َ ١٠ْ غرباً

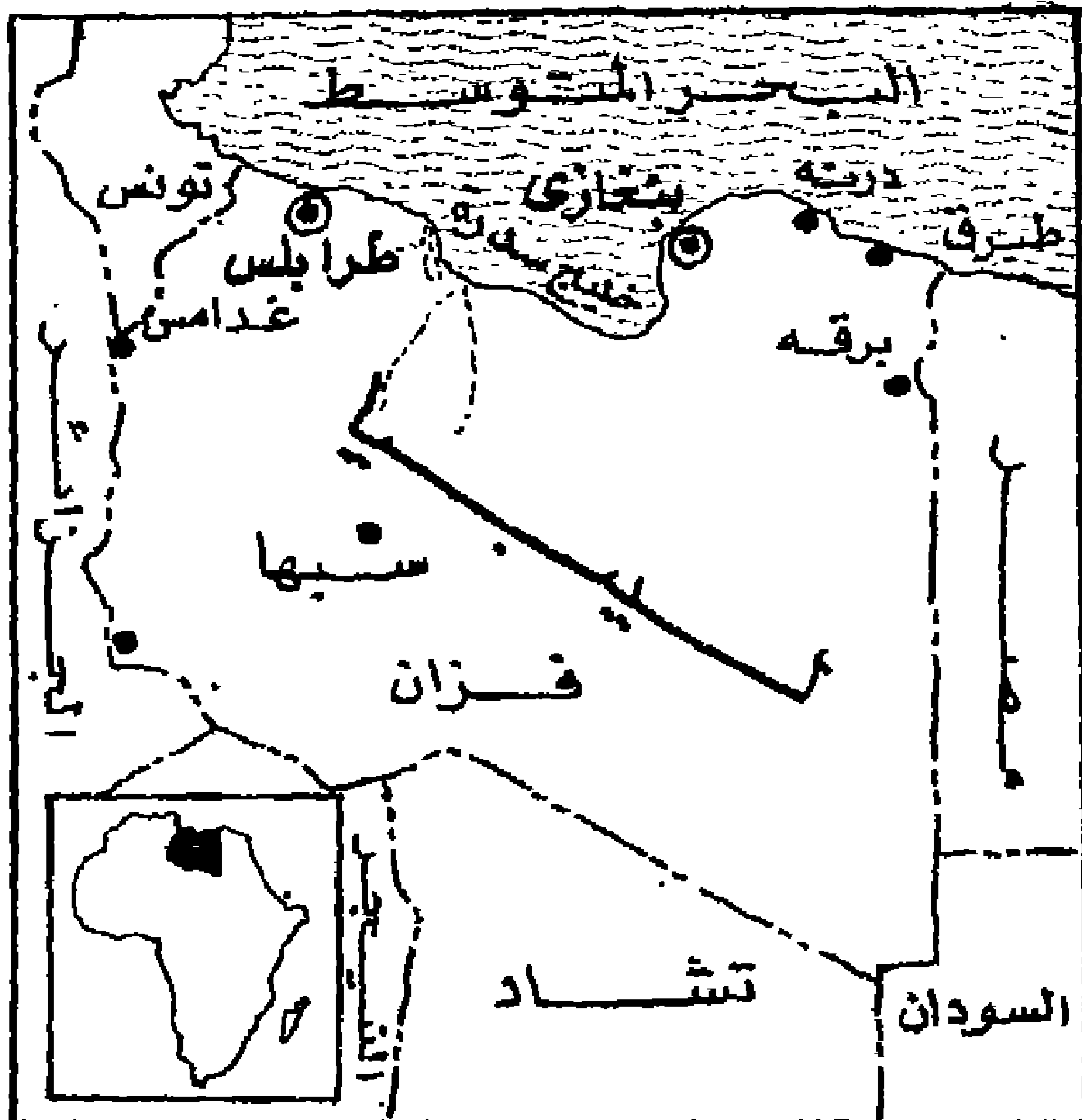
العملة : الدولار الأمريكى *U. S. Dollar*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢ نوفبر ١٩٤٥



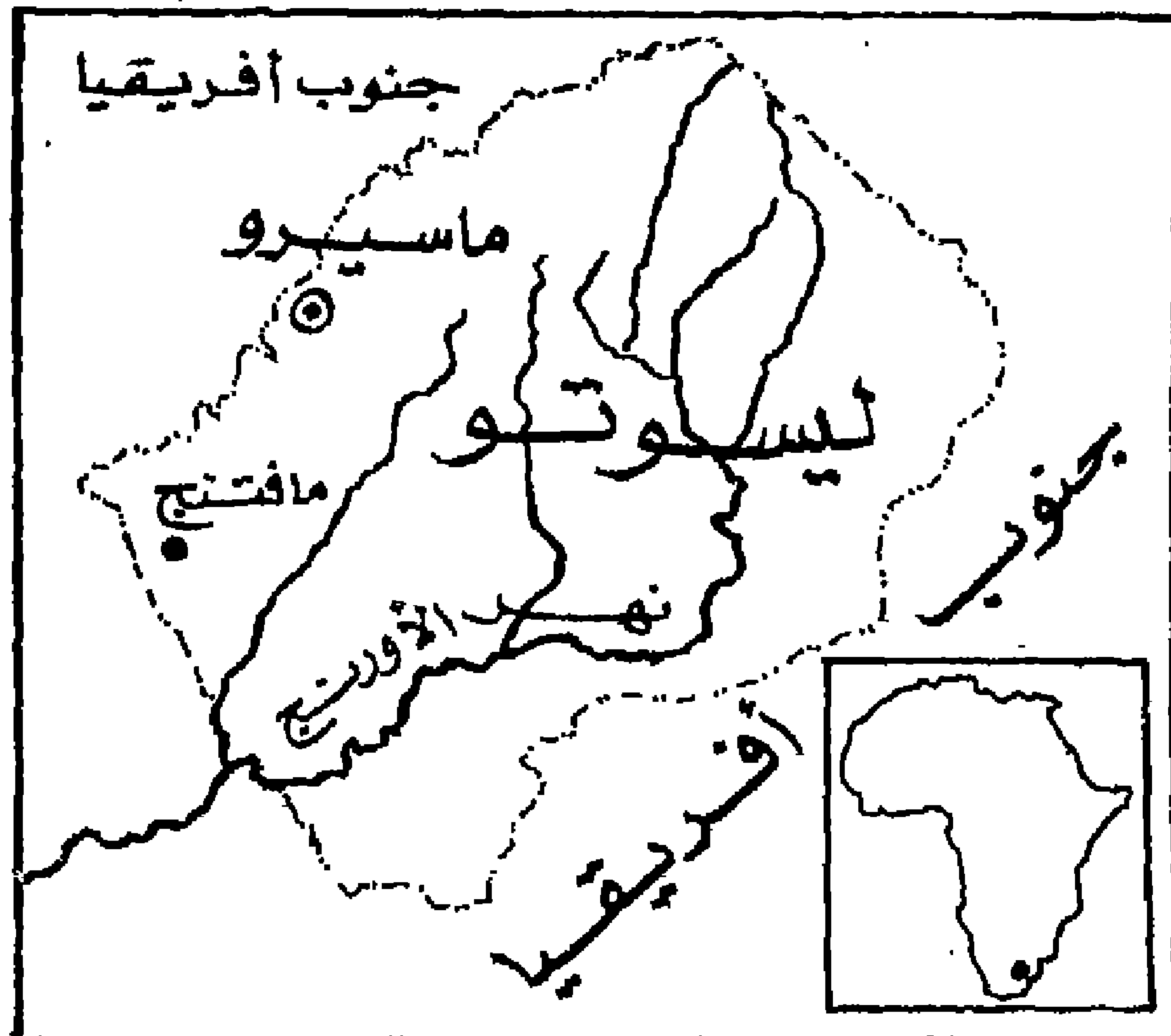
# ليبيا LIBYA

الاسم الرسمى : الجمهورية العربية الليبية
نظام الحكم : جمهورى
المساحة : ١٧٥٩٥٤٠ كيلومتراً مربعاً
عدد السكان : ٢٠٠٠٠٠٠ نسمة
كثافة السكان : ١ نسمة فى الكيلومتر المربع
العاصمة : طرابلس Tripoli
السكان : ٢٥٠٠٠٠ نسمة
موقع العاصمة : ٥٨َ ٣٢ْ شمالاً ، و ١٢َ ١٣ْ شرقاً
العملة : الجنيه الليبى
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٤ ديسمبر ١٩٥٥



## ليسوتو *LESOTHO*

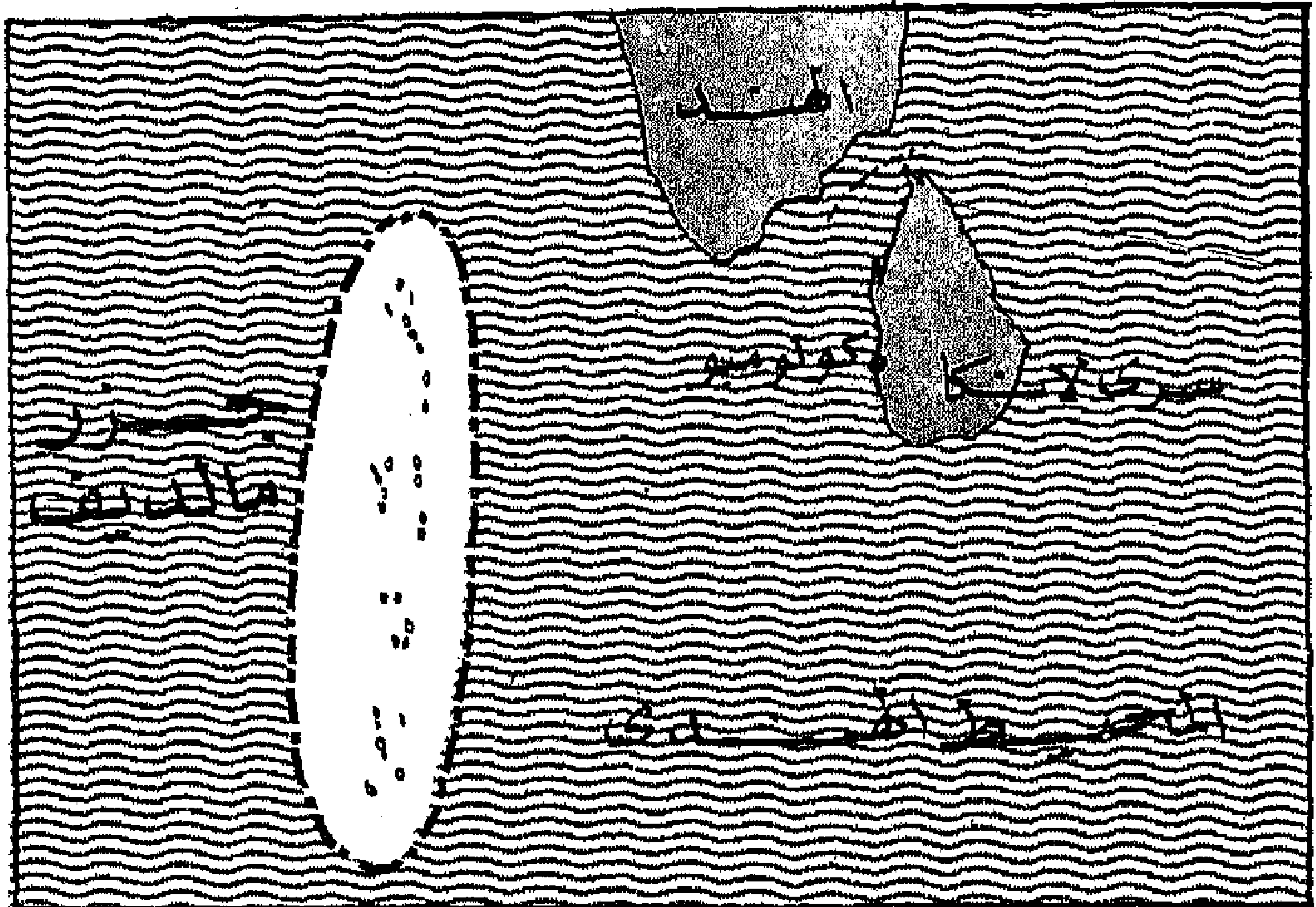
الاسم السابق : باسوتولاند
الاسم الرسمى : *Kingdom of Lisotho*
نظام الحكم : ملكى
المساحة : ٣٠٣٥٥ كيلومتراً مربعاً
عدد السكان : ١٠٠٠٠٠٠ نسمة
كثافة السكان : ٣٣ نسمة فى الكيلومتر المربع
العاصمة : ماسيرو *Maseru*
السكان : ٢٠٠٠٠ نسمة
موقع العاصمة : ١٩َ ٢٩ْ جنوباً ، و ٢٩َ ٢٧ْ شرقاً
العملة : راند *S. Afr. Rand*
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٧ أكتوبر ١٩٦٦



## مالاديف ( جزر ) MALADIVE ISLANDS

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى : | | | Republic of Maladive |
| نظام الحكم : | جمهورى | | |
| المساحة : | ٢٩٨ | كيلومتراً مربعاً | |
| عدد السكان : | ١١٥ ؛ ٠٠٠ | نسمة | |
| كثافة السكان : | ٣٨٦ | نسمة فى الكيلومتر المربع | |
| العاصمة : | مالى | | Malé |
| السكان : | ١٥ ٠٠٠ | نسمة | |
| موقع العاصمة : | ٢٠َ ٦ْ شمالاً ، و ٠٠َ ٧٣ْ شرقاً | | |
| العملة : | روبية | | Rupee |

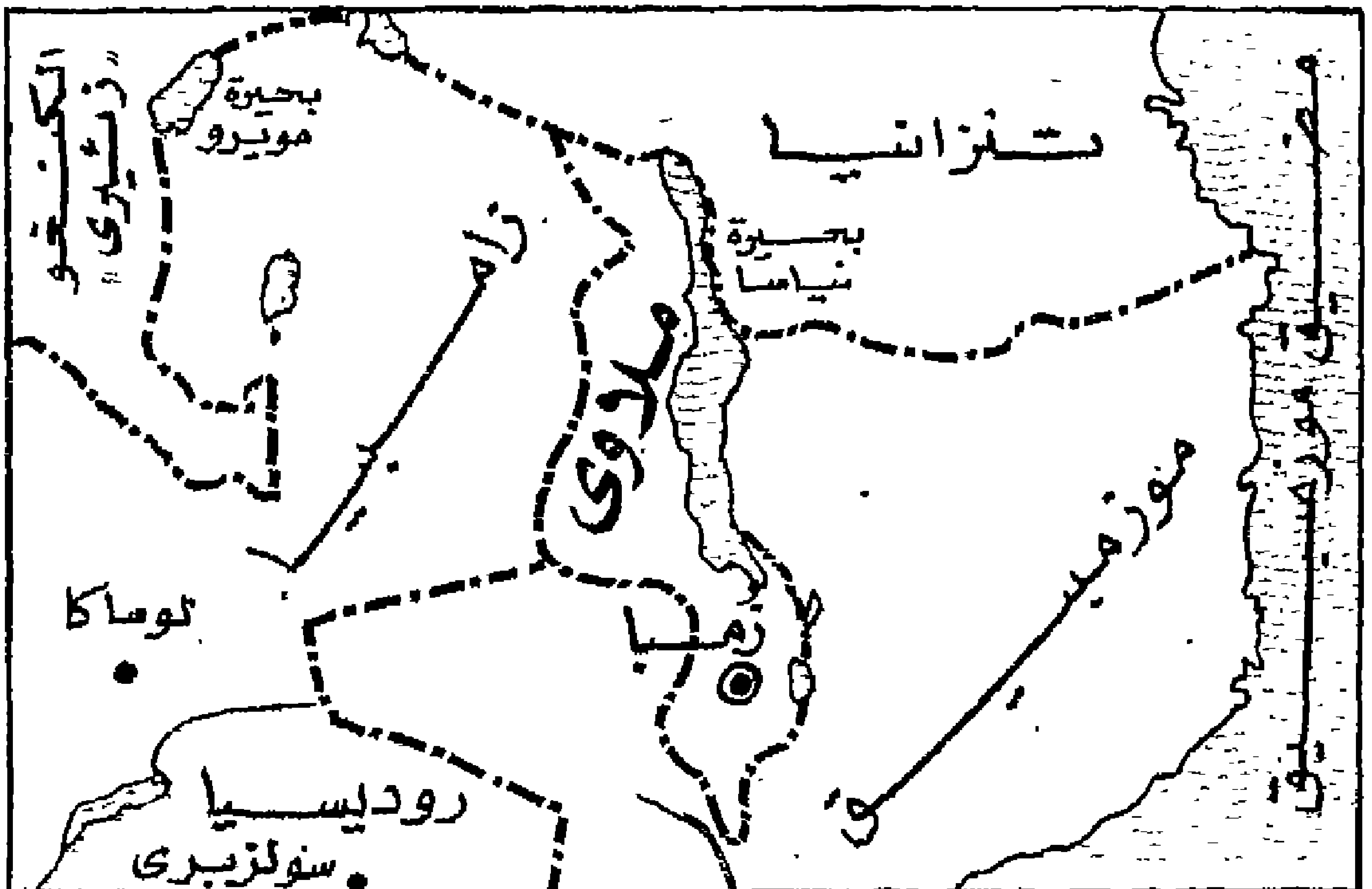
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢١ سبتمبر ١٩٦٥



## مالاوى — *MALAWI*

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم السابق | : | نياسالاند | *Nyasaland* |
| الاسم الرسمى | : | | *Republic of Malawi* |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ١١٧ ٧٠٠ | كيلو متر مربع |
| عدد السكان | : | ٤ ٨٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٤ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | زومبا | *Zomba* |
| السكان | : | ٢٥ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٢٢َ ١٥ْ جنوباً ، و ٢٢َ ٣٥ْ شرقاً | |
| العملة | : | الجنيه المالاوى | *Mal, Pound* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١ ديسمبر ١٩٦٤



## مالايزيا — MALAYSIA

الاسم الرسمى : اتحاد ماليزيا — *Federation of Malaysia*

نظام الحكم : ملكى دستورى اتحادى

المساحة : ٣٣٢ ٦٣٣ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ١١ ٧٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٣٥ نسمة فى الكيلومتر المربع

العاصمة : كوالالمبور — *Kuala Lumpur*

السكان : ٦٠٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٠٨َ ٣ْ شمالاً ، و ٤٢َ ١٠١ْ شرقاً

العملة : الدولار المالاوى — *Malayan Dollar*

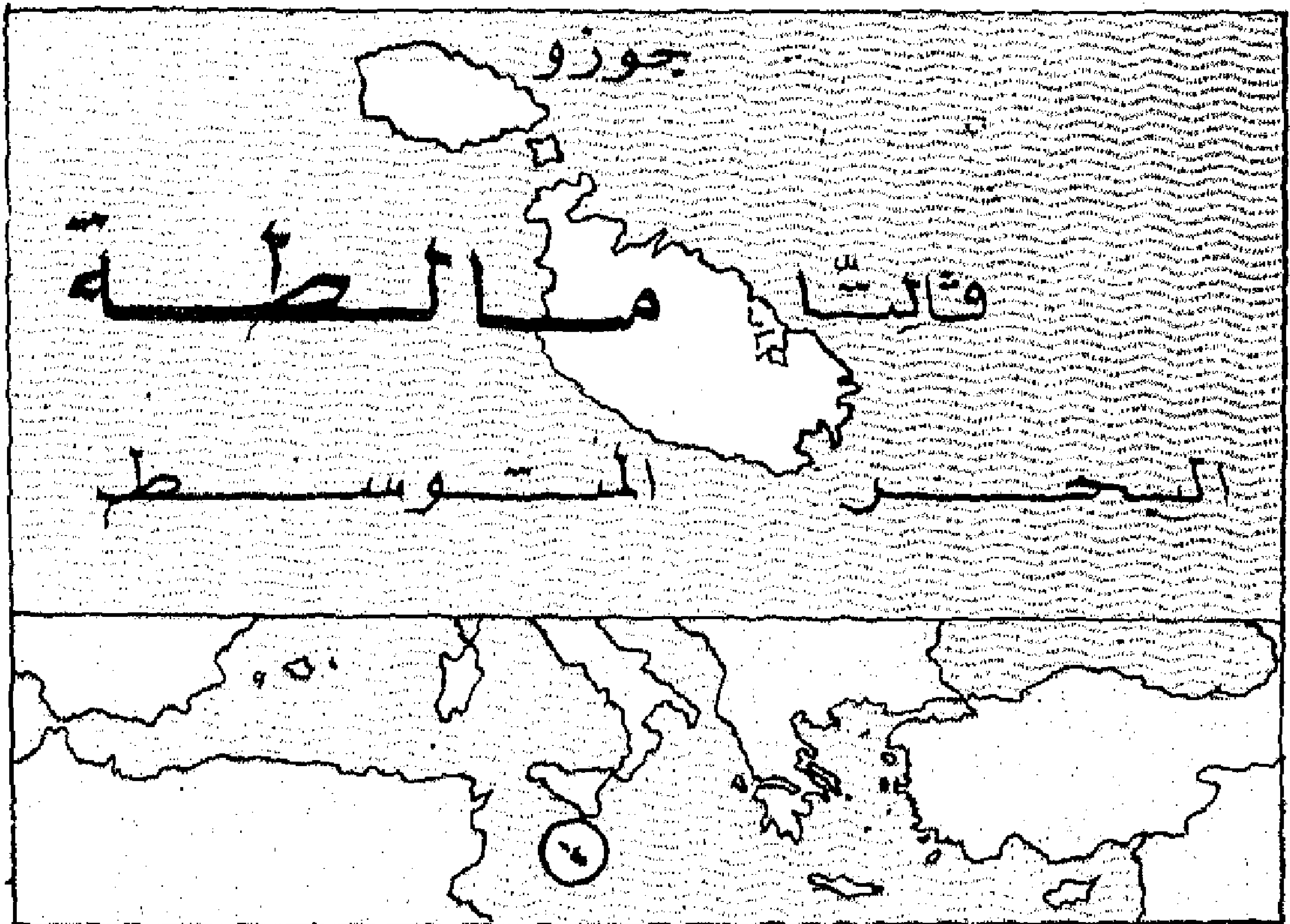
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٧ سبتمبر ١٩٥٧



## مالطة MALTA

| | | |
|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | Stat ta' Malta |
| نظام الحكم | : | مستقلة ، وعضو الكومنولث |
| المساحة | : | ٣١٦ كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٣٣٠٠٠٠ نسمة |
| كثافة السكان | : | ١٠٤٤ نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | فالتا Valetta |
| السكان | : | ١٥٠٠٠ نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٥٣َ ٣٥ْ شمالاً ، و ٣١َ ١٤ْ شرقاً |
| العملة | : | الباوند Pound |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١ ديسمبر ١٩٦٤



**مالى** *MALI*

الاسم الرسمى : *République du Mali*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ١ ٢٤٠ ٠٠٠ كيلو متر مربع

عدد السكان : ٥ ٢٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٤ نسمة فى الكيلومتر المربع

العاصمة : باماكو *Bamaco*

السكان : ٢٢٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٤٠َ ١٢ْ شمالاً ، و ٥٩َ ٧ْ غرباً

العملة : الفرنكك المالى *M. Franc*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦٠



## المجر — *HUNGARY*

الاسم الرسمي : *Magyar Nepkoztarsasag*

نظام الحكم : جمهورية شعبية

المساحة : ٩٣٠٣٠ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ١٠،٤٠٠،٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١١٢ نسمة فى الكيلومتر المربع

العاصمة : بودابست *Budapest*

السكان : ٢٠٠٠٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٤٧َ ٤٧ْ شمالاً ، و ٠٣َ ١٩ْ شرقاً

العُملة : فورينت *Forint*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٤ ديسمبر ١٩٥٥



## مدغشقر — *MADAGASCAR*

الاسم الرسمى : *Rupublica Malagasi*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ٥٨٧ ٠٤١ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٧ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١٢ نسمة فى الكيلومتر المربع

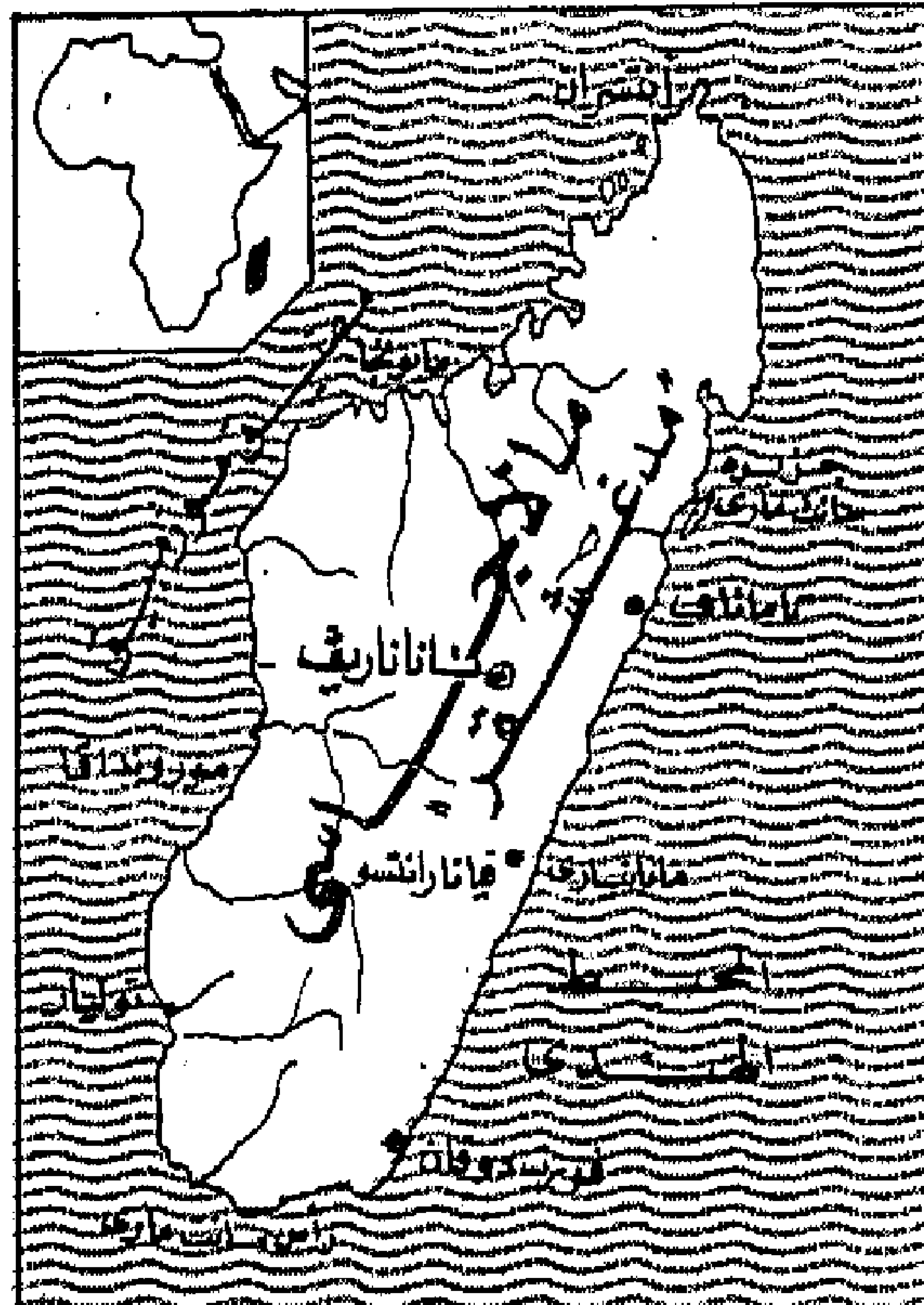
العاصمة : تاناناريف *Tananarive*

السكان : ٤٠٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٥٢َ ١٨ْ جنوباً ، و ٣٠َ ٤٧ْ شرقاً

العُملة : الفرنك المالاجاشى *Madag. Franc.*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٠ سبتمبر ١٩٦٠



## مراكش MOROCCO

الاسم الرسمى : المملكة المغربية

نظام الحكم : ملكى

المساحة : ٤٤٥٠٥٠ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ١٦٥٠٠٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٣٧ نسمة فى الكيلومتر المربع

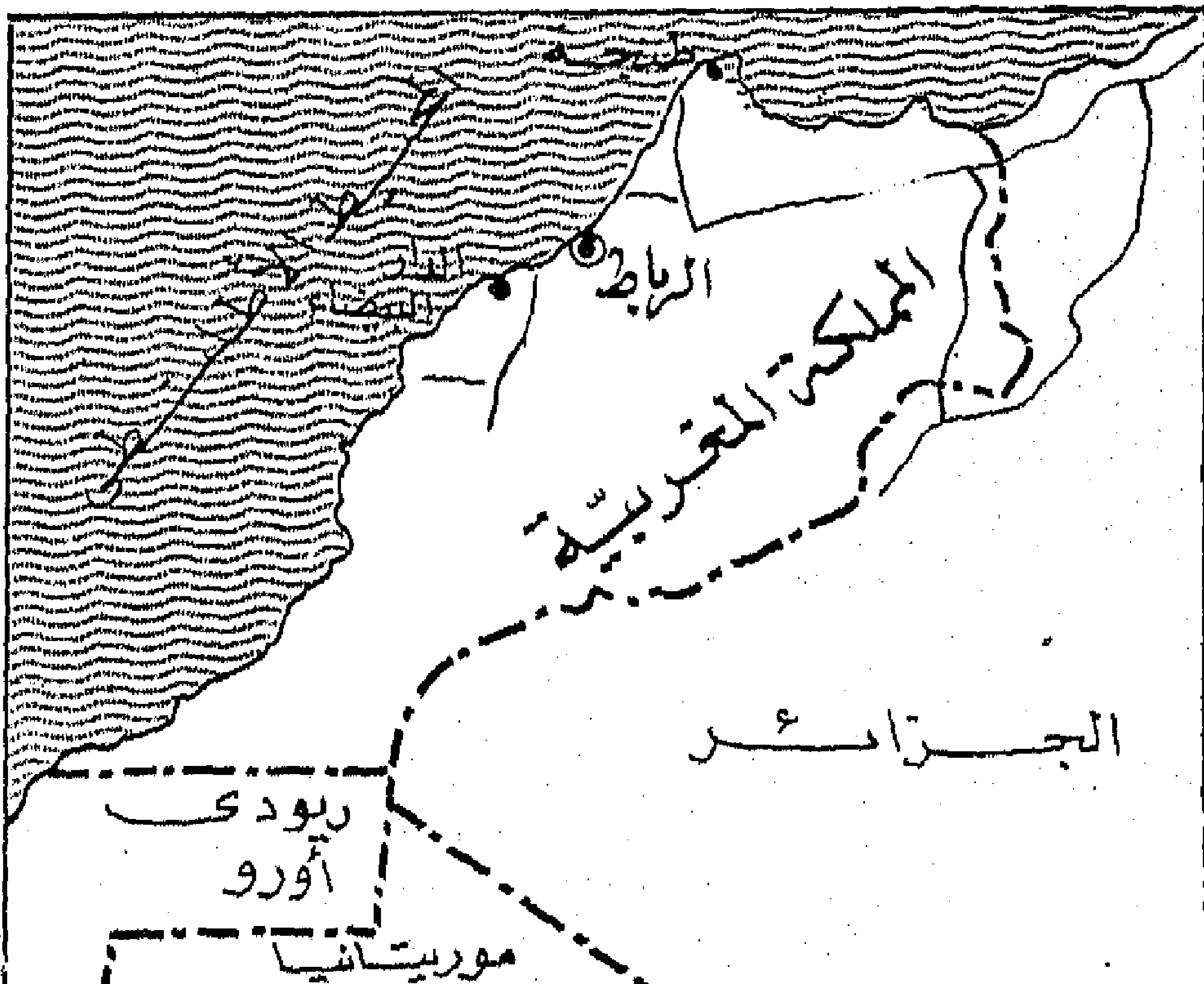
العاصمة : الرباط Rabat

السكان : ٥٠٠٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٥٩َ ٣٣ْ شمالا ، و٤٧َ ٦ْ غرباً

العملة : درهم Dirham

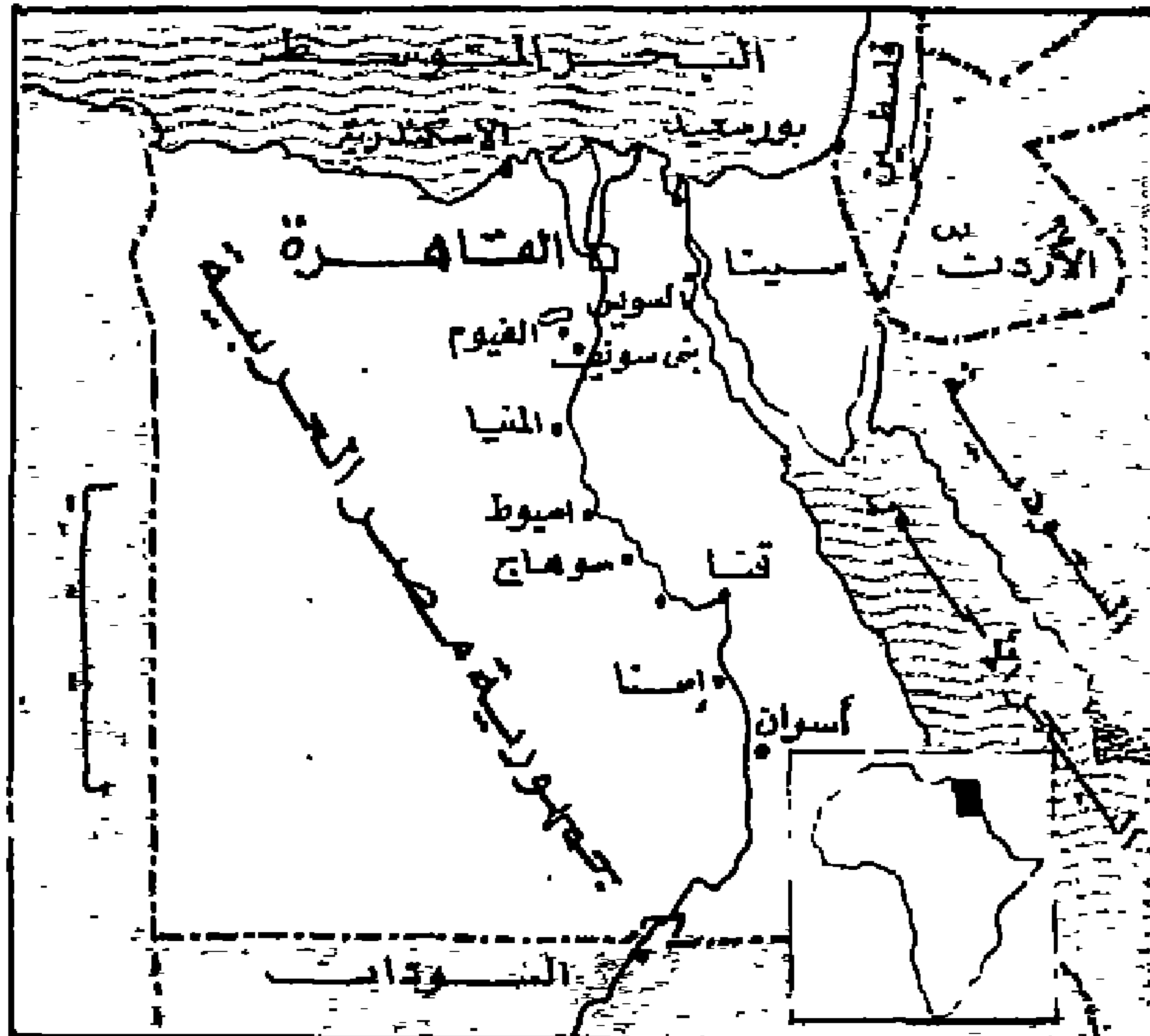
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٢ نوفمبر ١٩٥٦



## مصر — *EGYPT*

| | | |
|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | جمهورية مصر العربيّة |
| نظام الحكم | : | جمهورى |
| المساحة | : | ١٠٠٠ ٠٠٠ كيلومتر مربع |
| عدد السكان | : | ٣٦ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة |
| كثافة السكان | : | ٣٦ نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | القاهرة *Cairo* |
| السكان | : | ٧ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٠٣َ ٣٠ْ شمالاً ، و ١٥َ ٣١ْ شرقاً |
| العُملة | : | الجنيه *Eg. Pound* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥



## المكسيك MEXICO

الاسم الرسمي : *Estados Unidos Mexicanos*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ١٩٧٢٥٤٦ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٥١٧٠٠٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٢٦ نسمة فى الكيلومتر المربع

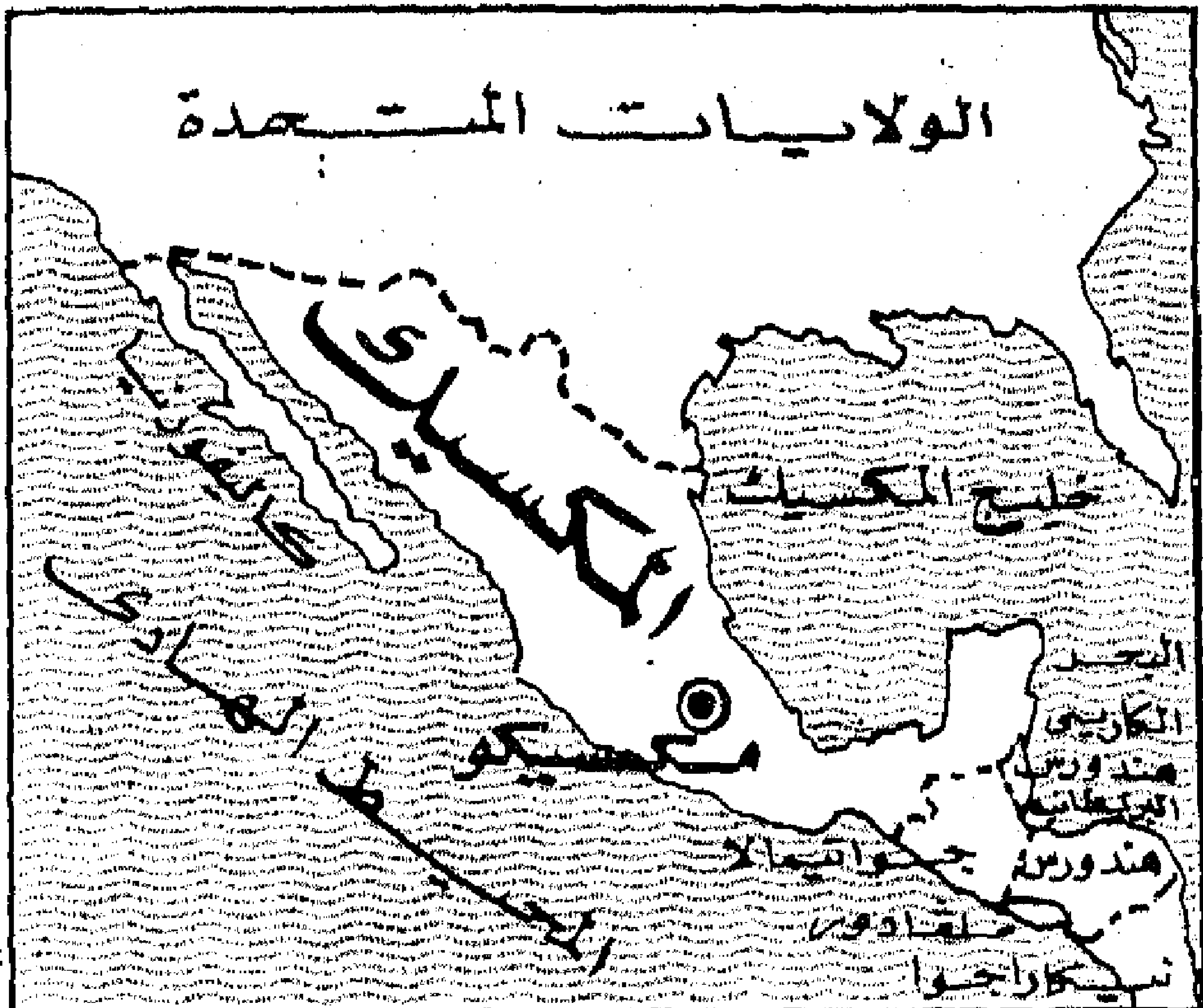
العاصمة : مدينة المكسيك *Mexico City*

السكان : ٣٦٠٠٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٢٥َ ١٩ْ شمالاً . و ١٠َ ٩٩ْ غرباً

العملة : بيزو *Peso*

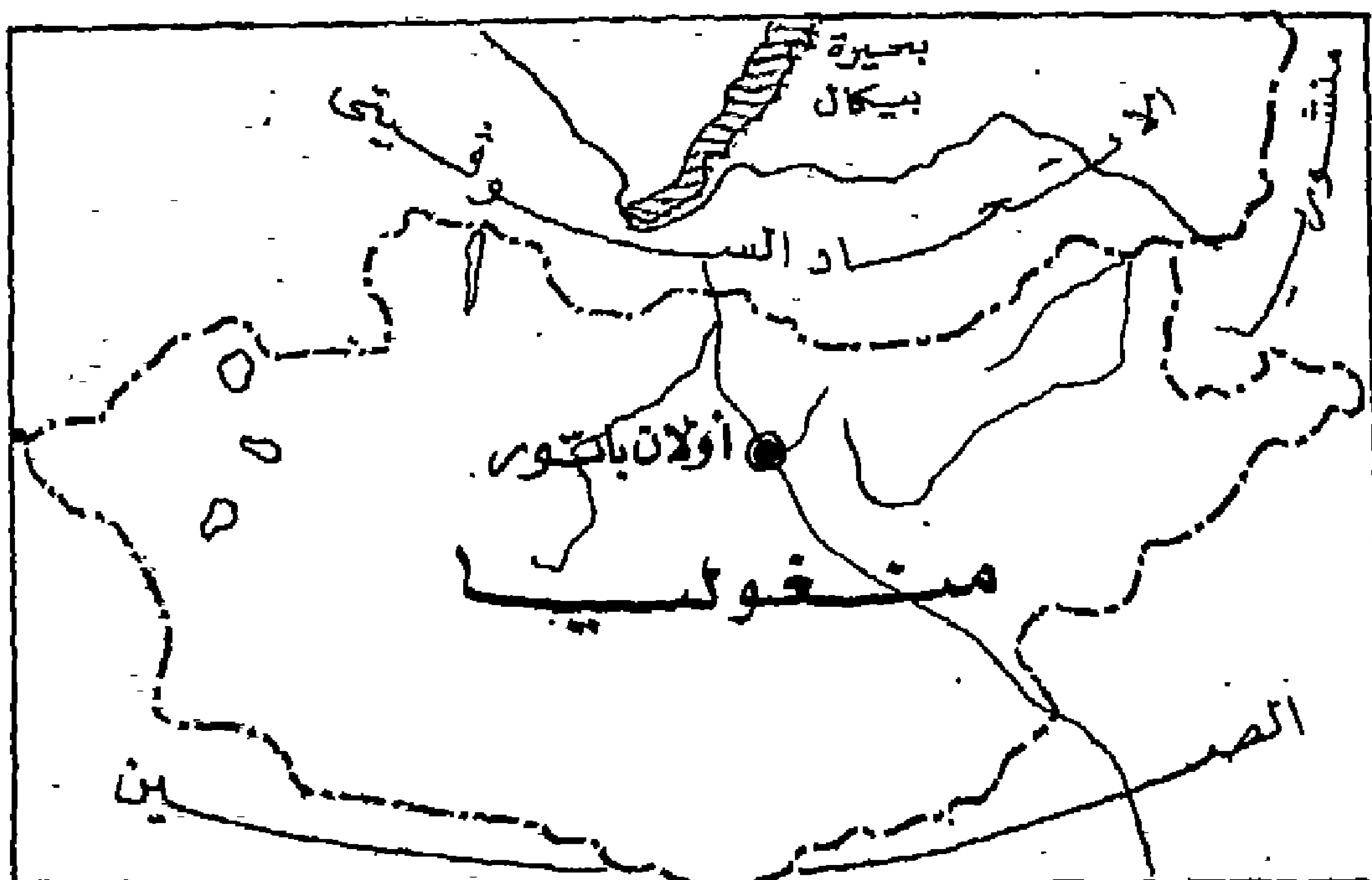
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٧ نوفمبر ١٩٤٥



## منغوليا MONGOLIA

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | *Bughut Nairamdakh Mongol Arat Ulus* | |
| نظام الحكم | : | جمهورية شعبية | |
| المساحة | : | ١ ٥٦٥ ٠٠٠ | كيلومتر مربع |
| عدد السكان | : | ٢ ٤٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ١ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | أولان باتور | *Ulan Batur* |
| السكان | : | ٣٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٥٤َ ٤٧ْ شمالاً ، و ٥٢َ ١٠٦ْ شرقاً | |
| العملة | : | توجريك | *Tughrik* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٧ أكتوبر ١٩٦١



## موريتانيا *MAURITANIA*

الاسم الرسمى : الجمهورية الإسلامية الموريتانية

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ١٠٣٠٧٠٠ كيلومتر مربع

عدد السكان : ١٢٠٠٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١ نسمة فى الكيلومتر المربع

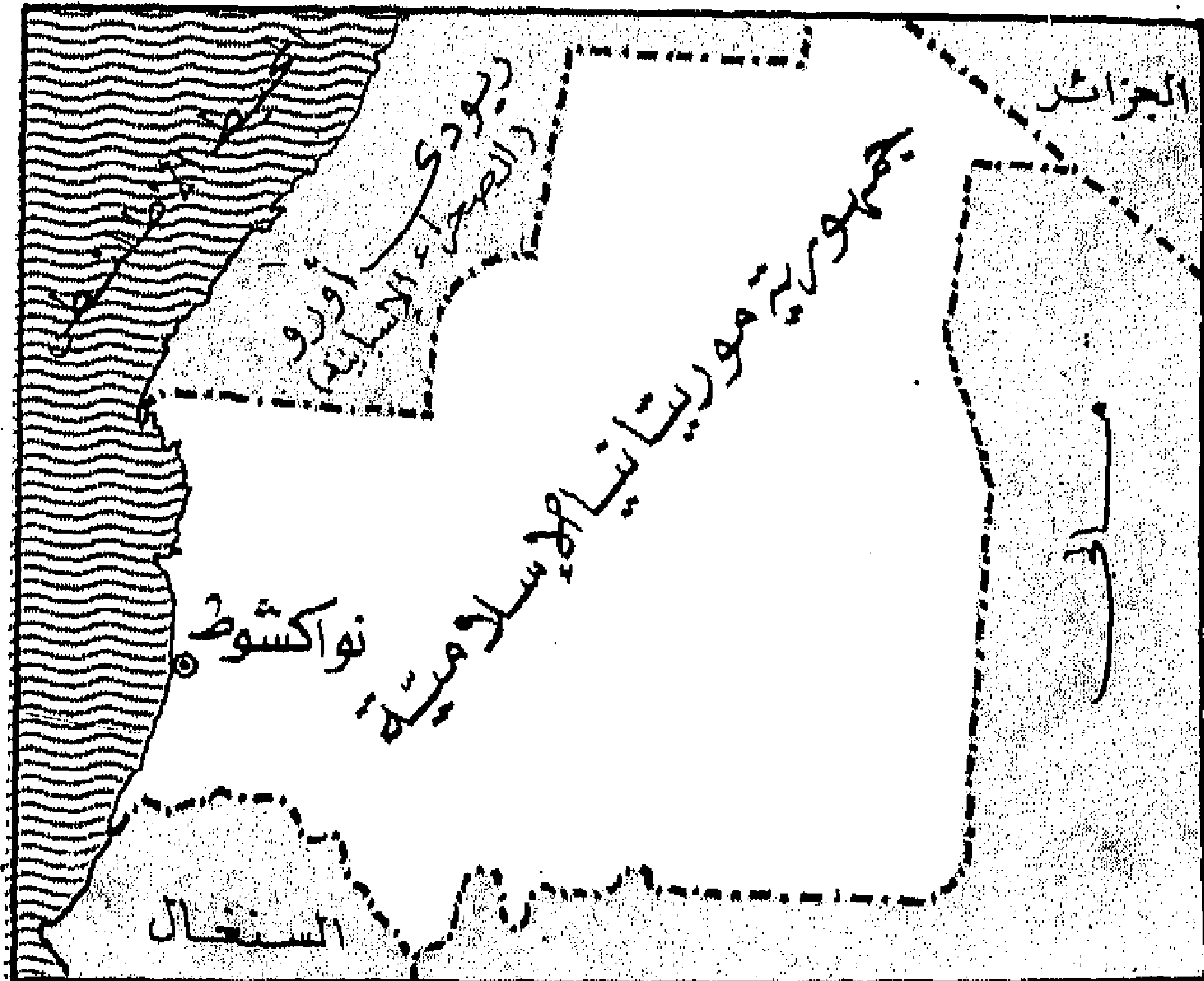
العاصمة : نواكشوط *Nouakchott*

السكان : ٤٠٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٠٩َ ١٨ْ شمالاً ، و ٥٨َ ١٥ْ غرباً

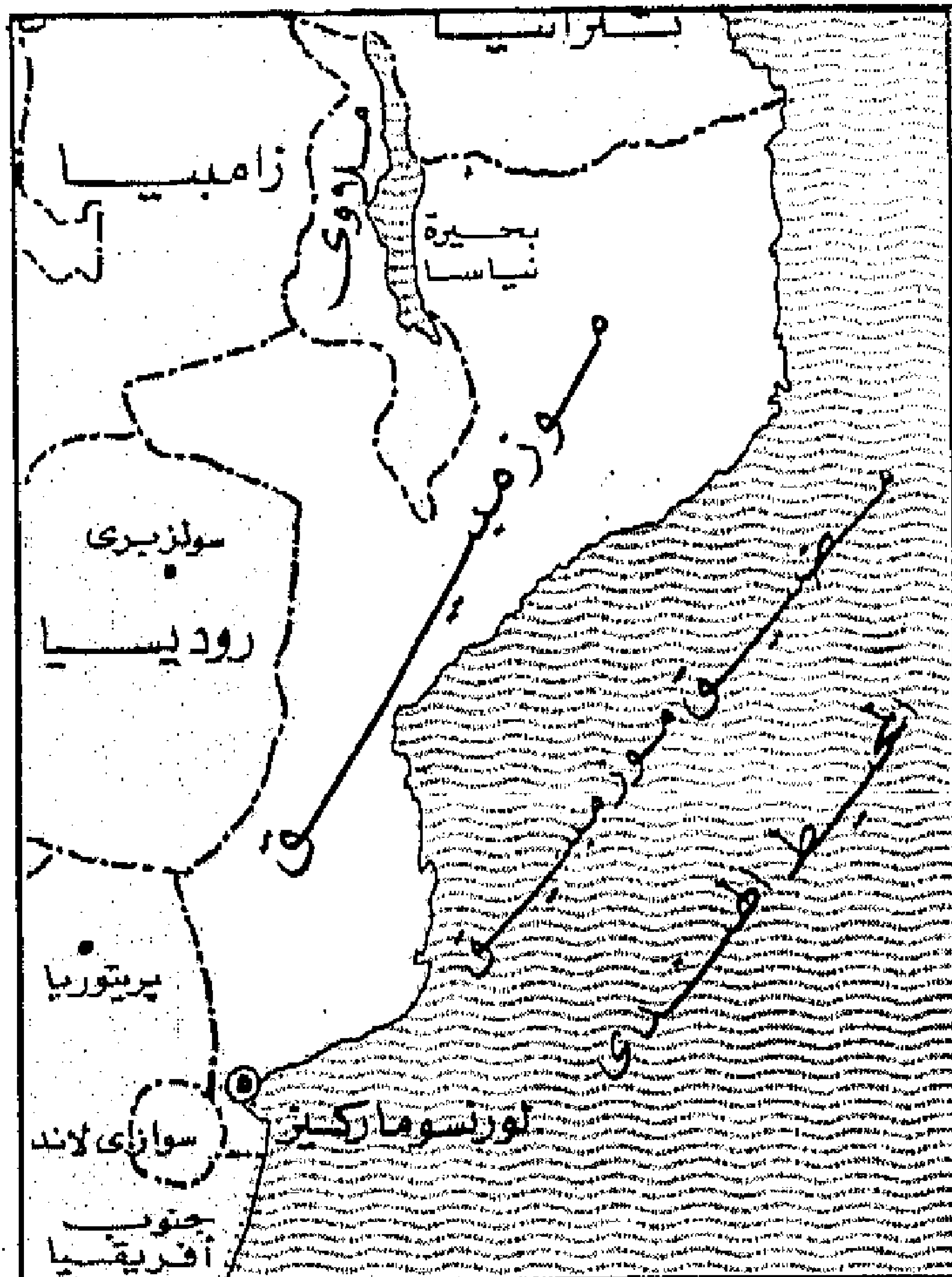
العملة : الفرنك *Franc*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٧ أكتوبر ١٩٦١



## موزمبيق MOZAMBIQUE

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمي | : | *Africa Oriental Portuguesa* | |
| نظام الحكم | : | مستعمرة برتغالية تكافح للاستقلال | |
| المساحة | : | ٧٨٣ ٠٣٠ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٧ ٧٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ١٠ | نسمة في الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | لورنزو ماركيز | *Lourenco Marques* |
| السكان | : | ٢٥٠ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٥٨َ ١٥ْ جنوباً ، و ٣٥َ ٣٢ْ شرقاً | |
| العُملة | : | البرتغالية | |



## النرويج — *NORWAY*

الاسم الرسمى : *Kongerket Norge*

نظام الحكم : ملكى

المساحة : ٣٢٤ ٢١٩ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٤٠٠٠٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١٢ نسمة فى الكيلومتر المربع

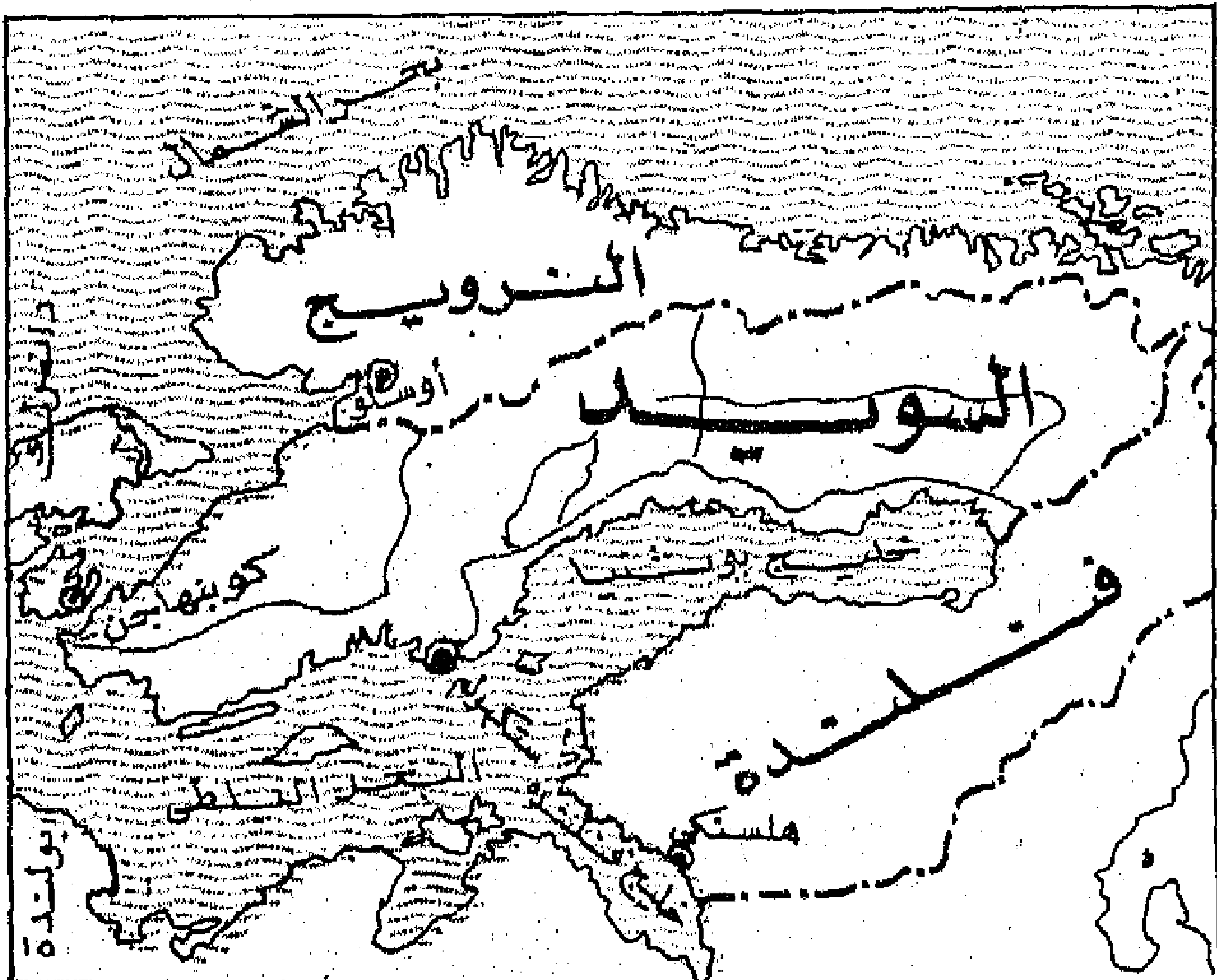
العاصمة : أوسلو *Oslo*

السكان : ٥٥٠٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٥٦َ ٥٩ْ شمالاً ، و ٤٥َ ١٠ْ شرقاً

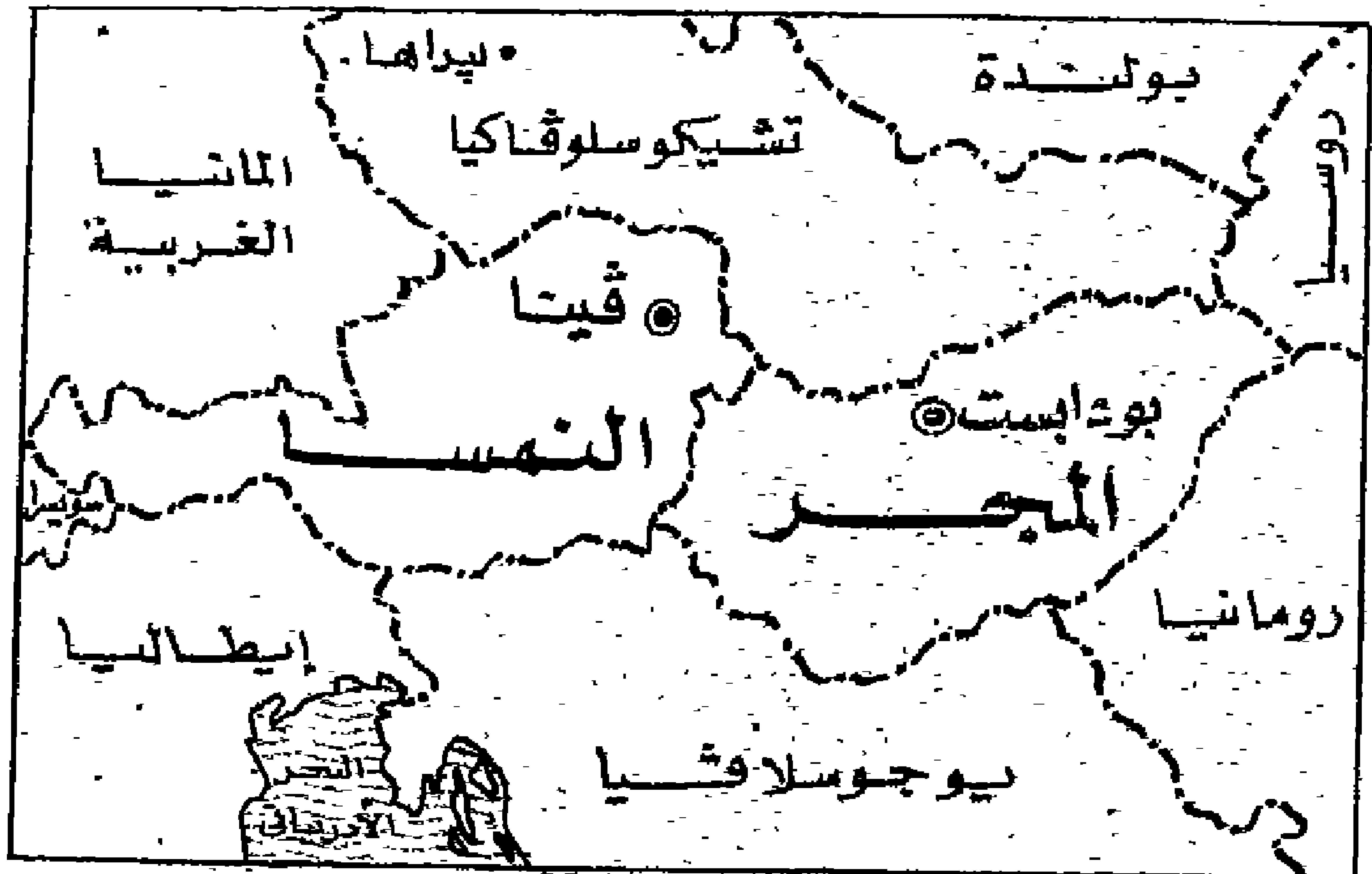
العملة : كرون *Krone*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٧ نوفمبر ١٩٤٥



| | | | |
|---|---|---|---|
| النمسا | : | | *AUSTRIA* |
| الاسم الرسمى | : | | *Republik Oesterreich* |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ٨٣٨٥٠ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٧٥٠٠٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٩٠ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | فينا | *Vienna* |
| السكان | : | ١٦٠٠٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ١٢َ ٤٨ْ شمالاً ، و ٢٢َ ١٦ْ شرقاً | |
| العُملة | : | الشلن | *Schilling* |

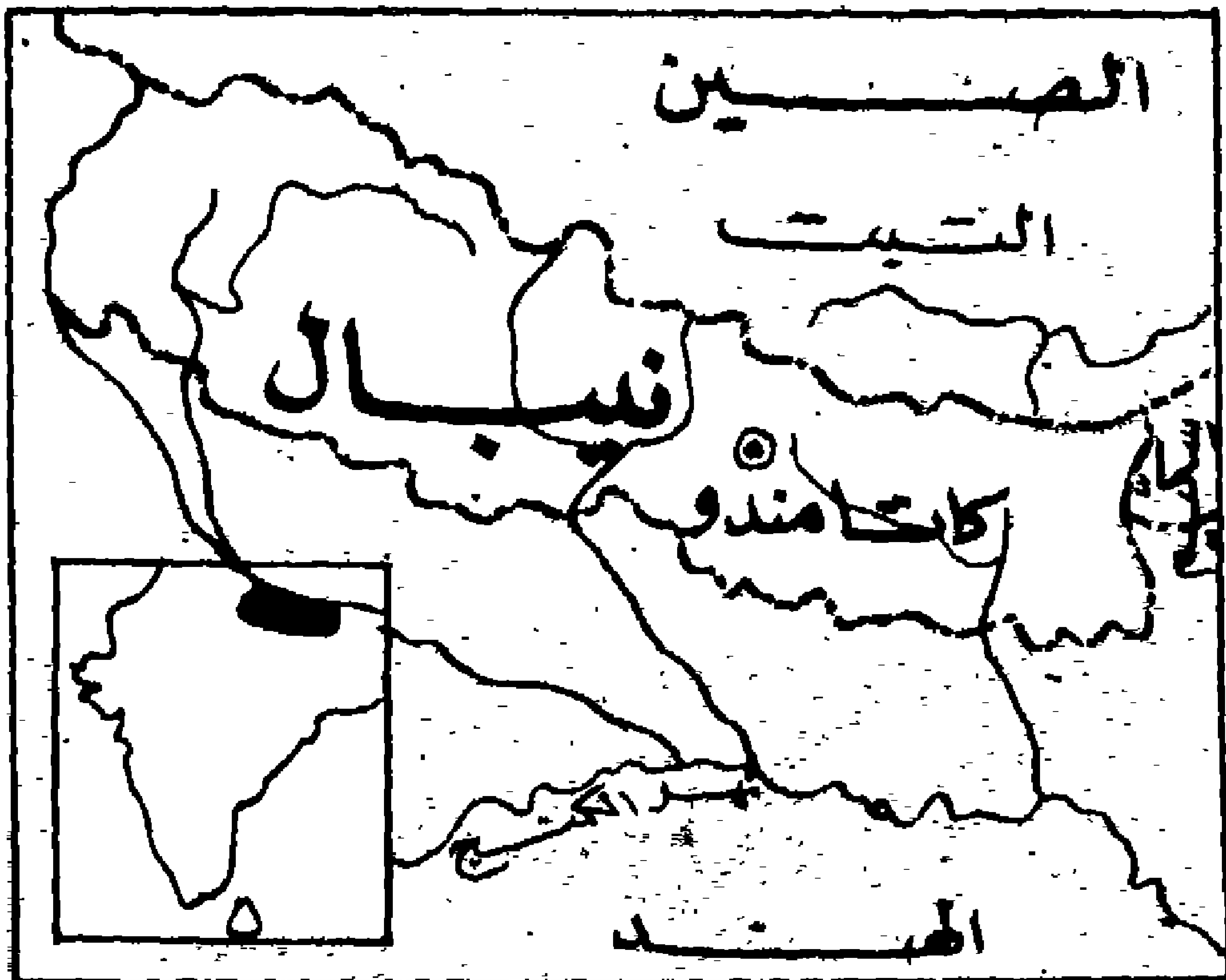
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٤ ديسمبر ١٩٥٥



## نيبال NEPAL

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | | Shri Nepala Sarkar |
| نظام الحكم | : | ملكى | |
| المساحة | : | ١٤٠ ٧٩٧ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ١١ ٤٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٨١ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | كاتماندو | Katmandu |
| السكان | : | ٢٥٠ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٤٢َ ٢٧ْ شمالاً ، و ١٩َ ٨٥ْ شرقاً | |
| العملة | : | الروبية النيبالية | Nepal. Rupee |

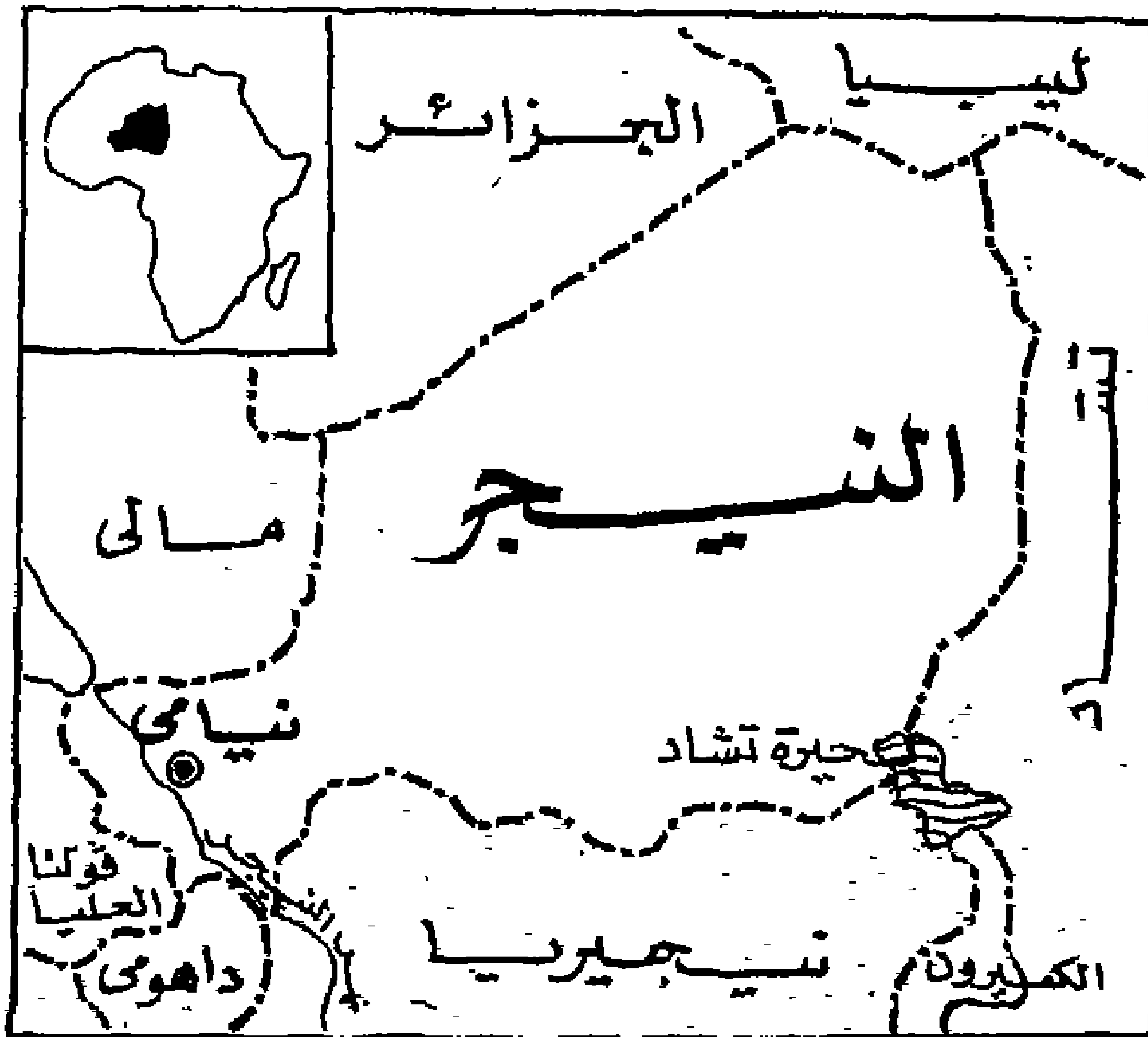
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٤ ديسمبر ١٩٥٥



## النيجر NIGER

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | | *République du Niger* |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ١ ٢٦٧ ٠٠٠ | كيلومتر مربع |
| عدد السكان | : | ٤ ٣٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٣ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | نيامى | *Niamey* |
| السكان | : | ١٢٥ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٣٢َ ١٣ْ شمالاً ، و ٠٥َ ٢ْ شرقاً | |
| العُملة | : | فرنك | *Franc* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٠ سبتمبر ١٩٦٠



## نيجيريا NIGERIA

الاسم الرسمي : *Federal Republic of Nigeria*

نظام الحكم : جمهوري اتحادى

المساحة : ٩٢٣ ٧٦٨ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٦٩ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٧٥ نسمة فى الكيلومتر المربع

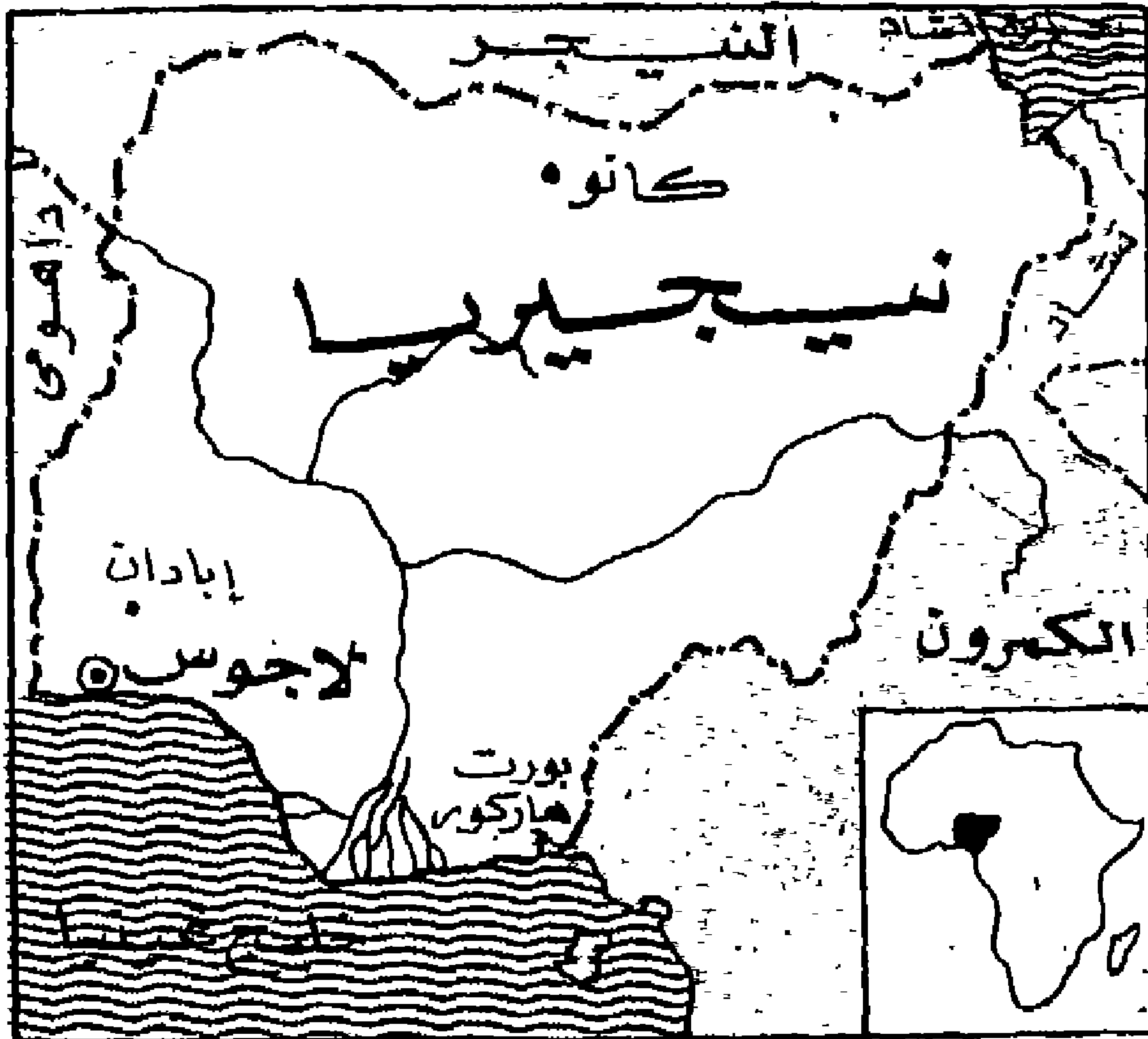
العاصمة : لاجوس *Lagos*

السكان : ٧٥٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٢٧َ ٦ْ شمالاً . و ٢٨َ ٣ْ شرقاً

العملة : نايرو *Nairo*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٧ أكتوبر ١٩٦٠



## نيكاراجوا NICARAGUA

الاسم الرسمى : *Republica de Nicaragua*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ١٣٠٠٠٠ كيلومتر مربع

عدد السكان : ٢١٠٠٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١٦ نسمة فى الكيلومتر المربع

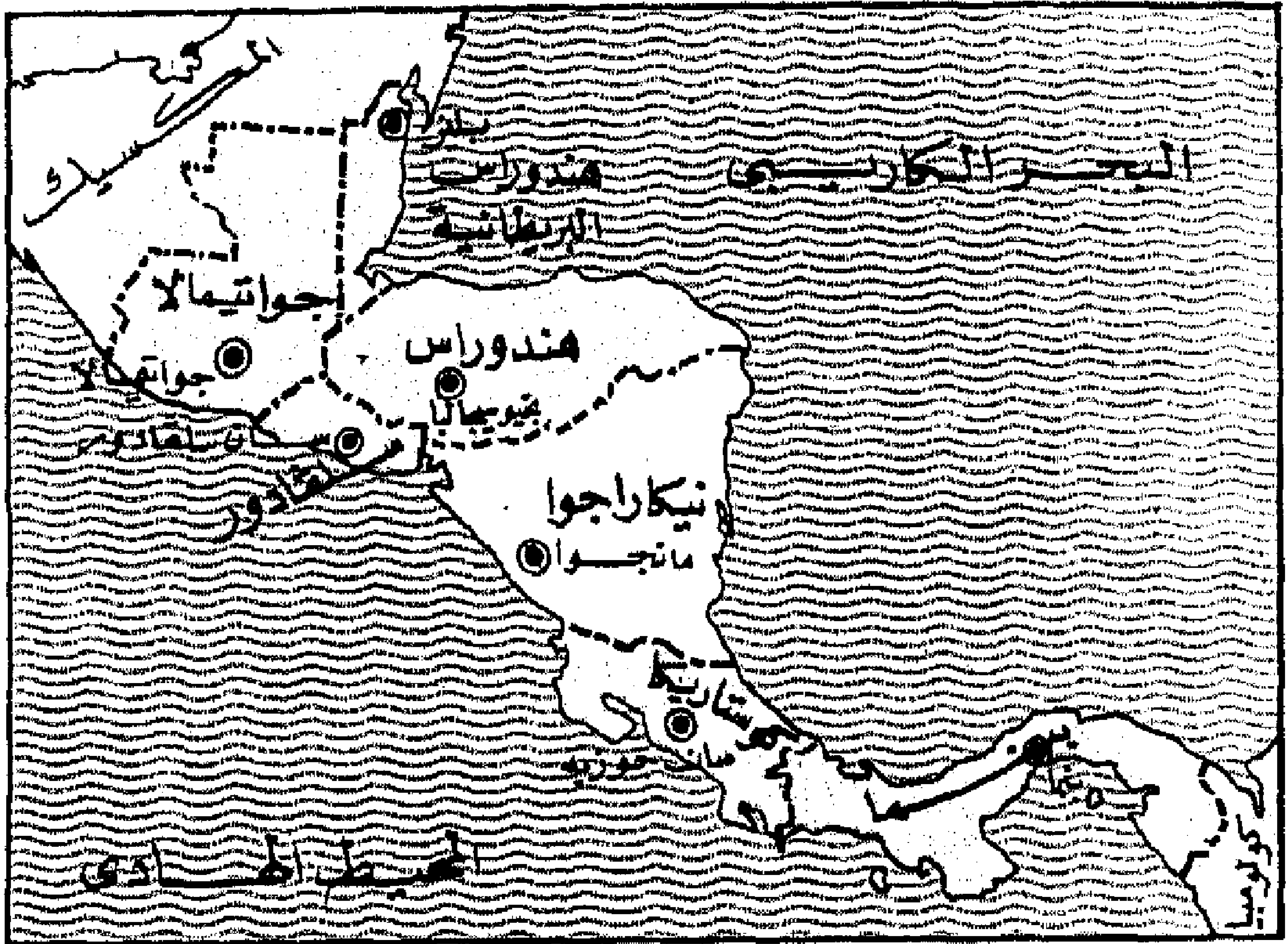
العاصمة : ماناجوا *Managua*

السكان : ٣٥٠٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٠٦َ ١٢ْ شمالاً . و ١٨َ ٨٦ْ غرباً

العُملة : كردوبا *Cordoba*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥



## نيوزيلنده — *NEW ZEALAND*

نظام الحكم : كومنولث

المساحة : ٢٦٨ ٦٧٦ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٢ ٩٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١١ نسمة فى الكيلومتر المربع

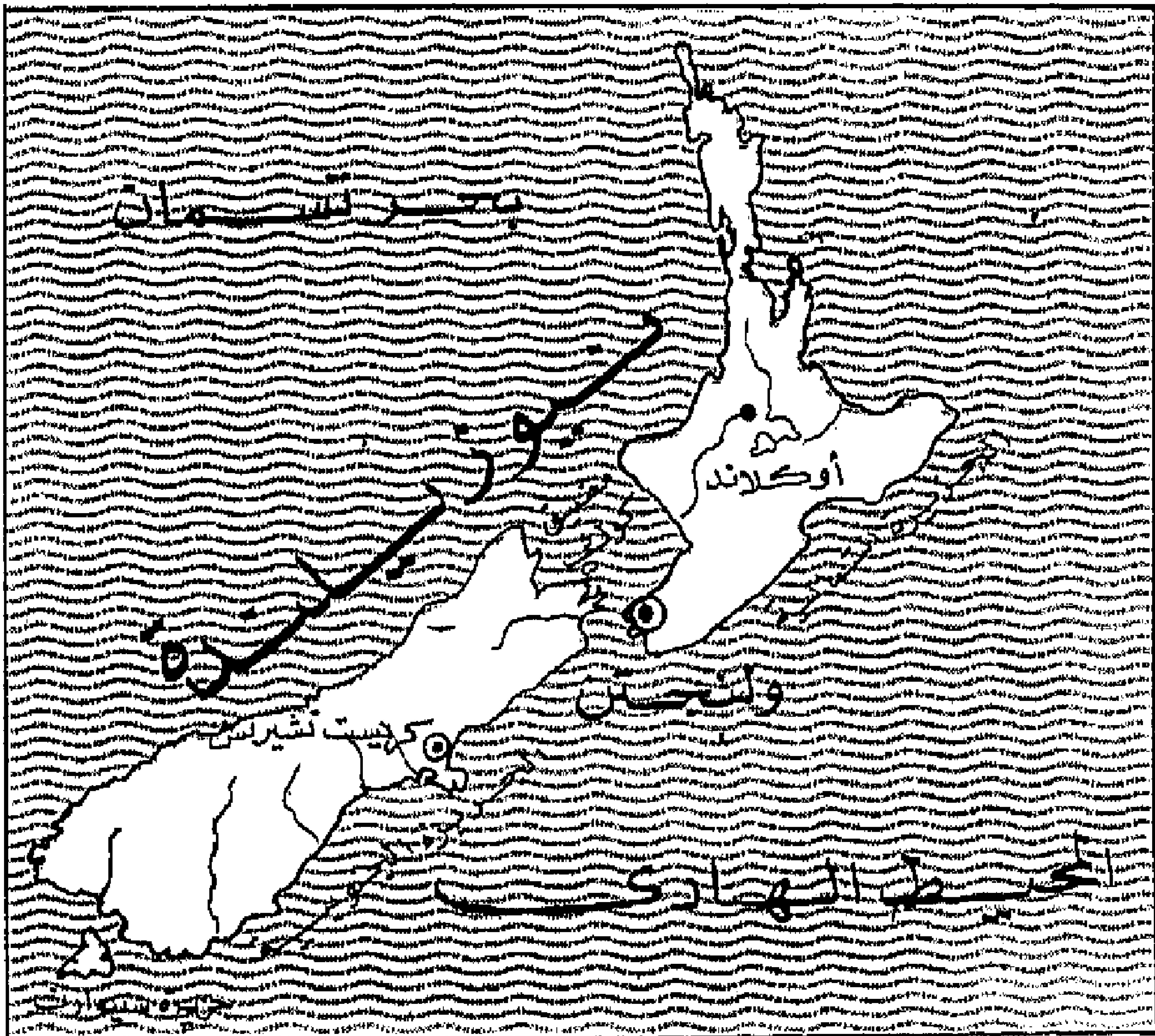
العاصمة : ولنجتون *Wellington*

السكان : ١٨٥ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ١٧ َ ٤١ ْ جنوباً . و ٤٧ َ ٧٤ ْ شرقاً

العُملة : الجنيه النيوزيلندى *N. Z. Pound*

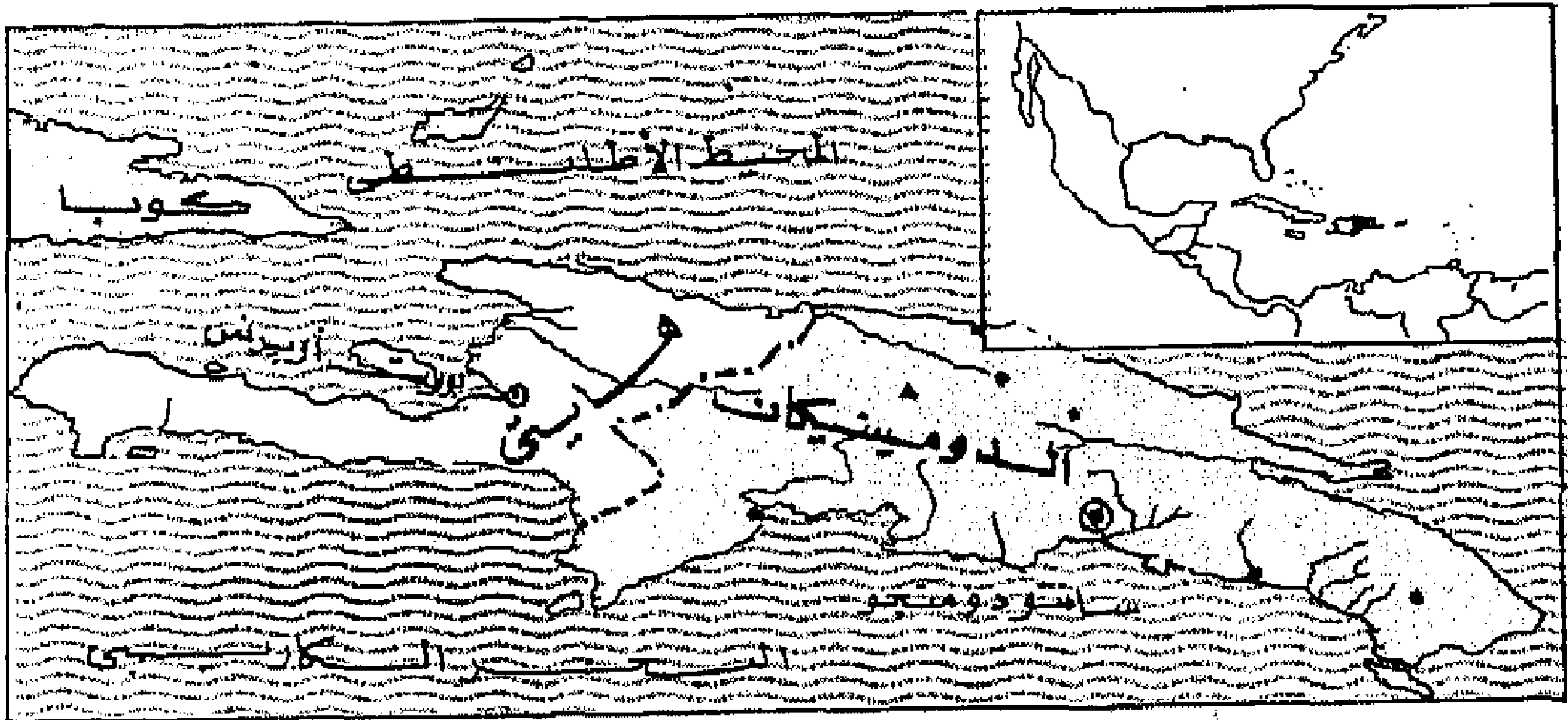
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥ .



# هايتى HAITI

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | | *Rèpublique d' Haiti* |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ٢٧ ٧٥٠ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٥ ١٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٥،١ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | بورت أو برنس | *Port-au-Prince* |
| السكان | : | ٣٥٠ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٣٣َ ١٨ْ شمالاً . و ٢٠َ ٧٢ْ غربا | |
| العُملة | : | جورد | *Gourde* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥



## الهند INDIA

الاسم الرسمى : Bharat (Republic of India)

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ٣٠٤٥٢٩٠ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٥٧٥٠٠٠٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ١٨٨ نسمة فى الكيلومتر المربع

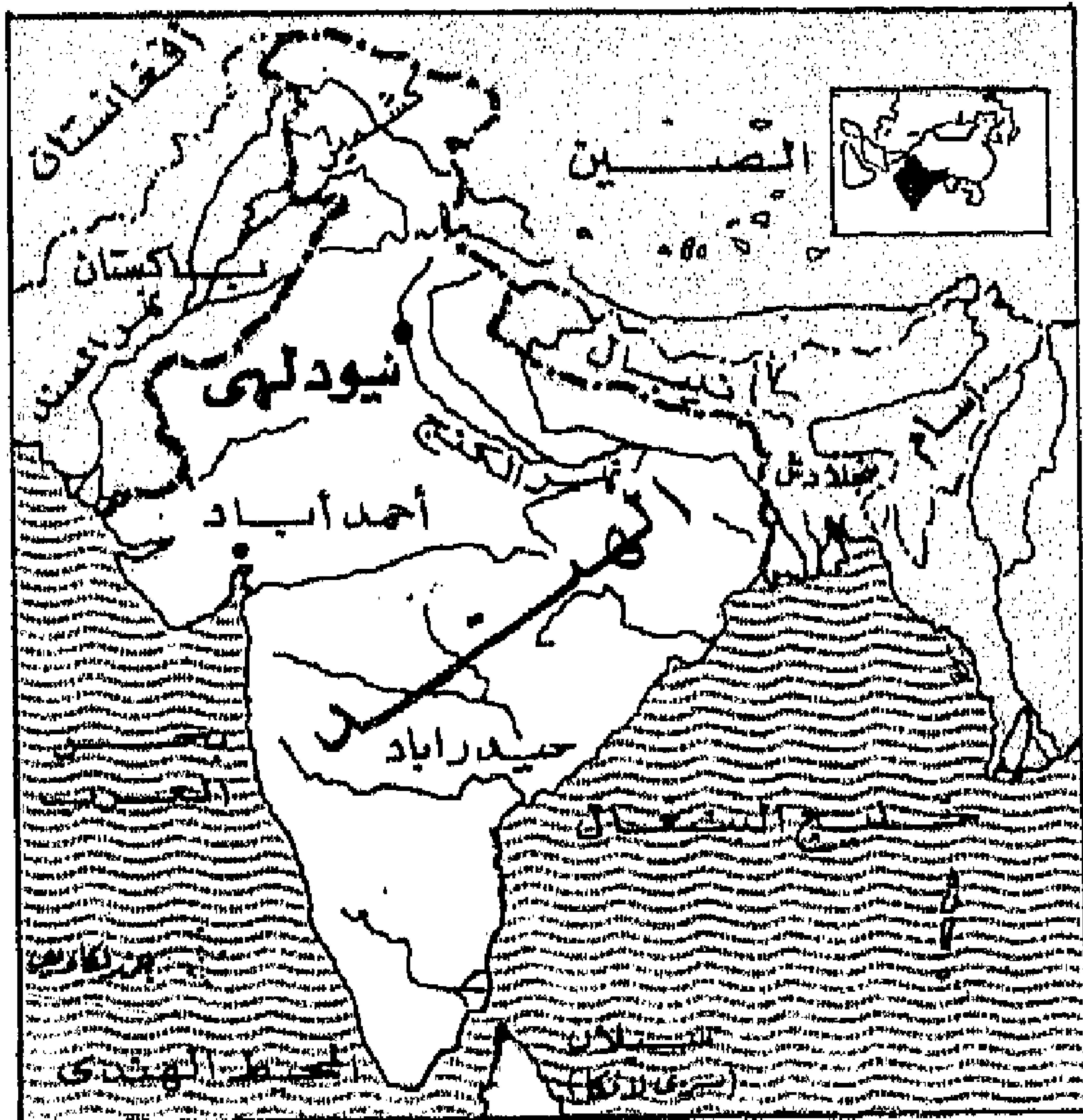
العاصمة : نيودلهى New Delhi

السكان : ٣٨٠٠٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٣٧َ ٢٨ْ شمالاً ، و ١٣َ ٧٧ْ شرقاً

العُملة : روبية Rupee

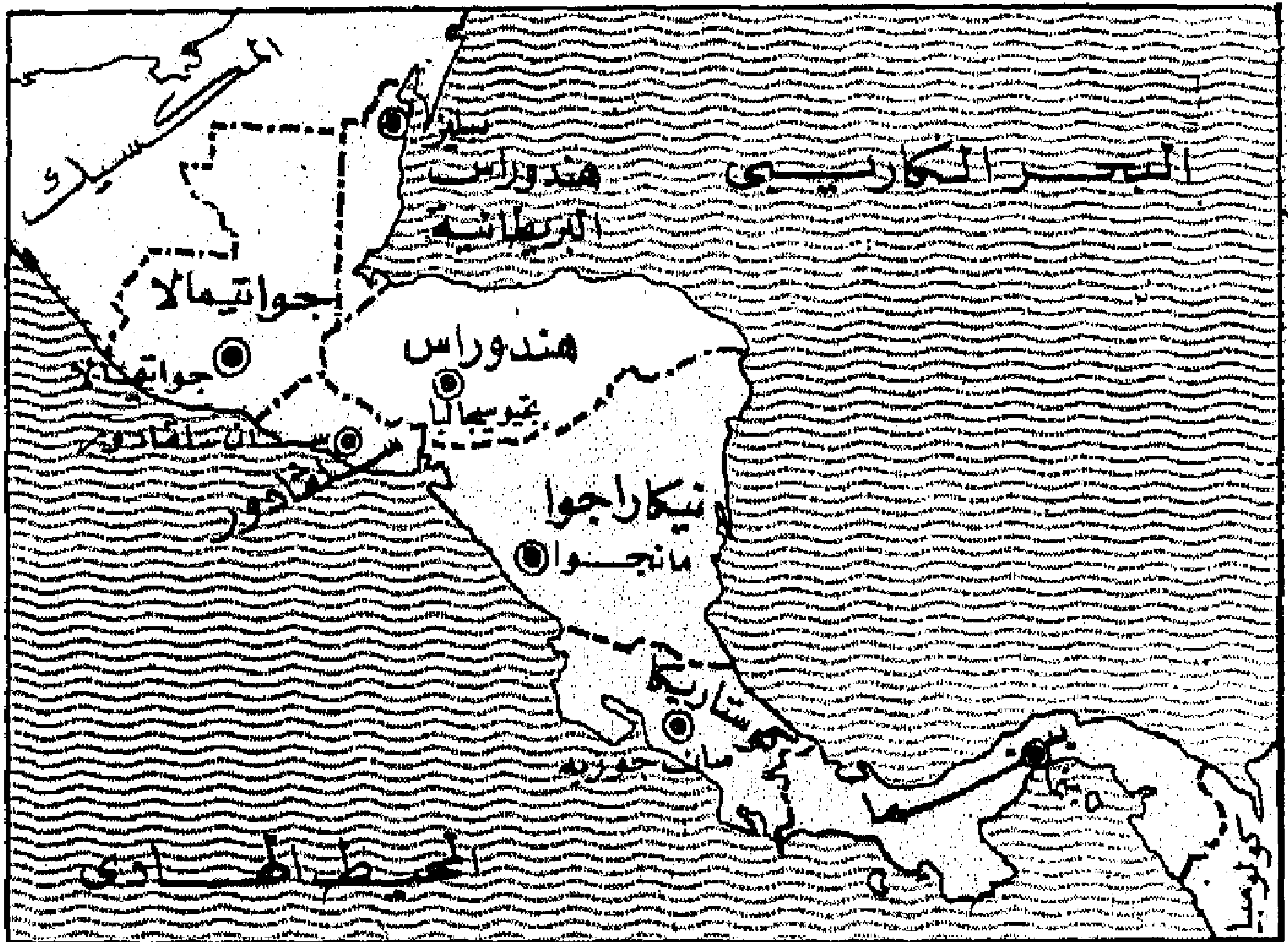
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٣٠ أكتوبر ١٩٤٥



## هُندوراس HONDURAS

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | . | | Republica de Honduras |
| نظام الحكم | : | جمهورى | |
| المساحة | : | ١١٢ ٠٨٨ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٢ ٨٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٢٥ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | تجيوسجالبا | Tegucigalpa |
| السكان | : | ٢٥٠ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ٠٥َ ١٤ْ شمالاً ، و ١٤َ ٨٧ْ غرباً | |
| العُملة | : | لمبيرا | Lempira |

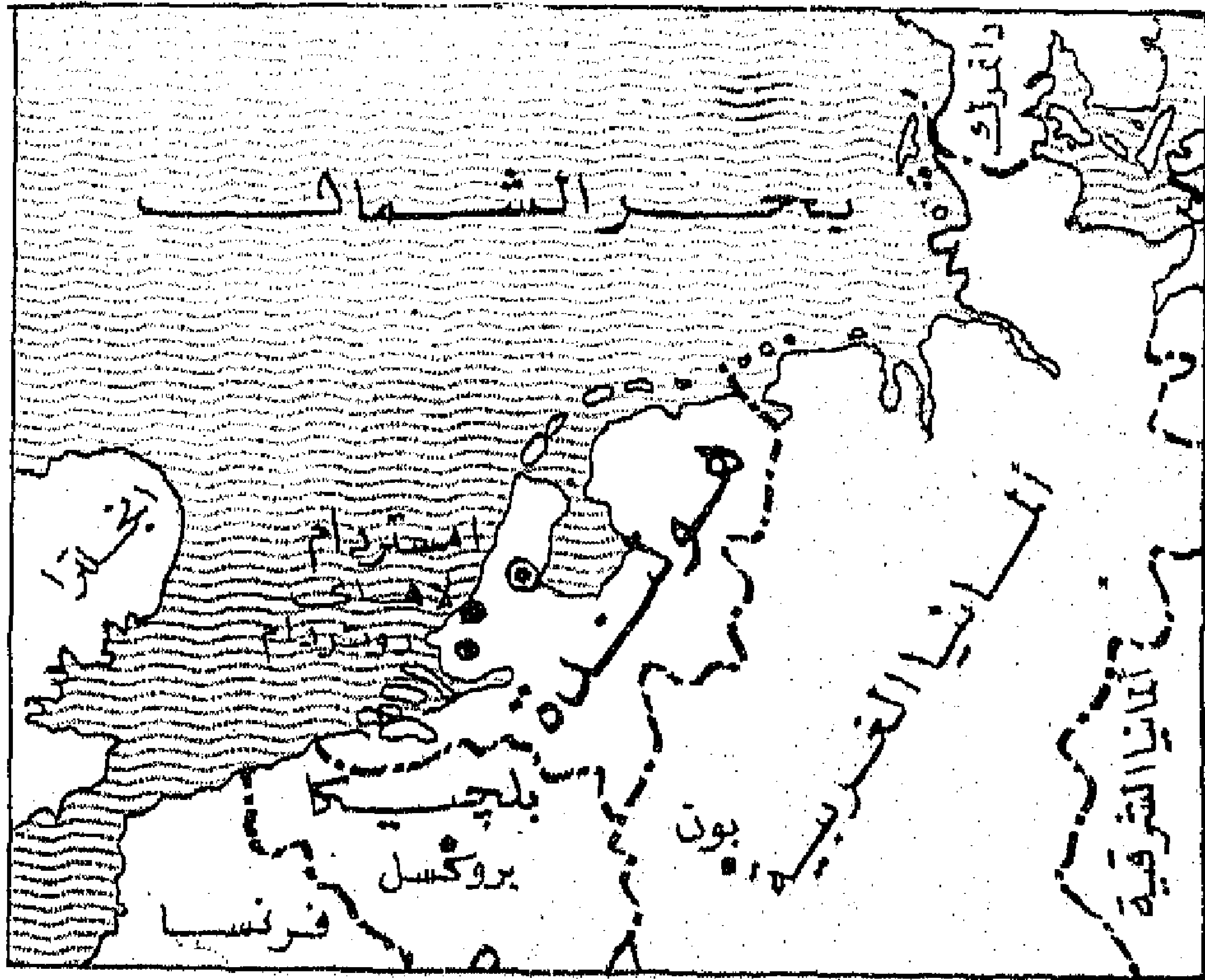
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٧ ديسمبر ١٩٤٥



## هولنده ( الأراضى الواطية ) *NETHERLANDS*

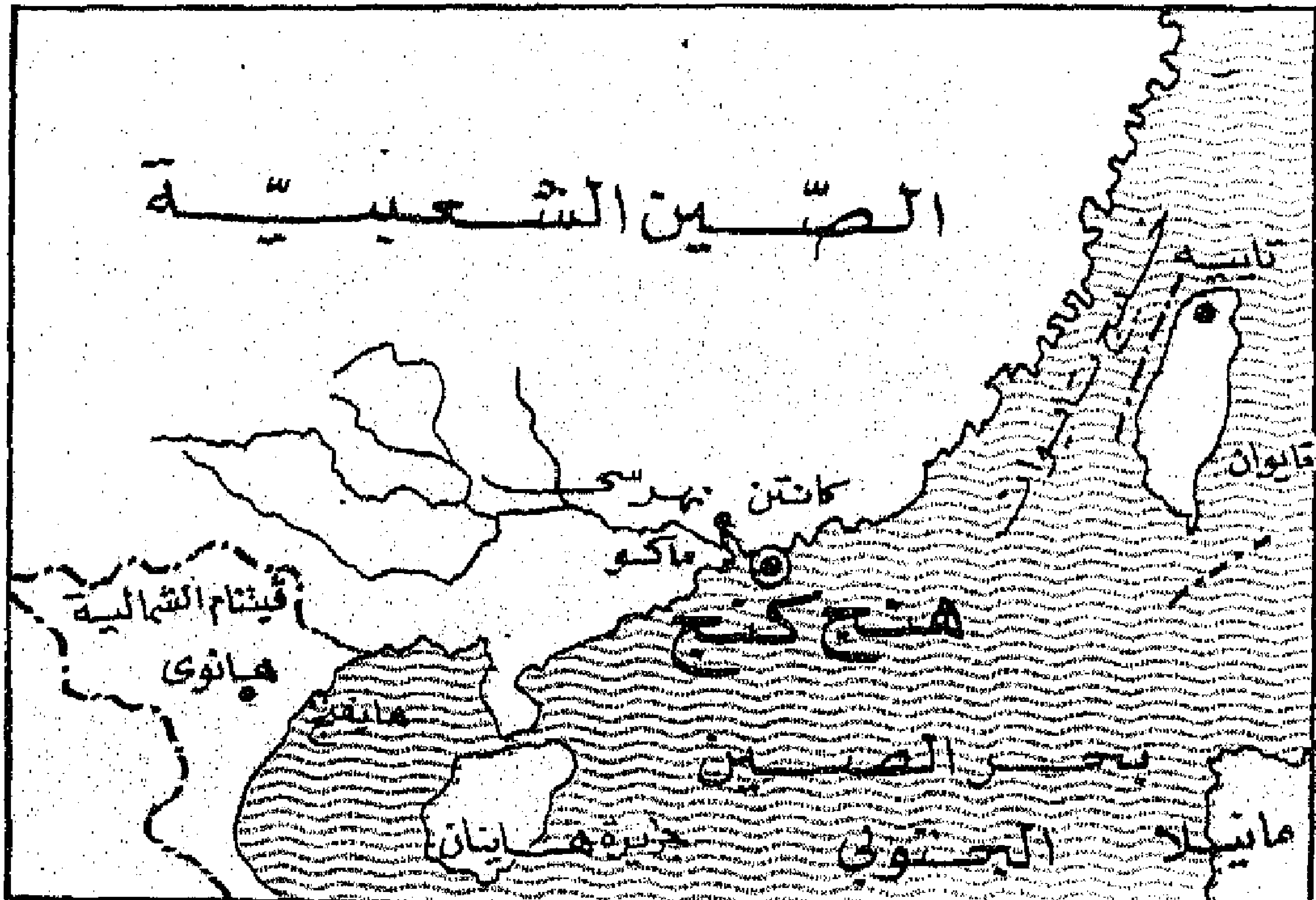
| | | |
|---|---|---|
| الاسم الرسمى : | | *Koninkrijk der Nederlanden* |
| نظام الحكم : | ملكى | |
| المساحة : | ٣٦ ٦٢١ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان : | ١٣ ٣٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان : | ٣٦٣ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة : | أمستردام | *Amsterdam* |
| السكان : | ١ ٠٥٠ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة : | ٢١َ ٥٢ْ شمالاً ، و ٥٤َ ٤ْ شرقاً | |
| العملة : | جيلدر | *Guilder* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٠ ديسمبر ١٩٤٥



# هونج كونج HONG KONG

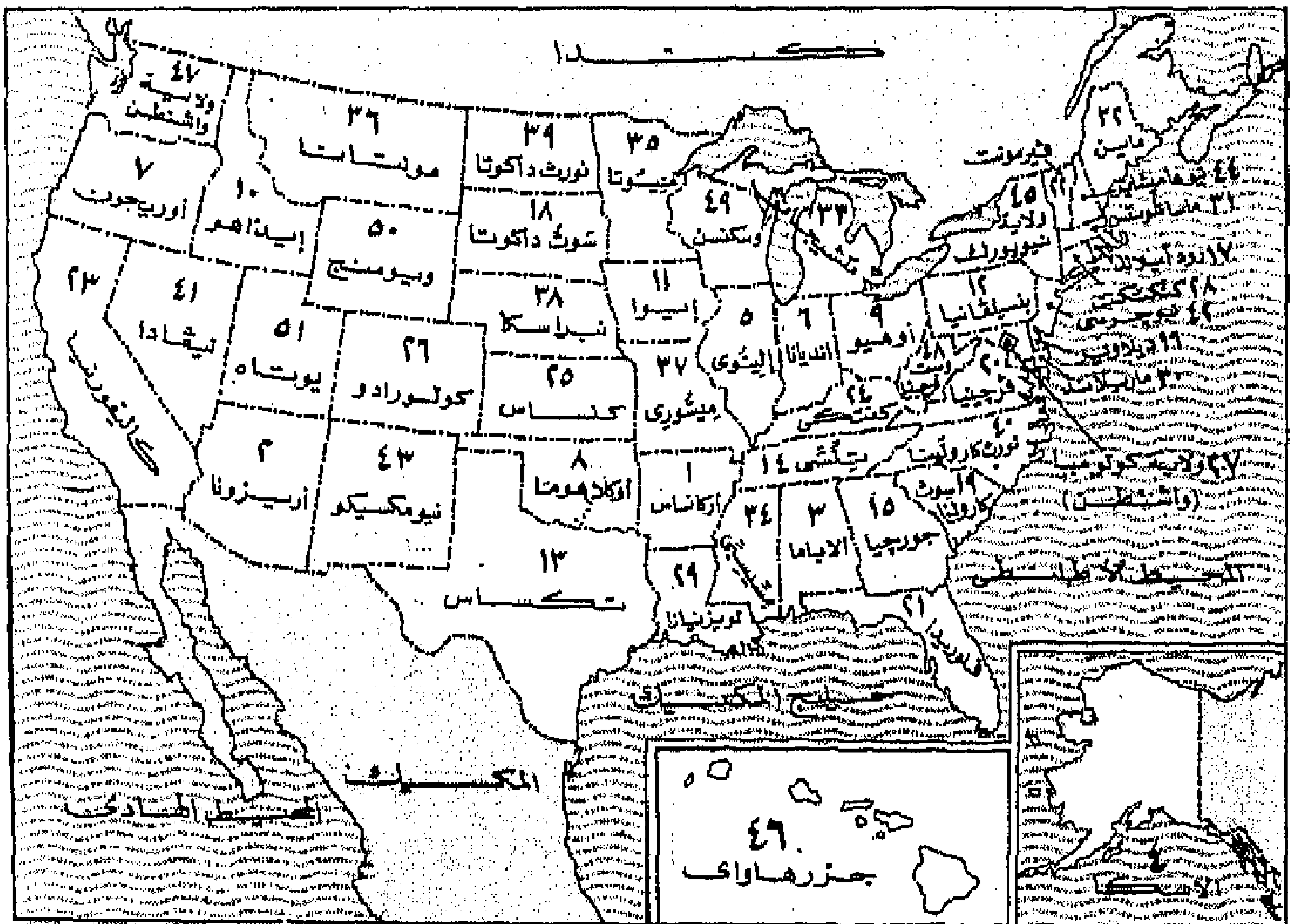
| | | | |
|---|---|---|---|
| نظام الحكم | : | مستعمرة بريطانية | |
| المساحة | : | ١ ٠٣٤ | كيلومتراً مربعاً |
| عدد السكان | : | ٤ ٣٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| كثافة السكان | : | ٤ ١٥٩ | نسمة فى الكيلومتر المربع |
| العاصمة | : | فكتوريا | Victoria |
| السكان | : | ٢ ١٠٠ ٠٠٠ | نسمة |
| موقع العاصمة | : | ١٦َ ٢٢ْ شمالاً ، و ١٣َ ١١٤ْ شرقاً | |
| العملة | : | البريطانية | |



# الولايات المتحدة الأمريكية

*UNITED STATES OF AMERICA*

نظام الحكم : جمهورى
المساحة : ٩٣٦٣٣٥٣ كيلومتراً مربعاً
عدد السكان : ٢١١٠٠٠٠٠٠ نسمة
كثافة السكان : ٢٣ نسمة فى الكيلومتر المربع
العاصمة : واشنطن *Washington*
السكان : ٧٥٤٠٠٠ نسمة
موقع العاصمة : ٥٥َ ٣٨ْ شمالاً . و ٥٥َ ٧٧ْ غرباً
العملة : الدولار الأمريكى *Dollar*
انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥



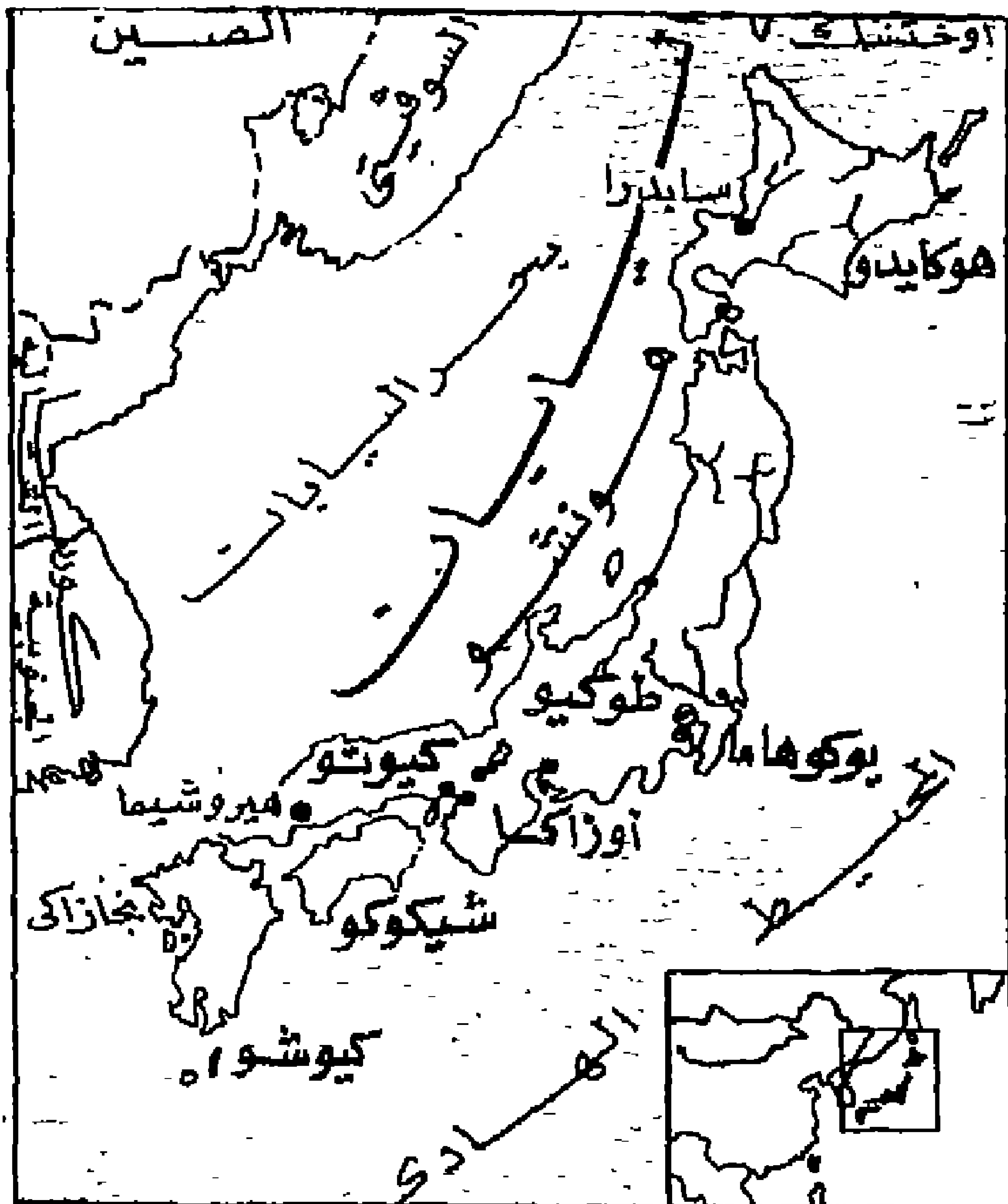
# الولايات المتحدة الأمريكية

| | الولاية | المساحة كم٢ × ١٠٠٠ | التعداد × ١٠٠٠ | | الولاية | المساحة كم٢ × ١٠٠٠ | التعداد × ١٠٠٠ |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| ١ | أركانساس | ١٣٧ | ١ ٩٦٩ | ٢٧ | كولومبيا | ١٧٤ | ٧٥٤ |
| ٢ | أريزونا | ٢٩٥ | ١ ٩٢٩ | ٢٨ | كونكتكت | ١٣ | ٣ ١٩٨ |
| ٣ | ألاباما | ١٣٤ | ٣ ٥٠٣ | ٢٩ | لويزيانا | ١٢٦ | ٣ ٧٧٢ |
| ٤ | ألاسكا | ١ ٥١٩ | ٣٢٧ | ٣٠ | ماريلاند | ٢٧ | ٤ ١٩٦ |
| ٥ | ألينوى | ١٤٦ | ١١ ٤٥٨ | ٣١ | ماساشوست | ٢١ | ٥ ٨٧٠ |
| ٦ | إنديانا | ٩٤ | ٥ ٣٧٠ | ٣٢ | ماين | ٨٦ | ١ ٠٠٢ |
| ٧ | أوريجون | ٢٥١ | ٢ ١٦٥ | ٣٣ | متشيجان | ١٥١ | ٩ ٢٢٦ |
| ٨ | أوكلاهوما | ١٨١ | ٢ ٦٣٦ | ٣٤ | مِسيسِبي | ١٢٤ | ٢ ٢٣٠ |
| ٩ | أوهيو | ١٠٧ | ١٠ ٩٦٧ | ٣٥ | مينيسوتا | ٢١٨ | ٣ ٩٣٥ |
| ١٠ | إيداهو | ٢١٦ | ٧٢٨ | ٣٦ | مونتانا | ٣٨١ | ٧٠١ |
| ١١ | إيوا | ١٤٦ | ٢ ٨٤٨ | ٣٧ | ميسوري | ١٨٠ | ٤ ٧٩٦ |
| ١٢ | بنسلفانيا | ١١٧ | ١١ ٩٥١ | ٣٨ | نِبراسكا | ٢٠٠ | ١ ٥٠٨ |
| ١٣ | تكساس | ٦٩٢ | ١١ ٧٩٣ | ٣٩ | نورث داكوتا | ١٨٣ | ٦١٣ |
| ١٤ | تِنِسِي | ١٠٩ | ٤ ٠٤٣ | ٤٠ | نورث كارولَينا | ١٣٦ | ٥ ٢٥٧ |
| ١٥ | جورجيا | ١٥٢ | ٤ ٨٠٥ | ٤١ | نيفادا | ٢٨٦ | ٥٥٦ |
| ١٦ | ديلاوير | ٥ | ٥٨٢ | ٤٢ | نيو جرسى | ٢٠ | ٧ ٥٣٥ |
| ١٧ | رود أيلاند | ٣ | ٩٨٠ | ٤٣ | نيو مِكسيكو | ٣١٥ | ١ ٠٣٨ |
| ١٨ | سَوث داكوتا | ٢٠٠ | ٦٦٢ | ٤٤ | نيو هامبشاير | ٢٤ | ٧٨٠ |
| ١٩ | سَوث كارولَينا | ٨١ | ٢ ٦٦٠ | ٤٥ | ولاية نيويورك | ١٢٨ | ١٨ ٦٦٠ |
| ٢٠ | فِرجينيا | ١٠٦ | ٤ ٨٧٥ | ٤٦ | هاواى | ١٧ | ٨١٦ |
| ٢١ | فلوريدا | ١٥٢ | ٧ ٤٠٢ | ٤٧ | ولاية واشنطن | ١٧٧ | ٣ ٥٩٤ |
| ٢٢ | فيرمونت | ٢٥ | ٤٦٣ | ٤٨ | وِست فِرجينيا | ٦٣ | ١ ٧٠٦ |
| ٢٣ | كاليفورنيا | ٤١١ | ٢١ ٣٦٥ | ٤٩ | وِسكنسن | ١٤٥ | ٤ ٥٧٣ |
| ٢٤ | كَنتكى | ١٠٥ | ٣ ٢٨٠ | ٥٠ | وَيومنج | ٢٥٤ | ٣٣٣ |
| ٢٥ | كَنساس | ٢١٣ | ٢ ٢٧٧ | ٥١ | يوتاه | ٢٢٠ | ١ ١١٥ |
| ٢٦ | كولورادو | ٢٧٠ | ٢ ٣٥٨ | | | | |

## اليابان — *JAPAN*

| | | | |
|---|---|---|---|
| الاسم الرسمى | : | نيبون | *Nippon* |
| نظام الحكم | : | ملكى | |
| المساحة | : | ٣٧١ ٨٥٧ كيلومتراً مربعاً | |
| عدد السكان | : | ١٠٦ ٨٠٠ ٠٠٠ نسمة | |
| كثافة السكان | : | ٢٨٧ نسمة فى الكيلومتر المربع | |
| العاصمة | : | طوكيو | *Tokyo* |
| السكان | : | ١٢ ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة | |
| موقع العاصمة | : | ٤٠َ ٣٥ْ شمالاً . و ٤٥َ ١٣٩ْ شرقاً | |
| العملة | : | ين | *Ye n* |

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ١٨ ديسمبر ١٩٥٦



## يوغوسلافيا — *YUGOSLAVIA*

الاسم الرسمى : *Socijalisticka Federativna Republika Jugoslavija*

نظام الحكم : جمهورى

المساحة : ٢٥٥ ٨٠٤ كيلومترات مربعة

عدد السكان : ٢١ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة،

كثافة السكان : ٨٢ نسمة فى الكيلومتر المربع

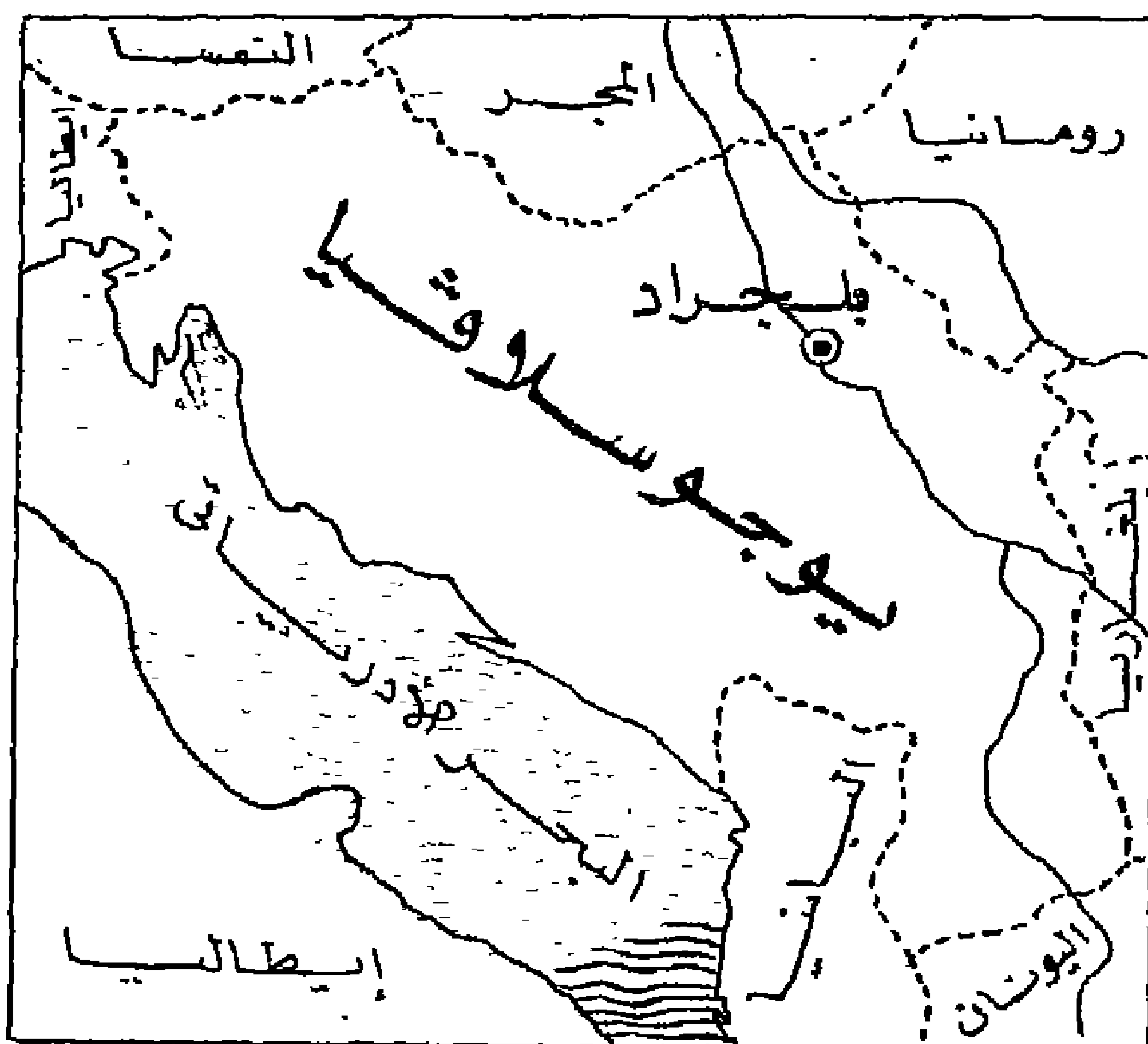
العاصمة : بلجراد *Belgrade*

السكان : ١ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٤٩َ ٤٤ْ شمالاً . و ٢٨َ ٢٠ْ شرقاً

العملة : دينار *Dinar*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٤ أكتوبر ١٩٤٥



## اليونان — *GREECE*

الاسم الرسمى : *Demokratia tis Ellados*

نظام الحكم : جمهورية

المساحة : ١٣١ ٩٤٤ كيلومتراً مربعاً

عدد السكان : ٨ ٨٠٠ ٠٠٠ نسمة

كثافة السكان : ٦٦ نسمة فى الكيلومتر المربع

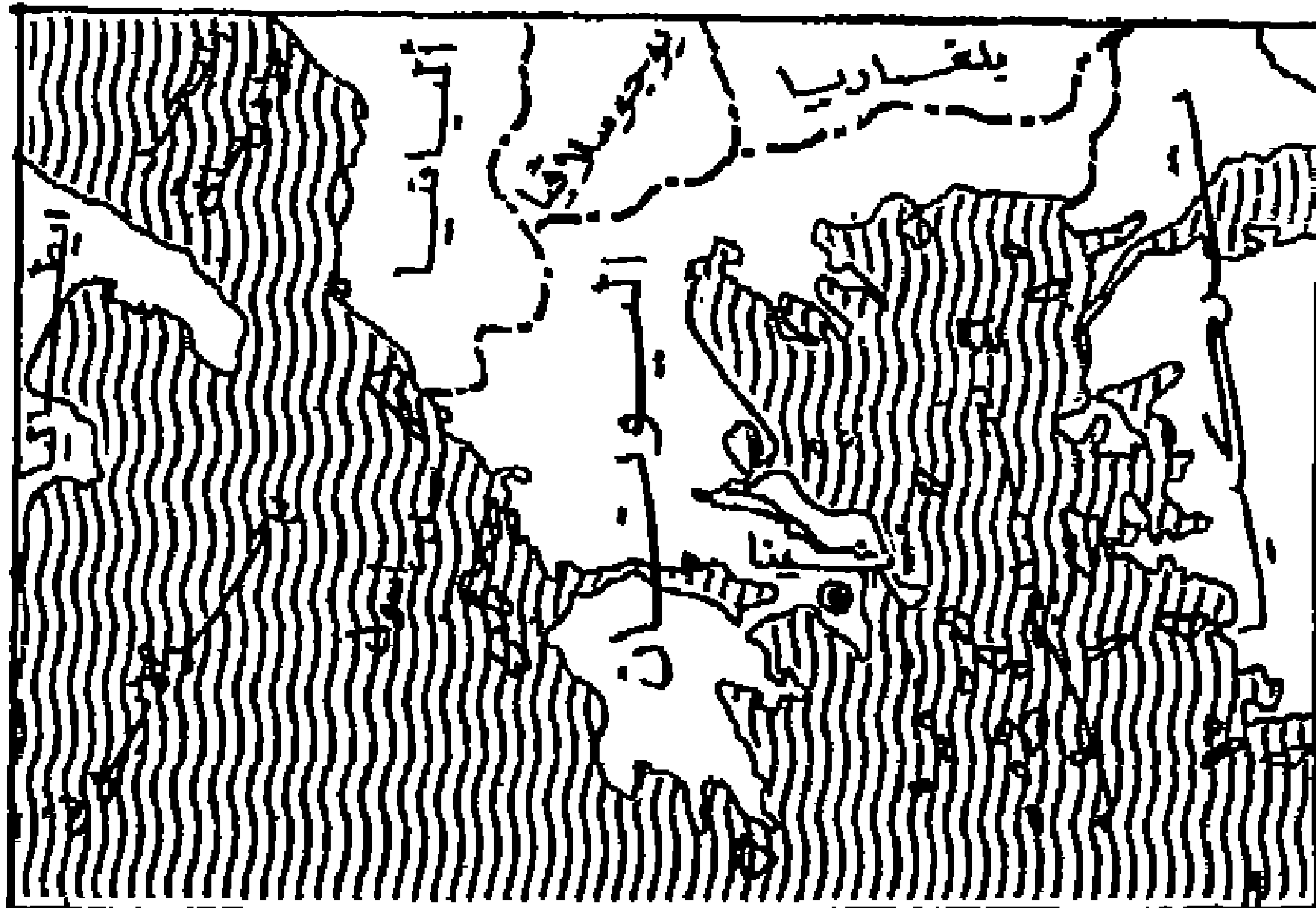
العاصمة : أثينا *Athens*

السكان : ٩٠٠ ٠٠٠ نسمة

موقع العاصمة : ٠٠َ ٣٨ْ شمالاً ، و ٤٢َ ٢٣ْ شرقاً

العملة : دراخما *Drachma*

انضمت إلى الأمم المتحدة فى ٢٥ أكتوبر ١٩٤٥



# فهرس

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٤/٢٠١١
مطابع دار المعارف بمصر
١٩٧٤



| الدولـــة | تاريخ انضمامها إلى الجامعة |
|---|---|
| المملكة الأردنية الهاشمية | ٢٢ مارس ١٩٤٥ |
| دولة الإمارات العربية المتحدة | ٦ ديسمبر ١٩٧٠ |
| دولة البحرين | ١١ سبتمبر ١٩٧١ |
| الجمهورية التونسية | ١ سبتمبر ١٩٥٨ |
| الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية | ١٦ أغسطس ١٩٦٢ |
| المملكة العربية السعودية | ٢٢ مارس ١٩٤٥ |
| جمهورية السودان الديمقراطية الشعبية | ١٩ يناير ١٩٥٦ |
| الجمهورية العربية السورية | ٢٢ مارس ١٩٤٥ |
| الجمهورية العراقية الديمقراطية الشعبية | ٢٢ مارس ١٩٤٥ |
| سلطنة عُمان | ٢٩ سبتمبر ١٩٧١ |
| دولة قطر | ١١ سبتمبر ١٩٧١ |
| دولة الكويت | ٢٠ يولية ١٩٦١ |
| الجمهورية اللبنانية | ٢٢ مارس ١٩٤٥ |
| الجمهورية العربية الليبية | ٢٨ مارس ١٩٤٥ |
| جمهورية مصر العربية | ٢٢ مارس ١٩٤٥ |
| المملكة المغربية | ١ سبتمبر ١٩٥٨ |
| الجمهورية الإسلامية الموريتانية | ٢٦ نوفمبر ١٩٧٣ |
| الجمهورية العربية اليمنية | ٥ مايو ١٩٤٥ |
| جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية | ١٢ ديسمبر ١٩٦٧ |

انضمت الجمهورية الديموقراطية الصومالية في ١٤ فبراير ١٩٧٤

اقرأ

إبراهيم المصري

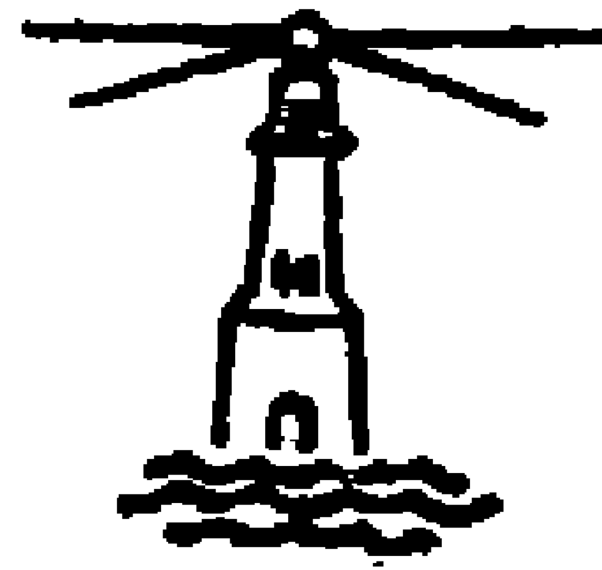
# خبز الأقوياء






تصدر فى أول كل شهر

ر‍ير: السّيد أ…



دار المعارف بمصر



إبراهيم المصري

# خبز الأقوياء

اقرأ ٣٨٠

دار المعارف بمصر

( إقرأ ٣٨٠ )

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

# الإهـداء

إلى موقد الشعلة وباعث الروح فى مصر الخالدة :

**السيد الرئيس محمد أنور السادات**

أهدى كتابى هذا ، رمز ولاء وتقدير وحب .

**إبراهيم المصرى**

# كلمة

القيم المعنوية هى فخر الإنسان . وإنسان بلا قيم معنوية يفقد روحه . فتنطلق غرائزه من عقالها ، متحكمة وغاشمة وضارية ، تستبد بعقله وقلبه ، وتلهب فيه أوضع الميول والرغبات .

فبقاء الروح منوط بارتفاعها . ولا رقى للروح إلا بالقيم المعنوية ، تنسكب فى الوجدان ، وتندمج فى المشاعر . فتكبح الغريزة ، وتضبط الشهوة ، وتذكى فى العقل قواه المفكرة ، وفى القلب حرارته المحيية ، وفى الإرادة مضاءها الثابت ، وتدفع دفعاً إلى التفوق والاستعلاء .

وفى هذا الكتاب خواطر وتأملات فى تلك القيم ، من خلقية وعاطفية ووطنية وثقافية ، أعتقد وأومن أن الحياة لا تكتمل إلا بها ، وأن فى رياضة النفس والفكر عليها تتمثل فى الواقع قيمة الإنسان .

وقد تجمعت هذه الخواطر فى أطواء نفسى من خلال ما أبصرت ولاحظت وعانيت فى طريق حياتى . فكنت فى هدأة الليل وساعات الصمت ، أستحضرها جاهداً ، وأسرع باقتناصها وتسجيلها قبل أن تطلق لأجنحتها العنان وتفلت منى .

فإلى كل من لا يقنع بالمتوسط الشائع المألوف من الآمال والرغبات ، بل يتطلع فى لهفة الجائع إلى حياة خصبة عليا ، أقدم هذا الخبز المنتقى ، خبز التجربة والألم ، خبز الطاحنين الباذلين الأقوياء .

إبراهيم المصرى

# فى قيمة الأخلاق

## عبقرية وعبقرية

قد لا يكون فى مقدور الفرد أن يتحدى غيره فى ميادين العلم أو الأدب أو الفن ، ولكن فى مقدوره أن يتحدى أيًّا كان فى ميادين الفضائل والأخلاق . ذلك لأن التفوق فى العلم أو الأدب أو الفن يصدر عن مواهب العقل ومميزات الفطرة ، أما التفوق فى الفضائل والأخلاق فيصدر أكثر ما يصدر عن القلب والروح . فمن الميسور على الإنسان : والحالة هذه ، أن يعوض نقص مواهب عقله بوفرة فضائل قلبه وروحه ، إذ أن لكل إنسان قلباً وروحاً يهديانه بالغريزة الاجتماعية المشتركة إلى الإحساس بما للفضائل والأخلاق من قيم عملية وخصبة ، إن هو استمسك بها ، استطاع أن يطاول أصحاب العبقرية فى العلم أو الأدب أو الفن بعبقرية مثلها ، أو أبلغ منها ، فى الفضائل والأخلاق .

## أخلاقنا وشخصيتنا

ليس مفهوم الأخلاق هو الرقة والدماثة ولين الجانب وحسن معاملة الناس فقط ، ولكنه إلى ذلك رياضة شخصية ، رياضة باطنية : رياضة النفس على التحكم فى الانفعالات ، وضبط الغرائز والشهوات ، والتنبه لكل ما يمكن أن ينحرف من الأهواء والميول ، والتمسك باستقامة المنزع والضمير ، والثبات على ما استقر عليه العقل ، والحزم والدقة فى تصريف الأمور .

هذه أبرز خصائص الخلق المتين ، وهى متى اقترنت بمشاعر الرقة والدماثة واللين فى معاملة الناس ، حفظت على صاحبها وحدته المعنوية الكاملة ، فكان هو الرجل الاجتماعى الأمثل ، وكان فى الوقت نفسه الرجل القوى المتين الخلق الذى لا يتهيب العقبات بل يقتحمها ، والذى لا ينكص عن تأدية واجب جليل مهما اقتضاه من تضحية وبذل ،

كما سيتضح ذلك خلال حديثنا عن « قيمة الإرادة » وضرورتها فى تكوين الخلق وإعلاء شخصية الإنسان :

## نحن وأعمالنا

نحن قل أن نفكر فى عواقب أعمالنا . ولكننا مقيدون بالناس ، ومن المحال علينا أن نعيش فى عزلة بحيث لايصيب الغير ما يصدر عنا من خير أوشر . إن أعمالنا هى أولادنا . وكما أن أولادنا لابد أن ينسلخوا عنا ويحيوا حياة مستقلة تتصل بالناس ، كذلك أعمالنا لا بد أن تتفاعل مع الأشخاص والأشياء وتحدث أعمق الأثر فى الحياة الكبرى .

## الخير والشر

الشر قوة إيجابية ، والخير فى الغالب ميل فكرى ورغبة سلبية . فكل رغبة فى الخير ينصحك بها عقلك وتهمس بها عواطفك ، يجب أن تذود عنها ، وتحاول ما استطعت أن تجعل منها قوة خلقية إيجابية ، تعرف كيف تعمل وتخدم وتفرض نفسها على الحياة كما يفعل الشر ، وإلا أسرع الشر العامل اليقظ فطوقها ، وحطم جوهرها ، وحال بينها وبين إنجاز الأعمال الطيبة الجليلة التى كان فى وسعها أن تبدعها .

## أقصى الشر

من الناس من إذا انغمس فى الشر ، لا يقر له قرار حتى يلوث إنساناً صالحاً ويفسده بالشر نفسه . وهكذا يثأر لعجزه عن فعل الخير بأن يجعل ذلك الإنسان الصالح مساوياً له فى الشر ، تماماً كما تسلك المرأة الساقطة التى لا يقر لها قرار حتى تفسد امرأة فاضلة وتجعلها تسقط مثلها .

## شرك اليأس

كل من تجذبه رذيلة من الرذائل ، يخالسها أول الأمر فى فضول ، ثم يزاولها وقتاً بعد آخر فى حذر ، ثم تأخذه عزة كبريائه فيستهزئ بالتردد والحذر ، ويستسلم للرذيلة يائساً وينحط . وعندئذ يتخبط فى شرك اليأس ويصرخ : « أين المفر » . فلا يستطيع أن يجد تعزية لنفسه إلا بأن يجهز على نفسه بالتمادى فى الرذيلة نفسها .

## عندما يكون اليأس نعمة

قد تستبد بك غاية أثيمة تعتقد أن فيها سعادتك ، فتزين لك لهفة الأمل فى بلوغها أن تسعى وراءها ما استطعت . فإذا ما اعترضتك حيالها العقبات وأيقنت أنك قد يئست من تحقيقها ، انتابك الكمد والحزن، وأحسست كأن يأسك يشرف بك على الموت. ولكنك لو أنعمت النظر لتبين لك أن اليأس نفسه قد يكون نعمة ، وقد تكون فيه حياة ، وأن يأسك فى الواقع كان أرفق بك من الأمل ، وأنه هو الذى فى وسعه أن ينقذك ، ويحفظ عليك حتى النهاية شرفك وطهارتك ، متى عرفت كيف تجعل منه قوة إيجابية تتجه بها نحو غايات أعلى .

## منذ اللحظة الأولى . . .

إذا شئت التغلب على رغبة منكرة تراودك فاطردها منذ اللحظة الأولى، وإلا فهى ستطرق بيتك أول الأمر ذليلة كالمتسول ، ثم تنفذ إليه مبتهجة كالضيف ، ثم تستقر شيئاً فشيئاً وتحتل آخر الأمر البيت كله .

## نور البصيرة

تكون خطيئتك منكرة على قدر ما كان فى نفسك من نور عندما

ارتكبتها . وتكون طهارتك رائعة على قدر ما كان فى بصرك من تفتح وأنت منجذب إلى نقيضها :

## خطايانا والزمن . . .

نحن ننسى خطايانا . ولكن خطايانا تعمر طويلا . وغالباً ما يعجز الزمن عن قتلها ، فيكفنها فى لفائف الماضى ، كى يبعث فجأة عواقبها المريرة ، تقتحم حياتنا ، وتزعزع صرح أمننا ، وتجعل منا ونحن فى غمرة الدهش والذهول ما يشبه القصبة تطوح بها الريح .

## ما وراء الألم

إذا شكوت ألماً فى جسدك ، فاعلم أنك فعلت شيئاً كان يجب ألا تفعله ، أو أنك لم تفعل شيئاً كان يجب عليك أن تفعله .

وإذا شكوت ألماً فى روحك ، فاعلم أنك أحببت شيئاً كان يجب ألا تحبه ، أو أنك لم تحبب شيئاً كان يجب عليك أن تحبه وتخلص له .

## بين أجسادنا وضمائرنا

نحن نحرص على سلامة أجسادنا أكثر مما نحرص على سلامة ضمائرنا ألف مرة . فالداء اليسير الذى يصيب منا الجسد ، نخاف أن يستفحل ، فنهرع إلى العقاقير نتقيه بها . أما الذنب الذى تنوء به ضمائرنا ، فيذهل منا النفس ويخدعها . فبدل أن نواجهه فى شجاعة ونعترف به ونحاول التكفير عنه ، ننسبه إلى ظروف أقوى منا ، أو نأنف بتبعته على غيرنا ، أو نستهتر بعواقبه مدفوعين بكبرنا وعنادنا . وهكذا نظل نحاور ونداور ، حتى تتفاقم عواقب الذنب فجأة ، فيجرفنا تيارها ويوردنا مورد التهلكة .

## هدأة التأمل

الأم كثيراً ما تؤرجح طفلها ، لالتخفف عنه وطأة مرض يشكو منه ، بل لتخفف من وطأة صراخه الذى يصم أذنيها . كذلك نحن فى أغلب الأحيان نؤرجح عقلنا بالحجج والأعذار والتماس الظروف المخففة كى نفر من مواجهة رذائلنا ، ولا نسمع فى هدأة التأمل صوت ضميرنا .

## بين تيارين

نحن فى الحياة نتأرجح بين تيارين : مشاعرنا السطحية ومشاعرنا العميقة . فمشاعرنا السطحية هى التى تسيطر علينا فى غمرة العمل وطلب المصلحة وزحمة الناس . ومشاعرنا العميقة هى التى تستفيق فينا متى تخففنا من عبء العمل وخلونا إلى أنفسنا وابتعدنا عن الناس.

ففى الوحدة إذن نواجه ذاتنا ونواجه ضمائرنا ، ونلمس ما ارتكبنا من شر وما نكون قد فعلنا من خير . فالذى يكره الوحدة فى هدأة التأمل ويقظة الضمير ، يفقد روحه ولا يعود يفرق بين خير وشر وطيب وخبيث .

## سلطان الضمير

النفوس الكبيرة لا ترهقها أثقل تضحية ، قدر ما يرهقها أيسر تبكيت من الضمير .

## أمام نفسك

إذا كانت لك بقية من عاطفة وضمير ، فأنت لابد أن تتألم لو تهورت وأسأت عامداً إلى إنسان . ذلك لأن الإساءة لا بد أن تكشف لك عن جوانب نابية فى شخصيتك كنت تود إخفاءها أو التغلب عليها ، فتفتضح أمام نفسك ، وتحس أنك قد جعلت ممن أسأت إليه إنسانا أفضل منك .

## خداع النفس

لايشعر الفرد العادى بخطورة نقائصه ولا يقدر فى الغالب عواقبها . أما الفرد الممتاز فيعلم تماماً أن نقائصه أظهر وأخطر من نقائص سواه . وهذا اليقين هو الذى يجعل منه رجلا صارماً وفى الوقت نفسه متواضعاً ، يعرف كيف يحاسب ضميره ، ويعرف عند الاقتضاء قيمة التسامح لأنه لايستطيع أن يخدع نفسه بمظاهر الكمال .

## فضائل الممتازين

الرجال الممتازون لهم فضائل صارمة . وكثيراً ما تحرجنا فضائلهم فنسارع نحن ونسميها رذائل .

## الصرامة الواعية

إذا كنت صارماً فى مواقف لا تستوجب الصرامة ، تحيرت فى أمرك وعجزت عن أن تكون صارماً حينما تجب الصرامة .

## قيمة الفرد

إن قيمة الفرد لاتقاس بنسبة علمه بل بنسبة مستواه الخلقى والعاطفى . إذ العلم لاشىء بدون تهذيب ، والتهذيب هو الذى يكون الخلق . وإنه لمن الميسور أن نعلم فى بضع سنين رجلا همجياً ، ولكن تهذيب هذا الرجل وتكوين خلقه وذوقه قد يقتضى عدة أجيال . وهذا هو الفارق بين العلم والتمدن .

## بين العقل والغريزة

نحن أهل الشرق غرائزنا عنيفة ، وميولنا حارة ، وأبسط رغباتنا

سرعان ما تتحول وتتطور وتنقلب إلى شهوات جامحة . فضبط النسبة بين العقل والغريزة ، بين الفكر والهوى ، بين الإرادة والرغبة ، هو الذى ينقصنا ، وعجزنا عنه هو الذى ينفرنا من التوسط والاعتدال ويدفعنا إلى الإسراف والتطرف . وليس من شك فى أن التمتع بلذة الإسراف فى العواطف ، والإسراف فى الأهواء والشهوات ، أسهل ألف مرة من التمتع بلذة كبح النفس ، وإقرار التعادل بين الغريزة والعقل. ولكن متى كان التمتع السهل الرخيص غاية خليقة بإنسان ؟ . . .

الواقع أن كل متعة رخيصة تذهب بالكرامة ، وكل لذة ميسورة تعصف بالرجولة ، وكل شهوة لا ضابط لها تؤدى إلى التدهور والانحطاط . فقيمة المتعة كامنة لا فى سهولة الظفر بها ، بل فى شعور الإنسان بأنه يسيطر عليها وهو ينعم بها . وكلما سيطر الإنسان بعقله على شهواته ، استحالت هذه السيطرة نفسها إلى متعة ، نبيلة وخصبة ، فيها من عزة القدرة والاستعلاء ما يفوق شتى اللذائذ الرخيصة مجتمعة .

## نحن عشاق الصخب

نحن فى مصر لا نتكلم بل نصيح ، ولا نضحك بل نقهقه ، ولا نبكى بل ننتحب . وحتى الراديو أو التليفزيون نفتحه إلى أقصاه لنشرك فى سماع جلجلته العالم كله !

نحن نحب الضجيج ، ونعشق الصخب ، لأن حياتنا النفسية الباطنية ما تزال خاوية ، لا عواطف فيها ولا أفكار ولا تأملات ولا أخيلة .

فبالضجيج نملأ فراغ حياتنا الباطنية ، وبالصخب نتوهم أننا نعيش وما الحياة فى نظرنا إلا بحر مترامى الأطراف . ولكن مايفتن أبصارنا هو هديره وموجه فقط ، أما أعماقه البعيدة الحافلة بالكنوز فقل أن نحفل بها أو نفكر فيها أو نكلف أنفسنا عناء الغوص عليها .

## ما يجمع وما يفرق

الولع بالنكتة الطريفة يقرب الناس عندنا بعضهم إلى بعض ، والولع بالوجاهة والمكانة الاجتماعية يفصل بينهم .

فالذى أحرز قدراً من المكانة والمال وأولع بالوجاهة وحب الظهور ، تراه فى معظم الأحيان يعجب بابن الشعب الذكى البارع فى النكتة ، ويقربه إليه ، وقد لا يستطيع الاستغناء عنه فيتخذ منه صاحباً ونديماً . ولكنه مع ذلك يحتقر ابن الشعب هذا لفقره ، ولا يفكر لحظة فى حياته ، وفى مدى بؤسه واحتياجاته ، وفى السعى لرفع مستواه . بل يكتفى بإبراء ذمته نحوه جزاء ما أدخل على قلبه من سرور ، بأن يلقى إليه ببضعة قروش وقتاً بعد آخر ، أو يتفضل عليه بسترة قديمة ، أو قيمص بال ، أو طلب فى مقهى ، أو وجبة غداء أو عشاء .

فالنكته عندنا تجمع ، والوجاهة والأنانية العابثة القاسية البخيلة تفصل وتفرق .

ونحن إن لم نرتفع بقلوبنا وعقولنا فوق المظاهر ، بحيث نقهر سلطان الوجاهة الشرقى الذى يخنق إنسانيتنا وينزع بنا لا إلى استغلال الشعب مادة فقط ، بل إلى استغلاله مادة وروحاً ، واتخاذه أداة مرح وتفريج وتهريج ، فلن نقترب من الشعب ، ولن نحبه ونخدمه فى نزاهة ، ولن نشعر بآلامه وبؤسه أبداً .

## سحر الملق

الملق يسحر الإنسان ، لأنه يلهب فيه حبه لذاته ، ويؤكد له القيمة الرفيعة التى يخلعها بالكبر والغرور على نفسه .

## شبيهنا . .

نحن فى الغالب لانحب إلا من نعتقد أنه يشبهنا فى ميولنا وأهوائنا . فإذا عرف إنسان كيف يتملق فينا تلك الميول والأهواء ، أخذتنا العزة بأنفسنا ، فأحببناه ، واعتقدنا أنه فى جوهر طباعه وأخلاقه شبيه بنا .

## المتملقون والغربان

كل من يتملق إنساناً يخونه بل قد يجهز عليه . والمتملقون أشد فتكاً من الغربان ، إذ الغربان تأكل الأموات ، أما المتملقون فيأكلون بصيرة الأحياء وشرفهم .

## مجانين حب الذات

من الناس مَن إذا أطراهم المتملق ابتسموا ، ثم أعرضوا عنه وامتعضوا ، يقيناً منهم أنه فى إطرائه كان متزناً ومقتصداً ، وأنهم كانوا يستحقون منه ولا ريب المزيد من الاطراء .

## خطر المجاملات

إنك من فرط ما تلقى من الناس عندنا من تحيات وملاطفات ومجاملات ، لا يمكنك أن تتبين تماماً أهم صادقون أم كاذبون ، مخلصون أم مغرضون ومراءون .

وهذه الحيرة تحز فى النفس وتجعل الإنسان دائماً على حذر ، يرتاح ولا شك فترة إلى تلك الملاطفات والمجاملات . ولكن فيضها الغامر الذى لامبرر له ، ينتزع من نفسه كل ثقة ، فيزداد توجساً وحذراً ، ولا يستطيع أن يأمن لا لصديق ولا لقريب .

## حماقة وغرور

تكون عاقلا وسعيداً لو اعتقدت أنك نافع فى عملك ، وتكون أحمق ومستهدفاً للشقاء لو اعتقدت أنك ممتاز فى عملك إلى حد لا يمكن معه الاستغناء عنك .

## بين الاحتقار والتعظيم

لا تبالغ فى احتقار إنسان أو تعظيم آخر لأنك إن بالغت فى احتقار شخص فلا بد أن تعجز عن فهمه وتقدير كل ممكنات الخير الكامنة فيه . وإن بالغت فى تعظيم آخر ، فلا بد أن تطلب منه أكثر مما يستطيع أن يعطى ، وعندئذ يخيب أملك فيه .

## المصلحة والواجب

إذا أنت أخذت بمبدأ المصلحة فقط ، فالمصلحة فى نظرك لا بد أن تتسع وتتجدد بتجدد مشتهياتك ومطامعك ، فتظل تبحث عنها وتنشدها بدون أن تتأكد من أنك قد استطعت آخر الأمر أن تظفر بها كاملة . أما إذا أنت أخذت بمبدأ الواجب ، فستشعر أنك قد أدركت ما تريد . ذلك لأن الواجب يؤتى ثمرته فى ساعته ، وتفيض منه الراحة والطمأنينة عند تأديته . أما المصلحة فوحش أبدى الجوع ، كلما زدته فرائس ازداد وحشية وجوعاً ونهماً .

## خبث المغرضين

من الناس من يتظاهر بتأدية الواجب وهو لا ينشد غير المصلحة . فلكى يستر هذا الإنسان نفاقه ، يتصيد كل إهمال يصدر عن غيره ، ولا يجد لذة أبلغ وأمتع من أن يتشدد فى مطالبة الآخرين بتأدية الواجب كاملا .

## ممثلون . . . .

المنافقون يولعون بالتمثيل ، وهم كثيراً ما يمثلون شخصية نبيلة لاتخدم إلا مصالحهم ، ثم يستهويهم التمثيل فيمعنون فى تقمص دورهم . ولكن المضحك فى هذا بل المبكى أنهم وهم يتقمصون دورهم النبيل، يعرفون تماماً أن هذا التقمص لم يبدل من طبيعتهم . ومع ذلك يحاولون إقناع أنفسهم بأنهم قد تبدلوا فعلا ، وأصبحوا لايمثلون دوراً ، بل يؤمنون بما يقولون ويفعلون إيمان النبلاء الصادقين المخلصين .

## خوف العواقب

من الناس من يتعلقون بالفضيلة لاحبًّا فيها ، بل خوفاً من عواقب الرذيلة التى هم فى أعماق نفوسهم منجذبون إليها .

## فى كل وقت ...

لا تستطيع أن تكون بطلا أكثر من مرة أو مرتين فى حياتك ، ولكنك تستطيع ألا تكون نذلا فى كل وقت .

## إنسان أعلى

كل إنسان يشعر بما هو كائن . ولكنك إذا شعرت شعوراً عميقاً بما يجب أن يكون ، فقد أصبحت إنساناً أعلى .

## ثورة على الجسد

الرجل المتفوق فى خلقه ، هو الرجل الذى يفرض على نفسه عزة النفس ، وطهارة اليد ، ونزاهة القصد ، واستقامة الفكر ، والتأهب للبذل فى سبيل الخير عند الاقتضاء .

وهذا التفوق هو فى الواقع ثورة على رغبات الجسد ، إذ غاية الجسد هى الحرص على وجوده ، وهى التمتع فى ظل الراحة تمتعاً فردياً أنانياً بملذات هذا الوجود .

وإذن فثورة الرجل المتفوق فى خلقه هى ثورة روحه على ما يمكن أن ينحط به من ملذات جسده ، ثورة يغلب بها فى عواطفه ووجدانه غيرية الروح على أنانية الجسد ، ثورة تلهب فى نفسه كرامته البشرية فيعز عليه أن يرى نقص هذه الكرامة عند الآخرين. فيقبل عليهم ، ويبذل فى سبيلهم ، ولا يحس أنه مثلج الصدر مرتاح الضمير إلا وهو يحاول أن يرتفع بهم ، مهما قوبل منهم بالهزؤ والسخرية ، أو بالصد والجحود .

## فوق الغضب

إذا رضت نفسك على الشرف والإباء ثم حدث أن خانك إنسان أو غرر بك آخر أو قابل ثالث إحسانك بإساءة ، فثق عندئذ أن فرط إبائك وشرفك لن يولد فيك أكثر من شعور بالازدراء . وهذا الازدراء سيجعلك فوق الغضب ، وفوق الحزن ، وفوق الهم ، لأنه يستحيل فى نفسك إلى فلسفة تسلم بأن الخسة شائعة وعرفان الجميل نادر ، وأن الإنسان هو الإنسان .

## جحود الناس

إذا شئت ألا يؤلمك جحود بعض الناس ، فاسلك مسلك الجاحدين أنفسهم ، وانس أنت كل جميل طوقت به أعناقهم .

## الصفح والنسيان

لا قيمة للصفح إلا بالنسيان . وكل من يصفح عن إساءة دون أن ينساها ، يظل يحملها فى أطواء نفسه مشبعة بعوامل الكمد والحقد

التي قد تنفجر في صدره متى سنحت الفرص وتدفعه وهو مكره وذاهل إلى البطش والانتقام .

## ✱ الوفاء بالوعد

إن من يتباطأ في الوعد هو الذى يسرع في الوفاء .

## لا تسرف في شيء

ليست أهواؤنا بطبيعتها رذائل أو فضائل . إنها تصبح رذائل أو فضائل بحسب إسرافنا فيها أو اعتدالنا . إذ الإسراف ينبع من العاطفة ويؤدى إلى التشوش والفوضى ، أما الاعتدال فينبع من العقل ويدفع إلى الضبط والقياس والنظام .

ولقد نقش الإغريق على معبد « أبو لون » في مدينة « دلف » هذه العبارة : « لا تسرف في شيء » .

## ✱ أول المتشككين

إن من يسرف في إقناعك بفكرته ، هو أول من يشك في صوابها .

## ألوان من الناس

من الناس من يحب أن يزين عقله وقلبه ، ومنهم من يحب أن يزين جسده وبيته ، ومنهم من لا يحفل بأن يزين في حياته أى شيء .

## مع البسطاء

إذا كنت مضطرب النفس ، معقد العواطف ، قلقاً ومهموماً ، فعش مع البسطاء . فهم لن يعكسوا أمامك صورة نفسك ، ولن يخاطبوك بالعقل المتعمل بل بالفطرة البريئة الحرة . ثم اعلم أن النفس القلقة

سرعان ما تطرب النفس البسيطة ، كما يطرب الإنسان فى يوم من أيام الشتاء حيال سماء صفت بغتة وانقشعت غيومها .

## حياة المدن

اخرج إلى الطبيعة ما استطعت . واعلم أن من يعشق الحياة فى المدن ويأبى أن يفارقها ، قد يفقد روح البساطة وحاسة النظر إلى الطبيعة فى فسحاتها الكبرى . فيفقد انعكاس جمالها على وجدانه . فتجف مشاعره وتصبح عقلية مادية كالمشاعر التى يحس بها حيال كل ماهو فى المدن صناعى ومادى .

## أحداث الغد

كثيراً ما نستشعر فى قوة ووضوح كل ما سيحدث فى الغد لنا . ولكننا نأبى إلا أن نكذب استشعارنا ، ونخنقه فى نفوسنا ، ونرفض أن نبدل فى ضوئه أسلوب تفكيرنا واتجاه حياتنا . فإذا حدث بالفعل ما كنا قد توقعناه باستشعارنا ، أخذنا نعض أصابعنا ونصرخ : لماذا ، لم نستمع إلى صوت إلهامنا ؟ ! . . .

## سرعة الحساسية

كل من هو سريع الحساسية يعتقد أنه أعمق إحساساً من سواه .

## العصبى والدموى

. . . ومع ذلك فالعصبى الحساس كثيراً ما يكون ذكيًّا . ولكنه فى الغالب ينكمش ويخفى عواطفه أما الدموى المرح المبتهج فقل أن يخفى من مشاعره شيئاً . لذلك نحن نستريح إلى الدموى ولو كان أحمق مأفوناً . أما العصبى الحساس فبدل أن نحاول التعمق فى فهم عواطفه ، نوجس

من انكماشه وغموضه ، ونتهمه إما بالترفع والكبر ، وإما بالمكر والخبث ، وإما بالبلادة والغباء .

## سلطان الخيال

الخيال أشد تسلطاً علينا من الواقع . ونحن لو تعلقنا بخيال ثم فقدناه ، تعذبنا ألف مرة أكثر من فقد واقع كنا نحرص عليه .

## لا تطلب الكثير

لا تسرف فى الخيال ولا تطلب الكثير من الناس ، وإلا اضطررت أن تعطى الكثير أيضاً ، على حين لا تملك أنت من الفضائل والقوى إلا ما يزيد قليلا على ما يملكه سواد الناس .

## أسرار الغير

إذا ائتمنك إنسان على سر يتعلق بسمعته وشرفه، فافهم أن العبرة ليست فى أن تكتم السر فقط ، بل العبرة كل العبرة فى ألا يستخفك الكبر والزهو ، فتظهر بمظهر العارف ببواطن الأمور ، الذى فى وسعه أن يبوح بالسر ولكنه لايريد أن يتكلم . إن مثل هذا الموقف هو شر من الإفشاء ، إذ هو يجسم السر ، ويضاعف من رهبته ، ويلقى فى روع الناس أن من ائتمنك عليه لا بد أن يكون قد ارتكب عملا فظيعاً يفوق حد التصور.

## العدو والصديق

إن عدوك لا يعرف فى الغالب حقيقة نفسك، وهو يكرهك لما يتوهمه شرًا فيك، ولذلك تسهل عليه العودة إلى مصالحتك متى سنحت الفرصة . أما صديقك ، فمتى انقلب إلى عدو لك ، فمن الصعب أن يغفر لك إساءتك ويعود إلى مصالحتك . ذلك لأنه يعرف نفسك حق المعرفة ،

ويحاسبك على شر حقيقى كامن فيك ، لا عن شر خيالى تصوره عنك . فاحذر صديقك أكثر مما تحذر عدوك ، واحتفظ به ما استطعت . إذ لو انقلب يوماً عليك ، ففى وسعه هو وحده أن يكشف النقاب للناس عن جوهر شخصيتك .

## أنت وعدوك

إن عدوك قد يخدمك . فقدر فى عدوك حنكته وذكاءه ، وتعلم الفطنة منه إذا رأيته يعرف كيف يستخدم ضدك السلاح الذى سلمته أنت إياه بتهورك .

## أصحاب صاحبك . .

أصحاب صاحبك هم المرآة التى تبصر فيها كيف ينظر صاحبك إليك . . .

## لا تنعم النظر . . .

عليك أن تدرس جيداً أخلاق من يجب أن تصادقهم أو تعاملهم ، ولكن إياك أن تنعم النظر طويلا فى أخلاق من يجب عليك أن تحبهم .

## محرومون وأنذال

من الرجال مَنْ يعيش معذباً فى روحه ومحروماً من العواطف . فيصبو قلبه إلى شىء من العطف والحنان تجود به عليه امرأة أو يهبه إياه صديق . فإذا ما صادف تلك المرأة أو ذلك الصديق، ابتهج فى البدء وتواضع ، ثم أخذته نشوة انتصار متكبر خسيس . فانقلب فجأة إلى طاغية ، وراح يستبد بالمرأة التى حنت عليه أو بالصديق الذى حباه بالود والعطف ، كأنما هو لم ينشد الحنان والعطف إلا ليثأر فى نذالة لحرمانه

الطويل منهما . وهكذا يفقد المرأة أو الصديق ، ويرتد إلى صحراء حرمانه حيث لا يجد قوتاً غير الكمد والحقد :

## الطبائع الجافة

احذر غلظة القلب وجفاف الطبع . فالطبائع الجافة لا تستجيب فى الغالب إلى العواطف الطيبة . إذ على قدر شعورها بجفافها يتولد فيها ظمأ عميق إلى العواطف الشريرة لا يرتوى إلا بإحداث الألم للآخرين . فهى لا تحس أنها قوية وأنها تعيش إلا إذا عذبت الغير . وهى لا تعذب الغير بالتنكيل الصريح بل بالدهاء الخفى الذى يصدر عن جفافها نفسه ، وعما تشعر به من عجز عن الإحساس بأية عاطفة سمحة أو انفعال كريم :

## من هو الميت الحى ؟

هو الإنسان الذى لا حب فى قلبه ، ولا فكر فى عقله ، ولا أمل فى خياله ، ولا غاية يبررها وجوده .

هو الذى يبعثر ذهب أيامه فى شهوة البطن ، وغلمة الجنس ، وصرعة الخمر .

هو الذى تتساقط لحظات حياته مدوية فى جوف الزمن دون أن يسمع صوتها .

هو الذى يكره القلق ، ويكره الألم ، ويخشى على عينيه من ملح الدموع .

هو الذى يعيش من نفسه ولنفسه ، أبعد ما يكون عن الشعور بأنه يخرج من صحراء إلى صحراء .

هو الذى يسمن ويترهل مستعذباً تهيئة بدنه للديدان .

هو الذى يصرخ فى ساعته الأخيرة : « إنى أموت » . . . فيركل السامعون باشمئزازهم جثته ، ويرددون : أكانت لهذا الرجل روح ؟ !

## أمام الربح والخسارة

إذا خسرت شيئاً عظيماً فيجب أن تعرف كيف تتقبل الخسارة وأنت تبتسم. وإذا ربحت شيئاً عظيماً فيجب أن تقابل ربحك بسكون، كأن هذه هى دائماً عادتك .

## أعرف كيف تصمت

يجب أن تعرف كيف تصمت أو تقول عند الاقتضاء أشياء أثمن من الصمت :

## متى يجب الكلام

تكلم عندما يجب الكلام ، ولا تستر أبداً فكرة صالحة . واعلم أن من يألف ستر فكرة صالحة ، قد ينتهى به الأمر إلى التستر على عمل فاضح .

## ✯ على حساب الحقيقة

إذا اتفق وكنت تناقش إنساناً فى موضوع ما ، ثم انفعلت وتركت الغضب يتسرب إلى نفسك ، فخصمك سينفعل أيضاً ، وقد يجرحك . وعندئذ ينقلب نقاشك من رغبة فى البحث عن حقيقة إلى رغبة خبيثة فى الدفاع عن كرامتك ضد خصمك على حساب الحقيقة .

## ✶ الاعتراف بالخطأ

إذا ارتكبت خطأ ولم تشأ الاعتراف به ، ارتكبت خطأ ثانياً . أما إذا اعترفت مختاراً بخطئك ، فقد وضعت الخطأ فى الماضى ، ووضعت العقل فى الحاضر والحكمة فى المستقبل :

## حقد العاجزين

الحسود غيور . والحسود الغيور إنسان فقد الثقة فى نفسه وفى قدرته على تحقيق غاياته ومطامعه . فهو بدل أن يمضى فى الكفاح ليصل ، يظل متطلعاً إلى الذين وصلوا ، معتبراً نجاحهم نجاحاً مسلوباً منه ، منفقاً صفوة عمره وعصارة فكره فى الانتقاص من قدرهم ، ومحاولة إظهارهم لدى الناس بمظهر المشعوذين الدجالين .

والحسود وثيق الصلة بالكسول . ولكن الكسول يقنع بلذة سلبية . أما الحسود فلا تطيب له الحياة إلا إذا شابها اللؤم ، وتخللها الدهاء ، وتمشت فى تضاعيفها لذة إيجابية خبيثة هى لذة الوشاية والوقيعة والدس . فهو يمكر ليصل ، ويغتاب ليصل ، ويتزلف ليصل ، ولا يفتأ يدس للرجل الناجح بغية أن يحل محله أو يجعل منه إنساناً مخفقاً مثله . فإذا تنكر الحظ للناجح فجأة وأصابه الإخفاق فعلا ، فعندئذ يشعر الحسود بالسعادة الكاملة لأن المساواة فى الإخفاق قد تحققت فى النهاية بينه وبين ذلك الرجل الذى كان بالأمس فذًّا ومرموقاً .

هذا هو حقد العاجزين ، يمتلئ به صدر الحسود فيمج لسانه السم كالأفعى .

## كيف يفهمون المساواة . . .

يتشدق بعض الناس بضرورة تطبيق مبدأ المساواة . ولكن المساواة فى عرفهم هى أن يتساووا بمن هم أذكى منهم عقلا ، وأعلى كفاية ، وأرفع منزلة ، وأوفر على الخصوص مالا . .

وهذا هو حقد الخاملين المخفقين الذين يعترضون بالحسد العاجز قانون الحياة ، وينسون أن لا مساواة إلا فى المقابر .

## الابتسام والضحك

ابتسم كثيراً واضحك قليلا . و إذا قالوا لك إن الضحك هو الذى يميز الإنسان عن الحيوان . فاعلم أن لا شىء أقوى من الضحك يمكن أن يرد الإنسان إلى درك الحيوان .

## الفرح والسعادة

ليس الفرح هو السعادة . ونحن قد نفرح للشر بل إن معظم أفراحنا تصدر عن الشىء الذى يرضى أنانيتنا . وإذن فالفرح لاضمير له . إنه لايشعر إلا بنفسه . إنه كمعشوق ينتشى بملذاته . إن فيه الكثير من غريزة الحيوان . أما السعادة فإلهية : لأنها تصدر عن راحة القلب ، ونقاء النفس ، وطمأنينة الضمير .

## ✯ سعادة وشقاء

كل منا يمر بأوقات سعادة وشقاء . ولكن أوقات الشقاء هى التى تبقى غالباً فى الذاكرة . أما أوقات السعادة فهى التى تضمحل وتتلاشى . وهذا فى الواقع أصلح لأن تفكيرنا فى أوقات شقائنا يمكننا من تقدير قيمة أية سعادة جديدة يجود بها القدر علينا .

## ★ تبادل واكتفاء

من الناس من يحبسون عواطفهم عن الغير ، خشية أن يقبل الغير عليهم بعواطفه . وهؤلاء الناس لايمكن أن يعرفوا السعادة ، إذ السعادة فى خصوبة التبادل لا فى عقم الاكتفاء .

## ضوء واحد

إذا أحببت الناس بعواطفك فقط فلا بد أن تؤثر شخصاً على آخر، وترفع من قدر شخص على حساب آخر. أما إذا أحببتهم بعواطفك وعقلك، فلا بد تشعر أن الناس جميعاً من التعاسة بحيث يجب على السليم منهم أن يذهب فى الطيبة إلى حد العبقرية كى يحس بآلام المريض، وأن المريض منهم يجب أن يذهب فى الصبر ودماثة الخلق إلى حد القداسة كى يحسن تقدير موقف السليم ولا يحسده عليه. وعندئذ تفهم تماماً أن الناس متساوون فى استحقاق الحب لأن فيهم جميعاً ضوءاً مشتركاً واحداً، سواء أصدر هذا الضوء عن ثريا ساطعة أم عن شمعة خافتة أم عن حريق فظيع.

## المسكين لا يصدق . .

كل من يحرمه القدر من السعادة طويلا ييأس منها، فإذا اتفق وطرقت بابه فجأة، فتح الباب وهو يرتجف، خشية أن تبدو له السعادة متنكرة فى ثوب الشقاء . . .

## طريقان

لا يعرف الإنسان السعادة إلا من طريقين : الأمل والذكرى . .

## حجاب السعادة

قد يكون من اليسير علينا أن نعرف السر فى شقاء إنسان . ولكن من العسير علينا فى معظم الأحيان أن نعرف السر فى سعادته .

إنه يخاف عليها منا، من فضولنا، من تهافتنا، من حسدنا وغيرتنا فلا نبصر نحن فيه غير الجمال الذى تخلعه عليه السعادة . هذا الجمال

الذى يظل فى روعته أبكم ساخراً لا ينطق بالكلمة التى تكشف عن سره الحجاب .

## الرذائل المقنعة

كثيراً ما يحدث أن الرجل الشجاع لا يبدو لنا شجاعاً إلا لأنه سريع الغضب والثوران ، والوديع لا يبدو لنا وديعاً إلا لأنه ضعيف أو خجول ، والكريم لا يبدو لنا كريماً إلا لأنه مزهو ومحب للظهور ، والمتسامح لا يبدو لنا متسامحاً إلا لأنه متردد أو جبان . فانظر إلى الناس بعين ثاقبة ، إذ فضائل بعضهم قد تكون رذائل مقنعة .

## أعمالنا الصغيرة

لكى تفهم إنساناً ، عليك أن تنعم النظر فى الأعمال الصغيرة التى تصدر عنه . إذ هو فى الأعمال الكبيرة يلاحظ نفسه . أما فى الصغيرة فينطلق على سجيته .

## نفوسنا كوجوهنا . .

نفوسنا كوجوهنا عليها أبداً أقنعة . فإذا شئت النفاذ إلى النفس البشرية ، فاعطف عليها ، بل احتضنها فى الألم والفرح ، فى الضلال والهدى ، فى الشر والخير . وهكذا تنكشف أمامك فجأة ويسقط عن وجهها الزائف القناع .

## قناع السخط

إن سخط بعض الناس على الحياة قد يكون قناعاً يخفون تحته سخطهم على أنفسهم . فهم ، وقد بددوا حياتهم بأيديهم ، يعز عليهم الاعتراف بأخطائهم . فتنفجر مرارتهم ، وينصب غضبها على الحظ الذى لا يستطيع بالطبع أن يتكلم ويواجههم بمسئولياتهم .

## الأناقة والتبرج

الأناقة الحقيقية تنبع من بساطة النفس واتزان العقل وسلامة الذوق. إنها لا تلفت إليها نظر رجل الشارع ولكنها تسترعى انتباه الشخص الممتاز. أما التبرج فهو الصورة « الكاريكاتورية » للأناقة. الصورة التى تشوه وتمسخ الإنسان، فتجعل من الرجل المحترم خنثى ومن السيدة الفاضلة غانية.

## أطوار غريبة

إنه لأيسر على بعض الناس أن يكونوا طيبين مع الجميع، من أن يكونوا طيبين مع شخص واحد.

## عزلة مروعة

أفجع ضروب العزلة ما نشعر به ونحن بين أهلنا.

## الصدأ والنار

الزمن يشبه الصدأ كما يشبه النار. فهو كالصدأ يهرأ الباطل، وهو كالنار يصهر الحق.

## ظلم وظلم

إذا كانت الطبيعة الظالمة قد جعلتنا غير متساوين فى القوة البدنية والذكاء، فالمجتمع يجب أن يجعلنا متساوين فى الحقوق، وإلا استبد الأقوياء منا بالضعفاء، وأضافوا إلى ظلم الطبيعة ظلم الإنسان. فلا تكن أنت والطبيعة حرباً على الضعيف. أنصفه ما استطعت، وذد عن حقوقه، وارتفع به جاهداً، ترتفع بنفسك، وتشعر أن الطبيعة الظالمة القاسية أصبحت شفقة ورحمة على يدك.

## روح الاستبداد

أعرف أناساً لا يتألمون كثيراً إذا لحقتهم إهانة من شخص يعتبرونه أعلى منزلة منهم ، ولكنهم يثورون ثورة عارمة إذا لحقتهم هذه الإهانة من شخص يعتقدون أنه أدنى منزلة منهم .

وهؤلاء الناس يثأرون لكرامتهم من الصغير لفرط إحساسهم بضآلة أقدارهم أمام الكبير .

وهذا هو روح الاستبداد الرخيص المنحدر من تأصل الشعور بالعبودية .

## الخسة البشرية

من الناس من لا يثور للظلم الواقع على ضعيف ، بل يحتقر الضعيف ، ويجد لذة خبيثة فى الإعجاب بالقوى الذى ظلمه ، ويذهب فى الإعجاب بالقوى إلى حد تشجيعه على ظلمه ، بل يتمنى لو استطاع أن يشاركه فى سحق الضعيف المظلوم .

وهذه هى الخسة البشرية فى أدنى مراتبها .

## توازن القوى

نشوة القوة تجعل من القوى وحشاً لا قلب له ، ولذة الضعف تجعل من الضعيف جباناً لا عصب له . وكلما استمرأ الضعيف لذة جبنه أغرى القوى بأن يأكله .

فالقوى يجب أن يحذر نشوة القوة ويأخذ بالعدل كى يطمئن إليه الضعيف ، والضعيف يجب أن يحذر لذة الضعف ويظل متنبهاً وشجاعاً كى يقدره القوى .

هذا هو التوازن الإنسانى بين القوة والضعف ، وبدونه يستحيل المجتمع إلى غابة .

## الحرية والنظام

تنتهى حريتك حيث تبدأ حرية غيرك . فالحرية هى أن تحترم حق الغير ، كما أن النظام هو أن تحمى الدولة حق الجميع .

## نوعان من العبيد

الاستبداد يخلق نوعين من العبيد : العبد الذى يرتضى القيد ، العبد الذى يمالئ المستبد ويحمل القيد يطوق به رقاب الأحرار .

## لذة الاستسلام

كل من هو غير جدير بالحرية يجد لذة عميقة فى الاستسلام ، ولذة أعمق فى أن يجذب الآخرين إلى ضعفه ويزين لهم متعة الأسر والهوان .

## عندما ينحط شعب

فى نفس كل شعب منحط خلق أنثى لا يحترم إلا متى خاف .

## فوق المحاباة والزلفى

أنت رجل مسئول عن عملك وعمن يعملون تحت إشرافك . فاذكر إذن أن فى وسعك أن تقلم الأشجار أو تشذب الأحجار بالعقل المجرد أى بدون حب ، ولكن ليس فى وسعك أن تعامل مرءوسيك وتروضهم وتسوسهم بدون حب .

ومظهر الحب الذى ينشده منك مرءوسوك ليس هو الكلمات المعسولة أو العواطف الشائعة ، بل هو العدل . إذ العدل بسموه فوق المحاباة والزلفى ، يثلج صدورهم ، ويضمن لهم تقدير جهودهم ، ويطمئنهم على

مصائرهم . ويشعرهم بنشوة العزة فى ظل الكرامة . ومتى اطمأنوا إلى عدالك النابع من نزاهتك . أيقنوا أنك حقاً تحبهم ،لأنك تحب العدل الذى يعلو عليهم ويساوى فى الوقت نفسه بينهم ، فبادلوك من تلقاء أنفسهم ثقة بثقة وحباً بحب .

## خطر العنف

قد تستطيع أن تجبر الناس بالعنف على سلوك مسلك تعتقد أن فيه صلاحهم . ولكنك لا بد أن تثير عليك كراهيتهم وحقدهم . ذلك لأنك بالعنف تسلبهم حريتهم ، وتجردهم من كرامتهم ، وتفرض عليهم إلغاء عقولهم ، وتنحدر بهم إلى مستوى القطيع الذى يخضع وينتظم ، ولكن تحت تأثير العصا . فاذكر دائماً أنك بالعنف لا تصلح بل تفسد ، ولا تخمد بل توقظ ، وأن الإصلاح إقناع والعنف ظلم ، وأنك كلما عجزت عن الإقناع وظلمت بالعنف ، كنت أنت الذى تضرم فى صدور الناس نار العصيان والتمرد .

## مكارم الأخلاق

القيمة المتحكمة فى نظر الشرقى هى مكارم الأخلاق ، أما القيمة المتحكمة فى نظر الغربى فهى العمل والإنتاج .

وقد يغفر الغربى للفرد سوء الأخلاق والسيرة لقاء الإخلاص فى العمل . أما الشرقى فيقدم مكارم الأخلاق على العمل ، بل قد يذهب فى إيثارها إلى حد الاستغناء بها عن العمل . فإذا شاء الشرقى أن يمتاز ، فليقرن مكارم الأخلاق بحب العمل .

## قانون الحياة

بقدر ما تجذبنا الصحة والقوة والجمال ، نشعر حيال نقيضها بنفور

يقترن غالباً بالقسوة والشر . فالشاب قد ينظر إلى أبيه المسن فيتصور نفسه فى المستقبل شيخاً مهدماً مثله ومهيأ للموت ، فينفر من أبيه وقد يقسو عليه بالرغم منه . كذلك الزوج الذى يفرح برؤية امرأته صبية وجميلة ، كثيراً ما ينفر من أمها العجوز ويكرهها . فينفر من امرأته ويرى فيها صورة الدمامة والشيخوخة والتهدم الماثلة فى أمها .

فالإنسان ولا سيما الشاب إن لم يحكم عقله ويسلم بأن القوة فى الحياة لابد أن يجاورها الضعف ، والصحة لا بد أن يجاورها المرض ، والشباب لا بد أن تجاوره الشيخوخة . والجمال لا بد أن يجاوره القبح ، استحال عليه أن يرى الحياة على حقيقتها . وعندئذ يفسد طبعه ، ويغلظ قلبه ، ويقسو على كل مسن أو عليل أو دميم . فينغص حياته وحياة من حوله ، ولا يستطيع أن ينعم حتى بقسط الصحة والقوة والجمال الذى حباه به القدر والذى فيه الآن سعادته .

## الشر الواعي

هناك إنسان شرير بطبعه ، وآخر يرتكب الشر متأثراً بغيره ، أو بحادث طارئ يزعزع أعصابه ويفقده وعيه . ولكن شر الجميع هو ذلك المتعلم المثقف الذى يفكر بعقله ، ويبتدع لنفسه فلسفة يبرر بها انسياقه وراء غرائزه ، ويستخدمها لإشباع تلك الغرائز ، وهو يلحق بالغير أبلغ الأذى فى طمأنينة وسخرية وعدم اكتراث .

إن الاندفاع إلى الشر يصدر فى الغالب عن عنف العاطفة التى تحتم على العقل . أما إذا صدر عن عقل مفكر فصاحب هذا العقل يصبح أشد فتكاً من أعرق مجرم . إذ على قدر ذكائه تكون عواقب إجرامه ، فلا تصيب فقط أفراداً معينين ، بل تهلك فئة بأسرها .

## الفلسفة والفضيلة

الفلسفة تنبع من العقل وغايتها الاجتماعية أن تعرف الناس .

والفضيلة تنبع من القلب وغايتها الاجتماعية أن تحب الناس .

فلا قيمة للفلسفة إن لم تقترن بالفضيلة ، ولا قيمة لضوء العقل إن لم يقترن بحرارة القلب .

## فوق الفلسفة

مهما بهرت الفلسفات عقولنا فهى لا تقع من نفوسنا موقع الجد أبداً . أما ما نعرفه بوجداننا وعواطفنا وروحنا ، فهو الشيء الجدى حقًّا فى حياتنا ، لأنه الشيء الذى عذبنا ، والذى لولا تشبثنا الفطرى بالحياة لكان من المحتمل جدًّا أن يقتلنا .

## قيمة الإصغاء

حسن الإصغاء هو طريق المعرفة . والمتواضع هو العالم لأنه يعرف كيف يصغى . أما المتكبر فيظل جاهلا لأنه لا يمكن أن يصغى إلا إلى صوت نفسه .

## السنبلة والعجلة

المتكبر يشبه سنبلة القمح الخاوية التى يروق لها أن تشمخ وتزهو وتعلو على سواها ، أو هو يشبه العجلة المتداعية التى هرأها الصدأ والتى يروقها أن تعطل سير المركبة وتظل تصر فى الآذان صريراً مزعجاً .

## الكبرياء والطيبة

الكبرياء لا قلب لها . وهى تخنق أروع وأسمى عواطف النفس ،

اى الطيبة . وكما أن الماء لا يثبت على قمة الجبل ، كذلك الطيبة لا يمكن ان تعيش فى قلب المتكبر . لابد للماء أن ينحدر ولا بد للطيبة أن تترقرق ، كلاهما ينشد الأرض المنخفضة ليرويها وينعشها ويبدع منها للناس زهراً ناضراً وثمراً شهياً .

## مركب نقص

المتكبر يشعر أن لا شخصية له ، فتثيره الضعة ويأكله الحنق ، فلا يستطيع إلا أن يخلع على ذاته الشخصية الفذة المرموقة التى يتلهف عليها ، فهو عاجز عن التفوق ، ومستعبد لمركب نقص ، وفوق ذلك جبان . وهو من فرط عجزه يستعيض عن القوة بالتسلط ، ومن فرط عبوديته ينزع إلى استعباد الآخرين . ثم هو يقدر الملق أضعاف ما يقدر الكفاية ، لأن مرجع الملق إلى شخصه ، ومرجع الكفاية إلى منفعة الناس . لذلك تراه لا يصغى إلى الشريف الذى يحدثه عن الناس بالخير ، ولكنه يرهف السمع إلى الحقير كلما حدثه الحقير بالخير عن نفسه .

## البالون المنتفخ

المتكبر يخشى النقد ، لأنه يشعر فى أعماق نفسه أن حظه من التقدير لا يتوقف على أكثر من شكة دبوس ، فيها الكفاية كل الكفاية لتمزيق أى بالون منتفخ .

## الغباوة والكبرياء

قد تعيش الغباوة بلا كبرياء ، ولكن الكبرياء لا بد أن تصحبها الغباوة . ولو أدرك المتكبر ما يربحه منه المتملقون ، لأحس على الفور أنه أغبى مخلوقات الأرض جميعاً .

## شر الوقاحات

قد تواجه المتكبر بخطأ صارخ ارتكبه . فينظر إليك متعالياً مستنكراً كأنك أهنته . ثم يكابر ويؤكد أن ذلك الخطأ هو عين الصواب . فى حين يعلم تماماً أنه خطأ . ويعلم تماماً أنك لست غبياً ،وأنك تعرف حق المعرفة كيف تفرق بين الخطأ والصواب . ولكنه يصر على المكابرة معتقداً أن فيها إنقاذاً لكبره وكرامته . فيضيف إلى شناعة الخطأ وقاحة المكابرة ، ويثيرك فوق ذلك لأنه يتغفلك . فتهدر أنت محنقاً ومغيظاً ، ثم تضبط أعصابك جهدك ، خشية أن يجمح بك الغضب فتصفعه.

## رذيلة العاطلين

النميمة أحب الرذائل إلى قلوب المتعطلين . وإنه لمن اليسير عليك أن تروق فى عيون المتعطلين إذا شاركتهم فى نهش أعراض الناس . ولكن اعلم أنك لا تكاد تنصرف عنهم حتى ينقلبوا عليك ويبدءوا ينهشون عرضك أنت .

## شيطان الضجر

املأ حياتك بأى شيء ، بأية هواية ، بأى عمل أو أى حب . إذ الإنسان قد يظل ملاكاً لولا الضجر . ولكن ضجره من رتابة حياته أو من فراغها هو الذى يدفعه إلى الارتماء فى صخب الرذيلة ، وعندئذ ينقلب من ملاك إلى شيطان .

## سلطان الكذب

الكذب هوة لا قرار لها . وأنت لو استمرأت الكذب ترديت فيها ، فالكذبة الواحدة لا بد أن تكلفك مئة كذبة أخرى تنفيها بها لو انكشفت ،

أو تدعمها بها إذا شعرت أنها قد تنكشف ، أو حتى إذا أيقنت أنها لن تنكشف أبداً . وهكذا تلقى بلك الكذبة الواحدة فى دوامة من الأكاذيب لا تعرف كيف تفلت منها .

## الكذب والشخصية

الكذب يفصم الشخصية ، ويضع حاجزاً بين مظهرنا الخارجى وحقيقتنا الباطنية . وهكذا يحول بيننا وبين الانطلاق الواثق الحر مع الحياة. لأن شرط الانطلاق الواثق الحرمع الحياة هو الصدق ، والصدق هو الدليل البالغ على استقامة النفس ووحدة الشخصية .

## الثرثرة والكذب

بين الثرثرة والكذب علاقة وثيقة . والثرثار لا يكذب عن عمد كذباً عقلياً منظماً يرمى إلى غرض معين ، ولكنه يكذب اعتباطاً وفى غير احتفال . يكذب لأنه لا بد أن يتكلم ، ولأن شهوة الكلام والمبالغة أقوى فى نفسه من إرادة الاتزان والتفكير . وهو متى تكلم لا يلاحظ ضبط العلاقة بين حديثه وفكره أو بين أقواله وأعماله أو بين مزاعمه وحقائق الأشياء . وهكذا يشوش بثرثرته الأفكار والوقائع تشويشاً قد تكون عواقبه أخطر من عواقب الكذب المقصود ألف مرة .

## احذر لسان المرأة

كل امرأة لا بد أن تثرثر فى الترهات ، ومعظم النساء ، ولا سيما الدميات ، مصابات بمرض الكلام .

وقد لاحظ العلماء الذين طافوا بمستشفيات المجاذيب أن المرأة المجنونة شديدة الولع بسرد القصص ، وأنها أسرع بكثير من الرجل المجنون فى الإفضاء بمشاعرها وتصوراتها .

فلسان المرأة أخطر على الرجل السليم من حد السيف ، وينبغى أن يتنبه إلى شره ويحذره . إذ المرأة ، ولاسيما إذا كانت مغرضة ، تبذل المستحيل بلسانها ، وتمعن فى الثرثرة وتزويق الكلام كى تدفع الرجل إلى تحقيق الغرض البعيد المنطوية عليه نفسها .

والواقع أن تاريخ الإجرام حافل بالأدوار الخطيرة التى لعبتها المرأة : ونحن إذا ما عدنا إلى شكسبير وراجعنا مسرحية « مكبث » أدركنا كيف أن الغريزة النسوية تسيطر عليها شهوة البطن وشهوة المظهر وشهوة الكلام ، وكيف أن « اللادى مكبث » توسلت إلى أغراضها بالكلام ، وظلت تتكلم وتفنن فى كلامها حتى دفعت بزوجها الحائر القلق المتردد إلى ارتكاب جريمة القتل .

## الشجرة والحشائش

إذا شئت أن تكون عظيماً فكن كالشجرة ، ولتكن مشتهياتك الخبيثة حشائش تحيط بالشجرة . الحشائش مهما نمت وتكاثرت وحاولت أن تتسلق الشجرة ، فالشجرة المستقيمة المنيعة لايمكن أن تنحنى على الحشائش لحظة ، بل ترمقها بنظرة سخرية واحتقار ، وتظل ثابتة شامخة مشرئبة إلى السماء أبداً .

## الإنسان والخليقة

الإنسان عوالم مجتمعة فى رأس . وليست الوراثة أو التربية أو البيئة هى التى تكونه فحسب ، بل هى أيضاً شتى الأخيلة والصور والأحلام والآمال والآلام التى كونت الخليقة فى أعمارها الطويلة واستقرت فى عقل الإنسانية الباطن ، أى فى وعيها الخفى الأبدى .

## القوى العشر

الأمل ، والحب ، والخيبة ، والعسر ، والمرض ، والشعر ، والموسيقى والصلاة ، والنوم ، والذكرى ، تلك هي القوى العشر التى تمثل الحياة حلوها ومرها . فرض نفسك عليها ما استطعت ، فهى التى تطل منها عقولنا فى امتلاء على العالم ، وقلوبنا فى شفقة على الناس ، وبصائرنا فى دهشة على المجهول ، وأرواحنا فى ظمأ على اللانهاية .

## طبيعة الإنسان

إن طبيعة الإنسان ذاتية وموضوعية فى الوقت نفسه . بمعنى أنه لا يستطيع أن يدرك أو يحس شيئاً خارجاً عن نفسه إلا إذا كان لهذا الشىء الخارجى صدى فى أعماق روحه . فهو لا يتأثر بالنغمات الموسيقية مثلا إلا لأن فى إحساسه الباطنى جوهراً موسيقياً يستجيب للنظام الدقيق الماثل فى تلك النغمات . وهو لا ينفر من الدمامة إلا لأن فى إحساسه الباطنى جوهراً من الجمال يستجيب استجابة عكسية لأثر تلك الدمامة . وهو لا يجزع من الشر إلا لأن فى إحساسه الباطنى جوهراً من الخير يحدث الاستجابة العكسية نفسها تجاه الشر . فمتى أنعمنا النظر فى هذه الظاهرة ، ابتسم لنا الأمل ، ولم نعد نيأس من مستقبل الإنسان

## بين طفولة الروح
## وكبرياء العقل

إن معظم ما يطرأ على أخلاقنا من انحرافات إنما يرجع إلى المظاهر الاجتماعية الباطلة والمطامع المادية الزائلة وشتى الزيوف التى نكبل بها أنفسنا ، والتى تباعد بيننا وبين جوهر الحياة السليم الأسمى . وهذا الجوهر الذى لا نفطن إليه بل الذى نترفع عنه ونستهزئ به هو روح الطفولة الكامنة

فيناوالتى فى وسعنا كلما أصبحنا مهددين بالانحدار أن نهرع إليها لنستمد منها نقاء فى النفس وصفاء فى الضمير ينقذنا من انحرافاتنا ويرتفع بشخصيتنا ويملؤنا بذلك الفرح الغامر المطهر الذى نتمثله فى وجوه الأطفال .

والحق أن الطفل هو الحياة لم يمسخها العقل : ولم تشوه معالمها رذائل المجتمع ، هو العاطفة المطلقة ، والطبيعة الحرة ، والوجه البشرى البرىء . وأنت عندما تقبل على الأطفال لا تبتهج فقط بما يفيضونه عليك من براءة وطهر ، بل تبتهج أيضاً بما يتراءى فيهم من مختلف صور الحياة فى جيشانها الدائم مما يوحى إليك أن الحياة ما تزال أمامك بكراً ناضرة ، وأن عليك أن تتجه نحوها بمثل تلك الفطرة السليمة التى يتمتع بها كيان الأطفال . فانظر إليهم وتأملهم . . .

هذا طفل ممتلئ الخدين ، متألق العينين ، يضحك ، فيخيل إليك أن عناصر الطبيعة الكبرى تمرح فيه ساخرة بالألم ، هازئة بالقدر .

وهذا طفل حالم منكمش ، هادئ الحركة والإشارة ، يبتسم فجأة فيخيل إليك أنه شاعر مستغرق فى حلمه ، استفاق بغتة على صوت إلهامه ، فجعل ينصت لعروس شعره وهو يبتسم .

وهذا ثالث محنى الرأس ، مشوش الشعر ، متقرح العينين ، يبكى ، فيخيل إليك أنه والجبار المنهزم سواء ، وأنه كذلك الجبار عاجز وذليل ، وكذلك الجبار يكافح برغم ألمه ويقاوم وينشد الخلاص .

وهذا رابع مشرق الطلعة ، عالى الجبهة ، لامع النظرة ، تتدفق من هيكله الضئيل موجات من نور ، فلا تكاد تحدق إليه حتى ترتجف وترتد وملء نفسك الشعور بأنك حيال قبس من صفاء الملائكة أحباب الله . فالحياة العليا تتمثل فى وجه كل طفل صغير لم يعرف الشر بعد . وهذه الحياة العليا التى تنبع من روح الطفولة قد تغنت بها طائفة كبيرة من نوابغ الشعراء والأدباء واتخذت منها مصدر وحى تبدى فى تضاعيف

أعمال فكرية رائعة ، وقصائد شعرية فذة ، ورسائل شخصية تفيض رقة وعذوبة وجمالا . من ذلك ما كتبه الشاعر الفرنسي الكبير فكتور هوجو فى إحدى رسائله إلى الناقد المشهور سانت بوف : « لا راحة للإنسان فى حب امرأة . الراحة كل الراحة فى حب الأطفال . فى حبهم النزيه الذى لا يخدع ، وفى قلوبهم النقية التى سرعان ما تصفح ، وفى ابتساماتهم التى تعرف دون سواها كيف تقدم النفس للغير هبة خالصة ! . . . وأنا كلما نظرت إلى وجه طفل تخففت من همومى وأقبلت على الحياة بنفس راضية وزايلنى على الفور إحساس التشاؤم الممض القاسى ، وحل محله شعور بالتفاؤل يملؤنى ثقة وعزماً وقدرة على المجالدة والكفاح . ثم إن الطفل وهو ينطلق فى فسحة الدنيا يندفع بالرغم منه إلى استطلاع الحياة واستكشافها ، وكذلك أنا عندما أتأمل الطفل أقتدى به على الرغم منى ، وأريد أن أستكشف الحياة مثله وأستبطن أسرارها عساى أستشف جوهرها الخالد الأبدى . فالطفل يعلمنى كيف أنظر وكيف ألاحظ وكيف أسجل وكيف أحتفظ بنزعة الاستطلاع التى هى وقود العقل وباعث المعرفة » .

أما القصصى الروسى « فيدور دستويفسكى » فقد كان يرى فى وجوه الأطفال ما لا يراه الناس . كان يقدسهم ، ويقضى الساعات فى اللهو معهم ، وينسى فى صحبتهم عقله ، ويحاول ما استطاع الاندماج فيهم والتشبه بهم . وإن من يطالع أعماله الرائعة ولا سيما قصة « الإخوة كرامازوف » وقصة « الأبله » يراه ، وقد تمكن منه ولعه بالأطفال ، يرسم لهم صوراً دقيقة الملامح ، ناطقة السمات ، فيها البراءة والمحبة والتضحية ، كما أن فيها الصراع بين هذه العواطف السامية وبين ما يعترضها فى المجتمع من رذائل وشرور يبهت لها الأطفال وتدهشهم فيحاولون التغلب عليها بما يكمن فى طواياهم من براءة أصيلة وطهر عميق .

وفى وسعنا أن نقول إن فلسفة « دستويفسكى » لم تقم أساساً إلا على تمجيد روح الطفولة ، وإن أحب أبطال قصصه إلى نفسه ، هم أولئك

الذين صفت قلوبهم ، ورقت مشاعرهم ، وعاشوا كأطفال كبار .

وأما شاعر الهند « طاغور » فقد كتب إلى الأديب الفرنسي « رومان رولان » رسالة مستفيضة جاء فيها : « . . . عندما كنت شاباً ، كانت غرائزي أقوى مني ، وكانت جاذبية الملذات المحرمة على وشك أن تستبد بي وتهلكني . فلكي أتغلب عليها وأقهرها ، لجأت إلى الله ، وشرعت أصوم وأصلي ، وأحاول أن أنظم شعراً روحياً خالصاً أمجد به الذات المهيمنة العليا . ولكني أحسست مع ذلك أن نفسي لم تكن طاهرة كما كنت أتمنى ، وأني غير جدير بالرعاية الإلهية التي كنت أنشدها ، وأن تلك الجاذبية المحرمة الخبيثة ما تزال تحوم حولي وتراودني . فاضطربت وتخبطت ومضيت أبحث في كياني عن حافز معنوي ينقذني . وعلى حين فجأة تمزق الضباب الذي كان يغشي حياتي وانجابت السحب عن بصيرتي فأشرق وجداني وعقلي وأدركت . . . أدركت أني من المحال أن أمجد الله كما أروم وأبتغي ، ومن المحال أن أعبده حق عبادته ، ومن المحال أن أبدع شعراً روحياً خالداً ، إلا إذا أيقظت في نفسي روح طفولتي ، وتطهرت بمائها القراح من كل رجس في فكري وجسدي ، وجمعت في شعري بين عقل الرجل الناظر في حكمة إلى شئون الأرض ، وبين قلب الطفل المتصل في براءة بأجواز السماء . . . فالرجوع إلى الطفولة كان خلاصي ، ومن نبع الطفولة ما زلت أستمد وحياً لشعري ، وقوة أحلق بها في رحاب الطبيعة ممجداً خالقها الذي هو ، بي ! . . . »

* * *

فاحرص على طفولة روحك حرصك على حدقة عينك الثمينة . وإياك أن تجعل عقلك المتكبر الأناني يطغى عليها . واعلم أن بين طفولة الروح وتكبر العقل معركة يومية دائمة ، لو هزمت الطفولة فيها ، فالأخلاق لا بد أن تتحلل والسعادة الروحية لا بد أن تموت ، والعقل يصبح نهباً مقسماً لأوضع ما في النفس من غرائز الحيوان .

# في قيمة المال

## وهم كبير

إن جمع المال شيء . والتمتع بهذا المال شيء آخر . وأنت كلما جمعت مالاً ازددت طمعاً ، وانحصرت لذتك في الجمع والاكتناز . وقليلون هم الذين يدركون أن الجهد الذي تكبدوه في جمع المال هو جهد قد ضاع منهم بالفعل . فلا هم استطاعوا التمتع بالمال تمتعاً مادياً يتناسب وكثرته وقدرة الطاقة البشرية المحدودة ، ولا هم استطاعوا التمتع به تمتعاً معنوياً يملأ عقولهم وقلوبهم بعواطف وأفكار وثقافة تسمو بهم فوق محيط غرائزهم .

وإذن فجمع المال وهم وخدعة . فضع رقي عقلك وقلبك ووجدانك فوق المال ، تدرك عندئذ قيمته ، وتتخذ منه وسيلة لا غاية ، وسيلة لمضاعفة ارتقائك ونفع من حولك ، لا غاية وهمية رخيصة لحياتك ، فتتحرر من سلطانه وتستعبده بدل أن يستعبدك .

## نحن لا نملك شيئاً

نحن في الحقيقة لا نملك شيئاً . وحادث قدري غاشم يقع لنا يمكن أن يجردنا في لحظة من كل شيء . فنفسنا فقط هي التي نملكها ، وهي التي يجب أن نروضها على كل ما هو معنوي وثابت كي نسمو بها فوق متاع الدنيا . إذ نفسنا هي التي ستبقى لنا فيما لو عصف بنا الحادث الغاشم فجأة . وأفقدنا ما كنا قد تهالكنا عليه ، واعتقدنا أنه هو الهدف الرائع الأوحد في هذه الدنيا .

## من باب القبو . .

هناك ساحر خبيث يعرف ما للمال من سلطان فيأبى إلا أن يطمره في قبو . فإذا ما استبدت شهوة المال بإنسان ، أجبرته على أن يحني رأسه ما استطاع كي ينفذ إلى المال من باب القبو . .

## أثوابنا وأرواحنا

الثوب الأنيق يعوق حركات الجسد ، كذلك المال الكثير يعوق حركات الروح .

## يكفيه القليل ولكن . .

الإنسان يكفيه القليل ولكن مصيبته أنه يخجل من أن يقول عنه الناس إنه يعيش بالقليل .

## بين القناعة والطمع

الطمع يشوش العقل ، والقناعة تقر النظام في الفكر . فالطمع هو سعادة المجانين ، والقناعة هي سعادة الحكماء .

## الله والمال

إن من يريد أن يعبد ربين : الله والمال ، لابد أن ينتهي على الرغم منه إلى الاعتقاد بأن الله غير موجود .

## مسعورون ...

كما أن الكثير من الطعام الطيب يصيب الكلاب بالسعر ، كذلك التهافت على جمع المال يصيب الناس أيضاً بالسعر .

## مسئولية الأثرياء

إذا رأيت إنساناً يمتلك أكثر مما يكفيه ، فاعلم أن هناك قوماً لايستطيعون بسببه أن يجدوا قوتهم الضروري .

## المعدن البارد

الناس لايطلبون منك مالا بقدر ما يطلبون فهماً ومحبة . وأنت قد تعطى المال ثم تحجم عن الفهم والمحبة . ولكن المال وحده معدن بارد . فكيف تعجب بعد ذلك إذا قال عنك الناس إنك متكبر وقاس ، وإن إحسانك هو فى الواقع دعاية لنفسك ؟ . . .

## القوت أولا . .

إذا ضمنت للناس على الأقل الكفاف ، أمكنك أن تحدثهم عن الفضيلة . أما إذا حدثتهم عن الفضيلة وهم جياع ، فأنت أحمق أو مغرض غشاش .

## التسول أو السرقة

إذا أبيت أن تشتغل وتكسب خبزك بعرق الجبين ، فأنت بين أمرين : إما أن تتسول وإما أن تسرق ، أى تحاول بكل ما أوتيت من ذكاء فى العقل وقسوة فى القلب أن تستغل جهد الآخرين .

## ترفع عجيب . . .

من خصائص الرجل الممتاز شدة احتقاره للمال . وهذا هو السر العجيب فى أنه عندما يضعف ويسقط ، يحتقر المال أيضاً ، ويبيع نفسه بأبخس الأثمان .

## متفرج لا متأمل

وفرة المال تستغرق فكر الغنى وخياله ، فيعمى بصره عن رؤية ما تزخر به الطبيعة من جمال . فالمال يشطره عن الكون . وهو حتى لو سافر

وشاهد بلاداً وشعوباً عجيبة ، فهو ينظر إليها نظرة متفرج فقط ، نظرة مستكبرة ومعتزة تفرح بشعورها أنها كانت قادرة على التمتع بكل هذه المناظر وقادرة على القيام بكل هذه الرحلات ، ولكنها لاتشعر حيال الطبيعة فى أى مكان بلذة التأمل الخصب العميق أبداً .

فكثرة المال لا تجعلنا نتمتع بالحياة بل نتمتع بشعورنا العقيم بأننا قادرون بالمال على أن نتمتع بالحياة .

## غرائز الفقير

لا تستنكر من الفقير غرائزه ، أى التوجس والمكر والمواربة والحيلة . إنها قوته . وأنت لايمكنك أن تستأصلها من نفسه . ولكن فى مقدورك أن تبصره بخطرها ، وتحثه على الإقلاع عنها ، وتلطف من اضطراره لاستخدامها . وذلك بأن تحسن معاملته ، وتحرص على كرامته ، وتكون عادلا فى تقدير عمله ، بحيث لايشعر هو أنك أنت الميسور ، رجل شحيح وغليظ ، تنافسه فى غرائزه ، وتأخذ مثله بضروب المكر والمواربة والحيلة ، كى تبخسه حقه وتستغله وتظلمه .

## فوضى البؤس

عندما يرزح إنسان تحت وطأة البؤس ، تتشوش القيم كلها فى نظره ، فلا يعود يفرق بين الخير والشر ، وبين ما هو مباح وما هو محرم . وكيف يمكنه أن يفرق ، إنه لا يستطيع أن يقيم وزناً لشيء لأنه هو نفسه يشعر أن لا وزن له فى شيء . وعندئذ تنتابه فوضى الفكر والمسلك التى يولدها ذل الحاجة وعذاب التلهف والضيق والحرمان . فينقلب إلى مخلوق يائس ، مستهتر ومدمر ، يضرب فى المجتمع غير حافل ، ويسرق أو يقتل فى غيبوبة كغيبوبة المحموم أو المجنون .

فالقادر الذى لا يبذل لإنقاذ هذا البائس من بؤسه وفوضاه ، تصبح

جرائم البائس هى جرائمه ، فيكون وهو القادر أحق من البائس بالعقاب .

## البر الصحيح

البر بالفقير قد يكون تسليماً بأبدية وجود الفقر ، أما معاونة الفقير مع الدعوة المؤمنة بحق جميع الفقراء فى اليسر ، فهو البر الصحيح لأنه ينهض على العدل .

## تهذيب الفقير

ليست العبرة فى أن نأخذ بيد الفقير ونرفع مستواه المادى فقط ، العبرة فى أن نعلمه أيضاً ما استطعنا ونهذبه ، بحيث لا تأخذه العزة بما أصاب من يسر ، فيتكبر بعد أن ارتفع ، ويذهب فى الكبر والتغطرس إلى حد الوقاحة .

## مجدك . . .

إن مجدك فى أن تربح لتعطى ، فى أن تكون ميسوراً لتحمى وتعول . وإذا قدر لك وأنت محتفظ بنقاء ضميرك أن تأخذ الكثير ، فعليك أن ترتفع بقلبك إلى مستوى ضميرك وأن تعطى أكثر . فكن كالشمس واجمع أشعتك مثلها ، وانثرها أضواء ساطعة على الجميع .

## المثاليون فى نظر الناس

متى استبد سلطان المال بطائفة من الناس ، ثم صادفهم رجل مثالى يولع بالمعنويات ولا يقيم للمال كبير وزن ، أسرعوا فجردوا هذا الرجل من جميع الكفايات الذهنية ، واعتبروه مخلوقاً أبله غبياً جديراً بأن يتغفله كل إنسان . . .

والمثالى يعرف ذلك تماماً ، ويدرك أنه يمثل فى نظر تلك الطائفة شخصية المغفل . ولكنه لفرط اعتزازه بسموه وتجرده ، يدع الغير يتغفله عن طيب خاطر . شاعراً بالأسى لرؤيته الناس على حقيقتهم ماديين وأخساء . وشاعراً نحوهم فى الوقت نفسه بعاطفة أقوى من الأسى ، عاطفة قد تبدو لهم هى أيضاً ساذجة وحمقاء ، عاطفة إشفاق غريبة أقرب ما تكون إلى حب عجيب يدفعه دفعاً إلى التفانى فى محاولة خدمتهم وتهذيبهم رغم إمعانهم الدائب الوضيع فى احتقاره والتندر عليه والسخرية منه.

## لمن يصفقون ؟ . .

من الناس من يقدمون فى غير احتفال على أشد المغامرات المادية خطراً . ولكنهم يجبنون ويتراجعون حيال المغامرات العليا ، أى مغامرات الفكر والقلب والعاطفة . يحبون العظمة فى المادة وينفرون منها فى الروح . يصفقون للوصولى الظافر ، ويهزأون بأصحاب المثل العليا .

وهم إنما يخافون التعلق بأية فكرة أو عاطفة مثالية ، شعوراً منهم بأن هذه الفكرة أو العاطفة لابد أن تحمل فى طياتها شتى فضائل الألم الصامت والاحتمال الصامت ، والتضحية الصامتة ، وأنها تصرف أذهانهم عن السعى وراء النجاح المادى ، ذلك النجاح الذى يراه الجميع ، ويهتف له الجميع ، والذى فى مقدور صاحبه أن يستثمره كلما سنحت الفرص ، وأن يعرضه فى سوق الدلالة على كل من هو مثله نفعى ووصولى .

## جنون المظاهر

نحن فى الشرق مولعون بالمظاهر إلى حد الجنون . فحياتنا الخاصة لا تهمنا بقدر ما تهمنا الصورة التى نريد أن تكون عليها حياتنا فى نظر الناس .

وليست العبرة عندنا فى أن نؤكد شخصيتنا ، ونصارح بحقيقتنا ،

بل العبرة كل العبرة في أن نظهر غير ما نبطن ، ونحاول ما استطعنا أن نبدو أرفع شأناً وأعظم قدراً مما نحن عليه .

فالمصاب بجنون المظاهر يخدع نفسه ليتمكن من أن يخدع الناس . ومتى خدع الناس وبهرهم وألقى في روعهم أنه وجيه وأنه عظيم ، تأثر هو نفسه بدعايته ، واندمج آخر الأمر في دوره ، ولم يعد يشعر بما هو عليه من غش وضعة وصغار .

والأصل في جنون المظاهر نقص في الفكر ، وجبن في الخلق ، وخوف من المجتمع ، وإعلاء وضيع لسلطان المال .

فالإنسان الذي لا يحس في نفسه شجاعة أدبية يعتز بها ، وكرامة شخصية يذود عنها ، وشرفاً اجتماعياً يستمسك به ، هو الإنسان الذي يعوض نقصه بالمظهر الباطل المضلل ولو أصبح في نظر الأذكياء سخرية وهزأة . أما ذلك الذي يعرف نفسه ، ويعتز بحقيقته ، ولا يخجل من أصله ومهنته ، بل يفخر بالعمل ، ويزهو بالشرف ، ولا يقدر الأشخاص لمالهم وجاههم ، بل للقيم المعنوية الماثلة فيهم ، فهو الإنسان الفذ الخليق بأن يقتدى به الناس .

## روح البلطجة

... ومن الرذائل الخلقية الملحوظة أيضاً في بعض الأفراد عندنا رذيلة البلطجة .

فالمصابون بهذه الرذيلة قوم لا تطيب لهم الحياة إلا إذا احتالوا على الغير ، وخدعوهم .

وأخص ما يميز شخصية البلطجي ، كلام معسول ، مقترن برقاعة بغيضة ، وصفاقة مثيرة ، ولؤم في الطبع ، وفساد في النية ، وخبث في الضمير .

فهو يقترض منك مبلغاً من المال مثلاً ، وفي نيته أن يماطلك ما استطاع

ولا يدفع . وهو يكتب لك صكًّا على نفسه ، وفى نيته أن يتملص من احترام إمضائه ، وهو يساومك على شىء من الأشياء ، وفى نيته أن يتغفلك ويحصل عليه منك بأبخس ثمن . أو هو يهرع إليك ويشكو الضيق والحاجة ويظل يلتمس ويتوسل عساه أن يغرر بك ويطويك ويظفر منك بذلك الشىء دون مقابل .

فالرجولة عنده لا فى أن يكون أبيًّا عزيزاً ، بل فى أن يكون نهازاً للفرص ، « أو نطحجيًّا » وشاطراً ، يعرف كيف يخدع ، ويعرف كيف يبلف ، ويعرف كيف يسرق وهو جذلان .

والواقع الذى لا ريب فيه أن « الأونطة » أو « البلطجة » سرقة . ولكنها سرقة زرية رخيصة لا يلجأ إليها إلا كل جبان دنىء .

وإنه لخير للمرء — ألف مرة — أن يكون لصًّا صريحاً ، من أن يكون « بلطجيًّا » نذلا ، لا يبلغ شجاعة اللص ولا يطاول كرامة الإنسان .

## شرف أم هوان ؟ . .

إذا لم تخجل من فقرك أكبر الناس عزتك ، وإذا خجلت من فقرك اعتبرت المال غاية الشرف والفقر غاية الهوان ، فسجلت على نفسك فتقارك إلى الشرف واتصافك بالهوان . .

## البخل والبخلاء

ليس البخل رذيلة فقط بل لعنة . لعنة تشوش العقل وتحجر العاطفة وتوصد القلب . فالبخيل قل أن يفتح قلبه لإنسان ، وقل أن يستجيب لأى حب . إذ الحب هبة . وكل هبة تستحيل فى نظر البخيل إلى مال حتى ولو كانت هبة عواطف مجردة .

## أصدقاء البخيل

ومع ذلك فالبخيل قد ينفعل ويتأثر ، وقد يصادق ويتعلق . ولكنه لا يصادق حقًا إلا من كان مثله حريصاً وضنيناً وبخيلا . وعندئذ تكون صداقته لزميله البخيل تقديراً لشحه وبخله لا تعلقاً به لشخصه ولا لأية فضيلة فيه .

## زوجة البخيل

وحتى فى دائرة الزواج ، وفى علاقة البخيل بالمرأة ، نرى البخيل لا يسعد إلا بقرب امرأة بخيلة . فهو متى اقترن بهذه المرأة واستوثق من بخلها وتقتيرها ، أحبها وتشبث بها ، وكانت رابطة البخل التى تجمع بينهما أشد وأقوى من رابطة أعنف وأعمق حب .

والواقع أن الرجل العادى يحب فى المرأة العادية لوناً من الجمال يستهويه ، أو عاطفة غلابة تأسره . ولكن الجمال أو العواطف لا تلهب شعور الحب عند البخيل، لأنها فى نظره أشياء وهمية خيالية مصيرها يوماً إلى زوال . أما نزعة البخل عند المرأة فهى التى تجذب البخيل إليها وتحببه فيها ، إذ هى نزعة تجمع مالا أو تحرص على مال . والمال عند البخيل هو الشىء المحسوس الذى يرى، والشىء الحى الذى يتوالد ، والشىء النابض المختلج الجدير بالحب .

فبخل المرأة يفتن البخيل ، وينافسه فى رذيلته . فيثير إعجابه بالمرأة البخيلة ويدفعه إلى حبها . ثم إن البخيل يعيش مع ماله فى عزلة وهو أحوج الناس إلى رفيق . فمتى صادف زوجة تحرص على المال مثله ، أمن على نفسه وماله بجوارها ، واستمتع فى صحبتها بلذة الاكتناز المتبادلة ، ولذة الوفاق الزوجى التى لا تكبده من النفقات قدر ما توفر له من المال الذى يقدسه .

## حب شاذ أو معكوس

فهذه اللذة المزدوجة التى يشعر بها البخيل والبخيلة معاً ، هى التى تصب فى علاقاتهما اليومية ذلك الحب العقلى المصلحى الكتوم الذى يربط بينهما برباط أوثق ألف مرة من رباط الحب السليم ، لأنه رباط حب شاذ ومعكوس ، لا يصدر عن مميزات شخصية فى كل منهما ولا عن جوهر العواطف التى يحس بها أحدهما نحو الآخر ، بل يصدر عن قوة خارجة عنهما ومسيطرة عليهما ، تتحكم فى وجدانهما الخاص ، وتنبع من شهوة واحدة .

بيد أن هذا الحب أو هذه الرابطة الشاذة التى لا يوثقها غير البخل ، هى معول يهدم جميع الفضائل والأخلاق .

فالزوج العادى مثلا لا بد أن يثور على زوجته ، كائناً ما كان حبه لها ، إذا كانت هذه الزوجة معتلة الخلق ، فاسدة الطباع . أما الزوج البخيل فتحتمل أن يتمرد على أخلاق امرأته البخيلة ، وقل أن يحفل أو يكترث ا قال عنها الناس أو إذا شعر هو أنها كاذبة أو واشية أو نمامة أو سليطة لسان أو حتى غادرة . كل عيوبها تغتفر فى نظره لأنها تحرص على المال . وما دامت تحرص على المال حرصاً يذهب إلى حد التقتير والشح ، فهى عنده مثل أعلى بصرف النظر عن قيمة شخصيتها وما يجب أن تتحلى به من فضائل وأخلاق .

وكما يسلك البخيل حيال امرأته كذلك تسلك امرأته حياله ، ولاسيما هى تعلم علم اليقين أنه لن يخونها وأن المال عنده أثمن وأغلى من أن ينفق ولو على أفتن امرأة .

فالتسامح بينهما مشترك ، وعدم اكتراث الواحد منهما لنقائص الآخر مشترك أيضاً ، والفضيلة الأولى والأخيرة فى نظرهما هى البخل

الذى يتربص ويلتقط ويجمع ، ويغض الطرف عن شتى الرذائل كى ينمو هو ويعظم ويصبح آخر الأمر متعة العمر وغاية الحياة .

## ضحايا البخيل

على أن من البخلاء القادرين من يقترن بامرأة كمعظم النساء ، تستنكر البخل وتتطلع هى وأولادها إلى الحياة فيقتر عليها ذلك البخيل القادر كما يقتر على نفسه ، ويحرمها ويحرم أيضاً أولاده ، بحجة أنه يعلمهم الحرص ، ويبصرهم بعواقب التبذير ، ويجنبهم بالبخل مختلف الرذائل ولكن أية قيمة لمال البخيل إذا اكتنزه وحرم منه امرأته وأولاده إن امرأته قد تضيق ذرعاً ببخله فتمزق عرضه وتلتمس المال عند غيره ، أما أولاده فيدفعهم إما إلى سلوك سبيل الكذب والنفاق والتحايل عليه بغية استخلاص ما هم فى حاجة إليه من ماله ، وإما إلى الإقدام خفية على سرقته ، وإما إلى التمرد عليه تمرداً صريحاً والتلهف على موته والتخلص منه .

فسواء أعاش البخيل قرب امرأة يغض عن نقائصها لأنها بخيلة مثله أم كان بخيلا وقادراً وزوجاً لامرأة محبة للحياة فحرمها وحرم أولاده فبخله يفسد كل من حوله ، ولا يعلمهم الحرص بل يولد فى نفوسهم الدناءة التى هى أصل كل رذيلة .

وهذا هو الانحاط فى أدنى مراتبه ، بل هذا هو الموت الادبى ، يحكم به الإنسان على نفسه والغير ، كلما تجرد من نوازعه العليا ، وأوغل فى الطمع والجشع وحب المال .

## بين النبوغ والبخل

ليس من الغريب أن نجد بين البخلاء نوابغ . فالبخيل من فرط حرصه على المال ، ينفر بالطبع من كل رذيلة خمراء تستهلك المال كالخمر

أو الميسر أو النساء . فيعيش منطوياً على ماله ، ويحس مع ذلك فراغاً فى نفسه هو فراغ الممسك المحروم .

فإذا كان هذا البخيل صاحب موهبة فى علم أو فن أو أدب ، فهذه الموهبة تصبح رذيلته البيضاء ، بل المتنفس الوحيد لحياته . فيتشبث بها ، وينميها فى نفسه ، ثم يشعر بالسعادة كل السعادة متى نبغ فيها ، لأنها لم تكلفه مالا وإن كانت قد كلفته إجهاداً فى الذهن لا يقاس فى نظره بقيمة المال .

فقحط هذا البخيل فى حياته المادية ، يحفزه متى كان موهوباً إلى طلب الخصب والنبوغ فى حياته المعنوية . ولكن نبوغه لا بد أن يتأثر بطبيعته البخيلة ومنزعه الحسابى الواقعى . فتراه يتفوق غالباً فى العلم حيث يتحكم العقل المجرد والحقائق المنظورة . أما إذا اتجه نحو الأدب أو الفن فهو لا يتفوق إلا فى الطابع نفسه ، أى فى كل ما هو عقلى وواقعى أو شكلى وهندسى ، فلا يستطيع أن يضفى على فنه أو أدبه تلك الحلة الشائقة من شعر الوجدان والقلب التى ترتفع بالأدب والفن إلى المستوى الإنسانى الذى يهز مشاعر الناس .

وهذا ما وقع مثلا لفولتير البخيل . فهو فى أدبه يخلبنا بروعة الشكل والأسلوب وسحر العقل الواقعى الساخر الذكى ، ولكنه فى شعره لا يحرك فى نفوسنا أية عاطفة كبيرة ولا يبعث فى خيالنا أى تصور عظيم .

## المال والسعادة

إن فكرة السعادة التى يحملها الكثيرون منا فى أطواء نفوسهم ويتمنون لو ساعدهم الدهر على تحقيقها ، هى فى الغالب فكرة ترتبط فى أذهاننا بقوة المال ، وتنشأ عن المقارنة بين حظنا الاجتماعى وحظ الآخرين ، أى بين ما كان يمكن أن تكون عليه سعادتنا المادية بالنسبة إلى سعادة المجدودين المترفين . وهذه المقارنة هى التى تلهب أطماعنا ، وهى

التى تشعرنا بالحاجة إلى مطالب جديدة ، ورغبات جديدة ، لا بد أن يعذبنا التفكير فيها والتلهف عليها عذاباً يسمم آخر الأمر كل قسط من السعادة النسبية المكفولة لنا اليوم .

فإذا شئت أن تكون حقًّا سعيداً ، يجب ألا تقارن . . . يجب أن تعرف كيف تكتفى ومتى تكتفى ، على ألا يكون اكتفاؤك تواكلا فى النفس ، وبلادة فى الحس ، بل استمراراً فى الكفاح مع التسامى بالرغبات والمتع إلى كل ما هو خير ونبيل . وما دمت تكافح سعياً وراء يسر مادى معقول ومشروع ، ولا تغفل النظر إلى مطالب عقلك وفكرك وثقافتك وكيانك المعنوى ؛ فأنت ستقر فى نفسك التعادل بين المادة والروح . وهذا التعادل هو سر السعادة وجوهرها الباقى .

# فى قيمة الإرادة



## الإنسان والحرية

نحن لا نعرف ما فينا من قوى مدخرة ، وقل أن نشعر بأننا فى جوهرنا أحرار ، إن كل شىء فى الطبيعة مسير ، أما الإنسان فهو وحده المخير . هو وحده الذى يملك العقل والإرادة ، وهو وحده الذى فى مقدوره أن يكون حرًّا إذا شاء .

فكلما تنبه الإنسان من الغفلة التى تنقضى فيها حياته ، وكلما استفاق وأدرك قيمته وامتيازه ، اشتعلت فيه قوى العقل والإرادة . فارتدت إليه حريته ، وأحس أنه بالحرية سيد مصيره وسيد العالم ، فى وسعه أن يقتحم كل مافى الكون من غامض ومستغلق ، وأن يتحدى الطبيعة ويصنع المعجزات .

## قيمة حياتنا

إن قيمة حياتنا مرهونة بإرادتنا فى أن نعيش الزمن المعين لنا ثابتين فى وجه الموت المتربص بنا ، ومقبلين على عمل جدى وخصب ، نجعل منه هو الحقيقة الكلية لمعنى حياتنا .

## طاقة وقوة

بعض الناس لايحيون . وهم أشبه بأولئك المجاذيب الذين يقفون بالمحطات وينتظرون قطاراً ، على حين تدوى المحطة والقطارات تسير . فإياك أن تعتقد أن الرغبة فى الحركة هى الحركة ، وأن تصور القوة هو القوة ، وأن نية العمل هى العمل ، وإلا كنت حقًّا كالمجاذيب منتظرى القطارات ، أو كنت كذلك العصفور البائس الصغير الذى يطير خلف النسر معتقداً أن النسر هو الذى يفر أمامه . فاذكر أنك طاقة وقوة ، وأن قيمتك فى

أن تستمد من طاقتك إرادة وأنك جئت إلى هذه الدنيا وأنت مشروع إنسان ، وأن مجدك فى أن تلهب طاقتك وقوتك، وأن تكون بإرادتك نحات نفسك ، بحيث يتم على يديك اكتمال هذا الإنسان .

## غذاء الإرادة

ليست الإرادة هى العناد ، أى اصطناع الشدة والعنف لتحقيق غرض معين . الأمر بالعكس . فالرجل العنيد لا يمكن أن يسيطر على نفسه ويحقق غرضه . فإرادته التى يشوشها العناد والعنف والتوتر العصبى هى فى الحقيقة إرادة وقتية تلمع كالبرق ثم تخبو وتستحيل إلى تردد وخوف ويأس .

فالإرادة لن تكون قوة إلا إذا كانت إرادة واعية وهادئة ، موجهة ومنظمة ، ومنصبة على الدوام فى تيار واحد ، لا تؤثر فيها الخيبة العارضة ، ولا يثنيها الفشل المؤقت ، ولا تفت فى عزمها أحداث الزمن .

إن غذاء الإرادة هو المنهج . المنهج الواضح المحدد المرسوم . فارسم لك فى حياتك وعملك منهجاً معيناً ، بعد أن تكون قد وفقت بين هذا المنهج وبين مدى استعدادك وقدرتك بحيث تأمن الغلو والشطط والغرور . ومتى رسمت المنهج ، فاسرع فى تنفيذ خططه على مهل . لاحقها بالمثابرة والدأب والصبر . إذ قوة الإرادة كامنة فى استمرارها ، أى فى مجموع العمل الذى أسفرت عنه إرادة الأمس ، مضافاً إلى المجموع الذى سوف تسفر عنه إرادة اليوم والغد .

وليس من شك فى أن إغراء الحياة قد يعترضك ، وطلب اللذة قد يعصف بك ويحولك عن منهجك . فاطلب اللذة إذن ولا تكبت غريزتك . ولكن اجعل لذتك معتدلة ومشروعة ، وابذل قصاراك فى التسامى بها ؛ تخفف عنك هذه اللذة البريئة عبء العمل ، وتعاونك على المضى فيه ، وتتحد والمنهج المرسوم فى تكوين إرادتك . ثم اعلم

بعد ذلك أن العملَ المنظم يصبح عادة طيبة ، والعادة الطيبة تصبح طبيعة موجهة ، والطبيعة الموجهة تولد الخلق المتين ، والخلق المتين هو لب الإرادة وهو الذى يفصل فى مصير الحياة .

## شهوة الجنس

. . . ومع ذلك فاحذر شهوة الجنس ، إذ لو فتر عزم الرجل وتراخت إرادته ، فقد يندفع فى هذه الشهوة فراراً من وقر العمل ، واستخفافاً به واعتقاداً ببطلانه ، وطلباً لمتع الحياة. وعندئذ تنحرف الإرادة وتستقر فى شهوة الجنس نفسها . فيوغل الرجل فيها ، فتستأثر به ، وتفصله عن العالم ، وتحصره فى بؤرة . وعندئذ يكره العمل والانطلاق والحرية ، وينطوى على الشهوة انطواء المجذوبين ولا يجد لذة أبلغ وأمتع من الارتماء فى جوف البؤرة المهلكة .

## هاوية الفراغ

الفراغ هو الذى يحفر البؤرة . فاحذر الفراغ أيضاً ، واشغل نفسك بكل ما يمكن أن يباعد بينك وبين نوازع الجنس . إذ الفراغ يلهب الشهوة ، فيلهب المخيلة ، فلا تكتفى المخيلة بالملذات الحيوانية الشائعة بل تستعين لفورها بالعقل ، فتجسم تلك الملذات ، وتنوعها ، وتفتن فيها ، وتأبى إلا أن تستمرئها فى صور وأوضاع منحرفة وشاذة تقوض البدن وتخنق القلب والعاطفة والضمير .

فالفراغ بإيقاظه المخيلة يجعل من بؤرة الشهوة هاوية لا قرار لها .

## الإرادة والجنس

إذا قلت مع « فرويد » إن قوة العقل والإرادة لا يمكن أن تكبت غريزتك الجنسية ، فلا مفر لك مع ذلك من أن تستعين بالعقـــل

والإرادة كى تتجنب كل إفراط فى إشباع هذه الغريزة . فينبغى أن تدرك بعقلك أن غريزة الجنس لن تكون سليمة وخصبة ولن تدفعك إلى العمل والتفوق إلا إذا كانت الغاية منها هى الصحة والقوة للفرد والسلالة والمجموع . وحيث إنه لا صحة ولا قوة إلا فى التعفف ، فينبغى أن تروض عزمك وإرادتك على التعفف الرشيد الذى لا يذهب إلى حد التقشف ، بل يسمو إلى الحياة الراقية المتحضرة ، فيأخذ من ملذات الجنس المشروعة بقسط ليستطيع أن يأخذ من ملذات الفكر العالية بأقساط .

## إله الدمار والموت

الجنس هو غريزة الحياة كامنة فى الجسد . ولكن الإنسان وحدة من روح وجسد . فإذا أفرط فى ملذات الجنس ، انفصمت وحدته ، وغابت روحه فى حمأة الجسد .

وهذا ما يرمز إليه الإله «سيفا» عند الهنود. فهو إله الجنس والخصب معاً أى إله الجسد والحياة . ولكنه فى الوقت نفسه إله الدمار والموت ، ينذر بفناء الجسد والروح كل من لا يكبح بالإرادة حواسه ، ويندفع ويتهالك على شهوات الجسد .

## إحجام وحسرة

إذا كنت تحس أن قيامك بعمل من الأعمال فيه توكيد لشخصيتك وتحقيق لأمل عظيم كان وما يزال يراودك، ثم تحجم عن هذا العمل وتشك فى قدرتك على اقتحامه ، فثق أنك ستصاب بحسرة مريرة ، وأن هذه الحسرة ستظل كامنة فيك أشبه بمرض عضال يسمم حياتك .

فاندفع إلى العمل ولا تهيب، الاندفاع الأول هو كل شىء . وهو الذى يجر القاطرة . ومهما بدا لك العمل بعد ذلك دون مستوى أحلامك ،

فستشعر أنك قد قتلت الحسرة قبل أن تقتلك ، وتغلبت على جبن التردد وأثبت وجودك .

وحتى لو عاودك الضعف واليأس ، فاعلم أن اليأس ليس هو الفشل ، بل هو حركة من حركات وجودك أنت الحى . حركة تغريك اليوم بالاستسلام والجمود كى تبدلك غداً وتبعث فيك ضجراً ثائراً على هذا الجمود الذى لايتفق ووجودك الحى . وعندئذ تعود وتندفع لائذاً بالعمل ، فيستوعب العمل ضجرك وجمودك وينقذك .

فلا تنظر إلى اليأس باعتبار أنه قضاء مبرم عليك ، بل انظر إليه باعتبار أنه فترة هبوط عصبى وتزول .

## جهاد عقيم

من الرجال عندنا من لايكاد يقدم على مشروع عظيم ويصادف فيه النجاح الذى كان يصبو إليه ، حتى تفتر منه الإرادة ويتراخى العصب . فيتحول فجأة، وتنبعث من نفسه نوازع دفينة ومنكرة ، فبدل أن يجعل من إنماء هذا المشروع متعته الكبرى وغاية جهاده فى الحياة ، يتخذ من النجاح المادى الذى أصابه وسيلة لإشباع غرائزه وشهواته ، كأنه ما كافح وجاهد إلا لهذا الغرض الفردى الوضيع . وعندئذ يموت المشروع العظيم الذى كان يرجى منه تحقيق النفع للمجموع ، وينحط صاحبه ويتدهور ولا يستفيق إلا على الندم والكمد والضياع .

## بين الإرادة والخيال

كل عذاب مصدره التردد ، وشر ما يمكن أن يصيب الإنسان هو أن ينقسم على نفسه . فأنت إذا لم تجمع شتات نفسك ، وتستنهض مدخر قواك ، وتنطلق ثابتاً نحو الهدف الذى آمن بقيمته عقلك واستقرت عليه إرادتك ، أسرع خيالك فجسم لك العقبات التى

تتنطرك ، وألقى فى روعك أنك أضأل وأعجز من أن تستطيع تذليلها . فتنقسم بالرغم منك على نفسك . ثم تستهتر بما كنت قد عزمت عليه . ثم تتدهور وتهرع إلى سفاسف الحياة تدفن فيها آمالك ومطامعك .

## سطوة العامل الأسطورى

كل رغبة فى التفوق لا تنهض على عقل يعرف ممكناته . تنقلب إلى عامل خرافى أسطورى يختم على بصيرة الإنسان .

ونحن كثيراً ما تتحكم فينا مطامع طائشة وهوجاء ، فنعتقد أنها هى مثار تفوقنا ، وهى وحدها التى يمكن أن تثبت قوانا وتؤكد امتياز شخصيتنا . فنندفع فى تحقيقها آخذين بمنطقها المشوش أى منطق عواطفنا . فتستحيل تلك المطامع والرغبات إلى أخيلة لاتمت إلى الواقع بصلة . فندرك نحن ذلك ونستيقظ . ولكننا برغم يقظتنا وإدراكنا ، نظل نتشبث بأوهامنا ومطامعنا ونسعى إليها . ونسلط خيالنا العنيد عليها ، كبراً وزهواً منا بأن نكون أفذاذاً فى معركة الحياة لاضريب لنا . وهكذا يستبد بنا العامل الخرافى الأسطورى على حد تعبير الفيلسوف « برجسون » ، ويفسد عقلنا وإرادتنا ، كى يجرفنا فى تياره آخر الأمر ويقضى علينا.

## بين العقل والإرادة

. . . ومع ذلك فعقلنا نفسه قد يكون عدواً لإرادتنا . إذ من خصائص العقل أنه متى استشعر فى الإنسان عزمه على العمل والانطلاق ، أمسك به فى اللحظة الحاسمة ، وطفق يؤرجحه بين مد وجزر ، ويقين وشك ، وإقدام وإحجام . فاستند إلى العقـــل أول الأمر ، واهتد بهديه فى الغاية التى فى مقدورك أن تحققها . ولكنك متى ثبت على الفكرة والغاية وأحسست أن إرادتك أصبحت وحدة حية على وشك أن تندفع وتعمل ، فاحذر وساوس العقل وعودته بك إلى

التأرجح والتشكك ، وإلا وهن عزمك ، وتقلصت إرادتك ، وغرر بك في النهاية عقلك ، وفرض عليك التراجع فرضاً وهو يزينه لك في صورة الرشاد والحكمة التي هي في الواقع صورة للهزيمة يابسة وشاحبة وصفراء .

## إرادة العصبيين

إذا كان العصبيون في الغالب أذكياء ، فهم في الغالب أيضاً ضعاف الإرادة . وهم إن لم يعرفوا كيف يبنون بذكائهم قوة إرادتهم بحيث يمكنهم أن يضبطوا انفعالاتهم ويحسنوا توجيه الغايات والمطامع التي يلهبها فيهم ذكاؤهم . فأعصابهم لابد أن تجمح بهم . فتبدو لهم الحماقة شجاعة ، والطيش إقداماً ، والتهور جرأة . فيغيب ذكاؤهم في نشوة من التخبط والتورط والدمار .

## لقمة العيش

يجب أن تعرف كيف تكسب عيشك على ألا يحول ذلك بينك وبين أن تعيش . إن السعي إلى لقمة العيش كثيراً ما يفقدنا لذة العيش . فلا تبع نفسك بجملتها من أجل اللقمة . احرص على الجانب الحر من ذاتك ، ودع في عقلك فسحة لغاية معنوية تنعشك ، وفي قلبك فرجة لعاطفة ثمينة تنقذك ، ثم اخرج إلى الشمس والهواء ، واجلس على العشب الأخضر الناعم ، ورحب بالطبيعة هاتفاً ، وكل في هناءة لقمتك .

## أنت وغايتك

أنت قد تهب ممكناتك ومواهبك لعمل لا يعبر عنك . لعمل ليس هو أنت ، ولا صلة له بجوهر نفسك . فتصبح أنت بعملك في واد ، وجوهر نفسك في واد .

فابذل قصاراك منذ بدء حياتك فى تعرف غايتك الأصيلة ، ثم اتبعها ولا تنحرف عنها إلى غيرها مهما تحملت من تضحيات ؛ وإلا عشت تحمل على منكبيك عملا بغيضاً ، أى تحمل على منكبيك إنساناً غيرك . يظل يستعبدك بشخصيته الدخيلة ، وتظل أنت فى غمرة الحسرة والتمزق ، تأمل فى أن تلتقى به عن كاهلك ولكن على غير جدوى .

## هذا الثأر . . .

مهما شعرت بالعجز عن تحقيق غايتك ، فيجب أن تغالب نفسك وتمضى فى كفاحك ، مؤمناً بأن عملك حتى ولو كان شائعاً وضئيلا فسيجنى الآخرون من غرسه ولو ثمرة . العمل هو الخلاص . والعمل كالحب . وكل من يولع حقاً بامرأة يحس أنه يعيش لا بما يمكن أن تهبه المرأة له ، بل بما يضطرم فى صدره هو من مشاعر الحب والإخلاص والبذل لها . ثم اذكر فوق هذا أن عملك هو ثأرك من الموت . فاعمل جاهداً وإلا استعذبت ظلام اليأس ومرارته المستكبرة ، فثأر منك الموت بدل أن تثأر أنت منه ، وأحالك إلى جثة وأنت حى .

## قصور الأمل

لا تقل إن الآمال أوهام ، والبث متشبثاً بأملك فى أن تحقق شيئاً بعزم إرادتك . واذكر أن قصور الآمال حتى واو عجزت الإرادة عن بنائها كاملة فهى وحدها التى يمكن أن تنقذ الإنسان من كهوف الخوف التى يحفرها الجبن واليأس .

## اتئد فترة . . .

. . . على أنك وأنت تقطع طريق خياتك ، يجب أن تتئد فترة وتتوقف وتسأل نفسك : هل هذا هو الطريق الذى كنت قد رسمته ،

وهل أنا حقًا أسلكه ، أو أني قد انحرفت عنه بالرغم منى ، أو انحرفت عامداً لفرط ما برح بى الضجر أو التعب أو اليأس . . .

إن فترة التوقف هذه هى التى تطمئنك على مسلكك أو توقظك من انحرافك . فتردك إلى غايتك الأولى ، أو تنصحك بالتراجع قليلا والأخذ بما هو فى حيز ممكناتك . وهكذا لا تمعن فى التورط فيما لا طاقة لك به ، ولا تخادع بالحلم الجميل والأمل الباطل نفسك .

## البذرة والأرض

جدد فى عملك وحياتك ما استطعت ، فالأرض لا يمكن أن تزرع سنوات طويلة بالبذرة نفسها وإلا استنزفت عصارتها وأصابها الجفاف .

## حظك يشبهك

قد يكون حظك جائراً . ولكنك إذا أنعمت النظر وجدت أن حظك يشبهك تماماً ، وأن كل ما وقع لك يمت بصلة وثيقة إلى جانب عميق فى جوهر شخصيتك .

## حظك أيضاً . . .

حظك التاعس قد يكون فى بعض الأحيان إرادة قوية من غيرك ، استضعفت أنت أمامها وتركتها تفرض نفسها على إرادتك .

## نحن والقدر

القدر المحتوم علينا ، هو القدر الذى نرضاه لأنفسنا .

## بين التفاؤل والتشاؤم

الإنسان يتأرجح بين التفاؤل والتشاؤم . ولكن حقيقة الحياة لا تكمن

إلا فى الفرجة البارزة بين هاتين النزعتين .

## مثالية التشاؤم

. . . ومع ذلك فلا يجب أن ننفر من الإنسان المتشائم تجاه الحياة . إذ هو قد يكون إنساناً مثالياً يحمل فى خياله صورة رائعة يتمنى لو تكون عليها الحياة . فنحن على الرغم من تشاؤمه أو بسبب هذا التشاؤم نفسه ، نلمح فى حديثه أو فى أعماله أضواء من تلك الصورة التى مهما كانت مثالية ورائعة وبعيدة التحقيق ، إلا أنها لا بد أن تؤثر فينا ؛ وترشدنا إلى مواطن الضعف والنقص فى حياتنا . فتنفث فى صدورنا روح القوة والإرادة . وتتجه بأفكارنا وعزائمنا نحو مستقبل أفضل .

## الصبر والزمن

جميل منك أن تصبر على الصعاب ؛ بشرط ألا يقعد بك الصبر عن محاولة تذليلها .

الصبر هو احتمال سلبى يعتمد على الزمن فى حل المعضلات ، فيبتلى الإنسان بالأسى ويخنق فيه كل تطلع . أما الصبر مع الكفاح فهو فرحة الإنسان بنشاطه الإيجابى . وهو اعتزازه بإرادته التى تحاول أن تذلل الصعب وتسبق بالعزم المكين عجلة الزمن .

## لذة الشكوى

الإنسان القوى لايندب ضيعة الماضى ، ولايحزن على مافات ، ولا يقف بالنكبات يفتن فى التفكير فيها ، وتقليبها على مختلف وجوهها ، كى يحيلها حسرات عميقة دفينة ، تهد منه القوى ويلتذ شعرها الحزين .

ونحن فى الشرق نقاسى الأمرين من وطأة هذا الداء . نحن نجد لذة كبرى فى تأمل مصائبنا ؛ والتعليق عليها ، وإنماء الألم العذب الذى تحدثه

فى نفوسنا ، والصبر وانتظار الفرج من القضاء الذى نعتقد أنه المسبب لها .
ولكن الإمعان فى تحليل الضعف ، ضعف على ضعف ، والغلو فى الشكوى دليل العجز . والتمادى فى التذمر والتململ موت للهمة وفناء للإرادة والنشاط .

فحكم عقلك فى أعصابك وعواطفك ما استطعت . واعلم أن كل من يندب سوء حظه ، يخالس بنفسه كوارث أخرى ويدعوها للانقضاض عليه .

## أشباه نساء

قد تعصف برجل أزمة من الأزمات . فيرزح تحت وطأتها ، ويذوق من عذابها لأول مرة مشاعر وعواطف يحس لها لذة غريبة . هى لذة التوزع والتخبط والذلة والانكسار . ثم تتبدد الأزمة بفعل الزمن وتزول . فيستشعر الرجل فراغاً فى نفسه ، فيصبو على الرغم منه إلى مخالسة أزمة ثانية تجدد فيه تلك المشاعر والعواطف الموزعة المتخبطة الذليلة التى كان قد وجد فيها بالأمس متعة بالغة . فإذا هانت عليه فى تلك الفترة كرامته ، وأسلس لتلك النزعة قياد فكره وإرادته ، فهو لابد أن يفقد كل فرح بالحياة ، وكل إرادة وعزم وأمل فى مشاعر وعواطف قوية وأبية وسليمة يواجه بها تقلبات الأيام وأحداث القدر . وعندئذ يستحيل ذلك الرجل إلى شبه امرأة مريضة ، امرأة من أولئك النسوة المصابات بـ « المازوكية » ، اللاتى لايطيب لهن العيش إلا إذا عذبن أنفسهن واستمرأن العذاب فى لهفة ونشوة ، وأبين أن يجدن السعادة إلا فى حياة كئيبة مقهورة زاخرة بالأشواك والدموع .

## سم الهموم

من الناس من يريدون أن يشاركهم الغير حمل همومهم ، لا ليخففوا

من وطأتها عليهم ، بل ليجدوا لذة خبيثة فى شعورهم بأن سم الهموم قد سرى أيضاً فى نفوس من يسمعهم .

## ألم وألم

إذا كان الألم الذى يبتلينا به القدر عميقاً ، فهو أقل إنهاكاً لنا من الألم الذى ينبع من ضعفنا وجبننا أمام أنفسنا . الألم الذى يحدثه القدر يحطم قلوبنا فترة ثم يعلمنا الصبر والحكمة ويقوينا . أما الألم الذى نجلبه نحن على أنفسنا بانجذابنا إلى عوامل الضعف والجبن واستمرائنا لذتها واستسلامنا لها ، هذا الألم هو الذى نخلق به قدرنا التاعس الشخصى بملء حريتنا ، ونؤثر به فوق ذلك على من حولنا ، فنهوى إلى الحضيض ، ونهوى بالغير أيضاً معنا .

## وهم البقاء

كثيراً ما تخدعنا غريزة البقاء ، وتزين لنا عند الشدائد أن فى التهالك على الطعام بقاءنا . وهكذا لا تكاد تصيب البعض منا صدمة نفسية أو ضائقة مالية ، حتى يخيل إليهم من فرط ضعفهم وانهيار إرادتهم أن تلك الصدمة مستعصية العلاج وأنها قد تقضى عليهم . فتراهم يهرعون إلى الطعام متهافتين عليه ، دافنين همهم فيه . فتترهل أبدانهم وتمرض فتقتلهم البطنة التى أرادوا بها التخلص من الهم والتى خدعتهم بها غريزة البقاء .

## فرائس أنفسهم

هناك أشخاص لا تنفك تعذبهم كوارث ثلاث : الكارثة التى حلت بهم بالأمس ، والكارثة التى قد تحل بهم اليوم ، والكارثة التى يتوقع خيالهم المريض أنها لا بد أن تعصف بهم غداً . . .

وهؤلاء الأشخاص هم فرائس الحياة لأنهم فى الواقع فرائس أنفسهم .

## تجاه الكارثة

إذا شئت أن تحرص على قوة إرادتك ، فانظر إلى الكوارث التى تنزل بالنفس على اعتبار أنها رياضة لها كرياضة الجسد . وكما تشيع الرياضة فى بدنك المرونة والصحة ، كذلك يجب أن تشيع الكارثة فى نفسك روح الجلد والكفاح . الكارثة لا بد منها ، وهى قانون من قوانين الحياة . ولكن الكارثة ليست كتلة صخرية صلبة مروعة كما يصورها لك وهمك ، إنما هى مجموعة أحجار متماسكة ألفت بينها ظروف معينة . فإذا فاجأتك أية كارثة ، فدر حولها وتأملها حتى تقع على الحجر الناتئ منها . ومتى وقعت عليه فأسرع وهاجمه بجمع إرادتك وقواك . هاجمه هو وحده . وعندئذ تبصر الكارثة تترنح أمامك ، ثم تتقوض فجأة وتنهار حجراً على حجر .

## نحن والعالم

نحن لانحس بالعالم الخارجى تماماً إلا إذا صدمتنا منه عقبة يجب أن نذللها . فإذا ماذللنا تلك العقبة ، شعرنا على الفور كأن أبواب العالم جميعاً قد انفتحت أمامنا .

## الماء والصخر

إن معظم الشرقيين يجنحون إلى البطء فى العمل ، والبطء فى الفكر ، والبطء فى اللذة . إنهم لا يحيون الحياة بل يترشفونها . ولكن الحياة ليست كأس خمر . إنها عين ماء مطمورة فى جوف صخر . فحطم الصخر أولا ثم املأ الكأس من العين واشرب .

## النصر بعد الكفاح

النصر بعد الكفاح ممتع . والقافلة لاتشعر بمتعة الراحة إلا بقدر ما قاسته فى الصحراء من ريح السموم .

## اليد اليسرى

عالج الأمور الصغيرة بنفس قوى الحرارة والإيمان والإخلاص التى تعالج بها الأمور الكبيرة ، واعلم أن الغرض من التقدم ليس هو تسلق الجبال ، بل ملء الفضاء بالأبنية العالية التى فى وسعها أن تتطلع إلى قمم الجبال . لذلك يجب أن تكون طموحاً وأن تطلب الكمال ، على ألا تزعم أبداً أنك قد بلغته . وإذا اعترضتك غاية . وقيل لك إن تحقيقها ضرب من المستحيل ، فلا تكترث واقتحمها . ولكن بعد أن تجند لها عقلك وعزيمتك وتقيس حيالها مبلغ ممكناتك . ثم اذكر أن المستحيل لم يسم مستحيلا إلا لأننا لم نجربه ، وأن اليد اليسرى التى نهملها ونحتقرها هى اليد التى يفزع إليها الفارس ساعة الخطر ، وهى التى يجذب بها العنان كى لايجمح به جواده فيرديه .

## أبطال المستحيل

بعض الناس يتشدقون بعمل المستحيل ، ستراً لعجزهم عن القيام بأى عمل ممكن .

## المغامرة والهدف

الرجل الذى يغامر قد يصيب الهدف مرة وقد يخطئه أخرى . أما الرجل الذى لا يريد أن يغامر فلا بد أن يخطئ جميع الأهداف .

## شرف الرجل

لا ينبغى فى بعض الحالات أن ندع إنساناً يسرف فى الحنان أوالشفقة علينا .

الحنان كثيراً ما يذيب العصب ، والشفقة قد تكون استعلاء من المشفق فيه إذلال لنا وإهدار لكرامتنا .

فالحرص على صلابة العصب ، وانتفاضة الكرامة ، هو شرف الرجل .

## شخصية الرجل العظيم

يُعرف العظيم الحق بفضيلتين هما : الطموح والحب .

فبالطموح يتفوق ، وبالحب يخدم .

والعظيم الحق لايبتسم للمجد لفرط ما هو منهمك فى مواصلة الكفاح .

## تجارب الماضى

تجارب الماضى هى حقل الرجل الشائع . أما الرجل العظيم فلا يكترث لتجارب الماضى ، لأنه يبحث عن تجربة خارقة ليس لها حتى الآن أى وجود .

## سلطان الخوف

إن انشغال الفكر بالهموم المادية أوالمعنوية ، وتوزع خصائص العقل تحت تأثير القلق على المستقبل ، وإحساس النفس بالخوف العميق حيال المجهول وتجاه مختلف أحداث الحياة ، كل هذه المشاعر والهواجس تزعزع الإرادة ، وتعصف بالناس فى غير رحمة ، وتقتل منهم أكثر

مما تقتل الحروب . وتبتليهم بأمراض أشد فتكاً من الأوبئة . ولا شك فى أن الخوف نزعة متأصلة فى طبيعة الإنسان، بل هو نزعة ذات أهمية بيولوجية عظيمة فى الدفاع عن الحياة . فالطفل لا يكاد ينصب قامته ويمشى حتى يتعلم تلقائياً كيف يبتعد عن الشىء الملتهب خشية أن يحرقه، وكيف يتجنب لمس السكين خشية أن يخدش بها أصابعه ، وكيف يجتاز الطريق وهو ينظر يمنة ويسرة خشية أن تصدمه سيارة فتقتله . فالخوف هنا مفيد ، وغريزة البقاء تدفع إليه وتوحى به . ولكنه إذا اجتاز هذه المنطقة ، منطقة الدفاع الفطرى عن الحياة ، انقلب إلى عارض « باتولوجى » لا يمكن أن يؤدى إلى القوة والحياة بل إلى الضعف والموت . فالخوف كائنة ما كانت أسبابه ، وسواء أصدر عن توقع مرض عضال ، أم توقع فشل ذريع ، أم كارثة مالية ، أم خيبة عاطفية ، لا بد أن يخلق فى النفس والذهن وساوس تقوض سلطان العقل وتحطم صرح الإرادة ، وبدل أن تساعد الفكر على العمل تدفعه إلى الحياة فى ظل الهم الذى لا يرحم بل يبطش ، ولا يبنى بل يهدم ، ولا يشفى بل يقتل .

وقد يخيل إلى البعض أن الاسترسال فى الخوف والهم والحزن حالة نفسية لا علاقة لها بالبدن : ولكن التجارب العلمية أثبتت أن علاقتها بالبدن وثيقة ، وأنها حالة نفسية «فزيولوجية» ، سرعان ما تضعف وظائف الجسم ، وتعوق إفرازات الغدد ، وتعطل حركة الهضم ، وتبتلى الفرد فى النهاية بداء من أخطر الأدواء وأصعبها علاجاً ، ألا وهو داء « النورستانيا » الذى يزعزع الأعصاب ، ويشوش الفكر ، ويميت الإرادة ، ويضاعف إحساس الخوف والهم والقلق مضاعفة قد تؤدى إما إلى الهوس أو الجنون أو الانتحار .

فمشاعر الخوف والقلق والهم هى إذن ألد أعداء الإنسان . وكل إنسان يجسم بخياله وقع الحوادث والأعمال ويهول فى افتراض نتائجها ، يستهدف ولا ريب لأخطر أمراض النفس والبدن .

فاحذر مشاعر الخوف والقلق والهم ، وكافحها بالوسائل التالية :

أعصابك أولا — اعن قبل كل شيء بصحتك ولاسيما بمتانة أعصابك ، فالعصب الضعيف يلهب المخيلة ويثير الانفعالات ويفصم الشخصية أو يزعزع تعادلها . فيلقي في روع الإنسان أنه مظلوم وأنه منبوذ وأنه مضطهد ، وأن عداء الناس وكوارث الدنيا قد تحالفت كلها عليه . فالعصب الضعيف هو مرتع الخوف . والعصب القوى فى البدن السليم هو مرتع الأمل والشجاعة والإقدام .

خطر المبالغة — لاتبالغ فى تصور مخاوفك وهمومك . انظر إليها على حقيقتها ، وقدرها بنسبة ما هو أخطر منها ، ووازن بين قيمتها وقيمة حياتك بأسرها ، تتبين لك ضآلتها وتستطيع أن تتمكن منها وتحتال على علاجها .

تفاءل ولكن . . . . . عود نفسك التفاؤل على شرط أن تحتفظ بتوقد ذهنك ودقة نظرك إلى الأشياء كى لايخدعك التفاؤل عن رؤية الواقع الذى لابد أن يتغير كما يتغير كل شيء فى هذه الدنيا . أما إذا هاجمتك نزعة التشاؤم تحت تأثير أحداث طارئة وحالكة لم تكن فى حسبانك ، فلا تعذب نفسك ، واذكر أن حقيقة الحياة لاتكمن إلا فى الفرجة البارزة بين هاتين النزعتين كما مر بلك .

حقيقة نفسية — تنبه إلى حقيقة نفسية ثابتة ، وهى أن العقل لا يؤخذ إلا بالفكرة التى يريد أن يهتم بها . فإذا هاجمتك بغتة فكرة سوداء ، فأسرع وانصرف عنها إلى فكرة تناقضها ، فكرة لاتمت إليها بأية صلة : ثم اهتم بهذه الفكرة اهتماماً صادقاً لا يدع مجالا لغيرها .

ضرورة الإفضاء — إذا حدثت الناس عن مخاوفك وهمومك زدت من تأثيرها الوبيل فى نفسك وإذا كتمتها واختزنتها فى عقلك الباطن انفجرت يوماً وفتكت بك . فخير الأمور أن تفضى بها إلى صديق عاقل مجرب ، على شرط أن يكون إفضاؤك دراسة عقلية جادة لألمك وتطلعاً إلى مخرج ينقذك ، لا مجرد فرصة تلتمسها للتمتع بسرد قصص أحزانك ابتغاء

الشعور بأنك متفرد فى الألم عظيم فى العذاب .

خدمة الغير — كلما اهتممت بشئون الغير تخففت من عبء حزنك. فاخرج من دائرة نفسك إلى محيط سواك ، تتحرر من تأثير ذاتك ، وتجد فى خدمة الغير راحة كبرى .

حوافز لاعوائق — إذا كانت مشاعر القلق والهم والخوف قد تقتل الإنسان. فإياك أن تظن أن من واجبك أن تنتزعها من صدرك انتزاعاً ، وأن تحيا حياتك عابثاً لاهياً مستهتراً بكل شيء . الواقع أن تلك المشاعر يمكن أن تؤكد وجودك . لو تساميت بها وارتفعت بانفعالاتها ، وكنت قد حرصت كما أسلفنا على سلامة أعصابك وعنيت بتربية إرادتك .

ولا شك فى أنك لو شعرت مثلا بالقلق لأنك لم تبلغ بعد فى عملك ما كنت قد رسمته بخيالك : أو أحسست بالهم لأن غيرك أوشك أو استطاع بالفعل أن يحقق ما كان فى وسعك أن تحققه ، أو انتابك الخوف من التردد والتخاذل واليأس واحتمال ضياع حظك من يدك ، فمشاعر القلق والهم والخوف هذه تتطور عندئذ فى نفسك وتنقلب من عوامل ضعف إلى حوافز قوة . لأنها لا بد أن تثير فيك ، وأنت المتين العصب الصلب الإرادة ، سخطاً على نفسك ، واستنكاراً لترددك ، وغيرة على مكانتك وجدارتك . فتلهب فى صدرك إحساس الكرامة ، وتستنهض كل ما كنت قد ادخرت من إرادة وعزم ، وتدفعك دفعاً إلى مواصلة العمل واستطراد الجهاد .

## الخوف الكاشف

الخوف هو الذى يكشف عن قيمتنا ، فإما إلى جبن وإما إلى شجاعة . والواقع أن الجبن هو خوف انتصر علينا ، والشجاعة هى خوف انتصرنا نحن عليه .

## خوف المترفين

أكثر ما يتحكم الخوف فى حياة المترفين . فالمترفون قل أن يذهبوا فى ميولهم وأهوائهم إلى حد المغامرة والتضحية . إذ الترف يبتليهم بالحذر ، والحذر يبتليهم بالجبن ، والجبن يدفعهم إلى التشدق بالحكمة ، حكمة الشيوخ الآسنين المتعفنين .

## بدء التخبط

إن ضوابط الخلق والإرادة التى يأمر بها العقل ، كثيراً ماتفلت منا ونحن كهول ملزمون باتباع جادة العقل ، فتنتابنا فجأة لوثة من تخبط . فالتخبط قد يبدأ عندما يكتمل العقل . ومن الكهول الذين نضجت عقولهم من هم فى أعمالهم وتصرفاتهم أشد حماقة وتخبطاً من بعض الشباب المجانين .

## شيطان الكهولة والظلام

قد يشعر فرد من الأفراد أنه إنسان صلب الإرادة وممتاز ، وأن مواهبه قد أعدته لأعمال عظيمة فيها الخير كل الخير لأمته ووطنه . فتراه يقضى أيام صباه فى تربية إرادته ، وتثقيف عقله ، وتضحية نفسه ، وتطهير خلقه من شوائب الضعف بغية تحقيق حلمه السامى المنشود .

فإذا أشرف هذا الرجل على الكهولة ، وحقق بالفعل عملا عظيماً ، انتابه فجأة شبه دوار . فعز عليه شبابه الذى قضاه فى التضحية والبذل ، وعزت عليه حياته التى أنفقها فى العمل والكفاح . فطافت به أشباح المفاتن الدنيوية التى حرم نفسه منها بالأمس عامداً . فاستيقظ فيه إغراء المال أو إغراء المرأة . فراح يطمع فى المال أو فى هوى المرأة ، متنكراً لحلمه ، خائناً لواجبه ومبادئه وضميره ، مستحيلا إلى وصولى منافق يدمر

بكلتا يديه الهيكل المعنوى الرائع الذى كان قد شاده بعقله وروحه ودمه .
وهكذا يسقط الرجل المجيد من حالق ، ويتحطم ويتبدد كأن لم يكن .

هذا هو شيطان الظلام ، أى شيطان الكهولة ، يحوم حول كل فرد ممتاز ، ولا يفتأ يوسوس له فى مهبط عمره وبعد جهاده الطويل أن لاشىء وراء هذه الدنيا ، وأن كل شىء باطل ماخلا المتعة ، وأن الواجب والضمير والمبدأ أضغاث أحلام .

فانظر إلى هذا الرجل واعتبر بسقوطه . وإذا كنت قد امتزت فى شبابك بجهاد نبيل وعظيم ، فاحذر فى كهولتك شيطان الظلام . إن فى همسه فتنة ، وفى وسوسته نشوة ، وفى صوته ناراً تذيب منك العزيمة وتحرق مآثرك فى لحظة .

فاحرص على ماضيك النقى حرصك على حدقة عينك ، واستمد من بياضه ونصوعه ثباتاً جديداً ، وإرادة مضاعفة ، تحميك من كل إغراء وضيع بالغاً ما بلغ سحره . فتحتفظ بشرفك ونبلك ، وتقهر بعزة هذا الشرف وهذا النبل شيطان الكهولة والظلام .

## انظر إلى السماء

لاتظن لأنك تقدمت فى السن وأمسيت فى مغرب حياتك أنه لم يعد فى وسعك إبداع عمل عظيم . تأمل الطبيعة وانظر إلى السماء ، تشعر على الفور أن الأفق الذى تشرق منه الشمس هو أقل جمالا وعمقاً من الأفق الذى تغرب فيه .

## قل فى نفسك . . .

قل فى نفسك : لن يسمعنى إنسان إذا شكوت ، ولن يعاوننى إنسان إذا احتجت ، ولن يشاركنى إنسان إذا مرضت ، ولن ينقذنى

إنسان إذا دقت ساعتى وطالعنى وجه الموت .

إنك إن قلت هذا كنت الرجل القوى الذى يحمل ثابتاً عبء قدره ، ولا يهرع إلى الناس كى يأخذوا بيده ، بل يعتمد بعد الله على نفسه ، ولا يهاب حتى لو تخلى عنه الأهل والأصحاب أن يواجه فى عزة مصيره ، و ينطلق بمفرده فى طريق الشوك الذى كتب عليه .

## فى أروقة الفلاسفة

حلمت ذات ليلة أنى فى بلاد الإغريق ، أروح وأغدو فى رواق من أروقة الفلاسفة ، وأنى أرى وأسمع حواراً عجيباً بين فتى متمرد يائس وفيلسوف شيخ .

و إليك هذا الحوار :

الشيخ — لماذا أنت اليوم متجهم يابنى ؟ . . .

الفتى — لأنى فكرت أياماً طويلة ، وبعد أن فكرت أدركت أنى أرفض هذا العالم يا أبت . أرفض نظامه وأرى أن هذا النظام الذى قدرته الآلهة علينا هو نظام قائم على الظلم والألم. فلماذا أوجدت الآلهة الألم ، ولماذا أوجدت المرض ، ولماذا أوجدت الموت . الحياة فى نظرى لامعنى لها ، وكل ما فيها غير معقول ، وأنا ثائر عليها وعلى الآلهة يا أبت . . .

الشيخ — ثائر؟ . . . وبعد . . . بعد الثورة . . . ماهى الغاية ؟ . . . أفى وسعك أو فى وسع أى إنسان أن يعيش بدون غاية ؟ . . .

الفتى — كل غاية عقيمة ، وكل أمل خادع ، وأولى بنا أن نعيش بلاغاية ولا أمل ولا جهد .

الشيخ — ومع ذلك فأنت بعد وفاة والدك تجاهد ، تجاهد لتعالج أمك المريضة المصدورة ، وتجاهد لتعولها وتعول إخوتك الثلاثة الصغار . . . فلماذا تجاهد من أجلهم ؟ . . . دعهم يموتون . . .

الفتى — فكرت فى هذا . . . حاولت أن أتركهم لحظهم . . .

قلت فى نفسى إنهم فقراء . وإنهم لو ماتوا استراحوا وما أحس بهم أحد أو أثر موتهم فى دورة الأفلاك . . . ولكنى لم أستطع . . . لم أستطع . . .

الشيخ — لماذا ؟ . . .

الفتى — لا أدرى . . . لعل السبب هو حكم الطبيعة الغاشم . . . لعل السبب أنهم من لحمى ودمى .

الشيخ — لا . . . السبب أبعد من هذا . . . أنت لم تتخل عن جهادك فى سبيل أهلك لأنهم من لحمك ودمك فقط . بل لأنك فى صميم نفسك وبالرغم منك إنسان .

الفتى — ولماذا جعلت منى الآلهة إنساناً وفرضت على الجهاد والشقاء ؟ . . .

الشيخ — الآلهة قد اصطفتك لتكون على مثالها . . . ملأت طريقك بالعقبات لتذلل بإرادتك كل ما يعترضك وتكون شبيهاً بها . . . الآلهة لم تخلق الجمال والصحة واليسر والخير ، إلا لتحارب أنت نقيضها أى القبح والمرض والفقر والشر . فترتفع وتنافس فى بطولتك تفوق الآلهة نفسها !

الفتى — وهب أنى فعلت ؟ . . . أليس مصيرى أن أموت ؟ . . .

الشيخ — والحياة ؟ . . . الحياة بأحيائها ، أليست باقية ؟ . . .

الفتى — وهل فى وسعك أن تجزم بأن الحياة باقية ؟ . . .

الشيخ — لا . . . غير أن فى وسعى أن أجزم بأنى أنا كائن ، وأنى موجود ، وأن من الحماقة والغفلة ، حتى ولو كان العالم غير باق والآلهة غير كائنة ، أن أرضى بالعدم والفراغ مثلك ولا أعيش حياتى . أنا أريد أن أقاتل المرض والفقر والشر والقبح المنتشرة حولى . هذا ما يثبت وجودى وهذا مثار فرحى . فأنا كلما بذلت وضحيت كى أخفف من آلام الناس ، شجعتهم على الحياة ، وبررت لهم وجودهم هم أيضاً ، وجعلتهم

يفرحون معى . . . وسواء لدى بعد ذلك ، أمت أم خلدت روحى ، أبقى العالم أم فنى ، فعزائى على الأقل أنى لم أعش عبثاً ، وأنى لم أخن بجودى ولم أخن رفاقى الأحياء .

الفتى — ولكنك مهما بذلت وضحيت فأنت معذب . ومهما فرحت وابتهجت فأنت معذب . ومهما قاومت القبح والمرض والفقر والشر ، فلن يكون فى مقدورك أن تقهر الموت أو تجعل الحياة كاملة .

الشيخ — ومن قال لك إن معجزة وجودنا فى هذه الحياة لاتساوى ما قدر علينا فيها من الآلام وموت . الموت هو ثمن عقلنا وحريتنا ثم . من قال لك إن من حق الإنسان أن يعيش فى عالم كامل . أتريد أن تجرد الإنسان من قيمته ، ألا يكفى الإنسان مجده وهو يسعى لتحقيق ولو بعض الكمال؟ هذا المجد يخمد فى النفس كل عذاب . إن شيئاً من الخير وشيئاً من العدل وشيئاً من الجمال يقره الإنسان فى الدنيا ، لهو أخلق به وأرفع لقيمته من أن يعيش فى عالم كامل ويسبح فى صفاء كصفاء الآلهة . الصفاء هو الموت الحقيقى . وقد تكون الآلهة فى صفائها هى الميتة أما نحن البشر الذين لا نعرف الصفاء ، فنحن الآلهة بإرادتنا وكفاحنا ، ونحن وحدنا الأحياء .

الفتى — كأنك أنت الشاب وأنا الشيخ . . .

الشيخ — الشباب يظل متقداً فيك إن أنت بذلت فى سبيل غيرك ولم تتمرد على حظ العالم . العالم كان كائناً قبل أن يتكون عقلك ، وهو حر فى كينونته كما أنك أنت اليوم حر فى تكييفه بإرادتك وعقلك . وما دام فى وسع عقلك أن يقول لك إن العالم غير معقول ، فعقلك إذن كائن ، وفى وسعه أن يصب فى هذا العالم غير المعقول ، شيئاً كثيراً من المعقول يجعله محتملا . . . فافهم هذا ، وضع عقلك فى الفعل الخصيب لا فى الكبر العقيم ، تؤكد بطولتك فى الحياة وتفرح . . .

فشرد الشاب لحظة ، ثم حدق فى الشيخ ، ثم أطرق وانصرف وهو ما يزال يفكر . . .

## مجدنا . . .

كل شىء فى الطبيعة يترجح : اليوم بين نهار وليل ، والفصول بين ربيع وشتاء ، والنور بين تلألؤ وانطفاء ، والبحر بين مد وجزر ، والقلب بين سكون وانفعال ، والجنس بين خصب وعقم . فكيف نطلب إلى الإنسان وهو ابن الطبيعة ألا يترجح بين شر وخير . . . ومع ذلك فإخلاص الإنسان لمبدأ مثالى بعيد ، أو انكبابه على كشف خارق وجليل ، أو عزمه على تضحية تستهين بالمال والنفس ، كل هذه روائع تجعل منه مهما ترجح وانجذب إلى الشر ، قوة تسمو على الطبيعة ، وكأنها تقول : إنى وإن أكن من صلبك ، إلا أنى بما فىّ من قدرة على الثبات على الخير فترة من عمرى بل عمرى كله أحياناً ، أقهر ترجحك الأبدى الرتيب ، وأشعر شعوراً غامراً أنى سيدك !

## نحو حياة عليا

والآن نجمل ما تقدم فى كلمة شاملة فنقول :

إن طبيعة الإنسان تجمع بين عاملين : إرادة الكفاح رغبة فى التفوق على الحياة ، وإرادة التمتع باللذة رغبة فى الفرار من الحياة .

فالإنسان فى غمرة قلقه الأبدى ، لا يكاد ينزع إلى القوة حتى يجنح إلى الضعف ، ولا يكاد يطلب العمل حتى يؤثر الراحة ، ولا يكاد ينشد التفوق حتى يستهول الكفاح . وإذن فهو نهب مقسم بين حياتين : حياة عليا ينزع إليها بروحه وعقله وإرادته وكبريائه ، وحياة دنيا ينزع إليها بغريزته وخوفه وأنانيته . فأما الحياة العليا فضرب من بطولة التوسع غايته امتلاك لذة سامية وعظيمة من طريق الجرأة وتحدى الألم . وأما الحياة الدنيا فضرب من هزيمة الانكماش غايته امتلاك لذة وضيعة رخيصة

من طريق الخوف والجبن واتقاء الألم . فى دائرة الألم إذن يتقرر مصير الإنسان . والإنسان ولا ريب كلما رحب بالألم واشتد احتماله له وقويت أعصابه عليه ، أحكم الصلة بين نفسه وبين الحياة العليا . وكلما تبرم بالألم وثار عليه وراغ منه ، ضاق ذرعاً بتلك الحياة المجيدة ، ففر منها ، واستحال إلى مجرد أنانية تدب وغريزة تسعى .

فالرجل الذى فى مقدوره أن يحمل عبء مسئولية كبيرة ثم يتنصل ، يفر من الحياة العليا .

والرجل الذى فى مقدوره أن يجهر بفكرة صالحة ثم يخشى العاقبة ، يفر من الحياة العليا .

والرجل الذى فى مقدوره أن يخدم الغير بماله ثم يحجم ويبخل ، يفر من الحياة العليا .

والرجل الذى يفزع من مواجهة ومعالجة الحقائق القاسية ويؤثر أن ينساها ويدفنها فى الخمر أو الميسر أو النساء أو أية رذيلة ، يفر أيضاً من الحياة العليا .

هؤلاء هم ضحايا هذا الجبن المزرى . وهم إنما يخشون كل حياة عامرة مجيدة ، لفرط ما يخشون وطأة الفكر ، وعبء الحركة ، وعنف الألم . ولكن أية قيمة لحياة بلا ألم ، وأية لذة فى حياة بلا خطر ، وأية عظمة فى حياة يجردها المرء من مادة الفاجعة وعنصر المأساة ؟ . . . .

إن عنصر المأساة هذا هو الخليق وحده بأن يحتضنه الإنسان ليسمو ويرتفع .

فالفكر البشرى يجب أن يكون حرًّا طليقاً ليصطدم بالفكر المكبل الشائع ولو تحول فى جهاده النزيه إلى مأساة .

والكفاح الدنيوى مهما كان شاقًّا ومريراً وهو يصطدم بالعقبة ، يجب أن يثبت ولو تحول فى ثباته إلى مأساة .

والاحتمال النفسى والبدنى مهما كان قاسياً وشديداً وهو يصطدم بالألم

الفاجع ، يجب أن يمضى فى مجالدة الألم ولو تحول فى صراعه إلى مأساة .

ذلك هو مجد الحياة : آلام نتحداها ، ومصاعب نجالدها ، وعقبات نذللها ، ومأساة نعيشها كأبطال .

ومتى ارتضينا هذه المأساة وعشناها ، عرفنا قيمتنا ، وشعرنا بسلطاننا ، وملكتنا نشوة الفرح ، وبتنا نجد السعادة لا فى الرخاوة بل فى القوة ، ولا فى النكوص بل فى الانقضاض ، ولا فى الفرار من الحياة العليا بل فى التطلع إليها ، والاتجاه نحوها ، والتمكن من تحقيقها ، بوحى الفكر ، وصولة الإرادة ، ومشيئة الإنسان .

# فى قيمة الحب



## الحب الصحيح

الحب الصحيح هو دفاع عن النفس ضد انحطاط النفس ، وضد الأباطيل المادية التي يستمسك بها الناس .

## نشيد الحياة

إن أروع ما في الحب هو أنه يلهب دفعة واحدة كل قوى الإنسان . فالمحب يفكر في محبوبه بعقله ، ويحن إليه بقلبه ، ويطلب الاندماج فيه بجسده . فقوى العقل والقلب والجسد تشترك جميعاً في إبداع نشيد الحياة .

روحانية الحب

بيد أن شهوة الجسد قد تكون هي وحدها غاية الحب ، فيطغى الجسد على القلب والعقل ، ويشوش أنغام النشيد ، ويهوى بالإنسان إلى درك الحيوان .

ومع ذلك ومهما انحدر الإنسان وهوى ، وانغمس في بؤرة الجسد زاعماً أنه يحب ، فهذا الحب الشهوي لايمكن أن ينقع غلته ، ولا يمكن إلا أن يشعره باشمئزاز من نفسه ، وتقزز من جسده ، وفراغ مروع يضرب رواقه على قلبه ووجدانه وعواطفه . ذلك لأن الشهوة شيء والحب العاطفي شيء آخر.

فما السر إذن في أننا لا نعتبر الاشتهاء المجرد حبًّا ، ولا نفتأ نتطلع إلى الحب العاطفي ونفرق بينه وبين العلاقات الشهوية ، ونحس شيئاً من المرارة والأسى إذا انقضت أيام شبابنا دون أن نعرف ذلك الحب العاطفي الأسمى ؟ . . .

الواقع الملاحظ أن الرجل متى أحب حقًّا لم يكتف بإشباع رغباته

الحسية ، بل اندفع وتسامى وجعل يشد العاطفة لقلبه وروحه ، أسعد ما يكون بالبذل والتضحية فى سبيل من يحب . وكذلك المرأة ، وهى المخلوق الغريزى العملى ، لا تكاد تشعر بحب صادق حتى تضع العاطفة فوق المتعة . فتنكر ذاتها ، وتنكر نزعاتها النفعية ، وكثيراً ما تذهب إلى حد التقشف والتخشن إرضاء لمن تهوى .

فلماذا ينشد الإنسان العاطفة فى الحب ، ولماذا يطلب قلباً يخاطب قلبه ، وروحاً تستجيب إليها روحه ؟

## مادة وروح

أعتقد أن الإنسان مادة وروح ، وأنه أسير فى سجن جسده ، ونزاع إلى التحرر من قيد حواسه ، وأن بذرة الحب العاطفى الروحى هى بذرة مقدسة كامنة فينا جميعاً برغم عنف الشهوات التى تضطرم بها أجسادنا .

وقد يبدل المزاج الفردى من أشكال الحب ، ولكنه لا يؤثر فى نزعته العاطفية الروحية العميقة ولا يمكن أن يبددها .

وإذن فما السر فى هذا ، ولماذا لم يستطع العقل المثقف النابه ، والاتجاهات العلمية السائدة ، والحضارة المادية الجارفة ، أن تستأصل من الحب تلك النزعة العاطفية الروحية وتأتى عليها ؟ . . .

يلوح لى أن الأصل فى الحب شعور دينى متأصل فى النفس البشرية ؟ شعور يدفع بالفرد إلى التسامى بشهوته ، والتفوق على فطرته ، والاندماج فى شخص آخر اندماجاً أساسه الأنانية وإنكار الذات معاً ، التملك والتضحية معاً ، الموت والبعث والخلود معاً ، كذلك الاندماج الذى يحدث بين الصوفى وربه . . .

فالصوفى يود أن يستأثر بالله لينقطع لعبادته ويهبه حياته . والمحب يود أن يستأثر بحبيبه لينقطع لعبادته ويهبه حياته . إن كل محب يقول

لمحبوبه إنى أعبدك . فالحب الصحيح تمازجه العبادة ، وهو فى جوهره شعور دينى يصبو إلى تحقيق تفاهم مطلق مستمد من مثل أعلى فى سعادة قائمة على الخير والصفاء والجمال والكمال ، أى مستمد من الغايات العظيمة التى هى رمز فكرة الله فى عقول الناس ، والنور الذى يتوجهون إليه فى ظلمات حياتهم .

بين الأرض والسماء

فالحب العاطفى الروحى هو الذى يرتفع بالإنسان ، وهو لن يموت إلا إذا مات الشعور الدينى فى القلب والوجدان . والشعور الدينى لن يموت مادام الإنسان يجهل مصيره . ولهذا سيظل الإنسان يقول لمن يحب « إنى أعبدك » . وسيظل فى صراع بين حب الجسد الذى يجذبه إلى الأرض . وبين حب العاطفة والروح الذى يجذبه إلى السماء . وهو حتى لو فشل فى تغليب الروح على الجسد ، فسيبقى صراعه على مر السنين عنواناً خالداً على عظمته ، وعلى طموحه فى حياته الوجدانية إلى تحقيق مثل أعلى ينحدر إليه من صرح الألوهية التى ماتنفك أنظاره ، برغم حدتها وذكائها وكبرها ، تتطلع أبداً إليها !

## هل الحب أعمى ؟ ..

يردد الكثيرون منذ القدم أن الحب أعمى . فهل هذا صحيح ؟ . . .

أنا أعتقد أن الحب لم يكن أبداً أعمى ، وأن القوة الخفية التى تجذب إنساناً إلى آخر هى العمياء . أما الحب نفسه فبصير ، بل مشرق البصيرة إلى حد يثير الدهش . فالرجل مثلا ينجذب إلى امرأة وهو لايعلم على وجه التحقيق لماذا انجذب إلى هذه المرأة بالذات . وقد يكون مبعث الجاذبية فيها نقصاً فى الرجل تكمله هى ، أو صورة خيالية فى ذهنه يخلعها عليها ، أو نزعة عنيفة فى نفسه يرى المرأة تستجيب لها ، أو لمحة فى بدنها تخلبه ،

أو مجرد نظرة تسددها إليه ويحس أن فيها أمله وخلاصه وسعادته .

فتوافر بعض هذه العوامل أو واحد منها ، هو القوة الخفية العمياء التى تخلق الحب ، والتى تجذب رجلا إلى امرأة معينة ، والتى يحار الرجل نفسه فى فهمها وتعليلها لفرط شعوره بسلطانها المباغت عليه . وهذا ما يفسر لنا انجذاب رجل جميل إلى امرأة نراها نحن دميمة ، أو رجل طيب إلى امرأة نقول نحن عنها إنها شريرة ، أو رجل مثقف إلى امرأة نشمئز نحن من جهلها وخمولها وعقلها الضيق العنيد . بيد أننا لا يجب أن ندهش . فهذه المرأة كائنة ما كانت صفاتها ، تمثل فى نظر الرجل المنجذب إليها ذلك الإنسان الذى طالما تلهف عليه كى يكمل نقصه ، أو تلك الصورة المثالية التى طالما احتلت ذهنه وألهبت خياله ، أو تلك الاستجابة الحسية أو المعنوية التى ظل يبحث عنها السنين الطوال على غير جدوى . لهذا أحب ذلك الرجل تلك المرأة . أى أنه أحبها لشىء معين فى شخصها وروحها أثار فى نفسه أحلامه هو ، وتصوراته هو ، ورغباته هو ، وجعله يعتقد تحت تأثير ذلك الشىء المعين الغامض أن تلك المرأة هى ضالته المنشودة وأمله المبتغى .

فالقوة الغاشمة العمياء التى تخلق الحب ، تنبع فى الواقع من خيال الرجل ، ومن طابع مزاجه ، ومن أحلام صباه ، ومن كل ما احتشد فى كيانه من مشتهيات حسية ومعنوية ، مختلطة ومشوشة ، لا يعرف سرها . فيندفع تحت تأثيرها إلى حب تلك المرأة وهو معصوب العينين أعمى . . . ولكن التحول العجيب فى نفس الرجل يحدث هنا . فهو لا يكاد يتصل بالمرأة التى أحبها ، ويمضى فى حبها ، حتى تسقط الغشاوة فجأة عن عينيه ، ويصبح حبه الأعمى بصيراً ومشرقاً بل متنبهاً كل التنبه لا إلى محاسن محبوبته فقط ، بل إلى أبسط وأيسر نقيصة يراها فى شخصها المعبود الذى كان يعتبره مثلا أعلى . وعندئذ تبدأ المأساة . فالمحب الذى كان بالأمس أعمى ، ينقلب إلى إنسان متيقظ يرى نقائص محبوبته أوضح وأبرز

مما يراها الآخرون ألف مرة . ولكن الغريب فى أمره أنه وهو يلحظها ، وينعم النظر فى أخلاقها ، ويرى بعين قلبه الثاقبة شتى مساوئها ، لا يستطيع إلا أن يمضى فى حبها حتى ولو تبين له أنها شيطان ... فهو يرى ومع ذلك يحب ، وينفر ومع ذلك يحب ، ويشمئز ومع ذلك يحب . وحرصه على خياله الرائع القديم يدفعه إلى الإمعان فى مراقبة محبوبته ، والإمعان فى تسجيل نقائصها . والإمعان فى محاسبتها عليها ؛ عساه أن يردها إلى حلمه القديم ، ويحقق فيها برغم خيبة الواقع ذلك الخيال الجميل الذى أحبها من أجله . . . فالجاذبية الأولى تبقى فى نفس المحب ، وقوة الحب الغاشمة تظل مسيطرة عليه، ولكن هذه السيطرة المستبدة لا تمنعه من رؤية محبوبته على حقيقتها . فتراه يرضى منها آخر الأمر بكل شيء ويحتمل منها كل شيء ، ويمضى فى حبها حتى ولو كان يعلم علم اليقين أنها غادرة وخائنة ، وأنه فى سبيل الاحتفاظ بها يذل نفسه ، ويهدر كرامته ، ويتدهور شيئاً فشيئاً وينحط . . .

فعين المحب إذن ليست عمياء . إنها ترى كل شيء وتغفر كل شيء وتحتمل كل شيء ، مادامت واقعة تحت تأثير تلك الجاذبية الغاشمة الأولى . فإذا فترت حدة هذه الجاذبية وتقلصت بفعل الزمن ، ضاق المحب ذرعاً بنقائص محبوبته ، وعز عليه أن يهدر كرامته وينحط فى سبيل مخلوق لم يعد جديراً بحلمه . فيزدرى هذا المخلوق وتعافه نفسه . وعندئذ فقط يموت الحب .

وما يسرى على الرجل فى كل ما تقدم يسرى على المرأة سواء بسواء . فهى أيضاً تحب وتبصر ، وتحب وتحتمل، وتحب وتستهدف وهى تحب لفقدان كل عزة وكل كرامة وكل كبرياء .

الفترة المرهوبة

فكيف يتخلص الإنسان من تلك الفترة المرهوبة التى يشعر فيها أنه

قد عرف محبوبه على حقيقته ، وأنه ما يزال فى الوقت نفسه منجذباً إليه ، يتعذب بحقيقته الشائنة المروعة . ويقبلها مع ذلك مكرهاً وهو يشعر أنه يتدهور وينحط .

لاينقذ الإنسان فى تلك الفترة غير أخلاقه ، وحياته الروحية ، وحافز من المبادئ المثالية الثابتة خلفتها فى نفسه تربية قويمة . فالإنسان القوى بخلقه وحياته الروحية ومبادئه ، يستطيع وهو واقع تحت جاذبية الحب ومبصر نقائص ومساوئ من يحب ، أن يقاوم تلك الجاذبية ، ويقاوم الأثر السيئ الذى تحدثه فى نفسه نقائص محبوبه ، بحيث لايقبلها إذا كانت منحرفة وصارخة ومشينة ، بل يثور عليها ، ويضحى بمحبوبه المستغرق فيها ، قبل أن يجرفه هو تيار الحب ، فيتدهور ويرضى بالمذلة والهوان والعار .

وإذن فجاذبية الحب عمياء ، أما الحب نفسه فبصر . ولكن الخطر الكامن فيه هو أنه يبصر النقائص ويقبلها ويحتملها مهما كانت وضيعة ومخزية . ولذلك يجب أن يحرص المحب كل الحرص ، رجلاكان أم امرأة ، على متانة خلقه وسمو مبادئه ، ونظافة فكره وروحه ، كى يظل وهو مبصر العين ، قوى الإرادة والعزيمة أيضاً ، فى وسعه أن يسحق حبه بيده إذا تبين له أن محبوبه يوشك بنقائصه المروعة أن يلوثه وينحط به ويهلكه .

## فوق الطبقات

ما يزال معظم أرباب الأسر الكبيرة عندنا يعتقدون أن زواج الحب جنون وعار . وهذا الاعتقاد لا يرجع فى جوهره إلى شعور باستنكار الحب فى ذاته ، بل إلى استنكار النتائج الاجتماعية المادية التى تترتب عليه . والواقع أن من مميزات الحب عدم الاحتفال بالفوارق الاجتماعية . وعدم الاكتراث لتوافق المركز والثروة . وهذا ما يستنكره أرباب الأسر

الكبيرة من المحافظين . إذ هم لو سلموا بقانون الحب لاضطروا إلى التضحية بقانون المصلحة والتسليم باختلاط الطبقات وديمقراطية الحياة العامة . فالحب فى نظرهم جنون وعار لأنه قد ينزل بالفرد عن مركزه الاجتماعى ، ويدفعه إلى مصاهرة أسرة دون أسرته حسباً وجاهاً وثروة . وهذه النظرة فى صميمها نظرة بورجوازية أو اقطاعية تكره العواطف وتضحى بها . ولا تتعلق إلا بتقاليد الطبقة ونفوذها فى الحياة الاجتماعية . ولكن الحب عدو الامتيازات الطبقية ، لأنه عدو الاستبداد ووليد الفطرة السمحة الحرة .

## رغبة مبدعة

الحب يشبه الفن ، والمحب يشبه الفنان . وكما أن الفنان المتبرم بشقاء الدنيا يأبى إلا أن يفر منها ليحقق حلم السعادة والجمال فى عمل فنى كامل فذ ، كذلك المحب المتبرم بوحشة الدنيا يأبى إلا أن يفر منها ليحقق الحب فى علاقة سعيدة أو فى زواج موفق فذ . فالحب الصحيح والفن الأصيل كلاهما رغبة إنسانية عميقة تنزع إلى إبداع مثل معنوى أعلى . وهذه الرغبة مستقرة فى نفس الجاهل والمتعلم ، والغنى والفقير . ولذلك يمكننا أن نقول إن بذرتها راسخة فى تربتنا البشرية ، وإن فى كل واحد منا تكمن روح عاشق وشخصية فنان .

## الحب والموسيقى

الحب هو الذى ابتدع الموسيقى ، بل هو الذى علم الموسيقى للحيوان . والطيور كلما أحبت تفننت فى تغريدها . وكثيراً ما نرى الطائر الذكر الذى انفصلت عنه أنثاه ، يغرد جاهداً ليدعوها ، ثم يموت وهو ينشد نشيد حرمان ويأس ووداع !

## إخلاص لشخص واحد

الحب عاطفة قاهرة تتطلب منا توديع مناعم الحياة الظاهرة ، واحتقار متاعها الباطل ، وحصر هذا المتاع فى امتلاك ورفقة مخلوق معين . نخلص له وحده ، ونرى من خلال شخصه الرائع صفوة جمال ومتاع هذه الدنيا . فالذى يهوى التلون والتقلب وانتهاب فرص اللذة لا يستطيع أن يعرف الحب لأن اللذة كبر وطمع وأنانية . أما الحب فتواضع وقناعة وتضحية . لهذا لا يثبت على الحب الصحيح غير كل من سمت نفسه ، وعاف التقلب والتلون ، وكان فى خلقه وروحه من الثابتين المكتفين الأقوياء .

## قربان الحب

الحب يبدلنا فجأة ، ويشعل فى صدورنا حوافز البطولة والجهاد . فإذا كنا فقراء لم تروعنا الفاقة ، بل هزأنا بالبؤس وتحدينا القدر .

وإذا كنا بلهاء ، تفتقت أذهاننا واضطرمت فيها شعلة الفكر .

وإذا كنا كسالى ، سرى الدم الحار فى عروقنا ، وأقبلنا على العمل بعزم الجبابرة .

وهكذا نؤكد بالحب وجودنا ، ونؤكد استحقاقنا للحياة ، ونرفع قربان العمل والجهاد إلى هيكل محبوبنا وهيكل الحياة .

## ألوان الحب

بعضنا يحب بخياله وفكره فقط ، وبعضنا الآخر يحب بقلبه وعواطفه فقط ، والسواد الأعظم يحب بحواسه وغريزته فقط . أما الحب الكامل الذى تلتقى فيه جميع هذه القوى ، فشىء رائع ونادر . وهذا هو السر فى تهالك الناس عليه منذ الأبد .

## المحبون السعداء

المحب السعيد ينسى وجود الموت ، بل يؤمن فى ذات نفسه إيماناً غريباً بأنه قد خلد حقًّا ، وأن فردوسه ابتدأ من هذه الأرض . لهذا يمرح المحبون السعداء فى هذه الدنيا كأنما هى قد خلقت لهم وحدهم ، وكأن لافقر فيها ولا مرض ولا موت . ونحن نستخف بهم بل نسخر منهم . ولكننا فى الحقيقة نحسدهم ، ونتمنى لو نصبح مثلهم . مخلوقات أثيرية مجنحة عرفت كيف تقهر دمامة الحياة ، وتخلقها خلقاً جديداً ، وتبسط عليها سلطان الخيال والجمال والشعر .

## وجه الحب

. . . وبرغم السعادة التى يشعر بها المحبون ، فوجه الحب كثيراً ما يبدو عابساً ، متجهماً ، لايعرف الابتسام ولا الضحك بل الصراخ والخوف والبكاء . فالعاشق قد يبكى مستجدياً ، ثم يصرخ غيرة ، ثم يرتعد فرقاً من الهجر والإذلال والفراغ . وهكذا الحب قد يتقلب فى جو مأساة . ولكن هذه المأساة هى التى تنقذ الإنسان من رتابة حياته ، وتجدد الكون فى عينه ، وتضاعف فيه قوى الصراع ، وتشعره بأن عقله وقلبه وحواسه قد امتلأت بالتجارب يوم يخرج من مأساة حبه مترنحاً وذاهلا ومثخناً بالجراح.

## الحب والخيال

كل إنسان ، رجلا كان أم امرأة ، لايتلهف فقط عندما يحب على هبة نفسه وحياته لمحبوبه بل يريد فى الوقت ذاته أن يجعل من محبوبه مخلوقاً جديراً بهذه الهبة . لذلك يضفى عليه كل رائع من مولدات خياله ، ويتصور الكمال المعنوى المطلق فى شخصه ، ويبدع منه مثلا خارقاً

أعلى . فإذا ما اتصل به ولمس فى حياته اليومية أى نقص أسرع وقارن بين الخيال العظيم والواقع المرير . فعز عليه تقلص خياله ، وأبى إلا أن يظل محبوبه عند مثله الأعلى . وعندئذ تراه يعذب المحبوب عذاباً دائباً ، ويقف له بالمرصاد متنبهاً متحفزاً ، ويحاسبه على أبسط هفواته ، ويطلب منه الكثير فى حين أن الحياة لاتعطى غير القليل . وهكذا يشعر المحبوب أن محبه لايطيق منه أن يكون إنساناً فيه ضعف بشرى ونقص فطرى . فيثور على ظلم هذا المحب وتعصبه وجنونه ، ويقول له إنه هو نفسه ناقص وضعيف . ولكن المحب لايفهم بل يمعن فى غيه ، ويطلب المستحيل من محبوبه . فيخنق فى المحبوب حبه وأمله وحلمه ، ويقتله كإنسان لأنه أراد أن يجعل منه شبه إله .

## الحب والحرية

إذا كان الحب يدفع إلى الإيثار ويغرى بالتضحية ، فهو فى الوقت نفسه قد ينزع إلى الأنانية والحيازة والاستبداد .

ومن المحبين من يحمل فى أعماق ذاته شخصية طاغية مستبد ، ينكر على محبوبه حقه فى الاستقلال ، وحقه فى الحياة ، وحقه فى الحرية بوصفه إنساناً له عقل وفكر وكرامة وإحساس .

بيد أن كراهية الحب للحرية هى اللعنة المسلطة على مستقبل المحبين وراحتهم . هى التى تولد الغيرة الطائشة ، والقسوة الطاغية ، والثورة الهادمة ، وما تزال بالحب ترهقه وتعذبه حتى يموت آخر الأمر لعجزه عن الجمع بين ضرورة إنكار الذات والتضحية ، وبين ضرورة التمتع المشروع بنعمة الحرية .

وليس هذا فى الحق بغريب . فالحرية أصيلة فينا ، أما الحب فحلم رائع من أحلامنا ، لايمكن أن يتحقق ولا يمكن أن يدوم إذا هو اعترض ، بالتوجس الدائم والغيرة الظالمة ، حق الحرية المتأصل فى جوهر طبيعتنا .

فإذا شئنا السعادة فى الحب ، فعلينا أن نعترف بقسط من الحرية وافر مشروع للشخص الذى نحب . علينا بعد امتحانه أن نثق فيه . فلا نطغى عليه بهواجسنا وشكوكنا ، ولا نحاول أن نمحو شخصيته المستقلة ونخضعه لمطلق إرادتنا ، ونسومه الخسف والذل والهوان بدعوى أننا نحبه وأنه يحبنا .

وهكذا نلطف من أنانيتنا ، ونكبح من غيرتنا ، ونتخلص من كبرنا وطغياننا . فيتطور الحب من عاطفة مستبدة غاشمة إلى عاطفة مهذبة عميقة ، تجمع بين شخصين متساويين فى واجب الإيثار والوفاء ، لأنهما متساويان فى حق الحياة والكرامة والحرية .

## الثقة أيضاً . . .

إن أنت لم تثق فى محبوبك وتؤمن بشرفه ، استحال عليك المضى فى حبه والاطمئنان إليه . وهو إن لم يثق فيك ويؤمن بشرفك . تعذر عليه أن يبادلك ثقة بثقة وشرفاً بشرف . فيجب أن يؤمن كل منكما بشرف الآخر كما يؤمن الرجل بمبدأ اعتنقه وثبت عليه . وقد يحدث أن يشك هذا الرجل فى مبدئه . ولكن تأصله العميق فى نفسه ، يدفعه إلى التشبث به جهد المستطاع قبل أن يسلم بفساده . كذلك المحب يجب أن يتشبث طويلا بعقيدته فى شرف محبوبه قبل أن يسلم بأن شرف هذا المحبوب كان حقاً زائفاً .

## اختلاف وائتلاف

اللحظات التى يحس فيها شخصان أن كلا منهما يختلف فى شىء عن الآخر أو يمتاز بشىء عن الآخر ، ثم يسلم كل منهما بما فى الآخر من تمايز واختلاف ، هذه اللحظات هى التى قد تجمع بينهما فى صداقة وثيقة أو فى حب عميق . ذلك لأن ما يفصل يمكن أن يجمع ، وما يكون

نقيضاً هو الذى يجذب إلى النقيض .

## حبك يشبهك . . .

إن حبك يشبهك تماماً ، وكيفما تكن يكن حبك . فإذا كنت صادقاً ووفيًّا وشهماً ، تغذى حبك من أخلاقك ، فرفعك فى عين نفسك حتى لو خدعك محبوبك وأشقاك . أما إذا كنت أنانيًّا أو منافقاً ، أو مستبدًّا ، فأخلاقك لا بد أن تنحط بك ، فتلوث حبك ، وتنغص حياتك ، حتى لو أخلص لك محبوبك وحاول جهده أن يسعدك .

فنحن الذين بأخلاقنا نقتل الحب أو نحييه ، نسعد به أو نشقى أبد الدهر . فأخلاقنا هى خلاصة شخصيتنا ، وهى لابد أن تؤثر فى حبنا الذى هو جزء لا يتجزأ من شخصيتنا . فإذا أبغضك حبيبك فلا تتهمه ، بل اتهم قبل كل شىء أخلاقك أنت .

## خداع الحب

قد تحب إنساناً وأنت تريد فى الواقع أن تلتهم حياته على حين تعتقد اعتقاداً راسخاً أنك تريد أن تهبه حياتك .

وقد تحب إنساناً لا لأنك تريد أن تسعده ، بل لأنك تريد أن تهرب من نفسك فيه ، أى من فراغ عاطفى يضنيك ، أو عذاب نفسى شديد الوطأة عليك .

فاحذر خداع الحب ، ولا تقتحم بالحب حياة إنسان إلا وأنت واثق من أنه هو غايتك ، وأنك فى حبه منزه عن الغرض والأنانية .

## الحب الأسمى

لا تقل أبداً لمخلوق إنك تحبه إذا لم يكن فى وسعك أن تشاركه حمل قدره ، وتعاونه على توكيد شخصيته ، وتمده كلما استطعت بنفحة

من حنان يصبو إليها ، أو عون عاجل يحتاج له ، أو حافز من قوة ينقصه فى ساعاته المريرة ويمكن أن يقاوم به اليأس أو المرض أو الموت . هذه هى قيمة الحب النزية الأسمى .

## الهارب من الحب

نحن فى الشرق نخاف الحب ، وفى الوقت نفسه نحتقره ونقول فيه كلمتنا المشهورة : « الحب بهدلة . . . » . ذلك لأن العواطف الكبيرة التى يلهبها الحب ، ترهق منا الفكر والعصب ، وقل أن نستطيع حملها ، ولاسيما أن المجتمع من حولنا لا يفتأ يسخر بمثل تلك العواطف ويتخذ من صاحبها هزأة وضحكة .

فلكى نأمن شر هذه « البهدلة » ، نفاخر بأننا عقلاء ، وأن العقل يقتضينا أن نجعل من الحب لعبة ، وأن نتبع اللذة لا الحب .

وهكذا الفرد منا ، المعتز بعقله ومكانته ، لو هاجمه الحب ، يرتعد خوفاً من « البهدلة » ، ويطرح عنه الحب ويهرع إلى اللذة ، ثم يبتهج ويردد أنه « شاطر » ، وأنه قوى ، وأن الحب لم يسلبه من نفسه ، فى حين أنه هو يكون قد جرد نفسه من أثمن وأخصب مشاعر القلب أى التعاطف والتآلف والحنان والوفاء والبذل ، ويكون قد فر أيضاً من حومة الصراع الذى لا بد أن يلهبه الحب ، الصراع بين الأمل واليأس ، بين الطمأنينة والخوف ، بين الثقة والغيرة ، بين الجسد والروح ، بين الفرح والألم ، هذا الصراع الذى يمثل حركة وجود المحب كإنسان ، والذى فيه نشوة الامتلاء الوجدانى ومتعة الحياة .

## أدنى مراتب الحب

هناك حب هو أدنى مراتب الحب ، وهو شائع عند طائفة كبيرة من رجالنا ، حب يؤخذ بالجسد فقط ، ولا يشتعل إلا بنار الجسد فقط . فإذا تمكن

هذا الحب من أولئك الرجال وأحسوا أنه ينهك أبدانهم ويمتص عصارتهم وأن ناره المتأججة توشك أن تخبو . ثارت كبرياؤهم ، وهالهم من رجولتهم عجزها المباغت المخزى . فأسرعوا ولاذوا بالمخدرات والمغيبات وشتى العقاقير . يلهبون بها تلك النار . ويلتمسون منها قوة ترد إليهم اعتبارهم فى نظر أنفسهم . وفى نظر المرأة التى يرتعدون فرقاً من تصور احتقارها الصامت . واحتمال انصرافها يوماً عنهم . وعندئذ تراهم وقد انقلب حبهم إلى ضرب من الهوس الشهوى : يغرقون فى استخدام تلك المخدرات والعقاقير . فتعصف بهم « النورستانيا » الجنسية . فنشهد نحن فيهم ذلك السهوم الذهنى ، والتبلد العقلى ، والتهافت العصبى ، والعجز الصارخ عن النهوض بأى عمل كبير ، بل عن مزاولة العمل اليومى فى نشاط وجلد .

وهذا هو الانتحار البطىء الذى يحكم به على نفسه كل رجل يفقد سلطانه على عقله ، ويهدر بإسفافه الحسى كرامة إنسانيته ، ويهوى بالحب ، ويجعل منه رابطة تشد حيواناً إلى حيوان .

## لكى لا تكون عبداً للجسد

كلما كان الإنسان فقير العقل محدود أفق الخيال ، كان أقرب إلى الفطرة فى حبه وأوثق صلة بالغريزة الجنسية. وكلما كان مستنير الفكر موفور الثقافة ، واسع أفق الخيال ، كان أكثر استعداداً للحب العاطفى وأقرب إلى اعتبار الحب علاقة لا تربط بين جسدين إلا لتؤلف بين قلبين وعقلين وروحين فى عالم معنوى رائع . فالفكر يهذب الغريزة ويؤثر فى الجسد ، كما أن انعدام الثقافة والفكر يطلق الغريزة من عقالها ويجعل الإنسان عبداً للجسد .

## عداء . .

إذا جمعت الشهوة الجنسية وحدها بين رجل وامرأة ، فكل منهما

لايكاد يستمتع بها حتى يرتد إلى أنانيته ، وينفصل عن صاحبه كأنه غريب عنه ، بل كأن عداء مستحكماً كان بينه وبين صاحبه فثأر لنفسه باللذة التى انتزعها منه .

وإذن فالقلب فى الحب هو الذى يجمع ، أما الشهوة الجنسية وحدها فكثيراً ما تفرق .

## القوى العليا

إذا أحببت امرأة بالجسد فقط فأنت تنشد غرضاً وضيعاً واحداً . إذن فأنت ضعيف وفقير . أما إذا كنت تحب امرأة بقلبك أيضاً فأنت عظيم وقوى وثرى . ذلك لأن حب القلب ينبع من جميع القوى العليا الكامنة فى نفس الإنسان . ينبع من روحه الظامئة إلى اللانهاية ، ومن ضميره الحى الذى يفرض عليه الوفاء ، ومن طيبته التى تعلمه معنى الرأفة بالضعيف ، ومن غيرته النبيلة التى تهون عليه كل تضحية لإسعاد من يحب .

## هبة وتقدير

الرجل فى الحب ينشد لذة الكفاح لينعم بلذة النصر ، والمرأة فى الحب تنشد لذة التسليم لتنعم بلذة التقدير . فإذا ذهبت نشوة النصر بلب الرجل ولم يقدر هبة المرأة ، ثأرت المرأة منه بالكيد والدهاء والحيلة كما يثأر الضعيف المهزوم من طاغية مستبد .

## أقوى حب

أقوى حب وأبقاه وأمتعه ، هو ذلك الحب المحروم ، ذلك الحب الصامت اليائس المستوحش الذى يرسل أروع الصرخات وأعذب الأنغام ، والذى يشبه طائراً يغنى طول حياته بمفرده . . .

## المرأة والحب

متى أحبت المرأة حبًّا صادقًا ، تهذبت وسمت ، واستحال عليها أن تتصور نفسها ملكًا لغير الرجل الذى تحب . فلا العواطف ولا المال ولا أروع مفاتن الترف يمكن أن تؤثر فيها وتدفعها إلى خيانة حبيبها . فالحب يكسبها مناعة عجيبة تتكسر حيالها مختلف وسائل الإغراء . وهذه المناعة هى كبرى فضائل الحب عند المرأة ، وهى التى تميزها من الرجل ، إذ الرجل فى الغالب أنانى وشهوانى . وهو قد يخون وإن كان يحب . أما المرأة التى تحب حقًّا فتعتبر الخيانة نذالة ، وترى فى الوفاء الخالص رمز الكرامة وعنوان الشرف .

## قلب المرأة

لا تستطيع المرأة أن تعيش بلا حب . وهى إذا لم تحب الرجل ، أحبت الطفل ، أو أحبت المال ، أو انطوت على نفسها ، وصلّت وصامت وأحبت الله . . . .

## ما تنشده المرأة

المرأة لا تحب إلا لتهب حبيبها القوة أو تستمد منه القوة . فهى تحب الرجل التاعس الشقى المعذب لتعزيه وتشجعه وتنفث فيه الحياة . وهى تحب الرجل المسيطر المتفوق لتزداد به قوة ومكانة . أما الرجل العادى أو المتوسط ، فقد يروقها منه اعتداله ، ولكنها لن تحبه بجُمع نفسها أبداً .

## ملاك أو شيطان

المرأة لا تتبذل أبداً متى أحبت . ولكن إرادة التبذل عند المرأة التى تحب هى انعكاس لرغبة الرجل الذى يحبها . فإذا كان الرجل مستهتراً

ووضيعًا ونزاعًا إلى التبذل فى العلاقة الجنسية وفى الحياة ، فالمرأة تطيعه أول الأمر لتجذبه وترضيه ، ثم يخلبها سلطانها عليه ، فتتقد غرائزها ، فتتبذل أيضًا لسواه . فالمرأة عبقرية فى المحاكاة والتقليد . فإذا جعلت هدفك فى حبها منذ بدء غرامك هدفًا معنويًا ساميًا ، تأثرت هى بك ، ثم أشربت نفسها هواك ، ثم نازعتك فى النهاية سلطانك وتفوقت فى سمو العواطف عليك . فأنت الذى فى مقدورك أن تلهب غرائزها وتجعل منها شيطانًا فتستحيل بين ذراعيها إلى حيوان ، أو تلهب قلبها وروحها وتجعل منها ملاكًا ، فتستحيل بين ذراعيها إلى نصف إله .

## غايتها الوفاء

إذا أحبت المرأة حقًا فهى تؤثر أن ترى حبيبها ميتًا على أن تراه خائنًا . وهذا يدل على أن المرأة أشد تعلقًا من الرجل بفضيلة الوفاء ، وأنها مهما أحبت بقلبها وحواسها فهى لا تستطيع أن تنسى فى الحب كرامتها وكبرياءها .

## تضحيات المرأة

على قدر حب المرأة يكون انتقامها . إذ المرأة لا تحب إلا فى سيل غامر من التضحيات ، فكل تضحية تبذلها ، تضاعف فى قلبها الحب ، وتضاعف فى نفسها عند الخيانة شعور السخط وعاطفة الانتقام . فلا تتورط فى علاقة مع امرأة تحبك إلا إذا كنت واثقًا من أنك أنت أيضًا تحبها وفى نيتك أن تخلص لها . وإلا فاعلم أن كل ما تبذله هذه المرأة من أجلك هو قيد فى عنقك ، وفضل محسوب عليك ، يوم تفكر أنت فى الخيانة ، وتفكر هى فى الانتقام .

## نقيض وشبيه

المرأة تريد الرجل نقيضاً لها وشبيهاً بها . تريده قوياً وضعيفاً معاً . فيه المتانة الخلقية التي تنقصها . وفيه رقة العواطف التي تمتاز هي بها . وهكذا تشعر أنه بخلقه المتين يكمل نقصها ، وبرقة عواطفه يستطيع أن يستجيب إلى طبيعتها .

## نعمة حياتها . .

الرجل عندما يحب يتجهم ويعبس ويحزن ، ويثير فيمن حوله الضجر . أما المرأة التي تحب فتبدو في سعادتها الغامرة ساحرة ورائعة . ذلك لأن الحب يشطر حياة الرجل ويوزعها بين دعوة العواطف وواجب العمل والجهاد والرغبة في الامتياز والتفوق. أما المرأة—حتى لو كانت عاملة— فالعمل لا يستغرقها ، بل تظل وهي تعمل مندمجة في حبها ، فتحس أن الحب يوحد كيانها ، ويتم عليها نعمة حياتها . ويشعرها شعوراً كاملاً بامتلاء شخصيتها . فالحب عند الرجل مأساة وعند المرأة نشوة .

## القرب والبعد

الرجل يفكر ويتخيل ، ولذلك يشتد حبه على البُعد ويضعف على القرب . أما المرأة فالقرب هو الذي ينعش عواطفها ، لأن القيمة عندها في الواقع المحسوس لا في الخيال المحجب المتوارى .

## عذاب . . وأحلام

إذا خابت المرأة في الحب فهي تتعذب أكثر من الرجل . إذ من السهل على الرجل أن يتصل بعدة نساء وأن يختار منهن واحدة يقوم معها بتجربة حب جديدة . أما المرأة فالمجتمع يراقبها ، ومن الصعب عليها

أن تغامر بكرامتها وسمعتها وتتنقل من رجل إلى رجل . وهكذا تتشبث بالرجل الذى خانها وتتعذب ، وقد تظل تحتمل وتتعذب أملاً فى استرداده ، وهى تعلم أن هذا الأمل حلم من الأحلام .

## المرأة وكرامة الجسد

الغانية لا تكاد تهب نفسها لرجل لقاء بعض المال حتى تشعر أنها قد تدهورت . فتسرع وتمنح ذاتها دون مقابل للرجل الذى تحبه . وإذن فكرامة الجسد أصيلة فى المرأة ، والمرأة لن تسعد حقًّا وتسمو فى نظر نفسها إلا إذا أثبتت كرامتها بالحب المنزّه عن المصلحة حتى لو كانت غانية .

## روابط الأمومة

كل حب يظل فى نظر المرأة ناقصًا حتى تباركه وتوثق روابطه الأمومة المشروعة . وهذا هو السر فى أن المرأة لا تشعر بالسعادة المطلقة فى الحب المحرَّم أبداً .

## الفرحة الكبرى

لا أبلغ ولا أعمق من فرحة المرأة بالأمومة . إنها ليست فرحة . إنه جنون ، جنون بحياة تنبثق بشراً من بشر ، وتأخذ ممن أوجدها اللحم والعظم والدم ! . . .

أين الرجل من هذا ، الرجل مهما خلق وأبدع ، فهو لا يخلق إلا فى حدود الفكر . وصحيح أنه هو الذى يعقب الطفل من صلبه . ولكن صلب الرجل أعمى لا يرى غير لذته . أما حشا المرأة فبصير ، وقل أن تستغرقه اللذة ، إذ هو يرى خلف اللذة احتمال خفق الأمومة . فالمرأة وإن تقبلت من الرجل بذرة الحياة ، إلا أنها هى التى ترد البذرة إلى الحياة

زهرة ، وهى وحدها التى تشعر أن دمها المتجمد يستحيل إلى كائن ينبض ، وهى وحدها التى تهب عصارتها هذا الكائن المعبود ، وهى التى يخلبها بعد عذابها منظره إذ تبصره يخرج فجأة من محبسها السرى العجيب ، ويندفع إلى النور أشبه بطائر خرافى ، وفى الوقت نفسه إنسانى ، طائر يبكى ويصرخ مثلنا ، ومثلنا أيضاً يبتسم ويضحك ويغرد . . .

## حارسة الحياة

الطفل يلهو بلعبته وسرعان مايتلفها . أما الطفلة فتحتفظ بعروستها وتحنو عليها . وهذا يدلنا على أن الرجل وإن كان يخلق ويبدع إلا أنه فى الوقت نفسه قاس ومدمر . أما المرأة فهى التى تعتبر بحق راعية النوع وحارسة الحياة .

## المرأة والحب الأعلى

الفارق الذهنى الرئيسى بين المرأة والرجل هو أن فى وسع الرجل أن يتحرر من سلطان العاطفة ، وأن ينظر إلى العالم بعين العقل المجرد ، وأن يحب العلوم والفنون والفضائل لذاتها ، حباً مطلقاً نزيهاً لا تشوبه المصلحة الشخصية . أما المرأة فكائناً ما كان علمها وثقافتها ، فهى لا تستطيع أن تحب شيئاً حباً صادقاً إلا بدافع من القلب وحافز من النوازع العاطفية . إنها قد تتعلق بالفن ، لا لأن الفن جوهر مثالى مجرد يحمل غايته فى ذاته ، بل لأنه قوة توقظ خيالها الشخصى ، وتخاطب على التو قلبها وروحها أو تلهب عواطفها نحو إنسان معين . وهى قد تستمسك بالفضيلة لا لأن الفضيلة غاية إنسانية مطلقة . بل لأنها قوة تزينها وتحميها وتوثق عرى الولاء والإخلاص بينها وبين الرجل الذى تحبه . وهذا مايفسر لنا تفوق المرأة فى ميدان الفن أحياناً ، وتفوقها فى ميدان الفضائل العاطفية دائماً . كما يفسر لنا ضعفها الظاهر فى ميادين العلم والفلسفة حيث

يسود الفكر المطلق ويتحكم العقل المجرد . على أن هذا الضعف فى المرأة هو سر قوتها . ذلك لأن العالم يعيش بالعواطف أكثر مما يعيش بالفكر ، ويتبع وحى الغرائز أكثر مما يلبى نداء العقل . فالرجل فى ميدانه يتحكم فى الحياة العليا ، والمرأة فى ميدانها تتحكم فى الحياة العامة . ومع ذلك فكلما تثقفت المرأة وارتقت واستعانت بعقلها وإرادتها على التحرر من إسارها وتحطيم القيود التى كبلها بها الرجل ، استطاعت أن تجمع بين العاطفة والفكر ، وأن تطلق الخفى المحتجز المكبوت من ملكاتها ومواهبها . وعندئذ ترتفع وتؤكد قيمتها ، فلا تبسط فقط سلطانها على الحياة العاطفية العامة ، ولا تؤثر فقط فى الرجال وتلهمهم ، بل تشاركهم أيضاً فى إبداع روائع الفكر التى تمثل الحب الإنسانى الأعلى .

## الحب عند العرب

هل وجد الحب بين أبناء الصحراء العربية ؟ . . . هل وجد الحب فى تلك الصحراء الممحلة بين الشمس المتوهجة والأرض القاحلة وقسوة الحياة بين الوهاد والنجود ، ورحلة الصيف والشتاء ، والعصبية الجاهلية وعزة كل قبيل بقبيله وكل إنسان بسيفه ورمحه ، بين الحروب المتواصلة ومطالب العيش القاسية وجفاء الطبيعة بما يشبه القحط ؟ . . .

نعم . لقد وجد الحب فى تلك الصحراء ، عند نبع الماء وفى منعطف الكثيب وظل الواحة والنخيل ، وعلى العشب الأخضر بين حداء الرعاة وغنائهم ، وتحت النجوم البعيدة اللامعة ، وبين الرمال الصفراء المترامية كأمواج المحيط .

هناك بين الخيام والمضارب والطنب كانت تقع العين على العين ، ويعلق القلب بالقلب ، ويلتقى كل خليل بخليلته على الشرف والعفة ولو بَعُد الرقيب .

كان عرب الجاهلية فريقين : فريق الأشراف والسادة من رءوس القبائل ذوى الشوكة والمال والفروسية والأتباع . هؤلاء كان الحب بينهم كما هو طبيعى أن يكون بين قوم مترفين لهم من متاع الحياة والقدرة على ما يكون لذوى المال والسطوة والفراغ والجاه العريض .

والذين يحكمون على حياة العرب فى الجاهلية ، بأنها كانت مقسمة بين الخمر والنساء والحرب ، يصدرون هذا الحكم لما يجدون من هذه الأشياء وحدها فى شعر امرئ القيس ومعلقته وفى بقية المعلقات ، ومن وضوح هذه النواحى الثلاث وحدها وبروزها فى شعرهم ، كأنها قوام حياتهم كلها . ولكن الفريق الآخر — أى سواد العرب — كانت فى حياتهم نساء غير نساء امرئ القيس ، وكان فيها حب غير حب امرئ القيس واستهتاره وتبذله .

كان الشرف عندهم فوق الحب ، والذود عن العرض فوق الحياة . ونحن نرى فيما روى عن حياة الجاهلية وصدر الإسلام عجبًا من الأقاصيص عن الحب والشرف بين بنات العرب وفتيانها حتى لقد كان بعضهم يذبل من فرط الهوى ويموت ، ثم هو لا يبوح باسم من يهوى خشية أن يصيبه أذى من أهله ، بل مخافة أن يذكر اسمه بسوء . . كان الحب عند العرب صادقًا كفجر الصحراء ، طاهرًا كنقطة الندى ، يقظًا محاذرًا كدليل القافلة ، صامتًا كتومًا كغار الجبل ، راسخًا قويًّا كالطود ، عميقًا كنبع الماء فى الصخر الأشم !

وكانت قيود الحياة الاجتماعية شديدة القسوة ، فكانوا إذا عرفوا أن واحداً منهم عرض لذكر فتاة فى حديثه أو شعره ، حرموا عليه زواجها ورؤيتها أبد الدهر ولو كانت من ذوى قرباه خيفة أن يشهر بالفتاة ، ويقال إنه أحبها قبل زواجها وكانت بينهما مظنة ريب . . .

لهذا السبب كان الحب عذريًّا كتومًا . وكان محنة للنفس والروح يشقى بها المحب ويموت بدون الظفر بمن يهوى . ولكن هذا الشقاء كان

عذباً شهياً إلى نفوس عشاق العرب ، لأنهم كانوا يعشقون الشرف أكثر مما يعشقون أحبابهم .وكان شباب العرب يفاخر بعضهم بعضاً بهذا اللون من العشق ، حتى استعلى شباب قريش يوماً على بقية القبائل واشتهروا بأنهم أعشق العرب ، وحتى فاخر بنو عذرة بطهارة عشقهم فنسب الهوى العذرى إلى قبيلتهم . . وكانوا كما قال عروة بن الزبير عن نفسه : « إنى لأعشق الشرف كما تعشق المرأة الحسناء ! » . وكانت نساؤهم تقول كما قالت ليلى الأخيلية فى شعرها المشهور :

وذى حاجة قلنا له لا تبح بها      فليس إليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لاينبغى أن نخونه      وأنت لأخرى صاحب وخليل

ولقد قامت بين العرب حروب ومواقع بسبب هذا الشرف وقداسته . قامت بينهم حرب الفجار المشهورة ، لأن شباباً من قريش وبنى كنانة كانوا ذوى غرام . فشاهدوا امرأة جميلة من بنى عامر محجبة الوجه تحدث شاباً ، فسألوها أن تسفر .

بل هذا امرؤ القيس نفسه ، طرده أبوه لأنه عشق ابنة عمه عنيزة ، وكان له معها يوم ، ذكره فى معلقته ، غير حافل .

وبقى العرب يحبون ذلك الحب العذرى الطاهر ، فتحافظ الفتاة ويحافظ فتاها على شرفها وشرفه كحفاظهم على دمائهم ، حتى جاء الإسلام وجاء محمد عليه الصلاة والسلام فجعل العاشق العفيف من الشهداء . ولقد روى عنه عليه السلام أنه قال : « من أحب فعشق فعف فمات فهو شهيد ! » . وكان عليه السلام يجعل المكان الأول لعواطف الخطيب والمخطوبة ، ولم يجعل للأب ولا للولى أن يزوج فتاة بغير من تريد ، بل كان يرد زواجهما عند عدم الرضا .

ولقد بقى الحب على عذريته وطهارته بين الأعراب فى الصحارى والمدن ، حتى جاءت الفتوح والأموال والغنائم من بلاد فارس والروم ومن

مصر والعراق والشام . فأصبحت بلاد العرب سوقاً مائجة بالأسلاب والجواري ، فلقي أشراف العرب ورءوسهم من هذه الأموال والغنائم ما جرهم إلى ترف الحياة ومفاسد التحضر والنعيم . فظهر العشق الماجن المستهتر الذى اشتهر به عمر بن أبى ربيعة ، والذى نجد أقاصيصه فى مصارع العشاق وتزيين الأسواق وبلاغة النساء ، وما دوّن أبو الفرج فى الأغانى .

هذه القصص ، وهذا الشعر ، وهذه النوادر التى تدور حول أسماء « فَضْل » الشاعرة ، و « عبيدة الطنبورية » ، و « حبابة » وذات الخال ، وعشرات من أمثالهن ، لا تدل فى شىء على حب العرب وما عرف به من طهارة وعفة ، بل تدل على مجون الموسرين وعبثهم ، والأغنياء مع جواريهم اللاتى كن يشترين ببدرات الذهب ،ويجلبن من أسواق العبيد . والواقع أن حب العرب هو ذلك الحب الشريف الذى نجده بين قيس المجنون وليلاه ، وبين كثير وعزة ، وبين جميل وبثينة .

ومما يذكر عن قيس أنه بعد أن منع ليلى ، وبرّح به حبها حتى أصاره رجلا تالفاً مشرّد العقل مشوّش الذهن ، كان لا ينفك عن ذكرها ، وترديد شعره فيها ، وندائها فى الليل والنهار ، فلما جاءته تطرق باب خيمته لم يجب ولم يلتفت إلى الطارق لأنه كان مشغولاً عنه بالتفكير فى ليلى !.. وكذلك نجد فى أقاصيص العرب أمثلة عليا فى وفاء المحبين وإخلاصهم وثباتهم .

ولم تكن قسوة الحياة فى الإسلام ، ولم تكن سطوة المجتمع على مثل ما كانت فى الجاهلية . فرأى علماء الإسلام فى هذا النوع من الحب لونا من ألوان العبادة كما قال بعضهم . فكانوا يشفقون على أبطاله ، ويقوم الأشراف بالوساطة والشفاعة حتى يزوجوهم بمن أحبوا .

فمن هذا الحب الشريف ، ومما كان يسود المجتمع الإسلامى بعد الصدر الأول ، ظهرت الصوفية . وهى نوع من الحب ازدهر أول الأمر فى قلوب العاشقين الأطهار ، ثم تطور ونما وتطلع إلى الحب الأعلى ، أى إلى حب الله !

# فى قيمة الثقافة

## امتياز الإنسان

لا امتياز للإنسان إلا بثقافته .

إنها هى التى تشركه ، وهو الحى ، مع كل ما خلف العقل الإنسانى من تراث .

هى التى تصل بينه و بين ما هو أعلى من حظه البشرى .

هى التى تحرره من ربقة جسده كى ترده إلى أصله الأزلى .

هى فى الحقيقة حب أمثل يملأ فراغ نفسه الظمأى بأكثر مما يمكن أن يملأها أى حب دنيوى .

هى خلوده قبل موته ، هى الفردوس الذى تصبو إليه روحه قبل أن يفنى منه الجسد .

## لن تزهد أبداً . . .

قد تزهد فى كل شىء . فى أروع أسباب الترف ، فى أجمل وأفتن امرأة . ولكنك إذا أحببت الفكر فلن تزهد فى الفكر أبداً . ذلك لأن الفكر عشيقة فذة سماوية ، دائمة التشكل والتجدد ، أبدية الحرارة والشباب .

## بين الرغبة والمعرفة

الإنسان فى الغالب لا ينظر إلى الأشياء إلا بعين الرغبة . ولكنه لن يرتفع إلا إذا نظر إلى الأشياء بعين المعرفة .

فالرغبة تستعبدنا ، أما المعرفة أى الثقافة فتحررنا ، وتجعلنا ننظر إلى ما يكمن خلف الرغبة من وهم باطل قد يقضى علينا ، أو من حافز يدفعنا إلى طريق فيه الخير والعزة للغير ولنا .

## حضارة وثقافة

لاحضارة بالمعنى الصحيح إلا إذا اقترنت بالثقافة . وقد تكون الأمة متقدمة من الوجهة المادية أي من حيث التنظيم الاقتصادى والرقى الاجتماعي . ولكنها لن تكون حقًّا متحضرة إلا متى اقترن رقيها المادى برقى فكرى ووجدانى يتمثل فى ارتفاع ثقافة أفرادها وفى إقبالهم النزيه على التزود من روائع الآداب والفنون والعلوم .

فإذا ظل الفرد فى مثل تلك الأمة ، يتبرم بالاطلاع المتواصل والتثقف الدائم ، ويكتفى بما أحرز من شهادات ، وينظر إلى الثقافة نظرة مصلحة مجردة ويتخذ منها وسيلة من وسائل الارتزاق أو الوجاهة الاجتماعية ، فهذا الفرد لا يجمد وينحط فقط ، بل يؤخر رقى أمته ، ويهدد حضارتها المادية ، ويجعل من هذه الحضارة شبه عمارة شاهقة ، تأخذ العين ضخامتها . ولكنها لا تنهض فى الواقع إلا على رمل وتراب .

## الشخصية والثقافة

الإنسان موزع النفس ، مشتت الشخصية . فهو تارة يحس أنه طيب ، وتارة يحس أنه شرير . بل هو يحس فى بعض الأحيان أنه طيب وشرير فى الوقت نفسه ، وأن العاطفة الصالحة التى تخامره الساعة لا تلبث أن تقترن بعاطفة سيئة قاهرة ، وأن العاطفتين تتجاوران وتتحدان فى منطق سرى يحيره ويذهله ، وتتكسر حياله رغبة الخير التى ينصحه باتباعها صوت ضميره . فهو من عواطفه فى حرب دائمة ، يحاول أن يفهمها ويحكم الصلة بين أسبابها ودوافعها ، ويرجع بهذه الأسباب والدوافع إلى مصادرها ، خشية أن يتخبط ويرتطم ولا يبصر غير فوضى وظلام .

فحياته تشبه سيلا جارفاً غير منظور ، وإحساساته وميوله تشبه مياهًا متدفقة ، منحدرة من جوانب مجهولة لتتوزع فى طرق متضاربة ومجهولة

أيضاً ، وشخصيته تشبه مجموعة من طيور عجيبة تتنقل من غصن إلى غصن ومن جو إلى جو ، ولها فى كل غصن حياة ، وفى كل جو شقاء مستقل أو سعادة مستقلة .

فالثقافة هى التى تنقذ الفرد من هذه الفوضى ، أى من التوزع والتشتت الكامنين فى طبيعته . وهو كلما أقبل على شتى الآراء التى تزخر بها أعمال كبار رجال الفكر ، وكلما أنعم النظر فيها ، وفاضل ووازن بينها ، واستخلص منها بمجهوده الذاتى حقائق يرتاح إليها عقله وينمو بها ذهنه ، عندئذ تصبح شخصيته ثمرة جهاده . فيستطيع أن يغالب توزعها ، ويقر فيها النظام قدر الطاقة ويقهر الفوضى ، وينزع بها إلى التماسك والترابط والوحدة ، بحيث تستحيل إلى قوة قادرة على فهم الحياة ومعالجة أحداثها وفق آراء فحصها العقل ولمس نتائجها الفعلية فى الواقع اليومى الحى .

فمثل الإنسان تجاه ذاته والعالم كمثل رجل وُلد فى بهو قصر عظيم أقفل كل باب من أبوابه بقفل خاص . فأبواب هذا القصر المغلقة هى أسرار النفس والعالم . والرجل إن لم يوفق إلى صنع مفتاح لكل قفل و باب ، عاش فى بهو ذلك القصر أسيراً ولم يستطع أن يمتلكه وينعم بما فيه . أما لو نفض عن نفسه غبار التبلد ، واعتزم الانطلاق من ربقة جسده وحيوانيته وألهب فى كيانه شعلة الفكر والروح ، فالثقافة لابد أن تحرره من إساره ، فيفتح بكل معرفة باباً ، ويكشف بكل معرفة سرّاً ، ويصبح هو سيد القصر فى مقدوره أن يبسط سيادته وسلطانه على نفسه والعالم .

## الثقافة والحافظة

لا تثمر الثقافة بقوة الحافظة بل بقوة الفكر . ونحن لن نتعلم شيئاً مذكوراً إلا إذا طرحنا كل ما حفظناه . وأنت لن تتقدم خطوة واحدة فى دراسة شىء معين إذا نظرت إلى هذا الشىء بالعين التى ينظر إليه

بها غيرك أو التى تعلمت أن تنظر بها أنت إليه . فلكى تفهم هذا الشيء تماماً يجب أن تنعم النظر فيه كأنه كان مجهولاً منك وكأنك تراه الآن لأول مرة . وهكذا تصبح أنت والشيء تجاه فكرك فقط . فيتقد فيك الفكر المستقل ، فتستطيع أن تبدع الجديد الفذ متغلباً على المحافظة وما تخلف فيها من رواسب كل فكر دخيل وشائع .

ومع ذلك فينبغى أن تذكر أن آراءك الخاصة التى استخلصتها من ثقافتك لايمكن أن تكون آراء فاصلة وقاطعة مهما بدت لك سليمة وعميقة . فاحذر نشوة الثقافة وما تولده فى النفس من كبر واعتداد ، واستمع لآراء غيرك حتى ولو كانوا من متوسطى العلم والذكاء . إذ من يدرى فقد يكون متوسط العلم أو الجاهل ذا بصيرة مشرقة تنبثق منها فى مثل لمح الطرف أروع حقيقة ، فيفضى احتقارك لذلك الجاهل أو المتوسط العلم إلى عكس ما تنشد فى الثقافة من سماحة عقل وتواضع فكر واستزادة معرفة ، أى إلى المكابرة والعناد ورذيلة التعصب الشائنة المزرية .

## بين العقل والعاطفة

إذا راقك رأى من الآراء ثم أردت أن تتقى الخلط بين فضيلة التمسك بالرأى ورذيلة التعصب للرأى ، فافهم أن التمسك بالرأى أو المبدأ يجب أن يكون قوة إيجابية تنبع من عقلك وثقافتك لتستقر فى عاطفتك ، لا قوة سلبية مفتونة تنبع من عاطفتك لتستقر فى العاطفة نفسها .

فبقدر ما يشترك عقلك المثقف فى تكوين مبدئك ، تتجلى فيك القدرة على التمسك بهذا المبدأ والقدرة على العدول عنه فى تسامح ورحابة صدر متى اقتنعت بأن مايناقضه هو الحق .

وبقدرما تشترك عاطفتك فى تكوين مبدئك ، يرسخ هذا المبدأ فى وجدانك على أساس الباطل والتعنت . ذلك لأن العاطفة المجردة تؤخذ

بالظواهر وقل أن يتعمق أصحابها البحث فى حقائق الأشياء .

## فكرة ثابتة

الإفراط فى التحمس للرأى قد ينقلب إلى تعصب . والتعصب إذا استفحل جعل من الرأى فكرة ثابتة تحتل عقل مجنون .

## مطلق ونسبي

إذا تعلقنا بالحقائق المطلقة ، فذلك قد يهبنا الطمأنينة وراحة الذهن . ولكن هذه الراحة نفسها تحجب عنا وجه الدنيا ، وتجعل منا عبيداً لتلك الحقائق المطلقة الماثلة فى كل ما هو شائع ومألوف .

أما إذا نظرنا إلى الحياة على أن لا حقيقة فيها ثابتة ومطلقة ، وأن كل ما فيها متغير ومتناقض ونسبي ، يحمل سلسلة من الحقائق مختلفة ومتحركة ، ثم جاهدنا ما استطعنا كى نخرج من كهف راحتنا ومن جو الطمأنينة الذى يخنقنا ، ونحاول أن نفكر ونتأمل وننعم النظر فى الحقائق المتباينة المتعارضة ونحتضنها ، عندئذ نحس أن جوهرنا البشرى قد استيقظ فينا ، وأننا لم نعد مستعبدين لحقيقة واحدة مطلقة ، وأن كلاً منا إنسان متحرك وقوى وحر ، وأن طبيعتنا نفسها كما يقول « بسكال » تكمن فى الحركة ، وأن راحة الذهن بالنسبة لنا هى الموت .

## الجداول والأنهار

الفارق بين الإنسان السطحى والإنسان المثقف كالفارق بين الجداول والأنهار . الجداول الصغيرة تثرثر ، أما الأنهار الكبيرة فصامتة . والواقع أن ظاهر الحياة هو الذى يجذب الناس . ولذلك يتفوق السطحيون الثرثارون ، أما المثقفون حقاً فهم كالأنهر الكبيرة ، وسطحهم صامت بارد لا يجذب لأن حرارتهم تكمن فى الأعماق .

# فلنفتح جميع النوافذ

نحن فى الشرق العربى مازلنا نعيش خاضعين لعدد معين من الثقافات الأجنبية ، يحتل عقولنا ، ويسيطر على عواطفنا ، ويصدر عنه وحى تفكيرنا وإحساسنا .

فالذى تثقف منا ثقافة إنجليزية يمجد الروح السكسونية ، والذى تثقف ثقافة فرنسية يشدو بالعبقرية اللاتينية ، والذى أحرز قسطاً وافراً من ثقافة الألمان أو الروس يسخر بالثقافتين المتقدمتين ويقدس العقل الجرمانى والروسى .

فكل فرد من هؤلاء يتجه فى حياته ومنزعه اتجاهاً خاصاً ، ويحاول أن يطبع فكره وأعماله وجهوده بطابع تلك الثقافة الأجنبية التى تشربتها نفسه .

ولقد ترتب على هذا أن نشأ بيننا نوع من التعصب لثقافة أمة دون أمة ، يهدد وحدتنا المعنوية ، ويوسع مسافة الخلف بين أفراد شعبنا ، ويضعف إحساسنا بشخصيتنا المبدعة المستقلة .

بيد أن حضارة اليوم أصبحت عالمية ، وثقافة اليوم أصبحت عالمية أيضاً . فواجبنا الآن ونحن نشترك فى هذه الحضارة التى هى وثيقة الصلة بتراثنا ، والتى نريد أن نضيف إليها المستحدث الطريف من مولدات عبقريتنا ، واجبنا أن نقتدى بأقطابها ، وأن نقدس الفكر نفسه لا الفكر ممثلاً فى ثقافة معينة .

وأما ثقافتنا العربية العريقة فينبغى أن نحرص عليها ، ونعمل على إحيائها ، بدون أن نعرقل تقدمنا بدعوى أن الحفاظ على القديم هو الذى يصون قوميتنا . إن الانطواء يقتل القومية ولا يبعثها . فإذا انطوت الثقافة العربية على نفسها ، قيدت عقولنا ، وأخمدت مواهبنا ، وباعدت بيننا وبين تطور الفكر والعالم .

وإذن فلا اكتفاء بأية ثقافة ، ولا تعصب لأية ثقافة ، بل اتجاه نحو ثقافة عالمية شاملة ، واسعة الأفق رحبة الفسحات تستمد قواها من مخلفات الفكر فى شتى الأمم كى تنحدر وتنصب آخر الأمر فى الطينة المصرية العربية والمحيط المصرى العربى ، تعزيزاً لعبقرية المصريين العرب ، وإقراراً للانسجام المعنوى بين أفرادهم ، ومضاعفة لإحساسهم بشخصيتهم المميزة وخصائص كيانهم المستقل .

ولقد كان الغرب نفسه فيما مضى يعيش على الثقافتين : الإغريقية واللاتينية ، ولكنه أدرك أن ثقافة البحر المتوسط ليست هى كل شىء فى العالم ، وأن هناك ثقافات عديدة أخرى هى فى الواقع أجزاء متفرقة عظيمة من تراث الفكر البشرى الخالد . فأسرع مفكرو الغرب وأقبلوا على تلك الثقافات ، واغترفوا منها ، وأدمجوها فى ثقافتهم وأضافوا إليها ثقافة العلم التجريبى الحديث الذى تمتاز به حضارتنا .

وهكذا أصبحت الثقافة الآن نظرية وواقعية ، تجريدية وعلمية ، محلية وعالمية .

فالرجل العصرى المثقف حقًّا هو الذى يقرأ فى الفلسفة من أفلاطون إلى هيدبجر ، وفى الأدب من الأغارقة إلى شكسبير وجيته وبالزاك حتى بروست وجويس ، ويقرأ أيضًا مخلفات الفكر عند الهنود واليابانيين ، ويحاول فى الوقت ذاته أن يفهم « أينشتاين » وأن يقف على أسرار الكون والذرة كى يتصل بعصره وبالحقائق الأخيرة التى كشف عنها العلم .

فالغاية المثلى هى اقتران الثقافة النظرية الشاملة ، بالثقافة العلمية المتجددة الراهنة .

وليس لنا أن نقارن ونفاضل بين هاتين الثقافتين . فكلتاهما تنبع من مطالب عميقة وأصيلة فى الكيان البشرى وضرورية لارتقائه . فالثقافة النظرية من فلسفة وأدب وفن تخاطب عقل الإنسان وقلبه ووجدانه وروحه ، والثقافة العلمية التجريبية تخاطب عقله كى تسخر له الطبيعة ،

وتحكم الصلة بين واقعه ودنياه وعصره ، فقيمته كامنة فى الجمع بين الثقافتين . أما إذا غلب فى نفسه الثقافة النظرية الخالصة ، فهو لا بد أن يصبح مخلوقا متأملاً حالماً شعرياً خيالياً مقطوع الصلة بواقعه وعصره. وإذا اكتفى بالثقافة العلمية المجردة ، فهو لابد أن يصبح مخلوقاً عملياً جافاً ، ينظر إلى الكون فى ضوء ما يمكن أن يحققه العلم من مصلحة فقط . فيحبسه الواقع فى سجنه المادى ، وقد يميت فيه آخر الأمر كل حاسة وجدانية عليا .

وأنا أعتقد أن لا مفر لحضارة المستقبل من أن توفق بين الثقافتين ، وتتجه نحو ابتداع إنسان جديد . وهذا الإنسان الجديد سيجمع بين الأدب والعلم ، بين الثقافة والصناعة ، بحيث نستطيع أن نتمثله منذ الآن فى شخصية عامل ميكانيكى يقود قطاراً كهربائياً وهو فى أعماق نفسه يتغنى بأشعار هوميروس التى تمجد سرعة فرسان طروادة . . .

فإلى هذه الثقافة الشاملة التى تقرن الفكر بالعمل ، والخيال بالواقع ، والروح بالمادة ، يجب أن تتجه جهودنا مع احتفاظنا بتراثنا الفكرى ، وبطابعنا الخاص ، وجوهر شخصيتنا الطامحة .

## تفاعل الثقافات

الإنسان هو المخلوق الفرد ذو الباطن المتفتح على العالم . فإذا تخصص فى علم واحد أو فن واحد ، وأغفل النظر فى بقية العلوم والفنون ، ولم يدرك أن المعارف مترابطة والثقافات متجاوبة لا تنفك تتفاعل ويؤثر بعضها فى بعضها الآخر ويكسبه قوة ورحابة وعمقاً ، فذهن ذلك الإنسان المحصور فى دائرة معينة لابد أن يفقد تفتحه الثمين على العالم ، وضيق ثقافته لابد أن يهبط بمستوى العلم أو الفن الذى انقطع له . فيمسى على حد تعبير « مكس شلر » أشبه بالحشرة الزاحفة فى اتجاه واحد والمتخصصة فى عمل واحد ، تقنع بحظها ، وتهجس غريزتها فى روعها أن دنياها المغلقة الرتيبة الكثيفة هى الدنيا .

## ثقافة الحياة

المجهول هو الذى يمدنا بثقافة الحياة . ولا سبيل إلى ثقافة الحياة إلا بالتجربة والمغامرة . فكل تجربة تمر بها ، بل كل مغامرة تقدم عليها ، لابد أن تصطدم فيها بمجهول لم يكن فى حسبانك أبداً . وعندئذ وتجاه حوادث المجهول ، تختبر أنت نفسك . وتمتحن قواك وتتمرس بحقائق المجهول التى هى حقائق الحياة .

فاغترف من ثقافة الفكر ما استطعت ولكن لا تضع الثقافة فوق الحياة ، وإلا ألفت العزلة فى نشوة المطالعة والتأمل ، فاستبدت بك هذه النشوة المستكبرة ، وألقت فى روعك أنك قد عرفت كل أسرار المجهول ، وأنك أصبحت معفى من أن تجرب وتختبر وتغامر وتعيش .

فاهرع إلى العزلة فى فترات تستكمل فيها ثقافتك . ثم اخرج إلى العالم واذكر على الدوام أن أصداء العالم لن تتجاوب فى كيانك إلا إذا كنت بقرب إنسان . وأنت لو لاحظت العصافير ، لرأيت أن منها من لا يمعن فى تغريده إلا إذا كان هو الآخر بقرب إنسان .

## المثقفون والحرية

شرط الثقافة هو الحرية . والمثقف المحروم من حرية الفكر وحرية الاعتراض ، يحس أن لا قيمة لمواهبه ، ولا جدوى من وجوده . فينسلخ شيئًا فشيئًا عن إنسانيته ، ويظل يدور حول نفسه فى فراغ خانق ، ثم يثيره هذا الفراغ فيتهالك على نفسه ويحرقها حرقًا إما فى التواكل والاستهتار ، وإما فى الجنس أو فى الكحول .

## الثقافة للشعب

الثقافة يجب أن تستلهم الشعب ، وتشق الطريق لخدمة الشعب .

والمثقفون هم الذين ينبغى أن يتقدموا الصفوف ، ويبرزوا فى الطلائع ، ويذودوا عن الحرية ، ويدافعوا عن المكاسب التى أحرزها الشعب ، ويحموها بصدورهم ، ويبذلوا فى سبيلها كل مرتخص وغال . وما قتل الأمم الكبيرة غير جبن المثقفين ، وأنانيتهم وتسخيرهم ثقافتهم لخدمة مصالحهم على حساب الشعب وفى ظل النفاق .

## نحو رقى عام

كل أمة لا ترتقى مختلف طبقاتها بنسب متعادلة ، بل تستأثر فيها بعناصر المال والثقافة طبقة دون طبقة هى أمة مضطربة مزعزعة ، كائناً ما كان رقى خاصتها وتحضر طبقاتها العالية .

فالطبقة العالية فى أية أمة تستطيع حصر السلطة فى نفسها كما تستطيع بفضل أموالها تعليم أبنائها ، والأخذ بأسباب الحياة الراقية المتمدينة . ولكن حضارة الأمة فى مجموعها لا يمكن أن تقاس بنسبة الرقى الاجتماعى والفكرى والمادى الملحوظ فى طبقتها العالية .

ولقد كان عصر لويس الرابع عشر عصراً ذهبياً ، ولكنه كان عصر حضارة أرستقراطية نهضت بها طبقة واحدة ، فلم يشعر سواد الشعب أن تلك الطبقة فكرت فيه أو عملت على إسعاده أو سعت لإشراكه فى النعيم المادى والمعنوى الذى كانت تمرح فيه .

والواقع أن الأمر كان على النقيض ، فقد استقلت تلك الطبقة العالية بحضارتها ، واعتزت بثقافتها ، وضاعفت مالها من امتيازات وثروات ، فقوضت بأيديها دعائم النظام الأرستقراطى ومهدت للثورة الفرنسية الكبرى .

## لا تحزن

إذا تثقفت وكانت لك مواهب وأردت أن تبدع أعمالاً فكرية باقية ،

فاعمل جاهداً وأنت تنشد الكمال ، ولكن لا تطلب خصوبة الإنتاج مقترنة بكماله . لا تعتقد أن النابغة الخليق بهذا الاسم هو الذى تتوافر فى جميع أعماله شروط الكم والكيف ، أى كثرة الإنتاج وروعته فى الوقت نفسه . إن الجمع بين الخصوبة والروعة على الدوام أمر لا تقبله الطبيعة . إذ الروعة فى محيط الفكر كالروعة فى محيط الطبيعة لا تتم إلا على حساب الكثرة فى عدد الوفيات .

وكما أن الطبيعة تقسو على المرأة المخصبة فتُفقدها فى الغالب بعض أولادها كى يعيش الباقون على حسابهم ، كذلك تقسو الطبيعة على النابغة أو العبقرى فتفقده الكثير من أعماله كى يعيش الصالح منها فقط على حساب الأعمال الميتة .

فلا تحزن على ما يمكن أن يموت من أعمالك ، وامض فى العمل متجهاً بروحك صوب الكمال ، تبدع فى حُمى الخلق والإنتاج عملك الكامل الذى لابدّ أن يعيش على حساب أعمالك السالفة التى لم تكن فى الواقع غير قوى متعثرة متخبطة تتلمس طريقها نحو الكمال .

## المتعة المثلى

البحث عن الحقيقة أمتع من الاهتداء إلى الحقيقة ، والمجهود المتواصل أمتع من النجاح ، والحب الذى نهبه أمثل من الحب الذى نتلقاه .

## المعبود الجديد

الثلاجات والغسالات والمواقد والمكانس والمطابخ الكهربائية والتليفزيون ولا سيما السيارات ، أى « الآلة » ، الآلة التى أوجدتها الحضارة لخدمتنا ، أصبحت هى اليوم معبودنا الجديد ، نتنافس على اقتنائه ، ونفخر بحيازته ، ونكاد فى حرصنا عليه أن نقدسه ونحرق عند قدميه البخور .

نحن نؤثر أن ننطلق فى سيارة أو نمكث الساعات تجاه التليفزيون

على أن نقبع فى ركن ونهدأ ونتثقف ونقرأ فى كتاب .

فالتهافت على امتلاك الآلة ، بأية وسيلة ، يوشك أن يخمد فينا شعلة الفكر والقلب والروح ، ويجعل من حياتنا المعنوية صحراء .

ومتى استحالت حياتنا المعنوية إلى صحراء ، فمعبودنا نفسه يصبح ملاذنا الأوحد . فنشتد فى التهافت عليه ، ونمعن فى الاندماج فيه . فتتشوه وجوهنا ، وتمسخ طباعنا ، ونستفيق ذات يوم وإذا بكل منا ، وقد تحول فجأة وتبدل ، ينقلب إلى آلة صغيرة ، لامعة وجامدة وصماء ، وشبيهة أعجب الشبه بذلك المعبود الجديد .

## الثقافة والإرادة

. . . فإذا شئنا أن نرتد إلى إنسانيتنا ، وأن نظل ونحن نستخدم الآلة مسيطرين عليها ، ومتجهين بالثقافة إلى مايسمو بالجانب المعنوى النبيل فينا . فعلينا أن نضع نصب أعيننا حقيقة من الأهمية بمكان عظيم . وهى أن لا ثقافة بدون منهج ، كما أن لا إرادة بدون منهج . وأنت مهما حاولت فلن تثقف أبداً عقلك ولن تظفر بقسط وافر من العلم والأدب والفن ، إلا إذا كنت قد اخترت من مختلف المؤلفات العالمية ما أجمع كبار النقاد على كماله ، ثم استنهضت ما استطعت إرادتك ، ورسمت لك بالعزم والإرادة منهجاً معيناً للمطالعة ، على أن يكون ذلك فى أناة وصبر وتأمل فاحص دقيق .

فالنزول على حكم المنهج والمثابرة عليه والاستمرار فى تنفيذه ، فضائل نفسية وخلقية تضاعف من قوة إرادتك ، وتضاعف فى الوقت ذاته من ظمئك إلى المعرفة وولعك بالتثقف ، فيصبح حب المعرفة والتثقف عادة فيك ، فتتطور هذه العادة على مر الزمن وتصبح جزءاً أصيلاً من طبيعتك . وعندئذ تشعر أنك قد امتزت وارتفعت ، وأنك حقاً تعيش بما يجدر أن يعيش من أجله إنسان .

## البيت هو المنبع

البيت هو منبع الثقافة ولا ثقافة إلا فى البيت المنظم الهادئ الذى يمكن أن يحبب إلى الفرد حياة الفكر .

فإياك أنت المثقف أن تختار امرأة جاهلة أو ناقصة التعليم أو محبة للظهور ومفتونة بأسباب الترف ، وتقترن بها مدفوعاً بعامل المصلحة أو مسوقاً فقط بنداء الجنس . إنك لو تهورت فلا بد أن تندم وتشقى ، إذ مثل هذه المرأة قد تأخذك فى شبكة أنوثتها ، وتزين لك الحياة على غرارها . فتنزلق أنت وتعيش فى عالمها ، فتختنق فيك نوازعك العليا ، ويتقلص من نفسك كل ميل جاد إلى الثقافة والفكر . إن فى كل رجل جانباً أنثوياً ما يفتأ يغالب جانب الذكورة فيه . وهذا الجانب الأنثوى قد يدفعه إلى التشبه بالمرأة الشائعة فى الولع بالمحسوسات ، والنفور من الفكر وتطلعاته الكبرى ، والنزوع إلى الطمأنينة فى ظل التمتع الرخيص . فإذا أردت أن تحرص على امتيازك المعنوى الذى فيه قيمتك ، فاحذر ذلك الجانب الأنثوى الغادر الكامن فيك . ثم اعلم أنك لن تحيا أبداً بجزئك الأعلى إلا إذا ترفعت فى زواجك عن كل غرض مادى وضيع ، واخترت امرأة أقرب ما تكون إلى مستواك الذهنى . ومتى اخترتها فابذل قصاراك فى أن تدفعها إلى التثقف مثلك ، وأن تلهب فيها شعلة العقل والفكر . وهكذا تحررها ولو من بعض ما يمكن أن يكون قد تخلف فيها من غرائز الأنثى . فتحس هى أن فى العالم أشياء غير العلاقة الجنسية والمظهر الاجتماعى وحب الترف والتهالك على الموضة ، أشياء عظيمة جديرة بأن تشاركك فى الاهتمام بها ، حرصاً على كرامتها وحرصاً عليك ، وترضية وإمتاعاً للجانب المعنوى من نفسك ونفسها . وأنا أعتقد أن المرأة المتعلمة تقبل على الفكر مختارة إذا أحست أن زوجها حقاً يحبها ويريد أن يرقى بها . ولكن الملاحظ أن الزوج هو الذى يأبى فى الغالب إلا أن تظل زوجته محض أنثى ،

ترقص له رقص « الغوازى » ، فيفرح بها ثم يسأمها ، ويقول إنها تافهة ، وإنها رخيصة لا تعرف أن تكون غير راقصة وأنثى ، فارتفع بشخصية زوجتك ولا تحتقر عقلها . إن احتقارك عقلها وفكرها هو الذى يضاعف من حدة غرائزها . ويبقيها مغلولة فى سجن فطرتها ، لا تؤمن بغير العلاقة الجنسية ولا تستطيع أن تتحرر أبداً منها . وهكذا تنفصل هى عنك ، وتحتقر بدورها أفكارك وشواغلك . فتستفيق أنت بغتة وإذا بك فى بيتك وبقرب امرأتك تعيش فى عزلة روحية خانقة فتهجر بيتك ، وتفر من امرأتك ، وتتشرد فى الشوارع والمقاهى .

على أن امرأتك نفسها ، امرأتك المتعلمة التى أشركتها فى ثقافتك يجب أن تحذر تلك النزعة الوبيلة المصابة بها بعض المثقفات ، أى نزعة الإسراف فى النقاش والجدل ، والإسراف فى المعارضة والمكابرة ، واستخدام ذكاء الفكر وفن الكلام لا فى البحث عن حقيقة أو الحرص على مصلحة أو السعى لفض نزاع ، بل فى الاعتزاز بالنفس ، والرغبة فى إثبات الشخصية وتوكيدها على حساب كرامة الزوج . هذه النزعة التى تولدها الكبرياء وتفضى ولا ريب إلى تلك المنازعات البيتية المروعة التى تخنق كل ميل متعطش إلى الثقافة والفكر .

فهذب بالفكر نفسك وامرأتك ، واجعل من بيتك منبع ثقافتك ، وأشرك فى الثقافة أيضاً أولادك ، ثم خذ بوسائل ضبط النسل بحيث لا تعقب من الأولاد أكثر من اثنين وإلا استحال بيتك إلى حظيرة ، واستحال عليك أن تحسن تربية أولادك ، وعجزت أيضاً عن المطالعة والتثقف فى بيتك .

فاعرف قبل كل شىء كيف تصنع مستقبلك وكيف تبنى زواجك وبيتك على العقل والقلب والخلق ، لا على المصالح والمظاهر والشهوات .

## إياك . . .

إياك أن تعشق صفحة السماء الناصعة فيشغلك جمالها عن دورة الأفلاك .

إياك أن تنام تحت أشعة الشمس فتستمرى الدفء ولا تفكر من أين يأتى الشعاع .

إياك أن تتنشق عبير زهرة وأنت لا تعرف اسمها .

إياك أن تعجب بجمال الأشجار وأنت لا تفكر فى حظ الطيور التى تغرد عليها .

إياك أن تطمئن إلى النظرة الساحرة إلا إذا أيقنت أنها ليست غادرة .

إياك أن تحدق إلى أى وجه إلا إذا حاولت أن تمزق عنه القناع .

هذا التحرر من الخديعة النابع من الظمأ إلى المعرفة هو العذاب . ولكن مجد الإنسان كامن فى نصب قامته وتحمل هذا العذاب !

# فى قيمة الأدب

## حافز الأديب هو القلق

القلق أبرز الخصائص فى شخصية الأديب الحق ، إذ هو إنسان لا يطمئن أبداً إلى صحة الفكرة أو الاتجاه أو المنزع الذى خيل إلى الناس أنه قد آمن به واستقر عليه .

وهو فى هذا شديد الشبه برجل العلم . وكما أن العالم يظل مخلصاً للنظرية العلمية حتى تدعوه التجربة إلى نقضها واستبدال غيرها بها ، كذلك الأديب يظل مخلصاً لاتجاهه الفكرى أو العاطفى حتى تدعوه تجربة جديدة إلى نقضه والتحول عنه إلى سواه .

فخاصة القلق ، ونزعة التقلب ، وشهوة التجربة هى طبيعة فيه . ونحن لو طالبناه بالثبات على اتجاه فكرى أو عاطفى معين ، لضيقنا آفاق حياته ، وأقمنا فى وجهه الحواجز والسدود ، وعطلنا نمو مواهبه ، ورجعنا بالتطور الثقافى القهقرى .

وقد يستنكر البعض هذا التقلب فى شخصية الأديب ، ويعده شذوذاً فى الطبع والمسلك . ولكن هذا التقلب المحفوف بالقلق والنابع من إرادة المعرفة ومن الرغبة العميقة فى النفاذ إلى جوهر الأشياء ، هو الوسيلة الوحيدة لخدمة الفكر والفن وفهم الحياة ، إذ الحياة نفسها لاتفتأ تتقلب ، والأديب الحق هو انعكاس دائم لتقلب الحياة .

والواقع أن الأديب يتعذب بهذه النزعة المتأصلة فيه . يتعذب لأن حياة الناس تميل بهم إلى الثبات والاستقرار وتجنب الإقدام على التجارب المريرة الكبرى ، وحياته هو تدفعه إلى اقتحام تلك التجارب ولو خالف ما اصطلح عليه الناس واصطدم بهم وتعذب .

بيد أن عذابه هو العذاب المخصب الخالق الذى يجدد نظرتنا إلى

الدنيا ، ويبدع لنا مادة بكراً من حقيقة وجمال ، فيها قيمة الأدب لأن فيها صور التقلب والتعدد الماثلة فى الحياة .

فالثمرة التى نجنيها من عذاب الأديب ماثلة فى عمله ومستقطرة من خالص دمه ، تشفع لقلقه وتقلبه وحريته ، وتضطرنا إلى التجاوز عما نلحظه فى أخلاقه من غرابة وشذوذ .

وبعد فماذا يهمنا من شذوذ أخلاق الأديب إذا كان عمله جميلاً . ماذا يهمنا من السماد إذا كانت الزهرة جميلة . الأديب لا يستطيع أن يعطى إلا على قدر ما أخذ . وهو لن يكون عبقرياً إلا متى شابه أمه الأرض ، الأرض الأبدية التى تهضم كل شىء لتخرج أبدع الأشياء .

## بين النبوغ والعبقرية

ما الفارق فى الأدب بين النبوغ والعبقرية ؟ . . . الفارق ولاريب جوهرى .

فالأديب النابغ شىء ، والأديب العبقرى شىء آخر . الأديب النابغ يحاول الإبداع ولكنه يحرص على تراث الماضى ، ويترسم فى الغالب خطوات من سبقوه ، ويخشى الطفرة الثائرة ، ويبذل قصاراه كى يخلق ويبدع دون أن يزعزع الأصول الفكرية والفنية التى ثبتت على الزمن والتى هى فى عرفه مقياس الكمال .

ولا شك أن مثل هذا الأديب النابغ هو الذى يحرس مخلفات أمته ، وهو الذى يسهر على تراثها الثقافى ، وهو الذى يغذى هذا التراث بما يؤكده ويدعمه . وقد يأخذ الأديب النابغ فى الوقت نفسه بمبدأ التطور ، ولكن بشرط أن يكون هذا التطور تدريجياً لا يتحول إلى انقلاب شامل يهدد القواعد والأصول .

فإبداع النابغ مقيد ومحدود ، أما إبداع العبقرى فحر ومنطلق . إذ قوام شخصية الأديب العبقرى هو الوثبة والاستحداث والتجديد .

التجديد لا فى الفروع بل فى الأصول ، ولا فى العرض بل فى الجوهر ، ولا فى ما اصطلح عليه الناس وألفوه بل فى ما يتقدم عصرهم ، ويتجاوز حدود تفكيرهم ، ويرسم لهم طريقاً فى فهم الحياة والتعبير عنها لم يكن فى حسبانهم .

ومع ذلك فالعبقرية ولا ريب شىء نادر . وليس فى وسع كل أديب أن يكون عبقرياً . ولكن فى وسع كل ذى موهبة أن يتأثر خطى العبقرى ، ويستلهم عناصر العبقرية وخصائصها ، كى يغالب ما استطاع مؤثرات القديم ، ويبدع ولو فى أفق محدود أدباً جديداً ، يضيف إلى التراث الثقافى نغمة شخصية مستقلة ، تعبر عن فكر الأديب النابغ ووجدانه ومشاعره ، تعبيراً فيه الصدق والحرارة لأن فيه انتفاضة حية وفيه تطلع إلى استكشاف عالم مجهول .

## شخصية العبقرى

لم تكن العبقرية أبداً تخصصاً محدوداً أو ثمرة من ثمرات الممارسة والإجهاد والصبر الطويل .

ما العبقرية إلا نظرة نسرية هابطة من عل ، تستطلع وتقتنص فى لحظة ما قد لا يجمعه النبوغ فى سنين من العمل والكد . إنها تستشعر الحقيقة المستخفية الجديدة استشعاراً عاصفاً غلاباً مفاجئاً . لذلك هى أقوى من قانون الزمن . وأن ما تدركه فى بارقة لامعة لأبعد مدى وأعمق تأثيراً مما يتهالك عليه النوابغ فى قرون .

إنها لا تخضع للحكمة وناموسها وللعقل ومنطقه ، بل بالعكس يتجلى انطلاقها المعنوى فى نوبات عصبية مباغتة أشبه بنوبات الصرع ، تهز كيان العبقرى . ويندلع منها برق يضرب جسده بصاعقة فيحرقه كى تخلص الروح فكراً طليقاً جامحاً يشترك والطبيعة فى إلهاب القوى الخلاقة المبدعة .

## ما ينشده العبقرى

قد يكون الأديب الروائى عبقرياً ثم لا يكون فى أدبه فناناً . إذ هو لا يعنى بشروط التناسب والترابط والقياس والانسجام وبلاغة الأسلوب ، قدر ما يعنى بالغوص على شتى الحقائق والظواهر الأبدية يمثلها فى عالم من الشخصيات ذات التعبير الإنسانى الخالد .

وليس من شك فى أن الجمع بين فضائل التناسب وانطلاق العبقرية هو الكمال فى الفن . ولكن العبقرى فى الغالب لا ينشد الكمال الفنى بل ينشد الإحاطة والشمول .

هكذا كان شكسبير وبلزاك، ودستويفسكى فى سائر أعماله عدا « الجريمة والعقاب » .

فكل من هؤلاء كان عبقرياً ولكنه لم يكن فناناً ، لأن من يريد أن يحتضن كل شىء لا يمكن أن يصور فى فن كامل متناسق روح التبعثر والتشوش التى تغمر فى الحياة كل شىء .

بيد أن الحقائق الأبدية المستغلقة التى تكمن وراء هذا التشوش والتى يكشف عنها العبقرى : هذه الحقائق تشفع له فى انطلاقه المحموم : وقد تكون فى إطارها الشكلى المشوش أبلغ وأعمق تأثيراً علينا مما لو كانت مهذبة ومصقولة تحققت لها كل شروط الفن الكامل .

## ما ينقصنا . . .

إن ما ينقص معظم رجال الفكر فى الشرق هو اتخاذ الفكر رسالة ، هو الإخلاص العميق للفكر ، هو احتقار الكثير من مناعم الدنيا التى لابد أن تلوث الفكر ، بل هو التبتل الخالص الصارم من أجل الفكر . إذ الفكر قبس من وحدانية الله ، وهو لا يمكن أن يقبل الشرك .

## خيانة الفكر

لا أعرف شرًّا أبلغ في الوشاية والنميمة والوقيعة والدس من الشر الذى ينفثه الزهو والغرور والحسد والغيرة والتكالب على الشهرة والمال فى نفوس طائفة كبيرة من الأدباء .

إن هذا الشر المستبد بهم ، يستنزف الكثير من عصارة أذهانهم ، ويؤثر ولا ريب فى أعمالهم ، فتخرج مرتجلة هزيلة يشوبها الغرض وتداخلها روح المكابرة ونزعة الوصولية .

وهكذا يخونون أنفسهم ويخونون الفكر ، إذ الغرض يعمى ويصم . أما عزة النفس ، فتنأى بصاحبها عن سوء القصد ، وتنعكس ولا ريب على الوحى والفكر ، فتكسب العمل خصائص القوة والصحة والنماء .

## خطر على الأدب

ثقافتنا الأدبية ما تزال حتى الآن فى مجموعها ثقافة تحصيل آراء ومعلومات ومعارف مجلوبة من الخارج ، لا ثقافة عضوية ثرية تنبعث من شخصيتنا وتنزع إلى الخلق الذاتى المستقل . وليس من شك فى أن الثقافة المجلوبة تعاوننا على إنماء ثقافة الخلق والإبداع . ولكن الخطر اليوم على ثقافتنا الذاتية المبدعة الرفيعة هو تأثرها بالثقافة السطحية الرامية إلى تسلية الجماهير والممثلة فى ثقافة السينما والتليفزيون والراديو .

فالأديب الشرقى الذى أحرز قسطًا وافراً من الثقافة المجلوبة واستشعر فى نفسه نبوغًا يدفعه إلى الخلق والإبداع وفق أمثلة من الأدب العالمى ممتازة وكاملة ، هذا الأديب إذا لم يتنبه إلى الخطر المتربص به ، وانحرف عما كان يمكن أن ينتجه من أدب رفيع يتجاوب مع مختلف مشاكل الإنسان ، واتجه بأدبه نحو السينما أو التليفزيون أو الراديو ، فهو يهدر — ولا شك — نبوغه ، ويخون نفسه وأدبه ، بانحداره إلى القيم الرخيصة

الباطلة ، أى إلى تسلية الجماهير وما تجلبه التسلية من شهرة زائفة وربح هين وميسور . وعندئذ يعرقل هذا الأديب حركة التنوير الصحيح ، أى حركة الثقافة العضوية التى كان يجب أن تظل نابعة من عنصره النقى ومن ذاته السامية النزيهة ، تلك الثقافة التى لا قيمة للفكر إلا بها ، ولا رقى للجماهير إلا بوساطتها ، ولا رفعة لشعب إلا بالإخلاص لها والتضحية فى سبيلها .

## تضحية وإنكار ذات

كلما كان الأديب متأهبًا لتوديع ملذات الحياة ، كان أقدر على تحقيق عمل عظيم .

وهذا ما أدركه عدد كبير من أعلام الأدب ، فانقطعوا لخدمة الفكر انقطاع النساك فى الصوامع .

فالروائى الفرنسى « بلزاك » كان من فرط إحساسه بقيمة رسالته وبما تفرضه عليه هذه الرسالة من واجب ، يحبس نفسه فى حجرته الأشهر الطوال ، عاكفًا على عمله ، باذلاً فيه عصارة قواه ، غير حافل بشتى المناعم التى كانت تصطخب حوله وتزخر بها باريس .

وكان الشاعر الروسى الفقير « لرمنتوف » يهرع إلى الريف فراراً من زحمة الحياة فى المدن ، ويظل هناك الأشهر بل السنوات عاكفًا هو الآخر على عمله ، آخذاً بأقسى ضروب التقشف والحرمان ، يأكل الخبز اليابس مغموسًا فى شاى أسود لا قطعة من السكر فيه .

أما القصصى « مارسل بروست » فكان يكسو أبواب حجرته بطبقة من الفلين كى لا تنفذ إليه أصوات البيت والشارع ، ثم يقبع فى الحجرة الأسابيع الطويلة ، منكبًا على العمل فى حرارة وحمية وإخلاص .

وأما « فلوبير » فكان مثال الأديب المتوحد المستوحش المنقطع لفنه ، لا يخرج من داره إلا نادراً ، ولا يلبى دعوة صديق إلا وهو كاره ،

ولا يستقبل أحداً إلا وهو حزين أشد الحزن على الجزء اليسير الثمين من وقته يسرقه منه ذلك الزائر .

فإنكار الذات كان شعار أولئك العظماء ، فلم يترددوا فى التضحية بمتع الحياة وهم رجال أقوياء تضطرم فيهم الميول وتحتدم الأهواء والرغبات . ولكنهم بهذه التضحية المقترنة بإرادة جبارة ، بهذه التضحية التى يجب أن يقتدى بها أدباؤنا ولاسيما الشبان ، أحرز أولئك الأعلام سعادة مزدوجة رائعة : سعادة إبداع الأعمال العظيمة التى كانت تراود أحلامهم ، وسعادة الإيمان الراسخ بأن تلك الأعمال ستصبح جزءاً من التراث الفكرى الخالد ، ولابد أن تسهم فى رقى الإنسانية وخيرها .

## الحافز المفقود

يبدو لى أن فتور أو برود أو عقلانية أو خواء أدبنا من شعلة العواطف التى تلهب النفس وتكشف عن قوى الروح وتدفع إلى المجاهدة والصراع ومغالبة الحياة والتوق إلى التفوق ، يبدو لى أن هذا كله يرجع إلى أن معظم أدبائنا لم يعرفوا المرأة ، لم يعرفوا المرأة التى منها الشعلة ومنها الحافز ومنها المنطلق .

إنها اليوم أمامهم ، تعمل معهم ، وتتصل بالرجل على مرمى النظر منهم . ولكنهم عندما أرادوا أن يصوروها فى علاقتها بالرجل ، لم يصوروا من تلك العلاقة غير الجانب الحسى الشهوى الذى تخلف فيهم من وراثتهم الشرقية المتأصلة .

فلا عاطفة مشبوبة فى معظم أعمالهم — عاطفة تعلو على الجسد — ولا افتتان مجنون ، ولا عزم مغامر ، ولا يأس قاتل ، ولا روحانية سامية ، ولا فرح عظيم . كما أن لا صورة من ذلك الصراع الأبدى بين رجل وامرأة ، أو من ذلك التجاوب الوجدانى العميق بينهما ، ولا من أصداء هذا كله فى نفسيهما ، وفى حياة من يتصل بهما ، وفى الحياة الكبرى نفسها .

فالأخيلة فى هذا الأدب قل أن ترتفع ، ووثبات الشعر قل أن ترقى إلى أفق إنسانى خالص .

إن شطراً واحداً من الحياة هو مادة معظم أدبائنا ، شطر الرجل وحده ، عقله وحده ، شهوته وحدها ، شهوته التى تفصله عن الجانب المعنوى فى المرأة . فهو إذن مبتور الرجولة فيما يجب أن تكون عليه الرجولة من رحابة وامتلاء . إن رجولته تائهة فى غمرة الحواس ، تبحث عن توكيدها فى الشطر الناقص منها أى فى العاطفة الثرية . فتعجز عن العثور عليه . فتتوه فى أغوار أفكار وأحلام وشهوات لا يمكن أن تكون مادة عمل فنى خليق بهذا الاسم .

## الخيال الكاذب

من الشعراء عندنا من لا يلبث أن يفكر فى قصيدة ، حتى يتخيل عاطفة ثم يصطنع الشعور بها ، ثم يسرع فينظمها ، بدل أن يوطئها كنفه ، ويصبر عليها ، ويتعمق خفاياها ، كى يجمع شتاتها ويحبسها آخر الأمر فى شعر صادق حى .

ومن القصصيين أيضاً من لا يلبث أن يتخيل موضوع قصة حتى يسرع ويكتبه ، بدل أن ينصرف قبل هذا إلى تثقيف عقله ، ودراسة نفسه ومن حوله ، واختزان ملاحظاته وتجاربه ، يستمد منها لقصته عنصر الصدق ؛ أى عنصر الحياة والبقاء .

فالخيال لا الواقع هو الذى يجذب الكثيرين من أدبائنا .

وليس من شك فى أن الخيال سهل والصدق فى معالجة الفن صعب . ونحن نعلم بسليقتنا أنه إذا كان فى النظر إلى الحياة بعين الخيال الكاذب لذة ، ففى النظر إليها بعين الواقع الصادق معاناة وألم ، ونحن إنما نؤثر اللذة على المعاناة والألم ، ضعفاً منا وتلهفاً على السهولة واليسر ، وتخلصاً من الألم والمعاناة فى تحرى الصدق الذى يلقى بنا أمام حقائق الحياة وجهاً لوجه .

## الرمز والتجربة

الرمز فكرة عن الحياة ، ولكنه ليس الحياة ، والأديب المولع بالرمز يستعيض بالفكرة عن الحياة ، أى يختزل تجاربه فى الفكرة الرامزة ، بدل أن يصور تلك التجارب نفسها فى حرارتها وصدقها ونبضها الحى .

وصحيح أن الرمز يوسع دائرة تخيلاتنا وأحلامنا ويفتح لنا آفاقاً نستشرف منها على شتى معانى الوجود والحياة . ولكنه مع ذلك يحصرنا فى نطاق عقلى تجريدى ، ويتركنا نفكر ونسبح ونتصور على وقع أغرب ما يخالجنا من ميول وأهواء وشطحات . وعندئذ نحار ونتخبط ولاندرى أى التأويلات هى التى يومئ إليها الرمز وتكشف لنا الستار عن قوانين جوهرية فى حياتنا . فلا نملك إلا أن نتهم الأديب بأنه إنما يأخذنا فى دوامة من الألغاز والأحاجى . فنشك فى أنه هو نفسه على وعى صحيح بأى مدلول كامل للرمز ، وفى أن لهذا الرمز جذوراً حقيقية تمتد إلى صميم الأشياء وتعبر فعلا عن تجارب الأديب وواقع الحياة .

فتصوير التجربة أثمن بكثير من الرمز ، والعظماء الخالدون فى تاريخ الأدب أمثال شكسبير أو بلزاك أو تولستوى أو دستويفسكى لم يحفلوا قط بالرمز . إذ الرمز كما ذكرنا يصدر عن العقل ، أما أدب أولئك العظماء فيعتمد على التصور المشرق الذى لا يفر من التجربة إلى الفكرة ، بل يصور التجربة كما هى مندمجة ومنتزعة من الواقع الحى .

## حول الأدب الشعبى

يدعو فريق من أدبائنا إلى أدب شعبى ، ويرى هذا الفريق أن مهمة الأديب ، سواء فى القصة أم فى المسرحية ، هى تصوير الشعب ، وأن لا قيمة لعمل الأديب إلا إذا تمثلت فيه روح الطبقة الشعبية الكادحة ،

وما تعانى فى جهادها اليومى من آلام ، وما ينبغى أن تكون عليه من عزة ، وما يجب أن يتوافر لها من حق مشروع فى العدل الاجتماعى .

وهذا جميل . ولكنى مع ذلك أتساءل : هل كل أديب يمكن أن يكون قد عاش بين الشعب ، وهل فى مقدور كل أديب أن يعرف الشعب ، وكيف يمكن للأديب إذا كان قد نشأ فى بيئة بورجوازية أو إقطاعية أن يرسم لنا صوراً صادقة من حياة الشعب ؟ . . .

لا شك أن الأديب هو ابن البيئة التى نشأ فيها ، وهو انعكاس للمؤثرات التى تخلفت فى نفسه منها ، وانعكاس للمشاهد والوقائع التى يعرفها عنها ، والتى لا يمكن أن يكون فنانـًا صادقـًا إلا إذا صورها هى . . . .

وإذن فمن العبث بل من المستحيل أن نطالب الأديب بالصدق فى تصوير الشعب إذا لم يكن هو قد خرج من الشعب كمكسيم جوركى مثلاً .

وعندى أن ما يجب أن نطالب به الأديب هو أن يكون قبل كل شىء حرًّا ، وأن يصور لنا فى أمانة وصدق ما أحسه وعرفه وتمرس به فى أى وسط عاش فيه على شرط أن يكون « إنسانيًّا » فى نظرته إلى الحياة والناس .

ومتى كان الأديب فنانـًا نزيه العاطفة ، كبير القلب ، نبيل النفس ، واسع الأفق الإنسانى ، فهو حتى لو صور لنا بيئة إقطاعية عاش فيها ودرس أخلاق أفرادها وطباعهم ، فإنسانيته المقرونة بصدقه لا يمكن إلا أن أن تدفعه إلى تصوير تلك البيئة على حقيقتها ، أى فى أنانيتها ونفعيتها وقسوتها واستغلالها مما لابد أن يلهب فى صدورنا عوامل الثورة عليها ، فيلهب فى قلوبنا حب الشعب المكافح المحروم ، والشعور بآلامه ، وبالظلم الواقع عليه ، وبضرورة السعى لإنقاذه والارتفاع به .

فالحرية مندمجة فى النزعة الإنسانية ، هى التى يجب أن ننشدها فى عمل

الأديب . إذ هو كلما كان حراً ، وفى الوقت نفسه إنسانى العاطفة والنظرة إلى الحياة ، كان عالمى المنزع بفطرته ، عدواً للظلم نصيراً للشعب ، تواقاً إلى العدل ، كما كان « زولا » و « تلستوى » و « أناتول فرانس » و « رومان رولان » ، أولئك الأدباء العظام الذين لم يخرجوا من وسط الشعب ، ولم يكن فى مقدورهم أن يصوروا حقيقة حياة الشعب وآلامه ، ومع ذلك فقد كانوا إنسانيين مخلصين وصادقين ، فأحسوا تلك الآلام ، وأدركوا أن الطبقة الإقطاعية المستعلية هى المسئولة عنها . فحملوا على تلك الطبقة ، ودافعوا أحر وأبلغ دفاع عن حقوق الشعب .

فعلينا والحالة هذه ألا نلزم الأديب بالنزعة الشعبية إلزاماً . إذ الإلزام التعسفى لابد أن يحرمه من حريته ، ويشوش عليه فكره ومواهبه ، ويقسره على تصوير لون من الحياة ربما كان يجهله . فتنعدم فضيلة الصدق والإخلاص فى عمله ، فلا يكون قد خدم الأدب ولا يكون قد خدم الشعب .

## العنصر الإنسانى فى الأدب

لكى يصبح الأدب المصرى القصصى فى مستوى الآداب العالمية الخصبة ، يجب أن يجمع بين عنصرين أساسيين هما : عنصر البيئة ، وعنصر الإنسانية ، أى اللون المصرى المحلى والحياة الرحبة الشاملة التى يحسها كل إنسان ، وتؤثر فى كل شعب فى أى زمن .

والواقع أن محاولة تصوير العادات والتقاليد المصرية السطحية تصويراً فوتوغرافياً ، أمر لا قيمة له ، إذا لم يستطع القصصى أن يلمس خلف العادات والتقاليد عارضاً نفسياً عاماً ، أو ظاهرة خلقية مشتركة ، أو نزعة وجدانية أبدية ، يستجيب لها القارئ الأجنبى أياً كان موطنه .

وليس معنى هذا أن يضحى الكاتب باللون المصرى فلا يخلعه على العمل الفنى . بل الغاية المثلى هى اقتران هذا اللون بالبواعث والحوافز

النفسية العميقة التى تتردد أصداؤها فى قلب كل إنسان .

وهذا هو السر فى عظمة الأدب الروسى مثلاً وتفوقه .

فنحن نلمح فى أعمال جميع أدباء الروس خصائص النفسية الروسية ، ومختلف الأخلاق والعادات الشائعة فى البيئة الروسية فى عهد معين . ولكننا نشعر أيضاً من خلال تلك الألوان المحلية بذلك الجوهر الإنسانى الخالد الذى يشترك فيه الناس جميعاً من أى شعب كانوا وإلى أية أمة انتسبوا .

وليس هناك شك فى أن الإنسان واحد مهما تنوعت الثقافات ، واختلفت البيئات ، وتباينت الأمزجة . وهذه الوحدة المشتركة هى أساس الفن وعنصره الرئيسى . وما العادات والتقاليد المحلية إلا الإطار الذى لا يجب أن يستغرق اهتمام القصصى : وإلا باعد بينه وبين الصورة ، وضيق آفاق عمله الأدبى ، وحبسه فى جو محدود ، وقضى عليه بألا يطالع فى غير البيئة التى أوجدته .

وهناك مشكلة أخرى من الخطورة بمكان ، وهى أن تلك العادات والتقاليد المحلية التى يفتن بعض كتاب القصة فى وصفها وتصويرها ، لابد أن تخف وطأتها أو تزول كلما تقدمت الأمة وقطعت أشواطاً جديدة فى ميدان التحضر . وعندئذ يخف أو يزول تأثير العمل الأدبى الذى اشتمل عليها .

وإذن فالعامل الإنسانى هو الذى يهب تلك العادات المتغيرة صفة الحياة بما يدمجه فيها من تأثير أبدى دائم ، وهو الذى يرتفع بالأعمال الفنية ، ولا يجعل منها مجرد آثار متحجرة صالحة للعرض فى متحف .

ولقد حدث أن مميزات البيئة التى رسمتها قصص « تولستوى » و « دستويفسكى » و « تشيكوف » فى العهد القيصرى قد اختفى الآن منها الكثير فى روسيا الاشتراكية ، وحلت محلها مميزات أخرى وعادات أخرى ، وتقاليد أخرى . ومع ذلك فما تزال تلك القصص باقية . لماذا ؟

لأنها قامت على العامل الإنسانى لا على الرغبة فى تصوير البيئة ومظاهرها فقط .

فيجب والحالة هذه ألا نسرف ، عندما نتكلم عن أدب القصة عندنا ، فى التعصب للون المحلى ، بل يجب أن تتجه قوانا ومجهوداتنا إلى إجراء ذلك التعادل المنشود بين اللون المحلى والحقائق البشرية الخالدة .

## حول الأدب المكشوف

لا يزال الكثيرون عندنا يعتقدون أن كل أدب مكشوف لابد أن يكون أدب تبذل واستهتار ، ينزع إلى تصوير الأهواء الجنسية الصارخة والميول الحسية الشاذة ، ويؤدى إلى نشر الإباحيه الممقوتة . وهذا خطأ .

إذ الأدب المكشوف بمعناه الفنى شىء والأدب المكشوف الرامى إلى الإثارة الجنسية شىء آخر . فالأدب المكشوف بمعناه الفنى يسميه الغربيون « ناتورالزم » أو « ريالزم » ، أى رسم الطبيعة كما هى والواقع كما هو . أما الأدب المكشوف الرامى إلى الإثارة الحسية فقط فلا يعتبر فى نظر الغربيين أدباً ، بل يطلقون عليه اسم « بورنوجرافى » للتفريق بينه وبين الأدب المكشوف الفنى السليم .

فالأدب المكشوف السليم هو مذهب يعترف بحق الأديب وحريته فى أن يتناول المسائل الجنسية والغرائز البشرية بالدرس والتحليل ، على أن يكون ذلك دون إثارة حسية متعمدة ، وفى حدود أدب القول وجمال الفن ، ما دام حسن النية رائد الأديب وتصوير الحقيقة الواقعية هو غرضه الأول والأخير .

وأبلغ دليل على هذا أن قصة « مدام بوفارى » لجوستاف فلوبير وهى من عيون الأدب الواقعى المكشوف السليم ، تصور لنا بعض انحرافات الخيال والجنس عند المرأة تصويراً فيه الدقة الكاملة والواقعية الحية . ولكنه لفرط توافر هذه النزعة الفنية فيه ولفرط اقترانه بأدب القول ونزاهة القصد

عند الكاتب لا يثير فينا أى انفعال جنسى وضيع أو رغبة شهوية منكرة .

وكذلك « لورانس » فهو فى قصة « عشيق اللادى شترلاى » يصور لنا من شئون الجنس أجزاء وتفاصيل قد تبدو نابية ، ولكن الكاتب لفرط اندفاعه فى الدعوة إلى فلسفة تنهض على العلاقات الجنسية الفطرية السليمة وفرط التزامه بالموضوعية التامة والدقة العقلية المتنبهة فى عرض صوره وأوصافه التى يضفى عليها حلة رائعة من الشعر ، لا يثير فينا هو الآخر أى إغراء شهوى ، بل يحملنا معه فى تيار واقعيته الصادقة ، فنؤخذ بها وبما يصاحبها من شعر وفلسفة ، فلا يعود لعامل الجنس أى تأثير سيئ علينا .

وإذن فـ « البورنوجرافى » هو اللون الرخيص الذى يرمى إلى الإثارة الجنسية . أما الأدب المكشوف الفنى السليم الذى أشرنا إلى مثالين منه ، فهو لا ينزع إطلاقاً إلى نشر التبذل وترويج الإباحية بل إلى دراسة الإنسان والكشف عن طبيعته ، وإماطة اللثام عن تلك الميول الخفية ، والغرائز الدفينة التى تسيطر فى الواقع على معظم اتجاهاته ومنازعه .

فمن الظلم ، بل من الجهل أن نقرن بين الأدب المكشوف الفنى السليم ، وبين هستيريا الشهوات التى ينشرها أدعياء الأدب من المرضى أو طلاب الربح على حساب الأدب والأخلاق . كما أن من الحماقة والتعنت الرجعى ألا نعترف للأديب فى حدود حسن النية وأدب القول بحريته المطلقة فى رسم أية صورة وفى معالجة أى موضوع . ذلك لأن الحرية بالنسبة للأديب هى المتنفس لفكره ، والحافز لعمله ، والينبوع الذى يستمد منه القوة للتطور بالفكر والمجتمع .

## خيال حر

طغت موجة العقل على معظم الإنتاج القصصى فى أوربا اليوم . فأصبحت القصة ذهنية ، تمثل فكرة فلسفية عن الإنسان والحياة ،

أو تدعو إلى نظام اجتماعى معين ، وهذا ولا شك انحراف بفن القصة عن أصله . إذ كل عمل قصصى جدير بهذا الاسم هو وليد الخيال الخالق الحر المستمد من الواقع والمتصل دائماً به . فإذا تدخل العقل فى الخيال الواقعى الحر بأفكار ونظريات فلسفية أو اجتماعية مهيأة فى ذهن القصصى من قبل ، فشخصيات القصة لابد أن تتشوه ، ولابد أن تتحرك لاوفق دوافعها الطبيعية من عواطف ومشاعر وانفعالات ، بل وفق إرادة القصصى الذى يقسرها قسراً على تأييد ما ينزع إليه من مذهب فلسفى أو هدف اجتماعى ، فتبدو لنا تلك الشخصيات أشبه بعرائس خشبية لا لحم فيها ولا دم ولا حياة .

وحيث إنها عرائس يعوزها النبض والاختلاج الحى ، فهى لا يمكن أن تقنعنا بصواب المذهب أو الهدف الذى يرمى إليه القصصى ، ما دام هذا المذهب أو الهدف قد اتجه نحو جانب واحد مقصود من الحياة ، وأغفل الجوانب المتعددة المتضاربة الأخرى .

ثم إن القصصى المكبل بالعقل ، أى بالمذهب الفلسفى أو الهدف الاجتماعى . لابد أن يفقد جزءاً كبيراً من شعوره الباطنى بحرية خياله الخالق أثناء عملية الخلق والإبداع . فيصبح هو نفسه موزع الشخصية ، مترجحاً بين الخيال والعقل ، بين النزاهة فى تصور الواقع وبين الغرض الذى يمليه عليه الفكر ، لا يستطيع أن يسلم غريزته إلى حكم الخيال الخالق الحر ، ولا يستطيع أن يتنكر لما هو مأخوذ به من حكم العقل والفكر . فيجئ عمله مفقود التوازن ، بل ملحوظ الافتعال والزيف فى جوهره ، أبعد ما يكون عن بساطة الحياة الظاهرة ، وأبعد ما يكون فى الوقت نفسه عن عمقها المتوثب المتضارب المعقد الذى يبدعه الخيال الخالق فى اندفاقه التلقائى الحر .

وهذا ما وقع لـ « سارتر » و « كامو » وأضرابهما . وهذا ما يجعلنا نحس فى قصصهم ، برغم طرافة شكلها ، ذلك النقص فى الإحاطة

والشمول ، وذلك القسر المتعمد على تأدية جانب معين من الحياة ، هو الجانب الذى طغت فيه عليهم أفكارهم وآراؤهم ونظرياتهم الفلسفية المجردة التى استخدموا القصة فى الدعاية لها ، واتخذوا من القصة منبراً شعبيًا للتبشير بها .

والواقع أنهم فلاسفة قبل أن يكونوا قصصيين . ولكن الفلسفة مقيدة ومحدودة بمذاهبها ، أما القصة فهى الحياة الكبرى ، والحياة الكبرى طليقة ولا حدود لها .

## وحدة وكمال

إن فن الأدب هو أبلغ معبر عما تصبو إليه نفس الأديب من انطلاق حر فى تصوير مشاعر الإنسان . ولكن عدو الانطلاق الحر فى العمل الأدبى هو التشوش ، وقيمة هذا الانطلاق فى أن يؤدى إلى وحدة .

فالاتجاه صوب الوحدة ، كما يقول « هيجل » ، هو الأصل فى روعة الأدب والفن ، وهو الغاية المنشودة فى كل عمل أدبى فنى رفيع .

فالأديب الذى فى وسعه أن يصب فى عمله شتى ألوان التنافر والصراع بين الخيال والواقع ، وبين العقل والقلب ، وبين الرغبة والإرادة ، وبين مشتهيات الجسد وتطلعات الروح ، ثم يبذل قصاراه فى صياغة هذه الألوان المتنافرة المتناقضة بحيث تتلاءم فى العمل الأدبى ، وتتسق وتستحيل إلى وحدة فنية متماسكة وكاملة ، هذا الأديب هو الذى يبصرنا بالتناقض الكامن فى طبيعتنا ، ويغرينا بالتغلب عليه تحقيقًا لا تساقنا ووحدتنا ، أى تحقيقًا لقدرتنا على أن نعيش لا بالخيال فقط فيحطمنا الواقع ، ولا بالعقل فقط فيجف منا القلب ، ولا بالروح فقط فنحرم أنفسنا رغبات الجسد ، ولا بالجسد فقط فتعصف بنا الشهوات . بل نعيش بقوى الخيال والعقل والقلب والروح والجسد ، موحدة ومؤتلفة فى توازن وتعادل

وانسجام ، كذلك التوازن والتعادل والانسجام الماثل فى العمل الأدبى الكامل .

فوحدة العمل الأدبى الكاملة ، لا تبهرنا انبهاراً فنيًّا وجماليًّا فقط ، بل تؤثر أيضاً فى أخلاقنا وطباعنا . فتسمو بنا ، وتغرينا بمحاولة الاتجاه فى حياتنا صوب الوحدة والكمال .

## الشارح والخالق

الأستاذ الجامعى هو الذى يبسط ، ويشرح ، ويحلل ، ويرتب الأثر الفكرى بالقياس إلى غيره من مبدعات التراث الثقافى . أما المفكر الحر أو الأديب الفنان فهو الذى يخلق هذا التراث بعبقريته أو نبوغه .

ونحن كثيراً ما نخلط بين الشخصيتين ، بل كثيراً ما نؤخذ بالألقاب ونعلو بشخصية الأستاذ أو الدكتور الجامعى على شخصية المفكر أو الاديب النابغ الذى لا يحمل من المؤهلات غير تلك التى أغدقتها عليه الطبيعة فى سخائها المذهل .

وهكذا نضع الشارح فوق الخالق ، والاعتبار الاجتماعى فوق الإبداع الذاتى فنخنق النبوغ ونقتل العبقرية .

### النقد عندنا

كيف يمكن أن نقدر إنتاجنا الفكرى ، ونفرق بين غثه ونفيسه ، وصحفنا اليومية لا تفرد ولو نهراً واحداً من أنهارها لنقد الكتب ، ومجلاتنا الثقافية الرفيعة لاتكاد تظهر حتى تختفى ، والقيم الأدبية عندنا فوضى ، والمجاملات تحجب الحقائق ، وتقارض الثناء بين أدبائنا أصحاب « الشلل » هو العرف السائد .

لا عناية بالنقد عندنا ، ولا وزن لقيم الفكر ، ولا رغبة صادقة أمينة فى هداية القراء . فكيف نستطيع حيال هذا أن نحقق عنصر المفاضلة بين

عمل أدبى وآخر ، وأن نبرز الأعمال الممتازة وندلل على ما فيها من جوانب الابتكار والتجديد ، بحيث نقنع الناس بقيمتها ، ونغريهم بالإقبال عليها ومطالعتها ؟ . . .

الواقع أن سوق الكتب عندنا أصبحت سوقاً بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، وليست حلبة تتبارى فيها العقول ، ويشرف عليها نقدة ممتازون ، منقطعون لغربلة الأعمال الفكرية ، ومشهود لهم بالثقافة الواسعة والنزاهة الخالصة والذوق السليم .

ولقد ترتب على هذا النقص الخطير فى نهضتنا أن اضطربت القيم واختلطت وتشوشت ، وأصبح الكتاب الجيد يضيع فى غمرة الكتاب الردىء . بل أصبح الكتاب الردىء أو المتوسط يقابل من الشلل الأدبية بإطراء بالغ لمؤلفه متى كان منتمياً إلى زمرتهم . فتغيب فى جلجلة هذا الإطراء المغرض ، جوانب النقص الملحوظة فى الكتاب ، والتى كان لابد من نقدها وإبرازها كى تتكشف القيمة الحقيقية للعمل الأدبى ، ويمكن للكاتب أن يتدارك جوانب نقصه فى أعماله المقبلة .

إن حياة الفكر مرهونة بوجود النقد . وقيمة الفكر لا تتأكد إلا فى ضوء النقد ، وتطور الفكر عندنا محال بدون حافز من نزاهة النقد .

## افهم عبقريتك الشرقية

جمعتنى المصادفة بكاتب أوربى كان يزور مصر ، فلم يكد يتطرق بنا الحديث إلى الشرق والشرقيين حتى حمل الكاتب على الثقافة الشرقية ، واتهم العقل الشرقى بالهوس الدينى والتواكل القدرى والتجرد المطلق من الروح العملية ، ثم زعم أن العلم المادى التجريبى ، كما تفهمه الحضارة الحديثة ، دخيل على العقل الشرقى المولع منذ القدم بالأخيلة الدينية . ثم أفاض الرجل فى شرح نظريته ، وانتهى إلى القول بأن الشرق لفرط إيمانه بالقوى العلوية واستخفافه بسلطان الفكر البشرى ، انفصل

عن عبقرية الغرب ، وبات من المستحيل عليه أن يساهم مساهمة خلاقة فعالة فى تقدم الأفكار والعلوم المادية التى هى اليوم قاعدة الحضارة .

فالشرق فى نظر الرجل خيالى الفكر دينى النزعة ، والغرب عملى الفكر عقلى النزعة ، وهذا التناقض الذى كان ولا يزال قائماً بين اتجاهى الشرق والغرب هو سر تأخر الشرقيين وتخلفهم عن ركب الحضارة حتى اليوم .

ولقد أصغيت إلى حديث الرجل ثم قلت له :

صحيح أن الشرق خيالى الفكر دينى النزعة . ولكن أى شرق تقصد ؟ إذا كنت تقصد الشرق الأقصى وتحمل على العقائد الأسيوية التى تنفر من الحياة ، وتحتقر العمل ، وتنادى بخنق الرغبات البشرية وفناء الفرد فى فضاء « النرفانا » ، فقد تكون محقاً . . . على أن هذا الشرق الأسيوى نفسه قد استيقظ اليوم على الحياة العلمية الصناعية الجديدة . أما شرقنا نحن ، أى الشرق الإسلامى ، فلا تنطبق عليه نظرتك بتاتاً .

إن ثقافة الإسلام قد تفجرت من النبع نفسه الذى تفجرت منه ثقافة أوربا . فمزاج الإسلام ليس خيالياً بل هو أقرب ما يكون إلى المزاج الأوربى العقلى . وعندى أن الحضارة الإسلامية التى امتدت من جبال البرانس حتى الهملايا . ومن الأطلنطى حتى الجانج ، كانت حضارة استمدت مقوماتها من الغرب أكثر بكثير مما استمدتها من الشرق . فالعلم العربى مدين للإغريق أى للغرب أكثر مما هو مدين لشعوب آسيا .

والواقع أن جهود « أرخميدس و « إقليدس » ومن جاء بعدهما من الإغريق هى التى استند إليها العرب فى مختلف بحوثهم الرياضية . أما « هيراقليط » و « بطليموس » فهما اللذان اهتدى بهما علماء الإسلام فى شتى البحوث الخاصة بالفلك والتى استنار بها فيما بعد « خريستوف كولمبس » نفسه .

وحتى فن العمارة الإسلامية فقد استوحاه المسلمون من أثينا وروما وبيزنطه . خلا بعض مؤثرات تافهة تطرقت إليهم من الفن الأسيوى .

أما الثقافة الإسلامية الفلسفية فكان يهيمن عليها فى العصر الوسيط عقل « أرسطو » . ولولا « ابن سينا » و « ابن رشد » وهما من تلامذة هذا الفيلسوف ، ما عرفت شعوب الغرب نفسها قيمة عبقرى الغرب أرسطو .

فالتبادل الثقافى كان عميقاً بيننا وبينكم . والتشابه الفكرى كان ملحوظاً ولا سيما فى العلوم والفلسفة .

فالشرق الإسلامى إذن ليس هو الذى تزعم . ونحن فى الحقيقة لانشبه فى شىء قدماء الشرقيين الأسيويين الحالمين . نحن منكم . وليس فى نزعتنا ولا فى مزاجنا ولا فى تقاليد ثقافتنا ما يمنع العقل من الاتجاه فى طريق الفكر الحر . ولا ما يحول بين العقل وبين الإقدام على معالجة العلم . ولا ما يستبد بالعقل من ميول ونزعات تعصبية تفرق بين دين ودين وجنس وجنس .

فالاجتهاد مشروع عندنا . والبحث العلمى المادى قطع فى الماضى أشواطاً بعيدة بفضل علمائنا . والتسامح الدينى كان ولا يزال مفخرة من مفاخرنا . أما التأخر الذى كان ملحوظاً علينا فمرجعه إلى سببين رئيسيين :

الأول : سياسة الأجنبى المستعمر التى عصفت بنا ، وضربت رواقاً من الجهل الكثيف علينا ، وتركتنا القرون الطويلة فى ظلام دامس نرسف فى أغلال الذل والعبودية .

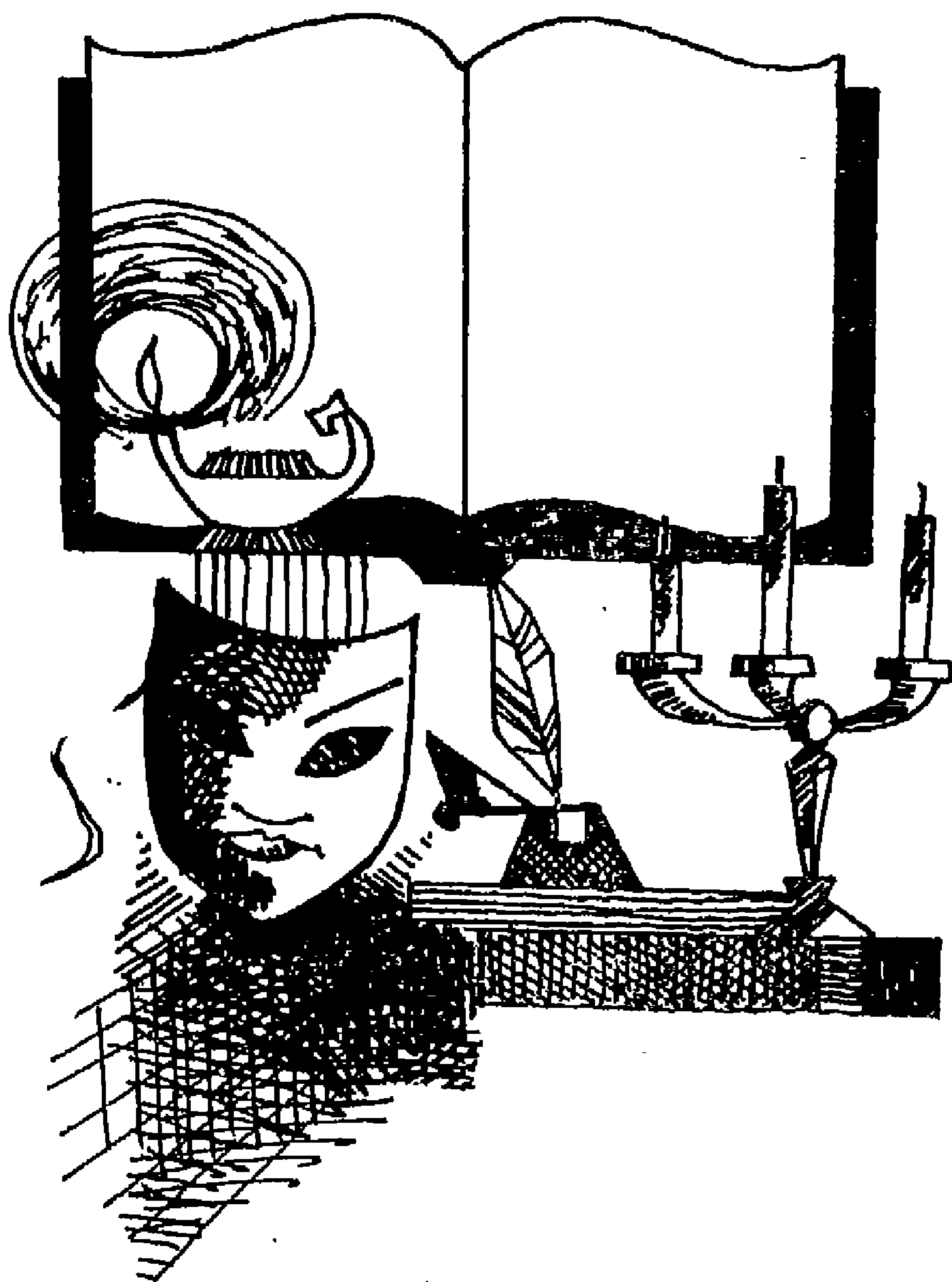
والثانى : سياسة الإقطاعيين من رجالنا الذين نسوا أو تناسوا أنهم منا . فاستبدت بهم شهوة المال وشهوة الحكم . فتحالفوا مع المستعمر الأجنبى علينا ، وأبقوا على جهلنا وعلى خرافاتنا وعلى انحطاطنا ، خشية أن تضطرهم يقظتنا إلى التضحية ببعض مصالحهم الغالية من أجل تقدمنا ورقينا .

فنحن اليوم نكافح ذلك الاستعمار الأجنبى لنؤكد حريتنا السياسية والاقتصادية الكاملة ، ونكافح بقايا النزعة الإقطاعية التى ما تزال تتربص بنا ، ونحقق العدالة الاجتماعية المقرونة بالتحضر الصناعى والتى لا يمكن يرتفع مستوانا إلا بها .

وإنا لنشعر ونحن نمضى قدماً فى هذا الطريق ، أننا قد نفذنا إلى عالم الحضارة الحديثة ، لا لأن هذه الحضارة تمثل قوة جديدة غريبة عنا ، بل لأنها تمثل القوة التى أخذنا نحن بها ، وجاهدنا فى سبيلها ، وساهمنا فى ابتكارها وخلقها . فكأننا لا نعود اليوم إلا إلى بيتنا ، وإلى أسرتنا ، وإلى استطراد العمل الذى كنا قد شرعنا فيه وكان فى الواقع سر مجدنا وعظمتنا . »

هذا ما قلته للكاتب الأوربى ، وهذا ما يجب أن أذكرك به أنت أيها المواطن المصرى والعربى كى تكون على وعى بذاتك ، وعلم بماضيك ، ومعرفة بالاتجاهات الأصيلة فى ثقافتك ، فتنطلق فى طريق الحضارة الحديثة كامل الثقة فى نفسك ، مرفوع الرأس ، ثابت الخطى .

# فى قيمة الفن



# روح ألفة وسلام

فوق النظم وفوق القوانين وفوق ظواهر الحياة العارضة ، يحلق الفن جوهراً حراً طليقاً يخاطب النفس البشرية الخالدة . فالعادات تتطور ، والأخلاق تتبدل . والمجتمع يتحول ويتجدد . وآثار الفن الرائعة هى الباقية على مر الدهور والأحقاب .

إن ما يمتاز به الفن وما يجب أن نقدسه من أجله ، هو أن روحه روح إنسانية محضة ، أى روح تفاهم ومحبة واتحاد .

فنحن إذا ما ضمنا مجلس سمر ، ثم اشتبكنا على الرغم منا فى أى نقاش يتعلق بحياتنا الاجتماعية المادية ، فقد تختلف منازعنا وأهواؤنا ، وقد يدب الشقاق بيننا ، بل قد تفشو فى قلوبنا الضغائن والأحقاد . أما إذا اختلفنا فى تقدير الفنون ، فمهما تعددت ميولنا وأذواقنا ، فمرجع اختلافنا لا يمكن أن يصدر إلا عن عاطفة حب الجمال ، وحب النوع ، وحب الحياة . وإن من يذود عن نظرة فنية ويدافع عن لون من ألوان الجمال ، يعلم علم اليقين أن لا سبيل لإقناع خصمه بوسائل العنف .

وأبلغ دليل على أن روح الفن هى روح ألفة وسلام ، أن العالم اختلف ويختلف على كل شىء . أما عبادة « شكسبير » و « موليير » و « بتهوفن » و « رامبرانت » وأضرابهم ، فتلتقى فى محرابها القدسى كل الشعوب فى كل زمن .

فالفن هو العقيدة الإنسانية البعيدة عن التعصب ، وهو مجلى الحضارة ومطلبها الأول والأخير . والواقع أن كل إصلاح مادى غير مقترن بدعوة فنية حارة لابدّ أن ينشر فى الناس روح الأثرة الجنائية ، ويرجع بالإنسانية القهقرى .

## قناع الفنان

كل فنان لابد أن يتقنع . وهو لو بدا ضاحكًا لاهيًا مهذاراً فهو مقنع . ولو بدا عابسًا مقطبًا حزينًا فهو مقنع ، لن تعرف أبداً من هو لا فى الفرح ولا فى الألم . إذ هو فى الواقع حلم يمشى . حلم غامض بعيد فى رأس حائر عجيب . كل ما فيه مستغرق فى ضباب حلمه . أما الأفراح والآلام التى يبدو بها أمامك ، فهى من ظواهر جسده فقط ، تتعاقب على سطحه كما تتعاقب الموجات على سطح بحر .

## الطبيعة والفن

ليست وظيفة الفن هى النقل الفوتوغرافى ، وليس غرض الفن محاكاة الطبيعة . الفنان يغزو الطبيعة ولا يحاكيها . أى لأنه يفرض رؤيته الخاصة عليها بما توحيه هى إليه من صور وأشكال تؤكد تلك الرؤية وتقويها . فالفنان حر تجاه الطبيعة ، وهو يستخدم حريته ضد الطبيعة . ذلك لأن الفنان قد وهب روح إنسان ، أما الطبيعة فلا روح لها . وهى لن تنبض وتصبح ذات روح مميزة إلا بمقدار ما تتميز صورها وأشكالها النابعة من روح الفنان وخياله وتصوره .

## ينابيع الوحى الثلاثة (١)

لا يستغنى فنان عن قوة روحية يستمد منها وحيه ، ويهتدى بهديها فى تفكيره ، ويستضىء بنورها أثناء عملية الخلق والإنتاج .

ولا شك أن الحياة بألوانها المختلفة وصورها الرائعة هى مادة الفنان ، ولكن الفنان محتاج لحافز معنوى يمكنه من الإشراف على الحياة ،

---

(١) نشرت هذه القطعة فى أحد أعداد مجلة « الهلال » ولكن الطابع أخطأ فنسبها إلى كاتب أجنبى فى حين أنها من قلم المؤلف .

والتأمل فيها واستجلاء غوامضها وتمثيل الظواهر والمرئيات وما يكتنفها من غوامض وأسرار فى حلة فاتنة من جمال .

فهذا الحافز يلتمسه الفنان عند الله أو عند المرأة أو يستمد عناصره من اعتداده بنفسه وثقته فى عبقريته وشدة إحساسه بكبريائه الشخصية .

فالله والمرأة والكبرياء هى الحوافز المعنوية الرئيسية . وهى ينابيع الوحى العليا يعب منها جميع الفنانين كل بحسب استعداده ومزاجه ونفسيته .

فكبار المصورين والمثالين فى عصر النهضة مثلاً — ونخص منهم بالذكر « ليونارد دافنشى » و « ميكل أنجلو » و « رافائيل » وأضرابهم — كانوا يتوجهون بكل قوى عبقريتهم صوب الله : وكانت نفوسهم مندمجة فى الذات الإلهية اندماجاً شبه صوفى يطبع ميولهم ونزعاتهم بطابع دينى ، ينعكس تأثيره على أعمالهم . ويتجلى فى حياتهم الشخصية وفى نظرتهم الفلسفية إلى الحياة .

ولقد كانت نزعة البراءة المقترنة برغبة السمو والتطهر والمنحدرة من أعماق الإيمان الدينى ، تستولى على عقولهم ومشاعرهم قبيل الإنتاج وبعده ، فتهذب من جوهر أرواحهم ، وتكسر من حدة غرائزهم ، وترتفع بهم فوق أدران المادة ، وتسوقهم إلى إبداع فن دينى علوى يرسم حياة أجمل وأكمل من هذه الحياة .

ومما يدل أبلغ الدلالة على أن الله كان مصدر الوحى عند أولئك الفنانين ، أن المثال « ميكل أنجلو » كان لا يستطيع الإقدام على عمل فنى جديد إلا بعد أن يخلو إلى نفسه فى حجرة موصدة مظلمة ، ثم يجثو على الأرض ، ثم يستغرق ساعات طويلة فى تأملات وصلوات حارة يحقق بوساطتها ذلك الاتصال الصوفى بينه وبين القوة الإلهية التى تلهب ذهنه ، وتوسع آفاق خياله ، وتنير أمام بصره وبصيرته طريق الجمال .

وأما « رافائيل » فقد كان لا يصلى فقط ، بل يصوم أيضاً ويظل يتعبد الأيام الطوال وهو يتأمل ويفكر . ومن غرائب ما سجله عنه معاصروه أن وحى الفن كان يهبط عليه هبوطاً عاصفاً مفاجئاً فى اللحظات التى يرهقه فيها الصوم وينشب الجوع فى أحشائه مخالبه .

ولقد كانت نظرة أولئك الفنانين إلى المرأة نفسها نظرة دينية طهرية . فقد أحب « ميكل أنجلو » سيدة إيطالية رائعة الجمال لم يقربها قط . وكذلك أحب « ليونار دافنشى » ابتسامة امرأة غير مكترث لسحر بدنها الناضج المغرى ، وكذلك أولع « رافائيل » بعذراء فاتنة ولعاً أفلاطونياً لم تلوثه الغريزة الجنسية ولم تتطرق إليه من الحواس أية شائبة .

فمن خلال وجه الله ، كانت هذه الطائفة من الفنانين تقدس المرأة وتمجدها .

على أن هناك طائفة أخرى أحبت المرأة لذاتها ، واتخذت من جمالها ورقتها وحنانها وعطفها ، مصدر وحى فنى عميق . فالمصور « ديلاكروا » مثلاً ، كان يهرع إلى معشوقته ويجلس أمامها ، ويتملى صامتاً من سحر عينيها ، ثم يثب إلى عمله متقد الذهن ، ملتهب الخيال .

وكان المصور « كورو » لا يستطيع التفكير فى لوحة جديدة إلا بعد أن يتلو على نفسه رسائل حبيبته ، ويذكرها ويتمثل صباها الناضر وصوتها الرخيم وجمالها الفتان .

وكان المثال « بورديل » يخرج إلى الحدائق العامة ويظل يرقب النسوة العابرات حتى إذا ما استرعاه من إحداهن لون من الحسن شائق طريف ، تبعها فى حذر ، وجعل يتفرس فيها ، ويلحظ فى أدب حركاتها وسكناتها ، وقد جاش قلبه وامتلأت نفسه بعاطفة أشبه بالحب سرعان ما تستحيل إلى وحى يتمثل فى عمل فنى رائع .

ومع ذلك فثمة طائفة ثالثة من الفنانين لا تستحث عبقرياتها النزعة الصوفية أو النسوية قدر ما يستحثها شعور الكبرياء والاعتداد بالنفس .

فالإيمان بالقوة الشخصية . والثقة بالنظرة المستقلة إلى الحياة والناس ، والإحساس بالتفوق فى الفكر والعمل . هذه المشاعر هى التى تستمد منها فئة الفنانين المستكبرين مصادر وحيها .

ولقد كان المثال العظيم « رودان » لا يفتأ يردد : « لست فى حاجة إلى امرأة تلهمنى الجمال والفن . ما على إلا أن أحنو على نفسى . وأخاطبها ، وأفتح مغاليقها ، وأنبش كنوزها . كى تتساقط على عناصر الإلهام أشبه بأضواء ساطعة تغمرنى . إنى لأشعر أنى عالم جُمعت فيه من أقاصى الأرض شتى العوالم . فما حاجتى إلى الحب ، وما حاجتى إلى ضعف المرأة واستبدادها . كلا . إن الطبيعة أودعت فى خيالى كل ما أنا فى حاجة إليه . وما علىّ إلا أن أنعم النظر فى نفسى كى أمجد قوتى وأوقظ الوحى الكامن فىّ » .

هذه مصادر الوحى الثلاثة عند الفنانين ، ولا ريب أنها جميعاً وثيقة الاتصال بجوهر الحياة . فحب الله يدفع إلى التطهر والسمو ، وحب المرأة يكشف عن منازع القلب والوجدان . أما حب النفس فهو فى مراتبه العليا ، شعور بالكبرياء النبيلة الخصبة التى يفيض منها الثراء على الغير ، فيدفع إلى توكيد الشخصية البشرية وبسط سيادتها على الحياة .

## عالم الفنان

لكل فنان عالمه المستقل المبتكر . وما تعدد تلك العوالم الفنية واختلافها إلا المظهر الأسمى لغريزة البقاء تهددها الطبيعة بالفناء ، فتستفيق فيها إرادة التفوق ، فتجتهد فى التغلب على هذا الفناء بمضاعفة الشعور بالحياة من طريق الفن وهو يبدع للناس حياة جديدة عليا .

فالفنان وهو يخلق يثور على جرثومة العدم المسلطة على الإنسان . والواقع أن اليوم الذى تحركت فيه أقدام البشرية الأولى بالوثب والرقص وانطلقت من حناجرها بوادر الموسيقى فى نغم مطرب مشوش ، هو اليوم الذى أحست فيه البشرية بنقصها ، فأرادت أن تسجل فى فنون الرقص والغناء البدائية ثورتها على الألم والموت ، ورغبتها فى تجميل الحياة ومضاعفتها وتجديدها ، وحاجتها إلى عالم آخر غير هذا العالم الذى تعيش فيه .

فالفن هو خلاص البشرية من لعنة الأرض . هو صرخة الفرح الإنسانى منتصراً على الألم والقبح . هو الفرار من سجن المحدود إلى فسحات غير المحدود . هو تحقيق ذلك التطلع البشرى العجيب إلى مثل أعلى . ذلك التطلع الذى ما يفتأ يلازم كل فرد منا ، ويقض مضجعه ، وينزع به إلى حياة أرحب من حياته ، وأوفر انطلاقاً ، وأبعد أفقاً وغاية ومعنى .

فالفنان يخلق العمل الفنى ليطلق خصائصه الذهنية والوجدانية من عقالها ، ويحررها من ربقة الأوضاع والتقاليد ، ويتجه بها لا نحو الحرية الفكرية والاجتماعية فقط ، بل نحو الكمال أيضاً ، أى نحو ذلك المثل المعنوى الأعلى الذى ينشده الفن كما ينشده الدين ، والذى يلتقى فى محرابه الفنان بالقديس .

ولذلك امتزج الفن بالدين منذ القدم ، واستمد وحيه من شتى رموز الحق والخير والجمال التى نبعت من الدين ، أى من صورة الله الأبدية الكاملة التى تخيلها الإنسان واستجاب لها وفزع إليها بدافع خفى من حظه المجهول ونفسه المتألمة وروحه الظمأى .

## الله والجمال

للإنسان حياة شخصية باطنية تنزع به فى أحيان كثيرة إلى أن يستقل بقلبه وروحه عن العالم . فإذا أحس فى تلك الأحيان أن القدر يأبى إلا أن

يطبق عليه ويحبس روحه فى سجن العالم ، فهو قد يهرع إلى الدين فراراً بروحه من سجنه ، أو يهرع إلى الفن ويرى فى الفن خلاصه .

فالدين والفن هما الحياة الباطنية للإنسان ، إذ ليس فى قدرة الإنسان أن يستغنى لا عن الله ولا عن الجمال .

## شخصية الفنان

ولكن ما الفنان وما هى شخصيته ؟ . .

الفنان رجل محكوم بغريزته وتصوره وإلهامه، أى بمختلف الأخيلة والعواطف التى تجيش بها نفسه ويفجرها عقله المتوقد وبصيرته المشرقة .

فهذه الأخيلة والعواطف هى التى تقوده وهو يبدع العمل الفنى ، وهى التى يرغب فى تسجيلها وتخليدها فى العمل الفنى . بيد أن تصوير الأخيلة والعواطف ضرب من المحال . إذ ليس فى وسع أى فنان بالغة ما بلغت عبقريته أن يرسم أخيلته كما احتدمت فى تصوره تماماً ، وعواطفه كما اشتعل بها قلبه ووجدانه . ولو انه حاول فهو لا بدّ أن يراكم الظلال والألوان ، ويخلط بين الضوء والظلمة ، ويمزج بين الصورة المعبرة والصورة الغثة فيطمس معالم الصور جميعاً ، ويخنق تأثيرها ويمسخها .

وإذن فالفن لن يكون حقاً فناً ولن يرتفع إلى روعة التأثير واكماله ، إلا إذا نشب الصراع بين الفنان ونفسه ، أى إلا إذا غالب الفنان احتدام عواطفه وأخيلته جهده ، واستطاع أن يروض تلك العواطف والأخيلة ويكبحها ويحصرها ثم يتخير الصالح القوى المعبر منها ، ثم يبرزه وينسقه ويصقله ، بحيث يخرج العمل الفنى كالزهرة المتألقة السليمة ، فى ظاهرها نضرة الجمال المتكامل الأمثل ، وفى باطنها فوضى الطبيعة أى حتدام القوى الطبيعية التى أبدعتها ، والتى عرف الفنان كيف يضبطها

أسوة بالطبيعة التى تضبط نظامها وقوانينها وهى تختال أمام الناظر فى أبدع حلل جمالها وأغربها .

وهذا هو عمل الإرادة ، أى عمل العقل . وفن بلا إرادة وعقل هو الفوضى . فوضى الطبيعة بلا ضابط يحكمها ، وبلا قوة فى مقدورها أن تشعرنا بعمق تناسبها واتساقها ونظامها .

فالفنان العظيم هو الذى يسيطر بعقله وإرادته على عواطفه ومولدات خياله ، كما تسيطر القوة الأبدية على عناصر الطبيعة وتقر فيها النظام برغم احتدامها . ولذلك شبهوا الفنان بتلك القوة وسموه خالقاً .

فالغرض من الفن والحالة هذه هو تصوير ما فى الكون والنفس من عواطف وأخيلة وأفكار ومرئيات ، راضها العقل ، وتحكم فى فوضاها ، وأضفى عليها حلة رائعة من جمال التناسب والنظام الماثل فى الطبيعة نفسها ، والمعبر عن الصورة أو القوة الجمالية العليا التى أوجدتها .

وهذا هو السر فى أن جميع الأعمال الفنية الخليقة بهذا الاسم توحى إلينا وتغرينا بفضائل ثلاث هى : الشعور بالقدرة البشرية ، والإحساس بتلك الصورة الجمالية الإلهية العليا ، والتطلع إليها باعتبارها قوة مثالية تجذبنا إلى محيطها ، وترقى بنا إلى نورها ، وتكمل نقصنا فى سمائها ، وتعزز فى نفوسنا شعورنا بالقدرة مقروناً بتلهفنا الروحى الأصيل على تحقيق عالم أمثل من الجمال والخير والحق .

وقديماً كان أرسطو يقول : « إن فن التراجيديا وهو يصور عواطفنا وميولنا وحكم القدر علينا تصويراً يسوده عقل الفنان المنظم ، يتغلب على تلك العواطف والميول ، بل على تصاريف القدر نفسها ، فيعلمنا نحن أيضاً كيف نتغلب على مصيرنا ونحتمله ، وكيف نرتفع بهذا التغلب الإرادى ونسمو إلى مصاف الآلهة ! »

وما يصدق على فن التراجيديا يصدق على جميع الفنون وحتى على فن الموسيقى الذى يعبر بالنغم ، وفن النحت الذى يعبر بالحجر . ففن

الموسيقى هو أيضاً فن قدرة واستعلاء إذ هو فى محاولة التعبير عن انفعالات النفس بالنغم ، يخضع الأنغام المتنافرة لقانون التلاؤم والانسجام والوحدة ، أى يخضعها إخضاعاً رياضياً أساسه العقل والإرادة .

وأما فن النحت ، فهو ليس فن الجمود ، بل هو فن الحركة . فن التجرد من سلطان الزمن وسلطان الحركة . كى يثبت الزمن وتثبت الحركة ، فيصبح التمثال الفنى هو الزمن باقياً والحركة خالدة ، ضمهما الفنان بعقله وإرادته فى وضع واحد يشع بمختلف الأوضاع وتتراءى فيه وتنبعث منه كلما نظرنا إليه أبعد وأعمق تصوراتنا وأحلامنا .

فقيمة الفن العظيم إذن هى توكيده لنزعة السيادة فى أرقى مراتبها . السيادة على النفس ، والسيادة على الطبيعة ، فى محاولة إبداع جمال يثبت قدرة النفس ، ويجاوز حدود النقص الكامن فى طبيعة الإنسان .

لهذا يعتبر الفنان العبقرى ، كما يقول « نيتشه » ، المخلوق الوحيد الذى يرتفع بنفسه وبالحياة ، ويمثل فى اتقاد بصيرته وعقله ، وتوتر أعصابه وإرادته ، وقوة تغلبه وسيطرته ، فضائل الإنسان الأعلى أتم وأبلغ تمثيل .

## نزعة الفن العصرى

الفن العصرى الأوربى ، ولا سيما فن الرسم أو النحت ، لم يعد يحفل بالنظرة العالمية بل يغلب عليها نظرة التفنن الفردية التى تنبعث من وعى الفنان الباطن ولا ترتد فى الغالب إلا إليه هو .

فهذا الفنان العصرى يقطع الصلة بالماضى ، وينطلق فى التفنن الفردى غير مكترث لمشاركة الجماهير فى فهم عمله الفنى وتذوقه . فهو لا يهتم بالقيم الأبدية بل يحصر اهتمامه فى أن يخلق لفنه عالماً جديداً واتجاهاً جديداً وصناعة تكنيكية جديدة ولو جاء فنه غريباً وشاذاً وخارجاً على كل مألوف .

وليس من شك فى أن المألوف الذى لا تجديد فيه والذى تبرز ألوانه فى وضوح يعوزه العمق ، غير جدير بفنان ممتاز . ولكن الفن الشاذ شذوذاً صارخاً هو فن يكتنفه ولا شك الإبهام والظلام ، ولا بد أن يبعث فى النفس الحيرة والتخبط والفوضى .

فالولع المفرط بالشذوذ فى التجديد والصناعة والتكنيك ، يجعل الفن العصرى مستغلق الفهم على الناس ومقطوع الصلة بواقعهم ، فيفقد بذلك قيمته كرسالة إنسانية يتأثر بها ويستجيب لها الجميع .

ومن المحال أن يستجيب الناس إلى فن من الفنون يضاعف من وحدة الفنان ويلقى بهم هم أيضاً فى هاوية التخبط والوحدة ، فن تغلب فيه نزعة التفنن العقلية الصناعية الموغلة فى الفردية ، على الأخيلة والعواطف والمشاعر التى يمكن أن ينفعل بها المثقف الممتاز وكذلك متوسط الثقافة ، فيلتقى الكل فى فهمها وتذوقها مهما اختلفت المنازع والميول .

فالتوفيق بين نزعة الابتكار والتجديد التى تتمثل فى شخصية الفنان وفرديته ، وبين ما هو جوهرى وأبدى فى الحياة ، ولو من خلال ألوان طريفة طرافة تبدو لأول وهلة غامضة ، أو من خلال ظلمة نيرة لا تكاد تثير الدهش والفضول حتى تحث على الفهم والتأمل ، وهى تحرك العقل والقلب والروح ، هذا التوفيق هو ميزة الفن الباقى ، وهو الذى يوثق الصلة بين الفنان والناس ، ويجعل من الفن رسالة إنسانية خصبة لا مجرد ألاعيب ذهنية شكلية تزول بزوال الموضة التى أشاعتها ولا يبقى منها على الزمن شىء .

## الحكيم والفنان

الحكمة يجب أن تلازم الفنان . والفنان وإن كان هو الرجل العاصف إلا أنه ينبغى فى الوقت نفسه أن يكون الرجل الحكيم .

والواقع أن الحكيم والفنان لا يتنافران . وكما أن الحكيم يجب أن يحذر

الشطط فى الفكر ، كذلك الفنان يجب أن يحذر الشطط فى رسم العواطف ، وإلا جمحت به عواطفه فازداد اتقاد مزاجه العاصف ، فشوه الحقيقة وأحالها إلى مجرد وهم .

ولقد كان الفلاسفة الرواقيون يقرنون على الدوام بين شخصية الحكيم وشخصية الفنان ، ويقولون إن فضيلة ضبط النفس هى التى توثق الرابطة بين العقل والعاطفة ، وبين الفكر والانفعال . فتتولد منها فضيلة التوازن المثلى التى يجب أن يمتاز بها خلق الحكيم كما يجب أن يمتاز بها عمل الفنان .

## الوهم والخيال

ليست الفنون وهماً كما يعتقد البعض . إنها خيال . والخيال شىء ، والوهم شىء آخر . الوهم يتغذى من نفسه ، فيستنزف نفسه ، فيختنق فى قبو الدماغ الملىء بالأشباح . أما الخيال فيصدر عن الواقع ويرتد إليه . وخيال الفنان، لفرط ما هو مندمج فى الواقع يصبح فى العمل الفنى حافزاً واقعياً إيجابياً يؤثر أبلغ الأثر فى العقل والقلب والوجدان .

## خيال فريد

الفنان الأصيل مهما تمرس بالأعمال الفنية العظيمة ، ومهما تأملها وتعمق دراستها ، فهو لابد يحس مع ذلك أن فيها نقصاً ، وأنها ليست كما يجب أن تكون ، وأن شيئاً آخر أكمل منها وأروع يكمن فى خياله هو وفى تصوره هو .

فخياله المستقل لايفتأ يعذبه ، وهو لا يهدأ حتى يحقق هذا الخيال فى عمل فنى خاص . فإذا أبدع العمل وتأمله ، هاله الفارق بين حلمه وعمله . فتبرم أيضاً بعمله ، واستنكره كأنما هو قد خان نفسه فيه ، وظل يجرى وراء خياله الفريد وهو يتعذب .

## تململ وطموح

حينما يقول الفنان متأففاً : « ماجدوى أى شىء » لا يكون فى الواقع قد برم بكل شىء ، بل يكون ، وقد اشتدت به عوامل الحيرة والقلق والطموح ، تواقاً إلى إبداع عمل عظيم يجمع فيه كل شىء .

## شباب أبدى

الفنان أبدى الشباب ، وأهواؤه دائماً عنيفة ، وهى منجمه الذى يستخرج منه شتى الكنوز . ولا فن بدون هوى عنيف كما أن لا شباب بدون دم حار .

فالهوى العنيف يصدر عن حب عنيف للحياة ، وكل عمل فنى ينم ولا ريب عن هذا الحب العنيف للحياة ، حتى ولو أبدعه الفنان وهو فى غمرة يأس جارف من الناس ومن كل غاية أو قيمة أو معنى للحياة .

## نضارة الأبد

إذا كان لكل فنان روح شاب ، ففيه أيضاً روح طفل تواق إلى استكشاف الجديد فى الحياة فى كل خطوة . وهو لو فقد روح الطفولة هذه ، فقدت أعماله نضارة الأبد .

## امتياز الروح

الفنان الأصيل تبرز الطرافة فى عمله بدون أن يبحث هو عنها أو يفكر فيها . إنها امتياز روحه ، استخفى عليه، ثم تكشف فى عمله على غير وعى منه . أما الفنان الذى يسعى وراء الطرافة عامداً ، فهو يسعى إليها بعقله ، شعوراً منه بأن روحه ليست من الأصالة بحيث يطمئن إليها ويثق فى خصبها وثرائها .

ومن الناس من لا يقيِّم العمل الفنى إلا بقدر ما يشتمل عليه من طرافة عقلية شكلية معقدة تثير الدهش . أما البساطة الروحية الفطرية فلا تستهويه بل يستخف بها ، فى حين أن أثمن وأروع طرافة قد تكمن فيها كما فى أعمال الرسام « شردان » أو الأديب الفنان « تلستوى » .

## البساطة فى الفن والحياة

البساطة فى الزى ، وفى مطالب الحياة ، وفى الفن ، هى الدليل البالغ على شخصية متفوقة فى الفكر والطبع ، تستنكر أن تنخذع وتخدع فتجرد الحياة من زخارفها الباطلة وتنظر إليها فقط من الأعماق .

## ماء الينبوع

الفنان العظيم هو الذى يبدع لنا العمل الفنى مخفياً جهد الطاقة ما تكبد من مشقة فى وضعه ، بحيث يشعر نا كأنه قد نفض يده منه الساعة ، وكأن العمل الفنى ينبثق أمامنا انبثاقاً طبيعياً وحراً ، ويتفجر كما يتفجر الماء من ينبوع .

## نجم وكارثة

للعمل الفنى الكامل روعة كروعة النجم ، وبطش كبطش الكارثة.

## الشكل والمضمون

العمل الفنى الخليق بهذا الاسم ، يجب أن يحمل اللانهاية فى المضمون ، والنهاية الكاملة فى الشكل والأسلوب .

## الإلهام امرأة

الفنان أو الأديب الحق لاينتظر ساعة الإلهام كى يعمل وينتج .

الإلهام متلون كالمرأة وزاخر بالنزوات مثلها . وهو قد يهبط اليوم على الفنان أو الأديب وقد يخذله أشهراً . فالعمل المتصل هو الذى يحرك مولدات العقل الباطن ، وهو باعث الإلهام وحافزه . والفن أو الأدب قل أن يثمر إلا بالعمل والإنتاج المنظم . ونحن لا نعرف أن أزمة عاطفية أو مالية أو عائلية بالغاً ما كان عنفها ، قد زعزعت أعصاب الشاعرين الكبيرين « جيته » و « هوجو » ، وأنستهما ما عليهما من واجب ، وصرفتهما عن الإنتاج المنظم اليومى .

## عدو الفن

البؤس عدو الفن . ولا يعذب الفنان البائس الأصيل أكثر من عمل فنى يجب أن ينجزه ، لقاء أجر معين يكفل له القوت الضرورى .

## عدو الجمال

من الناس من يحب أن يزين عقله وقلبه ، ومنهم من يحب أن يزين جسده وبيته ، ومنهم من لا يحفل بأن يزين فى حياته أى شىء .

## الفنان يتحدى . . .

أروع الأعمال الفنية قد تندثر يوماً وتموت . ولكن الفنان سيظل يخلق ، متحديا بإرادة الخلق الكامنة فيه ، حكم الموت المحتم على الإنسانية بأسرها .

## نظرتنا إلى الجمال . .

نحن مازلنا نحكم على الجمال لا بتناسب أوضاعه ، وانسجام خطوطه ، واتساق ألوانه ، وما يبعثه فى الفكر والنفس من روعة وسمو ، بل نحكم عليه من خلال معاييرنا الحسية أو الشهوية .

فالألوان الصارخة ، والأنغام الباكية النائحة ، والأساليب الأدبية الطنانة ، والنكت القائمة على المبالغة ، والأفلام والمسرحيات والقصص الشهوية المثيرة ، كل ذلك يذهلنا فنعتقد فى سذاجة أن التهاويل البهلوانية فكر ، والإثارة الحسية فن ، والانفعال العصبى العنيف هو الغاية من عمل الفنان .

والتبعة فى هذا تقع على عاتق أدبائنا ونقادنا ، إذ هم الموكلون بصقل الحاسة الجمالية الصحيحة عند الجماهير والارتفاع بها عن كل ما هو غث ورخيص ومبتذل .

## آفاتنا الأربع

آفات مصر أربع : التواكل ، والبطنة ، والحشيش ، والموسيقى الشرقية .

## فن الموسيقى عندنا

إن إرادة الحرية أشعرت الأمم العربية بأن لا حرية بدون علم ، ولا نهضة سياسية بدون نهضة أدبية وفنية تعززها . فاستطاع الفكر فى الشرق العربى ولا سيما فى مصر ولبنان أن يجدد الأدب بمختلف فروعه من قصة وشعر وتمثيلية ودراسة ومقال ، وأن يشرب الأدب روح الأساليب الأوربية الحديثة وينتقل به من دائرة التصور المطلق إلى فسحات الواقع الحى . وكما ارتقى الأدب فى مصر كذلك ارتقت فيها فنون الرسم والنحت ، واتجه أصحابها إلى الغرب أيضاً . فاقتبسوا منه الأوضاع والأصول وحاولوا التعبير بها عن النفسية المصرية خاصة والشرقية عامة .

وهكذا سايرت الآداب والفنون فى الشرق العربى تيار الغرب ، عدا فن الموسيقى الذى بقى جامداً تردد ألحانه صدى الماضى السحيق .

ونحن لا ننكر أن بعض الملحنين عندنا حاولوا ويحاولون تجديد

موسيقانا . ولكن أساليبهم فى التجديد تتناول العرض فقط ، والشكل فقط ، والتطعيم بالنغمات الأوربية فقط ، دون أن تمس أصول الموسيقى الشرقية ودون أن تحدث فيها أى انقلاب جوهرى .

فما السر فى تقدم الأدب وبعض الفنون عندنا وركود فن الموسيقى ؟ . .

الواقع أن هذه الظاهرة ترجع إلى سبب واضح وهو أننا قبل نهضتنا الحالية لم نكن قد عرفنا فنون الرسم والنحت والتمثيل المسرحى بمعناها الحديث . فلما أخذنا بأساليب الفكر الغربى فى الأدب ، نقلنا تلك الفنون أيضاً من مصدرها المباشر . فكان اقتباسها سهلا علينا ، وكانت هذه الحركة بالنسبة لنا شبه طفرة فصلت بين القديم والحديث .

وأما فن الموسيقى فكان قائماً عندنا . كان للشرق العربى فنه الموسيقى المعين ، ونزعته الموسيقية المستقلة التى تمكنت منه وتغلغت فيه وتأصلت فى نفوس أبنائه ، وخلقت لهم أذناً خاصة ومزاجاً خاصًّا وطابعاً متفرداً فى الإحساس والشعور .

فهذا الرسوخ فى الماضى هو الذى عاق تطور موسيقانا ، وهو الذى جعلها اليوم فى مؤخرة آدابنا وفنونا ، وأبقاها فى جوهرها فنّاً جامداً يشعر حياله الإنسان الشرقى الحديث باتساع الهوة بين عقله وإحساسه ، بين فكره ووجدانه ، بين ذهنه المتطلع وقلبه المتخلف ، بين ثقافته العصرية وتعبيره الفنى .

فروح الشرق الناهض الجديد لم تعد تعبر عنها موسيقاه .

والحقيقة أن الموسيقى الشرقية فى أوضاعها الحاضرة فن لم يخرج كثيراً عن طوره المألوف ، أو هى لم تصبح بعد فنًّا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة إذ يشترط فى كل فن صدق التعبير ، وتنوع غاياته ، واتساع أفقه ، وجمال تأديته ، ونبل وحيه ، وشيوع نزعة التسامى فيه .

فما هى غايات الموسيقى الشرقية وما هو وحيها وعم تعبر ؟ . .

نجيب فى صراحة أنها مجموعة من نغمات معينة رتيبة . يسيطر عليها نداء الجنس ، وتنطلق من غريزة الجنس ، ولا تخاطب غير هذه الغريزة وشتى انفعالاتها .

فإذلال النفس أمام الحبيب ، وإطراؤه . وتملقه . والتخنث من أجله ، واستجداء رضاه بالبكاء والندب والشكوى ، هى النغمات الرئيسية المتحكمة فى موسيقانا . وأما غايتها فواحدة لا تتبدل وهى الوصال ، أى التمتع بهذا الحبيب تمتعاً جنسيًّا مجرداً .

فالرقة والنعومة والحلاوة الشائعة فى تلك النغمات . تزيف علينا العواطف ، وتزيف علينا الشعر والجمال ، بينا هى فى صميمها شهوية الغرض حسية الغاية والمعنى . بل إن ما فيها من تثنيات متشابكة ، والتواءات متداخلة ، وتأوهات وزفرات وشهقات حادة متقطعة ، لترمز إلى النداء الجنسى وتعبر عنه تعبيراً فاضحاً منكراً لا يجاريها فيه غير رقص البطن البغيض المرذول .

فإذا كانت الموسيقى الغربية توحى إلينابصورة المعبد . فالموسيقى الشرقية توحى إلينا بصورة الحان . وهى من هذه الوجهة تمثل نفسية الحان ورواده أتم تمثيل .

وأبلغ دليل على ذلك أنها لا تطرب السامع إلا وهى تفقده وعيه وتفصل بينه وبين ذاته ، وتغيبه فى لجة من الصراخ والهذيان والصخب والضجيج ، كتلك اللجة التى يغيب فيها وهو سكران . فتغريه بالخمر فعلا ، وتغريه بشهوة الجنس مقرونة بنشوة الخمر ، وتدفعه إلى التمتع باللذتين الساحقتين ، كى ينسى عقله وينسى نفسه وينسى العالم .

وإذن فليس هو الحب الذى تعبر عنه موسيقانا بل هى الشهوة الحسية . وما الحنين الممزق السارى فى نغماتها إلا حنيناً إلى الحرية . حنين الرجل الشرقى المستعبد القديم إلى الحرية ، حنين إلى كرامة الحرية التى كان محروماً منها ، وإلى المرأة التى كانت محجبة وكان يتلهف عليها ،

وإلى عاطفة الحب التى كان ينشدها فى المرأة وهو يتحسر تحسراً مريراً لعجزه عن الشعور بها .

فالحسرة على حب مستحيل التحقيق فى مجتمع كان مستعبداً وكان يفرق بين الجنسين ، هى التى ما تزال تخلع على موسيقانا ذلك اللون من الشكايات الأليمة الذى يسميه البعض « شجى » ، وما هو فى الواقع إلا صدى استعبادنا القديم ، ورمز عجزنا عن الحب الوجدانى عجزاً ضاقت به نفوسنا فتحولنا به فى موسيقانا إلى محيط الشهوة ، نغرقه فيها ونتخلص منه فى عبابها .

وليس بعجيب فى الموسيقى الشرقية أن الرجل يطرب الناس حين يغنى ألحانها أضعاف ماتطربهم المرأة . فالألحان فى أصلها بكاءة نائحة ، والرجل القوى إذ يؤديها وهو يتخنث ويتأوه ويشكو ويبكى ، يوقظ فينا إحساسنا القديم بالعبودية والحسرة ، ويؤثر فينا أكثر من المرأة التى يفرض فيها الضعف . وهكذا نرضى بأن نرتد بالحسرة إلى ماضينا ، وأن نبصر الرجولة تستذل أمامنا كى يستخفنا الطرب ونشعر بالتأثير العميق .

وأما الطرب فى الموسيقى الشرقية فهو طرب « سماعى » ، يلذ على الآذان وقعه ولا يجاوز كما قلنا حد الحواس لينفذ إلى القلب . وأما التعبير عن الحب وعن العواطف المتنوعة المتضاربة المتفرعة من الحب كالحيرة والقلق والأمل والحلم والغيرة والخيبة والكراهية والثورة والانتقام وغيرها فموسيقانا لاتوحى بها ، ولا تكشف الستر عنها ، ولا تحاول أن تصورها كى تعبر عن الحب فى مجموعه الإنسانى الأبدى تعبيراً منوعاً شاملا .

والحق أن التعبير المنوع ليس هو الهدف الذى ترمى إليه موسيقانا وإنما الهدف هو التعبير السماعى القائم على تأدية انفعال واحد ممثل فى نغمة مطربة واحدة أو فى عدة نغمات مطربة معينة .

فالملحن عندنا والحالة هذه ، لا يسجل من الحب غير مظهر التوسل والشكاية والسلبية والضعف ، مكتفياً بهذا المظهر وحده ، ومعتبراً إياه أصدق وأكمل صورة لعاطفة الحب .

على أن الملحن وإن أدرك بإلهامه أن الحب مجموعة عاطفية جياشة بالأهواء والميول المتنوعة المتمايزة ، وحاول أن يصور هذا التنوع فى موسيقاه فهو لن يجد من أصول الموسيقى الشرقية وقواعدها ما يعاونه على تحقيق التعبير المنوع الذى اهتدى إليه ببصيرته .

ومما يؤيد رأينا ، ذلك الفارق الملحوظ بين ألحان موسيقانا وبين معانى كلمات الأغنية المقترنة بهذه الألحان

فكلمات الأغنية قد يكون فيها ما يعبر ولو عن بعض مشاعر الغيرة مثلا كالغضب والاستنكار والحنق والحقد . ولكن الملحن لا يحفل بتأدية هذه المشاعر إطلاقاً . فترى اللحن ينزع إلى غاية وكلمات الأغنية إلى غاية أخرى ، بحيث إنك لو أبدلت تلك الكلمات بغيرها وركبت عليها الألحان نفسها ، ما أحدث هذا التغيير أى أثر فى القطعة الموسيقية ولظلت الأنغام مستقلة لا تعبر إلا عن الغرض الذى قصد إليه الملحن بصرف النظر عما قصد إليه الشاعر واضع كلمات الأغنية .

ومرجع هذه المهزلة كما ذكرنا إلى نزعة الطرب السماعى المتسمة بها موسيقانا ، وإلى تسلطها على وجدان الملحن ، وإلى اعتقاد الملحن أن الطرب المنشود يصدر عن لحنه هو ، وعن مبلغ قدرته فى التوفيق والملاءمة بين العقد والالتواءات والمحطات ومختلف ضروب « العفأ » ، لا عن قدرته فى التعبير عن معانى كلمات الأغنية وتصويرها جاهداً بألحانه .

فالأنغام المطربة المحددة التى يعرفها الملحن ويعرف تأثيرها المكفول فى الجمهور ، هى التى يصبها بنسب وأساليب مختلفة على كل لفظ وكل كلام مهما تباينت أغراض الكلام وتنوعت معانيه .

وهذا هو السر فى أن موسيقانا آلية متشابهة ، بل هذا هو السر فى السخط الذى يبديه شبابنا المثقف على كل تلك الأغنيات التى لا تفتأ تتكرر أنغامها فى ركود مذل للنفس مثير للأعصاب .

يسخط المثقفون ويشتد بعضهم فى السخط لشعورهم بأننا أصبحنا اليوم أرقى من موسيقانا .

لقد تقدمنا فلم تلحق الموسيقى بنا ، وتطورنا فتخلفت عنا ، وتنوعت ميولنا وإحساساتنا وما تزال موسيقانا راسبة جامدة لاتنقع غلة أرواحنا .

وقد تكون هذه الموسيقى فى وضعها الحالى متفقة ونفسية الجماهير المتخلفة من شعبنا ، ولكن وظيفة الفن أن يرتفع بالجماهير لا أن ينحدر إليها ، أن يجدد إحساسها وشعورها لا أن يمالئها على ذوقها ومزاجها . غير أن الملحن عندنا أسير الجماهير وأسير المصلحة . يضع من الألحان ما يرضى تلك الجماهير ويدر عليه المال ، ثم يأبى إلا أن يفرض ألحانه على الشعب كله باعتبارها فناً قومياً يعبر عن روح الشرق ويحمل طابعه .

بيد أن الشرق الناهض لم يعد يؤخذ بهذه الألحان ، ولم يعد ممثلا فى هذه الموسيقى . فإذا نحن أبقينا عليها وأغضينا الطرف عنها وخدعنا بواجب الحرص على لونها الشرقى المزعوم ، عطلنا نهضتنا وغررنا بأنفسنا وبالناس .

فواجبنا اليوم أن ندعو إلى فن موسيقى جديد . فن يمثل نهضتنا ويساير تطورنا ويعبر عن المستحدث العميق من أهوائنا وميولنا .

نحن لم نعد سلبيين ، ولم نعد أذلاء متواكلين . لم نعد نقنع من الحياة بالتأمل الأجوف ، والحلم الباطل ، والرخاوة العابثة المستسلمة . لم نعد نقنع من المرأة بالأنثى ، ومن الحواس بالشهوة ، ومن الحب بألوان التحرق وظواهر التوجع وصنوف التوسل والتضرع والابتهال .

إن فينا لقوى إيجابية تتحرك وتنطلق وتعمل . ونحن بعد هذا أناس كغيرنا ، لا نتوسل فقط عندما نحب ولا نشتهى فقط ونبكى ونستبكى ، بل ننفعل ونفكر ، نغار ونحقد ، نثور ونتمرد ، نسمو أو ننحط . فهذه العوامل جميعاً وما يتصل بها ويتفرع منها يجب أن تترادف وتتآلف

وتتمثل في القطعة الموسيقية العاطفية الجديرة بأن تحمل اسم الفن .

ولا سبيل إلى تحقيق الفن الجدير بهذا الاسم في موسيقانا إلا بهجر نظام الطرب السماعي أي « الميلودى » ، والأخذ بموسيقى الغرب ونظامها القائم على « الهارمونى » ، أي التعبير عن جملة عواطف وانفعالات متباينة يوفق الملحن بين أنغامها المتنافرة ويجمعها في وحدة حية متماسكة ومنسجمة .

تلك هي قيمة الفن الموسيقى الرفيع ، وهذا هو النظام الذى نحتاج إليه ، وما دمنا لم ندخله بعد على موسيقانا ، فلا يمكن أن نسميها فناً ، إذ فن الموسيقى هو انفعال الروح بوساطة التعبير العاطفي الشامل ، لا طرب الأذن فقط بوساطة البراعة البهلوانية في صناعة « أرابسك » زخرفي معقد من الأنغام .

وقد يتوهم البعض أن إدخال نظام الهارمونى على موسيقانا يفقدها طابعها الشرقى . ولكن الأتراك أدخلوه على موسيقاهم فتجددت واتسعت آفاقها وظلت مع ذلك تركية صميمة .

وأما الموسيقى الروسية والأسبانية فهى أيضاً غربية الأوضاع . ومع ذلك ففيها الطرب الشرقى إلى جانب مختلف ضروب التعبير ، وفيها الميلوديا الشرقية مندمجة في الهارمونى ، وفيها من رقة الشرق وعذوبته ، وعنف عواطفه وانفعالاته ، وروعة تطلعاته الدينية ونزعاته الصوفية ، ما يعبر عن روحه أصدق وأعمق تعبير .

فنحن لن نفقد خصائصنا الشرقية إن جددنا موسيقانا ، بل نوسع أفقها وخيالها ، ونعزز خصائصها ونؤكدها ، بشرط أن نتخذ من قواعد الموسيقى الغربية وسيلة للابتكار لا للتقليد ، وللإبداع مقطوعات يتجلى فيها روحنا الشرقي على وضع أرحب وأكمل وأغنى .

وأما تلك الطائفة من ملحنينا التي تزعم أنها تنزع نزعة عصرية وأنها تبتكر وتجدد ، فتجديدها لا يتمثل حتى الآن إلا في ترقيع النغمات الشرقية

المطربة ببعض النغمات الأوربية الشائعة ، دون توفر سابق على دراسة أوضاع الموسيقى الغربية ودون إحداث أى انقلاب جوهرى فى موسيقانا . وهكذا يسفر هذا الترقيع أو التجديد الزائف عن وضع قطع موسيقية ذات أنغام مشوشة متناكرة لا رابط بينها ولا وحدة ولا انسجام فيها . أنغام لا ترقى إلى مستوى التعبير بالمعنى الفنى الذى بسطناه ، بل تؤدى على النقيض إلى مضاعفة تأثير النغمة الشرقية السماعية المطربة التى ألفناها ، بفعل التأثير المعاكس النابى الذى يحدثه فى نفوسنا ذلك النغم الأجنبى المحشور فى القطعة حشراً والذى لا يمت فى الواقع إلى مجموعها بأية صلة .

وعندى أن من أفضل الوسائل التى يجب أن نأخذ بها كى يألف جمهورنا النغمة الغربية الوجدانية المعبرة ، أن نبدأ باختيار بعض الأغنيات الأجنبية العاطفية الخفيفة التى يتفق شىء من لونها الموسيقى مع طابعنا ومزاجنا ، ثم نضع لتلك الأغنيات كلمات عربية تنسجم ولحنها ، ثم نعهد بغنائها إلى نفر من مطربينا ذوى الصوت العريض الذى يصور العاطفة فى امتدادها الطليق واندفاقها الحر ، لا الصوت الشرقى الضيق الذى « يعفأ » النغم ، فيخنقه ، ويخنق العاطفة ، ويحول بينها وبين ذلك الانطلاق الطبيعى الحر .

وهكذا تأنس أذننا الشرقية اللحن الأجنبى ، فنألفه شيئاً فشيئاً فنستطيع أن نتدرج ونتذوق الموسيقى الغربية الرصينة ، مما يعاون الملحن المصرى على التطور بموسيقانا وصبها فى القالب الغربى ، بحيث تصبح فناً شرقياً وإنسانياً فيه التعبير الصادق الكامل عن مختلف مشاعر القلب والوجدان .

* * *

هذه لمحة فى دراسة سيكولوجية الموسيقى الشرقية ، أردنا بها لفت النظر إلى مافيها من قصور وتخاذل ، وإلى ضرورة أخذها بانقلاب يجددها ويرفعها وينفث فيها روح الفن والجمال والحياة .

## من هو الفنان ؟ ...

سمعت هذه العبارة من المثال المصرى النابغة «مختار» :

إن الذى يشتغل بيديه هو العامل ، والذى يشتغل بيديه وعقله هو الصانع . أما الذى يشتغل بيديه وعقله وقلبه فهو الفنان !

# الروح المصرية
# فى فن المثال محمود مختار

عرفته فى مقهى « ريجينا » بشارع عماد الدين ، رجلا جم النشاط ، وافر الحيوية ، لماح الفكر ، سريع البادرة ، لايكاد يتحدث عن فنه حتى يتقد صوته ، ويشرق وجهه ، وتتسع حدقتاه ، وتلتمع فى عينيه الحالمتين ، بوارق خاطفة من تلك الشعلة المقدسة التى تضطرم نارها فى قلب كل فنان موهوب وعقله .

وكان يصحبه الشيخ مصطفى عبد الرازق ، الرجل الوديع الرقيق المصقول الذى أكسبته الثقافة الفرنسية والحياة الطويلة فى باريس ، دقة فى الفكر ، ونعومة فى الذوق ، وأناقة فى المظهر ، ومنطقاً فى الجدل والنقاش .

وأخذنا نتحدث عن كبار المثالين الفرنسيين ولا سيما عن « بورديل » و « رودان » . فأطرى الشيخ مصطفى أعمال بورديل ورفعها إلى القمة . فاعترضه مختار ، وأثنى على هذا الفنان الكبير . ولكنه آثر عليه « رودان » ، واعتبر فنه نفحة من نفحات عصر النهضة ، وقبساً من روح « ميكل أنجلو » .

واشتد النقاش بين الرجلين . ثم صمت مختار فجأة وأمعن فى التأمل والتفكير . ثم قطب حاجبيه ، وشرد ببصره ، ونطق بهذه العبارات ، التى استشعرت أنا وهو يرسلها فى بطء وإصرار ، أنها تمثل اتجاهه ومنزعه والغاية البعيدة التى ينشدها لفنه . قال : « الواقعية الحية المقترنة بالقدرة على التعبير عما هو قوى وجليل ومنبثق من تربة الفنان ومن الطبيعة الحرة فى جوهرها الثابت الأبدى ، تلك هى عظمة « رودان » ، وذلك هو المثل الفنى الأعلى . »

فانبهرت أنا ، ووجم الشيخ مصطفى ولم يسعه إلا أن يقتنع ويسلم . ثم نهض معتذراً وحيانا وهو يشد على يد مختار ، ويعرب له عن خالص

إعجابه بذكائه ، وعن ثقته العميقة فى نبوغه ومستقبله .

وانصرف الرجل ، وتشبثت أنا بمختار ، وأبيت إلا أن أدعوه لتناول طعام العشاء فى بيتى . فلم يتردد . وسرنا الهوينا وأنا متأبط ذراعه ، وهو يتحدث إلى فى الفن ويلقى علىّ مقطوعات من الشعر . فراعنى منه أنه فنان وفى الوقت نفسه أديب وشاعر ، لايلبث أن يحس عاطفة مفاجئة وغلابة حتى يسرع ويرسمها فى مقطوعات من الشعر المنثور تختلج صدقاً وحرارة وحياة .

ودخلنا البيت ، ونفذنا إلى حجرة مكتبى . فلم تتمهل والدتى ، واندفعت إلى المطبخ ، وأعدت لنا قرصاً كبيراً من العجة ، وبعض شرائح من اللحم المحمر ، وطبقاً من البطاطس المقلى . ثم جاءت بها إلى الحجرة فى صينية كبيرة وضعتها فوق منضدة . فشكرها مختار وشرع يأكل . ولكنه كان يأكل وهو لا يرى ما يأكل . كان تائهاً فى فكره ، سابحاً فى حلمه ، يزدرد الطعام ازدراداً . وعينه الحائمة الثاقبة تنظر إلى مختلف الصور التى زينت بها أنا حجرة مكتبى ، والتى كان بعضها للمصور « ماتيس » وآخر لـ « اسلان » وغيرها لـ « فان دونجن » . و« مانيه » .

وكان مختار يتأمل الصور ولا يفتأ يعلق عليها ، مبرزاً جوانب الفن فيها مميزاً بين أسلوب هذا وطريقة ذاك ، ممعناً فى التحدث عن مدارس الرسم المتباينة كأنه بطبعه ومزاجه مصور لا مثال .

وفجأة طرق الباب ، ودخلت امرأة صعيدية من قريبات والدتى . فلمحها مختار ، فثبت نظره فيها ، ووقعت من يده قطعة الخبز ، وظل يحدق إلى المرأة شبه مأخوذ . . .

وكانت المرأة فلاحة بنت فلاح ، متشحة بالسواد من قمة رأسها إلى أخمص قدميها ، ذات وجه بيضاوى أسمر دقيق التقاطيع مشرب بحمرة خمرية ، عريضة المنكبين ، ناهدة الصدر ، نحيلة الخصر ،

منصوبة القامة فى عزة راسخة تلطفها ابتسامة ناضرة ، ونظرة ساذجة ، ولفتة رشيقة بريئة ملؤها الخفر والتحفظ والاحتشام .

ولبث مختار يتأملها عن بعد كأنما هو يُشربها خياله ، أو كأنها قد استجابت لما فى ذهنه من خيال . ثم مال إلىّ وهتف : « هذه الفلاحة هى بنت أرضنا . هى ثروتنا وعمادنا . هى روحنا وعبقريتنا ووحينا . إنها هى التى تحتل خيالى . ولن يقرلى قرارحتى أبدع منها حلمى المرتجى وفنى المنشود » .

ثم انصرف ، واحتجب عنى وعن أصدقائه ، وسافر إلى باريس حيث عرض فى معرض الفنانين الفرنسيين تمثالين بديعين هما « لقية فى وادى الملوك » و « كاتمة الأسرار » ، فتألق نجمه ، وفاز بإعجاب نقاد فرنسا الذين رأوا فيه فناناً مصرياً صميماً يحمل طابع جنسه وعنصره .

جالت بذهنى هذه الذكريات وأنا أطالع الكتاب الفذ الذى وضعه عن حياة وفن مختار ابن شقيقته الأستاذ الأديب بدرالدين أبو غازى .

والحق أن الكتاب يمتاز بأسلوب جزل وشائق ، وتحليل دقيق وعميق ، ونظرات جامعة وشاملة تصب ضوءاً ساطعاً على شتى الخصائص الفنية التى تفردت بها أعمال مختار .

وأبرز هذه الخصائص هى المصرية العريقة الصادقة ، استلهمها مختار من ريف مصر الذى نشأ فيه ، أى من أرض مصر وسمائها وفلاحيها وماضى حضارتها المجيد .

والواقع أن مختار تأمل ودرس هذه الحضارة ، واستوعب الفن الفرعونى ، وحاول برغم القرون التى تفصله عنه أن يجدد تقاليده بأن يودع فى تماثيله هو ذلك السكون الفرعونى الخالب وما يوحى به من مشاعر العزة والجلال والنبل .

على أن السكون ليس هو الجمود . ففن مختار نابض بالواقعية والحياة ،

وتماثيله خطوط محكمة ، تتزاوج مع الشكل ، وتبرز الملامح الأساسية لكل تمثال . أما سطوحه فيتخللها النور ، وأما أسلوبه فيكاد يبلغ حد الكمال فى البساطة والإيجاز مقترنين بذلك الجلال الفرعونى الساحر .

ففى تمثاله « إلى النهر » ، تلوح فلاحاته وهن فى طريقهن إلى النهر وفى عودتهن منه ، نابضات بالحركة والتوثب والشباب . وفى تمثال « امرأة شيخ البلد » ، نحس فى تعبيره العظمة والنبل ، وفى تشكيله تلك البساطة التقليدية التى تحفظ للتمثال كل طاقته الموحية . وفى صياغته ، ذات الخطوط المتناسقة المتناغمة ، ذلك الإحساس الدينى النابع من النفس الصافية والمقترن بالحركة اليومية الواقعية فى ارتعاشها الطبيعى المذهل .

وفى تمثال « نحو الحبيب » نرى العروس الشابة متجهة نحو حبيبها وفى جسدها نضرة صباها ، وفى ردائها بساطة حياتها ، وفى حركتها المسحة المصرية نفسها من العزة والجلال . وفى تمثال « مناجاة الحب » نرى العاشق الفلاح يتطلع إلى معشوقته بكل ما فيه من عنف العشق المنبعث من انجذاب فطرى وحسى مخبّل ومتضرع ، على حين تبتسم المعشوقة له وترمقه بنظرة جانبية هادئة وفاحصة ، ومع ذلك متشككة وغير مصدقة ، وفى الوقت نفسه مبتهجة وراغبة .

هذا التمثال فى عرفى طرفة ، وكذلك تمثال « على شاطئ النيل » : ففيه يمثل مختار فلاحة تحمل جرتها على رأسها ، ويلوح فى حركتها أيضاً وفى توازن خطوط تشكيلها ذلك النبل الرائع المصرى الأصيل .

وليس من شك فى أن الفلاحة حاملة الجرة التى ظلت على مر العصور تخطر بخطوات كأنها النغم المردد على ضفاف النيل ، تبدو لنا اليوم وقد مثلها مختار فى همسها وبساطتها ورقتها ومرونة أعضائها تحت الخطوط المستقيمة لردائها ، أكثر قرباً منا ، وأبلغ فى التأثير علينا من التماثيل الضخمة التى كانت تقام خارج المعابد الفرعونية .

وأما تمثال « نهضة مصر » وهو صرخة البعث والإيمان منطلقة من صدر

مختار ، فنرى الفن الفرعونى واليقظة الوطنية المصرية ممثلين فيه خير تمثيل . فالمرأة واقفة فى اعتداد تستند بيدها على رأس أبى الهول ، وترفع باليد الأخرى الحجاب الذى كان يعزلها عن العالم ، وتتجه بوجهها صوب المستقبل فى عزة وثقة ، وعلى ملامحها جلال تضفيه ذكريات الماضى ، وفى نظرتها إرادة منبعثة من شباب مصر الخالد ، وبجوارها أبو الهول ينهض من مهاده الرملى ، ويتطلع إلى العالم فى غير دهشة ، ودون أن يفقد هو أيضاً هدوءه وعزته وجلاله .

فمن هذه المجموعة المتماسكة تشع بارقة الأمل ، وترتفع دعوة الحياة ، ويتأكد سلطان القوة والإرادة والعزم الراسخ على المجالدة والكفاح .

فمختار فى حياته الفنية وفى جهاده المتصل ، قد تأثر أول الأمر بفن رودان والفن الإغريقى الرومانى . ولكنه لم يطمئن ، وظل يبحث عن نفسه ، حتى استطاع أن يتحرر من تلك المؤثرات ، ويرتد إلى تقاليد أجداده الأقدمين ، ويدمج فنهم الخالد فى روح عصره ، ونهضة بلاده ، وتطلعات شعبه ، إدماجاً عبر به عن عبقرية خاصة ومنزع فنى مستقل .

كل هذا جلاه الأستاذ الأديب بدر الدين أبو غازى ، فى دقة وتكامل وإشراق . فجاء كتابه مع الملحق النفيس الذى أردفه به ، تحفة أدبية خالصة ، ودراسة فنية ممتعة ، خليقة بمختار ، وجديرة بأن ينعم النظر فيها ويستلهمها كل فنان مصرى ، يحس أن قيمة الإنسان من قيمة فنه ، فإما إلى هبوط وإما إلى ارتقاء .

## فن الرقص فى مصر القديمة

فى الإنسان كما أسلفنا أفكار وتطلعات لاتكتفى بالظاهر المحسوس بل تنظر إلى ماوراء المادة وتطلب شيئاً بعيداً لا نهائياً .

وهذا ما أدركه المصريون القدماء ، وما أثبتته عقائدهم وفنونهم ولا سيما فن الرقص .

ونحن بهذه الكلمة التى استرشدنا فيها بمقال للعالم المصرولوجى الفرنسى « ألكسندر موريه » ، نريد لفت النظر إلى طابع فن الرقص عند قدماء المصريين وإلى مستواه الرفيع فى المعنى والأداء ، عسى أن يستلهمه بعض المجددين عندنا ، فيحكموا الصلة بين ماضيهم وحاضرهم ، ويحاولوا إبداع رقص مصرى فنى جميل ينقذنا من رقص البطن البغيض المرذول .

كان المصريون القدماء على نبوغ ملحوظ فى فن الرقص . وكان رجالهم ونساؤهم يجيدون هذا الفن كما تشهد بذلك النقوش المصرية البادية على المقابر حيث يجثم رمز الموت على مقعد وهو يتأمل جمعاً من الرجال والنساء يرقصون ، وبالقرب منهم جمع آخر يصفق تصفيقاً متعاقباً توقع عليه حركات الرقص .

فالذى ينعم النظر فى تلك النقوش ، يتبين له أن ضفائر النساء طويلة وأنها تنتهى بشبه كرة تهتز أثناء الرقص اهتزازاً يؤدى إلى تماوج الضفائر حول جسم الراقصة تماوجاً ساحراً غريباً يقترن فيه الحزن بالفرح . فالمصريون القدماء كانوا لا يكتفون بتقديم الهبات المادية لموتاهم ، بل كانوا يعنون فى الوقت نفسه بإدخال السرور على نفوسهم من طريق الفن . ولقد كان أوزيريس يحب الإله توت ويعظمه ، وكان توت فى نظر المصريين عالماً وفناناً . فهو الذى أرشد الناس فى زعمهم إلى مبادئ علم الفلك ، وهو الذى راضهم على فن الموسيقى ، وهو الذى علمهم الرقص ومختلف أنواع الرياضة البدنية ، بعد أن ابتدع لهم القيثارة ذات الثلاثة الأوتار . فالرقص كان أصيلا عندهم ، ولم يكن ضرباً من ضروب التفريج والتسلية الرخيصة ، بل كان رجع صدى الحياة ، وفناً يراد به تمثيل الحياة . فالراقص الفذ هو الذى كان فى وسعه بحركاته المعبرة المنسجمة أن يحاكى ليونة الماء ، واضطرام النار ، وضراوة الأسد ، وغضب الفهد ، واصطفاق الموج ، ولهفة العذراء الطاهرة وهى تبحث

فى الفلاة المقمرة عن شقيق روحها المعبود :

وهذه المحاكاة الدقيقة من الراقص ، كانت تنم عن تقديسه للطبيعة وشعوره العميق بما فيها من عنصرى القوة والجمال . ولقد ابتكر المصريون فوق ذلك رقصات تمثل حركات الأفلاك ، تحدث عنها أفلاطون حديثاً ملؤه الإعجاب والتقدير . وأما المآدب التى كانوا يقيمونها تمجيداً للعجل « أبيس » فكانت تبدأ بحفلات رقص رائعة . فتتقدم الصفوف جموع الكهنة ويقوم الكهنة أنفسهم حول الهيكل بالرقصة الأولى . وكان الهيكل يمثل الشمس فى كبد السماء ، وحركات الرقص ترمز إلى مختلف التغيرات السماوية التى تحدث عندما تشرق الشمس أو تغيب ، وفى خلال تطور أضوائها طوال العام. وكان الكهنة لايتوجون أوزيريس ملكاً على المصريين فحسب ، بل يشيدون به أيضاً باعتباره أخاً للمصريين وذلك فى رقصات حماسية متقدة مبتهجة تشيع فى أفئدة الشعب مشاعر الفرح والحب والاعتزاز . ولما كان يحل موعد وفاة العجل أبيس ، كان الكهنة يشيعون جنازته بالرقص أيضاً ، فيرقصون فى الهيكل وفى الشوارع رقصاً ينم عن حزن شديد يظل مستحوذاً على نفوس الشعب حتى يظهر العجل الجديد، وعندئذ تستأنف المآدب والأفراح ، ويقضى الشعب أسبوعاً كاملا فى اللهو والرقص ، على حين يتبادل الفتيات والشبان عواطف الحب ، وكل منهم ينشد الزواج الموفق ، ويبحث فى الحب والزواج عن شقيق الروح .

والواقع أن العجل أبيس كان يمثل صورة مجسدة للإله فتاح ، ويرمز إلى القوة المبدعة التى أوجدت الطبيعة ، أى فى الحقيقة إلى الله . فكأن شعب مصر كان يعتبر الرقص نوعاً من العبادة ، وكان يمجد الله فى صورة الرب فتاح ، ويقدم الرقص قرباناً يعبر به عن عرفانه بجميل الخالق .

لهذا السبب كان الكهنة يتدربون على فنون الرياضة البدنية ،

والتلويح بالأذرع والأقدام قبل البدء بالتفقه فى علوم الدين ، كما كانوا يؤمنون بأن الراقصين متى اندمجوا فى رقصهم واشتدت حماستهم وعنفت حركاتهم ، فرقصهم الدينى يصل بينهم وبين القوة العليا ويستنزل الوحى الإلهى عليهم . ولقد ورد فى كتاب العلامة « لولى » عن تاريخ الفنون أن الرقص عند قدماء المصريين كان وثيق الصلة بمختلف شعائرهم وأن قوانينهم نظمته وحددت أصوله ، وخلعت عليه من ألوان التسبيح والفرح ما جعله أروع آية بين آيات العبادة والتمجيد .

فعلينا نحن اليوم أن ننعم النظر فى هذا الفن العظيم ، وأن نقبس منه ما استطعنا ، كى نحرر الرقص عندنا من مغريات الحس وعوامل الشهوة ، ونجعل منه فناً صحيحاً لا يمس ديننا وعقائدنا ، بل يرتفع بنا إلى تصوير الطبيعة وما فيها من جمال وقوة ، وإلى التعبير عن تطلعات قلوبنا وأرواحنا ، ذلك التعبير المعنوى النبيل الذى اهتدى إليه وأبدعه أسلافنا .

إنهم فى الغرب قد استوحوا من تاريخنا الفرعونى رقصات مبتكرة ورائعة ، طريفة الأوضاع ، غنية بالمعانى والرموز الإنسانية . فأجدر بنا وهذا التاريخ المجيد هو ماضينا ، أن ننحنى عليه ونعرف كيف نستلهمه ونبعثه .

# فى قيمة الوطنية



## وطنية الرئيس
## محمد أنور السادات

ظل مؤلف هذا الكتاب ينعم النظر فى شخصية الرئيس محمد أنور السادات ، ويتابعه فى أعماله وتصرفاته كلما تأزمت المواقف واستعصت وسائل علاجها . فآمن بالرجل . آمن بذكائه المتوقد ، وبصيرته المشرقة ، وعزيمته الماضية ، ووطنيته الصادقة ، وتأهبه الدائم لتحقيق مستقبل عظيم لأمته والشعوب العربية جمعاء. فلم يتمالك الكاتب إلا أن يعرب عن إعجابه وتقديره . فكتب الرسالة الخاصة التالية ، وبعث بها إلى الرئيس . فاستأذنت صحيفة « الأخبار » ونشرتها بعددها الصادر فى ١٩ يوليه عام ١٩٧٣ .

وهذه هى الرسالة :

سيدى الرئيس :

تحية وإجلالا .

أرفع إلى سيادتك هذه الكلمة يدفعنى صدق الولاء ، وعميق الإخلاص ، والرغبة الحارة فى أن أعرب لك عما يحمله قلبى لشخصك الكريم من إعجاب يشاركنى فيه الملايين بوحى من فطرتهم السليمة ، وإدراكهم السديد النابع من صفاء النفس ، واستقامة الطبع ، والنزاهة فى تقدير مواقف الأفذاذ من الرجال .

ولا غرو ؛ فأنت الرجل الذى اختاره القدر عن بصيرة ليحمل على منكبيه القويين مصير أمة ومستقبل شعب .

ففيك يا سيدى تجتمع شتى الخصائص الفكرية والنفسية التى تمثل الزعامة الأصيلة فى أعمق وأتم صورها .

فيك العقل الذى ما يفتأ يلاحق الأحداث بما تتطلبه من تنبه وتيقظ وحكمة وحذر ، وفيك الطموح الذى يتطلع إلى آفاق مجيدة وينشد التفوق

والاستعلاء لمصر والعرب ، وفيك الإرادة الثابتة الراسخة التى لا ترتد عن العقبة حتى تذللها ، وفيك القلب الكبير الذى يحب الشعب حباً غامراً يتفانى فى البذل والعطاء ويستهين بكل تضحية وكل عذاب .

وحين أرجع بذاكرتى إلى التاريخ الحديث وأستحضر صور البطولة فى مجالاتها المختلفة، وأحاول أن أعثر من بينها على شخصية فذة، تتوافر فيها نفس خصائص الزعامة التى تتوافر فيك ، وتشبه فى الكثير من مواقفها مواقفك أنت يا سيدى الرئيس ، يقع خاطرى فوراً على الزعيم الفرنسى الجمهورى العظيم « جمبتا » ، وأتذكر ما سجله المؤرخ « لويس لوران » فى كتابه « تاريخ أوربا » عن ذلك الزعيم الذى اضطلع بأخطر الأدوار خلال الحرب السبعينية التى نشبت بين بروسيا وفرنسا .

كانت البطولة هى قوام حياة جمبتا ، وكذلك هى قوام حياتك أنت .

إن معدنك من معدنه ، وروحك من روحه ، وصلابتك فى الحق والكفاح هى نفس صلابته .

لقد هزمت فرنسا فى تلك الحرب ولكن جمبتا لم يسلم بالهزيمة أبدا .

سلك المسلك البطولى الذكى الفعال الذى يشبهه فى الجوهر مسلكك أنت اليوم .

اتجه جمبتا مع الوزير « تيير » إلى تحرك سياسى شامل يؤلب به شعوب أوربا على بسمارك لئلا تستفحل مطامع ذلك الداهية فينزع إلى التوسع وفرض السيطرة على فرنسا وأوربا .

ولم يقل مؤرخ أو مفكر حتى الآن إن جمبتا كان يستجدى الصلح . ذلك لأن جمبتا وهو يمضى فى التحرك السياسى ، كان يلهب فى الوقت نفسه شعور العزة فى صدور مواطنيه ، وينظم المقاومة فى الأقاليم ، ويعد جيشاً مكوناً من مائتى ألف مقاتل ، دفع به إلى معركة « كولمييه » ،

فأحرز على الجيوش البروسية الغازية نصراً أزعج وأقلق بسمارك .

وحتى بعد نهاية الحرب ظل جمبتا ينادى بتعزيز الجيش ، ويذكر دائماً بالثأر ، ويؤلب أوربا على بسمارك ، ويعد العدة لاسترداد مقاطعتى الألزاس واللورين اللتين اقتطعتا من جسم فرنسا .

وأنت يا سيدى الرئيس لم تدخر وسعاً فى التحرك السياسى . بذلت غاية الجهد حتى أيقظت الضمير العالمى . ألبت على عدونا شعوب أوربا وأفريقيا . نبهتهم إلى صلف هذا العدو وجرائمه ومخازيه ، دون أن تكف لحظة عن السعى لجمع شمل العرب . بصرتهم بما يهدد كيانهم . أهبت بهم أن فى الوحدة والتضامن حياتهم ومستقبلهم ، ثم حفزتهم للنضال باستخدام أمضى سلاح اقتصادى لديهم ، هذا،وأنت ما تفتأ تعزز جيشك ، وتمده بمختلف أسباب القوة ، وتسهر على معنوياته العالية ، وتنفخ فيه من قلبك وروحك ، وتتربص وتتحفز لساعة المواجهة الشاملة .

هذا هو جوهر الشبه بين شخصك العظيم وشخص جمبتا .

وتأتى بعد ذلك مأثرتك الجليلة الرائعة . . .

ماذا فعلنا نحن خلال السنوات التى أعقبت النكسة ؟

انصرف جهدنا إلى تزويد جيشنا بالسلاح ، ولكننا أغفلنا تزويد شعبنا بالطاقة الروحية التى لا بد منها لمساندة وتدعيم السلاح .

لم نفكر فى مواصلة إذكاء الشعور الوطنى فى نفوس الشعب كى تظل الجبهة الداخلية ملتحمة مع الجيش ، متأهبة للكفاح وتواقة هى الأخرى لساعة الثأر . فكان سواد شعبنا يعيش منفصم الشخصية ، موزع النفس . ذاهلا وغافلا ومستهتراً؛ وكأن لا احتلال هناك ولا عدو ولا أرض مغتصبة ، بل منافع تهالك عليها البعض فى أنانية جنائية ، وجشع منكر ، وتطلع أثيم إلى الجاه والسلطان .

ثم جئت أنت يا سيدى الرئيس ، فهالك ما رأيت . فشرعت فى

العمل ولم تتردد . استنهضت لفورك عزيمة أمة . أضرمت فى نفوس أبنائها شعلة الوطنية التى كادت تخبو . رددت شعبنا إلى نفسه . واجهته بواقعه . أيقظته على واجبه . أحكمت الصلة بينه و بين الجيش ، فاتصلت الجبهتان فى وحدة متماسكة صلبة خليقة بشعب عريق طالما تحدى الغزاة .

ثم كانت ثورة التصحيح التى استخلصتها من تجارب الماضى قوة خلاقة مسددة نحو بناء المستقبل .

وهكذا علمتنا الكثير يا سيدى الرئيس .

علمتنا أن العدو ما دام متربصاً بناء ، فيجب أن ننسى فرديتنا ، ونوحد صفوفنا ، ونهب للجهاد والتضحية أنفسنا ، وننطلق جميعاً صوب الطريق المعين المرسوم الذى لا مفر لنا من اقتحامه ، متى دقت الساعة وحان الخلاص .

علمتنا ، وأنت الرجل الثاقب الفكر ، أن هذا العصر هو عصر العلم ، وأن العلم المادى إذا لم يصاحبه إيمان دينى مستنير ، فهو قد يتحول إلى قوة مدمرة تخنق فى الإنسان قلبه و وجدانه وتطلعاته العليا .

علمتنا أن لا عزة للفرد إلا فى وطن قوى عزيز ، وأن الفرد مهما بذل وضحى فالوطن القوى لا بد أن يرد إليه أضعاف ما كان قد أعطى .

علمتنا ألا ننظر إلى الحياة بعين مستضعف ، وألا نقول إن هذا كفاح جبابرة لا جدوى منه ، إذ لو تركنا اليأس يعصف بنا فلابد أن نميل ميل أعواد القمح يطوح بها منجل الحصاد .

وفوق ذلك علمتنا أننا ما دمنا لا ننسى بل نذكر ، ولا نجزع بل نتحمل ، ولا نتحسر بل نقاوم ، فنحن لم نفقد روحنا ، وسنظل اليوم وغداً صامدين و راسخين وأقوياء .

عشت يا سيدى الرئيس قائداً لنا و زعيما ، نهتدى بهديك ، وننضوى

تحت لوائك ، ونتبعك ثابتين حتى النصر .

* * *

ثم كان يوم النصر ، يوم ٦ أكتوبر المجيد وما تلاه من أيام خالدة . فتجلت شخصية محمد أنور السادات ، ووضح أمام الجميع ما انطوت عليه هذه الشخصية من مميزات فذة . فجاشت فى نفس الكاتب كما جاشت فى نفوس الملايين مشاعر العزة والكرامة . فلم يستطع الكاتب إلا أن يطلق مشاعره فى الكلمات التالية ، يؤكد بها اعترافنا بالجهد العظيم الذى بذله الرئيس فى تكتم وصمت ، وبالبطولة الرائعة التى اقتحم بها جيشنا الباسل أمنع خطوط العدو .

وقد نشرت هذه الكلمات صحيفة ( الأخبار ) بعدديها الصادرين فى ١٧ أكتوبر و٢٩ أكتوبر ١٩٧٣ .

## موقد الشعلة وباعث الروح

إذا كان من أقدس واجباتنا أن نذكر فى كل لحظة ونمجد أبطالنا البواسل المقاتلين ، فمن واجبنا أيضاً ومن حق الوطن علينا أن نذكر فى كل لحظة ونمجد البطل الأول ، موقد الشعلة ، وحافز القوة ، وباعث الروح .

إنه محمد أنور السادات .

إنه الرجل الذى تحمل ولم يتزعزع ، وصبر ولم يتململ ، وفكر ولم يتعجل ، وخطط ولم يتكلم ، وأعد العدة فى صمت عميق للساعة الفاصلة المنشودة ، ساعة العزم والانطلاق والخلاص .

يا للصمت الرائع الذى التزمت به يا أنور العظيم قبل أن تصرخ فى شعبك داعياً للقتال !

كان صمتك هو الصمت المخصب الخالق .

كان صمتك هو صمت العبقرى الذى يحتضن فى السر إلهامه ؛

ويبدع فى السر مولدات فكره وخياله ، كى يطلع بها فجأة على الناس عملاً عجيباً وخارقاً .

كان صمتك هو صمت البحر ، يبدو فى هدوئه الساحر صافى الصفحة باهر اللألاء ، بينما الموج المحتبس يغلى فى أحشائه كى ينفجر بغتة ويحطم كل الحواجز والسدود .

هذا أنت فى صمتك الرائع ، وفكرك اللامع ، وثباتك الواثق ، وبصرك المتنبه المتيقظ الذى أحاط بكل شىء ، وهيأ للنصر كل شىء ، ونظم واستكمل للنصر كل شىء .

فأنت العقل والإرادة ، والحزم والسياسة ، والخشونة والليونة ، والنور الذى جوهره نار .

ونحن ، نحن شعبك وجندك ، نعاهد الله على أن نلتف دائماً حولك ، ونهتف دائماً باسمك ، ونذكر دائماً أنك الرجل الذى رد إلينا شرفنا ، ومحا عنا وصمتنا ، وحفظ علينا كبرياءنا وكرامتنا ، وأثبت للعالم أن المصرى مقاتل صلب الشكيمة وعنيد ، وأن فى كل مصرى من الأنفة الأصيلة والاعتزاز العريق ما يجعله يؤثر أن يقاوم ويكافح ويموت على أن يعيش مقهور النفس ، محنى الرأس ، راضياً بالمذلة والهوان .

فالمجد لك يا زعيم مصر العظيم . أنت صانع معجزة . وبعزمك الراسخ وإلهامك الحى ، توحد الشعب ، وصنع الجيش المعجزات .

## الشعلة لن تنطفئ*

أجمع العالم على أن ما أحرزناه من نصر على عدونا يوم السادس من أكتوبر والأيام التى تلته كان رائعاً روعة الخوارق والأساطير .

كانت كل لفحة من أنفاسنا قد سلطت على الغاصب كوقد السعير ، وكل نسمة من أرواحنا قد هبت عليه كريح السموم ، وكل نقطة من دمائنا قد انفجرت فيه كحمم البراكين .

تحالفت عليه قواتنا ، وتمكنت منه ، وأبصرته وهى ظافرة يتصدع ويميد وينهار على نفسه كجبار خرافى حملته قدمان من رمل وطين .

فهذا النصر العظيم لا يفتأ يصطفق فى نفوسنا كموج البحر ، ويجلجل فى سمعنا كتحايا العيد . ولقد كنا نحس وجيشنا الباسل يمعن فى الزحف والتقدم وتحطيم خط العدو ، أن قلب الوطن ينبض ، وروحه الخالد يخفق ، ونوره الساطع يشرق على العالمين ! .

كانت قامات جنودنا تمتد كأنها مردة ، وسواعدهم تشرع كأنها رماح ، وقلوبهم تتقد وتبرق كأنها هى الأخرى ألسنة نار .

تلك هى إرادة التفوق والطموح التى حققنا بها النصر .

فهذه الإرادة الطامحة لن تفتر أبداً فى عزائمنا ، وهى تتلهب كل يوم فينا ونحن نواصل الكفاح والنضال . .

لن ننام لحظة على أكاليلنا . سنظل ساهرين ومتنبهين ، وأعناقنا مشرئبة إلى أعلى ، وأبصارنا الظامئة المتلهفة متجهة إلى النصر الكامل المنشود .

إن طريق الجهاد الزاخر بالأشواك ما يزال يدعونا إلى المزيد من البذل والتضحية ، ويهيب بنا أن نتطلع دائماً إلى القدوة ، إلى الزعيم ، إلى محمد أنور السادات ، إلى الرجل الذى أوقد لنا الشعلة ، وأيقظ فينا الروح .

لقد أوقد الزعيم الشعلة وما يزال يوقدها ويغذيها وهى بين أيدينا . فهى أمانة فى أعناقنا ، نفديها بالمهج والأرواح ، ونرفعها علماً على إرادتنا الثابتة ، وعزمنا الراسخ ، وكفاحنا المتصل .

وما دامت هذه الشعلة مرفوعة فى حومة جهادنا ، ومتوهجة ومضطرمة فى صدورنا ، فهى لن تنطفئ أبداً . ونحن بالنار المندلعة منها لا بد أن نتغلب ، ولا بد أن نقهر ، ولا بد أن تكتب لنا فى الأرض صولة وعزة وحياة .

## عناصر الوطنية

الشعور بالوطنية هو شعور بين أبناء الوطن الواحد بالمشاركة فى عواطف ثلاث : عاطفة تمجيد ، وعاطفة ألم ، وعاطفة رجاء . . .

فأما العاطفة الأولى ، فهى الشعور بتمجيد الوطن ممثلاً فى أروع صفحات ماضيه ، أى فى مابذله أبناؤه من جهود وتضحيات ، وفى ما حققوه من مآثر وعظائم .

وأما العاطفة الثانية فهى الشعور العميق بالألم واللوعة ، لما لحق بهذا الوطن فى الماضى من هزائم ، وما استهدف له فى حياته الطويلة من مخاطر وعذابات .

وأما العاطفة الثالثة ، فهى الشعور بالرجاء الصادق فى وصل المآثر والعظائم التى حققها الوطن فى الماضى ، بقوى الحاضر المتيقظ المتوثب ، تطلعاً إلى مستقبل زاهر يمحو الألم واللوعة ، وتحاول أن تحققه للوطن عزيمة الأحياء .

هذه هى العناصر التى تنهض بشعب وتؤكد وجود أمة .

## الأسرة والوطن

الأسرة هى الصورة المصغرة للوطن . وكل من لا يخلص لأسرته ، لا يمكن أن يكون صادق الإخلاص لوطنه .

فالتضحية فى سبيل الأسرة الصغيرة ، هى التى تدفع عند الاقتضاء إلى التضحية فى سبيل الوطن الكبير .

ولا تضحية مع الأنانية ، إذ الأنانيون يريدون أن يستمتعوا لا أن يضحوا . ومتى عزت الدنيا على فرد ، فالذل مرتعه ، والجبن ملاذه ، والسلامة الوضيعة هى غاية مايطمح إليه .

أما ذلك الذى ينشد الكرامة والتفوق فى الحياة ، فهو يحتقر النعيم الدنيوى سمواً بالحياة ، بل هو يعلم علم اليقين أنه لن يمتلك الحياة إلا إذا غامر بها ، ولن يضمنها عزيزة وشريفة لوطنه ونفسه وأصلابه إلا إذا عرف كيف يموت من أجلها .

## الشعلة والمطرقة

المواطن القوى لايحزن على مافات ، ولا يقف بأية نكسة عارضة مستهولا وقوعها ، ممعناً فى ذكرها ، جاعلاً منها حسرة دفينة تحز فى صدره ، وتوهن عزمه ، وتبتليه بالشلل .

المواطن القوى لايكبو إلا لينهض ، ولاينهض إلاليثب ، ولايثب إلا ليكافح ، ويظل متربصاً بالمجهول ، متأهباً لتحدى القدر .

المواطن القوى جمرة وشعلة . وهو إذا حرقته جمرة ، أسرع وقبس منها ناراً لعقله وقلبه وإرادته ، وأحال تلك النار إلى شعلة .

المواطن القوى لايفقد أبداً روحه . إذ هو سندان ومطرقة . سندان يتحمل الألم ، ومطرقة تضرب هذا الألم وتخنقه وتأبى إلا أن تنشد التفوق والاستعلاء .

## لا تنس . . .

لاتنس أن الإنسان الحى هو الذى لايرتضى لوطنه قدراً يذله ، وهو الذى يكافح مااستطاع كى يصوغ لوطنه قدراً يرفعه ، وهو الذى لو خانه الحظ أسرع وتلقى الصدمة بوثبة ، قبل أن يستعذب الضعف ويستمرئ الشكاية والندب والعويل .

لاتنس أن حبك لوطنك لايكفى . الحيوان أيضاً يحب جحره . وأما أنت ـ الإنسان ـ فيجب أن تحب وطنك بقلبك ، وتخدمه أيضاً بعقلك وإرادتك . إذ الحب وحدة عاطفية سلبية سرعان ماتفنى فى

التعلة والكلام . أما الإرادة العاقلة الدائبة فهى العاطفة الإيجابية التى تدفع إلى العمل والجهاد ، وهى التى تثبت بالبذل والتضحية قيمة الحب الوطنى الصحيح .

لا تنس أنك تعيش فى وطن معين ، وأنه لو قضى على هذا الوطن ، قضى عليك أنت أيضاً . فالبث متأهباً للذود عن وطنك ، تضاعف قوى الحياة الخصبة فى نفسك ، فتشتعل هذه الحياة فى أصلابك . فيتفوق الوطن بكم ويعلو ، لالخيركم أنتم فقط بل لخير الإنسانية كلها فى تقدمها المطرد صوب حضارة تنهض على الحرية والعدل .

لا تنس تلك الطائفة من المترفين المستهترين الذين تخلبهم مناعم الحياة ، وتستهويهم أبهة المظاهر ، ويهولهم الإقدام على أية تضحية . أنظر إلى أيديهم الناعمة وجلودهم الرخوة ، ثم اضرم فيهم شعلة الروح ، واصرخ فى وجوههم أن اخشوشنوا وتقشفوا وكونوا رجالا ، وإلا كان انطواؤكم على أنفسكم وملذاتكم شراً على الوطن من الخيانة ، بل كان هو الخيانة العظمى نفسها .

## وحدة كاملة

إن إنقاذ الحضارة منوط بتعميمها ، وإنقاذ الوطن منوط بالجمع بين أبنائه ومحو الفوارق الطبقية التى تفصل بينهم ، بحيث تتألف منهم وحدة اقتصادية أساسها العدل ، تكمل وحدة الكيان القومى التى أساسها الاستقلال والحرية .

وهكذا لا تتفوق فى الوطن طبقة أو هيئة على حساب المجموع ، بل يتفوق المجموع برمته على نفسه ، تحقيقاً لتماسك الوطن وتكامله .

هذا ما يجب أن يفهمه الشرق العربى كله ، وإلا ظل منقسماً إلى طبقتين : إحداهما متعلمة مترفة ، والأخرى جاهلة معدمة ، أشبه بتمثال عجيب رأسه من فضة وقدماه من طين .

## وطن وفكر

ليست القوة المادية وحدها هي التي يجب أن يسعى الوطن للظفر بها . ينبغي أن ينشد القوة المعنوية أيضاً ممثلة فى الثقافة . أى فى الاهتمام جهد المستطاع بالتعليم العالى ، وإفساح المجال أمام الأفراد للفكر الحر والبحث الحر ، بحيث تخصب عقول الممتازين منهم ، ويصبح فى مقدورهم إبراز مواهبهم ، وإبداع الجديد الفذ من استكشافات علمية أوبحوث فلسفية أو أعمال فنية أو أدبية تجاوز محيطهم وتساهم فى ارتقاء الحضارة وخير الإنسانية .

فعلى قدر مايساهم الوطن فى التقدم الحضارى وعلى قدر مايشع منه نور الفكر على العالم ، يرتفع شأنه ، وتعظم مكانته : وتقدره الأمم والشعوب ، وتحرص على بقائه بل تناصره لو استهدف للمحن ، شعوراً منها بأن قوة مرموقة من قوى التقدم البشرى مرهونة بوجوده . وأن هذه القوة لو تقوضت وانهارت فسينهار معها صرح من صروح الحضارة يستند إليه الكل ويرقى بوساطته الجميع .

فاقتران القوة المادية بقوة معنوية مبتكرة وخلاقة تجعل من الوطن كياناً لاغنى للناس عنه وعن ضوئه الثابت الوهاج ، تلك هى الغاية العليا التى يجب أن يتطلع إليها كل وطن ناهض .

ونحن ما زلنا حتى الآن نتمتع بثمرات الحضارة الراهنة التى غرس أشجارها الآخرون ، فيجب أن نغرس نحن أيضاً فى حديقة هذه الحضارة أشجاراً نرد بها ما أخذنا ، ويمكن أن يجنى من ثمارها الآخرون.

## مركب نقص

ليس معنى حبنا لوطننا أن نكره أو نحتقر أوطان الآخرين ونقول عنهم إنهم « خواجات » ، وإلا كان ذلك منا تعصباً أعمى

يطوينا على غرورنا ، ويخنق فينا كل تطلع إلى آفاق بعيدة تسبح فى النور .

إن أوطان الخواجات تنهض كل يوم بأشق الجهود وأسماها . فلنضف إليها جهودنا ، تحقيقاً للمساواة بيننا وبينها فى العمل والإبداع ، محوا لمركب النقص الذى يخيم على أبصارنا ويضللنا .

## حضارة واحدة

لا يزال بعض كتاب أوربا يفرقون بين حضارة شرقية وأخرى غربية. ونحن نقول لهم إنهم يغالطون لأنهم مستعمرون ، وأن الشرق لن يقف أبداً عند الحد الذى رسمته له عقول مفكرى الاستعمار . إن الحضارة اليوم واحدة . الحضارة اليوم عالمية وليست وقفاً على عنصر دون عنصر ، وشعب دون شعب . ومن المحال على أى فكر نزيه حر أن يسلم بوجود حضارتين متباينتين متطاحنتين ، تعمل إحداهما للتغلب على الأخرى . هنالك أمم مستعمرة ، وأمم تكافح الاستعمار . هنالك أمم تقدس رأس المال ، وأمم تسعى للقضاء على طغيان رأس المال . أما الحضارة فعلمية صناعية واحدة . وأما مايسميه المستعمرون حضارة شرقية ، فالغرض منه إيجاد فوارق عنصرية تقليدية ، تؤيد الاستعمار ، وتحكم باستحالة اندماج الشرق فى الحضارة السائدة .

ولكن الشرق الذى كان يحيا الحياة الزراعية الفطرية قد أفاق من غفلته ، وأخذ يسدد جهوده نحو الصناعة والعلم . ومتى اهتم شعب بالصناعة والعلم ، فقد خرج من سباته ، واتصل بعصره ، وشرع يعتمد على نفسه ، ويؤمن بقيمة العقل ، ويستخدم العقل فى معالجة كل شيء وبناء كل شيء .

ونحن نتجه الآن فى هذا السبيل ، وكذلك الشرق كله . فلاحضارة شرقية وأخرى غربية ، بل حضارة صناعية غمرت معظم القارات .

ومن المحتمل جداً أن تؤدى فى المستقبل إلى رفاهة جميع الشعوب ورقيها. وفق أنظمة اقتصادية اشتراكية عادلة ، تكشف عنها حركة التطور الماثلة فى تعاقب أحداث التاريخ منذ الثورة الفرنسية حتى اليوم . عندئذ يزول كل فارق عنصرى مغرض وخبيث . ولا يبقى بين شعب وآخر إلا اختلاف الطابع والمزاج والثقافة والعبقرية الشخصية .

## ذلك العدو . . .

لكى تفهم مكائد المستعمر عدوك وتذكر دائماً أساليب المستعمرين وتحذرها ولا تنساها ، تأمل هذه العبارات التى وجهها الكاتب الإنجليزى « شسترتون » إلى رجال السياسة فى بلاده عقب الحرب العالمية الأولى ، والتى عثرت عليها مترجمة فى أحد أعداد مجلة « صدى العالم » الفرنسية .

قال شسترتون :

إذا شئنا أن يحالفنا النجاح فى سياستنا الاستعمارية ، فيجب :

أولا : أن تظل المستعمرة التى نحكمها بلداً زراعياً متأخراً ، ولا تكون بأى حال بلداً صناعياً متقدماً — ثانياً — أن نستولى على خامات المستعمرة ثم نجعل من المستعمرة سوقاً نصرف فيها تلك الخامات بعد تصنيعها فى بلادنا — ثالثاً — أن نحارب التعليم العالى الذى يبصر أبناء المستعمرة بحقوقهم ، وأن نجعل الثقافة سطحية بحيث تقتصر المدارس على تخريج ماتحتاج إليه الحكومة المحلية من موظفين — رابعاً — أن نشجع شعب المستعمرة على التشبث بعاداته المتوارثة ، وتقاليده البالية ، وبدعه الزرية ، باعتبار أن هذه التقاليد والبدع هى الطابع الثمين الذى يميزه ويعبر عن روحه — خامساً — أن نحالف الإقطاعيين ونرسل بأبنائهم يتلقون العلم فى بلادنا ، فإذا ما عادوا منها يحملون الشهادات العالية لوحنا لهم بالوظائف الكبيرة ، وأدمجناهم فى حظيرة عملائنا ، وجعلناهم يتولون الحكم ، واتخذنا منهم الأدوات الصالحة لتأليف طبقة ممتازة ،

تستطيع أن تعاوننا على إخضاع الشعب وتوطيد نفوذنا — سادسا — إذا تمرد شعب المستعمرة وطالب بحريته ، فعلينا أن نسرع ونقمع حركة التحرر بشدة ، لأن الضعيف لا يتراجع إلا متى خاف — سابعاً — إذا حدث ونازعتنا فى امتلاك المستعمرة دولة قوية ، فيجب أن نقتسم المستعمرة معها بشرط أن نحتفظ نحن بنفوذنا الأول فيها — ثامناً — إذا حدث وتغلبت المستعمرة علينا وفازت بحريتها واستقلالها ، فيجب أن نظل متربصين بها ، متنبهين لعثراتها ، نناصبها العداء خفية ونؤلب أصدقاءنا عليها ، حتى تضعف فجأة وتتخاذل ، فنفتح لنا ثغرة فيها ، ونعود فننفذ إليها ، ولو من طريق غير مباشر يزعزع استقلالها ، ويكفل لنا السيادة عليها وضمان مصالحنا .

هذه هى توجيهات « شسترتون » وأضرابه فى فن الاستعمار ، ولقد عمل بها المستعمرون الإنجليز خاصة والأوربيون بوجه عام ، وهى لا تزال متأصلة فى عقول طائفة كبيرة من ساستهم ، برغم استقلال معظم شعوب المستعمرات ، وثورتها على المستعمرين الأجانب وعلى الحكام الوطنيين الإقطاعيين الذين مكنوا لأولئكم الأجانب وحالفوا المستعمر على استغلال بلادهم وإذلالها .

فلنضع عبارات الكاتب الإنجليزى نصب أعيننا ، ولنعلم أنها ماتزال حتى اليوم تهددنا ، وأن واجبنا هو أن نتخذ منها مثاراً لوعينا ، وحافزاً لوطنيتنا ، فى كفاحنا الدائم المقدس للذود عن استقلالنا وحريتنا .

## الشعور بالمسئولية

. . . ومع ذلك ونحن وقد ظفرنا باستقلالنا . فعلينا أن ندرك أن الاستقلال هو بداية الطريق . علينا ألا نتسامح مع أنفسنا ، وألا نخفى عيوبنا ، وألا نتهاون فى التنبه إلى النقائص التى تشوب أخلاقنا .

وليس من شك فى أن البعض منا يؤدون واجبهم فى نزاهة مطلقة.

ولكن هناك من يتنصلون من حمل مسئولياتهم ، بل لا يكترثون لأى واجب ومسئولية . كما أن هناك من يقومون بواجباتهم ويضطلعون بمسئولياتهم ، ولكن لا عن وحى نبيل من نفوسهم ؛ بل تحت تأثير الخوف من ضياع المركز والمكانة والاستهداف للتقريع أو العقاب .

بيد أن قيمة الفرد العامل بل قيمة الإنسان تكمن فى شعوره بأن عليه أن يؤدى عمله « كاملا » من تلقاء نفسه ، وأنه فى تأدية هذا العمل مسئول تجاه ضميره ، وتجاه الواجب المقدس المفروض عليه نحو وطنه .

والواقع أن مثل الرجل فى حياته العملية كمثل المرأة فى حياتها الزوجية ، وكما أن المرأة يجب أن تكون قبل كل شىء على فضيلة راسخة وضمير حى كى تخلص لزوجها من تلقاء نفسها إخلاصاً لا يصدر عن خوف من عقاب أو تهديد بعقاب ، كذلك الرجل يجب أن يكون له الضمير الحى نفسه يدفعه إلى الشعور بالمسئولية والإخلاص فى تأدية الواجب بصرف النظر عن القوة المشرفة التى تحاسبه عليه .

وقد حدث فى فرنسا فى مطلع هذا القرن أن تظلمت طائفة من معلمى المدارس الابتدائية ، ورفعت شكاواها إلى الحكومة وطالبت بزيادة رواتبها فماطلت الوزارة فى ذلك العهد وسوفت ، وظلت تماطل مدة عامين ثم سقطت . فلما جاءت الوزارة الجديدة وأجرت تحقيقاً عادلاً فى مطالب المعلمين ، تبين لها أن النتائج التى قدموها فى العامين اللذين استفحلت فيهما شكاواهم ، كانت هى النتائج السابقة الرائعة نفسها لم يلحقها أى تبدل ولا اعتراها أى نقصان .

فأولئك الأساتذة كانوا يتذمرون . ولكن مسئولية العمل كانت حية فى نفوسهم . فلم يقصروا فى تأدية واجبهم ، ولم ينتقموا من الحكومة ومن تلاميذهم بالحط من مستوى التعليم .

هذا هو الشعور بالمسئولية فى أعلى مراتبه . بل هذه هى قيمة الضمير ممثلة فى قوة أبية شريفة ، تحاسب نفسها قبل أن يحاسبها الآخرون ،

وتستنكر طلب الجزاء العادل على حساب العمل والمجموع .

فهذه القوة النبيلة هى التى تنقص طائفة كبيرة منا ، وهى التى يجب أن نكافح ما استطعنا لنغرسها فى عقولنا ، ونشربها قلوبنا وأرواحنا ، بحيث تصبح طبيعة فينا ، تدفعنا إلى الشعور بمسئولياتنا من تلقاء أنفسنا ، وتحررنا وتنقذنا من نزعة العبث والاستهتار . ومتى تأصلت فينا هذه القوة ارتفع بنا الوطن وسما . إذ قوة الشعور بالمسئولية هى الدعامة التى يرتكز عليها الوطن . وحيث لاشعور بالمسئولية فلاعزة ولااستعلاء للوطن .

فالمواطن يجب أن يحب العمل لذاته ، ويخلص للعمل مدفوعاً بضميره ، ويعتبر الدقة فى العمل غايته ، والنزاهة المطلقة مثله الأعلى . وهكذا يؤكد المواطن قيمته ، ويؤكد شرفه وكرامته . فيتفوق به وطنه ، لأنه هو نفسه يكون قد قدس الواجب والمسئولية ، واستطاع أن يتفوق على ضعفه ، ويقهر كل منكر وضيع من شهواته وغرائزه .

## بيروقراطية نزيهة

الهدف الأمثل للدولة الاشتراكية هو إذابة فوارق الطبقات لتحقيق العدل الاجتماعى مقروناً بحرية الفرد والحرص على كرامته الإنسانية .

بيد أن هذا الهدف الأمثل يجب أن يظل أولاً وقبل كل شىء نصب عين البيروقراطيين الكبار ، إذ هم أداة التنفيذ فى المجتمع الاشتراكى ، وهم القدوة التى يتطلع إليها سواد الشعب .

فإذا تكونت فى المجتمع الاشتراكى طائفة من البيروقراطيين الكبار لاضمير لها ، تنزع إلى الجاه والثراء ، وتستغل مناصبها العالية لمنافعها الشخصية ، وتسلط قوى الإرهاب على الفرد الضعيف ليخافها ويأتمر بأمرها ، فهذا الفرد الضعيف الذى يلمس امتياز تلك الطائفة بالجاه والثراء ، إما أن يغض عن مسلكها ويمالئها عساه أن يلتقط شيئاً من موائدها فيتسمم هو أيضاً مثلها ، وإما أن يرزح تحت وطأة الإرهاب

فينكمش ويصمت ، فيفقد حريته وكرامته وإيمانه بالعدل الاجتماعي .

فالصرامة كل الصرامة فى اختيار بيروقراطية كفء ، نزيهة ، ثم اليقظة الدائمة فى مراقبتها ، والشدة فى محاسبتها على كل إهمال ، واتقاء انحرافها إلى منزع أنانى نفعى باستبدال غيرها بها الوقت بعد الآخر ، إلا إذا ثبت إخلاصها وكفاءتها ، ثم توقيع أقصى العقوبة دون رحمة بأى عضو من أعضائها ، يسرق أو يرتشى أو يسعى سعياً خفياً خبيثاً رامياً إلى تخريب وتقويض . ذلك هو العامل الرئيسى الذى يحمى النظام الاشتراكى ويوطده ، ويشعر الفرد بأنه يعيش فى عالم عادل ومأمون ، لا يرتعد فيه صغير أمام إرهاب كبير ، ولا يعلو فيه كبير على حساب صغير .

ولا ريب فى أننا لو تسامحنا مع البيروقراطى الكبير وأسرفنا فى الثقة به ولم نجعل هناك لجنة من المراقبين تباغته فجأة وتحاسبه ، فقد تأخذه العزة بالمنصب ، فيتوهم أنه صاحب سلطة مطلقة ومركز قوة ، فينقلب فى دائرته إلى دكتاتور صغير . ومتى انقلب البيروقراطى الكبير إلى دكتاتور ، فإما أن يستبد ويطغى ، وإما أن تختم على بصره نشوة منصبه ويعصف به إغراء المادة . فيسلس قياده للشائن المنكر من غرائزه . فيفسد هو ويفسد من حوله ، فتتألف منه ومن أمثاله الوصوليين طبقة جديدة تنسلخ عن مجموع الشعب ، وتحيا الحياة المتحكمة المستغلة التى كانت تحياها بالأمس طبقة الإقطاعيين .

هذا ما يجب أن يتنبه إليه كل مسئول فى كل مجتمع اشتراكى .

# صرخات إلى الشباب

## لن يعود !

الشرق الفاتر الحالم الوسنان . لن يعود ! الشرق العابث المتواكل المستخذى . لن يعود ! الشرق الجامد النائح الشاكى . لن يعود ! أصبح الشرق عاصفة تزأر ، وإعصاراً يهدر ، ودورة فلكية محتومة استحالت إلى ملحمة خارقة صيغت أحداثها من دم الطموح !

لا استكانة بعد اليوم ولا صبر !

لا رقاد على الماضى ولا حلم . بل عمل مندلع كشعلة النار ، وإرادة قاطعة كحد السيف ، وعزم جارف كاندفاق السيل ، وأمل واضح كصفحة النهر العريض .

لم تعد شيمة الشرق البكاء .

عدو الشرق هو الذى يبكى اليوم على الشرق القديم .

على الشرق الذى طالما امتهنه .

على الشرق الذى طالما انتهكه .

على الشرق الذى طالما اعتصره واستنزفه .

هذا الشرق قد مات .

فليبك العدو على جثته ما شاءت له المرارة والحسرة . أما نحن فسنلقى بالجثة فى كهف سحيق ، وسنوصد الكهف بكتل من حديد ، وسنقيم حول الكهف مأدبة كبرى كتلك المآدب التى ورد ذكرها فى سير الأنبياء الخالدين ، تلك المآدب الرائعة العظيمة التى لا تقام للموتى بل للمبعوثين ! . .

## انطلق . . .

انطلق فى طريق الشوك شامخ الرأس ، عالى الجبهة ، مضموم القبضة ، ولا تتقهقر .

احترق أملا ورغبة وتعذب .
احترق طموحاً وكبراً وتغلب .
احترق كفاحاً ونضالا وعش .
هذه هى الحياة !

* * *

إذا خاب أملك فاجعل من الخيبة حافزاً .
وإذا وهن عزمك فاصنع من التعب سوطاً .
وإذا انتابك اليأس فاخلق من اليأس ناراً ، تضرم فيك شعلة الانتفاض وتلهب مثلك الأعلى .
احترق ضعفاً وقوة وتعذب .
احترق مرضاً وصحة وتغلب .
احترق ألماً ولذة وعش .
هذه هى الحياة !

* * *

كن صبوراً ولكن لا تتململ
كن جريئاً ولكن لا تتهور .
كن حازماً ولكن لا تتجبر .
كن إلماً ولكن اذكر دائماً أنك إنسان .
احترق تجربة وحكمة وتعذب .
احترق ثقافة ومعرفة وتغلب .
احترق إرادة وتحملا وعش .
هذه هى الحياة !

* * *

قد تجد الدودة فى كسرة الخبز فلا تحفل .
قد تجد المرارة فى جرعة الماء فلا تجزع .

قد تجد الغانية فى روح المرأة فلا تحزن .
قد يطأ الغاصب أرضك فلا تفزع .
انبذ الخبز ، واسكب الماء ، والفظ المرأة ، وقاوم الغاصب واحترق
احترق إباءً وأنفة وتعذب .
احترق إرادة وعزماً وتغلب .
احترق تحفزاً وجهاداً وعش :
هذه هى الحياة !

* * *

لن تُمتهن إلا إذا تلهفت .
ولن تحتقر إلا إذا توسلت .
ولن تموت إلا إذا انبطحت على الأرض وزحفت .
فالو بوجهك ولا تتطلع .
واحبس وجيب قلبك ولا تتنفس .
والبث واقفاً واحترق .
احترق تجلداً وتصلباً وتعذب .
احترق وحدة وعظمة وتغلب .
احترق ثباتاً وتحفزاً وعش .
هذه هى الحياة !

* * *

وإذا انحنت عليك الآلهة من عليائها ورمقتك بعيون ملؤها العطف والحب ، فابتسم الحظ لشجاعتك ، وخضع المجد لإرادتك ، ودانت الدنيا لسلطانك ، فافتح مغاليق صدرك وتقدم .
تقدم أيضاً واحترق .
احترق تطلعاً إلى السماء وتعذب .
احترق تحديقاً إلى الشمس وتغلب .

احترق سعياً وراء الكمال وعش .
هذه هى الحياة !

## فوق السحب . . .

وإليك هذا المثل الحى الخليق بأن تستلهمه القوة أيها الشاب .

إنه النسر المصرى .

هو ذا النسر المصرى يشق بطائرته أجواز الفضاء .

إنه يحلق . إنه فى الفضاء الشاسع نقطة حية صيغت من عقل متنبه ، وعصب متوتر ، وارادة متربصة متحفزة ، تخالس الهدف المعين فى نشوة المغامرة والاستبسال .

الأرض تحت قدميه . الأرض تشرئب إليه وقد انكمشت وتضاءلت وذابت فى نظره . ومع ذلك فهذه الأرض حية فى قلبه ، نابضة فى عزمه الثابت الوطيد .

وهو فى سبيل هذه القطعة من الأرض يحلق ، وبغية إنقاذ هذه القطعة من الأرض يضرب ، ومن أجل هذه القطعة من الأرض يتحدى العناصر ويقتحم السماء .

إنه حارس جو الوطن المقدس . إنه ليبعث فى هذا الجو ضوءاً رائعاً كالأمل ، وأزيزاً مروعاً كالوعيد ، وهدوءاً مطمئناً عميقاً كهمس الثقة فى نفس جبار .

ماذا يهم لو مات .

قد يموت يوماً ، وقد لا يعرف مثواه أحد ولايصلى عليه أحد . ولكنه إن مات اليوم ، فسيموت وهو يخضع الجو لسلطانه ، ويصيب الهدف فى صميمه ، ويعيش لحظات سرمدية تضطرم نارها فى قلبه وقلوب مواطنيه .

فالنسر المصرى يهتف بنا صارخاً :

الجو ملكى والجهاد حياتى ، والموت فى غمرة هذا الجهاد أمتع وأخصب حياة . ومامات من عشق الموت وهو يجاهد . ماامات من عشق الموت فى سبيل بلاده ، ونقش اسمه فى هيكل المجد ومعبد الأصلاب .

## شخصية رائعة

وإليك هذا المثل أيضاً ، هذا المثل الرائع فى الوطنية الصادقة ، أضعه أمامك مصوراً فى امرأة . ولكنها امرأة ما أجدرها بأن تكون قدوة للكثير من الرجال .

إنها تدعى « كريستين تريفولس » . وقد ولدت عام ١٨٠٨ فى مدينة ميلانو التى كانت تعتبر إذ ذاك عاصمة مقاطعة لومبارديا الإيطالية. وما إن شبت كريستين وترعرعت حتى أبصرت جيوش النمسا تستعمر هذه المقاطعة وتسلخها من جسم إيطاليا ، ثم تنتشر فى مدينة ميلانو ، مستبدة بأهلها ، مثقلة كواهلهم بالضرائب ، مغرقة جموعهم فى لجة الفقر والبؤس ، مضطهدة مااستطاعت فريق الإيطاليين الأحرار الذين كانوا يسعون لتحقيق وحدة إيطاليا واستقلالها .

وكانت كريستين التى نشأت فى أسرة ثرية اشتهرت بخدمة الأدب ، والعلم ، فتاة حادة المزاج ، قوية الشكيمة ، ملتهبة التصور . فلما تنبه عقلها وإدراكها ، ولمست مبلغ العذاب الذى يعانيه أبناء شعبها على يد المستعمر النمسوى ثارت كرامتها وكبرياؤها ، فآلت على نفسها أن تعيش لخدمة وطنها وأن تبذل فى سبيل تحرير هذا الوطن المستعبد الممزق شبابها وحياتها .

وكانت «كريستين» مضرب المثل فى سحر الجمال وروعة الأناقة وفتنة الإغراء . وكان الرجال يترامون عند قدميها ، ويتبارون فى أيهم يظفر بها حبيبة وزوجة . ولكنها لفرط ماتأثرت بعذابات شعبها ، ولفرط ما استغرقها شعورها الوطنى وملك عليها عقلها وحواسها ، وضعت الواجب

فوق الحب ، والوطن فوق القلب ، والجهاد فوق الزواج . فطرحت عنها غلائل المرأة المترفة ، ونبذت كل ما كانت تستمتع به من مال وجاه ، ونزلت إلى معترك الجهاد ، وهى لم تزل فتاة فى الثانية والعشرين ...

ارتدت ثوب جندى مقاتل ، وحملت الغدارة والسيف والخنجر ، واندفعت فى مقاطعات « رومانى » و « صقلية » تؤلف الكتائب الكبيرة من الأحرار وتنظمهم وتدربهم وتنفق عليهم وتحثهم على شن حرب العصابات على جيش المستعمر الغاصب .

وذاع صيتها فى إيطاليا بأسرها وانضم تحت لوائها كل وطنى نزيه ، وشرع أتباعها فى مناوأة جيش النمسا وإقلاق راحته وإشعاره بأن احتلاله مقاطعة لومبارديا لا بد أن يكلفه أغلى التضحيات .

وكانت كريستين وهى فى غمرة جهادها ، لا تكتفى بإضرام شعلة الوطنية فى نفوس شعبها ، بل تريد أن تعلم الشعب وتثقفه أيضاً . فكانت تدعو إلى حب الأدب والعلم ، وتساهم فى نشر المجلات والكتب ، وتكافح لتعلم نفسها بنفسها حتى نبغت وتفوقت فى الفلسفة والعلوم الاجتماعية وتاريخ الأديان . فأصبحت مثال المفكرة المجاهدة ذات العقل الثاقب والروح الواقعى العملى . فأحبها ثرى شريف يدعى « الأمير بليوزو » وأحبته ولكنها لم ترض به زوجاً إلا بعد أن استوثقت من أنه وطنى مثلها ، وأنه متأهب للتضحية بالنفس والمال فى سبيل تحرير بلاده واستقلالها .

ولم تكد « كريستين » تسعد بزواجها فترة . حتى عادت وارتمت فى حومة الجهاد . فبثت روح المقاومة فى حزب « الكربونارى » عدو النمسا ، وضمت صفوف الأبطال الذين تكونت منهم جماعة « الجردنيرا » وحفزت كتائبهم إلى القتال . فاشتد ضغط هذه الكتائب على جيش المستعمر . فأنهكته ودوخته وألحقت به الخسائر تلو الخسائر . فاستفاضت شهرة « كريستين » ، وقدسها الشعب .

وفجأة تنكر لها القدر . غافلها وسدد إليها طعنة أصابتها فى صميم

قلبها وأنوثتها . خانها زوجها الشريف لافى الجهاد فقط بل فى الحب أيضاً . فأعرض عنها واتصل بامرأة أخرى . فلم تكف هى عن سعيها لوحدة بلادها . ولكن خيبتها فى الرجل الذى عقدت عليه آمالها مقرونة بالمتاعب والمشقات التى احتملتها ، قوضت بدنها ، وحطمت أعصابها ، فلم تستطع ذات ليلة وهى فى أحد المسارح أن تبصر زوجها يدخل المسرح مصحوباً بخليلته . فانهارت البقية الباقية من قواها ، وسقطت على الأرض مغشياً عليها .

وظلت الأسابيع الطوال فريسة أعصابها المتداعية ، ثم هالها أن تضعف وتستخذى . فقاومت المرض جهدها ، وتغلبت عليه . ثم ارتدت إلى الكتائب المناضلة ، وانخرطت فى سلكها ، ولم تتردد فى اقتحام الموت ومجابهة خط النار .

وإذ ذاك وقع لها حادث لم يكن فى حسبانها .

كانت قد خرجت مسلحة فى إحدى الليالى وقاصدة بيتاً نائياً يجتمع فيه إخوانها من أبطال جبهة التحرير . فلمحت رجلا يتبعها . فأيقنت أنه جاسوس نمسوى . فخشيت أن يعرف مكان الاجتماع وأن يفضى ذلك إلى هلاك أصحابها . فهمت بأن تتراجع . ولكن الرجل أمسك بها ، وهددها بالتعذيب والموت إن هى لم تكشف له عن مجتمع شركائها . فتملصت منه ، وقبل أن يتنبه استلت خنجرها وأغمدته فى صدره . ولم تكد تفعل حتى برزت إليها من منعطف الطريق ثلة من جنود النمسا كانوا يتعقبون خطوات الجاسوس لحراسته ، وأطبقوا عليها ، وساقوها إلى مخفر الشرطة حيث طرحت فى السجن بين النشالات والمجرمات والبغايا .

ولما كانت من أسرة إيطالية عريقة وكان زوجها هو الأمير بليوزو الذى مالأ النمسويين وعدل عن مكافحتهم ، فقد رأى حاكم المنطقة أن من حسن السياسة ألا يعاقب المرأة بالموت ، فأمر بنفيها إلى خارج إيطاليا .

وودعت «كريستين» وطنها الغالى ، وانفصلت عن زوجها الغادر ، ولجأت إلى باريس . وهناك فى مدينة النور والحرية ، استأنفت المرأة أيضاً جهادها . فأسست حزباً وطنياً إيطالياً من زملائها الأحرار المنفيين ، وأنشأت بمالها بضع مجلات وصحف تنادى بوحدة إيطاليا ، وفتحت صالونها لأعاظم رجال السياسة والأدب والفن أمثال الوزير «تيير» ، والمؤرخ «أوجستان تييرى» ، والشاعر «هنريك هاينه» ، والموسيقى «شوبان» ، وبذلت قصاراها فى استمالتهم جميعاً إلى فكرتها ، واستخدام ألسنتهم وأقلامهم فى الدفاع عن قضية بلادها .

وإذ ذاك ، ترامت الأنباء بأن ملك إقليم بيمونت الإيطالى قد استرد من النمسويين مدينة ميلانو . فأسرعت «كريستين» وودعت باريس وعادت إلى ميلانو مسقط رأسها ، ولكن ملك بيمونت كان قد ضعف وتخاذل وهادن النمسا ثم تخلى لها عن ميلانو . فخشيت «كريستين» سطوة العدو . فلم تستطع إلا أن تتنكر فى زى متسولة ، وأن تلجأ إلى قصر ريفى مهجور تملكه صديقة لها .

وفى ذلك القصر الذى حجبها عن أعين العدو ، مكثت عدة أشهر تكتب المنشورات الثورية ، وتوزعها بوساطة نفر من الوطنيين المخلصين وتبيع من حليها ومجوهراتها كى تنفق على أسر الشهداء .

وفجأة ، ولأول مرة فى حياتها ، اتقد كيانها كله ، وعرفت الحب المتبادل النقى الذى لم تشبه شائبة من لوثات الجسد .

عشقت شاباً من المجاهدين يدعى «جايتانو ستيلزى» ، رائع الحسن ، نبيل النفس ، جسور القلب ، أفنى سنى حداثته ومطلع شبابه فى مهاجمة جيش النمسا ، والتسلل إلى صوامعه الزاخرة بالمؤن ، والإقدام على نسفها أو حرقها ، مستهدفاً للتعذيب والموت .

هذا الشاب أصبح معبود «كريستين» وغاية حياتها بعد حرية بلادها ، كما أصبحت هى فى قلبه وروحه المثل الإنسانى والوطنى

الأعلى . ولكن الشاب سقط جريحاً ذات ليلة برصاص الجند النمسويين وهو يحاول نسف مستودع للذخيرة . فتحامل على نفسه ، وفر من الجند ودخل القصر زاحفاً محطماً والدم ينزف منه . فتلقته «كريستين» بين ذراعيها شبه معتوهة ، وأرادت أن تسرع إليه بطبيب . ولكن الشاب لفظ أنفاسه الأخيرة وهو يقبل معبودته ويهتف باسم إيطاليا .

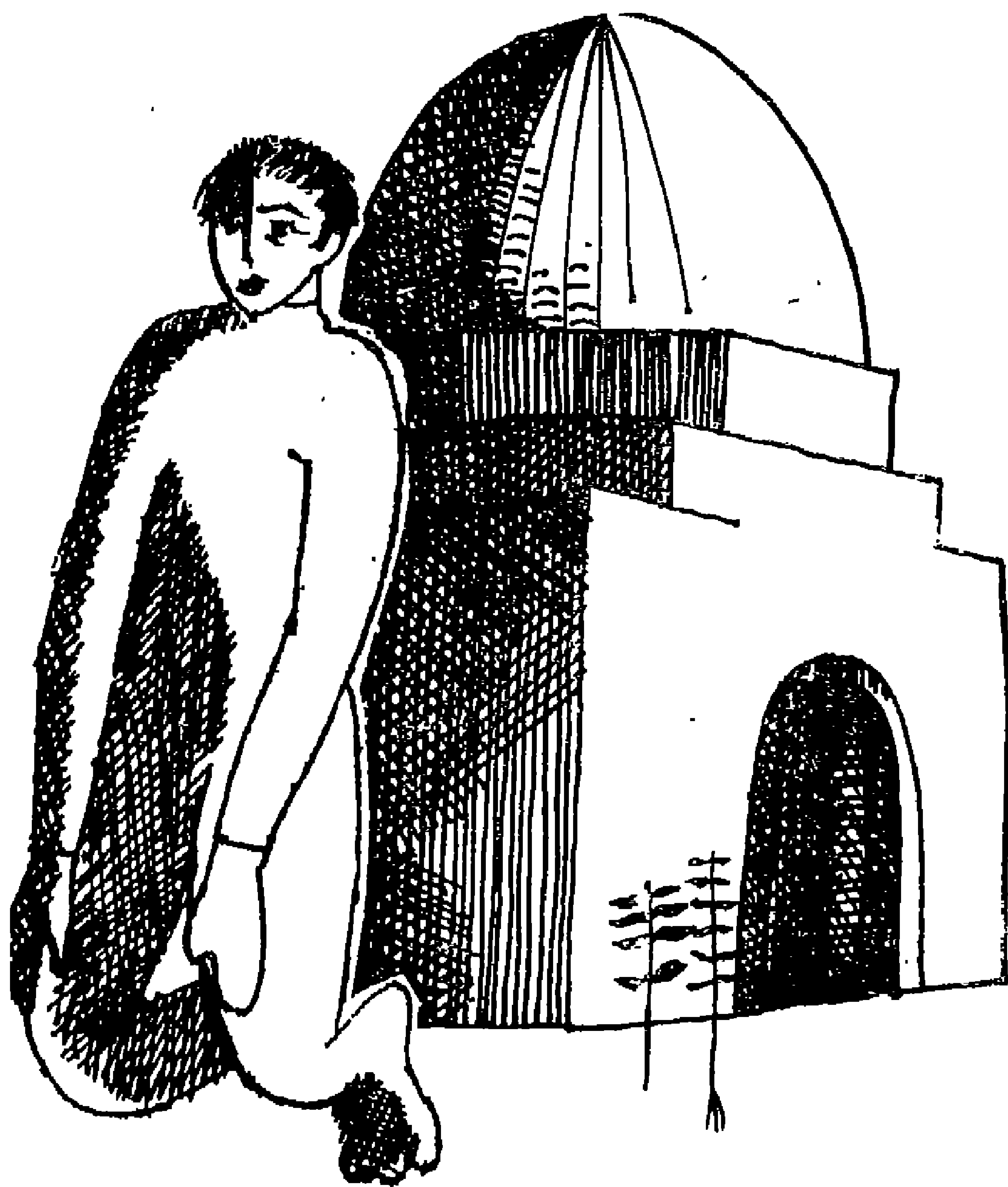
وعندئذ ، تاه عقل «كريستين» . لم تستطع أن تتصور أن الرجل الوحيد الذى أحبها حقاً وأخلص لوطنه ولها قد مات بغتة وغاب عن الدنيا . فأبت إلا أن تبذل المستحيل كى يعيش أبضاً ولو بضعة أشهر أو أسابيع . فاستقدمت طبيباً مشهوراً ، وطلبت إليه أن يحنط جثة حبيبها . ثم ألبست الجثة ثوب المجاهدين ، وأرقدتها فى حجرة قصية من القصر على فراش من حرير ، وطفقت تحبس نفسها فى الحجرة ساعات ، تناجى فيها الرجل الذى لم تجد له بين أقرانه شبيهاً . . . بيد أن قيادة جيش العدو التى كانت قد بثت العيون والأرصاد حول المرأة ، تمكنت من استكشاف مكمنها . فطرق رجال الشرطة فجأة أبواب القصر المهجور واقتحموا حجراته . فأبصروا كريستين فى الغرفة النائية منحنية على الجثة المحنطة ، ومشهرة خنجراً تريد أن تطعن به نفسها كى تلحق بحبيبها ولا تقتل بيد العدو . فارتمى عليها الشرطة ، وانتزعوا منها الخنجر ، واندفعوا بها خارج القصر إلى حيث مقر قيادة الجيش . ولكن أنصارها الأحرار الذين كانوا قد علموا بما وقع ، أسرعوا لنجدتها ، وتقاطروا على رجال الشرطة من مختلف الأزقة والدروب . فدارت بين الفريقين معركة طاحنة ، تمكنت «كريستين» خلالها من الفرار والالتجاء إلى بيت فدائى يسر لها سبل السفر مرة ثانية إلى فرنسا . فهبطت باريس وعادت تجاهد وتكافح وتثير أقطاب السياسة على استبداد النمسويين ، حتى تدخلت الحكومة الفرنسية فى الأمر . فانسحب الجيش النمسوى من مقاطعة لومبارديا ، وتحققت وحدة إيطاليا على يد

الزعيم « كافور »

وإذ ذاك ، إذ ذاك فقط : عادت « كريستين » مثلجة الصدر إلى بلادها . فاحتفل بها المجاهدون واستقبلها الشعب كما يستقبل الأبطال .

وعاشت بعد ذلك فى القصر المهجور نفسه ، وماتت عام ١٨٧١ فى الحجرة القصية نفسها التى كان يرقد فيها جثمان البطل الشهيد .

# فى قيمة الدين



## الإيمان والسعادة

إذا اعتقدنا كما يقول الملاحدة بأن لا شيء وراء هذه الحياة ، فهذا الاعتقاد يوشك أن يخنق فينا الرغبة فى الحياة . وهو إن لم يخنق الرغبة التى تدفعنا بالرغم منا إلى التشبث بالحياة ، فهو لابد أن يخنق فى نفوسنا كل شعور بالسعادة . إذ كيف لايسمم سعادتنا طعم الرماد مادام العدم هو مصيرنا ؟ . . .

الواقع أن السعادة الكاملة هى بنت الإيمان . فطوبى لكل مؤمن ، فهو وحده الذى يحمل وهو حى حياته الأخرى ، شخصيته المبعوثة ، وطنه السماوى . فيشعر بالسعادة مهما تعذب ، لأنه وهو فى منفى الأرض يتذوق فى طمأنينة ومنذ اللحظة طعم الأبد .

## قدر مرصود

من الملاحظ فى طبيعة الإنسان أنه لا يستطيع أن يسعد لو عاش وحيداً ، ولا يستطيع أن يسعد تماماً لو عاش مع الآخرين . أفلا يكون القدر المرصود له أنه لن يجد السعادة الكاملة إلا إذا اتصل بالأبد وعاش مع الله ؟. . .

## المؤمن الصادق

إذا بحث الإنسان فهو إنما يبحث عن نفسه ، وإذا أحب الإنسان فهو إنما يحب أيضا نفسه . ولكن المؤمن الصادق لا يطيل التحديق فى نهر الأرض إلى صورة نفسه كـ « نرسيس » بل يتطلع دائماً إلى أعلى ، حيث تلمع صورته الأبدية الكاملة فى ينبوعها الإلهى.

## نحو الله

كل حب يعلو على حب الجسد هو طريق نحو الله .

## الله والوجود

المؤمن الصادق هو الذى يعتقد أن الله وحدة ، وأن الوجود كله من الله وفيه تتمثل الوحدة . إذ الإيمان الحق هو تلهف ظامئٍ على الاندماج فى هذه الوحدة من طرق ثلاث : تمجيد الله فى خليقته المادية ، والارتفاع إليه بحياة روحية نقية ، وحبه فى حب جميع مخلوقاته التى هى قبس منه .

## قيمة الدين

لا قيمة للدين بدون ضمير . والضمير هو الصدق فى المعاملة ، والبر بالفقير ، والرحمة بالناس رحمة تقهر الأنانية وتبعث المحبة . المحبة هى الله . وأنت إن تعلقت بشعائر الدين وأهملت المحبة ، كنت كمن يعبد الصنم من دون الله .

## بين العلم والدين

حاول بعض العلماء منذ القرن التاسع عشر أن يستندوا إلى العلوم الطبيعية الحديثة ، وأن يجعلوا دين الحضارة الجديد هو العلم التجريبى ، وأن يتخذوا من هذا العلم وسيلة للقضاء على الدين وفلسفة ما وراء الطبيعة .

ولكن الواقع أن الدين والفلسفة والعلم التجريبى ليست إلا ثلاث وسائل مختلفة لا غنى عنها لحل ثلاث مشاكل مختلفة توصلا لمعرفة حقائق الكون الشاملة .

فطرائق العلم تصلح مطبقة على الظواهر فقط . أما الشئون الروحية فهى

تفوق حدود البحث العلمى . والعلم مهما علل أو اكتشف فهو لا يمكن أن يرضى خوالج النفس الإنسانية وسائر ما يعتمل فيها من عواطف وما تنزع إليه من تطلعات وآمال .

إن العلم هو أداة للمعرفة ، وكذلك الإيمان أداة للمعرفة أيضاً ، أو هو أسلوب آخر يصلح لبحث حقائق أخرى واستكشافها لا يسع العلم إلا الإقرار بعجزه حيالها ما دامت الظواهر هى ميدانه ، وما دام مغلولا بالحواس البشرية ومحدوداً بها .

## بين العلم والفلسفة

لا يمكن الاستغناء بالعلم التجريبى عن الفلسفة . وإذا كان العلم التجريبى يعنى بما هو واقع ومنظور ، فالفلسفة تعنى بما لا يمكن إلا أن يظل مستغلقاً على العلم أى تعنى بمشكلات الخير والشر ، والجمال والقبح ، والظلم والعدل ، والنظام والحرية ، والتشكك والإيمان ، والحياة والموت .

فالفلسفة ، فى جانبها الغيبى ، هى محاولة لتفسير المجهول الغامض علينا . وفى جانبها الحى هى محاولة لتفسير منازعنا الروحية ، واتجاهاتنا الخلقية ، وغاياتنا من وجودنا .

فالعلم يبحث فى الأجزاء والتفاصيل ، والفلسفة تبحث فى معنى الكل وفى الغاية المرصودة للمجموع .

## كبرياء . . .

العلم المادى لا يخلق بل يكتشف فقط . ولأنه يكتشف ويحقق الإنجازات العظيمة ، يغالى بعض أصحاب الفكر التقدمى فى تقدير قيمته . فتأخذهم العزة بسلطانه ، وينادون بأن الإنسان قد حل بقوة العقل محل الله . وهكذا ينبهر الإنسان ويستكبر ، ويسلس قياده للعقل المادى

مسوقاً بالمصلحة والشهوات . فيجف قلبه ووجدانه ، وتموت فيه شيئاً فشيئاً تطلعاته الروحية العليا .

## بين العلم والأخلاق

أراد العلم المادى الحديث أن ينازع الدين فى ميدان العواطف والأخلاق ، وأن يحاول ابتداع أخلاق علمية محضة تستند إلى العقل المجرد لا إلى الشعور الدينى

ولقد كان علماء الاجتماع وعلى رأسهم « أميل دوركايم » يرون أن ما يكوّن الأخلاق هو التضامن البشرى وليس الشعور الدينى . وأن هذا التضامن البشرى هو الذى يدفع الأمة الواحدة إلى العمل لما فيه مصلحة الفرد والمجتمع .

بيد أننا لو تأملنا فكرة التضامن هذه لجاز لنا أن نقرر أنها نتيجة لغريزة الأخلاق فى الإنسان وليست أصلا لها . بل فى وسعنا أن نقول إن التضامن هو ظاهرة اجتماعية تنبع من تلك الغريزة الأخلاقية نفسها ، وأن التضامن لم يكن فى يوم من الأيام قاعدة أدبية إجبارية أو قانوناً خلقياً يتحتم العمل به على جميع أعضاء المجتمع الواحد . إذ التضامن — وإن كان حقيقة اجتماعية واقعة يسوقنا إليها المجتمع بحكم أنظمته وقوانينه وعاداته وقوة الرأى العام السائدة فيه — إلا أن حقيقة التضامن هذه ، لا تخضعنا تماماً لسلطانها بل نحن قد نتبرم بها وقد نكرهها وقد لا تلمس ضميرنا الباطنى على الإطلاق . والواقع أننا أحرار فى اتجاهنا معها أو ضدها . وهى مهما أوتيت من سلطة التشريع أو العرف فلن تتمكن من إجبارنا على التضحية بأنفسنا وإنكار مصلحتنا الخاصة فى سبيل المصلحة المشتركة العامة .

فآداب التضامن والغيرية ليست آداباً إجبارية على إطلاقها بل اختيارية ، وليست ضرورة من ضرورات المجتمع على إطلاقها أيضاً ،

بل هى ضرورة إنسانية فى جوهرها .غير أنه من المحال علينا أن نسلم بأنها ضرورة إنسانية إلا إذا سلمنا بأن هناك قوة معنوية نجهلها ، قوة رائدها الخير ، قائمة على معنى التعاون والغيرية لا تصدر عن المجتمع بل عن طبيعة عليا فى الإنسان الذى أنشأ ذلك المجتمع . فالإنسان هو كل شىء وهو الذى يحس فى أعماقه بتلك القوة العلوية المجهولة فيحاول أن يسبغ فضائلها على المجتمع .

فقولهم إن الضرورة الاجتماعية هى وحدها التى تخلق فضائل التعاون والغيرية ، خطأ محض . إذ المجتمع بمفهومه العقلى هو شىء تجريدى خارج عن الإنسان وقلما يسترعى الإنسان فيه غير المصلحة أو اللذة . فباسم أى شىء إذن يضحى الفرد بسعادته لأجل المجتمع . وما دام المجتمع يقدم له مجموعة منافع ولذائذ فلماذا يضحى بتلك المنافع واللذائذ فى سبيل خير المجتمع ؟ . . . إن سعادته لأهم بالطبع فى نظره من خير المجتمع ، وهو كثيراً ما يتبرم بنظم المجتمع ويتمرد عليها تحقيقاً لسعادته الخاصة فى غير ما تهيب أو تردد . ثم هو إذا أنكر ذاته وضحى من أجل المجتمع فمما لا ريب فيه أنه سيتألم ، وأن ألمه هذا لن يعود عليه فى الغالب بأى نفع مادى . فلماذا يرضى الإنسان إذن بالألم لمصلحة المجتمع . ما سر هذه القوة وما أصلها ؟ . . .

لابد لنا فى النهاية من الاعتراف بقوة عليا يحتمل بها الفرد ألم الحياة ويلجأ إليها فى تفسير كل ألم ويتجه نحوها فى طلب الغوث والعزاء كلما طالبه المجتمع بتضحية جديدة أو تعذب هو فى حياته الخاصة . وهذه القوة العليا التى تفرض الألم فرضاً علينا ، هى ولا ريب قاسية فى حكمها . ولكن قسوتها خصيبة وفى طيها نعمة . إذ هى سر قوتنا ، وهى التى تدفعنا إلى الجالدة والتفوق والثبات فى وجه قدرنا ، وهى هى التى شادت العائلة والوطن ومجهود الحضارات على ضرورة احتمال الألم ثم أنبتت فى الألم العميق زهرات الطيبة والتعاون والبذل والتضحية .

هذه القوة فى عرفنا هى محور الأخلاق البشرية ، عنها يصدر الشعور الدينى ، بل يكون نماء هذا الشعور فى نفس الفرد ، الشعور بأن النبل الروحى متأصل بجانب الشر فى طبيعة الإنسان ، يستمد وجوده من حياة علوية أبدية خالدة هى أصل الكمال كله بل المثال الأول والأخير الذى ما يفتأ يغرى البشرية بالتطلع إليه والاندماج فيه ما استطاع الإنسان أن ينفض عنه غرائزه الدنيا ويخلص من ربقة عقله الذى لا يمده بغير الحيرة ولا يغذيه بغير الشكوك .

## جوهر الإنسان

مهما قال بعض العلماء إن الروح تنبع من المادة ، فروح الإنسان هى جوهره . هى التى شكلت وما تزال تشكل المادة ، بل هى التى تفرض على المادة سلطانها ، وتتجه بحركة المادة صوب غايات ثلاث لامعنى لوجود البشرية بدونها . وهذه الغايات الثلاث هى : العلم والفن والدين .

## جذور الإيمان

لا أعمق فى النفس من جذور الإيمان . والرجل الذى كان منذ حداثته مؤمنا ثم ألحد ، يحس بالغربة والضياع ، بل يحس أنه قد انفصل عن ينبوع حياته . فإما أن يعاوده الحنين إلى مياه الينبوع فيرتد إلى ربه وهو ما يزال متشككاً ونصف مؤمن ، وإما أن يتعلق بغاية اجتماعية مثالية تحل فى نظره محل الدين ويعتقد أن فيها خلاصه وخلاص الناس . ولكنه وهو يتفانى فى الدعوة إلى هذه الغاية الأرضية ، يظل مع ذلك غير مطمئن إليها وضعيف الثقة فى صلاحها ونفعها الشامل ، فتتحرك فى نفسه فجأة جذور إيمانه القديم ، وتدفعه دفعاً إلى إدماج غايته الاجتماعية المادية فى فكرة الله .

وهذا ما وقع للفيلسوف الروسى « برديانيف » . فقد كان مؤمناً ثم ألحد . فأحس بالغربة والضياع . فاعتنق المذهب الاشتراكى على أنه السبيل الأوحد إلى الخلاص . ولكنه أدرك بعد تفكير وتأمل ، أن الاشتراكية ليست غير حل ضرورى لمشكلة الإنسان الاقتصادية فقط ، فطفق يدعو إلى اقتران الاشتراكية بدعوة روحية تستلهم جوهر الدين وتعترف فى الوقت نفسه بحق الفرد فى حرية الرأى والتفكير والاعتقاد . فكان هذا التحول من الفيلسوف هو الدليل على يقينه بأن سعادة الأرض التى كان ينشدها بعقله المتكبر لا يمكن أن تكتمل إلا إذا أشرق عليها نور من السماء .

والواقع أن الإنسان فى شخصيته الذاتية حر ، وفى مشاعره الوجدانية حر . وهو بإيمانه الدينى ينقع غلة روحه ، وبإيمانه الاجتماعى بمذهب يدعو إلى إقرار العدل بين الناس ، ينقع غلة عقله وضميره ، فيحقق بهذا المنزع المزدوج وحدته المعنوية والمادية كاملة .

## الدين والدنيا

الصينيون القدماء هم الذين ابتدعوا البوصلة والبارود والطباعة : ولكنهم لفرط إسرافهم فى التدين واستغراقهم فى الروحانيات ، أهملوا استغلال الكنوز فاستولت عليها أوربا وعرفت كيف تغير بها وجه العالم . وفى هذا ما يدل أبلغ الدلالة على تخاذل الفرد الشرقى القديم ، وإهماله الأخذ بأساليب الحياة الواقعة ، ترفعاً منه وضناً بروحانيته عن النزول إلى مستوى الحقائق العملية اليومية وفروضها . فاقرن التدين بدعوة الحياة ، ولا يشغلنك الدين عن الدنيا ، والروح عن المادة ، والتأمل الحالم عن الكفاح المتصل ، وإلا بسطت عليك الشعوب القوية سلطانها ، وسلبتك مناعم الدنيا ، وتركتك فى روحانيتك القريرة عبداً

ذليلا ، تعيش كالدرويش الذى يستمرئ القذارة والبلاهة والتشرد ثم يزعم بعد ذلك أنه يرضى الله .

## الواقع والغيب

كل شيء فى حياتنا يسبح فى عالم الغيبيات . فنحن نقول : « دى قسمة . . . دا وعد . . . دا مكتوب . . . » وبدل أن نبحث فى علة هذه القسمة ولماذا قسمت لنا ، وعلة هذا الوعد ولماذا نزل بنا ، وعلة هذا المكتوب وكيف يمكن أن يكون قد كتب علينا ، نحيل هذا كله إلى الغيب ، ونتوهم أنه من جوهر الدين ، كى نطمئن ونستريح وننام ملء جفوننا دون دهشة أو حيرة أو قلق .

## بطولة المؤمن

أعرف رجلا مؤمناً أشد الإيمان ، ولكنه كسول أشد الكسل ، ينفر من الجهود مهما كانت مجزية ، ويهوى الزهد إلى حد الرضا بالبؤس ، ويشدو بالتواكل والقدرية كأنهما من جوهر العبادة ، ويقضى الحياة فى التأمل الأجوف والاستسلام لما يحسبه مشيئة الله . ولكن الله إرادة ، إرادة ماثلة فى الطبيعة وفى حركتها الدائمة وتجددها الأبدى . ذلك هو قانونها . فسنة الله هى الخلق الدائم ، أو هى إرادة الخلق والإنتاج الدائم . ولقد أبدع الله الإنسان كى يجعل منه بطلا شبيهاً به فى حب الحياة ، وخليقاً مثله بإنماء ومضاعفة قوى الحياة . فكل إنسان يزعم أنه مؤمن ثم يأخذ بقدرية محتومة ، يفر من حمل إرادة البطولة التى فرضها الله عليه . فيتجرد من إيمانه ، وينكر خالقه ، ويستعدى على نفسه قانون الطبيعة الأول والأخير .

## لا جمود فى ديننا

ليس الإسلام دين جمود . ولا يمكن أن تكون تلك القدرية المستخذية التى يتوهمها فيه بعض المستشرقين هى لبه وحقيقته الممثلة لرسالته الخالدة . إن فيه لأقوى العناصر الحافزة على التطور . ولو انه كان خلواً من هذه العناصر ما تطور فى الماضى وأنشأ حضارة زاهرة تفوقت واستعلت وغالبت الزمن .

ولكن الجامدين منا الذين لا يتعمقون حقائق دينهم ؛ ويأبون النظر إلى ما فيه من تلك الحوافز المجددة ؛ هم الذين يحولون دون اطراد تألقه وازدهاره ؛ ويؤخرون بجمودهم تقدم أمتهم ورقيها .

فالعبرة كل العبرة فى أن نتعمق حقيقة الإسلام لنكشف عن حوافز التطور الكامنة فيه ، وأن نعمل جاهدين على المواءمة بينها وبين مقتضيات التطور العالمى بحيث نطلق للعقل العنان ولا نعوق حرية الفكر فى البحث والكشف والإبداع . فنساير ركب الحضارة على فهم لها ووعى بمشاكلها وتطلعاتها .

بهذا لا نعارض جوهر الدين بل نؤكده ، ونؤكد فى الوقت نفسه قدرتنا على التجدد والارتقاء ؛ وقدرتنا أيضاً على القيام بدورنا الحضارى المنشود .

## تعصب ممقوت

أنا لا أخشى الفرد المتدين إذا لمست فيه ميلا واضحاً إلى السماحة والتبسط والتساهل . أما التعصب الممقوت فقد يؤدى لا إلى الترمت فحسب ، بل إلى القسوة وربما إلى الإجرام .

ولقد كان معظم الكهنة فى محاكم التفتيش فى اسبانيا من أشد الناس تديناً ولكنهم كانوا متعصبين . فأفسد هذا التعصب المرضى ميولهم

وأهواءهم ، وختم على عقولهم وقلوبهم ، فاستحلوا اقتراف كل محرم فى سبيل نصرة دينهم ، وكانوا قتلة سفاحين يلغون فى الدم البرىء كما تلغ الوحوش الضارية :

## عفة المؤمن

لادين بدون عفة تصون الروح وتربأ بها عن كل انغماس فى شهوات الجسد . فإذا شئت التمرس بفضيلة العفة صوناً لدينك وإيمانك ونفسك ، فلا تدع فكرك يستسلم لمغريات حواسك ، ولا تدع خيالك يمعن فى تصور مشتهياتك فيضاعف من سحرها وهو يتصورها . ارتفع بالفكر والخيال إلى كل ما هو معنوى ونبيل . ثم تجنب ما استطعت الإفراط فى الطعام . فالشراهة قد تصبح رذيلة فتلهب الدم وتدفع إلى التهافت على شهوة الجنس . ثم اذكر بعد ذلك قصة « عولس » المشهورة . فقد ورد فى الأساطير الإغريقية أن الساحرة الجميلة « سيرسيه » أرادت إغواء « عولس » . ولكنه لم يكن قد تناول من الطعام إلا ما أراد أن يمسك به رمقه . فعجزت الساحرة عن إغوائه . فتحولت إلى أصحابه الذين ملأوا بطونهم بالطعام والشراب . فسحرتهم وأغوتهم وأحالتهم آخر الأمر إلى قطيع من الخنازير .

## روحانية الجسد

الجسد نفسه يكره قاذورات الجسد . وإذن فى الجسد نفسه لهفة تصبو إلى شيء أنظف وأكمل من قوانين الجسد .

## الصوفى تجاه الله

يزعم البعض أن حب الصوفى لله ما هو إلا حب جنسي مكبوت ومنحرف ، أو هو نوع من التسامى بالغريزة الجنسية وليس حباً روحياً

خالصاً . ولكنى أقول إن هناك حبًّا روحيًّا خالصاً حتى فى علاقة الرجل بالمرأة . ونحن كثيراً ما نشعر عندما نحب امرأة حبًّا قويًّا عميقاً أننا نقدسها بروحنا ولا نستطيع أن نشتهيها بجسدنا ، وإننا لا نكاد نبصرها أمامنا عارية ورهن إشارتنا حتى يصاب الجنس فينا بالشلل . وإذن فنحن نفقد الإحساس بالشهوة حتى فى الحب البشرى ، فكيف لانفقد هذا الإحساس فى حب الله . ومعنى ذلك أن الروح فينا قد تنفصل فى الحب عن الجسد ، وقد تحب الله أو المرأة دون أن تندفع إلى هذا الحب بأى مؤثر وضيع من الجسد .

## الصوفية المثلى

فى رأيى أن الصوفى الحق مهما استشعر أنه بشتى ضروب الرياضة الروحية وفرط الوجد قد اتصل بالله ، ففرحته بهذا الاتصال العلوى لا يمكن أن تكون فرحة كاملة إلا إذا نزل بها من السماء إلى الأرض ، ومثلها فى مسلكه اليومى ، أى فى أعمال دنيوية صالحة تصدر عنه وتهدف إلى خير الناس .

## روح الله

الصوفية العليا هى أن تنقل روحك إلى خارج نفسك ، كى تستقبل فى نفسك روح الله محبوبك ، فلا تصبح أنت نفسك بل يصبح الله محبوبك هو الساكن فيك .

## وحدة أرواحنا

ألا يمكن أن تكون روحنا قد تألفت من أرواح عديدة عاشت قبلنا . وإلا فما معنى اضطراب طبيعتنا وترجحنا بين شتى المتناقضات ، وشعورنا فى أحيان كثيرة بأننا عشنا فى ماض بعيد وغريب ، وإحساسنا

بأننا نوجس من إنسان لغير ما سبب وننجذب إلى آخر كأننا قد عرفناه مئات السنين ، وكأنه هو أيضاً يعرفنا ولا يتمنى أكثر من أن يعود و يندمج فينا .

ألا يمكن أن تكون هذه المشاعر هي الدليل على وحدة كونية أبدعها وأرادها الله ، وحدة ليس أدل عليها من ذلك الرباط السرى العجيب الذى يربط بيننا وبين أرواح الأعزاء من موتانا ، أولئك الموتى الذين هم فى الواقع أحياء ، بل الذين هم فى حياتهم المبعوثة فى وجداننا أبلغ وأعمق تأثيراً علينا من أعز وأقرب الأحياء ؟ . . .

## أمام الموت

ما أشد كبرنا واستخفافنا حيال الموت . نحن ننظر إلى الموت كمشهد غريب عنا ، وإلى الميت كمخلوق غريب عن جنسنا ، وإلى أنفسنا كأننا من جنس أعلى وأصلب وأذكى من أن تقوى عليه تلك اليد المجهولة القاهرة .

ومع ذلك فنحن فى جانب خفى من سريرتنا ، نرتعد فرقاً ونعرف أننا سنموت وإن كنا نغالط ونكابر ولا نصدق أننا سنموت . ولكن إنكارنا الساذج العنيد لاحتمال موتنا ، مقروناً بكبرنا واستخفافنا حيال موت الآخرين . هذا الإنكار هو فى الواقع سرقوتنا . إذ نحن كلما أنكرنا بالرغم منا فناءنا المحتوم ، ألهب الإنكار فينا إرادة البقاء ، وأمدنا بالقوة على مغالبة الحياة . ولكن هذه القوة لن تنجدنا فى ساعاتنا الأخيرة إلا إذا كنا قد ارتفعنا بها ، وطهرناها من شوائب الأنانية جهدنا ، وبذلناها فى خدمة الغير ، وأدينا نحوهم واجبنا راضين مختارين مبتهجين ، عندئذ لا يعود الموت غريباً عنا ، وشيئاً لا يتعلق بنا ، وقضاء نفزع منه ونستهوله ، بل يصبح وهو مقبل علينا أخاً شقيقاً لنا ، يسكب الراحة على ضمائرنا ، والبركة على أعمالنا ، والبلسم الشافى على كل جرح

من جراحاتنا ، كي يمضي بنا في النهاية حيث الطريق إلى المدينة العظمى ، المدينة المنورة ، مدينة الله الخالدة - التي كانت هي منذ البدء قبلة أحلامنا ، ومهبط شراعنا ، وغاية سفرنا المرهق الرائع الطويل .

« تم الكتاب »

## فهرس





تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٣٢٠ /١٩٧٤
مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٤

